(١)

كتاب فيض الأسرار واقتباس الأنوار

من معاني منظومة سيدنا الإمام الشيخ
عمر بن عبد الرحمٰن البار في ذكر مناقبه ومناقب
جده القطب الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن

ومن فيها من الأبرار كالمقدم
والسقاف والعيدروس
والعطاس والحداد
والمحضار

تأليف الشيخ الإمام عبد الله بن أحمد باسودان الدوعني
المقدادي الشافعي نفع الله به آمين

وصلىٰ الله علىٰ خير خلقه، وسراج أفقه سيدنا محمد
وعلىٰ آله وصحبه والتابعين وسلم تسليماً كثيراً

ربِّ يسر وأعن يا كريم، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الحمد لله على دوام فضله المدرار، وسوابغ نعمه التي جلت عن الإحصاء والإحصار، حمداً نامياً متزايداً بالإضعاف والإكثار، متواتراً متوالياً بالعشي والإبكار، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، الواحد القهار، الحليم الغفار، العالم بخفيات الأسرار، الذي ألبس صفوته خلعة ذكره بجميع الأطوار، وأهّلهم بذلك لتنزّل واردات الأنوار، وكشف عن قلوبهم صدأ غين الأغبار، وصفى سرائرهم من حجب كثافات رين الادّكار، وطَهَّر أرواحهم من دنس المخالفات باستمرار الشهود لمطالع الجلال والجمال في الإعلان والإسرار، ونوّر بصائرهم لتنظر العالم العلوي والسفلي بعين الاعتبار والادّكار، وشرح صدورهم للإسلام، وبما جاء به رسوله ﷺ من الإعذار والإنذار، وبفضله وإحسانه رفع أقدار سالكي طريق الآخرة، وأعلى منارهم بما أولاهم به من العطايا المتواترة، وشرفهم به من المزايا الجامعة للأسرار الباهرة، وخصهم به من العلوم الباطنة والظاهرة، حتى صاروا أعلاماً يهتدى بآثارهم في اقتفاء السُّنَّة الطاهرة، وسرجاً يستضاء بأنوارهم في لجة معانيها الزاخرة، وأئمةً يقتدى بأفعالهم، وينتفع بأقوالهم الموفقون من العبيد والأحرار، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفىٰ المختار، الفائضة عليهم تلك المقامات والأحوال من عباب بحره التيار، القائم بين يدي مولاه في جميع الأحوال واللحظات بمحض العبودية بحقيق الاضطرار، والافتقار والانكسار، الواقف على أعتاب نجواه بشهود التقصير، ووجود التشمير، بلا فتور ولا إقتار الدالُّ عليه قوله: «لا أحصي ثناءً عليك أَنت كما أثنيت على نفسك» الشاهد له ومنه بكمال الاعتراف والاعتذار، والصلاة والسلام متضاعفين بلا حصر ولا مقدار، على سيدنا محمد هذا الإمام المخصوص بالخلق العظيم، وبجميع أنواع التشريف والتكريم، واستحقاق التصدر

والتقديم معدن الأسرار والأنوار، وعلى آله الاطهار، وصحبه الأخيار، المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان في كل وقت وأوان، الراقين إلى أعلى مراتب العرفان، المقربين منهم والأبرار، صلاةً وسلاماً دائمين من يومنا هذا إلى يوم العرض على الجبار، ما سار سالك على الطريق، مهتدياً بنور التوفيق، بلا وقوف ولا تعويق، ولا إلقاءٍ لعصا التسيار متصفاً بسير أهل الصدق والتحقيق، بلا شطح ولا تخريق، حتى ارتقى إلى سماء المعارف الغميق المنير، بشموس الحقائق والرقائق والدقائق والأقمار، فصار بالانتظام في سلكهم حقيق وبربات الحجال من معانيهم خليق، ولهم فيما خصوا به من المواهب رفيق، في هذه الدار وتلك الدار

وبعد: فهذه توشيحات جوهرية، وترشيحات نظرية، وترصيفات فكرية، وتطريفات ذهبية، وتسريحات اقتباسية أرسلتها سوانح الأفكار، مزجتها بالنفثات السرية، والإلقاءات الإلهامية الأمرية، والرشفات العَذْبِيَّة، والكلمات الرَوْعيَّة، ذات المعاني الرائقة لذوي البصائر والأنوار الجامعة لبراعة استهلال الصَّفَاء، والقيام بحق الوفاء، والتنويه بشأن أئمة الاجتباء والاهتداء والاصطفاء. أولي المراتب والمناصب والمناقب والأخطار، وهي مما برز من جواهر البحر المتلاطم بأمواج العلوم، المتفاقم بدرر المعاني والفهوم، المتراكم بجواري أعلام الأعمال وتحقيقات الرسوم بسيدنا وشيخنا وبركتنا العالم الرباني بالأخبار والآثار، الذي سيم في أسواق الفضل، وعرض على رغبات أولي الانصاف والعدل، وأسفرت طلعته البهية فأشرقت على صحة صفحات عالم الوعر والسهل، فإذا هو الدرة اليتيمة الناشئة عن صدفة جوهر النبي المختار، السيد الشريف عين الأعيان، ونادرة الزمان، الشيخ العارف بالله تعالى عمر بن عبد الرحمٰن ابن القطب الجامع الشيخ الإمام الحبيب عمر بن عبدالرحمٰن البار، الحسيني العلوي الطهري المصطفوي المُتصل بذات الجناب النبوي، المتناسق شرف نسبه الحسي والمعنوي، وراثة عن السادات المشايخ الكبار، وهذه الرشحة المشار إليها، والملحة المستدل بها وعليها، هي التي جعلها منظومة سنده العالي، وسلسلة طريقه الوسطى التي ينحوها التالي، ويرجع إليها الغالي، المسماة بـ: (الروضة الأنيقة في نظم أسماء أهل الطريقة)، الجامعة بالصريح والإشارة، لكبير من معانيهم الرقيقة، وما سلكه فيها

من ذلك المنوال العزيز المضمار، وكنت لما عرفت أني تخلفت تطفلت وتشرفت بما أضفته إليها وألحقته بها وألقيته عليها، متبركاً بذكر ما مزجته من ألفاظي الملفقة بدرره المنمقة استيضاءً بنور كلامه الشارق في السابق واللاحق، لأني لا أستضيء إلا بنوره، ولا أخوض إلا في مياه بحوره، ولا أكرع إلا من مشاربه العذبة، ولا أقدح إلا من زناد فضائله التي تحط على فنائها ركاب الرغبة، لطلب الاستفادة والاستبصار، وهذه المنظومة جامعة لذكر طرائق أرباب الدعوة من السادة العلوية الصفوة وغيرهم من أهل الكمال والفتوة، والجود والسخاء والإيثار، متعرضاً بذلك لقصد الفاتحة من قارئها، ومتسبباً لطلب الدعاء من منتهجي هذه الطرائق وسالكيها لأرباب النقاء والمفاتحة المذكورين فيها أولي الأحوال والمقامات الرفيعة والأقدار، ولغيرهم من مشايخ الطريق، ممن اتصل بهم من كل فريق، أئمة الفتح والمواهب والسُّلوك والتحقيق، والتؤدة والسكينة والوقار، ولما كانت هذه المنظومة متعلقة عن أنهار الفيض الكامل جامعة لما ذكره قدس الله روحه ولما ذكرته من المقاصد والوسائل، التي هي من المهمات عند أولي المعارف والفضائل، لبنائها ما على بيان شأن التعاضد والتعاون والاستنصار، قصدت خدمتها بشرح يوضح لي ما ظهر لي من معانيها، ويفتح ما انغلق من ألفاظ مبانيها، ويشتمل على ذكر ما تيسر من مناقب وتراجم منشئها والأئمة المذكورين فيها، استجلاباً لتشكل صور ذواتهم، ومعاني صفاتهم، للتذكر والاعتبار، واقتفاء تلك الآثار، وعملاً بما قيل من هذا القبيل:

فلئــن لــم أرَ الــديـار بطـرفـي   فلعلــي أرَ الـــديـــار بسمعـــي

واعتناءً لما أمّله فيما قاله وفعله، رجاء لأهل المدد الخاص، واللحوق بأهل الخصوصية والاختصاص، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه بتمام الإقبال وكمال الإخلاص، فمن أحب قوماً وتشبه بهم فهو منهم، بحكم التبعية في جميع الأوطار والأطوار، وقد اعتنىٰ جماعات من سادتنا وأئمتنا العلويين وغيرهم بنظم سند الخرقة الشريفة، ورابطتها المنيفة، لما لها من عظيم التأثير، إذ حكمها حكم الإكسير، يقلب نحاس البشرية ذهباً، ويورث المتقاعد عن سيرهم انتعاشاً وطرباً،

فقد روي عن أستاذ الأكابر، وقطب الدوائر، الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه فيما حكاه عنه الشيخ علي بن الهيتي قال: لقد فتح على سبعين رجلاً لبسوا الخرقة عنه في عشية اليوم الذي لبسوا فيه فتحاً عظيماً، وأعطوا عطاءً جزيلاً ببركة وضع يده على رؤوسهم، وقال الشيخ أبو العباس المرسي نفع الله به ورضي عنه: ما سار الأولياء من قاف إلى قاف إلا ليلقوا أمثالنا فإذا وجدوا واحداً منهم كان ذلك بغيتهم، وهو الذي قال فيه شيخه: إنه ليأتيه البدوي الذي يبول على ساقيه فما يأتي عليه المساء إلا وقد أوصله إلى الله تعالى، وقال الإمام السهروردي نفع الله به في عوارفه: إن نظر العلماء الراسخين والرجال البالغين ترياق نافع، لينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستشف بنفوذ بصيرته حسن استعداد الصادق واستئهاله لمواهب الله تعالى الخاصة، فيقع في قلبه محبة الصادق المريد وينظر إليه نظر محبة عن بصيرةٍ وهم من جنود الله عز وجل فيكسبون بنظرهم أحوالاً سنية، ويهبون آثاراً مرضية، وماذا ينكر المنكر من قدرة الله تعالى أن الله سبحانه وتعالى كما جعل في بعض الأفاعي أنه إذا نظر إلى الإنسان يهلكه بنظره بأن يجعل بعض نظره في خواصه أنه إذا ظهر إلى طالب صادق يكسبه حالاً وحياةً وقد كان شيخنا رحمة الله عليه يطوف في مسجد الخيف بمنىٰ ويتصفح وجوه الناس فقيل له في ذلك فقال: إن لله عباداً إذا نظروا إلى الشخص أكسبوه سعادةً فأنا أتطلب ذلك انتهىٰ كلام السهروردي. فممّن نظم هذا الإسناد الرفيع، وسهل بالنظم الإرتقاء إلى معرفة جنابه المنيع، مما وقفت عليه أو بلغني ذلك عنه، سيدنا شيخ بن عبد الله بن شيخ بن القطب الشيخ عبد الله العيدروس علوي، نظم سند نسبه الحسي والمعنوي، ثم شرحه وسماه: (العقد النبوي في مناقب أهل البيت المصطفوي) والسلسلة العيدروسية لسيدنا شيخ بن عبد الله العيدروس أيضاً، وكذلك سيدنا الشيخ عبد الرحمٰن بن علي بن عمر بن حسين بن الشيخ علي علوي وهو الذي قرض عليه سيدنا قطب الوجود الشيخ عبد الله بن علوي الحداد علوي ـ نفع الله به ـ.

بقوله:

أحسنت يا وجيه دين الله … يا ابن الكرام الغر أهل الله

في نظمك الإسناد للإلباس … من أولياء الله رب الناس

إلى آخرها، ومنهم سيدنا الإمام الشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الله بلفقيه، وسيدنا الشيخ الإمام أحمد بن زين الحبشي علوي، وسيدنا الشيخ الإمام علي بن حسن العطاس علوي، وغير هؤلاء من الأئمة الأعلام، السادة الأمجاد الكرام، ومن مشايخ سيدنا وشيخنا صاحب المنظومة: الفقيه الإمام القاضي أحمد بن محمد قاطن اليمني، فإنه نظم إسناد طريقته النقشبندية، وأبان طرق رواياتها المرضية، وسيدنا الشيخ العارف بالله تعالى شيخ بن محمد الجفري علوي، فإن له في الإسناد منظومتين، وأفرد كل واحدة منهما بشرح، أحدهما مختص بسند الطريقة الحدادية العلوية، والثاني في سند الطريقة العيدروسية القادرية، كما سيأتي بيان ذلك في ترجمته، فقصدت بهذا الشرح ما قصد هؤلاء الأخيار الأئمة الأبرار، من إتمام الفائدة، رجاء تحصيل ما أملوه من نفع العائدة، وإن كنت قصير الباع عن حسن مقاصدهم، وعلوِّ مقاماتهم، ورفعة مشاهدهم حقيقاً بقول القائل من الأوائل:

أيها المدعي ولاء سُلَيْمٍ ... لست منهم ولاقلامة ظفر

إنما أنت في سليم كواوٍ ... ألحقت في الهجاء ظلماً بعمرو

ولكن إذا حقق الله لي تخليص ما أشرت إليه من المقاصد، وصح لي التمسك بحبهم في الأفعال والأقوال والعقائد، أرجو أن يصح لي التشبه والالتحاق، والتبعية لأولئك الرفاق،واعلم أن ليس لي في هذا الشرح إلا مجرد النقل عن أهل الفضل، وما وجدته منقولاً بغير عزو إلى كتاب، وهو من مقالات المشايخ الأحباب، فهو من المراعاة للاختصار، وتأسياً بكثير من الجهابذة النظار، والأكثر من النقل منسوب فيه إلى أهله، مضافاً إلى أصله، ومالم أعزه إلى أحد أصلاً فمقتبس من عباراتهم، بحكم التعلق لا دعوى التحقق، قولاً وفعلاً، ومن عثر بنور الفراسة من الإخوان على ماهو شأن الإنسان، المبتلى بالرعونة ودسائس النفس والهوى والشيطان، فليدع لي المطّلع على الغيب بالتوبة الصادقة من التمويهات والريب، فالدعاء مستجاب بظهر الغيب وسميت هذا الشرح: (فيض الأسرار واقتباس الأنوار، من معاني منظومة سيدنا الإمام الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن البار،

وفي ذكر مناقبه ومناقب جده القطب الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن ومن فيها من الأبرار، كالمقدم والسقاف والعيدروس والعطاس والحداد والمحضار)، ولقبته بـ:(كشف الحقيقة، عن معاني الروضة الأنيقة في أسماء أهل الطريقة، وابتدىء بشرح الخطبة مع بيان ما يحتاجُ الإيضاح من ألفاظها، ومعانيها ثم بترجمة شيخنا وسيدنا الناظم، ثم بعده بالمذكورين فيها على نسقها الموضوع، وسندها المرفوع، وقد أستطرد تراجم كثيرين بوجهٍ ظهر لي عند توجه صعودي، كالشيخ الكبير سعيد ابن عيسى العمودي، في خاتمة ترجمة سيدنا الفقيه فليلمح هناك ما ذكرته كل نبيه وليقس عليه نظيره فيه وبالله أعتصم من الغواية وأسأله التوفيق والهداية، لسلوك طريق الدراية والولاية، مصحوباً باللطف والحماية، والحفظ والرعاية، والأمان والوقاية، وأن يجعلنا من عباده المخلصين، الراقين إلى أعلى مقامات اليقين، إنه قريب مجيب، لا إلٰه إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب. قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله سره:

قـال الفقيـر المـرتجـي للعفـو والكون من أهل المقام العلوي

عمـر أسيـر الكسـب لـلأوزار البـار راجـي رحمـة الغفـار

هذان البيتان اشتملا على معاني، تتفرع من سر ما أداه تركيب ما نظمناه من المباني، فيحتاج حينئذ في شرحهما إلى بسط المعنى من هذا المبنى، كما قال بعض مشايخ سيدنا الحبيب عمر المذكور، وهو الشيخ حسين بن عبدالشكور شعراً:

بسـط المعـانـي فيـه للمعتنـي كفـايـة يـا ليتـه يكتفـي

فـالسـر معنـى اللفـظ لا ذاتـه والسر عن ذي السر لا يكتفي

فاجهد على المعنى ولا تشغل إلا بـه فـي كـل مَـا مَـوْقِـفِ

المعنى الأول الذي جعل فيه سيدنا الناظم قابلية التأسيس والتعريف ولمح فيه بالتصريح والتعريض إلى اسم شريف، ومعنى لطيف، وهو مقام الفقر الخاص عند الخواص، الذي هو الفناء بالله، والذهاب في ذات الله بمحو آثار الدعوى، وانعدام وجود الأهوى، وعدم شهود السوى في السر والنجوى، بتخصيص العبودية وما يلازمها من العجز الذاتي، المنطبع في الحيلة الأصلية، الشاهد له قوله تعالىٰ في

القرآن المجيد ﴿ ۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [العنبكوت: ٦]، والافتقار إلى الله تعالىٰ والغنى بالله متلازمان، قال الكتاني: إذا صح الافتقار إلى الله تعالىٰ صح الغنى بالله لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر. وقال الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله في شرح أسماء الله الحسنى: إن الله تعالىٰ يغني عباده بعضهم على بعض على الحقيقة لأن الحوائج لا تكون إلا إلى الله، فمن أشار إلى الله تعالىٰ ثم رجع عند حوائجه إلى غير الله تعالىٰ ابتلاه الله تعالىٰ بالحاجة إلى الخلق، ثم ينزع الرحمة من قلوبهم، ومن شهد محل افتقاره إلى الله تعالىٰ فرجع إليه بحسن العرفان أغناه من حيث لا يحتسب وأعطاه من حيث لا يطلب. انتهىٰ، ولله در القائل شعراً:

لـذ بـافتقـارك بـالغنـي المطلـق وارحـل إليـه بفقـرك المتحقـق
فهو الذي إن شاء يؤتي ملكه مــن شــاءه بتــذلــل وتحقــق

ومن أوصاف الفقير الصادق ما ذكره النهرجوري نفع الله به قال: ومن علامة من تولاه الله تعالى في أحواله، أن يشهد التقصير في إخلاصه، والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهداته، وقلة المراعاة في فقره، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية، ويزداد فقراً إلى الله تعالى في قصده وسيره، ويفنى عن كل ما دونه. انتهى، وهذا المعنى الذي لمحه الشريف محمد بن حسن فأورده في كتابه مجمع الأحباب، بعبارة أبسط من عبارة النهرجوري قال رضي الله عنه في أثناء بحث وسياق، في ذكر مقامات العارفين، وما خصهم الله به من درجات اليقين: ومنها أنهم في حال إتيانهم بالعبادة، يعلمون أن قيامهم وإتيانهم بها إنما كان بالله عز وجل بحسب ما وفقهم وأعطاهم، فإن العباد ليس لهم أعمال في الحقيقة، إذ الأفعال لله تعالى خلقاً، وللعبد كسباً، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ ولو عاش العبد عمر الدنيا وقام على جفون عينيه في عبادة الله عز وجل لما قضى ما يجب عليه ولكان في التقصير منغمساً، ومنها ما اقتضاه الكرم العظيم والفضل العميم وهو سر

غامض لطيف ومعنى شريف ينبغي أن تلمحه ببصيرتك وهو: أنهم يعلمون أن الله عز وجل بلطفه وكرمه أنعم على عباده بعد الإيمان الذي هو أعظم النعم بأن شرع لهم أنواع العبادات وأهلهم لفعلها، ولولا ذلك لكان قدر العبد أقل وأحقر من أن يقف بين يدي الله عز وجل ويناجيه، فكل ذلك من أجل النعم وأكبر البشارات ثم بعد أن شرع لهم ذلك وفق من شاء لفعلها، والتوفيق عزيز ولعزته لم يرد في القرآن العظيم إلا في موضع واحد قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ ثم حببها إليهم وأقدرهم على فعلها، ولولا إقداره وعطاؤه عز وجل لما قدر عبد أن يتحرك بذرة، وقد قال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ ومن قبله: كيف يعجب العاقل بعمله وإنما عمله عطية من الله عز وجل ونعمة منه على العبد يجب عليه الشكر فيها ولا يقدر أن يقوم به أبداً لأن التوفيق للشكر نعمة يجب لها شكر وهكذا أبداً ويؤدي إلى مالا يتناهى.

فسبحان من نعمه لا تحد ولا تحصى، وقد قال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ وقد سئل: بم تنال معرفته عز وجل؟ فقال: بطاعته، فقيل له: وبم تنال طاعته؟ فقال: به سبحانه وتعالىٰ، وقال أبو عثمان الجبري رحمه الله: الذكر الكبير أن تذكر الله تعالىٰ في سرك وتعلم يقيناً أنك لا تصل إلى ذكره، ولا إلى شيء من الطاعات إلا به تعالىٰ، وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: خصصت رجالاً وأكرمتهم، فأطاعوك فيما أمرتهم، ولم يبلغوا ذلك إلا بك، فكان رحمتك إياهم قبل طاعتهم لك، جل جلالك ما أعلى سلطانك. انتهىٰ، مع حذف بعض النقل من اثنائه، فهذه العبارات مرشدة إلىٰ تعريف العبد بحقيقته، وإلزامه الدوام مع عبوديته، بأنه فقير بنفسه غني بربه، وأنه إذا تجلى عليه تعالىٰ بمظهر الجمال، سربله بخصوصيات ملابس الكمال، كما قال ابن عطاء الله قدس الله روحه: إذا أراد أن يظهر فضله عليك، خلق العمل ونسبه إليك.

وقد ورد في فضل الفقر والتقلل من الدنيا والزهد فيها آيات وأخبار وآثار، أي في الفقر المحمود الآتي بيانه، وهو الفقر مما زاد على الكفاف والحاجة مع الرضىٰ والصبر وعدم التضجر وعدم التبرم، وقد قيل إن فقر العلماء اختيار وفقر العامة

اضطرار، فمن الآيات قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: ٤٦]، والآيات في ذلك كثيرة، وأما الأخبار فقد قال ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وقال ﷺ: «لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصُّبَّر هم جلساء الله يوم القيامة» رواه الإمام القشيري في رسالته بسنده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي الصحيحين عن أسامة ابن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون غير أن أهل النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء» وفي الصحيحين أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مر رجل على النبي ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا»؟ فقال: رجل من أشراف الناس هذا والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا»؟ فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»، وعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين» فقالوا: أجل يا رسول الله، فقال: «أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» رواه البخاري ومسلم، قال الإمام

ابن علان رحمه الله في شرح هذا الحديث: قدم المفعول اهتماماً بنفي خشية الفقر عليهم، عكس الآباء مع أولادهم، فإن الوالد الشفيق يخشى على ولده الضيعة بعده، والنبي ﷺ لهم مثل الوالد، ولم يخش عليهم الفقر، قال الطيبي نفع الله به: لأن الأب الدنيوي يخشى على ولده الفقر الدنيوي، والأب الديني يخشى على ولده الفقر الديني، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدنيا والدرهم، والقطيفة والخميصة، إن أُعْطِي رضي، وإن لم يُعطَ لم يرضَ رواه البخاري، وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: «لقد رأيت سبعين من أهل الصُّفة، ما منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهة أن تبدو عورته» رواه البخاري، والأحاديث في ذلك كثيرة غير محصورة، وقد نقل منها الإمام النووي رضي الله عنه ونفع به قدراً صالحاً في رياض الصالحين لا سيما في باب الزهد في الدنيا والتقليل منها، وفضل الفقر في باب الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكول، وأحاديث في أبواب متفرقة، منها ما ورد بالقول والترغيب في ذلك خصوصاً وعموماً، ومنها ما ورد من فعله ﷺ وحالة ما كان عليه من كمال الزهد، والتقلل من الدنيا والرفض لها بالكلية، ومن ذلك ما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يتلوى ما يجد دقلاً يملأ به بطنه» رواه مسلم، الدقل بفتح الدال المهملة والقاف الردىء من التمر اليابس، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي رسول الله ﷺ، وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي فأكلت منه حتى طال عليَّ فكلته ففني» وعن عمرو بن الحارث أخي جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها قال: «ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة» رواه البخاري، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض» متفق عليه، إلى غير ذلك من الأحاديث، وأما الآثار فقد قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً فقال: (ليكن بلغة أحدكم

مثل زاد الراكب)، وقال الشافعي رضي الله عنه: الإكثار في الدنيا إعسار والإعسار فيها إيسار، وقال حمدون القصار رحمه الله: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء: رجل مؤمن قتل مؤمناً ورجل يموت على الكفر وقلب فيه خوف الفقر، وقال الشيخ أبو عبدالله القرشي: إذا صح للفقير الفقر فهو الاسم الأعظم، وقال أيضاً: من فوائد الفقر وثمراته وجود ألم الجوع والعري والتألم بهما والزيادة منهما والمنافسة فيهما، ويروى أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أتاه رجل بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها وقال: تريد أن تمحي اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم، وعنه أيضاً قال: طلب أبناء الدنيا الراحة في الدنيا فأخطأوا فلو علموا أن الملك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيف، وعن ذي النون المصري رضي الله عنه قال: الزهاد ملوك الآخرة وهم فقراء العارفين، وعن أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه أنه جاءه إنسان بخمسمائة درهم، فوضعها بين يديه وقال: تفرقها على هؤلاء الجماعة، فقال: ألك غيرها؟ قال: نعم لي دنانير كثيرة، قال: أتريد غير ما تملك؟ قال: نعم، قال الجنيد: خذها فإنك أحوج إليها منا، ولم يقبلها، وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه سئل عن استعاذة النبي ﷺ من الفقر وقد أخبر بما فيه من الثواب، فقال: إنما معناه فقر القلب لا فقر اليد كما أن الغنى غنى القلب لا غنى اليد، ولما أورد الإمام اليافعي رحمه الله في روضه قوله ﷺ: (اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين)، قال: وناهيك بهذا الشرف للمساكين، ولو قال ﷺ: واحشر المساكين في زمرتي، لكفاهم شرفاً، فكيف وقد قال: واحشرني في زمرة المساكين، وأنشد فيه وقال: قيل إنه لعلي كرم الله وجهه:

دليلك أن الفقر خير من الغنى ... وأن قليل المال خير من المثري
لقاؤك عبداً قد عصى الله بالغنى ... ولم تلق عبداً قد عصى الله بالفقر

وأنشد له:

لئن كان للأموال فخر على الغنى ... فللفقر فخر بالثريا معلق
وإن أنفق المثري ألوفاً عديدة ... فدرهم أهل الفقر يا صاح يسبق

وقال أبو القاسم الجنيد رحمه الله: الفقراء صفوة الله من عباده، ومواضع أسراره من خلقه، بهم يصون الخلق، وببركاتهم ينزل الرزق. انتهىٰ.

وقد حقق سيدنا الإمام الحجة الغزالي رحمه الله في كتاب الفقر، من بيان حقيقته واختلاف أساميه وأنواعه وفضله، وحالات الفقراء وآدابهم، وفضيلة الفقر على الغنى، وبيان الاختلاف في الغنى والفقر أيهما أفضل؟ وغير ذلك مما وقع فيه مقنع للناظر فيه، بحيث لا يحتاج إلى غيره، وإلى تنوع أحوال الفقراء واختلاف مقاماتهم أشار ابن بنت الميلق الشاذلي:

وللفقير وجوه ليس يحصرها ... عَدٌّ وكل وجود فهو حاويه

وقد أجاد الشيخ الكبير، قطب الغرب المنير، أبو مْدَين شعيب رضي الله عنه في قصيدته الشهيرة، حيث جمع فيها من أوصافهم، وحث على كمال الأدب معهم، قال رضي الله عنه:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء ... هم السَّلاطين والسَّادات والأمراء

فاصحبهم وتأدب في مجالسهم ... وخلِّ حظك مما خلفوك وراء

وهؤلاء الفقراء الذين حث على صحبتهم، هم الذين مر بعض أوصافهم، وهم خواص القوم الصوفية، الذين بلغوا أقصى الأمنية، وسارعوا إلى العمل بمقتضى العلم واليقين والإخلاص، ونالوا من مراتب الذوق والكشف والعيان، والتحقيق ومحض الفضل من الله والاختصاص، ولعزتهم وندرة وجودهم واستتارهم تحت جلابيب الخمول قال رضي الله عنه:

واعلم بأن طريق القوم دارسة ... وحال من يدعيها اليوم كيف ترى

متىٰ أراهم وأنى لي برؤيتهم ... أو تسمع الأذن مني عنهم خبرا

من لي وأنى لمثلى أن يزاحمهم ... على موارد لم آلف بها كدرا

فانظر إلى إنصافه واتصافه بما حدث عليه من كمال الأدب معهم، وتواضعه عند ذكرهم، مع أنه من أكابر شيوخهم، وممن تفرعت عنه طرائقهم، وانتمى إليه طوائف كثيرون من أهل الطريق، كما سيأتي بيان ذلك في ذكر لبس الخرقة

والتحكيم، وفي ترجمته قال الإمام ابن علان رحمه الله في شرحه على هذه القصيدة في الكلام على هذه الأبيات: فانظر يا أخي إلى الشيخ أبي مدين ورفعته في الطريق، كما قيل إنه وصل من تحت تربيته اثنا عشر ألف مريد، وانظر إلى هذا التنزل منه والتدلي بأغصان شجرة معرفته، إلى أرض الخضوع والانكسار، حتى أنه لم ير نفسه أهلاً للاجتماع بأهل الطريق، ولا يزيده هذا الانخفاض إلا ارتفاعاً، كما أن الشجرة لا يزيد انخفاضها في عُرُوقها إلا ارتفاعاً في رأسها، فتواضع أيها الأخ في الطريق، وخذ هذا الأصل العظيم، من هذا العارف المتمكن، يزل عنك كل تعويق. انتهىٰ كلام ابن علان، فالتواضع والانكسار بين يدي الجبار القهار، من نتائج التحقق بالافتقار، واختلف العلماء في الغنى والفقر، والغني الشاكر والفقير الصَّابر، أيهما أفضل؟ قال الحجة الغزالي رحمه الله: اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيد والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر، وقال ابن عطاء: الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر، ويقال: إن الجنيد دَعَا على ابن عطاء لمخالفته إياه في ذلك فأصابته محنة، وقال في المشرع الروي في مناقب السادة آل بني علوي: واختلف العلماء في الفقر والغنى أيهما أفضل؟ والذي ذهب إليه جمهور الصوفية أن الفقر أفضل لما ورد فيه من الفضائل، لأن المدار على تهذيب النفس ورياضتها، وذلك مع الفقر أفضل منه مع الغنى، قال المحققون: هذا في غير الأنبياء والأولياء لعصمتهم أو حفظهم من محبة المال لغير الله، وقد كان أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول في معنى قوله تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾: أي الله يعلم أن الكمل لا تضرهم كثرة الدنيا، قالوا: وما رد ﷺ جبال الذهب حين عرضها الله عليه إلا تشريعاً لأمته، خوفاً عليهم أن لا يبلغوا مقام العارفين فيهلكوا، فكان رده من باب الاحتياط، خوفاً أن يقتدوا به ظاهراً في الأخذ، ولا يقدروا يتبعونه في الإنفاق، ثم لا يخفى أن من شرط الفقير: أن لا يكون له اختيار مع الله تعالىٰ، ولا يختار غير ما اختاره له مولاه. انتهىٰ، فقد تقرر لك أيُّها الأخ من هذه النصوص، معنى الفقر وصفة الفقير، ما تعلم به أنه أعز من الكبريت الأحمر والإكسير، ولا تظن أنه خلو اليد عن المال بغير التحلي بشيء من هذه الخصال، فإن ذلك من الجهل المحض، قال

سيدنا الإمام العارف بالله تعالىٰ حامد بن عمر حامد باعلوي نفع الله به: قد يتوهم من خليت يده عن المتاع، ومن لم يملك شيئاً من العقار والضياع من الناس، أنه بذلك من الذين ورد لهم الوعد الكريم، والثواب العظيم، من الله ورسوله حتى يظهر منه ما يدل على ذلك، كقوله: أنا لا أغبط فلاناً بماله، ولا فلاناً بجاهه، وأنا أروح من فلان، وأنا قانع وفلان طامع، وأنا ساكن وفلان غير ساكن، وبئس فلان، وبئس مال فلان، وأمثال هذا من الكلام، وظاهر حاله وباطنه يدل على خلاف ذلك، كالاستشراف إلى المخلوقين، والطمع فيهم والدناءة لهم، وشكاية القلة وإظهار العيلة عند أهل الدنيا بالتذلل والتضعف، والبكاء لكي يرحموه، والهلع والجزع، والاشتغال والاهتمام بالرزق ليلاً ونهاراً، ولا سَبَبَ لهذا الوهم الفاسد إلا قلة العلم وقوة الجهل وشدة الحمق والغفلة، حيث استحسن حالةً تعوذ رسول الله ﷺ منها وقرنها بالكفر فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»، وقال: «كاد الفقر أن يكون كفراً» من حيث إنه يورث السخط وعدم الرضا عن الله تعالىٰ، ويدخل صاحبه مداخل الهلكة إلا من وفقه الله وحفظه، ولم يدرِ المسكين أن الفقر ليس ممدوحاً لذاته، وإنما مُدِحَ من حيث إن فيه السلامة من خطر المال وشواغله، والفراغ لعبادة الله تعالىٰ والانقطاع إليه سبحانه، ولهذا لم يرد مدح الفقراء والفقر مطلقاً في الغالب بل مقيداً، ثم أورد نفع الله به جملة من الأحاديث والآيات الدالة على ما قرره، وقال بعده: فالقناعة والتعفف والرضا برثاثة الهيئة وضنك المعيشة، والتفرغ لعبادة الله تعالىٰ، وعدم السؤال والتطلع إلى فضول الدنيا، هي التي يكون بها الفقير من المقربين السابقين، ليس خلو اليد فقط، بل قد يكون خلو اليد سبب المقت والطرد كما سبق، فافهم. انتهىٰ كلامه نفع الله به، وهو في غاية من الحسن والتنبيه على كثير من أحكام الفقر المحمود والفقر المذموم، فتأمل جميع ما أوردناه، فإنك إذا تحققت بالمعرفة والعمل في مقام الفقر بهذه الحقائق، وتحققت معنى هذه الدقائق، كان لك من نفسك القائد والسائق، وكنت أنت السابق واللاحق، فإنك إذا انكشف لك حقيقة الفقر الذاتي، وعجزك الصفاتي، تبرأت من السبب، ووقفت على بابه بلا سبب، وقوف اللاجىء

المستجير، قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾، فإنك إذا قلت ذلك مع ثقتك به وأنسك، أنقذك من مهالك نفسك، وأغناك عن أبناء جنسك، ورزقك من حيث لا تحتسب، وأتاك معروفه وأنت غير شاك ولا مضطرب، حكى إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم بن أدهم قال: أمسينا مع إبراهيم ذات ليلة، وليس عندنا شيءٌ نفطر عليه، فرآني مغتماً فقال: يا إبراهيم بن بشار انظر ماذا أنعم الله تعالىٰ على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة؟ لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة، ولا عن حج، ولا عن صدقة، ولا عن صلة رحم، ولا عن مواساة، وإنما يسأل ويحاسب عن هؤلاء المساكين أغنياء في الدنيا فقراء في الآخرة، أعزةً في الدنيا أذلةً يوم القيامة، لا تغتم ولا تحزن فرزق الله مضمون سيأتيك، نحن والله الملوك الأغنياء، تعجلنا الراحة في الدنيا، لا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله عزوجل. انتهىٰ، والأقوال والحكايات في هذا المعنى كثيرة.

المعنى الثاني من معنى قول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه: (المرتجي للعفو) وذلك أن فيه تلميحاً وإشارة إلى طلب مقام فناء الفناء، فكأنه قال رضي الله عنه عند قوله: (قال الفقير) مستشعراً لمعنى حال الفقير المحض، وهو الفاقد للأحوال والمقامات، الحاصلة لهؤلاء القوم السَّادات، الذين ابتدأ في نظم إسنادهم، وتعرض لفيض إمدادهم، فخاف حينئذ من دسيسة النفس الأمارة، ورأى أن إتهامها حزم وحذارة، فالتفت إلى المعنى الذي تنبه له الكريم ابن الكريم، حيث حكى الله عنه في الذكر الحكيم: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فلما خاف أنه ربما يكون في انتسابها إلى الفقر، دعوى هذا المقام الذي فيه عند الصوفية غاية الفخر، أو رأى التقصير في عدم فنائه عن شهوده أنه الفقير، فقال: (المرتجي للعفو) وهو طلب محو الذنب وستره، بعفو الله تعالىٰ وغفره له، وهو مقام: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

المعنىٰ الثالث المبسوط من قوله قدس الله روحه: (والكون من أهل المقام العلوي) أي المرتجي للعفو والمرتجي للكون من أهل المقام العلوي، وذلك أن حسن ظنه بربه، ومعرفته بعظيم فضله، بعد شهوده من نفسه الفقر المطلق،

والعجز المحقق، ورؤية التقصير، في القليل والكثير، أثمر له الرجاء في مولاه الذي لا تُحصى عطاياه بأن يحصل له الكون من أهل المقام العلوي، والمراد بالكون: حصول الجذب، قال الشريف الجرجاني رحمه الله: الكون اسم لما حدث دفعة كانقلاب الهواء ماءً، فإن الصورة الهوائية كانت للماء بالقوة فخرجت منها إلى الفعل، فإذا كان على التدريج فهو الحركة. انتهىٰ، فكذلك الإنسان فيه قابلية ذلك كله بتأهيل الله له، فإن فاجأه بالجذب، ظهر له نور العقل واهتدى به إلى رؤية العلوم المحيطة بالمعلومات، وإن وفق للسلوك الذي هو في كلام الجرجاني الحركة، حصل له الوصول إلى المقام العلوي بالتدريج حالاً فحالاً ومقاماً فمقاماً على حسب القابلية والاستعداد والترقي، حتى يبلغ إلى أعلى المقامات، وأرفع الدرجات، وهو مقام الصديقية، وما بعده مقام إلاَّ مقام النبوة، وإلى هذا المعنى أشار الإمام السهروردي رضي الله عنه في عوارفه قال: وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: (سلوني عن طرق السماوات فإني أعرف بها من الأرض) إشارة إلى المقامات والأحوال، فطرق السماء التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات، فإن السالك لهذا الطريق يصير قلبه سماوياً، وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوي. انتهىٰ، فهذا أيضاً فيه إشارة إلى الترقي في درجات الدين، ومقامات اليقين، وقد سئل الأستاذ عبد الله بن علوي الحداد رضي الله عنه عن معنى الترقي الذي يذكرونه، وبأي شيء هو وما يبدأ به؟ فأجاب: هو الترقي في احكام الإسلام، وحقائق الإيمان واليقين، فيحكمها شيئاً فشيئاً، فيبدأ باحكام الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان. انتهىٰ، ففهم من كلامه رضي الله عنه مراعاة الترتيب بين هذه الثلاثة، وأنه لا يبدأ في تحصيل درجات الإيمان واحكامها، حتى يخلص من درجات الإسلام ثم الإحسان كذلك، على كيفية ما ورد في حديث جبريل عليه السلام، ولكل من هذه الثلاثة درجات كثيرة، بعضها يُستنبط من الدلائل الشرعية، وبعضها لا يُعرف إلا بنور البصيرة، وهذه الدرجات لا تنحصر، وما ينقل من تقسيمها وحصرها فهو بطريق التقريب كما قال الطيبي، قال الشيخ العارف أبو إسماعيل الأنصاري رحمه الله: الإحسان اسم جامع لجميع أبواب الحقائق، وهو على ثلاث درجات، الدرجة الأولى: الإحسان في القصد بتهذيبه

علماً وإبرامه عزماً وتصفيته حالاً، الدرجة الثانية: الإحسان في الأحوال وهو أن يراعيها غيرةً ويسترها تطرفاً ويصححها تحقيقاً، الدرجة الثالثة: الإحسان في الوقت وهو أن لا تزائل المشاهدة أبداً ولا تلحظ لهمتك أمداً وتجعل همتك إلى الحق سرمداً. انتهىٰ ما في هذا الموضع من حاشية الإمام الطيبي، وفي موضع آخر منها تقسيم الإسلام والإيمان إلى درجات كذلك، لكن ما ذكره هنا في درجات الإحسان هو مناط السر ومتعلق القلب، والظاهر تابع له، ولذا كان الإحسان أعلى قسيميه وقال في موضع آخر من كتابه المذكور: قال أهل التحقيق: العبادة لها ثلاث درجات، الدرجة الأولى: أن تعبد الله طمعاً في الثواب وهرباً من العقاب، وهذه الدرجة نازلة جداً، لأن معبوده في الحقيقة هو ذلك الثواب، وقد جعل عبادته وسيلة إلى نيل ذلك المطلوب، الثانية: أن تعبد الله لأجل تتشرّف بعبادته، أو تتشرف بقبول تكاليفه، أو تتشرف بالانتساب إليه، وهذه الدرجة أعلى من الأولى إلا أنها ليست بخالصة، لأن المقصود بالذات غير الله تعالىٰ، وهذا هو المسمى بالعبودية، والثالثة: أن تعبد الله تعالىٰ لكونه إلٰهاً وخالقاً، ولكونك عبداً له، والإلٰهية توجب الهيبة والعزة، والهيبة توجب الخضوع والذلة، وهذا أعلى المقامات وأشرف الدرجات، وهذا المستحق بأن يسمىٰ بالعبودة، وإليه الإشارة بقول المصلي في أول صلاته: أصلي لله، فلو قال أصلي لثواب الله أو للهرب من عقابه بطلت صلاته، فالعبادة للعوام من المؤمنين، والعبودية للخواص من الموقنين، والعبودة لخواص الخواص من المقربين، وقيل: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين. انتهىٰ، فالمقام العلوي هو هذا مقام التحقق بالعبودة التي هي أعلى مقامات المقربين، ومقام حق اليقين الذي هو ثالث الدرجات وأعلاها وأخصها، وقد فسروا علم اليقين وعينه وحقه بتفاسير، يذوقها أهل العلم الظاهر، ويفهمها الفهم في الخارج، وأما شُهودها حالاً وذوقها حكماً والتحقق بها علماً، فلا يُهتدى إليه إلا بنور البصيرة، قال الشريف الجرجاني رحمه الله في (تعريفات العلوم وتحقيقات الرسوم): حق اليقين عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً، لا علماً فقط، فعلم كل عاقل الموت علم اليقين، فإذا عاين الملائكة فهو عين

اليقين، فإذا عاين الموت فهو حق اليقين، وقيل: علم اليقين ظاهر الشريعة، وعين اليقين الإخلاص فيها، وحق اليقين المشاهدة. انتهىٰ، فتقرر أن الكون من أهل المقام العلوي قد يكون فجأة وهو عبارة عن الجذب، وقد يكون على التدريج وهو عبارة عن الأخذ في السلوك والترقي فيه، حتى يصل إلى ما ذكرناه ونقلناه، وسيأتي قريباً مزيد بيان للسلوك والجذب، عند قول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

ما سار سالك على الطريق إلى مقامات أولي التحقيق

المعنى الرابع من البيت الثاني قوله رضي الله عنه:

عمر أسير الكسب للأوزار البار راجي رحمة الغفار

أشار نفع الله به في الشطر الأول إلى اتهام النفس، ونسب إليها ما هو من شأنها، واعترف بمخالفتها وعصيانها، إذ هي مركبة من الشهوة، فلا تنقاد إلا بعد قتلها عنوة، قال الشيخ حسين بن عبد الشكور نفع الله به: الكسب للأوزار، نتيجة الشهوة والاستكبار، فهو بضاعة كل غافل عن الله، ناس لأخراه، لاهٍ بدنياه. انتهىٰ، وحاشاه رضي الله عنه عن كسب هذه البضاعة عمداً، ومن أن يشتري الضلالة بالهدىٰ، أو يميل إلى سبيل الردى، الذي هو بضاعة كسب الأوزار، وإنما شأن كل عارف أن لا يزال يقظاناً مراقباً خائفاً معترفاً، قال سيدنا الأستاذ عبد الله الحداد نفع الله به: لا يعد شيئاً من يعد نفسه شيئاً، وإنما الشيء من لا يعد نفسه شيئاً، ومن قال: أنا أهل وإن كان كذلك، قيل له: لست بأهل، ومن قال: لست أهلاً وإن كان كما قال، قيل له: أنت أهل. انتهىٰ، ولله دَرُّ بعضهم حيث يقول:

على قدر علم المرء يعظم خوفه ولا عالم إلا من الله خائف

فآمن مكر الله بالله جاهل وخائف مكر الله بالله عارف

وفي هذا الشطر إيماء وإشارة إلى مقام الخوف، وفي شطره الثاني وهو قوله رضي الله عنه: (البار راجي رحمة الغفار)، تلميح إلى مقام الرجاء، وهما مقامان من مقامات السالكين، والصوفية العارفين، وهما ـ كما قال في العوارف ـ ملازمان للسالك لا ينفكان عنه، لأنهما من ضرورة الإيمان، بخلاف القبض والبسط فإنهما

ليسا كذلك، قال في العوارف: الخوف ذكر والرجاء أنثى، حكي ذلك عن سهل بن عبد الله قال: أي منهما تتولد حقائق الإيمان. انتهىٰ.

فإذا كان كذلك فلا بد من بسط المعنى وتسهيله، بنقل شيء مما ورد في إجماله وتفصيله: اعلم أن الخوف تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، والرجاء توقع محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت الاختيار، قال حجة الإسلام الغزالي قدس الله روحه: كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب، فينقسم إلى موجود في الحال ويسمى وجداً وذوقاً وإدراكاً، وإنما يسمى وجداً لأنه حالة تجدها من نفسك، وإلى موجود فيما مضى ويسمى حضوره في بالك ذكراً وتذكراً، وإلى وجود شيء خطر ببالك في الاستقبال وغلب على قلبك ويسمى انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر مكروهاً حَصَلَ منه ألم في القلب يسمى خوفاً وإشفاقاً، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القرب، وارتياح يسمى ذلك الارتياح رجاء، فالرجاء هو: ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب،ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه، فاسم الرجاء صادق عليه، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أكثر أسبابه واضطرابها، فاسم الغرور والحمق أصدق عليه من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء، فاسم التمني أصدق على انتظاره، لأنه انتظار من غير سبب، وعلى كل حال فلا يطلق إسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، أما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع، وأخاف غروبها وقت الغروب. هذا معنى ما ذكره باختصار في حقيقة الخوف والرجاء، قال: وفوقهما مقام، وهو مقام من أنس بالله وملك الحق قلبه، وصار ابن وقته، مشاهداً لجمال الحق على الدوام، ولم يبق له التفات إلى المستقبل، فلم يكن له خوف ولا رجاء، بل صارت له حالة أعلى من الخوف والرجاء، فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال: الخوف حجاب بين العبد وبين الله تعالىٰ. وقال أيضاً إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقىٰ فيها فضلة لخوف ولا لرجاء. انتهىٰ،

واعلم أن الكلام على هذين المقامين، من حيث تفريع مسائلهما وتحقيق معاني دلائلهما يطول، وكتب الأئمة المصنفين الحديثية والرقائق الصوفية مستوعبة لذلك، لا سيما كتاب الخوف والرجاء من الإحياء، ودلائلهما من الكتاب والسُّنة كثيرة مشهورة، وكذلك أقوال الأئمة العلماء، والسادة الحكماء، ونتبرك بشيء من ذلك فمما يتعلق بالمقام الأول مقام الخوف، من الآيات: قال الله تعالىٰ: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات، وقال ﷺ: «إني أرى مالا ترون، أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع اصبع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالىٰ، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالىٰ». رواه الترمذي، وقال ﷺ: «رأس الحكمة مخافة الله تعالىٰ» إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة، وأما الآثار المروية عن الأئمة الأخيار فهي كثيرة، وكل مقالة تنبىء عن حال قائلها وغاية ما بلغه من هذا المقام، قال مسروق رحمه الله: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً. وقال الحسن البصري رحمه الله يخرج من النار رجل بعد ألف عام، ويا ليتني ذلك الرجل. قال الغزالي: وإنما قال ذلك لخوف الخلود بسوء الخاتمة أعاذنا الله تعالىٰ منها، وروي: أنه ما ضحك أربعين سنة، وإذا رؤي قاعداً رؤي كأنه أسير قد قدم ليضرب عنقه، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها، وإذا سكت كأن النار تُسعر بين عينيه، وقال بعضهم: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه، ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل، وكان قد غلب عليه الخوف حتى كان يشم من فمه رائحة الكبد المشوي، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي، وكان في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء، وكان يمر بالآية في ورده، فتخنقه العبرة فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد يحسبونه مريضاً، وكان يسمع حنينه من وراء ثلاثة صفوف، وكان يقول: ليتني كبش أهلي يسمنوني ما بدا لهم ثم ذبحوني

فأكلوني فأخرجوني عذرة، ولم أكن بشراً. ولما مرض كانت رأسه في حجر ابنه عبد الله فقال له: يا ولدي ضع رأسي على الأرض، فقال له عبد الله: وما عليك إن كان على فخذي أم على الأرض، فقال: ضعه على الأرض فوضع عبد الله رأسه على الأرض، فقال: ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا مر على المقبرة يبكي حتى يبل لحيته، وقال أويس القرني رحمه الله: لا ينال هذا الأمر حتى يكون الرجل كأنه قتل الخلق أجمعين، وكان ثابت البناني رحمه الله إذا ذكر النار خرجت أعضاؤه من مفاصلها، وكان العلا بن زياد رحمه الله يبكي حتى غشي بصره، وربما بكى سبعة أيام متوالية، وكان محمد بن واسع رحمه الله يقول: أدركنا الناس وهم ينامون مع نسائهم على وسادة واحدة، ويبكون حتى تبتل الوسادة من دموعهم عشرين سنة لا تشعر امرأته بذلك، وكان مالك بن دينار رحمه الله يقول: لولا أخشى أن يكون بدعة لأمرت إذا مِتُّ أن أُغَّل فَأُدفع إلى ربي مغلولاً كما يدفع العبد الآبق إلى مولاه، وكان عطاء السلمي رحمه الله من الخائفين، ولم يكن يسأل الله تعالىٰ الجنة أبداً، وإنما كان يسأل العفو، وقيل له في مرضه: ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعاً للشهوة، ويقال إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة، وإنه رفع رأسه يوماً فسقط وانفتق في بطنه فتق، وكان يمس جسده في الليل مخافة أن يكون قد مسخ، وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال: هذا من أجلي يصيبهم، لو مات عطاء لاستراح الناس.

وأما المقام الثاني وهو الرجاء، فما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار غير منحصر أيضاً، فمن الآيات: قوله تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورىٰ: ٥] الآية إلىٰ غير ذلك من الآيات، واختلف العلماء في أرجى آية من كتاب الله تعالىٰ، فذهب كثيرون إلى أنها: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ وقال بعضهم: أرجى آية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾، وقال: إنه ﷺ لا يرضىٰ بأحد من أمته

في النار، وفي تفسير الإمام الحارث المسمىٰ: (لباب التأويل) في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحىٰ: ٥]، قال: هي الشفاعة في أمته حتى يرضىٰ، أخرج مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى، فقال الله تعالىٰ: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسؤوك»، وأحاديث الشفاعة له ﷺ كلها من دلائل الرجاء، لا سيما حديث أنس بن مالك الطويل الذي رواه مسلم؛ وحديث الذي قَتَل تسعةً وتسعين نفساً الوارد في التوبة، ومن الأحاديث في حصول الرجاء ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان رجل مسرف على نفسه ـ وفي رواية: لم يعمل خيراً قط ـ فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فاحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذّبَهُ أحداً، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك ففعلت فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يا رب ـ أو قال: مخافتك ـ فغفر له ذلك»، وقال ﷺ: «يقول الله عز وجل: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ثم يقول عز وجل: وعزتي وجلالي لا أجعل من آمن بي في ساعة من ليل أو نهار كمن لا يؤمن بي»، وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بها مغفرة». أخرجه الترمذي، والأحاديث في ذلك كثيرة، وفي الترغيب في حسن الظن بالله تعالىٰ، وأنه عند حسن ظن عبده به، وأن رحمته وسعت كل شيء، وأنها سبقت غضبه، وأن له تعالىٰ مائة رحمة منها رحمة واحدة في الدنيا وسعت البر والفاجر، وجميع المخلوقات بها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وادخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة، ثم يضم هذه الرحمة الواحدة إليها ويختص بها المؤمنون فقط، وورد «أن لكل نبي دعوة مستجابة في أمته»، ودعوة النبي ﷺ اختباها لأمته يوم القيامة، وقال: «إنها نائلةٌ إن شاء الله من مات منهم لا يشرك بالله شيئاً»، وأما الآثار: فقد روي أن الله تعالىٰ أوحى إلى يعقوب عليه السلام: «أتدري

لم فرقت بينك وبين يوسف؟ لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣]، لم خفت الذئب ولم ترجني؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له؟» وقال علي كرم الله وجهه: من أذنب ذنباً فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يثني عقوبته في الآخرة، وقال الثوري رحمه الله: ما أحب أن أجعل حسابي إلى أبوي لأني أعلم أن الله تعالىٰ أرحم بي منهما إلى غير ذلك، وقيل: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: من يلي حساب الخلق؟ فقال: «الله»، فقال: هو بنفسه؟ قال: «نعم»، فتبسم الأعرابي فقال رسول الله ﷺ: «مم ضحكت يا أعرابي؟ فقال: إن الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح، قال شاه الكرماني: علامة الرجاء حسن الطاعة، وقال محمد بن المنكدر: إني لا أستحي[1] من الله عزوجل أن أعتقد أن رحمته تعجز عن أحد من المسلمين، ولو فعل ما فعل، وقال مجاهد بن جبير: يؤمر بالعبد إلى النار، فيقول: يا رب ما كان هذا ظني بك، وأنت أعلم، فيقول الله عز وجل ـ وهو أعلم ـ: «ما كان ظنك؟» فيقول: أن تغفر لي، فيقول تعالىٰ: «خلوا سبيله»، وقال ابن حيق رضي الله عنه: الرجاء ثلاثة، رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها، ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة، والثالث: الرجل الكاذب وصاحبه يتمادى في الذنوب، ويقول: أرجو المغفرة، ومن عرف نفسه بالإساءة، ينبغي أن يكون خوفه غالباً على رجائه، واعلم أن من غلب عليه ارتكاب المناهي، والتقصير عن فعل الطاعات، والميل إلى الشهوات، فينبغي أن يكون خوفه أغلب، ومن غلب عليه الخوف مع وجود الاستقامة بحيث يفضي به إلى الإياس والقنوط، فينبغي أن يكون رجاؤه أغلب، وإن لم يخف من وقوع الإياس والقنوط مع الاستقامة، فينبغي أن يعتدل خوفه ورجاؤه، قال القطب الشيخ عبد الله الحداد رضي الله عنه: اعلم أن الخوف زاجر يزجر الإنسان عن المعاصي والمخالفات، والرجاء قائد يقود العبد إلى الطاعات

---

(١) لا أستحي: أي لأستحي.

والموافقات، فمن لم يزجره خوفه عن معصية الله، ولم يقده رجاؤه إلى طاعة الله، كان خوفه ورجاؤه حديث نفس لا يعتد بهما، ولا يُعَوَّلُ عليهما، لخلوهما عن ثمرتهما المقصودة، وفائدتهما المطلوبة. انتهىٰ.

وقال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الفقيه كل من لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبة منه إلى غيره. وقال الطيبي رحمه الله في شرحه على مشكاة الحديث في الكلام على الحديث القدسي، الذي رواه الترمذي: «يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء» إلى آخره المار قريباً، قال مطرف: لا يجوز لأحد أن يغتر بهذا الحديث، ويقول: إذا كان كذلك فأكثر الخطية حتى يكثر الله مغفرتي، وإنما قال ذلك لئلا ييأس المذنبون من رحمته، ولا شك أن لله تعالىٰ مغفرة وعقوبة، ومغفرته أكثر، ولكن لا يعلم أحد أنه من المغفورين أو من المعاقبين، فإذاً ينبغي للمرء أن يكون بين الخوف والرجاء، وأقول: هذا الحديث عام خص بحسب الأحوال والأوقات، فإن جانب الخوف في ابتداء الأحوال ينبغي أن يكون راجحاً على الرجاء، وفي آخرها يكون مرجوحاً. انتهى.

وقال أبو علي الروزباري ـ رحمه الله ـ: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استوَيَا استوى الطير، واستمر في طيرانه، وقال مطرف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا، والخوف والرجاء للإيمان كالجناحين، ولا يكون خائفاً إلا وهو راج، ولا يكون راجياً إلا وهو خائف، لأن موجب الخوف الإيمان وبالإيمان رجاء، وموجب الرجاء الإيمان ومن الإيمان خوف. قال في العوارف: ولهذا المعنى روي عن لقمان أنه قال لابنه: خف الله تعالىٰ خوفاً لا تأمن فيه مكره، وارجه أشد من خوفك. قال: فكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد؟ قال: أما علمت أن المؤمن كذي قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر. وهذا لأنهما من حكم الإيمان.

رقيقة من الإحياء: قال يحيى بن كثير: بلغنا أن داود عليه السَّلام إذا أراد أن ينوح على نفسه، مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا

يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له إلى البرية منبر، فيأمر سليمان عليهما السَّلام أن ينادي بصوت يستقري البلاد وما حولها من الغياض والآكام، والجبال والبراري، والصوامع والبيع، فينادي فيها: ألا من أراد أن يسمع نوح داود عليه السَّلام على نفسه فليأت، قال: فتأتي الوحوش من البراري والآكام، وتأتي السِبَّاع من الغياض، وتأتي الهوام من الجبال، وتأتي الطيور من الأوكار، وتأتي العذارى من خدورهن، ويجتمع الناس لذلك، ويأتي داود حتى يرقى على المنبر، وتحيط به بنو إسرائيل، وكل صنف على حدته محيطون به، وسليمان عليه السَّلام قائم على رأسه، فيأخذ في الثناء على ربه، فيضجون بالبكاء والصراخ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فيموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس، ثم يأخذ في ذكر أهوال يوم القيامة والنياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة، فإذا رأى سليمان عليه السَّلام كثرة الموتى، قال: يا أبتاه، قد مزقت المستمعين كل ممزق، وماتت طوائف من بني إسرائيل، ومن الوحوش والهوام، فيأخذ في الدعاء فبينما هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل: يا داود، عجلت بطلب الجزاء على ربك، قال: فيخر داود عليه السَّلام مغشياً عليه، فإذا نظر سليمان عليه السَّلام إلى ما أصابه، أتى بسرير فحمله عليه، ثم أمر منادياً ينادي: ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأتِ بسرير يحمله، فإن الذين كانوا معه قتلهم ذكر الجنة والنار، فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها، وتقول: يا من قتله ذكر النار، يامن قتله خوف الله، ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه، ودخل بيت عبادته، وأغلق بابه، ثم يقول: يا إلٰه داود أغضبان أنت على داود؟ ولا يزال يناجي ربه، فيأتي سليمان فيقعد على الباب ويستأذن، ويدخل ومعه قرص شعير، فيقول: يا أبتاه تقوَّى بهذا على ما تريد، فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله، ثم يخرج إلى بني إسرائيل، فيكون بينهم. وقال يزيد الرقاشي ـ رحمه الله ـ: خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم، فخرج في أربعين ألفاً، فمات منهم ثلاثون ألفاً وما رجع إلا في عشرة آلاف، قال: وكان له جاريتان اتخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب، قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت، وقيل لفرقد البنحي: أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل؟ قال:

بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح، فذكرن ثواب الله تعالىٰ وعقابه، فمتن في يوم واحد.

المعنى الخامس منبسط من معنى هذين المقامين: الخوف والرجاء، وهو أنهما إذا تحقق بهما المريد السالك بل المقرب الواصل أثمرا له وجود كثير من الأحوال والمقامات، يدل لذلك كثير مما مرَّ من النقول المستجادات، ويؤيده أيضاً قول الحجة الغزالي قدس الله روحه: الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب الرحمٰن، وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء، ثقيل الأعباء، محفوفاً بمكاره القلوب، ومشاق الجوارح والأعضاء، إلا أزمة الرجاء، ولا يصد عن نار الجحيم، والعذاب المقيم، مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات، وعجائب اللذات، إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف. انتهىٰ.

ويؤيده ما يأتي عن حكم سيدنا الشيخ الحبيب عبد الله الحداد علوي نفع الله به في آخر هذه الفروع، ليتأيد بالنقل في بدئه وخاتمته، ويظهر المعنى الذي أردناه، والمقصود الذي قصدنا إيضاحه واعتمدناه، فإذا تقرر ذلك، واتضح لك المعنى المنطوي فيما هنالك، فالآن ننشره ببسطه، ونلحق فيما يتعلق به بشرطه، فأمَّا مقام الخوف فيتفرع منه أكثر أبواب السلوك ومقاماته، لأن مناطه: قمع الشهوات، وتكدير اللذات، وتأدب الجوارح، وخشوع القلب، ومفارقته لرذائل الأخلاق، والنظر في خطر العاقبة، ومؤاخذة النفس في جميع الحركات والسكنات، ومحاسبتها في الخطوات والكلمات، والمجاهدة والظِّنَّة والشح بالأوقات، ووجود التوبة واستمرارها على الدوام، ولزوم التقوى والورع والحزن والمراقبة، وغير ذلك من المقامات. ونبتدىء أولاً بما يتفرع منه، ثم نتبعه بما يتفرع من مقام الرجاء، فنقول: **الفرع الأول** من فروع مقام الخوف والرجاء، هو مقام مخالفة النفس وقمع شهواتها وكسر لذاتها، وتهذيب أخلاقها ورفع شقاقها، وذلك من لازم خوف الله تعالىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وعن جابر بن عبد الله رضي

الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»، وقال ابن عطاء رضي الله عنه: قال الجنيد: أرقت ليلةً، فقمت إلى وردي فلم أجد ما كنت أجد من الحلاوة، فأردتُ أن أنام فلم أقدر عليه، فقعدت فلم أطق القعود، ففتحت الباب وخرجت، فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق، فلما أحس بي رفع رأسه، فقال يا أبا القاسم إلى السَّاعة؟ فقلت: يا سيدي من غير موعد، فقال: بلى، سألت محرك القلوب أن يحرك لي قلبك، فقلت: قد فعل، قلت: فما حاجتك؟ فقال: متى يصير داء النفس دواءها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها، فأقبل على نفسه فقال: اسمعي فقد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات فأبيتِ إلا أن تسمعيه من الجنيد، فقد سمعت، فانصرف عني ولم أعرفه ولم أقف عليه رضي الله عنهم، وقال القرشي: الرضا عن النفس من قلة المعرفة، وقال الشيخ محمد بن عبد الله العيدورس علوي نفع الله به: الخُلص من الرجال حيث لا تبقى للعبد مع ربه إرادة، فهذا هو العبد حقيقة، فاعلم واحذر دواخل الهوى، فإنها حقيقة التعلق بالقلوب، وقد تكون في العابد وهو لا يحس بها، وقد تفسد عليه عمله وهو لا يدري، وكذا صاحب العلم إن لم يستيقظ لنفسه، وإلا غلب عليه هواه، فحبطه وأضله. وقال الشيخ الإمام محمد بن حسين الاسلافي اليمني ـ رحمه الله ـ في شرحه على أبيات الشيخ العارف بالله تعالىٰ أحمد بن حسن الموقدي نفع الله بهما، الآتي ذكرها في ترجمة الشيخ أحمد المذكور، إذ هو من مشايخ سيدنا الناظم قدس الله روحه، قال في ديوان الصَّبابة: قوله تعالىٰ: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، وقيل: أخلد إلى الأرض أي سكن إليها ونزل بطبعه عليها، وكانت نفسه أرضية سفلية لا سماوية علوية، وبحسب ما يخلد العبد إلى الأرض يهبط من السماء. قال سهل ـ رحمه الله ـ: قسم الله للأعضاء من الهوى لكل عضو منها حظ، فإذا مال عضو منها إلى الهوى رجع ضرره إلى القلب، وللنفس سبعة حجب سماوية، وسبعة حجب أرضية، فكلما دفن نفسه أرضاً أرضاً، سما قلبه سماءً سماءً، فإذا دفن النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش. انتهىٰ.

والحاصل أن الكلام في هذا المقام يطول، ويستقصي استقصاء ما ورد فيه من النقول لاحقةٌ بهذا الفرع، تتضمن على عين ما فيه من الجمع، وهو ذكر المجاهدة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» أي جهاد النفس، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالىٰ قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» الحديث، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو حننتم حنين الواله الثكلان، وجأرتم جأر مبتلى الرهبان، ثم خرجتم من أموالكم وأولادكم، في طلب القرب من الله تعالىٰ وابتغاء رضوانه، وارتفاع درجة عنده أو غفران سيئة، كان ذلك قليلاً فيما تطلبون. وكان سعيد بن المسيب رضي الله عنه يقول لنفسه إذا دخل الليل: قومي يا منتهى كل شر، والله لأدعنك تزحفين زحف البعير، فكان يصبح وقدماه متنفختان، فيقول لنفسه: بذا أمرت ولذا خلقت، وكان رضي الله عنه يقول: ما فاتني فريضة في جماعة أربعين سنة، وما أذن المؤذن ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد، وأصلي الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة، وسيأتي في هذا الشرح في تراجم الأئمة كثير من الحث على المجاهدة بالفعل والقول، ولما سئل الشيخ الكبير سعيد بن عيسى العمودي نفع الله به عن طريق الصوفية فقال: طريق محققين وطريق مقتصدين، فأما طريق المحققين فهجر الخلائق وقطع العلائق، والاجتهاد في خدمة الخالق، وأما طريق المقتصدين فالصيام والقيام، وترك الآثام.

ومما يعين على مخالفة النفس والمجاهدة أمور: **الأول**: الصبر قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، والآيات في الصبر والصابرين كثيرة، وقد بلغت في القرآن العزيز إلى نيف وتسعين موضعاً، وأضاف الله أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر، وقال ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»، وقال ﷺ: «من أقل ما أوتيتم اليقين، وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على مثل ما أنتم

عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي، فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم ﴾ الآية [النحل: ٩٦]». والأحاديث في ذلك كثيرة، وكتب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسىٰ الأشعري: عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران، أحدهما أفضل من الآخر، الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عن ما حرم الله تعالىٰ، واعلم أن الصبر ملاك الإيمان، وذلك بأن التقوى أفضل البر، والتقوى بالصبر، وقال علي كرم الله وجهه: بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل، وقال أيضاً: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له، وقال ذو النون المصري رضي الله عنه: الصبر التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البليات، وإظهار الغنى عند حلول الفقر بساحة المعيشة، وقال الشيخ محمد بن عبد الله العيدروس علوي قدس الله روحه: واعلم أن من لوازم العقل أنَّ العقلاء أصبر نفساً والجهال أصبر جسماً شعراً:

والصبر بالأرواح يعرف فضله ... صبر الملوك وليس بالأجسام

وقال الشيخ عبد الله بن علوي الحداد قدس الله سره: ويحتاج المؤمن إلى الصبر حاجة شديدة عند فعل الطاعات، بأن لا يكسل عنها، وبأن يؤديها كما أمره الله، وفي كفه نفسه من المعاصي والمحرمات، وفي الصبر عن الشهوات المباحات، فإن الانهماك في ذلك والاسترسال معه، يجر إلى الشبهات والمحرمات، ويكثر الرغبة في الدنيا ويهيج الحرص عليها، ويحمل على الإيثار للدنيا والأنس بها، وعلى نسيان الآخرة والغفلة عنها. انتهىٰ ملخصاً، وما أحسن ما عبر به بعض مشايخ اليمن عن معنى الصبر، فقال: هو ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى، وقيل: هو الخروج عن حظوظ النفس بالمجاهدة، والثبات على فطامها من مأموراتها ومحبوباتها لتركيبها وخمود شهواتها، والاستقامة على الصراط المستقيم بالطاعة، لتصفية القلب وتحلية الروح. انتهىٰ.

الثاني من الأمور المعينة على مخالفة النفس والمجاهدة: العزلة والخلوة قال بعض المشايخ العارفين: العزلة: هي الخروج عن مخالطة الخلق، إلا عن خدمة شيخ مرب واصل، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شغف الجبال، ومواقع القطر والعشب، يفر بدينه من الفتن» رواه مسلم، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: نعم صومعة الرجل المسلم بيته، يكف لسانه وبطنه وفرجه وبصره، وقال مالك ابن دينار رحمه الله: لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، والتهجد بالقرآن، وبيت خالي يذكر الله تعالىٰ فيه، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله: ومن آداب العزلة: أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده، لئلا يستهويه الشيطان بوساوسه، ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدي به فرضه، ليكون بناء أمره على أساس محكم، وقال سيدي الإمام حامد بن عمر حامد علوي قدس الله روحه: دع العامة وعليك بخويصة نفسك هكذا أمرنا أن نكون آخر الزمان.

الثالث صحبة شيخ مرب واصل، قال بعض الأكابر: لا بد للمريد من شيخ كامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، إلى حد التكميل فيها، يعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بدوائها وقدرته على شفائها، ولذلك قال بعضهم: يشترط في الشيخ أن يكون عنده دين الأنبياء، وسياسة الملوك، وطب الأطباء، يدله على الطريق إلى الله تعالىٰ. انتهى

وقد ذكر الأئمة صفة هذا الشيخ، وكيفية الأدب معه، والتلقي عنه، والأخذ عليه، والمثول بين يديه، كالحجة الغزالي في الإحياء، والإمام القشيري في الرسالة، والإمام السهروردي في العوارف، وسيدنا القطب الشيخ عبد الله الحداد في كتبه، لا سيما في رسالة المريد، قال في آخرها بعد أن ذكر الأدب مع الشيخ: فإذا لم يجد المريد شيخاً فعليه بملازمة الجد والاجتهاد، مع كمال الصدق في الالتجاء إلى الله تعالىٰ والافتقار إليه، في أن يقيض له من يرشده، فسوف يجيبه من يجيب المضطر ويسوق إليه من يأخذ بيديه من عباده، وقد يحسب بعض المريدين أنه لا شيخ له، فتراه يطلب الشيخ، وله شيخ لم يره يربيه بنظره، ويراعيه بعين عنايته، وهو لا يشعر، وعند التناصف ما ذهب إلا الصدق، وإلا فالمشايخ

المحققون موجودون، ولكن سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه، وقد نظم المعنى هذا رضي الله عنه في تائيته فقال:

ولا بـد مـن شيـخ تسيـر بسيـره   إلى الله من أهل النفوس الزكية

مـن العلمـاء العـارفيـن بـربهـم   فإن لم تجد فالصدق خير مطية

وقوله نفع الله به: وقد يحسب بعض المريدين أنه لا شيخ له.. إلى آخره، قد وقع لكثير منهم أنه يربيه بنظره، وهو لا يعرفه ولا يشعر بتربيته، ومن العجب من أحوالهم ما حكي أن الشيخ أبا العباس المرسي رضي الله عنه عمل عصيدة في أيام الصيف، فقيل له: إن العصيدة لا تكون إلا في أيام الشتاء، فقال: هذه عصيدة أخيكم ياقوت، ولد ببلاد الحبشة وسوف يأتيكم، فأتى بعد ذلك في السبي، وصار من أكابر الرجال، وهو الشيخ ياقوت العرشي، قال الإمام الشعراوي قدس الله روحه: وإنما سمي ياقوت العرشي لأن قلبه كان لم يزل تحت العرش، وما في الأرض إلا جسده، وقيل: إنه كان يسمع آذان حملة العرش. انتهىٰ

قال الإمام القشيري رضي الله عنه: يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له استاذ لم يفلح أبداً، هذا أبو يزيد يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان، وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الشجرة إذا أنبتت بنفسها من غير غارس، فإنها تورق ولكنها لا تثمر، كذلك المريد، إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته، تعساً فتعساً فهو عابد هواه، لا يجد له نفاداً منه. انتهىٰ.

وصحبة الأخ الصَّادق في الطريق للمريد يحصل له بها المزيد من كل حال ومقام حميد، وهو في معنى صحبة الشيخ من حيثية التعاضد والتناصر ونحو الاستفادة بالعلم، كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: لا يتم للعالم سلوك طريق القوم، إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح، وإلى ذلك أشار سيدنا عبد الله بن علوي الحداد علوي نفع الله به بقوله مشيراً في أوله إلى صحبة الأخ العارف الصَّادق بعد اختباره، وإلى عزة وجود إخوان الصدق في هذا الزمان، فقال:

فـإيـاك أن تختـار صحبـة مـن تـرى   له ظاهراً يعجبك من قبل أن تبلي

لقد عز في هذا الزمان موافق ... يعينك في مجد وينهاك عن سفل
إذا قلت خيراً قال لبيك مسرعاً ... وإن قلت شراً قال أقليك أو تقل
فما عيش من يمسي ويصبح فاقداً ... أخا ثقة مأمون في الجد والهزل
يؤازره في كل أمر يرومه ... ويحفظه في النفس والمال والأهل
مظاهرة الإخوان أمر مقرر ... عليه يدور الشأن فاستوص بالخل

فانظر إلى ما في هذا البيت الأخير، وافهم ما فيه من أنَّ إخوان الطريق له فيها بهم أعظم ظهير، ولكنهم خواص قليل أعزة لا يعثر عليهم إلا منور البصيرة، وقد ذكر ابن عباد رحمه الله في شرح الحكم عند قول ابن عطاء الله رضي الله عنهما: لا تصحب من لم ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله طرفاً من صفات القوم الصوفية الذين تفيد صحبتهم المريد، ثم قال في آخرها: وفي صحبة أمثال هؤلاء يحصل للمريد من المزيد، مالا يحصل له بغيرها من فنون المجاهدات، وأنواع المكابدات، حتى يبلغ بذلك إلى أمر لا يسعه عقل عاقل، ولا يحيط به علم ناقل. وهذا كلامه يومىء إلى صحبة المشيخة، وإلى صحبة الموافقة في الطريق، لأن الصَّاحب فيها بمعنى الشيخ غير أن الشيخ قد فرغ من تأديب نفسه، فيكون نظره أكمل، وتربيته أرفع، لأن الأخ قد تكون تربيته بالعلم غالباً، وأما المشايخ العارفون المتحققون بمقام المشيخة، فتربيتهم إنما هي بالنظر الذي هو إكسير عند كل خبير، قال الشيخ أبو العباس المرسي قدس الله سره: ماذا أصنع بالكيمياء؟ والله لقد صحبت أقواماً يمر أحدهم على الشجرة اليابسة فيشير إليها فتثمر رماناً للوقت، فمن صحب هؤلاء الرجال فماذا يصنع بالكيمياء، وقال الشيخ إسماعيل الجبرتي: نظرة الشيخ لمريده خير من عبادة ألف سنة، وقد حصل لكثير من الأكابر الجذب الكامل، بسبب نظرة من عارف واصل، رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم.

الرابع: مما يعين على مخالفة النفس: ملازمة الجوع وترك الشهوة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءت فاطمة رضي الله عنها بكسرة خبز لرسول الله ﷺ، فقال: «ما هذه الكسرة يا فاطمة»؟ فقالت: قرصاً خبزته ولم تطب نفسي حتى

أتيتك بهذه الكسرة، فقال: «أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام»، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يجمع بين إدامين على طعام واحد، وكان سهل ابن عبد الله ـ رحمه الله ـ لا يأكل الطعام إلا في كل خمسة عشر يوماً، فإذا دخل رمضان لا يأكل حتى يرى الهلال، وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح، وقال الداراني رحمه الله: لأن أترك لقمة من عشايَ أحب إليَّ من أن أقوم الليل إلى آخره، وقال أيضاً: مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع، قال الشيخ عبد الله ابن علوي الحداد علوي نفع الله به: وأما التوسع في الشهوات والإكثار من الشبع، فذلك مكروه، وفيه آفات كثيرة، ومضرات عديدة، منها قسوة القلب وكسل الأعضاء عن الطاعة، وقلة نشاطها للعبادة، وقلة الفهم للتعلم والحكمة، وقلة الرحمة والشفقة على ضعفة المسلمين، وأهل الحاجة منهم، ويخشى من ذلك أهل الاتساع في أكل الشهوات وكثرة الشبع، الوقوع في اقتحام الشبهات، بل والمحرمات، قال حجة الإسلام رحمه الله: الشبع من الحلال أصل كل شر، فكيف من الحرام. انتهىٰ.

وقال الشيخ محمد بن عبد الله العيدروس علوي نفع الله به: الشهوات إنما تستولي على الأنفس الضعيفة، وتعتاص عنها الأنفس القوية، لأن ذا العقل الرصين، إذا رأى هذه اللذات إنما تحصل بشيء من ذهاب دينه أو مروءته أو ماله، وأن غنمها لا يفيء بغرمها، رغب عنها وربح الحُرية، وخلص من استعباد الشهوة له، وكفي مؤناً كثيرة كانت تلزمه في نيل تلك الشهوة، المحتقرة عند ذوي الحصافة. انتهىٰ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: مراكز الناس أربعة: مركز للشهوة في المخالفات، ومركز للشهوة في الطاعات، ومركز في الميل للراحات، ومركز في العجز عن أداء المفروضات ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ [التوبة: ٥]، والصوم من أعون الأشياء على التسبب في الجوع، وموقعه من الدين ظاهر.

الخامس: دوام السهر قال الله تعالىٰ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٢-٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال ﷺ: «أفضل الصَّلاة بعد المكتوبة

صلاة الليل»، وقال ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصَّالحين قبلكم، وَقُربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد»، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة، وقال في العوارف في قوله ﷺ: «من صلى بالليل حَسُنَ وجهه» معناه: أن وجوه أموره التي يتوجه إليها تحسن، وتتداركه المعونة من الله الكريم في تصاريفه، ويكون معاناً في مصدره ومورده، فتحسن وجهة مقاصده وأفعاله، وينتظم في سلك السَّداد مسددة أقواله، لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب. انتهىٰ. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: أهل الليل في ليلهم، أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم، ونقل عن علي بن بكار أنه قال: منذ أربعين سنة ما أحزنني إلا طلوع الفجر، وقال في العوارف أيضاً: قال بعضهم: ليس في الدنيا شيء يشبه نعيم أهل الجنة، إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة، فحلاوة المناجاة ثواب عاجل لأهل الليل، وقال بعضهم: إن الله يطلع على قلوب المستيقظين في الأسحار فيملأها نوراً، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير، ثم تنشر من قلوبهم إلى عوافي الخلق، وقد ورد: أن الله تعالىٰ أوحى في بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه: «إن لي عباداً يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عن ذلك مقتك، قال: يارب ما علامتهم؟ قال: يراعون الظلام بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إليّ أقدامهم، وافترشوا لي وجوههم، وناجوني وتملقوا لي بإنعامي، فبين صارخ وباكٍ، وبين متأوه وشاكٍ، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي، أول ما أعطيهم: أن أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثاني: لو كانت السموات السبع، والأرضون السبع، وما فيها في موازينهم استقللتها لهم، والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه». انتهىٰ.

وقال سيدي الشيخ عبد الله بن علوي الحداد باعلوي نفع الله به: وقد ورد في بعض الآثار: أن من يكثر النوم بالليل يأتي فقيراً يوم القيامة، وورد: أن ركعتان في

جوف الليل كنز من كنوز البر، وقال عليه الصَّلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل فإن استطعت أن تكون مصلياً لله في ذلك الوقت فكن»، وقال عليه السلام: «يحشر الناس في صعيد واحد فينادي منادٍ أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون، وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب». واعلم أن قيام الليل من أثقل شيء على النفس، ولا سيما بعد النوم، وإنما يصير خفيفاً بالاعتياد والمداومة، والصبر على المشقة والمجاهدة في أول الأمر، ثم بعد ذلك ينفتح باب الأنس بالله تعالى، وحلاوة المناجاة له، ولذة الخلوة به عزوجل، وعند ذلك لا يشبع الإنسان من القيام، فضلاً من أن يستقله أو يكسل عنه، كما وقع ذلك للصالحين من عباد الله، حتى قال قائلهم: إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه إنهم لفي عيش طيب. انتهىٰ.

ونصف الليل الأخير أفضل من القيام من أوله، وقد قال ﷺ: «أفضل القيام قيام داود، وكان ينام نصف الليل ثم يقوم ثلثه ثم ينام سدسه»، وورد أن قيامه ﷺ كان صرخة الديك وذلك من آخر الليل وقت السحر وما يقاربه، وكان قيامه ﷺ بثلاث عشرة ركعة لا يزيد على ذلك، وكان يسلم من كل ركعتين، منها ركعتان سنة الوضوء، يبتدىء بهما القيام، وإحدى عشر الوتر، كما ورد ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وقالت: في ثمان منها لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ويقرأ في الثلاث الأخيرة في الأولىٰ بعد الفاتحة: سبح الأعلى، وفي الثانية: قل يا أيها الكافرون، وفي الثالثة: الإخلاص والمعوذتين.

وأما دوام الذكر فهو باب الموصلات، وسلطان القربات، كما قال سيدنا الشيخ عبد الله بن علوي الحداد باعلوي قدس الله روحه:

وأذكر إلٰهك ذكراً لا تفارقه ... فإنما الذكر كالسلطان في القرب

وقال في الأخرى:

وإن رمت أن تحظى بقلب منور ... نقي عن الأغيار فاعكف على الذكر
وثابر عليه في الظلام وفي الضياء ... وفي كل حال باللسان وبالسر
فإنك إن لازمته بتوجه ... بدا لك نور ليس كالشمس والبدر

ولكنـــــه نـــــور مـــــن الله وارد أتـى ذكـره فـي سـورة النـور فـاستقر

وقد ورد في فضله من الآيات والأخبار والآثار، ما يجل عن الإحصاء والإحصار، ولو لم يرد في فضله من الآيات إلا قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ لكفى، وناهيك به شرفاً، كيف والكتاب مشحون بفضل الذكر، لأن مناط الذكر ومتعلقه: توحيد الله تعالىٰ، ودوام الحضور معه، وجمع القربات والعبادات لم تشرع إلا لذلك. قال ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»، قالوا: بلى، قال: «ذكر الله»، وقال ﷺ: «ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله» قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع، ثم يضرب به حتى ينقطع، ثم يضرب حتى ينقطع»، وقال ﷺ: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله»، وقال عليه الصلاة والسلام: «أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»، والأحاديث في ذلك كثيرة وغير محصورة. قال الطيبي على شرح الحديث الأول: قال الشيخ ابن عبد السَّلام في كتاب القواعد: هذا الحديث مما يدل على أن الثواب لا يترتب على قدر النصب في جميع العبادات، بل قد يأجر الله تعالىٰ على قدر الأعمال أكثر مما يأجر على كثيرها، فإن الثواب يترتب على تفاوت الرتب في الشرف، شف[1] لعل الخيرية والأرفعية في الذكر لأجل أن سائر العبادات من إنفاق الذهب والفضة، ومن ملاقاة العدو والمقاتلة معهم، إنما هي وسائل وسائط يتقرب العباد بها إلى الله تعالىٰ، وإنما الذكر هو المقصود الأسنى، والمطلوب الأعلى، وناهيك عن فضيلة الذكر قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، وقوله: «أنا جليس من ذكرني، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي». . . الحديث انتهىٰ.

واعلم أن فضيلة الذكر ليست مخصوصة ولا منحصرة في التسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير ونحوها، بل كل عامل لله تعالىٰ بطاعة، فهو ذاكر لله، كما ذكر

(١) شف: أي انظر.

ذلك الإمام النووي رضي الله عنه في أذكاره، والآكل والشارب للتقوي لطاعة الله ذاكر لله تعالىٰ، وقِسْ على ذلك، وقال أيضاً: الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، وأفضلهما ما كان بالقلب واللسان جميعاً فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل. انتهىٰ.

وذكر اللسان وحده لا يخلو أيضاً من ثواب، قال في رسالة القشيري: سئل أبو عثمان المغربي رحمه الله: نذكر الله ولا نجد في قلوبنا حلاوة؟ فقال: احمدوا الله أن زين جارحة من جوارحكم بطاعته، وقال ابن عطاء الله في الحكم: لا تترك الذكر لعدم حضورك فيه مع الله تعالىٰ، لأن غفلتك عن ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكر الله، فعسى أن يرفعك مِنْ ذكرٍ مع وجود غفلة إلى ذكرٍ مع وجود يقظة، ومن ذكرٍ مع وجود يقظة إلى ذكرٍ مع وجود حضور، ومن ذكرٍ مع وجود حضور إلى ذكرٍ مع غيبة ما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز. انتهىٰ.

وقال الحجة الغزالي رضي الله عنه في حركة اللسان بالذكر مع الغفلة عنه: يحصل الثواب، ونفيه إنما هو بالنسبة لعمل القلب. انتهىٰ.

وقال الشيخ عبد الله بن علوي الحداد علوي نفع الله به: معنى ذكر القلب أن تصير صورة الذكر الجارية على اللسان، حاضرة في القلب وجارية عليه، مثل إذا قال الذاكر بلسانه: لا إلٰه إلا الله يكون كذلك قالها بقلبه. انتهىٰ.

وقال الإمام القشيري رضي الله عنه: الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه، هو العمدة في هذه الطريق، ولا يصل أحدٌ إلى الله تعالىٰ إلا بدوام الذكر، والذكر على ضربين: ذكر باللسان وذكر بالقلب، فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب، والتأثير لذكر القلب، فإذا كان العبدُ ذاكراً بلسانه وقلبه، فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه. وقال الشيخ أبو علي الدقاق رحمه الله: الذكر منشور الولاية، فمن وفق للذكر فقد أعطي المنشور، ومن سُلب الذكر فقد عزل، وسئل الواسطيُّ ـ رحمه الله ـ عن الذكر؟ فقال: الخروج عن ميدان الغفلة إلىٰ فَضَاء المشاهدة، على غلبة الخوف وشدة الحب، وقال ذو النون المصري رحمه الله: من ذكر الله ذاكراً على الحقيقة، نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل

شيء، وكان له عوضاً عن كل شيء، ويرحم الله القائل مشيراً إلى دوام الذكر والذكرى:

لا أحب السواك من أجل أني إن ذكرت السواك قلت سواكا
وأحب الأراك من أجل أني إن ذكرت الأراك قلت أراكا

واعلم أن من أفضل الذكر الاشتغال بتلاوة كتاب الله تعالىٰ وكلامه، بل هو أفضل الأذكار، إلا ما ورد مقيداً بوقت، فالأفضل اشتغال ذلك الوقت به، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، وقال ﷺ: «من قرأ القرآن ثُم ظن أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله تعالىٰ»، وقال ﷺ: «من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته ثواب ما أعطي السَّائلين»، وفضائل القرآن مجمله ومفصلة، وآداب القارىء، والحث على كثرة التلاوة والترغيب في ذلك، خارج عن الحصر، وأجمع مصنف وأنفع مؤلف في ما يتعلق بذلك، وفي آداب المعلم والمتعلم والمستمع وغير ذلك، كتاب: (التبيان في آداب حملة القرآن) للإمام النووي رحمه الله وجزاه عنا وعن الأمة خيراً، وأما كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للإمام السيوطي رحمه الله وكتب التفاسير، فهي مما يتعلق بعلوم القرآن ومعانيه، وهي أيضاً مما تشتد الحاجة إلى معرفتها من الأحكام، ومن حيث إنه إذا قرئ مع معرفة المعنى كان أكمل، وثوابه أجزل، وإلا فقد ذكر العلماء أنه يحصل الثواب بقراءة القرآن بفهم وبغير فهم، بخلاف ذلك في غيره من الأذكار، والقرآن أيضاً أعظم واعظ، وأشد زاجر ومخوف عن ارتكاب محارم الله تعالىٰ ومعاصيه، والاستخفاف بالقيام بأوامر الله ونواهيه، ففي بعض الآثار أن قارىء القرآن إذا ركب المعاصي يناديه القرآن من جوفه: أين زواجري؟ أين قوارعي؟ أين مواعظي؟ وقال ميمون بن مهران رحمه الله: إن أحدهم يقرأ القرآن وهو يلعن نفسه، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يقرأ ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وهو يكذب، ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهو يظلم، وورد: أن القرآن غريب في جوف الظالم، وينبغي لكل مسلم، ولا سيما مريد طريق الآخرة، أن يرتب له ورداً من القرآن ليلاً ونهاراً وإن

قلَّ، مع مراعاة الترتيل والحضور، لما في ذلك من جزيل الثواب، ومناجاة رب الأرباب، وأما الأئمة الذين صفت قلوبهم، وانشرحت صدورهم، لفهم خطاب الله ولذيذ مناجاته، فلهم في ذلك تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً المورد الأسنى، والمشرب العذب الأهنى، حتى أن بعض سادتنا العلويين لا يقرأ القرآن في رمضان، لأنه يجد في التلاوة حلاوة ذوقية حسية، يحكم الشرع ببطلان الصَّوم بها، وأما الاستكثار من تلاوته، فلا يخفى عنهم أن بعضهم كان يقرأه جميعه في ركعة، كسيدنا عثمان رضي الله عنه، قال الإمام النووي رحمه الله: وانتهىٰ بعضهم إلى أنه يختم في اليوم والليلة ثمان ختمات، وذلك أكثر ما بلغنا. انتهىٰ. وقد نقل هذا عن سيدنا عبدالرحمٰن السَّقاف ـ قدس الله روحه ـ أنه بلغ إلى أن قرأ في اليوم والليلة ثمان ختمات، وهذا ليس من باب الطي للحروف، وقبيل الكرامة وخرق العادة، بل من طريق الاجتهاد، وتسهيل التلاوة وتيسيرها، وبركة الوقت، وأما ماهو من باب الكرامة والطي، فإنما هو ما أشار إليه الشيخ العارف بالله عمر بن الفارض نفع الله به في تائيته بقوله:

وعنـي مـن أمـددتـه بـرفيقـة　　　تصرف في مجموعه في دقيقة
وفي ساعة أو دون ذلك من تلا　　　بمجموعه جمعي تلا ألف ختمة

فهذا هو الخارق للعادة والخارج عن قدرة البشر، إلا بتأهيل له من الله تعالىٰ، وذلك باستيلاء سلطان الروح، وخروجه عن انحصاره في قالب الجسم، والله أعلم بما أولاهم من علوم المعارف، وحباهم به من الحقائق والدقائق واللطائف، ومن جملة الذكر لله: الدعاء، والصلاة على رسول الله ﷺ، وسيأتي ذكرهما آخر هذا الشرح، واعلم أن أجمع الأذكار، ومنبع الأسرار والأنوار، كلمة الشهادة وكلمة التوحيد، وكلمة الإخلاص، وكلمة الفوز والقرب والتقريب، وأحق الأقوال وأصدقها، وأعزها وأشرفها: قول لا إلٰه إلا الله، وفضائلها لا تُحصىٰ، قال الإمام الطيبي بعد النقل المتقدم: أقول ولا ارتياب أن أفضل الذكر قول لا إلٰه إلا الله، وهي الكلمة العليا، وهي القطب الذي تدور عليه رحاء الإسلام، وهي القاعدة التي بني عليها أركان الدين، وهي الشعبة التي هي أعلى شعب الإيمان، بل هو الكل

وليس غيره، ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أي الوحي مقصور على استيثار الله تعالىٰ بالوحدانية، لأن المقصود الأعظم من التوحيد، وسائر التكاليف متفرع عليه، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، ولهذا تجد العارفين وأرباب القلوب، يستأثرونها على سائر الأذكار، لما رأوا فيها خواصاً، ليس للطريق إلى معرفتها إلا الوجدان والذوق، رزقنا الله وإياكم كمال ذلك. انتهىٰ.

وقال الإمام الشريف محمد بن عبد الله العيدروس علوي ـ نفع الله به ـ: اعلم إن القاعدة العظمىٰ التي هي ركن الإسلام، ودعامة الإيمان، كلمة لا إلٰه إلا الله، إلا أنك أيها الأخ السَّالك ينبغي لك أن تكون بمعناها متحلياً، وبحقيقتها متصفاً، لأن هذه الكلمة عظيمة، ولها التأثير العظيم إذا تنبه لسرها، لأن لها حالتي عموم وخصوص، فحظ أهل العموم منها، توحيد الرب تعالىٰ من المشاركة في الربوبية، وأما أهل الخصوص العارفون بأسرار الأشياء، فإنهم يجعلون لا إلٰه إلا الله نصب أعينهم في أمورهم جملة ذكراً وَذُكْراً، ويعملون على معناها وحقيقتها، لأن العبد إذا وفق لفهم هذه الكلمة العظيمة حصل على توحيد خاص، وصارت له هذه الكلمة جُنة يتقي بها المخاوف والمكاره. انتهىٰ، والآيات الواردة في فضل لفظها ومعناها، وكذلك الأحاديث وما جاء عن السَّلف والخلف، لا يأتي عليه الحصر قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وقال ﷺ: «ليس على أهل لا إلٰه إلا الله وحشة في قبورهم، ولا في النشور، كأني أنظر إليهم عند الصيحة، ينفضون وجوههم من التراب، ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلٰه إلا الله»، وقال ﷺ: «يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة، إلا شهادة أن لا إلٰه إلا الله، فإنها لا توضع في ميزان، لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقاً، ووضعت السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن، كان لا إلٰه إلا الله أرجح من ذلك»، وقال ﷺ: «جددوا إيمانكم» قيل: يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «أكثروا من قول لا إلٰه إلا الله، ليس لها دون الله حجاب حتى يخلص إليه قولها لا تترك ذنباً ولا يشبهها عملاً»، ويروى: أن العبد إذا قال: لا إلٰه إلا الله،

أتت على صحيفته، فلا تمر على خطيئة إلا محتها، حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها. والشأن كل الشأن، إنما هو الحضور مع الله تعالىٰ في الذكر وسائر العبادات، وجميع الحركات والسكنات، حتى يثمر له الحضور حالة جليلة، ذكرها الشيخ محمد بن عبد الله العيدروس علوي ـ قدس الله روحه ـ قال: أعلى أحوال الذكر أن يستغرق الذاكر في هيبة المذكور تعالىٰ، فيغفل الذاكر عن وجود نفسه، ويصير قلبه متعلقاً بالمذكور تعالىٰ جملة، فلا يلتفت إلى شيء سواه، هذا هو سر السر فافهمه. انتهىٰ.

فالسر كله في الحضور، وقال في موضع آخر من كتابه (الإيضاح): والأصل في هذه العبادة: دوام اتصال القلب بالله عزوجل وجمع الهم، هذا هو سر الصَّلاة وروحها، وبهذا تفاوت حال رجال المصلين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان تركعهما في تفكر واقتصاد، خير من قيام ليلة والقلب ساه، ومما ينبغي ويتأكد للمريد: المداومة على العمل وإن قَلَّ، فإن التأثير وتنوير القلب لا يحصل إلا بدوام العمل، قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها» وورد: أنه ﷺ كان عمله ديمة، ومما يعين على الحضور ونفي الوساوس، حبس النفس مع ذكر القلب، وسيأتي ذكر ذلك في ترجمة الشيخ حسين بن عبد الشكور رحمه الله، ومما يدل على أن حبس النفس مؤثر في نفي الوساوس: أن سيدنا الشيخ عمر المحضار بن عبد الرحمٰن السَّقاف ـ رضي الله عنهما ـ كان يعمل بذلك، فكان يتلو اسمه (اللطيف) ألف مرة في نفس واحد، وخادمه جريدان يتلوه سبعمائة مرة، كما سيأتي في ترجمته، وما ذلك إلا أنه رضي الله عنه قد صار رسوخاً، فاتسع نفسه لهذا القدر من العدد، والله أعلم.

وأما التفكر فعليه مدار عظيم في الدين، وله موقع في هداية العقول إلى سبيل المتقين، ولذا حث الله عليه في كتابه المبين، ورغب في الاعتناء به سيد المرسلين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، والآيات في الأمر بالتفكر والأحاديث كثيرة، وقد أمر ورغب ﷺ في التفكر في مخلوقات الله تعالىٰ، ونهىٰ عن التفكر في ذات الله. قال الحسن البصري رحمه الله تفكر

ساعة خير من قيام ليلة، وقال الفضيل: الفكر مرآة يريك حسناتك وسيئاتك، وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة، فقال: الفكر مخ العبادة. والفكر المحمود أنواع، منها: التفكر في الطاعات وما يترتب عليها من الجزاء العاجل والآجل، وفي ما يصفيها ويخلّصها من الشوائب والعلل المحبطة لها، وما يكملها ويزكيها من الأمور التي يتحلى بها العاملون الموفقون، كالإخلاص والصدق والحضور والخشوع وغير ذلك، كالتفكر في تقديم الأهم فالأهم من الفرائض والنوافل، لتعظم الفائدة، ويقع الأتم في تحصيل العائدة، ومنها: التفكر في المعاصي وما يجر إليها من الأسباب، فيجتنبه، وفي ما فرّط منه في سابق الزمن، فينوب[1] عنه، ويتفكر فيما يترتب عليها من العقاب، وغضب الله عليها الذي هو أخزى وأكبر حجاب، وفيما[2] ورد في ذلك من الآيات والأخبار، وفيما قص الله تعالىٰ في كتابه العزيز، مما وقع من النكال والخزي والوبال، على مخالفيه ومخالفي رسوله، من الانتقام العظيم في الدنيا، مع ما أعده لهم في الآخرة، من العذاب الدائم، والبعد عن نعيم جنته في جواره وجوار أنبيائه وأوليائه، ومنها: التفكر في ما يلحق بذلك على التفصيل والاستقراء، والتتبع للصفات المهلكات، ليحذر من الوقوع في شيء منها، وفي الصِّفات المنجيات، ليحرص على التحلي بها، ويجتهد في تحصيلها، وذلك فيما يتعلق بالقلب والجوارح في الحالتين: حالة التحلي والتجلي، ومنها: التفكر في جلال الله تعالىٰ وعظمته، وجلاله وكبريائه، وتنزيهه وتقديسه عن المكان والجهات والجسم، وغير ذلك مما سيأتي تفصيله آخر الكتاب، والتفكر في ذات الله ـ كما مر ـ غير مطلوب، لما يفضي إليه من الحيرة والدهشة، وربما أدى إلى الكفر، إذا تخيل أو قدّر ما لا يليق به بكماله أو جلاله تعالىٰ، ومنها: التفكر فيما هو آيل إليه، وما هو مستقبله، من الموت وما بعده، من القبر والحشر والنشر والعرض على الله في عرصات القيامة، والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، فبذلك يحصل الاعتبار والادكار، وما يتذكر إلا من ينيب، ومنها:

---

(١) فينوب: أي فيرجع.

(٢) وفيما: أي ويتفكر فيما.

التفكر في خلق السموات والأرض، وسائر الموجودات، وعجائب المخلوقات والمصنوعات الدالة على عظمة خالقها، وأول ما يبدأ منها في خلق نوع الإنسان، قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، فإذا انفتحت البصيرة، وعمي البصر عن النظر إلى الملهيات والمستحسنات، ونظر بنور العقل في خاصية نفسه، وغيره من أبناء جنسه لم يفته إلى نوع آخر من أنواع الموجودات، بل يستغرق همه وفكره في ذاته، بل وتنطوي العوالم فيه كما قيل:

أتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

وإذا نظر إلى جميع المخلوقات وأمعن فيها، ورأى ما انطوت عليه من الأسرار، علم أن الله تعالىٰ لم يخلق شيئاً عبثاً، وعامل الكل بالرعاية والرحمة، لنسبتها في إيجادها وإمدادها لخالقه ومولاه، كالعبد المشفق على سيده، يرعى جميع ما ينسب لسيده من ملك واختصاص، بالحفظ والصيانة والتعامل بالرحمة والشفقة، وسيأتي في هذا المعنى مزيد بيان عند انتهاء السند، لأن المقصود في هذه الفروع: الإشارة إلى التنبيه ببعض الدلائل، لا التفصيل واستيعاب جميع الوسائل، فإن لذلك كتباً مستقلة، مستوعبة لجميع الاستنباطات والأقيسة والأدلة.

وأما الصمت عن الكلام وضبط اللسان، فهو من أعظم مخالفات النفس، وفيه السَّلامة في كثير من آفات اللسان، ولذا ورد في فضله أخبار وآثار، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»، وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: «احفظ لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك»، وفي الحديث الصحيح لما قال ﷺ لبعض الصحابة عندما استوصاه: «كف عليك هذا»، فقال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: «وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم»، وروي أنه قتل شهيد في المعركة، فقال قائل: هنيئاً له الجنة، فقال ﷺ: «وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويبخل بما لا يغنيه»، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقبض على لسانه، ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وفي هذا المعنى قيل:

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

وقال إياس بن معاوية: من لم يعرف عيب نفسه فهو أحمق، قيل له: ما عيبك يا أبا وائلة؟ قال: كثرة الكلام، وقال الفضيل بن عياض: من حسب كلامه من عمله، قل كلامه إلا فيما يعنيه، وقال القطب الشيخ عبد الله الحداد علوي نفع الله به: خطر اللسان عظيم وأمر مخوف، ولا ينجي منه إلا الصمت وترك النطق، إلا عند الحاجة بقدرها، وقال معروف الكرخي رحمه الله: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: المؤمن قليل الكلام كثير العمل، والمنافق كثير الكلام قليل العمل، وقيل: إن في الإنسان ثمانية آلاف عيب، لا يسترها إلا الصمت وقلة الكلام، وسيأتي قريباً بيان ما يجب حفظ اللسان عنه، وتفصيل ما في إهماله وعدم التوقي منه من الخطر العظيم.

ومن المهم المشغل للنفس عن التفرغ للمخالفات، والميل إلى اللذات والشهوات، وارتكاب الشبهات والمحرمات: توزيع الأوقات بالأعمال الصَّالحات، ووظائف العبادات، بأن يشتغل كل وقت من ليله ونهاره، بوظيفة يعيّنها له، يواظب عليها ولا يغفل عنها، فإن ذلك موصل إلى المطلوب، وكفيل بإنجاح المرغوب، قال الحجة الغزالي رحمه الله تعالىٰ في (البداية). ولن تصل أيُّهَا الطالب إلى القيام بأوامر الله تعالىٰ إلا بمراقبة قلبك وجوارحك، ولحظاتك وسائر أنفاسك، من حين تصبح إلى حين تمسي، فاعلم أن الله تعالىٰ مطلع على ضميرك، ومشرف على ظاهرك وباطنك، ومحيط بخطراتك ولحظاتك وخطواتك، وسائر سكناتك وحركاتك، وأنك في مخالطتك وخلواتك متردد بين يديه، فلا يسكن في الملك والملكوت ساكن، ولا يتحرك متحرك، إلا وجبارُّ السَّموات والأرض مطلع عليه، فتأدب أيها المسكين ظاهراً وباطناً بين يدي الله تعالىٰ تأدب العبد الذليل، في حضرة مولاه الجبار القهار، واجتهد أن لا يراك مولاك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، ولن تقدر على ذلك إلا بأن توزع أوقاتك، وترتب أورادك من صباحك إلى مسائك. انتهىٰ، وقد ألف العلماء رحمهم الله، فيما يشتغل به الموفق من وظائف العبادات، تآليف عديدة في ذلك، فلتطلب منها، ولنرجع الآن إلى إكمال ما قصدنا من الفروع والمقامات والله ولي التوفيق والهداية إلى الدراية.

الفرع الثاني: في حفظ الجوارح عن المعاصي وهي رعايا الإنسان، وهو مسؤول عنها، قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، ومن خاف مولاه، وعامله بالرغبة والرهبة، والأنس والمحبة، حفظ رعاياه من انتهاك الحِمَى، أو القرب منه كذلك، لأنَّ من حام حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه، وفي ما مر من النقل في الفرع الأول لذي اللب والفهم غنية وكفاية من حيث العموم، وفي هذا الفرع وما بعده يكون التفصيل للمجمل، وترتيب ذكرها الأول فالأول، وما أشرت إليه من قولي: (بالرغبة والرهبة والأنس والمحبة) فالأول هو مقام الرجاء والخوف، والثاني أشرتُ به إلى ما مرَّ عن الغزالي أن فوقهما مقام، وهو مقام الأنس والمشاهدة على الدوام، لا يبقي لصاحبه نظر إلى الماضي ولا إلى المستقبل، وصاحب مقام الأنس محب، ومن شأن المحب أن يراقب حبيبه، بموافقته لما ندبه إليه، وفي تركه لما ندبه إلى تركه، لئلا يتغير حاله، ويؤول وصله إلى القطع، وقربه إلى الحجب، أعاذنا الله تعالىٰ من ذلك. قال الإمام الغزالي رحمه الله في (البداية): واعلم أنك كما تعصي الله بجوارحك، وهي نعمة من الله عز وجل عليك، وأمانة لديك، فاستعانتك بنعمة الله تعالىٰ على معصيته غاية الكفران، وخيانتك في أمانة أودعكها الله تعالىٰ غاية الطغيان، فأعضاؤك رعاياك، فانظر كيف ترعاها، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، واعلم أن جميع أعضائك تشهد عليك في عرصاتِ القيامة بلسانٍ ذلق، يفضحك به على رؤوس الخلائق. قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، فاحفظ جميع بدنك، وخصوصاً أعضاءك السبعة، فإن جهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، ولا يتعين لتلك الأبواب إلا من عصىٰ الله تعالىٰ بهذه الأعضاء. انتهىٰ.

وهذه الأعضاء السبعة هي: العين، والأذن، والبطن، والفرج، واليد، واللسان، والرجل، فأما العين فهي من أعظم النعم والمنن، خلقها الله لك على هذا الوضع العجيب، والأسلوب الغريب، الذي يبهرالعاقل اللبيب، وهو جرم صغير، يتسع نظره إلى المسافة البعيدة، ويحيط برؤية الأعيان الخفية والظاهرة،

بحسب ما فيه من القوة والضعف، خلقها الله تعالىٰ لك لتهتدي في ظلمات البر والبحر، وتنظر بها في عجائب المصنوعات، وخلْقِ الأرض والسماوات، وتستعين بها في الحاجات، وتحترز بها من الوقوع في شيء من المهالك المضرات، فإن نظرت بها إلى ما خلقت لأجله مما ذكرناه، واستعنت بها على العبادات المختصة به، كقراءة القرآن من المصحف ومطالعة الكتب النافعة، كنت ممن أطاع الله بها وشكره على نعمتها، وإن أرسلتها إلى غير ذلك كنت ممن كفر نعمة الله تعالىٰ وعصاه بنعمته، فاحذر مما لا يحل لك النظر إليه، كالمرأة الأجنبية مطلقاً، والمحرم بشهوة، وكذا الشاب الحسن الأمرد بشهوة على خلاف فيه، والنظر إلى المسلمين بعين الاحتقار والاستصغار والاستخفاف، والنظر إلى العيوب والعورات، ونظر بيت الغير بغير إذنه، فكل ذلك شديد الحرمة، ولا بأس بالنظر فجاءة ثم الغض، ومن شواهد ذلك وزواجره، قوله تعالىٰ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ الآية [النور: ٣٠]، وقال ﷺ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها من مخافة الله أعطاه الله عبادة يجد حلاوتها في قلبه»، وقال ﷺ: «من تتبع عورة أخيه، تتبع الله عورته في الدنيا والآخرة»، وهذا التتبع يحصل بالنظر وبغيره، وروي: أن وفد عبد القيس لما قدموا على النبي ﷺ كان فيهم أمرد حسن، فأجلسه النبي ﷺ خلف ظهره وقال: «إنما كان فتنة داود من النظر»، وقال عيسى عليه السلام: النظرة تزرع في القلب شهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة، وعن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: مع كل امرأة شيطان، ومع كل أمرد سبعة عشر شيطاناً، وفي الإحياء أو في الروض ما معناه: أن بني إسرائيل قحطوا، فاستسقى بهم موسىٰ عليه السَّلام، فلم يسقوا، فأوحى الله تعالىٰ إليه أن استسقي بعبدي بزخ، عبد أسود، فإنه لم يعصني قَط، فلقيه موسىٰ وعرفه بصفته، والتمس منه أن يستسقي بهم، ففعل وسقوا، فسأله موسىٰ عما وصفه الله تعالىٰ به من أنه لم يعصه أبداً، فقال له: نعم إني لم أعص الله فيما أعلم إلا مرة جزت بشارع، فلمحت عيني هذه العوراء شخصاً لم أحققه، هو رجل أو امرأة، فقلت لها: أنت من بين أعضائي، خرجت عن طاعة الله تعالىٰ وطاعتي، ونظرت إلى مالا يعنيك، لا حاجة لي فيك، فأدخلت أصبعي فيها وقلعتها. هذا معنى الحكاية وطال عهدي بها حال

إثباتها هنا، وقال الشيخ عبد الله بن علوي الحداد علوي نفع الله به: ولا ينبغي أن يكثر النظر إلى شهوات الدنيا ومباحاتها، التي تدعو النفس إلى الرغبة فيها، فإن ذلك ربما فرق القلب وأقبل به على عمارة الدنيا، وجمع حطامها والإعراض عن الآخرة، وترك الاستعداد لها. والله أعلم.

وأما الأذن فهي نعمة عظيمة أيضاً، خلقت لك لسماع كتاب الله تعالىٰ وأحاديث رسوله ﷺ وأقوال السلف الصَّالح، وتلقي الأحكام عن العلماء الأعلام، فتستفيد بذلك سلوك سبيل مرضات الله، فلا تصغ بها إلى محرم كالغيبة والكذب والنميمة، وكل كلام قبيح فاحش، فإن المستمع للغيبة أحد المغتابين، وكذا المستمع لغيرها أيضاً من كل قبيح شريك القائل، كما أن الآمر والمعين ولو بشطر كلمة شريك القائل، كما قيل:

تحـر مــن الطـرق أوســاطهــا ... وعَــدِ عــن الجـانــب المشتبـه
وسمعك صن عن سماع القبيح ... كصـون اللســان عـن النطـق بـه
فــإنــك عنــد سمــاع القبيــح ... شـــريــك لقــائلــه فــانتبــه

وأما البطن فتحفظه عن أكل وشرب المحرمات والشبهات كالربا، فإن إثمه عظيم، وهو من السبع الكبائر الموبقات، وقد ورد فيه من الوعيد الشديد في الكتاب والسُّنة آيات وأحاديث كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، وقد لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه، وقال ﷺ: «للربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه»، وتفاصيل فروعه ومسائلها كثيرة، محلها كتب الفقه، ومن المحرم: أكل مال اليتيم إلا ما رخص فيه للقيم بشرطه، ومنها: أكل الميتة لغير المضطر، وصيد الحرم، وكل ما لا يؤكل لحمه، والأكل من مال الغصب والسرقة، والنبيذ وكل مسكر وإن قل، وفي كل ذلك وعيد شديد، ويلحق بذلك الشبه وإدرارات السَّلاطين، الذين أكثر أموالهم ـ أو كلها ـ حرام، وقد مر الترغيب في الجوع وما فيه من الفوائد والعوائد ما فيه مقنع، وسيأتي ذكر الورع في الفرع الرابع. وأما الفرج فيجب حفظه وتحصينه عن الزنا واللواط، فهما

من الكبائر، وكذلك وطء الحائض والنفساء، والاستمناء باليد وإتيان البهيمة، وقد ورد في الحديث لعن هؤلاء كلهم، والحد في الزنا واللواط، والكفارة في وطء الحائض، ومحل تفصيل ذلك كتب الفقه. وأما اليد فيجب حفظها عن الجناية بها على أحد من المسلمين، بضرب أو إتلاف مال بغير حق، أو أخذ بظلم أو خيانة أو معاملة فاسدة، أو نحو غصب وسرقة، أو أذىٰ يتولد منها على مسلم ولو بالإشارة بها، أو كتابة مالا يحل النطق به، فإنها إنما خلقت لك لتبسطها في المسلمين، وتعين المسلم بها في الحاجات، وتكتب بها العلم الشريف، وتستعين بها في اكتساب الحلال. وأما الرجل فبأن تحفظها من المشي إلى حرام ومعصية، كإعانة على ظلم أو سعاية بمسلم أو قتله، وكذا إلى كل ما يضره، والمشي إلى باب سلطان ظالم أو تكثير سواده، أو إلى لهو أو لعب محرم ونحو ذلك، واستعملها في المشي إلى الخيرات، وأنواع القربات، والأعمال الصالحات، كالسعي إلى طلب العلم النافع، وإلى المساجد للجماعات، والعمل بوظائف العبادات، وزيارة الإخوان، وعيادة المرضىٰ، وقضاء حوائج المسلمين والسعي في مصالحهم، ونحو ذلك. وأما اللسان فهو من النعم العظيمة، فينبغي حفظه عما لا يحل النطق به، واستعماله فيما خلق لأجله، كتعلم القرآن وتلاوته والإكثار من ذكر الله تعالىٰ، وتعلم العلم وتعليمه، والإفادة والاستفادة والنصح لكل مسلم، والوعظ والدعوة إلى الله تعالىٰ، وما يحتاج له من دينه ودنياه، فإنه آلة لجميع ذلك، ولغيره من سائر العبادات القوليَّة، وقد قدمنا أنه أغلب الأعضاء وأسرعها إلى الانهماك في الخوض في الباطل وفيما لا يعني، وقد قدمنا أيضاً ما جاء في عظم خطره وكثرة ضرره، وأنه لا يسلم من جميع ذلك إلا بالصمت، واشتغاله بذكر الله تعالىٰ، وهنا نذكر بعض ما يجب كفه عن المحرمات، وقد بَلَّغَ الإمام الغزالي رحمه الله آفاته إلى عشرين آفة في كتاب مستقل من الإحياء، فمن أعظم آفاته: الكذب وهو الإخبار بما لم يقع أو نفي ما وقع، وهما من الكبائر، وقد ورد فيه الوعيد الشديد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فيحرم قليله وكثيره، وقد يرخص فيه لإصلاح ذات البين وفي حق الزوجة، وقد يجب كإخفاء وديعة من ظالم يريد أخذها ومعصوم عمن يريد قتله، فإن قصر وأخبر بما ذكر من الوديعة والمعصوم بغير عذرٍ، أثم وضمن،

ومنها: الغيبة وهي ذكرك الغير بما يكره وإن كنت صادقاً، وهي مختلف فيها هل هي من الصغائر أم من الكبائر؟ والأصح من مذهب الشافعي رضي الله عنه أنها صغيرة، إلا غيبة حملة العلم فإنها من الكبائر، ولا تحرم غيبة فاسق متجاهر فيما تجاهر به من المعاصي لا مطلقاً، قال الإمام الغزالي قدس الله روحه: وإياك وغيبة القراء المرائين، وهو أن تُفْهِم المقصود من غير تصريح، وقال القطب الشيخ عبدالله الحداد علوي نفع الله به: واعلم أن من الواجب عليك إذا رأيت من أخيك المسلم عيباً أو نقصاً يمكنه إزالته، أن تذكر له ذلك في الخلوة على سبيل النصيحة، فإن عجزت عن ذلك أو لم توفق له، فذلك نقص فيك، ولا تجمع إليه نقصاً أقبح منه، وهو أن تهتك ستره وتذكر عيوبه للناس في غيبته، وتجمع على نفسك مصيبتين، وتجر إليها بليتين انتهىٰ، ولله در القائل:

إذا شئت أن تحيى ودينك سالمٌ ... وحظك موفور وعرضك صيّنُ
لسانك لا تذكر به عورة امرىء ... فعندك عورات وللناس ألسنُ
وإن أبصرت عيناك عيباً فقل لها ... أيا عين غض الطرف للناس أعيُنُ
وعاشر بمعروف وجانب من اعتدى ... وفارق ولكن بالتي هي أحسنُ

وقال الشيخ محمد بن عبد الله العيدروس علوي رضي الله عنه: وجانب الغيبة فإنها خلق ذميم، وإثمها عظيم، وهي حالة صعبة تصنع بصاحبها عواقب السوء، وتضيع منه ولا تحصل له فائدة، وما أحسن قول الشاعر في هذا المعنىٰ:

وأكبر نفسي عن جزاءٍ بغيبة ... وكل اغتياب جهد من لا له جهدُ

انتهىٰ، ومنها: النميمة وهي آفة مذمومة تنشأ عنها الشرور، ومعناها: نقل الكلام بين الناس بقصد الإفساد، وأفحشها نقل الكلام المراد به الإفساد إلى السَّلاطين والولاة الظلمة ونحوهم، وتسمى السعاية. قال سيدنا الشيخ عبدالله الحداد علوي نفع الله به: يقصد بها صاحبها إغراء الوالي بإيذاء من سعى به إليه، وأخذ ماله وجلب الشر له، وإثمها عظيم، مضاعف على إثم النميمة، التي تكون بين عامة الناس. انتهىٰ، وقد ورد فيها أيضاً وعيد شديد، وأن مرتكبها لا يدخل الجنة، ومنها: شتم المسلم والسخرية به، والاستهزاء به والضحك عليه، استخفافاً

به واستحقاراً له، واليمين الفاجرة وشهادة الزور واللعن، والعهد والوعد مع الخلف، وسائر الكلام القبيح كالمرآء والجدال وهو: المناقشة في الكلام، ورد كلام المعارض مع التنقيص والمزح وقد يرخص في قليله، وإفشاء السر، فكل ذلك محرم، وفيه وعيد شديد أيضاً لا نطول بنقل دلائله، وبالجملة: فعلى الحريص على دينه، الخائف من ربه، المسارع إلى مرضاته، أن يحفظ هذه الجوارح التي أنعم الله تعالىٰ عليه بها، وليستعملها في طاعته كما مرَّ مفصلاً.

الفرع الثالث: في حفظ القلب عن المعاصي التي تتعلق به، لأنه رئيس الجوارح، قال ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، وهو يطلق على معنيين: الأول: الشكل اللحمي الصنوبري الحسي المعلق في صدر الإنسان، في الجانب الأيسر منه، وهو معدن الروح الحيواني لكل حيوان من إنسان أو غيره، والثاني: لطيفة روحانية ربانية من العالم الروحاني، لها بالقلب الجَسَداني تعلق، وهذه اللطيفة هي حقيقة الإنسان، والشيء العالم العارف المدرك منه، وهو المعنى المثاب المعاقب والمخاطِب والمخاطَب. قال الشيخ محمد الخطيب السليماني رحمه الله في كتابه: (روضة التعريف، في الحب الشريف) بعد أن ذكر كلاماً هذا حاصله: والكلام في القلب بهذا المعنى، إنما جارينا فيه المتصوفة الذين يعددون القلب والروح والسر، وهو كله عند المتقدمين في ضمن العقل والنفس. انتهىٰ.

والروح: لطيفة ربانية عالمة مدركة من الإنسان، ومنبعها من أيسر تجوفي القلب اللحمي، وإذا ركبت الروح المذكورة وسرت في البدن، كانت في العين بصراً، وفي الأذن سمعاً، وفي اللسان ذوقاً، وفي الأنف شماً، وفي الجلد لمساً، وليس له صورة تفيده، ولو كانت له صورة تفيده لكان مع تلك الصورة فقط، وإنما هو مع كل شيء بصورة ذلك الشيء. قال في روضة التعريف: وهذه اللطيفة هي الأمر العجيب الذي تعجز العقول والأفهام عن إدراك حقيقته، وباب البحث مسدود عنه شرعاً لقوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، قال بعض الخائضين في ذلك: حار الناس في أمر الروح فأدركوا وجوده، وجهلوا كنهه، فلم يعرف حقيقته إلا من عرف الله تعالىٰ، وثبت أنه ليس داخل الجسم ولا خارجه،

ثم ذكر العقل، ونقل عن بعض الحكماء أن العقول ثمانية، وحاصل ما ذكره أنه غريزة تميز بها الإنسان عن البهيمة، وتهيأ بها لدرك العلوم النظرية، قال: والنفس وهي تفردت بمعنى الجميع، وقد قيل: إن العقل والروح والنفس والقلب بمعنى واحد انتهىٰ.

وفي هذا الكتاب مبحث طويل بمضمون ما تعلقت به النفس وأسرارها، واعلم أن القلب له جنود ظاهرة وهي المدركات، ومادتها نور العقل كما سبقت الإشارة إليها في تعريف حده، وبلغها صاحب حديقة الأذهان إلى ثلاثين خصلة، وهي: الإدراك، والشعور، والتصور، والحفظ، والتذكير، والذكر، والمعرفة، والفهم، والإفهام، والفقه، والعقل، والدراية، والحكمة، وعلم اليقين، والذهن، والفكر، والحدس، والذكاء، والخاطر، والوهم، والخيال، والبديهة، والأوليات، والرؤية، والكياسة، والخبرة، والرأي، والفراسة، والجهل، فهذه ثلاثون خصلة سردتها من الكتاب المذكور، مع حذف تعريفاتها ومعانيها، فهذه الجنود كلها منوطة بالقلب والعقل، وله التصرف التام والملكة والقهر في إرسالها إلى ما أراد منها إن خيراً أو شراً، ومرجع الكل النفس التي تفردت بمعنى الجميع المعنية بقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وسيأتي مزيد البيان في ذكر آخر هذه الفروع، وما ذكرته هنا مما يتعلق بالقلب والروح والعقل والنفس، إنما هو كالإشارة إلى التشويق إلى تَطلُّب معرفتها علماً ثم ذوقاً، وهو لا يحصل إلا بمعرفة الله تعالىٰ كما مر، ومعرفة الله لا تحصل إلا بالتخلية والتحلية، التي تجمعها هذه الفروع الماضية والآتية، وفيها كشف الحجاب وفتوح الباب، ومن بقي مكبلاً في ظلمة علائقه، محبوساً في ربقة عوائقه، لم يعثر من تلك المعرفة على شيء، ومن فارق العلائق فاز بتجلي الحقائق، وتحلي الحقائق هو كما قال الشيخ حسن بن أحمد باشعيب رحمه الله في شرح القصيدة السوديَّة: الحقائق تعالي الأسماء والصفات الإلهيَّات بأحكام التجليات. انتهىٰ. وإلى هذه المعرفة والعلم بها الإشارة إلى ما أنزل الله في بعض الكتب: يا بني إسرائيل، لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به، ولا في تخوم الأرض من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبر فيأتي به، العلم مجعول في قلوبكم حتى يغطيكم ويعمركم،

وورد في الخبر: من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه، ونطق بها على لسانه.

ولنرجع إلى مقصود هذا الفرع من ذكر خبائث القلب ومعاصيه والتجلي عنها، ثم إثباته بذكر فرع التحلي، فمن الخبائث المهلكة والمعاصي الموبقة، التي يجب أن يطهر القلب منها ويزكيه عنها: الشك في الله تعالىٰ ورسوله ﷺ والدار الآخرة، وهو مرض ضرره عظيم في الدين، ولا سيما عند الموت. قال ﷺ: «إن الله تعالىٰ بعدله وقسطه، جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك وفي السخط» والشكوك كثيرة، وأكثرها من الشيطان كما ورد عنه ﷺ أنه قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينتهِ» وفي رواية: «فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله وبرسوله»، وليحذر من أن يلقى الله شاكاً، بل يسعى في نفي ذلك ما أمكنه، ويداويه بمجالسة العلماء، وممارسة الحكماء، ويجاهده بذكر الله تعالىٰ لينخس الشيطان، ويثبت الإيمان، ولا بأس بمجرد الخواطر والوساوس لقوله ﷺ[١]، ومنها: الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، وهما صفتان مذمومتان، قبيحتان خبيثتان، إذ لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون، ومعنى الأمن من مكر الله: أن لا يُجَوِّز أن الله يعذبه، ومعنى اليأس: أن لا يُجَوِّز أن الله يرحمه، ومداواتهما بما مر في كتاب الخوف والرجاء. ومنها: التكبر على عباد الله تعالىٰ فهو من المهلكات العظيمة، ولا يخفىٰ ما في الكتاب العزيز من أن الكبر من صفات الشياطين، وأن المتكبر مصروف عن آيات الله، ويطبع الله على قلبه، وأنه يبغضه، وأن جزاءه يوم القيامة عذاب الهون، وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيه في النار»، وقال ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة مثل الذر في صورة الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان»، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال عليه السَّلام: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق ـ يعني رده ـ وغمط الناس ـ يعني احتقارهم ـ» قال الشيخ محمد بن عبد الله العيدروس باعلوي نفع الله

(١) أي في الحديث المار ذكره.

به: التواضع والتكبر مرجعهما إلى القلب، وليس لهما تعلق بالزي، وما يتكلفه الإنسان من الأفعال الظاهرة قد يكون تصنعاً، فكم من إنسان فقير يظهر التواضع والإنكسار، ونفسه من أنفس الجبابرة المتكبرين، وكم من إنسان له هيبة وأبهة وهو من المتواضعين، ترى عنده إنكساراً وخضوعاً، فإذاً ليس الاعتماد في الكبر والتواضع إلا على ما تُجنه القلوب، فلا تعتدَّنَّ بالظواهر، وقال في موضع آخر: إنه ليس للقلب شيء من الصفات الحميدة إلا وللنفس في مقابلته ما يشبهه، فاعلم أنه قد يلبس الكبر بالتعزز، والكبر للنفس، والتعزز للقلب، ذكر أن رجلاً قال للحسن البصري رحمه الله: يا أبا سعيد، إنك لعظيم في نفسك، فقال: لا والله، ولكني عزيز في نفسي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. انتهى ملخصاً.

وقال سيدنا الشيخ عبد الله بن علوي الحداد باعلوي قدس الله روحه: والكبر إنما يكون في القلب، لكن قد تكون له علامات في الظاهر تدل عليه، فمنها: حب التقدم على الناس، وإظهار الترفع عليهم، وحب التصدر في المجالس، والتبختر والاختيال في المشية، والاستنكاف من أن يرد عليه كلامه وإن كان باطلاً، والامتناع من قبول الحق، والاستخفاف بضعفة المسلمين ومساكينهم، ومنها: تزكية النفس والثناء عليها، والفخر بالآباء من أهل الدين، والفضل والتبجح بالنسب، وذلك مذموم جداً، وقد يبتلى بعض أولاد الأخيار ممن لا بصيرة له ولا معرفة بحقائق الدين، ومن افتخر بنسبه وآبائه ذهبت بركتهم عنه، لأنهم ما كانوا يفتخرون ولا يتكبرون على الناس، ولو فعلوا ذلك لبطل فضلهم، وقال عليه الصلاة والسَّلام: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، وقال عليه السَّلام: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنكم من الله شيئاً اشتروا أنفسكم من النار. . .» الحديث، وقال عليه السَّلام: «لا فضل لأسود على أحمر، ولا لعربي علىعجمي إلا بتقوى الله، أنتم من آدم وآدم من تراب»، وقال عليه السَّلام: «لينتهين أقوام من الفخر بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»، فالفضل والكرم بالتقوى لا بالنسب، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولو أن الإنسان كان من أتقى الناس وأعلمهم

وأعبدهم، ثم تكبر على الناس وافتخر عليهم، لأحبط الله تقواه وأبطل عبادته، فكيف بالجاهل المخلط، الذي يتكبر على الناس، بتقوى غيره وصلاح غيره من آبائه وأجداده، فهل هذا إلا جهل عظيم، وحمق فظيع. انتهى، وإنما أطال الحبيب المجدد هذا المبحث، وأطلت النقل به، لأن به دواء وأي دواء، للموفق من شؤم هذه الدقيقة الواقعة، لا سيما في هذا الزمان، من طائفتين عمهم الغُرور، وأضلهم بالله الغَرور، وهم المنسوبون إلى أهل العلم والصَّلاح، والمترسمون بالعلم والصَّلاح، **أما الأولون** لفرط جهلهم، وشدة عماهم، اغتروا بتعظيم الغوغاء والجهال والأراذل، اعتقاداً في آبائهم وأجدادهم، احتراماً لهم وطلباً لنيل بركتهم، لكن بوجهٍ غير مدين بالعلم، فاغتر هؤلاء لاشتراكهم جميعاً في بضاعة الجهل، وقنعوا من ذلك بشيء يسير من العاجل العاجز، الذي لا يساوي القليل من المكدرات والمنغصات، التي تحصل عليهم في جانب ذلك العز المعدود صفة عند أهل العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ومع ذلك تساهلوا في الأمور الدينيات، ورأوا أن العز كله، والكرم أجمعه، والشرف بأسره، لمن له نصيب من هذا العز الذي أشرنا إليه، وضم إليه شيئاً من المال لم يبال في جمعه واكتسابه، أهو من حرام أم من حلال، فحينئذ يرى أنه حاز الشرفين، ويُرى بذلك مسروراً فرحاً كأنه ظَفِر سعادة الدارين، فتراه حينئذ يتجاهر بكل خصلة سيئة قبيحة، ويستقبح كل خصلة حسنة مليحة، ويا ليته مع ذلك مستشعراً خسة سيرته ومستقبحاً ما هو عليه من سوء غفلته ليرجىٰ له الإياب والرجوع إلى طريق سلفه المثلى، بل تراه مسترسلاً في أمور يستنكف منها أراذل الزمان الأول مما يضر بالدين، ويخل بالمروءة. والله المستعان. **وأما الطائفة الثانية** وهم المترسمون بالعلم والصَّلاح، رأوا ما في ذم الدنيا، وما في طلب العلم والعمل به، من الفضل والثواب في الآخرة، والعز والشرف في الدنيا، فقنعوا بالقصور على تحصيل المعنى الثاني، وهم على شك أن يحصل لهم وأن لا، فجعلوا يراقبون الخلق بأعمالهم، ويصانعونهم بأفعالهم، ويستشعرون أنهم أعزة بزعمهم عندهم، فينطوي أحدهم على الترفع والتعاظم، ويرى أنه فاق على الناس في الدرجة والمنزلة في الدنيا، تخيلاً وسخافة، وهو في أعينهم حقير، وبين أظهرهم صغير، ويظن أيضاً بطمعه

وزعمه الكاذب، الذي يترسمه الذي هذا صفته، ينال في الآخرة أعلى المراتب، وهو في كلا الدارين، وعلى أي الحالتين، ممن قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، فقد عكس هؤلاء الطائفتان من مضى من الأسلاف الأعلام، ولم يتجلوا بما تجلوا به من حقائق الإحسان والإيمان والإسلام، بل قالوا كما قال طبيبهم الخبير، في هذا الزمان الأخير القصير، إمام الإرشاد، القطب الحداد، نفع الله به ورضي عنه:

أما إن هذا الدهر قد ضلَّ أهلُه ... همومُهُمُ في لذة الفرج والأكل
وفي جمع مال خوف فقر فأصبحوا ... وقد لَبِسُوا قُمْصاً من الجبن والبخل
وقد درج الأسلاف من قبل هؤلاء ... وهمتهم نيل المكارم والفضل
لقد رفضوا الدنيا الغَرُوْر وما سَعَوْا ... لها والذي يأتي يبادر بالبذل
فقيرهم حر وذو المال منفق ... رجاء ثواب الله في صالح السُّبْل
لباسهم التقوى وسيماهم الحياء ... وقصدهم الرحمٰن في القول والفعل
مقالهم صدق وأفعالهم هدى ... وأسرارهم منزوعة الغش والغل
خضوع لمولاهم مثول لوجهه ... قنوت له سبحانه جل عن مثل
فقدنا جميع الخير لما ترحلوا ... ومنه خلا وعر البسيطة والسهل
وصرنا حيارى في مفاوز جهلنا ... نُشَبَّه بالبهم السُّوَيْرِحة الغفل
نخبط لا ندري الطريق إلى النجا ... وبالجور نمحو سنة البر والعدل
فآهٍ عليهم ليت داهية الفنا ... بحزب الردى حلت وحزب الهدى خُليِّ
سأبكي عليهم ما حييت بعبرة ... لها مدمع في الخد يشهد بالثكل

فانظر إلى هذه الأبيات الجامعة للحكمة، المتفجرة من ينابيع معدن العلم والهدى والنور، والسِّيَادة والشرف، وقس زمانه ومن فيه بزمانك، وأعوانه بأعوانك، وانظر تأسُّفه وتلهفه على ما مضى من الزمان، ومن فيه من الأعيان، وهو إليه وإليهم مشتاق، وقلبه لذلك خفاق، واعتبر مقامه وحاله العظيم، ومن انتفع به من كل قطر وإقليم، وهو لا يرى ذلك ولا يَعُدُّ ما هو فيه شيئاً، وذلك لعلو همته، وعظيم معرفته بجلال الله تعالىٰ، ورؤيته لقصور زمانه عما قبله، وأهل هذا الزمان لدناءة نفوسهم، وتغطية الجهل والشبهات لعقولهم وقلوبهم، مترفعون،

ويتعاظمون بما يراه أولئك من سيئات الأعمال، كما قال الشيخ محمد بن عبد الله العيدروس ـ قدس الله روحه ـ واعلم أن العلم يورث العالي انكساراً والدنيء ترفعاً، فكم جاهل غالب عالماً فقهره، واستظهر عليه تمويهاً وقحة[(١)]. ويكون من ذلك العالم توقراً وحياءً، ومن الجاهل رعونة وبذاءةً:

فواعجباً كم يدعي الفضل ناقص ... و واأسفاً كم يظهر النقص فاضل

إذا وصف الطائيَّ بالبخل ما ذر ... وعَيَّرَ قساً بالفهامة باقل[(٢)]

وقال السُّهَا للشمس أنت خفيَّة ... وقال الدجا للصبح ليلك حائل

وفاخرت الأرضُ السَّمَاء سفاهة ... وجادلت الشهبَ الحصى والجنادل

فيا موت زر إن الحياة ذميمة ... ويا نفس جدي إن دهرك هازل

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً ... تجاهلت حتى ظن أني جاهل

انتهىٰ. وكما أن الكبر من أخلاق الشياطين، فضده التواضع وهو من أخلاق المؤمنين، والخير كله في التواضع والخشوع وحسن الخلق، ومحل ذلك أيضاً القلب، ومن علاماته: الانقياد والإذعان لقبول الحق، والاتصاف بالعبودية، والذلة والانكسار، ولزوم الخشوع والوقار، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، وقال ﷺ: «إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون»، وما نقل من أحواله ﷺ وأخلاقه العظيمة، مالا يحصره النقل قولاً وفعلاً، وسيأتي بعض آخر هذا الكتاب، وكذا ما نقل عن الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين والسَّلف الصَّالحين، قال الشيخ أبو سليمان الداراني رضي الله عنه في التواضع: لو اجتمع الناس على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي لما قدروا عليه، وقيل: من لم يتضع عند نفسه، لم يرتفع عند غيره، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله لا يسجد إلا على التراب تواضعاً، وكان يكتب شيئاً وعنده ضيف، فكاد السِّراج ينطفي فقال الضيف أقوم إلى السراج فأصلحه، فقال له: لا،

---

(١) قحة: قلة حياء.

(٢) باقل: هو اسم رجل يضرب به المثل في العي يقال: أعيا من باقل.

ليس من الكرم استعمال الضيف، قال: فأُنبه الغلامَ، قال: هي أول نومة نامها فقام عمر إلى البطة[١]، وجعل الدهن في المصباح، فقال الضيف: قمت بنفسك يا أمير المؤمنين، قال: قمت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، وسئل الجنيد رحمه الله عن الخشوع فقال: تذلل القلوب لعلام الغيوب، وقيل لأبي يزيد: متى يكون الرجل متواضعاً؟ فقال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرى في الخلق من هو شر منه، وقيل: إن الله تعالىٰ أوحى إلى موسىٰ عليه السَّلام: إن لم تطب نفساً أن أجعلك مضغة في أفواه الماضغين، لم أكتبك عندي من المتواضعين، وروي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: من أحبَّ أن يجتمع الناس على مدحه، ولا يذكره أحد بسوء، فذلك منافق، وقال سيدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ حامد بن عمر حامد علوي نفع الله به: وعليك بخلق التواضع، فهو النعمة التي لا تحسد عليها، بأن لا ترى لنفسك مزية، ولا تشهد لها خصوصية، وتتهمها في كل قضيَّة. وقال الفضيل رضي الله عنه: من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب، وقال الجنيد رحمه الله: التواضع خفض الجناح ولين الجانب، وقال الشيخ محمد ابن عبد الله العيدروس علوي: إن حسن الخلق الممدوح ليس ما يظهر على الوجه الرضي من البشاشة التي لا أصل لها، فقد تظهر على الإنسان البشاشة وتكون أفعاله سيئة، إنما حسن الخلق طلاقة الوجه التي يمدها صلاح القلب فتظهر منه الأفعال الجميلة. وقال رضي الله عنه: فكما ينبغي للإنسان المتعزز أن يجانب الكبر، كذا ينبغي له إذا هو متواضع أن لا يفرط في التواضع، فيخرج إلى حد الضعة والمهانة، فليراع الإنسان ذلك ولا يهمله. انتهىٰ.

رقيقة: روي أن حبراً من بني إسرائيل صنف ثلاثمائة وستين كتاباً، حتى انتشر ذكره في الآفاق، فأوحى الله تعالىٰ إلى نبي زمانه: أن قل لهذا الحبر: ملأت الأرض نفاقاً لم ترد به وجهي، ولا أردت بشيء منه رضاي، وعزتي وجلالي لا تقبلت لك عملاً، فلما قال له النبي ـ عليه السَّلام ـ ذلك سقط في يديه، ورمى تلك الكتب، وأتى غاراً في جبل، فتعبد فيه برهة، فأوحى الله تعالىٰ إلى ذلك النبي: أن اذهب إليه، وقل له: يقول لك الله: إنك لم تصب رضاي، فلما قال له

(١) البطة: وعاء يحفظ فيه الزيت لتعبئة المصباح منه.

النبي ذلك تحير، وقال: ماذا أصنع؟ فألهمه الله تعالىٰ أن ادخل الأسواق، واخفض من نفسك، ففعل وخفض من نفسه، وساعد الضعيف، ومسح على رأس اليتيم، فأوحى الله تعالىٰ إلى ذلك النبي أن قل له: الآن أصبت رضاي. وروي أيضاً: أنه كان في بني إسرائيل رجل خليع، فاجتاز عابد من عباد بني إسرائيل في الطريق، فاتبعه ذلك الخليع وقال: لعله أن تنزل عليه رحمة فتصيبني معه، قال فجعل الخليع يتبع العابد، فالتفت إليه العابد، وقال: مالي ولك، أنا عابد بني إسرائيل، وأنت خليع بني إسرائيل، اذهب عني.. فذهب الخليع وقد انكسر قلبه، فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان، أن قل لهذا الخليع: قد غفرت لك كل عمل عملته بتواضعك لهذا العابد، وقل لهذا العابد: قد أحبطت كل حسنة عملتها بتجبرك على هذا الخليع، قل لهما فليستأنفا العمل. ويكفي في ذلك قوله ﷺ: «من تواضع رفعه الله، ومن تكبَّر وضعه الله».

ومن المهلكات: الرياء والعجب بطاعة الله، فأما الرياء فهو الشرك الخفي والشرك الأصغر، ومعناه: طلب المنزلة عند الناس والتعظيم منهم بعمل الآخرة، وقد جاء فيه من الوعيد الشديد من الآيات والأخبار ما لا يحصى، قال الله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧]، وقال ﷺ: «من طلب الدنيا بعمل الآخرة، طمس الله وجهه ومحق ذكره، وأثبت اسمه في النَّار»، وقال سيدنا الشيخ عبد الله ابن علوي الحداد علوي نفع الله به: وأشد أنواعه أن يتجرد باعث الرياء في العبادة، بحيث يصير الإنسان لولا الناس، والحرص على إطلاعهم ونظرهم إليه، لم يجد باعثاً على العمل أصلاً، ودون ذلك أن يقصد بعمله التقرب إلى الله تعالىٰ، وطلب ثواب الآخرة، مع مراءاة الناس، وطلب المحمدة عندهم والمنزلة، وهذا قبيح مبطل للثواب، والذي قبله أقبح وأحبط وأخطر. انتهىٰ، ودقائق الرياء الذي هو دسيسة النفس والشيطان والهوى كثيرة، فمن ابتلي به ـ وكلنا ذلك المبتلى ـ فعليه بكتاب الرّياء من الإحياء، وما ذكره ابن حجر رحمه الله في كتابه: (الزواجر)، والإمام الشريف محمد بن الحسن في تاريخه: (مجمع الأحباب) في ترجمة بشر

الحافي وحاتم الأصم رضي الله عنهم وغيرهما، فبمراجعة ذلك مع رؤية قبح هذا الخلق وكراهته، والخوف من إحباط العمل اتفاقاً، بل ومزيد العقاب على ذلك مع الخلاف، قد يُرجى له الخلوص منه، وكذلك بمراجعة أقوالهم والتطلع على ما كان من أحوالهم، من الإخلاص لله تعالىٰ، والصّدق مع الله، ومراعاة النيَّة الخالِصَة، وسيأتي ذكر بعض ذلك عند ذكر سيدنا وشيخنا الناظم نفع الله به: «يا رب وأرزقني صلاح النيَّة. .» وما بعده في آخر المنظومة، وليس من الرياء الفرح بطاعة الله تعالىٰ، وبتوفيق الله له فيها، فقد ورد أن من إيمان الرجل أن تسؤه السيئة وتسره الحسنة، قال الشريف محمد بن الحسن في كتابه المذكور في ترجمة بشر الحافي رضي الله عنه ـ جعل في آخرها خاتمة واسعة، مشتملة على علوم ومعارف نافعة ـ قال رضي الله عنه في أولها: اعلم أنه قد مر في ترجمة بشر عدم إجابته إلى سماع الحديث، وكذا امتناعه عن كثير من تناول الشبهات، ومنع نفسه كل المتع، وقد وقع ذلك أيضاً لجماعة من العارفين، كداود الطائي، وسري السقطي رضي الله عنهما وغيرهما. وربما وقف العامي على ظاهر هذا وظنه خلاف الأولى، وربما يزيد في العبادة فيظنه غير مباح، والبصير يعرف أن ذلك من محض التقوى وشدة الورع، بيان ذلك في مقامين أحدهما في جانب التعليم، وثانيهما في عدم تناول بعض الشبهات. أما الأول فلهم في ذلك أعذار، منها خشية العجب وغير ذلك، ويرون أن غيرهم يقوم بذلك فلا يتعين عليهم، ولهذا قال بشر رضي الله عنه: المحدّثون كثير، فعلَّل بأن هذا لا يتعين عليّ، وخشي على نفسه العجب وغيره، فأحجم عن سماع الحديث لذلك، ولا شك أن للنفس دفينة في نشر العلم، فلهذا ينبغي للعالم أن يجاهد نفسه، ويدفع عنها الأسباب المؤدية إلى العجب وغيره، لئلا يلحقه الإثم الكبير. ثم أشبع الفصل وحرر النقل، في عذر امتناع هؤلاء الأئمة عن التدريس، وفي الحث على تعليم العلم، وعدم قبول تثبيط الشيطان عن ذلك، مخيلاً أو محتجاً بقول هؤلاء، فإن الأئمة لم يتركوا تعليم العلم وتعلمه، بما يحوك في نفوسهم من هذه الخواطر المثبطة عن هذه الفضيلة، التي أجمع علماء الإسلام على أنها أسنى الفضائل، وأنه أفضل من صلاة النافلة، وحاصل ما ذكره حرَّره سيدنا القطب الشيخ عبد الله الحداد علوي ـ نفع الله به ـ في مقدمة كتاب: (الدعوة

التامَّة) فلينظر منه. وأما العجب فهو من المهلكات، ومعناه: أن يعتقد كمال نفسه مع فرحه بذلك الكمال، مع نسيان نعمة الله عليه وعدم الخوف من زوالها.

ومن المهلكات: الحسد لعباد الله، والحقد عليهم، وإضمار الشر لهم، وسوء الظن بهم، وعدم الرحمة بهم والشفقة عليهم، وكلها قبيحة مهلكة للدين، والمتلبس بها معذب نفسه، متعب لها، لأن الحسد: كراهة النعمة على المسلم واستثقالها، وأشد منه حب زوالها، والحقد: تمكن الحسد مع إضمار الشر، وسوء الظن بالمسلمين: أن يعتقد في الأفعال والأقوال التي تصدر منهم ظاهرها الخير ويظن بهم السوء، كقصد المراءاة بها والتصنع للخلق، وذلك من خبث السريرة، أو يرجح فيما يحتمل الخير والشر جانب الشر، وفي ذلك كله وعيد شديد، من الكتاب والسنة وأقوال العلماء. ومن المهلكات: الإصرار على معصية الله تعالىٰ، وهو منافٍ للإيمان، لأن المُصرَّ على المعصية معاند لربه، ومخالف له، إما بفعل المنهي أو ترك المأمور، والمصر شقي ممقوت، لأنه غير متأهب للتوبة، التي وصف الله بها عباده الهاربين بالتوبة، إذ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. ومنها: التصغير لما عظم الله من طاعته، وإن قَلَّت فربما فيها رضاه، والتصغير لمعصيته، وإن قَلَّت أيضاً فربما فيها غضبه، أو تصغير شيء من القرآن، أو شيء من الأوامر والنواهي، أو الجنة أو النار، أو مسلم بأن تحتقره لرثاثة حاله، أو قلة ماله، أو دماثة أخلاقه، فكل ذلك من الخبائث المهلكة، وقد يفضي بعضه إلى الكفر، لا سيما إذا اقترن به نحو الاستهزاء. ومن المهلكات وخبائث الصِّفات: الشح والبخل وحب المال وحب الرئاسة، وحب الدنيا وهو أصل لهذه الرذائل، ولغيرها من أمهات الكبائر كالحسد والرياء، وحب المحمدة والثناء من الناس، وقد قال ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، وقال الحسن البصري رضي الله عنه: أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة، والأصول: الحسد، والحرص، وحب الدنيا، والفروع: حب الرئاسة، وحب الفخر، وحب الثناء، وحب الشبع، وحب النوم، وحب الراحة، وهذه

الستة أيضاً أصلها حب الدنيا لقوله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، وقال أيضا: «من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه، ولا يفتح العبد على نفسه باباً من الدنيا إلا سدَّ الله عليه عشرة أبواب من عمل الآخرة»، وعن السري السقطي رضي الله عنه قال: إن الله تعالىٰ سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده، لأنه لم يرضها لهم، وكلام السقطي رضي الله عنه مقتبس من قوله ﷺ: «إذا أحب الله عبداً زوى عنه الدنيا. . .» الحديث، وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: القلب إذا غلبه حب الدنيا لم تنفع فيه الموعظة، وفي بعض الكتب: إن الله تعالىٰ يقول: إن أهون ما أنا صانع بالعالم إذا أحب الدنيا، أن أخرج حلاوة ذكري من قلبه، وقال عبد الواحد بن يزيد رحمه الله: ما عبدٌ أعطي من الدنيا شيئاً فابتغى إليه ثانياً، إلا سلبه الله تعالىٰ حب الخلوة معه، وبدله بعد القرب بعداً، وبعد الأنس وحشة، وقال سفيان الثوري رحمه الله: لو أن عبداً عبد الله تعالىٰ بجميع المأمورات، إلا أنه يحب الدنيا، إلا نودي عليه يوم القيامة على رؤوس أهل الجمع: ألا إن هذا فلان ابن فلان قد أحب ما أبغض الله، فيكاد يسقط لحم وجهه من الخجل، وقال: إني لأعرف محبة الرجل للدنيا بتملقه لأهل الدنيا، وقال الشافعي رضي الله عنه: من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع لأهلها، وقال الفضيل قدس الله روحه: إذا أحب الله عبداً أكثر همه وغمه، وإذا أبغض عبداً وسَّعَ عليه دنياه، وقال رحمه الله: لو أن الدنيا عرضت عليّ بحذافيرها، لا أحاسب بها، لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا قربها أن تصيب ثوبه، وكان يقول: جعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا، وقال معروف الكرخي رحمه الله: لولا إخراج حب الدنيا من قلوب العارفين، ما قدروا على الطاعات، والعارف يرجع إلى الدنيا اضطراراً، والمفتون يرجع إليها اختياراً، وقال الجنيد رضي الله عنه: لا تصفو القلوب لعمل الآخرة إلا إذا تجردت من الدنيا، فانظر في ابتداء أمرك على إخراج حب الدنيا من قلبك، واحذر أن يبقى عليك منها دقيق هوى، كامنٍ فيك، فيوقفك ذلك عن النفاد

والترقي، وما رأيت أحداً عظم الدنيا فقرَّت عينه فيها أبداً، وكان بشر يتمثل بهذين البيتين للوراق:

مكـــرم الـــدنيـــا مهـــان مستـــذل فـــي القيـــامـــة
والـــذي هـــانـــت عليـــه فلـــه ثـــم كـــرامـــة

وكان أيضاً ينشد هذه الأبيات:

أقسـم بـالله لـرضـح النـوى وشـرب مـاء القلـب المـالحـه
أحسـن لـلإنسـان مـن حـرصـه ومـن سـؤال الأوجـه الكـالحـه
فـاستغـن بـالله تكـن ذا غنـىً مغتبطـاً بـالصَّفقـة الـرابحـه
اليـأس عِـزٌ والتقـى سـؤدد ورغبـة النفـس لهـا فـاضحـه
مـن كـانـت الـدنيـا بـه بـرة فـإنهـا يـومـاً لـه ذابحـه

وقال الحسن البصري رحمه الله: مسكين ابن آدم، رضي بدارٍ حلالها حساب وحرامها عقاب، يَستقل ماله ولا يستقل عمله، وقال الإمام محمد الباقر ابن علي زين العابدين رضي الله عنهما: كان لي صاحب، وكان عظيماً في عيني، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وقال الشيخ محمد بن حسن جمل الليل باعلوي ـ نفع الله به ـ: قلت مرة: أين الناس؟ أين الناس؟ فهتف بي هاتف: راحوا في الكاس، راحوا في الكاس، والكاس: حب الدنيا، وقال علي كرم الله وجهه: إذا كان يوم القيامة، أتت الدنيا بأحسن زينتها، ثم قالت: يا رب، هبني لبعض أوليائك، فيقول الله عز وجل: اذهبي لا شيء، فلأنت أهون من أن أهبك لبعض أوليائي، فتطوى كما يطوى الثوب الخلق، فتلقى في النار، وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رحمه الله: الطريق الذي لا يختلف فيه العلماء: الزهد في الدنيا، الدنيا مثل المزبلة، لا قدر لها، فلهذا تجد الصَّادق لا يشتغل بها، ولا يشغل قلبه بحبها ولا ببغضها، وشكا بعضهم لرجل من الصَّالحين: أنه يعمل أعمال البر، ولا يجد حلاوة في قلبه، فقال له: لأن عندك بنت إبليس، وهي الدنيا، ولا بد للأب أن يزور ابنته. وقد أطلنا النقل على هذا الداء العضال، الذي استغرق همه قلوب

الخلق، فاشتغلوا بطلب الرزق، وصارت المنافسة في ذلك مذهبهم، والمكاثرة والمفاخرة مطلبهم ومشربهم، كما قال القطب الحداد نفع الله به:

تنافسوها وأعطوها قوالبهم   مع القلوب فيا لله من عجب

وهي التي صغرت قدراً وما وزنت   عند الإلٰه جناحاً فالحريص غبي

وكان يكفي في ذلك ما ورد في الآيات والأخبار، وقد أوردنا بعضها في الكلام على الفقر، ومنها: حديث كعب بن عياض رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال» أخرجه الترمذي وصححه، وأخرجه أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا»، قال الإمام النووي رحمه الله: والمراد بالضيعة هنا: الأرض والزرع، وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم، أفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه». أخرجه الترمذي وصححه، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنَّ لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» أخرجه الشيخان، وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء» أخرجه الترمذي، إلى غير ذلك من الأحاديث. اللهم أخرج من قلوبنا كل قدر للدنيا، وكل محل للخلق يميل بنا إلى معصيتك، أو يشغلنا عن طاعتك، أو يحول بيننا وبين التحقق بمعرفتك الخاصة، ومحبتك الخالصة، يا أرحم الراحمين، هذا الدعاء مما أورده القطب الشيخ عبدالله ابن علوي الحداد علوي، في بعض مكاتباته، وقال: إنه مما فتح به عليه.

ومن أعظم المهلكات، وأخطر الآفات، وأقبح الصِّفات: فتنة العبد بخصله، المحبطة لأعماله، والمكذبة لأحواله، من حيث لا يدري ولا يشعر، وذلك بأن يتكل على عمل أو يستند إلى أمل، يظن أنه منح له عند الله وفي الدار الآخرة، من غير أن ينظر إلى آفاته ودسائس نفسه ومكائد شيطانه، بل يغتر بالأماني كما قال الله تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤]، فإذا جاء أمر الله

وانكشف الغطاء، وجد ما معه وما بعده كالسراب، يحسبه الظمآن ماءً، وتحقق حينئذٍ أنه ممن يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، والمنجي من ذلك ما قدمناه من اتهام النفس، والاحتراز باجتناب جميع المهلكات الذي مر بعضها، والتحلي بجميع المنجيات التي سيأتي بعضها، ثم لا يتكل إلا على فضل الله ورحمته، الذي أرشد إليهما بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وقد حقق أنواع الغرور الحجة الغزالي ـ رحمه الله ـ في الجزء العاشر من المهلكات، من (الإحياء)، وكذا الإمام الشعراوي، في كتابه: (تنبيه المغترين)، فعليك بهما، وبتحقق ما فيهما، فلعلك تسلم من وبال هذه الآفة الرديّة، والله ولي التوفيق.

وخبائث القلب، وما يتعلق به من الأمور المذمومة كثيرة، وقد أشرنا إلى أمهاتها، قال في الإحياء بعد أن ذكر وعدَّد كثيراً منها: والعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها: وأسبابها، وثمراتها، وعلاجها، هو علم الآخرة، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة، والمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة، كما أن المعرض عن الأمور الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا، بحكم فتوى الدنيا، ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني، حتى عن الإخلاص مثلاً، أو عن التوكل، أو عن وجه الاحتراز من الدنيا، لتوقف فيه، مع أنه فرض عينه، الذي في إهماله هلاك الآخرة. انتهىٰ المقصود من ذلك.

الفرع الرابع: في طاعات القلب، والخصال المحمودة التي تقوم به، وتسمى المنجيات، فمن أهمها وأعظمها بعد الإيمان والتصديق بالله تعالىٰ وبرسله وأنبيائه وكتبه، وبما جاء به محمد ﷺ: التوبة من جميع الذنوب والتبعات والهفوات، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التَّائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾» [البقرة: ٢٢٢]، قيل: يا رسول الله، وما علامة التّوبة؟ قال: «الندامة»، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: يا صاحب

الذنب، لا تأمن شر عاقبته، فإن ضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك، أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وعدم اضطراب قلبك من نظر الله تعالى إليك وأنت على الذنب، أعظم من الذنب. وقال الحسن البصري رحمه الله: إذا أذنب العبد ثم تاب، لم يزدد بتوبته من الله تعالى إلا قرباً، فإذا أذنب ثانياً ثم تاب، لم يزدد كذلك إلا قرباً، وقال ذو النون المصري رحمه الله: الاستغفار من غير إقلاع، توبة الكذابين.

ونورد هنا فائدة حريّة بالإيراد، لجمعيتها لشروط التوبة ومعناها، وحقيقتها والحث عليها، من: (النفائس العلوية في المسائل الصوفية) للقطب الشيخ عبد الله ابن علوي الحداد باعلوي، جَمْعُ الإمام الوارث الشيخ الحبيب أحمد بن زين الحبشي باعلوي قدس الله روحهما ونفع بهما، قال رضي الله عنه: اعلم أن التوبة باب الله الواسع المفتوح، وفضل الله سبحانه المبذول لكل مقبل، ومعناها: أن يرجع الإنسان عن فعل كل شيء يحب الله تركه ويكره فعله كالمعاصي والمحرمات، ويدخل في فعل كل شيء يحب الله فعله ويكره تركه كالفرائض الواجبات، فمن ترك شيئاً من الفرائض أو وقع في شيء من المحارم، وأراد التوبة منه، فعليه أن يترك ذلك المحرم أو يفعل ذلك الواجب، مع الندم على ما كان منه من التفريط، والعزم على أن لا يعود إلى مثله ما عاش، وتجوز التوبة من بعض الذنوب، ومن تاب ثم عاد، لم تنتقص توبته الأولى بعوده، ويعود إلى التوبة، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، فله الحمد هو كما أثنى على نفسه. ثم ذكر بعد ذلك حكم ما إذا تاب من ظلم أحد، لزمه رد ما أخذه إن كان مالاً، والتمكين من القصاص وطلب الإحلال إن كان نفساً أو عرضاً، لا بد له من ذلك، فإن تعذر عليه من كل وجه، أتى بما قدر عليه، والمرجو من فضل الله تعالى أن يرضي خصماءه عنه في الآخرة. انتهى مع حذف من أثناء الكلام في ذلك ومن آخره.

وما جاء من الآيات والأخبار والآثار في التوبة، ما إذا وقف عليه المؤمن الموفق، أن يجعل التوبة هجيراه[1]، ومنتهى قصاراه، وهي هي، ولله در العارف

(١) الهجير: نصف النهار عند اشتداد الحر.

بالله تعالى الفقيه الشيخ عمر بن عبد الله بامخرمة رضي الله عنه، حيث حث وشوق إلى استعمال التوبة والاشتغال بها في كل حال، في قصيدة على نمط بعض أوزان شعره المعروف، ونسجه المألوف، فحث في أولها على أمور من أخلاق القوم الكريمة، وعلى التوبة بزيادة، ثم ثنى بذكر التوبة في آخرها، بعد ذكر الحث على قبول النصح، والحرص على الاعتناء بهذه الأبيات، وإن الممتثل لذلك والعامل به، تحصل له أمور عدّدها فقال نفع الله به:

والروح والراحهْ وشم برق الفرح من كل يم
بتوبة خلصا فهي المبدأ وذي به يختم
هي العروة الوثقى فلازمها وداومها وثم
واصبح وبت تائب وقل فيها مقال أهل الفهم
الصيد كل الصيد في جوف الفرا يا من ظلم
هي بابنا المفتوح هي باب الصفا والملتزم
أنوارها في النور ذي ناداك به باري النسم
في قوله توبوا جميعاً مؤمني عرب أو عجم
تفطن المعنى الذي خاطب به الباري وعم
طالب بها الصالح ليجبر من صلاحه ما انثلم
بالسهو والتقصير فإنه وإن غلا فيما زعم
لم يوفِ حق الله ولو عظم بجهده واحترم
والطالح المطرود يلقي في عرى دلوه وذم
حتى ينال الماء ويستشفي بها من كل ألم
في الدين والدنيا ويستقسم بها كل القسم
من مغنم الغفران لي منه الكبائر كاللمم

فانظر إلى إشاراتها، وتحقق ما في عباراتها، والإكثار من الاستغفار، من المهم المتأكد عند ذوي الأبصار، وقد جاء في ترغيبه من الآيات والأخبار، وفي تأثيره من محو الذنوب والأوزار، وفي أنه مناقض لشؤم الاصرار، قال تعالى:

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤]، وقال ﷺ: «ما أصَرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»، وقال سيدنا الشيخ عبد الله بن علوي الحداد نفع الله به: فالتوبة والاستغفار من كنوز الخيرات، ومن أعظم أبواب القربات والبركات، ومن أوصل الوسائل إلى جميع خيرات الدنيا والآخرة، فعليكم ـ رحمكم الله ـ بلزوم التوبة والاستغفار، آناء الليل والنهار، ثم إن الشيطان ـ لعنه الله ـ قد يخدع بعض الأغبياء من المسلمين، فيقول له: كيف تتوب وأنت لا تعرف من نفسك الثبات على التوبة، وكم تتوب ثم تعود إلى الذنب، ويلقي عليه وساوس من هذا الجنس فليحذره، وعلى العبد أن يتوب ويسأل ربه الإعانة والتثبيت، ثم إن غلبته نفسه على العود إلى الذنب، فليغلبها على العود إلى التوبة، والله الموفق والمعين. انتهى مع حذف يسير.

ومن المنجيات: تقوى الله في جميع الحالات، وهي عبارة عن امتثال الأوامر واجتناب المناهي، مع استشعار التعظيم والهيبة والخشية والرهبة من الله تعالى، وهي وصية الله للأولين والآخرين، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ [النساء: ١٣١]، وملخص ما أرشد إليه واقتبسه سيدنا الشيخ عبد الله بن علوي الحداد باعلوي ـ نفع الله به ـ من مجموع الآيات، مما يترتب على التقوى من الخيرات العاجلة والآجلة، فمن ذلك: المعية الإلهية، والفرقان عند الاشتباه ووقوع الإشكال، والكفارة للسيئات، والمغفرة للذنوب، والنجاة من النار، والمخرج من الشدائد، والرزق من حيث لا يحتسب، واليسر وعظم الأجر، والوعد بالجنة والكرامة في الدنيا والآخرة. هذا ما عرفه نفع الله به مع إيراد الآيات الدالة لذلك، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» فقالوا: ليس عن هذا نسأل، قال: «أكرم الناس يوسف نبي الله، ابن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق نبي الله، ابن خليل الله إبراهيم»، فقالوا: ليس عن هذا نسأل، قال: «فعن معادن العرب تسألوني، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا» رواه البخاري ومسلم.

قال القاضي عياض رحمه الله: قد تضمن هذا الحديث في الأجوبة الثلاثة، أن الكرم كله خصوصه وعمومه، مجمله ومفصله، إنما هو بالدين، من التقوى والنبوة والاعتراف بها، والإسلام مع الفقه، وقال أبو بكر الصّديق رضي الله عنه: أكيس الْكَيْس[1]: التقوى، وأحمق الحمق: الفجور، وأصدق الصدق: الأمانة، وأكذب الكذب: الخيانة.

وقال يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: من أحب زينة الدنيا والآخرة فلينظر في العلم، ومن أحب أن يعرف الزهد فلينظر في الحكمة، ومن أحب أن يعرف مكارم الأخلاق فلينظر في فنون الآداب، ومن أحب أن يستوثق من أسباب المعاش فليستكثر من الإخوان، ومن أحب أن لا يُؤذَى فلا يُؤذِي، ومن أحب رفعة الدنيا والآخرة فعليه بالتقوى، وقد أنشد في هذا المعنى:

من عرف الله فلم تغنه ... معرفة الله فذاك الشقي
ما ضر ذا الطاعة ما ناله ... في طاعة الله وماذا لقي
ما يصنع العبد بعز الغنا ... والعز كل العز للمتقي

ومن المنجيات: الورع عما حرم الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وقال ﷺ: «إنّ الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور متشابهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى، يوشك أن يقع فيه»، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا أكل طعاماً فيه شبهة ثم علم به، تقيأه من بطنه، ويقول: اللهم لا تؤاخذني بما شربت العروق وخالطت الأمعاء، وقال محمد الباقر ـ رضي الله عنه ـ: ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج، وقال سفيان الثوري رحمه الله: ما رأيتُ أسهل من الورع، ما حاك في نفسك تركته، والأقوال في ذلك كثيرة، والعمل بالفعل لذلك من أحوالهم، وما انتشر من سيرهم معروف، فقد رد إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ تمرة من القدس إلى البصرة، سقطت في تمر اشتراه حال الوزن، وغفل عن ردها حينئذ، وكان ذو النون المصري ـ رحمه الله ـ محبوساً، فحملت إليه امرأة صالحة طعاماً حلالاً من

(١) الكيس بوزن الكيل ضد الحمق. . مختار الصحاح.

غزلها، فرده وقال: جاءني على طبق ظالم ـ يعني به يد السَّجَّان وقد أرسلت به على يده ـ وسألت أخت بشر بن الحارث، أحمد بن حنبل، عن الغزل إذا مَرَّ مشعال السلطان في ضوئه بغير اختيار، هل تتركه حال مروره؟ فقال لها: نعم، وسأل عنها، فقيل له: أخت بشر بن الحارث، فقال: قد عجبت أن يكون هذا الورع إلا لأهل هذا البيت، وقالوا من شدة ورعهم، إنهم كانوا يتركون ما لا بأس به، مخافة ما به بأس، ويتركون سبعين باباً من الحلال مخافة الوقوع في باب الحرام، قال الشريف محمد بن الحسن في كتابه: (مجمع الأحباب) ناقلاً لذلك من: (جواهر القرآن) للحجة الغزالي رضي الله عنهما: قال الأئمة: من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله تعالىٰ قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة على قلبه ولسانه، وفي رواية: وزهده الله في الدنيا، وقال: من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام، لم يقبل الله عز وجل صلاته ما دام عليه منه شيء، وقيل: العبادة مع أكل الحرام كالبناء على السرجين، واعلم أن لطيب المطعم خاصية عظيمة في تصفية القلب وتنويره، وتأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفة، وفيه سِر لا يحتمله هذا الكتاب، ولكن ينبغي أن يفهم أن درجات الورع أربع:

الأولى: ما أفتى الفقهاء بتحريمه، وبارتكابه يحكم بالفسق وتزول العدالة.

الثانية: ورع الصَّالحين، وهو الحذر عما يتطرق إليه احتمال التحريم، وإن أفتى المفتي بحله.

الثالثة: ورع المتقين، قال ﷺ: «لا يبلغ العبد درجة المتقين، حتى يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس».

الرابعة: ورع الصديقين، وهو الحذر عن كل ما لا يراد بتناوله القوة على طاعة الله تعالى. انتهىٰ ملخصاً.

ولا يتيسر تحصيل الورع وتحري الحلال، إلا بالقناعة والتقلل من الدنيا وشهواتها، إذ الحلال لا يحتمل السَّرف، وقد قال الحجة الغزالي قدس الله روحه: لو كانت الدنيا دماً عبيطاً، لم يأكل المؤمن منها إلا حلالاً، إذ لا يأخذ منها إلا قدر الحاجة والضرورة، وقد أبيح له ذلك حتى من الميتة، والحاصل: أن

الورع أساس وملاك الدين، وبه تفجر ينابيع الحكمة من قلوب المتقين، وهو ركن من أركان الاستجابة للدَّاعين، وكشف الحجب للمحدثين، والحمد لله رب العالمين.

ومن المنجيات العظيمة: الصدق والنيّة والإخلاص وسيأتي آخر الشرح كما مرت الإشارة إلى ذلك، ومنها: الزهد في الدنيا، وهو مقام شريف، والمتحلي به محبوب عند الله وعند عباده، كما ورد عنه ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»، وحقيقة الزهد: رفض الدنيا بالكلية، وخروج حبها رأساً من القلب، وإيثار الفقر على الغنى، والاقتصار من المأكل والملبس والمسكن على قدر الحاجة والضرورة، استصغاراً لما حقره الله تعالىٰ من زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وتجرداً لطاعة الله تعالىٰ، وفراراً من فتنتها، والتمتع بشهواتها، المفضية إلى الوقوع في الشبهات. وأما من زهد فيها، طلباً للراحة، وفراراً من مزاحمة أبنائها، وطلباً للسلامة من شرها وشرهم، فذلك لا يخلو من خير، ولا ينتج إلا خيراً، وهو شأن العقلاء العارفين بحقيقة الدنيا، ولذا قال الإمام الشافعي وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ: لو أوصى لأعقل الناس صُرِف إلى الزُّهاد، ولكن الزهد على الصِفةِ السَّابقة هو الزهد الكامل، المبلغُ العاملَ عليه أعلى الدرجات، وقد بين يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله ـ صفات الزهد فقال: الزاهد الصَّادق قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن ذكره، والرب سبحانه وتعالىٰ أنيسه، والذكر حديثه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله، والعبادة معرفته، والجنة مبلغه. ومما يعين على التحلي بمقام الزهد، طمأنينة القلب وحلول القناعة فيه، قال ﷺ: «القناعة كنز لا يفنى»، وقال بشر الحافي رضي الله عنه: القناعة ملك لا يسكن إلا في قلب مؤمن.

ومن المنجيات: التوكل على الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، إلى

غير ذلك من الآيات. وقال ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصاً وتروح بطاناً»، ومعنى التوكل: الثقة بالله و وكول الأمر إليه، والرضى به وكيلاً، قال الإمام الشيخ الحبيب أحمد بن زين الحبشي في: (شرح العينية) ومعنى التوكل: اعتماد القلب على الله تعالىٰ وحده، وتبريه من حول نفسه وقوتها، وتعلقه بالله في كل حال، مع القيام بالخدمة والأدب لله تعالىٰ، والعمل بموجب سنته في عباده، على وجه الشرع والاتباع للسنة المحمديّة، فالتوكل مقام شريف لا يصح إلا من زاهد في الدنيا، موقن بتوحيد الله وقدرته، وسعة علمه ولطفه ورحمته. قال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ لأحمد ابن الجواري ـ قدس الله روحهما ـ: لي من كل مقام نصيب، إلا من هذا التوكل المبارك، فإني ما شممت منه رائحة. هذا مع رسوخ قدمه في مقامات الدين، ثم قال نفع الله به: وعلوم التوكل وأحواله بحارٌ متلاطمة، كيف وأصله التوحيد، الذي قد طاح فيه كم جهبذ فريد. انتهىٰ، وقال سهل بن عبد الله: علامة التوكل ثلاث: لا يسأل، ولا يرد، ولا يحس. وقال بعض السَّلَف: من رضي بالله وكيلاً، وجد إلى كل خير سبيلا. وقال الشيخ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: واعلم أن التوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي توكل القلب، بعدما تحقق العبد أن التقدير من قِبَل الله عز وجل فإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق فبتيسيره. وروي بسنده إلى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه جاء رجل على ناقة، فقال: يا رسول الله، أدعها وأتوكل؟ فقال عليه السَّلام «اعقلها وتوكل»، وقال الشيخ مصطفىٰ البكري: تدبير الأخيار ترك الاختيار. وقال بعضهم: أيها الرجل، ما قُدِّر لِمَاضِغَيْكَ أن يمضغاه، فلا بد أن يمضغاه، فكُلْه ـ ويحك ـ بِعِزٍّ، ولا تأكله بذل. وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رحمه الله: من لم يكن له مقام في التوكل، كان ناقصاً في توحيده، والتوكل فرع التوحيد، وسيأتي ذكر التوحيد آخر هذا الشرح.

ومن المنجيات: الصَّبر على طاعة الله تعالىٰ، وعن ما حرمه الله، وعلى ما قضاه وقدره من بلائه، وقد مرَّ ذكره في الفرع الأول. ومنها: الشكر على نعم الله تعالىٰ التي لا تحصى ولا تعد، ولو كان البحر مداده‍ما لنفد، وأعظمها: نعمة الإسلام، كما قال سيدنا القطب الحداد نفع الله به:

نحـــــن فـــــي روح وراحـــــه وحبـــــور واستـــــراحـــــه
نعمـــــة الإســـــلام أكبـــــر نعمـــــة حلـــــت بســـــاحـــــة

قال أبو القاسم القشيري رحمه الله: والشكر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاق والخدمة، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة. وقال المرتعش رحمه الله: سمعت الجنيد رضي الله عنه يقول: كنت بين يدي السري ألعب، وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: أن لا يعصى الله بنعمه، فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لِسَانك، قال: فلا أزاد السري على هذه الكلمة التي قالها الجنيد.

وقال القطب الشيخ عبد الله بن علوي الحداد باعلوي رضي الله عنه: ومن الشكر العملُ بطاعة الله تعالىٰ، وأن يستعين بنعم الله تعالىٰ على طاعته، وأن يضع نعم الله مواضعها التي يحبها الله، وذلك هو غاية الشكر ونهايته، وأن لا يتكبر بالنعم، ولا يفتخر بها على عباد الله تعالىٰ، ولا يبغي، ولا يطغى، ولا يتعدى على العباد، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد كفر النعمة ولم يشكرها، والكفران سبب لسلب النعم وتبدلها بالنقم، قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ الآية [الأنفال: ٥٣]، أي بترك الشكر. انتهىٰ، ومن الشكر: إظهار أثر النعمة، كما ورد أن الله تعالىٰ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وكذا الإكثار من: الحمد لله. قال رسول الله ﷺ: «أول ما يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحمادون، الذين يحمدون في السَّرَاء والضراء»، وقال رسول الله ﷺ: «من ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، وظُلم فغفر، وظلم فاستغفر»، قيل: فما باله؟ قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»، وفي أخبار داود عليه السَّلام: إلٰهي. كيف أشكرك، وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ فأوحى الله تعالىٰ إليه: إذا عرفتني فقد شكرتني.

ومن المنجيات: الرضى عن الله تعالىٰ، والأنس بالله، والمحبة والمعرفة لله، والشوق إلى الله، والحياء من الله، والاستقامة على طاعة الله، والعبودية والغيرة

لله، واليقين بحقيقة ما لله، والسخاء والجود، والفتوة والقربة والاتصال، وغير ذلك من سني المقامات والأحوال، كالتصوف والولاية والفراسة.

أما الرضا: فهو مقام شريف، قال الله تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً»، وقال ﷺ: «إن الله تعالىٰ بحكمته، جعل الروح والفرح في الرضىٰ واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسَّخَط». قال الحارث: الرضا هو سكون القلب تحت جريان الحكم، وقال ذو النون ـ رحمه الله ـ: الرضا سرور القلب بمر القضا، وقالت رابعة لما سمعت سفيان يقول: (اللهم إني أسألك الرضا): أما تستحي أن تسأل رضى من لست عنه براضٍ، فسألها بعض الحاضرين: متى يكون العبد راضياً عن الله تعالىٰ؟ فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة، وقال أبو تراب: ليس ينال الرضى من الله من للدنيا في قلبه مقدار، وقيل ليحيىٰ بن معاذ رحمه الله: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضىٰ؟ قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به، يقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت، وأقاويلهم في ذلك كثيرة.

وأما الأنس بالله وما بعده، فهي مقامات متلازمة، وبعضها من بعض، لأن المحبة من آثار المعرفة، والأنس والشوق والحياء والاستقامة والغيرة من آثار المحبة، وكذلك المراقبة والمحاسبة من آثار المعرفة والمحبة، وأيضاً: اليقين له بعض آثار هذه المقامات. قال سيدنا الشيخ العارف بالله تعالىٰ عمر بن سقاف باعلوي ـ نفع الله به ـ: وحقيقة اليقين يثمر التوكل والمحبة والرضا، وجميع المقامات هي ثمرة اليقين، وهو جوهر التوحيد، ونتيجة التفريد، فتحصل لصاحبه الثقة الكاملة بالله تعالىٰ، وعدم الالتفات إلى غير الله، ويرى الكل على الحقيقة عدماً، قال بعض العارفين الأقطاب: قل الله ثم استقم، وكل الخلائق عدم، هب أن العدم قد عدم، ويبقى قديم القدم. وما دام العبد يفرحه العطاء من الخلق، ويحزنه المنع منهم، فذلك من ضعف اليقين، بل من فقده. انتهىٰ، وهذا نزر يسير نقلته من أقاويلهم، التي تشير إلى التحقق بهذه المقامات أو التعلق بها، أو التشوق

إليها أو الإيمان بها. ففي كل ذلك خير وفلاح، وبه يحصل للصادق الوصول والنجاح.

قال سري السقطي رحمه الله: خمس من أخلاق المقربين: الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره، والحب له بالتحبب إليه، والحياء من الله تعالىٰ، والأنس به، والوحشة مما سواه. قال الإمام القشيري رحمه الله: ويحكى عن أبي جعفر الحداد قال: رآني أبو تراب النخشبي وأنا في البادية، جالس على بركة ماء، ولي ستة عشر يوماً لم آكل ولم أشرب، فقال: ما جلوسك ها هنا؟ فقلت: أنا بين العلم واليقين انتظر ما يغلب فأكون معه. يعني إن غلب العلم شربت، وإن غلب اليقين مررت. انتهى، وقال المحاسبي ـ رحمه الله ـ: من صح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السُّنة، وقال القرشي: يسير العمل مع الرعاية منجح، وقال ابن عطاء: العلم الأكبر الهيبة والحياء، فإذا ذهبت الهيبة والحياء لم يبقَ فيه خير. قال بعضهم: من ادعى محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى محبة الجنة من غير إنفاق ملكه فهو كذاب، ومن ادَّعىَ حُبَّ رسول الله من غير حب الفقراء فهو كذاب. وقال أبو عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، ولا يبقَ لك منك شيء.

وسئل بعضهم: الشوق أعلى أم المحبة؟ فقال: المحبة أعلى، لأن الشوق يتولد منها فلا مشتاق إلا من غلبه الحب، فالحب أصل والشوق فرع، وقالت رابعة: كل مطيع مستأنس، وأنشدت:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحديث قلبي في الفؤاد أنيسي

وقال يحيىٰ بن معاذ رحمه الله: إلٰهي.. إني مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغير جذبتني إليك، وسربلتني بعرفك، وأمكنتني من لطفك، ونقلتني في الأحوال، وقلبتني في الأعمال، سيراً وتوبة، وهدى وشوقاً، ورضى وحُباً، سقيتني من حياضك، وتهملني في رياضك، ملازماً لأمرك، ومشغولاً بقولك، ولمَّا طرَّ شاربي، ولاح طائلي، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً، وقد اعتدت هذا

منك صغيراً، فلي ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأني أحبك وكل محب بحبيبه مشغوف، وعن حبيبه مصروف. وقال النصرآبادي: باتباع السُّنة تنال المعرفة، وبأداء الفرائض تنال القربة، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة.

وقال أبو القاسم القشيري رحمه الله: سمعت أبا علي الدقاق يقول: العبودية أتم من العبادة، فأولاً عبادة ثم عبودية ثم عبودة، ثم نزَّلها على العوام والخواص وخواص الخواص، وفسرها بما سبق في علم اليقين وعينه وحقه، السابق معناه في معنى الترقي. وقال الشريف الجرجاني رحمه الله ونفعنا به: العبودية: الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضىٰ بالموجود، والصبر على المفقود. وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رحمه الله ونفعنا به: الزم الأدب وجدك من العبودية، فإن أرادك لشيء أوصلك إليه، ولله در القائل حيث يقول:

أعطِ المعية حقها ... والزم له حسن الأدب
واعلم بأنك عبده ... في كل حال وهو رب

وقال شيخنا الإمام الوارث حامد بن عمر حامد باعلوي ـ قدس الله روحه: العبد في الحقيقة مظهر من مظاهر الرب، بل أعظمها لقوله تعالىٰ: «ما وسعني سمائي ولا أرضي، وما وسعني إلا قلب عبدي المؤمن»، ولكن ظلمة الهوى وشهود الأغيار، حالت بين من لم يتصف بحقيقة العبودية، وإلا فأصل العبد: العبودية، فمن اتصف بها فإلى أصله انتسب. وقال الشيخ شعيب أبو مدين رضي الله عنه: ما وصل إلى صريح الحريَّة، من بقي في نفسه بقية.

وقال الشيخ محمد بن عبد الله العيدروس باعلوي ـ نفع الله به ـ مشيراً إلى ما قاله شعيب أيضاً: وأعظم الإيثار: الاعتراف بذل العبوديَّة إظهاراً لعز الربوبية، قال: فشأن رجال الحق الوقوف عند حد البشرية، في جميع ما يحاولونه في أكلهم وشربهم ولباسهم وجميع أنحائهم، ويرون الأنفة من كل ذلك نوعاً من التكبر، الذي ليس من شأن البشريَّة، فيقفون عند حدهم، ويتأدبون مع ربهم، وكذا لا يفرطون في إعزاز أنفسهم، بحيث يعظم عليهم أن يعابوا أو ينتقصوا، أو يقال في أحدهم ما يكره، إذ يرون أنفسهم أهلاً للعيوب، وضعاً منهم لأنفسهم، وتهويناً منهم في أعراضهم وما يقال فيهم، وإيثاراً للكمال لله الواحد القهار. انتهى.

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي ـ رحمه الله ـ: العمال أربعة: تائب وزاهد ومشتاق وواصل، فالتائب محجوب بتوبته، والزاهد محجوب بزهده، والمشتاق محجوب بحاله، والواصل لا يحجبه عن الحق شيء. وقال النوري: الاتصال مكاشفات القلوب، ومشاهدات الأسرار. وقال بعضهم: الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه، ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه.

وقال رويم: التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار. وقال سهل بن عبد الله: الصوفي من يرى دمه هدراً، وملكه مباحاً.

قال الإمام الطيبي رحمه الله في شرح مشكاة الحديث: قال بعض العارفين: العلم المكنون، والسر المصون، علم هذه الطائفة، وهو نتيجة الخدمة، وثمر الحكمة، لا يظفر به إلا الغواصون في بحار المجاهدات، ولا يسعد به إلا المصطفون بأنوار المشاهدات، إذ هو أسرار متمكنة في القلوب، لا تظهر إلا بالرياضة، وأنوار ملتمعة في العيوب، لا تنكشف إلا للقلوب المرتاضة، وأهل العزة بالله لها منكرون، وعنها مدبرون. قال شيخنا شيخ الإسلام أبو حفص السَّهروردي ـ قدس الله سره ـ: علومهم كلها إنباء عن وجدان، وإغراء[1] إلى عرفان، وذوق وتحقق بصدق الحال، ولم يفِ به نطق المقال، فاستعصت نكتها على الإشارة، وطفحت على العبارة، وتهاوتها الأرواح بدلالة التشاؤم والائتلاف، وكرعت حقائقها من بحر الألطاف، وقد اندرس كثير من دقيق علومهم، كما انطمس كثير من حقائق رسومهم، وقد قال الجنيد ـ رحمة الله تعالىٰ عليه ـ: علمنا هذا طُوِي بساطه منذ كذا سنة، ونحن نتكلم في حواشيه.

وروى الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه أنه قال: لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي لفنى وانقطع، ولكنه من حق بدأ، وإلى حق يعود. وقال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة. وقال آخرون: من كان محبّاً للدنيا، أو مُصِراً على الهوى، لم يتحقق بشيء من هذا

(١) في العوارف بهامش الإحياء: اعتزاء.

العلم أبداً، وقال آخر من كان فيه خصلتان لم يفتح له من هذا العلم حرف كبر وبدعة. انتهىٰ ما ذكره الطيبي، فتأمله تعرف أنَّ هذه علومهم ومواجيدهم، لا تنال إلا بتصفية النفوس وتهذيب الأخلاق، والإتباع الكامل لمرشدهم الأكمل ﷺ، كما قال سيد الطائفة الجنيد ـ قدس الله روحه ـ: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وما أخرج الله علماً إلى الأرض، وجعل للخلق إليه سبيلاً، إلا وجعل لي فيه. وقال رضي الله عنه: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن على الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات، وقيل له: من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله تعالىٰ ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأشار إلى درجة في داره. وسيأتي لذلك مزيد بيان، عند قول سيدنا وشيخنا الناظم قدس سره:

ما سار سالك على الطريق ... إلى مقامات أولي التحقيق

ونظمت أسما أرباب الوصول ... ورزق التالي من الله القبول

واعلم أن هذه المقامات والأحوال هي كما نقله الطيبي عن شيخه السهروردي ـ صاحب العوارف ـ أي أن علومهم إنباء عن وجدان، وإغراء[1] إلى عرفان، فالواقف عليها، يشتاق إليها وإلى معرفتها، بالوجدان والذوق الذي حصل لهم، وأما كون الإنسان يرى ويسمع ما يفوهون به ويشيرون إليه، من معارفهم وعلومهم، ومقاماتهم وأحوالهم، مما أشرنا بالنقل إلى ذكره، كالمحبة، والأنس، والشوق، والرضا، والمعرفة، والولاية، والوصول، والمشاهدة، والقرب، والحياء، واليقين، فيظن أن ذلك يحصل بطريق التعلم والتفهم، لمعاني هذه الألفاظ، ويصورها على ما يعرفه من أوصاف البشرية، مما يفضي به ـ والعياذ بالله ـ إلى الكفر، ولا يدري أن ذلك أمر لا يعرفه إلا من تجرد عن أوصاف البشرية، معرفة غير موصوفة بإحاطة بصر أو غيره من الحواس، بل معرفة مقدسة عن جميع ذلك، كما حقق ذلك مجدد علومهم، ومحيي رسومهم، سيدنا الشيخ عبد الله بن علوي الحداد باعلوي ـ نفع الله به ـ قال: ومعنى الحب لله تعالىٰ: ميل وتعلق وتأله

---

(١) في العوارف بهامش الإحياء: اعتزاء.

يجده العبد في قلبه، إلى ذلك الجناب الأقدس الرفيع، مصحوباً بنهاية التقديس والتنزيه، وغاية التعظيم والهيبة لله تعالىٰ، لا يخالطه شيء من خواطر التشبيه، ولا يمازجه من أوهام التكييف، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، نبَّهنا على ذلك لأنّ بعض العامة الذين لا بصائر لهم، إذا سمعوا بأحوال أهل الله، وبأذواقهم في محبة الله، قد يسبق إلى قلوبهم وأفهامهم، وساوس وأوهام عظيمة الخطر، شديدة الضرر. انتهىٰ كلامه رضي الله عنه.

وقد ذكر الإمام الغزالي في الإحياء أن بعضهم أنكر تصور الشوق في حق الله تعالىٰ، لكن الذي قرره الحجة ـ رضي الله عنه ـ القول بتصوره مع القيد الذي ذكرناه ونقلناه عن الشيخ سيدنا عبد الله الحداد، ونزيد ذلك إيضاحاً وبياناً وتأييداً، بنقل عبارة من العوارف، وهي من أمهات كتب القوم، والأصول التي يرجع إليها في علومهم، قال ـ رضي الله عنه ـ في أثناء سياقٍ في مقام المحبة: وهذا الذي عبَّرنا عنه حقيقة، قول رسول الله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله»، لأنه بنزاهة النفس وكمال البركة[١]، يستعد للمحبة، والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية، ولكن سنة الله جارية أن يزكي نفوس أحبابه، بحسن توفيقه وتأييده، وإذا منح نزاهة النفس وطهارتها، ثم جذب روحه بجاذب المحبة خَلَع عليه خِلَع الصِّفات والأخلاق، ويكون ذلك عنده رتبة في الوصول، فتارة ينبعث الشوق من باطنه، إلى ما وراء ذلك لكون عطايا الله غير متناهية، وتارة يتسلى بما منح، فيكون ذلك وصوله الذي يسكن نيران شوقه، وبباعث الشوق تستقر الصِّفات الموهوبة، المحققة رتبة الوصول عند المحب، ولولا باعث الشوق رجع القهقرى وظهرت صفات نفسه المحيلة[٢] بين المرء وقلبه، ومن ظن من الوصول غير ما ذكرناه، أو تخايل له غير هذا القدر، فهو متعرض لمذهب النصارى في اللاهوت والناسوت. انتهىٰ المقصود من ذلك. وسيأتي في شرح البيتين الآتيين قريباً، لذلك مزيد بيان مع فوائد أخر كما أشرنا إلى ذلك عند ذكرهما آنفاً.

---

(١) في العوارف بهامش الإحياء: التزكية.

(٢) في العوارف بهامش الاحياء: الحائلة.

واعلم أن من وصل إلى شيء من هذه المقامات والأحوال، والتفت إليه ووقف عنده واغتر به، فقد انقطع. لأن من شأن العارفين التوجه إلى الله تعالىٰ بالكلية، لا يبقى غير الله فيهم بقية، لا مطلوب ولا محبوب ولا مقصد غير الله تعالىٰ، وإلى هذا أشار الشيخ عمر بن الفارض في بعض قصائده بقوله:

قال لي حسن كل شيء تجلىٰ ... بي تملى فقلت قصدي وراكا

وقال بعضهم: لو عرض عليه حالات جميع الأنبياء والمرسلين، لا يلتفت إليها بالإعراض عن الله لحظة، ولهذا قال الجنيد رضي الله عنه: لو أقبل على الله صدِّيق ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة، فما فاته في تلك اللحظة أكثر مما ناله في تلك المدة. فتنبه لهذه الدقائق واحذر الغرور بجميع أنواعه، والعجب وغير ذلك، اللهم إنا نعوذ بك من الحور بعد الكور، واحفظنا من شؤم المقدور، يا كريم.

الفرع الخامس: في ذكر لواحق من مواجيد القوم وأحوالهم، يحسن اتباعه بهذه الفروع المتقدمة. فمن ذلك: البقاء والفناء، قال الخراز ـ قدس الله روحه: الفناء هو التلاشي بالحق، والبقاء هو الحضور مع الحق، وقال إبراهيم بن شيبان: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية، وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة. وقال الشريف الجرجاني في (تفريعات العلوم) رحمة الله عليه: الفناء سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة، والفناء فناءان أحدهما: ما ذكرناه، وهو بكثرة الرياضة. والثاني: عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت، وهو بالاستغراق في عظمة الباري، ومشاهدة الحق.

ومنها: القبض والبسط، قال الشريف الجرجاني أيضاً: هما حالتان بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء، يتعلقان(١) بأمر مستقبل مكروه أو محبوب، والقبض والبسط بأمر حاضر في الوقت، يغلب على قلب العارف، من وارد عيني. انتهى، وذكر في العوارف ما حاصله: إن وقت المحبة العامة يكون الخوف والرجاء وإن وردت حالة حينئذ تشبه القبض والبسط، فليس هي حالة القبض

---

(١) أي الخوف والرجاء.

والبسط، وإنما حالة للنفس إما هم أو نشاط، والقبض والبسط لا يكونان إلا في أوائل المحبة الخاصة، لا في نهايتها[1]. وأقاويلهم في هذين الشريفين كثيرة.

ومنها: الجمع والتفرقة، قال الشريف الجرجاني: الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك، من إبداء معان، وابتداء لطف وإحسان، فهو جمع، ولا بد للعبد منهما، فالتفرقة بداية المعبود، والجمع نهايتها، وجمع الجمع مقام أكمل وأعلى من الجمع، فالجمع شهود الأشياء بالله، والتبري من الحول والقوة إلا بالله، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية، والفناء عما سوى الله، والجمعية أيضاً اجتماع الهمم في التوجه إلى الله تعالىٰ، وبإزائها التفرقة. انتهىٰ.

ومنها: التجلي والاستتار، قال الجنيد: إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب، فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام، والتهذيب للخواص وهو التجلي، والتذويب للأولياء وهو المشاهدة. وقال بعضهم: التجلي رفع حجبة البشريَّة، لا أن تتلون ذات الحق عز وجل، والاستتار أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب. ومنها: التجريد والتفريد، قال الشريف الجرجاني ـ رحمة الله عليه ـ: التجريد إماطة السوى، والكون من السر والقلب، والتفريد وقوفك بالحق معك.

ومنها: الوجد والتواجد والوجود، قال الشريف: الوجد ما يصادف القلب، ويرد عليه بلا تكلف وتصنع، وقيل هو برق يلمع ويخمد سريعاً، وقال في العوارف: الوجد ما يرد على الباطن من الله تعالىٰ يكسبه فرحاً أو حزناً، والتواجد استجلاب الوجد بالتذكر والتفكر، والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان. انتهىٰ مع حذف. ومنها: الغلبة وهي تواتر الوجد وتلاحقه يغيب بها عن التمييز. ومنها: المسامرة قال في العوارف: هي تفرد الأرواح بخفي مناجاتها، ولطف مناغاتها، في سر السر، بلطيف إدراكها للقلب، لتفرد الروح[2] وتلزمه بها دون القلب.

ومنها السكر والصحو، قال الشريف الجرجاني: السكر عند أهل الحق هو غيبة لوارد قوي، وهو يعطي الطرب والالتذاذ، وهو أقوى من الغيبة وأتم منها،

---

(١) منقول من العوارف بمعناه.

(٢) عبارة العوارف: لتفرد الروح بها، فلتلتذ بها دون القلب.

والصحو رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبته وزوال إحساسه. ومنها: المحو والإثبات، والمحق والطمس، قال الشريف في كتابه المذكور: المحو فناء وجود العبد في ذات الحق، كما أن المحو فناء أفعاله في فعل الحق، والطمس فناء الصّفات في صفات الحق، وفي بعض معاني المحو والإثبات قال: فالمحو بإزالة أوصاف النفوس، بما أدير عليهم من آثار الحب كؤوس.

ومنها: الغيبة، قال الشريف الجرجاني ـ رحمة الله عليه ـ: هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، بل أحوال نفسه، بما يرد عليه من الحق، إذا عظم الوارد واستولى عليه سلطان الحقيقة، فهو حاضر بالحق غائب عن نفسه وعن الخلق. انتهىٰ، وفي العوارف قال: إنهم قد يعنون بالغيبة، الغيبة عن الأشياء بالحق، فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعاً إلى مقام الفناء، والشهود هو الحضور وقتاً بنعت المراقبة ووقتاً بوصف المشاهدة. انتهى[(١)].

ومنها: الذوق والشرب والري، قال الشريف ـ قدس الله سره ـ: الذوق عبارة عن نور عرفاني، يقذفه الحق بتجليه في قلوب عباده، يفرقون به بين الحق والباطل، من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره، وقال في العوارف: الذوق إيمان، والشرب علم، والري حال، فالذوق لأرباب التوأدة[(٢)]، والشرب لأرباب الطوالع واللوائح واللوامع، والري لأرباب الأحوال، وذلك أن الأحوال هي التي تستقر، فما لم يستقر فليس بحال، وإنما هي لوامع وطوالع، وقيل: الحال لا تستقر لأنها تحول، فإذا استقر صار مقاماً[(٣)]. انتهىٰ، وسيأتي زيادة بيان في الحال والمقام.

ومنها: المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة، والمحادثة والمطالعة، قال الشريف: المحاضرة حضور القلب مع الحق في الاستفاضة من أسمائه تعالىٰ، والمشاهدة تطلق على رؤية الأشياء بدليل التوحيد، والمحادثة خطاب الحق للعارفين من عالم الملك والشهادة كالنداء من الشجرة لموسىٰ عليه السَّلام،

---

(١) منقول من العوارف بتصرف.

(٢) في العوارف: لأرباب البوادة.

(٣) في العوارف: فإذا استقرت تكون مقاماً.

والمطالعة توفيقات الحق للعارفين القائمين بحمل أعباء الخلافة إبتداءً، أي من غير طلب، وقال في معنى الكشف: هو في اللغة: رفع الحجاب، وفي الاصطلاح: الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية، وجوداً أو شهوداً.

ومنها: الطوارق والبوادي والتوأدة، والواقع والقادح، والطوالع واللوامع واللوائح، قال في العوارف: هي ألفاظ متقاربة المعنى، وكلها مبادىء ومقدمات[1].

وقال الشريف الجرجاني: الطوالع ما يبدو من تجليات الأسماء الإلٰهية على باطن العبد، فتحسن أخلاقه وصفاته بتنوير باطنه، واللوامع أنوار ساطعة، تلمع لأهل البدايات، من أرباب النفوس الضعيفة الطاهرة، فتنعكس من الخيال إلى الحس المشترك، فيصير مشاهدة بالحواس الظاهرة، فتترآى لهم أنوار كأنوار الشهب والقمر والشمس، فتضيء ما حولهم، فهي إما عن غلبة أنوار اللطف والوعد فتضرب إلى الحضرة، أو التنوع فتلهيه ثم تنقضي، والبارقة لائحة ترد من الجانب الأقدس، من أوائل الكشف ومباديه.

ومنها: التلوين والتمكين، قال الشريف ـ رحمة الله عليه ـ: التمكين هو مقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل واتصل، فقد حصل التمكين. ومنها: النفس وهي للمنتهي، والوقت للمبتدي، قال في العوارف: والمنتهي صاحب نفس متمكن من الحال، لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور، بل تكون المواجيد مقرونة بأنفاسه مقيمة، لا تتناوب عليه، وهذه كلها أحوال لأربابها ولهم منها ذوق وشرب، والله تعالىٰ ينفع ببركتهم. انتهىٰ، فهذا آخر ما أردنا تعليقه على البيتين السابقين، من حيث بسط المعنى، ومن حيث ما نقلناه واعتبرناه من كلام حجة الإسلام الغزالي ـ قدس الله روحه ـ، وجعلناه قاعدة لهذا الترتيب والاستنباط، على هذه الأوضاع والأنماط، بالمعنى الذي اقتضاه اللفظ، والعلوم ذرية بعضها من بعض، وهنا عبارة في قاعدة، تشير إلى ما أشارت إليه

---

(١) العبارة منقولة بمعناها.

عبارة الإمام الغزالي، بل تصرح بما صرحت به في هذه الأمالي، منقولة من حكم سيدنا الشيخ الإمام عبد الله بن علوي الحداد باعلوي ـ نفع الله به ـ قال رضي الله عنه: الخوف الصادق يعمل في محو الشهوات النفسانية، والهمم الدنية، عمل النار في إحراق الأشجار، قال الله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، والرجاء الصَّادق يعمل في استخراج النيات الطيبة، والأعمال الصَّالحة، عمل الماء في الأرض الهامدة الخاشعة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. انتهى.

وهذان القسمان اللذان أشرنا إليهما وإلى ثمراتهما، المعبر عنهما بالتحلي والتخلي، وبالتزكية والتخلية، المشار إليهما بأنه قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دَسَّاها، فالأصل هو تزكية النفس، ولذا قال في العوارف: الولادة الطبيعية لا بد لها من أربع صفات، وكذلك الولادة المعنوية لا بد لها من أربع.. ثم ذكر الإيمان والتوبة النصوح والزهد في الدنيا، والرابعة تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله ظاهراً وباطناً، من الأعمال القلبية، من غير فتور وقصور، ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة، بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها، وهي قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الآثام، واتفق المشايخ والعلماء الزاهدون أن هذه الأربع، بها تستقر المقامات وتستقيم الأحوال، وبها يصير الأبدال أبدالاً بتأييد الله تعالىٰ وحسن توفيقه.. وقال عند ذكر الأربع الأولىٰ: ومن تحقق بحقائق هذه الأربع، يلج ملكوت السموات، ويكاشف بالقدر والآيات، ويصير له ذوق وفهم، لكلمات الله المنزلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها تهيأت وتأكدت. انتهىٰ كلامه وبعضه بالمعنى، وهذه الأربع الأولى قد ذكرتها في الفرع الرابع، وبعضها في الفرع الخامس، وأما الأربع الأخيرة فذكرتها كذلك في الفرع الأول.

وقوله رضي الله عنه: ومن تحقق بحقائق الأربع يلج ملكوت السماوات... إلى آخره، وما ذكرناه من التزكية والتخلية ومن ثمراتهما، فجميع أقوالهم ـ رضي الله عنهم ـ هو إنباء عن وجدان، كما مَرَّ، وكما هو مذكور في أمهات كتبهم، من

وقائع الأحوال، وحكايات الأقوال والأفعال، الملحق بما قص الله على نبيه من أنباء الرسل، عليه وعليهم الصَّلاة والسلام، بإرادة التثبيت له ﷺ، كما قال تعالى[1]: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وقد أشار إمام العارفين، وصفوة المحبين، الشيخ عمر بن الفارض في تائيته، إلى شيء مما حصل له بواسطة مجاهدة النفس وتزكيتها، ثم تحليتها بهذه المقامات المذكورة، قال رضي الله عنه:

فكن بصرا وأنظر وسمعاً وعي وكن ... لساناً وقل فالجمع أهدى طريقة
ولا تتبع من سَوَّلت نفسه له ... فصارت له أمارة واستمرت
فنفسي كانت قبل لوامة مَتَى ... أطعتها عصت أو تعص كانت مطيعتي
فأوردتها ما الموت أيسر بعضه ... وأتعبتها كيما تكون مريحتي
فعادت ومهما حملته تحملته ... مني فلو خففت عنها تأذَّتِ
وكلفتها لا بل كلفت في قيامها ... بتكليفها حتى كلفت بكلفتي
وأذهبت في تهذيبها كل لذة ... بإبعادها عن عادها فاطمأنَّتِ
ولم يبق هول دونه ما ركبته ... وأشهد نفسي فيه غير زكيةِ
وكل مقام عن سلوكٍ قطعته ... عبوديَّة حققتها بعبودة

إلى أن قال:

رجعت لأعمال العبادة عادة ... وأعددت أحوال الإرادة عدتي
وعدت بنسكي ثم هتكي وعدت من ... خلاعة بسطي لانقباض بعفتي
وصمت نهاري رغبة في مثوبة ... وأحييت ليلي رهبة من عقوبة
وعمرت أوقاتي بورد لواردٍ ... وصمت لسمت واعتكاف لحرمة
وبنت عن الأوطان هجران قاطع ... مواصلة الإخوان واخترت عزلتي
ودققت فكري في الخلال تورعاً ... وراعيت في إصلاح قُوْتِي وَقُوَّتِي
وأنفقت من يسر القناعة راضياً ... من العيش في الدنيا بأيسر بلغة
وهذبت نفسي بالرياضة ذاهباً ... إلى كشف ما حجب العوائد غطت

إلى أن قال:

ولست على غيب أحيلك لا ولا على مستحيل موجب سلب حيلتي

إلى أن قال:

منحتك علماً إن ترد كشفه فرد سبيلي واشرع في اتباع شريعتي
فمنبع صدري من شراب نقيعه لديَّ فدعني من شراب بقيعة
ودونك بحراً خضته وقف الأولى بساحله صوناً لموضع حرمة

ثم بعد ذلك، أخذ يتحدث بما حصل له من ثمرة هذه المجاهدة، وما أنعم الله به عليه من العلوم والمعارف، والمقامات والأحوال، الحاصلة بتوفيق الله تعالىٰ لمن سبقت له السَّعَادة، والجزاء بالحسنى وزيادة، المشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وما في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل» إلى آخره. وقال الشيخ عبد القادر بن أحمد العقيمي الأنصاري ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر شروط السلوك المعروفة عندهم، السَّابق ذكر معظمها: فمن داوم بإرادته على هذه الأصول السنيَّة، منحه الله تعالىٰ مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. انتهىٰ، فممَّا قاله رضي الله عنه:

فاتلو علوم العالمين بلفظة وأجلوا علوم العالمين بلحظة
وأسمع أصوات الدعاة وساير اللغـ ـات، بوقت دون مقدار لمحة

إلى أن قال:

واستعرض الآفاق نحوي بخطرة واخترق السبع الطباق بخطوة

إلى أن قال:

فمن قال أو من طال أو هال إنما يمد بإمدادي له برقيقة
وما سار فوق الماء أو طار في الهوى[1] أو اقتحم النيران إلا بهمتي

---

(١) الهوى: أي الهواء.

حتى قال:

وفـي سـاعـة أو دون ذلـك مـن تـلا بمجمـوعـه جمعي تـلا ألـف ختمـة

ومنـــي لـــو قـــامـــت بميـــت لطيفـــة لـــــردت إليـــــه نفســـــه وأعيـــــدت

هي النفس إن ألقت هواها تضاعفت قـــواهـــا وأعطـــت فعلهـــا كـــل ذرة

فتأمل قوله: (هي النفس)، وفيما حصل له ولغيره مما ذكرناه عنه وما لم نذكره، وتأمل الأبيات من أولها، يتضح لك ما تنفس به هذا المحب العارف، من الأحوال العظيمة، واعتبر وتفكر في هذه النعم الجسيمة، التي تحصل بتهذيب النفس وجهادها، حتى إذا زكت وصفت كان لها الانطلاق من مضيق حجبها، إلى فضاء عوالم الملك والملكوت، فنظر ما غاب عن عين البصر بعين البصيرة. وإلى مقام الخلوص من عوائد النفس وحجبها وشهواتها، أشار القطب العدني العيدروس رضي الله عنه بقوله: إذا صفت العبودية، وصح القصد والنية، وفنيت كل بشريَّة، فحينئذ فهنُّوني. واعلم أن كثيراً من الأكابر، وصلوا إلى ما وصل إليه هؤلاء، من مقام كشف الغطاء، على اختلاف درجاتهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾، والغالب منهم والأكثر أنهم لم يتنفسوا بمثل ما تنفس به، مما حصل لهم من ذلك، وهؤلاء ومن نحا نحوهم في ذلك وأمثاله، فإنما يكون نفسهم عن إذن، أو عن غلبة، أو من قبيل التحدث بالنعمة، كما روي أنه ـ أي ابن الفارض ـ نفع الله به كان يملي بعض هذه القصيدة التائية وهو في الغيبة، وبعضها بعد إفاقته من غيبته، وسماها له النبي ﷺ: (نظم السلوك)، وسيأتي في هذا الشرح نقل كثير من هذا القبيل.

ومما قاله رضي الله عنه في القصيدة البليغة التي رويها الياء الساكنة، مما يشير إلى العمل السرمد، والجهاد الأكبر الأقود:

رمضـــان فـــي هـــواكـــم عمـــره قـد مضـى مـا بيـن إحيـاء وطـي

ولا يذهب ظنك عند وقوفك على القصيدة: (نظم السلوك) لهذا الإمام الواصل، أنه ممن قال بالاتحاد والحلول أو ادعاه، إذ جميع ما لوح به وأشار إليه، مما بلغه من الأحوال الباهرة، والآيات الظاهرة، إنما هي بمعنى ما في الحديث

القدسي، الذي سيأتي بيان ما فيه، وقد برأ نفسه عن ذلك في أثناء هذه القصيدة نفياً لهذا التوهم، ورداً على القائلين بذلك، وإرشاداً للمقتدين به والمعتقدين له، أن ينزهوا أنفسهم عن هذه العقيدة الفاسدة فقال رضي الله عنه:

ولـي مـن أتـم الـرؤيتيـن إشـارة　　　تنزه عن رأي الحلول عقيدتي
وفي الذكر ذكر اللبس ليس بمنكر　　　ولم أعد عن حكمي كتاب وسنة

وممن برأه عـن ذلك، هو ومحيي الدين ابن عربي، شيخُ الإسلام ابن حجـر ـ رحمه الله ـ في شرح الهمزية لما ذكر طائفة ابن عربي، وقال الشيخ محمد حياة الحنفي المدني السندي ـ رحمه الله ـ في جواب له: إن قوماً رفعوا ابن عربي حتى كادوا يلحقونه بالأنبياء، وخفضه قوم حتى ألحقوه بالأشقياء، وسمعت سيدي العارف بالله تعالىٰ شيخ بن محمد الجفري باعلوي ـ نفع الله به ـ ذكر الفتوحات المكية لابن عربي فقال: إن أناساً يبالغون في تطلبها، ويبذلون فيها وزنها من الذهب والفضة، اعتقاداً في مؤلفها، وآخرين يبذلون فيها مثل ذلك ليحرفوها. وسيأتي لذكر كتب بن عربي ولأحواله، وفي معنى الحلول والاتحاد، وما في الحديث القدسي، مزيدُ بيان إن شاء الله تعالىٰ.

خاتمة ـ نسأل الله حسنها ـ نذكر فيها فائدة، تكون لما مر كالتوجيه والتعليل، ولما سيأتي كالتوطئة والتأصيل، فأقول: اعلم أن هذا المسلك الذي سلكناه في شرح هذين البيتين، وفهمناه من معناهما، وكذلك فيما سيأتي من الكلام والشرح على أبيات هذه المنظومة الجامعة، بالصَّريح والإشارة والتلويح، لجملة من اصطلاحاتهم، وكثير من أحوالهم ومقاماتهم، إن ذلك جميعه إنما هو واقع مني على وجه القصور والتعلق بالعبارات، لا من حيث التحقق والذوق لتلك الأحوال والمقامات، نبهتُ على ذلك، لئلا يظن بي معتقد أني متحقق بهذه العلوم، أو عامل بترتيب هذه الرسوم، أو يزعم منتقد أني مدعٍ لهذه الأحوال، والوصول إلى فنن هذه المقامات العوال، لا يسلم في الظن الأولَ من التلبيس، ومن الزعم الثاني من التدليس، وليعلم أن الفهم من الألفاظ والعبارات، والتحقق بالأحوال والمقامات، إنما هو جارٍ بإلهام، سواء وقع بإحكام أو بغير إحكام.

قال الشيخ العارف بالله حسين بن عبد الشكور ـ رحمة الله عليه ـ: جميع أحوال الإنسان إلهاميَّة، فما ثَمَّ حركة ولا سكون، إلا بإلهام من يقول للشيء كن فيكون، فالحق سبحانه وتعالىٰ متوجه إلى عبد بإجرا مراداته منه فيه عليه، على وفق حاله، في جميع محاله، فالباطن له ما يليق به، والظاهر كذلك، في جميع المسالك، وجميع الجوارح ملهمة بما أقيمت فيه حالاً وقالاً وفعالاً، ناطقةً بحسن الإلهام بما لا تفقهه من فصيح الكلام، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، في حالتي منعه ورفده، وقربه وبعده. انتهى المقصود من بعض ما ذكره، وقد ذكر الأئمة وقرروه: أن من فهم معنى من لفظ من الكتاب والسنة والآثار، ولم يحصره على فهمه، فهو مما لا بأس به، ولا حرج فيه بوجه من الوجوه، وهو سائغ عقلاً ونقلاً، فمن خطبة رسالة لطيفة لسيدنا وشيخنا الناظم ـ نفع الله به ـ شرح أبيات لسيدنا العارف بالله شيخ بن محمد الجفري ـ نفع الله به ـ حصل له بعض تأثر، وكتب عليها هذه الكلمات، قال: أما بعد فقد وصلت إلى الفقير أبيات من سيده ومؤدبه، العارف شيخ بن محمد الجفري، وإن لم تكن على قدر كلام الناظم، لكنها ـ إن شاء الله ـ ما تخرج من بعض محتملاته. انتهىٰ، وفي كتاب العلم من الإحياء ما يدل لذلك، قال مستدلاً له ببحث طويل، من جملة ما يبين إن من فهم معنىً شهد له دلالة لفظية، واستنبط منه حكماً، بتخصيص أو تعميم، أو نفي أو إثباتٍ، أو غير ذلك من المعاني، فإنَّ ذلك سائغ شرعاً، قال: فإن من الآيات ما نُقِل فيها عن الصَّحابة والمفسرين والتابعين، خمسةُ معانٍ وستة وسبعة، ويعلم أن جميعها غير مسموعة من النبي ﷺ، فإنها قد تكون متنافية، لا تقبل الجمع، فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم، وطول الفكر، وأما صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة، لا تسبق منها إلى الأفهام فائدة شيء توقف به، كدأب الباطنية في التأويلات، فهذا حرام وضرره عظيم. ومثَّل لذلك بأمثلة فلتراجع منه، وقد يكون اختلاف آراء الأئمة في الشيء الواحد، من حيث ما يظهر لهم من الأدلة، ففي الفوائد المدنية للشيخ المحقق محمد بن سليمان الكردي قال: حكى عبد الواحد بن سعيد قال: قدمت مكة، قال: فوجدت بها أبا حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة، فقلت لأبي حنيفة: ما تقول في رجل باع بيعاً وشرط شرطاً؟ فقال

البيع باطل والشرط باطل، ثم أتيت ابن أبي ليلى فسألته، فقال: البيع جائز والشرط باطل، ثم أتيت ابن شبرمة فسألته، فقال: البيع جائز والشرط جائز، قال: فقلت سبحان الله، ثلاثة من فقهاء العراق اختلفوا في مسألة واحدة هذا الاختلاف، فأتيت أبا حنيفة فأخبرته، فقال: لا أدري ما قال أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ نهى عن بيع وشرط البيع باطل والشرط باطل، وابن أبي ليلى استدل بحديث بريرة المشهور أن النبي ﷺ أمضى البيع وأبطل الشرط، وابن شبرمة قال كذلك: لا أدري ما قالا، وروى حديث أنه باع النبي ﷺ جملاً وشرط ظهره إلى المدينة، قال: فالبيع جائز. انتهىٰ ملخصاً، ولا يخفى ما في هذه المسألة من التفصيل في مذهب الإمام الشافعي، لاختلاف هذه الأدلة. وقال الشيخ حسين بن عبد الشكور ـ رحمة الله عليه ـ أيضاً: تنبيه لكل نبيه: الاستدلال والاستشهاد في هذه المواد، من الكتاب الشريف، والحديث المنيف، إنما هو بحسب عموم المباني لا بخصوص المعاني، كما هو معلوم عند كل مُعَاني، ولعلك تقول: إنك ذكرت تفاسير في بعض الآيات، لم تذكرها في كتبها الثقات، أقول: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، مع أني أقول: قال تعالىٰ في كتابه المبين: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، فكلما ذكر لم يخرج عن اللغة العربية، ولا عن القواعد النحوية والبيانية والأصولية والفقهية. انتهىٰ.

وقال الإمام الشعراوي ـ رحمه الله ـ في: (البحر المورود في المواثيق والعهود أخذ علينا العهود أن لا نرى حصر المعنى فيما فهمناه من الكتاب والسنة مثلاً، دون ما فهمه غيرنا، أدباً مع الأئمة المجتهدين ومقلديهم، وذلك لأن الشريعة المطهرة كالبحر، فكل إنسان يغرف منه بقدر وسعه وطاقته، وباب الفهم مفتوح لكل طالب، وإذا كان يغمض علينا كثير من معاني كلام جنسنا من البشر، فكيف بكلام الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ. انتهىٰ كلام الشعراوي.

وللقوم الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ اصطلاحات توسعوا بها في طريقهم الخاصة، أشاروا بها إلى أمور وأحوال، حققوها علماً وعملاً وذوقاً. قال الإمام السهروردي ـ قدس الله روحه: إن مشايخ الصُّوفية أحكموا أساس التقوى، وتعلموا العلم لله، وعملوا بما علموا لموضع تقواهم، فعلمهم الله مالم يعلموا،

من غرائب العلوم، ودقائق الإشارات، واستنبطوا من كلام الله تعالىٰ غرائب العلوم وعجائب الأسرار، وترسخ قدمهم في العلم، قال القرشي: هي أسرار الله يبديها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء، من غير سماع ولا دراسة، وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص. انتهىٰ، نعم ما حكي عنهم وفيه غموض، لا تبلغه أفهام القاصرين، كبعض ما ينقل عن ابن عربي وابن الفارض ـ رضي الله عنهما ـ وأمثالهما، فينبغي عدم توجه القصد إلى فهمه، ومعرفة حقيقته، مع اقتران التسليم لأهله، كما قال سيدنا الشيخ عبد الله بن علوي الحداد باعلوي ـ نفع الله به ـ لمَّا ذكر بعض أوصافهم ومواجيدهم فقال:

وكل نسيم هَبَّ أو بارق شرى وأشيا أرى في سترها حفظ حرمة

أي من الحقائق التي ينكرها أهل الظاهر، ويرون بزعمهم أنها من الباطل، أي مما ظهر منها على لسان المغلوبين، كابن العربي وابن الفارض واضرابهما، كما سيأتي في الابيات التصريح بذلك، وكما مر عند ذكر تائية ابن الفارض ـ نفع الله به ـ وسيدنا الشيخ عبد الله لما كان من الوارثين المتمكنين، والعلماء الراسخين، سترها لما علَّل به بعد هذا البيت فقال:

حذار غبي أو حسود مولع بإنكار أسرار العلوم الدقيقة
فقد ستروا أهل الطريق وأخملوا أموراً من التحقيق حتى تغطت
لئلا يراها المنكرون فيخسروا بإنكارها لا عن دليل وحجة
كما أنكروا قوم على بعض من مضى من العارفين أهل الهدى والبصيرة
ويسمعها قوم وليسوا من أهلها فيرتبكوا فيها بجهل وغرة
كما ضل أقوام بها وتخبطوا ومالوا عن الدين القويم وشرعة
وإن الذي أبدى من القوم ما سبيله الستر مغلوب بحال قوية
يفارقه التمييز عند ورودها عليه وإن أخطا فليس بمعنت
وكم من قريب بعدته عبارة عن الفهم فاستمسك بحبل الشريعة
وسلم لأهل الله في كل مشكل لديك لديهم واضح بالأدلة

وقال ـ رضي الله عنه ـ فيما نقله عنه فقيره الشيخ أحمد الحساوي ـ رحمه الله ـ: شرط العارف، أن يمضغ بكل أضراسه ورحاه وشقيه، كابن عربي يتكلم في الحقائق، مع مبالغته في تعظيم الشريعة، ومعرفته في كل علم، فإن من كان مثلاً يعرف الحِرَف كلها، فهو حَيك وصبَّان وحرَّاث وغير ذلك، جامع للجميع، فيجيئه واحد ما معه منهن إلا واحدة، فينكر عليه، فكيف ينكر على من هو أعرف منه في فنه، فضلاً عن غيره، ومن أين يعلم المنكر أنه في ذلك غير مغلوب، ألا حملوا قوله على قول القائل، حيث قال لما وجد الراحلة: اللهم أنت الخ، حيث أخطأ من شدة الفرح، كما في الحديث وهذا أيضاً في القول إن صح عنه، وإلا ففي باطن الإنسان خواطر هي كفر صريح، والرجل مستقيم في فعله غير مستقيم في قوله، لأنه إذا سَيَّبَ سُيِّبْ كالمدفع.

ومن دعى الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

وعقيدته وفعله على غاية الاستقامة دون كلامه، وكلامه أقرب إلى السَّلامة من كلام ابن الفارض، لأنه ما يذكر حقيقة إلا وذكر لها عشر كلمات في الاستقامة. وقال ـ نفع الله به في موضع آخر من تثبيت الفؤاد: وكلام ابن الفارض أسلم خطراً من كلام ابن عربي، لأنه هذا نظم فيه تسامح وسلامة تغطي ما فيه. انتهىٰ، ولعله ـ رضي الله عنه ـ رأى أن في كل واحد من نظم ابن الفارض وعبارات ابن عربي، في مؤلفاته سلامة، من حيثيّة كلام بن عربي من حيث إنه يذكر الاستقامة مع الحقائق، ويغلب ذكر الاستقامة، ونظم ابن الفارض من حيث تسامح الشعر، وتعظيمه ما فيه من الحقائق بالسَّلامة، ثم قال: والحاصل أن الضعيف لا ينبغي أن يتعرض للبحور لئلا يغرق فيها. انتهىٰ، وقد سأل الشيخ أحمد بن عبد القادر الحفظي العجيلي، سيدي ولي الله، عالم المدينة في وقته، السيد أحمد بن علوي جمل الليل باعلوي: نفع الله بهما ـ عن الفصوص لابن عربي، فأجابه ـ رضي الله عنه ـ بما نصه: الذي أراه الكف عن الخوض في الإشارات، وعدم صرف الزمن في فهم تلك العبارات، وذلك لأن الطالب العاقل، لا يجعل همته متفرقة إلى غير جهة الحق، المفيض على كل مقبل عليه صنوف الإحسان، وتلك الرموز والإشارات لا

تصلح أن تكون مفيدة لكل فرد أصالة، فإن صدورها من الشخص الواحد من أولئك القوم، لا يدري على أيِّ وجه صدرت، وعلى أيِّ حالة جرت على لسانه، بل من أجرى الله تعالىٰ على لسانه ما ذكر، إذا كان من أرباب الثبات، لا يقف عنده ولا يُعمل بمقتضاه في كل آن، لأن كثيراً ما يخيل الوهم للعارفين صوراً مشتبهة، يقفون بسببها في كمال الحياة، وربما ينقطع بعضهم إذا سار معها، ويحجب عنه، هذا فيمن صدر منه ذلك، فما بالك بمن يقف على الكلام ولا يعلم المراد منه، فالحزم كل الحزم، إشغال الوقت وعمارته، بما برز من مرشد الكل، الهادي إلى الصراط المستقيم ـ عليه أفضل الصَّلاة والتسليم ـ من ذكر، وتلاوة مع تدبر، وعبادة مع خشوع، وإفادة واستفادة، خاليان عن موجبات الانتقام من عجب ورياء وسمعة، والاشتغال[١] بالسنة وتفهم أسرارها، على الوجه الذي أرشد إليه صاحبها، ومضى عليه ورثته من بعده، وفي إحياء علوم الدين وأشباهه، مقنع لمن تدبره، ولا يذهب ويهلك إلا من ابتلاه الله بالإنكار، على أولئك الأخيار، فإني أعتقد براءتهم، وكمال استقامتهم وصدقهم، في خدمة معبودهم، وإلى الآن كتب ابن عربي وأتباعه بين يدي، أنظر فيها أحياناً للتسلي فقط، لا للعمل، لقصوري عما انطوت عليه من غامض الأسرار، والمنع من الاشتغال التام، بكتب أولئك الفخام، إنما هو لعدم العثور على المراد منها، ووقوع الخطأ من متصوفة العصر فيها، لا بالخدش فيها أو في قائلها. انتهىٰ المقصود من كلام سيدي أحمد جمل الليل نفع الله به وبسلفه، وقد اجتمعت بهذا السيد الإمام ـ بحمد الله ـ بالمدينة على مشرفها أفضل الصَّلاة والسَّلام، وقرأت عليه من أول صحيح البخاري، وأجازني إجازة عامة مطلقة، وأسمعني حديث الرحمة المسلسل بالأوليّة، وكان إماماً عالماً عاملاً، متفنناً محققاً متقناً، ومن أجلِّ مشايخه: شافعي زمانه الشيخ محمد بن سليمان الكردي ـ قدس الله روحهما آمين ـ فتأمل ما في هذه الخاتمة، واجعله لك أصلاً، تكرع من حياض التسليم نهلاً وعلا، قائلاً: اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً.

---

(١) أي والحزم كل الحزم الاشتغال بالسنة.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

أحمد من قد منَّ بالإيجاد وخصنا بالفيض والإسناد

في هذا البيت مفعول القول، وهو التنويه بالشكر والثناء، لمن له المن والطول، والقوة والحول، وله استحقاق جميع الكمالات، والحامد لذاته، لأنه المنعم على جميع الوجود من فيضه الأقدس، وجوده العميم الأنفس، ونعمه لا تحصى، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ومنها نعمتان لا يخلو عنهما موجود، ولكل منهما نصيب مقدر محدود، وهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد.

قال الشيخ ابن عطاء الشاذلي ـ قدس الله روحه ـ: نعمتان ما خرج موجود عنهما، ولا بد لكون منهما، نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، أنعم عليك أولاً بالإيجاد، وثانياً بدوام الإمداد. انتهىٰ، وخصَّ سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ نعمة الإيجاد بالذكر، لأنها تستلزم نعمة الإمداد، فما هنا موجود، إلا وهو ممدود، بل قوله: (وخصنا بالفيض) صريح في ذكر نعمة الإمداد.

ثم إن الإيجاد ينقسم إلى: حسي ومعنوي، ولكل واحد في إبرازه سبب وواسطة. فأما الإبراز الحسي إلى هذا العالم، ووجوده في هذا القالب، فهو بالولادة وتنقلها في أطوار التلوين، بواسطة الأبوين، وأول الإمداد فيها هو الإهتداء إلى معرفة النجدين، أعني التدين، ثم موالاة النعم عليه، واحدة بعد أخرى، وهلم جَرًّا. وأما السبب الثاني في الإيجاد المعنوي، فهو بالولادة المعنوية التي هي تربية الشيخ الموصل إلى الله تعالىٰ، وإلى الفوز بالحياة الأبدية، في دار البقاء والنعيم، وهو المراد هنا في قول سيدنا الناظم نفع الله به: (وخصنا بالفيض والإسناد) ولكن هذه الولادة خاصة بالخواص، ومددها جارٍ من فائضات الاختصاص، ولكل منهما، أعني الولادتين، آباء وأجداد وأجداد، نسب التقوى هو السبب الأقوى، إلى سعادة الآباد، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾. والإسناد في الإصطلاح: رفع الحديث إلى قائله، والمراد هنا: رفع إسناد أخذ طريق القوم الصُّوفية، من لبس الخرقة وتلقين الذكر ونحو الإجازة، ورفع إسناد الحديث من خصائص هذه الأمة، كما هو مقرر في فنه، ورفع إسناد الخرقة من خصائص

الصوفية، فقوله رضي الله عنه: (وخصنا) يعني معاشر المسلمين برفع إسناد الحديث، ومعاشر القوم برفع إسناد الخرقة، ولما كانت هذه الطائفة المحفوظين عن الأغيار، مغترفين من بحرهم التيَّار، وهو الواسطة في إيجادهم المذكور، وإمدادهم الذي ليس بمحصور، قال سيدنا وشيخنا الناظم:

ثم الصلاة والسلام الأبدي ... على النبي الممد أهل المدد

أما معنى الصَّلاة والسَّلام، وما يتعلق بهما من المعنى والكلام، فسيأتي آخر هذا الشرح، وقوله نفع الله به: (الأبدي) أي الدائم، وأما قوله: (على النبي الممد أهل المدد) ففيه إشارة وأي إشارة، فقد طوى ـ رضي الله عنه ـ في البيت الذي قبله، في الحمد وما يتعلق به، وفي هذا البيت، وما ينبسط من نسبة ما نشره سيدنا الإمام البحر الحبر العارف بالله تعالىٰ، عبد الرحمٰن بن عبد الله بلفقيه باعلوي ـ نفع الله به ـ في عدة أبيات من منظومته التي في الإسناد، من حيث تكثير المعنى، وبسط العبارة، وسنورد أبياته إلى البيت الذي فيه معنى ما في شطر هذا البيت الثاني، وهو قول سيدنا: (على النبي الممد أهل المدد) لتفهم أيها النبيه، ما ذكرناه من المعنى ونرويه، قال نفع الله به:

سبحان رب العزة المتعالي ... عن كل ما يصفون من أقوال
جل العظيم عن الحروف ووصفها ... وعن الحدود وعن قيود البال
فلقد تعالىٰ في سَمَاء سموه ... عن وسمه بسمات رسم بال
سبحان من سبحات وجه جلاله ... أعمت عيون قوابل الإقبال
ولقد تنزل جوده بوجوده ... في الكائنات بكل معنى عال
معناه ما يعنيه في تعيينه ... في عين معنى العز والإجلال
بانت مباني بينات بيانه ... في صاد والفرقان والأنفال
فبه تجلى في معاني قدسه ... بالحق في الأوصاف والأفعال
وبه جلا أبصار صفوة خلقه ... ببصائر الإنباء والإرسال
حتى غدوا أنوار شمس جلاله ... ولها قلوب المؤمنين بحالي

كـل علـى قـدر الصفـا والاقتـدا		نال الهدى في أحسن استقبال
حتى بدا وهدى بهدي جامع		لجـوامـع الإعطـاء والإرسـال
المصطفىٰ خير الورى ما فاضها		فـي حـزبـه مـن صحبـه والآل
فتظـاهـرت أنـواره فيهـم بهـم		فـي التـابعيـن وكـل واعٍ تـال
وتـواتـرت فـي تـابعيهـم ثـم فـي		كل العصور على الهدى المتوالي
كـل يبلـغ عنـه مـا هـو بـالـغ		في العلم أو في الذوق والأحوال

ففي قول سيدنا وشيخنا: (أحمد من قد مَنَّ بالإيجاد) إلى آخره، معنى ما ذكره سيدنا الحبيب عبد الرحمٰن ـ نفع الله به ـ في الأربعة الأبيات، إذ معنى: الحمد لله، الذي هو وصف الكمال، يستلزم التنزيه عما لا يليق بجمال الله تعالىٰ وجلاله، وقوله: (ولقد تنزل جوده بوجوده) إلى قوله: (المصطفىٰ خير الورى) اغتنى عن بسطه سيدنا وشيخنا الناظم ـ رحمة الله عليه ـ بالمعنى العام لكل المواد، بذكر الامتنان بالإيجاد، والخصوصية بالفيض والإسناد، وقوله: (المصطفى خير الورى) الأبيات إلى آخرها، معناها منطوٍ في قول سيدنا الناظم: (على النبي الممد أهل المدد)، وعلى منظومة سيدنا الحبيب عبد الرحمٰن شرح لناظمها يحتوي على علوم غريبة، وأسرار عجيبة، وقد أورد المتن والشرح برمته سيدي الحبيب شيخ ابن محمد الجفري ـ نفع الله به ـ في شرحه على منظومة سند خرقته الحدادية العلوية، المسمى بـ (كنز البراهين)، عند انتهاء السند، وتلقي جبريل عليه السلام من إلٰه العالمين، وذلك لأنها جامعة مع شرحها لجملة من تنزيه الحق وتقديسه، ومشيرة يخفون بيانها لبعض أنوار الحق وإشراق شموسه وجميع الموجودات بالوصف العام، وعلى الخواص بوصف الاختصاص، ثم تلقي كل أمة عن نبيها ثم تلقي هذه الأمة عن نبيها محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، آله وأصحابه وتابعوهم من العلماء الراسخين، والأئمـة المهتدين، الذين شبَّههـم ﷺ بأنبياء بني إسرائيل، وذكر شيئاً من أوجه التلقي والإسناد، على الوجه الذي نحاه، فرضي الله عنه وأرضاه آمين، وكنت قد اختصرت هذا الشرح مع متنه، في قدر نصف حجمه، وجعلته في مسودة هذا الشرح، في الموضع الذي جعل الأصل فيه،

سيدي الحبيب شيخ الجفري، لكن خفت من الطول الممل، فأفردته على حدته، وسميته: (نزهة الأبصار بتقريب رفع الأستار من مفتاح الأسرار).

وقد لمح سيدنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ بعد ذكره الإيجاد والإمداد، معنىً خاصاً وهو أنه لما سلك مسلك الإتباع في البداءة بالحمد لله، وبين بعض مواده وأسبابه، وهو نعمة الإيجاد، والفيض بالإمداد، ثم ثنَّى بعد الحمد بالصلاة للاتباع أيضاً، والامتثال لأمر الله، وقياماً بحق مختاره ومصطفاه، وضمَّن بعدها معنى آخر، وهو كون هذا الذي تعبدنا الله بالصلاة عليه وامتثال طاعته وقبول رسالته، هو الذي جعله خليفة على عباده، وواسطة كبرى في إيجاد هذا العالم وإمداده، فمن شهد بأنه واسطة، تأكدت في الإيمان واليقين له الرابطة، وهذا هو البقاء، المتأهل من اتصف به لدوام الارتقاء، يشهد بذلك قوله تعالىٰ، في خصوص الذين تظاهرت أنواره فيهم، ومنهم إلى تابعيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، إلى غير ذلك من الآيات، والمصطلم بمقام الفناء، لا يرى إلا شواهد ما هو فيه، من الاستغراق واضمحلال الوجود عنده، في حضرة معيده ومبديه، فتكون شواهده حينئذ ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾، ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾، ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾، ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾، مع أنه مادته منه ﷺ من حيث لا يشعر، كما سيأتي ذلك قريباً. وإلى هذين المقامين ما يحكى عن الصِّديقية وأبيها ـ رضي الله عنهما ـ حين أنزلت براءتها، ففي شرح الحكم العطائية لابن عبادٍ ـ رضي الله عنهما ـ ما يدل على أن مقام البقاء أكمل، قال ـ رضي الله عنه ـ في الكلام على قوله في أثناء حكمه (وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً، وغاب فازداد حضوراً) إلى آخرها، قال: هذا حال خاصة الخاصة الذين حازوا رُتبة الأكملية، وهم قوم شربوا كؤوس التوحيد فازداد صحوهم، وغابوا عن الأغيار فازداد حضورهم، قد ملكوا الأحوال، وتمكنوا في مقامات الرجال، فلم يغلبهم محو ولا طي، ولم يحجبهم شيء عن شيء، بل وفوا حقوق جميع المراتب،

وأعطوها مالها من قسط وواجب، وذلك لاتساع نظرهم، ونفوذ تصرفهم، وهذه صفة الصديق ـ رضي الله عنه ـ في القصة التي نذكرها الآن، وقد قال أبو بكر الصديق لعائشة ـ رضي الله عنهما ـ لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله ﷺ: يا عائشة اشكري رسول الله ﷺ، فقالت: والله لا أشكر إلا الله، دلَّها أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ على المقام الأكمل، مقام البقاء، المقتضي لإثبات الآثار، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وكانت هي في ذلك الوقت، مصطلمة عن شاهدها، غائبة عن الآثار، فلم تشهد إلا الواحد القهار. انتهىٰ كلامه، وحينئذ ففي قول سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ (على النبي الممد أهل المدد) ثلاثة معان:

الأول: هو شهود مقام البقاء، وهو إثبات الوسائط، مع اعتقاده أن أمورهم قائمة بمولاهم، وأنه هو الذي في مظاهرهم أجلاهم، وأن أعظم واسطة، وأكمل رابطة، هو سيد الأولين والآخرين، وممد أهل المدد من نوره الجاري، من معنى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾، وهو الذي أثبته سيدنا الناظم، وأشار إليه هنا، الشاهد بكماله، وأن له من مقام البقاء أسنى أحواله.

الثاني: إذا قررنا أنه ﷺ ممد أهل المدد، فنبيّن أهل المدد من هم، وما صفتهم، وما يتعلق بأحوالهم، وفي الرد على المنكرين عليهم، والمخالفين لطريقهم.

الثالث: في أمور تتعلق بهذين المعنيين، وتلتحق بهما. فنقول:

المعنى الأول في القول بإثبات الوسائط مع ملاحظة التوحيد، وأن ذلك هو مقام البقاء الحاصل لكل واصل سعيد، وقد قدمنا في ذلك بعض ما يشير إليه من الآيات، ومنه قوله ﷺ: «اعقلها وتوكل»، وأن أعظم سبب إلى الوصول للسعادة الأبدية، والخيرات الدنيوية والأخروية، ولكل مرتبة وفضل وحال ومقام ومزية للأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين، هو سيدنا ونبينا وحبيبنا وقرة أعيننا محمد ﷺ، والشواهد في ذلك كثيرة، والدلائل له غير محصورة، ونثبت هنا عن الأئمة العارفين، والأولياء المقربين، الذين أخذوا العلم من معدنه ما تيسر من القضايا الواقعة، والحجج القاطعة، فمن ذلك قول الشيخ

العارف بالله تعالىٰ محمد ابن علان الصديقي، في آخر شرحه على قصيدة الشيخ الكبير شعيب أبي مدين ـ نفع الله بهما ـ الرائية، على البيت الأخير وهو قوله:

ثم الصَّلاة على المختار سيدنا محمد خير من وافى ومن نذرا

ثم بعد ما ذكر من سادات الاتباع وخواص الأمة، وشيء من جليَّات مشرقات صفاتهم، وصفاء أحوالهم، وسديد أقوالهم وأفعالهم، الذي هو نتيجة تباعهم، لسيد ولد آدم وعروس مملكة العالم، مشيراً إلى أن ذلك نعمة صدرت من فائض بحر كرمه، ومجة من قاموس لجة، من عباب تيار خضم جوده العميم، ومنصة من مظاهر الجسيم، الذي تجلى نور هديه فاهتدى به الكليم، فأضاء بضياء الاقتباس، فما زال عنه الالتباس، مثنياً عليه ومصلياً ومسلماً ليكون لأداء حَقّه مؤدِياً. انتهىٰ، ومن ذلك ما في خاتمة: (إتحاف السائل) لسيدنا الشيخ عبد الله بن علوي الحداد ـ نفع الله به ـ قال في آخر الشرح على قصيدة أبي بكر العيدروس علوي عند قوله نفع الله به:

تمت وصلوا على النبي مهذب القول والفعال

قال: وفي ختمها بالحث على التصلية تنبيه، وإعلام وتنويه، بأنَّ ما حصل للشيخ وغيره من العارفين، إنما هو نتيجة لحسن الاقتفاء، وميراث لكمال الاتباع للرسول ﷺ. انتهىٰ.

وفي شرح صلاة القطب المنسوبة للشريف أحمد البدوي ـ قدس الله روحه ـ للسيد العارف بالله الحبيب عبد الرحمٰن بن مصطفىٰ العيدروس باعلوي ـ نفع الله به ـ قال رضي الله عنه: واعلم أن محمداً ﷺ، هو الذي أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في عالم الأرواح، حتى بعث بجسمه ﷺ، فأولياء الأنبياء الذين سلفوا يأخذون من أنبيائهم، وهم يأخذون من محمد ﷺ. انتهىٰ ملخصاً من رسالة الأنوار للشيخ محيي الدين. وفي كلام الأستاذ الملاذ السيد الشريف حاتم الأهدل الحسيني، وتلميذه الأستاذ الملاذ السيد عبد القادر العيدروس ـ نفع الله به ـ ما هو صريح في تأييد كلام الشيخ محيي الدين، الذي ذكرناه عنه هنا، نفع الله بالجميع، وفي كلام قطب الأقطاب، سيدي أبي الحسن الشاذلي ـ نفع الله به ـ ما صورته:

وكل نبي وولي مادته من رسول الله ﷺ، فمن الأولياء من يشهد عينه، ومنهم من يخفى عليه مادته وعينه، فيفنى بالذي يرد عليه ولا يشتغل بطلب مادته. انتهىٰ، وفي كلام محي الدين ابن عربي أيضاً ما صورته: اعلم أن كل ولي لله تعالىٰ فإنه يأخذ كل ما يأخذ بواسطة روحانيَّة النبي ﷺ، ومنهم من يعرف ذلك، ومنهم من لا يعرف، ويقول: قال لي الله، وليس غير تلك الروحانية، وأما المهيمون من طوائف الملائكة عليهم السَّلام، فإنهم لما كانوا في شدة الاستغراق في شهود الحضرة، جعلوا كأنهم لا يعقلون غير الذات، فكمال الاستغراق أدمج لهم الحضرة المحمدية، ولا يلزم من هذا نفي كونه ﷺ واسطةً لهم كغيرهم، كما لا يخفى. انتهىٰ، ثم ذكر رضي الله عنه بعد ذلك الولاية العامة والولاية الخاصة له ﷺ، وقد بسط الكلام عليه في شرح (هات يا حادي) وسيأتي بعضه، ثم قال هنا: وقد أطلنا المبحث بأكثر مما هُنَا، في شرحنا الكبير على الأبيات العيدروسية، فليرجع إليه من أراده، ولنذكر هنا ما ذكره سيدي عبد القادر العيدروس، في كتاب: (الزهر الباسم) حيث ذكر فيه الولاية الخاصَّة والعامَّة، فنقول: قال نفع الله به: رُوِيَ عن الشيخ الأكبر العارف بالله تعالىٰ محمد بن أحمد البلخي ـ قدس الله روحه ـ قال: سافرت من بلخ إلى بغداد وأنا شاب، لأرى الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، فوافيته يصلي العصر بمدرسته، وما كنت رأيته ولا رآني قبل ذلك، فلما سلَّم وأهرع الناس للسلام عليه، تقدمت إليه وصافحته، وأمسك بيدي، ونظر إليَّ متبسماً وقال: مرحباً بك يا بلخي يا محمد، قد رأى الله مكانك، وعلم نيتك، قال: فكان كلامه دواء الجريح، وشفاء العليل، فذرفت عيناي خشية، وارتعدت فرائصي هيبة، وخفقت أحشائي شوقاً ومحبة، واستوحشت نفسي من الخلق، ووجدت في نفسي أمراً لا أحسن أعبر عنه، ثم ما زال ذلك ينمو ويقوى وأنا أغالبه، فلما كان ذات ليلة قمت إلى وردي، وكانت ليلة مظلمة، فبرز لي من قلبي شخصان، بيد أحدهما كأس، وبيد الآخر خلعة، فقال لي صاحب الخلعة: أنا علي بن أبي طالب، وهذا أحد الملائكة المقربين وهذا كأس شراب المحبة،

وهذه خلعة من خلع الرضا، ثم ألبسني تلك الخلعة، وناولني صاحبه الكأس، فأضاء بنوره المشرق والمغرب، فلما شربته كشف لي عن أسرار الغيوب، ومقامات أولياء الله، وغير ذلك من العجائب، فكان مما رأيت مقاماً تزل العقول في سره، وتضل أفهام الأفكار في حاله، وتخضع رقاب الأولياء لهيبته، وتذهل أسرار السَّرائِرِ في بهائه، وتدهش أبصار البصائر لأشعة أنواره، لا تسامته طائفة من الملائكة الكروبيين والروحانيين والمقربين، إلا حنت ظهورها على هيئة الراكع، تعظيما لقدر ذلك المقام، ويتحقق الناظر إليه أن كل مقام لواصل أو حال لمحدث، أو سر لمحبوب، أو علم لعارف، أو تصريف لولي، أو تمكن لمقرب، فمبدأه وموئليته، وجملته وتفصيله، وكله وبعضه، وأوله وآخره، فيه استقر ومنه نشأ، وعنه صدر وبه كمل، فمكثت مدة لا أستطيع النظر إليه، ثم طوقت النظر إليه، ومكثت مدة لا أستطيع مسامتته، ثم مكثت مدة لا أعلم بمن فيه، ثم بعد مدة علمت بمن فيه، فإذا فيه رسول الله ﷺ، وعن يمينه آدم وإبراهيم وجبريل، وعن شماله نوح وموسىٰ وعيسى، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وبين يديه أكابر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والأولياء ـ قدس الله أرواحهم ـ قياماً على هيئة الحلقة، كأنَّ على رؤوسهم الطير من هيبته ﷺ، وكان ممن عرفت من الصَّحابة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة والعباس ـ رضي الله عنهم ـ، وممن عرفت من الأولياء: معروف الكرخي وسري السَّقَطي، والجنيد وسهل التستري، وتاج العارفين أبو الوفاء والشيخ عبد القادر، والشيخ عدي والشيخ أحمد الرفاعي ـ رضي الله عنهم ـ، وكان من أقرب الصَّحَابة إلى النبي ﷺ أبو بكر، ومن أقرب الأولياء الشيخ عبد القادر، فسمعت قائلاً يقول: إذا اشتاقت الملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والأولياء المحبوبون، إلى رؤية محمد ﷺ، نزل من مقامه الأعلى عند ربه، الذي لا يستطيع النظر إليه أحد، إلى هذا المقام، فتتضاعف أنوارهم برؤيته، وتزكوا أحوالهم بمشاهدته، ويعلو مكانهم ومقاماتهم موكبه، ثم يعود إلى الرفيق الأعلى، قال: سمعت الكل يقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، ثم بدت لي بارقة من القدس الأعظم، فغيبتني عن كل مشهود، واختطفتني عن كل موجود، وأسقطت عني التمييز بين مختلفين، وأقمت على هذه

الحالة ثلاث سنين، فلم أشعر إلا وأنا في سامراء، والشيخ عبدالقادر ـ رضي الله عنه ـ قابض على صدري وإحدى رجليه عندي، والأخرى في بغداد، وقد عاد إليَّ تمييزي، وملكت أمري، فقال لي: يا بلخي قد أمرت أن أردك إلى وجودك، وأملكك حالك، وأسلب عنك قهرك، ثم أخبرني بجميع مشاهدتي وأحوالي، من أول أمري إلى ذلك الوقت، إخباراً يدل على اطلاعه في كل نفس، وقال لي: سألت رسول الله ﷺ سبع مرات، حتى طوقت النظر إلى ذلك المقام، وسبع مرات حتى طوقت مسامتته، وسبع مرات حتى اطلعت على ما فيه، وسبع مرات حتى سمعت المنادي، وقد سألت الله تعالىٰ فيك سبع مرات وسبع مرات وسبع مرات، حتى لاحت تلك البارقة، وكنت من قبل سألته فيك سبعين مرة، حتى سقاك كأساً من محبته، وألبسك خلعة رضوانه، يا بني اقض ما فاتك من الفرائض. انتهىٰ.

وقال في شرح (هات يا حادي) المسمى بـ(الفتح المبين) قال بعض العارفين: اعلم أن المقام المحمدي الخاص به ﷺ، يسمى في الاصطلاح بالفيض الأقدس، ومقام أو أدنى، وهو ولايته الخاصة والمقام المحمدي، والثاني يسمى بالفيض المقدس، ومقام قاب قوسين، وهو ولايته العامَّة كما هو واضح جلي، في قصة البلخي، من مناقب الشيخ عبد القادر الجيلي ـ رضي الله عنه ـ فولايته العامَّة الفيض بواسطته على النبيين والمرسلين، والملائكة والأولياء عموماً وخصوصاً، حسب مرتبة كل أحد وقابليته. انتهىٰ المقصود من ذلك، وما أحسن ما قاله الشيخ القطب محمد بن الشيخ أبي الحسن البكري، في هذا المعنى:

ما أرسل الرحمن أو يرسل … من رحمة تصعد أو تنزل
من ملكوت الله أو ملكه … من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفىٰ عبده … نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها … يعلم هذا كل من يعقل

ثم قال في آخرها:

فأنت باب الله أي امرىء … أتاه من غيرك لا يدخل

وذكر هذا المعنى الشيخ حسين بن عبد الشكور في مواضع من كتابه المشهور، نظماً ونثراً، ومن أخص ما ذكره في موضع قال قدس الله روحه: مدده ﷺ موصول بكل موصول ومفصول، والاعتماد عليه لأهل العقول، والتلقي من يده حقيقة لكل أحد، إذ هو واسطة الأحد في كل مدد، فمن زال حجابه عرف، ومن ران عليه انصرف وانحرف. انتهىٰ.

ومن قصيدة لسيدي العارف بالله حسن بن الشيخ الحبيب عمر البار باعلوي، وهو من أجلِّ مشايخ شيخنا الناظم ـ نفع الله بهما ـ، وأحد ركني هذا السند، قال رضي الله عنه في أثنائها:

ما معي إلا الرجاء أو شي إلى الله يقرب	لا الثلاثي ولا السيفي ولا ورد رتب
هو لها هو لها من قال أنا شفه يكذب	هو يفك العسر يطلق عقدها ويعصب
سيما الحضرة العظمى لها شأن يعرب	والوسائط لها تأثير هي ذي تقرب

إشارة بالحضرة العظمى إلى حضرته ﷺ، قال سيدنا وشيخنا العارف بالله، السيد عمر بن سقاف السقاف باعلوي ـ نفع الله به ـ في تعليقه على أبيات القطب العيدروس العدني: (الله يتم السرور) في شرح «ونلتقي بالعذب فايق الحور» قال: ويدخل في قول الشيخ (العذب) الحقيقة المحمدية، الكاملة الحسن في المراتب العلية، إلى أن قال: ولأهل المحبة ترقيات وقتيات في محبوبهم، فأول درجة في المحبَّة: الفناء في الشيخ ثم يفنى في الواسطة العظمى رسول الله ﷺ، ثم يشهد الحق جل وعلا. وكان الشيخ العارف بالله الذائق عمر بن عبد القادر العمودي، في بعض الأحوال، إذا غلبه الوجد والفناء في شيخه الشيخ عبد الله الحداد، يقول: عبد الله الحداد، ويستغرق حسه ويقف ساعة في شهوده، ثم يترقى إلى مشاهدة الحضرة المحمدية، ويقول: محمد رسول الله ﷺ، ويقف ساعة في شهوده ﷺ، ويصير كالواله، ثم يترقى فيقول: الله، الله، الله، فيفنى الفناء الكلي، ويغيب في الشهود، ويفنى في الوجود. انتهىٰ، والنقول في ذلك كثيرة، وفيما نقلناه كفاية، لأن الناس في هذا المقام ثلاثة، إما واصل إليه ومكاشف به، فلا يحتاج إلى الخبر بعد العيان، وإما مصدق به معتقد له، ففي هذا النقل غنية بالصفة إلى تأكيد

تصديقه، أو تشويقه إلى التحقيق بمعرفة فريقه، وإما مكذب بذلك قائل أنه من الأساطير فمن لم ينفعه القليل لم ينفعه الكثير، والله أعلم.

المعنى الثاني فيما يتعلق بأهل المدد، والتلقي من الفيض المقدس المستمد، وهم خواص الأمة الاحمدية، ذوو الوراثة المحمدية، والأنوار السَّاطعة الجلية، أصحاب رسول الله ﷺ وآله الكرام، والتابعين لهم على أكمل سير وإقبال، وتخلق بأشرف الخصال، وقد مرَّ بعض شرح طريقهم، وما يومي إلى وصول إلى مرامي تحقيقهم، وهنا نجعل الكلام في هذا المعنى، وما فيه من التحقيق الأسنى في أربعة مباحث:

المبحث الأول: في تعريف الولي، وما يختص به من النور الجلي، والمعرفة الخاصة، والمحبة الخالِصَة، وفي القول ببقاء الأولياء إلى يوم القيامة، وفي الرد على من أنكر وجود الأولياء رأساً، أو خلو زمان منهم، أو قال بوجودهم ولكن بغير تعيين لأحد منهم.

قال في (المشرع الروي) في تعريف الولي: هو مأخوذ من الولي بسكون اللام، وهو القرب، فولي الله تعالىٰ القريب منه بامتثال طاعته واجتناب نواهيه، لأنه بذلك ينال محبة الله تعالىٰ، لاتباعه سنة حبيبه ﷺ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. انتهىٰ، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ قدس الله روحه ـ الولي له معنيان، أحدهما: فعيل بمعنى مفعول، وهو من يتولى الله أمره، قال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه رعايته، والثاني: فعيل مبالغةً من الفاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته لله تجري على التوالي، من غير أن يتخللها عصيان، وكلا الوصفين واجب، حتى يكون الولي وليّاً يجب قيامه بحقوق الله على الاستقصاء والاستيفاء، ودوام حفظ الله له في السَّراء والضَّراء، ومن شرط الولي أن يكون محفوظاً، كما أن من شرط النبي أن يكون معصوماً، فكل من للشرع عليه اعتراض فهو مغرور ومخدوع، سمعت الأستاذ أبا علي يقول: قصد أبو يزيد البسطامي ـ رحمه الله ـ بعض من وصف بالولاية، فلما وافى مسجده قعد ينتظر

خروجه، فخرج الرجل وتنخم في المسجد، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة، فكيف يكون أميناً على أسرار الحق. انتهىٰ، وقال الشريف محمد بن الحسن في مقدمة تاريخه (مجمع الأحباب): المسألة الثانية في تعريف الولي الخاص، فقد ثبت من غير ما طريق، أن رسول الله ﷺ لمَّا سئل عن أولياء الله تعالىٰ فقال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله» رواه البزار ـ رحمه الله ـ في مسنده، ورواه أيضاً الحافظ أبو نعيم الأصبهاني ـ رحمه الله ـ من طريقين، ولفظه في أحدهما: عن أبي منصور مولى الأنصار، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالىٰ: إن أوليائي من عبادي، وأحبائي من خلقي، الذين يذكرون بذكري، وأذكر بذكرهم» وليس لقائل أن يقول، لم لا عرفت الأولياء بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، لأنا نقول: الآية الكريمة لم ترد في هذا على سبيل التعريف لهم، بخلاف ما ذكرنا من الحديث، فإنه ورد على سبيل التعريف، فهو نص في المقصود. انتهىٰ، قلت: وفي الرسالة أورد الآية الكريمة من دلائل باب الولاية وفضائلها، ولو قيل إنها ترد أيضاً في تعريف الولي، لم يبعد، لأن فيها مع بيان فضلهم وصفتهم، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، ولأن الخازن صاحب تفسير القرآن، أورد هذا الحديث الذي أورده الشريف محمد بن الحسن في الكلام على تفسير هذه الآية، وبعده حديثاً آخر قال فيه: وروى الطبراني بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء» قيل من هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبهم، قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾» انتهىٰ.

فعرفهم ﷺ للسائل ببعض ما وصفهم الله تعالىٰ في الآية بأنه: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، مما بينه في هذا الحديث، وفي غيره من الأحاديث الآتي بعضها، ثم قال في التفسير المذكور: قال أبو بكر الأصم ـ رحمة الله عليه ـ: أولياء الله هم الذين تولى

الله هدايتهم، وتولوا القيام بحق العبودية والدعوة إليه، وأصل الولي من الولاء، وهو القرب والنصرة، فولي الله هو الذي يتقرب إلى الله بكل ما افترض الله عليه، ويكون مشتغلاً بالله، مستغرق القلب في نور معرفة جلال الله، فإن رأى رأى دلائل قدرة الله، وإن سمع سمع آيات الله، وإن نطق نطق بالثناء على الله، وإن تحرك تحرك في طاعة الله، وإن اجتهد اجتهد فيما يقربه إلى الله، لا يفتر عن ذكر الله، ولا يرى قلبه غير الله، فهذه صفة أولياء الله، وإذا كان العبد كذلك، كان الله وليه وناصره ومعينه، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال المتكلمون: ولي الله من كان آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، وكان آتياً بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة. انتهىٰ من تفسير الخازن، وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: الولي في بدايته هو الحريص على أخبار الأولياء وأحوالهم، يسمع الحق فلا ينكره ولا يعترض عليه، فيشتاق إلى الأحوال ويحرص على حصولها، ويتمنى المقامات ووصولها، والولي في نهايته هو الذي يفيد ويستفيد، ويجد في أحواله وعلومه وأعماله البركة والمزيد. وقال الشيخ إبراهيم بن مطير في شرح منظومته في العقائد: الوليُّ هو العارف بالله حسب ما يمكن، المواظب على الطاعات، المجتنب للمعاصي، المعرض عن الإنهماك في اللذات والشهوات. انتهىٰ، وقيَّد بعضهم قوله (المجتنب للمعاصي) لا على وجه العصمة، لأنَّ العصمة من المعاصي صغائرها وكبائرها مع الخلاف، وكبائرها اتفاقاً، للأنبياء عليهم السَّلام، بعد النبوة اتفاقاً، وقبلها على الراجح، وقد وردت في معنى ذلك أحاديث كثيرة، منها ما تقدم في مضمون هذا النقل، ومنها قوله ﷺ: «من عمل بما علم، ورثه الله علم مالم يعلم»، وقال ﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»، وقال ﷺ: «إن الله تعالىٰ قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضت عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه» رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومعنى «آذنته بالحرب» أعلمته أني محارب له، وقد تكلم

الأئمة في معنى هذا الحديث، وحققوا فيه ما يليق بجلال الحق سبحانه وتعالىٰ، ومقام العبد، فقال الإمام الحسين بن محمد الطيبي ـ قدس الله روحه ـ في معنى قوله «كنت سمعه» إلى تمام الفصل: أجعل سلطان حبي غالباً عليه، حتى يسلب منه الإهتمام بشيء غير ما يقربه إلي، فيصير منخلعاً عن الشهوات، ذاهلاً عن الحظوظ واللذات، مقيماً بقلب، وأينما توجه لقي الله بمرأى منه ومسمع، لا تطرق حالته الغفلة، ولا تحول دون شهوده الحجبة، ولا يعتري ذكره النسيان، ولا يخطر بباله الأحداث والأعيان، يأخذ بمجامع قلبه حب الله، فلا يرى ولا يسمع ولا يفعل إلا ما يحبه، ويكون الله له في ذلك يداً ومؤيدا، وعوناً ووكيلا، يحمي سمعه وبصره ويده ورجله عما لا يرضاه، وحقيقة هذا القول ارتهان كلية العبد بمراضي الله تعالىٰ، وحسن رعايته له، وذلك على سبيل الاتساع، فإنهم إذا أرادوا اختصاص الشيء بنوع منه(١) والاهتمام والعناية والاستغراق فيه، والوله والتروع له، سلكوا هذا الطريق، قال: جنوني فيك لا يخفى، وناري فيك لا تخبو، وأنت السمع والناظر، والمهجة والقلب، ولسلفنا من مشايخ الصوفية في هذا الباب فتوحات غيبية، وإشارات ذوقية، تهتز منها العظام البالية، غير أنها لا تصلح إلا لمن سلك سبيلهم فعلم مشربهم، وأما غيرهم فلا يؤمن عليه عند سماعها من الأغاليط، التي تهوي بصاحبها إلى مهوات الحلول والاتحاد، فتعالى الله الملك الحق عن صفات المخلوقين، ونعوت المربوبين، وحسب ذوي الألباب، من شواهد هذا الباب، أن الله تبارك وتعالىٰ لما أراد أن يقرر في قلوب السامعين عند الواقفين، أن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده معه، أضاف المبايعة معه إلى نفسه بآكد الألفاظ، فأخص المعاني فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]. انتهىٰ من شرح المشكاة له.

قال الشيخ المحقق عبد الله بن خليل الزبيدي ـ رحمة الله عليه ـ في كتابه الذي جعله في الرد على يوسف الهندي في قوله بوحدة الوجود وغيرها، ما نصه: قال العلامة اللقاني في شرح الأربعين الحديث التي جمعها الإمام النووي رحمهم

(١) كذا بياض بالأصل.

الله تعالىٰ: زعم الاتحادية والحلولية أن الحديث على حقيقته، وأن الحق عين العبد أو حال فيه، وهو ضلال وكفر إجماعاً، ويرد حملهم قوله في بقية الحديث «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه». انتهىٰ. . ثم قال: وأما أهل الحق فقالوا: كيف يكون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره. . إلى آخره؟ وأجابوا عن ذلك من أوجه: أَحَدُها على حذف مُضافٍ أي حافظ سمعه الذي يسمع به، فلا يسمع إلا ما يحل سماعه، وحافظ بصره فلا يبصر إلا ما يحل إبصاره، وحافظ يده فلا يبطش بها فيما لا يحل، وحافظ رجله فلا يمشي بها إلا فيما يحل المشي إليه إما إيجاباً وإما ندباً أو إباحة، وهذا هو المعتمد. قال الفاكهاني: ويحتمل احتمال آخر أدق من الذي قبله، وهو أن يكون مسموعه، لأنَّ المصدر قد جاء بمعنى المفعول، مثل أنت رجائي بمعنى مرجوي، وفلان أملي بمعنى مأمولي، والمعنى: لا يسمع إلا ذكري ولا يتلذذ إلا بتلاوة كتابي، ولا يأنس إلا بمناجاتي، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي ولا يمد يده إلا في رضائي ومحبتي، ولا يمشي برجله إلا لذلك. . وساق أجوبة غير هذه ثم قال: والتحقيق أنه مجاز وكناية عن نصرة الله لعبده المتقرب إليه بما ذكر، وتأييده وصيانته وتوليته في جميع أموره، حتى كأنه تعالىٰ نزل نفسه من عبده منزلة الآلات والجوارح التي يستعين بها، ولهذا جاء في رواية أخرى: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يمشي»، أنا الذي أقدرته على هذه الأفعال، وخلقتها فيه، وأنا الفاعل لذلك. انتهىٰ من كتاب خليل رحمة الله عليه. وذكر في رسالة للشيخ محمود الكردي، نقلاً عن الشيخ الحلبي، معنى الحلول والاتحاد: أن الحلول دخول شيء في شيء، والاتحاد جعل الشيئين شيئاً واحداً. انتهىٰ، فإذا كان كذلك فلا دليل للقائل بهما أخذ معنيهما من هذا الحديث القدسي، لأن المتقرب إلى الله بالنوافل وغيره، كالجُعَل والوزغ والحية في ذلك سواء، عند القائل بالحلول والاتحاد كما يفهمه مدلولهما السَّابق، فسقط استدلاله لما في هذا الحديث، واتضح أن الصَّواب من معناه ما ذكره، هؤلاء الأئمة الأعلام، وأن الله تعالىٰ منزه مما زعمه هؤلاء الطغام، تعالى الله عما يقول الكافرون والجاحدون علواً كبيراً. قال في الرسالة المتقدم ذكرها: إن الشيخ ابن حجر سأل الرملي عن القائل بوحدة الوجود فقال: يُقْتل هذا المرتد، وترمى جيفته للكلاب،

لأن هذا قوله لا يقبل تأويلاً، وكفره أشد من كفر اليهود والنصارى، وإن ابن حجر استحسن ذلك، وكأنه كان يتمحل لبعض المتصوفة القاصرين ممن يشم من قدره رائحة القول بذلك فرجع عنه. هذا معنى ما ذكره في هذه الرسالة.

وأما القول ببقاء الأولياء مستورين وظاهرين، ووجودهم في كل زمان ومكان إلى قيام السَّاعة، فذلك مما لا يمتري فيه إلا غالٍ خاسر أو جاهل قاصر، ودلائله كثيرة فننقل من ذلك ما تيسر.

قال الشريف محمد بن الحسن في تاريخه (مجمع الأحباب): المسألة الثالثة اعلم أن هذه الأمة ـ زادها الله تعالىٰ شرفاً ـ لا تزال الولاية فيها ثابتة إلى يوم القيامة، والدليل على ذلك أنه قد ثبت من غير ما طريق، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال في أمتي أربعون على قلب إبراهيم الخليل» أخرجه الطبراني في معجمه، وهو يفي في ثبوت الولاية إلى يوم القيامة. انتهىٰ من مقدمة التاريخ المذكور، وقال سيدنا القطب الشيخ عبد الله بن علوي الحداد علوي ـ قدس الله روحه ـ في جواب له في (النفائس العلوية على المسائل الصوفية) مما يدل لذلك ما صورته: اعلم يا أخي أن في الباب أخباراً ترفع إلى رسول الله ﷺ، وآثاراً تستند إلى أولياء الله، وسأقتصر من ذلك على ذكر خبر وأثر وأطراف أخر، روى اليافعي ـ رحمه الله ـ في روضه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله تعالىٰ في أرضه ثلاث مائة قلوبهم على قلب آدم، وأربعون قلوبهم على قلب موسىٰ، وله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، وله خمسة قلوبهم على قلب جبريل، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل، وله واحد قلبه على قلب إسرافيل صلى الله على نبينا وعليهم وسلم، فإذا مات الواحد جعل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة جعل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة جعل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة جعل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين جعل الله مكانه من الثلاث مائة، وإذا مات من الثلاث مائة جعل الله مكانه من العامة، بهم يرفع الله البلاء عن هذه الأمة»، قال الإمام اليافعي ـ رحمه الله ـ: وهذا الواحد الذي على قلب إسرافيل هو القطب وهو الغوث، ومكانه ومكانته من الأولياء ـ نفع

الله بهم ـ بمنزلـة النقطة من الدائرة التـي هو مركزها، به يقع صلاح العالم، وذكـر ـ نفع الله به ـ عن ابن عربي ـ قدس الله روحه ـ أن من الأولياء رجالاً يقال لهم الأفراد، لا يدخلون تحت دائرة القطب، وربما لم يطلع عليهم. انتهىٰ، قال: وفيه احتمال، وفي كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ قدس الله روحه ـ ما يدل على أن الأفراد وغيرهم من الأولياء، كلهم داخلون بأمر الله تحت أمر الغوث، ثم إن أولياء الله غير محصورين في هذا العدد، وقد بلغنا أنه بلغ عددهم في أيام الشيخ عبدالقادر ـ نفع الله به ـ اثني عشر ألفاً ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾. هذا بعض ما ذكره سيدنا الشيخ عبد الله الحداد نفع الله به. وقال الشيخ عبد الله بن سعيد العمودي، أحد أصحاب سيدنا الحبيب عبد الله الحداد ـ نفع الله بهما ـ في آخر جواب له: وأما الأولياء فلم يزالوا من وقت إلى وقت، وكثرهم على حسب إرادة الله تعالىٰ، والذين يقومون بالدين هم أرباب دوائر الولاية، لكن خُصَّت الإرادة الإلٰهية بظهورهم لعامة الناس في وقت، وخفاهم في آخر، وأولياء هذا الزمان أكثر من أن يحصون، وأقوى مدداً وأكثر عدداً، وأثبت شهوداً، وأكمل وفوداً، لكن اقتضى الوقت خفاهم، لكثرة [عدم] اكتراث عامة أهل الوقت بهم، وقلة القيام بحقوقهم، والوفاء بعهودهم. انتهىٰ المقصود من كلامه، وذكر بعض الأكابر أنه لما كان متوفراً في عصر النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، كان أمر القطبية ظاهراً، ثم لما ظهرت البدع أتبعت الشهوات، وانتهكت المحرمات وقامت الأهوى، ومالت الأمة عن الطريق الأعدل الأسوى، رجع حال القطب في ذلك الزمان، من الظهور الأعظم إلى التدريج في الخفاء، تبعاً للدين الذي بدأ غريباً ثم أظهر على الدين كله، ثم يعود غريباً كما بدأ، كما ورد في الحديث، فطوبى للغرباء، ومع هذا فلا يزال طائفة من الأمة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله، فطوبى لهم، رحمنا الله بهم. انتهىٰ بمعناه.

وقال في: (المشرع الروي في مناقب السَّادة بني علوي) نفعنا الله بهم ما صورته: فالمتقون هم أولياء الله، وبحسب اجتهادهم في مراتب التقوى تتفاوت مراتبهم في مقام الولاية، فأفضلهم الغوث الذي به غياث عباد الله تعالىٰ، وبواسطته تنزل رحمة الله، ثم الإمامان وهما كالوزيرين، ثم الأربعة الأوتاد الحافظون لجهات

الأرض، ثم السبعة النجباء الحافظون للأقاليم السبعة، ثم النقباء الإثنا عشر الحاكمون على البروج الإثنا عشر، وما يلزمها من الحوادث، ثم الأربعون البدل الساعون في قضاء حوائج المسلمين، ثم التسعة والتسعون الذين هم مظاهر الأسماء الحسنى، ثم الثلثمائة والستون الولي، ثم الصالحون من المؤمنين، وأهل هذه المراتب لا بد من وجودهم في كل زمان إلى نزول عيسىٰ على نبينا وعليه أفضل الصَّلاة والسَّلام، وكلهم مستمدون من القطب، داخلون تحت نظره، ولله تعالىٰ أصفياء أخفياء، يقال لهم الأفراد، خارجون عن نظر القطب، والله يختص برحمته من يشاء، فإذا مات القطب أبدل بخير الإمامين، أو مات أحد الإمامين أبدل بخيار الأربعة وهكذا، فإذا أراد الله قيام السَّاعة أماتهم كلهم. انتهىٰ.

وإلى ما قاله سيدنا الشيخ عبد الله الحداد علوي، والشريف محمد بن الحسن، وما نقلناه عن غيرهما هنا ذكر ـ نفع الله به ـ في التائية طوائف الأولياء، واختلاف أحوالهم ظهوراً وخمولاً، وتطوراتهم إقامةً ورحيلاً، فقال نفع الله به:

فوا أسفي إن مت من قبل أن أرى　　وجوهاً عليها نور علم وخشية

إلى أن قال:

فلله أقوام نأى البعض منهم　　عن البعض إيثاراً لمقصود خلوة
وأنساً بمولاهم وشغلاً بذكره　　وخدمته في كل حين وحالة
وحرصاً على هذا الخمول لأنه　　أمان لأهل الله من شر شهرة
وحب اعتزال وانقطاع فإن فيـ　　ـهما طيب عيش في زمان البلية
فمنهم مقيم في الأنام وإنَّه　　لمستور عنهم تحت أستار غيرة
يراه الورى إلا القليل كغيره　　من الغافلين التاركين استقامة

ثم ذكر: ومنهم ومنهم إلى أن قال رضي الله عنه:

ولولاهم بين الأنام لدكدكت　　جبال وأرض لارتكاب الخطيئة

وأنشد آخر:

لولا رجال لهم ورد يقومونا　　وآخرون لهم سرد يصومونا
لدكدكت أرضكم من تحتكم سحراً　　لأنكم قوم سوء لا تطيعونا

وقال الإمام اليافعي ـ رحمه الله ـ في روضه: واعلم أن طائفة من الناس أنكروا وجود الولاية في شخص معيّن، وطائفة أخرى صدقوا بثبوت الولاية ووقوع الكرامات فيمن تقدم عن زمنهم، وأنكروا وقوعها في أهل زمانهم، حتى قال بعض الفضلاء: ما هي إلا اسرائيلية، آمنوا بعيسىٰ وكفروا بمحمد ﷺ، وكثير من علماء الظاهر ابتلي بذلك نعوذ بالله من الحرمان. انتهىٰ من مقدمة الروض، وما نشأ هذا الإنكار والاستبعاد لوجود ذلك، إلا من الفضول والجهل وعدم نور البصيرة، وقد قيل: لا يعرف الولي إلا ولي، لأن من أدق الأشياء وأخفاها، معرفة خصوصية الولاية فيمن يأكل ويشرب مثلك، ويتنقل في أطوار البشريَّة، وللإمام السيوطي ـ نفع الله به ـ رسالة مستقلة، استوعب فيها من الأحاديث جملةً، سماها: (الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال) رزقنا الله محبتهم وحسن الظن بهم ولا حرمنا بركتهم.

المبحث الثاني: في ذكر كرامات الأولياء، الدالة على صدقهم في معاملتهم لمولاهم، وتمام استقامتهم في دينه، وعلامة محبته لهم، وفي تصرفاتهم بإذن الله تعالىٰ أحياءً وأمواتاً، وفي الرد على من أنكر ذلك من فرق المعتزلة والمبتدعة، وغلاة المنكرين على الأولياء، وجهلة المقصرين عن البحث عن حقيقة الأشياء، بالدلائل العقلية والنقلية، التي وردت بها الآيات والأخبار، وثبتت بها الأدلة والآثار. فمن الأدلة القرآنية ما قصه الله تعالىٰ عن مريم ـ عليها السَّلام ـ من قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، قال المفسرون: ولم يكن ذلك في أوان الرطب، وكذلك قوله تعالىٰ في عرش بلقيس: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، وفي قصة أهل الكهف إشارة إلى ذلك، ببقاء أجسامهم تلك المدة، وما وقع لهم من الأمور العظيمة، وهؤلاء كلهم ليسوا بأنبياء، وأما الخضر في قصته مع موسىٰ ـ عليهما السلام ـ فهو وما حصل له من هذا الباب، إن قلنا إنه ولي كما اعتمده جمع منهم اليافعي، والراجح أنه نبي، قال سيدنا الإمام عبد الرحمٰن عبد الله بلفقيه باعلوي ـ نفع الله به:

ومنهم الخضر الباقي الصَّحابي لا لقمان والبر ذو القرنين بل فضلا

وأما ما ورد في السُّنة من الأحاديث الصحيحة، والآثار الثانية عن الصحابة والتابعين، من الأئمة المجمع على جلالتهم وعظم موقعهم في الدين، وتقدير ذلك منهم فعلاً وقولاً، فمن الأحاديث قوله ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر مدفوع عن الأبواب لو أقسم على الله لأبره» وقال ﷺ: «إن من أمتي محدثين وإن عمر منهم» ومنها حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، وحديث البقرة التي تكلمت للذي حمل عليها متاعه، فقالت له لم أخلق لهذا، وإنما خلقت للحرث، وحديث خبيب، ورؤية عمران بن حصين للملائكة حتى اكتوى، وحديث القصعة لأبي بكر، وما وقع لأميره العلا ابن الحضرمي، من اقتحام البحر بجيشه في قتال أهل البحرين، لما أخبر أنهم ركبوا السفن وسيفوتونهم، فدخلوا الخليج بخيلهم، يمشون على مثل رملة دمثة فوقها مالا يبلغ أخفاف الإبل ولا يصل إلى ركب الخيل، وكان مسير ذلك بالسفر في السفن يوماً وليلة، فقطعوه إلى الساحل الآخر، وقريباً من ذلك ما وقع في زمن سيدنا عمر بن الخطاب، لأميره سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهما ـ هو وجيشه، فخاض البحر كذلك، وحديث سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يخطب في المدينة إذ نادى: الجبل يا سارية، وهو في الشام، كشف له في حال قتالهم أمرهم، فأمر سارية أمير الجيش بصعود الجبل أو الثبوت فيه، فسمع سارية صوته، ولم يدر الحاضرون ما أراد بذلك، حتى أتى الجيش فأخبروهم بذلك، وحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ودعوته على المرأة التي ادعت أنه غصبها أرضها فقال:

اللهم إن كانت كاذبة فاعم بصرها واقتلها في أرضها، فذهب بصرها، وبينما هي تمشي في أرضها، إذ سقطَت في حفرةٍ فماتت، وحديث سفينة مولى رسول الله ﷺ، لما أقبل عليه وعلى من معه الأسد، فقال له: أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ، فبصبص بذيله فربما قبَّله، إلى غير ذلك مما روي صحيحاً عنهم، مع أن الصَّحابة رضي الله عنهم مغتنون بنور النبوة، مغمورون به، مولهون بالاستغراق في أشعته، مبهوتون بجلال حضرته، آنسون بجمال محياه الشريف وطلعته، ولهم من

اليقين أعلى المراتب، فلم يحتج إلى كثرة ظهور الكرامات في زمنهم، لأن ظهورها إلا لتقوية مريد صادق، أو لردع زنديق منافق، أو إثار همة سالك، أو غير ذلك من المقاصد الصحيحة، وأجمع أهل السنة أن ما صَحَّ أن يكون معجزة لنبي، صح أن يكون كرامة لولي، والفرق بين المعجزة والكرامة ونحو السحر، أن المعجزة تكون مقترنة بالتحدي بخلاف الكرامة، والكرامة تظهر على يد المستقيم، والسحر لا يكون إلا لفاسق أو كافر.

قال الشيخ أبو القاسم القشيري ـ رحمة الله عليه: ظهور الكرامات على الأولياء جائز، والدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه في العقل، لا يؤدي إلى رفع أصل من الأصول، فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده، وإذا وجب كونه مقدور الله سبحانه، فلا شيء يمنع جواز حصوله، وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله، فمن لم يكن صادقاً فظهور مثله عليه لا يجوز. إلى آخر ما ذكره رضي الله عنه، ثم قال في موضع آخر: فإن قيل كيف يجوز إظهار هذه الكرامات الزائدة في المعاني على معجزات الرسل؟ وهل يجوز تفضيل الأولياء على الأنبياء عليهم السَّلام؟ فالجواب: إن هذه الكرامات لاحقة بمعجزة نبينا ﷺ، لأن كل من ليس بِصَادقٍ في الإسلام لا تظهر عليه الكرامة، وكل نبي ظهرت كرامته على واحد من أمته، فهي معدودة من جملة معجزاته، ولو لم يكن ذلك الرسول صادقاً، لم تظهر على من تابعه المعجزة، فأما رتبة الأولياء فلا تبلغ رتبة الأنبياء عليهم السَّلام، للإجماع المنعقد على ذلك، وهذا أبو يزيد البسطامي سئل عن هذه المسألة فقال: مثل ما حصل للأنبياء عليهم السَّلام، مثل زق فيه عسل ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء، وباقي القطرات وما في الظرف مثل ما لنبينا محمد ﷺ. انتهىٰ.

وقد أشبع الفصل في هذا المبحث، وأوضح دلائله ونقوله، القطب اليافعي ـ رحمه الله ـ في مقدمة روضه، وحقق ذلك وأوضحه نقلاً ودليلاً، واتفاقاً واختلافاً بين أهل السنة وغيرهم، في كتابه (نشر المحاسن) البديع الحسن في الترتيب والتحقيق، بما لا مزيد عليه في هذا المبحث وغيره، من أحوالهم ومقاماتهم،

وأصله أسئلة وردت عليه في هذه المسائل وما يتعلق بها، فأشبع الفصل وأشفى الغليل، وجعل الجواب كتاباً جامعاً حافلا، سماه هذا الاسم الذي هو صادق على مسماه، فجزاه الله عن المسلمين خيرا، وكذا غيره من أهل الطبقات والتواريخ، كالشعراوي والمناوي والشرجي وغيرهم، وإذا ثبت وقوعها للأنبياء مطلقاً، كما تصرح به هذه الآيات والأحاديث والآثار، فلا فرق بين الأولياء الأحياء وبين الأموات، إذا أثبتوا جواز تصرفهم بالكرامات أحياءً وأمواتاً. قال بعض الأكابر وقد سئل عن تصرف الأولياء، هل يجوز أن يبقى بعد الموت أم لا؟ فأجاب ـ رضي الله عنه ـ بقوله: الحقيقة أن التصرف المذكور، سواء فرضناه في حال الحياة أم في حال الممات، فهو في تصرف الله تعالىٰ وفعله، الذي أكرم به أولياءه، وأظهر عليهم بقدرته ونفوذ مشيئته ومقتضى حكمته، وحكمه فيهم وفي غيرهم، فهو منسوب إلى الله تعالىٰ حقيقة، وإلى غيره مجازاً، لأن مذهب أهل الحق والتحقيق، أن أفعال العباد مطلقاً خلق الله تعالىٰ واختراعه، سواء كانت اختيارية أم اضطرارية، وسواء كانت كرامة أم غير كرامة، ويستوي في ذلك الأنبياء والأولياء وغيرهم، أعني كون أفعالهم الاختيارية والاضطرارية مخلوقة لله تعالىٰ مخترعة، فافهم. وإنما اختص الأنبياء بالمعجزات، والأولياء بالكرامات، لكون المعجزة أظهرها الله تعالىٰ على أيديهم، لبيان صدقهم في معنى النبوة، وتكون الكرامة دالاً على استقامة الولي في ولايته، وللمعجزة والكرامة شروط وحدود، وقد ذكرها الأئمة يحصل بها الفرق بين المعجزة والكرامة، وبينهما وبين السحر والشعبذة فروق أيضاً، مذكورة في مواضعها، والمراد من تصرف الولي بعد الموت، أنه يظهر من بركته من الخوارق، شيء ينسب إليه بعلامات ظاهرة، ودلالات باهرة، من جنس ما كان يظهر في حياته، وذلك شيء قد ظهر على كثير من الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ كما شاع واشتهر، وذلك يستدعي لأمرين أحدهما: بقاء الأرواح حيَّةً في البرازخ كما كانت في الدنيا، وهذا متفق عليه عند أهل السُّنَّة، وإن خالف فيه جمهور المعتزلة ومن لا يعتد بخلافه، ولأنَّ الموت ليس بعدم محض، ولا فناءٍ صرفٍ، بل هو انتقال الروح من حال إلى حال، ومن دار إلى دار، وشواهد ذلك من الكتاب والسنة لا ينحصر، والثاني: أن الله يختص برحمته من يشاء في الحياة

والممات. وقد أشرنا إلى أنه قد ظهر من الوقائع الخارقة العادة، عن بعض الأولياء بعد موته، ما يشهد لجواز ذلك، ولا شيء أدل على الجواز من الوقوع، ثم قال في موضع آخر جواباً على قول السَّائل: كيف يكون تصرف الولي بعد الموت؟ فقال رضي الله عنه: قد حققنا ذلك في الجواب الذي قبل هذا أن التصرف كله لله حقيقة، وأن نسبة التصرف إلى غيره مجاز، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وأيضاً قبل هذا: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وقد تقدم لنا فيما سبق من الأجوبة، أن الأسباب لا تأثير لها في الحقيقة، وأن المؤثر خلف حجاب الوسائط هو الله تعالىٰ، وإذا كان الولي حيّاً في قبره، لم يفقد من علمه وعقله ولا من قواه الروحانية شيئاً، بل ربما تضاعف قواه الروحانية، فكيف يبعد أن يكون تصرفه بالإرادة، والمشيئة هي من صفات الروح الحي، وروح الولي حي، بل اتفق أهل التحقيق أن الروح أبديَّة لا تفنى، وليست بأزلية، بل هي حادثة بعد حدوث الجسم، هذا هو الحق، ومن قال بعدم الروح، وأراد روح الإنسان أو غيرها من المخلوقات، فقد قال شيئاً من مقالات الفلاسفة الضلال، القائلين بقدم العالم، فإن أراد بالروح القرآن، فالقرآن قديم، قال الله تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل: ٢]، فالروح هنا هو كلام الله، وكلام الله قديم غير مخلوق، وقد تطلق عليه الروح مجازاً لأن به حياة الروح، وأما أرواح الأولياء فإنها تزداد بعد الموت بصيرة وعلما، وقوة وحياة روحانية، وسر التصرف موجود فيها، قال الشيخ ناصر الدين:

للقوم سر مع المحبوب ليس له حد وليس سوى المحبوب يحصيه
به تصرفهم في الكائنات فما شاء يشاؤا وما شاؤوه يقضيه

فإذا كان لهم هذا في الدنيا، فكيف لا يكون لهم في الآخرة، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. انتهىٰ كلام هذا العارف. وقال الشيخ الإمام الولي الهمام عبد الغني النابلسي

الحنفي، في رسالة سماها: (كشف النور عن أصحاب القبور) ما نصه: إخواني ورضعة ثدي الإسلام، إن الكرامات التي أكرم الله بها أولياءه المقربين إلى حضرته، أمور خارقة لعادة الله تعالىٰ في خلقه، خلقها الله تعالىٰ بمحض قدرته وإرادته، لا مدخل لقدرة الولي المخلوقة فيه، ولا إرادته المخلوقة فيه أيضاً، على التأثير البتَّة، وإنما قدرة الولي فإرادته المخلوقتان فيه، سبب لخلق الله تعالىٰ تلك الكرامة على يديه، ونسبتها إليه، وكل من اعتقد أن لولي في شيء من ذلك، فهو كافر بالله تعالىٰ على ما عرف من علم التوحيد، وحقيقة أمر الولي في خلق الله تعالىٰ الكرامات على يديه، أنه متحقق بوحدانية الله تعالىٰ في التأثير، وأنه لا تأثير عند نفسه البتَّة. وهو في غاية من الحسن والجودة عقلاً ونقلاً، وبه يتأيد وبه يعضد ما ذكره المجدد لعلومهم، القطب عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ قال: أهل البرزخ من الأولياء في حضرة الله، فمن توجه إليهم توجهوا إليه ـ أي بحصول مطلوبه. وقال رضي الله عنه: الصَّالح الحي فيه خصوصية وبشرية، وربما غلبت إحداهما الأخرى، وخصوصاً في هذا الزمان تغلب البشرية، والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط، وقال له رجل: أريد أعود إلى زيارتكم، فقال: إن شاء الله إن لحقتمونا وإلا فقبورنا تنوب منابنا، فإن الأخيار إذا ماتوا لم تفقد منهم إلا أعمالهم[1] وصورهم، وأما حقائقهم فموجودة. وقال رضي الله عنه: الولي يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته، أكثر من اعتنائه بهم في حياته، لأنه في حياته مشغول بالتكليف، وبعد موته طرح الله عنه الأعباء. انتهىٰ، وقال السيد إمام المعقول والمنقول، عبد الرحمٰن بن سليمان مقبول الأهدل، مفتي مدينة زبيد الآن، في أثناء جواب له في حكم سلب الأولياء، والسَّائل له الشيخ العلامة أحمد بن عبد القادر الحفظي الحجازي ـ نفع الله بهما ـ ما صورته:

المقدمة الثانية: اعلم أن السلب المبحوث عنه، فرد من أفراد الكرامة، المثبت لها جماهير أهل السُّنة والجماعة، وإن اختلفوا بعد اتفاقهم على الوقوع، في اعتبار عدم الاختيار وعدم الاعتبار وعدم التوالي، فقال بالأول إمام الحرمين،

---

(١) في تثبيت الفؤاد: أعيانهم.

وبالثاني بعض الأئمة والصحيح خلاف ذلك، هذا ولا يعزب عن بالك أن الله تعالىٰ هو الفاعل الحقيقي، وجريان السلب ونحوه على يد الولي، إنما هو كما قال في (الحكم) لابن عطاء الله ـ قدس الله سره ـ إذا أراد الله تعالىٰ أن يحسن إليك خلق ونسب إليك، واعلم أن كرامة الولي بالسَّلب ونحوه، لا تنقطع بالموت، أفتى بذلك سيدي الوالد رحمه الله، وصرَّح به سيدي عبد الله بن عمر الخليل في (تحذير المهتدين) وأفتى بذلك الشمس العبَّادي، والعلامة المناوي وعبارته كما نقلته من فتاويه: **مسألة**: هل يجوز بقاء تصرف الأولياء، أي بالسلب ونحوه، بعد موتهم أم لا؟ الجواب: لا شك في بقاء تصرف أهل التصرف بعد موتهم، إذ الأولياء أحياء في قبورهم، وإذا كانوا أحياء فلا مانع من بقاء تصرفهم؛ إكراماً من الله تعالىٰ لهم في الحالين، وكلام أهل الشرع من أهل السنة متكاثر متظاهر في ذلك، ولا ينكره إلا من عنده نزعة بدعية من إنكار كرامة الأولياء، وعبارة شيخنا في بعض كتبه: لأن لهم في برازخهم تصرفات، لا يحصي عددها إلا الله. انتهت، ومن تتبع كلامهم في جواز ذلك ووقوعه، وجد منه العجب العجاب، الذي ليس في صحته عند العاقل ارتياب، كيف والبرزخ تنسحب عليه أحكام الدنيا من المنح والعطايا، بل يرتقون إلى أعلى الدرجات، وأكمل السَّعَادات، لأنَّ الموت أحد الأسباب الموصلة إلى النعيم المقيم. انتهىٰ كلام المناوي رحمه الله، وما نسب إلى الإمام أبي حنيفة وأتباعه، من انقطاع الكرامة بالموت، قال بعضهم: إن صح ذلك عنهم فهو محمول على نوع منها، أو على من يريد إخفاء كرامته من أولياء الله تعالىٰ. انتهىٰ.

ثم ذكر زاده الله كمالاً مباحث، أولها: أن الولي لا يبلغ بالتصرف بالسَّلب ونحوه إلى مرتبة يفعل بها ما أراد. وهذا بمعنى ما أجاب به سيدنا القطب عبد الله الحداد علوي ـ نفع الله به ـ بأن القطب الغوث لا يبلغ مرتبة الإحاطة بالجزئيات والكليات، والتصرف المطلق، لأن ذلك لا يقع على الإطلاق إلا لله تعالىٰ. ثم قال السيد عبد الرحمٰن: وهذا التصرف ـ أي بقيده لا يقع إلا للقطب الغوث، وأما ما يجري على يد غيره فليس بتصريف تمكين، وإنما هو كرامة أكرم بها، لتقوية يقينه وثباته في الدين. قال: وقولهم أعطي فلان التصرف بكلمة كن، بأنه لا يلزم

منها نقص في حقه تعالىٰ، وتكفير العراقي لقائلي ذلك، ردَّه ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالىٰ. ثم قال: رأيت بعض أئمة مذهبه قال: قلت إلزامه الكفر للصوفية من حيث قولهم «أعطي فلان التصرف بكلمة كن» غير صحيح، فإن هذا الكلام يصدق على من خرق الله له العادة مرة أو مرتين، بحصول مطلوبه على وفق مراده، ولا يلزم منه الشركة لله تعالىٰ في الملك. انتهىٰ.

وذكر ـ رضي الله عنه ـ بعد ذلك كلاماً حسناً في التحذير عن إنكار كرامة الأولياء، ونقل عليه عبارات كثيرة وأقوالاً مرضيَّة، منها: قال ابن السبكي ـ رحمه الله ـ في (منع الموانع عن جمع الجوامع): وأما الكرامات الواقعة من أولياء الله فبحر لا يخوضه إلا الأصفياء، ونحن بمعزل عنه، فما لنا ولهذا المقام، حشرنا الله في زمرة أهله، ولا يقع ذلك لفقيه إلا من سلك مسلكهم كما هو مشاهد، واللائق بمريد السَّلامة القاصر عن درجة هؤلاء، التسليم عند الالتباس، ثم نقل إمام المذهب النووي ـ قدس الله روحه ـ عبارات مشتملة على نحو هذا المعنى، فلا حاجة بنا لتكثير النقل، ومن أراد الزيادة على ذلك ليتداوى بمراهم النصوص، فليطلب ذلك من الكتب التي أشرنا إليها آنفاً.

واعلم ـ أرشدنا الله وإياك ـ أنه إذا تقرر مما ذكرناه من النقل، عن أهل الفضل الناصحين للأمة، فإن كنت تقدر على اليقين من الاطلاع على ما أولاهم الله به من الأحوال العظيمة، ليكون تصديقك به ثابتاً، وإلا فلا أقل من أن تصدق ما حكاه عنهم الثقات، من العلماء الراسخين، وجمهور المؤمنين، واحذر من موافقة الضُلاَّل الزائغين من المبتدعين، أو من أهل السنة المتعصبين، فتخسر وتندم حيث لا ينفعك الندم، قال ابن عطاء الله في (لطائف المنن) ما نصه: **وصية وإرشاد**: إياك أيها الأخ أن تصغي إلى الواقعين في هذه الطائفة، المستهزئين بهم، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله، فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق والإخلاص والوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله سبحانه وتعالىٰ، قد سلموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم بين يديه، تركوا الانتصار لأنفسهم، حياءً من ربوبيته، واكتفاءً بقيموميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، كالمحارب لمن

حاربهم، والمغالب لمن غالبهم، وقد ابتلى هذه الطائفة بالخلق خصوصاً أهل العلم الظاهر، فقل أن تجد منهم من ينشرح صدره للتصديق بولي معين، بل يقول لك: نعم نعلم أن الأولياء موجودون، ولكن أين هم؟ فلا يذكر لهم أحد إلا أخذ برفع خصوصية الله فيه، طلق اللسان بالاحتجاج، عارياً من وجود نور التصديق، فاحذر ممن هذا وصفه، وفر منه فرارك من الأسد. فإن قلت: قد يوجد من آذى بعض الأولياء ولم تظهر أمارات النصرة والانتقام منه، قلت: يصاب بما هو أعظم مما لا يطلع عليه، وتكون عقوبته قساوةً في القلب وجموداً في العين، أو تعويقاً عن طاعة، أو وقوعاً في معصية، أو سلب لذاذة خدمة، فلا يلزم تعجيل عقوبته لقصر الدنيا عند الله تعالىٰ، وفي الحديث المشهور: «إذا أراد الله بعبد شراً أمسك عنه عقوبته في الدنيا فيرد القيامة بذنوبه» انتهىٰ كلام ابن عطاء الله ـ رحمه الله ـ. وقد حصلت العقوبات الكثيرة على كثير من الواقعين في أولياء الله، والمسيئين الأدب معهم والمخالفين لهم، مما لا يحصره حاصر بالباطن والظاهر، أي مما لا يطلع عليه المعاقب ولا غيره، أو يطلع عليه ويعرفه هو وغيره، نعوذ بالله من جميع ذلك.

فمن القسم الأول: ما ذكره الإمام الشعراوي ـ قدس الله روحه ـ في (العهود المحمدية) قال: استشار بعض علماء مصر الشيخ علي الخواص في الحج، قال: فنهاه أن لا يحج في تلك السَّنَة، قال: فخالفه وسار إلى مكة، فلما وصل إليها حضر بعض الجمع، مع اجتماع الناس في مكة للحج، وكان وقت حر، فلم يرَ ذلك العالم في المسجد الحرام قريباً من الخطيب إلا آفاقيين، وأهل البلد بعيد منه في الرواقات، بحيث تخيل له أنهم لا يسمعون أركان الخطبتين، فحينئذ نادى بأعلى صوته: يا أهل مكة جمعتكم باطلة، قال: وكان القطب والأبدال والأوتاد وطوائف الأولياء حاضرين في المسجد فمقتوه، فلما رجع إلى مصر، اجتمع بالشيخ علي الخواص قال: فرأيته ممقوتاً، وقال: إنك نهيتني عن الحج هذه السَّنَة، لو لم أحج فيها لبطلت جمعة أهل مكة في الحج، قال: ومع ذلك كان يقرأ كل يوم ختمة. انتهت الحكاية بمعناها.

وأما القسم الثاني: فمنها ما ذكره السيد الإمام محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي في (المشرع الروي) قال ـ رضي الله عنه ـ في مبحث كرامات الأولياء في مقدمة الكتاب: وأنا أورد قصة فيها أبلغ زجر، وآكد ردع، من الإنكار على أولياء الله تعالىٰ، وأتم حثٍ على اعتقادهم والتأدب معهم، وحسن الظن بهم ما أمكن، وهي ماحكاه إمام الشافعية في زمنه، أبو سعيد عبد الله بن أبي عصرون ـ رحمه الله ـ قال: دخلت بغداد في طلب العلم، فرافقت ابن السَّقاء في النظامية، وكنا نزور الصَّالحين، وكان ببغداد رجل يقال له: الغوث، يظهر إذا شاء، فقصدنا زيارته ومعنا الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهو يومئذ شاب، فقال ابن السَّقاء: لأسأله مسألة لا يدري جوابها، وقلت: لأسأله مسألة وأنظر ما يقول، وقال الشيخ عبدالقادر: معاذ الله أن أسأله شيئاً، وأنا بين يديه أنتظر بركته، فدخلنا عليه، فلم نره إلا بعد ساعة، فنظر إلى ابن السَّقاء مغضباً فقال: ويحك يا ابن السَّقاء، تسألني مسألةً لا أدري جوابها، وهي كذا وجوابها كذا، إني لأرى نار الكفر تتلهب فيك، ثم نظر إليَّ وقال: يا عبد الله، تسألني مسألةً لتنظر ما أقولُ فيها، وهي كذا وجوابها كذا، لتخران عليك الدنيا إلى شحمة أذنيك بإساءة أدبك، ثم نظر إلى الشيخ عبدالقادر، وأدناه منه وأكرمه، وقال له: يا عبد القادر لقد أرضيت الله ورسوله بأدبك، كأني أراك ببغداد، وقد صعدت الكرسي متكلماً على الملأ، وقلت: قدمي هذه على رقبة كل وليّ، وكأني أرى الأولياء في وقتك، وقد جثوا[1] على ركبهم إجلالاً لك، ثم غاب عنا فلم نره بعد، قال: فأما الشيخ عبد القادر فقد ظهرت أمارات قربه من الله، وأجمع عليه الخاص والعام، وقال: قدمي هذه على رقبة كل ولي، فأجابه في تلك السَّاعة أولياء الله[2]، قال جماعة: وأولياء الجن،[3] وخضعوا إلا رجلاً بأصبهان فسلب حاله، وممن طأطأ له رأسه أبو النجيب السهروردي وأحمد الرفاعي، وأبو مدين والشيخ عبد الرحيم القناوي، قال ابن أبي

---

(١) في المشرع: وقد هنوا رقابهم.

(٢) في المشرع: أولياء الدنيا.

(٣) في المشرع: اطأطوأ رؤوسهم وخضعوا.

عصرون: وأما ابن السَّقاء فإنه اشتغل بالعلوم حتى فاق أهل زمانه، واشتهر بقطع من يناظره في جميع العلوم، وكان ذا لسان فصيح، وسمت مليح، فأدناه الخليفة، وبعثه رسولاً إلى ملك الروم، فأعجب به، وجمع له القِسِّيسين وناظرهم فأفحمهم، وعظم عند الملك فأراد فتنته، فتراءت له بنت الملك فافتتن بها، فسأله أن يزوجها له، فقال: لا إلا أن تتنصر، فتنصر ـ والعياذ بالله ـ وتزوجها، ثم مرضٍ، فألقوه بالسوق يسأل القوت، فمرَّ عليه من يعرفه، فقال له: ما هذا؟ فقال: فتنة حل بي بسببها ما ترى، فقال له: هل تحفظ القرآن؟ قال: لا إلا قوله تعالىٰ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، ثم جاز عليه وهو في النزع، فقلبه إلى القبلة فاستدار عنها، فخرجت روحه لغير القبلة، وكان يذكر كلام الغوث ويعلم أنه أصيب بسببه، قال ابن أبي عصرون: وأما أنا فجئت إلى دمشق، فأحضرني السُّلطان نورالدين الشهيد، وأكرهني على ولاية الأوقاف فوليتها، وأقبلت عليَّ الدنيا إقبالاً كثيراً، فقد صدق الغوث فينا كلنا. انتهىٰ، فهذه الحكاية التي كادت تتواتر في المعنى، بكثرة ناقليها وعدالتهم، فيها أبلغ زجر عن الإنكار على أولياء الله تعالىٰ، خوفاً من أن يقع المنكر فيما وقع فيه ابن السَّقاء، نعوذ بالله من ذلك. انتهىٰ من المشرع الروي **المبحث الثالث**: إذا عرفت مافي الإنكار على أولياء الله الأبرار من الخسار والبوار فعليك بحسن الظن بهم وكمال الاعتقاد لهم، وقد ذم الله تعالىٰ سوء الظن مطلقاً فقال: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢]، وروى أبو داود وحسَّنه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «حسن الظن من حسن العبادة»، وفي رواية: «من حسن عبادة المرء حسن ظنه»، وكان الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ يقول: من أحب أن يختم له بخير فليحسن الظن بالناس، وكان بشر الحافي ـ رحمه الله ـ يقول: من سرَّه أن يسلم فليلزم الصمت وحسن الظن بالخلق، وقال الشيخ عبد العزيز الديريني ـ رحمه الله ـ: من أراد أن الوجود كله يمده بالخير، فليجعل نفسه تحت الخلق كلهم في الدَّرَجَة، فإن المدد الذي مع الخلق كالماء، والماء لا يجري إلا في المواضع المنخفضة دون العالية أو المتساوية، ولا يرى الإنسان نفسه كذلك إلا إن أحسن ظنه بالخلق، وأقوال المشايخ في حسن الظن كثيرة. قال الشيخ العبادي المصري رضي الله عنه ـ في

كتابه (تحفة الأكياس ـ في حسن الظن بالناس): ومحل حسن الظن كما قالوا إنما هو في الأخلاق التي تحتمل الخير والشر، من الأعمال القلبية المتعلقة بالنيات، أما الأفعال التي صرَّحَ الشارع بتحريمها، فلا يجوز لمؤمن أن يحمل صاحبها على محمل حسن، كشرب الخمر والزنا، وأخذ الرشا والمكس وأكل الحرام ونحو ذلك، وقد أجمعوا على أنه لا يصل أحد إلى مقام حسن الظن، إلا إن طهر الله باطنه من سائر الرذائل، إما بالفطرة، وإما بالعلاج والرياضة، بحيث يصير لا تخطر الفحشاء بباله، وما دام في باطنه شيء من الرذائل، فمِن لازمِه غالباً سوء ظنه بالناس، قياساً على ما عنده، وفي هذا المعنى أنشدوا:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداتهم ... وأصبح في ليل من الشَّكِ مظلم

انتهىٰ المقصود.

واعلم أن حسن الظن أنواع كما أن سوء الظن كذلك، وأرفع أحواله وأنفعها حسن الظن بالله تعالىٰ، وهو أقسام أيضاً، وأنفعها وأخصها الرجاء الصادق، وحقيقته وحكمه ما قدمناه في ذكر الرجاء، ومنه حسن الظن بالله تعالىٰ وسعة رحمته عند الموت، وينبغي أن يستوي فيه الطائع والعاصي، وأقبح وأضر أحوال سوء الظن ما يقابل هذين القسمين، أما الأول فإنه إذا خرج عن حد الخوف إلى الإياس، ربما أدى إلى الكفر، وأما الثاني فلأنه لا يليق بحالة المحتضر لقوله ﷺ: «لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»، وفي ذلك دلائل ومعانٍ كثيرة، وليس هذا محلها: ومقصودنا هنا: الحث على حسن الظن بأوليائه تعالىٰ، وحسن الظن بمعتقديهم، **أما الأول**: فإنه إذا أحسن الظن بأولياء الله تعالىٰ وخاصته، أرضى الله تعالىٰ، وحصل له مددهم الخاص والعام، ونال شفاعتهم في الدنيا والآخرة، وأعلاه حسن الظن بالمشايخ، قال ناصر الدين نفع الله به:

وأنزل الشيخ في أعلى منازله ... واجعله قبلة تعظيم وتنزيه
والمرء إن يعتقد شيئاً وليس كما ... يظنه لم يخب والله يعطيه
وليس ينفع قطب الوقت ذا خلل ... في الاعتقاد ولا من لا يواليه

ومن أنفع الأشياء لحسن الظن، أن يحمل ما رآه منهم من المخالفات على أحسن المحامل. قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إذا حضرتم درس أحد من العلماء أو الصالحين، ولم تفهموا شيئاً من كلامه، فسلِّموا له، وإياكم أن تقولوا: ليس في كلام هذا فائدة، فإن الملائكة والجن يحضرون دروس العلماء والصالحين، فربما كان ذلك العالم أو الصالح يرسل كلامه بحسب فهم أولئك الحاضرين من الملائكة والجن فقط، دون الحاضرين من الإنس القاصرين. وكان إبراهيم الدسوقي ـ رحمه الله ـ يقول: إذا ضحك الفقيه في وجه أحدكم فاحذروه، ولا تخالطوه إلا بالأدب، فإن أهل الطريق ربما يمزحوا كما يمزح الناس، وهم في ذلك مع الله تعالىٰ لا مع الناس، وربما فعلوا ذلك تستراً لأحوالهم، أو تخريباً لظواهرهم، ليدفعوا بذلك من يستحق الطرد عنهم، فإياك يا أخي وسوء الأدب مع من تراه مصفوعاً في الأسواق، أو يتعاطى الحكايات المضحكات ونحو ذلك، وفيما قص الله عن الخضر وموسىٰ ـ عليهما السَّلام ـ أعظم دليل لما هنا، وقد كان الشيخ القطب إسماعيل الجبرتي، وشرف الدين إسماعيل المغربي صاحب الإرشاد، في عصر واحد، وكان الأول صوفياً والثاني فقيهاً، وإذا سئل عن الجبرتي تارة يقول: صدِّيق الزمان، وتارة يقول: زنديق الزمان، وكذلك الفقيه عبدالله بن عمر بامخرمة، يقول في والده الشيخ الفقيه عمر، وذلك من حيث نظرهما إلى ثبوت الولاية لهما، وتحققهما بالمعارف والكمالات والأحوال العظيمة، يحكمان عليه بالصديقية، وبالنسبة إلى التخريب المشهور عن الصوفية، يكون الإنكار والنسبة إلى الزندقة، البريئون منها أولياء الله، وإنما فعل ذلك حفظاً للشريعة عن انتهاك حرمتها، والخروج عنها من كل مدعٍ كذاب، غير متحقق بأحوال هؤلاء الكرام، ولذا قال سيدنا الشيخ عبد الله الحداد علوي ـ نفع الله به، ـ: إن الشيخ إسماعيل الجبرتي لم يقدر بالحال على ابن المقري، لاتصافه بالإنكار مع عدم حظ نفسه وتمحيض الانتصار للشريعة. انتهىٰ بمعناه.

وإذا ثبتت الولاية وجاء عن بعضهم ما يخالف الشريعة أُوِّلَ كما مر. قال الإمام القطب اليافعي ـ رضي الله عنه ـ في خاتمة روضه، وعلى الجملة ما جاء عنهم مما يخالف العلم الظاهر، فإن لم يوجد له تأويل، قيل: لعل له تأويلاً في

الباطن، يعرفه علماء الباطن العارفون، ويذكر عند ذلك قصة موسىٰ مع الخضر عليهما السَّلام، والثالث: أن يكون صادراً عنهم في حالة السكر والغيبة، والسكران سكراً مباحاً غير مكلف في ذلك الحال، فسوء الظن بهم بعد هذه المخارج من عدم التوفيق، نعوذ بالله من الخذلان ـ وسوء القضاء، ومن جميع أنواع البلاء. انتهىٰ المقصود منه، ومن (تحفة الأكياس) المارّ ذكره قال في وصية الشيخ محيي الدين بن عربي، إياكم وسوء الظن بالمسلمين، فإن الشارع حرَّم سوء الظن بهم، واعلموا أن لله أولياءً مستورين لا يكاد يعرفهم إلا من دخل دائرتهم، ومن أين لعامة الخلق أن يعلموا أسرار الحق في خواص عباده من الأولياء والعلماء، وشروق نوره في قلوبهم، ولجلالته عندهم جعلهم مستورين عن غالب خلقه، ولو كانوا ظاهرين بينهم وآذاهم إنسان، لكان قد بارز الله بالمحاربة فأهلكه الله لوقته، فكان سترهم رحمة بالخلق، ومن ظهر من الأولياء للخلق إنما ظهر من حيث ظاهر علمه، ووجود دلالته، وأما من حيث سر ولايته فهو باطن لم يزل، وأنشد:

استتار الرجال في كل عصر   تحت سوء الظنون قدر جليل

ما يضر الهلال في حندس الليل   سواد السحاب وهو جميل

انتهىٰ، وفي هذا من أدلة هذا الباب العجب العجاب، فقد اشتملت على كثير من أقوالهم وتعريف أحوالهم، وعلى أجوبة كثيرة ممن صدر عن الأنبياء والأولياء مما ينكر ظاهره، وعلى ما وقع من العقوبة لكثير ممن أنكر الأولياء وأساء الظن بهم ـ نعوذ بالله من ذلك ـ وقد نقل الإمام الشعراوي ـ رضي الله عنه ـ عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي ـ نفع الله به ـ أنه قال: لكل ولي ستر وأستار نظير السبعين الحجاب التي وردت في حق الحق، حيث الله تعالى لم يعرف إلا من ورائها، وكذلك الولي. ثم عد منها جملة في (لواقح الأنوار) وكذا في (البحر المورود) لا نطول بإيرادها هنا، وكذلك ما ذكره في (العهود المحمدية) في عهد الوقوف بعرفة، مما يغلب حسن الظن بالمسلمين عموماً وخصوصاً.

القسم الثاني: حسن الظن بمعتقدي الأولياء، وإنما نبهنا على مزيد الحث في حسن الظن بمعتقدي الأولياء، زيادة على ما هو المطلوب في حق جميع المسلمين،

لما شاع وذاع لا سيما في هذه الأزمان، من تشنيع الطاغية المرتاب، محمد بن عبد الوهاب وطائفته، هو وابن سعود وغيرهم، من أهل التعصب والجمود، بأن العوام الذين يعتقدون الأولياء ويعتنون بزياراتهم، ويلوذون إلى الله بشفاعاتهم، بأنهم يعتقدون أن الدفع والنفع يستقل به الولي، وأن في التصرف في الكرامات وغيرها من عند أنفسهم، وحقيقة التأثير إليهم، ويقولون إن قرائن أحوالهم، ودلائل أفعالهم وأقوالهم، شاهدة عليهم بذلك، وقد نسبوهم بذلك إلى الشرك الأكبر، وقاتلوهم على ذلك قتال من تهود وتنصر، وحينئذ فلا بد من بيان ذلك مع الاختصار والإيجاز، وتعريف الحقيقة في ذلك والمجاز، **فأقول**: اعلم أن أحوال العوام تختلف فيما ذكرناه اختلافاً بيِّناً، وتحقيق القول فيهم أن الأكثر والغالب عليهم، بل لا يخرج عنهم إلا الشاذ النادر، أنهم لا يعتقدون في الأنبياء والأولياء ولاية غيرهم، ممن أجرى الله له خرق العادات من المعجزات والكرامات، أو نحو السحر والشعبذات، أن أحداً منهم له التأثير فعلاً وخلقاً واختراعاً واقتداراً، وأنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا حياة ولا نشورا، وأن الله تعالىٰ هو المنفرد بذلك بلا شريك ولا معين، وإنما المذكورون من الأنبياء والأولياء وسائط وأسباب، ومعجزات الأنبياء دالة على صدق ما أرسلهم الله به، من تعريف توحيده وإرشاد عبيده، وأما الكرامات فهي أيضا دالة على صدق الولي، في كمال اتباعه لنبيه، واستقامته على شريعته وما جاء به، فهي أيضاً معجزة لنبيه، لدلائلها على أن ما جاء به عن الله تعالىٰ، الفاعل له ولمتبعيه خرق العادة، بتمام القدرة والعلم والإرادة، نعم قد يعتقد ذلك بعض جهلة البوادي، الذين لا يختلطون بأهل العلم والموحدين من المؤمنين، مع عظم مشهده في بعض الأولياء، ولتعظيمه له مع ما يسمعه عنه وينسب إليه من الكرامات وخرق العادات، التي يجريها الله تعالىٰ على يديه، بنفع شخص من استقامة حاله، أو كثرة ماله، أو سقي أرضه، أو ضر شخص آخر بسبب إساءته معه ببعض شيء مما ذكر، ويزعم الجاهل ويتوهم أن هذا الفعل والتأثير كان بواسطة الولي وتأثيره، بغير نظر إلى الحقيقة، أن الفاعل هو الله تعالىٰ بواسطة هذا الولي كرامةً له، وترغيباً في سلوك طريقه. فإذا تحقق من بعض العوام هذا الاعتقاد بإقراره به، أو بقوله، أو فعله الذي لا يقبل التأويل،

حكم عليه بالكفر والردة ـ والعياذ بالله ـ فتجري عليه أحكامها، لا على ما يعتمده هذا الخبيث من المعاملة بما يعامل به الكفار الأصليين، من غنم الأموال وسبي النساء والذراري وقتل الرجال، مع أنه لم يتحقق منهم هذا الأمر الذي ذكرناه، بل جعل المسلمين من أهل السنة، بل وفرق المعتزلة والبدعة إلا من اتبعه مشركين، مخالفة لدين الخليل إبراهيم، حيث سمى الموحدين المسلمين فسماهم هو المشركين، وعناداً لنبينا محمد ﷺ حيث قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلٰه إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام»، ونبذاً لما ينقل عن علماء هذه الأمة من التشديدات، والحث على الاحتراز من تكفير المسلم، وهتك حرمته بقول أو فعل، فقد نقل عن الإمام أبي بكر الباقلاني أنه قال: إدخال ألف كافر في الإسلام بشبهة إسلام أسلم من تكفير مسلم واحد بألف شبهة كفر، ذكر ذلك سيدنا الشيخ عبد الله الحداد علوي ـ نفع الله به ـ في (تثبيت الفؤاد) وما ذكرناه من أحوال القوم شائع ذائع عند علماء الإسلام، بأنهم لا يعتقدون للأولياء نفعاً ولا ضراً.

وقد سئل السيد البدل عبد الرحمٰن بن سليمان الأهدل ـ أمد الله الإسلام بطول مدته ـ الذي قدمنا النقل عنه، والسائل له الشيخ الحفظي أيضاً، قال في صورة سؤاله: ولا يكون النذر إلا لاستمداد الكرام لا تشريكاً، وفي كلام بعض العلماء: إن حصول النفع والدفع سبب إخراج النذر، فعله لله تعالىٰ على سبيل الابتلاء والامتحان، ليظهر به صحة الاعتقاد وفساده، وقوة الإيمان في قول العبد: لا ينفع ولا يدفع إلا الله تعالىٰ، وإن الله سبحانه وتعالىٰ قد مكن الشيطان من الدخول في الأصنام وإلقاء الكلام على الأسماع، وإن هذا كذلك. قال السائل وهو الشيخ الحفظي: وهذا كلام موحش وإن عظم قائله، ولعله مؤذٍ لأولياء الله تعالىٰ، وفيه ما فيه، والعوام لا يعتقدون استقلال الولي بالنفع والدفع، ولا يشركون بالله أحداً، وإن حصلت منهم عبارات غير مستحسنة فهو من اللغو، وإنما يعتقدون أن الولي أقرب إلى الله، ويجعلون النذر استمداداً لكرامته، بحصول النفع والدفع ببركته وشفاعته، فهو كرامة ومدد لا ابتلاء وامتحان. هذا بعض صورة

السؤال، فأجاب السيد المذكور بجواب حافل، يحتوي على فوائد ومسائل كثيرة، تدل على تبحره، وأنه ممن جمع الله له في العلم والفضل بين الكسب والوهب، ونقل في هذا الجواب حكم المذاهب الأربعة وأقوال العلماء، ومسائل وأحكام تتعلق بذلك، ثم قال في أثنائه: إذا تقرر ذلك فاعلم أن متعاطي النذر لمن ذُكِر، لا يحكم بصحة فعله مطلقاً ولا بطلانه مطلقاً، بل يفصل فيه على حسب ما علمت، وإذا صح حينئذ بطريقه المارة، وحصل للناذر نفع بتحصيل مطلوبه، فليعلم أن حصوله ليس بسبب النذر، بل لما قدره الله في الأزل، وأمضاه في سابق القدر، وأما النذر بمجرده فلا دخل له في جلب نفع ولا دفع ضر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]. وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم بأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك».

ثم نقل عن ابن حجر الهيتمي دلائل أُخَر تؤيد هذا المعنى، ثم قال بعد ذلك: فإذا علم من أحد تعاطي النذر لمن ذُكِر على وجه باطل، كما علم ذلك مما مر، أو على اعتقاد أن فعله النذر، يجلب له نفعاً أو يدفع عنه ضرراً، أرشده العالم إلى جادة الصواب، وأوضح له ما يرجو به ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ النجاة يوم المآب، ولا يصح الحكم على جميع العوام، أنهم يعتقدون لغير الله دخلاً في نفع أو ضر، وإنما إذا علم من أحد بعينه ذلك، أعلمه العالم بالحكم بالصواب، وذلك لأن الأصل حملهم على السَّلامة، لأن إيمانهم متيقن، قال سيدي العلامة عبد الله بن عمر الخليل ـ رحمه الله ـ في (تحذير المهتدين عن تكفير الموحدين) ما نصه: واعتقادهم ـ أي العوام ـ أن الرزق والخير والشر من الله، والنفع والضر بيد الله، ومن ادعى أن اعتقادهم خلاف ذلك فعليه البيان، لأن إيمانهم متيقن، واليقين لا يزول بالظن فضلاً عن الشك والوهم، فلا يجوز إساءة الظن بمسلم، ويكفي في حملهم على السَّلامة كونهم موحدين، فإن الإيمان كما قال الغزالي ـ نور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه. إلى أن قال: وكرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم، كما

صرَّح بذلك غير واحد من الأئمة، ولهم في قبورهم أسرار ونفحات، يمدونها زائرهم بمحض فضل الله سبحانه وتعالىٰ.

قال العلامة زروق في (قواعد التصوف) ما نصه: كان شيخنا أبو عبد الله الغوري ـ رحمه الله ـ يقول: إذا كانت الرحمة تنزل عند ذكرهم، فما ظنك بمواطن اجتماعهم على ربهم، ويوم قدومهم عليه بالخروج من هذه الدار، وهو يوم وفاتهم، فزيارتهم فيها تهنئة لهم، وتعرض لما يتجدد من نفحات الرحمة عليهم، فهي إذاً مستحبة، وإن سلمت من محرم أو مكروه بيّن في أصل الشرع، كاجتماع النساء وتلك الأمور التي تحدث هناك، ولمراعات آدابها من ترك التمسح بالقبر، وعدم الصَّلاة عنده للتبرك، وإن كان عليه مسجد لنهيه ـ عليه السَّلام ـ عن ذلك وتشديده، ومراعاة حرمته ميتاً كحرمته حيّاً. انتهىٰ كلام زروق. وقد ذكر الإمام فخر الدين الرازي في (المطالب) في الفصل الثاني عشر، في بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتى، أن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوي النفس، كامل الجوهر، ووقف ساعة وحصل تأثر في نفسه من تلك التربة، حتى حصل من نفس الزائر تعلق بتلك التربة، ولا يخفى أنَّ لنفس ذلك الميت تعلقاً بتلك التربة أيضاً، فحينئذ تحصل لنفس الزائر الحي ولنفس ذلك الإنسان الميت ملاقاة، بسبب اجتماعهما على تلك التربة، فصار هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين وضعتا بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى، فكل ما حصل في هذا الزائر الحي، من المعارف والبراهين والعلوم الكسبيّة، والأخلاق الفاضلة من الخضوع لله تعالىٰ والرضا بقضاء الله تعالىٰ، ينعكس منه نور إلى روح ذلك الإنسان الميت، وكل ما حصل في نفس ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة، والآثار القوية الكاملة، ينعكس منها نور إلى روح هذا الزائر الحي، وبهذه الطريق تصير تلك الزيارة سبباً لحصول تلك المنفعة الكبرى والنهجة العظمى، لروح هذا الزائر ولروح المزور، فهذا هو السبب والأصل في مشروعية الزيارة، ولا يبعد أن تحصل فيها أسرار أخر، أدق وأخفى مما ذكرناه، وتمام الحقائق ليس إلا عند الله. انتهىٰ كلام الرازي، وهو آخر ما قصدنا نقله من جواب سيدي السيد الإمام عبد الرحمٰن ابن سليمان جزاه الله خيراً.

وسيأتي في هذا الشرح وقائع كثيرة، تدل على اعتناء المزور بالزائر، وتوجهه إليه بكليته على قدر توجهه وقابليته كما مرَّ، وكما أشارت إليه عبارة الإمام الرازي، ولذا قد يكون يظهر أثر ذلك في الحس، من أنَّ الزائر قد يخرج له المزور من تربته، أو يخرج يده فيصافحه، كالشيخ سعيد بن عيسىٰ العمودي ـ نفع الله به ـ كان يخرج يده من القبر، لكل من جاء من كبار العارفين من سادتنا العلويين، ويصافحه، وكالشيخ أحمد بن عبد القادر باعشن، أخرج يده لجد شيخنا الشيخ عبد الله باقيس، وكان من مشايخه، فجاء إلى قبره يزوره، وكان بيده ألم، فابتدأ ينشد أبياتاً من تائيته، فأخرج يده من القبر، ومسح على الجرح فبرىء، وأخرج يده أيضاً لسيدنا وشيخنا الشيخ عمر البار صاحب هذه المنظومة وصافحه، كما سيأتي في ترجمته، وكذلك الشيخ العارف بالله محمد بن أحمد بامشموس، خرج من قبره للعبد الصَّالح عبد الله بن محمد باسودان، وكان من تلاميذه كما سمعت ذلك من الوالد ـ رحمه الله ـ ورأيته مثبتاً بخط سيدنا عمر المذكور، وكذلك ما تواتر أن الشيخ العارف بالله علي بن عبد الله باراس، خرج له من قبره وعانقه بحضور جماعة، وكان ذلك ليلاً، وأما واقعة الشيخ محمد ففي النهار، لكن في وقت خلوة، ومن ذلك ما يروى عن الشيخ الكبير محمد بن أبي بكر الحكمي، لما جاء بعض شيوخ اليمن لزيارته، خرج له من قبره وهو مشدود الوسط، وقال: نحن بعد في الطلب، من زعم أنه وصل فقد كَذَب، لأنه لا يوصل إلا إلى محدود، والله يتعالى عن النهايات، والوقائع في ذلك كثير، نفعنا الله ببركاتهم.

المبحث الرابع: اعلم أن هذه الكرامات، وخوارق العادات، لا بد وأن تظهر على يد المستقيم كما مر، بل الكرامة هي عين الاستقامة.

قال سيدنا الشيخ عبد الله الحداد باعلوي ـ نفع الله به ـ: واعلم أن الكرامة الجامعة لجميع أنواع الكرامات، الحقيقيات والصوريّات، هي الإستقامة المعبر عنها بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ظاهراً وباطناً، فعليك بتصحيحها وإحكامها، تخدمك الأكوان العلوية والسفلية خدمة لا تحجبك عن ربك، ولا تشغلك عن مراده منك. وقال سيدنا وشيخنا العارف بالله تعالىٰ الحبيب حامد بن عمر حامد

علوي ـ نفع الله به ـ لما قرىء عليه في كتاب (العوارف) أن رجلاً كان يطوي الأربعين اليوم إلى أن صار باقي عمره يأكل في الشهر لوزة، فتعجب الحاضرون من ذلك، فقال لما رأى تعجبهم: إن المعونة من الله على قدر الصدق من العبد في أفعاله وأقواله، فبقدر الصدق تحصل المعونة، ولا يستغرب ما يحصل لأهل الجد والاجتهاد، من أنواع الكرامات والخوارق للعادات، ولكن الشأن الأكبر والحظ الأوفى في الإستقامة، فمن كملت استقامته صار بمظهر النبوة، وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني»، وهذا العبد باتباعه صار وارثاً لمظهر النبوة، فالولي في الحقيقة نبي، ولكن من له التأصيل بنفسه ليس كمن يدلي بواسطة، فالنبي موصل والولي وارث بواسطة الاتباع، ألا ترى أنه لو قيل لك هذه التمرة من هذا العلب(١) مثلاً لأنكرت ذلك، والقدرة الأزليّة تكذبك في الإنكار، وتقول لك: العلب شجرة والنخل شجرة كذلك، فالذي أخرج التمر من النخل قادر على أن يخرجه من العلب، ولكن صار مظهر النخل التمر، ومظهر الغير غيره، والكل لله ومن الله ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾، والعبد في الحقيقة مظهر من مظاهر الرب، بل أعظمها لقوله تعالىٰ: «ما وسعني سمائي ولا أرضي، وما وسعني إلا قلب عبدي المؤمن. وقال رضي الله عنه: ليست الكرامة مقصودة لنفسها، بل هي شاهدة لجلالة من ظهرت على يديه، بشرط وجود الاستقامة، وإلا فذلك نوع من الاستدراج، وغالب أحوال أهل الكمال ظهور شيء منها ـ أي الكرامات ـ إلى أن يغلبهم الحال. وأطال في ذلك إلى أن قال: وجاء أناس من آل عبد الحق، ويذكرون كرامات جدهم، إلى أن قالوا: وفينا الآن رجل يأكل الطعام ولا يتغوط، وزعموا أن ذلك كرامة من ذلك الرجل وحال عظيم، فقلنا لهم: يمكن أن يكون ذلك كرامة بشرط الاستقامة، وإلا فلا يبعد أن ما يأكله يأخذه الشيطان قبل أن يلج بطنه. انتهىٰ.

وقد حقق هذا المعنى الشيخ الإمام محمد بن عبد الله العيدروس علوي ـ نفع الله به ـ في كتابه: (إيضاح أسرار علوم المقربين) فقال: وأما هذه الخوارق التي تشتبه بالكرامات، وتصدر عن أقوام لم يؤنس منهم شيء من أخلاق الصَّالحين، وشأن أربابها الدعاوي والكلام المنكر الذي لم ينقل مثله عن الصَّالحين الأولين،

---

(١) العلب هي شجرة النبق وأوراقها تسمى أوراق السدر.

فهذه فتن ومحن، ولا تدل على صلاح أربابها لأن هذه الخوارق لها أصول ترجع إليها، يعرفها الحذاق وأهل الفهم، فتارة تكون هذه الخوارق منسوبة إلى الشياطين، كما هو معلوم من أحوال الكهنة، فإنهم يوالون الشياطين، ويستحضرون الجن والشياطين بأشياء تختص بالشياطين وتناسب طباعهم فتخبرهم الشياطين بالمغيبات، وتارة يكون الخوارق مستندة إلى أصحاب السيميا، وهو علم منهي عنه شبيه بالسحر، يتعاطاه أقوام لا دين لهم، يجوعون أنفسهم ويهجرون الأشياء المباحة كاللحم ونحوه، فيحصل لهم نوع كشف وتسلط في هذا العالم، فتنة وبلوى ابتلى الله بها عباده كما شاء، فهذا النوع من الكشوف والخوارق التي تشتبه بكرامات الصَّالحين، قد يظهر مثلها على أيدي الرهبان ومشركي الهند، فلم يصر لها اختصاص بالدين، بل هذه الأشياء تارة تحصل بما تقدم ذكره، وتارة تحصل لقوم يجوعون أنفسهم في البيوت المظلمة، لأن الإفراط في الجوع والتضييق على النفس، يحد النفس ويجعلها فعالة نافذة في الأشياء. وهذه الأمور وإن كانت مستغربة مُعجِبة، فليس لها تعلق بالدين عند الله تعالىٰ ولا تنفع، بل ربما ضرت لقوله عليه السَّلام: «كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»، فالجوع الذي هو أقوى الأسباب في هذه الكشوف والخوارق منهي عنه، لقوله عليه الصلاة والسَّلام: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»، وكذا قوله ﷺ: «إياكم والوصال، إياكم والوصال، إياكم والوصال»، فكيف تلحق هذه الخوارق بالكرامات، وهي إنما تحصل بأمور منهي عنها، والكرامات إنما تجري على أيدي الأخيار والصُّلَحاء الذين يلازمون السنن، ويكثرون من الأعمال الصالحة، فهم محل قابل للمواهب الإلٰهية، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فافهم الفرق بين القسمين. ومن هنا قد تحير الناس في شأن هؤلاء الذين تظهر منهم الكشوف، وهم غير ملتزمين لقواعد الدين كالصَّلاة ونحوها. ثم بيّن ـ نفع الله به ـ طوائف المغتربين بالخوارق التي تشبه الكرامات، وحقق أن الكرامة إنما تظهر على يدي المستقيم، ثم قال في آخره: وقد أفسدت هذه الكشوفات والإخبار بالمغيبات التي تشبه كرامات الصَّالحين، أحوال الناس في زماننا هذا، والتهى الناس بها عن كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ والنظر في أعمال الصَّالحين

المتقدمين، اشتغالاً بهذه الخرافات، فلا تغترنَّ أيها الأخ الصالح بهذه الخوارق، ولا تخلد إلى أربابها، فإن هذه الخوارق قد تصدر عن قوم خبثاء يخدعون بها الناس، ولقلة علم هؤلاء العوام المساكين يحسبون هذه الضَّلالات كرامات، فيحسنون الظن في أربابها، فيضلون بمتابعتهم وهم لا يشعرون، ولكن التمييز بين كرامات الأولياء وما يصدر عن هؤلاء الخبثاء الفتانين عسير جداً لا يكاد يتخلص، وليس إلى معرفة ذلك سبيل، إلا أن يعتبر حال الإنسان الذي تصدر عنه هذه الأفعال الخارقة من سداد أفعاله، وحسن تدينه وحميد طرائقه، فما يكاد يلتبس عليك إذاً كرامات الأخيار وفتن الأشرار، وهذا علم دقيق، فتنبه له تنتفع إن شاء الله تعالىٰ. انتهىٰ نقلناه مع طوله لما فيه من الفروق للخارق الحاصل على يدي المستقيم وغيره. وقد حقق ذلك أيضاً الإمام اليافعي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في روضه وبينه بياناً شافياً في آخر الفصل الأول من الخاتمة قال: قلت وأهل التوله والتجريب كثير، لا ينحصر عددهم ولا تحصى كراماتهم ومجدهم، ولكن قد يتشبه بهم من ليس منهم، ويدخل نفسه بالتزوير معهم من هو خارج عنهم، إذ لم يزل في الناس الكاذب والصَّادق، والطائع والفاسق، والصديق والزنديق. فإن قلت فهذا يؤدي إلى الالتباس، لاختلاف[1] الناس في الصِّفات الحقيرات والنفائس، فكيف يعتقد من لا يدري إلى أي القبيلين يرجع، ومن اعتقاده للنفع ينجع، فما الجواب في ذلك؟ قلت: الجواب فيما ظهر لي ـ والله أعلم ـ مبسوطاً ومختصراً. . ثم أورد المبسوط وقال بعده: وأما المختصر من الجواب، وإيجاز البسط والإطناب، في هذه التقسيمات والأقسام المذكورات، فهو أن نقول: الناس على ثلاثة أقسام: قسم نعتقده، وقسم لا نعتقده، وقسم نتوقف فيه. فالقسم الأول نعتقده بأحد ثلاثة أشياء: الأول: أن يعتقده أهل العلم الباطن على أي صفة كان، والثاني: أن لا يصر على منكر ظاهر، والثالث: أن تجتمع فيه الديانة والكرامة بشرطهما مع الإصرار على بعض المنكرات في الظاهر. والقسم الثاني لا نعتقده باجتماع ثلاثة أشياء: الأول: الإصرار على منكر في ظاهر الشرع عالماً به،

(١) في الروض: في اختلاف.

والثاني: عدم ظهور خارق العادة منه، والثالث: عدم علمنا باعتقاد أهل العلم الباطن فيه. والقسم الثالث نتوقف فيه باجتماع ثلاثة أشياء أيضاً، الأول: ظهور خارق للعادة منه، والثاني: جهلنا بحاله، والثالث: إصراره على المنكر المذكور مع علمه به، ونبحث معه عنه، فإن ظهر لنا ما يقتضي صلاحاً أو طلاحاً عاملناه بمقتضاه، وإلا فإن كان المنكر فاحشاً جانبناه، وإن لم يكن فاحشاً خالطناه، والله أعلم. فهذا مختصر الأول، في نحو من سبع كلامه، مع استيعاب جميع أحكامه، وهذا الذي ذكرته في المجهول الحال إذا لم يظهر لنا حاله، أنَّا نجانبه أو نخالطه على حسب فحش المنكر وعدم فحشه، قلته على جهة الاحتياط، وإلا فليس يخفى الولي الصديق والصالح الصادق، من الساحر الزنديق والكاهن الفاسق، بل يعرف هذا من هذا بأدنى مخالطة، بل بمجرد رؤيته، فليس سيما المقربين والأبرار، كسيما المتزندقة والفجار. انتهىٰ المقصود من ذلك والله أعلم.

المعنى الثالث: اعلم أنا لما حققنا في المعنى من قول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه: (على النبي الممد أهل المدد) شواهد ذلك من الكتاب والسُّنَّة، والوقائع الفعلية والقوليَّة، ثم في المعنى الثاني بيان أهل المدد من حضرته ﷺ وصفتهم، وما يحصل لهم من الكرامات وخوارق العادات، الدالة على صدق اتباعهم له ﷺ وكمال استقامتهم، وعدم الفرق في حصولها بين الحي والميت منهم، وغير ذلك في المباحث الأربعة السابقة، فالآن نذكر في هذا المعنى الثالث، الذي مهدنا لذكره في أول شرح هذا البيت، مورد هذا المدد الخاص، الحاصل لهؤلاء الخواص من حضرته ﷺ، ومنهم لغيرهم.

فنقول: إنما مورده أهل السنة والجماعة، الذين امتثلوا ما أمرهم به ونهاهم عنه، بقوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، والحديث السابق: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»، وجاء في التشديد في البدع ومنتحليها وإعانتهم عليها، وفي التمسك بطريق أهل السنة، وهو ما كان عليه ﷺ هو وأصحابه وتابعوهم بإحسان،

أحاديث صحيحة. منها: ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله قبلي في أمة إلا كان له في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنه يخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»، وأخرج أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم»، وأخرج أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ وقرأ إلى ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يبتغون ما تشابه منه، فأولئك الذين سماهم الله، فاحذروهم»، وعن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي، فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه من الإثم مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» رواه الترمذي، وفي هذا الحديث تخصيص لعموم إطلاق الحديث السَّابق «كل بدعة ضلالة» فقوله: «بدعة لا يرضاها الله ورسوله» إذ من البدع ما يرضاه الله ورسوله كما سيأتي تفصيله عن أئمة الحديث، ومن أثناء حديث رواه الترمذي أيضاً أنه قال: قال ﷺ: «إن الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، وهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يجمع أمتي ـ أو قال: أمة محمد ـ على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار» رواه الترمذي، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر شهيد» رواه البيهقي، وعن ابن إبراهيم بن ميسرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقر صاحب بدعة، فقد أعان على هدم الإسلام» رواه البيهقي في شعب الإيمان، والحديث الأول فيه تعريف أهل السُّنَّة، أنهم المتمسكون بما كان عليه هو وأصحابه.

قال الشيخ المحدث محمد بن علي علان البكري في جوابه عن الأربعة الأسئلة الواردة من الزيدية: إنما قيل لأهل الحق من الأشاعرة والماتريديَّة أهل السُّنَّة والجماعة، لوقوفهم عند سنته ﷺ وجماعة الصحابة رضي الله عنهم، وقد جاء أنه ﷺ أخبر بتفريق الملل وأنها في النار إلا فرقة واحدة، فسئل عنها فقال: «ما كنت عليه أنا وأصحابي»، ولا يحكمون العقل ولا يؤولون النصوص، ويصرفونها لما تقضي به عقولهم، بل يجعلون عقلهم تابعاً لما شرعه تعالىٰ وجاء به رسوله ﷺ وعليه أصحابه الكرام. انتهىٰ كلام ابن علان، وجميع الفرق إنما حدث ما انتحلته في الدين بعده ﷺ، وظهر بعضهم في زمن الصَّحابة غير أنه ظهورٌ خفي ولذا أتى ﷺ بسين التنفيس في حديث الترمذي، وهو قوله ﷺ: «ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا أمة واحدة»، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»، فقوله ﷺ: «ما أنا عليه وأصحابي»، وكذا قوله: «كلها في النار إلا فرقة واحدة» لا يفهم أن تشترط كونهم هم الأكثر من المسلمين كما يفهم من هذا النقل الآتي عن الإمام الطيبي، قال في آخر الكلام على الحديث السابق: «يكون في آخر الزمان دجالون» ما نصه: الدجالون المزورون الملبسون، وسمي دجالاً لتمويهه على الناس، وتلبيسه الباطل بما يشبه الحق، يقال دجل إذا موه ولبس، يقول: سيكون جماعة يقولون للناس نحن علماء ومشايخ ندعوكم إلى الدين وهم كاذبون في ذلك، ويتحدثون بالأحاديث الكاذبة، ويبتدعون أحكاماً باطلة واعتقادات فاسدة، فإياكم وإياهم أي احذروهم. وقال في الكلام على هذا الحديث الأخير: «ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل»: إلى آخره ما نصه: فإن قلت: ما وثوقك على أنه الصراط المستقيم، فإن كل واحد من الفرق يدعي أنه عليها دون غيره، قلت: ليس ذلك بالإدعاء والتثبت باستعمال الوهم القاصر والقول الزاعم، بل بالنقل عن جهابذة هذه الصنعة وعلماء الحديث، الذين جمعوا صحاح الحديث في أمر رسول الله ﷺ وأحواله وأفعاله وحركاته وسكناته، وكذا أحوال الصحابة من المهاجرين

والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، مثل: جامع الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم ابن الحجاج، وغيرهما من الثقات المشهورين، الذين اتفق أهل الشرق والغرب على صحة ما أوردوه في كتبهم من أمور النبي ﷺ وأصحابه، ومن تكفل باستنباط معانيها وكشف مشكلاتها، كالإمام أبي سليمان الخطابي، والإمام محيي السنَّة أبي محمد البغوي، والإمام محيي الدين البغوي، جزاهم الله عن المسلمين خيراً، وجعل سعيهم مشكوراً، ثم بعد النقل ينظر إلى من الذي تمسك بهديهم واقتفى أثرهم، واهتدى بسيرتهم في الأصول والفروع، فيحكم من الذين هم هم، والله أعلم بالصَّواب. انتهىٰ.

وقال سيدي الشيخ عبد الله بن علوي الحداد علوي ـ نفع الله به ـ في قوله ﷺ: «إن الله تعالىٰ حمى أمتي أن تجتمع على ضلالة»، يعني أنهم لا يجتمعون كلهم عليها، بل لا بد من قائم على الحق ولو قليلاً، وما ورد أنهم ـ أي الطائفة القائمة على الحق ـ السَّواد الأعظم لعله لم يصح، لأنه لم يبق في زمن بني العباس، من لم يقل بخلق القرآن إلا القليل. انتهىٰ.

واعلم أن البدع منها ما يكون محرماً ومكروهاً، ومنها ما يكون واجباً ومندوباً ومباحاً. قال الإمام الطيبي رضي الله عنه: البدعة كل شيء عُمِل على غير مثال سبق، وفي الشرع إحداث مالم يكن في عهد رسول الله ﷺ، قال الشيخ المجمع على إمامته وجلالته، أبو محمد العز بن عبد السَّلام ـ رحمه الله ـ في آخر كتاب القواعد: البدع منقسمة إلى خمسة: واجبة كالاشتغال بعلم النحو الذي يفهم به كلام الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ، لأن حفظ الشريعة واجب ولا يتأتى إلا بذلك، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكحفظ غريب الكتاب والسنة، وكتدوين أصول الكتاب، والكلام في الجرح والتعديل، وتمييز الصحيح من السقيم، ومحرمة كمذاهب الجبرية والقدرية والمرجئة والمجسمة، والرد على هؤلاء من البدع الواجبة، لأن حفظ الشريعة من هذه البدع فرض كفاية، ومندوبة كإحداث الربط والمدارس وكل إحسان لم يعهد في العُصُر الأول، وكالتراويح والكلام في دقائق التصوف، وكجميع المحافل للاستدلال في المسائل إن قصد

بذلك وجه الله تعالى، ومكروهة كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف، ومباحة كالمصافحة عقيب العصر والصبح، والتوسع في المآكل والمشارب والملابس والمساكن، وتوسع الأكمام، وقد اختلف في كراهية بعض ذلك، وروى البيهقي عن الشافعي في كتاب مناقبه: المحدثات من الأمور ضربان: ما أحدث مما يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً[(١)] أو إجماعاً، فهذه البدعة أو الضلالة، وما أحدث في الخير لا خلاف فيه لواحد من المذكورات، فهو محدثة غير مذمومة، وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ في قيام شهر رمضان: نعمت البدعة هذه، يعني أنها محدثة لم تكن، وإذا كانت ليس فيها رد لما مضى. هذا آخر كلام الشافعي رضي الله عنه، وهذا أيضاً آخر كلام الشيخ محيي الدين النووي ـ رحمة الله عليه ـ في كتاب (تهذيب الأسماء واللغات) فقد اتضح بهذا جميعه تعريف السنة والبدعة، وما يحمد من البدع وما يذم.

وأقبح البدع وأشنعها ما يتعلق بالاعتقاديات، لاسيما ما يكون في حق الله تعالىٰ وأسمائه وصفاته، فإن بعضه ـ والعياذ بالله ـ ما يكفر به معتقده كما فصلوا ذلك، ونصوا عليه في بعض فرق المبتدعة، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: إياكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، لا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان. انتهىٰ، ولذا اعتنى أئمة الإسلام برد شبه أهل البدعة بالقول والفعل، وصنفوا في ذلك تصانيف مختصرات ومبسوطات، وذكروا أن القيام بذلك من فروض الكفايات وأهم المهمات، قال شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي في شرح المنهاج: ومن فروض الكفايات: القيام بإقامة الحجج وحل المشكلات في الدين ـ أي الشريعة أصولها وفروعها ـ لتندفع الشبهات وتصفو الاعتقادات، عن تمويهات المبتدعين ومعضلات الملحدين، ولا يحصل كمال ذلك إلا بإتقان قواعد علم الكلام، المبنية على الحكميات والإلٰهيات، ومن ثم قال الإمام: لو بقي الناس على ما كانوا عليه في صفوة الإسلام لما أوجبنا التشاغل به وربما نهينا عنه، أي كما جاء عن الأئمة كالشافعي، بل جعله أقبح مما عدا

(١) ثواباً: قال في الهامش لعله أو أثراً.

الشرك، فأما الآن وقد ثارت البدع، ولا سبيل إلى تركها تلتطم، فلا بد من إعداد ما يدعى به إلى المسلك الحق وتحل به الشبهة، فصار الاشتغال بأدلة المعقول وحل الشبهة من فروض الكفايات، وأما من استراب في أصل من أصول الاعتقاد، فيلزمه السَّعي في إزالته حتى تستقيم عقيدته. انتهىٰ كلام الإمام وأقره في الروضة، وتبعه الغزالي فقال: الحق أنه لا يطلق ذمه ولا مدحه، ففيه منفعة ومضرة، فباعتبار منفعته وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب، وباعتبار مضرته وقت الإضرار حرام. انتهىٰ من أول كتاب السير.

واعلم أن من شرح الله صدره للإسلام وكان على نور من ربه، وبصيرة في دينه وسداد في أمره، فيكفيه بعد كتاب الله في تعريف إتباع السنة، وفي التحذير من الميل إلى البدعة، الحديث الأول من الأحاديث التي أوردناها قريباً، وقد ذم الله المبتدعين الزائغين المحرفين في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وأثنى على الراسخين في العلم على معنى الاستئناف أو العطف على الاستثناء فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧-٨]، قال الإمام الطيبي رحمه الله: خضعوا لباريهم لاستنزال العلم اللدني، واستعاذوا به من الزيغ النفساني، رضي الله عنهم أجمعين.

فإذا تقرر ذلك، فقد حدث في الإسلام ما أخبر بوقوعه ﷺ من طوائف المبتدعين، وتفرق آرائهم في الدين، واتباعهم ما تشابه في الكتاب المبين وسنة سيد المرسلين، ومن البدع ما حدث في عصر الصحابة رضي الله عنهم، ومنها ما حدث في عصر التابعين وتابعيهم. وقد جعل الله في كل عصر من يقوم بردع البدع وقمع الأهواء، وحسم مواد الفتن في الدين، من العلماء الراسخين المهتدين، والولاة العادلين المقسطين، فلم تزل ظلمة البدعة مستورة، وشمس السُّنة مُسْتَصف أهلها

لما في إيمان أهل السنة من القوة والمنة، حتى أخلد الناس إلى الأرض، واتبعوا هواهم المحض، وتشرفوا بخدمة الفانية، وتقذروا خدمة الباقية، وأعرضوا عن الله تعالىٰ وعن إخلاص الدين له، حتى صار الصَّاحي منهم من كلال جهده في اتباع هواه كالأبله، فبعث الله عليهم فتنة تركت الحليم حيرانا، وصيرت كل ذي ضغن في الدين خذلانا، وذلك أنه لضعف الأسباب التي أظهر الله بها الدين الذي بدأ غريباً، وقوة الأسباب التي يخفي بها الدين وسيعود غريباً. وتلك الأولى الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله ونصرة رسول الله ﷺ، والقيام بالأوامر والاجتناب للنواهي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك مما تتوقر به شوكة الإسلام والإيمان، وتنكسر به سورة الخذلان والطغيان. وأما الأمور التي صارت سبباً في خفاء الدين بعد ظهوره، وإسدال ظلمته بعد إشراق نوره، هو ضد هذه الخصال، من استجابة داعي الشك والضلال، والفتنة المشار إليها، بعد وجود هذه الفتن الواقعة بين يديها، هو انتشار بدعة هذا الخبيث الكذاب، محمد بن عبدالوهاب، فقد عم ضررها، وطار شررها، وتعطلت بها كثير من أسباب المعاش والمعاد، وسرى من طالع نحسها بلايا ومحن في كل نادٍ، وهلكت بشوكتها الأديان والأبدان، لا سيما أهل السَّواد والبدوان، وقد أخبر بمجيئها في آخر الزمان، بالنص والتخصيص سيد ولد عدنان، فإن قلت: قد أخبر ﷺ أن الأمة ستفترق ثلاثاً وسبعين، وقد عد علماء الإسلام المتقدمون على هذه الأعوام هذه الفرق كلها، فهل ما انتحله ابن عبد الوهاب ونحاه، هو تابع فيه لأحد الفرق السابقة عليه، أو شيءٌ ابتدعه وتأصله، فيكون من البدع الموعود بحدوثها في الأحاديث المطلقة، قلت: التحقيق فيمن تأمل أحواله، وتتبع أفعاله وأقواله، أنه في بعضه تابعاً ولبعضه مخترعاً، وذلك أنه في بعض المسائل الأصوليَّة وقف على ما قرره ابن القيم وابن تيمية، وكانا إمامين في فنون العلوم، سباقي غايات في الفطن والفهوم، ولما جعله الشيطان والهوى في مقام الإضلال إمامهما، اغتر بظاهر كلامهما، فحمل قولهما في الشرك الخفي الأصغر حقيقة الشرك الأكبر، وثبا ذلك على جميع مسائله، وحمل عليه نصوص الشرع ودلائله، فلو بلغه مثلاً أن إبراهيم الخليل لاذ من حر نار نمروذ بالواسطة جبريل، لحكم بشركه المحض، وخالف

نص القرآن والدلائل المبين بعضها للبعض، فهذا جعلناه لك في حاله كالمثل، وقس عليه مالم يقل، ولا تستبعد في مثل هذه الأزمان منه هذا التحكم والاختراع، مع خروجه عن غالب قانون الشرع، بالاتفاق من المعدود بهم والإجماع، لأنا إذا كنا من أهل السنة وبين أهلها، المتأهلين لعقد الأمور وحلها، وهنا أناس من فقهاء الشريعة وعلمائها، بزعمهم وزعم من لم يكن من عقلاء الأمة وحلمائها، يفتون ويحكمون بغير النص الشرعي، وبلا استجماع لقانونه المرعي، ولم يكن من أهل الشوكة جاهاً أو حالاً أو مالاً، ساداً لهذا الخطب تعظيماً للشرع وإجلالاً، وغير ذلك من القبائح الشنيعة، والفضائح القطيعة، من الولاة ورعاتها، وضلال الأمة وهداتها، فإذا كان هذا موجوداً في المُجمعين على تضليل هذا الزائغ وتخطئته، فما ظنك بمن وسمه الشيطان بخليفته.

ثم إنه بلغنا عن غالب علماء الإسلام تكفير هذا المبتدع، وصنفوا في ذلك تصانيفاً وفي الرد عليه فيما دعا إليه من الإلتزام بالأمور الذي استدركها على المشرع عليه الصَّلاة والسَّلام، وزعم أن الصحابة الأعلام لم يبينوها للأنام، مع أنهم العدول وورثة الأنبياء، الذين أخذ الله عليهم الميثاق، أن يبينوا للناس ما أنزل إليهم على الإطلاق، وقد وقفت على جملة من هذه التآليف، وكلها واف بالمراد جامع للزجر له والتعنيف، وأجمع مؤلف في ذلك، وأخص مجموع في التنبيه والإرشاد في استهجان ما نهجه من المسالك، ولقطع أنف وجذع أذن وطمس عين ما زعم حسن صورته من المسائل، بحذا سنة النصوص الشرعية والدلائل، كتاب الإمام الحبر البحر الهمام، الشيخ عبد الله بن داود المسمى بـ: (الصواعق والرعود في الرد على عبد العزيز بن سعود) وإنما نسب الرد على ابن سعود، لأنه هو القائم بشوكة ما سوله اللعين المبعود[١]، لمحمد بن عبد الوهاب الطاغية الكذاب، وذلك لأن ابن سعود المذكور إذا جاء إليه من له معرفة بشيء من العلم، واستمالوه بظاهر ما هم عليه من الرسم، التمسوا منه تلفيق رسائل مسرجلة، وبزخارف قول الزور والغرور مجللة، يلتقط بعضها من كتب ابن القيم وابن تيمية، وبعضها مقتبس مما يلقي له إبليس من الأمنية، كما حقق ذلك في الكتاب المذكور.

---

(١) أراد به الشيطان.

وقال العقلاء من علماء الإسلام: إن بدعته هذه بدعة سيف لا تقابل إلا بمثلها، ولا تناضل إلا باختلاف الأسنة والوقوف تحت ظلها، وقد ذكر هذا المعنى الشيخ ابن داود، وأجاب عنه بجواب غير مردود، فقال في خطبة كتابه المذكور: أما بعد فإنه لما أظهر ابن عبد الوهاب ما أضمر وبه صدع، ودعا إلى ما زخرفه من الأباطيل وابتدع، وشهر سيف الفتنة على المسلمين، وأمر بتكفيرهم وقتلهم أجمعين، وذم المؤمنين كأن بينه وبينهم عداوة نكيدة، ومدح الكفار وأثنى عليهم كأن بينه وبينهم موده أكيدة، وجزم بتضليل الأمة من نحو ستمائة عام، وروّج على العوام الطغام، وزعم أنه لا يصح إسلام إلا على يديه، وأوجب الهجرة إليه، وأرسل كتبه ومراسيله إلى البلدان، يدعو أهلها بزعمه إلى توحيد الرحمٰن، ويأمرهم بترك عبادة الأصنام والأوثان، فمن تبعه وترك ما هو عليه فهو المؤمن الموحد عنده وإن كان من أفسق الفاسقين، ومن خالفه فهو الكافر المشرك وإن كان من أكابر العلماء العاملين، فرماه العلماء عن قوس واحدة، وحزموا بتعطيل عقيدته الكاسدة، وتسفيه مقالته الفاسدة، ولم يشك أحد منهم في تبديعه وتضليله، أو بكفره وتعطيله، وأتته التآليف من جميع الأقطار، ورد عليه علماء الأمصار، فكان مدة لا يرد جواباً إلا الجور والسيف، ولا يحسن جواباً إلا المكر والزور والحيف. ثم إن العلماء لما رأوا أنه لا يجيب، ولا يرجع إلى الحق ولا ينيب، ولم تجدِ فيه النصيحة، بل تتزايد أفعاله القبيحة، تركوا الرد عليه وهجروه، وحذروا من أفعاله وفجروه، وقالوا: هذا مغرور، ولا يرجع إلا مقهور، وليس له رادع إلا السُّلطان، وتخريب الديار والأوطان، فلعل شجاعاً يكشف هذه الغمة، ويقطع تلك الفتنة الصَّماء المدلهمة، بخميس عرمرم متزاحم الأنواح، وعسكر كخضم متلاطم الأمواج، ممدود بغاية الظفر والنصر، مرصود بالعناية الربانية على أهل العصر، فيحيي وقعة مسيلمة ومجاعة، ويدمر اليمامة ويجدد ويلها إلى قيام السَّاعة، ثم إنه لما تطاول الزمان، وتكاثر منه الهرج والمرج والطغيان، وساعدته الأقدار، وشاع وذاع أمره وطار، وأطمعه في محاذية مدن الإسلام قرينه إبليس الغدار، وقال له: عليك بالتلطف والخداع والاحتيال، إلى أن ترى لسيف سطوتك مجال، فحين هلك رئيسهم المعكوس، وخلفه من قلبه مطبوع ومنكوس، فخطر في خاطره

العاطل، أنه ليس فوق البسيطة من يعرف الحق من الباطل، ولذلك قال: أرسل رسالة الخديعة، واجبها من أمري كل داهية واهية شنيعة، وأصحبها من قولي أو فعلي كل ما ينفر منه سالم الطبيعة، واجتهد فيما يعينني على تقويم اللسان، كي يظن السَّامع لها اتصافي بصفة ذوي البيان والاتقان، وهو والله لم يقارن تلك الدرجات، بل يخبط خبط عشواء في الظلمات، وقد أخذ تصحيحها من تقديم ابن القيم وابن تيمية، عسى أن يقال: هذا سالم الطوية، وبعث بها لجميع علماء أهل الأرض، مع أنه لا يعلم السُّنة من الفرض، ولا الطول من العرض، وتزيَّا بما لا يليق به، وادعى بما لم يتعلق بشيء من سببه، فهو كلابس ثوبي زور، يريد بذلك زيادة الظهور، وما يدري المغرور أن أدنى الطلبة يكف دعواه، ويقمع بصوارم الحق محياه، ويظهر ما كتم من أباطيله، ويكشف ما أبهم من تخاييله، ويبين أن بعض الرسالة حق لكن أريد به باطل، وأن صاحبها معاكس مخادع مماطل، فلما رآها مشايخنا الكرام، رفضوها وقالوا: لا نضيع الكلام، مع هؤلاء الغوغاء الطغام، لأنه ليس على ما ورد عليهم سابقاً مزيد، قلتُ: بل لكن إذا طال الزمان وجب التجديد، فقالوا: الكلام مع هؤلاء طويل الذيل، قليل البيل، قلت: سلَّمنا ولو تركنا الجواب، لقال: قولي هو الصواب، وأيضاً فربما يرتدع بعض الملحدين، أو يرجع إلى نهج الحق والدين، أحد ممن استجره هؤلاء المارقون، الذين هم عن الحق حائدون، فأخذتني الغيرة الإسلامية، وهزتني الحمية الدينية، على شرح مقاله، وكشف ما أخفى من ضلاله.. إلى آخر ما ذكره. جزاه الله خيراً. ومن أظهر الدلائل وأخص النصوص المعينة لحدوث فتنة هذا الضال الجاهل، بأنه من قواد الفتن آخر الزمان، الذين ذكرهم سيد ولد عدنان، ويحقق ما يأتي أنه هو المراد به، ما أخرجه في المشكاة عن حذيفة رضي الله عنه قال: «ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا، يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً، إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته» رواه أبو داود، وأما تعيين جهته فمن قوله ﷺ وهو قائم إلى جنب المنبر: «الفتنة هاهنا، الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان» وفي رواية لمسلم: «الفتنة من هاهنا وأومأ بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان»

وفي رواية: «أتاكم أهل اليمن ألين قلوباً وأرق أفئدة، الإيمان يماني والحكمة يمانية، رأس الكفر قبل المشرق»، وفي ذلك أحاديث كثيرة بهذا المعنى في نجد والمشرق، وأما تعيين قبيلته ففي البخاري عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ في حديث ذي الخويصرة التميمي أن النبي ﷺ قال: «إن من ضئضىء هذا ـ أو في عقب هذا ـ قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»، وفي حديث آخر أنه ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «لو قتل هذا ما اختلف اثنان»، ونقل عن ابن تيمية أنه قال: الفرقة الرابعة ـ أي من الخوارج ـ وافقوا الأزارقة من خالفهم. قال ابن داود: الأزارقة أصحاب نافع ابن الأزرق ونجده ونافع من بني حنيفة، لكن أقرب ما يكون لابن عبد الوهاب من الخوارج الأزارقة، لأن رأي الأزارقة البراءة من رأي المسلمين وتكفيرهم، وقتل الأطفال واستحلال المال لأنهم يرونهم كفاراً، ويجعلون دارهم دار كفر، ويحرمون ذبائحهم ومناكحتهم، ويقولون: انهم كفار العرب وعبدة الأوثان، ولا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وهذا قول ابن عبدالوهاب بعينه، وكلاهما يجنح بالقرآن. انتهىٰ من هذا الموضع، وبه يتأيد ما قدمته من أن جلَّ ما ذهب إليه من العقائد الفاسدة والأضاليل، تبع فيه الزائغين من الفرق الضالة إلا القليل، وأما تعيين وصفهم وطريقهم فما سبق عن ابن تيمية، وما في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يخرج ناس من المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، ثم لا يعودون إليه حتى يعود السهم إلى فوقه، قال: ما سيماهم؟ قال: سيماهم التحليق»، وفي حديث في المشكاة زيادة على مافي حديث البخاري: «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل» ثم أتى بما مر عن البخاري ثم قال: هم شر الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منا في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله منهم، قالوا: يا رسول الله ما سيماهم؟ قال: سيماهم التحليق» رواه أبو داود، مثَّل ﷺ لدخولهم في الدين وخروجهم منه بمروق السهم من الرميَّة لسرعة نفوذه، وشبَّه تعليق عودهم إليه بالمحال كعود السهم إلى فوقه ـ وهو الوتر ـ مبالغة في

إصرارهم، وسيماهم التحليق أي أنهم يوجبونه ويدعون إليه، وإلا فكثير من أهل السنة يحلقون رؤوسهم. هذا من بعض ما ذكره الشيخ ابن داود، والحاصل أن كتابه هذا كتاب حافل جامع، يستملحه القارىء ويستحليه السَّامع، وقد لخصته في مسودة هذا الشرح عند قول سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ في خاتمة المنظومة:

يـا ربنـا بـاسمـائـك العظـام   وبـالنبـي وآلـه الكـرام

وذلك في نحو كراسين من نحو عشرين كراساً في قطع النصف، لكن خفت من الطول الممل فأفردتها في نبذة سميتها: (سلم الصعود إلى تقريب فوائد الصواعق والرعود) وأدخلت فيه فوائد آخر من غيره لكنها قليل، قلت في خطبته: وقد اشتمل هذا الكتاب ـ أي الأصل ـ على أنواع من العلوم، تدل على أن مؤلفه قد بلغ الغاية القصوى في معرفة المنطوق والمفهوم، وها أنا ألخص بعض كلامه، وإن كان لا يسمح بحذف حرف منه إلى تمامه، لكن القصد التنبيه بالقليل، ليكون على الباقي كالدليل. ومما زدته في التلخيص، نقل بعض التقاريض الذي على الأصل لفوائد أخر فيها، ولإظهارها لما فيه من المزية والفضل، وقلت في آخر هذا التلخيص ما صورته: والحاصل أن من له أدنى عقل وبصيرة، وهداية علم وصفاء سريرة، وتأمل أحوال ابن عبد الوهاب، ونظر في هذا الكتاب، الهاتك أستار فضائحه، لاطلاع مؤلفه على قبائحه، مع تبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية، واستخراجه المعاني من قواعدها القولية والفعلية، فردَّ في هذا الكتاب، جميع ما ذهب إليه هذا المرتاب، بدلائل قطعية لا يشق لها غبار، من الآيات والأخبار والآثار، فمن وقف على ما رسمه هذا الإمام من التفريع في جانبه المهتوك، علم يقيناً أنه الخداع الأفوك، وأنه أمير جيش إبليس، الذي استفتح به بلداناً نكس أهلها على الرؤوس بذلك التلبيس، وقبلته قلوب قد غشيها الكدر والران، فحكمت على أنفسها النفس والهوى والشيطان، فاستراح به حينئذٍ مستخلفه لما أحياه له من دين مسيلمة الكذاب، وأناب ابن سعود عن سجاح فوافق ابن عبد الوهاب، فصارا مظهر قرني الشيطان الطالعين في تلك البلاد، وإنها هي التي لا يزال أهلها في شر إلى يوم التناد، أعاذنا الله من فتن الدين والدنيا والآخرة، وثبت قلوبنا على الدين الحنيفي والسنة الطاهرة.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم:

محمـــــد وآلــــه الأطهـــــار وصحبـــه الأئمـــة الأخيـــار

محمد بدل من النبي في البيت الذي قبله بدل كل من كل أو عطف بيان، وهو علم منقول من اسم مفعول المضعف، سمي به نبينا محمد ﷺ بإلهام من الله لجده عبد المطلب، لما سبق في علمه تعالىٰ أنها تكثر خصاله الحميدة، وفضائله التي لا يسبقه إليها سابق، ولا يلحقه فيها لاحق، وآله هم مؤمنو بني هاشم وبني المطلب، ووصفهم بالأطهار مقتبس من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وسيأتي ذكر فضائلهم عند قول سيدنا الناظم:

قصدت نظم سندي إلى النبي كمـا بـه صـح اتصـال نسبـي

وصحبه جمع صاحب، وهو من اجتمع بالنبي ﷺ في حياته مؤمناً ومات على ذلك، ولو أعمى كابن أم مكتوم، وغير مميز كمحمد بن أبي بكر رضي الله عنه، فإنه ولد قبل وفاته ﷺ بثلاثة أشهر وأيام، ومات ﷺ عن مائة ألف صحابي وأربعة وعشرين ألفا عدد الأنبياء، وعدد أهل بدر على قول صحيح ثلاثمائة وثلاثة عشر عدد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وسيأتي ذكر بعض فضائلهم آخر هذا الشرح.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ معرضاً بذكر من وصل إلى طريق الإسناد، بتلقيهم عن الصحابة الأمجاد:

والتـابعيـن مـن هـداة الأمـة مـن ذكـرهـم جـلا لكـل ظلمـة

جمع تابعي، وهو من اجتمع بالصحابي بالضابط الذي سبق في الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع النبي ﷺ، إلا أنه لا يشترط إيمان التابعي بالصحابي لعدم ثبوته عنده أنه صحابي، وقيل: التابعي من طالت عشرته مع الصحابي أو سمع منه أو كان مميزاً، وأفضل التابعين: أويس القرني وقيل: الحسن البصري رضي الله عنهما، والتابعون طبقات كثيرة، أي في اصطلاح أهل الأثر، وأما في مقام الدعاء كما هنا، فهو يشمل جميع من تبعه ﷺ بإحسان إلى يوم الدين، فأل فيه للاستغراق.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم رضي الله عنه:

ما سار سالك على الطريق إلى مقامات أولي التحقيق

أي دوام ما ذكر من الحمد والصلاة والسلام، مدة سير السالكين على الطريق القويم والصراط المستقيم، طريق الخاصة القوم الصوفية، سادات البرية، وفيه إيماء وتشويق إلى سلوكها، وإعزاء إلى الدخول في زمرة الكون من أبنائها وملوكها، كما في أبيات من التائية للسيد القطب الشيخ عبد الله الحداد ـ قدس الله روحه ـ وهي قوله:

خليلي هل من مسعد منكما على سلوك سبيل دارس وخفية
تأخر عنها الأكثرون وأعرضوا لما علموا في قطعها من مشقة
رياضة نفس واعتزال عوائد وقمع حظوظ للنفوس مميتة
وترك الأماني والمرادات كلها وكل اختيار والتدابير جملة
وكنس ضمير القلب كي يبقى فارغاً من الحب للدنيا الغرور الدنية
وتطهيره سبعاً عن الميل للسوى بماء الفنا بالله عنه وغيبة
وجمع على المولى العظيم بترك ما عن الذكر يلهي والتزام العبادة
فإن تسعداني بالوفاق فإن لي به بعض أنس وارتياحٍ وقوة
وإلا فأمر الله عندي معظم وعندي بحمد الله يا ربِّ بغية

انظر ما في هذه الأبيات من التشويق، والحث على السلوك بالتعريض، إذ التعريض أوقع في قبول السامع من صريح الأمر، لاسيما إذا صاحبه التلميح بذكر رغبة الراغبين والثناء على الإقبال، والتلويح إلى كثرة المعرضين لبعد تحصيل هذا المنال، إلا على المشمرين الموفقين من الرجال، وفي بيت سيدنا وشيخنا الناظم ذكر ما فصله سيدنا الحبيب عبد الله بالإجمال، وذكر السير والسلوك والطريق التي هي أسباب الوصول إلى مقامات التحقيق، فلنبسط المعنى من حيث ما أجمله، ولنأتي بها على ترتيبها مفصلة مع التزام الاختصار، إذ قد سبق لنا بيان جملة مما يشتمل على هذه الأوطار. فأما السير فالمراد به سير المريد بالسعي الحميد إلى ربه المجيد. وقد سئل سيدنا الشيخ عبد الله الحداد باعلوي ـ نفع الله به ـ عن معنى

السير إلى الله ما هو؟ فأجاب بقوله: اعلم أنه سير حقيقي معنوي، بتزكية النفس والجوارح عن منكرات الأخلاق والأعمال، وبذلك يقرب العبد من حضرة الله تعالىٰ قرباً معنوياً، وكلما كان أزكى وأطيب كان أدنى وأقرب، وثم سير آخر إلى الله تعالىٰ ألطف من هذا وأدق، ولكن لا يصلح ذكره إلا مع من قد انتهىٰ في السير المذكور أولاً أو قارب الانتهاء. انتهىٰ من (النفائس العلوية في المسائل الصوفيَّة).

وأما السالك فهو الذي مشى على المقامات بحاله، لا بعلمه وتصوره، وكان الحاصل له العلم عيناً يأتي من ورود الشبهة المضلة له. قال ذلك الشريف الجرجاني، وأما الطريق عند أهل الحقيقة، عبارة عن مراسيم الله تعالىٰ وأحكامه التكليفية التي لا رخصة فيها، وهي المختصة بالسالكين إلى الله تعالىٰ مع قطع المنازل والترقي في المقامات، والمقامات: ما رسخ وقام من الأحوال، والتحقيق: مأخوذ من الحقيقة، وهي في الاصطلاح: المستعملة فيما وضعت له احترازاً من المجاز الذي استعمل في غير ما وضع له. قال ذلك كله الشريف الجرجاني أيضاً، ونزيد بعض ذلك بياناً فنقول: أصل الطريق موضع الذهاب، ثم وضع هذا الاسم للعمل بمقتضى ما شرعه الله تعالىٰ للعباد على لسان نبيه ﷺ، واتباعه في أقواله وأفعاله، فالعلم به يسمى شريعة، والعمل بالعلم يسمى طريقة، والحصول على ثمرة ذلك من مفاجأة وجه الحق والاستفادة منه، والوقوف على حق اليقين في جميع مقامات الدين يسمى حقيقة، وأول الطريق السير مع التعب والنصب كما مر، ونهايتها هو الفوز بكل مطلب، والذي أخذ في أوائل العمل بما علم، مع تخليصه من الشوائب والعلل يسمى متصوفاً، والواصل إلى أول درجات اليقين والتحقق بصفات المتقين يسمى صوفياً، وللمتصوف والصوفي درجات، كل على قدر ما قسم له من الأعمال فالأحوال. قال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، واسم الطريق والتصوف حادث بعد عصر التابعين.

قال السيد الإمام محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي ـ قدس الله سره ـ في (المشرع الروي في مناقب السَّادة بني علوي): تفاضل الناس بعضهم على بعض أظهر من أن يحتاج إلى دليل، وتفاوتهم فيه ولو بالسعي والاجتهاد غني عن التعليل، وليس ذلك إلا بقدر تحصيلهم للعلوم والمعارف، كما يظهر ذلك للمتأمل العارف،

ولما كان العمر أقصر من أن يحيط بكلها جملة وتفصيلاً، ويستقصي أصلها علماً وتحصيلاً، وجبت المنافسة في الأنفس، الموصل إلى المحل الأقدس، ولا ريب عند ذوي الطبع السليم، أن طريق السنة هو الطريق المستقيم والمنهج القويم، وكان المسلمون بعد رسول الله ﷺ يتسمى أفاضلهم في عصرهم بسمة الصحبة لشرفها على كل وصف ونسبة، ثم تسمى من أدركهم بالتابعين، ثم لما بعد عهد النبوة وتوارى، واختلف بعد ذلك الآراء، انفرد خواص أهل السُّنة بصالح الأعمال وسني الأحوال، واشتهروا بالصوفية وصار ذلك رسماً مستمراً وخبراً مستقراً، واختلفت عباراتهم في تعريفه، ومن ثم قال الشيخ أبو محمد الجويني: لا يصح الوقف على الصوفية لأنه لا حد لهم معروف، والصحيح صحته وأحسن الأقوال فيه ما قاله حجة الإسلام الغزالي ـ رضي الله عنه ـ وهو: تجريد القلب لله تعالىٰ واحتقار ما سواه، وأما تعريفه بمعنى العلم فهو: علم بأصول يعرف بها صلاح القلب وسائر الجوارح. وقال بعض المحققين: الصوفي هو العالم العامل بعلمه على وجه الإخلاص، قال: ولا يصح أن يرتقى عن هذا الحد، قال الحافظ السيوطي رضي الله عنه: وكثير من الناس يظن أن من مارس كتب الصوفية، وقرأ شيئاً منها وكتب وعلق، يسمى صوفياً وليس كذلك، إنما التصوف علم الحال لا علم القال، وهو أن يتخلق بمحاسن الأخلاق التي وردت بها السنن النبوية، ولهذا قالوا: التصوف ارتكاب كل خلق سني، واجتناب كل خلق دني. وقال بعض الأئمة: التصوف علم مركب من الحديث وأصول الدين، فمن تضلع منهما وعمل بما علم وكان اعتقاده صحيحاً كان صوفياً، ألا ترى أن بعضهم امتنع من أكل البطيخ، لأنه لم يثبت عنده كيفية أكله ﷺ، وإن ثبت أصل أكله له. انتهىٰ من المشرع، وقد مر لنا نقل عبارات في التصوف في آخر ذلك التحلي.

ومما يحسن إلحاقه بما هنا، بعض مقالات لسيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ في السير والسلوك والطريق، فمن ذلك ما تكلم به على بيت مفرد، سيدنا العارف بالله تعالىٰ السيد شيخ بن محمد الجفري علوي نفع الله به، وذلك أنه عند وصوله في بعض السنين من المدينة المشرفة إلى جدة، قال له: أعرب هذا البيت وأحكِ شيئاً من معناه وهو:

مرت جمال الوقر تحمل وقرها ورجالها بالوقر بان وقرها

قال نفع الله به: فأعرضت عليه ما ظهر لي في ذلك الوقت، وقلت في قوله (تحمل وقرها) طاقتها فقال رضي الله عنه: فوق طاقتها، ثم أثبت ما حكاه من معنى البيت المذكور، فقال: قوله (مرت) أي سافرت ودرجت ولم يعقها عائق من العلائق والعوائق، (جمال الوقر) أي المريدين السائرين إلى الله تعالىٰ على الطريق المحمدي، وشبههم بالجمال لكثرة صبرها وقوتها على حمل الثقيل والسير به، والوقر أيضاً: ثقل السمع أو ذهابه، والمراد الذين صمت آذانهم عن سماع عذل العاذل، وعن غير ما يعينهم على سيرهم، (تحمل وقرها) أي فوق طاقتها من العبادات المستجادات بصالح النيات، و(رجالها) أي المتصفين بصفات الرجولية، قال سيدنا الغوث عبد الله الحداد في خاتمة (إتحاف السائل): الرجل من قهر نفسه واستولى عليها، ونقاها وزكاها من خبائث الأخلاق وحلاها بمكارمها، وقطع عن قلبه علائق الأكوان، واستقبل الحضرة الإلٰهية بوجهة الباطن والظاهر، فأقام القلب في مواطن التوحيد والتفريد، وأقام القالب في مواطن الخدمة لله تعالىٰ التي هي شأن العبد، وهذا الصوفي المحقق. انتهىٰ، (بالوقر) أي الموضع المعروف الذي هو أول مرحلة للوارد في السير إلى المدينة المنورة وآخر مرحلة للصادر منها، وهو إشارة إلى أول قدم في السير المعنوي المراد هُنا، (بان) أي ظهر (وقرها) أثرها في الغير، وأن الطالب الصَّادق المجد إذا جالسه غيره أثر فيه، وأعلى منه الشيخ الراجع إلى البقاء بعد فنائه، يظهر أثره فيمن واجهه بالمحبة والأدب، رزقنا الله محبة أهل وده العارفين، وغمرنا بمددهم الفائض في كل حين، وفي هذا البيت حث للمخبر بذلك ولغيره، على السلوك بسير أهل القدم المحمدي، واستخباره هل مر كما مروا أم هو راضٍ عن نفسه، وواقف في جدة الآمال والأماني عاكف، بصرنا الله بعيوب أنفسنا، وكان لنا أينما كنا. انتهىٰ ما رقمه شيخنا على هذا البيت.

ولما وقف عليه سيدنا الشيخ المذكور، أرسل إليه منظومة غالبها يتضمن مادة ما في هذا البيت مبنى ومعنى أولها:

مـا الـوقـر والتـوقيـر والإيقـار إلا وقـــار ضمنـــه إيثـــار
مـا وقـر بـالصـدر سـر لائـح إلا انجلــت بـــوقـــره أوقـــار
وقـربـه قـد وقـروا مـن وقـروا يـــأذن مـــن وقـــرهـــم وقـــار
بـالـوقـر صخـر وقـروه بمثلـه قصـدوا لمـن مـر بـه تـذكـار
مرت جمال الوقر تحمل وقرها

ثم قال في آخرها:

فقـــرارهـــا بـــوقـــرهـــا إقـــرار

ذا وارد مـن فتـح ربـي قـد ورد وصـدر إليـك انظـر بـه يـا بـار

وقال رضي الله عنه: وكنت يوماً معه بمكة المشرفة، فحصلت مذاكرة في الأصناف المستحقين للزكاة، وجاء ذكر العامل فالتفت إليَّ وقال: الساعي خرج من بيته، استفهاماً إنكارياً، فتأثرت بكلامه ووقع في خلدي أنه يريد (الساعي) في التزكية والخلاص والالتحاق بالخواص، (خرج) الخروج المعنوي عند أهل السير السوي (من بيته) أي من معتاده وصفات نفسه التي هي أعدى الأعداء الكامن فيها الداء، من كبر وعداوة وغضب وشح ورؤية لها، أي أنك لم تخرج منها ومن مألوفاتها، يسر الله لنا السلوك بسير الملوك في الأفعال والتروك، المتبعين للمصطفىٰ بأحسن اقتفاء. انتهىٰ كلامه رضي الله عنه، وكثيراً ما أسمعه يقول: إن غالب كلامه في التأديب والتربية، والحث على السلوك بالرمز والإشارة.

ولما كان سيدنا الحبيب عمر ممن انطوى لديه بشرية سيدنا الحبيب شيخ في خصوصيته، فإنه يرى لكلامه تأثيراً وصَوْلَة، وله على قلبه دولة، كما ذكر سيدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ علي بن عبد الله باراس ـ نفع الله به ـ في شرحه على حكم ابن عطاء الله عند قول المتن: «كل كلام برز وعليه كسوة القلب الذي برز منه» قال: فالشاهد في المعنى الذوق الموجود في الكلام فما يتميز إلا به، ويعرف ذلك من زاحم الحكماء، ومارس كلام العلماء، فإنك تجد في كلام بعضهم مالا تجده في كلام الآخر مع استوائهما في العبارة، بل قد يكون من هو أرك في ظاهر اللفظ أقوى تأثيراً في الباطن، وذلك لما عنده من وفور اليقين، وكمال الصحو

والتمكين، وذاك الذي قد يحسن عبارته ظاهراً من غير قوة يقين في الباطن وكمال تحقيق تجده دون ذلك. وقد كنت أجد عند حضوري بمجلس سيدي وحيد عصره عمر بن عبد الرحمٰن[1] ـ نفع الله به ـ أنه يتكلم مع العوام فيما يتكلمون به، وأجد له من التأثير مالا أجده في كلام غيره من المصنفين، وكثير ما تحصل من غيره مذاكرة وأجد القلب عندها ساكناً لا يعبأ بها، فإذا تكلم أنصت القلب وتعشق إلى كلامه تعشقاً ذوقياً، فلو اطلع ذو غباوة على ما أخذه في بعض كلامه لعجب مني كل العجب، فالحمد لله فلو أخذت فيما وجدت من كلامه من الفوائد لما وجدت لها حصراً. انتهى كلام الشيخ علي المذكور، فهو شاهد وأي شاهد لتأييد ما نقلناه مما يحصل لسيدنا الحبيب عمر البار مع شيخه الحبيب شيخ الجفري نفع الله بهما. وسيأتي ما يقارب هذا في هذا الشرح من كلام سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ في السلوك وغيره في ترجمته وغيرها كثير من هذا القبيل.

واعلم أن أهل هذه الطريق والسالكين فيها على قدم التجريد والتحقيق قسمان: سالك ومجذوب، ومحب ومحبوب، وكل قسم تتفاوت درجات أهله كما سبقت الإشارة إليه في كلام سيدنا الشيخ عبد الله الحداد وكلام المشرع، ولنذكر هنا بعض ما يتعلق بالسالك والمجذوب تشويقاً وترغيباً، وحثاً لجهاد ـ أي السلوك ـ هذه الطريق وتحزيباً[2].

أما الأول فهو السالك، وهو الذي يقطع عقبات النفس ويسعى في محو آثار دواعيها وغلبة أحكام طبيعتها وحيلتها، حتى يتطهر من ذلك ويحصل لها بذلك أهلية القرب من الله تعالىٰ، ويصل بها إلى سعادة لقائه في الدار الآخرة. قال الشيخ ابن عباد النقري رضي الله عنه: ولولا معاناة هذه الأشياء ـ أي مجاهدة النفس وتصفيتها ـ لم يتحقق السير والسلوك، كيف والحق تعالىٰ أقرب إلى العبد من نفسه. انتهىٰ، وفي هذا المعنى يقول غوث العباد الشيخ عبد الله الحداد رضي الله عنه:

---

(١) قال في الهامش: يعني العطاس.

(٢) تخريباً: لعله تحبيبها.

لا تقنعن بدون العين منزلة   فالخب من يكتفي بالضلل والأثر
وعُدْ هديت فقد نوديت مطرحاً   هذا الوجود وما فيه من الغير
واسلك سبيلاً إلى الرحمٰن قيِّمةً   بها أتاك إمام البدو والحضر
مشروحة في كتاب الله واضحةً   فسر عليها وكن بالصدق متزر
وبالرياضة من صمت ومخمصة   مع التخلي عن الأضداد والسهر

ولا بد للسالك أيضاً من جذب يتأهل به لمكابدة هذه الطريق وتحمل مشاقها، وحفظه عن أسباب التعويق، وعدم رؤية السالك لذلك كله، فإنه تعالىٰ إذا رأى ذلك منه غطى نعته بنعته، كما قال في الحكم العطائية: لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لن تصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك لا بما منك إليه. انتهىٰ، ومن العوائق أيضاً وقوف السالك عند أنوار البوارق واللوامع والكشوفات التي تظهر عليه وله، ويظن أنه قد وصل إلى الغاية القصوى، وذلك إنما يكون للموفق تأييد لطلب المزيد كما مر في مبحث الكرامة، ولغيره فتنة كما ذكر هذا ابن عطاء الله في حكمه أيضاً فقال: ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا نادتك حقائقها: إنما نحن فتنة فلا تكفر. انتهىٰ، ولهذا قال قطب العارفين ابن الفارض نفع الله به:

قال لي حسن كل شيء تجلى   بي تملا فقلت قصدي وراكا

وقال الشيخ أبو الحسن التستري ـ رحمه الله ـ شعراً:

فلا تلتفت في السير غيراً وكل ما   سوى الله غير واتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تقم فيه إنه   حجاب فجد السير واستنجد العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلي   عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
فقل ليس لي في غير ذلك مطلب   فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

وسيأتي في شرح البيت الذي بعد هذا مزيد بيان إن شاء الله تعالىٰ.

واعلم أن طرائق السالكين إلى الله تعالىٰ على عدد أنفاسهم، وهي وإن تعددت اسماً ورسماً، فهي متحدة حكماً، فممّا كتب به الشيخ الإمام أحمد بن عبدالقادر الحفظي الحجازي من هذا المعنى، إلى أخينا الشيخ العارف حسن بن عبد الله العمودي نفع الله بهما قال: قد عرفت يا مولاي أن الطريق واضحة، وأن منازل السائرين فيها معلومة على اختلاف أحوالهم، وليس إلا ما تضمنه حديث جبريل ـ عليه السَّلام ـ وسؤاله للشارع ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وهذه المراتب الثلاث في دين الله، وليس في الدين لبس ولا صعوبة ولا عسر، ولا عوج ولا حرج، وليس إلا ما شرعه من أرسله الله رحمة للعالمين.. ثم ساق مما يؤيد ذلك ثم قال: والحق واحد والطريق واحدة، وإنما الخلاف في رسوم ومشارب، ترجع إلى تقريب الطريق على الطالب، كما قال صاحب الرشفات وهو سيدنا الإمام عبد الرحمٰن بن عبد الله بلفقيه باعلوي ـ نفع الله به وبسلفه ـ شعراً:

تفرقوا في شعب الإسلام	فافترقوا في ظاهر الأحكام
واتفقوا في القصد والمرام	وقصد وجه الله ذي الجلال
فهم كذا الرسل بنو علات	طريقهم واحدة بالذات
تعددت بالرسم والهيئات	في كل تفصيل بلا انفصال
واختلفوا في صفة القربيه	وفي اتصال القوة الكسبيه
أو إنعطاف نفحة جذبيه	ترفع عنه كلفة الأعمال

ثم فصَّل ذلك فبعضهم كذا وبعضهم كذا، فإذا رأى الإنسان كثرة الأحوال والمقامات واختلاف الرسوم، فربما تحير في أمره وظن أنه لا بد من مجموع ذلك، وليس كذلك انظر إلى اختلافهم في تعريف المقامات مثل: التوكل والزهد إلى عشرة أقوال إلى عشرين إلى أكثر، فيظن الإنسان أن الجميع معتبر وليس كذلك، وإنما أخبر كل شيخ بما وجده من نفسه وحصل له معه الوصول، ولكل شراب شارب، وليس شيء مما جاء به المشرع ﷺ ولو خصلة واحدة، إلا وهو

طريق موصلة إلى الله تعالىٰ، وانظر إلى أحوال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وما كانوا عليه فتلك هي الطريق الأصليَّة، وبعضهم تكفيه آية واحدة من القرآن العظيم، وبعضهم حديث واحد علماً وعملاً. ولذا قال علي رضي الله عنه: العلم نقطة كثرها الجاهلون. قال الإمام الغزالي ـ رضي الله عنه ـ في آخر كتاب الغرور: فإن قلت: ما الحيلة بعد هذا التعظيم، فإنك ذكرت أن جميع هذه الفرق لا تخلو من أنواع الغرور؟ قلت: إنه لو صح منك الهوى أرشدت للحيل، لكن حبك أقوال بلا عمل. انتهىٰ، قال سيدي علي بن عبد الله الشاذلي قدس الله سره: وماذا عليك أن تكون عبد الله ولا علم ولا عمل، حسبك من العلم العلم بواحدانيته، ومن العمل محبة الله ومحبة رسوله. انتهىٰ، وقد صنف الإمام الشعراني ـ رحمه الله ـ تصنيفة مختصرة سماها: (الدرر المنثورة في زبد العلوم المشهورة) قال فيه: وأما زبدة علم التصوف الذي وضع القوم فيه رسائلهم، فهو نتيجة العمل بالكتاب والسنة، ومطالعة المريد مسائل القوم لا تفيده شيئاً ولو مكث يطالع عمر نوح، وإنما أمر بعض المشايخ بذلك تشويقاً للمريد الضعيف في سلوك طريق أهل الله، وأما جميع مقامات القوم التي أولها التوبة وآخرها نهاية بالله، فلا ينبغي لأحد أن يتعب نفسه في التحقق بها، لأنها حكايات عن مواجيدهم، ولا فائدة في ذكر العبد حكاية وقعت لغيره وتكرارها وفهمها.. ثم ذكر في آخر هذا البحث أنَّ طينة الإنسان معجونة من كل شيء من المتضادات والمتماثلات، فتارة يظهر كذا وتارة كذا، ويدق نظيره ويخفى، فهو يتقلب في مظاهر ما عجن في تلك الطينة، ثم قال: فمن الناس من لطف الله به، فاستعمله في الصفات المحمودة فقط وجعل المذمومة فيه متعطلة، حتى ظن صاحب الحال أنها زالت منه بالكلية، وليس كما ظن من زوالها بالكلية وإنما هي كامنة فيه، فما دامت العناية ملاحظة لهذا العبد، فهو محفوظ من المخالفات والرذائل لا معصوم، ومتى تخلفت العناية عنه تحركت الصِّفَات المذمومة.. إلى أن قال: وقد طلب جماعة من الفقراء كرامة من سيدي عبد العزيز الديريني ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فقال: يا أولادي وهل ثم كرامة من أن الله يمسك لنا الأرض، ولم يخسفها بنا مع سوء ما نتعاطاه، فتأمل جميع ما قررناه لك في حكم هذه الطينة، فإنه نافع مستغنىً به ـ إن شاء الله ـ عن جميع مطالعة الكتب الموضوعة

لعلاج الأخلاق، كالإحياء للغزالي وغيره من كتب الصوفية، لأن الله تعالىٰ لم يشهدهم ما طواه في أنفسهم من الأخلاق، وذلك دليل على عدم سلوكهم طريق أهل الله، ولذلك يقول باب علاج الحسد، باب علاج الكبر، باب علاج الرياء، ونحو ذلك وهم يظنون أن تلك الصِّفات المذمومة تزول بالكلية، فقد قدمنا أنها لا تزول، إنما يتعطل استعمالها بمعونة الله تعالىٰ. انتهى، وهو آخر الفائدة التي نقلها الشيخ أحمد المذكور عن الشعراوي لخصناه منه، وفي آخره ما يحتاج إلى البيان والتأويل، وقد ذاكرت سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار صاحب المنظومة ـ نفع الله به ـ عندما أوقعني على ما أثبته الشيخ أحمد المذكور للشيخ حسن المذكور في قول الإمام الشعراوي آخر الفائدة المذكورة: لأن الله تعالىٰ لم يشهدهم ما طواه في أنفسهم: إلى آخره وقبله قليلاً، فقال قدس الله روحه. قد قال الشيخ أبو بكر العيدروس العدني نفع الله به: إن الإمام الغزالي ـ رضي الله عنه ـ حشا كتابه الإحياء من ذكر الأخلاق المذمومة وعلاجها وأنا لم يحصل لي شيء مما ذكره أصلاً. ثم قال رضي الله عنه: ولم نسلم للشعراوي ما ذكره آخر هذه الفائدة، وكان بعض سلفنا العلويين يقول: إن الغزالي وأضرابه، لم يتكلم إلا بلسان الدعوة العامة لجذب أهل العموم وطلب ترقيهم، ودعوتهم إلى ما عليه الخاصة، ولا يحصل ذلك إلا بتزكية النفس عن الأخلاق المذمومة، وتحليتها بالأخلاق المحمودة، وأما مقاماتهم وأحوالهم التي تحققوا بها فلم يتوجهوا إلى شرحها في تلك الكتب. انتهىٰ بمعناه، وقد زدت هذا بياناً يليق بمقام الغزالي وحال الشعراني رحمهما الله، فقول الشعراني: (فتأمل ما قررناه لك، فإنه نافع يستغنى به عن جميع مطالعة الكتب الموضوعة لعلاج الأخلاق، كالإحياء للغزالي وغيره من كتب الصوفية، لأن الله تعالىٰ لم يشهدهم ما طواه في أنفسهم من الأخلاق. . إلى آخره)، فأمَّا قوله (يستغنى به) إلى آخره، أي من حيث الإجمال وتقريب العبارة، فلا بأس بإرادته حصول الاستغناء من هذه الحيثية عن الإحياء وغيره، وأما قوله (لأن الله لم يشهدهم ما طواه في أنفسهم) إلى آخره، فالأليق برجوع الضمير إلى قوله (وغيره من كتب الصوفية) ليترتب عليه ما بعده مما لا يتمشى إلا على غير الغزالي، لأن الغزالي ـ قدس الله روحه ـ غير قائل بانعدام البشرية من تلك الأخلاق الدنية

واضمحلالها بالكلية، كما حقق ذلك في الإحياء نفسه، فمن كتاب الغضب والحقد والحسد منه قال: بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة؟ اعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج.. إلى أن قال: وكلا الرأيين ضعيف.. ثم قال بعد ذلك: أما القسم الأول، فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب، ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب، ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً، فأما منع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس بمقتضى الطبع وهو غير ممكن، نعم يمكن كسر قوته وتضعيفه.. ثم أطال في الاستدلال لذلك، وذكر في عجائب القلب مثله، وبه يتضح أن الشعراني لا يريد الغزالي بذلك الذي ذكره أنه من شأن المتصوفة، ومن المعلوم عند العوام ـ فضلاً عن الخواص كالشعراوي ـ أن الغزالي إمام الفقهاء الصُّوفية فكيف يعد من المتصوفة! ومن تغليب حسن الظن أن من عبَّر منهم بعلاج زوال هذه الأخلاق بالكلية، أن مراده إثارة همة المريدين للتوجه إلى إزالة الكل، ليحظى بالبعض وبالملكة والاستيلاء الذي ذكره الغزالي لا بزوالها بالكلية. ثم اعلم ثالثاً أنه لا بد للمريد السالك، من معرفة ما يجب عليه من أصول الدين وفروعه، وشرائع الإسلام التي يجب عليه معرفتها مما يتعلق بالاعتقادات والعمليات، ومعرفة عللها ومراعات مكملاتها، وهو المسمى عندهم بعلم الحال والعلم النافع، وهو الذي عرَّفه حجة الإسلام الغزالي في كتبه، وهذه عبارة مختصرة من بداية الهداية له، قال نفع الله به: والعلم النافع هو ما يزيد في خوفك من الله تعالىٰ، ويزيد في بصيرتك بعيوب نفسك، ويزيد في معرفتك بعبادة ربك، ويقلل من رغبتك في الدنيا، ويزيد في رغبتك في الآخرة، ويفتح بصيرتك بآفات أعمالك حتى تحترز منها، ويطلعك على مكائد الشيطان وغروره، وكيفية تلبيسه على علماء السوء حتى عرضهم لمقت الله تعالى وسخطه، حيث أكلوا الدنيا بالدين، واتخذوا العلم ذريعة ووسيلة إلى أخذ أموال السَّلاطين، وأكل أموال الأوقاف واليتامى

والمساكين، وصرفوا هممهم طول نهارهم إلى طلب الجاه والمنزلة في قلوب الخلق، واضطرهم ذلك إلى المراءاة والمماراة والمنافسة والمباهاة. وهذا الفن من العلم النافع قد جمعناه في كتاب: (إحياء علوم الدين)، فإن كنت من أهله فحصله واعمل به، ثم علمه وادعُ إليه، فمن علم ذلك وعمل به ثم علمه ودعا إليه، فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات بشهادة عيسىٰ عليه السلام انتهىٰ.

وأما الثاني وهو المجذوب الواصل، المراد المحبوب، الذي فاجأته العناية وأسباب الهداية، مع كشف نوراني وفيض رباني، بغير طلب ولا استعداد، حتى طويت له الطريق في لحظة. قال الشريف الجرجاني في تعريفه: المجذوب من اصطفاه الحق لنفسه، واجتباه لحضرة قدسه، وأطلعه لجناب أنسه، ففاز بجميع المقامات والمراتب، بلا كلفة المكاسب والمتاعب. انتهى، قال ابن عطاء ـ رحمه الله ـ في (لطائف المنن) عن شيخه أبي العباس المرسي رضي الله عنهما ـ أنه قال: الناس على قسمين، قوم وصلوا بكرامة الله تعالىٰ إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله تعالىٰ إلى كرامة الله، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورىٰ: ١٣]، قال: ومعنى كلام الشيخ هذا، أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه، فصار يطوي مهامة نفسه وبيداء طبعه، إلى أن وصل إلى حضرة ربه، يصدق على هذا قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٧٤]، فالأول: حال السالكين، والثاني: حال المجذوبين، فمن كان حاله مبدأ المعاملة فنهايته المواصلة، ومن كان مبدأه المواصلة رد إلى وجوه المعاملة، ولا تظنَّن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله، فيسلكها مسرعاً إلى الله عاجلاً، وكثيراً ما يسمع عند مراجعات المنتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب، لأن السالك عرف طريقاً بها توصل إلى الله تعالىٰ وكثيراً ليس كذلك، وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له، وليس الأمر كما زعموا، لأن المجذوب طويت الطريق له ولم تطوَ عنه، ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه،

وإنما فاته متاعبها،وطول أمرها، والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا. انتهىٰ من شرح الحكم.

وقال بعض الأكابر نفع الله به: اعلم أن السَّائرين إلى الله تعالىٰ في قطع عقبات النفس وهي سباسب البشرية على أربعة أقسام: سالك بعد الجذبة، ومجذوب غير سالك بعد الجذبة، ومجذوب غير سالك، وسالك غير مجذوب، وعند شيوخ الطريقة يقتدى بالأول والثاني دون الثالث والرابع، واختلفوا في الأولين أيهما أفضل؟ فذهب جمع كثيرون إلى أن الأول أفضل من الثاني، وذهب آخرون إلى أن الثاني أفضل من الأول، كما قاله الشيخ ناصر الدين في قصيدته نظم السلوك شعراً:

والجـذب إن جاءه بعـد السلـوك لـه ... فضل على الجذب مما السعي تاليه

وفي الحقيقة لولا الجذب ما سلكت ... طـريــق حــق ولا ريــت مــرائيــه

إن المـريـد مـراد والمحـب هـو المـ ... ـمحبـوب فـاشتمـل هـذا مـن أمـاليـه

وقال الشيخ محمد الخطيب السلماني ـ رحمه الله ـ في كتابه: (روضة التعريف في الحب الشريف) وهو كتاب عجيب الوضع والترتيب، قال: الاختيار الثاني في محركات العزيمة للفلاحة الكريمة من جذب ويقظة، وفيه فصول: الفصل الأول في الجذبة وما يتعلق بذلك، ومحرك الجذبة لا يعلل، وهي توقد مصباح الهمة في ديجور الغفلة المدلهمة، وترفع جميع القواطع المؤلمة الملمة، وتولي الوجه شطر المقصود، وتوقع بصر البصيرة على نجم الشهود، إلا أن صاحب الجذبة إذا وقعت المعرفة، كان حقاً عليه الاجتهاد فيما ينقل الخطأ، ويضاعف العطا «يا داود أعني على نفسك بكثرة السجود»، وقول رسول الله ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكورا»، وهناك تتضاعف المعارج وتطول المراحل، والأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ممن استثارهم الجذب وواصلتهم العناية، وكثير من الأولياء. قال أبو الفرج رحمه الله لما سبق من الاجتباء لأقوام في القدم، جذبوا بعد الزلق في هوة الهوى إلى نجوة النجاة، ياعمر كيف حالك؟ قال: كنت مشغولاً بهبل، فسمعت هاتفاً: ففروا إلى الله، فعرجت على المنادي فإذا أنا في دار

الخيرزان، يافضيل من أنت؟ قال: أخذت في قطع الطريق، ياعتبة الغلام من أنت؟ قال: كنت عبد الهوى، فقصدت مجلس عبد الواحد فصرت عبد الواحد، يا شبلي من أنت؟ قال: كنت ابن الرشيد فعرض لي أمر رشيد، . . . .[1] يا ابن أدهم من أنت؟ قال أخذ في جنة من منظرة ناظور البساتين. انتهىٰ المقصود من روضة التعريف.

خاتمة: قول سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ في الشطر الثاني من هذا البيت: (إلى مقامات أولي التحقيق) فيه معنى السالك الذي سبق بيانه، أنه هو الذي يقطع عقبات النفس حتى يصل إلى ارتقاء المقامات الفاخرة والأحوال الظاهرة، ووصف المقامات بأنها لأولي التحقيق من أهل الطريق لرسوخ أقدامهم، إذ المقام هو الحال الثابت، قال الإمام السهروردي ـ رحمه الله ـ في العوارف: تداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب، وعلى الترتيب الذي درجناه كلها مواهب، إذ المكاسب محفوفة بالموهبة، والمواهب محفوفة بالكسب، فالأحوال مواجيد، والمقامات طرق المواجيد، ولكن في المقامات ظهر الكسب وبطنت الموهبة، وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت الموهبة، فالأحوال مواهب علوية والمقامات طرقها. انتهىٰ المقصود من العوارف.

ثم إن سيدنا الناظم لما شوق في البيت الأول الطالب الراغب إلى سلوك الطريق بالسير الحسي والمعنوي، إلى مقامات أولي التحقيق بالمعنى المذكور، أراد ترقيته ورفع همته لطلب المقصود بتلك الوسيلة، وما هو فاضل بالنسبة لتلك الفضيلة، فضمن في البيت الآتي معنىً أشرف من الأول، وهو الوصول إلى حضرة المعرفة بالله عزوجل المنزه عن الكيف والأين، ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فقال رضي الله عنه:

ونظمت أسماء أرباب الوصول ورزق التالي من الله القبول

أي نظمت أسماء أرباب الوصول في سلك أسانيد الأخذ عنهم والانتساب إليهم، الذي يحصل به التعرف والتشرف الحاصلين للداخل في دائرة طريقهم، والمجتلي لمعاني مواجيد تحقيقهم، فإن نظراتهم كما قدمنا الإكسير الخاص،

---

(١) ثلاث كلمات في الأصل غير مفهومة فحذفناها.

والكبريت الذي لا يظفر به إلا الخواص، من المرعيين بعين الاختصاص، أو المعنى: نظمت أسماءهم في ديوان السعادة، الذي مآل المثبوتين فيه الحسنى وزيادة، وأرباب الوصول هم الذين حصل لهم هذا المقام الرفيع، الجامع للمقامات الشريفة والأحوال المنيفة. واعلم آنسك الله بقربه، وأدخلنا وإياك في دائرة أهل مودته وحزبه، أنه كثيراً ما يدور في كلام القوم العارفين، والصوفية الأبرار المقربين، ذكر الوصل والوصال، والوصول والاتصال، والقرب والشهود، والمشاهدة والمحاضرة، ونحو ذلك من الألفاظ التي اصطلحوا عليها، وجعلوها لمعانٍ صحيحة عندهم علماً وذوقاً وحالاً، ومرادهم تشويق المريد السالك ليرتقي ويصل إليها ويتحقق بها كما ذكرنا، لا لفهم لمعاني ألفاظها فقط فإن الفهم لذلك غير مقصود ولا مفيد، إذ مثال من يفهم من لفظ القرب أنه الدنو، ومن الوصل أنه التمكن من البلوغ إلى المحبوب ورؤيته، ولم يعرف حقيقته في حق الله تعالىٰ وحق أهل المعرفة به، مثال الغير الذي يفهم المعنى المقصود من لفظ الوقاع ولا يعرف كيفيته ولذته، كما قال سيدي غوث العباد الحبيب عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ متكلماً على لسان من هذا حاله:

إنــا لنعلمــه ولــم نحــظَ بــه ... ذوقــاً لمــا معنــا مــن التشتيــت

وقولنا (ولم يعرف حقيقته) المراد به حقيقة ماذاقوه وعرفوه، لا ما يفهم من المعنى الذي تقتضيه مادة هذه الألفاظ من قرب المسافة أو شهود صورة، أو وصول إلى غاية محسوسة أو غير ذلك مما يتعالى الله عن جميعه علواً كبيراً، كما قال الشيخ العارف بالله حسين بن عبد الشكور مبيناً معنى الوصل المذكور شعراً:

طرق الوصل واضحات ولكن ... صفة الوصل عندنا لا تكيف

والذي ذاق لذة الوصل يدري ... وبتعــريــف وصلــه لا يكلــف

إذ معاني الوصال لم يدر علماً ... وبــألفــاظ علمنــا لا تعــرف

وإذا مــا أردت تعــرف معنــىً ... من معاني الوصال سر تتعرف

بعــــد ذوق ولــــذة وتــــدانٍ ... مــن حبيــب لــه الفـؤاد تــألـف

فافنِ عن كل ما سواه تجده قا ثمـاً عنـك بـالبقـايـا مكلـف
ويتـم الفنـاء عـن الـذات محـواً ويغيب انتشار لم يك في اللف
وإذا كنـت فـي البـداية فـاجهـد في سلوك الملوك كي تتشرف
واستغن بالمعين في كل حال فهـو أدرى بمـا يليـق وأعـرف
واطـرح النفـس واختيـار هـواهـا إنهـا فـي اختيـارهـا تتكلـف

انتهىٰ فهذا المراد من هذه المواد لا ماسواه مما يستحيل في حق الإلٰه، من كشف الغطاء عن حجاب نور الذات المقدس العلي، ولأنه إذا وصل سقطت عنه تكاليف الشرع الجلي، كما وقع ذلك لأقوام صاحبهم القصور، وجانبهم الهدى والنور، واستفزهم الشيطان اللعين، مع ما كشف لهم من سر المجاهدة المعين، فزعموا بهذا الاعتبار، بسقوط التكاليف التي بها حصول تلك الأنوار، ومثالهم مثال من حمل في طريقه سراجاً يهتدي به في ظلمات سلوكها، فلما وصل إلى المكان المقصود أطفأ السراج فبقي في عمىً وظلمة، ولو بقي سراجه معه لرأى به محاسن هذا المكان، ودام له أنسه فيه، وقد نبَّه سيدنا الشيخ عبد الله الحداد باعلوي ـ نفع الله به ـ على أن القوم الصوفية وطريقهم منزهة عن هذا التخبيط، وعارفوها محفوظون عن شؤم هذا التشبيط، فقال:

وما في طريق القوم بدء ولا انتها مخـالفـة للشـرع فـاسمـع وأنصـت
وخـلِّ مقـالات الـذيـن تخبطـوا ولاتـكُ إلا مـع كتـاب وسُنَّـة

وقد رأيت في بعض نسخ الديوان حاشية على هذا البيت ولم يعزها ناقلها، قال: (وخلِّ مقالات الذين تخبطوا) وهم قوم استحوذ عليهم الشيطان، فقالوا: إن السلوك يكون سبباً للمشاهدة، ومتى وقف على المشاهدة انحطت عنه ربقة التكليف الشرعي، كيف وقوله لعبده المصطفى الذي مقامه في أقصى مقامات الوصول: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي الموت، فلا تنحل ربقة التكليف إلا بالموت. انتهت الحاشية، وقوله (فقالوا إن السلوك يكون سبباً للمشاهدة. .) إلى آخره، أي بزعمهم أن المشاهدة تنحط بها ربقة التكليف، وربما

لو شاهد بعض هؤلاء القائلين هذه المقالة الشنيعة، القاصرين عن رتبة العارفين الرفيعة، إذا رأى بارقة أو لامعة ظن أنها هي المقصود بالمشاهدة فوقف حينئذ عن الطلب قبل بلوغ الأرب، نعوذ بالله من أنواع الخذلان، ونستجير بالله من أسباب الحرمان. وقد حقق هذا المعنى سيدي الغوث عبد الله بن علوي الحداد ـ نفع الله به ـ في (النفائس العلوية) فقال: الواصل إلى الله تعالى من وصل من العلم بالله تعالى إلى حد ينتهي إليه علم العلماء به من خلقه، وأهل هذه المرتبة يتفاوتون فيها تفاوتاً لا ينحصر، وللواصل إلى هذا المقام حالتان، تسمى أحدهما بالجمع والأخرى بالفرق، فإذا وردت عليه حالة الجمع، فني عن نفسه وغيره من أبناء جنسه، واستغرق بربه وذهب فيه بالكلية، فلا خاطر هناك يخطر، ولا موجود يظهر إلا الموجود الحق جلَّ وعلا، وفي وصف هذا الوارد قال بعض المتحققين به:

ولـو خطـرت لـي فـي سـواك إرادة ... على خاطري سهواً قضيت بردتي

يعني حكمت بعدم استغراقي بك واستهلاكي فيك، والله أعلم.

وقال آخر:

كـانـت لقلبـي أهـواء مفـرقـة ... فاستجمعت إذ رأتك اليوم أهوائي

وأصل وجود الخواطر وتشعبها تفرق الهم وكثرة العلائق، وما عند الواصل إلى الله تعالى من هذا الأمر خير، لأنه قد جعل الهموم هماً واحداً وهو الله تعالى، وإلى الجمع الإشارة بقوله ﷺ: «لي وقت لا يسعني فيه إلا ربي»، ثم إن دوام وارد الجمع عزيز جداً، وعند دوامه تظهر أمور عجيبة، وتبدو شؤون غريبة، وقد دام هذا الوارد على بعض مشايخ العراق سبع سنين، ثم أفاق يسيراً ثم عاد عليه سبعاً أخرى، وكان في هذه المدة لا يأكل ولا يشرب، ولا ينام ولا يصلي، بل كان واقفاً في البرية شاخصاً ببصره إلى السماء، وبلغنا عن بعض مشايخ مصر أنه توضأ ثم اضطجع، وقال لنقينه[1]: لا توقظني حتى أستيقظ بنفسي فمرت عليه سبع عشرة سنة وهو في نومته، ثم استيقظ وصلى بوضوئه ذلك، والعارفون يشتاقون إلى دوام الجمع، والحق ينقلهم عنه لطفاً بهم وليقوموا بالتكاليف، ولئلا تضمحل أجسامهم وتتلاشى عظامهم، لأن الواردات الإلهية إذا قويت واستولت لم تثبت لها

(١) هكذا في الأصل ولعله لمريديه.

القوى البشرية، كيف وقد احترق الطور وصار دكّاً لما أشرق عليه ذلك النور، ولا يصح حصول الجمع لأقوام تخبطهم الشيطان، فتراهم يتركون العبادات ويضيّعون الفرائض من الصوم والصلوات، ومع ذلك يتناولون الشهوات ويرتكبون المحرمات، لو كانوا من أولياء الله تعالى لحفظهم، ولو كانوا مستغرقين به لغابوا عما سواه، ولا نطيل الكلام وإن كان طويلاً عريضاً في هذا الموطن، الذي طالما زلت فيه الأقدام، لأنه من الأمور الذوقية التي يصعب على العقول إدراكها فضلاً عن الأوهام. وأما حالة الفرق فالواصل فيها محفوظ، وبعين العناية ملحوظ، وعندها يبقى الخاطر ربانياً، ويسمى عند الصوفية بـ (الإذن والخاطر الملكي)، ويدعى عندهم بـ (الإلهام)، وهم لا يقدمون عليه إلا ما كان من كتاب أو سنة، وأما الخاطر الشيطاني فلا وجود له، لأن الشيطان لا يستطيع دنواً من قلب واصل إلى الله تعالى، بإشراق أنوار معرفته، وربما أسلم شيطان الواصل إلى الله تعالى على سبيل الوراثة منه لنبيه ﷺ إذ يقول ﷺ: «لي شيطان، إلا أن الله سبحانه وتعالى أعانني عليه فأسلم، فلا يأمر إلا بالخير». وأما الخاطر النفساني فيبعد إمكان وجوده، لأن نفس الواصل قد اطمأنت إلى ربها، وصارت في حيز القلب متابعة مطيعة، دعاها مولاها فرجعت إليه فأدخلها في عباده، وجعلها في جنة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين. انتهى كلام الأستاذ المحقق، وفيه تأييد لجميع ما قدمناه، وكفى به دليلاً إجمالاً وتفصيلاً وقوله نفع الله به: (والعارفون يشتاقون إلى الجمع) هو ما عناه بقوله:

يا ليتني قد غبت عن هذا الورى ... ودعيت بالمستغرق المبهوت

ماذا عليَّ من الأنام وقولهم ... إن أُدعَ بالمحبوب أو الممقوت

قوله (والحق ينقلهم عنه) أي الجمع (لطفاً بهم، وليقوموا بالتكاليف ولئلا تضمحل أجسامهم، وتتلاشى عظامهم..) إلى آخره، أي كما حصل ذلك لكثير منهم ورد عليه حال الجمع فاضمحل جسمه واستحالت صورته، فقد حكي في (المشرع الروي) أن بعض سادتنا بني علوي ـ نفع الله بهم ـ أنه ماغ[١] ماء فأدخل شخص أصبعه فيه، فلما رجع جسمه إلى معتاده بقي أثر الأصبع فيه. وحكى

(١) يعنى أنه انماع حتى صار ماءً.

سيدنا وشيخنا الإمام العارف بالله عمر بن سقاف باعلوي ـ قدس الله روحه ـ في كتابه: تفريح القلوب وتفريج الكروب) ما معناه: أن بعض الأكابر كان يميل إلى السماع وإلى ضرب العود، وكان السلطان في وقته ينهى عن ضرب العود واستعماله وشدد في تحريمه، فلما كان في بعض الأوقات اشتاق ذلك الشيخ إلى السماع، وخرج بعوَّاد إلى البرية وأمره بضرب عوده، فورد عليه حال عظيم استغرقه، ثم لم يزل يميع جسده وتضمحل صورته حتى تحصل منه ضحضاح دم، فقام العواد لينظر فيه، هل بقي من جسده بقية من ذلك الدم، فأدخل يده فأحس بشيء متجمد فيه، فرفعه فإذا هو جواهر كبار، فجعل ينقيه حتى أخرج جميع ما فيه من تلك الجواهر، فلما رجع إلى البلد أظهر منها واحدة فتعجب منها من رآها لعزة وجود مثلها، فبلغ ذلك السلطان وأمر من يشتريها له، وبذل فيها مالاً كثيراً، ثم بحث من أين اشتريت، فأخبر أنها من فلان العَوَّاد، فسأل: هل عاد عنده غيرها؟ فأظهر ما بقي عنده من ذلك، وبذل فيه السلطان أثماناً عزيزة، وجعل تلك الجواهر في تاجه، ثم بعد برهة من الدهر، تولى سلطان آخر يقول بالسماع ويميل إليه، فضرب العود عنده يوماً وهو لابس تاج السلطان الأول، فبينما هو كذلك إذ أحس بثقل التاج وبدم يسيل على وجهه، فأخرج التاج وطرحه، وإذا بشخص ينمو ويزيد حتى تكامل رجلاً سوياً فعطس وحمد الله تعالى، فأخبرهم العوَّاد بأصل القصة، فسبحان القادر على كل شيء. ومن ذلك ما يحكى عن السيد العارف بالله تعالى الملامتي الجليل عبد الله بن أبي بكر مقيبل السقاف باعلوي ـ نفع الله به ـ أنه إذا ورد عليه الحال، جعل في النار قطعة من الحديد قدر الرغيف حتى يحمر فيرفعها ويضعها على صدره، ولا يتألم به بل يرى كالمتلذذ بذلك. وهذه أحوال تقصر العقول القاصرة عن وصفها وتكييفها، فضلاً عن معرفتها وذوقها. وقوله رضي الله عنه: (ولا يصح دعوى الجمع لأقوام تخبطهم الشيطان، فتراهم يتركون العبادات..) إلى آخره، قد وقع ذلك لكثير من السالكين، ومنهم رجل من أهل البحرين اتفق من رياضته أنه يطير في الهواء وادعى هذه الدعوى، فبلغ ذلك سيدنا الشيخ عبدالله الحداد المذكور، فكتب إليه كتاباً يقصد دلالته ورد مقالته، وداواه من ذلك الداء فحصل له ببركته الشفاء، ورجع بحمد الله واستقال من جناية دعواه فقيل إن شاء الله.

ولما انتهى بنا المقال إلى علم الحال، الذي تشد في طلبه الرحال، وتنفق في تحصيله نفائس الأوقات والأموال، فلنتعرض بشيء يسير من فضله وشرف أهله، وما يتعلق بالعمل به ونقله، لارتباط الفوائد بالعوائد والعوائد بالموائد، فمن أظهر الدلائل وأدل الفضائل، قول أعز قائل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل منكم» وفي حديث آخر: «ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد». والأحاديث وأقوال العلماء في فضل العلم والعمل به وتعليمه أمر مشهور وغير محصور، وقد جمع الإمام الحجة الغزالي ـ رضي الله عنه ـ في كتاب العلم من (الإحياء) جملة من ذلك، مع ذكر ما يتعلق به من الآداب ومراعاة الصدق والإخلاص، والعلل والآفات وغير ذلك.

واعلم أن هذا العابد الذي فضله الفقيه في الحديث المذكور، لم يكن خالياً من علم يعرف به وجه عبادته وإلا لم يُسَمَّ عابداً، بل المراد به عابد اقتصر على علم ما لا بد له من العقائد والعبادات وأخلاق القلب. قال الشيخ الإمام الحسين بن عبد الله الطيبي ـ رحمه الله ـ في حاشيته على المشكاة في شرح الحديث السابق: ولا تظننَّ أن العالم المفضل عاطل عن العمل، ولا العابد عن العلم، بل إن علم ذلك غالب على عمله، وعمل هذا غالب على علمه، ولذلك جعل العلماء ورّاث الأنبياء، الذين فازوا بالحسنيين العلم والعمل، وحازوا الفضيلتين الكمال والتكمل، فهذا طريقة العارفين بالله تعالى وسبيل السائرين إلى الله. كتب شيخنا شيخ الإسلام قطب الزمان أبو حفص عمر السهروردي إلى الإمام فخر الدين الرازي مكتوباً فيه: إذا صفت مصادر العلم، وموارده من الهوى، أمدته كلمات الله التي تنفد البحار دون نفادها، ويبقى العلم على كمال قوته وسعته وقوته تتلقى الفهوم المستقيمة، وهم ورّاث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كرَّ عملهم على العلم وعلمهم على العمل، فتناوب العلم والعمل فيهم حتى صفت أعمالهم ولطفت، فصارت مسامرات سرية ومحاورات روحية، فتشكلت الأعمال بالعلوم

وتشكلت العلوم بالأعمال، لقوة فعلها وسرايتها إلى الاستعدادات. انتهى المطلوب من هذا المكتوب، وتناوب العلم والعمل في حقهم، فهو كقول القائل شعراً:

رق الــزجــاج ورقــت الخمــر　　　فتشــاكــلا فتشــابــه الأمــر

فكــأنمــا خمــر ولا قــدح　　　وكــأنمــا قــدح ولا خمــر

وهؤلاء هم علماء الخشية الداعون إلى الله بأقوالهم وأفعالهم، لا علماء الشر والفتنة الداعون إلى الدنيا بأعمالهم وأحوالهم، وقد بيّن حال الفريقين وأوضح هداة الطريقين، الحجة الغزالي في الإحياء وغيره من كتبه.

وإذا تقرر لكاتبها الواقف على هذا البيان، أن المدعي سقوط التكليف بوصوله، إنما وصل إلى حضرة الشيطان، فلنتم الفائدة في آخر شرح هذا البيت بذكر دوام عمل أرباب الوصول، وثبوتهم على ذلك إلى أن أتاهم اليقين تأسياً بالرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ـ، فأقول: **خاتمة** روى الثقات عن سيد الطائفة أبي القاسم الجنيد بن محمد ـ قدس الله روحه ـ أنه رُئِي وفي يده سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة! فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبداً، وكان يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ويصلي أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته، ورُئِي الجنيد رضي الله عنه بعد وفاته في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وفنيت تلك العبارات، وأبيدت تلك الرسوم، وغابت تلك العلوم، وما نفعنا إلا ركعات ركعناها في السحر، وحكى أبو محمد الحريري رضي الله عنه قال: كنت عند الجنيد ـ رضي الله عنه ـ في حال نزعه، وكان يوم جمعة ويوم نيروز، وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت: في هذه الحالة يا أبا القاسم! فقال: ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي، وقال أبو الحسن الدراج رحمه الله: ذكر الجنيد أهل المعرفة بالله تعالى وما يراعون به من الأوراد والعبادات، بعدما لاطفهم الله به من الكرامات، فقال الجنيد رضي الله عنه: العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك، وقال أبو بكر العطار رحمه الله: حضرت الجنيد عند الموت في جماعة من أصحابنا فكان قاعداً يصلي، ويثني رجليه إذا أراد أن يسجد، فلم

يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه، فثقل عليه حركتهما فمد رجليه، فرآه بعض أصدقائه ممن حضره ذلك الوقت ـ وكانت رجلا أبي القاسم قد تورمتا ـ فقال: ما هذا يا أبا القاسم؟ فقال: هذه نعم الله، الله أكبر فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الحريري: لو اضطجعت، فقال: يا أبا محمد هذا وقت منة الله، الله أكبر، فلم يزل حاله كذلك حتى مات رحمة الله عليه ورضوانه. وقال في ترجمته ومن مجمع الأحباب: وقال في (لوامع أنوار القلوب) قال موسى بن علي رحمه الله: مشيت يوماً مع الجنيد ـ قدس الله روحه ـ فلما بلغنا مسجد الشونيزي التفت إلينا ووقف، وقال: يا معشر الشباب جدوا قبل أن تعجزوا واجتهدوا أن تطلبوا أثراً بعد عين، فإني تذكرت مجاهدات كانت لنا في هذا المسجد تقبح في عيني بطالتي اليوم. قال موسى بن علي: وكانت حالته إذ ذاك من أعظم أنواع المجاهدات. انتهى. وقال الشيخ الكبير إسماعيل الحضرمي الشهير قدس الله روحه: الناس يقولون الحضرمي لا يقول بالنوافل، وعليَّ أورادٌ من حال الشباب، لو تركت منها ركعة لعوتبت. وقال محمد بن ثابت البناني رضي الله عنه: لما حضرت أبي الوفاة جعلت ألقنه الشهادة، فقال لي: يا بني دعني فإني في وردي السابع. فانظر ـ رحمك الله ـ إلى أحوال من ذكرناهم من هؤلاء الرجال، وهل واصل غيرهم إلى معرفة الله تعالى وإلى أعلى درجات الكمال، وقد ذكر سيدنا الغوث عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ في بعض كتبه أن الفتور في العبادة ردة عند الصوفية، بمعنى أنها رجوع عما يحبه الله تعالى ويحب دوامه، كما ورد في الحديث الصحيح: «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل» قال الشيخ ابن عباد النفري في شرح حكم ابن عطاء الله رضي الله عنه: وقد يكون استحقار الورد من المكر والاستدراج للعبد، ويكون مبدأ ذلك أن تلوح له خيالات، وتظهر له صور كرامات، توجب له استحسان حالته واختيار بطالته، وفي ذلك رفض العبودية بالكلية، وهي أمارة لوجود الطرد والبعد ـ والعياذ بالله تعالى ـ وصاحب هذا الحال عظيم الجهالة، شديد العماية والضلالة. وقد قال الجنيد ـ رضي الله عنه ـ لرجل ذكر المعرفة فقال الرجل: أهل المعرفة بالله تعالى يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والقرب إلى الله عز وجل، قال الجنيد رضي الله عنه: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذا عندي

عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله عز وجل وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها، وإنه لأوكد في معرفتي وأقوى في حالي.

قال السهروردي في كتابه (عوارف العوارف): فأما من تعرف بخيال أو قنع بمحال، ولم يحكم أساس خلوته بالاخلاص، فيدخل الخلوة بالزور ويخرج بالغرور، فيرفض العبادات ويستحقرها، ويسلبه الله لذة المعاملة، وتذهب عن قلبه هيبة الشريعة، فيفتضح في الدنيا والآخرة، فظهر بذلك كله أن عين الوصال، هو استمرار الأعمال مع الاستغراق في صفات الجلال والجمال.

قال ابن عطاء الله الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ في كتابه: (التنوير في إسقاط التدبير): سمعت شيخنا أبا العباس ـ رحمه الله ـ يقول: الفقيه من ألقى الحجاب عن عيني قلبه، فمن فقه عن الله سر الايجاد، وأنه ما أوجده إلا لطاعته وما خلقه إلا لخدمته، كان هذا الفقه سبباً لزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة، وإهماله لحظوظ نفسه، واشتغاله بحقوق سيّده، مفكراً في المعاد قائماً بالاستعداد، حتى قال بعضهم ـ وقد قالت له أمه: يا بني ما لك لا تأكل الخبز؟ فقال: بين مضغ الخبز وأكل الفتيت قراءة خمسين آية. فهؤلاء قوم أذهل عقولهم عن هذه الدار ترقب خوف المطلع وأهوال يوم القيامة، وملاقاة جبار السماوات والأرض، فغيبهم ذلك عن الاستيقاظ لملاذ هذه الدار والميل إلى مسراتها، حتى قال بعض العارفين: دخلت على بعض مشايخ بالمغرب في داره، فقمت لأملأ ماءً للوضوء، فقام الشيخ ليملأ عني، فأبيت فأبى إلا أن يملأ، فأمسك الحبل بيديه، وفي الدار عند البئر شجرة زيتون قد خيمت على الدار، فقلت: يا سيدي لم لا تربط طرف هذا الحبل بهذه الشجرة؟ فقال: أو هاهنا شجرة، إن لي في هذا الدار ستين سنة ما أعرف هاهنا شجرة.. قال: ومثل هذه الحكاية كان بالصعيد رجل من الأولياء بمسجد، فطلب منه أحد من يخدمه جريدة من إحدى نخلتين كانتا بالمسجد فأذن له، فقال: يا سيدي من أيهما آخذ من الصفراء أو من الحمراء؟ فقال: يا بني إن

لي بهذا المسجد أربعين عاماً لا أعرف الصفراء من الحمراء. ويحكى عن بعضهم أنه كان يعبر عليه أولاده في داره فيقول: من هؤلاء؟ أولاد من هؤلاء؟ فيقال له: أولادك، فيقول: لا أعرفهم، حتى يُعرَّف بهم لاشتغاله بالله تعالى. انتهى كلامه، ومن هذا المعنى ما ذكره الشريف محمد بن الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (مجمع الأحباب) قال: ومقصود العارفين في الدنيا معرفته جل وعلا وعبادته، ومقصودهم في الآخرة ابتغاء رضوانه والنظر إلى وجهه الكريم، ولما علم الله عزوجل من عباده ما أرادوا من عبادتهم ـ وهو الذي وفقهم وأعطاهم ـ أنعم عليهم بنعم لا تتناهى، ولا يطلع غالب الخلق على أولاها فضلاً عن منتهاها، ثم إن تلك النعم منها ما هو عاجل ومنها ما هو آجل، أما النعم العاجلة فمنها استغراقهم بالمشاهدة عما قطعهم عن طمعهم وعادتهم، فلم يشعروا بما يجري على أبدانهم ولا بما حواليهم، وحتى إنهم من شدة استغراقهم لعظم المشاهدة لا يشعرون أيضاً بما في محاريبهم، ويكون أحدهم قد صلى فيه عشرين سنة وأكثر، كل ذلك لاستيلاء سلطان الهيبة والعظمة والاحترام على قلوبهم وما هم فيه، مستغرقون من لذة المشاهدة وعظم المراقبة.. ثم ساق كلاماً طويلاً إلى أن قال: وقد قال أحمد بن سعيد الدارمي: صلى أبو زرعة في مسجده عشرين سنة، فلما كان في بعض الأيام قدم عليه قوم من أصحاب الحديث، فنظروا فوجدوا في المحراب الذي يصلي فيه كتابة، فقالوا: ما تقول في الكتابة في المحاريب، فقال: قد كرهه قوم ممن قد مضى، فقالوا له: هذا في محرابك كتابة أما علمت بها! فقال: سبحان الله! رجل يدخل على الله عزَّ وجل، ويقف بين يديه جلَّ جلاله، هل يدري ما قدامه. انتهى، وهذا القدر كافٍ من النقل، في أحوال العارفين من أهل الوصل، ومن شاركهم في هذا الفصل ـ نفعنا الله بهم ـ وهو المراد بقول سيدنا وشيخنا الناظم ـ نفع الله به ـ في الشطر الثاني من البيت: (ورزق التالي من الله القبول) أي التابع لهم في سلوكهم، حتى يحظى بوصولهم، ثم قال قدس الله روحه:

وبعد حمدي والصلاة والسلام على النبيْ المختار مصباح الظلام
قصدت نظم سندي إلى النبي كما به صح اتصال نسبي

أي بعد ما تقدم لي من الحمد والصلاة والسلام على النبي ﷺ، اقتداءً بالكتاب وعملاً بما صح عن سيد الأحباب، البدء بذلك في كل خطاب وجواب، ورسالة وكتاب، قصدت في هذا النظم ذكر انتسابي في سلك أولي الوفاء والعزم، تبركاً وتيامناً بذكر أسمائهم الكريمة وبعض أوصافهم العظيمة، وحفظاً لأسانيد نسبي المعنوي الروحي، الذي أوصلته إليَّ يد المكارم والفضل بالإمداد الشبوحي، والإرشاد الفتوحي، والإسعاد المنوحي، فحفظ الإسناد من حفظ الوداد، لآباء الروح والأجداد، الذين بهم سعادة الآباد، وقد مر أن الشيخ أبو الروح، وأن من لا شيخ له يراعي دينه وقلبه ويحميها من الأسواء، والعلل والأدواء، فهو دعيٌّ وشيخه إبليس، قياساً على أن من لا أب له يحمي جسمه وماله من الآفات ومواقع الهلكة فهو دعيٌّ أيضاً، وتربية كل منهما على قدر ما هو متعلق به من الفضيلة، وبحسب شرف المقصد تشرف الوسيلة، فأراد سيدنا وشيخنا الناظم ـ نفع الله به ـ لهذا الغرض ولما سبق في خطبته، إثبات إسناد نسبه المعنوي في هذه المنظومة، المتصل مع نسبه الحسي بالعنعنة المعلومة، بالسيد الأصل الأول في الأرواح، والفصل الآخر في الأشباح، شفيع الأمم محمد المصطفى ﷺ، فأما النسب الأول المعنوي فهذه السلسلة معقودة لفهمه وشرحه، منظومة لبيان فتحه، وأما النسب الثاني الذي هو من فضل الوهاب أفخر الأنساب، وفي الدارين أنفع الأسباب، فلنذكره في أول ترجمته ليتم شرح هذا البيت، لأن ذلك متعيّن من حيثيتين: بيان ما في المتن، وما هو متعارف عند أهل التواريخ والتراجم ذكر نسب المترجم له، لكن نقدم على ذلك جملة في فضل هذا النسب الشريف، الصحيح بالإجماع والاتفاق والتواتر، وما ضمه إليه المتصفون به من كل مقام وحال فاخر، حتى صار منهم فضل الشرفين ممتزجاً، وأحدهما في الآخر مندرجاً، وخاتمة فيما يطلب ممن أنعم الله عليه بهذه النعمة، من القيام بشكرها وغير ذلك مما يتعلق بفوائد هذا المعنى، وما عليه يترتب ومنه يبنى، **فأقول**: إنه ورد في فضل أهل البيت آيات وأخبار وآثار، خارجة عن الانحصار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وآية المباهلة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ

﴿أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾ الآية [آل عمران: ٦١]. وقال ﷺ: «ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببي ونسبي»، وقال ﷺ: «ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع، إن كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي، وإن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة». قال عمر رضي الله عنه: فتزوجت أم كلثوم لما سمعت من رسول الله ﷺ يومئذ، وأحببت أن يكون بيني وبينه سبب ونسب، ولما خطبها إلى علي اعتلَّ بصغرها وقال: إني أعددتها لابن أخي ـ يعني جعفراً ـ فقال: والله إني ما أردت الباءة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»، ذكر هذا مع أحاديث أخر في المشرع الروي في مناقب بني علوي.

وذكر في مقدمة الكتاب المذكور فضل الرحم والقرابة والآل، وقريش وبني هاشم وبني عبد المطلب، وأهل البيت والعترة والذريّة، وذكر مدلول ذلك كله لغة واصطلاحاً، وما يتعلق به من الفضائل والأحكام، فإن من خصائصه ﷺ أن أولاد بناته ينسبون إليه نسبة صحيحة نافعة في الدنيا والآخرة، وأن الأئمة الفقهاء والعلماء اعتبروا ذلك في الأحكام الشرعية كالوقف والكفاءة والوصية، وأن الولد يتبع أباه في النسب إلا أولاد فاطمة ـ رضي الله عنها ـ وحدها، للخصوصية الثابتة عنه ﷺ، وصح أنه ﷺ قال: «أولادي من علي»، ونقل أيضاً عن الشيخ ابن حجر الهيتمي ـ رحمه الله ـ أنه قال في باب الوصية من التحفة: والشريف المنتسب من جهة الأب إلى الحسن والحسين، لأن الشرف وإن عم كل رفيع إلا أنه اختص بأولاد فاطمة ـ رضي الله عنها وعنهم ـ عرفاً مطرداً. انتهى، قال في المشرع: ومثله السيد هو في الأصل من يفوق أقرانه، وخصه العرف بأولاد الحسين ـ رضي الله عنهما ـ في جميع الجهات الإسلامية من غير نكير. انتهى، ثم ذكر بعد النقل عظم الانتساب إليه ﷺ وكبير حرمته، وفائدة نفعه في الدنيا والآخرة، وأنه من النعم الوهبية، وختم تلك المقدمة بخاتمة تشتمل على ثلاثة مقاصد:

الأول: طلب تأكد القيام بالأحكام الشرعية، والاعتناء بتحصيل علوم الشريعة والتحلي بالأخلاق النبوية، والتخلي عن الأخلاق الدنية، على أهل البيت خاصة وعلى سائر الناس عامة، مع ذكر دلائله وسنيِّ فضائله، من الكتاب والسنة وأقوال

العلماء والحكماء، وسيأتي في الخاتمة ـ الموعود بها شرح آخر هذا البيت ـ نقل شيء من ذلك ومن غيره.

الثاني: ذم الفخر بالآباء والأحساب والاعتماد على فضلهم، وسيأتي التعرض لبعضه أيضاً.

الثالث: أنه ينبغي لكل أحد أن يكون له غيرة على هذا النسب العظيم، والاعتناء بتصحيحه وضبطه، ونفي الأغيار عن تلطيخ محاسنه، ودفع الأغمار عن الارتقاء إلى أعلى قبته، وادعاء الدخول فيه ومساهمة أهله في الاسم والرسم بلا سبب ولا نسب.

ثم بعد ذلك شرع في الباب الأول في نسبهم الكريم، وتنقلهم في الأقاليم واستقرارهم بمدينة تريم، فعليك بمقدمة هذا الكتاب المذكور إن أردت التفصيل في ذلك، وشرح دلائله وتفريع مسائله فإنه جامع لكثير مما هو مفرق من الفوائد والتعاليق، يعرف ذلك من وقف عليه، ونلخص هنا ما تيسر من ذكر صحة هذا النسب العظيم، وشهرة المنتسبين إليه في جميع الأقاليم، مع الإيجاز. وصحة نسبهم الطاهر، البارز في أعظم المظاهر، لا يحتاج إلى دليل كما قال البديع:

أراك علـى شفـا خطـر مهـولٍ ... بما أودعت رأسك من فضول

طلبـت علـى تقـدمنـا دليـلاً ... متـى احتـاج النهـار إلـى دليـل

لكن في ذكر الدليل تحصيل مطلب الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكل محب صادق أو ذوي قلب عليل، ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

قال السيد الشريف محمد بن أبي بكر الشلي المذكور في كتابه المشرع المشهور: اعلم أرشدنا الله وإياك للهداية، وأنقذنا من رزيات الغواية، أن نسب الأشراف بني علوي العريق، مجمع عليه عند أهل التحقيق، متواتر عند أرباب التوفيق، مشهور عند العلماء الأعيان، مذكور في كتب أهل هذا الشأن، وقد اعتنى ببيانه، وواضح حججه وتبيانه، جمع كثيرٌ من العلماء، وجم غفير من الفضلاء، لاسيما السيد الجليل علي بن أبي بكر، والإمام المحدث محمد بن علي بن علوي خرد، فإنهما أطلقا سنان القلم في هذا المجال، وأطالا فيه من الاستدلال، والحامل

لهما على بسط المقال، مع أنه أشهر من الشمس وقت الزوال، وأوضح من البدر ليلة الكمال، خوف إنكار حاسد متغافل، وغبي جاهل، أو أن ينكت بخبث طبعه في خفا، ويثقب بظفر حسده جلامد الصَّفا.. إلى أن قال بعد سياق كلام رائق عال، فائق المنوال: ولا حاجة لنا بالتطويل، في هذا القبيل، فإنه أشهر من أن يشهر، وأوضح من أن يسطر عند من سلك محجة الإنصاف، وأظهر حجة الحق التي هي أكمل الأوصاف، وقد ذكر علماء الفن حكاية تشير إلى تفاصيل أصله، ويدل عليه بمختصر القول وفصله، وهي أن السادة بني علوي لما استقروا بحضرموت أراد بعض أئمة ذلك الزمان أن يؤكد تلك النسبة المحمدية، والوصلة الأحمدية، فطلب منهم تصحيح نسبهم الشريف، وتحقيق شرفهم المنيف، بحجة شرعيَّة وأدلة مرضية، والظاهر أن الحامل له بعض من عنده نزغة أباضيَّة أو شغفة شيطانية. فسافر الإمام شيخ الإسلام الحافظ المجتهد، أبو الحسن علي بن محمد ابن جديد إلى العراق، وأثبت نسبهم وأشهد على ذلك نحو مائة عدل ممن يريد الحج، ثم أثبت ذلك بمكة المشرفة، وأشهد على ذلك جميع من حج من أهل حضرموت، فقدم هؤلاء الشهود، في يوم مشهود، وشهدوا بثبوت نسبتهم المحمدية وسلسلتهم النبويَّة، وجرت في ذلك اليوم أشياء أعجب بها كماته، وسلم الفضل لهم حماته، فعند ذلك انقشعت سحب الأوهام، وتبلجت غرة الشرف وأميط عنها اللثام انتهىٰ من الكتاب المذكور. وقال في (البرقة) للشيخ علي بن أبي بكر، بعد إيراده نسبة إمام هذه الطريقة العلوية، واتصاله بسيّد الخليقة، وهو سيدنا الأستاذ المقدم، الفقيه المقدم، محمد بن علي باعلوي ـ رضي الله عنه وعنهم أجمعين ـ فقال فيها ما صورته: هذا النسب الطاهر المسلسل المتصل بسيد المرسلين، هو ما حققه الأئمة الأجلاء، وأتقنه الصفوة الأولياء وأجمع عليه القدوة العلماء، وذكروه في تواريخهم وطبقاتهم، وكتبهم وتواليفهم[1] ومساطيرهم، ومرقوم إجازاتهم ورسائلهم وفتاويهم، ومكاتباتهم ومقالاتهم نظماً ونثراً، بحضرموت والشحر وظفار واليمن، والسواحل ومكة والمدينة والبصرة.. ثم ذكر

---

(١) أي تآليفهم.

من أعيان تلك الجهات، جماعات من أئمة العارفين الثقات، وذكر بأنه صح بالنقل الصحيح عن المحققين، الأثبات، أنه اجتمع في مدينة تريم في وقت واحد ثلاثمائة مفتي، وبلغ الصف الأول في صلاة الجمعة كله فقهاء، وكلهم مقرون لهذا النسب محترمون له، منزلون بنيه في أعلى الرتب، وغيرهم من باقي علماء حضرموت وصلحائها، والهجرين ودوعن واليمن، والشام والعراق وغيرها من أئمة الأعصار والأمصار شرقاً وغرباً، هذا ما ذكره في البرقة وبعضه بالمعنى، ولا يخفى ما في فوائد إثبات النسب من العوائد على بنيه وعلى المسلمين، فجزى الله المجتهدين فيها خيراً وجعل سعيهم مشكوراً.

قال بعض العلماء: واختلف الأئمة أيماًّ أفضل شرف العلم، أم شرف هذا النسب النبوي؟ فذهب جمع إلى تفضيل الثاني، قالوا لأنه ذاتي والأول عرضي، ثم رجح الأول. وقد وقفت على نقل معزوٍ إلى سيدي العارف بالله عبد الرحمٰن بن مصطفى العيدورس باعلوي ـ قدس الله روحه ـ يتضمن صورة مناظرة بين القائل بتفضيل شرف العلم والقائل بشرف النسب، ومن جملتها أن القائل بشرف النسب أورد على القائل بشرف العلم عليه، بأنه إذا جُنَّ الشريف هل يسمى شريفاً أم لا؟ فقال له: نعم يسمى شريفاً، قال له: فالعالم إذا جُنَّ لا يسمى عالماً، فحينئذ قامت الحجة واتضح الفرق بين الذاتي والعرضي، وهذا الخلاف مع فرض أن الشرف الذاتي عارٍ عن العرضي، والكل فضل الله تعالى.

واعلم أن إطلاق اسم العلوية في العرف والاصطلاح الخاص، على كل من ينسب إلى سيدنا الإمام علوي بن عُبَيد الله بن أحمد بن عيسى المهاجر إلى الله شرعاً واصطلاحاً لا لغة، فيجيء فيه ما في أحكام الوقف والوصية ونحوهما في حق الشريف والسيد بأنه صار خاصاً بأولاد الحسين، وإن كان في الأصل أنه يطلق ذلك على كل رفيع وعلى من فاق أقرانه، فكذا هنا فإن العلوي يطلق لغة على كل من ينسب إلى من يسمى بعلي، ثم خصص اصطلاحاً بكل من ينسب إلى أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ثم خصص ثانياً وأطلق على كل من ينسب إلى علوي بن عبيد الله، إذ لم يبق من ذرية المهاجر إلى الله تعالى سيدنا

أحمد بن عيسى إلا أولاد علوي المذكور، فأطلق هذا الاسم عليهم، وبقية من ينسب إلى سيدنا علي وسيدنا العباس يطلق عليهم أسماء أخرى خاصة بهم، وهذا سيدنا علوي بن عبيد الله له أخوان، أحدهما: بصري وهو شقيق علوي، ولد بالبصرة وكان طويل الباع في العلوم واسع الرواية، وله ذرية مشهورون بسعة الرواية، وكان الغالب على ذريته العلوم الشرعية، وكان لهم حافتان في مدينة تريم، حافة[١] ديار آل العيدروس بقرب مسجد العيدروس وحافة مسجد الحبوظي، والثاني: الإمام جديد بفتح الجيم وبمهملتين بينهما تحتيّة، سمي بذلك لأنه ولد بحضرموت، وسمي جديداً إشارة إلى أنه مما تجدد لوالده من الأولاد بعد سفره، وأمه أم ولد، كان عالماً عاملاً، نبيل القدر سائر الذكر، من أعلى أهل عصره إسناداً، وأرفعهم في الأصلين عماداً، أخذ عن والده عبيدالله وأخويه علوي وبصري، وتأدب بهم وسمع خلائق لا يحصون بحضرموت واليمن والحرمين، والحسا والعراق وظفار، وكان على فضله متفنناً في علوم الأدب مع التقوى والورع التام، وله ذرية اشتهر منهم جماعة بالعلوم والمعارف، وكان الغالب عليهم التفنن في سائر العلوم والاشتغال بأنواع العبادة، وكانت حافتهم المخصوصة بهم عند مسجدهم المعروف الآن بمسجد بروم. قال في (المشرع الروي): ولم أقف على تاريخ وفاته ولا وفاة أخويه علوي وبصري، وتوفي الثلاثة بقرية سمل بضم المهملة وفتح الميم، وهي على نحو ستة أميال من مدينة تريم، وما يعرف الآن إلا قبر علوي، وقيل إن جديداً انتقل ببيت جبير، وكانت رئاسة العلم والفضل في الديار الحضرمية لبني بصري، ثم انقرضوا في أثناء القرن السادس وانتقلت الرئاسة لبني عمهم جديد بن عبيد الله، ثم انقرضوا على رأس المائة السادسة:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام

ولم يدرك لهذين القبيلتين شيءٌ من العمائر والبنيان، لتقادم الأزمان ودوران الدوران، فرحم الله تعالى تلك الأرواح الطاهرة، ومتعها بالنظر إلى وجهه في دار الآخرة، واختص الذكر المخلد والثناء المنضد، ببني علوي بن عبيدالله بن أحمد، فطبقوا الأرض، وعم نفعهم الطول والعرض، ذكرهم باقٍ على صفحات الزمان، معلومٌ عند القاصي والدان. انتهى المقصود من المشرع الروي.

---

(١) المراد بالحافة المحلة أو الحارة.

وقد تقدمت الإشارة إلى علو مقامهم وشهرة فضلهم، وخصوصيتهم عند الخاص والعام وفي جميع بلاد الإسلام، مع أن طريقهم المثلى ويدهم الطولى في طلب الخمول والتستر، وعدم الشهرة ما أمكن وما وجدوا إليه سبيلاً، كما هو المعروف منهم والمنقول عنهم، قال المجدد لعلومهم والمحيي لرسومهم الشيخ عبد الله الحداد رضي الله عنه: لا يزال في كل زمان من آل أبي علوي أولياء، إلا ما بين ظاهر أو خامل، ولا يكون الظهور إلا لواحد منهم والبقية خاملين، إذ لا حاجة إلى ظهور اثنين أو ثلاثة من بيت واحد وبلد واحد. وقال أيضاً: السادة آل أبي علوي غالب حالهم الخمول، ولا يظهر منهم إلا واحد يسلمون كلهم الأمر إليه ويمدونه بالدعاء، وهم في حالة الخمول فيبقى ذلك الواحد ظاهراً يعرف من بينهم. قال الراوي عنه وهو الشيخ أحمد بن عبد الكريم الحساوي ـ رحمه الله ـ: فقلت: وما السبب في كون الصالحين يخملون في تريم ويظهرون في غيرها؟ فقال: لكثرتهم فيها، فلو كان في بلدة أربعون مخزناً ـ أي دكاناً ـ يباع فيها المسك هل لا تراه فيها رخيصاً؟ أفيكون مثل بلدة لم يكن فيها إلا مخزن مسك واحد، وقد كان في وقت الشيخ عمر المحضار في مقامه أربعون من آل باعلوي، منهم عشرون خلفه وعشرون أمامه، وقد كان في وقته سريع الانتقام، كثير الأخذ من المجترئين المتعدين لكنه قال: ما دعوت على أحد قط، وإنما إذا أغضبني أحد بقي في نفسي اشتحان عليه، لم يزل ذلك حتى يموت، ولم يظهر من أولئك الذين في مقامه شيء من هذا. قال الراوي المذكور: وسألته عن معنى (عشرون خلفه وعشرون أمامه) فقال: وهل أحد يدري بهذا، إنما هي أسرار، وإن كان شيء يكون عشرون معروفين ظاهرين، وعشرون خاملين لا يعرفون بأنهم في تلك المرتبة، وهم يدعون للآخرين ويمدونهم. ومما نقله سيدنا العارف بالله تعالى الشيخ محمد بن زين بن سميط في (المناقب الصغرى): قال رضي الله عنه: لا يبعد أن يكون لمشايخ آل أبي علوي وأكابرهم رتبة ومزية ليست لغيرهم، وفضيلة على من سواهم من المشايخ، لما كانوا عليه من الخمول والضعف، وعدم الشهرة وانتشار الصيت والذكر، مع عظم القدر وجلالة الحال بخلاف غيرهم. انتهى، وأما طريقهم المثلى فستأتي ذكر ما اختصت به من الحقائق، وتميزت به على جميع الطرائق، عند قول سيدنا الناظم قدس الله روحه:

أخـذت عـن مشـايـخ عظـام وعـارفيـن فُضـلا كـرام

وبخصوصية طريقهم وصفاء مشربهم، وكمال أتباعهم، وعظيم أخلاقهم وحسن سيرهم، وغير ذلك من أوصافهم الدالة على حقيقة وراثتهم لجدهم المصطفى ﷺ، أجمع الناس شرقاً وغرباً على فضلهم وخصوصيتهم على سائر أهل البيت النبوي، من أولاد الحسنين وغيرهما من حيث الإجمال والإطلاق.

قال سيدنا الإمام حامد بن الشيخ عمر حامد باعلوي ـ قدس الله سرهما ـ في مكتوب له إلى بعض من التمس منه الأخذ للطريقة العلوية: وهم عترة أشراف سنيون حسينيون:

من تلقَ منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

وكثير منهم انتهوا وبلغوا رتبة الاجتهاد، بل وجملة من أسلافهم وصفوا بأنهم حازوا رتبة الصديقية الكبرى، وهم المتمسكون على الكتاب والسنة العاضّون عليها بالنواجذ. وقال نفع الله به: والحقيقة أن الاتصال بالنبي ﷺ مع التمسك بالسنة والجماعة نعمة عظيمة، لا يتقدم عليها إلا نعمة التوفيق لنعمة الإسلام:

فـالحمـد لله شكـراً علـى نعـم منـه تتـرى
نحمـده سـراً وجهـراً وبـالغـدايـا والآصـال

فكل ما نقل من الثناء عن أهل بيت رسول الله ﷺ خصوصاً وعموماً، عن السلف الصالح والخلف الفالح، يدل على ممن صدر منه على رتبته في الدين، وكمال معرفته في اليقين، غير أن المسألة على ما سبق يحسن فيها الاختصار وقبض اللسان، والسعة من باب السر والجنان، ومما نقل عن بعض علماء تريم الجامعين للعلمين: خرجت مني كلمة حمدت الله عليها، قلت: «من لم يحب آل أبي علوي ما فيه خير» واشتهرت عن سادتنا وتداولوها، واستدلوا بها على ولايته وسعة معرفته بالله تعالى، والرجل القائل اسمه فضل بن عبد الله بافضل، توفي ببندر الشحر، له مشهد فيه ظاهر مقصود، وهو من فقراء بيت صلاح وعلم بتريم، يميزون ويجلون، ويتأدبون ويحترمون لآل باعلوي بتريم، وكم وكم من أمثال هذه الكلمة بالعمل والفعل والإجمال. انتهى، وقوله نفع الله به: (غير أن المسألة على ما سبق يحسن فيها

الاختصار)، أي كما قرر أنها كمسألة الروح ومسألة القدر، كلما طال فيها البسط والبيان زاد فيها التوقف والإشكال، ومما يشير إلى معنى ذلك، ما وقع لي مع سيدي العارف بالله تعالى شيخ بن محمد الجفري باعلوي نفع الله به، وذلك أني عجزت وصدرت أبياتاً لمصطفى الخلي، ثم ذيلتها متلخصاً في مدحه، فلما سمعها زاد فيها أربعة أبيات، ومنها أول التذييل وهو قوله نفع الله به:

والجفر علم لأهل البيت قيل بدا ... لعلي أدركه بالعجز مروي لي

فهو رضي الله عنه لبعد غور مدركه وسعة فهمه، أراد بذلك أن مدح المادح لأهل البيت ـ ولا سيما خواصهم ـ بنظم أو بنثر، لا يبلغ كنه ما هم منطوون عليه من الأسرار الإلهية، ومثل لذلك بمثال لا يدرك ما عناه به إلا الفطن اللبيب، وهو أنه لما كان علم الجفر من علوم أهل البيت وأثر من آثار أسرارهم، وهو لا يُعلم إلا منهم، كأنه لمح أن خصوصياتهم ذاتاً وصفاتاً لا يطلع على حقائقها ولا يدرك كنهها ـ كعلمهم هذا ـ إلا بالعجز، كما قال الصديق الأكبر رضي الله عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك، فكذا من صدق بعلومهم وأسرارهم، وما خصوا به من المواهب، صارت كأنها مروية له، والتحق بهم بالتبعية بواسطة التصديق، كما قال أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه: التصديق بعلمنا ولاية، وقال سيدنا الشيخ الأستاذ حامد بن عمر حامد باعلوي نفع الله به: ولا خفاء أن صفة الذات وفضيلتها، وشرفها لمن سبقت له سابقتها، لا يوصل إليها بالكسب ولا بالجذب، إلا بالالتحاق والتبعية والحقيقة، كما ورد: «سلمان منا أهل البيت» ونحو ذلك. انتهى، وقوله (ونحو ذلك) أي كقوله ﷺ: «المرء مع من أحب ومن أحب قوماً فهو منهم»، وليحذر المحب لهم أو غيره ممن له رئاسة دينية أو مرتبة علية، من ادِّعاء المضاهاة والمماثلة لأهل البيت النبوي، لأن كل منصب فاخر، وعلو ظاهر، فقد صاح لهم طائر السعد على فننه، وتبوأ منه في أعلى فننه، وفضيلتهم كالأصل متفرعة عنهم، إذ كل من تتبع واستقرأ أقسام الطرائق وأنواع الزوايا، لقيها مأخوذة عنهم وراجعة إليهم، مع قطع النظر إلى تفرع الشرائع والطرائق، عن حقيقة الحقائق مشرفهم العظيم عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم.

قال الشيخ أحمد الحساوي ـ رحمه الله ـ في كتاب: (تثبيت الفؤاد من كلام الأستاذ الغوث الحداد) نفع الله به قال: وذكر رضي الله عنه أناساً يَدَّعُون أنهم في الفضل مثل السادة، فقال: لا تسابق من لا يُسبق، وإلا وقعت في ثلاث خصال، لأنك لا تدركهم فيحصل عليك: التعب الشديد، والفضيحة بين الناس، والسقوط من منزلتك، التي كنت عليها. انتهى، وقد سمعت سيدي الشيخ عمر بن عبدالرحمٰن البار ـ نفع الله به ـ صاحب المنظومة يحكي أن بعض الأولياء من النساء المتمكنات العارفات، وكانت كثيرة السلب، وكانت من قبيلة كثيرة الأولياء، فإذا أرادت سلب وليّ استغاثت بهم فسلبته، فجاءها بعض أهل البيت النبوي، الشيخ أحمد البدوي أو غيره، فأرادت سلبه فقالت: يا آل فلان، مستغيثة بحزبها، فقال هو: يا أهل بيت رسول الله، فسلبها. قال سيدنا الحبيب عمر لما روى هذه الحكاية: وما آل فلان عند أهل بيت رسول الله ﷺ، وصَدَق رضي الله عنه، فإن من وقف على تواريخهم وطبقاتهم، كالمشرع الروي والغرر والنور السافر، والسلسلة العيدروسية وشرح العينية، والبرقة والجوهر وغير ذلك، علم حقاً أنه لا يسبقهم سابق، ولا يلحقهم لاحق، في العلوم والأعمال الظاهرة، فضلاً عما خصوا به من المواهب السنية، والعنايات والسوابق العلية، التي هي من عين الفضل والرعاية الأزلية، ولا طمع في استقصاء القليل من شواهد فضيلة أهل البيت، ولا ما اختص به آل باعلوي من بينهم من المزايا، والتحف الربانية والهدايا، بل القصد الإشارة بما ذكرناه إلى ما لم نذكره، نفعنا الله بهم في الدارين، ورزقنا محبتهم، وحشرنا في زمرتهم آمين.

خاتمة: اعلم أنا أرشدنا بهذه العجالة، إلى بعض خصوصيات أهل العظمة والجلالة، من أهل البيت النبوي الطاهر، ولا سيما آل أبي علوي ذوي الفضل الظاهر، مع المبالغة في الإيجاز والاختصار، اتكالاً على ما في طبقاتهم الكبار، ثم اقتضى الحال والمقام التنبيه، من حيث رابطة شرائع الإسلام، لعوامهم القاصرين، عن ما تنبه له الفضلاء من أئمتهم العارفين، من الاغترار والاتكال والاعتماد، على ما ورد من تلك المواد، وأما خواصهم فإنهم لم يتكلوا على تلك الفضائل، ولم تزدهم معرفتهم إلا شكراً لتلك النعم الجلائل، اقتداءً بمشرفهم القائل: «أفلا أكون عبداً شكوراً»، فكان قوله لهم فيه أسوة ونوراً، وحاله لهم ظهيراً، إذ ركبوا في

طلب المعالي صعابها، حتى كشفت لهم معاني الحقيقة جلبابها، وكانوا أوائل الركب السائر إلى حضرة المشاهدة، فنالوا كل ما يرتجونه من ثمرات تلك المجاهدة، فلا مقام شريف إلا وهم مصلى سباقه، ولا حال منيف إلا وكانوا فذلكة أعداد وفاقه، ثم إنه ﷺ لم يكتفِ بما يبلغهم من لسان حاله، من شدة مجاهدته وكثرة عبادته وأعماله، إذ لسان الحال أنطق من لسان المقال، بل أرشدهم ﷺ بلسان المقال، خيفةً مما أشرنا إليه من الاتكال، من القاصرين الجهال، ومن أن يكون ذلك الحال، سبباً لتعطيل شريعته في المآل، إذ صح أنه ﷺ قال: «الناس تبع لقريش في الخير والشر، خيارهم لخيارهم وشرارهم لشرارهم»، فاقتضت الحكمة الإلهية، في استمرار التمسك بالشريعة المحمدية، أن أهل البيت أعظم مظهر للشريعة من الأمة، وأظهر وسيلة في إزالة ما غشيها من كدر وظلمة، فيبقى من قصر عن رتبة أولئك الكرام، ولم يرفع همته للعمل بما كانوا عليه آباؤه الأعلام، فهذا المقصود هنا بالتنبيه، وما ظلم من أشبه أبيه، ليعلم أن اعتلاله بتلك الفضائل، واعتماده عليها لا يحصل منه على طائل، فليقتدِ بآبائه المتقين، وليعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ودلائل التنفير عن هذا التقصير كثيرة، وفي محالها مذكورة، قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وفي الآية الأخرى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١]، ففي هذه الآيات من التأييد والتنويه والاعتناء بحقهم الأكيد، ما لا مزيد عليه من الخصوصية على سائر العبيد، إذ أهل البيت داخلون في عموم ما جاء من الترغيب والترهيب، في الكتاب والسنة من أسباب الإبعاد والتقريب، وخصوا بزيادة التنبيه والتحذير، لمزيد شرفهم وعناية مولاهم بهم، كما يعرف ذلك كل حاذق بصير، فإن الملك إذا حذر عن الوقوع في مخالفته في أمر من الأمور، جعل لخاصته مزيد تخويف وتنفير، لئلا يقعوا في ذلك المحذور، إذ مخالفة المحب يزيد بها التنكيل، فحكم الآيتين من هذا القبيل، وقد سمعت سيدنا وشيخنا العارف بالله شيخ بن محمد الجفري علوي ـ نفع الله به ـ يروي حديثاً عنه ﷺ: «التجار هم الفجار يوم

القيامة»، فقال له بعض التجار من الأشراف العلويين: وإن كان شريفاً؟ قال: إذا كان شريفاً كان فاجرين. قال ذلك أخذاً من هذا المعنى، وهذا الحديث وارد فيمن اتجر وفجر، وأما من اتجر واتقى فله ثم أعظم مفخر. وأما الأخبار فقال ﷺ: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلاها»، وقال ﷺ: «يا بني هاشم لا يأتِ الناس يوم القيامة بالآخرة يحملونها على صدورهم وتأتون بالدنيا على ظهوركم، لا أغني عنكم من الله شيئاً»، وقال ﷺ: «إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي وليس كذلك، وإن أوليائي منكم المتقون من كانوا وحيث كانوا»، وقال ﷺ: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».. إلى غير ذلك من الأحاديث. قال في خاتمة مقدمة المشرع لما أورد هذه الأحاديث وغيرها: فإن قلت: هذه الأحاديث تعارض الأحاديث السابقة في فضائلهم، قلت: لا تعارضها، لأنه ﷺ لا يملك شيئاً لا نفعاً ولا ضراً، ولكن الله تعالى يُمَلِّكُه نفع أقاربه، بل وجميع أمته، بالشفاعة العامة والخاصة، فهو لا يملك إلا ما يُمَلِّكُه الله تعالى، وإليه يشير الاستثناء في قوله: (غير أن لي رحماً سأبلها ببلاها) أي أصلها بصلتها، وكذا قوله ﷺ: (لا أغني عنكم من الله شيئاً) أي بمجرد نفسي من غير ما يكرمني الله به من شفاعة أو مغفرة ونحو ذلك، واقتضى مقام التخويف والحث على العمل، والحرص على أن يكونوا أوفى الناس في باب التقوى وخشية الله تعالى.. ثم أطال في ذلك وفي تأويلات أخر نقلها عن العلماء. وهنا فائدة عظيمة الموقع في هذا الباب، ذكرها سيدنا الإمام المجدد، غوث العباد الشيخ عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ في (الفصول العلمية) في أثناء فصل في ذم المدح والثناء، ولا سيما المبالغة فيهما، وفي ذم الاغترار بذلك، قال رضي الله عنه بعد كلام حسن: ومن قال أو ظن أن ترك الطاعات وفعل المعاصي، لا تضر أحداً لشرف نسبه أو صلاح آبائه، فقد افترى على الله الكذب وخالف إجماع المسلمين، ولكن لأهل بيت رسول الله ﷺ

شرف، ولرسول الله ﷺ بهم مزيد عناية، وقد أكثر على أمته من الوصية بهم، والحث على حبهم ومودتهم، وبذلك أمر الله تعالى في كتابه في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣]، فعلى كافة المسلمين أن يعتقدوا حبهم ومودتهم، وأن يوقروهم ويعظموهم من غير غلو ولا إسراف، ثم إن من كان من السادة أهل البيت، على مثل أو قريب من سير سلفهم الصالح وطريقتهم المرضية، فهو إمام يهتدى بأنواره ويقتدى بآثاره، كآبائه المهديين، فإن منهم الأئمة المقدمين، مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ، ومثل جعفر الطيار وسيد الشهداء حمزة، ومثل حبر الأمة عبد الله بن العباس، وأبيه الإمام العباس عم رسول الله ﷺ، ومثل الإمام زين العابدين علي بن الحسين والإمام الباقر، وولده الإمام جعفر الصادق، وأمثالهم مِنْ سلف هذا البيت المطهر وخلفهم، وأما من كان من أهل هذا البيت ليس على مثل طرائق أسلافهم الطاهرين، وقد دخل عليهم شيء من هذا التخليط لغلبة الجهل، فينبغي أيضاً أن يعظموا ويحترموا لقرابتهم من رسول الله ﷺ، ولا يدع المتأهل للنصيحة نصحهم وحثهم على الأخذ بما كان عليه سلفهم الصالح، من العلم والعمل الصالح، والأخلاق الحسنة والسيرة المرضية، ويخبرهم أنهم أولى بذلك وأحق به من سائر الناس، وأن مجرد النسب لا ينفع ولا يرفع، مع إضاعة التقوى والإقبال على الدنيا، وترك الطاعات والتدنس بدنس المخالفات، وقد تفطن لذلك جماعة من الشعراء فضلاً عن الأئمة والعلماء حتى قال بعضهم:

لعمـرك مـا الإنســان إلا ابـن دينـه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقـد رفـع الإسـلام سلمـان فـارس ... وقد وضع الكفر الحسيب أبا لهب

وقال المتنبي:

إذا لم تكن نفس الشريف كأصله ... فمـاذا الـذي تغنـي رفـاع المناصـب

وقال آخر:

ومـا ينفـع الأصـل مـن هـاشـم ... إذا كـانـت النفـس مـن بـاهلـه

والكلام في أولاد الصالحين مثل الكلام في أهل البيت النبوي، بمعنى أن من كان على مثل حال سلفه، فهو صالح مثلهم يعظم ويتبرك به، ومن كان على الجهل والغفلة فينبغي أن ينصح ويرشد إلى الصواب، ويحترم شيئاً من الاحترام لأجل سلفه الصالحين، وكيف لا وقد قال تعالى ما قال في شأن الغلامين والجدار: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقد بلغنا أنه الأب السابع لهما من جهة الأم، فحفظا له وحفظا به في أمر الدنيا فضلاً عن الآخرة، فاعلم وافهم، وضع كل شيء في موضعه، وآت كل ذي حق حقه، واستعن بالله تسعد وترشد، والأمر كله لله. انتهى من الفصول العلمية.

وقال رضي الله عنه: لا يفتقر من هو من أهل البيت، إلا إن افتقر من الدين، لأنه مدعو لهم منه عليه السلام بعدم الحاجة، زيادة وتأكيداً على ما ضمنه الله تعالى من الرزق العام لهم ولغيرهم، وإذا بطلت صلاة الإمام بطلت صلاة المأموم لأنهم العمدة. وقال رضي الله عنه وقد سمع بعض أجلاء السادة شريفاً يقول: أبي وجدي، فقال له: قع كما جدك، وإلا فأنت سيرة وصورة ولا شيء في المقصورة. انتهى من تثبيت الفؤاد. وقد تعرض ـ نفع الله به ـ لذلك في كثير من قصائده، كقوله نفع الله به بعد أن ذكر جملة من أئمة سلفه:

ثم لا تغتر بالنسب ... لا ولا تقنع بكان أبي
واتبع في الهدي خير نبي ... أحمد الهادي إلى السنن

فقوله (لا تغتر) أي تتكل على النسب وتترك العمل، بل اسمُ بهمتك إلى العلا باتباعه ﷺ قولاً وفعلاً، كما قال بعض أهل الهمم والعزائم:

إنا وإن كنا ذوي حسب ... لسنا على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وذلك أن من شأن أهل الهمم العلية والنفوس الأبية، محبة معالي الأمور كما قال الأستاذ المذكور أيضاً في بعض قصائد ديوانه:

أرى مربع الأحباب قد صار خاوياً ... وفارقه فرسانه وعواتكه
فلله ما هذا الذي قد لقيته ... معرة دهر وطأتني سنابكه

أنـادي قـريبـاً قـد سبتـه حظـوظـه وأدعـو بعيـداً آسـرتـه مهـالكـه
فهــذا غــريــق والأخيـر مثبــط فــأيهمــا تختــاره وتمــاسكــه
ومـا أنـا بـالمختـار زهـواً بنفسـه ولكننـي أهـوى الجميـل وسـالكـه
أحـن إلـى العليـاء وقـد حـال دونهـا فـوارس سلطـان الهـوى وفـواتكـه

وفي الأخرى يقول بعد أن ذكر أحوال سلفه ومجاهداتهم وعظيم أخلاقهم:

سـأبكـي عليهـم مـا حييـت بعبـرة لها مدمع في الخد يشهد بالثكل
وأحمل نفسي ما استطعت على اقتفا سبيلهـم حتـى أوسـد فـي الـرمـل

وفي الأخرى:

وإنــا علــى آثــارهــم وسبيلهــم ومـا نحـن عـن حـق لهـم بنيـام

فلله دره، ما أعلى همته وأتم إرشاده، وقال القطب العيدروس:

ليس الفتى من يقتدي بـالسالفات إن الفتــى مــن قــال أنــا

وقال سيدنا الشيخ حامد بن عمر حامد نفع الله به، بعد أن ذكر بعض خصائص أهل البيت وفضائلهم: ولا يسلك بهم في الاعتقاد والرجاء لهم وحسن الظن فيهم مسالك غيرهم، وأما هم فالمطلوب منهم اعتقاد ما تضمنته الآيتان من القرآن في نساء النبي ﷺ خوفاً ورجاء: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ۝٣١﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١]. انتهى، وقد نبه الحفظي الحجازي في منظومة له في فضل أهل البيت على هذا المعنى، فقال رحمه الله:

والســادة الأشــراف أجمعــونــا بــالأمــر والنهــي مخــاطبــونــا
وكــل شخــص منهــم مشــرف لكنــــه بشــــرعنــــا مكلــــف
لا يعــذرون عنــد تـرك الـواجـب ولا يبيحــون حمــى المثــالــب
ومــن أتــى ذنبــاً أقمنــا الحـدا عليــــه تطهيــــراً لــــه وردّا
كــالعبــد إن أدّب ابــن سيــده بــــإذنــه قيــده مثــل يــده

ولـم يكـن أهمـل حق الـولـد　　لكنــه قـــام بـــأمـــر السيـــد
فـي شـرعنـا عشـرتهـم مقـالـهْ　　كهيئـة الفصـل وصـولهـا لـه
وظلمهـــم لغيـــرهـــم ينـــزل　　مثـل القضـاء مـن السمـاء ينـزل
وكـل تغليـظ كقـولـه اعملـوا　　ولسـت أغنـي عنكـم فـأجملـوا
فهو كنهي الولد الصالح عن　　عقوقه وهو على خلق حسن

وقال في موضع آخر منها قبل هذا:

محسنهـــم بفضلـــه مضـــاعـــف　　نـــور علـــى نـــور لـــه يـــرادف
وهـو الـذي بـالجهتيـن اتصـلا　　والمعنوي للنسب الحسي حلا
ميراثه بالفرض والتعصيب قد　　أحـرزه مـن خيـر والـدٍ ولـد
مسيئهـــم ففعلـــه مـــذمـــوم　　وذاتـــه حتمـــاً لهـــا التكـــريـــم
ولا يحل هتك عرض من قضا　　ربـي بتطهيـرهـم فيمـا مضـى
ومـن عصـا منهـم فـلا بُـد لـه　　مـن تـوبـة صحيحـة تغسلـه

فهذا ما قصدنا نقله في هذه الخاتمة، تتميماً لما ذكرناه من فضل هذا النسب الكريم والمجد الصميم.

تذنيب في هذا التعريف: اعلم أنَّا لما انتهى بنا الفصل إلى هذا المقام، وقادتنا أيادي الفضل في تقييد هذه الفوائد لبيان ما ذكره هذا الإمام، فلنعود إلى تقييد شرح باقي المنظومة ـ إن شاء الله ـ على التمام، ولنبتدي بترجمة سيدنا وشيخنا الناظم لما قدمناه من التعليل، ثم بذكر مشايخه ومشايخهم إلى انتهاء هذا السند الجليل.

واعلم ثانياً أن المقصود من ذكر المناقب، والتنبيه على شرف المراتب، والمراد بالكرامات وخوارق العادات، إنما هو الحث على سلوك طريق من حصلت له وجرت على يديه، والتمسك بمحبة أولياء الله والاعتقاد فيهم، لينتفع المسلمون والمؤمنون بعضهم ببعض، الناجي يأخذ بيد أخيه، والكل عبيد الله تعالى، وقد حصر ما أراد منهم تعالى في خصلة واحدة فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، ومن شهد أنه الفاعل لكل شيء، وكان من أهل الفضل والعقل، ميَّز الأمور ولم يقع في الأغلوطات التي يقع فيها أهل الإفراط والتفريط من العوام،

والغلاة من الأنام. وهذا كلام جامع للإمام حجة الله على العباد، الشيخ عبد الله الحداد نفع الله به، ذكره عنه فقيره الشيخ أحمد الحساوي، في تثبيت الفؤاد يؤيد ما ذكرناه مع فوائد أخر، قال وقد ذكر شيئاً من مناقب الصالحين: طلب المناقب شأن الصغار، وفراكات المغازل، والكامل إذا سمعها أحسن الظن بصاحبها واعترف له بالفضل، واحتقر في جنبه نفسه، وفيها خصلتان: تغر العامة وتجري السفهاء، فيقول من له أب صالح: هو يكفيني، ولو كفاه لكفى الناس جميعهم النبي ﷺ، لأنه أبو الكل.. ثم ساق كلاماً طويلاً مما يتعلق بهذا المبحث قال في آخره: وإنما المناقب التقوى والزهد والحلم، والصبر والتواضع والخمول، وما عدا ذلك ففتنة. وقال رضي الله عنه: الأمور الخارقة ما هي بعيدة في كرم الله وقدرته لمن أكرمه بها، ولا يعتبره من أفعال الشياطين والعمدة على الاستقامة، وإن ذكر عن أحد الطيران في الهواء فإن الشيطان يطير من المشرق إلى المغرب، في لحظة ولا يفعلها من صح له قدم في الولاية، إلا لضرورة كتقوية مريد، كيف يفعلون ما فيه هوى النفس وهم يجتهدون في قطع هوى نفوسهم. انتهى، وقد مر ذكر الاستقامة في مواضع من هذا الكتاب، وقد عفت في هذا الزمان رسوم الاستقامة ودرست أعلامها، ومضت لياليها وأيامها، ولم يبق إلا آثار في خواص، مستورين عن الأغيار لفساد الزمان، فالله المستعان. اللهم لا تحيينا على غفلة ولا تؤاخذنا على غرة، اللهم اجعل خير أعمارنا آخرها وخير أعمالنا خواتمها وخير أيامنا يوم نلقاك آمين.

وهذا أوان الشروع، وهذا البيت الذي ترتبت على شرحه هذه الفوائد والمسائل، والخصوصيات والفضائل، وذلك على وجه العموم، نعيده ليظهر ما يترتب على شرحه من حيث الخصوص واللزوم، وهو قوله رضي الله عنه:

قصدت نظم سندي إلى النبي   كما بـه صـح اتصـال نسبـي

فهذا البيت كما ذكرنا من حيث الخصوص أيضاً، يتضمن لمعنيين يتعلق بسيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه، وهما ذكر نسبه الحسي والمعنوي، ومحل ذكر ذلك هذا الموضع، لأنه ـ كما قدمنا ذلك ـ راوي رجال هذا السند، وأسُّه

الذي عليه يعتمد، ولأن من شأن الشارح التعرض لبعض مناقب وفضائل الماتن، ولأن ذلك يلزم الفقيه من وجوه كثيرة، وحيثيات أكنتها حبات السريرة، فأقول:

مقدمة في ذكر نسبه وولادته وتنقله في حال بدايته:

أما نسبه الحسي، ومظهر فخره الشمسي، ومنبع شرفه الأسي، وباب فتحه القدسي، فهو السيد الذي برز في حلة الفخار، وتربى في حجور العارفين الكبار، ورضع من ثديهم ألبان المعارف والأسرار، وفطم بحلول نظرهم عليه بعد حيازة جميع الأوطار في كل الأطوار، فصار بحر الحقائق والعلوم، ومحط الدقائق والرقائق والفهوم، وإنسان العين في تحقيق الرسوم، الشريف الإمام الشيخ العارف بالله تعالى والدال عليه، على هدى وبصيرة من ربه، في وسائل قربه ودلائل حبه، الحبيب الإمام ضياء الإسلام، عمر بن الحبيب الولي عبد الرحمٰن، بن الشيخ القطب الغوث خطة الأنوار عمر، بن الإمام الحبر غنية الإسلام عبد الرحمٰن، بن عمر بن محمد بن حسين بن علي البار بن علي بن علوي ـ عرف بشروي ـ بن أحمد ـ الشهير بباحداق ـ بن محمد بن عبد الله بن علوي بن أحمد بن الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي بن محمد صاحب مرباط ابن علي خالع قسم ابن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن أحمد المهاجر إلى الله ابن عيسى بن محمد بن علي العريضي ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وابن فاطمة ـ رضي الله عنها وعنهم ـ بنت رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، فهذا هو النسب الجامع للمكارم والفضائل، والمشتمل على المقاصد من الشرف والوسائل، الحاوي للفخر العظيم، والمجد الصميم ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ وأنشد في العقد النبوي، في فضل هذا النسب العلي:

نسب إلى المختار أفضل من رقى ... نسب سما بنواذخ الأطواد
نسب تسلسل من أصول سرائر ... وعلا العلا بشوامخ الأجواد
وأضاء البلاد مع العباد شموسها ... وبدور حسن نقوة الأمجاد
هم منبع الأسرار معدن نورها ... وبهم يغاث الخلق خير عباد

وقلت معلناً متأسياً بمن أطلق الثناء سراً وعلناً، في شرف هذا النسب الباهر السناء:

نسب بغير الفخر عرف ندّه ... وبغير مد البحر طول مده
ويغتر ضوء الشمس من أنواره ... معنى فيشرف في سباسب حده
وبه البروج تسير في أفلاكها ... سيراً بتدبير لها من عنده
والكائنات تطوف كعبة سره ... ولبيته المعمور حج بقصده
أوليس قال الله: إني خالق ... هذا الوجود لأجله في رفده
هذاك فضل الله يؤتيه لمن ... شاء وليس بجده أو جهده
فاعرف لأسرار الإله ولا تقل ... لو أو لم تصلى بنار بعده
وانشر فضائل نسب من أصله ... منشا الوجود وخلقه من أجله
ومحمد المختار مظهر سره ... وبهائه أيضاً وواسط عقده
فبه تشرفت البطون وفضلت ... وعلا به من قبل شيته حمده
ثم تسلسل من حسين وأمه ... والمرتضى وبمن أتى من بعده
من كابر عن كابر ولكابر ... حتى انتهى لفتى الزمان وفرده
فهم الخيار الطاهرون بحبهم ... قد نال سلمان الوصال بسعده
نسب تقاصرت الخطا عن شأوه ... في فضله أو مجده أو حده
قد زانه الأخيار حسن تناسق ... من كل من يطوي الوجود بحده
يا رب فاحفظنا بهم وتولنا ... بولاية البار المراد برشده
عمر الأخير لنا الظهير بحاله ... ومقاله نعم السمي بجده
وله به فخر ومن أسراره ... سر عظيم لا يحاط بحده
فالحمد لله الذي أولاهم ... نعماً تجل عن إحاطة حده
ثم الصلاة مع السلام لأحمد ... ولآله ولصحبه من بعده
والتابعين لهم على نهج الهدى ... ما سبح الرعد الملظ بحمده

وإلى فضل هذا النسب وشرفه الذي ليس بمكتسب، قال جده الباز الأشهب، يمدح أهل البيت في بعض قصائده، ويذكر ما لهم من الخصوصية، فقال رضي الله عنه:

صغيـــــر القـــــوم منهـــــم سبـــق قطـــب المـــزيّـــة

وفي هذا البيت إشارة إلى تقرير مسألة يقول بها كثير من أهل العرفان، من أجلهم الشيخ الكبير أحمد بن علوان، وهي أن في اللاحق من أهل البيت ما في السابق، وهي تشير إلى معانٍ جليّة وخفيّة، لا نطيل بذكرها.

وقد نظم سيدنا وشيخنا عمر المذكور صاحب الترجمة، سلسلة نسبه في منظومة يتوسل بالمنخرطين في سلكه، والناجين بركوب فلكه، متأسياً بجماعة من سلفه الكرام وأعيانهم الأعلام، من آخرهم شيخه العارف بالله سيدنا شيخ بن محمد الجفري باعلوي، فإن له منظومة في سلسلة نسبه، جعل عليها شرحاً سماه (الكوكب الجليل الرفيع المنير الدري، في نسبة السادة الأشراف بني علوي، لا سيما منهم آل الجفري)، ومن المقدمين عليه صاحب العقد النبوي، وغيرهما ممن يعز حصرهم، وهذه منظومة سيدنا وشيخنا قدس الله روحه:

بـأسمـاء ربـي أرتجي عـالـي الـرتـب وبالمصطفى والمرتضى أبلغ الأرب
بفـــاطمـــة والحسنيـــن تـــوسلـــي وبـالـزيـن والبـاقـر تنكشـف الكـرب
بجعفـر بنـور الـديـن ثـم بنجلـه محمد وعلي نكتفي البوس والنصب
بـأحمـد بعبـد الله تقضـى حـوائجـي وبـالعلـوي أعلـو فيـا نعـم مـن سبب
بنجلـه محمـد ثـم علـوي بنجلـه علـي بمحمـد يـدرك العبـد مـا طلـب
بـوالـد سيـدنـا الفقيـه محمـد علي بالمقدم عالي الشأن والحسب
بـأحمـد بعلـوي بـالعفيـف بـابنـه محمد بأحمد جد لنا بافضل الرتب
بعلـوي معـروف بشـروي بنجلـه علـي كـذا بـالبـار بـالبـر يصطحـب
بنجلـه حسيـن ثـم نجلـه محمـد كذا بشجاع الدين من كادنا احترب
بسيـدنـا الـراقـي إلـى ذروة العـلا وجيه الدنا والدين نجم العدى غرب
وبـالقطـب شيـخ العـارفيـن مـلاذنـا عمر نبلغ المأمول من غير ما ذرب

بصنوي صفي الدين أرجو تخلصي من الكبر والإعجاب والشح والغضب
وبالوالد المخصوص تصفو سرايري وأرقى مراقي العارفين أولي النسب
وبالحسن المشهور بالفضل والندى أنال منال الواجدين بلا تعب
ونسألك اللهم بالآل كلهم نجاحاً وتأييداً ورزقاً بلا سبب
وبلغنا في الخير أقصى مراتب الكملا مصحوبين باللطف والأدب
خليلي مهما ضقت ذرعاً بحادث وخفت من أرباب الرئاسة والحزب
توسل بإخلاص وصدق عزيمة بسادتنا أهل المناقب والرتب
تنال بفضل الله كل مؤمّل وتكفى بحول الله شر أولي الغضب
وصلِّ إلهي كل حين وساعة على المصطفى وآله وأصحابه النجب
وسلم تسليماً كثيراً مباركاً مدى الدهر لا تأتي على عدة الحسب

تمت الأبيات. وهي كما ترى جامعة لكثير من الدعوات، والتوسلات والتحصنات، وقد التمس بعض المتشرفين بهذا النسب المذكور من سيدنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ أن يجيزه في بعض الأوراد المرتبة، فأجازه في بعض الأوراد المنسوبة إلى بعض المشايخ وفي قراءة هذه المنظومة. وقوله نفع الله به (من كادنا احترب) أي فسد دينه أو سلب ماله كما يقتضيه لفظ القاموس، وهي جملة دعائية إما خبرية لفظاً ومعنىً وإما خبريّة لفظاً إنشائية معنى، ومعنى كُلٍّ ظاهر، و(الذرب) إما بضم الذال المعجمة وتحريك الراء وهو فساد الزمان وبذاؤه، أو بفتح الذال والراء مِن أحدَّ السيف إذا ذربه، والمعنى على الأول نبلغ المأمول من غير فساد ولا حصول بذاء من أهل البغي واللسن، وعلى الثاني نبلغ المأمول من غير ذرب حدِّ سيف الزمان وتحامله بالطغيان، والبار لقب جده السابع على المثنى، ولم أقف على سبب تلقيبه بذلك، فإن قلت: فلم جعل في منظومة إسناد الخرقة الابتداء بالأب الأدنى وهو الشيخ، وفي منظومة النسب الابتداء بالأب الأعلى عكس الأول؟ قلت: لأن الأول مقام رواية، فناسب فيه الابتداء بأول رواية ثم الترقي إلى آخر الإسناد، ولأنه مناسب أيضاً لحال السالك المطلوب منه الترقي في المقامات المعنوية والأحوال العلية. وأما الثاني فلأنه مقام استمجاد الكرام،

والتوسل بهم إلى الله في حصول المرام، واستعطاف الآباء والأجداد، بما لهم من وفور شفقة الوالدين على الأولاد، فناسب هنا الابتداء برئيسهم الأعظم وصدرهم المقدم ﷺ، ثم بمن معه في الرتبة والمنزلة ليحصل التدلي بتوالي الإمدادات المتصلة.

ولد نفع الله به آخر جمادى الأولى سنة ستين ومائة وألف بدوعن ببلد القرين، فكان بها كما وصفه بعض مشايخه عين الإنسان وإنسان العين، وقد رأى بعض الصلحاء جده سيدنا الحبيب عمر البار ـ نفع الله به ـ بعد وفاته يقول له: يا فلان قد حزنتم لفقدي وتعبتم لوفاتي، فقال له: نعم يا سيدي، فقال: سيلد لولدي عبد الرحمٰن مولود، يرثني ويكون الخليفة بعدي، فقص هذه الرؤيا على سيدنا الحبيب عبد الرحمٰن فَسُرَّ بها، ونذر لله أن يصوم ثلاثة أيام إذا رزقه الله هذا المولود، فظهرت علامات هذه البشارة في الرؤيا الصادقة في حمله، فكان يشق على أمه المشي من ثقله، وظهر التشقق لذلك في فخذيها، وكانت لا تقوم في مدة الحمل إلا معتمدة على يديها، وذلك دليل على وراثته لجده ﷺ على ما ذكره صاحب (نجباء الأنباء) أن آمنة بنت وهب لما حملت به ﷺ حصل لها كهذا الثقل، وتربى سيدنا الحبيب عمر في حجر والده الوجيه، ولاحظه نظر سيدنا العارف بالله أحمد بن عبد الرحمٰن عم أبيه، فكان يتعاهده من حين الولادة ويشتاق إلى رؤيته، ويستدعي به أحياناً إلى حضرته، ولم يزل ينشق أرج الفضل من تلقاء هذين السيدين، مغموراً برعاية النظرين، وماتا وهو صغير قبل إدراكه سن التمييز، فكفله إخوانه الأجلاء، وعاش في كنف الله الحريز وتحت نظرهم العزيز، ونشأ نشوء المرادين بالعناية، فكان حينئذ يتأدب بآداب أهل الولاية، فأول ما حفظ القرآن العظيم، ثم سلك نهج سلفه القويم، من الاشتغال بالعلم والعمل والإقبال على الله عز وجل، وكان يتردد في تلك الأيام على خاتمة الأعلام، الشيخ العارف بالله تعالى محمد بن يّس باقيس، وقد منحه من ثمرات فوائده ونظرات عوائده، مشاهداً نور الوقار والكيس[1]، وأبصار أهل الفضل والنور، شاخصة بالإشارة إليه، بأنه المخطوب إلى حضرة الله

---

(١) الكيس: يوزن الكيل ضد الحمق.

تعالى والإقبال عليه، وأن له من اسمه عين العناية وميم المحبة وراء الرعاية، وكنت كثيراً أسمع شيخنا العابد العارف بالله عبد الله بن أحمد باقيس يقول: كنت إذا رأيت سيدي الحبيب عمر البار في أيام صغره، رأيت نور الولاية وشعاع سرها يلوح بين عينيه، وكذا الشيخ محمد بن يٓس قد أكثر الاعتناء به، وغيره من صالحي ذلك الزمان وعارفيه، على تفنن واصفيه بما فيه، وذلك دليل على كمال استعداده في بدايته وتمام رعايته، كما قيل: من أحكمت بدايته عظمت نهايته، وذلك لأن النهاية على قدر البداية، وقد حكى سيدي العارف الشيخ الأخ حسن بن عبد الله العمودي أن سيدي الحبيب عمر صاحب الترجمة ـ نفع الله به ـ رأى في المنام أن له قميصاً أبيض وأن فيه بقعة ليست كذلك، فقصَّ هذه الرؤيا على الشيخ محمد بن يٓس باقيس المذكور، فقال له: ربما يشغلونك بالخويمة ـ يعني الدنيا ـ فأتاه الطلب، للاشتغال ببعض علائق السبب، بعد أيام، ممن لا تمكنه مخالفة رأيه بالتأخر والإحجام، فسافر إلى بلد نصاب في مظهر الاكتساب، مستتراً بالأسباب، راغباً في نيل ما يترتب على تلك الإشارة، مما باداه من لوائح البشارة، من السعي في مخالفة النفس ومراداتها، واتهامها في عباداتها وعاداتها، إذ تطهير النفس العدوة، لا يحصل إلا بمخالفتها بالفعل والقوة، مع تأهل الأمر له بالسفر للتأديب، واتصافه بسير أهل الباطن العجيب. إذ إخوان سيدنا الحبيب نفع الله بهم ـ المشار إليهم أولاً ـ ثلاثة، وكلهم ذوو استقامة ظاهرة، ومناقب فاخرة، وخيرات متكاثرة، قد حل عليهم نظر جدهم القطب في حياته، فساروا على منهجه القويم بعد مماته، ولوالدهم مزيد نظر ورعاية من أبيه، كما هو مشاهد منه وفيه، قال بعض أهل السر من ذويه: قول سيدنا الحبيب عمر نفع الله به في الحال والمآل في قصيدته:

وجيه هبت ضحى الاثنين ريح الشمال وجمل أحوالنا وإخواننا والعيال

وخص دحمان واجمعنا على سَرْحال

فيه إشارة إلى خصوصيته، وإلى أن القيام برسوم طريقته، وتعريف حقيقته، يكون مظهره بأولاد سيدي الحبيب عبد الرحمٰن، وكان سيدنا الحبيب عمر ـ صاحب الترجمة ـ أشار ـ بما سيأتي في خاتمة المنظومة ـ إلى هذا المعنى الذي

ذكره جده نفع الله بهما في قوله: (والوالد المخصوص بالمكانة..) إلى آخر البيت.

والثلاثة المذكورون هم الفضلاء العارفون، سالم ومحمد وشيخنا العيدروس، فأما سيدنا العارف بالله سالم بن عبد الرحمٰن، فقد تجرد للعبادة، وسلك طريق السعادة من صغره، فلم تعرف له صبوة، ولم تذكر عنه هفوة، وقد أخذ عن جده الحبيب عمر وأخيه الصفوة الحبيب أحمد، وسافر بعد وفاتهما ووفاة والده ـ نفع الله بهم ـ إلى الحرمين الشريفين، وجاور بالمدينة إلى أن توفاه الله بها، وأخذ عنه سيدنا وشيخنا الحبيب عمر صاحب الترجمة في الحرمين. كما سيأتي ذكر ذلك فيما ترجم به له عند ذكر مشايخه ـ قدس الله أرواحهم، وأما سيدنا السيد الصالح، الرابح الفالح، جمال الدين المجتهد في طريق أصحاب اليمين محمد، فكان على سيرة مرضيّة وأخلاق محمدية، فكان يتعاطى الأسباب مع التعلق بمسببها، وله فيها مقاصد صحيحة خاصة تزين بمكتسبها، تليق بمكارم أخلاق أولي المروءات، وتلتحق بالباقيات الصالحات، وتدخل في قالب الأعمال اللدنيات، وكان الحبيب محمد هو المشير على سيدنا الحبيب عمر بالسفر إلى نصاب، وله اجتماعات وإمدادات وإشارات وبشارات، من صلحاء الزمان الفضلاء الأعيان، كالشيخ العارف بالله أحمد بن حسن الموقري، وكالعارف بالله تعالى سيدنا الحبيب شيخ بن محمد الجفري، وغيرهما من الأعلام، كأعمامه الكرام، توفي سنة مائة وألف وتسعة وتسعين. وأما سيدنا وشيخنا العارف بالله ربيب العلوم، والمستهتر بذكر الله الحي القيوم، الحبيب عيدروس بن عبد الرحمٰن متع الله الودود به الوجود، فمذهبه ومشربه كأخيه سيدنا الحبيب عمر صاحب الترجمة، الانطواء على الميل إلى التجريد من أول السعي الحميد، ولكن لما كانت الإشارة إليهما من مثل هذا السيد العارف، التي في ضمنها خبايا الأسرار والمعارف، أخذاها بقوة، وكان لهما فيها بجدهما المختار الأسوة، إذ سافر ﷺ متجراً لخديجة إلى الشام، فظهرت بسفره ذلك للنبوة أعلام، وأما هما فحصل لهما بالأسفار الاجتماع بالأئمة الأخيار، واكتساب العلوم النفيسة والآداب، ما حملا به لواء

معارف وأسرار جدهما الأدنى صفوة الأحباب، وتهيآ به للإمامة بفضل مولاهما الوهاب.

ولما توفي سيدنا الحبيب محمد ارتفع عليهما تكليف الإشارة، وبلغا من تهذيب الأخلاق ما لا تحصره العبارة، وخرجا حينئذٍ إلى فضاء التجريد، وتحكم كلٌ للآخر بالذي يريد، فطلعا في سيما الدعوة، كل إلى قصده يعلي، وبدرا في ميدان السباق فإذا هما مصلي ومجلي، وهذا لهما بالنسبة إلى ما في النفس، وصف في الطرد والعكس، وسيأتي لسيدي الحبيب عيدروس المذكور أطال الله بقاه، وأدام ارتقاه زيادة ذكر في مواضع من هذه الترجمة إذ هو وأخوه سيدنا الحبيب عمر صاحب الترجمة، كما قال القائل شعراً:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا　　　نحن روحان سكنا بدنا

ولذلك لم أفرده بالترجمة لذلك، ولأعذار أخر من أظهرها كراهية لما هنالك، ولما ينبي من معنى اتحاد الإجازات الآتية، وما تضمنته من الإشارات التي هي بالمراد وافية، وقد أثنى عليه كثير ممن تحقق بإيضاح أسرار علوم الأشراف، ومنهم الإمام المحقق علوي بن سقاف، قال في بعض زياراته إلى دوعن، في قصيدة يستمجد بها مدد القطب الذي عمر جده الحبيب عمر وذويه، وارثي الأسرار قال في آخرها:

يا أهيل الوفا وأفضل من قد　　　ساد للقرنا والأقطار

هي يا عيدروس يا ذا المزايا　　　والسجايا العظيمة المقدار

يا جليس العلوم يا نعم داعٍ　　　لطريق الرشاد والأذكار

أم المذكورين الشريفة العابدة الصالحة الوليّة الزاهدة، عيشة بنت السيد الشريف أبي بكر بن[1] الجفري، باعلوي قدس الله أسرارهم.

رجعنا إلى ذكر سفر سيدنا وشيخنا الحبيب عمر صاحب الترجمة، إلى بلد نصاب وهي أشبه ببلاد البادية، والأعراب ولذا كان الشيخ محمد بن يّس باقيس، نفع الله به في مدة إقامته فيها، متعلقاً به وحاثاً على خروجه منها شفقة عليه ورحمة

(١) كذا بياض بالأصل.

به، لما يعرف من حاله أنه ربما يتكثف بذلك، أو لا يثبت لما هو متوجه له، مما هو شأن المريد الصادق السالك إذ لا يخفى رتبة المريد في الابتداء، وتوجه العوائق إليه والأعداء، ولكن لما كان سيدنا الحبيب عمر ممن لاحظته عيون العناية، لم يزده ذلك السفر إلا جداً في طريق الهداية، وتطلعاً إلى تحقيق الدراية كما قيل:

وإذا العنــايــة لاحظتــك عيــونهــا ... نــم فــالمخــاوف كلهــن أمــان

وكما قال الفقيه عمر بامخرمة في صفوة الأحباب:

ومن رعته العناية في المجيء والذهاب ... فلا يبالي ومن خانته الأقدار خاب

واجتمع نفع الله به بها بالشيخ العارف بالله تعالى الصوفي، الجامع محمد بن أبي بكر بانافع، فحل نظره عليه بعد أن رأى منه كمال الاستعداد، وانغماسه في نوره الذي فاض منه عليه، وكان يأتي من بلده يشبم إلى بلد نصاب، يتعهده تعهد الأحباب للأحباب، ويمكث عنده الليالي والأيام، ويحصل لكل منهما بالآخر الأنس التام، ولا يبعد في مثل ذلك.

فهرس المجلد الأول

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

(٢)

الجزء الثاني من النصف الأول

من فيض الأسرار شرح سلسلة
الحبيب عمر البار الأخير

تأليف

الإمام الشيخ عبد الله بن أحمد باسودان
نفع الله به آمين

لأنَّ من أشرقت عليه الأنوار الربانيّة، ورعته العناية الأزليّة، قام الكون بخدمته، وتوجه لحرمته، وقد أرسل سيدنا القطب الكبير شعيب أبو مدين قدس الله سره، رابطة الطريق لسيدنا القطب الفقيه المقدم، وسيدنا الشيخ الكبير سعيد بن عيسى العمودي، نفع الله بهما من جهة الغرب إلى حضرموت فوصل رسوله إليهما، وهما غير مستعدين لوصوله، ولا مُشْعِرَيْنِ لما جاءهما به إلا بمجرد العناية الإلٰهية، والسابقة الربانية الأزليَّة، كما سيأتي في ترجمتهما، وسيدنا عمر البار الأخير، صاحب الترجمة، الشهير، له وقائع مع مشايخه كثيرة، من هذا القبيل يبادؤنه بالأسرار، ويغشونه بالأنوار، وقابليته تستلقح بما في معاني أذواقهم ومشاربهم، وتستغنم فرص نفحاتهم، وطلوع شمس لحظاتهم، في مشارقهم ومغاربهم، قال أخوه سيدنا وشيخنا العيدروس نفع الله بهم: زرت أنا والأخ عمر مرة لحضرموت فكنا إذا أتينا لسيدي العارف بالله تعالىٰ حامد بن عمر حامد باعلوي ـ نفع الله به ـ بتريم أرى الأخ عمر يتلبس بحالة كحالة الأنثى، وسيدي الحبيب حامد يتوجه إليه بهمة الذكر الملقح، أشاهد ذلك منهما مشاهدة[١] حسيَّة معنوية، لها أثر في الخارج، يتبين لي عند ذلك سر الولوج والعروج في تلك المعارج، والاندراج في أسرار تلك المدارج، وقد بين سر ما ذكره سيدنا وشيخنا العيدروس، من حال سيدنا الحبيب عمر مع سيدنا الحبيب حامد ـ نفعنا الله بهم ـ الشيخ الإمام العارف بالله تعالىٰ عبد الخالق بن علي المزجاجي، في شرح قصيدة الشيخ الإمام المحقق إبراهيم بن عبد الرحمٰن الناشري، التي امتدح بها السيد الولي العارف بالله محمد بن عبد الباري ـ قدس الله أرواحهم ـ، وللناظم على كل بيت تنبيه موجز بقوله على ما اشتمل عليه من العلوم اللدنيَّة، قال الناظم نفع الله به:

ورمى النسيم إلى أنفاس الصبا ... في نشوة تبري العليل من الكمد

فبين في الشروح معنى هذا البيت، ثم قال بعده: قال الشيخ ـ قدس الله سره ـ في هذا البيت، علم مشاهدة الأثر والتأثير عند تخلق الكثير. هكذا وجدته (الكثير بالثاء المثلثة، والظاهر أنه بالباء الموحدة، لأنه يحصل الأثر في الصغير من توجه

(١) يلاحظ هنا أن المعنىٰ الذي ذكره الشارح المراد منه تبيين حالة التلقي عند الشيخين لا أكثر ولا أقل وقد بين الشارح المعنىٰ المراد من كلامه فيما ذكره بعد ذلك من شرح البيت كالإمام المحدث المزجاجي.

الكبير إليه بالمدد، فالتأثير للكثير والتأثر للصغير، والأثرة من تأثيره واقع عليه، والمعنى أن الكبير من أولياء الله تعالىٰ المتخلق بالأخلاق الإلٰهية، والمتصف بالصفات المحمديَّة، يشهد أثره وتأثيره في الصغير من الرجال، والمراد بالصغير صغير المقام، فإنه من الأطفال عند الأولياء الأعلام، لا من البالغين ذوي الأحلام، فإن البلوغ عندهم إدراك نهاية السلوك، فالطفولية والبلوغية عبارة عن مقامين متفاوتين كتفاوت العلم والجهل، وعلى تقدير أن يكون بالثاء، فالقليل يتأثر عنه الكثير بتأثيره فيه عند تخلقه واتصافه بالإمداد، فإن الحكم للغالب، ووجه دلالة البيت بواسطة نشوئه، التي هي عبارة عن طيبه، وتنشيطه، والأثر هو البراءة من الكمد، والمتأثر كذلك هو العليل، فالأثر والتأثر يكون في القائل، والتأثير يكون للفاعل، وهذا شيء ساري في الوجود، فإنه بين فاعل ومنفعل، فالعالم السفلي منكوح للعالم العلوي، وهو منفعل عما فوقه، والفعل لله وحده سارٍ في الأشياء ورقائقه ممتدة إلى كل فاعل ومنفعل، وإليه يرجع الأمر كله، وهذا مشهود في تجلي الأفعال للمريد الصَّادق، وهذا علم كبير قد دخل فيه أهل الأفكار، وبينوا العاشق من المعشوق في العالم، وفيه علوم أخر عزيزة لا يحل كشفها لأحد، ومرجع الأمر كله إلى الله سبحانه. انتهىٰ كلام المزجاجي، نقلناه مع طوله لما فيه من بيان ما في هذه الحكاية، ولدلالته على أن راويها من أهل الدراية، لا سيما قوله في آخر بعد ذكره لهذا المعنى (وهذا مشهود في تجلي الأفعال للمريد الصَّادق). ثم خرج سيدنا الحبيب عمر من نصاب وقد حصل من نيف بوادي العلوم الذوقية على نصاب، بمذاكرة الشيخ محمد المذكور، ووقوفه معه على الطور، لاقتباس سناء ذلك النور، ولم يجتمع به بعد ذلك إلا مرة واحدة بدوعن، خرج الشيخ محمد لزيارة حضرموت، فسار معه سيدنا الحبيب عمر إلى قيدون، كما أخبرني بذلك، قال: وقصدنا بلد العرسمة، للاجتماع بالسيد العارف بالله تعالىٰ الملامتي عبد الله بن أبي بكر مقيبل السَّقاف باعلوي ولزيارته، فلما وصلنا إلى حضرته هابه الشيخ محمد هيبة عظيمة، وكان الغالب على السيد المذكور السكوت، ولا يتكلم غالباً إلا بالرمز والإشارة، وكأن الشيخ المذكور خاف من السَّلب، قال: فبعد دخولنا ابتهج السيد عبد الله واطَّلع على ما داخل الشيخ محمد منه، فكان مما حفظته من جملة كلامه: (كل وعاء يرشح بما فيه، السمن سمناً

والعسل عسلاً والصبر صبراً ، ومن وقع في سميع بصيرٍ أعطى حقاً وأخذ حقاً)، قال: فحينئذ زال عن الشيخ ما وجده من الخوف والانقباض، قال رضي الله عنه: وقد أنشد في ذلك المجلس هذين البيتين:

بني مغراه هذا القصيدة من قصدها

لها العمرين والعافية تغمد جسدها

قال: ثم خرجنا من عنده فقال الشيخ محمد: قد اجتمعت بكثير من ملامتية سادتنا العلويين، كالسيد عبد الله مشهور، وكلهم أهل كشف وجلالة ونور، وأما هذا السيد فلم أر فيهم مثله، وما هو إلا كالأسد، وهيبته كهيبة سيدي الحبيب حسن بن عبد الله الحداد نفع الله بهم. ثم زار الشيخ الكبير سعيد بن عيسىٰ العمودي وأهل حضرته ـ نفع الله بهم ـ بقيدون، وتوجه الشيخ محمد إلى حضرموت، ورجع سيدي الحبيب عمر إلى دوعن، ولم يجتمع به بعد ذلك. والشيخ محمد المذكور قد أخذ الطريق فيما اشتهر عنه عن سيدنا الشيخ الإمام الحبيب حسن بن عبد الله الحداد، وعن سيدنا الشيخ الحبيب حامد بن عمر حامد ـ نفعنا الله به ـ كما تحقق ذلك وصيته له المسماة (الورد الجامع والتذكير الناجع للشيخ محمد بن أبي بكر بانافع). وكذلك مكاتباته له مذكورة في مجموع المكاتبات، مما يدل على كمال قدره وإشراق نوره، توفي بعد سيدنا الحبيب عمر البار الأخير صاحب الترجمة بنحو سنة، ومما سمعته يرويه من كراماته، أنه أراد أن يعمل ما جاء عن سيدنا القطب عبدالله الحداد نفع الله به، من أنه إذا أتى قارئ[1] راتبه المشهور، بألف من لا إلٰه إلا الله، لا بد وأن يظهر له أمر من عالم الملكوت، قال: ففعلت ذلك مع جماعة، فلما قاربنا التمام دار بنا المحل الذي كنا جالسين به، قال: فسكتنا عن التهليل. وتوفي سيدنا عبد الله بن أبي بكر مقيبل المذكور آنفاً يوم الجمعة ثاني أيام رجب سنة خمس وتسعين ومائة وألف.

ولقد عنَّ لي أن أنشر طيَّ مكنون كلماته، ورشح فحوى عباراته، بما ساقه الله لي من سوانح المعاني، في إيضاح رقم تلك المباني، لما فيها من الإشارة والدلالة، لعظم حال هؤلاء الثلاثة، وبما تحقق به كل على حسب ما قسم له من

---

(١) أي الذي يقرأ راتب الحبيب عبد الله الحداد وهو الراتب الشهير.

الوراثة، فأقول: أما قوله المنثور (كل وعاء يرشح بما فيه. .) إلى آخره، فمعناه الإشارة إلى حالته وحالتهما، فإنهما لما قصداه بكمال الأدب وعظم المشهد، طالبين منه وفور المدد، حسن منه مقابلتهما بإنجاح المطلوب، ومكافأتهما بإدخال حضرة القرب من المحبوب، شكراً لسعيهما واعتناء برعيهما، كنَّى بالرشح عن معنى هذا الشرح، وإذ الرشح الفيض الإلٰهي الساري إلى قلب من له نصيب، على يد أرباب الإدناء والتقريب، وقوله نفع الله به (ومن وقع في سميع بصير أعطى حقاً وأخذ حقاً) معناه إذا ضمتك حضرة عارف بالله، مقرب إلى الله ولي لله، في حال صحوه من السكر، ورجوعه من الجمع إلى الفرق ومن البقاء إلى الفناء، أعطى الأمور حقها ووفاها مستحقها، لأنه سميع لتلقي العبارات، بصير لتلقي الإشارات، يقظان منتبه يصرف كل حاسَّة لما هي بسببه، ولما خلقت من أجله من خدمة مولاه وأسباب المعرفة به، ونفع العباد بالإمداد والإرشاد، كل على قدر حاله، مع الحق والخلق، رحم صغيرهم ووقر كبيرهم، وشكر محسنهم وعفا عن مسيئهم، ينصف من نفسه ولا ينتصف لها، فكيف يتصور ممن هذه صفته صورة انتقام بنحو سلب أو غيره، لا سيما لمن وصل إليه متأدباً مستمداً ولتأثيره مستعداً، وقوله رضي الله عنه (بني مغـراه هذا القصيدة من قصدها) معناه على لسان أهل الإشارة: (يا بني مغراه) يعني أيها السالكين المتعرضين لصيد الأحوال الوحشية، ومقامات الرجال النادة الأهلية، السانحة لهم في أودية حدة الإرادة، وشدة المجاهدة بشبكة كمال الإقبال والتوجه، والتعشق والتعلق والتأله، (هذا القصيدة) التي أطربت أرواح المحبين، ونفثت في روعهم معاني حق اليقين، (من قصدها) أي من لطفها وصفاها، وزكاها ورقاها، إشارة إلى حال هذين العارفين، أي ونظمها في سلك أهل العلوم اللدنيَّة، والمعارف والأسرار الغيبيَّة، حتى صارت محلا للتنزلات الربانية، والفيوضات الرحمانيَّة، فمن أجل ما جمعت من هذه المعارف، واتسعت لتنزل تلك اللطائف (لها العمرين) لدوام نفع عباد الله، والإنفاق من سعة طول الله، ولإحياء طريق الاستقامة، والقيام بحقوق الإمامة، تعرضنا للأرزاق الحسية والمعنوية، كما قال بعض الصوفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]: المراد

بالأكل من فوق الأرزاق المعنوية، ومن تحت أرجلهم الأرزاق الحسية، والعمران عند أهل اللغة ثمانون سنة، أو المراد بالعمر الطبيعي وهو مائة وعشرون سنة، وعلى كلٍ فالمراد به حصول بركة الوقت، في العلوم والأعمال والمقامات والأحوال، لأنهم ذكروا في حديث (من أراد أن يبارك له في رزقه، وينسأ له في أجله. .) إلى آخره، المراد: ينسأ له في أجله إما ببركة العمر ومضاعفة الأعمال، وإما زيادته حقيقة كما قاله سيدنا الشيخ عبد الله الحداد علوي ـ نفع الله به ـ في سبيل الإدكار: وذلك بأن يكون عمره ستين سنة، فإن تصدق بكذا كان عمره ثمانين سنة مثلاً، ويحتمل قوله (بني مغراه) الذين يغرون المريدين بسوارح الأعمال، على سوانح صيد الأحوال، فإذا حصل لهم الفطام والبلوغ التام، تعجب من أحوالهم فحينئذ يقال (هذه القصيدة من قصدها) أي هذه اللؤلؤة من ثقبها ونظمها في سلك عقد السَّادة الصوفية، وقلدها نحر غزال العبوديَّة، ثم بعد الدعاء لمن هذا حاله بـ (العمرين)، الذين فيهما قضاء الغرضين، وسعادة الدارين دعاء بالعافية، التي هي لمن مَنَّ الله عليه بها كافية، (تغمد جسدها) أي تحل فيه ليدوم لصاحبه الإقبال، وتثبت له المقامات والأحوال، ويتصف بصفات الأبطال من الرجال، هذا ما تجرأ به الفقير، على كلام هذا العارف الكبير، رزقنا الله التصديق بعلومهم، وصحبه الرفيق المترسمين برسومهم.

ثم سافر سيدنا وشيخنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ بعد ذلك إلى اليمنيين والحرمين مرات عديدة، وأقام بهما إقامات طويلة مديدة، وحج بيت الله الحرام، وزار قبر جده عليه الصلاة والسلام مراراً أيضا، وسافر إلى البصرة في تلك الإقامات بتلك الجهات، وأخذ بهذه الأقطار، عن كثير من الأخيار، الجهابذة النظار، كما سيأتي ذكر بعضهم عنه، وتفنن في علوم كثيرة من علوم الشريعة وآلتها، على اختلاف تنويعها، وفتح الله بصيرته لتحقيق جميعها، وتلقي السَّمعيات والنظريات منها ببديهة حاضرة، وفطنة باهرة، وإدراك متبادر، وذهن غير فاتر، فجمع ما لم يجمعه غيره من أبناء زمانه، ففاق على أقرانه، وأشار إليه الكون ببنانه، وأطراف أجفانه، بأنه من المجددين لقواعد الدين وأركانه، وأجمع عليه أئمة العصر، وأهل الخبرة بالفضل والفخر، بأنه لم يسمح الدهر بمثاله، ولا جاء

أحد من بنيه على منواله، وأنه ممن صار ينسج وحده، وأن هواه طوع يده، وتبعاً لطريق جده، لأن لمن شاهد طلعته البهيّة، وعرف أخلاقه السنيّة، وما وهبه الله من المعارف والأسرار، والحقائق والرقائق واللطائف والأنوار، علم أنه حقيق بما ذكرنا، وخليق بإطلاق الثنا، بكل اسم ومعنى، وبأنا بما وصفناه به قصرنا، وإن شاهدنا في ذلك قول القائل، على من أثنى عليه من الأوائل شعراً:

لا يدرك الواصف المطري خصائصه وإن يكن مبدعاً في كل ما وصفا

فأخلاقه رضي الله عنه عجيبة، وتوجهاته غريبة، تسمو بهمته العلية إلى تطلب الفضائل، وساعدته الجذبة الإلٰهية من تسهيل الارتقاء إلى تلك المراتب والمنازل.

فمن أخلاقه ـ رضي الله عنه ـ الاستمداد من كل من رأى فيه سيما خير أو صلاح، مع شهود الخصوصيّة فيه والامتلاء به وتعظيمه، وقد كتب لبعض مريديه وصية تشتمل على شيء من هذا المعنى، وفيها هذا البيت:

وكل الليالي ليلة القدر فاعتقد وكل فتى تلقاه فاعتقد الخضرا

فما في هذا البيت مقامه رضي الله عنه، لأن من المعلوم أنهم لم يتكلموا بشيء إلا وهو مقامهم، لئلا يقعوا في جملة المعنيين بقول أصدق القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، وقال بعض الأكابر في جده سيدنا القطب الحبيب عمر البار نفع الله به: إن مثاله في كمال استمداده وتأهل استعداده، مثال ما ذكر الله تعالىٰ في شأن النحل: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]، ولا بدَّ أن يسري هذا الاستعداد، من الموروث إلى الأولاد والأحفاد، ولا سيما وقد شهد جماعة من أئمة العصر ورجاله، بأن صاحب الترجمة خليفة جده والوارث لمقامه ورجاله، كما سيأتي تحقيق ذلك.

ومن أخلاقه ـ نفع الله به ـ الاستفادة من كل أحد من العلماء والمتعلمين، في حال بدايته وكمال نهايته، ويتَّلمذ لكل أحد من متصوفة وقته وصوفيته، وهذا مقام عزيز صعب الارتقاء، لا يتيسر إلا لأكابر الأولياء، كالرفاعي والمرسي والشعراوي

وأمثالهم، لأنه لا يبلغ إلى هذا المقام إلا من قد فني عن نفسه وبقي بربه، ورأى الأفعال كلها فعلاً واحداً، وأثبت تطورات الوجود، وتنقلات أحوال كل موجود، خلقاً وفعلاً، فرعاً وأصلاً، لله سبحانه وتعالىٰ، وقد بلغ بهذا الخلق العظيم، معنى ما ذكره أستاذ الأكابر الرباني، الشيخ عبد القادر الجيلاني قال قدس الله روحه: من طابت نفسه أن يقرأ على أحد من أقرانه أو يتَّلمذ له، خرج من رعونات نفسه، وذلك من أعلى رياضة النفس، بل أعلى من الجوع والسهر والعزلة. انتهىٰ، وما ذكره ـ نفع الله به ـ اشتهر عن صاحب الترجمة عند الخاص والعام، وتواتر عند من يعرفه من الخواص والعوام، وقد صار هذا الخلق له كالسجيَّة، لا يرى أنه متكلف لذلك، بل يكون له عند الموافقة له عليه نشوة وأريحيَّة. ومن أخلاقه ـ رضي الله عنه ـ التواضع لخلق الله، والرحمة لعباد الله، من صغير وكبير، وقريب وبعيد، كثير التبسم عند الاجتماع بهم، لا يتضجر بأحد، ولا يمل أحداً، ولا يسأم من أحد، دأبه الإفادة والاستفادة، والتنقل في أنواع العبادة.

ولما امتلأ وِطابه بالخيرات، واجتمع بأولئك السادات بتلك الجهات، رجع إلى أوطانه مستقراً بها، مقبلاً على شأنه عارفاً بزمانه، مع ما أعطاه الله تعالىٰ من العقل الكامل، الذي هو نصف العلم، كما وصفه بذلك قطب زمانه، سيدنا الشيخ العارف بالله تعالىٰ الحبيب عمر بن زين بن سميط باعلوي ـ نفع الله به ـ فقال: السيد عمر بن عبدالرحمٰن البار علمه وراء عقله، فانظر إلى ما حوته هذه الإشارة من البشارة، من هذا العارف مع وجازتها، واشتهرت عنه وتداولها أهل الفضل وأعجبوا بها، إذ الاجماع بمعناها منعقد، لكن لم يحسن التعبير بها إلا هذا العارف الخبير، وبعد تجرده ـ نفع الله به ـ وإقامته بوطنه، رتب ما رتبه من وظائف الدين، فأحيا سنن سيد المرسلين وسلفه المهتدين، وقام بتدريس العلوم وتأسيس الرسوم، وتوظيف العبادات وتخليص المعاملات، وترتيب الزيارات إلى حضرموت ولجهة دوعن كقيدون، وغيرها من البلدان التي بها قبور الصالحين ومآثرهم، واجتمع بكثير من أئمة سلفه وأكابرهم في زياراته، وأخذ عنهم وانتفع بهم، وسيأتي ذكر غالبهم في هذا الشرح، وكانوا يسرون ويستأنسون بقدومه، ويبجلونه ويقبلون

عليه، ويبتهجون به ويثنون عليه، ويغتبطون له بما أعطاه الله تعالىٰ من الأخلاق الكريمة، من التواضع وطلب الخمول، وعدم رؤية النفس والتأهل لشيء من رسوم القوم ومراتب الأولياء، مع ما هو متصف به من الاتساع والتفنن في العلوم، وكان ـ رضي الله عنه ـ يحرص على كل ما سمعه وبلغه من الأمور التي يعمل عليها سلفه العلويون، مما ذكره في مقدمة المشرع الروي وغيره، ومنه قوله ـ أعني صاحب المشرع ـ قدس الله روحه: وكانوا يخفون العبادة خوفاً من الرياء، وإذا تكلم أحدهم في الوعظ أو غيره وخاف الرياء، عدل إلى غيره مما لا يدخله ذلك، وإذا طرقه البكاء في تلاوة أو قراءة حديث أو وعظ صرفه إلى التبسم، ولا يذم نفسه في الملأ، ويكره أن يسأله غيره عن عمل غيره، وأن يسأل غيره عن ذلك، وإذا بلغه أن أحداً من الأعيان عزم على زيارته في يوم درسه تركه، وإذا دخل على غفلة كره ذلك وأوجز، وكانوا ـ رضي الله عنهم ـ زاهدين في الدنيا والرئاسة. هذا بعض ما ذكره، وقد كان صاحب الترجمة متصفاً بجميعه، عارفاً بدقائق تأصيله وتفريعه، وهو معروف من حاله، وقد رأيته مراراً يقطع الدرس أو يتجوز إليه، إذا أتى عليه أحد من الأعيان، ومرة زرت معه بعض العلماء من ساداتنا العلويين بمدينة تريم، ومعه أناس من أهل دوعن وغيرهم، فطلب إجازة من ذلك العالم، فبقي ذلك العالم يذم نفسه ويهضمها، فلما انتهىٰ المجلس وخرجنا من بيته، التفت إليَّ سيدي الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ وقال لي سراً: سادتنا آل باعلوي ـ نفع الله بهم ـ لا يهضمون أنفسهم باللسان، ولكن بالفعل والجنان. أو ما هذا معناه.

وكان قيامه ـ قدس الله روحه ـ من آخر الليل يتهجد بالوتر إما إحدى عشر أو أقل، على حسب اتساع الوقت وضيقه، مع ست ركعات أجازه في ترتيبها الشيخ علي البصري ـ الآتية ترجمته ـ بسور معينة، يسلم من كل ركعتين ثم يفصل بينهما وبين ما بعدها بأذكار معروفة، ثم يخرج لصلاة الصبح أول وقتها ويصليها مع الجماعة، ويعتكف إلى طلوع الشمس إذا كان في مسجد، أو يجلس في مصلاه في غيره إلى طلوعها، يحيي هذا الوقت بالأذكار النبوية والملحقة بها، المنسوبة إلى الصحابة والتابعين والمشايخ العارفين، من جملتها (مفتاح السعادة والفلاح)

الورد الكبير الجامع لما ذكرناه، لسيدنا القطب الشيخ عبد الله الحداد، ويا الله يا واحد يا أحد، وغير ذلك من أوراده، وأوراد الشاذلي وابن عربي، ويحفظ غالبها عن ظهر قلب، وكذلك ورد سيدنا الإمام العارف بالله تعالىٰ حامد بن عمر حامد باعلوي، اعتنى بحفظه وترتيبه، ويرتب في هذا الوقت مع الحاضرين معه سور المنجيات والمنقذات والمهلكات، فإذا ارتفعت الشمس صلى أربع ركعات، ركعتين من الإشراق وركعتين من الضحى، يقرأ فيهما سوراً معينة، كما نقل العمل عن ذلك من جده القطب الحبيب عمر البار، وأيضاً كان يعمل في جميع السنن بالسور التي ورد فيها نص عنه ﷺ أو عن أصحابه أو كمل التابعين وتابعيهم بإحسان، لا سيما سيدنا القطب الشيخ عبد الله بن علوي الحداد وجده الشيخ عمر البار وغيرهما من أئمة سلفه نفع الله بهم. وقد ذكر الإمام محمد بن علان البكري الصديقي في شرحه على (حلية الأبرار) ونقل ذلك عن المصنف الإمام النووي ـ رحمة الله عليهما ـ: أن الوارثين من الأولياء، إذا خصوا ذكراً بوقت أو حال كان سنة فيه، وقد ذكر هذا المعنى في موضعين من هذا الكتاب فلينظر فيه. ثم بعد ذلك يشتغل بتدريس العلم النافع وآلاته، لا يمل ولا يضجر قراءة وتصحيحاً ومراجعة، ويبتدي درسه قبله بقراءة جزء من القرآن، وما فضل من الأوقات التي لا يأتيه فيها الطلبة صرفه إلى المطالعة والنسخ، فقد حصل بيده الشريفة جملة من الكتب، وقد اجتمع له ولأخيه سيدنا وشيخنا العيدروس من عدد الكتب النافعة من جميع فنون العلم ما لم يجتمع لغيرهما لا سيما في جهة دوعن، وقد قدمنا أنهما في جميع ما ذكرناه كفرسي رهان، مشرباً وطريقةً، وسلوكاً وتسليكاً، واستفادةً وإفادةً، وقد عهد إليهما مشايخهما من بني علوي بهذا الاتحاد، مع الاجتماع والانفراد، ونصبوهما بواديهما للتدريس ونشر العلم والعمل، والدعوة إلى الله عزوجل، والسير على قدم جدهما سيدنا الحبيب عمر والقيام بما كان عليه، كما سيأتي ذلك في ذكر إجازتهما من المذكورين. وكان سيدنا الحبيب عمر صاحب الترجمة محبباً عند الخاص والعام، قصد للزيارة والاستفادة من علومه، والتبرك بطلعته البهية، والاقتباس من أخلاقه المرضية، من كل مكان، وقد ذكرنا أنه فاق أهل زمانه في التواضع، وراثة عن جده الأدنى القطب الإمام، والأعلى

عليه أفضل الصلاة والسلام، مع الشفقة والرحمة بالصغير، والتوقير والاحترام للكبير، في علم أو صلاح أو سن لا سيما من آل باعلوي، فإنه يبالغ في تعظيم حرماتهم والقيام بحقوقهم، ويغضب عند انتهاك حرماتهم، أو التقصير في القيام بحقهم استخفافاً واحتقاراً، ويعذر الجاهل بقدرهم، وإن كان لا يجهل، حتى عند أهل الكفر وطوائف الملل. وقد ذكرنا آنفا أنه ـ رضي الله عنه ـ يشتغل في بياض النهار بالتدريس والمطالعة والأذكار، ويخرج لصلاة المغرب في المسجد، ويحيي ما بين العشائين فيه بالصلاة والتلاوة والذكر والدعاء، حتى يصلي العشاء وسنته وأربع ركعات قيام الليل، ثم يرجع إلى البيت عاملاً بالوارد في المنام والانتباه، وكانت له مجاهدات بالتنفل في أنواع العبادات، مع إيثار بعض الأوقات للخلوات، ويرتاض بالصوم والجوع والسهر والصمت، وغير ذلك من أركان السلوك، ولا سيما في أيام إقامته بمكة المشرفة، ومجاورته مع شيخه العارف بالله تعالىٰ الحبيب شيخ بن محمد الجفري نفع الله به، وكذا عمه سيدنا العارف بالله تعالىٰ الحبيب حسن البار، مغتنماً لملاحظة نظرهما الإكسير، مستعداً بذلك لقبول التلقي عنهما بالمعنى الذي سبق عن المزجاجي في التأثر والتأثير، كما أخبرني بمعنى ما ذكرته سيدي العارف بالله تعالىٰ الموالي فيه، صوفي الوقت الحبيب عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن الجفري نفع الله به، وقد كان هذا السيد من الموالين لسيدي الحبيب عمر، وبينهما محبة أكيدة ومودة شديدة، كان يحضر درس سيدنا الحبيب عمر أيام نشاطه يوم الاثنين والخميس، وقرأ عليه في ديوان سيدنا الحبيب عبد الله الحداد، وفي الباب الثامن من المناقب الكبرى وغيرهما، وسافر معه مرات لحج بيت الله الحرام، وزيارة قبر جدهما عليه الصلاة والسلام، وكان كل واحد منهما يثني على الآخر بما هو حقيق به، توفي سيدي الحبيب عبد الله بن محمد الجفري المذكور، في جماد الأول سنة إحدى عشرة ومائتين وألف، وكانت بينه وبين الوالد ـ رحمه الله ـ محبة صدقية وصحبة أكيدة. ولما توفي حصلت للوالد حالة توله منها وغلبه الخوف، وبغضت إليه مجالس العامة والخوض معهم في شيء من أمور الدنيا، حتى أنكر معارفه وترك موافقه ومخالفه، واشتغل بالتلاوة والذكر، ولازم الصمت وحضور الجمعة والجماعة، إلى أن توفاه الله عز وجل

لأربع عشر من شوال سنة ست عشرة ومائتين وألف، ومولده سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف، قرأ على الشيخ العارف بالله تعالىٰ محمد بن يّس باقيس ـ نفع الله به ـ رياض الصالحين وغيره، واعتنى به لما بينه وبين الجد عبد الله من تمام الاتحاد والألفة، كما سيأتي في ترجمة الشيخ محمد المذكور، وشيخه الشيخ محمد بامشموس.

وكان سيدنا الحبيب عمر البار صاحب الترجمة ـ قدس الله روحه ـ كثير الصبر على أهل زمانه، عارفاً بأحوالهم عند إدبارهم وإقبالهم، كثير التسليم لما يجري في أقوالهم وأفعالهم، حسن الظن يُغلِّب فيهم الخصوصية على البشرية، محتملاً مشقة حاجاتهم في نحو شفاعة وكشف مهمة، بالغاً في ذلك جهده وطاقته، وكان خائفاً لله تعالىٰ خاشعاً خاضعاً، مراقباً في جميع الساعات واللحظات، وكثيراً ما يبكي لاسيما عند قراءة الحديث والرقائق، ولقاء الأكابر من الصالحين وعند ضرائحهم، وبالجملة فقد كان بالمحل الأعلى لاسيما من التخلق بأخلاق العلماء الراسخين والصوفية العارفين، لا يستفزه الطبع في مقام ولا حال، ولا يخرج عن قانون الشرع في فعل ولا مقال، حاله مع حاملي العلم كأنه من صغار طلبته، ومع غيرهم كأنه مثل أحدهم في طريقه وصفته، لا يتميز بكلام ولا زي ولا مجلس، تراه في حالة الفرق وهو في عين الجمع، وذلك لما أعطاه الله تعالىٰ ما لم يره نظر ولا يعيه سمع، وكل ذلك منه مشهور وعنه مذكور.

فصل

في إطلاق ألسن ثناء الأكابر عليه، وإشاراتهم بخصوص الولاية إليه: فمن ذلك ما قاله سيدنا الإمام العارف بالله حامد بن عمر حامد باعلوي قدس الله روحه.

وذلك أن الشيخ الإمام العارف بالله أحمد بن عبد القادر الحفظي، كتب لسيدنا عمر المذكور، بواسطة الأخ الأفضل الشيخ الحسن بن عبد الله العمودي، في أن يرسل له الإلباس المتداول بين الصوفية، وأن يشرفه بوصية، فأرسل له ذلك، فلم يزده وصوله إلا تلهفاً وتعطشاً لتكرير العطف بالالباس، وتوسيع الوصية لينتفع بها الخاص والعام من الناس، فكتب له سيدنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ

جواباً يعتذر إليه فيه، ويدله على المسلكين الظاهرين من آل باعلوي بحضرموت: سيدنا الإمام أحمد بن الحسن الحداد، وسيدنا الإمام عمر بن زين بن سميط، وسيدنا الإمام حامد بن عمر حامد ـ نفع الله بهم ـ فكتب الشيخ الحفظي إليهم، فرأيت في جواب سيدي الحبيب عمر حامد له ما صورته: وفهمنا ما ذكرتم مما كتبتم للولد الحبيب القريب، عمر بن عبد الرحمٰن البار، وجوابه واعتذاره مع كونه أهلاً للوصية، وخليفة جده الإمام عمر، وردكم في الاستمداد إلى من ذكرتم، وهذا شاهد بفضله، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل. انتهىٰ كلامه، فافهم ما فيه وما اشتمل عليه ظاهره وخافيه.

وأخبرني سيدي العارف أحمد بن القطب الحبيب عمر بن زين بن سميط، أنه استشار سيدي الحبيب حامد في زيارة دوعن، فقال له: زر دوعن، ولكن بشرط أن يكون السيد عمر بن عبد الرحمٰن البار هناك، ففيه إشارة إلى أن يجعل زيارة الحبيب عمر من الأحياء عمدة، كما سيأتي عن سيدنا الحبيب عبد الله الحداد، أنه أرخ بعض زياراته لدوعن، فقال ما معناه: وعمدتنا في هذه الزيارة: الشيخ سعيد ابن عيسىٰ العمودي من الأموات، والشيخ عمر العطاس من الأحياء، والبقية تبع لهذين الشيخين. ففي ضمن ما ذكره الحبيب حامد بن عمر للحبيب أحمد بن عمر معنى ما ذكره الحبيب عبد الله في هذه المقالة. ومما كتب به إليه الحبيب حامد أيضاً: إلى الجناب الرفيع، السيد الشريف الحبيب الصفي، الوفي العلم الأفضل المذكر، الدال على الله عز وجل، شجاع الدين عمر بن عبد الرحمٰن بن الشيخ الإمام عمر بن عبدالرحمن البار. انتهىٰ.

وكان سيدنا الحبيب حامد ـ نفع الله به ـ كثير الثناء على سيدنا الحبيب عمر والاعتناء به، ويبتهج بقدومه ووروده إلى تريم، ومن الاتفاقيات الجارية في قالب الكرامات، أنه سنة توفي سيدنا الحبيب حامد ـ نفع الله به ـ عزم سيدنا الحبيب عمر على زيارة حضرموت، وكان الوقت غير قابل لذلك من حيث تشويش الطريق، فصمم العزم وجرد الهمة حتى وصل إلى تريم، وأقام بها أياماً يتردد إلى الزيارات، ويتبرك بآثار السلف ومشاهدهم ومعابدهم، حريصاً على ملاقاة أهل

الفضل من الأولياء والعلماء ملازماً دروس سيدنا الحبيب عمر بن أحمد الحداد، خليفة جده وأبيه في الارشاد والامداد، ودروس سيدنا الحبيب حامد المذكور كذلك ومجالسه، إلى وقت زيارة نبي الله هود ـ عليه السلام ـ فزار معه، وكان ـ نفع الله به ـ في منتهى سن الشيخوخة، وسادتنا العلويون وغيرهم من أولي الفضل مجموعون على كماله وعظم حاله، وهو في غاية من الوقار وسعة العلم والحال، والتسديد في المقال ـ كما سيأتي في ترجمته ـ وكانوا مغتبطين تلك السنة بتكلفه وتحشمه للمشقة في تلك الزيارة، وكل من رآه في تلك الحالة ذكر ما كان الشيخ الكبير أبو بكر بن سالم عليه من الاهتمام بزيارة نبي الله هود، أي. . . .[1] في الوقت الذي رتبها فيه السلف وهو النصف في شهر شعبان، حتى أنه كان يحمل في سرير على أعناق الرجال، فلما رجع سيدنا الحبيب حامد ـ نفع الله به ـ إلى تريم توفي ليلة رجع بغير مرض، بعد أن أوصى أولاده وكاشفهم بموته ـ كما سيأتي في ترجمته ـ فكانوا يرون في هذه الزيارة للحبيب عمر مزية، وإشارة إلى أخصيته.

وأما سيدنا الإمام خليفة جده في مقامه، الشيخ أحمد بن حسن الحداد باعلوي، نفع الله بهم، فكان كذلك يغتبط بتردد الحبيب عمر المذكور إلى زيارة سلفه، وإحياء سنة التعهد لتلك المشاهد والمشاعر، والمعابد والمظاهر، والأخذ عن الأئمة الأكابر، وقرأ عليه كثيراً وألبسه مراراً وأعطاه قبعاً، وقرره على الدعوة إلى الله تعالىٰ، وأذن له في الإلباس ونشر العلم الشريف، لا سيما بوادي دوعن الميمون، كما حصل ذلك كله من جده ، سيدنا القطب عبد الله الحداد، لسيدنا القطب عمر البار، وسيأتي تحقيق ذلك في إجازته الجامعة له، ولأخيه سيدنا وشيخنا العيدروس بهذا المعنى الذي ذكرناه. وممن أطلق الثناء عليه، وأشار باستجماع أوصاف الكمال إليه، شيخه العارف بالله شيخ بن محمد الجفري، ويكفي مما قاله فيه من التنويه والتنبيه، الحاوي بالتفصيل والإجمال، لكثير مما جمعه من صفات الشرف والرفعة والكمال، في قصيدة أرسلها إليه ضمن رسالة قال فيها:

سلام على من منهج أسلافه أمه ... وقد صار من بين الورى وحده أمه
ألست تراه أينما كان سالكاً ... وما طلب الدنيا عن العلم قد همه

---

(١) بياض في الأصل.

مضى هكذا في ليله ونهاره ... وما زال بالتوفيق ذلك في همّه
كريم السجايا والفضائل ربها ... عظيم التقى حاوي النقا سامي الهمه
ربيب السخا والجود سراً وظاهراً ... حليف المكارم واصلاً بالصلة رحمه
عجيب المزايا وافر في حجائه ... فقد قام بالتحقيق لله في الخدمه
بحسب استطاعته تراه مشمراً ... على ضعفه زاد على من قوي همه
حبيب بجبهته ترى السعد طالعاً ... هو المشتري في طبعه أثر النعمه
له خلق فاق النسيم بلطفه ... أناف على الأحنف يا صاح في حلمه
وأشهى من الصحة لقياه عند من ... قد أعيا الأطباء الحكما كلهم سقمه
أما طرفه بالقلب حرك ساكناً ... وما خاله من حسنه في الملا عمه
بهذا فقد لمحت فيما رويته ... بتورية فاهمها دل في مهمه
فربما قائل يقول جهالة ... حوى ما حوى من خاله وكذا عمه
فحاشا وكلا إنما سحر بابل ... بألفاظه يسحر من كان قد أمه
جواهر فيه لم يزل ناثراً لها ... بفتح من الرحمٰن في سره ضَمَّه
وفي نعته بالكسر قد زاد رتبة ... فصيح المقال لا تخالطه عجمه
لقد سكن العلياء من الرتب التي ... لها شد من مدمع النور والظلمه
ومن علم أن الصيد في داخل الفرا ... بدا ناصباً بالرفع والخفض للرحمه
كما هو دابا جازماً لعلائق ... فقد طرح الحبل على غارب الجهمه
وبعد فقد شرفت منه بخط قد ... سما نثره ما صاغه شارح الشمه
ومنظومه لا شك فيه ولا مرا ... هو فاق ما قال كثير وذو الرمَّه
لقد جاء بقانون بمنطقه الذي ... علا نثره نثراً ونظماً على نظمه
نتيجته الأولى سريانها بدت ... ولا شك أخراه نتيجتها الحكمه
فصغراه مع كبراه تشهد بفضلها ... خبير بها في المنطقيين ذا تهمه

إلى أن قال:

أيـا عمـر البـار الـذي جـا ببـره   لـه شـاهـد زكـاه مـع ذا ذكـاء فهمـه
عليـك بحـداد القلـوب عقيـدة   فمن دون حداد فلا تحصل الفطمه

إلى أن قال:

حفظك إلٰه العرش من كل طارق   سوى الطارق بالخير الزائل النقمه
وجد بالدعاء للجفري المذنب الذي   ذنوب له لم تحص في عدها جمه

انتهى المقصود من هذه المنظومة الجامعة لكثير من أوصاف الممدوح، وما أعطيه من المواهب والأسرار والمنوح، وكان هذا العارف الحبيب شيخ ـ نفع الله به ـ يرى صاحب الترجمة ممن تأهل لتحمل الأمانات، وامتاز بما منحه الله تعالىٰ من الاتساع في العلوم والأعمال والأخلاق على كثير من أهل المجاهدات، فأقبل عليه بكليته، واستودعه من علوم المعارف والأسرار، ما تقصر العقول عن إدراك معرفته، وكان كلما صنف كتاباً أو نظم منثوراً أو حرر مزبوراً، أول ما يرسله إليه، وسمعته يقول: إنما اعتنى بجمع الديوان، السيد عمر بن عبد الرحمٰن، وسيأتي في آخر هذه الترجمة ـ ما وقع لهما عند وفاة سيدنا الحبيب عمر ـ وقبلها من الإشارات والمنادمات، الجارية في قالب الإفادات بل خوارق العادات بالمراسلات.

وأما عمه العارف بالله تعالىٰ الحسن بن الشيخ الحبيب عمر البار ـ نفع الله بهما ـ فهو أيضاً ممن أسس عليه تأسيس هذا السيد، فكان يثني على صاحب الترجمة ويبجله بالفعل والقول نظماً ونثراً، فمن بعض قصائده التي جعلها في التوسل بسلفه الكرام، ويستعين بجاههم إلى الله تعالىٰ على جور الليالي والأيام، قال في آخرها:

والشجاع المنير أخو عيدروس   أريحـي أن ينـال حـال سميـه

فانظر إلى ما في هذا البيت وما فيه من التنويه، ففي قوله (أريحي أن ينال حال سميّه) المراد به جده القطب الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن البار، وفي قوله (أريحي) إشارة إلى أنه متأهل لذلك الحال العظيم، فإن الرجاء كما قدمنا توقع أمر محبوب،

تمهدت أسبابه الداخلة تحت الاختيار، وقد سبق ما في قول سيدنا الإمام حامد بن عمر حامد من أنه خليفة جده. ومن أثناء قصيدة لسيدنا الحبيب حسن، أرسلها له ضمن مكتوب يقول فيها:

لا زلت مشكور، يا حلو الثغور ... والسر مسرور، لا يبدي الحذور
يا مسك مذرور، ياباهي الغرر ... وأهلاً بمسطور، جانا بالبكور
من عند مبرور، نعمك من أبر ... يقول مأمور، إنه لك يزور
والأمر مقدور، في سبق القدر ... فقلبك الطور، يا عبد الحصور
فاقنع بميسور، من دار الممر ... في سورة النور، تحظى بالعثور
والكنز ممهور، ماهر له عمر ... دستور دستور، ياالليث الغيور
غارتك في الفور، وأدرك في الأثر

انتهىٰ المقصود من هذه الأبيات، وله أبيات أخرى إذا أخذت منها الحرف الأول من فعولهن الأول، استخرجت منه حروف اسم عمر بن عبد الرحمٰن، وفيها تلميح بالكناية والتصريح، إلى إطلاق الثناء ومزيد الاعتناء، وهي:

على ما تطيلون هجري ... ولم تسمحوا بالوصال
مضى في التعثار عمري ... ولم يخفكم ما أصالي
رجوت اللقا وهو فخري ... لي آمال فيكم طوال
بكم يغفر الله وزري ... ويمحو الذنوب الثقال
نأيتم وقد طال صبري ... وقد صرت مثل الخلال
عسى نفحة تصلح أمري ... وينفك عني عقالي
بحق السَّميين ذخري ... غياثي إذا ضاق حالي
دعوت بعجزي وفقري ... إلى الله مولى الموالي

أنـــاديـــه ســـراً وجهـــري   كفـــى يكفـــي علمـــه بحـــالـــي
لمـــولاي فـــوضـــت أمـــري   تعـــالـــىٰ عليـــه اتكـــالـــي
رضيـــت وقـــد عـــز قـــدري   إذا قـــده هـــو لـــي كـــالـــي
حمـــاة الـــورى هـــم نصـــري   علـــى كـــل عـــات وقـــالـــي
محضتهـــم الـــود شهـــري   ويـــا حبـــذا أن صفـــا لـــي
نعـــرض بـــزيـــد وعمـــرو   وغيـــركـــم مـــا حـــلا لـــي

وقال سيدي العارف بالله تعالىٰ أحمد بن علي بحر ـ نفع الله به ـ: أنت يا عمر ابن عبد الرحمٰن شيخ من اليمن إلى الحجاز، وقال: من حضرموت إلى الحجاز. نقل ذلك الأخ العارف الشيخ حسن بن عبد الله العمودي، ومن أثناء مكاتبة من سيدي السيد أحمد المذكور إليه: إلى جوهرة السعادة، والغرة في جبهة الصلاح والعبادة، عمر بن عبد الرحمٰن البار، ذي الأنفاس والأسرار وقال في آخرها: وعليك بالأوراد التي هي وصلة المريد بالمدد الخاص، وأما العام فالله تعالىٰ يقول: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ وأنت في البعد عني أقرب من القرب مني، وما بين حاجبي وعيني. ومن أثنا أخرى: وما فعلت يا عمر سيعينك الله فيه، وما اخترته اخترناه، وما نقص بحول الله وفيناه، والبيتان أظهروهما لا عبدالله إلا جهرا، وتعاونوا على البر والتقوى، ولذكر الله أكبر، وكل فقيه مجاز. وقوله والبيتان أظهروهما) هما بيتان من هذه المنظومة، يتضمنان لذكر أخذ سيدنا السيد أحمد المذكور عن النبي ﷺ بغير واسطة، كما سيأتي ذلك في ترجمتهما وفي ترجمة السيد أحمد نفع الله به.

ومما كتب إليه الإمام علامة الزمن، ومفتي اليمن، السيد الشريف سليمان بن يحيى بن عمر مقبول الأهدل ـ رحمه الله عز وجل ـ: وعلى سيدي الفاضل، العلامة، الجلاجل، سلالة السَّادة الأخيار، القادة الأبرار، معدن الفضل والولاية والأسرار، عمر بن عبد الرحمٰن بن عمر البار، حفظه الله وحماه، أفضل السلام

وأزكاه وأنماه، ورحمة الله وبركاته، وتحياته ومرضاته. . إلى أن قال: والحال بيني وبينكم واحد، والاتحاد بالمحبة القلبية والمعارفة الروحية ـ إن شاء الله ـ حاصل. انتهىٰ.

وكتب إليه الإمام العلامة بالظاهر والباطن، القاضي أحمد ابن محمد قاطن، من مدينة صنعاء: الحمد لله وحده، السلام التام، والإكرام العام، والعلو الذي لا يرام، والإقبال الذي به كمال الانتظام، يتعلق بأذيال سيدي عمدة الأنام، ويتيمة الأيام، ضياء الإسلام، عمر بن عبد الرحمٰن البار ، حماه الله وتولاه، وعطر محله وحماه، بأنفاس نفيس الأسرار الإلٰهية، والأنوار المصطفوية، ويسر له اليسرى، وكمل له البشرى، بطوالع مطالع الحقائق، وبلوغ منى أسرار الدقائق، صدرت ممن اتصل حبه بآل الرسول، وأنت منهم غاية السول، ونهاية المأمول. . وقال في آخرها: والمساجد بيوت الساجد، والاعتزال عن الفتن أعظم المشاهد. ومن أثناء أخرى: سيدي حاوي خصال الكمال، بأكمل الخصال، وخيرة الخيرة من أبناء آل المحبوب، النازل في شقاشق القلوب، خليلي الجليل، العالم النبيل، ضياء الإسلام، ويتيمة الشهور والأعوام، عمر بن عبد الرحمٰن البار، العلي شأنه عند العليم الغفار. . ثم قال: وكنت أتذكر أحبابي وإخواني، وأصدقائي وأخداني، والقلب حيث كانوا، وإن بِنْتُ عنهم وبانوا، فإن القلب سائر أين ساروا، ودائر أين داروا، ومنهم أنت أيها الحبيب، ونصيبك عندي ـ والله ـ أوفر نصيب، وعقيدتي بذلك الدعاء في جميع المواقف، خاصة في تلك المقامات العلية المعارف، وسيدي شيخ ـ حماه الله ـ لا يزال على الخاطر مروره، وتذكر أيامه وشهوره، وإشاراته العلية التي أنبأتني بالامتحان، التي هي منحة عند التحقيق من الكريم المنان، والسلام عليه حيث كان، وفي أي مكان. والمعني بقوله (وسيدي شيخ) هو سيدنا الإمام العارف بالله تعالىٰ شيخ بن محمد الجفري. ومن أخرى: مولاي وسيدي إمام العلوم، ومحقق الحدود والرسوم، والدائب في رضى الحي القيوم، والذائب من مشاهدة السر المصون المكتوم، ذات الفضائل، وعمدة الآواخر مع

الأوائل، الذي جمع الله به في عالم الأرواح، والمرجو الاجتماع به في دار السرور والأفراح، بعد الاتصال به في هذه الدار والانشراح. . ثم قال في آخرها: وما ذكرتم من الإجازة لولدكم العزيز، الذهب الإبريز، وجيه الدين عبد الرحمٰن بن عمر بن عبد الرحمٰن، أصلحه الله تعالى، وأنبته نباتاً حسناً، وزاده رفعة وسنا، ووقاه وحماه، وألهمه هداه، وبلغه منازل أهل التقوى، ووفاه كل ما تحب وتهوى، فقد أجزته أن يروي عني ما يصح له بعد كماله أنه من مروياتي، من معقول ومنقول، وفروع وأصول، ومالي من نظم ونثر وتأليف، ولقنوه عني لا إلٰه إلا الله كلمة التوحيد، التي هي مفتاح السعادة وختامها، ورآية الأعمال السائرة أمامها وهي إمامتها، وألبسوه هذه القلنسوة التي كانت على رأسي، ليكون علم التوحيد في قلبه راسي كالجبال الرواسي، وصدر له كوفية أخرى بيضاء، وتلك هي خرقة البركة الأهدلية، ألبسني سيدي العلامة يحيى بن عمر مقبول الأهدل، بسنده المتصل، ذكرت سندها في تحفة الإخوان. ومن أثناء أخرى: أيها الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن، والأخ في الله الملك الديان، إنسان العين، وعين الإنسان، صدرت إليك السطور، مشاهدة لذاتك الكريمة، معاهدة لنفسك المطمئنة إن شاء الله، المستقيمة على الطريق القويمة، مقبّلة لسواد العين بسواد مدادها، منورة للبصيرة بعين إمدادها، محررة للرق مني، مشاهدة لمشاهدها عني، قائلة شعراً:

ليت إني إذا ارتحلت لك الخيل　　وأمـا إذا نـزلـت الحيـا مـاء

انتهت مع حذف من الرسائل هذه طلباً للاختصار، واكتفاء بقليل الرمز عن الإكثار، وكان هذا القاضي أحمد كسيدي شيخ الجفري، إذا ألف كتاباً أرسله لسيدي الحبيب عمر وأعلمه به، وستأتي ترجمته في ذكر مشايخ سيدي الحبيب عمر.

وكان الشيخ أحمد الموقري ـ الآتي ذكره ـ يعظمه ويثني عليه، وكذلك الشيخ أحمد بن عبد القادر الحفظي يطري في الثناء عليه في مكاتباته إليه، وبلغنا أنه ترجم له في كتاب (ذخيرة المال شرح عقد جواهر اللآل في فضائل الآل) وقد ذكر الأخ

الفاني بالله عن كل عدمي ووجودي، الشيخ حسن بن عبد الله العمودي، أبقاه الله به، وأفناه في حبه، وأدناه إلى قربه، في نبذة له ترجم بها لسيدي الحبيب عمر المذكور ـ نفع الله به ـ قال: ذكر له الشيخ الحفظي في بعض ما كتب به إليه: وسلم على سيدي العلامة القطب السيد عمر بن عبد الرحمٰن البار. ومرة: على سيدي الحبيب المكاشف الولي الشهير. وبعض الفضلاء قال: حادي الركب، ورئيس أهل الدرب. والمراد: حادي ركب القوم، ورئيس طريقهم. قال: وعن السيد العلامة العارف بالله الحبيب عبد الله بن حسين الحداد أنه قال: السيد عمر بن عبدالرحمٰن البار، بضاعة كاسدة في قطره. وهذا الحبيب عبدالله بن حسين بن محمد بن القطب عبدالله الحداد، غير الحبيب عبد الله بن حسين بن الشيخ عبدالله الحداد، الآتية ترجمته عن سيدنا الحبيب عمر وأنه أخذ عنه، فهذا حفيد الحبيب عبدالله. وقال الشيخ الحسن المذكور: قال لي الشيخ العارف بالله، عبد الله بن محمد الغزالي العمودي: لو كان سيدي الحبيب عمر البار في محل مسافته من قيدون إلى العرسمة لسرت إليه ـ أي كل يوم ـ وأنتم ما تسيرون إليه في الثمانية الأيام مرة، وهو بقية الأعيان، في هذا الزمان، وأخذ عن أئمة فحول من أهل العلوم والعرفان. قال: وأمرني بالقراءة على سيدي الحبيب عمر في (بداية الهداية) أو (رسالة المعاونة)، وقال لي: إذا رآك مشتغلاً عليه، ومتعلقاً به ومتردداً إليه، اعتنى بك وأعطاك كتاباً، قال: فما قرأت معشراً أو معشرين ـ أي في أحد الكتابين ـ إلا وناولني شرح حكم الشيخ شعيب أبي مدين للشيخ ابن علان بقلمه. انتهىٰ ما ذكره الشيخ حسن.

والحاصل أن تتبع إطلاق الثناء من المعتبرين من أهله، والمختبرين بأعين البصائر لفضله، وما أعطاه الله من المواهب العليَّة والعلوم اللدنيَّة، من معدن الجود والكرم من محله، أمر لا يدركه التفصيل، ولا يضبطه التجميل، وفيما ذكرنا كفاية عن هؤلاء الكرام الأئمة الأعلام، تنبيه وتذكير لكل عارف بإشاراتهم بصير، وقد تطفلت بمدحه بهذه الأبيات، اقتداء بهؤلاء السادات، فقلت معترفاً بقصوري عن معرفة ما خص به من شرف الذات والصفات:

لله در إمـــام العلـــم والفضـــل — والبر والخير والإحسان والنيل
والحلم والصفح والإيثار مرحمة — للعالمين ذوي الحاجات والقل
وبجد والجهد في ذات الإله بما — استطاع بمأمور فرض الله والنفل
قد نال حالاً عظيماً في بدايته — بصدقه القصد في الأقوال والفعل
وفـي نهـايتـه كـانـت وراثتـه — لجده صح فيه النقل عن عدل
فشـأنــه دائمـاً يــرقـى بهمتـه — أوج المعالي لشرب العل والنهل
فلم يزل عامر الأوقات ينفقها — في طاعة الله يقفو سيد الرسل
وبـاذلاً وسعـه فـي هـدى أمتـه — لا يألو جهداً لذي الإعراض الجهل
فلا يرى غافلا في كل ما نفس — بالذكر والفكر أحيا العلم بالنقل
والسير دأباً على نهج السبيل وما — له الغريق نجا من أرشد السبل
فالحال منه كذا الأعمال قد خلصت — وعن رذائل شوم النفس قد خلي
وبالمحاسن أخلاق الكرام بها — على الأنـام عـلا لمـا بهـا حلـي
هذا الصلاح وعنوان الفلاح فأسـ — ـباب النجاح الذي نال مع الوصل
يا عمر البار يا هذا الذي كملت — أخـلاقـه بتمـام العقـل والفضـل
يدعوا بك الله هذا العبد تحفظه — من سطوات أولي الأحقاد والغل
وكيـد نفس وشيطـان وحـزبهمـا — من كل ذي خلق يجلد للسفل
يا رب بالبار كن لي حافظاً أبداً — للقلب والمال والأولاد والأهل
نعم ولا برحت تغشى جلاجل من — ضـريحـه رحمـات الله بـالنـزل
ويستمـر لـه مـن روحـه أبـداً — روح يتم على الأبكار والأصل
ثم الصلاة وتسليم الإلـه علـى — المختار والآل مع أصحابه الكل

وهذه القصيدة البليغة لسيدي الحبيب المستغرق بإحياء العلم، وإدمان العمل جميع الأوقات والأنفاس، محمد بن العارف بالله تعالىٰ الحبيب جعفر بن محمد العطاس، لما وقف على الأبيات الآتية بعد قصيدته، الموضوعات تقريظاً على منظومة سيدنا وشيخنا الحبيب عمر الذي هذا شرحها، وتعريضاً بمدحه الذي من جملته الوارد في فتحها، فقال زاده الله من معنى الجمال:

هب النسيم بأنفاس فأشجانا	وحرك الوجد أشواقا وأشجانا
وذكر الصب عهداً قد مضى فغدا	موله القلب بالي البال حيرانا
يرجو الوصال ولم تسعده همته	على الوفاق فأضحى وهو حسرانا
أسير نفس له شغل بشهوتها	عن المعاد فقضى الوقت مجانا
لم ينتهز فرصاً عزت منافسة	كلا وجلت مقاييساً وأثمانا
يا حسرتاه على عمر مضى وأنا	سبهللاً معرضاً عن فعل ما رانا
جم الجرائم خالي الجيب عن عمل	به غدا أرتجي عفواً وغفرانا
فما بقا غير عفو الحق لي أمل	أرجوه يقبلني مناً وإحسانا
بجاه طٰه شفيع المذنبين ومن	به هدى ربنا عجماً وعربانا
وآله وبأصحاب له نصروا	دين الإلٰه وشادوا عنه أركانا
والأنبياء وكل الصالحين بهم	نرجوا من الله توفيقاً ورضوانا
وحسن عاقبة أيضاً وعافية	تشملنا وكذا أهلاً وجيرانا
مع القرابات والأصحاب أجمعهم	والحاضرين ومن في الله والانا
لا سيما من له في القلب منزلة	ونور أنفاسه ما زال يغشانا
حبر العلوم ومعيار الفهوم وتر	ياق السموم ومجلي نوره الرانا
بحر ولكنه عذب وهمته	غيث ولكنها بالله مولانا
لله من جهبذ طابت سريرته	وفي الحجا ساد أقرانا وأقرانا
من حسن الله أخلاقاً له وكذا	خلقاً وأوهبه يمناً وإيماناً
البار إسماً سوى أن حقيقته	فعلاً إذا شئت إفصاحاً وتبيانا

نجل الوجيه زعيم القوم لا برحت ... يداه تستمطر المعروف هتانا

العالم العامل المرضيُّ سيرته ... من ساد ذوقاً وتحقيقاً وإتقاناً

لما تخلى تخلى واهتدى فهدى ... ففاق في الوقت إنساناً وإنساناً

لا زال منتجعاً للقاصدين يفيـ ... ـد الراغبين على الخيرات معوانا

يا عين أعيان هذا القطر فامنحنا ... بدعوة يصلح المولى بها الشَّانا

وتنقضي حاجة في النفس يا أملي ... في خير وقت لأبقى الدهر جذلانا

ملاحظاً بخفي اللطف يكلأني ... عناية الحق إسراراً وإعلانا

ثم الصلاة على الهادي وعترته ... ما ناح طير على الأفنان أفنانا

وصحبه وكذاك التابعين لهم ... ما أعقب العسر ذو الألطاف يسرانا

مع السلام عدد ما قال ذو حزن ... هب النسيم بأنفاس فأشجانا

وهذه أبيات التقريظ الجامعة لمدح منظومة السيد، وللثناء لناظمها بالصريح والتعريض، للشيخين الأفضلين حسن بن فارس باقيس، وعبد القادر بن عبد الله بن العبود باسندوه، جزاهما الله خيراً، وزادهما إلى معرفته سيراً، قال الأول رحمه الله:

أسماء أهل طريق الله قد نظمت ... بنظم در وياقوت ومرجانا

ناظمها البار مولانا وعمدتنا ... عمر تعمر بعمر كل أحيانا

فالله يجزيه إحساناً ويرزقه ... فيض الفتوح ويعلي منه الشانا

لا زال من بحره يخرج حليتنا ... وفي المعاضل ملجانا ومنجانا

قد فاق في علمه من قبله سلفوا ... وصار في الوقت إنساناً فإنسانا

وقال الثاني:

لنظم در عجيب وصفه أعيانا ... ناظمه فاق أشكالاً وأقرانا

حاز العلوم وحل المشكلات لنا ... وشاد للدين تبياناً وأركانا

سر السري قد سرى فيه يقيناً ... مع زهادة العارف المشهور شينانا

وفي الحديث البخاري قد حكاه لنا	وفي التصوف روض للرياحينا
فما ابن مالك في النحو الذي جمعا	وفي الفصاحة ما قس وسحبانا
عمر تعمرت أوقات الزمان به	البار لا زال أحياناً فأحيانا

وقلت مجيباً على هؤلاء السادات، مغترفاً من بحر قريظهم في هذه الأبيات:

هذا حديث عن السادات أنبانا	إسناده باتصال الود أحيانا
يا أيها القوم ما أحلى حديثكم	بسر معناه في المحبوب أبكانا
لله در ضراغيم جهابذة	حازوا علوماً وأعمالاً وعرفنا
فاهوا بما قدروا فأحيوا بما نشروا	ميت القريض الذي طاب فأشجانا
ويذكرون مقاماً قام فيه من الـ	سادات ندب إلى الرحمٰن أدنانا
شيخ الوجود وبحر الجود منبعه	عين الشهود بحال الفرق قد زانا
عمر ولد عبد الرحمٰن الذي زهرت	به الأسانيد تبياناً وبرهانا
نال العلوم فأحيا من دوارسها	ميت الفنون فأقصى عنه هجرانا
كانت مدارسنا من قبل شاغرة	واليوم عامرة علماً وعرفانا
أضحت مرابعنا بالبار آنسةً	والسهل والوعر مسروراً وجذلانا
فالحمد لله قد من الإلٰه به	على العباد فأولاهم وأولانا
هدى به الله من تيه الضلال كما	بجده قد هدى صماً وعميانا
فهو جدير بإطلاق الثناء ولقد	ثنا عنانا إلى مولاه أديانا
عن رؤية الخلق بل بالحق مشتغلٌ	سراً يعاملنا بالجسم أحيانا
فكل من قال قولا فهو يشهده	علماً وذوقاً وتحقيقاً وإتقانا
فإنما هو آتٍ من فضائله	كالليل من خضم بالدر ملانا
حدث بما شئت عن هذا الإمام ولا	تعنَ بمن حاد عدواناً ونكرانا
واقنع أناساً لهم في الفضل سابقة	تسموا ومنزلة تعلوا وإيقانا
مثل الحبيب جمال الدين صفوتنا	به استفدنا وفي الرحمٰن آخانا
والحسن البدر مع نجل العفيف فقد	أشفوا بما ذكروا روحاً وجثمانا
لا زال فضلهم في الناس منتشراً	ويشمل الكل غفراناً ورضوانا

ثم الصلاة مع التسليم منه على الهادي من الشرك بالإسلام أنجانا

والآل والصحب ما قد قال ذو شغف هذا حديث عن الأحباب أنبانا

وسيأتي في تراجم مشايخه ما يشهد له أيضاً بالكمال، وفي إجازتهم له وما له معهم من وقائع الأحوال.

فصل في نقل شيء من كلامه، ووشي برود الأسطر بمعاني أرقامه.

قال رضي الله عنه: من استقام وسار على الطريقة المثلى، التي لا عوج فيها ولا أمتا، دل ذلك على نورانية باطنه، إذ الظاهر عنوان الباطن، كما قال ﷺ فيمن رآه يعبث بيده: «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه». وقال رضي الله عنه: من شمر ذيله وشد مئزره في الطاعة، ومد رجله في سبيل الجماعة، ويده في الإنفاق في أهل المجاعة، مع رؤية النفس وأن لها شأناً ومكاناً، فهو ممنوع ومقطوع، مما حصل لأهل التواضع، ورؤية المنة لله تعالىٰ فيما أجرى على أيديهم من الخيرات، ولو سكن هالة القمر في ظاهره، ووصف ببلوغ الوطر في حاضره.

وقال قدس الله روحه: صاحب الفتح الحقيقي، هو الذي يضم ويحفظ ما الله فاتح به عليه من أمور الحقيقة، المستورة عن غالب الخليقة، وقام بالأمر المشروع على لسان النبي المتبوع ﷺ، فلم يمنعه ظاهر الشريعة عن نظر الحقيقة، ولم تخرجه الحقيقة عن القيام بمواسم[1] الشريعة، بل قام بالأمرين ونظر بالعينين، يسر الله لنا التأدب بالآداب، وأوصلنا إلى منازل الأحباب، المشافهين بالخطاب، القائمين بأحكام السنة والكتاب. وقال رضي الله عنه: رأيت بعض الأكابر من أهل اليمن، فاستمديت منه استمداداً كلياً، وذاكر في الذكر وطرائق القوم، فقلت: طريقة أهل اليمن قادريَّة، فقام إلى عندي وهو في حالة ذهول، ولقنني كلمة الإخلاص ثلاثاً، وقلت كما قال، وذكر بعد الأولى (العظيم)، وبعد الثانية (الكريم)، وبعد الثالثة اسماً نسيته بعد الانتباه أظنه (الحليم)، قال: لا إله إلا الله العظيم، لا إله إلا الله الكريم، لا إله إلا الله الحليم، ويظهر في كون العظيم في الأولى، أنه تعالىٰ عظيم مستغني عما سواه بأحديته في ذاته وصفاته، ثم تكرم

(١) كذا فى الأصل ولعلها بمراسم.

بإيجاد خلقه وإمدادهم وإرسال الرسل وإيصال المنافع ودفع المضار، ثم إنه لما كان من طبع الإنسان الذنب والغفلة ونسبة الأمور إليه، أردفه بالحليم الذي لا يؤاخذ الجاني بما جناه، بل يعطي الراجي فوق ما يتمناه فضلا ومناً، قال زروق رحمه الله فمن عرف أنه العظيم، صغر في عينه كل شيء إلا ما له نسبته من تعظيمه تعالىٰ والتقرب به، تعلقاً من جهة التذلل والافتقار، ومن جهة التخلق بأنه يتعاظم عن كل وصف ذميم، ومن عرف أنه الكريم ذاتاً لم يتوجه إلى غيره، ومن عرف أنه الكريم صفة لم يحب سواه، ومن عرف أنه الكريم فضلاً لم يطلب من غيره ولم يدبر معه، ومن عرف أنه حليم سكن إلى حلمه من غير إغترار، فغلب عليه الأنس والروحانيَّة ، والأول يناسب حالة المريد في ترفعه عن النقائص، والثاني للسائر الغير الملتفت، والثالث للمنتهي لحصول الطمأنينة والرحمة، والإغضاء واحتمال الأذى، حفظه الله من جميع البليات، والأذيات الدينية والدنيوية. وقال نفع الله به: استمد من كل من توسمت فيه الخير، وأحسن الظن تسلم:

وكل الليالي ليلة القدر فاعتقد   وكل فتى تلقاه فاعتقد الخضرا

ومما كتب به إلى بعض المتعلقين به، وعرفنا ما شرحتم وإليه أشرتم، والأمر كما قيل:

والحق أن تكون حيث أنزلك   حتـى يكـون الله عنـه نقلـك

والصبر والاحتمال من صفات الكمال، والمداراة والرفق عليهما مدار كبير، فخذوا بهما، وأما الانقطاع والعزلة، فما نرى لكم ذلك مع حصول النفع، ولو قليلاً في هذا الزمان ، الذي رغب الناس فيه عن الخير، وعليكم بجذب الناس إلى ما فيه صلاحهم في أمر دينهم، ومروهم بالصلاة ولوازمها تنالوا بذلك خيراً كثيراً، لأن يهدي بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم، وانتظر ما عند الله من الفتوح والمنوح، فإن له سبحانه وتعالىٰ نفحات ونظرات، تغمر وتعمر، جعلنا الله وإياكم ممن شملته العناية والرعاية، وعمته ألطاف مولاه في البداية والنهاية، إنه على كل شيء قدير.

وقال نفع الله به: استوصوا بعد تقوى الله بأداء المأمورات على الوجه المطلوب بطلب العلم، مع عدم رؤية ما امتازت به النفس على أبناء جنسها، فإن ذلك من العجيب، واشهد تربية الحق العامة، وإقامة كل من عباده في مقام لائق بروحه، ولما قدم شيخه العارف بالله تعالى شيخ بن محمد الجفري، في بعض أسفاره من جهة مليبار إلى اليمن، فأرسل له سيدنا الحبيب عمر السلام من محل آخر منها، كما هو السنة إرسال السلام إلى الغائب، وقال للرسول: سلم على سيدي شيخ، وقل له: كيف!، فبلغه الرسول كذلك، قال سيدي الحبيب عمر: ففهم الحبيب شيخ من ذلك الطلب مني الحال، يرفعني عن دني الخصال، فقال للرسول: سلم عليه، وقل له: الكيف عند العطار. قال[1]: فعند ذلك سرى سر فهمه في فرقت ما ترى، فإن وافق ولو من بعض الوجوه فذاك، وإلا فإني استغفر الله من الإقدام، على التكلم على نفثات أهل الالقاء والالهام، فقوله رضي الله عنه (الكيف عند العطار) أي الحال المطلوب من التخلي من العيوب والتحلي بأسرار القلوب، عند ذوي التصرف التام من الأعلام، في نفخ صور المريد طالب المزيد، إذ (العطار) في هذا المضمار، هو الشيخ الساري مدد همته في المزيد، سريان الماء في الأشجار، الفائح شميم عطر حاله في محبيه والحُضَّار، القائم في حق المعبود بالائتمار والانزجار، الجامع ما يحتاج الطالبون لصلاح قوتهم، في إقامتهم وسفرهم، وعلاج المريض وحفظ صحة الصحيح، و(الكيف) النشوة الحاصلة للإنسان، من فرح واستبشار وتبصير وابصار، وهم المشايخ بنجح المطالب وتقوى رغبة الراغب. فقد نظر الشيخ أبو الحسن الشاذلي إلى كليب، فحصل له أن اجتمعت عليه الكلاب، حتى قيل له، فنظر إليه ثانياً فمات. ومن ذلك ما قاله الشيخ أبو النجيب لأخيه صاحب العوارف، لما رآه يمشي في مسجد الخيف ويتصفح وجوهاً: يترجى نظرة ممن نظره اكسير يصير النحاس ذهبا. أو كما قال، وقال قائلهم: ليس الرجل من ملك، بل الرجل من مَلَكَ ومُلِّكَ أن يملك، وقال: ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه، فالعطار هو المستعد بالأطياب والأدوية المطلوبة في الحال للغذاء المعتاد، وكذلك المطلوبة في بعض الأوقات، وكون

(١) كذا في الأصل ولعله قلت.

الكيف عنده ينبغي أن يسعى له بالتزام ما لا بد منه في الوصول، والتعرض له بالجلوس بالأدب لديه، ليجذبه من عطره أو يمنعه بطيب نشره، وأما مع البعد ومجالسة غير اللائق، ما لزاعم أنه يتعطر بتلك المعاطير، والاستعمال للعهود من العقاقير، فمن أين يحصل لك الكيف، والتحول عن الوصف العيف(١)، إلا إذا منَّ المنان، الذي عطاؤه وفيض جوده لا يدخل تحت حسبان، غمرك بفضله، وسقاك من الشراب المزيل لكل علة، وطيبك بالطيب العال، وألحقك بأهل الكمال من الرجال، تفضل الله علينا بالعطاء الواسع، ورزقنا اتباع المصطفىٰ الشافع، للقريب والشاسع، صلى الله عليه وعلى آله، أهل الهدى الجامع والسر اللامع، ما طلع طالع، وكرع من دنِّ المحبة كارع، وقد سبق عند قوله:

ما سار سالك على الطريق ... إلى مقامات أولي التحقيق

وله أشعار كثيرة ورسائل ووصايا مختصرة، ومن شعره قوله:

إني فقير إلى الإحسان يا سادةْ ... وفضلكم لم يزل في الخلق ترداده

فامنحوا العبد من إمدادكم مدداً ... يحد به ويصير الخير له عاده

ويملك النفس في الأحوال أجمعها ... تضحي لما جاء عن المختار منقاده

ويرتوي من شراب القوم في ملأ ... كساهم الحق فضلاً ثوب إرشاده

فصل: وأما كراماته ـ رضي الله عنه ـ فكثيرة، وأعظمها ما كان عليه من كمال الاستقامة والأخلاق المحمديَّة الجامعة لأنواع الكرامة، وأما وجود الخارق الذي هو أثر من آثار الاستقامة وصدق الاتباع له ﷺ ـ كما سبق تحقيق ذلك ـ فمما نقل عنه ونسب إليه، من نوع كشف أو تفريج كربة بدعاء أو توسل، أو قضاء حاجة أو شفاء مرض، أو دفع بلاء أو عذر أو جائحة، أو غير ذلك مما يكرم الله به أولياءه، من خوارق العادات وأنواع البشارات، فمتعذرة الإحصاء، ومتعسرة الاستقصاء، مع عدم الاكتراث والتتبع والاستقراء لتحصيلها، لأنه إذا صحت ولاية الولي، وجب اعتقاد نسبة الكرامة له وإليه كما مر تحقيقه أيضا.

---

(١) أي الشين.

وهنا نورد بعض ما بلغنا مع الاختصار والإشارة، فمن ذلك ما اشتهر عن كثيرين من الثقات، أنه سافر في البحر إلى بعض الجهات، فكمل[1] الماء العذب المعد للشرب في السفينة، واحتاج الركاب إليه وعطشوا عطشاً شديداً، فلما رأى حاجتهم وشدة اضطرارهم، وتحقق له صدق افتقارهم، طلب إنائين كبيرين من السفينة، وأدلاهما في البحر وأملاهما ورفعهما، فإذا ما فيها عذب فرات، استحال من الماء الأجاج ببركته، فطلبوا منه إملاء غيرهما من الأواني ليستعدوا بها لحاجتهم المستقبلة، لبعدهم عن البر ومواضع الماء العذب، فقال لهم: هذا الذي قدره الله لكم، سدوا به حالتكم الراهنة، فكفاهم ذلك إلى وصولهم إلى أحد المواضع التي فيها الماء. ويقرب من هذه ما حكي عنه أنه سار في بعض السنين إلى حضرموت، فأتى هو ومن معه إلى محل لم يكن فيه ماء، وكانوا محتاجين إليه حاجة شديدة، فأمرهم بإتيان موضع في ذلك المحل وأشار إلى أن فيه ماء، فوصلوا إليه ووجدوا هناك ماء الذي كفاهم، وكان بعض من يختبر ذلك الموضع حاضراً، فسأله بعض الرفقة: هل يعهد بهذا الموضع ماء؟ فقال: لا، وإنما هذه كرامة أكرم بها هذا السيد. ومن ذلك ما حكي أنه أتى لزيارة الشيخ القطب أحمد ابن عبدالقادر باعشن، فأخرج له يده وصافحه. ومن ذلك أنه أتى مرة شعباً من الشعاب، للتنزه والاجتماع على ذكر الله تعالىٰ وقراءة العلم ومذاكرته، مع إخوة صفا وأعوان وفاق ووفا، فخلص الماء عليهم، وعزموا على أن ينقلوه من مكان بعيد بالنسبة إلى ذلك المحل، فطلعت سحابة بعد صلاة الصبح وأمطرت مطراً خفيفاً، لا يجتمع منه ما يسيل في ذلك الشعب عادة، فقال للحاضرين: سيخرج ـ إن شاء الله ـ سيل من الشعب، فلم يلبثوا إلا قليلاً، فجاء السيل ففرحوا به، فزاد سرورهم وكمل حبورهم، ولم يحصل أثر من تلك المطر في ذلك اليوم إلا في هذا الشعب خاصة.

ومنها ما أخبرني به بعض أهل الفضل من السادة الأطهار، قال: كنت في بعض السنين بمكة ـ زادها الله شرفاً ـ عاكفاً على قراءة حزب السعي ملتزماً بعض شروطه، فلما كان الليلة الثالثة من وقت ابتداء قراءتي، كأني أخللت ببعض الشروط، فتخيل لي أن المكان الذي كنت فيه أنه ينقلب بي، مع أفزاع أخرى تخيلتها، قال:

---

(١) أي نَفَذَ.

فأول ما أجرى الله تعالىٰ على لساني الاستغاثة بسيدي الحبيب عمر البار، فجعلت أصيح وأستغيث به، حتى اجتمع عليَّ خلق كثير، وحضر من له معرفة بعلم الأسماء، وارتفع عني ما كنت أجده، وكان سيدي الحبيب عمر البار في زاوية الشيخ عبد الله الحداد المشهورة بـ (شعب جياد)، فأتيته وأخبرته بما حصل لي، فمنعني عن قراءة السعي وأجازني في بعض الأسماء الإدريسيَّة، قال: وأخبرني من كان حاضراً عنده أنه في وقت استغاثته به اهتز وانتفض ثلاث مرات، وبشرني هذا السيد عن سيدي الحبيب عمر بشارة، رأى لها أثراً في اليقظة والمنام، كاشفه بها سيدي الحبيب عمر قدس الله روحه.

وأخبرني بعض المتعلقين به أنه أتاه ليسأله عن مسألة أشكلت عليه، وكان يفهم له من بعض العبارات المتضمنة لمعناها مفهوماً لم يتقرر له العمل بمقتضاه، فكاشفه بمسألته وقرره على مفهومه قبل سؤاله له. وأخبر أنه سرق لرجل مال له قدر، وذلك في نصاب مع إقامته بها، وكان المتهم بسرقة المال جندي يخاف منه المسروق إن طالبه، فجاء إلى سيدي الحبيب عمر ولازمه في ذلك، فقال له: إن شاء الله يرد إليك ما سرق عليك، فما شعر المسروق إلا وأعطاه جميع ما سرق عليه لم يختل منه شيء، ولم يطلع أحد كيف كان الأمر في استخراجه ورده.

وأخبر بعض أهل الصَّلاح من آل باعشن أنه سأله مرة هل رأيت النبي ﷺ؟ فقال له: لا، فقال سيدنا الحبيب عمر: أما أنا فقد رأيته ورأيت كثيراً من الصَّالحين وكاشفوني، وذكر أشياء غريبة، قال الراوي: فبهت وتحيرت، فلما رأى مني تلك الحال قال: ما كاشفوني إلا بمعاصي في قلبي. قال ذلك هضماً لنفسه كما هو عادته، وأخبر الثقة عن بعض آل العمودي أنه كانت به سلعة، ولم يزل يتسبب لإزالتها بالأدوية والعزائم، فلم يُجْد ذلك فيها، فقصد سيدنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ في إزالة ذلك، فأمر بدواء قَرِيب سهل، فاستعمله فزالت ببركته. وكم دعا لمريض فشفي، أو ذي عاهة فعوفي، وكم كاشف امرءاً بما في خاطره، واطلع على ما أكنه في سرائره، وفي غير ما مرة استسقى فأنزل الله ببركته الغيث الهني، ودعا في دفع بلاء فأزيح عن المستغيث به وروي، غير أن الزمان اقتضى ستر الأولياء وتغطية تصرفاتهم أحياءً وأمواتاً، لفساد العقائد وما ينشأ فيه بسبب خرق العوائد، إما بإنكار عدو حاسد مفند، أو وقوع معتقد فيما لا ينبغي له أن يعتقد،

لما يعلم من تهور العوام، وإقدامهم على أمور توقع في المخازي والآثام، والكرامة إنما تكون لتقوية مريد يستدل بها على استقامة شيخه أو كمال اتباعه لنبيه ﷺ، وليرغب في اقتفاء آثاره والاستضاءة في سلوكه بأشعة أنواره، وإثارة همته ونزوعه إلى ما حصل لذلك الولي من أنوار العبادة.

فصل في قوله ـ رضي الله عنه ونفع به ـ بعد البيت السابق في أول ترجمته:

لبساً وتلقيناً بقصد الفاتحة   لسادتي أهل الطريق الواضحة

أي قصدت نظم سندي إلى النبي ﷺ (لبساً وتلقيناً لقصد) تكرير شرف (الفاتحة)، (لسادتي أهل الطريق الواضحة) أي المشرقة بأنوار المعارف، فترتيب الفاتحة والتعرض لنيل فيوضاتها الراشحة مهداة لأهل الطريق، من أعظم ما يكافي به من أرباب التوفيق لمن هم السبب في السعادة الأبديَّة والنعمة السرمديِّة، فتقرأ بنيَّة ما قرئت له، بنحو الزيادة في شرفهم، واستجلاباً لمعروفهم وعرفهم، وقياماً بحقهم الواجب، وتنويهاً بما خصوا به من المزايا والمراتب. والحاصل أن القيام بحق المشايخ ـ كما قدمنا وكما حققه أهل المعرفة والنور ـ وطلب رضاهم أصل في الطريق، وسبب لرضا الله الموصل للالتحاق بأعلى فريق، وحال المريد مع شيخه كحال الصَّحابي مع النبي ﷺ، إذ الشيخ واسطة بين المريد ونبيه ﷺ، وهو واسطة الكل إلى الله تعالىٰ خصوصاً وعموماً، وانظر بعد هذا القياس الصحيح إلى أحوال الصحابة معه ﷺ واعتبر بهم، فإن من كان منهم أقوى إيماناً به وأشد حُبّاً له، وأكثر قياماً بحقه وامتهاناً لمهجته في جنابه الشريف، وأعظم ذهاباً في ذاته واتباعاً لأقواله وأفعاله وأخلاقه وصفاته، كان أقرب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من الله تعالىٰ ومنه ﷺ، وأعرف بالدين وبدرجات اليقين، والفوز بنور الصدق وانشراحه واتساعه وانفساحه، لتلقي العلوم وإدراك الفهوم، وكشف الحقائق ورشف الرقائق والوقوف على الدقائق، إلى غير ذلك من أسرار الله تعالىٰ، التي لا يطلع عليها ولا يقع على حقائقها إلا من نور الله بصيرته وصفى سريرته.

ونورد في شرح هذا البيت فيما يتعلق بخصوص ترجمة سيدنا الناظم، ما رقمه له بعض مشايخه من الإجازات مما وقفت عليه، إذ إثباته هنا من أنفس الإفادات، مما رقمه له خاصة أو له ولأخيه سيدنا وشيخنا العيدروس نفعنا الله بهم. لكن نقدم

على ذلك أموراً تتعلق بلبس الخرقة وتلقين الذكر، وحكم التحكيم وعقده وعقد الأخوة، وفي الطريق ومشايخها وتشعبها، والحث على الدخول في زمرة أهلها، والانتساب إليهم والانطراح عليهم نفعنا الله بهم. فنبدأ بذكر لبس الخرقة على نسق ما في هذا البيت، ولأنها هي أصل في الوصلة بين المريد والشيخ وفي سريان سره إليه، فنقول:

اعلم أن لبس الخرقة المتعارف عند الصُّوفية الذي يجعلونه عمدة في الرابطة بين المريد والشيخ، له أصل من السنة كما سيأتي تحقيق ذلك.

قال الإمام السهروردي ـ رحمه الله ـ في عوارفه: لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، والتحكيم شائع في الشرع بمصالح دنياويَّة، فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طلب صادق في طلبه، ويقصد شيخاً بحسن ظن وعقيدة محكمة في نفسه لمصالح دينه، ليرشده ويهديه ويعرفه طريق المواجيد، ويبصره بآفات النفس وفساد الأعمال ومداخل العدو، ويسلم نفسه إليه، ويستسلم لرأيه واستصوابه في جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة إظهاراً للتصرف فيه، فيكون لبس الخرقة علامة للتفويض والتسليم، ودخوله في حكم الشيخ دخوله في حكم الله وحكم رسوله، وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ. أخبرنا أبو زرعة قال: إن والدي الحافظ المقدسي قال: أنا أبو الحسين أحمد بن محمد البزار، قال: أنا أحمد بن محمد بن أخي ميمي[(١)]، قال: أنا يحيى بن محمد بن صاعد، قال: أنا عمر بن علي بن حفظه، قال: سمعت عبد الوهاب الثقفي يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: حدثني عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصَّامت، قال: أخبرني أبي عن أبيه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمع والطاعة، في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيث كنَّا، وأن لا نخاف في الله لومة لائم». ففي الخرقة معنى المبايعة، والخرقة عتبة الدخول في الصحبة، والمقصود الكلي هو الصحبة، وبالصحبة يرجى للمريد كل خير. انتهى المقصود من العوارف.

---

(١)

وقال الإمام الحافظ الشيخ محمد بن علي بن علان الصَّديقي الشافعي ـ رحمه الله ـ في (شرح الأذكار): فائدة: قال الشيخ تقي الدين ابن الصَّلاح: من القرب لبس الخرقة، وقد استخرج بعض المشايخ أصلاً من هذا الحديث.. ثم ذكر ما نقلناه عن العوارف، ونقل عنه قوله فيها.. (ولا خفاء فيها بأن لبس الخرقة على الهيئة التي يعتمدها المشايخ في هذا الزمان، لم تكن في زمن رسول الله ﷺ وإنما هو من استحسان الشيوخ، ويد الشيخ في لبس الخرقة تنوب مناب يد رسول الله ﷺ. قال: وقد رأينا من المشايخ من لا يلبس الخرقة ويسلك من غير لبسها، وكان طبقة من السَّلف الصالحين لا يعرفون لبس الخرقة ولا يلبسونها للمريد، فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل في السنة وشاهد من الشرع، ومن لم يلبسها فله رأيه، وكل تصاريف المشايخ محمولة على السَّداد والصِّواب، ولا تخلو عن نية صالحة). انتهىٰ كلام السَّهروردي، وفي (المواهب اللدنية): من قال إن علياً ألبس الخرقة للحسن البصري فمن الكذب المفترى، فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن سماعاً من علي فضلاً عن إلباسه الخرقة، قاله الدمياطي والذهبي، والعلاي ومغلطاي، والعراقي، والإيناسي والحلبي، وآخرون، مع كون جماعة منهم لبسوها تشبهاً بالقوم. انتهىٰ، لكن نقل الفاكهي فيما ألفه من مناقب الشيخ ابن حجر الهيتمي، عن الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي نفسه، أنه صح سند اتصالها عن الحسن عن علي، تبعاً للحافظ ابن حجر في (تهذيب التهذيب)، ونقل الصحيح عن جمع متأخرين كالحافظ السيوطي، وقال: ممن أثبت سماع الحسن من علي ـ رضي الله عنه ـ الحافظ الضياء في المختاره، وتبعه عليها الحافظ في التهذيب، ثم قال ابن حجر الهيتمي في معجمه بعد أن ذكر شيئاً: فإذا تأملت ما ذكرته علمت أن ما عليه الصوفيَّة من أسانيدهم التي تنتهي إلى البصري، لا مطعن ولا إنكار عليهم فيها.. وأطال في تأييد ذلك، وردَّ على من خالفه. انتهىٰ كلام الفاكهي.
وكان الحافظ السيوطي اختلف كلامه في المسألة، وإلا فالذي في رسالته التي ألفها في الخرقة مثل ما في المواهب، وكذا وافق ابن حجر الهيتمي، في (شرح الشمائل) القوم فيما قالوه من اتصالها من طريق الحسن باطل. وفي (رسالة الخرقة) و(حاشية سنن أبي داود) وكلاهما للحافظ السيوطي، بعد ما قدمه عن السَّهروردي،

قلت: وقد استنبطت للخرقة أصلاً أوضح من هذا الباب، وهو ما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من طريق عطاء الخراساني، أن رجلاً أتى ابن عمر سأله عن إرخاء طرف العمامة، فقال له عبد الله بن عمر: إن، رسول الله ﷺ بعث سرية وأمَّر عليهم عبد الرحمٰن بن عوف وعقد له لواء، وعلى عبد الرحمٰن بن عوف عمامة من كرابس مصبوغة بسواد، فدعاه رسول الله ﷺ فحلَّ عمامته ثم عمَّمه بيده، وأفضل من عمامته منه موضع أربع أصابع، أو نحو ذلك فقال: هكذا فاعتم فإنه أحسن وأجمل. زاد في (حاشية السنن): فهذا أوضح في كونه أصلاً للخرقة، في كون الصوفية إنما يلبسون من يلبسونه طاقاً لا ثوباً عاماً لجميع البدن، وأن حديث أم خالد في اللباس عطاء وكسوة، وهذا في إلباس تشريف وهو أنسب بلبس الخرقة، وأن لبس الخرقة فيه نوع من المبايعة ـ كما أشار إليه السهروردي ـ وأم خالد كانت صغيرة لا تصلح للمبايعة، بخلاف حديث عبدالرحمٰن بن عوف. انتهىٰ مع يسير اختصار، هذا ما نقله ابن علان رحمه الله، وما نقله عن السيوطي من قوله (وهذا أوضح في كون الصوفيَّة إنما يلبسون من يلبسونه طاقاً لا ثوباً عاماً لجميع البدن) محمول على الأغلب، وكذا ما ذكره في إلباس أم خالد مع صغرها يحمل في كونه لم يجعله دليلاً، إذا سلم له على خرقة الإرادة، أما خرقة التشبه والتبرك فهو دليل لذلك وأي دليل، كما سيأتي تحقيق ذلك من كلامهم.

وقال الشيخ الولي قطب الأحوال علي بن أبي بكر بن عبد الرحمٰن السَّقاف ـ نفع الله بهم ـ في كتابه (البرقة المشيقة في ذكر الخرقة الأنيقة): أجمع شيوخ هذه الأمة المحمديَّة، وأكابر سادات الأئمة الأحمديَّة، على أن صفة الخرقة الشريفة وتوابعها المنيفة، من آداب وتنويب وتحكيم ونصح ووصيَّة وتلقين وتعليم لأهل طريقة الحقيقة أصحاب المعارف الدقيقة، أرباب الإشارات النورانية والمنازلات الربانيَّة، سلسلة واحدة متصلة بالنبي المصطفى، واصلة من الرب العلي الأعلى، إذا تحرك أدناها تحرك أعلاها، ومن دخل في دائرة أهلها بصحبة ونسبة وخرقة فقد دخل من حماه في حرم، ومن تمسك من أيدي أوليائها بيد فقد استمسك بحبل الله واعتصم، وإلى فيض بحر الرحمة والبركة فقد قصد وأم، ومن لبس من شيخ من شيوخها خرقة فقد أصبح وأمسى في ظلال كنف عظمة الله تحت لواء

وعلم، وهذه السلسلة المشار إليها هي سلسلة النسب المعنوي والدين المحمدي والسبب الرباني الأحمدي، اللذان لا ينقطعان كالأنساب الطبيعيَّة والأسباب الدنيويَّة، كما قال رسول الله ﷺ: «كل سبب ونسب منقطع إلا نسبي وسببي» فينبغي شدة الاعتناء بلبس الخرقة وإلباسها، لتتأكد الصحبة وتقوى عروة القربة.

وقال في موضع آخر: قالوا: وينبغي لكل مؤمن راغب في التماس البركة، ومتعرض لفيضان الرحمة، أن يلبسها ويلبس أهله وأولاده وأحبابه، ومن يقبل نصحه ويلوذ بإحسانه ويعتمد مشورته، ويرغبهم فيه ويحثهم إليه ويحرضهم عليه.. إلى أن قال: واستحسنوا تكرر عقد التحكيم لأصحابهم، وأخذ العهد عليهم، والوصية بتقوى الله لهم. فإذا علمت هذا فاعلم أن الخرقة المشار إليها والمرغب فيها قسمان: خرقة إرادة خصَّ بها السَّادة الصوفية، وخرقة تبرك وإفادة وتقرب بها المحب إلى أهل السعادة. انتهى المقصود من البرقة.

وقال إمام المهيع ويفيد[1] المنزع، مؤلف (المشرع) في خاتمة كتابه المذكور: ولم تزل العلماء العاملون، والأولياء العارفون، في لباسها وإلباسها يتنافسون، وبآثارها مستمسكون، فأنوار بركتها على العالمين بحقوقها لائحة، وأنفاس طهارتها من شمائل المتخلقين بأخلاقها فائحة، ومعارف الحق لبواطنهم شارحة، وعوارف الصدق بفتون مواهب قلوبهم غادية ورائحة، ولله در من قال:

خـرقـة القـوم جنـة	للمـريـد المهـذب
وجمـال وحليـة	للمـراد المقـرب
وجـلال ورفعـة	لـلإمـام المـؤدب
فخـذوا علـم عينهـا	مـن خفـي بهـا حبـي
واعلمـوا أن سـرهـا	خيـر سـر لكـم حبـي
وخـذوا اللبـس واللبـاس	مـن الله والنبـي
واشكـروا الله واحـذروا	شـرمنـي ولـي ولـي
إن هـذا المـذهـب	عنـدنـا خيـر مـذهـب

---

(١) هكذا في الأصل ولعله وعلوي المنزع.

قال الشيخ أبو بكر بن عبد الله العيدروس العدني - رضي الله عنه - في الجزء اللطيف): وهي - أي الخرقة - من حيث رسوخ الأحكام خرق ثلاث: خرقة مجازية وهي خرقة التأليف، وخرقة جوازيَّة وهي خرقة التعريف، وخرقة إجازيَّة وهي خرقة التصريف، والخرقة المجازية للمحبين المتشبهين، وبها يتآلفون مشاهد الطريق، والخرقة الجوازية للمريدين المتمسكين، وبها يتعارفون شواهد الهداية والتوفيق، والخرقة الإجازية لهداية الداعين، وبها يتصرفون في معاقد أحكام الفعل والعلم والتحقيق، فخرقة الطبقة الأولى لطلابها رعاية، وخرقة الطبقة الثانية لأصحابها هداية، وخرقة الثالثة لأربابها ولاية. وقال بعضهم: خرقة تشبه، وخرقة تبرك، وخرقة إرادة، فخرقة التشبه والتبرك لا بأس بها لكل أحد، كالسلاطين والأمراء والتجار، وأما خرقة الإرادة فلا يتعاطاها إلا من له إرادة صادقة وهمة عالية، وصبر على المجاهدة، وخروج عن أوامر النفس واختياراتها، ودخول في أوامر شيخه ونواهيه، فمن لبسها للتشبه والتعلق فهو لاحق، وإذا لبس مريد من شيخ لبساً مطلقاً ساغ له أن يلبس غيره، وإن لم يأذن له شيخه في الإلباس، فإن اختار بعضهم تعين الإذن في اللباس، وكذا إذا لبس من شيخ له طرق متعددة، فله أن يلبس عنه بكل طرقه، وإن لم يقترن إلباسه بالإذن، نظير ما قاله أئمة الحديث: إن الطالب إذا سمع حديثاً أو كتاباً من شيخه، أن يرويه عنه وإن لم يأذن له شيخه في الرواية عنه، ولم يبلغنا عن أهل العهد الأول من المتقدمين من مشايخ الصوفية، في لباس الخرقة ذكر الإذن والإجازة، وإنما كان اللبس فقط، وإنما اختار المتأخرون تعيين الإذن في اللباس لمعنى أرادوه، والمعتبر في رواية الحديث علو الإسناد ليقل فيه احتمال الكذب، والمعتبر في لبس الخرقة الشريفة كثرة المشايخ لتكثر أنوار الحق في الطريق، فكلما ازدادت الأنوار في الطريق انجابت الظلمة فسهل السلوك، وكلما كثر المشايخ بين النبي ﷺ وبين المريد كان استمداده منهم أتم، وأنواع الثياب المباحة المعتاد لبسها رفيعها وكثيفها يطلق عليه اسم الخرقة. انتهى ملخصاً مما ذكره في المشرع عن (الجزء اللطيف في التحكيم الشريف)، وذكر مثله في (السلسلة العيدروسية) وقال في آخره: وإنما اختار المتأخرون من شيوخ الصوفيَّة تعيين الأذن في الإلباس لمعنى عرفوه وأرادوه فيمن يلبس منهم، وقسموا لبس الخرقة لهذا

المعنى على أقسام: لبْس للتبرك، ولبس للتشبه، ولبس للتزين، ولبس للإرادة، ولبس للتشريف، ولبس للتأهيل، ولبس للتكميل، ولهم في ذلك شرائط وأحكام ودقائق وأسرار، ويجوز استدعاء اللبس من المشايخ، ويجوز إلباس الصغير، ويجوز اللبس بالرسائل، والقوم يأخذون عن الله ومن الله، ويقطعون بالله ولله. انتهىٰ.

واعلم أن لبس الخرقة فرع من فروع التحكيم، ومعنى التحكيم: أن يلقي المريد الصادق نفسه إلى شيخ من مشايخ الطريق، ينطرح عليه ويتمثل بين يديه، وقد أوضح سيدنا الإمام الشيخ عبد الله الحداد باعلوي ـ قدس الله روحه ـ تعريف هذا الشيخ وصفته في (رسالة المريد) فقال: وكن شديد الحرص على طلب شيخ صالح، مرشد ناصح، عارف بالشريعة، سالك للطريقة، ذائق للحقيقة، كامل العقل واسع الصدر، حسن السياسة عارفاً بطبقات الناس، مميز بين غرائزهم وفطرهم وأحوالهم، فإن ظفرت به فالق نفسك عليه، وحكِّمه في جميع أمورك، وارجع إلى رأيه ومشورته في كل شأنكَ، واقتد به في جميع أفعاله وأقواله إلا ما يكون خاصاً منها بمزية المشيخة، كمخالطة َالناس ومداراتهم، ودعوة القريب والبعيد إلى الله عز وجل، وما أشبه ذلك.. ثم قال بعد ذلك.. ولا تجتمع بأحد المشايخ المتظاهرين بالتسليك إلا عن إذنه، فإن أذن لك فاحفظ قلبك. واجتمع بمن أردت. وإن لم يأذن فاعلم أنه قد آثر مصلحتك، فلا تتهمه وتظن به الحسد والغيرة، معاذ الله أن يصدر عن أهل الله وخاصته مثل ذلك. انتهىٰ، وقد ذكر ـ رضي الله عنه ـ في خاتمة هذه الرسالة جملة في صفة الشيخ المربي وتعريفه وما يراعيه المريد معه، وقد سبق شيء مما يتعلق بذلك في مواضع من هذا الشرح، وقد سئل ـ نفع الله به ـ هل يجوز تعدد المشايخ في حق شيخ واحد أم لا؟ أجاب: نعم يجوز ذلك بشرط أن لا يكون بين طرائقهم منافاة ولا مضادة، ولا يكون بينهم شيء من الخلاف، ويكونوا كلهم من أهل الصدق والإنصاف، والاعتماد على واحد يكون هو المعول عليه لا بد منه في الغالب. انتهىٰ.

واعلم أن لعقد التحكيم وللبس الخرقة، وتلقين الذكر وعقد الأخوة، كيفيات وصيغاً معروفات، مختلفة الروايات من حيث استحسان المَشايخ لتلك الصيغة، وننقل في كل من هذه الأمور صيغة من كتاب (البرقة المشيقة) و(المشرع الروي).

فمن (البرقة) قال رضي الله عنه: قالوا يقعد المتحكم متربعاً بين يدي المحكم، ويضع يده في يده ويقول لمن حضر: تراصوا، ويلزم القريب بيد الشيخ أو بيد نائب الشيخ أو شيء من بدنه أو ثيابه، وكذا يلزم من يلزم بالتحكم ويلزم هذا بهذا، حتى لا يبقى أحد إلا لزم بشيء ممن هو أقرب منه بالغاً ما بلغوا. انتهى، وقال في (المشرع الروي): ولم يبلغنا في كيفية التحكيم الشريف وإلباس الخرقة الشريفة قول ولا فعل من جهة السنة، ولكن استحسن المشايخ الهيئة المعروفة، قال الإمام أحمد الرداد: وصحبت أكثر من ألف شيخ من شيوخ العلم والحديث والصوفية شرقاً وغرباً، ولم أر أحداً منهم إلا وهو مستحسن لهذه الهيئة التي اعتمدها المشايخ. انتهىٰ، والظن بهم أنهم لما اختاروها إلا لكونها في زمانهم أنفع للمريد، وأوقع لنفسه فيما هو المقصود منه، من التخلق بأخلاقهم والتأدب بآدابهم، والوسائل لها حكم المقاصد، وما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن، وإن لم يكن وارداً بخصوصه عن رسول الله ﷺ، والكيفية التي ذكروها في أخذ العهد ولبس الخرقة: أن يتطهر ويأمر المريد بالتطهر من الحدث والخبث ليتهيأ لقبول ما يلقي عليه، ويتوجه إلى الله تعالىٰ ويسأله القبول لهما، ويتوسل إليه في ذلك بمحمد ﷺ لأنه الواسطة بينه وبين خلقه، ويضع يده اليمنى على يد المريد اليمنى، بأن يضع راحته على راحته، ويقبض إبهامه بأصابعه ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمٰن الرحيم، ويقرأ الفاتحة، ويقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٢]، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: ١٣١]، ويقول: أوصيكم وإياي بتقوى الله، ويقول المريد مثل ما قال، ثم يقول له: قل اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبياءك ورسلك أني قد قبلته شيخاً في الله ومرشداً وداعياً، ويقول الشيخ: اللهم إني أشهدك ـ إلى آخره ـ أني قد قبلته ولداً في الله، فاقبله وأقبل عليه، وكن له ولا تكن عليه، وانظر بعين عنايتك إليه، ويقول: اللهم أصلحنا وأصلح بنا، واهدنا واهدِ بنا، وأرشدنا وارشد بنا، اللهم أرنا الحق حقاً

وألهمنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، اللهم اقطع عنا كل قاطع يقطعنا عنك، ولا تقطعنا عنك ولا تشغلنا بغيرك، يا أرحم الراحمين، ثم يقول: الله على ما نقول وكيل، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الفتح: ١٠]، وذكر بعضهم كيفيَّات كثيرة. وكان شمس الدين الشيخ عبد الله العيدروس إذا أخذ العهد يأمر المريد بالتوبة والاستغفار، وأن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، آمنت بالله وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله، وعذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين، والبعث والصراط والجنة والنار، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا، ورضيت بك شيخاً وواسطة إلى الله تعالىٰ، ثم يقول: مذهبنا في الفروع مذهب الشافعي، وفي الأصول مذهب أبي الحسن الأشعري، وطريقتنا طريقة الصوفيَّة. انتهىٰ. وعلى الجملة فهو عقد كالعقود يكفي إيجاب وقبول، وما زاد على ذلك من الهيئات وتعدد الصور والكيفيات، فهو من الأمور المستحسنات ولكل درجات، وإذا أراد أن يلبسه الخرقة فليتطهر ويأمره بالتطهر كما مر، ثم توضع الخرقة بين يديهما ويقرأ الفاتحة، ويلبسها الشيخ بيده للمريد قاصداً بذلك النيابة عن الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، ثم يذكر له نسبتها كأن يقول: أنا ألبسها لك كما ألبسني إياها شيخي فلان.. إلى آخرها. هكذا في (المشرع). زاد الشيخ عبد القادر العقيمي الأنصاري في رسالته (الفتوحات الإلٰهية)، ويستحب للمريد أن يصلي ركعتين شكراً لله تعالىٰ على ما أنعم الله عليه وتوفيقه له. انتهى. ثم قال في (المشرع): وإذا أراد أن يلقنه الذكر فليتطهر كما مر ويجلسه بين يديه، ويأمره بتغميض عينيه ويلقنه: لا إله إلا الله ثلاث مرات ويمد بها صوته، ثم يقرأ الفاتحة والإخلاص والمعوذتين ويهلل ما شاء الله، ويهدي ذلك إلى حضرة النبي ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين، والصالحين والمسلمين أجمعين.

وأما عقد الأخوة فيقرأون قبل عقدها سورة (والعصر)، ثم يعقدونها عند قراءتهم: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣]، ثم يقول أحدهما للآخر: وآخيتك في الله تعالىٰ وأسقطنا الحقوق والكلفة، ويقول الآخر مثله، ويقرأون

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ويقول: اللهم اجعلنا من الأخلاء المتقين المتحابين بجلالك، المتنزهين في رياض نور جمالك المستوجبين محبتك. انتهىٰ من (المشرع) وهذا الكلام في الكيفيات، ومن أراد الزيادة عليه أو معرفة ما يلزم من الحقوق برابطة مشيخة أو أخوة أو نحو ذلك فعليه بالكتب المبسوطة، ككتاب الصحبة من (الإحياء) والباب الثاني عشر من (العوارف)، وآخر (الرسالة) و (رسالة المريد)، وكلها كتب مشهورة، وقال في (المشرع الروي) أيضاً لمَّا ذكر الخرقة: وقد أفردها بالتأليف جماعة كثيرون أئمة عارفون، بسطوا الكلام في ذلك المجال، واستطالوا في الاستدلال، وذكروا أن المشايخ الذين تنسب إليهم الخرقة الشريفة في جميع أقطار الأرض خمسة، أحدهم: شيخ الإسلام، وعلم العلماء الأعلام، أستاذ العارفين أولي البصائر، قطب الأولياء المتوج بتاج الشرف والمفاخر، الذي خضعت لقَدَمه في الشرق والغرب رقاب الأولياء الأكابر، الشيخ عبد القادر الجيلاني قدسَ الله روحه ونور ضريحه، وإليه ينسب معظم شيوخ اليمن، الثاني: شيخ العارفين، وقدوة المحققين، وإمام السالكين، أحد أركان هذا الشأن، المعروف بخرق العوائد وقلب الأعيان، الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري المغربي الأندلسي، الثالث: الإمام الكبير العلم الشهير، مطلع الأنوار ومنبع الأسرار، شهاب الدين عمر بن محمد البكري السُّهْرَوَرْدي ـ بضم السين المهملة وسكون الهاء وفتح الراء الأولىٰ وسكون الثانية ـ، الرابع: شيخ الإسلام والمسلمين؛ أمثل الأولياء الوارثين، وأكمل الأئمة المجتهدين، شهاب الدين أحمد بن أبي الحسين الرفاعي الحسيني، الخامس: أستاذ المحققين، وقدوة العلماء العارفين، الشيخ أبو إسحق بن شَهْرَبار ـ بفتح الشين المعجمة والراء وسكون الهاء بينهما وباء الموحدة آخرها راء ـ الكازروني. وأشهر هذه المشهورات خرقة الشيخ أبي مدين، وإليه تنتهي خرقة سادتنا بني علوي ـ كما يأتي ـ وكذا آل العمودي، وكذلك ينتهي إليهم خرقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وذكروا أن جميع طرق الخرقة وإن شعبت عائدة إلىٰ الإمام أبي القاسم الجُنيد رضي الله عنه. انتهىٰ المقصود من المشرع الروي.

وذكر سيدنا الشريف الإمام العارف بالله عبد الرحمٰن بن عبد الله بلفقيه علوي ـ قدس الله روحه ـ في شرحه (رفع الأستار عن مفتاح الأسرار) السابق ذكره على قوله في القصيدة:

والأخذ بالتلقين والإلباس ... بوصل سلاسل السلسال

بطرائق مشهورة نافت على الـ ... ـعشرين قد عرفت بخير نوال

والإذن في الإرشاد والتحكيم والـ ... ـتدريس والفتوىٰ لكل سؤال

هذه الطرائق الخمس المتقدمة عن المشرع، والثلاث المتشعبة عن الشعيبيَّة، وهي العلويَّة والعموديَّة والشاذليَّة، ثم عدَّ باقي ما ذكره في البيت من الطرائق التي نافت على العشرين فقال: والبدوية المنسوبة إلى الشيخ أحمد البدوي، والأويسية المنسوبة إلى سيدنا أويس القرني الذي بشر به النبي ﷺ، والخضرية المنسوبة إلى الخضر المحكوم بنبوته وولايته وبقائه إلى الآن عند كثيرين، والقشيرية المنسوبة إلى الشيخ عبد الكريم بن هوازن صاحب (الرسالة)، والشطارية المنسوبة إلى الشيخ عبد الله الشطاري، والحبشية المنسوبة إلى الشيخ أبي إسحاق الحبشي، والطيفوريَّة المنسوبة إلى الشيخ طيفور الشامي، والهمذانية المنسوبة إلى الشيخ علي الهمذاني، والنقشبنديَّة المنسوبة إلى الشيخ بهاء الدين نقشبند البخاري والخلوتية المنسوبة إلى الشيخ إبراهيم الخلوتي، والعادليَّة المنسوبة إلى الشيخ بدر الدين العادلي، والغوثية المنسوبة إلى الشيخ محمد الغوث، والدسوقية المنسوبة إلى الشيخ إبراهيم الدسوقي، فهذا نيف وعشرون طريقة، اتصلت بحبلها وتعلقت بسلاسلها، وهي وإن تفرقت رسومها وتنوعت علومها، ترجع إلى أصل واحد، وتدور على تعريف الطريق إلى الآخذ الواحد، فبعضها راجع إلى بعض في السنة والفرض، ولا خلاف بين القوم إلا في الهيئات والرسوم، وليست الطريق إلى الله منحصرة في تلك الطرائق، بل طرق الله على عدد أنفاس الخلائق، فكم فتح الله على عبد في ذكر، وكم قربة في تذكر وفكر، وكم جذبة إليه في جذبة وهبيَّه، فأغنته عن المسالك في كل أمر، فحق العبد أن لا يزال معرضاً عن غير الله تعالىٰ، متعرضاً في كل حين لنفحات الله، ومن صح اجتهاده وتحقق على الله اعتماده،

فقد نجح مراده ووضح رشاده، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فليوزع أوقاته ويضبط أنفاسه، ويعمر العمر بالطاعات والعلوم، فيكون التفقه في الدين همه، وعلوم القرآن والسنة ديدنه ورسمه، والتصوف سره في سريرته وكتمه، ومن حضره الموت عرف قيمة عمره، لو طلب أن يؤخر يوماً لتدارك أمره لبذل الوفا من يسره وعسره. انتهىٰ.

ولما كان هذا الشرح على منظومة سيدنا وشيخنا صاحب الترجمة عمر بن عبدالرحمٰن البار ـ نفع الله به ـ عقد لبيان إسناد الطريقة العلوية، التي هي بكل فضل حريَّة، فلنتعرض هنا لذكر شيء من خصائصها وفضائلها، وما يترتب على تفصيل مقاصدها ووسائلها. قال الإمام العارف بالله تعالىٰ الشيخ محمد بن زين بن سميط علوي ـ نفع الله به ـ في كتابه (غاية القصد والمراد في مناقب الشيخ عبد الله الحداد): قال السيد الجليل عبد الرحمٰن بن علي ـ المنسوب إلى الشيخ عبدالرحمٰن السَّقاف باعلوي ـ قال: فسمعت سيدنا الأستاذ الحبيب عبد الله بن علوي الحداد ـ نفع الله به ـ ذات يوم، وقد جرى ذكر الطرائق وحكمها، وما ابتدع من الكيفيات المعروفات فيها، فأخذ ـ رضي الله عنه ـ في الكلام على طريق آل أبي علوي ومدحها وشيدها وأطال في ذلك جداً، وقال: إن طريق آل أبي علوي أقوم الطريق وأعدلها، وسيرهم أحسن السير وأمثلها، وإنهم على الطريق المثلى والمهيع الأفيح، والمشرع الأوضح والسبيل الأسلم الأصلح، ولا يبعد أن يكون لمشايخ آل أبي علوي وأكابرهم في الآخرة رتبة ومزيَّة ليست لغيرهم، وفضيلة على من سواهم من المشايخ، لما كانوا عليه من الخمول والضعف وعدم الشهرة وانتشار الصيت والذكر، مع عظم القدر وجلالة الحال بخلاف غيرهم. وقال رضي الله عنه: لا ينبغي لأحد من آل أبي علوي أن يخالف المنهج الذي درج عليه أسلافه، ولا أن يميل عن طريقهم وسيرهم، بأن يتبع ويتجز ويلقي القياد لكل من يدعي التسليك والتحكيم، ممن يخالف سيرته وطريقته طريق آل أبي علوي، لأن طريقهم يشهد لها الكتاب العزيز والسنة الكريمة، والآثار المرضية وسير السلف الكرام، لأنهم تلقوا ذلك خلفاً عن سلف، وأباً عن جد إلى النبي ﷺ، وهم في ذلك متفاوتون، فمن فاضل وأفضل وكامل وأكمل، وساق من مقالاته ـ رضي الله عنه ـ في هذا المعنى حتى قال: إن السيد محمد بن علوي ـ رضي الله عنه ـ عاب

على بعض السادة؛ بسبب تحكمه لبعض المسلكين في ذلك الزمان ـ يعني من غيرهم ـ ولما جاء الشيخ باركوه إلى تريم، وقصد أن يحكم ويلقن السادة على الكيفية المعروفة من سيرته، رأى في المنام سيدنا الفقيه المقدم يقول له: اخرج من البلد لئلا تفتن أولادي، فخرج منها هارباً. انتهىٰ، وسيأتي ما حصل لسيدنا الحبيب عمر البار صاحب الترجمة، لمَّا سافر إلى البصرة وأراد الشيخ علي البصري ـ الآتية ترجمته ـ تسليكه، فلما أصبح وأتى إليه قال له: أنت شيخك الحداد وسلفك يوصون بك ـ أو معتنون بك ـ.

وقد سئل سيدنا الإمام المحقق العارف بالله تعالىٰ الحبيب عبد الرحمٰن بن عبد الله بلفقيه علوي، عن طريق السَّادة آل باعلوي ما هي؟ وكيف هي؟ وهل يكفي في تعريفها اتباع الكتاب والسنة أم لا؟ وهل بينهم تخالف؟ وهل تخالفها غيرها من الطرق أم لا؟ فأجاب ـ رضي الله عنه ـ بقوله: اعلم أن طريق السَّادة آل باعلوي أحد طرق الصوفيَّة التي أساسها اتباع الكتاب والسنة، ورأسها صدق الافتقار وشهود المنة، فهي اتباع المنصوص على وجه مخصوص، وتهذيب الأصول لتعريف الوصول، فلها فائدة ونفع معلوم، يزيد على ما يقتضيه اتباع الكتاب والسنة على وجه لعموم، وذلك أن علم الاحكام، المشتمل المتعلق بظاهر الأحكام، أصل موضوعه عام في عام، شامل لما المقصود منه ربط النظام، وتقييد الطغام وغيرهم من العوام، ولا شك أن الناس مختلفون في الدين في كل مقام، فلا بد من علم خاص لكل مخصوص، وهو محل نظر الخواص، في حقيقة التقوى وتحقيق الإخلاص، فإنه طريق مستقيم، أدق من الشعر وأحد من السيف، لا يكفي فيه التعليم بالعموم، بل لا بد فيه لكل حري من تعريف وتوقيف، وهذا هو علم التصوف، والسلوك به إلى الله تعالىٰ طريق الصوفية، فظاهرها علم وعمل بمقتضاه، وباطنها صدق التوجه إلى الله تعالىٰ بما يرضاه فيما يرضاه، فهي جامعة لكل خلق سُنِّي سَني، مانعة من كل وصف دني، غايتها القرب إلى الله تعالىٰ والفتح الهني، فهي طريق أوصاف وأعمال، وتحقيق أسرار ومقامات وأحوال، يتلقاها الرجال عن الرجال، بالتحقيق والذوق والفعل والانفعال، على حسب الفتح والفضل والنوال، كما قلت في كتاب الرشفات:

ومـن يكـن بكـل علـم عـالـم ولـم يـذقهـا فهـو سـاه نـائـم
فخـف عليـه مـا يخـاف الهـائـم عنـد كفـاح المـوت والأهـوال
ونيلهـا مـن منـح فيـض وهبـي أو فتـح فضـل بعـد جـد كسبـي
لا من روايات الورى والكتب ولا بقيـــل علمهـــا أو قـــال
طوبى لمن طاب لها استعداده وانحـل مـن رق السـوى قيـاده
فحـل مـن عيـن الحجـا رشـاده فـــذاق منهـــا بلـــة ببـــال
فبلـة مـن كـاسهـا المختـوم تملـي ريـاض القلـب بـالعلـوم
وتحفـظ الفهـم عـن الـوهـوم وتطلـق العقـل مـن العقـال

إذا علمت ذلك فاعلم أن طريق السادة آل باعلوي نسجها على هذا المنوال، فظاهرها علوم الدين والأعمال، وباطنها تحقيق المقامات والأحوال، وآدابها صون الأسرار والغيرة عليها من الابتذال، فظاهرهم ما شرحه الإمام الغزالي من العلم والعمل على المنهج الرشيد، وباطنهم ما أوضحه الشاذليَّة من تحقيق الحقيقة وتجريد التوحيد، وعلومهم علوم القوم، ورسومهم محو الرسوم، يرغبون إلى الله بالتقرب إليه بكل قربة، ويقولون بأخذ العهد والتلقين ولبس الخرقة، ودخول الخلوة والرياضة والمجاهدة وعقد الصحبة، جل مجاهدتهم الاجتهاد في تصفية الفؤاد، والاستعداد بالتعرض لنفحات القرب في طريق الرشاد، والاقتراب إلى الله بكل قربه في صحبة أهل الإرشاد، فلا بد مع صدق التوجه لوجه الله من فضل الله، ومع جد الجهاد وبذل الاجتهاد من فتح الله ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فأصل طريق السادة آل باعلوي الطريقة المدينية، طريقة الشيخ أبي مدين شعيب المغربي، وقطبها ومدار حقيقتها الفرد الغوث الشيخ الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي الحسيني الحضرمي، تلقاها عنه الرجال عن الرجال، وتوارثها عنه الأكابر أولو المقامات والأحوال، ولكن لكونها طريق تحقيق وأذواق وأسرار، جنحوا إلى الخمول والستر والإسرار، لم يضعوا في ذلك تأليفاً، ولا صنفوا فيه تصنيفاً، ومضى الطبقة الأولى على ذلك إلى زمن

العيدروس وأخيه الشيخ علي، فاتسعت الدائرة وبعد المزار، واتصل بهم القريب والمنفصل ببعد الدار، احتيج إلى التأليف والإيضاح والتعريف، وظهر بحمد الله ما يشرح الصدور ويبهج النفوس، كالكبريت الأحمر، والجزء اللطيف، والمعارج والبرقة.. وغير ذلك مما كثر واشتهر، وضوَّع عرف معرفته الآفاق وانتشر، وأكثر المتأخرون لذلك التأليف، واشتهر لهم في كل تعريف وتصنيف، ما لهم في مسالك السلوك ومنازلة المقامات والأحوال، من المجاهدات وموارد الواردات والجذبات، وعلوم الأسرار والمكاشفات في أعمال وأقوال، تؤذن بأنعم بشريَّة وأعظم رتبة، فصارت طريقتهم طريقة قائمة بنفسها ظاهرة شمسها، غنية عن التعريف، لشهرتها عند أهل المعرفة وشيوعها بكل تأليف وتصنيف، وقد سلف السَّلف الصالح على هذا الحال، يؤثرون التلقي بالتحقق والأعمال، فلذا لم يظهروا التأليف في العلوم إلا في زمن تابع التابعين، لخوف اندراس ما هو معلوم، وكذلك الصوفية على هذا التأسيس، يتلقون ذلك من بعضهم بعضا، إلى أن ظهرت البدع وخيف التلبيس، كما أشار إلى ذلك القشيري في صدر (الرسالة)، فاحتيج إلى التأليف وإيضاح الدلالة، وقد قيل للشيخ أبي الحسن الشاذلي: لم لا تضع تأليفاً في الطريق؟ فقال: تأليفي أصحابي، وقيل: إن طريق الشاذليَّة في حزوبهم مطويَّة، لاشتمالها على تحقيق التجريد وعلوم التوحيد وصدق العبوديَّة، وليس بين السادة آل باعلوي في طريقهم تخالف، وإنما اختلف المشهود بحسب المشاهد واختلاف الشهود، فظاهر بالجمال شاهد الفضل في مشاهد الإفضال، باحٍ بالنوال واستباح ما فعل وقال، بحسب البسط والحال، وباطن ظاهره الجلال، فاستعفى واستقال، ولازم الافتقار والانكسار في جميع الأعمال والأحوال، فلا فرق بينهم يقتضي التفريق، ولا مباينة على التحقيق. وأما طريق غير السادة آل باعلوي من طرق الصوفية، الصحيحة الصفية الوفية، فلا تخالفها في الأصول، ولا في حقيقة السلوك والوصول، وإنما الخلاف في رسوم وأوضاع ومشارب، تؤول إلى المخالطة في تقريب الطريق على الطالب، غايتها كالاختلاف في الفروع بين أهل المذاهب، فمن حيث إنه في أشياء تابعة وفروع دقيقة كأنه لا خلاف في الحقيقة، بل من اتصف وتحقق بالتحقيق رأى الحق واحداً، وحقق أنه ليس بين

أهل الحق خلف ولا تفريق، لأن الفروع وإن تعددت فالأصل متحد بكل طريق، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٣]، ولذلك قلت في الرشفات أيضاً:

تفـرقـوا فـي شعـب الإسـلام ... وافتـرقـوا فـي ظـاهـر الأحكـام
واتفقـوا فـي القصـد والمـرام ... وقصـد وجـه الله ذي الجـلال
فهـم كـذا الـرسـل بنـو عـلات ... طـريقهـم واحـدة بـالـذات
تعـددت بـالـرسـم والهبـات ... فـي كـل تفصيـل بـلا انفصـال
واختلفـوا فـي صفـة القـربيَّـه ... وفـي اتصـال القـوة الكسبيَّـه
أو انعطـاف نفحـة جـذبيَّـه ... يـرفـع عنـه كلفـة الأعمـال
وبعضهـم مـا زال فـي تقييـد ... فـي جـدِّه وزهـده الشـديـد
مـراقبـاً زواجـر الـوعيـد ... مـرتقبـاً للمـوت والمـآل
وبعضهم في البسط في الوجود ... فـي بسطـة مـن نعمـة وجـود
شـاهـد فضـل الله فـي الـوعـود ... فعمـه مـولاه بـالإفضـال
وبعضهـم إذ جـدَّ فـي اجتهـاده ... فعـانـه الحـق علـى مـراده
بجـذبـة فـانحـل مـن قيـاده ... فنـال أسنـى الفتـح والآمـال
وبعضهـم فـي لاعـج الأشـواق ... بـرهبـة فـي غـايـة الإشفـاق
أو رغبـة فـي حـالـة الإمـلاق ... أو نسبـة مـن مخلـص الأعمـال

وبعضهـم غـريـق بحـر الجـود شهيـد سيف الكشف والشهـود

قد صار تحت العز كالمفقود وليـس عنـه مخبـر بحـال

وبعضهـم غـاب عـن الخليقـه وذاب لمـا شـاهـد الحقيقـه

إذ عـلَّ مـن راح الهـوى رحيقـه راح بهـا فـي طلعـة الجمـال

وإنما اتفقوا على منع المريد في ابتداء سلوكه من تتبع الطرق، وخروجه من شيخ إلى شيخ، لأن ذلك يضره بتفريق همته وتشتيت جمعيته، فإن قلبه في الابتداء أمره كالجريح، يضره كل تخليط وريح، إلى أن يبرأ ويندمل على يد طبيبه الذي به تعلق، ومداويه الذي عرف قلبه وحقق، ولعل الله يمنُّ بفرصة من الزمان، أجمع فيه مجموعاً من كلام سادتنا آل باعلوي في كل باب من أبواب الطريقة بما تقر به عيون أولي العرفان، وبالله التوفيق وهو المستعان، وبه الثقة وعليه التكلان. قاله وأملاه الفقير إلى الله عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد بن الفقيه محمد باعلوي لطف الله به. انتهىٰ، نقلناه برمته لجمعيته تحقيق أسرار ما انطوت عليه الطريقة العلوية من الخصوصيَّة والمزيَّة.

وقال رضي الله عنه في شرح القصيدة المتقدم النقل عنها، عند قوله رضي الله عنه (بيني وبين الحافظين ثلاثة، واثنان بالفقهاء وصلت حبالي) أي أن الله سبحانه وتعالىٰ منَّ بالاتصال بالأسانيد العالية الشهيرة، فبيني وبين الحافظين بالجمع، كالشيخ جلال الدين السيوطي، والحافظ نور الدين علي الهيتي، والحافظ محمد ابن عبد الرحمٰن السخاوي، والحافظ عبد الرحمٰن الديبع اليمني، ثلاثة من الوسائط فإني أخذت عن والدي، وعن الشيخ إبراهيم الكردي، والشيخ حسن العجيمي، وعن الشيخ أحمد النخلي، وهم أخذوا عن الشيخ أحمد بن محمد القشاشي المدني، وعن الشيخ عبد العزيز بن محمد الزمزمي، وعن الشيخ محمد ابن العجل اليمني، بأخذ هؤلاء الثلاثة واتصالهم بالسماع والإجازة، من الشيخ محمد بن أحمد الرملي صاحب (النهاية)، والشيخ أحمد بن محمد بن حجر المكي صاحب (التحفة)، والشمس الخطيب الشربيني، والشيخ بدر الدين المقري، والشيخ عبد الرحمٰن بن زياد اليمني صاحب الفتاوى، وهؤلاء الفقهاء

المشاهير اتصلوا بالإجازة والسماع من الحفاظ المتقدم ذكرهم، وتعداد شيوخهم وطرقهم واتصالهم لا يسعه هذا المسطور، وهو في الفهارس معلوم ومشهور، عند كل من له عناية بعلم الإسناد العلم المنشور. انتهىٰ المقصود نقله منه، وما ذكره أخذا قد حقق الإمام الشيخ تاج الدين بن الشيخ أحمد بن العلامة إبراهيم الدهاق المكي الحنفي في تخريج مرويات الشيخ حسن العجيمي أسانيد كتب التفسير والحديث والفقه والأصول وآلاتها في جميع المذاهب، واختلاف طرقها، واتصاله بمؤلفيها، وتعدد طرقهم، في كتاب حافل جامع، في نحو مجلدين، وقد سبق قريباً أن سيدنا السيد الإمام عبد الرحمٰن المذكور اتصل سنده بالشيخ حسن العجيمي. وكذا الفقيه الإمام أحمد بن محمد قاطن ـ رحمه الله تعالىٰ ـ شيخ سيدنا الحبيب عمر البار ـ صاحب المنظومة ـ صنف كتاباً في الأسانيد وأرسله إليه سماه (الأعلام بأسانيد الأعلام) وهو جامع أيضاً، وقد اتصل سيدنا الشيخ الحبيب عمر البار بما اشتمل عليه هذان المؤلفان، وما ذكره سيدنا السيد عبد الرحمٰن من اتصاله بالحفاظ والفقهاء المتقدمين، بأخذه عن سيدنا وشيخنا الإمام الحبيب حامد بن عمر حامد، بأخذ سيدنا الحبيب حامد عن سيدنا الحبيب عبد الرحمٰن بلفقيه المذكور، وعن القاضي أحمد قاطن.

وقد حسن أن نختم شرح هذا البيت، بذكر إجازات سيدنا وشيخنا الحبيب عمر عن الأئمة الأعيان، وأرباب الكشف والعرفان، كما قدمنا الإشارة إلى ذلك، وأول ما نقدم على ذلك، الإجازات له ولأخيه سيدنا وشيخنا العيدروس عن مشايخهما العلويين، وقد جمعها سيدنا وشيخنا العارف بالله تعالىٰ عمر بن سقاف ابن محمد السقاف ـ نفع الله بهم ـ في إجازته لهما، قال قدس الله روحه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله الذي سهل السبيل، وأوضح الدليل، وقرب الطريق، وأصحب التوفيق، لمن خصه الله واصطفاه، وقربه وأدناه، وجعل للمقبل عليه طريقاً توصل إليه، وسبيلاً للإفادة والاستفادة، والدعوة إلى سبيل السعادة في عالم الشهادة، للتوجه بصدق الهمة فيما لديه، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الواسطة الكبرى، في الدنيا والأخرى، وآله وصحبه الناطقين بالبشرى،

سراً وجهراً. أما بعد: فقد مَنَّ الله على عبده الفقير عمر بن سقاف علوي، بزيادة جمعت الاتصال بمشاهد الأسلاف الدوعنيَّة، ومآثر الأشراف العليَّة العلوية ،حتى حصلنا واتصلنا بحضرة المعارف والأسرار، ومعدن اللطائف والأنوار، حضرة شيخ الطريقة، ولسان الحقيقة، الشيخ عمر البار، فوجدنا في ذلك النادي محط أسراره، وإشراق شموسه وأقماره، لا شك أن ذلك الوادي ـ إن شاء الله ـ معمور، بالعلم والنور، فرأينا الخيرات والبركات، وأنوار العلوم والعبادات، لائحة على تلك العصابة، ولوائح الإنابة، وروائحها فائحة بروائح الإجابة، وذلك بما خص الله وتفضل على حفيديه الحبيبين الأفضلين، الشاربين بالكأسين، الداعيين إلى سبيل الهداية، والمشمولين بجميل الرعاية وخاص العناية، سيدي الصفي عيدروس وسيدي العارف عمر، فرأيتهما بفضل الله متأهلين للعلوم، آخذين بالنصيب الأوفى من الفهوم، وخصهما الله سبحانه ـ وله المنة ـ بحسن الظن الكامل، والخلق الحسن الشامل، ومزايا جمة عديدة، وطوالعهما ـ إن شاء الله ـ سعيدة، وأقبلا على الفقير المعترف بتقصيره بكمال حسن الظن، وأمّلا فيه ما أمله الصالحون الأخيار في السادة الأطهار، وإن لم أكن من أهل ذلك المضمار، وطلبا الإجازة المتصلة المطلقة، والإذن الشامل في الطريقة المحققة، وهما جديران بذلك، وأهل لما هنالك، وأطلعاني بفضل الله على إجازتين، من الشيخين العارفين الإمامين، الشيخ أحمد بن سيدنا الحسين الحداد، والشيخ الحامد بن الشيخ عمر حامد، فوجب أن نقدم إجازتهما، ونلحق ما قدره الله ويسره بهما، ومن خطهما حصل النقل، وهو هذا:

الحمد لله ومنه التوفيق والإعانة وبعد: فيقول العبد الفقير إلى الرب الجواد، أحمد بن حسن بن عبد الله الحداد علوي: التمس مني السيدان الجليلان، الفاضلان الأنوران، عيدروس وعمر ابنا السيد الفاضل الوجيه، عبد الرحمٰن ابن العارف بالله عمر البار باعلوي، الإذن لهما في إحياء مجلس جدهما الحبيب عمر البار من بلد القرين، المعروفة بالتذكر والتذكير، ودرس العلوم النافعة، والدعاء إلى الله عز وجل، فأذنت لهما في ذلك، وأجزتهما فيه وإن لم أكن أهلاً لذلك، لأضرب معهما بسهم إذا صلحت النيَّة، وكما قيل: إذا لم تكونوا مثلهم فتشبهوا،

وإذا غاب أحدهما قام أخوه مقامه في ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وهذا صورة ما كتبه سيدنا الحامد: الحمد لله على أمره وتوفيقه للدعوة إلى سبيله، والتذكير به والاعتناء، والإقامة والحرص على ما هنالك، وبذل الوسع والجهد في ذلك، وقد تقدم وسبق سلفنا الصالح، وسلك هذه الطريق واشتهر فيه، وانتفع وهدى بهم الجم الغفير، من الكبير والصغير، ومنهم وأكابرهم وأفاضلهم الحبيب الشيخ العارف بالله عمر بن عبد الرحمٰن البار، عمت دعوته إلى الله خصوصاً وادي دوعن، والمظهر والشعار أكثر في بلد القرين والخريبة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. وقد بدت وظهرت قرائن الخير والبركة والأهلية في السيدين الحبيبين، عيدروس وعمر ابني عبد الرحمٰن البار، لإقامة وإحياء هذا الشعار، وإظهار هذه السنة، وإحياء العلم بالمذاكرة وطلب التأييد، والإشارة بهما في العمارة والمقام في الوادي المبارك، وخصوصاً في القرين وادي دوعن، محل ومكان جدهما الشيخ عمر نفع الله به، فأجزتهما وأيدتهما فيما هنالك، والاستعانة بالله في ذلك، وفي جميع الأمور، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، والحمد لله رب العالمين. . كتب ذلك الفقير إلى الله حامد بن عمر حامد ـ سامحه الله ـ وأوصيهما بالدعاء والذكر لنا في كل مشهد ومقام على السعة، والله يتولى حفظ ورعاية[1] ويتم عونه للجميع انتهت الإجازتان الجامعتان النافعتان، نفع الله بالجميع.

ثم بعد: يقول الفقير إلى ربه عمر بن سقاف: أجزت السيدين الشريفين الأفضلين، المذكورين في جميع الأذكار والدعوات، وسائر ما أرويه ويرويانه من الأذكار والدعوات المرتبة والمطلقة، وفي عمارة الأوقات بالمذاكرة والتذكير، والتدريس والإقراء في كل طرق الإفادة، والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، مع الرفق والتيسير، والتقريب والتبشير، مع كمال حسن الظن بالله تعالى والثقة به سبحانه، والاستعانة به في كل حال، وإليه المرجع والمآل. وأوصي نفسي وسيدي بالدعاء الشامل الكامل، لي ولأولادي بظهر الغيب، ولهم مني ذلك ـ إن شاء الله ـ في سائر التقلبات، وأن يجعلا من دعائهما: اللهم يا سامع

---

(١) هكذا في الأصل.

الصوت، ويا سابق الفوت، ويا كاسي العظام لحماً بعد الموت، صلِّ على محمد وعلى آل محمد، واجعل لي من كل هم وضيق فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث لا أحتسب. ويرتبا كل يوم ما ذكر عن الشيخ عمر بامخرمة، أنه مما جرب لدفع كل مهمة وملمة، مائة مرة كل يوم: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز الحكيم، والإجازة لذلك شاملة، ولجميع الأذكار والحزوب والدعوات، وعمارة الأوقات بالتدريس، والدعوة بالخصوص والعموم، فبذلك ـ إن شاء الله ـ تنشر الدعوة في هذا الوادي المبارك الميمون، اقتداءً وتأسياً بمن أشرقت شمسه وعمت بركته، وقربت الخاص والعام دعوته، وشملت الجميع بركاته، وإشاراته ونفحاته، جدكم سيدنا الشيخ الإمام نفع الله بسره، وعمر هذا الوادي ببره، وأنتم ـ إن شاء الله ـ خلف من ذلك السَّلف، وفيكم التأهل والبركة، والخلافة الحسنة. ومن أعظم المقاصد وأحسنها، إحياء الشعائر وعمارة المآثر، فلله الحمد على ما هدى وأرشد، وسهل سلوك السبيل الأرشد، وذلك ثمرة دعواتهم المستجابة بقولهم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] فذلك قرة أعينهم، والإمامة هي الدعوة، أكمل الله لنا ولكم الأهلية الباطنة والظاهرة. أجزت سيدي المذكورين كما قصدا، وألبستهما كما طلبا، صلة متصلة السند بسادتنا ومشايخنا العلويين، وأصلهم ومرجعهم الطريقة العلويَّة، وأجل من يتصل به السند وحصل منه الإذن، سيدنا الشيخ الإمام علي بن عبد الله السَّقاف، بسنده المتصل بسيدنا الشيخ العارف الأكبر، الإمام علي بن عبد الله العيدروس، وسيدنا الشيخ الإمام الغوث عبد الله بن علوي الحداد وسائر مشايخه الكرام، بإسناده العالي المتصل بالشيخ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، وأجزت سادتي فيما أجراه الله تعالىٰ على لسان عبده المقصر من الإشارة والجمع، في النبذ المجموعة والكلمات المسموعة، وتصلحوا ما يحتاج إلى الإصلاح أمراً متوجباً، ويسبلا ذيل الستر على ما قصر من الشروط الباطنة والظاهرة، لا جعل الله جميع ذلك حجة علينا في الآخرة، ونستغفر الله ونتوب إليه، فيما تجرأنا به وقصدنا وبحسن ظن الطالب، يغمر الله المطلوب بفضله ومدده، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ

إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس: ٦١]، عمر الله قلوبنا وقلوبكم بحسن المراقبة، وأيَّدنا بصدق المعاملة، وجعلنا من أهل الاتصال والمواصلة، وجمع الشمل، وجدد الوصل، ورزقنا وإياكم طول العمر في طاعة الله، وسلوك سبيل أهل الله، وأولادنا وأحبابنا أجمعين. كتب ذلك وأنطقه الله به، الفقير عمر بن سقاف بن محمد بن عمر بن طه السَّقاف علوي، بتاريخ سابع عشرين جمادى أولى سنة ثمان ومائتين وألف.

وبهذا التاريخ كتب سيدنا الحبيب الشيخ عمر بن سقاف المذكور للعبد الفقير جامع هذا الكتاب إجازة بخطه، أثبتها هنا، إذ فيها إشارات وتنويهات، تتعلق بسيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار صاحب الترجمة قال قدس الله روحه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله على ما فتح ومنح من فتحه الخاص، وأدخل من اختصه بتوفيقه في حيز الخواص، أهل العلم بالله والفهم عن الله، مع الصدق والإخلاص، وصلى الله وسلم على عبده الجامع الشافع، المرقي بفضله إلى مراتب الاختصاص، وعلى آله وصحبه السَّاعين في سبيل الخلاص. أما بعد: فلما قرأ عليَّ المحب المحبوب، الطالب المطلوب، الفقيه الأنور، المقبل على الله على قدم الهداية على القدم الأزهر، سلمان أهل البيت النبي الأطهر، محبنا الخلاصة الخاص، عبد الله بن أحمد باسودان، قرأ ما يسره الله تعالىٰ من كتابنا (تفريج القلوب)، والتمس الإجازة في مقروآته وأوراده، ونفعه وانتفاعه، أجزته في جميع ذلك إجازة متصلة، بالسند المتصل بمشايخنا العارفين، وطلب الإلباس فألبسته لباس أهل الطريقة، بطلب له من سيدنا الحبيب الجامع العارف بالله تعالىٰ عمر بن عبد الرحمٰن البار، وقد حط نظره الشريف عليه وانتفع به انتفاعاً بيّناً، أدام الله النفع بالجميع في هذا الوادي المبارك الميمون، ولله الحمد على ما جعل لنا في قلوب المؤمنين من المحبة والألفة، وببركة حسن ظنهم يؤهلنا الله لما أملوه فينا، والوصية لك أيها المحب السَّاعي، بصدق المودة لأهل بيت رسول الله ﷺ، وبصدق التوبة وصحبة الإنابة، ودوام الافتقار ولزوم الانكسار، وإخراج الدعوى والحظوظ بطلب العبوديَّة وتحقيقها، ورؤية التقصير في العلم والعمل، والهرب

من العجب المحبط، وكثر شكر الله على ما وفقك، وخصك به من بين أشكالك فله المنة، ولا ترى نفسك فوق أحد، واشهد الواحد الأحد في كل أحوالك، ولازم الأدب تحظَ بنيل الأرب، وقد وضع الله لك في القلب محبة ورحمة فادع لنا واجعلنا نصب الخيال، وسيدي الحبيب عمر البركة التامَّة، فالزمه جمع الله القلوب، وأكمل المطلوب، قال ذلك وكتبه عمر بن سقاف لطف الله به انتهت.

وما زلت متعلقاً به والمراسلات بيني وبينه إلى أن توفي ليلة الاثنين، اثنا عشر شعبان سنة خمس عشرة ومائتين وألف، ودفن بجنب والده بتربة سيؤن رحمه الله تعالى ونفع به، وكان إماماً عاملاً عالماً عارفاً محققاً، في علوم الشريعة ودقائق الطريقة وأسرار الحقيقة، وله مؤلفات في الرقائق حسنة مقبولة، وانتفع به كثيرون من أهل جهته، وحصل له إقبال تام عند الخاص والعام، وتعلق بعد وفاة شيخه الإمام السيد العارف بالله علي بن عبد الله السَّقاف، بسيدنا الإمام الحبيب حامد بن الشيخ عمر حامد، تعلقاً تاماً مع مصافاة روحيَّة ضافية. ومن المتفق أن الحبيب عمر المذكور مرض سنة من السنين مرضاً شديداً أيس فيه من الحياة ثم عوفي، فقال له سيدنا الحبيب حامد: قد انقضى الأجل وانتهىٰ العمر الدنيوي، فتوجهنا إلى الله تعالى بأن يمدك من عمر البرزخ، فعاش بعد ذلك الحين عدة سنين. وله كرامات وفضائل لا تفي بحصرها الأوقات، ومن وقف على ديوانه وتنفساته فيه، بلوائح فوائح روائح علم القوم وعنوانه، ما يحقق أنه التحق بدرجة الأفراد المحبين، وتحقق بالشوق والذوق والأنس والصدق واليقين، رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه، ونفعنا به في الدارين. ترجح لنا هنا ذكر الإشارة، إلى ذكر بعض ما كان عليه، وبلغ إليه من عظم الحال والمقام، الذي شهد به الخاص والعام، إذ هو من مشايخ سيدنا الحبيب عمر صاحب الترجمة رضي الله عنه، ولم يذكره في المنظومة، ولا في تراجم مشايخه الآتي ذكرها في شرح الأبيات الآتية.

وهذه إجازة لسيدنا الحبيب عمر أيضاً من الإمام العلامة القاضي أحمد قاطن كتبها له بخطه على ظهر كتاب تخريج مرويات الشيخ حسن العجيمي السَّابق ذكره وصورتها: الحمد لله، أما بعد حمد الله حق حمده، وصلاته وسلامه على سيدنا

محمد وآله وصحبه، فيقول العبد المفتقر إلى عفو مولاه أحمد بن محمد بن عبدالهادي قاطن ـ عفى الله عن فرطاتهما ـ: إني أجزت سيدي الجليل العالم النبيل، ضياء الإسلام عمر بن عبد الرحمٰن البار، بجميع ما تضمنه هذا البيت، من مرويات الشيخ حسن العجيمي، وبجميع ما في تحفة الإخوان، وبجميع ما تصح له روايته عني، من معقول ومنقول وفروع وأصول، وتآليف وأشعار، ودرر أصداف أذهان انتخبتها الأنظار، وأنا أروي كثيراً من هذه بالسماع، على شيخي العلاَّمة صفي الدين أحمد بن عبد الرحمٰن الشامي بالسَّماع رحمه الله تعالىٰ، وهو يروي أوائل الأمهات عن شيخه العلاَّمة عز الدين محمد بن الحسن العجيمي المكي، وسائر ما في هذا بالإجازة مشافهة، وهو يرويها عن مشايخه المذكورين في هذا الثبت، كالشيخ العلامة عبد الله بن سالم البصري والشيخ أحمد العجلي، والشيخ أحمد بن محمد القشاشي وغيرهم كما تجده في هذا عند كل كتاب.

وأوصيه بتقوى الله سبحانه وتعالىٰ، وأن لا يخليني من صالح دعواته في أوقات الإجابة، والحمد لله أولاً وآخراً بتاريخ شهر القعدة سنة ثمان وثمانين ومائة وألف. انتهت، وهذا الكتاب الذي ذكره في الإجازة المسمى (تحفة الإخوان)، ترجم فيه لسيدنا الحبيب عمر وذكر فيه مشايخه وغيرهم، وله ـ نفع الله به ـ إجازات غير هذه من مشايخ عصره باللفظ والكتابة، كالشيخ عثمان العطار، والشيخ حسين المتوفي، والسيد الإمام سليمان بن عمر مقبول الأهدل، وغيرهم من علماء اليمن والشام وحضرموت والعراق وغيرها. وسيأتي ذكر بعضهم رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

فصل: ثم قال رضي الله عنه ونفع به:

أخـذت عـن مشـايـخ عظـام ... وعـارفيـن فضـلا كـرام

بـأرضنـا والحـرميـن واليمـن ... أرجو من الله بهم فيض المنن

أي أخذت علوم الطرائق ورسومها، وتلقيت أنواعاً من منطوق الفنون ومفهومها، واتصلت بمشايخ الإسلام بحضرموت واليمن والشام لبساً وتلقيناً،

وسلوكاً وعقداً وتحكيماً، وعقيدة ويسراً وتوجهاً وتعلقاً، وتحققاً وكسباً ووهباً، بتقديم القيام بعموم عهود الشريعة، وبخصوص أحكام عقود رسوم الطريقة، وتحقيق شهود أسرار الحقيقة، وقد حسن الآن أن أشرح هذين البيتين بتفصيل ما أجمله فيهما من ذكر مشايخه الأعلام، بما ترجم به لهم من أوراق متفرقة لم يتيسر له إكمالها، وقد رتب ذلك على حروف المعجم، وأنا أقفوه هنا في ذلك الترتيب المعجم، وإن كان الأليق بشرح قوله (بأرضنا والحرمين واليمن) الابتداء بذكر ما ابتدأ به في البيت، لكن مراعاة صنعه فيما قصد أن يكون على هذا الوضع في ذلك الجمع أولى، وأتيت أولاً خطبته التي أنشأها عند افتتاحه، تبركاً واستمداداً لمدده ونيل سماحه، ليفهم الواقف عليها مراده، وما قصده من الإرشاد إلى معرفة مراتب أولي السوابق والسَّعادة، ومن ذكره في هذه التراجم وهو مذكور في هذه المنظومة، أخرت ذكر ما علقه من فضله إلى محله. قال رضي الله عنه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله الذي من بالوصول والاتصال، على من اختصه من الرجال، وخلع عليهم خلعة الكمال، فجمعوا بين الجمال والجلال، وأيدهم بالاستقامة في الأقوال والأفعال والأحوال، وخرق لهم العادات، وهم به عنها في اشتغال، وأدَّب بهم من أراد إيصاله إلى المراتب العوال، فوصلوا ببركتهم إلى ما لا يخطر لهم ببال، ولا يدركوه بعمل من الأعمال، رضي الله عنهم ورضوا عنه في كل مقام وحال، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له الكبير المتعال، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلى السَّافل والعال، صلى الله وسلم عليه صلاة وسلاماً يدومان بدوام الأيام والليال. أما بعد: فإنه طالما يخطر في الخاطر الفاتر، جمع شيء من مناقب سيدنا وشيخ مشايخنا الشيخ الكبير والإمام الهمام الشهير، قطب الوجود وعين أرباب المعرفة والمحبة والشهود، عمر بن عبد الرحمٰن البار علوي، من عبادته وترتيب أوراده، وذكر شيء من كراماته ومكاتباته، وغير ذلك حسبما بلغ. . إلى أن انتهت هذه الخطبة البليغة، وما ذكره ـ نفع الله به ـ من قصده لهذا الوضع والترتيب، لم يثبت إلا شيئاً من الكرامات، وذكر ولادته ونشوه وأخذه عن مشايخ الطريق، وشيء من ثناء الأكابر عليه، وسيأتي ما ننقله منه في ترجمة جده ـ نفع الله بهما ـ معزواً إليه، ثم ذكر بعد ذلك من أخذ عنه مرتباً كما مر، ويدع بين

كل اثنين بياضاً ليلحق إليه ما وقف من أحوالهم عليه، وإذا أثبت ترجمة أحدهم وحفظت من أحوال ذلك المذكور وسيرته شيئاً وأردت زيادته، قلت في آخر كلام شيخنا: انتهىٰ، وبعد ما ألحقه: قال رضي الله عنه، وإن لم ألحق شيئاً لم أفصل بين المذكور أولاً وبين المذكور بعده بقولي انتهىٰ، ولا بقال. فأولهم ما قال رضي الله عنه: أبو بكر بن الحبيب عمر البار، السيد العالم الجليل، والغارب العارف بالمدلول والدليل، الداعي إلى سواء السبيل، لم يزل في مدة عمره يسمو عن ساق الجد في العلم والعمل، قانعاً باليسير من الدنيا المطلوب فيها قصر الأمل، قرأ على كثير من العلماء في فنون وأكثر في الحديث والتصوف، قرأت عليه في كتاب (سيرة السَّلف) للكلاعي ولبست منه، وأجازني في قراءة دلائل الخيرات كما أجازه محمد حياة السندي المدني. انتهىٰ ما ذكره نفع الله به، وقد جالست هذا السيد العارف وانتفعت به، وكان كثيراً ما يحضر درس شيخنا العارف بالله الصوفي النفيس، الشيخ عبد الله بن أحمد بافارس باقيس، وأقرأ عليه بحضوره تصوفاً وفقهاً، وكان ذا فهم ثاقب ورأي صائب، في حل المشكل وتفكيك المعضل، والغوص في دقائق معاني السائل، والحرص على تقديم الأهم من الفضائل، وكثير الأوراد والأذكار، دائم المجاهدة في العبادة بالليل والنهار، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، يغضب عند انتهاك المحارم، يقول الحق ولا يخاف في الله لومة لائم، ولم يزل على حالة مرضيَّة إلى أن توفي ببلد اللحية، ودفن بالقرب من قبر الشيخ السيد أحمد بن عمر الزيلغي نفع الله بهما.

قال رضي الله عنه: (أحمد بن حسن الموقري)، الشيخ الصوفي الكبير، والإمام العارف الشهير، ذو الكرامات المتواترة، والمعارف المتكاثرة، اجتمعت به في بيت الفقيه بن عجيل، وقرأت عليه في شرح تلميذه الشيخ محمد بن حسين الأسلافي على أبياته الأربعة:

نزه فؤادك عن خيال أو مثال ... واطلق جوادك لا تقيد بالمحال
وابدل نعوتاً بالتضرع والدعاء ... قل رب أبدل نقص ذاتي بالكمال
الله يقضي حاجة العبد الذي ... مازال يدعو ربه بالابتهال
بين الرجالة والبطالة خصلة ... صدق التعلق بالمهيمن ذي الجلال

وقد عجَّزها وصدَّرها الوالد شيخ الجفري مرتين، وهي في ديوانه. انتهى ما رقمه سيدنا وشيخنا نفع الله به، وقد وقفت على شرح الأبيات المذكورة بخط سيدنا الحبيب عمر نفع الله به، ورأيت فيه من علوم الأسرار والمعارف، وجزالة المعاني وتأسيس المباني، ما يدل على غزارة علم الشيخ المذكور، وتفننه وتبحره كما هو عنه مشهور، وله اليد الطولى في علم الطب، يقال أنه أبرأ مجذومين.

وكان الشيخ أحمد الموقري ـ نفع الله به ـ يجله ويثني عليه وينوه بشأنه، مع اعتراف الأسلافي بأن اليد عليه في التصوف للشيخ أحمد المذكور، واليد للشيخ أحمد المذكور من الشيخ محمد بن يس باقيس الآتية ترجمته، فطريقه حداديَّة علوية بواسطة الشيخ محمد المذكور، وكان فانياً فيه منطوياً في سره منغمراً في نوره، يراسله إلى أن توفي، ثم أرسل بعده أولاده وتلميذه شيخنا الشيخ عبد الله بافارس باقيس، وكان قبل اجتماعه بالشيخ محمد مقبلاً على الله تعالىٰ منقطعاً للعبادة، بعد أن برع وتفنن في سائر العلوم.

قال الوالد رحمه الله: كان الشيخ أحمد مدة إقامتي في زبيد، في وقت جدة الإرادة وشدة المجاهدة، يخرج ليلاً إلى تربة زبيد، ويختلي في قبة الشيخ أحمد الصيَّاد، ويذكر الله بالجهر. انتهىٰ، وقد أنكر عليه بعض الفقهاء شيئاً من أحواله في أيام بدايته، ثم لما تحققت ولايته وظهرت أنوارها، وارتفع منابرها وأضاء شعاع شعارها، أقبل عليه الناس واعتقدوه واستمدوا منه. وكان العلماء في زبيد يتبركون به ويحضرون راتبه في بعض الأحيان، وله كلام في التصوف عجيب، ونظم رائق في علوم الطرائق، وكان ممن يجتمع بالنبي ﷺ يقظة، وكان له كرامات هذه من أعظمها، وكان غالب حاله مستغرقاً ذاهلاً، لا يعرف من يدخل عليه ويجالسه وإن كان من أولاده، وله المشهد العظيم في حب أهل البيت النبوي لا سيما بني علوي، وبلغنا أنه كان يعرف الداخل عليه منهم وإن لم يكن قد اجتمع به، وكذلك كان تلميذه الشيخ محمد الأسلافي، وكان كثيراً ما يقول ـ أي الشيخ أحمد ـ اجتمعت بسيدي الفقيه المقدم أو جئت من عنده. . أو ما هذا معناه، وله خط حسن كان قبل حصول الذهول عليه واستغراقه بالذكر يكتب المصاحف، ويقول: إن كتابة القرآن ترقي الدرجات، توفي رضي الله عنه. .[1] رحمه الله.

(١) كذا بياض بالأصل.

قال سيدنا وشيخنا: (أحمد بن محمد قاطن)، الإمام العلامة المحدث الفهامة، السائر على طريق الجماعة بسير الاستقامة، اجتمعت به سنة أربع وثمانين ومائة وألف، وقرأت عليه وسمعت منه بعض البخاري وبعضاً من فتح الباري، وكانت تحضر مجلسه سبع نسخ من فتح الباري، وأوعدني مع سفري إلى البصرة، أن يلقنني كيفية الذكر علىطريقتهم، فلما اجتمعت بالشيخ علي بن عبد الله الموصلي ثم البصري عرفني غيرة آل باعلوي على أولادهم. فلما حصل منه التنبيه على ما سيأتي في ترجمته وترجمة السيد سالم بن حسن بن شيخ بن إسماعيل، ووصلت إلى صنعاء افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف، ذكرت له ذلك فلقنني لا إلٰه إلا الله تبركاً على غير طريقة النقشبنديَّة نفع الله بهم، ولم تزل كتبه تصل إليَّ، ومن الاتفاقات أنا لمَّا كنَّا بالبصرة سنة خمس وثمانين ـ أي ومائة وألف ـ كنت جالساً مع الشيخ علي، قال: اليوم الذي له الكلام في صنعاء والذي يدفع عن الإمام السيد محمد العلوي، فلما وصلت إلى صنعاء قال لي القاضي أحمد المذكور ابتداءً: كان عندنا في شهر شعبان رجل من السَّادة العلويَّة، في حالة الذكر ينتصب نوراً إلى السَّقف، والذي عقله ضعيف ينفسخ، فقلت له: وأين هو؟ فقال لي: مكة مكة، ولم أعرفه، فخطر لي عند إثباتي لهذه الواقعة أنه القطب، لأنه لا يفارق مكة وإن كان في بلد آخر، وألبسني الخرقة الأهدلية، وهو لبسها من سيدي يحيى بن عمر مقبول. (بشر بن عبد الله بادهري) رضي الله عنه، الرجل الصَّالح السائح، كان من أرباب الاستقامة والدعوات التامة، أخذ عن سيدنا الحبيب عمر البار وحج معه وجاوز بعد سنة[١]، قال: أخذت من الحرمين بندقاً، ولما وصلت إلى دوعن أخفيته، فقال لي الحبيب عمر يوماً: جبت بندق، فلم أقدر أن أخفي عليه فقلت: نعم، فقال لي: يضرب على مباح وإلا يقتض[٢]، قال: فبعته، فأراد مشتريه أن يضربه فاقتض، وله رسائل، استفدت منه كثيراً وعلمني أذكاراً، توفي سنة أربع ومائتين وألف، ودفن بمقبرة الخريبة السفلى رحمه الله تعالىٰ.

(١) كذا بالأصل ولعل الصواب «وجاور مدة سنة».

(٢) باللغة الدارجة ومعناه (ينكسر).

(جمعة السندي المدني) اسمه عبد الله بن محمد، الرجل الصَّالح العارف، الباذل نفسه لنفع الطلبة، أخذت عنه أذكاراً كثيرة، وقرأت عليه في النحو والتصريف والبيان والمنطق، وكان نقشبندي الطريقة، رأيت قبل أن أصل المدينة أني أقرأ في كتاب (الكافيّة) في النحو لابن الحاجب على الشيخ محمد بن يّس باقيس، فلما وصلت إليها واجتمعت بالشيخ جمعة سنة ثنتين وثمانين ومائة وألف، قال لي: أتقرأ في النحو قلت: نعم، فجاء بذلك الكتاب الذي رأيته مناماً فقرأت عليه فيه مدة إقامتي في المدينة، وكان صاحب غيرة على أصحابه، وقال: أنا أدعو لهم عند النبي ﷺ، وكان هذا الشيخ أكثر جلوسه في الحرم النبوي، ولا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة بعد صلاة الظهر، قرأ عليه غالب علماء المدينة، وكان شيخه الشيخ محمد حياة السندي، وقرأ عليه بعده على الشيخ أبي الحسن السندي الثاني بعد صلاة المغرب في تفسير البيضاوي، وتعمر إلى سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف.

(حسن بن عبد الله الغريب) الشيخ المجذوب والعارف المحبوب، من بلد ريمة اجتمعت به في مدينة صنعاء بعد خروجه من حبس الإمام المهدي بضمانة القاضي أحمد قاطن، وكان قد اجتمع عليه أهل بلده، فأرادوا منع رسل الدولة عنه، فمنعهم وطلع إلى صنعاء وحبس مدة، وهو ساكن لم يتحرك بل كان يدعو للإمام، وسبب حبسه ميل الناس إليه، وخروج كلمات منه حال ورود الحال عليه أنه المهدي، ثم لما تحقق عدم ميله إلى الناس، وشغله بالله عن جميع الأجناس، أطلقه سنة خمس وثمانين ومائة وألف، وهو من تلامذة الشيخ أحمد بن حسن الموقري.

(حسين بن علي بن عبد الشكور) الشيخ الإمام الفارس الضرغام المنطيق، الخائض في بحر التحقيق، المانح لأهل وقته من الأذواق التي منحه الله تعالىٰ بها كمال التدقيق والتشويق والترقيق، له نظم في الصلاة وشرح عليه أملاه، وحاشية على الشرح المذكور تدل على تبحره في علوم المعارف واصطفائه، رضي الله عنه وأرضاه ورزقنا بركته، اجتمعت به سنة تسعين ومائة وألف. في مكة المشرفة، بواسطة سيدي الوالد العارف الحسن بن عمر البار، وأعطاني في أول اجتماعي به

كتاب (الفيوضات الحسنى من مشاهد الحبيب الأسنى)، وهي حاشية على نظمه في صلاة أهل القرب، وهبه لي وقرأت عليه فيه، ثم سار إلى المدينة وسرت بعده لزيارة الحضرة النبوية، وقرأت عليه ذلك الكتاب جميعه، وكتاب (النفحة العنبرية من الرياض المرعنيَّة)، وغالب الصلوات التي له على الشغب والأسماء الحسنى والإدريسيَّة وغيرها، وألبسني، وكان ـ نفع الله به ـ غاية في التواضع والانكماش.
ولما وقف الوالد شيخ بن محمد الجفري على الفتوحات الحسنى، قال نفع الله به مقرضاً ومؤرخاً:

عبدالشكور سبطه أعني الحسين	نعلمه في كل شيء خلت زين
سيَّما الحسنى فيوضات الإلٰه	التي طال بها دنيا ودين
عامها ضابطها قلت أرخوا	هو فيض الله بان لحسين
يا له فيض منيع حصنه	إذ له الله حفيظ ومعين
ما غني يدعى سوى ما حازما	حازه ابن علي أعني الحسين

وأخذه عن سيدي الشيخ الكبير السيد شيخ بن جعفر باعبود علوي، فإنه رباه بنظيره، وصبغه من إكسيره، وقال فيه: فكينا قفله، وأخذ عن سيدنا الحبيب عبدالله ابن جعفر مدهر، قال: خدمته ثلاثة أشهر، وأخذ عن السيد العارف عبدالله ميرغني ولازمه مدة طويلة، إلى أن أشار عليه في آخر الوقت أن يسافر إلى المدينة المنورة، فسافر إليها وقطن بها إلى أن توفي سنة ست وتسعين ومائة وألف، فرحم الله ذلك الرجل الكامل الكائن البائن. انتهى ما ذكره سيدنا الحبيب عمر نفع الله به. (ومن كلامه) من مواضع من كتابه الذي ذكره سيدنا الحبيب عمر في صلاة أهل القرب قال رضي الله عنه: القيام والركوع والجلوس لا يقال له صلاة عند أهل الانتباه، ما دام مجرداً عن معناه الذي هو ذكر الله ونسيان ما سواه، لأن ضد الذكر النسيان والضدان لا يجتمعان، وقال شعراً:

جميعنا في صلاة	لكنما القلب لاهي
واللهو أيضا صلاة	في أهل هذا الجاهي

والكـــــل منـــــه إليـــــه وإنمـــا العبـــد ســـاهـــي
فـــإن تقـــل يـــا حبيبـــي أيـــن الصـــلاة ومـــا هـــي
أقـــل جميـــع شـــؤونـــي فـــي غفلتـــي وانتبـــاهـــي
إذ كلهـــا مـــن تحلـــي شيئـــا صـــلاة إلهـــي
إذ لـــن يـــزال يصلـــي حتـــى علـــى ذي المـــلاهـــي
فهـــا أنـــا فـــي صـــلاة وإن فقـــدت اتجـــاهـــي
فـــاشهـــده حيـــن يصلـــي ببـــابـــه وبفـــاهـــي
وكـــن لـــه مستعـــداً فبـــاهـــر الفيـــض بـــاهـــي
ولا تغـــب عـــن حبيـــب عطـــاؤه الجـــم زاهـــي
فـــإن كـــل صـــلاة منـــه تقـــاص كمـــا هـــي
عليـــه أعلـــى صـــلاة مـــا إن لهـــا مـــن تنـــاهـــي
والآل والصحـــب حتـــى يتـــم مجـــدي وجـــاهـــي

والكل أشباح وروحها سريان سره الشريف فيها، فهو المصلي عن الكل لأنه ﷺ روح الوجود قيام الكائنات، وكل جسم بغير الروح لم يقم، وهو المصلي للكل لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]. وقال قدس الله روحه: التقصير شأن الحادث الحقير، وما قدروا الله حق قدره، سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فالكل مسربل بذلك في جميع المسالك. وقال: الافتقار المحقق لا يزول ولا يجول، إذ هو الذاتي اللازم لجميع العوالم، وقال: دعوات النبي ﷺ جمعت الخيرين في كلا الدارين، لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فالداعي بدعواته فائز بمراداته في جميع توجهاته، ودعواته خاصة وعامة، فالعامة تامة والخاصة على المطلوب ناصة. وقال رضي الله عنه: ومن سحائب الاسترااية[١] الحائلة بين الدعاء والإجابة، الاشتغال بما لا يعني من التفكر في الماضي أو الآت المضيع للأوقات، فإن الوقت الحاضر له حق وهو به أحق، ومن ذلك الاشتغال بقيل وقال وكثرة المقال، الموجب

(١) كذا في الأصل.

للنكال في الحال والمآل، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم!، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [قٓ: ١٨]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فمن علم أنه مسؤول عن كل ذلك، فكيف يغفل عن المالك، ويشغل فؤاده بالهوس وسمعه بالدنس، وبصره بما هو مأمور بالغض عنه من جميع الأمور.

وقال قدس الله روحه: العطايا صدف في خبايا الأيام، والمواهب تحف لا بسعي الأقدام، فتيقظ من نوم غفلاتك قبل مماتك، وتعرض للنفحات قبل الفوات، واحرص على مدة عمرك المتناقصة وقواك الناكصة، ولا تبع العاجل المحقق بالآجل المعلق، وبع الحاضر بالحاضر، وإياك والبيع الخاسر، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، فقاتل وعليك بالمقاتل، وإن قتلت فحبذا ما نلت ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ومن كان في الله تلفه، كان على الله خلفه:

لكـل شـيء إذا فـارقتـه عـوض ... وليس لله إن فارقت من عوض

وهنا أسرار تحير دونها الأفكار، يعلمها من ذاق لا من اشتغل بالأذواق. وقال رضي الله عنه: فتمكن في مقامات الإيمان، حتى تفوز بالعيان من مقامات الإحسان، وامش بالتؤدة والوقار والتأني والاعتبار، في مناهج ميادين إيمانك، بنور الساعي بين يديك وبأيمانك، فإن التؤدة من الرحمٰن والاستعجال من الشيطان، ومن تأنى نال ما تمنى، وسرعة الرجل في السير تذهب بهاه وبهاء دينه، والتؤدة عبودية والعجلة ربوبيَّة، فكن ملازماً لصفاتك في حياتك ومماتك، واحذر أن تدعي فيما هو لغيرك في شرك وخيرك، وغب في صلاتك عن شهودها بعد تمام وجودها، على الوجه المراد بأكمل وجوه السَّداد، بالطهارة القلبيَّة والقالبيَّة على الطريقة المحمديَّة، مع الإخلاص التام في كل مقام، فاراً من شهود جميع ذلك في جميع المسالك، مع شهود التقصير في العمل الخطير، ولو لاحت عليه آثار القبول، وأينعت ثمرات تلك الأصول، فظهرت عليه بعد الاستقامة أنواع الكرامة، فإنها قد تكون استدراجاً، وإلى دركات المقت معراجاً، قال تعالىٰ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ

﴿حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، فعلى العاقل الفرار عن هذه الأطوار والأوطار فإنها أخطــار، فالأمـر غيب والتشوف لــه عيــب، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [ال عمران: ٦٦]، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، فالأمن من الخسران، خصوصاً من لم يثبت قدمه في درجات الإيمان. وقال رضي الله عنه: فائدة من هذه المائدة: تقدم أن المدد الإلٰهي إنما يكون على قدر الحاجة، والذي يزيد لا يفيد، وأقول: قد يضر، ومن ذلك ما زاد عن الحاجة من كل شيء حتى من العلم، فإن الزائد يلغي وصاحبه يطغي، وأما طلب زيادة العلم من الرب تعالىٰ، فأمر مطلوب من العلم المحبوب، وهو الذي يزيده نوراً ويكسوه حبوراً، قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقه في الدين»، فالتفقه من الله تعالىٰ من الزيادة المحتاج إليها كل ذي دين إلى يوم الدين، وأما هذه العلوم المتداولة فزيادتها مضرة جداً، لأنها تجري النفس إليها وتستولي عليها، فيصير همه زيادة العلم والتعليم، والقلب غير سليم، والسير غير قويم، ويصير شعاره الرضى عن نفسه، والتعاظم على أبناء جنسه، والرضا عن النفس هو الداء العضال، والمعصية التي لا تقال، وخصوصاً علوم المعقول، فإن صاحبها بها مغفول، ومشتغل بالفضول عن الدخول إلى موائد الله والرسول، ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾، إلا الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات وقليل ماهم، وهم الذين جعلوا العلم كالملح والعمل كالطعام، فإن الملح إذا زاد فسد، والطعام بلا ملح لا يحمد، ومن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم: وقال قدس الله روحه: مواجهة الحق عز وجل بالتوجه الكامل والتذلل الشامل، لا تبقي ولا تذر، وليس للمتوجه الصَّادق مقر، لا مع الأنوار ولا مع الأغيار، لفراره إلى الله الواحد القهار. من جميع الأقطار، ومن وقف مع شيء من ذلك فهو في الحال هالك، إياك أن تغتر بالأنوار، أو تستميلك فنون العلم والأسرار، فالعلم والنور عند العارفين أغيار، فارحل بقلبك لا تشهد لها مقدار، إذ الحق سبحانه وتعالى أمر بالفرار عن جميع هذه الأطوار، إذ قال لحبيبه الأعظم ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ فالكل خوض في كل خوض، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾

[الأنعام: ٦٨]، وآيات الله عامَّة وكلماته تامة، ومن ذاق عرف ومن طبخ غرف، ومن جالس أنصف ومن قابل انتصف موال، فاحذر غرور المعالي، لا تقف في الدرب، تبلى بطرحك وبالتشتيت بعد الضرب، فاجهد وجاهد وقل: يا ربنا يا رب، الحال مال فساعدنا وفك الكرب. هذا ما أردنا نقله من كلام الشيخ حسين ـ صاحب الترجمة ـ من كتابه المذكور، المسمى (الهديَّة السَّنِيَّة في الصلاة السُّنِّيَّة)، وهو كتاب عجيب المنوال رائق الأحوال، كان سيدنا وشيخنا الحبيب عمر لا يفارقه غالباً ويستصحبه حتى في الأسفار، ويأخذ منه الفال في ورود الأحوال، وهو ضخم الحجم ، يعجب ذوي القلوب السَّليمة من أهل ذلك الرسم، يعزُّ أن يسمح هذا الزمان الأخير بمثاله، أو ينسج على منواله، فالحمد لله الذي لا تحصى مواهبه، على وجود مثل هذه النادرة في هذا الزمان، وعلى اتصالنا به بواسطة مغناطيس الأرواح والأسرار والعرفان، البار عمر بن عبد الرحمٰن، نفعنا الله بهما في الدارين آمين.

قال رضي الله عنه ونفعنا به: (حمزة بن حسين العطاس) الشريف العارف المعدود من الخلائف، أجاز لي عن والده الشيخ حسين طريق جده الحبيب عمر، وما ينسب إلى الشيخ علي باراس من مصنف وغيره، وعن السيد أحمد بن زين الحبشي وقال: زرته إحدى عشرة مرة، نفعنا الله بهم. (خليل بن محمد التركي) العارف الغارف من أبحر الأسرار والمعارف، ذكره الشيخ علي البصري وقال: إنه ممن يصل إلى تلك الدِّيار وهو لم يسافر ظاهراً إليها، أخذت عنه بعد أن ذكرت له كلام الشيخ علي فسكت كالمقرر لذلك، ولقنني أذكاراً وجدت بركتها، وأتيت إلى بيته بمكة مع الوالد حسين بن الحبيب عمر البار نفع الله به، توفي سنة تسعين ومائة وألف. (سالم بن حسن بن شيخ بن إسماعيل) الشيخ العارف المستغرق بالله عن المعارف والتوالد والطوارف، المشهور فضله وولايته عند الموافق والمخالف، اجتمعت به في بندر المخا سنة خمس وثمانين ومائة وألف، بعد أن سبقت رؤيا لي بشرني بها الشيخ علي بن عبد الله الموصلي ثم البصري، وهو أني بعد أن عرفته واعتقدته وذكر لي أن آل باعلوي لهم غيرة على أولادهم أن ينتسبوا ـ أي في الطريق ـ إلى غيرهم، وقال لي: شيخك عبد الله الحداد في أشياء ذكرها عند ذكره، قلت له: على من تدلني؟ قال: سترى النبي ﷺ وسيعلمك، أو قال: سترى من يعلمك،

فرأيت وأنا في البحر كأني في مسجد صلاح الدين بمدينة صنعاء، وكان النبي ﷺ جالساً متصدراً في حلقة ويخاطبني، فقال: دخل علينا السيد سالم في زمن قريش، فقال بعض الحاضرين: كيف يدخل عليكم وهو في زماننا هذا؟ فكأنني قلت: في عالم المثال، وما أدري في ذلك الحال ما عالم المثال، فلما وصلت إلى بندر المخا وخرجت من البحر، فإذا بالسيد سالم في النبظ فصافحته، وجاء معي إلى المكان الذي قصدته، وما كنت أعرفه إلا أني قبل سفري قد أشار لي بعض من أعرفه بولايته ونظرته من بعيد، ثم لم يزل مع وصولي إلى المخا اجتمع به حتى في المقهاية، يأتي إليها ويتكلم معي بما يخطر على بالي مكاشفة، فمما حفظته عند قوله نفع الله به: ما هي بالكرامات، الصَّحابة ما لهم كرامات، كرامتهم النبي ﷺ ـ أي ليسوا كثيري خرق عادة ـ قال ابن عطاء الله في (تاج العروس): إن المسافة بعدت بين الأولياء والصَّحابة، جعلت الكرامات جبراً لما فاتهم من قرب المسافة التامة، فإن من الناس من يقول: إن الأولياء لهم الكرامات والصَّحابة لم يكن ذلك لهم، بل كانت الكرامات العظيمة صحبتهم له ﷺ. انتهىٰ. ثم قال السيد سالم: آل باعلوي ما هي بالعلم، محمد مولى الدويلة يقرأ نصف القرآن، ورجل بالفرش ورجل بالعرش، وقال: سر الولي سيرته، الظاهر عنوان الباطن، والباطن عنوان الظاهر، وقال: طريقة آل باعلوي من توجه لزم الجادة، وتنور القلب ووصل، وتعرضوا لنفحات الله، المواهب تحف في خبايا الأيام، والعطايا صدف لا بسعي الأقدام، وقول السُّودي:

إن ترد وصلنا فموتك شرط ... لا ينال الوصال من فيه فضله

حال من أكل صحفة وأبقى لقمة لا يطرح فيها شيء، وقول الشيخ أبي بكر:

فيا مدعي حباً بغير حقيقة ... فما أسهل الدعوى وما أعسر المعنى

وقال: قول الشيخ عمر المحضار رضي الله عنه ونفعنا به:

ومن جانا وبا يخضع حمانا ... نكثر في بلده الصَّائبات

المراد بالحمى الطريقة، وذكر قصته الذي استغاث بالشيخ أبي بكر بن سالم بالهجرين، ومنعه من إغاثته شيخه، وقال: ما لك طريقة عليه.

وقال رضي الله عنه: الناس يجون ـ يعني عند الأولياء ـ إلا للفلوس، إلا أهل حضرموت يطلبون ذلك مع حسن الخاتمة، وذكر سيدنا الحبيب عمر البار وأثنى عليه ثناءً تاماً، وذكر قوله للذي قال: يا موسىٰ لا تفعل لك ناموساً، وقال: واحد من أولاده محب الزمه، فاجتمعت ببعض الأولياء فقال لي مكاشفة: حسن حسن، يعني الوالد حسن بن الحبيب عمر، فعرفت أنه المشار إليه من السيد سالم. وقال رضي الله عنه: الكرامة لا تقع مع حظ النفس، ومليح من يريد الكرامة وطرحها على سلفه، هو إلا من يريدها بنفسه. وقال رضي الله عنه: جهاتنا أحسن الجهات لمن رضي بقرص رغيدة، وقال: من أعطوه كذا وكذا ـ وذكر قدراً من الدراهم ـ يخرج البلاد، وكنت قد رأيت قبل ذلك بأربع سنين أن النبي ﷺ في قبة سيدي الحبيب عمر البار، وكأنه أمر بعض الخدم بإعطاء ذلك القدر لي ـ أي الذي ذكر السيد سالم ـ فأعطانيه، فحصل عام اجتماعي به ما في الرؤيا وما ذكره ـ نفع الله به ورزقني بركته ـ ثم قال لي آخر بعد وداعي له: اقرأ لي الفاتحة فتوفي بعد أيام قلائل، فرأيته في المنام بعد موته بأيام في تلك المدة، كأني طالع جبلاً قابض على يد القاضي أحمد قاطن، فلما وصلنا رأس الجبل فإذا نحن بغرفة، وفيها السيد سالم المذكور وبيننا وبينه ستر رقيق، وهو يتكلم في طريق القوم، فمما حفظته من ذلك أنهم ينسبون أنفسهم، توفي ـ نفع الله به ـ في شهر القعدة سنة ست وثمانين ومائة وألف. انتهىٰ، وقول سيدنا الحبيب عمر نفع الله به: (ولم أدرِ في ذلك الحال ما عالم المثال) أي حال الرؤيا، وعالم المثال المذكور في كلامه هو عالم متوسط بين عالمي الأجساد والأرواح، وهو أحسنها.

قال رضي الله عنه: (سالم بن عبد الرحمٰن البار) الشريف الناسك، السالك في أحسن المسالك، ذا سمت حسن وتواضع حلَّ به أعلى اليقين، مشغولاً بالذكر والشكر والفكر، أخذ عن جده الحبيب عمر البار أخذاً تاماً، وأوصى له بردائه الشال الكشميري، وأخذ عن سيدي الحبيب أحمد بن عبد الرحمٰن البار بعد وفاة سيدنا الحبيب عمر، ثم سافر إلى الحرمين وأخذ بهما عن كثيرين، ثم قطن بالمدينة من سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف، واجتمعت به بمكة سنة ثنتين وثمانين ومائة وألف، وسافرت معه إلى المدينة، ولبست منه وأجازني في ترتيب لا إلٰه إلا الله

بعد كل صلاة ثلاثين مرة، قال: وهي طريقة آل باعلوي، أجازه بها الحبيب عبدالرحمٰن بن عبد الله بلفقيه، وتعلق ببعض أولياء الحرمين المشهورين ففقد الشال الذي أوصى له به الحبيب عمر، ثم بعد ذلك لم يأخذ عن أحد بل جلس في بيته، فسألته عن ذلك فقال: رأيت سيدي الحبيب عمر وسيدي الحبيب أحمد وقالا لي: أما ترضى تصلي بعدنا، فأخذها بقوة. وقد جمع ما كان سمعه من سيدي الحبيب عمر من الأوراد، رتبه في أوراق، وقد حررت ذلك وزدت عليه ما سمعه غيره بعد الذي كتبه، وسميته (مطالع الأسرار فيما ظهر وسمع من أوراد الحبيب عمر البار)، توفي في ربيع . .(١) سنة خمس وثمانين ومائة وألف.

(سليمان بن يحيى بن عمر مقبول الأهدل) السيد العارف المحدث، المتبحر في علم المعقول والمنقول. قال القاضي أحمد قاطن في ترجمته ما لفظه: قرأت عليه أول البخاري، وأجازني مشافهة سنة أربع وتسعين ومائة وألف. انتهىٰ ما ذكره نفع الله به، عده في جملة مشايخه، واشتهر أخذه عنه، واجتماعه به، لكن لم يذكر كيفية اجتماعه به كغيره، إلا أنه أترك بعده بياضاً واسعاً ليلحق بعض ما يتعلق بذلك، فلم يتيسر له. وكان هذا السيد سليمان إماماً عاملاً عالماً فاضلاً متبحراً متفنناً، انتهت إليه رئاسة العلم بمدينة زبيد، واجمعت عليه علماء الظاهر والباطن أنه من الضنائن، وكان متولياً للفتيا مسدداً في جواباته ومؤلفاته مع التحقيق التام، وبعد المدرك الذي لا يسامى لغيره ولا يرام، وخلفه على هذا النمط من العلوم والأعمال، والأخلاق والمقامات والأحوال، ولده الولي البدل عبد الرحمٰن بن سليمان، اجتمعت به في مدينة زبيد سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف، وكتب لي ولسيدي الحبيب عبدالرحمٰن بن عمر البار إجازة بخطه صورتها: بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله الوهاب الفتاح، والصّلاة والسلام على أفضل الأنام الداعي إلى الفلاح، وعلى آله وصحبه أئمة الهدى والصَّلاح. أما بعد: فإن الله منَّ ـ وله الحمد ـ بنعمة الاتفاق، بالسيد الفاضل في الأخلاق، سلالة الأولياء الجهابذة السباق، وجيه الإسلام عبد الرحمٰن بن السيد الإمام عمر ابن السيد الإمام عبد الرحمٰن

(١) كذا بياض بالأصل.

البار، حفظه الله من الأخطار، وملاه بالمعارف والأسرار، وبرفيقه العلامة الكامل والعلم الفاضل، المشار إليه بالبنان في البيان، الشيخ عبد الله بن أحمد باسودان، كان الله له بالفضل والإحسان، ورزقه فنون لطائف العرفان، وذلك بعد أن قضيا النسك وتمتعا بتلك المشاعر العظام، وزارا سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، تقبل الله الأعمال وأصلح الأقوال والأحوال، فحصل بهما فوائد العوائد وعوائد الفوائد، وأشرق نور الفلاح من شمس فضائلهما وفواضلهما على أرض الأشباح، وكان من مقتضى ما هما عليه من الكمال وحسن الخلال، أن طلبا من الفقير الحقير الإجازة ولم يكن لذلك أهلاً:

ولست بأهل أن أجاز فكيف أن أجيز ولكن الحقائق قد تخفى

ولكن رأيت أن الإشارة من مثلهما بشارة، فأقول راجياً منهما صالح الدعاء والإعاذة من الردى: قد أجزت المذكورين في كل ما تصح روايته وتصلح درايته من الأصول والفروع، من تفسير وحديث وفقه وتصوف ومفاتيح غيب علومها، وفي العلوم الآلية وفي الأذكار والأوراد، وفي الدعوة إلى باب الخير والإرشاد، كما أجازني بذلك أجلة أعلام، منهم سيدي الوالد السيد العلامة شيخ الإسلام سليمان بن يحيى بن عمر مقبول الأهدل، كما أجازه شيخه السيد العلامة أحمد بن محمد مقبول، كما أجازه بذلك السيد العلامة يحيى بن عمر مقبول الأهدل، رحمهم الله رحمة الأبرار، بشرطه المعتبر عند علماء الأثر، نظمنا الله في سلك أهل الطريق وهدانا بالتوفيق، والمأمول منهم صالح الأدعية سيما بالتوفيق وحسن الختام، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. كتبه الفقير إلى الله عزوجل عبد الرحمٰن بن سليمان الأهدل ـ عفى الله عنهما ـ سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف. انتهت الإجازة من خطه، أمتع الله به الوجود آمين.

ثم قال سيدنا وشيخنا رضي الله عنه: سليمان الجمل المضمري اجتمعت به في مسجد الخيف مع جماعة من آل بانافع عام ستة وثمانين ومائة وألف، وقال بعد أن صلى بالجماعة الحاضرين الذي كنت فيهم: رضيت بكم إخواناً في الله ، وسألنا: من أين أنتم؟ فقلنا له: من حضرموت، قال: حضرموت رأس اليمن.

(شيخ بن عمر البار) السيد الفاضل الشريف الكامل، ذي الخلق البهي والسمت السني، أخذ عن والده وعمه وتربى بهما، وكان من أهل الاحتمال، والصبر على أذى الجهال، وله الخط الحسن والتيقظ في كتابة البصائر، الذي لم يشاركه فيه أحد من أهل الزمن، قرأت عليه ديوان الحبيب عمر والرسالة والمكاتبات ولبست منه، توفي لخمس وعشرين رمضان سنة سبع وتسعين ومائة وألف. (عبد الله بن أحمد الدائل)، السيد السند القدوة، الصفوة المعتمد، شيخ الطريق وإمام المعرفة والتحقيق، لبست منه سنة سبع وتسعين ومائة وألف، وقال لي: هذه الخرقة الحداديَّة، وقد لبس من سيدي الحبيب عمر البار عام سفره هو والشيخ عمر جيلي، كما أخبرني عمر جيلي. (عبد الله بن الحسين الحداد) حفيد إمام الإرشاد، الشريف الفاضل الجلاجل الكامل، ذو سيرة صالحة وتجارة رابحة وآراء راجحة، اجتمعت به في جدة، وأخذت عنه طريقة الذكر ثلاثمائة وستين على كيفية أخذها عن السيد الفاضل الحبيب إبراهيم بن سالم الحداد، عن السيد الشريف حسين بن عبد الرحمٰن العيدروس صاحب قرزات، عن الحبيب عبد الرحمٰن بن عبد الله بلفقيه، عن خاله عبد الرحمٰن بن محمد العيدروس، وألبسني مع سفري من جدة، قال ومشايخه سبعة من آل باعلوي: الحبيب حسن بن عبد الله الحداد، والحبيب عمر حامد، والحبيب محمد بن سميط، والجيب عبد الرحمٰن بن عبد الله بلفقيه، والحبيب عبد الله بن جعفر مدهر، وذكر اثنين لم أثبتهم. (عبد الرحمٰن بن محمد المشرع) الشيخ الكبير، والضرغام الشهير، ذو كرامات كثيرة، وأنوار وأسرار غزيرة، زرته في بلد الرؤية وأخذت عنه، واجتمعت به في بيت الفقيه بن عجيل، رضي الله عنه وأرضاه، ولقنني ذكراً وأجازني في شيء مخصوص، وانتفعت به وبمشاهدته، ورأيت مناماً في حال اجتماعي به، كأنه طرح في فمي شيئاً من فمه، وكأنه معتجز بخنجر وبيده مسلة يدفع بها، وكان صاحب كرامات، قال القاضي أحمد قاطن: كنت أعرف من كتابه إذا كتب للإمام المهدي في طلب شفاعة إذا جزم أنها مقبولة، وإذا مرض العبارة لم تقبل، وله الكرم الذي لم يكن في أهل قطره، قال الشيخ عثمان بن علي جيلي: جينا لزيارته مع سيدي علي بن أحمد

البحر في نحو عشرة، ثم أقبل الوالي في نحو عشرين أو أكثر، فحين جلسوا قال: بسم الله الغداء، فقمنا فإذا سفرة كاملة فيها من كل لون فأكلنا، فقال بعض خدام الوالي لآخر: كل من شيء ما تجده عند الإمام، قال الشيخ عثمان: فسألته عن تهييئه لذلك، فقال لي: إذا بايقصدني أحد يحصل لي تنبيه فاستعد له. انتهىٰ، قال لي: أخذت في عام حجتي عن السيد العارف عبد الرحمٰن بن مصطفىٰ العيدروس، وكنى بي أبا السرور، وكنى بي الشيخ إبراهيم خليل أبا الخير، قال: وكان يأخذ الكنى من اللوح المحفوظ. رضي الله عن الجميع.

(عثمان بن عمر العطار) المكي الشيخ العلامة المحدث الفهامة، اجتمعت به بمكة سنة خمس وتسعين ومائة وألف، وقرأت عليه في صحيح مسلم وكتاب السنن للشيخ إبراهيم الكردي، وأجازني إجازة عامة، وقرأت عليه أيضاً أوائل الكتب الحديثيَّة للشيخ عبد الله بن سالم البصري رضي الله عنه. (علي بن أحمد البحر) السيد الشريف العارف، المحبوب المجذوب المحبو بأنواع اللطائف، الغارق في أبحر المكاشفات والعلوم اللدنيات، اجتمعت به في سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف في مدينة بيت الفقيه، جاء وأنا في جماعة جالسين في ساحة الشيخ أحمد العجلي، وكنت نويت أن أعطيه كوفية مدنية فلما جلس قال مكاشفة: من هو صاحب الكوفية: فقلت: أنا، فقمت وأتيت بها له فأخرج كوفية من المقصص الهندي وألبسني، وقال: خذها يد عن يد النبي ﷺ وبشرني، وأرجو بركته وبركة جميع المشايخ، وهو قطب من أقطاب اليمن الذي تدور مصالح أهل بلدهم عليهم، ولهم الكرم الفائض الذي يزري بالماطر العارض، وكراماته كثيرة شهيرة، قال سيدنا الحبيب أحمد بن علي البحر: إني إذا طلبني علي بن أحمد احترز منه بالطهارة لأنه سلاب.. أو كما قال، توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف.

(علي بن حسن بن عبد الكريم البرزنجي) السيد العلامة البحر الفهامة، ذو النظم الرائق والحال الفائق، والخلق البهي والخلق السني، جار المصطفى وربيب المعارف والوفا، اجتمعت به في سنة إحدى وتسعين ومائة وألف، زرته وقرأت عليه منظومته البدريَّة، وأجاز لي في أذكار، وفي طريقة الذكر بالجلالة بإطلاع النفس في أول اللفظ وإرجاعه في آخره، عن أخيه السيد جعفر بسنده إلى الشيخ

ابن عربي، وزرته في سنة ثنتين بعد المائتين والألف، وأعطاني كوفية وأعطاني مولداً له، وأحواله ومناقبه مشهورة، ولدى أصحابه مشهورة، نفع الله به. (علي بن عبد الله الموصلي ثم البصري) شيخ عارف، حاز من الأسرار ما لا يقدر على وصفه واصف، حافظاً للشريعة وراسخاً قدمه في بحار الحقيقة المنيعة، اجتمعت به في البصرة يوم وصلت في شهر شعبان سنة خمس وثمانين ومائة وألف، جاء إلى المكان الذي أنا فيه ثم قال: الله يعينك يا سيد، وأخذ بيدي إلى عند السيد العارف المجذوب صالح الرديني، وفي أثناء الطريق أطلق الثناء على السِّادة العلوية، ثم لازمته بعد ذلك، وسألني: هل أخذت الطريق؟ فذكرت له أن بعض علماء اليمن قال لي: إذا رجعت من البصرة سألقنك الذكر على طريقة النقشبندية، فقال: طريقتنا وطريقتهم واحد وسكت، ثم بعد يوم قال: شيخك عبد الله حداد، فقلت له: من أين ذلك لك؟، فقال: يوصون عليك، ثم ذكر ما ذكره الحبيب عبد الله الحداد، أن من له تعلق بشيخ وجاء إلى عند شيخ آخر فشيخه الأول، والثاني يمده بالبركة ولا يقدر يخرجه من الأول.. أو كما قال، ثم قال: وأنا ضعيف، لو أراد أحد أن يأخذ لي مريداً لفعلت به وفعلت، وقال نفع الله به: الأولياء يأخذون على من عنده السر أن يخدم جميع أهل الطرائق، وتظهر الكرامة لذلك القائم ولا تضره، وذكر وصول سيدي الحبيب جعفر بن أحمد الحبشي: إلى تلك الجهة على ما سبق عند ذكره، وقال: ولده الصغير طود من الأطواد، ولقنني أذكاراً وصلوات وألبسني، وحفظت منه كرامات منها قوله: سترى النبي ﷺ أو سترى من يعرفك، فكان ذلك كما قال، مر في ترجمة السيد سالم ابن حسن بن شيخ بن إسماعيل. ومنها أنا أردنا السفر والسنجار مسافر، فذكرنا له ذلك فقال: يحبس حتى تكونوا فيه، فحصل سحاب منعهم من السفر، ثم أنه لقي الأخ علوي بن حسين مدهر فطلب منه الفاتحة بالتيسير فقرأها، فلما اجتمعت به قال: بايسافر السنجار، إيش افعل بكم يا آل باعلوي؟، وكان هناك مركب فرنجي فقال: تكونون فيه، فتيسرت الأمور حتى أن البن الذي هو بضاعة المركب الذي نحن فيه، أخذوه وعاده في المركب، وقلت له: كم نأخذ دجاج للبحر؟ فقال: ثمانية عشر، فأخذناهن

فحفظهن الله من الضياع، وأخذنا في البحر ثمانية عشر يوماً، آخر يوم منها ذبحنا دجاجة ووصلنا، ومما أنشدني به:

نفسي الخبيثة معي   في شأنها تدعي   وهي محل الخنا

وأنشد أيضاً:

صفت لي حميا ودي   بطلعة محيا مشهود

وقال: ماذا قال لك شيخك الأول؟ وكان الشيخ محمد بن يَّس باقيس ـ نفع الله به ـ قد قال سابقاً يوماً: زرت الشيخ علي، فخطر لي أنه يريد الشيخ علي باراس فزرته، فردد عليَّ الشيخ علي مراراً، ولم أذكر كلام الشيخ محمد إلا بعد أن فارقته، وكان كثير التعظيم لأهل البيت لا سيما آل باعلوي، يثني عليهم ثناءً مطلقا رضي الله عنه، توفي سنة ست أو ثمان وتسعين ومائة وألف.

(علي بن عمر البار) الشريف الحبيب الفاضل الأريب، العالم العارف المخصوص بسني المعارف، لبس من سيدنا الحبيب عبد الله الحداد كوفية، لما زار به والده سيدنا الحبيب وهو ابن سبع سنين، وأعطاه والده الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ بعدما لبسها المعلم الذي يعلمه القرآن، وقال: قد حصل المطلوب، وخصه سيدنا الحبيب عمر أن زار به المدينة وحج معه، وعدها من خصوصياته، وكان قوالاً بالحق لا يخاف لومة لائم، لبست منه وقرأت عليه في بندر جده في كتاب (بهجة المحافل) للعامري، قال سيدي العم الصَّادق: إن في نفسي شيء من علي، فرأيت الوالد يقول لي: إن عليا بمكان، فزال ذلك عني.

(محمد بن سليمان الكردي) شيخ الشافعيَّة في وقته، إمام جمع الله له من العلوم والمعارف أشتاتاً، ومن المكارم دورا وأبياتا، كان غاية في التواضع، قرأت عليه سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف في (فتح الوهاب) إلى أركان الصلاة، وفي سنة إحدى وتسعين قرأت عليه في (المنهاج) نفع الله به ورزقنا بركته. (محمد بن عبدالباري الأهدل) نقل عن الشيخ العارف بالله تعالىٰ أحمد بن حسين الموقري ـ نفع الله به ـ أنه قال: السيد محمد باري في هذا الوقت مهبط التجليات، وقال

سيدنا وشيخنا الحبيب عمر: هو الشيخ الكبير، ذو الفضل والكرم الغزير، صاحب المقام الأهدلي، والرجل الكامل الذي لم يزل يترقى ويعتلي، اجتمعت به سنة ثلاث وسبعين بعد المائة والألف، ووافق اجتماعي به إرسال الشيخ العارف عبدالخالق المزجاجي كتابه (فتح الباري شرح الدراري في مدح السيد محمد باري)، وقرأت فيه عليه إلى الاحتمال الثالث واستئذنته في نقله، وأجازني في ترتيب يا حي يا قيوم لا إلٰه إلا أنت بعد ركعتي الفجر أربعين مرة، ورأيته مناماً في مسجد سيدي الحبيب عمر البار بالقرين، وكأنه المشار إليه في ذلك الوقت، وحفن لي ثلاث حفنات بيده من الغيب، وله أخذ على سيدي عمر البار حين سافر إلى الحج، قال: وافق وصوله إلى زبيد وأنا فيها وقال: إنه يحب الخمول. انتهىٰ ما وجدته مرقوماً بخط سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار صاحب الترجمة والمنظومة في إثبات تراجم من أخذ عنهم، وقد قدمت أن من أثبتهم في هذه التراجم وهم مذكورون في هذه المنظومة أخرت ذلك إلى محله، وقد كتب أسماء نحو ثلاثة ولم يترجم لهم بشيء، سيأتي ذكر بعضهم في المنظومة وشرحها، وله مشايخ غير هؤلاء كثيرون من أهل الباطن والظاهر، يعز عدهم على الحاصر، لأنه ـ نفع الله به ـ كما قدمنا يستمد من كل أحد ويتَّلمذ لكل أحد، وله فراسة يعرف بها الأولياء المستترين والصلحاء المتخملين، كما هو مشهور عنه رضي الله عنهما وعنهم أجمعين.

خاتمة

في ذكر وفاته، وخاتمة أجله المستوفية لكمال استعداداته، المبشرة له بسابقة السعادة والفوز بالحسنى وزيادة: ولما قرب أجله، وأوشك أن يتكامل رزقه وعمله، وكان معدن طينته الأصليَّة، وموطن إقامته البرزخية، بعيد الشقة عن الأهل والدار والسكن والجار، وكان من حكمة الله تعالىٰ ترتيب الأسباب، وتغطية وجوه الأقدار تجليات الحجاب، ساقت الأقدار منسوب الكسب والاختيار، السيد المجذوب سالم باعمر علوي ساكن ظفار، إلى زيارة الديار الحضرمية والمعاهد السلفيَّة، ووصل إلى دوعن واجتمع فيه بسيدنا الحبيب عمر نفع الله به، ويذاكر في أحوال سيدنا الحبيب شيخ الجفري، ولم يزل يسأله سيدنا الحبيب عمر عن الحبيب شيخ، وتفوح منه روائح الاشتياق وشدة النزوع إلى التلاق، بل صرح

للسيد سالم المذكور، بأنه إذا ساعد المقدور ومنَّ الله تعالىٰ بوصول الحبيب شيخ إلى الحرمين الشريفين، عسى وأن يحصل الاجتماع بهما، وكان السيد سالم يسافر إلى جهة مليبار أولا للتجارة، وآخراً لزيارة سيدنا الحبيب شيخ نفع الله بهما، لأنه تجرد بعد وأقبل على الله تعالىٰ بكليته، وسبب ذلك. .[1] وكما سمعته عن سيدي الحبيب عمر، أن الحبيب شيخ قال له: سالم غير سالم، فعملت فيه هذه الكلمة كل العمل وأثرت فيه كل التأثير، وجذب وتجرد عن الأسباب حتى التحق بالأحباب، فلما رجع إلى مليبار ذاكر الحبيب شيخ باجتماعه بسيدي الحبيب عمر وبما كان معه من الشوق إليه، وقد وصل إليه منه قبل وصول السيد سالم كتاب يذكر فيه طول النزوع إلى الاجتماع، والارتماض يجر البعد والانقطاع، فكان الأصل في سفر الحبيب شيخ هذا السَّبب، ومقاصد أخر تشتمل على أنواع من القرب، وقد سمعت سيدي الحبيب شيخ يقول لما قيل له الحبيب عمر البار لم يسافر من دوعن إلا لأجلك، قال: سافر السيد عمر من دوعن من أجلي في الظاهر، وأنا سافرت من مليبار من أجله في الباطن، ومع ذلك لم يخبر السيد سالم المذكور بعزمه على السفر، بل لما قضى من رؤيته وزيارته الوطر، استشاره في الإقامة عنده أو الرجوع إلى وطنه فأشار إليه بالرجوع إلى وطنه، لخدمة الوالدة والوالد، وقال له: ففيهما فجاهد، فلما سافر السيد سالم عزم الحبيب شيخ، وكان وصوله إلى بندر المكلا أول شوال من سنة إحدى عشرة ومائتين وألف، وكتب منه إلى سيدي الحبيب عمر كتاباً يعلمه بوصوله ونفوذه إلى الحرمين، فلما وصل ذلك الكتاب سر سيدي الحبيب عمر وابتهج بوصوله، وعزم على السفر آخر شوال من هذا العام، وكان كتاب سيدي الحبيب شيخ إليه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، أحمد في كل حال على كل حال الكبير الأكبر الجاري بمشيئته ما كان وما يكون من الخير والشر، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد من بشر وأنذر، المخصوص بالشفاعة الكبرى ولواء الحمد وحوض الكوثر، وعلى آله وصحبه الهادين المهتدين الميامين الغرر، وعلى من اقتفى أثرهم في الأقوال والأفعال وآثر على نفسه وما تأثر، وبعد: فسلام لو جعل لعين لكان

---

(١) كذا بياض بالأصل.

جوهر، أو لأذن لكان أشجى من نغمة القمري ورنة الوتر، أو لأنف لفاق المسك الأذفر والند والكافور والعنبر، وألطف من نسيم السَّحر على المحرور بالحر، وأشهى من العافية على المدنف المنتظر، أهديه إلى عالي جناب البار المبرور الأبر، الغني بذاته وأفعاله عن التعريف بمظهر وبمضمر، الحبيب المحبوب والعزيز المرغوب سيدنا عمر، أطال الله بقاه، وفي حبه أفناه وحماه، من كل شر بجاه صفوة ربه، مَن نوره مِن نوره بحمد الله انتشر، صدرت العجالة الشبيهة بالبلالة من المكلا بندر، لأداء مسنون السلام واستمداد الدعاء بحصول المطلوب، لا سيما بلوغ الحج وزيارة القبر المنور، وإعلامكم بأنَّا في عافية وافية ونعمة صافية ضافية بشكر من يشكر، جعلكم الله كذلك بل أزيد مما هنالك وأكثر، وسبب ذلك كتابكم الأزهر وخطابكم الأشهر، معرف المنكر ومكبر المصغر ومعظم الأحقر، المنبي من حذف المقدر وفسر بما فسر، وأظهر ما أظهر وأضمر ما أضمر، فعجبنا من ذلك، وأعجب منه وصول الأخ سالم بل عمر باعمر بثلاثة أيام وبما كان أخبر، فياله من عجب عجيب مع طول مسافة السفر، وجواب كتابكم مع التخميس من للعهد ذكر، مقرون صحبة الأخ حسن باهارون، قد صدر ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ يصلكم بعدنا على الأثر، لأنه قد تقدم حسن لعدم جزمنا على السَّفر، فحصلت النيَّة فتأخر من تقدم وتقدم من تأخر، واعذروا وسامحوا كثرة الهذيان فمثلك من عذر، ولو بان عدمه فيما ذكرتموه بالمبتدأ والخبر، بإعادة الضمير إليكم وخبر قد تقدم يذكر، قيل: واعذر أُخَيَّكَ باثنين أو ثلاثة، وارد عن الحال أخبر. انتهىٰ ما حفظ وفهم من هذه الرسالة، وأرسل معها أبيات بخطه كهي مع ضعفه وكبر سنه لا يفهم بعضه إلا بتأمل، اعرضها على سيدي الحبيب عمر في طريق المكلا وقرأتها عليه، فقال: الآن فهم منها ما لم يفهم قبل، وبقيت فيها مواضع مشكلة ثم بعد ذلك فُقِدَت، وهي مشتملة على إشارات شوقية وبشارات ذوقيَّة، يتضمن الثناء منه على سيدي الحبيب عمر، ولما وصل المكلا وصله الكتاب المصدر، من سيدي الحبيب شيخ صحبة الحبيب حسن باهارون، المشار إليه في خطه في قوله (وجواب كتابكم من للعهد قد ذكر).. إلى آخره، وأرسل إليه تخميس أبياته التي ضمنها النبذة التي شرح بها أبيات الحبيب شيخ، وهي سبعة أبيات من أثناء قصيدة

لسيدي الحبيب شيخ أرسلها لسيدي الحبيب عمر فتأثر بها، وسمى سيدي الحبيب شيخ هذه النبذة رسالة كشف منهم المبتدأ والخبر للسيد الشريف البار المبرور عمر، أطال الله بقاه وفي حبه أفناه، بجاه طٰه المصطفى وآله أهل الصدق والوفاء آمين، وسنورد بعض ما أرسله سيدي الحبيب شيخ ـ نفع الله به ـ من تخميس أبيات سيدي الحبيب عمر، وما يتعلق به مما قبله أو بعده مما يشير إلى أمور وأسرار، فمن ذلك قوله قبل تخميسه للأبيات ما صورته: شكاية المخلوق من عجل، إلى خالقه عز وجل، بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله غافر الذنوب وساتر العيوب، وأصلي وأسلم على أشرف نوع الإنسان، الوارد عنه «غفر لأمتي الخطأ والنسيان»، وعلى آله وصحبه الذين هم وبه فائزون، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، المفلحون الآمنون، الذين يظن بهم الخير وهم به يظنون، وبعد: فقد وصل إليَّ ما كتبته، وظهر به ما كان فهمته، فلقد أحسنت بما أبديت، وقلت فما تعديت، ولكن لما تأثرت من قولي يا ابن المؤثر البار بردك ما في الضمير عائد إليك وهو عائد إلى من بمليبار قد بار، قلت: وإن كان القول ضعيف المقول، حيث إن كان قائل لا يعد قول وهو هذا:

تأثرك أبدا إنني لك بالمبكي فحاشاك أن أبكيك فيما به أحكي
ولا غيرك لكن لنفسي بلا شك إلى مالك الأملاك من غفلتي أشكي
وأرجو بفضل منه أخلص من افكي

عسى يسمع الله بطه شكايتي لأبرأ مما ظن بي في حكايتي
وعلي بفضل الله في كل حالتي أسير بسير القوم في كل ساعتي
وأجري بحول الله في بحرهم فلكي

بمبتدأ ذا خبر جل آئل إلى فاعل ما غيره قط فاعل
به أصبح للنصب والرفع أهل ويحصل لي فوق الذي أنا آمل
له يا أولي الإحسان في الفعل والترك

فلا لي من شد ومد من العلا فما زال فعلي وزنه بي تفعلا

يراه ذووا التصريف والنحو في فيا قلب قابل واتبع آثارهم ولا

تعدي من التقصير في هديهم تنكي

بأي محل كان من وعر أو وطا فلذ بالذي بالجزم والعزم قد سطا

ودم نادماً واقطع لما كان من خطا وقل يا سريع الغوث يا واسع العطا

أغثني بهم واجعل مواجيدهم ملكي

إلى هنا الأصل المخمس ثم زاد سيدنا الحبيب شيخ تخميساً وأصلاً فقال:

فمالي سواك في الأمور جميعها لعلي بتوفيقك ادعى مطيعها

مراضيك سهل لي بكل رفيعها فدعوات من يدعوك أنت سميعها

تضحك من يبكي وتبكي لذي الضحك

فتمحي وتثبت معدن الخوف والرجا ومنكم ومنكم أدخل ثم مخرجا

فمنك إليك مالنا غيرك لجا فأنت اللجا والملتجا وبك النجا

لقرشي وحبشي بل وللفرس والترك

إليك العقاب والثواب بلا شك بعدل وفضل لذوي الذنب والشك

ويحلو لي الختم بقول الذي زكي إلى مالك الأملاك من غفلتي أشكي

وأرجو بفضل منه أخلص من افكي

وما ذكره سيدي الحبيب شيخ ـ نفع الله به ـ في آخر المكاتبة (وسامحوا كثرة الهذيان).. إلى آخره، ثم ذكره في الديباجة قبل الأبيات، ثم قوله في أول التخميس: (تأثرك أبداً أنني لك بالمنكي).. إلى آخره، فكل ذلك يشير به إلى ما ذكره سيدنا الحبيب عمر في شرح البيت الأول من أبيات سيدنا الشيخ، وهو قوله:

واعذر أخاه في هداه لأنه له مبتدأ لكنه ماله خبر

فإنه قال: وقوله (في هداه) أي فيما تلفظ به وجاك من الوعظ والتأديب على لسانه، وتنبهك على ما فيك من العيوب الكامنة والظاهرة، ونسبة ذلك إليه على طريقة قوله تعالىٰ فيما حكاه عن بعض خواصَّه في دعائه لقومه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يٓس: ٢٢]، والمراد: ومالكم. انتهىٰ، فكان كلام سيدي الحبيب شيخ كله هذا مبيناً ما شهده الحبيب عمر، وحمله على أنه المعني به كما هو شأن أهل العرفان التأثر بكلام الأكابر، أنه ما أراد وعني إلا نفسه فقط إذ حصر ذلك في قوله رضي الله عنه:

فحاشاك أن أبكيك فيما به أحكي ولا غيرك لكن لنفسي بلا شك

وهو ـ رضي الله عنه ـ كما ذكر لم يعنِ إلا نفسه، كما يعرف ذلك من حاله وشدة خوفه، مع أنه لم ينكر ذلك من سيدنا الحبيب عمر، بل قرره في قوله السَّابق (فلقد أحسنت بما أبديت، وقلت فما تعديت).. إلى آخره، ومن جملة ما وصل لسيدي الحبيب عمر من سيدي الحبيب شيخ في هذا المكتوب تخميس قصيدة سيدنا الحبيب الشيخ عبد الله الحداد التي أولها:

ذكـر العهـد بـالـربـا والمنـازل فغـدا دمعـه علـى الخـد سـائـل

وقد أشار إلى إرساله في الكتاب السابق الذي من المكلا، وكتب سيدي الحبيب شيخ قبل التخميس: وصدر إليك تخميس ذكر العهد بالربا، يا مسعد حسبما به الوارد علي ورد، فانظره بعين الرضا، وأصلح ما به من عيب، لأن لحني لم يزل ملحوناً لفظاً ومعنىً من دون ريب، إذ لم أدرِ طلبك للتخميس لخلاف في شيء فيه جرى، أو لترى مني يا أخي ما خطر على قلبي وما طرى. انتهىٰ ما جعله ـ نفع الله به ـ كالمقدمة للتخميس، ولما قرأته على سيدي الحبيب عمر سألته عن طلب التخميس: هل له سبب؟ كما استفهم ذلك منه الحبيب شيخ أم لا؟، فذكر أن ما ذكره في ترجمة سيدي الحبيب شيخ المذكور الآتية، هو السبب في طلب تخميس القصيدة المذكورة، وذلك أن سيدي الحبيب شيخ وصل سنة ست وثمانين ومائة وألف إلى اليمن ثم إلى الحرمين، قال سيدي الحبيب عمر: فرأيت قبل وصوله كأني بتريم وكأني مع سيدي الحبيب عبد الله بن علوي الحداد في

مكان سيدي علي بن عبد الله العيدروس، فقال سيدي الحبيب عبد الله الحداد للخادم: قل لحبيبك يجيء إلى مكان جالس فيه الحبيب، فلما جاء وجلس ـ أي الحبيب علي بن عبد الله ـ قال لي الحبيب عبد الله: سلم على حبيبك فسلمت عليه فأخرج من فيه ملا كفي، فنظرت إلى الحبيب عبد الله الحداد فقال: اشربه فشربته، فبعد يوم وصل سيدي الوالد شيخ إلى مرسى المحبة، وكتب لي كتاباً يخبرني بوصوله. انتهىٰ المقصود مما ذكره سيدي الحبيب عمر في ترجمة سيدي الحبيب شيخ، وعندما ذكر لي ذلك قال: وكان سيدي الحبيب عبد الله ينشد أبياتاً من القصيدة المذكورة وهي قوله فيها:

مثل نجل العفيف شيخ كريم　　من كريم ما إن له من مماثل
الحبيب الكريم حساً ومعنىً　　الشريف العلي زين الشمائل
عيدروس الزمان فرد لعصر　　نور ضوء المكان صدر المحافل

وفي آخر هذه القصيدة أن الحبيب عبد الله ترجى حصول الاجتماع بينه وبين أخيه في الله سيدنا الحبيب علي بن عبد الله فلم يجتمعا بعد ذلك، قال ـ نفع الله به ـ بعد الأبيات السابقة:

كان فينا حيناً وكنا جميعاً　　في سرور وغبطة وفواضل
فتنأت به المنازل عَنَّا　　واجتماع الأرواح باق وحاصل
إن قضى الله ربنا باجتماع　　فهو أهل الجميل والكل آمل
عند بيت الإلٰه رب البرايا　　وضريح قد ضم ختم الرسائل
أو بأوطاننا وحيث نشأنا　　وإقامة أسلافنا والأوائل
فهو المرتجى تعالىٰ علاه　　والمجيب لكل داع وسائل
وإذا الاجتماع لم يقض حكماً　　قبل حين الوفاة في حال عاجل
فعسى في جوار ربنا في جنان　　قد أعدت للمتقين الأفاضل

فرؤيا سيدنا الحبيب عمر المذكور ـ رضي الله عنه ـ على الوجه السَّابق، ثم ذكرها في ترجمة سيدي الحبيب شيخ، فليس له بها تعلق إلا وصوله بعدها بيوم،

ثم إرسالها لسيدي الحبيب شيخ، وطلب تخميسها بعد طول زمن الرؤيا، ووصول التخميس إلى سيدي الحبيب عمر في بندر المكلا بعد تعدي الحبيب شيخ منه، في كل ذلك إشارات إلى وراثة هذين الإمامين العارفين لذينك الشخصين القطبين، وأنه حصل لهما ما حصل لذينك حتى في ترجي الاجتماع بالفعل والمقال. أما الفعل فهو سفر سيدي الحبيب عمر للقاء سيدي الحبيب شيخ، وأما بالمقال فطلب التخميس لهذه القصيدة التي في ضمنها شاهد الحال، فلم يجتمعا بعد ذلك، ومات الحبيب علي بن عبد الله العيدروس بجهة الهند قبل سيدنا الحبيب عبد الله، ولذلك أيضاً دلائل أخر منها ما حكاه بعض السّادة الأخيار عن الشيخ المجذوب المرعي أحمد بامرعي باعشن رحمه الله، أن بعض أهل النور رأى كأنه يسأل عن صالحي الزمان وخواصّه، فقال رجل: الحبيب عمر بن عبدالرحمٰن البار أعطي حال رجلين من سلفه حال السيد علي بن عبد الله العيدروس من المتقدمين وحال جده الحبيب عمر البار من المتأخرين. انتهىٰ.

وبلغني عن سيدنا الإمام وارث المقام الحدادي الحبيب علوي بن أحمد الحداد باعلوي ـ نفع الله به ـ أنه كان يقول: سمعت هاتفاً يقول: حال السيد عمر بن عبد الرحمٰن البار كحال الشيخ علي بن أبي بكر بن عبد الرحمٰن السِّقاف ـ يعني صاحب البرقة ـ، ولما وصلت إلى مكة واجتمعت بسيدي الحبيب شيخ ـ نفع الله به ـ رأيت في هامش نسخته من ديوان سيدي الحبيب عبد الله الحداد حاشية منقولة من المكاتبات لسيدنا الحبيب عبد الله، كلاماً بمعنى ما في أبيات القصيدة المتقدمة من التفصيل في ذكر الاجتماع والمكاتبة إلى الحبيب علي بن عبد الله العيدروس أيضا، فنقلت ذلك وأتيت به إلى سيدي الحبيب شيخ وذكرت له الرؤيا التي رآها سيدي الحبيب عمر، وقلت له في معرض الإدلال عليه: سر ما في الرؤيا وطلب التخميس تحقق به وفاة سيدي الحبيب عمر قبل الاجتماع بكم، فقال: إذا كان الأمر كذلك فيحتاج أن يكون موتي قبل السيد عمر، وإشاراته ـ نفع الله به ـ ورموزه خفية بعيدة المدرك، وإنما حملت قوله هذا على احتمالين: الأول: أنه أراد هضم نفسه، وأن الحبيب عمر لما كان ظاهراً مشهوراً في جهة دوعن ونواحيها، متفنناً في علوم الشريعة وآلاتها، داعياً إليها ناشراً لها محققاً فيها، كان من

هذه الحيثيَّة في مقام الحبيب عبد الله الحداد، وهو مقام الحبيب عل بن عبد الله، وهو الميت قبل الحبيب عبد الله، والاحتمال الثاني: أن الحبيب عمر لما كان هو الذي كتب للحبيب شيخ بترجي الاجتماع، وطلب تخميس القصيدة التي هي متضمنة لمعنى ما حصل للحبيب عبد الله مع الحبيب علي بن عبد الله مما طلبه وترجاه، فيكون الميت أولاً الحبيب شيخ إذ هو المطلوب المرغوب في الاجتماع به، فممَّا ذكره له الحبيب عمر مما استعاره من معنى ما قاله الحبيب عبد الله بلسان حال الإشارة المنامية السابقة، لتحقيق سر هذه العلامة في الوراثة اللاحقة، ويحتمل غير ذلك، وأول هذه القصيدة الحاكية لحال الإمامين الأولين بلسان مقال أحدهما، ولحال الإمامين الآخيرين بلسان حاليهما بل ومقاليهما بوضع التخميس من الحبيب شيخ بعد طلب الحبيب عمر له منه هو قوله:

ذكـر العهـد والـربـا والمنـازل   فغـدا دمعـه على الخد سـائـل
وذكـت مـن فـؤاده نـار وجـد   واشتيـاق ولـوعـة وبـلابـل
لا تلمـه علـى الـذي كـان منـه   إنـه لا يصيـغ سمعـاً لعـاذل
ملـك الحـب قلبـه فتـراه   لا يـزال ولهـان حيـران قـائـل
يا ربوع الأحباب بالسفح من عيـ   ـديد هل عيشنا الذي مر آئل
يا زمان الوصال إن عدت عدنا   واجتمعنا في الحي والحيُّ آهل
بـالغـوانـي الحسـان يـرتعـن فيـه   ناعمات بين الحمى والمناهل
والأحبـة والمحبيـن والسـادا   ت من كل فاضل وابن فاضل

ثم بعد ذلك البيت المتقدم: (مثل نجل العفيف).. إلى آخرها، وكان أول تخميس لسيدي الحبيب شيخ أول بيت:

يـا لصـب ممـا بـه صـار هـازل   والكرى من عيونه الليل عازل
قلبـه الهـم دائـم الـدهـر نـازل   ذكـر العهـد بـالـربـا والمنـازل
فغـدا دمعـه علـى الخـد سـائـل

ولآخر بيت مذيلاً بالبيت المخمس قوله:

مـا بـه واردي ورداً أيهـا البـار قد صدر نحوك فاعذر لمن بار
فـي مليبـار لازمـاً دائـم الـدار عذره في الجلوس من أقبح أعذار
جعفـر مشهـور بيـن عـال وسـافـل

وقلت ناظماً ما في معنى هذه القصيدة مع الاختصار، مع الاعتراف بالقصور عن المجاراة في ذلك المضمار، وجفول سحابتي عن سكب ديمه الغزار:

يا لجسم غدا من الصَّد ناحل وبأحشائه من الـوجد شاغـل
يـــا أحبتنـــا نـــأيتـــم وبنتـــم وبعـدتـم وفـي الفـؤاد بـلابـل
هـل لنـار الصـدود إطفـا وقـود ويعود التلاقي يوماً على حل
فـي ربـا مكـة وسـوح صفـاهـا ومناها والحجر بالأنس رافل
أو تجاه الحبيب في روضة الو صـــال فـــي حـــال عـــاجـــل
أو بحيـــث الـــذي أراد إلٰهـــي بمحـــل مـــن البسيطـــة آهـــل
وإذا لـــم يقـــدر الله وقتـــاً للقـــاء وكلنـــا غيـــر زائـــل
فعسـى فـي جـوار رب كـريـم وجوار الرسول زين الشمائل
صلـــوات الإلٰـــه تغشـــاه دأبـــاً وســـلام لبكـــرة وأصـــائـــل
وعلى الآل للحداد والعيدروس والجفـــري والبـــار شـــامـــل
وكذا الصحب كلما ذكر العهـ ـــد بقـوم تـديـروا لجـلاجـل

ثم سافر سيدنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ من بندر المكلا لاحقاً لسيدي الحبيب شيخ، فلما قرب من بندر المخا عرض له عارض حصر البول وأتعبه تعباً شديداً، ثم شفي منه ولم يزل متأثرا أثراً لطيفاً في بندر المخا وعند وصوله إلى بندر الحديدة، وكتب منه لسيدي العارف بالله تعالىٰ السيد أحمد بن علي بحر إلى بيت الفقيه يستمد منه، ويعلمه بوصوله وتوجهه إلى الحرمين وحصول هذا الأثر عليه، وأنه بقي منه بقيَّة يتأذى بوجودها لا سيما مع معاناته لأمور يحتل عليه مع ذلك كثير

من مقصودها، من تأنيس الزائرين وتأهيل القاصدين، وإفادة الطالبين والتحمل بحوائج المتعلقين، ومكابدة أحوال السفر في البحر والبر، فأجابه سيدنا السيد الحبيب أحمد المذكور بكتاب يدل على وفور الشفقة والرحمة منه عليه، وحصول التأثر والتحمل بذلك الحاصل لديه، وذكر له أنه استعمل بعض الأذكار، على نية تمام الشفاء وقضاء الأوطار بعدد حصره له، لم أثبته ولا الذكر ما هو، وأظن أن الذكر هو: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والعدد نحو الخمسمائة، ثم توجه إلى مقصده، وجله الاجتماع بمرشده، وتعهد مشهد الخليل ومتعبده، والوقوف في الحضرة الجامعة لكل كمال لنيل فضل مشرفها ومدده، فلما ركب البحر طرأ عليه أثر بلغم، واشتد عليه ذلك الألم، وهو في تلك الحال، راضٍ صابر ساكن البال، ذاكراً لله تعالىٰ داع له، لا يفتر عن الذكر والدعاء، وكثيراً ما يلهج عند ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١] وغيرها من الآيات، وببيت القطب العيدروس أبي بكر العدني نفع الله بهما: أنا بهم وإن قصر جهدي في الناس جهد، وببيت من قصيدة لعمه العارف حسن: وأنا بهم جيد وإن ثوبي أشعاق، وبأبيات غير هذين أكثرها في الدعاء والتوسل، ومنها بعض ما يحفظه من قصيدة جده سيدنا الشيخ الحبيب عمر البار ـ قدس سره ـ التي أولها:

يـا رسـول الله يـا خيـر الـورى ... يا سريع الغوث إن خطب طرى

وكان يأمر الحاضرين عند ذلك بتلاوة القرآن لا سيما الفاتحة ويٓس، وفي بعض الأوقات بقصيدة الشيخ أبي بكر العيدروس العدني: (ببسم الله مولانا ابتدينا).. إلى آخرها، وكثيراً ما يكرر هذين البيتين، وهما لسيدنا الشيخ الكبير أبو بكر بن سالم رضي الله عنه:

لا تقـل دارهـا شـرقـي نجـد ... كـل بيـت للعـامـريـة دار

ولهـا منـزل علـى كـل مـا ... وعلـى كـل دمنـة آثـار

وكان يشير بذلك إلى محل طينته الذي سيدفن فيه، وأنه خالٍ عن السكان والعمار والقاصدين والزوار، ومع ذلك أنشد البيتين المذكورين، لئلا يتوهم متوهم

من القاصرين عن ما للأولياء العارفين، من المزايا والمراتب والأحوال والكرامات والمناقب، ننبه على أن هذا الجسم المعرض للتغيير والفناء وإن دفن في هذا المحل الخالي المنتزح عن الأهل والسكن والأوطان، فروحه العليَّة غير محصورة الطيران، بل مطلقة في جميع الأكوان، تسرح في رياض الجنان، وتأوي للقناديل المضيئة تحت عرش الرحمٰن، وهي المعنيَّة هنا بالعامريَّة، فكل بيت من بيوت الأحبة وموضع أعمال القربة لها دار، وكل منزل يذكر فيه الحبيب، وما من شراب المحبة لكل عارف منه نصيب، وكل دمنة مجتمعون فيها أرباب الرغبة والترغيب، فلهذه الروح فيها آثار، وفيهما إشارات غير ذلك لا يعرفها إلا أهل الأسرار، ممن سلك سبيلهم وسار، ولم يخل ـ نفع الله به ـ بشيء من الصِّلوات مدة مرضه، بل إذا دخل الوقت توضأ وصلى، وقد يتفق فعله لبعض الصَّلوات مع اشتداد المرض عليه، حتى أنه يحرم بالصلاة فإذا توسط أو فعل شيئاً منها أذهله ما يجده من شدة الألم عما يقول ويفعل، فيحرم ثانياً وثالثاً وهكذا، حتى يرى أنه أتى بالصلاة على وجهها، ولم تفته صلاة فيما أعلم إلا صلاتا ظهر وعصر اليوم الذي توفي فيه، والغالب عليه عدم الشعور في ذلك اليوم، مع انقباض اللسان عن الكلام، من بعد صلاة صبحه إلى أن مات مغرب ليلة السبت، وترقت روحه الزكية في ذلك الوقت، وذلك لسبع وعشرين في شهر القعدة الحرام سنة إحدى عشرة ومائتين وألف. **فائدة** يحسن ذكرها هنا: قال الشيخ الإمام محمد بن علان البكري في (شرح الأذكار) ما نصه: قال القرطبي: لتشديد الموت على الأنبياء فائدتان إحداهما: تكميل فضائلهم ورفع درجاتهم، وليس ذلك نقصاً ولا عذاباً، بل هو كما جاء «إن أشد الناس بلاء الأنبياء الأمثل فالأمثل»، والثانية: أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت، فقد يطلع الإنسان على بعض الموتى ولا يرى عليه حركة ولا قلقاً، ويرى سهولة خروج روحه فيظن الأمر سهلاً، ولا يعرف ما الميت فيه، فلما ذكر الأنبياء الصادقون شدة الموت مع كرامتهم على الله سبحانه وتعالىٰ، قطع الخلق بشدة الموت الذي يقاسيه الميت مطلقاً لإخبار الصادق، ما خلا الشهيد قتيل الكفار على ما ثبت في الحديث. انتهىٰ، قال الشعراني ـ رحمه الله ـ في كتاب (الأخلاق) عن بعضهم: ما أحب تخفيف طلوع روحي، وأنا أحب التشديد لأنه آخر عمل

يثاب عليه المؤمن، وما رواه كعب الأحبار من أن يعقوب ـ عليه السَّلام ـ لما جاءه البشير قال له يعقوب: ما عندي شيء أكافيك به، ولكن هون الله عليك سكرات الموت، فمحمول على من يخاف عليه السخط إذا شدد عليه. انتهىٰ، وفي (تنبيه الغافلين) للسمرقندي: وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «قال ربكم: وعزتي وجلالي، لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أنقيه عن كل خطيئة عملها بسقم في جسده أو ضيق في معيشته، فإن بقي عليه شيء شددت عليه الموت حتى يجيء إليَّ كما ولدته أمه، ولا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أعذبه، حتى أوفيه كل حسنة عملها بصحة في جسده أو سعة في رزقه، فإن بقي منها شيء هونت عليه الموت حتى يجيء إليَّ وليست له حسنة» انتهىٰ. وقد ألف العارف بالله تعالىٰ الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ أبي الحسن البكري الصَّديقي، فيما حصل للنبي ﷺ في هذا المعنى مؤلفاً سماه: (القول الأجل في حكمة كرب المصطفى عند حلول الأجل)، وأورد في هذا الموضع أعني ابن علان المذكور ـ رسالة للبكري في هذا المعنى قال بعدها: وقال الإمام عبد الوهاب الشعراني ـ رحمه الله ـ في كتاب (الأخلاق): سمعت سيدي علياً الخواص ـ رحمه الله ـ يقول: ليسهل الله على العبد طلوع روحه بقدر ما ذاق من الغصص في مرضات الله تعالىٰ عز وجل، فقلت له: إن الأنبياء أكثر الناس بلاء، ومع ذلك فقد ورد أن أحدهم شدد عليه المرض وغيره، فقال: تشديد المرض على الأكابر قد يكون تعظيماً لأجورهم، لا لعلاقة دنيويَّة تجذبهم. انتهىٰ، بل لا يجوز حملهم على ذلك، وبعضهم يصعب عليه. .(١) روحه لأجل تلامذته. .(٢) عدم خروجه من الدنيا من تكميلهم، ويرشدهم إلى كمال مقام المعرفة، ولولا ذلك لكان أسرع الناس خروجاً روحه للقائه عز وجل. انتهىٰ المقصود من الكتاب المذكور، وكثيراً ما أسمع سيدي الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ يذاكر بهذا المعنى، فلعله يكاشف بما سيحصل له من ذلك، ولبقي توهم النقص

(١) كذا بياض بالأصل.

(٢) كذا بياض بالأصل.

فيمن حصل تشديد الموت من الأنبياء والأولياء، ولما مات ـ رضي الله عنه ـ عظمت مصيبته عند الحاضرين، وظهر البكاء وكثر العويل من أهل ذلك المركب، ممن يعرفه منهم وممن لا يعرفه، وبادروا إلى غسله وتجهيزه، وتيسرت أمور ذلك بحيث لو كان في محل إقامة لم يكن إلا كذلك، وأحيوا تلك الليلة بالقراءة والذكر والدعاء والصلاة، ولما كان الصَّباح اجتهدوا في أسباب تسيير المركب ليصلوا إلى بعض الأماكن المعمورة والبلدان المشهورة، فلم يساعدهم المقدور، لما سبق في الكتاب المسطور، أن طينته الكريمة تكون نائية عن العمران والمنازل، وأن مدة إقامته البرزخيَّة تكون بأرض جلاجل، ولعل ما أنطقه الله به في سابق الزمن ذي الرمة في تغزله إلى هذا المدفن وهو قوله:

أيا ظبية الوعساء بين الجلاجل وبين النقا هل أنت أَمْ أُمِّ سالم

ولعله يخاطب نفسين زكيتين، أيهما نبتا بها البين[1]، وتناى عن الوطنين حتى تأتي وطنها الأصلي، الذي هو باب مرجعها إلى مولاها ودهليز نعميها الكلي، فتكون به ظبية الوعساء، ولأهليه ومجاوريه السعادة القعساء، ولما كان عصر يوم السبت وأيسوا من وصولهم به إلى العمران، خرج به أهل ذلك المركب إلى ذلك الساحل المسمى بجلاجل، وصلى عليه من السَّادة والعرب نحو الأربعين، وذلك بمحل منه على نحو ميل من البحر، وعملت عليه قبة عظيمة وقصده الزوار من كل الأقطار، ورأى بعض سكان تلك الناحية من الأشراف رؤيا عجيبة حاصلها: أنه رأى الشهر طلع من ناحية البحر وهو في حالة كماله، ونوره متضاعف على ما يعرف من حاله، ثم ارتفع طالعاً من البحر على غير طلوعه المعهود، ثم لما سامت ذلك المحل جعل يتدلى وهو ينظر إليه، حتى غاب في المحل الذي دفن فيه الحبيب عمر نفع الله به، فقص هذه الرؤيا على بعض أهل النور، فعبرها له بأنه يموت ولي من الأولياء في البحر ويدفن بهذا المحل، ومما حدث لأهل تلك الجهات في ذلك العام، أن كثر خيرهم بكثرة الأمطار في غير الوقت الذي تكون فيه المطر غالباً عندهم، إذ وقت موسم المطر عندهم فصل الربيع فحصل تلك السنة في الخريف.

(١) هكذا في الأصل ولعله بنا بها البين وفأتا عن الوطنين.

ورتب السيد الشريف العارف بالله تعالىٰ محمد عبد الله السقاف باعلوي، حولاً للزيارة يجتمع فيها الخلائق من كل جهة، ويخرجون إليها من مكة وجدة، وأما أهل القنفدة والليث والقرى القريبة من ذلك المحل فيحضر جمهورهم، ويجتهد ويرغب في الوقوف في تلك الحضرة كبيرهم وصغيرهم، فيكثر حينئذ هناك الخيرات، من الأذكار والدعوات والأوراد والواردات، ويبث الشكوى إلى الله وإظهار الحاجات، وذلك لما خص الله أولياءه، وأعطى محبيه وأصفياءه، من الكرامة المعجلة، وأنواع البشارة المجملة المفصلة، الذي أخبر بها في كتابه الكريم، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

ولما بلغ خبر وفاته في الآفاق، وحري أن يهتز له العرش من فوق السبع الطباق، وراثة لأسلافه السُّبَّاق، كسعد بن عبادة، وكثير من السّادة القادة، ولا سيما الجهة الدوعنيّة، فإنها لما بلغ خبر وفاته إليها، أظلم بقتام الكآبة والحزن والصبابة ما بين لابتيها، وكثر البكاء والعويل، وطم وعظم عندهم هذا الخطب الجليل، وشرعوا في القراءة عليه في جميع بلدان هذا الوادي الميمون، من الرباط إلى قيدون، وأما بقية الجهات كالحرمين الشريفين، فإنه لقرب مكان الموت والدفن، لم يصل خبر الوفاة إلا عند وصول رفقة سفره إليها، وعند ذلك ابتدأ سيدنا الحبيب شيخ بن محمد الجفري نفع الله به، وأمر بالاجتماع للقراءة عليه بمكة في زاوية سيدنا القطب الشيخ عبد الله الحداد بشعب جياد ثلاثة أيام، وختم القراءة ليلة الثالثة وعمل للحاضرين ضيافة عظيمة، وكان يحضر القراءة جمع من أعيان مكة وحضرموت، ونودي بالصلاة عليه بعد صلاة الجمعة في الحرم المكي والحرم المدني، وكذلك قري عليه في جدة، وصلي عليه في كثير من الأقطار، وقد كاشف بموته سيدنا الحبيب شيخ ليلة موته ويومه، وأخبر من عنده برؤيا رآها تدل على ذلك، ورأوا عليه من الحزن والقبض ما لا مزيد عليه، وكذلك سيدنا العارف السيد أحمد بن علي بحر ـ نفع الله به ـ كوشف بموته، وعرَّض به لبعض محبيه في بيت الفقيه فقال له: قد قلت لكم إن السيد عمر البار هذه السنة، كتب

لي أنه غير واصل إلى هذه الجهات، ولكن انزعج بوصول السيد شيخ من مليبار، قال الراوي: وكلامه هذا مع حضور أسف، وبقي كالمغضب حين يتكلم، وظنَّنا أن ذلك من أجل ما حصل على الحبيب عمر من تعب السفر والمرض فيه، الذي كتب إليه يعلمه به، قال: فلما كان اليوم الثاني من كلامه وصل خبر الوفاة. وقد رثاه ـ نفع الله به ـ كثير من العلماء والصلحاء، من أجلِّهم سيدي العارف بالله الحبيب عمر ابن أحمد الحداد، وكثير من أهل اليمن ودوعن، وأرخوا وفاته بتواريخ متناسبة، ولا سيِّما، سيدنا الشيخ العارف بالله شيخ الجفري ـ نفع الله به ـ، فإنه أرخ وفاته بتواريخ كثيرة منها قوله (حب عمنا وحاز الجنة)، وقوله في أبيات جعلها في تاريخ وفاة سيدنا الحبيب عمر، والسيد العارف بالله عبد الرحمٰن بن محمد بلفقيه باعلوي الملقب بالتمر أول الأبيات:

يـــا أيهـــا المحبيـــن ... وصفـــــوة المنبييـــــن
لا تعجبـــوا مـــن عينيـــن ... تجـري الــدمــوع لــونيــن
أبيـــــض وأحمـــــر دأبـــاً ... قــد جــرحــت للخــديــن
يـــا عـــاذليـــن مهـــلا ... ايـــلام مـــن يخطبيـــن
بهـــا أصيـــب عـــامـــاً ... فـــلا همـــا بعـــاميـــن
لـــي بـــالـــزمـــان صفـــويـــن ... مـــاتـــا همـــا بشهـــريـــن
بـــالقعـــدة والحجـــة ... كـــلاهمـــا سعيـــديـــن
حجهمـــا قـــد ثبـــت ... بـــالصـــدق ليـــس بـــاليمـــن
أحـــدهمـــا شجـــاع ... ووجيـــه أيضـــا للـــديـــن
عـــامهمـــا ضـــابطـــه ... يـــا أيهـــا الحســـانيـــن
قـــد أرخـــا جـــواداً ... فـــازا بخيـــر الـــداريـــن
رحمـــة ربـــي عليهمـــا ... دامـــت بكـــل مـــا حيـــن
بجـــاه طٰـــه المصطفـــىٰ ... وآلـــه الميـــاميـــن
عســـى لحـــوقـــي بعـــدهـــم ... فـــي أبـــرك الأحـــاييـــن

وكان هذا السيد عبد الرحمٰن من أهل السير إلى الله تعالىٰ بالباطن والظاهر، ولما رأيت سيدي الحبيب شيخ ـ نفع الله به ـ بمكة يجله ويقوم له بما هو أهله، سألته عنه، فكأنه فهم من سؤالي جهلي بحال السيد المذكور كما هو الواقع مني، فقال: هذا السيد عبد الرحمٰن بلفقيه التمر، لا يؤذن المؤذنون في مليبار إلا بعد ما يؤذن آخر الليل في بيته، ولا يؤذن هو إلا بعد قيامه بعشرة أجزاء ثلث القرآن نفع الله بهم، وهذا آخر ما يسره الله تعالىٰ في ترجمة سيدنا وشيخنا الإمام الشيخ الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار صاحب المنظومة، بحسب ما سمعناه ورأيناه، وبلغنا عنه من مناقبه العظيمة وأخلاقه الكريمة، مع ما ذكرناه في أثناء هذه الترجمة أن مقامه رفيع، لا يعرفه ولا يطلع عليه إلا من أولاه بتلك الصفات والأخلاق والمقامات والأحوال، التي سبق فيها الرفاق لا سيما القاصر مثلي، مع ما عندي من عي اللسان وجهل الجنان، والإعراض عمَّا هو شأن أولي التبيان، اللهم يا من أولاه من آلائه فضائلاً وفواضلاً، وخصه من نعائمه دقائقاً وجلائلاً، ووهب له أخلاقاً عظاماً، وجعل له في قلوب عباده محبة واحتراماً، وجعله من اللذين إذا مروا باللغو مروا كراماً، صلِّ وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل محمد الأكرمين وأصحابه والتابعين، واجعلنا ممَّن حاز رضاك ورضاه، وأعطيته من الفزع الأكبر أمانه ونال لقاك ولقاه، وأسمعته حقيقة النداء عند خروج روحه بالذي يرجوه فيك ويتمناه، يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، آمين يا رب العالمين.

ثم لنرجع إلى شرح ما ذكره وأملاه، وبينه وأجلاه، من رجال سنده ونوال مدده المذكورين، بعدما سبق من الإجمال في الأبيات، المفصل بعضه من شرحها الذي جمع الشتات. وأما متن المنظومة فإنه ـ نفع الله به ـ لم يوسس نبأ هذا السند إلا على شيخين من جملة مشايخه، الخارج حصرهم عن الحد بالعد، وهما عمه العارف بالله السيد الحسن بن السيد الغوث الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار، والثاني العارف بالله شيخ بن محمد الجفري نزيل كاليكوت من مليبار، العلويين الحائزين لفضل الشرفين، وأما بقية مشايخه من سادتنا العلويين، فسيأتي ذكرهم

في آخرها بعد انتهاء سندها كما قدمنا وجه ذلك، وهذا السند أيضاً هو عين سند الاثنين كما يفهم مما يأتي من التفصيل والتبيين، قال رضي الله عنه مبتدئاً بذكر الأول منهما، ثم بذكر مشايخه أرباب المثاني وأصحاب المعاني، ثم إتباعه بالثاني بلا تواني:

فمنهم العارف ذو الخلق الحسن   نجل شجاع الدين مولانا الحسن

المذكور في هذا البيت السيد السَّامي، والجواد الهامي، المحبوب المجذوب إلى حضرة الاصطفاء ونيل المطلوب، السَّائر الطائر إلى ربه وشيوخه بقلبه وسره وروحه، العارف بالله تعالىٰ الواصل إلى الله معرفة وكمالا، الذائب بالتوجه إليه بإدمان الشوق، الكارع من حياض المحبة والأنس والذوق، المتصفح وجوه الكون بنظر الاعتبار والإدكار، والمحبو من علوم سلفه بالحظ الأوفر وما خصوا به من الأسرار، ومما عرفوا ووصفوا به من الأنوار، السيد الشريف الحسن بن الشيخ القطب الحبيب عمر بن الرحمٰن البار، الشيخ العارف الذائق الغارف، الخليفة الصالحة، ذي التجارة الرابحة، والهمة العليّة الراجحة، والكرم الفائض المزري بالسحائب الغادية والرائحة، نور الوجود، وسامي الشهود، تربى في حجر المعارف، وحبي من والده سيدنا الحبيب عمر بعظيم المنح واللطائف، وسار على سيره القويم، وامتلأ من شراب المحبة والنسيم، أقام بالحرمين من سنة واحدة وثمانين بعد المائة والألف، إلى أن توفي سنة ثمانين وألف، وأخذ بعد وفاة والده سيدنا الحبيب عمر عن كثيرين، منهم عمه سيدنا الحبيب الصَّفي، أحمد بن عبد الرحمٰن البار، والشيخ محمد بن يّس باقيس، والحبيب حسن بن عبد الله الحداد، والحبيب جعفر بن أحمد الحبشي، وحصل له به أجلُّ اجتماع، والحبيب عمر بن سميط، والحبيب حامد بن عمر حامد، وباليمن عن الحبيب عبد الله دائل، وبالحرمين عن السيد عبد الله ميرعني، وتعلقت به ـ قدس الله روحه ـ من سنة ثنتين وثمانين بعد المائة والألف، ولبست منه مراراً، وألبسني قميص الحبيب عبدالله الحداد الذي أعطاه الحبيب عمر، وأعطاه الحبيب عمر إياه، ولقنني الذكر خلف المقام الإبراهيمي بمكة المشرفة في أول سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف، وألبسني في الحرم المكي، وقال: نيابة عن سيدي الحبيب نفعنا الله به وبعلومه.

ومن كلامه: أرجى شيء عندنا في الطريق الافتقار والمحبة. انتهىٰ ما وجدته مزبوراً بقلمه المؤتمن، في عمه الحسن، نفع الله بهما فيما ظهر وبطن، ونزيد ذلك إيضاحاً بما اشتهر من معاني أوصافه العليَّة، وذكر من أخلاقه الجماليَّة، تكثيراً لتعدد أحواله ومقاماته الكماليَّة.

فقد كان ـ نفع الله به ـ ساطع الأنوار، سائراً بسيرة العارفين الأبرار، على قدم العبادة والعفاف، متحلياً بخلق الإنصاف والاتصاف، وله نفس في الإنفاق في المكارم، تساعده على ما يصغر عنده جود حاتم، وكان محباً للفقراء والمساكين، يدنيهم إليه ويجود لهم بما لديه، ومن رآه عند عزوفه عن مباشرة أسباب الدنيا وتجرده لنيل العليا ممن يعرفه قبل ذلك، لم ير فرقاً بالنسبة إلى التعلق بسلوك هذه المسالك إلا من حيث المباشرة الظاهرة، التي يكون لأحوال طالبي الخمول ساترة.

قال السيد الولي أحمد الصَّفي بن الشيخ العارف بالله الحبيب عمر بن سميط علوي نفع الله بهم: سمعت الوالد يقول لما اجتمعت بالحبيب حسن البار بالحرمين الشريفين قبل تجرده عن الأسباب، شاهدت فيه أحوالاً وتحققت أن اسمه على مسماه أقوالاً وأفعالاً، واتفق خروجي وخروجه إلى الجهة الحضرميَّة سواء، ولم نفترق إلا قريب من وادي دوعن، فلما وصلت إلى حضرموت سألني الحبائب: جعفر بن أحمد، وأحمد بن حسن، وحامد بن عمر، عن الحبيب حسن البار، فأخبرتهم بما رأيت من الأخلاق الجليلة والأوصاف الجميلة، وخفت أني أطريت وأطنبت، فلما وصل لزيارته حضرموت، واجتمع بهؤلاء السَّادة الأخيار، قالوا: ما وصفت لنا به السيد حسن البار هو حريٌ به، بل ربما أنك قصَّرت، قال: فحمدت الله تعالىٰ إذ لم أتجازف في الأخبار، وقال السيد المذكور أيضاً عند وصوله لزيارة دوعن سنة خمس عشرة ومائتين وألف: رأيت الوالد في المنام وكأنه يقول لي: قال الحبيب حسن البار: جددت سري لربي فتجددت لي أموري. انتهىٰ، وقال سيدي الحبيب عمر ـ نفع الله به: حكي عن السيد العارف بالله عبدالله ميرعني أنه قال لتلميذه الشيخ الإمام حسين بن عبدالشكور نفع الله بهما: عليك بالسيد حسن فإنه لا يلقى في العارفين مثله، قال: فقلت ولا أنت يا سيدي؟ فقال:

ولا أنا، وقد مدحه شيخه الحبيب جعفر بن أحمد الحبشي، في أبيات جواب على أبيات لصاحب الترجمة، يمدح بها الحبيب جعفر المذكور، فقال في جوابه عليه:

أهلاً وسهلا بنظم فائق جانا ... قد فاق دراً وياقوتاً ومرجانا

كالزهر نوراً وكالأزهار رائحةً ... لله منشئه زاد الحسن إحسانا

ما مثله أبداً تمت رئاسته ... قد فاق ناظمه قساً وسحبانا

ثم تخلص بعد ذلك في الثناء على أهل البيت الطاهر، ولا سيما سلفه أهل السناء الباهر، وقال بعده:

وخص منهم حليف الود لي حسنا ... الباذل الفضل إحسانا وإيمانا

ذي العفو والصفح والإيثار مرحمة ... منور القلب صافي السر ما مانا

حاز المكارم عن قطب الوجود عمر ... بن عبد الرحمٰن خير أهل الوفا شانا

واشتهر الحبيب حسن المذكور في الحرمين شهرة عظيمة عند الخاص والعام، وأكثر إقامته بمدينة الطائف، وله بها أعظم جاه وأتم احترام، يقصده العلماء والفضلاء للزيارة والاستمداد، وانتفع به خلائق لا يحصون في تلك البلاد، وله كرامات تخرج عن الحصر، تظهر عند الحاجة إليها للمتعلقين به في البر والبحر، ولملك مكة المبرور العادل، المجاهد الشريف الكامل، سرور بن مساعد، معه وقائع مؤيدة لما هو فيه من السيرة الحميدة والخصال السَّديدة، فصار له بعد عناية الله به رداءً يقومه بالباطن والظاهر ويأتي إليه يستمد من نوره الباهر وسناه القاهر. ولوالده سيدي الغوث الحبيب عمر البار به ثم اعتناء، سمعت سيدي حفيده الحبيب عمر يقول: لما احتضر سيدنا الحبيب عمر والوالد حسن إذ ذاك غائباً، جاء طائر أخضر فوقف في إحدى طاقات محضرته بدار الخريبة، فقال الحبيب عمر حينئذ: الآن أجزنا الحسن عن أبي الحسن، فكانوا يرون أنه الوالد حسن البار، قال: ويرى بعضهم أنه الحبيب حسن الحداد نفع الله بهم.

ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ لخصناه من مكاتباته التي جمعها تلميذه الشيخ الأديب الصوفي سالم بن إبراهيم المنوفي، قال رضي الله عنه في مكتوب

للمذكور: وقد رأيت منكم مثل التشويش من بعض الأقارب، فلا تنكروا وجود ذلك لا سيما في هذا الزمان المبارك، الذي قل فيه المعاونة والمساعدة، بل دفع الأذية فقط، وفي الصبر والمداراة الشفاء، والمدار على ذلك كما لا يخفاكم، وإذا شاف العبد الأمور من سيده هان عليه ما عسى أن يكون ولا ترون. والطلب لا بأس به، ولكن أولاً راعوا الطلب والثمر الذي هو نتيجة العلم، وفي الكل يكون الاعتماد على الله، والتبري من الحول والقوة ومن العلم والعمل.

وقال قدس الله روحه: والمقصود عافيتكم وصلاح أموركم القلبيَّة والقالبية، وهذا الكتاب إلى عند الولد عمر بن عبد الرحمٰن البار، عرفناه يصلكم وتصلوه، ولا تحتاج عليكم وصاية، وعرفناه يجمعكم على مولانا السيد شيخ الجفري، واستمدوا من الجميع، والعمل على النية والطويَّة، والقلب مغناطيس وفيكم إن شاء الله القابليَّة والسَّاقي باقي.

وقال رضي الله عنه: الله الله في سعة الصَّدر، وأخذ خاطر الصغير والكبير، وخلوا كل الأمور لِصَاحبها، فإنه أهل الجميل وعوائده الجميل، وفضله جزيل وهو حسبنا ونعم الوكيل. وقال نفع الله به: ونرجو أنكم ممن يلد مرتين، ويرضع الثديين، ولا تحطوا لوقوع بعض الكلام بالاً أبدا، فهذا مما يقطع السَّالك، والمآل إن شاء الله إلى خير، وخذوا بحسن الظن فيما يخص القريب والبعيد، وأما النفس فاتهموها دائماً، ولولا لطف الله علينا لزلت بنا الأقدام، والوقوف والإقدام، وكان سادتنا أهل حضرموت يأتون إلى الوالد، وقد يطلب منهم بعض المساعدة على شيء من الأمور، فلا يمكن منهم تقدم، لأنهم الأمر مجهول عندهم فيعذرهم، ويحسن الظن ويطلب الدعاء منهم بالإعانة، وصاحب الدار أدرى بالذي فيه. وقال رضي الله عنه: واشكر الله تعالىٰ على ما حباك وأعطاك، والظاهر له حكمة، والباطن معمور ومعمور، والسر مسرور، والثبات الثبات، وأعطِ كل ذي حق حقه، ونفسك لها عليك حقوق، والحب الحب، والشوق الشوق، والهيام الهيام، يحصل الأنس والسلام.

وقال نفع الله به: ذكر القلب هو اللب لكن يكون حسب الوارد الإلٰهي، لأنه من علم فوق، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ فلا بد من المجاهدة ومن القوالب، والتكلف أولاً لحتى يحصل الذوق، وبعد ذلك يحلو المشرب، شعراً:

إنـا لنعلمـه ولـم نحـض بـه ذوقـاً لمـا معنـا مـن التشتيـت

إلى أن قال: والأمر بالتقدير والتوقيت، وهذا نموذج لطيف، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. انتهىٰ المقصود نقله من كلامه من مكاتباته، وغالب الخطاب فيها للمتوفي المذكور، وقد جمع له ديوان شعر، غالبه ينجر إلى كلام أهل المحبة والشوق والذوق وتنفساتهم وتفوهاتهم، مثل الأئمة الكبار مشايخ الأقطار، الشيخ العيدروس العدني وابن الفارض وبامخرمة نفعنا الله بهم، يشهد له بذلك من وقف عليه، وكان من أهل التحقق بما فيه، ولم يزل ـ نفع الله به ـ رافلاً في حلة الكمال، راقياً على كل حال إلى أعلى المقامات والأحوال، حتى انقضت مدة أجله، فتوفي بالطائف ودفن قريباً من حبر الأمة رضي الله عنهما، وقد سبق تاريخ وفاته أثناء هذه الترجمة رحمه الله ونفعنا به.

ثم قال سيدنا وشيخنا قدس الله روحه:

وأخـذه عـن معـدن الحقـائـق الـوارث الجـد الخضـم الـدافـق

المذكور بهذا البيت والد صاحب الترجمة المذكور قبله، الصَّادق فيه وعليه ما ذكره في كلامه السَّابق، بأنه ولده مرتين ورضع منه الثديين، أما الولادتان فالمراد بهما: الحسَّية التي هي من الأصلاب والأرحام، والمعنويَّة التي بها الوصول إلى معرفة الله تعالىٰ والخلود في دار السلام، وارتضاع الثديين إما أن يكون المراد بهما ثدي الشريعة وثدي الحقيقة، وإما ثدي الأم المرضعة له وثدي الشيخ المربي المريد المرشد له في سلوك الطريقة، ويحتمل غير ذلك، وقوله نفع الله به: (الجد) أي أنه جد الناظم ومنهله الذي فاضت عليه منه أبحر المكارم، وأمت إليه منه الواردات المتواصلة، والمنوحات المتواترة الكاملة، وهو سيدنا ومولانا وذخرنا وشيخ مشايخنا البحر الدافق، معدن الحقائق ولسان الطرائق، وإنسان عين المعارف واللطائف والدقائق، واحد عصره وشيخ قطره وإمام دهره، ذي القدم الراسخ والمجد الباذخ، والاستقامة الظاهرة والصديقية الكبرى الباهرة، محيي علوم رسوم القوم، والذي أحسن فيها السَّباحة والعوم، حتى تقدم على الأقران، وفاق في هذا الشأن جهابذة أئمة ذلك الزمان، وشهد له أكابر الصَّوفية لا سيما من

السَّادة العلويَّة، أنه تحقق في التصوف بحال حيدرة المعروف، والتحق بمقام السري وداؤد وبشر ومعروف، وذهب[1] روحه في ريحانية الحجة الغزالي بما تحلى به من الاتصاف والإنصاف، بمازبرة في تلك الأمالي ثم كرع من شراب طريقة سلفه بالكاس الصَّاف، كالفقيه والعيدروس والمحضار والسكران والحداد والسقاف، فوصل إلى حضرة القرب في زمرة المخطوبين إليها من الأبرار، الشيخ القطب الإمام الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار، قدس الله روحه في أعلى الفراديس من دار القرار. ولد نفع الله به ببلد القرين، أحد بلدان وادي دوعن المشهور في ذلك الحين، بالعفاف والورع والزهد ويمن بني الزهراء والحسين، وذلك منتصف جماد الأول سنة تسع وتسعين وألف، وتربى في حجر والده الوجيه الفقيه الصوفي، ولاحظه بإكسير نظره فروعي وصوفي، ولاحت عليه لوائح الولاية، وظهرت فيه بشائر الهداية والرعاية في البداية، وكان يتردد بإشارة والده في تلك الأيام، على الشيخ محمد بن أحمد بامشموس، ويقتبس من أشعة أنواره في طريق السير المعنوي والمحسوس، ثم نادته لسان العناية، وأخذت بيده يد الرعاية، إلى أن أوصلته مطية الإسعاد، إلى فناء قطب الوجود الحداد، ففتح له باب الإرشاد، وأجلسه مجلس العباد والزهاد، حتى التحق بالأفراد، بعد أن قتل النفس في معركة الجهاد الأكبر، وطلع في ميدان فرسان ذلك المظهر، بين يدي ذلك الخبير والعارف البصير، بتربية المريدين وتهذيب السالكين، فكان أول ما جاهد نفسه بالتبذل والبذاذة، ومع ذلك يجد لها أعظم لذاذة، فيلبس المرقعات، ويخرج بها في الجماعات والجمعات، فلما رأى شيخه أن نفسه قد ذبحت بسكين تلك المجاهدة، وإدمان أنواع التعب والمكابدة، من الصيام والقيام، والجوع والصمت والاعتزال عن الأنام، وأنه قد آن له الفطام، وانتظم في سلك الأئمة الأعلام، ألبسه قميصاً رفيعاً، ولبس عليه رداء غير ملائم له، فرآه كذلك السيد الإمام زين العابدين العيدروس، فأعطاه شالاً كشميرياً، وقال: هذا يناسب هذا القميص، وأوصى بهذا الشال المذكور لحفيده الحبيب سالم بن عبد الرحمٰن كما سبق في ترجمته، هذا من حيث الزي الظاهر، وأما من حيث الباطن والسرائر،

(١) كذا في الأصل ولعله وأذهب.

فإنه لما رأى ما عليه من غلبة الخوف بسبب قراءة ومطالعة الكتب الغزاليَّة، أشار عليه بالارتقاء والانتقال إلى مطالعة الكتب الشاذليَّة، والحاصل أنه صفاه تصفية الذهب بالسبك، ورقاه حتى أوقفه على حقيقة العز الإلٰهي والملك. وقد كان سيدنا الشيخ عبد الله لما زار وادي دوعن واجتمع بوالد سيدنا الإمام الحبيب عبدالرحمٰن ـ نفع الله بهما ـ على ما قيل خلاف ما سيأتي في كلام الحبيب محمد ابن سميط نفع الله به ـ، استشرف إلى أن يدخل في دائرته، ويكون من جملة طريقته، رغبة في تكثير الصَّدقات الجارية لأهل الفاقات، فلم يطاوع على ذلك الحبيب عبد الرحمن المذكور، واعتذر بخشية سريان الظهور، الذي في مقام سيدنا عبد الله الحداد مشهور، فلما وصل ولد سيدنا الحبيب عمر صاحب الترجمة إلى سيدنا الحبيب عبد الله، وألقى قياده إليه وتمثل بين يديه، وانطرح في قبول نفسه عليه، سر بوصوله ووصل الإيجاب بقبوله، ولم يقل لا خلابة عندما بايعه وعقد، بل قال: لما فاتنا الأب أدركنا الولد، وتوالت عليه الفيوضات الربانية، وتأهل للمكاشفات الغيبية، والطوالع واللوامع واللوائح والسوانح البشرية.

قال حفيده سيدنا الشيخ الحبيب عمر البار ـ نفع الله به ـ في أول البيت الذي رقمه في ترجمته المتقدم ذكره عند ذكر مشايخه: نشأ سيدنا الحبيب عمر البار في حجر والده، وقرأ القرآن على المعلم باعشر، وهبت عليه رياح العناية، وخلعت عليه في صغره خلعة الولاية، فأنشأ وهو في الكتاب القصيدة المعروفة في ديوانه:

إذا قـــالـــوا لنـــا هيَّـــا فيهَّـــا   ومـــا يبغـــونـــه منَّـــا تهيـــا

وفيها إشارات من علوم القوم، وتشوق إلى منازلاتهم العزيزة، وقرأ على والده رسالة ابن عراق ثلاث مرات، كما سمعته من سيدي الشيخ الجمال محمد ابن يّس باقيس، وبلغني أنه حفظ ربع العبادات من المنهاج، ثم إنه تهيأ للحج،وأنشأ قصيدته التي أولها: (من لا يحب المختار) بعد وفاة والده، ثم حصلت الخيرة على زيارة حضرموت، وكان زاد الحج زاداً لتلك الزيارة، فحصل له المراد بالاجتماع والانتفاع والارتفاع، بسيدنا غوث البلاد والعباد، الحبيب عبدالله الحداد، وأقبل عليه الحبيب عبد الله إقبالاً كلياً، حتى قال له بعض السَّادة لما رأى إقباله عليه: الماء إليك يا بار سوم له. وانطرح عليه انطراحاً تاماً، وامتلأ

به امتلاءً كاملاً، وحصل له الفتح المبين، والتحقق بحقائق اليقين، وقد قيل إنه دخل الأربعينيَّة وقلل قوته إلى أن بلغ قدر التمرة، وفي جدة إرادته بنى مسجده بشعب ذيعبة، يتعبد فيها ويطلع منها للجمعة. وسمعت عبد الله بن عمر بازرعة أحد تلاميذه قال: رأيت وأنا باليمن في حال بداية الحبيب عمر، أن النبي ﷺ على صورته، فقصصت هذه الرؤيا على الشيخ عمر المشرع صاحب الرؤية، فقال: سيصير هذا السيد وارثاً للنبي ﷺ، فلما وصلت إلى دوعن ذكرت ذلك لسيدي الحبيب عمر، فقال نفع الله به: فضل الله واسع، ثم قال: إذا سرنا الحج زرنا شيخك هذا، فلما سافر للحج ووصل إلى المخا قال لي: مات الشيخ عمر المشرع، وذلك في سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف، قال ثم سافرنا بعد وصولنا مكة المشرفة إلى المدينة، فلما رجعنا منها جعلت في بعض الأيام أغمز رجليه، فقال: يا عبيد فقلت: لبيك، قال: هو هو، فلم أفهم مقصوده، فقال: كلام الشيخ المشرع. قال نفع الله به: وكان حجه لبيت الله الحرام وزيارة قبر جده ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ سنة ثلاث وأربعين بعد المائة والألف، وتبعه جماعة من أصحابه، ودخل زبيد وانتفع به أهلها، ومن أجلِّهم سيدي محمد بن عبد الباري، قال لي: وافق وصول سيدي الحبيب عمر البار إلى زبيد وأنا مقيم بها، اقرأ على سيدي يحيى بن عمر مقبول الأهدل. قلت: وسمعت بعض أولاده يحكي عن السيد محمد المذكور أنه قال: زرت مع سيدي الحبيب عمر البار الشيخ إسماعيل الجبرتي ـ نفع الله به ـ بتربة زبيد، ومعه عمر باسودان يسمَّع له، فلما أراد ركوب الدابة قدمت له كتفي فطلع عليه، فحصل مقصودي ببركة قدمه الشريف، وقد سبق ترجمة هذا السيد عند ذكر مشايخ سيدنا الناظم نفع الله بهم. وقال الشيخ أمر[١] الله ابن عبد الخالق المرجاني إن والده عدَّ سيدي الحبيب عمر البار من مشايخه، وكذلك سيدي عبد الله دائل، والشيخ عمر جيلي، ولبس منه سيدي عبد الله دائل، ولما وصل إلى مكة وصله ملكها لزيارته والاجتماع به، وهو الشريف عبد الله بن سعيد، فوعظه وانتفع بوعظه وبكى، وطلب منه أن يدعو له بثلاث دعوات: أن لا يتسلط على قتل نفس، وأن يموت على مذهب أهل السنة والجماعة، وأن يختم له

---

(١) لعله اسم ذلك الشيخ.

بالحسنى، فدعا له بذلك، فسمع منه الترضي عن الصِّحابة قبل موته، ومات في تلك الأشهر ولم يحصل منه قتل نفس، والحبيب بالمدينة المشرفة، فلما بلغه خبر وفاته وأنه حصل له الدعوتان الأوليان، قال نفع الله به: ونرجو له حصول الثالثة، وهي حسن الخاتمة.

قال: واجتمع عليه علماء الحرمين، كالشيخ طاهر الكردي، وسمعت أنه ـ أي الشيخ طاهر ـ رأى النبي ﷺ يقول ليلة دخل الحبيب عمر البار المدينة الشريفة: هيا نتلقى ولدنا، فخرج إلى خارج المدينة وخرجت معه، فلما التقى النبي ﷺ بالحبيب عمر اتحدا، وصار الحبيب عمر ذات النبي ﷺ. فلما أصبح الشيخ طاهر وجد الحبيب محمد أخا الحبيب عمر خارجاً من البلد ـ وكان إذ ذاك مقيماً بالمدينة الشريفة فسأله: أين تريد؟ فأخبره أن أخاه الحبيب عمر داخلاً في ذلك الوقت فخرج معه، فلما وصل إلى المحل الذي وصل إليه في الرؤيا وجد الحبيب عمر فيه، فلما وصل ـ نفع الله به ـ إلى الحضرة الشريفة سجد إلى جهة المواجهة ـ أي ولم يتوجه إلى جهة الكعبة في سجوده ـ، ولم يره أحد من ذلك الجمع أنه سجد إلى غير جهة القبلة إلا أخوه الحبيب محمد وفقيره عبد الله بازرعة الراوي لذلك، قال: وحينئذ سألني الحبيب محمد عن أخيه الحبيب عمر: هل قد يجري منه الشطح في بعض الأحوال؟ فقلت له: لا بل هو في جميع الحالات متحلي بالاستقامة التامَّة، وله ـ نفع الله به ـ عند مواجهته في تلك الحضرة العظيمة لجده المختار، وذهوله ودهشه بتلالي أشعة تلك الأنوار، رأى أن الالتفات في تلك الحالة غير لائق، وأن وجهة الحق لا تنحصر في جهة عند تمحيص الحقائق، فعمل بقول بعض أهل العلم أنه لا يشترط لسجدة التلاوة والشكر استقبال القبلة، كما رخص ذلك للمسافر في النافلة في قول آخر، قال: وسمع بعض الحاضرين معه النبي ﷺ بقوله: لا تقفي بولدي، وكان مولياً الحبيب عمر ظهره، وجاء إليه السيد العارف عبد الله السقاف وقال له: أمرني النبي ﷺ أن أقبل قدمك.

وممن أخذ عنه بالمدينة الشريفة الشيخ إسماعيل بن عبد الله النقشبندي والشيخ سعيد سفر وغيرهما، وبمكة السيد العارف عبد الله ميرغني وغيره، وقرأ عليه في المواجهة (الشفاء) للقاضي عياض، وألبسه قميصه وقال فيه: إن مطلبه

فينا أخروي. انتهى المقصود هنا مما ذكره شيخنا وسيدنا مع تقديم وتأخير وبعض تصرف في العبارة، لأن ما رسمه ـ قدس الله روحه ـ كالمسودة، وقد تجرأت على بعض ما استحسنته من ذلك، والسلوك في هذه المسالك لأمرين: **أحدهما**: ما هو مقرر عند بعض أئمة الحديث من طريقة جواز رواية الحديث بالمعنى، **ثانيهما**: أنه ـ نفع الله به ـ في مرض موته كان يكرر في بعض الأوقات البيت المتداول، وهو:

ألا يا الله بنظره من العين الرحيمة   تداوي كل ما بي من أمراض سقيمة

فقال يوماً: قد ذيل هذا البيت السيد عبد الرحمٰن بن محمد بن سميط، وأنت لسان الحال، ففهمت الإشارة وسرتني تلك البشارة، ثم هذه المقدمة يتضمن غالبها على ذكر بداية سيدنا الحبيب عمر البار صاحب الترجمة، وقد قصدت من حين شروعي في هذا التأليف، ومن حين وسمته بذلك الاسم الذي أدخله في حيز التعريف، أن أنحو في ترجمة سيدنا الشيخ الحبيب الغوث عمر البار الكبير، بنحو ما ترجمت به لحفيده سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار الأخير، وأن أجعل ذلك في فصول، مستمداً لإعانة الله تعالى والرسول، فأقول:

فصل

في ذكر مجاهداته وعبادته، وزهده وورعه وأخلاقه، من التواضع والإخلاص والصدق واليقين، والتحلي بجميع صفات المتقين، وأول ما أقدم على ذلك ما ترجم له به جمال المقربين، السيد الإمام الشيخ الحبيب محمد بن زين بن سميط علوي في كتابه: (بهجة الفؤاد في مناقب إمام الإرشاد الشيخ عبد الله الحداد إذ ما فيها ينعطف على كثير مما سبق ذكره، ويكتنف لجملة مما سيأتي نشره، فيكون كالتأييد لما سبق، والتمهيد لما سيلحق، لأن كلام مثله حجة، والبرهان به أقوى دليل في المحجة، وأكثر ما فيها هو من مقصود هذا الفصل، قال نفع الله به: ومنهم السيد الإمام العارف القدوة الصوفي الصفوة، شجاع الدين عمر بن عبدالرحمٰن البار نفع الله به، كان من أجل الآخذين عن سيدنا وشيخنا عبد الله رضي الله عنه، أخذ عنه أخذاً تاماً، ولبس منه لباساً خاصاً وعاماً، وأعطاه قبعاً، وأذن له في الإلباس إذناً مطلقاً، كما شافهني بذلك عندما طلبت منه اللباس، فألبسني إياه في

الخلوة ليس معنا إلا الله تعالىٰ والحمد لله، وتلقن منه الذكر مراراً متكررةً، وكان ملازماً له من صغره، منقطعاً إليه بكليته، قرأ عليه كتباً كثيرة من كتب القوم وغيرها، وتوفي سيدنا وهو يقرأ عليه في كتاب (عوارف المعارف)، ثم كملها على ابنه السيد الجليل علوي نفع الله بهم، وكان يشير إليه بإشارات جليلة، ويأمر بملازمته والقراءة عليه، خصوصاً أهل وادي دوعن، وسمعت عن سيدي عبد الله ـ نفع الله به ـ أنه كان يقول فيه أنت شيخ دوعن، وهو بالحقيقة كذلك بغير امتراء، لأنه كان من رجال الله، وأساطين طريق الله، الدالين على الله تعالىٰ بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وقد نفع الله به خلائق لا يحصون ولا يعدون، من أهل دوعن وغيرهم من الخاصة والعامة، وكان ذا علوم وأعمال ومجاهدات وأحوال، وسير حميدة وأفعال سديدة، وكان مؤيداً مسدداً في سائر حركاته وسكناته وأكثر تقلباته، وكان شديد التواضع لين الجانب مخفوض الجناح، لا يكاد يظهر عليه أثر من دعوى الاتصاف بصفات الكمال، ولا الاتسام بسيمة الرجال، غاية في الزهد في الدنيا جاهها ومالها، ونهاية في التعلق بالله والثقة به وجميل حسن الظن به، قل أن يفتر من الذكر في ساعة من ليل أو نهار، لا تراه إلا والهاً مستغرقاً بحب الله، عاملاً بمرضاته في دوام أوقاته. وكان له كرامات يحفظها أهل جهته وصحة مودته، وكان يستمد من كل من جاء إليه مستمداً، ولا يزال لاستدرار البركات والخيرات وصالح الدعوات من مظانها مستعداً، وفي الأعمال الصالحات وأنواع القربات مجتهداً ومجداً، عاش من نحو ستين سنة، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة وألف بقرية الخريبة من دوعن، وحمل إلى قريته التي ولد فيها القرين، ودفن فيها إلى جنب أبيه والشيخ محمد بامشموس، وبني عليه قبة، وكان مدة صحبته وملازمته لشيخه عبد الله نحواً من ست عشرة سنة، وهو في الأخذ عنه والتردد إليه، والجمع بالكلية عليه، وإلقاء القياد بين يديه، مع كمال الطلب وحسن الأدب، حتى بلغ منه المرغوب والأرب، وكان قبله ملازماً للسيد الأنور علي بن محمد باهارون جمل الليل صاحب الخريبة، أخبرني سيدي عمر المذكور قال: كنت أولاً كثير التردد على السيد علي، وكان من أهل المجاهدات والرياضات والخلوات، وكان من المستهترين بذكر الله، وكنت أتعشق به لذلك. انتهى، قلت: قد زرت هذا السيِّد في تربة الخريبة مع سيدي عمر البار، وأخبرني أنه صنف كتاباً في الحقائق، ولما

عرض على سيدنا عبد الله الحداد قال: ادفنوه معه في قبره، بعد النظر فيه، شفقة منه على أن يعثر عليه من ليس من أهله فيعثر، ومن عثر في ذا تكسر، ولذلك كان سيدي عمر ملازماً للشيخ الصِّالح محمد بامشموس صاحب القرين، وقرأ عليه في الإحياء وغيره، وقد كان والده السيد الجليل عبد الرحمن البار متحداً هو والشيخ محمد بامشموس المذكور كالشيء الواحد، ولما ماتا دفنا معاً، هذا إلى جنب هذا، وجعل عليهما صندوقاً واحداً. وقد ذكرنا في مناقب شيخنا عبد الله أن الشيخ محمد بامشموس اجتمع به أوان زيارته لدوعن في الرحبة وهي مسيل الوادي، قال بامشموس: إنه أسرَّ إليَّ كلاماً لم أفهمه إلا بعد مدة متطاولة، وقيل إنه قرأ في أذنه في تلك الوقفة سورة يٓس بكمالها، هكذا سمعت عنه، وكان الشيخ من الرجال المجدين المشمرين في طاعة رب العالمين، والهادين إلى سبيله والمذكرين به، وكان الغالب عليه طريق الذكر والوله، انتفع به جماعة من أهل واديه، وكذا السيد عبد الرحمٰن البار من عباد الله الصالحين المخبتين المنيبين، السالكين الناسكين العابدين الزاهدين، وكان قد أخذ عن سيدنا عبد الله ولبس منه الخرقة، وكان شديد التواضع، وصحب السيد عمر البار أيضاً سيدنا أحمد بن زين، وأخذ عنه سيِّما بعد سيدنا عبد الله، ولبس منه وقرأ عليه في كتاب (مشكاة الأنوار) لحجة الإسلام وخطه بيده، وأثنى عليه سيدنا أحمد ثناءً عظيماً، وأشار إلى علو مقامه وارتفاع رتبته. وبالجملة فقد كان السيد عمر من أرباب الكشف الجلي والقدر العلي، وقد اجتمعت به مراراً لا تحصى، وانتفعنا به انتفاعاً كثيراً ظاهراً وباطناً، وصحبناه صحبة أكيدة، وحصلت بيننا وبينه مودة عتيدة، نفعنا الله به وبسائر عباده الصالحين، ولا حرمنا أجرهم ولا فتنَّا بعدهم آمين، وكان أكثر اجتماعنا به أيام سيدنا عبد الله وتردده إليه، وقد زرناه في بلدة دوعن مرتين، وقد جاء إلى بلدنا وبيتنا مرة، وكانت بيننا وبينه المكاتبة والمراسلة والمودة، والمواصلة في اليقظة والمنام على مر الليالي والأيام. انتهى ما رقمه سيدنا الحبيب محمد بن سميط المذكور من ترجمته في كتابه: (بهجة الفؤاد في مناقب سيدنا الشيخ عبدالله الحداد) عند ذكر أصحابه الأمجاد، وأثبت بعد ما نقلناه في آخر هذه الترجمة مكاتبات من سيدنا الحبيب عمر إليه سيأتي بعضها، فقد رأيت ما تضمنته هذه الترجمة من خصاله الحميدة وأحواله المجيدة، مع الإشارة والإيجاز والاختصار،

والتلويحات والتلميحات إلى ما حواه من الأسرار والأنوار، وتحقق به من العلوم والأعمال والمقامات والأحوال.

وممن ترجم له في رسالة مستقلة، ذو العلوم والأنفاس، السيد العارف بالله الحبيب علي بن حسن العطاس، أثبتها في أول سفينته، وقد وجدت بخط شيخنا الحبيب عمر البار ـ حفيد صاحب الترجمة ـ فائدة متعلقة منها، وهي مما يحسن إيراده في هذا الفصل أيضاً، قال قدس الله روحه: وكان يحسن الظن بكل أحد، ولا يرى نفسه خيراً من أحد، ويرى الفضل لكل أحد، ويظهر إحسان المحسنين، ويستر إساءة المسيئين، قد استوى الناس عنده في الحق، وصار لهم كالأب الشفيق، ومن رآه أحبه فأحبه هو، والحاصل أن أخلاق جده ﷺ قد أودعت فيه، وأظن أن بارئه قد رضيه فأرضى عنه خلقه، فلا يبغضه أحد، ولا يشك فيه إلا محروم سفيه لا يقبل الحق ولا يرغب فيه، وكان باذلاً نفسه وماله وجاهه في مصالح المسلمين، وكان دأبه في إفادة العلم وإقراء الطلبة، وكان مجلسه مجلس علم وأدب ونور، بحيث لا يخرج منه الإنسان إلا مستفيداً ظافراً بنيل ما يريد من المزيد، لا سيما الطالب المريد. انتهىٰ مع حذف يسير من أثناء هذا الموجود بخط سيدنا وشيخنا ومن آخره. وسيأتي عن الحبيب علي المذكور نقل فوائد وبسط موائد في الفصل الذي بعد هذا، وبسط المعنى في ما أجمله وفصله هؤلاء السَّادة الأئمة القادة الأمناء في[1] مجاهداته رضي الله عنه، [و][2] أن تفصيل إجمالها لا يطاق، ولا يحصر وصفها في دفاتر الأوراق، إذ هي من سر الله الذي وفقه لها واصطفاه، ومن هداه الله واجتباه من أهل العرفان، وخصه بزبدة اليقين والإيمان، لم تطق شم الجبال الشواهق ما يتحمله من مشاق الأعمال في طلب رضى الخالق.

وقد كان هذا الإمام كما أشرنا إليه في أول الترجمة، لما ألقت إليه يد العناية زمام التوفيق، وكشفت له أنوار الولاية وجه التحقيق، أخذ يهدم جدرات حجب النفس بامتهانها، وإراقة شراب مسكراتها وتكسير أدنانها، ويبني بيتها المعمور،

---

(١) في الأصل أن.

(٢) ما بين المعكوفتين ليس في الأصل.

بلبن قالب الإخلاص والصدق في جميع البطون والظهور، ويحكم ويقوي سواري إيمانها بجص العزائم وإدمان الأعمال، التي قصرت عنها همم الأبطال من الرجال، وذلك بعد تأسيس أركان الطريق،من الذكر والجوع والسهر والصَّمت والاعتزال عن كل فريق، وإرهاص جنود الحق عند بابها، من الخوف والصبر والشكر وغير ذلك من المقامات المعروفة عند أربابها، ومن رأى كتاب (مطالع الأنوار) السَّابق ذكره في ترجمة حفيده سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار، الذي جمعه فيما رأى وسمع مما يرتبه سيدنا وشيخنا الغوث الحبيب عمر ـ يعني جده صاحب الترجمة ـ، رأى وتحقق أنه مستغرق الأنفاس واللحظات وجميع السَّاعات والأوقات بطاعة الله، والاستهتار بذكر الله والإقبال على الله، والتوجه إلى الله والذهاب في الله، والقيام في جميع ذلك لله وبالله، لأن ذلك الحال لا يحصل إلا لمن غمرته أيادي الإفضال، وجذبته إلى مولاه نفحات ذي الجلال، فهانت عليه صعاب الأعمال، وانقادت له شوارد الأحوال، وهذا سيدنا الحبيب عمر لما كان كذلك، مؤهلا لما هنالك، ناداه لسان الحال، وأشارت إليه بنان الإدلال، بالتمثل بقول من قال: إذا كان عون الله للمرء لم يجد عسيراً من الآمال إلا ميسراً، فبرز في ميدان المجاهدة، باذلاً فيها طارفه وتالده، فسبق في كر الطلب فرسانها، وفاق عند التحام الصفوف شجعانها، ففاز بغنيمة دونها نفيسات الغنائم، ورجع بعزيمة تقصر عنها كبار العزائم. ولما رأى بعض الفضلاء كتابه المسمى: (الرسالة الجامعة في الأذكار النافعة) وما اشتمل عليه، وما استوعب فيه من الأذكار المقيدة بالأوقات، والمعلقة بالأسباب والتقلبات، قال: لا يطيق العمل بما في هذه الرسالة إلا مؤلفها، وكان ـ نفع الله به ـ كما وصف، وحاله كما عرف، كان في بدايته مشتغلاً بتزكيته نفسه وتطهير قلبه، وتصفية ظاهره وباطنه بأنواع العبادات والقربات، وأصناف المكابدات والمجاهدات، فانياً بالحق عن الخلق، ولما نصب نفسه لنفع الأنام، الخاص منهم والعام، بإشارة مشايخه، لا سيما درتهم اليتيمة إمام الإرشاد الشيخ عبد الله الحداد، رجع من حالة الفناء إلى البقاء، ولم يزل دائم الارتقاء مع ربه بسره وقلبه، ومع الخلق بجسمه وعلمه، وكان مدرسه العام يوم الاثنين والخميس، سواء كان في القرين أم في الخريبة، في الكتب النافعة من تفسير وحديث وفقه ورقائق، وله مدرس بين الظهر والعصر، وقد يذهل في النادر عن صلاة العصر

حتى ينبه، وقد لا يطيق أحد تنبيهه حتى يتذكر بنفسه، ويقوم إلى الصلاة استغراقاً بحلاوة قراءة كتب العلم، وما يظهر له من معانيها بصحيح الفهم، إذ من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم. والحاصل أن ما ذكرناه في مجاهدته، وتعريف إقباله على طاعة الله وعبادته، وما نقلناه قبله عن أولئك الأئمة الأخيار، إنما هو كما أشرنا إليه آنفاً بالاختصار، بأنه إيماء إلى الإجمال دون تفصيل الأحوال.

وأما زهده في هذه الدار ورفضه لزينتها وجاهها ومالها مما هو شأن أولي الألباب والبصائر والأبصار، فأمر من حاله معروف، ووصف من مقامه مألوف، لا يختلف فيه اثنان، ولا ينكره إلا ذو شنآن، وبه تحقق ما سبق من تعبير الشيخ المشرع للرؤيا السَّابقة، أنه وارث جده الأمين في مقامات اليقين، إذ هو ـ نفع الله به ـ إن وجد شيئا من المال زائداً على نفقة الأهل والعيال، أنفقه في الحال، وإن عدم النفقة في وقت من الأوقات، صبر على غصص الحاجات، وانتظر ما عند الله من الرزق، حتى يأتيه الفتوح وتعطيه المنوح، فيعمل فيها بالوجهين، ما عمله جده ﷺ في مال البحرين، وما يدخره لأهله في بعض الأحايين، وكان يتفقد الفقراء والمساكين، ويتعهد الضعفاء والمحتاجين، من ذوي الحاجات وأهل الضرورات، فيواسيهم بما وجد من قليل وكثير وصغير وكبير، لا يرى للدنيا قدراً ولا يلقي لها بالا.

وأما ورعه الذي اشتهر به في ذلك الزمان، وضاهى ورع أحمد بن حنبل وشيبان وسفيان، فأمر غير مجهول، شاع ذكره عند الخاص والعام، وله حكايات في الاحتراز عن الشبهات والمحرمات مشهورة، وعند محبيه ومعتقديه مذكورة.

حكى الثقة أنه اقتضى بعض الأزمان دخوله على السلطان، وقد أمر بعض محبيه أن يأتيه بالماء والعشاء من بيته مع علم ذلك الوالي بما التمسه وأمر به، وذلك لما هو معهود عنده ومقطوع به لديه، أنه ممن يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس، فلم يستشرف إلى موافقته لأكل طعامه، بل رضي بتشريف وصوله إليه وقدومه عليه، ولا سيما مع ندرة وصوله إلى بيته. قال الراوي: فلما جاء إليه ذلك الرجل بالعشاء وكان من السَّادة، تلقاه الوالي والتمس منه أن يناوله عشاء الحبيب عمر، فاستحيى أن لا يجيب فناوله إياه، فلما أقبل به رده وأبى أن يتعشاه، كالذي

رد القوت لما دخل له السجان وقال: إنه وصلني على طبق ظالم، وحكاياتهم في ذلك كثيرة، وقد بلغ سيدنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ في هذه الخصلة التي لها الموقع من الدين، كما قيل: إن اليقين في الماء والعجين، أنه ـ نفع الله به ـ يعرف الحرام بالريح، كما أن بعضهم لا يمتد إليه يده، وبعضهم يتحرك عرق في يده، حكي أنه ليلة من الليالي أخلط في عشائه الحلال من الطعام بشيء يسير من الحرام، بغير شعور من الذي يصنعه بل مع ذهول ونسيان، فلما خرج به إليه، وكاد أن يدخل به عليه، لم يقدر على الدخول هيبة منه، فاستعان بمن يؤنسه ويجرئه على الدخول، فلما وصلا به المجلس أنف وأَقَفَّ، ووضع كمه على فمه وأنفه، وعنف زجراً لهما، وقال: هذا لا يصلح إلا لكما.

وحكي أنه لما وصل إلى الشحر زائراً، أراد بعض الجند اختباره، لما يبلغه من كشوفاته وكراماته، فصنع قهوتين من السكر، إحداهما حلال محض والأخرى حرام صرف، وأتي بهما إليه وهو في جمع من السَّادة الأشراف والعرب، كما هو عادة أهل الشحر الإتيان بالقهوة مطبوخة، وكان قد أمر خدامه أن يديروا قهوة الحرام قبل الحلال ففعل ما أمره به، وأقبل على سيدنا الحبيب عمر بأول فنجان، فأمره أن يناوله بعض الحاضرين من العسكر والجند، ثم الثاني والثالث كذلك إلى أن خلصت، فجعل يدير الأخرى الحلال فناوله أول فنجان منها، فقبله وأمره أن يدير البقية على الحاضرين من السَّادة وغيرهم، فعرف ذلك الجندي مقامه وحفظ الله له، وأن ما يبلغه عنه هو حريّ وحقيق به، فحسن اعتقاده وزال انتقاده.

ومن ورعه الخاص أنه إذا طلب منه شفاعة إلى الوالي، وأهدى إليه ملتمس ذلك شيئا من أمور الدنيا، يرده ولا يقبله. قال حفيده سيدنا وشيخنا الحبيب عمر ابن عبد الرحمٰن نفع الله بهما: أخبرني بعض صلحاء آل العمودي من آل باطويل صح، وكان طاعناً في السن، قال: وصلت مرة إلى سيدي الحبيب عمر البار وأهديته بهديَّة سنيَّة، ثم شكوت عليه جور الوالي، والتمست منه أن يكتب إليه كتاباً على وجه التعريف والشفاعة، قال: فقال: لا بأس بذلك، لكن إما أن نشفع لك ونرد لك هديتك، وإما أن ترجع بلا شفاعة ونقبل هديتك، قال: فرجحت جانب الشفاعة تغليباً لدفع الضرر، ولعلمي أن الحبيب عمر لا يعظم في عينه شيء

من الدنيا، وإن عظم وكثر. وقد كتب إليه بعض معاصريه، لما رأى إقبال الوالي عليه وتعلقه به فيما يسره ويدنيه، والحاصل أن الحامل له على ذلك خوف اغترار أولاده ومحبيه، بأن يبالغوا في الاختلاط بغير احتراز عن ما يضر بالدين من الدخول على السلاطين، لعلمه ما لا يخفى من حال الحبيب عمر حتى الجاهل من الورع الحاجز الكامل، وأن ذلك لم يكن منه إلا ما سيفصّله مما هو متحقق به، ويحسن إيراده من هذا الكتاب، في هذا الفصل والباب، ويشهد لما ذكرناه وما سنذكره، وذلك لما هو مقرر ومعروف عندهم، وأن العارف لا يتكلم بشيء إلا وهو حاله ومقامه. فأوله بعد الحمد له والثناء والصلاة والسلام: وقد وصل مشرفكم الكريم، وحصل به الأنس وتجديد العهد، وما أهديتم من النصائح والوصايا فهمناها وقبلناها، وشكرنا الله الذي أيقظكم لذلك، وشكرناكم على ما هنالك، فجزاكم الله خيراً، ونسأل الله التوفيق، والمنكرات تنكر أنها منكرات ولا نحب وقوعها، وإذا وقعت فلا نحب المجاهرة بها، وإذا جوهر بها وقدرنا على إبطالها فعلنا وأمرنا ونهينا، بحسب ما يقتضيه الزمان والمكان والطاقة والإمكان.

والظالمون ما نحبهم، ولا نوادّهم ولا نأنس بهم، بل نمقتهم على ظلمهم، ونتقرب إلى الله سبحانه وتعالىٰ بالبعد عنهم، ولا نأتيهم في بيوتهم، وإذا أتونا في النادر قبلناهم وأكرمناهم بما يليق بهم، من نحو قهوة ودخون ونحوه، مخالفة لا مخالصة، ولا نأكل لهم حلالاً ولا حراماً، ونشفع للمسلمين خاصة وعامة، فما قبلوا شكرنا، وما منعوا صبرنا، ونسوس أمرنا بالرفق، ولا نقبل ممن شفعنا له الهديَّة ولا الوفق، ونستثقل إقبالهم إلينا، وَنَسْتَرُّ بإدبارهم عنا، وندعوهم إلى الله تعالىٰ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا نجادلهم إلا بالتي هي أحسن، ولا نركن إليهم ولا إلى أحد غير الله، ولو فعلوا من الإجلال ما عسى أن يفعلوا، ولو قالوا من الثناء ما عسى أن يقولوا، ومع ذلك فلا نأمن غوائلهم ومكابدتهم، ولا نتكل على معقولنا ولا منقولنا، ولا علومنا ولا أعمالنا، بل على فضل الله وشفاعة رسول الله ﷺ، ونرى ذلك نعمة من الله علينا، نعجز عن شكرها ولا نقدر قدرها، ولا نعترض على الله فيما قدر ولا نحتج بالقدر، ولا نعذر به أنفسنا ولا غيرنا، ونحب المطيع ونبغض العاصي، ونسلك الطريق ونطلب من الله التوفيق، ونقبل الحق

ممن قال، من سافل أو من عال، ولا نظن في المسلمين إلا الجميل، وإذا أحسنا شكرنا الله، وإذا أسأنا استغفرناه، ونعترف بالقصور والتقصير والتخليط والتفريط، ونتوب إلى الله من الذنوب، ونستمد منكم الدعاء بالثبات على الحق والوفاة على الإسلام، والمصير إلى الجنة وحسن الخاتمة والعاقبة، ولا تنسونا من دعائكم واعتنائكم وتذكيركم وتنبيهكم، ولو أن يحصل النفع القليل في الزمن الطويل، والسلام. فانظر ما جمعه هذا الكتاب، من الأحوال والمقامات والآداب، تحققاً منه وتخلقا، وتعليماً وإرشاداً إلى ما هو حقيقته، فرضي الله عنه وأرضاه من إمام، ونفعنا بعلومه وأسراره وجميع أهل دائرة الإسلام، وقد تشير بعض ألفاظ هذه المكاتبة أن هذا المعاصر لا يعرف حقيقة مقام سيدنا الحبيب عمر من حيث الباطن، وما بلغه من الولاية الكبرى والصديقية العظمى، وما حمله على ما كتبه إليه إلا ما ذكرناه أولاً، والنظر إلى طلب التواصي بالحق والصبر والمرحمة، فأجاب بهذا الجواب وأتاه من حيث أتى، وأما مقامه الباطن فلم يعرف حقيقته إلا أناس من أكابر أصحاب سيدنا الحبيب عبد الله الحداد، كما سمعت عن حفيديه الإمامين عيدروس وعمر ابني عبد الرحمٰن، يخبران عن عمهما العارف حسن عن السيد العارف بالله تعالىٰ الحبيب جعفر بن أحمد الحبشي، أنه ذاكره بمن يعرف مقام أبيه من أصحاب سيدنا الحبيب عبد الله، وأنهم نفر مخصوصون، ومن بين أقرانهم مخصصون، كالحبيب أحمد بن زين والحبيب عمر حامد، والحبيب علوي بن عبدالله العيدروس والشيخ أحمد بن عبد الكريم الشجار الحساوي، والشيخ عمر بن عبد القادر العمودي، وعدَّد أناساً آخرين ممن لا يعرفون مقامه العالي، ولا أنه ممن ظهر في عالم القبض الأقدس في أعظم المجالي، للتلقي من واسطة الكون، وممد جميع من فيه بالظهور والبطون، ولذا كان كثيراً ما يتمثل بقول الفقيه عمر بامخرمة: وينهم وينهم ما شاهدوا إلا خيالي.

وأما تواضعه وحسن خلقه الذي اشتهر في العالم، ونال كل من عرفه منه نصيباً من بني آدم، واتفق عليه الأخيار، وانعقد الإجماع على أنه لم يشاركه أحد من بني عصره في هذه الديار، وراثة أيضاً عن جده المخصوص بأنواع التشريف والتكريم، المخاطب بأنك لعلى خلق عظيم، فقد وسع الكبير والصغير بالرحمة،

والمعاملة بالشفقة والمداراة والاحتمال والحكمة، حتى ظن جميع أهل واديه بل جميع الناس أنهم عنده بمنزلة واحدة، لما يرون من تلك الأخلاق والملاطفات، التي هي أرق من النسيم وألذ من التسنيم. وسيأتي نقل بعض كلامه في هذا الخلق في فضل ما نثبته منه، إذ هو ـ رضي الله عنه ـ إذا تكلم في حسن الخلق نظماً ونثراً بالغ فيه وأطرى، وكفى به فخرا، وقد سرى هذا الخلق الذي فيه إلى أولاده ومريديه، وقد رباهم بنظره، ووشى برود علاهم بديباج السلوك على أثره، فترى كل واحد منهم ينتحي طريقة مثلى، وله في ذرى الفضل والعرفان مجداً مؤثلا.

قال سيدي الحبيب العارف بالله تعالىٰ عمر بن سقاف باعلوي قدس الله روحه، لما زار دوعن بالتاريخ السَّابق في ترجمة سيدنا الناظم نفع الله بهما، لما رأى كمال تواضعهم وحسن أدبهم ووسع أخلاقهم، وشهود الخصوصيِّة في غيرهم، وتمام استعدادهم وقوة استمدادهم، وجميل ما حلاهم الله به من حسن الظن، ورؤية أنفسهم بعين الاستحقار والاستصغار، قال رضي الله عنه: هذه الأخلاق الذي هذبوا النفوس لأجلها، وقرأوا الكتب ليعملوا بها، حصلت لأولاد سيدنا الحبيب عمر البار بطريق الوهب، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وقد سبق عن سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ في ترجمته ذكر بعضهم، فكيف لا يكونوا كما وصفنا، ويتصفوا بما إليه أشرنا.

وقد أخبر سيدي ولي الله أحمد بن القطب الحبيب عمر بن سميط نفع الله به، أن والده سيدنا الحبيب عمر ذكر المسألة المقررة: أن بعض الأولياء يكون حاله بعد موته في أولاده كالشيخ أبي بكر بن سالم، وبعضهم في أصحابه كالشيخ أبي الحسن الشاذلي، وبعضهم في كتبه كالإمام النووي، وبعضهم في جميع هذه الثلاثة كالحبيب عبد الله الحداد. قال: وأما الحبيب عمر البار فأودع حاله في أولاده، هذا معنى كلامه.

وقد تعلقت همته ـ نفع الله به ـ وتوجه عزمه في أن يكون لهم شيء من المال، الذي يصون دينهم ويحفظ مرؤتهم، وذلك لما رأى من أهل المال الإعراض عن أهل الفضل، وعدم مواصلتهم ومواساتهم بالكلية والتفقد لأحوالهم، تساهلاً منهم بالأعمال الأخروية، وجههم إلى أسباب خفيَّة وحركات ضعيفة، قال: وفي نفسي

شيء من ذلك، فلما زار حضرموت في بعض السنين، ذكر ما حاك في صدره لسيدنا الحبيب عمر حامد نفع الله بهما، وأن الذي يرضاه لهم ويحبه منهم هو التجرد عن الأسباب، والتعلق برب الأرباب، تأسياً بمن عظمت همته من أهل التوكل والتوحيد، والمتجردين للسعي الحميد، الذي هو حرث الآخرة، ومفتاح المواصلات الباطنة والظاهرة. فقال له سيدنا الحبيب عمر حامد: لا بأس بما توجهوا إليه إذا لم يخل بالدين، فهو من الدين. ويدل لذلك ما ذكره سيدنا العارف بالله تعالىٰ الإمام عبد الرحمٰن بن مصطفى العيدروس في شرحه على (صلاة القطب) مما يشهد لما هنا، لا سيّما وبعضه معزي إلى رواية سيدنا الحبيب عمر البار صاحب الترجمة، وربما لم يرخص لأولاده فيما ذكرنا إلا لما سمع من سيدنا الحبيب عبد الله الحداد كما سيأتي. قال نفع الله به ـ أي العيدروس ـ ومن دعاء بعض السَّلف: اللهم اجعلها في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا، وعنه ﷺ «إن الفاقة لأصحابي سعادة، وإن الغنى للمؤمن في آخر الزمان سعادة»، وسبب ذلك أن جل الناس الآن ناظرون إلى الدنيا، وأهل الصدر الأول وكان نظرهم إلى الدين، وقد شحت أهل الدنيا بها حتى بالقدر الواجب، فما احتاج أهل العلم والصلاح إلى الدنيا ليستغنوا بها عن أهلها، فإن من احتاج إليهم هان قدره لديهم. ومن المناسبات هنا قول شيخ والدي سيدي عبد الله بن علوي الحداد العلوي نفع الله بهم، كما نقله تلميذه العارف بالله تعالىٰ سيدي عمر البار رضي الله عنه: إنما كان تمثيل الدنيا في القرآن بالماء، لأن القليل منه لا غنىً عنه والكثير مغرق، ثم قال: فاليوم ما نكره لأصحابنا ما يسترهم من المال ويغنيهم عن الناس، لضعف يقين أهل الزمان، وقلة مواساة الأغنياء للفقراء. وكان للسَّلف يقين ـ أو قال إيمان كامل ـ يصبرون به على الشدائد، وكان في أهل المال مواساة عكس هذا الزمان المبارك. انتهىٰ من شرح صلاة القطب.

وفي كلام سيدنا الحبيب عبد الله الحداد ـ رضي الله عنه ـ إشارات، إحداهما: أنه لما أراد لأصحابه الارتفاق بشيء من المال للأمر الذي علل به حصل لهم ذلك، ثانيهما: أن ما حصل لهم من الدنيا بعد ما كان هو وهم فيه من ضنك الحال وقلة المال، مع الرضى والقناعة والزهد والاختيار للفقر على الغنى، وراثةً لجده ﷺ في

حاله وحال أصحابه من ضيق المعيشة، وأخبرهم أن من بعدهم تبسط عليهم الدنيا فكان كما أخبر ﷺ، وسيدنا الحبيب عبد الله ـ نفع الله به ـ بسطت على أصحابه كذلك تحقيقاً لوراثته، واعلم أن ما نقلناه هنا من هذا المقال للمناسبة والاستدلال لشاهد الحال، لم نرد به الترغيب والإغراء على طلب الدنيا وتحصيلها وجمعها، لا سيِّما مع عدم القيام بما فيها من حقوق المال، بل ليس فيه ما يدل لذلك أصلاً، إذ كله مقيد بمقاصد ونيات ، كلها مع حسن النيَّة من الأمور الدينيَّة لاحقة بها.

والناس في هذا الزمان **قسمان**: القسم الأول **نوعان**: متجرد عمل في تجرده باليقين وأحكم التوحيد والتوكل، ومتسبب عمل في تسببه بالعلم فيما يحل له ويحرم عليه ويجب عليه ويستحب له، فهما ناجيتان، والقسم الثاني **نوعان** أيضاً: متجرد قعدت به همته الضعيفة عن الكسب فنظر إلى الخلق واستشرف إليهم ولم يرضَ بالحالة الذي هو عليها، بل بقي متضجراً متبرماً، ومتسبب لم يستعمل العلم ولا يراعي ما يجب عليه من الحكم، فهما هالكان، والسَّعيد الناجي الموفق من غاب عن تجرده وتسببه، ورأى فعل الحق في تجرده ومكتسبه.

وقد أشار إلى القسمين الأولين سيدنا الشيخ عبد الله الحداد في بائيته بقوله قدس الله سره:

وإن تجردت فاعمل باليقين وبالـ ـعلم، إذا كنت موقوفاً مع السبب

وتفصيل ذلك مذكور في شرح هذا البيت، من شرح القصيدة لسيدنا الشيخ الحبيب أحمد بن زين الحبشي، ومن بعض ما ذكره سيدنا الحبيب عبد الرحمٰن بن مصطفى العيدروس ـ نفع الله بهم ـ في شرح (صلاة القطب) المذكور آنفاً، قال في آخر بحث: وبذلك يعلم أن كمال العلم أن يراعي الشخص حكمة الأسباب عند ورود الأقدار، فإن الاستناد إلى العلم بالمقدورات من غير حكمة الأسباب نقصان، ورؤية الأسباب من غير ملاحظة الأقدار أيضاً نقصان، والكمال أن يراعي كلتيهما، لأنه سبحانه وتعالىٰ جعل الفوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته، وسحب شمس أحديته، فواقف عندها مجذول، وناقذ منها إليه هو بالعناية موصول، وإلا فقدرته لا تتوقف على الأسباب، والعوائد هو حاكم عليها ليست هي حاكمة عليه،

على أن عالم القدرة لا يخلو عن الأسباب أيضاً، إلا أن الأسباب فيه خفية بخلاف عالم الحكمة. ويؤيد ذلك قول العارف المرسي نفع الله به: للناس أسباب، وسببنا نحن الإيمان والتقوى، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ويؤيده أيضاً قول العارف القشاشي نفع الله به: والرزق قد كتبه الله تعالىٰ لك وضمنه، وهو مرهون بأوقاته وآجاله وأمكنته، التي كتب الله لك أن تناله بها وفيها، وأسبابه ما كانت الواسطة التي هي فيه، فهي من جملة الرزق، لا تجتمع به بدونها لإذن الحق بذلك، لا لكون أمر الحق موقوفا عليها بل لقضاء الحق بها، وحكمه فيها بحكمة يريدها، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وأنت من جملة الدواب، ورزقك عليه لا عليك، وإليه أمره لا إليك. انتهىٰ. ومن البشائر قوله ﷺ فيما رواه أبو نعيم: «إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة» قال أبو هريرة رضي الله عنه: فما يكفرها؟ قال: «الهموم في طلب المعيشة» انتهى، قال بعضهم: وسر ذلك أن الذنوب كالأمراض والمكفرة كالأدوية، فكل صنف منها يكفر صنفاً من الذنوب، كما أن الدواء أيضاً يدفع المرض المضاد له. انتهىٰ المقصود من الكتاب المذكور، ترجح لنا ذكره عندما أشرنا إلى أن سيدنا الحبيب عمر البار ـ نفع الله به ـ لعلو همته ورفعة مهجته، قرر بعض أولاده على طلب الأسباب، التي رتب عليها الحق سبحانه وتعالىٰ إلى المسببات، لما علل به هؤلاء الأئمة وغيرهم، كالإمام الشعراوي في (العهود المحمدية) فإنه قال: الناس الآن عظم عندهم أمر الدنيا فضنوا بها ومنعوا حقوقها، ولم تساعدهم نفوسهم على المواساة منها، وغير ذلك مما عللوا به، فلما رأى ذلك سيدنا الحبيب عمر وتوخاه في هذا الزمان، تعلقت همته من أولاده بقرع باب الطلب، والرجوع إلى الله تعالىٰ بالسبب، وقد ذكرنا فيما أسلفناه في أحكام الولاية والأولياء، أن بعضهم قد يتستر بالأسباب من تجارة أو صناعة أو غير ذلك، وما ذكرناه كله من مقصود الترجمة في هذا الموضع، وهو ما علقناه على كمال تواضعه

ـ قدس الله روحه ـ لله ولرسوله ﷺ بالانقياد والإذعان والاستسلام والعمل بما اقتضاه الكتاب والسنة وآثار السلف الصَّالح، من التصديق بالجنان والعمل باللسان والأركان، وللخلق بخفض الجناح ولين الجانب، والنفع العام للمحتاجين والضعفاء والمساكين، بقضاء الحوائج والشفاعة لهم والقيام لهم في مهماتهم، وإرشاد الطالبين وتسليك المريدين، مما هو مشهور عنه، ومنقول عمن أخذ عنه وجالسه واجتمع به، وهذا هو عين الوراثة لجده ﷺ الذي أعطاه له الحق وأثنى عليه به ونوه بشأنه بسببه، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وفي موضع آخر علمه وأمر بما هو من مقتضاه، فقال ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وقد نظم بعضهم حسن الخلق من قريب ما في معنى هذه الآية، فقال رحمه الله: طلاقة الوجه وكف الأذى وبذلك المعروف خلق حسن، هذا ما وصفناه به من التواضع وحسن الخلق يضعه ـ نفع الله به ـ في محله ومع أهله، ومع انتهاك حرمات الله وإضاعة حق الله يقوم بما أمره الله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويغضب لله، ومع تواضعه وخشوعه وخضوعه لله تهابه الملوك وتخضع له الجبابرة، كما سبق في ملك مكة المشرفة الشريف عبد الله، لما اجتمع به خضع لجنابه العزيز، وجعل يبكي ويتوجه به إلى الله تعالىٰ، وأما والي قطره فكان لسعادته طوع يده وفي قبضته، ومن رأى ما في ديوانه من الرسائل والمكاتبات رأى العجب العجاب، لأن غالب ما فيه متعلق بهذا المهم من الدين، بل هو الدين كله، لأنه لم يقم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي الجهاد في سبيل الله تعالىٰ قسم من أقسامه، ثم من رأى ما في المكاتبات، وهو قاصر عن معرفة مقام هذا الإمام، وما أكرمه الله به من الأحوال العظام، ربما يتوهم أن ذلك مجرد ما في وسعه وطاقته من الأمر باللسان مع كراهة الجنان، وليس كما توهم وظن، بل هو ـ نفع الله به ـ متصرف بحال قاهر وسر باهر، تهابه وتخضع له أهل الولايات الباطنة والظاهرة، قال حفيده سيدنا وشيخنا عمر بن عبد الرحمٰن نفع الله به: سمعت الشيخ علي بن عبد الله باسندوه يقول: قال الحبيب علي بن حسن العطاس نفع الله به: إن الحبيب عمر البار متخلق باسمه تعالىٰ القهار، فذكرت لسيدي الشيخ العارف الذائق حسين بن علي عبد الشكور بالمدينة، فقال: والآن هو متخلق بذلك الاسم فإنه انقهر له حتى

فلان.. وذكر شيخاً كبيراً، وقد ذكر الشيخ قاسم الخاقاني في كتابه: (السير والسَّلوك إلى ملك الملوك) في الباب العاشر في بيان النفس الكاملة كلاماً إلى أن قال: والاسم الذي يستقل به هذا الكامل القهار وهو الاسم السَّابع، وهو أعظم المقامات لأنه قد كَمَّلت سلطنة الباطن به المكابدة والمجاهدة، ليس لصاحب هذا المقام مطلب سوى رضوان مولاه، حركاته وسكناته حسنات، وأنفاسه قدرة وحكمة، وهو ولي الله.. إلى أن قال: واعلم أن هذا الاسم هو القطب، قال المشايخ: ومنه يمد القطب المريدين الطالبين بالأنوار والهدايات ، وقالوا: إنه متى ما حصل في قلوب المريدين من الفرح والسرور والجذبات الكافية بغير سبب فهو مدد القطب، عوضاً عن أذكارهم وتوجهاتهم لربهم.. إلى آخر ما ذكره. انتهىٰ ما نقلته من خط سيدنا وشيخنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ في بعض مكاتباته، بعد كلام جامع يعنف فيه بعض المجترين، والمتعدين لحدود الله: وهذا آخر جواب وإن عدتم حارشتونا رأيتم الجواب. انتهىٰ، وما مراده بالجواب بعد التشنيع بالمقال، إلا الارتقاء بالانتقام بالحال، كما هو من طريق الظاهر حكم الفقه في دفع الصَّائل، الاستعمال أولاً لأخف الوسائل، وقال في أخرى: والحاصل أنا عرفنا تحقيقاً وذوقاً أنَّ هذا أمر سماوي، وسببه ما ذكرنا ونحوه، وعساه قضاء قد انقضى، وبانت لنا أمور وأحوال كثيرة، وما حصلناها بصيام ولا قيام ولا رياضة، وذلك في حقائق التوحيد من تفرقات المولى الحميد، والحمد لله على ما فتح ومنح، وظهرت لنا أيضاً قبائح وفضائح في آل فلان وغيرهم ما كنا نظن بعضها، فصار سبب مقت هذه الفرقة، وبعضها من الجانبين لا من جانب كما يظن بنا، بل قد سبقت عندكم شكايا وحكايا ما تصدر عنهم، بينوا عنها الطبع والجنان المستقيم، وأما سفساف الأخلاق وأمارات النفاق، والجمع والمنع المذمومين على لسان الكتاب والسنة، فلا تسأل عما ابتلوا به، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير، ونحمد الله إليكم ونحسن الظن بالمسلمين على الجملة، ونرجو التوبة لنا ولهم. وذكر في أخرى لأخيه سيدنا العارف بالله تعالىٰ أحمد في واقعة مهمة وداهية ملمة: ولا يهولنكم أمر هذا

فهو عما قليل زائل إن شاء الله، كسحاب ينقشع، ومضيق يتسع، وفي الأثر: للباطل صولة ثم يضمحل ويتلاشى، وحاشا السَّلف وأهل البيت، وقد تيسرت وسيلة بالنبي ﷺ ونرجو من الله قبولها بفضله وكرمه، وبركة المصطفى ﷺ وآله أهل النجدة والوفاء، وأولها:

يا رسول الله يا خير الورىٰ   يا سريع الغوث إن خطب طرى

والظن في المولى جميل، ومتاع الدنيا قليل ، فلا يضيق صدرك فالحادث يهون، وعند انتهاء الشدائد يكون توقع الفرح:

نفحة الرحمٰن فيما قد رووا   آتية حقاً وإن طال المدا

وما لنا إلا باب الله، ولا سبب ولا نسب إلا من الله، ثم من رسول الله وأهل الله، وحسبنا الله. انتهى، وفي مكاتباته كثير من هذا القبيل، وكذا قول سيدي الحبيب حسن السابق في ترجمته: وكان سادتنا آل حضرموت يأتون إلى الوالد، وقد يطلب منهم بعض المساعدة على شيء من الأمور، فلا يمكن منهم تقدم، لأن الأمر مجهول عندهم، فيعذرهم.. إلى آخره، دليل لهذا المقام. وحكي أنه لما حصلت المقاومة وكثر الشقاق، وشق العصا بين اثنين عن ولاة هذا القطر، وتولد الضرر على أهله بسبب هذا الخلاف الحاصل بينهما، بل اتهم أحدهم سيدنا الحبيب عمر بالميل مع الآخر، كما وقع للشيخ الكبير القطب الشهير معروف باجمال مع السلطان الكثيري وابن أخيه، من الاتهام بالميل إلى أحدهما، حتى زال من حضرموت إلى دوعن بسبب ذلك، مع أنه يقدر يتصرف بإذن الله في دفعه عنه أو ضعف شوكته أو هلاكه، لكنه مأخوذ عليه أن لا ينتقم لنفسه منه. فقد حكي أنه يوماً من الأيام، شكا على أصحابه ما جرى من السلطان في حقه من الاتهام ونسبته إلى الميل، وكان تلميذه الشيخ شراحيل لما جاءه للأخذ عنه، قال له: إن الإمام الغزالي لما جاءه بعض المريدين للأخذ عنه قال له: إنا قد أشغلنا الفقراء كل واحد بوظيفة، وأنت ما بقي من الوظائف التي نشغلك بها إلا حجر الاستنجاء، فامتثل وفتح عليه قبل الكل، وأنت وظيفتك تكون مقهوي ببندر الشحر، فامتثل شراحيل أمر الشيخ وفتح عليه كذلك وكان يرى كل ليلة يشتري البن من سوده من الجبال،

ولما اشتهرت كشوفاته وكراماته وأحواله، خرج السلطان بدر بن عبد الله بن جعفر الكثيري العادل ليلة يختبره وهو في صورة درويش، وأخذ فيجانه في جيبه، وكان مطلياً بالذهب بما لا يتحصل منه شيء حتى صح له استعماله، فجلس بطريق مقاهيته وأضمر أن يطلب منه فيجانه ليعطيه القهوة فيه، فما جلس إلا وناوله فيجانه الذي بثبانه[١]، فبهت وعرف قدره، فلما أوقع السلطان بدر هذا بالشيخ معروف، لاتهامه إثارة الإمام العادل علي بن عمر بن جعفر ابن عم بدر وأخذه قلاع آل محمد، شكا الشيخ معروف لتلامذته وقال: ألا ترون هذا يعمل بنا كذا ونحن براء عما اتهمنا به، فثارت همة شراحيل وقال: معي له كانون القهوة، وأخرج لهاة كلهاة البعير الهائج من فيه لهب نار شعلة واحدة، فتلقاه شيخه معروف بيده، فاحترقت يد الشيخ فأطفأها، وقال: إنما أردت المباسطة معكم لا حقيقة الانتقام، لأنه ـ كما مر ـ أخذ عليه العهد من شيخه الأخضر باهرمز أن لا ينتقم لنفسه منه، في قصة مبسوطة في مناقب الشيخ معروف للعلامة محمد بن عبد الرحمٰن بن سراج.

وأما سيدي الحبيب عمر البار صاحب الترجمة، فإنه لما رأى ما رأى من تولد الضرر العام على المسلمين، والجراءة حتى على بعض من ينسب إليه، قال لأخيه العارف بالله تعالىٰ أحمد، فقرأ الفاتحة ويّس على المعتدي من الرجلين، فما دار ذلك الأسبوع إلا ومات أحدهما واستقام الأمر بالآخر. ولعله ـ رضي الله عنه ـ أذن له في ذلك كما حكي عنه، ورأيته بخط حفيده سيدنا وشيخنا الحبيب عمر نفع الله به، أنه جاء إليه بعض أعوان الدولة فأعطاه عودة، قال الراوي: فقلت له: لا يستحق منكم هذا الدخون، فقال: مرادنا نعوره، قال: فعمي ذلك الرجل بعد، وحكاياته في ذلك كثيرة، وعنه مشهورة.

فصل

في ثناء الأكابر عليه، وإشاراتهم باستجماع أنواع الكمال لديه، قال سيدي حفيده الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن كما سمعته عنه ورأيته بخطه، وعن أخيه سيدي عيدروس بن عبد الرحمٰن، كلاهما سمعا عمهما سيدي الحبيب حسن ـ نفع الله بهم ـ يقول: قال لي سيدي العارف بالله تعالىٰ شيخ باعبود باعلوي نفع الله به:

---

(١) أي الملفوف داخل ثوبه الملبوس.

أجمعت علماء الظاهر والباطن من أهل الحرمين الشريفين، أنه لم يقدم عليهم بعد الحبيب عبد الله الحداد مثل أبيك الحبيب عمر البار. ورأيت بخط سيدنا وشيخنا حفيده الحبيب عمر أيضاً قال: سمعت سيدي السيد شيخ بن عبد الرحمٰن البيتي باعلوي يحكي عن والده، وكان من العارفين بالله تعالىٰ، أنه قال: سمعت شخصين من رجال الغيب، يسألان عن سيدي الحبيب عمر وعن رجل آخر سمَّاه من مشايخ العلويَّة الكبار، أيهما أكبر حالاً؟ فقال أحدهما البار أكبر حالاً وأكبر. وقد سمع هذا منه الوالد صادق بن الحبيب عمر وأخبرني به، وسمعت سيدي الشيخ الكبير أحمد بن حسن الموقري ـ قدس الله روحه ـ يذكر شيخاً من مشايخ اليمن يقول فيه: هو مثل سيدي الحبيب عمر البار، وإذا صلى على النبي ﷺ يقول: اللهم صل على هذا النبي الكريم، يعني أنه يجتمع بالنبي ﷺ يقظة. قلت: وسيأتي في ترجمة الشيخ علي بن علوي خالع قسم وسيدي أحمد بحر، ذكر مقام من يجتمع به ﷺ يقظة. ثم قال سيدنا وشيخنا نفع الله به: وقال الشيخ محسن بن عبد الله باقيس: كان علي بِالْفِجح رجلاً صالحاً قال: قلت في نفسي من هو اليوم من آل باعلوي ـ يعني القطب ـ، فنمت فرأيت الملائكة تجر مثل المركب بعجل ذهب وعليه الحبيب عمر ـ أو قال: قالوا لعمر البار ـ فعلمت أنه هو وأنا أشهد أنه هو القطب. قلت: والحكاية المشهورة في (روض الرياحين)، أن بعضهم رأى الملائكة تجر القطب على عجلة من ذهب تؤيد ما هنا، قال قدس الله روحه: وسمعت سيدي الشيخ الكبير محمد بن يَّس باقيس يقول: سافر الحبيب عمر البار لزيارة حضرموت بعد وفاة الحبيب عبد الله الحداد، كان كثير التردد إلى قبر سيدنا الحبيب عبد الله، قال: فرأيت في المنام كأني سافرت للزيارة، فلما وصلت عند قبر سيدنا الحبيب عبد الله فإذا منادي من السماء يقول: إن الله تجلى على قلب الحبيب عمر البار وحصل له كذا وكذا، قال: فانتبهت وأنا مستبشر بذلك. فلما وصل الحبيب عمر من حضرموت خرجت متلقياً له وأخبرته بالرؤيا، فقال: الأمر كذلك، وسمعت سعيد بن صالح البع يقول: ذكر الحبيب عمر البار عند سيدنا الحبيب أحمد بن زين الحبشي فقال: هو مفطوم من شيخه، قال سيدنا وشيخنا الحبيب عمر لما أثبت ذلك: قال الشيخ أحمد الذاكر في رسالة له ذكر فيها سير الشيخ بالمريد، إلى أن الشيخ يجمعه على روحانية النبي ﷺ، وشاهد بعين قلبه

روحانية النبي ﷺ إن كان في حال الذكر أو في حال السكوت. . إلى أن قال: فيقول: يا سيدي يا رسول الله مقصودي الله، فيكون جواب النبي ﷺ للفقير من القلب إلى القلب: ها أنت وربك، فهناك يؤخذ الفقير ويفقد الحس منه ويغيب عن الوجود، فتلك الحالة هي الفناء في الله، وهي الجمع على الله، وهي الموتة وهي التوحيد، إذ لا جواب قائم فهناك لا فهم ولا جواب، وهناك يكون الأستاذ قد فطم ولده من ثدي الرضاع، وتكون تلك هي الخلوة الحقيقية التي أشار إليها، أن الخلوة من خلا قلبه مع الله. انتهىٰ، قال سيدنا الحبيب عمر قدس الله سره: فانظر إلى كلمة قالها الحبيب أحمد ـ نفع الله به ـ أن الحبيب عمر مفطوم من شيخه، فانظر إلى هذا الكلام في معنى الفطام، تجده مقام المتحقق به مقاماً وأي مقام، ثم قال نفع الله به: وسمعت الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن قاضي باكثير يقول: قال والدي: زرت سيدنا الحبيب عمر البار في صحبة سيدي جعفر بن أحمد بن زين الحبشي، فقال لي الحبيب عمر: هل لبست من أحد؟ قلت: من سيدنا الحبيب أحمد بن زين، قال: لا بأس آل باعلوي شيء واحد، ثم ألبسني فأسرَّ إليَّ كلاماً لم أفهمه في الحال ثم فهمته بعد، قال الراوي: فقيل له: ما هو؟ قال: قرأ في أذني يَس، وقد وقع مثل ذلك للشيخ الكبير محمد بن أحمد بامشموس مع سيدنا الشيخ القطب عبد الله بن علوي الحداد، كما مر في ترجمة سيدنا الحبيب محمد ابن سميط لسيدنا الحبيب عمر نفع الله به. وفي ذلك إشارة إلى أن للوارث حكم الموروث، قال سيدنا وشيخنا نفع الله به: وسمعت الشيخ علي بن عبد الله باسندوه يقول: سمعت الشيخ محمد بالكسح باسندوه ـ وكان من أصحاب سيدنا عمر البار والمنتفعين به ـ يقول: سمعت الحبيب علوي بن عبد الله الحداد يقول للحبيب عمر البار: أنت من أهل الدائرة، فقال: وأنتم من أهل الفضل، وسمعت شيخنا الحبيب عمر بن زين بن سميط، يقول لما زار أخوه الإمام الحبيب محمد بن زين ابن سميط دوعن، في حياة الشيخ عمر بن عبد القادر العمودي، قال له الشيخ عمر، ماذا رأيت البار؟ قال: فاق أقرانه في التواضع والزهد وحسن الخلق، وقال: إنه يقول: البار الراس والشيخ سعيد السَّاس ـ يعني في زيارة دوعن ـ، وقال الشيخ محمد بن أبي بكر بانافع نفع الله به: قول الحبيب جعفر بن أحمد الحبشي في قصيدته التي مطلعها:

حـادي العيـس خلهـا وسـراهـا   عمـــر البـــار منتقـــى آل طٰـــه

يشير إلى أنه الوارث، وسمعت من الشيخ عبد الله بن أحمد باعباد ومن غيره يقول: قال الحبيب عمر حامد يقول للحبيب عمر البار: مثلك يا سيد عمر كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]. انتهى ما أثبته سيدنا وشيخنا من المقالات والتنويهات، في شأن مقام جده الوارث الإمام الحبيب عمر البار، مع ما أضفته إليها، ثم نلحق به ما سمعناه واستفدناه من غيره نفع الله به، ونقدم على ذلك عبارة على لسان أهل الإشارة، فيما نوه به سيدنا الشيخ عمر حامد في شأن سيدنا الحبيب عمر البار، على وجه المثال بما في هذه الآية الكريمة العظيمة المنوال، ما تعلم به عظم حال القائل والمقول فيه سر ما أودع في هذه الاية من المعاني الدقيقة، وما تحتمله من التأويل والتوجيه، قال سيدنا القطب الكبير الشيخ أحمد ابن عبد القادر باعشن فيما نقله عنه الشيخ العارف بالله عبد الله بن سعيد العمودي قدس الله روحهما: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ هي نحل الأرواح، ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ هي جبال العقول، ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ هي شجر الأحوال بالتضادد، ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي ما تقبله النفوس بالبرهان العقلي والدليل النقلي، ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي اقبلي أيها الروح جميع التجليات، مما تعطيه الأسماء والصفات، ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ بالسير فيه من بعد السير إليه، وهو من نحل إلى نحل في نحل، ذللاً في مواطن العبودية للربوبيّة، ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ من أسرار التوحيد وحقائق التفريد، ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ حسب اختلاف الصفات المتجلية بها ذات السمات، ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ من الران والأدناس، فإذا تحقق الروح بهذه الصفات الذاتية، على اختلاف ما تعطي الحضرة الواحدية بالأحدية، وَأُتُوا به متشابها في الحضرة العقلية: انتهىٰ المقصود من كلامه.

وقال سيدي الإمام الحبيب علي بن حسن العطاس علوي ـ نفع الله به ـ في مكاتبته للشيخ إسماعيل النقشبندي: وذكرتم فيما ذكرتم أنه قد ألبسكم سيدنا الحبيب القطب الغوث عمر البار، عن القطب الحبيب عبد الله الحداد، وشيخه جدنا عمر

العطاس. الحمد لله على ذلك، وأنه قد حصل لكم إلباس وتلقين ذكر، من مشايخ أجلاء من سادتنا القادريَّة والشاذليَّة، والنقشبنديَّة وسادتنا العلويَّة، ولكن درتهم اليتيمة مولانا السيد عمر البار، فهو حقيق بما ذكرتم، وخليق بما إليه أشرتم، وقد كانوا سادتي السَّادة آل باعلوي القادة، وخصوصاً أهل المعرفة من أهل تريم، يقولون لي: يا علي إنا نغبطك على اتصالك بالسيد عمر البار، ثم ذكر هذه المكاتبة، إذ هي مشتملة على ذكر سبب إنشائه للقصيدة التي له: (الحمد لله فزنا بالرضى والقبول)، ومعن ما فيها من الرحلة، وأنه لما وصل إلى بلد الخريبة، قصد سيدنا الشيخ الحبيب عمر البار، فوجده في مسجد الشيخ سليمان وقت تدريسه فيه بين الظهر والعصر، قال: وجلس الحبيب عمر للتدريس، وعنده كتاب (القاموس) موضوع بين يديه، قال: فخطر في بالي أن الشيخ محيي الدين النووي لم ينقل عن (القاموس)، وإنما غالب نقله في (التهذيب) وغيره، عن الأزهري والجوهري والهروي، فالتفت إليَّ الحبيب عمر وقال: إن القاموس ما صنف إلا بعد النووي. . أو كما قال، وهذه عادته معي في كثير من مجالستي له يكلمني على الخاطر. انتهىٰ، وقد قال في القصيدة المذكورة:

والبار زرناه نعمك من عمر ذي يقول   شيخ الطريقة وعنده في الحقيقة فصول
ذي هو يقرب إلى الله النيام الغفول   يدعي ويهدي ولا هو للفضائل ملول
الله يـزيـده وينفـع بـه وعمـره يطـول   يحيى الطريق التي فيها دراسة ودول

وقد عده من أجلِّ مشايخه، وذكره في سلسلة إسنادهم فقال:

وزرنـا جمـاعـات مـن المقتـدى بهـم   ولاحـت لنـا مـن نـورهـم رب آيـة
كمثـل السميـيـن الشجـاعيـن نيـرا   سمـا المجـد أستـاذيـن كـل إفـادة
همـا البـار والمحضـار بـن عبـد قـادر   فخـذ منـي التصـريـح بعـد الكنـايـة

وفي الأخرى:

بحـرمـة عبـد الله والبـار بـرنـا   وعمر بحق العمر أركان دولة

فأما الشيخ إسماعيل النقشبندي، فقد رأيت في مجموع بخطه: وبعد فقد أنشد سيدنا وحبيبنا وأستاذنا وشيخنا، الحبيب الكبير الجليل سيدي عمر بن سيدي

الحبيب عبد الرحمٰن البار، نفع الله بهم في الدنيا والآخرة، لما ورد زائراً لجده الأعظم ﷺ في طيبة هذه القصيدة الغراء وهي:

كل يوم لنا بطيبة عيد　　وبها جنة وعيش رغيد
في جوار الحبيب خير البرايا　　هو طٰه وأحمد وحميد
خصه الله بمزايا عظام　　وحباه فضائلاً لا تبيد

ثم أثبتها إلى آخرها، وقال بعدها: كتبه الفقير إلى الله سبحانه إسماعيل بن عبدالله، جار سيد الأولين والآخرين، الراجي شفاعته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله، وقد تشرفت بملازمة الحبيب عمر البار حين زار جده ﷺ، وألبسني الخرقة العلويَّة في المدينة، وأرسل إليَّ في آخر مراسلاته بكوفية أيضاً إلباس الخرقة، هكذا ذكر ـ نفع الله به ـ بخطه الذي جاء به ولده السعيد علوي. انتهى ما وجدته بخط الشيخ إسماعيل المذكور، وقال سيدنا وشيخنا حفيده عيدروس بن عبد الرحمٰن نفع الله بهما: بلغنا أن سيدنا الحبيب عمر البار ـ يعني جده المذكور ـ زار تريم في بعض السنين بعد وفاة سيدي الشيخ عبدالله الحداد، فقال الحبيب العارف بالله تعالىٰ عبد الله بن سهل جمل الليل نفع الله بهم: تريم وأهلها ودورها ومقابرها فرحة مسرورة بوصول الحبيب عمر البار إليها، وسمعت سيدي العارف بالله الصفوة أحمد بن الشيخ الحبيب عمر بن زين بن سميط يقول: رأى سيدنا الوالد ليلة توفي الحبيب عمر البار أنه يقال له: الليلة توفي الشيخ أحمد بافضل، ثم أتى الخبر بأن الحبيب عمر مات في تلك الليلة، قال: فأوَّل سيدي الوالد بأن المراد في الرؤيا هو الحبيب عمر، وذلك من جهة ذكر المشيخة والفضل، وقال أيضاً: كنت جالساً عند الوالد ليلة وفاته، فقال لي: إيش قال البار فقلت له: قال:

خذ السهل واقنع تستريح من العنا　　وعول على مولاك في الدين والدنا

قال: فجعل يستزيد ويقول: إيش قال البار؟، فأعيد له هذا البيت وما أدري ما مراده، وأما سيدنا الإمام الحبيب أحمد بن زين الحبشي باعلوي قدس الله روحه، لما كان من كمل الرجال وأكابر أهل الأحوال، وكان الحبيب عمر جوهرة

تيمة ثمينة، في بطن صدفتها مكنونة، لم يرَ إشراق نوره تلك من فقد نور بصيرته، فخرق حجاب الصدفة حتى رأى إشراق نور تلك الجوهرة وعزة ما فيها من الصَّفاء، وسيدنا الحبيب أحمد من أهل البصائر وأكابر أرباب السرائر، لم يزل ينشر ما طوي في الحبيب عمر من الأسرار، وما بلغه من المقامات والأحوال ذات الأقدار، حتى أن أهل دائرته من أولاده ومريديه ومحبيه، يبالغون كثيراً في الاعتقاد والاستمداد والاستعظام والاحترام لجناب سيدنا الحبيب عمر، ويكفي في هذا الباب رسالة ضمنها الحبيب أحمد ـ نفع الله به ـ ترجمة وجيزة جامعة، تتضمن ذكر مناقب مراتب رغائب فضائل مشارب مناهل سيدنا الحبيب عمر نفع الله به، ففيها خطاب الأكفا على بساط الشفا، الآتي بيان معناه عن المزجاجي قدس سره، وهذه الرسالة: قال قدس الله روحه: الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً أبداً. من أحمد بن زين الحبشي إلى السيد الجليل الجامع الحفيل، شجاع الدين وبركة المسلمين وعمدة المؤمنين وشيخ المريدين، المكين الأمين عمر بن عبد الرحمٰن باعلوي البار، سلمه الله وأعلى مرتقاه، وضاعف له مزيد ألطافه وعطاياه، وبلغه من كل مقام أعلاه، ومن كل حال أصفاه، حتى تندرج النبوة بين جنبيه بحفظ القرآن ومعرفة أم الكتاب، إلا أنه لا يوحى إليه بالتشريع، بل بإلهام الوراثة المنيع لسر النبي الشفيع، والاتباع له في وسط المهيع الوسيع، اللهم في عافية، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى الحضرية العمريَّة المشرقة بعمر القمر، أشركنا اللهم معهم واجعل لنا فيها نصيباً رغيباً، وكن لنا اللهم مجيباً، وكن لنا من كل شر جاراً منهم أجمعين أن يطغو علينا، ستر العرش مسبول علينا، وعين الله ناظرة إلينا، بحول الله لا يقدر علينا، بل هو قرآن مجيد، في لوحينا وذوينا ـ إن شاء الله ـ محفوظ، على ما سبق: «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه . .» الحديث، وقد عبر بعض الصوفية بالقرآن عن الذات وبالكتاب عن العلم المقدسين، ومعرفة العبد بالله على قدره، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾. فهذه الرسالة كما تراها جامعة لما ذكرنا، وسيأتي كشف ما اشتملت عليه من المعاني الغزار، والإشارات والرموز إلى حقيقة مقام سيدنا الحبيب عمر البار.

وأما ولده سيدنا الحبيب العارف بالله تعالىٰ جعفر بن أحمد، فهو ممن انطوت عنده بشرية الحبيب عمر في خصوصيته، فكان ممتلياً به منغمراً في نوره، فانٍ في محبته، وله فيه المدح الفائق والثناء المطلق والمشهد العظيم، ولا يزال يقرر بالفعل والقال نظماً ونثراً سراً وجهراً قطبانية الحبيب عمر، وتحقيق مشيخته وعلو قدره ورفعة مقامه، فمِّما قاله في بعض زياراته له بعد وفاته وهو واقف بفناء ضريحه ارتجالاً:

خليلي طاب العيش من بعد ما قرأ ... وناظري من بعد الجفا باللقا قرا
فلله ربي الحمد والشكر والثنا ... على نعم من فيض إفضاله تترا
وصلنا إلى حي الأحبة بعدما ... تمادت بنا الأيام عن وصلهم قهرا
هنيئاً لمن أمسى بربع حبيبه ... تقلبه الأفراح يمنا على يسرا
وعند الصباح القوم تحمد للسرى ... إذا ماجنت ثمر المحبة والسرا
فيا ناظري هذا الحبيب ونوره ... ويا نفس طاب الملتقى فلك البشرى
بزورة غيث العالمين وغوثهم ... إمام الهدى قطب الوجود ولا فخرا
هو البار من بر اسمه وسماؤه ... تعالت وأبدت في سماء العلا بدرا
إمام له في محتد المجد رتبة ... تعالت وعزت أن تحاط بها قدرا
سما في ذرى العليا بهمة عازم ... ولم يثنها عن قصدها أبداً أخرى
وما قدر وصفي في علاه وما عسى ... أينزف ماء البحر بالمحيط المبرا
فأنواره تهدي القلوب من العمى ... وأسراره قد عمت البر والبحرا
فيا سيدي قل أنت منا ولا تخف ... في الدين والدنيا معاً وكذا الأخرى
وفي النفس حاجات وفيك فطانة ... كفتني عن نطقي وربي بها أدرى
وأنت إلى ربي شفيع مشفع ... وسادتنا أهل الصفا والوفا طرا
هم القوم لا يشقى جليسهم بهم ... ولا يرى مر الدهر بؤساً ولا ضرا
وصل على نور الوجود محمد ... صلاة يكن لي في المعاد بها ذخرا
وآل وصحب ما سرت نسمة الصبا ... وأهدت إلينا من شذا عرفها عطرا

وفي أخرى:

ثم يمَّم نحو الحبيب المفدى عمر البار منتقى آل طٰه
كعبة القاصدين من حيث أمُّوا وغياث العباد مما دهاها
فهو ترياقنا المجرب حقاً وهو لا غرو للنفوس شفاها
يا حبيبي وسيدي وطبيبي أنت ذخري لحاجتي ورجاها

إلى آخر ما ذكره فيها، وله مديحة أخرى فيه يتذكر بها أيام التلاق، وصفاء تلك الأوقات التي رق مشربها له وراق، أولها:

عيدروس إنها هبت نسيم العلالي نسنست من قدا[١] تلك الربوع العوالي

والحاصل أنه لا ينشىء قصيدة فيها استغاثة بسلفه إلا ويجري ذكره فيها، مع استحبابه لأحسن الثناء في جنابه الأسنى، وقد قدمنا أنه أجمع أهل عصره على تأهله وخلافته لشيخه القطب عبد الله الحداد، وأنه من أجل الحاملين للواء طريقته، بل الوارثين لجده ﷺ في تجديد دينه وشريعته وإحياء معالم سنته.

وقد بلغنا عن الثقات المتجرين في التَّقَلّ[٢] أن بعض من سمع المقالة التي سبقت فيما أوردناه في ترجمة الحبيب الإمام محمد بن زين بن سميط باعلوي له المنقولة من (بهجة الفؤاد)، وهي قول سيدنا الشيخ عبد الله الحداد لسيدنا الشيخ عمر البار: أنت شيخ دوعن، ذاكر الحبيب عمر بها، مغتبطا له ببشارة شيخه له بتأهله للمشيخة لدعوة عباد الله إلى توحيد الله ومعرفته، وأسباب الفوز له ولهم في الدار الآخرة، فأتى الحبيب عمر بكلمة تدل على أنه فوق ذلك، وأن مشيخته غير منحصرة في دعوة من هنالك بل أنها عامة في الكون، وأنه ارتقاء إلى مقام المشيخة العامة كما نقلناه عن الأئمة العارفين في هذا الباب. ومن ذلك أيضاً ما سمعته عن الثقة الوالد عمر بن أبي بكر باسودان، وكان كثير التردد إلى الحرمين الشريفن حتى أنه لا يدعى إلا بالحاج، لقلة الواردين إليهما في ذلك الزمن من أهل وادي دوعن، قال: كنت بمكة في بعض السنين في وقت الحج، فاجتمعت ببعض

(١) أي جهة.

(٢) بلد من بلدان اندنوسيا.

السادة العارفين من المغاربة، فسألني عن بلدي فأخبرته بها، فقال السيد عمر البار: أين بلده؟ فقلت له: في بلدنا، فقال: تصلي خلفه الصلوات الخمس؟ فقلت: لا، فقال: أتعجز عن الصلاة خلفه وهو القطب ـ أو وهو الغوث، أو ما هذا معناه، وأعطاني له هدية خرق وعودة، قال: فسافرت إلى بلدي، ولما وصلت أتيت إلى سيدي الحبيب عمر بتلك الوديعة، وأظن أنه قال: إن الحبيب عمر سأل عن الرجل المغربي قبل أن يبلغه سلامه وما أرسله إليه من الهدية، والنقل في ذلك يطول.

ولنختم الباب بما وعدنا به من بيان ما اشتملت عليه مكاتبة السيد الجامع قطب الأحوال والمقامات، الحاوي لعلوم الباطن والظاهر، العارف الرباني الوارث الصمداني الشيخ الحبيب أحمد بن زين الحبشي باعلوي ـ نفع الله به ـ وبسلفه ـ التي لو لم تكن إلا هي في هذا الباب لأغنت عن الاسترسال في جميع النقل والإطناب، وهذا البيان الذي نورده لم يكن إلا من حيث ما يتعلق بظاهر معنى ألفاظ المكاتبة لا بباطنها لقصور العلم وفتور الفهم، وانطماس نور البصيرة عن كشف حقائق ألفاظهم، وأين الثريا من يد المتطاول!، وهم ـ رضي الله عنهم ـ لا يجازفون ولا يورُّون بل يقصدون الأشياء لمعناها الأصلي اللغوي أو الشرعي، أو المصطلحين عليه في علومهم ومعارفهم، لا سيِّما في مقام المدح والثناء المنتهي عنه بقيوده وشروطه، كما قال ﷺ: «احثوا التراب في أوجه المداحين»، وقال لمن مدح آخر بحضرته: «قطعت عنق أخيك»، وللآخر لمَّا زكاه وقال: إنه من أهل الجنة: «وما يدريك لعله يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه»، وحديث عثمان بن مظعون الصحابي لما قتل شهيداً مشهور في البخاري وغيره. وكان سيدنا الحبيب الشيخ عبد الله الحداد وأصحابه يحترزون في هذا المقام كثيراً، كما يعرف ذلك من كلامهم ومكاتباتهم.

وبلغنا عن سيدنا القطب عمر بن زين بن سميط أنه سمع مكاتبة قرئت عليه، من قرينه ونظيره وأخيه في المعارف والعلوم والأعمال سيدنا وشيخنا حامد بن عمر ابن حامد لبعض العلماء المتأهلين العارفين فمدحه، فقال سيدنا الحبيب عمر: يعرف السيد حامد هذا الرجل، وأيضا سمعت سيدي الحبيب علوي بن سيدنا الحبيب عمر البار ـ نفع الله بهما ـ قال: جلست يوماً مع الوالد وعنده تلميذه الشيخ

العارف بالله محمد بن عبد الله بالكسح باسندوه، فقال للوالد: فلان قد انتفع بكم ـ يريد شخصاً ممن أخذ عن سيدنا الحبيب عمر ولازمه ـ، فقال له الوالد: أعندك علم ـ أو معك علم ـ بأنه شم رائحة من روائح القوم أو ذاق شيئاً من مشاربهم، قال: فسكت الشيخ محمد. والنقل في ذلك يطول، والتفريق بين من يضره المدح ويغره وبين من لا يضره إذا كان صدقاً حقيقة، مذكور في الإحياء وغيره، وقد مدح ﷺ كثيراً من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بما فيهم، ومن يعرف أن المدح والثناء لا يضرهم، فمدح ﷺ أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه وأثنى عليه وبشره بالجنة، ومع ذلك يوجد في نكهته رائحة الكبد المشوي من خوف الله، وكذلك عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الذي كان يقول: ليتني كنت كبشا سمنوني أهلي وأكلوني، وكان يعرض نفسه ووجهه على حذيفة بن اليمان يقول له: هل ترى فيَّ شيئا من علامات المنافقين؟، وعثمان بن عفان الذي كان كثير الدمعة عند ذكر النار، وعلي بن أبي طالب الذي يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا، وكذا بقية العشرة وكثير من الصِّحابة، وأويس القرني من التابعين بل أفضلهم على الأصح الذي أخبر به عمر وعلي ـ رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة ـ، وأثنى عليه وعلى تشعثه ودماثة أخلاقه، وقال: إنه يشفع في مثل ربيعة ومضر، وكان حاله مع ذلك لا يرى إلا محزوناً كئيباً مشفقاً خائفاً، لا يضحك ولا يتبسم، ولا يعاتب من آذاه ولا يراجع من عذله، يأكل من المزابل مع الكلاب، إلى غير ذلك مما حاله فيه مشهور. فإذا تقرر ذلك فاعلم أن جميع ما ورد في هذا السيد الكريم، الغوث العظيم، ولا سيما في هذه المكاتبة، هو من قسيم النمط الذي ورد في مدح الفريق الثاني، الذين لا يضرهم المدح، بل ولا يحزنهم الذم، ويرون الأشياء كلها مضافة من بحر العلم والإرادة، كلها متصرفة فيها أقلام القدرة، وأن حقائق الأشياء راجعة إليها، وأن بشائر الأنبياء والأولياء وكشوفاتهم وأخبارهم مما يطلعهم الله عليه، مما يشمله علمه تعالىٰ وخصصته إرادته وأبرزته أو ستبرزه قدرته، فأول هذه المكاتبة المشار إليها التي أوردناها آنفاً برمتها، قال ـ رضي الله عنه ـ بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ: (إلى السيد) أي هذا الخطاب الجليل والملاطفة والمنادمة المشتملة على غاية التعظيم والتبجيل، وما فيه من الإشارات والبشارات،

متوجه إلى حضرة السيد، وهو كما عرفه الجرجاني في اصطلاح أهل الله وأرباب المعاني: الذي يملك تدبير السواد الأعظم، والسواد الأعظم هنا في مقام هذا السيد هم أهل الدائرة والدرك من الأولياء على ترتيب مقاماتهم ووصائفهم، وغير ذلك مما هو مذكور في محله ومعروف عند أهله، ففيه إشارة إلى الخلافة الكبرى التي هي مقام القطب، فقول الحبيب أحمد نفع الله به (إلى السيد) لا يفهم منه إلا ما ذكرناه في معناه، ويدل له ما ذكره الإمام الشيخ عبد الخالق المزجاجي في شرح القصيدة الناشرية الذي سبق النقل عنها، قال في البيت الأول:

أخرت نسبتي عن وصالك للأحد   وجعلت حدي من حديدك لي حد

قال رضي الله عنه: قال الشيخ قدس الله روحه ـ يعني الناظم في هذا البيت: (علم مخاطبات الأكفاء على بساط الشفا) جمع شفه أي المكالمة، وبيان ذلك أن الشخصين من الكمل إذا اتحدا في المعارف والمقامات والأحوال كانا متكافئين، يصل إلى أحدهما ما يصل إلى الآخر، فكل واحد يتكلم بما يجري على قلب صاحبه، وإن سكتا عرف كل واحد ما انطوى عليه الآخر، كما قيل: ونحن سكوت والهوى يتكلم، وإنما يسكتان إذا لم يكن بينهما معرفة في عالم الشهادة، وذلك لتصادم الأنوار والمقامات والأحوال وتقاومهما، ويسكتان لذلك ولا ينطقان بشيء، فإذا سئل أحدهما بعد ذلك عن الآخر قال: هو كذا وكذا وحكى ما هو الغالب عليه، وأما إذا كان بينهما معرفة وألفة فكل واحد يجري على لسانه ما ورد على قلبه لمكافئه، فيحصل من الانبساط في المكالمة ما لا يوصف. انتهىٰ المقصود من كلامه الفائق، الذي لم يقنع قائله إلا بالوقوف على الحقائق، ففيه إيماء إلى معنى ما ذكرناه في ابتداء مدح سيدنا الحبيب أحمد بن زين للحبيب عمر البار ـ قدس الله روحهما بالسيد، وأنه أراد بذلك ما ذكرنا، وأن ما ذكره الشيخ المزجاجي في هذه العبارة هو عين ما كانا عليه هذان الإمامان، وفيه أيضاً توطئة لما يكتبه على معنى هذه الرسالة. (الجليل) أي عظيم القدر باعتبار ما ناله في هذه السيادة المشار إليها من الفخر، ولذا قال: (الجامع) وهو من جمع مقامات أهل الله وأحوالهم وكشوفاتهم ومنازلاتهم، كما قال سيدنا الشيخ عبد الله في العينيَّة:

جمع الرياضة والكشوف ولم يزل يرقى إلى أن يستجيب إذا دعي

وذلك بعد أن فصَّل تلك المقامات في نحو أربعة أبيات صدَّرها بقوله:

من كل طود في العلوم وفي الحجا متبحـــر متفنـــن متـــوســـع

فالجامع هذا هو الإنسان الكامل، وهو المتصرف بالإذن الإلٰهي في جميع سائر العوالم بالهمة القوية، التي وضعها الله تعالىٰ لمن آتاه القطبيَّة والغوثيَّة، قال الشيخ المزجاجي ـ قدس الله روحه ـ في شرحه المذكور: ومن هنا يظهر لك سر قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وما خص عالم دون عالم، وسر قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣]، وتسخيره له فرع الإذن بالتصرف فيه، وحقيقة التصرف لله من مظهر اسمه الجامع، المسمى بالإنسان الكامل، والعبد من حيث هو معزول عن ذلك، وهنا أسرار عظيمة لولا أن الزمان لا يحتملها لأثبتناها، وفي هذه العبارة ما يكفي لأهل الإشارة. انتهى كلامه نفع الله به، (الحفيل) فعيل بمعنى فاعل أي الحافل وهو الممتلي، إذ الممدوح ممتلي السر بأنوار الجلال والجمال جامع لأنواع الكمال، أو الواضحة الظاهرة ولايته، أو البالغ أعلى مقامات اليقين، أو حسن القيام بالأمور، وكل ذلك صادق على هذا الإمام، ولعله أراد بالجامع والحفيل كليهما صفة القطب كما تقدم في الأول، وعناه بـه ـ أي القطب ـ سيدنـا الشيخ عبـد الله ـ نفع الله به ـ في قوله:

إن شئت تعلمه وتعرف وصفه بطريقة الإجمال فاسمع سائلي

هــو سيــد متــواضــع متخشــع ورع تقــي زاهــد فــي العــاجــل

الشــرع سيــرتــه الحقيقــة حــالــه ومــن العبــودة بــالمقــام الحــافــل

وقد جمع الله هذه الخصال، المعني بهذا المدح، من هذا الإنسان الكامل المكاشف بأسرار الحق وتجلياته بلا تلبيس ولا تشبيه، فجزمه بذلك من حقيقة العقل، الذي لا يزاحمه شك ولا هوى ولا شيطان ولا دنيئ، كما يشاهد هذه الأحوال في الحبيب عمر البار حتى العوام والصغار. وقد أنطق الله بعض السادة المنورين، بأن قال له: يا سيدي، إنا لا نرى فيك شيئاً من صفات البشرية، وإنما

نراك نوراً أو روحاً، وذلك لما رآه فيه من كمال الوراثة لجده المختار ﷺ وعلى آله الاطهار، إذ هو بشر لا كالبشر، فبذلك يصدق عليه ما قاله سيدنا الشيخ عبدالله:

يمتد من بحر البحور محيطها غـوث الأنـام بعـاجـل وبـآجـل

ويؤيده أيضاً ما مر في الباب الثالث في كلام الشيخ أحمد الموقري فيه، ثم عقَّب ذلك بقوله: (شجاع الدين) أي المستقيم الذي لا تزلزل قدمه عندما يرد عليه من تجليات القهر بتسليط الله عليه، لأنه جمع مع الإيمان العيان، بل يبقى راسخ القدم على طريقة النبيين والمرسلين، وإبراهيم الخليل لما ألقاه أهل الجحود، أصحاب النمرود في النار، تلقاه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: ادعُ الله أن يخلصك، فقال: علمه بحالي يغنيني عن سؤالي، ومحمد ﷺ لما تورمت قدماه من طول القيام، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر!، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»، وإبراهيم بن أدهم لما ضربه الجندي دعا له بالمغفرة، فالشجاعة هيئة حاصلة للقوة الغضبيَّة بين التهور والجبن، بها يقدم على أمور ينبغي أن يقدم عليها، فإضافة الشجاعة إلى الدين، أن شجاعته هذه الذي هي التزام الوسط في الأمور الاختيارية المقتضية فعلاً أو كفاً متعلقة بالدين، لا تتغير بتغير الأحوال لا في السراء ولا في الضراء، ولا القبض ولا البسط، بل يكون فيه الوارث على قدم راسخ، كما قال في (الهمزية) في وصف من جميع الأنبياء والأولياء مغترفون من بحره، وراشفون من ديمه الغرار:

لا تحل الباساء منه عرىٰ الصبـ ـــر ولا تستخفـــه الســـراء

ثم هذه الشجاعة في الدين يكون تفريعها، ومتعلقة بكل درجة من درجات الدين، وبكل مرتبة من مراتب اليقين، وإلا اختل النظام وحصل التردد فيما يعانيه ذلك الشخص بين الإقدام والإحجام، وأما صاحب هذا المقام فهو ـ كما قدمنا ـ ثابت الأقدام منصور على جميع الطغام، له الحظ الأوفر من قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كان خلقه القرآن»، قال قدس الله سره: (وبركة المسلمين) أي الحاصل لهم ببركته الخير الإلٰهي، قال الإمام المناوي نفع

الله به: ولما كان الخير الإلٰهي يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يوجد فيه زيادة غير محسوسة مبارك وفيه بركة، وإلى هذه الزيادة أشيرت بخبر: «ما نقص مال من صدقة » لا إلى النقص المحسوس كما زعم بعض الخاسرين، لمَّا قيل له ذلك فقال: بيني وبينك الميزان. انتهى كلامه، فمعنى كلام سيدنا الحبيب أحمد ـ قدس الله روحه ـ أن هذا الحبيب عمر البار ـ نفع الله به ـ يمد المسلمين بالبركة التي هي الخير الإلهي جميعهم، والمسلمين يعم جميع الموحدين من الأمة المحمديَّة وغيرها، ويدخل في ذلك حتى الأنبياء بمدد نحو الصلاة عليهم، والأولياء بتأييدهم في مقاماتهم وما يتعلق بمراتبهم ودوائرهم. وقد قال ﷺ لسيدنا عمر رضي الله عنه: «لا تنسني يا أخي من دعائك»، فهذا دليل الأدنى للأعلى ، وقد نقل الشيخ المزجاجي ـ قدس الله روحه ـ عن الشيخ إبراهيم مكاوش ـ رحمه الله ـ أنه رأى النبي ﷺ في المنام يقول له: فضل شيخك أحمد بن محمد القشاشي عم الخلائق وعما. انتهى، ولما كان سر البركة ومددها عام، ويكون بشعور وغير شعور من الممد، أضاف البركة لدائرة الإسلام، وعقبه بوصف أخص من البركة، وإضافة أهل دائرة هم أخص أيضاً من أهل الدائرة الأولى، فقال قدس الله روحه: «وعمدة المؤمنين» وهم الذين يجتهدون في معرفة العلم الذي يقوم به دينهم، ويقوي إيمانهم ويقينهم، وهم الذين عناهم الحق تعالىٰ بالتخصيص، وجعل في حقهم الإيمان غير مرادف للإسلام، بل فوقه وأخص منه فقال تعالىٰ: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، فإذا كان المؤمنون يسعون فيما ذكر ويحرصون عليه، فلا يصلح أن يكون لهم إمام، ويعتمدون عليه في علوم القرآن وسنة خير الأنام ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ إلا مثل هذا الإنسان الكامل الهمام، الأسد الضرغام، حتى لا تدخل عليهم في دينهم الوساوس والأوهام، ولهذا قال الشيخ الواصل لولده جعفر: لو صلى البار إلى المشرق صلِّ خلفه ـ كما مر ـ تحقيقاً لإمامته الثابتة، وعلمه بأنه من العلوم والمعارف في الباطن والظاهر على قدم راسخ وشهود باهر، ثم ارتقى بعد ذلك إلى وصف أخص يكون لأهل النهاية في مقام الإحسان، وأضافه إلى وصف أخص لأهل دائرة هم أعلى من أهل الدائرة التي قبلها، وهم أرباب البداية في هذا المقام ـ أعني مقام

الإحسان ـ فقال قدس الله روحه: (وشيخ المريدين) لأنه لما ارتقى في درجات الإسلام والإيمان والإحسان، وصار في أعلى درجاتها بل عبر منها إلى الدائرة الرابعة وهي مطالعة الحقائق، صلح وتأهل أن يكون شيخ المريدين، لكثرة معارفه وعلومه، وفراغه من تأديب نفسه، وتفرده على أبناء جنسه، وتمكنه ورسوخه، فلهذا أتبعه بما يستحق أن يصير الشيخ شيخاً لا سيِّما للمريدين الذين هم خواص المسلمين والمؤمنين، فقال قدس الله روحه ـ (المكين) قال الشريف الجرجاني وغيره: والتمكن والتمكين هو مقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل واتصل فقد حصل التمكين. انتهىٰ كلام الجرجاني، فافهم ما أودعه هذا الإمام في هذه الرسالة من الأسرار، مع كمال الاختيار من ترتيب المعاني الغزار، في شأن من اتصف بها، هو سيدنا الحبيب عمر البار نفع الله بهما، فصاحب هذا المقام الذي هو التمكين، فعيل بمعنى الفاعل وبمعنى المفعول، واصل متصل كما قاله الجرجاني، وكما ذكره سيدنا الإمام بحر العلوم والمعارف، سيدنا الحبيب عبد الرحمٰن بن عبد الله بلفقيه، في الكلام على الدائرة الرابعة التي أشرنا إليها أنها أيضاً وصف لشيخ المريدين: المكين. قال رضي الله عنه بعد أن ذكر أسباب الوصول إلى هذا المقام، والتحقق بحقيقته لمن نور الله بصيرته بالنور التام، قال في أثناء كلامه على من هذا مقامه: فرأى الحق حقاً وأسمعه، وعرف الصَّواب من الخطأ فاتَّبَعَه، فاتضحت بنور الحق طريقته، واعتدلت بميزان الشرع خليقته، وصفت بصفو اليقين حقيقته، فأشرقت له النورانية الشاملة، وظهرت به الإنسانية الكاملة، فسره مع الله تعالىٰ في قدس اللاهوت، وقلبه من الملأ الأعلى في أعلى الملكوت، وجسده في عبادة الله مع أهل الله في علم الناسوت، فهو يعبد الله بجميع عبادات المخلوقات، فهو في ذكره مع الكروبيين، وفي تسبيحه وفكره مع الملائكة المقربين، وفي علمه وشكره مع عباد الله الصالحين. انتهىٰ المقصود من كلامه، وهو كما ذكر حال الموصوف بالتمكين، الذي لا يشغله خلق عن حق ولا حق عن خلق، كما بلغنا عن هذا الحبيب عمر البار ـ نفع الله به ـ أنه رآه بعض أهل الذوق غارقاً في جلال الله مستهتراً بذكره،

ورأى ما يتمكن منه مع ذلك من دعوة الخلق ومداراتهم، وإيصالهم إلى ما فيه نجاتهم في الدار الآخرة، فتعجب من ذلك وأخبره بتعجبه، فقال له مجيباً عليه بما يعرفه له على سبيل الاستعارة المعروفة عنده بقوله: هذا كله في التلوين. وقد بينا معنى ذلك في الباب الأول، وإعادته هنا للمناسبة، ثم شرح الحبيب عبد الرحمٰن ابن عبد الله ـ قدس الله روحه ـ حال هذا الواصل وعلومه ومعارفه، إلى غير ذلك من أحواله ومقاماته في هذه الرسالة في الدائرة الرابعة، فانظر ذلك منها إن كنت تشتاق إلى أحوال أهل الله ومعرفة فضل الله، ثم ألحق سيدنا الحبيب أحمد ـ نفع الله به ـ وصف التمكين بوصف يكون من لازمه على وجه التضمين، فقال: (الأمين) فعيل بمعنى فاعل أو بمعنى المفعول، وهو من الأمن وهي طمأنينة النفس وزوال الخوف، ووجهه هنا إن جعلناه بمعنى الفاعل أي آمن، أن التمكين هو مقام الرسوخ والاستقرار كما قدمنا، فيكون صاحبه قد آمنه الله تعالىٰ من أن يسلبه الله ما أعطاه، فقد قال سيدنا الشيخ عبد الله الحداد نفع الله به: إن الخاطر الشيطاني لا وجود له عند الواصل، لأن اللعين لا يستطيع دنواً من قلب واصل إلى الله تعالى بإشراق أنوار معرفته، وربما أسلم شيطان الواصل إلى الله تعالى على سبيل الوراثة منه لنبيه ﷺ، إذ يقول ﷺ: «لي شيطان إلا أن الله سبحانه وتعالى أعانني عليه فأسلم، فلا يأمر إلا بالخير» انتهىٰ كلامه، وقد ذكر سيدنا الإمام الغزالي ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الأنس من (الإحياء) أن مقام الأنس من حصل له كان ابن وقته، مشاهداً لجمال الحق على الدوام، ولم يبقَ له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء، هذا معنى ما ذكره نفع الله به، وإلى هذا المقام الذي ذكره سيدنا الحبيب عبد الله أشار إلى تحقيقه في قصيدة: (يا آخذاً مني بأذيالي)، المشار فيها إلى جمعيته أنواع الأمن في قوله:

وقـد حمـى أطـراف مملكتـي بـالقهـر جـل القـاهـر الـوالـي

وإن جعلنا الأمين بمعنى المفعول فهو المأمون على الأسرار والأحكام شريعة وطريقة وحقيقة، فالسيد الحبيب أحمد ـ نفع الله به ـ لما كان في أعلى مقامات اليقين، وكانا في دائرة الود القديم متعارفين، أطلق الثناء عليه بما هو فيه وعليه من

المقامات الجليلة، ومنها مقامات التمكين والأمانة، لأنه لما حاز الوراثة للمقام المحمدي، اندرج تحته المقام اليوسفي، المشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٥٥-٥٦]، وهو التصرف في عالم الملك والملكوت بالتمكين الإلٰهي، والخلافة الربانية بإقامة الله إياه. قال الشيخ المزجاجي قدس الله روحه: من كان أميناً على خزائن الأسرار، مقيماً بإقامة الله إياه على مصادر الأنوار، كان علمه من عين اليقين وحقه، فلا يصدر عنه إلا ما كان صحيحاً، ومن كان كذلك لا يتحاشى عن التصريح بما هو الأمر عليه، لأمنه من تجريح الأمر والجبروت والعظموت، وغير ذلك ممن لهم الدوائر الإحاطية والمراسم الناموسيَّة الإلٰهية، وهذا كله من نتائج استخلاص الله إياه وتمكينه ومكانته. انتهىٰ كلامه قدس الله روحه، وفيه تأييد لما ذكرناه أولاً في معنى التمكين والأمانة، ثم أيده بما يشير إلى مقام الأنس بالمعنى الذي نقلناه عن الحجة الغزالي، في قول الناظم الناشري في منظومته في السيد محمد بن عبدالباري نفع الله بهم بقوله: (أعني المسافر لي بوادي أنسه)، قال الشارح: أي وحواضره من باب الاكتفاء، ومقام الأنس هو المقام العيسوي، مقام الإذن بالتصرف بما شاء وكيف شاء فيما جدَّ له، لأن العلم بحقائق الأمور يعطي الحكمة توضع كل شيء في موضعه، فلا يضع قدمه إلا في موضع نظره.. ثم ذكر بوادي الأنس أنه التصرف بالإذن الإلٰهي في جميع العوالم، كما قدمنا النقل عنه في وصفه له بالجامع، وذكر في شرح هذا البيت أسراراً عجيبة، وإلى هذا المقام الذي ذكره المزجاجي في معنى المكين الأمين، حققه القطب الرباني شيخ الشيوخ عبد القادر الجيلاني فيما نقله عنه الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي ـ رضي الله عنه ـ في أثناء كلام طويل له، ذكر فيه مراتب الأولياء وترقيهم في سلوكهم وثمرات مجاهداتهم، قال رضي الله عنه: ثم يردون بعد أداء الأوامر وفراغ تلك الأمثال ـ أو قال ذلك الامتثال ـ إلى مراتبهم التي ألزموها، فوقفوا معها وحفظوها بالقلوب والضمائر، وقد ينقلون إلى حال بعد أن جعلوا الأمناء، وخوطب كل واحد منهم على الانفراد في حالته: إنك اليوم لدينا مكين أمين، فلا يحتاجون فيها إلى إذن، لأنهم صاروا كالمفوض إليهم أمرهم، فهم في قبضته حيث ما ذهبوا في شيء من أمورهم،

فيمتلي قلب هذا العبد بحب ربه عز وجل ونوره وعلمه والمعرفة فلا يسع غير ذلك، ثم جعل لذلك بياناً شافياً وأطال فيه. فلينظر من كتاب (نشر المحاسن) للشيخ الكبير عبد الله بن أسعد اليافعي نفع الله به، ثم بين سيدي الحبيب أحمد صاحب هذه الحضرة الجامعة للمراتب، والخلافة الحاوية لعظيم المناقب، فقال قدس الله روحه: (عمر بن عبد الرحمٰن باعلوي البار) وهذه الأسماء كلها صادقة على معاني مسمياتها في هذا السيد الممدوح، والنقول على المدلول يطول، والقصد الإشارة إلى بيان ما تضمنته هذه الرسالة من الإشارات الجليلة، الناطقة بكمال القائل والمقول فيه، وما حازاه من علوم المعارف والأسرار، المستفاد فيضها من حضرة الرسالة على يد الأمناء الوارثين والوسائط المستخلفين. ثم قال قدس الله روحه: (سلمه الله) هذه وما بعدها جملة دعائية، خبرية لفظا إنشائية معنى، تشير إليه جملة العلة التي بعد حتى، الآتية بعد تمام الجملة الدعائية، ولما كان هذا الممدوح في مقام الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، وفي حضرة القرب والرضى والمعرفة المشار إليها أولاً، وهي حضرة اسمه تعالىٰ السلام، ناسب أن يدعو له بالسلامة من الآفات، أو أن يصفه به إن قلنا أن الجملة متمحضة للخبرية.

قال الشيخ المزجاجي ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر حضرة السَّلام بالمعنى السابق: لأن من أهله الله سبحانه وتعالىٰ لذلك سلم من آفات النفس والهوى والدنيا والشيطان، وباب السِّلام هو السلوك لأنه به الدخول إلى تلك الحضرة، حضرة التقريب والتعريف، والمحبة والولاية والصديقيَّة الكبرى، ثم ذكر في هذا المبحث علوماً وأسراراً لدنية إينائية إلهامية، لا يعرفها إلا من تحققها ذوقاً واستفادها حالاً، ثم قال قدس الله روحه: (وأعلى مرتقاه) أي إلى طور الأسرار، وسدرة منتهى الكشف المحجوبة بالأنوار، التي ينتهي إليها علم الخلائق إلا من شاء من المقربين الأبرار، القائل: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، وذلك في جميع الأطوار، وهي الخلافة والولاية والوراثة، لأن الخلافة مخصوصة بظاهر النبوة، والولاية والوراثة مضمرة في حقيقة النبوة على حد الكمال، كما أشار إلى ذلك بعض الأكابر، ثم قال قدس الله روحه: (وضاعف له مزيد ألطافه وعطاياه) لما دعا له بالسلامة الجامعة للتفصيل والإجمال، الحاصل للمتأهل الكائن في حضرة اسمه تعالىٰ

السَّلام المتعال، الجامعة للبشائر والإشارات والكرامات والمكاشفات، المثاليَّة والروحيَّة والمعنوية، ثم برفعة الارتقاء إلى ذروة الكمال، وهو أعلى مقامات الأولياء الذي هو الصديقيَّة الكبرى الذي ما بعدها مقام إلا مقام النبوة، وقد فهم من كلامه السابق، الفائض من نوره الشارق، أن تلك المرتبة حاصلة لهذا السيد الحبيب عمر البار قدس الله روحه، فيناسب أن يدعو له بما في هذه الجملة من مضاعفة الإتحاف بمزيد العطايا والألطاف، وذلك لملازمته لأسباب العروج، الموصلة إلى الولوج بالتبكير والولوج، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾، ثم قال قدس الله روحه: «وبلغه من كل مقام أعلاه، ومن كل حال أصفاه» أتى بهذه الجملة بعد ذكر الارتقاء ودوام العطاء، لأن الارتقاء ينقسم إلى قسمين وينحصر في أمرين، الأول من الأمور الحاصلة للأولياء الأحوال، والثاني المقامات، والحال هو ما يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب، من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيبة، ويظهر بصفات النفس سواء تعقبه المثل أم لا، فلذا وصفه بالصَّفا لأنه الخالص عن صفات النفس، والمقام هو ما رسخ وأقام وأريد للدوام، فلذا خصصه بأن يكون بالمحل الأعلى من كل مقام، وذلك بمقتضى ما تشير إليه عبارة من كلام الشيخ المزجاجي ـ قدس الله روحه ـ في وصف المقام، قال: فإذا انجلى عنه الحجب الظلمانيَّة والنورانيَّة، التي اكتسبها من الطبع البشري والنفس الأمارة، أفاض عليها الروح الشريفة ما عنده من العلوم، على القدر الذي يريد الله إبرازه إليه، حسب ما هو في قسمته وحصته عنده، فلا يكون له حينئذ تردد أبداً. انتهى المقصود من كلامه، ثم جعل علة ما دعا له بحصوله، ودوام الارتقاء إلى حضرة وصوله، هو مقصود أعظم، ومراد لذوي الهمم العلية أفخم، قال: (حتى تندرج النبوة بين جنبيه) أي ليكون مستحقا للدخول في الحضرة العظمى، مستحقا للخلافة والولاية والوراثة، المشار إلى هذه الثلاثة في كلام بعض الأكابر السَّابق، قال رضي الله عنه: (بحفظ القرآن) وذلك لقول ذلك الإمام: إن تفسير ظهر القرآن يتعلق بالخلافة، وتفسير بطنه يتعلق بالولاية، وتفسير حده يتعلق بالوراثة، وتفسير مطلعه يتعلق بالمحبوبية، التي أشار الحبيب المطلق خاتم الأنبياء وسيد المرسلين إليها في أخباره عن ربه أنه تعالىٰ قال: «لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه..» الحديث المشهور. انتهىٰ، فلهذا المعنى

تندرج النبوة بين جنبي هذا الولي الخليفة الوارث، قال رضي الله عنه: «ومعرفة أم الكتاب» قال هذا الشيخ لأن أم الكتاب جبروتي، وهو أصل الكتب. انتهى، فمن عرف أم الكتاب كان حاكماً على جميع الأولياء كما سيأتي، لاندراج النبوة بين كتفيه، لأن الولي كما قال سيدنا وشيخنا الحامد بن عمر حامد ـ قدس الله روحه ـ نبي[1]، وذلك في سياق كلام في الكرامات وخوارق العادات، قال قدس الله روحه لمَّا قرىء عليه في كتاب (العوارف) للسهروردي، أن رجلا كان يطوي الأربعين اليوم إلى أن صار باقي عمره يأكل في الشهر لوزة، فتعجب الحاضرون فقال لما رأى تعجبهم: إن المعونة من الله تعالى على قدر الصِّدق من العبد في أفعاله وأقواله، فبقدر الصدق تحصل المعونة، ولا تستغرب ما يحصل لأهل الجد والاجتهاد، من أنواع الكرامات والخوارق للعادات، ولكن الشأن الأكبر والحظ الأوفر في الاستقامة، فمن كملت استقامته صار بمظهر النبوة.

وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني»، وهذا العبد بإتباعه صار وارثاً لمظهر النبوة ، فالولي في الحقيقة نبي، ولكن من له التأصيل بنفسه ليس كمن يدلي بواسطة، فالنبي موصل والولي وارث بواسطة الاتباع. انتهى كلامه نفع الله به، فلقوله: فالنبي موصل.. إلى آخره مع ما قبله، قال سيدنا الشيخ الحبيب أحمد قدس الله روحه: (إلا أنه لا يوحي إليه بالتشريع) لأن تشريع الأحكام الناسخة لما قبلها لمَّا أسند بابه بجعله ﷺ خاتم، وشريعته ناسخة لجميع الشرائع، وبموته ﷺ انقطع الوحي، فلم يبق إلا الدعاء إليها والاستقامة عليها، لقوله ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، وفي حديث آخر شبه أناساً منهم بحواري عيسى عليه الصلاة والسلام، فالوحي للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والإلهام للأولياء، ولذا قال سيدنا الحبيب أحمد قدس الله روحه: (بل بإلهام الوراثة المنيع) أي الممتنع ذوقه وشربه والوقوف على حقيقته على غير أهله، وسيأتي الفرق بين الوحي والإلهام، وأما أهله الوارثون (لسر النبي الشفيع)، المستخلفون عن حضرة الرسالة، فيلهمون معرفة سر القرآن الكريم، الذي هو ـ كما قال الشيخ السابق عنه النقل ـ مظهر القرآن العظيم المخزون في أم

---

(١) أي نبي المظهر من حيث التخلق بأخلاق النبوة لا الحقيقة وهو إشارة لقوله عليه الصلاة والسلام: «فقد ادرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحىٰ إليه» قاله لمن حفظ القرآن فافهم ذلك.

الكتاب، المشار إليه بكلام سيدنا الحبيب أحمد السَّابق، الذي هو اندراج النبوة بحفظ القرآن ومعرفة أم الكتاب، مع التمسك وعض النواجذ على مراعاة حقوق الربوبيَّة عزاً وعظمةً وقهراً وجلالاً وجمالاً، وملازمة أوصاف العبوديَّة، ذلاً وخضوعاً وافتقاراً وانكساراً، فبذلك كله يستحق الوقوف في حضرة الذات، التي لها القرآن صفة أزلية قائمة بها، لجمعيته للفرقان والبرهان والعرفان، وشرح الذات والأفعال والصفات، فبحفظه هذا الخاص والعام، تندرج النبوة بين جنبيه بما يقتضيه ذلك المقام، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»، وبه يسري في روعه سر ما يتسع له قوته من الإلهام، وهذا هو علم القلب الذي لا يدون في الكتب، قال في (حل الرموز): وعلم القلب الذي لم يسطر في الطروس ولم يحفظ بالدروس، وإنما هو تلقين من الله تعالى بغير واسطة ملك ولا سفارة رسول. انتهىٰ المقصود من كلامه، وإلى ما عناه الإشارة بقول الشيخ الجليل القطب عبد الرحمٰن بن . .[1] باهرمز، للشيخ الفقيه العارف بالله تعالىٰ عمر بن عبد الله بامخرمة قدس الله روحهما: أجزتك فيما لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل. ومعنى شرح الذات والأفعال والصفات: هو التنزيه المطلق وشهود الكمال عن الشكل والضد والنظير والمثال، وهو المراد من الحديث السَّابق «ما وسعني أرضي ولا سمائي. .» إلى آخره، وهذه المعرفة التي هي في كلام الحبيب أحمد في سيدنا الحبيب عمر ـ قدس الله روحهما ـ، لسر النبي ﷺ الذي جمع علوم الأولين والآخرين، وسر روحانية النبيين والمرسلين، هي معرفة بالمعنى السَّابق بذوق وتحقيق وشهود، لمن نور الله بصيرته وفتح عين قلبه، لا معرفة تقليد في التوحيد، أو ببرهان خلق الجواهر المرئية والأعيان، فإن ذلك تتصور من كل إنسان، وهذه لا تكون إلا للخواص أهل العرفان، وأهل اليقين في الإيمان، وهي لا تثمر كشفاً عن كنه الذات العلية، بل إنما تثمر تنزيهاً لها وتعظيماً وإجلالاً، قال في (حل الرموز) المذكور: فاعلم أن من عرف نفسه عرف ما يراد منه، فشغل نفسه واستعملها فيما خلقت له، فأوقفها في موقف العبودية للقيام

(١) كذا بياض بالأصل.

بحقوق الربوبيَّة، ومتى اشتغلت بمعارضة الربوبيَّة فاتتها العبودية ولم تدرك الربوبية، أي معرفة صفات الربوبية بالكمال والتنزيه اللائق بذلك الجلال والجمال، وأما كُنْهُ الذات فلا يدرك بحال، كما أشار إلى ذلك في أبيات قبل هذه العبارة وهي:

قل لمن يفهم عني ما أقول	قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه	قصرت والله سادات فحول
أنت لا تعرف إياك ولا	تدري أنت لا ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صغاراً ركبت	فيك حارت في خفاياها العقول
أين منك الروح في جوهرها	هل تراها إذ ترى فيك تجول
هذه الأنفاس هل تحصرها	لا ولا تدري متى منك تزول
أين منك العقل والفهم إذا	غلب النوم فقل لي يا جهول
أنت أكل الخبز لا تعرفه	كيف يجري منك أم كيف تبول
فإذا كان طواياك التي	بين جنبيك كذا فيها طبول
كيف تدري من على العرش استوى	لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف تجلى أم ترى كيف يرى	فلعمري ليس هذا إلا فضول
هو لا أين ولا كيف له	هو رب الكيف والكيف يحول
هو فوق الفوق لا فوق له	وهو في كل النواحي لا يزول
جلَّ ذاتاً وصفاتاً وسما	فتعالى قدره عما أقول

فإذا عرفت ذلك وفهمته، فاعلم أن سر النبي الشفيع ﷺ هو القيام باتباع الشريعة وامتثال أمرها، ومعرفة دقائق الطريقة ورقائقها واقتباس نورها، والوقوف على الحقيقة مع حفظ سرها، ولذلك نتائج يطول تتبع ذكرها. فقد قال الشيخ المزجاجي قدس الله روحه: توجه المريدين إلى المرشدين الصادقين يرفع عنهم الحجب الظلمانية والنورانية بإذن الله تعالىٰ، وينكشف لهم بذلك عن أمور عظيمة، لا تدخل تحت الحصر ولا يحيط بها الفكر، ومنها معرفة عالم المثال المطلق، وعالم المثال المقيد، وعالم العرش والكرسي، وعالم القلم الأعلى واللوح،

وعالم الأسماء والصفات، وعالم الحروف والكلمات، وعالم العظمة وحملة العرش والكروبيين، إلى غير ذلك من المكاشفات كأحوال البرزخ والمحشر، وأحوال يوم القيامة والصراط والميزان، والجنة والنار ونحوها. انتهى من هذا الموضع، وقال في موضع آخر بعد أن ذكر ثمرات المجاهدات والمعاملات الصَّادقة، قال: لأن القلب إذا تنور بالأذكار سرى نوره في جميع أقطار البدن، وصار البدن كله كالبيت الذي وضع فيه سراج بالليل، وذلك عند حصول الذي هو سلطان الأذكار، وإذا اتصل نور القلب بنور البصر، شاهد ببصره ما شاهده بقلبه من الأمور الغيبية، ما لا يفيء التخيير بشيء منه لاتساع مشهده، ومن أجل ذلك مشاهدة اللوح المحفوظ وما فيه من الحروف والكلمات النورانية التي لا يحيط بها حد، وسدرة المنتهى وصرير الأقلام فيها، إلى غير ذلك من جانب الملكوت والعظموت. وقال بعد عبارة مختصرة متصلة بهذا النقل: وذلك لأن عالم الجمال هو عالم الكون، وعالم الجلال هو عالم الأسماء التي ظهر عنها الكون، والإنسان لجمعيته حقيقته للحقائق الإلهية والحقائق الكونية، فأول ما يكون سلوكه في قطع الحقائق الكونيّة، وهي الحجب الظلمانية والنورانية، المشار إليها في الحديث الذي يرويه العارفون عن النبي ﷺ، أن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة في قطع الحقائق الإلهية التي هي الأسماء والصفات، فإذا أخرجه تعالى إلى البقاء والتحلي بأسمائه وصفاته، أري وجود فنائه صحة ما وجده في نهار سفره في قطع تلك المنازل والفيافي والمراحل. انتهىٰ، وقال في موضع آخر في مبحث التوالد في ذكر أوطان الإنسان، التي أولها حضرة الأعيان، وثانيها حضرة الإمكان وحضرة العمى والقلم الأعلى، وغير ذلك من العوالم، إلى الأب والأم اللذين نشأ عنهما الولد الذي هو خاتم الأولاد، قال قدس الله روحه: فالآباء والأجداد أوطان، والآباء العلويَّة والأمهات السفليَّة أوطان. . ثم قال في آخر البحث: فإذا عرفت هذا فالولد ينزل في هذه الأوطان شيئاً فشيئاً، إلى أن يصل إلى الوطن الأسفل الذي يكون منه بروزه، فإذا رزقه السلوك جعله الله تعالىٰ سائراً في أوطانه مصعداً شيئا فشيئاً، إلى أن يصل إلى الوطن الأول الأزلي، ويرى نفسه عيناً ثابتة لا وجود له أصلاً، وإنما الوجود وجود الله سبحانه وتعالىٰ، وإليه يرجع الأمر كله، ألا إلى الله

تصير الأمور، فيقرب له الحق سبحانه وتعالىٰ ثم يخرجه إلى مقام البقاء، فيرى نفسه كائناً بائناً حقا، خلعا إلى ما لا تسعه العقول، فيتصف بالأضداد مع بقاء ضديتها، وهذا مقام عظيم. انتهى المقصود من كلامه، وذكر بعده كلاماً عجيباً غريباً في كيفية تدريج المريد، وتنقله في أطوار الإرادة والسلوك، وما يحصل له من الحالات والمقامات، والتجليات والمكاشفات المتعلقة بحقيقته وحقيقة غيره، بل حقيقة غيره منطوية فيه، كما قال في (حل الرموز ومفاتيح الكنوز) للشيخ عبدالسلام بن أحمد المقدسي قدس الله روحه: اعلم أن الكون نسخة منك لا أنك نسخة من الكون، لأن فيك ما في الكون، وتزيد على ما في الكون بما خصك به من معارفه وحكمه وأسراره، وأنواره وتجلياته ومنازلاته، كما أن الفيل وإن كبر نسخة من البعوضة وإن صغرت، لأن فيها ما في الفيل من جميع أجزاء جوارحه وتزيد عليه بأجنحتها، وقد شرحت لك ذلك في هذه الأبيات، فقلت فافهم:

إذا كنت تقرأ علم الحروف   فشخصك لوح به أسطر
وتمثال ذلك أنموذج   لكل الوجود لمن يبصر
حروف معانيك لا تقترى   لذي الجهل كلا ولا تظهر
ومن يك غراً بأسرارها   فمعروفها عنده منكر
لئن كان جزؤك جزءاً صغيراً   وفيك انطوى العالم الأكبر
فلا ذرة منك إلا غدت   بها يوزن الكون بل أكثر
ولا قطرة منك إلا وفي   ينابيع أسرارها أبحر
فكل الوجود إذا قسته   إليك فذاك هو الأصغر
وما فيك من غرض حاضر   يزول وأنت به جوهر
فأنت الوجود وكل الوجود   وما فيك يوجد لا يحصر
وفيك أشعة لاهوته   من البدر في نوره أنور
وشمس المعارف إشراقها   من الشمس في ضوءها أظهر
لقد ظهرت في سماء القلوب   خفايا الغيوب لمن يبصر
سما على قطب توحيده   يدور اشتياقاً لا تقصر

لهــا مــن أشعــة عــرفــانــه نجــوم بــإخــلاصهــا تــزهــر
فمشــرقهــا أفــق ســودائهــا ومغــربهــا ســره المضمــر
وعــرش الصَّفــا بهــا مــركــز إليــه انتهــى كــل مــا يسطــر
هنــاك المليــك تجلــى لهــا وأوحــى لهــا كــل مــا يــأمــر
فقــامــت بتحقيــق مــأمــوره علــى أنهــا أبــداً تحــذر
وتــرتــاح مــربــع أحبــابهــا ولا عجــب حيــث لا تبصــر
رعــود الجفــا إذا زمجــرت فبــرق الــرحــى لهــا مسفــر
فــروض ريــاضتهــا مــزهــر وحــب محبتهــا مثمــر
وإن أعــور الغيــث حصبــاتهــا فمــاء الحيــاء بهــا يقطــر
تمــر بهــا نسمــات القبــول فيبــدو شــذا المسك بــل أعطر
ويسري إلــى السر من عــرفهــا لطــائــف تطــوى ولا تنشــر
فيسكــرنــا شــق أنفــاسهــا ومــن كــان مــزكــومــاً لا يسكــر
يطــاف بكــاســات راحــاتهــا وفــي حــانهــا حُلِّــلَ المسكــر
ويتلــى بســاحــات راحــاتهــا مثــانــي بــالــذكــر لا تفتــر
فمــن صــم عــن سمــع ألحــانهــا فــذاك الشقــي هــو الأخســر
ومــن ضــل عــن بــابهــا معــرضــاً فــذاك الغــوي هــو الأحقــر

انتهت هذه الأبيات الجامعة لحقائق رقائق دقائق حقيقة الإنسان، الذي إذا عرف نفسه عرف ربه وحقيقة ما خلق له ولأجله، مما ذكره يطول والنقل فيه لا يشفي غليل أهل القصور النائيين عن أسباب الوصول، المشغولين بخدمة النفس والدنيا والهوى والشيطان الضلول، المبتلين بالكبر والعجب والرياء والحسد والغل والغلول، وإنما هذا النقل فيه إشارة، لسر ما قاله هذا السيد الواصل لهذا العارف بخطابه، لما بينهما من تساوي الحال والتماثل، بالمعنى الذي قدمناه من كلام المزجاجي في مخاطبات الأكفاء، وذلك في معنى قوله (حتى تندرج النبوة بين جنبيه. .) إلى قوله: بل بإلهام الوراثة المنيع لسر النبي الشفيع)، ليشتاق من هذا النقل مريد معرفة خطابهما بالذوق، ويندرج في شرح ما قدمناه قوله قدس الله

روحه: (والاتباع له) الضمير راجع إلى علم الأعلام وإمام كل إمام، النبي الشفيع للأنام ـ عليه الصلاة والسلام ـ (في وسط) أي في زمرة أهل السَّواد الأعظم، الثابتين على التزام الأحوط من سنته وشريعته، الذين لم يفرطوا فيخلطوا الطريق، ولم يفرطوا فينقطعوا في مهامه التثبيط والتخبيط، بل ساروا كما قال على (المهيع) أي الطريق المستقيم، (الوسيع) أي الواسع الذي لا يخاف السَّائر عليه من زلل الأقدام، والوقوع في دركات المحارم والآثام، قال رضي الله عنه: «اللهم في عافية» أي دوام هذه النعم العظيمة والمنن الجسيمة، والخيرات الباطنة والظاهرة الجامعة لسعادات الدنيا والآخرة، (السلام عليكم) أي أهل هذه الحضرة وأرباب تلك الدائرة، من أسود وأحمر التحق بأهلها، من حقيقة «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»، و«سلمان منا أهل البيت»، الأول السَّالك بالأعمال والثاني المجذوب لمحبة الآل، وهما متلازمان وعليهما يدور الشأن، (ورحمة الله وبركاته) عليكم أهل البيت، المخصوصين من الحميد المجيد بالتطهير والتمجيد، (وعلى) القائم بالخلافة الثابت بالوراثة المحبو بالولاية ، وهو صاحب (الحضرة العمريَّة) وهي الموصوفة بتلك الأوصاف التي سبق ذكرها بالإشارة والصريح، وحقيقتها ما ذكره الشيخ المزجاجي قدس الله روحه، وهي حضرة القيام على الأرحام، مع الأرق على الدوام، هذا رمز الشيخ الناشري إليها. قال المزجاجي: وبيان ذلك أن من أعطاه تعالىٰ هذه الخلعة الشريفة ـ أي المشار إليها في كلام له قبل هذه العبارة، وبأنها خلعة الولاية والوراثة والخلافة السرية ـ كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم وراثة نبويَّة، وهي أبوة حقانية سرية، سار نورها في العالم فثبت بنوة جميع العالم له، ويدخل في ذلك بنو آدم دخولاً أولياء خصوصاً المؤمنين منهم، إذ هم المقصودون من الخطابات الإلٰهية، وإذا ثبتت بنوتهم له ثبت كونهم أرحاماً، ثبت أرقه ويقظته لما هم عليه على الدوام، لأن الوالد دائماً يرقب أحوال أولاده ويلاحظهم، ولا يفتر عنهم إلا لعوارض وفرائض ونوافل، وقد تحصل منه الملاحظة لهم وهو في أفضل العبادة، كما قال سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأجهز جيشي وأنا في الصَّلاة، فهذه هي اليقظة الدائمة في المدة الكائنة. انتهىٰ،

فاتضح به أن المسلم عليه هنا صاحب الحضرة العمرية، أنه صاحب هذا المقام المذكور، وهو سيدنا الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار، ثم قال المزجاجي المذكور قدس الله سره: ولقد رأينا السيد متع الله بحياته ـ يعني السيد محمد بن عبد الباري المعني في كلام الناظم الناشري للقصيدة المشروحة من المزجاجي ـ وهو كأن العالم على عنقه، يدعو للمؤمنين والمؤمنات، ويقرأ الفواتح للسلاطين والأمراء، والقضاة والعلماء والأولياء والصَّالحين، بهمة عليَّة أهدليِّة صديقيَّة نبوية، قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، ما خصَّ مؤمناً دون مؤمن، وناهيك بعاجل بشرى الله للمؤمنين والمؤمنات، وأجلها بقوله ﷺ: «خبيت دعوتي لأمتي». انتهىٰ، وهذا المقام لا شك فيه ولا ريب لمن تحققه من حال سيدنا الحبيب عمر البار، مما شاهده منه أو بلغه عنه، أو وقف عليه من كلامه نظماً ونثراً، ثم إن ما تفضل الله به على هذا السيد الأهدل، هو بالوراثة له من آبائه الكرام، ومنهم سيدنا الحبيب عمر البار، لما قدمنا له مع الحبيب عمر في مدينة زبيد، وتلاقيه معه ليحصل له التأثير، إذ قدم عاتقه لسيدنا الحبيب عمر ليطأ عليه ويركب، فلا بدع أن يسري إليه ما ناله من هذا المقام الكريم، ويكون واسطة له فيه، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، «المشرقة» أي المضيء نور هذه الثلاث: الخلافة والوراثة والولاية، على أهل دوائر التوحيد الثلاث: الإيمان والإسلام والإحسان، (بعمر القمر) أي صاحب هذا المقام الأفخر، وهو سيدنا عمر البار الأبر، ووصفه بالقمر إشارة أنه جمالي الحال، لأنه وارث المنزل فيه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وصاحب الحضرة العمرية له من هذه الوراثة مرتبة عليَّة، ولأن القمر فلك طبيعي في الفلك الأسفل، شأنه قبول النور من الشمس على أشكال مختلفة، والقطب كذلك يتنزل أو يتنقل في جميع الحضرات، الساري نورها من حضرة الأسماء والصفات، وهي الحضرة المحمدية ترقياً وتدلياً وتعلقاً وتخلقاً، فهو القمر القابل لأنوار الحضرات بالأشكال المختلفات، فهو واسطة لتنزل الأسرار والأنوار والتجليات، الفائضة من سره وقلبه إلى أرواح الأولياء وقلوبهم، على اختلاف قوابلهم ومراتبهم، ثم رأيت ما يؤيد ما ذكرته في كلام سيدنا الإمام، مركز الأسرار ومعدن العلوم والأنوار، السيد عبد الرحمٰن بن

عبد الله بلفقيه باعلوي، قال في شرح قصيدته المسمى: (رفع الأستار عن مفتاح الأسرار)، قال على قوله في سياقه في وصف العارفين:

ويعود منعكساً به نور الهدى بين الورى للحق منه مجالي

فتراه خلقاً وهو حق جامع لمجامع الإفضال والإنزال

أي إن هذا العبد إذا صار فانياً في الله وعاد باقياً بالله، لا يحجبه الخلق عن الحق ولا يدهشه الحق على الخلق، صار كالقمر المنير تتلقى أنوار الشمس وتنعكس على العالم، فتشرق به أنوار الحق في الخلق، فله فيهم منهم مجالي، على أشرف التقديس والتنزيه في أشرف المعالي، فتراه أنشأه خلقاً بشراً سوياً، وهو حق قد غمره نور الحق، وصارت بشريته مطويَّة في نورانيته خصوصيته، كما انغمر البدر بنور الشمس عن ظلمانيته، فهو عبد الله الجامع لجميع مظاهر الأسماء والصفات، يعبد الله بجميع الأطوار في جميع الهيئات، مظهر المجامع الجمعيات في العقليات والسمعيات، تتواتر إليه الافضال بجميع المطالب والهبات، وتتوالى عليه الانزال بكل خير في جميع التنزلات. انتهى كلامه، فانظر إلى هذا المقام الذي تحقق به هذا الإمام ومن في درجته من الأعلام، ولذا طلب سيدنا الحبيب أحمد ـ قدس الله روحه ـ مشاركتهم في هذه الإمدادات والمزايا والمواهب والعطايا، فقال: (أشركنا اللهم معهم وجعل لنا فيها) أي في تلك الحضرة المنيرة بشموس عوالمها الكثيرة، (نصيباً) قدراً (رغيباً) أي عطاء كثيراً، (وكن لنا، من كل شر) أي سوء وفساد (جاراً منهم) أي مجيراً من الجن والإنس وإن لم يسبق لهم ذكر، لأن الملائكة معصومون والشر لا يكون إلا من قبل الجن والإنس وبواسطتهم، ويحتمل أن يكون المراد بهم أهل الدوائر من الأولياء بالتصرف بالسلب الحاصل من أحوالهم بالإذن الإلٰهي، وقد استعاذ ﷺ برضاه تعالىٰ من سخطه وبمعافاته من عقوبته، وقال: «وأعوذ بك منك» وقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، (أجمعين) تأكيداً لهذا التحصين، ليدخل فيها حتى نفسه، (أن يطغوا) يتعدى أحد منهم (علينا) بسوء، و(ستر العرش) الذي هو أعظم المخلوقات، وهو الجسم المحيط بجميع الأجسام، الذي هو تاسع العوالم العلويَّة من جهة النزول، وما فوقه

من العوالم الثمانية محيطة به، وما بعده هو محيط به، فهو حجاب من حجب الله، وستر من أستاره التي لا تحصى، (مسبول علينا) أي مرخي علينا من جميع جهاتنا، وحائلا بيننا وبين المكروهات والمحذورات، وبرزخاً من الأذيات والبليَّات. قال الشيخ الإمام محمد بن عمر بحرق ـ رحمه الله ـ في (مواهب القدوس في مناقب الشيخ العيدروس العدني) في شرح القصيدة: (ببسم الله مولانا ابتدينا)، عند قول الشيخ فيها: (وستر العرش مسبول علينا): (وستر الله) أي حجابه، وهو هنا بكسر السين، (مسبول علينا) مرخى، من قولهم أسبل الستر وهو الثوب ونحوه الذي يستر به إذا أرخاه، وهو أيضاً الستارة، وقياس اسم المفعول منه أن يقال أسبله فهو مسبل بفتح الباء لا مسبول، لكن الشيخ تبع الشاذلي في التعبير بمسبول، ولو قيل مسدول علينا لصح لفظاً ومعنىً، (وعين الله) باللطف والحفظ (ناظرة إلينا) أي حارسة لنا، والمراد عين رعاية الله تعالىٰ حافظة لنا (بحول الله) بحول الله أي بقوته (لا يقدر علينا) أي لا يقدر أحد علينا أن ينالنا بسوء، والله من وراء الأعداء محيط لا يفوتونه، لأن المحاط به بالعلم والقدرة لا يفوت المحيط، (بل هو) أي الذي يتوهم الأعداء الوصول إليه (قرآن مجيد) عظيم شريف وحيد في النظم والمعنى، (في لوحينا) ثناه إما باعتبار المخاطب والمخاطب، والنسبة إليهما في ذلك حصلت من هذا الإمام العارف وهو في حال فناء، لأن نسبة الإنسان إلى نفسه نسبة عدميَّة، فأضاف نسبة ذلك إلى النسبة الوجودية الباقية الأبدية فتكلم على لسان الحق، وإما أن تكون الإضافة إلى الشخصين المخاطب والمخاطب، وإضافة اللوحين إليهما بالنسبة إلى ما يتعلق من أمر الحق بهما خلقاً ونشأة وروحاً ونفساً، وهداية ورعاية وشرعاً وحقيقة ودنيا وأخرى، وغير ذلك مما قسم لهما وما قدر من الأمور الحسيات والمعنويَّات، ويدل لهذا المعنى قوله رضي الله عنه: (وذوينا) أي أهل دائرتنا ولادة حسية ومعنوية، وعقيدة وطريقة ومحبة، بل وكل المؤمنين لما قدمناه في الكلام على الحضرة العمرية، (إن شاء الله) الذي من إحسانه وكرمه لا يسلب عبداً ما أعطاه، محفوظ من التغيير والتحريف والمراد نكون محفوظين في الكون والدارين من سطوة كل ذي سطوة كالقرآن المكنون، في اللوح المحفوظ لأن ما سبق لنا في القدر مكتوب فيه وهو لا يتبدل ولا يتغير، فيكون حالنا من الرعاية

والحفظ وغير ذلك من أنواع الإحسان وأحوال الفضل والامتنان كالثابت في اللوح المحفوظ لا يتغير. وقد ذكر الإمام المناوي ـ رحمه الله ـ أن اللوح يطلق على معان كثيرة فقال: اللوح هو الكتاب المبين، والنفس الأبيَّة، ولوح العقل الأول، ولوح القدر.. وفصَّل في ذلك تفصيلاً من حيث ما يتعلق بذلك من المعاني، على ما سبق من معنى حديث من حفظ القرآن أي استظهره فقد أدرجت أي طويت النبوة التي هي بعد الرسالة أعظم مقامات البشر، وفضلها بعضهم على الرسالة ـ بين جنبيه ـ لاشتمالها على القلب الذي هو اللطيفة الربانيَّة..» الحديث، تمامه: إلا أنه لا يوحى إليه، أي بالتشريع ـ كما سبق في كلامه ـ بل بالإلهام، والفرق بين الوحي والإلهام ما نقله القطب اليافعي عن القطب الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ قدس الله روحهما ـ في معرض حكاية لبعض الأولياء، فإن قيل ما هذا الخطاب المذكور، هل ينسب إلى الله تعالىٰ؟، وهل يسمى كلاماً أم حديثا؟ وما الفرق بين ما يسمعه الأنبياء وبين ما يسمعه الأولياء؟، وما يترتب من الحكم على من جحد واحداً منهما؟، فالجواب ما قاله الشيخ عبد القادر ـ رضي الله عنه ـ في الفرق بين النبوة والولاية: أن النبوة كلام ينفصل من الله عز وجل وحياً معه روح من الله تعالىٰ، فينقضي الوحي ويختمه بالروح فيه فينزله، فهذا الذي يلزم تصديقه ومن رده فإنه كافر. وأما الولاية فهي لمن ولي الله حديثه على طريق الإلهام، وينفصل ذلك الحديث من الله عز وجل على لسان الحق، معه السكينة التي في قلب المحدث فيقبله فيسكن، فالكلام للأنبياء والحديث للأولياء، فمن رد الكلام كفر لأنه رد على الله عز وجل كلامه ووحيه وروحه، ومن رد الحديث لم يكفر بل يخيب ويصير وبالاً عليه وينهب قلبه، لأنه رد على الحق ما جاءت به محبة الله تعالىٰ من علم الله تعالىٰ في نفسه، فأودعه الحق وجعله مؤدياً إلى القلب، لأن الحديث ما ظهر من علمه الذي برز في وقت المشيئة، فيصير حديثاً في النفس في السر، إنما يرتفع ذلك الحديث محبة من الله لهذا العبد، فيمضي مع الحق إلى قلبه فيقبله القلب بالسكينة. انتهىٰ من (نشر المحاسن)، قال رضي الله عنه: وقد عبَّر بعض الصّوفية أهل المشارب والأذواق الذين أخذوا العلم من معدنه ولم يكن علمهم عن تقليد بالقرآن ـ أي الكلام القديم ـ عن الذات وهي ذات الحق

المقدسة، لأنه صفة قديمة منزهة قائمة بالذات الكريمة، وبالكتاب ـ أي المكتوب في اللوح المحفوظ ـ العلم وهو علم الله تعالىٰ، وهو صفة قديمة قائمة بالذات المقدسة تتعلق بكل معلوم واجب وجائز ومستحيل، المقدسين أي: الذات الواجبة الوجود المخالفة لجميع الذوات في الأفعال والصفات، والعلم المتعلق بجميع المعلومات المخالف لعلمنا الذي هو صفة من صفات الذات، فهما مقدسان عن كل نقص يؤمي إلى حدث أو عجز أو مشابهة لشيء من المخلوقات، كسائر صفاته التي لا يحيط بعلمها وحقيقتها العباد، إلا من حيث ما يتعلق بالتنزيه والتقديس واعتقاد الكمال، كما قال هذا السيد العارف قدس الله روحه: ومعرفة العبد بالله على قدره، أي من حيث هو، لأن الحادث لا يعرف القديم، والفقير العديم لا يعرف القدير الغني الكريم، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾. استشهد ـ نفع الله به ـ لكلامه الذي هو عين التوحيد، من كلام الله تعالىٰ الذي تعرف إلى خلقه بأسمائه وصفاته، ولولا تعريفه لهم لما عرفوه، ولولا وصفه لنفسه لما وصفوه، قال في (حل الرموز) المتقدم ذكره، بعد ذكره لأقوال الحق من الصّوفية وغيرهم في التوحيد: وها أنا أذكر لك في التنزيه ما يجلو عن قلبك درن التشبيه، فأقول شعراً:

يا أيها المدعي لله عرفانا   وقد تفوه بالتوحيد إعلانا
ويطلب الحق بالعقل الضعيف   وبالقياس والرأي تحقيقاً وتبيانا
ظننت جهلاً بأن الله تدركه   ثواقب الفكر أو تدريه إتقانا
أو العقول أحاطته بديهتها   أو هل فاضت له لولاه برهانا
أو العلوم وما صدرت في كتب   هل هن إلا على التحقيق عميانا
الله أعظم شأناً أن يحيط به   علم وعقل ورأي جل سلطانا

.. انتهىٰ من قصيدة نحو ثلاثين بيتاً قال بعدها: ثم اعلم أنه لا يوصل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، لأن كل إشارة يشير بها الخلق إلى الحق مردودة عليهم، لأنها من جنسهم مخلوقة مثلهم، حتى يشيروا بالحق إلى الحق، ولا سبيل لهم إلى ذلك، أوحى الله تعالىٰ إلى داود عليه السلام: «يا داود اعرفني واعرف نفسك»، فتفكر ساعة ثم قال: إلٰهي عرفتك بالفردانية والقدرة، وعرفت نفسي

بالعجز والضعف والفناء، فقال الله تعالىٰ: «الآن عرفتني حق المعرفة». وقد سئل الصَّديق الأكبر رضي الله عنه: بما عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي، فقيل له: وهل يتأتى لبشر أن يدركه؟، فقال: العجز عن درك الإدراك إدراك. ومعنى هذه الإشارة الصديقيَّة أن الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك لسائر المحسوسات لا وصول لها إلى إدراكه، فإذا علمت أن الحق سبحانه وتعالىٰ منزه عن إدراك هذه الحواس الخمس بكنه ذاته وصفاته وعجزها عن إدراكه فقد عرفت الحق.

وقد سئل مصباح التوحيد وصباح التفريد، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: بم عرفت ربك؟ فقال: بما عرفني به نفسه، لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس، قريب في بعده بعيد في قربه، فوق كل شيء ولا يقال فوقه شيء، وتحت كل شيء ولا يقال تحته شيء، وأمام كل شيء ولا يقال أمامه شيء، وهو في كل شيء لا كشيء ، فسبحان من هو هكذا وليس هكذا غيره. وقال ـ رضي الله عنه ـ مخبراً عن حقيقة التوحيد: ركضت الأرواح في ميدان المعرفة فسبقت روح محمد ﷺ أرواح الأنبياء، فخلع عليه خلعة المعراج، فقيل له: وما غاية المعرفة؟، فقال الدهش في كبرياء الله تعالىٰ وسئل أيضاً كرم الله وجهه: عرفت الله بمحمد أو عرفت محمداً بالله. ؟ فأجاب: لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولا كان محمداً أوثق في نفسي من الله، ولو عرفت محمداً بالله لما احتجت إلى رسول الله ﷺ، ولكن الله عرفني نفسي بلا كيف بما شاء، وبعث محمداً ﷺ بتبليغ أحكام القرآن ومفصلات الإسلام، وبيان الإيمان وإثبات الحجة وتقويم الناس على منهج الإخلاص، وصدقته بما جاء به. انتهىٰ كلام حل الرموز. وقوله: (في كل شيء لا كشيء) معناه أن الأشياء قائمة به، ووجودها بالنسبة إلى وجوده عدم، نبهنا على ذلك لئلا يفهم منه معنى الحلول والاتحاد، الذي ضل بالقول به طائفة من العُبَّاد، وخرجوا به إلى الكفر والإلحاد. وما قاله ـ رضي الله عنه ـ في المقالة الأخيرة يؤيد من قال بعدم التقليد في الإيمان، وأن شرطه معرفة الدليل والبرهان، ويفهم منه معنى ما سبق في ذكر النبوة والرسالة، ولا سيما مع استحضار ما قاله أهل الحقائق في معنى هذا الإمام مما لا نطول بذكره. وممَّا يلحق بما هنا ما نقله الشيخ الإمام العارف

بالله تعالىٰ الحبيب محمد بن زين بن سميط باعلوي ـ نفع الله به ـ في كتابه (قرة العين في مناقب الحبيب أحمد بن زين) رضي الله عنه، قال رضي الله عنه: قول الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي ـ رضي الله عنه ـ حكاية عن بعض الأولياء من شيوخ اليمن، أنه جاء إلى تربة الشيخ الولي محمد بن أبي بكر الحكمي، فخرج إليه الشيخ من قبره وهو مشدود الوسط، قال: فقلت له: أراك مشدود الوسط!، فقال: نحن بعد في الطلب، من زعم أنه وصل فقد كذب، لأنه لا يوصل إلا إلى محدود، والله يتعالى عن النهايات. قال سيدي نفع الله به: أجمع العارفون على أنه لا يعرف الله كمال المعرفة أحد، إذ يستحيل أن يعرف الله كما يعرف سبحانه نفسه، يشير إلى ذلك قوله ﷺ: «سبحانك لا أحصي ثناءً عليك»، فتمثلت روح الشيخ محمد بصورته مشدود الوسط، ليعلم الشيخ الزائر له أن الترقي في استكمال معرفة الله دائمة في الدنيا والبرزخ، إلى أن ينتهي إلى اللقاء والرؤية، وذلك استكمال المعرفة بالله تعالىٰ من حيث العبد وعلى قدره، لا على الله أن يقدر قدره أحد. انتهىٰ كلام سيدنا الحبيب أحمد. وفي هذا المعنى إشارة مختصرة لسيدنا الشيخ عمر البار صاحب المناقب، قال لبعض أصحابه لما اعتذر عنده من بعض معاملاته فقال له: قل يا رب جيتك بك، فهذه كلمة على وجازتها جامعة للتوحيد، معناها أن العبد في جميع أموره قائم بربه وتدبيره، إن شاء أضله وإن شاء هداه، وإن شاء وفقه للعمل الصالح، وإن شاء قدر عليه العمل السيء الطالح، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورا. ثم قال ـ رضي الله عنه ـ على وجه الاستدلال أيضاً لما ذكر، إرغاماً لمن جحد بربوبية الحق وكفر، ولم يقدسه تعالىٰ عن أوصاف البشر: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾ أيها الروح المخاطب الأول ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ أي الغلبة الآتية على كلية الباطن والظاهر قاله المناوي ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي يصفه الكافرون والجاحدون والجاهلون، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ الذين عرفوه فنزهوه ووحدوه بما أولاهم به من الإيمان واليقين، ودعوا إلى ذلك عباده المؤمنين، ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي الكمال المطلق المستحق لجميع الثناء والمحامد بالحق، هو الله الواجب الوجود مالك العالمين ومحدثهم ومربيهم، المتعالي القدوس في ذاته وصفاته وأفعاله.

وهذا آخر ما تجرينا به من الكلام على هذه الرسالة الجليلة الجامعة، لما حواه هذا السيد الكريم من المقامات والأحوال الجارية على لسان هذا القطب الرباني العالم الصمداني، لسان التوحيد والواقف على منصة التفريد، المشار إليه أنه وارث شيخه الشيخ الكبير عبد الله بن علوي الحداد، وهو سيدنا الشيخ أحمد بن زين الحبشي، فما أطلقه من الثناء في أخيه هذا الإمام القطب الهمام الشيخ عمر البار، هو ـ إن شاء الله ـ من الحق الواضح الجلي الذي هو عن كشف، وهو من جملة مخاطبات الأكفاء على بساط الشفاء، كما قدمنا ذلك في كلام المزجاجي، فهما متقابلان يسري إلى أحدهما ما في الآخر، لقيامهما في مقام واحد، واتصافهما بحال متوارد، وهذان الشخصان هما الإمامان، كما فهم ذلك سيدنا وشيخنا عيدروس بن عبد الرحمٰن حفيد صاحب الترجمة، قال متع الله بحياته وأدام لنا النفع بأنواره وإشاراته: الذي أفهمه من حال سيدي الحبيب أحمد بن زين الحبشي وسيدي الحبيب عمر البار، أنهما مع سيدنا الحبيب عبد الله الحداد في حياته هما الإمامان، قال المناوي في توقيفاته والسيد الجرجاني في تعريفاته: الإمامان وزير القطب الغوث، أحدهما عن يمينه ونظره إلى الملكوت، وهو مرآة ما يتوجه من المركز القطبي إلى العالم الروحاني من الإمدادات، التي هي مادة الجود والبقاء، والآخر عن يساره نظره إلى الملك، وهو مرآة ما يتوجه منه إلى المحسوسات من المادة الحيوانية، وهو أعلى من صاحبه فيخلف القطب إذا مات، واسمهما في كل زمن عبد الملك وعبد الرب. انتهىٰ، قال سيدي عيدروس: وأرى أن الحبيب عمر صاحب اليسار. قلت: ويؤيده ما مر عن قطب الوجود العارف بالله تعالىٰ شيخ باعبود، وهو قوله لسيدي العارف بالله تعالىٰ الحسن بن عمر البار نفع الله بهم: اجمعت علماء الظاهر والباطن من أهل الحرمين الشريفين، أنه لم يفد عليهم بعد الحداد مثل والدك ـ يعني الحبيب عمر البار ـ. وقد ذكرنا عن سيدنا الشيخ عبد الله الحداد، والشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ محيي الدين ابن عربي والشيخ أحمد بن عبد القادر باعشن الدوعني، خلاف بين المذكورين في الأفراد: هل هم تحت دائرة القطب أم هم أفضل منه؟، وإليه يرجع في اعتبار مقام هذين الإمامين في الأفضليَّة، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

خاتمة

في ذكر من أخذ عنه من المريدين، وسلك عليه من العباد الصَّالحين العارفين، ممن بلغنا ملازمته له وانتفاعه به على سبيل الإجمال. وأما الآخذون عنه من رجال الغيب وأهل الله المتأهلون، الذين تكفيهم النظرة واللحظة لنور بصائرهم واستعدادهم للأخذ بلا كثير تربية، فكثيرون لا يحصون.

فمن أجل الآخذين عنه أخوه الإمام صفي الإسلام، المتحقق بعلوم الصّوفية ذوقاً وتحقيقاً وكشفاً ورسوخاً ومعرفة، السيد العارف بالله أحمد بن الإمام الحبيب عبد الرحمٰن بن عمر البار، كان هذا السيد من عباد الله الصالحين والأئمة العارفين، الذين إذا رؤوا ذكر الله، نشأ في عبادة الله تحت حجر أبيه، رباه بحسن نظره، ولما توفي خلفه في تربيته أخوه سيدنا الحبيب عمر، وسيأتي ذكره قريباً عند قول سيدنا وشيخنا الناظم: كذا العارف عن عمه الصَّفي، وذكر سيدنا الإمام جعفر بن أحمد ابن زين الحبشي في الشطر الثاني من البيت المذكور: (والحبشي الإمام جعفر الوفي) وكثير من أولاده، وهم الحسن ـ سيأتي ذكره ـ وعلي وأبو بكر وشيخ ـ وسيأتي ذكرهم ـ.

ومنهم السّيد العارف بالله تعالىٰ شيخ بن عبد الرحمٰن بن شيخ الحبشي باعلوي، تأدب بسيدنا الحبيب عمر وتربى به، وتحكم له على الوجه الكامل، حتى كان معه كالميت بين يدي الغاسل، وزوجه بنته، وتخرج به حتى صار من أكابر الدعاة إلى الله تعالىٰ وأمثالهم. ومن الآخذين عنه والمترددين إليه، السيدان الجليلان، العارفان المثيلان، عبد الرحمٰن بن شيخ البيتي صاحب الرباط، والسيد أبو بكر بن عبد الله البيتي المعني بقول سيدنا الشيخ عبد الله الحداد:

«بو بكر سر في طريق الله رب العباد» والسيد الجليل المجذوب المحبوب محمد بن طالب المحضار بن علي بن جعفر بن أبي بكر بن عمر المحضار بن الشيخ أبي بكر بن سالم، كان عارفاً فاضلاً سيداً كاملاً، جذبته يد العناية إلى سلوك سبيل الرعاية، وكان الحبيب عمر يمدحه ويثني عليه، ولا سيما في القصيدتين المعروفتين من ديوانه الأولى:

تبــدى صبــاح واستنــار ظــلام وفــاح عبيــر وانتصبــن خيــام

والأخرى: نبدي بعون الله، ونستمد الله، بجاه أهل الله، نفز بحول الله.

ولم يزل ملازماً له حتى توفي سيدنا الحبيب عمر، فلازم الحبيب شيخ الحبشي السَّابق ذكره.

ومن الآخذين عنه سيدنا الإمام الإنسان الكامل، شيخ الطريقين وإمام الفريقين في وقته حامد بن عمر حامد باعلوي، الآتي ذكره آخر شرح القصيدة. ومنهم السيد الإمام محمد بن زين بن سميط، وأخوه الحبيب عمر، وسيأتي ذكره أيضاً، والسيد الإمام الحبيب علي بن حسن العطاس، وكثير من أهل حضرموت ودوعن، كالسادة الأبرار آل باهارون وآل الجفري وآل الكاف، وغيرهم من الفقراء كالشيخ محمد بن عبد الله بالكسح باسندوه، ومن أهل اليمن كالسيد الجليل العارف بالله السيد محمد بن عبد الباري الأهدل، والسيد العارف بالله عبد الله دائل، والشيخ عمر جيلي، ومن أهل الحرمين كالشيخ سعيد سفر محدث المدينة المنورة، وقد ذكره في بعض مؤلفاته وقصائده، وكذا السيد عبد الله ميرعني، والشيخ إسماعيل النقشبندي وغيرهم، والحاصل أن الآخذين عنه والمنتفعين به خلق كثير وجم غفير.

وأما العوام وأهل القلوب القريبة إلى الخير، فقد نالوا به منالاً عظيماً، وانتفعوا به انتفاعاً عميماً، بنظره ووعظه والاقتباس من أنواره، والأخذ من علومه النافعة وسيرته وأخلاقه واستقامته ودعوته، مع الإقبال الوافي والنصح منه لهم، والقيام بحقوقهم والرحمة بهم. وعن السيد العارف بالله تعالىٰ أبي بكر بن . .[1] بلفقيه قال: زرت السيد عمر بن عبد الرحمٰن البار، فرأيت من إقبال أهل جهته عليه ما كادت حتى الجدرات والحيطان تنطق باسمه وتعلن بذكره، ومن رأى ما في رسائله لولي الأمر عند حدوث قضايا تتعلق بالرعايا ولغيره والغيرة لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ، وعرف أن حضرته نفع الله به عمريَّة، وسيأتي بيان معناها عند قول سيدنا الحبيب أحمد بن زين: وعلى الحضرة العمريِّة، وأيضاً فتعرف بما في الآية الكريمة: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، فقال في آخر بعض رسائله: والحاصل أنا عرفنا

(١) كذا بياض بالأصل.

تحقيقاً وذوقاً أن هذا أمر سماوي، وسببه ما ذكرنا ونحوه، وعسى قضاء قد انقضى وبانت لنا أمور وأحوال كثيرة ، ما حصلناها بصيام ولا قيام ولا رياضة، وذلك في حقائق التوحيد من تعرفات المولى الحميد والحمد لله على ما فتح ومنح، وظهرت أيضاً قبائح وفضائح في آل فلان وغيرهم ما نكن نظن بعضها، فصار سبب مقت هذه الفرقة، وبعضها من الجانبين لا من جانب كما يظن، بل قد سبقت عندكم شكايا وحكايا ما تصدر عنهم ينبؤ عنها الطبع والجنان المستقيم، وأما سفساف الأخلاق، وإمارات النفاق، والجمع والمنع المذمومين على لسان الكتاب والسنة، فلا تسأل عما ابتلوا به، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير، ونحمد الله إليكم، ونحسن الظن بالمسلمين على الجملة ونرجو التوبة لنا ولهم. وفي أخرى: وحمدنا الله البر الكريم الرؤوف، الذي لطف بعباده وكفى الباغين في بلاده وردهم على أعقابهم خاسرين، خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وما جرى فيهم من القتل وغيره فما كرهناه، لأن الباغي دمه هدر في الكتاب والسنة والأثر، ولا جزاهم الله خيراً، غشوا صغاراً غشمة، وولوا أشراراً ظلمة، لا طلعت لهم راية ولا ساعدتهم عناية، لأن المسلمين قدهم في التعب إلى غاية، والله ولي التوفيق والهداية، ومن رأى ما كان عليه السَّلف الصَّالح الذين يغضبون لله تعالىٰ عند انتهاك حرماته، كالفضيل بن عياض وسفيان وأحمد بن حنبل وغيرهم، ومن سلفه الخلف الفالح كالمحضار والعدني، وفي قصيدته التي مطلعها: (لا ترجفوني فإني لا أجزع).. إلى آخرها، فرضي الله عنهم ورضي عنه وأرضاه، وجعل الفردوس الأعلى منقلبه ومأواه.

فصل

في ذكر بعض كراماته، التي هي لكل ولي من آيات جده نبيه ﷺ ومعجزاته.

فمن ذلك حكايات من خط حفيده سيدنا وشيخنا الحبيب عمر بن عبدالرحمٰن ـ نفع الله بهما ـ قال: أخبرني أحمد بن طوق القيدوني وكان من المتعلقين بسيدنا الحبيب عمر، قال: حصل به فتق، وداواه بأدوية كثيرة فلم تفده وكواه فلم يجد فيه الكي، قال: فرأيت سيدي الحبيب عمر البار في النوم، وقد ضربني ضربة في موضع الفتق، فانتبهت وكأن لم يكن فيَّ ألم.

وحكى لي رجل عن والده وكان نجاراً، قال: كنت في بعض الأيام أقطع شجرة، فخطف بصري وصرت كالأعمى لا أبصر شيئاً، قال: فرجعت إلى بيتي متحيراً في أمري محزوناً بما طرى على عيني، فلما كان الليل نمت، فرأيت سيدي الحبيب عمر البار وكأنه وَقَّع[1] يده على عيني وقال لي: مرادنا بغلق ومفتاح، فانتبهت وإذا عيناي أبصر بهما كعادتي، فلما أصبحت سرت إليه بمطلوبه الذي ذكره لي في المنام، فلما وصلت إليه قال لي: مرادنا بغلق ومفتاح، فقلت له: قد أتيت بهما. وأخبر بعض فقرائه أنه أصابه الشويرق وهو عشى العين، قال: فشكوت عليه ذلك فأمرني أن أكتوي، فقلت له: اجعل لي وسماً في المحل الذي يحتاج الكي، قال: فوضع السواك عليه، فقلت له: هذا يكفيني عن الكي، فزال عني ما أجده في الحال.

وحكى لي المعلم الشيخ بارجاء صاحب بلد قسم بحضرموت وكان من عباد الله الصَّالحين، قال: ملح ماء بلد قسم فاشتكى أهلها ذلك إلى الحبيب عمر البار نفع الله به، وسألوه أن يدعو لهم أن يطيب ماء بئر فيها سموه[2] لهم، فدعا الله لهم وبزق في تلك البئر فعذب ماؤها، وكان شربهم منها إلى الآن. وأخبرني حفيده محمد بن علوي البار عن أحمد بن عقبة الشبامي أنه حدثه سنة مائتين بعد الألف، قال: كان سيدنا الحبيب عمر البار أيام تردده إلى سيدنا الحبيب عبد الله الحداد وأخذه عنه، إذا دخل إلى شبام يجيء إلى بيتي، فوافق مجيئه في بعض السنين وأنا أريد السِّفر للتجارة، وكان معي من البز اثنا عشر ربطة فطلبت منه لكل ربطة عزيمة وسافرت في قافلة، فلما وصلنا بعض الطريق جاء الحراميَّة فنبهوا جميع ما في القافلة وبزي من جملة ذلك، فنمت بعد ذلك فرأيت سيدي الحبيب عمر يقول: قم واطلب بزك في المحل الفلاني وخذه منه، فانتبهت ورحت إلى ذلك الموضع فوجدت جميع ما كان معي لم يتغيَّر منه شيء كما قال ـ رضي الله عنه ـ فأخذته ومضيت. وأخبرني رجل من أهل وادي عمد قال: خطبت امرأة إلى أبيها فأبى علي وردني، فتعبت لذلك لما معي من التعلق بها، فسافرت إلى دوعن ووصلت إلى بلد الخريبة، فبت عند بعض من أعرفه، فلما أصبحت قصدت سيدي الحبيب عمر البار لزيارته وقت مدرسه، وكان مجلسه ملآن من الناس فجلست في أخريات

---

(١) أي وضع.

(٢) أي جعلوا السم فيها.

الناس، فأمر الخادم أن يناولني فنجانا من القهوة، ثم لمَّا انقضى المجلس قال لي: الحاجة مقضية، أو لفظة مشعرة بأن المرأة المخطوبة ستكون زوجتك، فرجعت إلى بلادي في الحال، فلما وصلت إلى محل قريب من بلدي لقيت أناساً منها فسألتهم عن المرأة فقالوا خطبها فلان من أبيها، وسيدخل بها الليلة الآتية بعد غد، فتكلمت في جانب الحبيب عمر كلام غضب، ثم أتيت إلى بيتي وجلست فيه مهموماً، ثم إن الخاطب لها حضر عند أبيها للعقد، فاختلفا في المهر وتشاحَّا فيه، وقام الخاطب من المجلس ولم يعقد بها، وكان أهل المرأة قد هيئوها للدخول، فسأل أبوها عني وأرسل لي إلى بيتي، فأتيته فعقد لي بها وكانت أم أولادي. وأخبرني محمد بن عبد الله باطويل العمودي عن والده قال: كانت الأرضة تأكل ما ادخرناه من الطعام في بيتنا، فأخذت منه شيئاً وسرت به إلى سيدي الحبيب عمر البار، فلما وصلت إليه أردت أن أكلمه في ذلك فلم أقدر، فقال مبتدئا لي: جئت من أجل كذا، فقلت له: نعم يا سيدي، فقال: خذ هذا السواك وضعه في موضع الطعام، فأخذته فوضعته فيه فذهبت الأرضة ولم تعد، قال الراوي: وهو محفوظ عندنا إلى الآن، أي حال إخباره وهو سنة ست وثمانين ومائة وألف. ومن كراماته ـ نفع الله به ـ ما حكاه عبدالله بن عمر بازرعة أحد فقرائه، قال: سرت مع سيدي الحبيب عمر البار من القرين إلى الخريبة، فلما وصلنا تحت الرشيد استقبله فلان وفلان من أهل الرشيد، وطلبا منه الدعاء بالرحمة وشكيا عليه كثرة الجدب وتعب الناس والمواشي وأكثرا عليه، فأشار بعصاه إلى جذع نخلة وقال: إلى هنا ـ أي يبلغ السيل الليلة ـ إن شاء الله، فجاء السيل تلك الليلة فوصل في جذع تلك النخلة إلى المحل الذي أشار إليه فيها ولم يتجاوزه ولا نقص عنه، وعن بعض أهل الخريبة أنه جاء إلى سيدنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ إلى بيته مستودعاً منه يريد سفر بعض الجهات، وشكا قلة المطر وما الناس فيه من القحط والغلاء، فقال له: أشرف وقل يا كريم، ومن عادة أهل جهتنا إذا رأوا سناء البرق يلظون بهذا الاسم العظيم ويرفعون به أصواتهم ، فسمعه نقيب الخريبة فظن أنه رأى برقاً وسأله عن ذلك، فحكى له بما قال له الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ فقال مثله، ولم يكن سحاب ولا رعد ولا برق، فما كان إلا زمناً يسيراً ارتفع السحاب ورعد وبرق، وحصل السيل تلك الليلة ببركته رضي الله عنه. ومنها ما حكي عن عمر بن سعيد باسودان

وكان من المتعلقين بسيدنا الحبيب عمر نفع الله به، قال شيع الناس بموت بعض أولاده وكان غائبا في لحج اليمن، فبلغه ما يتكلم به الناس من موت ولده، فأتى إلى سيدنا الحبيب عمر وأخبره بذلك وأكثر عليه، فقال له: خل كلامك هذا، ولدك الآن في سوق لحج يتنازع هو والناس، فجاء الخبر بعد بأنه لم يمت. وعن بعض المتعلقين به أيضاً من آل العمودي، قال: مرض بعض أعمامي، فأرسلني والدي أن أعوده وقال لي: مر على الحبيب عمر البار وخذ منه لعمك عزيمة، قال: فأتيته وطلبت منه ذلك، فقال: عمك معاد يحتاج إلا الدعاء، ودعا له فسمعته يقول في دعائه: اللهم اغفر لميتهم ، ثم خرجت من عنده فلما وصلت بعض الطريق وجدت الخبر بموته. ومنها ما أخبرني به محمد بن عبد الله باعشن قال: مرض السيد عقيل بن عبد الله العطاس، ببلد القرين شهراً ثم شفي، فقال له الحبيب عمر: كنا أردناك عندنا فغلب عليك أهلك، فلما وصل إلى حريضة مرض ومات. ومن ذلك ما أخبرني به الوالد علي بن الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ قال: لما أرسلني الوالد إلى بندر المخا بعد وفاة السيد محمد البار، وكان العصبة له سيدنا الحبيب عمر وأخوه سيدنا الحبيب أحمد، فكثر النزاع في شأن تركته عند القاضي الوجيه، فأرسل له الحبيب عمر لباساً وقال: هو لباس أو خلاس، فحصل الميل من القاضي المذكور إلى منازعي وكلاء الحبيب عمر وصوروا دعوى باطلة، فعزله الإمام وتغير حاله. ومنها ما أخبر به بعض أهل بلدة القرين أنه شكا عليه جور الدولة وامتدحه بقصيدة، فأعطاه عزيمة فجعلها في كوفيته، قال: فأخذت خمس عشرة سنة لم يكتب علي قلم الدولة حتى ضاعت تلك الكوفية مع العزيمة التي فيها. ومنها ما أخبرني به الشيخ علي بن عبد الله باسندوة قال: أخبره رجل أن بعض المشايخ أجازه في قراءة حزب السيفي بشرطه، فقال: فقرأه على ذلك الشرط وظهرت عليَّ روحانيته، فجئت إلى سيدي الحبيب عمر وأخبرته بذلك، فقال: أصلح الله فلاناً ـ يعني ذلك الشيخ الذي أجازه في السيفي ـ مثلك لا يصلح له السيفي، قال: ثم قرأته بعد ذلك فلم يظهر علي أحد. ومما يقرب من ذلك ما حكاه بعض أولاده ـ نفع الله به وبهم ـ قال: كتبت وفقاً في خاتمي فكأنه وافق ساعته التي يكتب فيها، فلما نمت وجدت من خدام ذلك الوفق خبطاً وفزعاً في

نومي، فأخبرت والدي بذلك وسألني عن سببه، فنسيت ما حصل لي من أمر الخاتم، فلما تغديت معه رأى عليه ذلك الخاتم وفيه الوفق، فأخذه وأدخله في فمه ومصَّه فلم يجد شيئاً بعد ذلك. ومنها ما أخبرني به بشر بن عبد الله بادهري أحد فقرائه، قال: جاء رجل إلى دوعن يسمى بايوسف ومعه خدَّام لبعض الأسماء الشريفة، فأقبل عليه كثير من الناس وزعموا أنه يظهر الخزائن ويقلب الأعيان، فكتب له سيدنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ كتاباً سلب به ما عنده، فجاء إليه وطلب منه رد ما كان يعلمه من ذلك الأمر، فقال له: إن مرادك تجلس عندنا، وتأكل مما أكلنا وتترك ما أنت عليه، أو نرد عليك منفعتك وتسير من بلدنا، قال: فاختار أن يرد عليه منفعته ويسافر، فرد عليه ذلك وسافر إلى نصاب، فحبسه سلطانها وبعد ذلك قتله، فعلم بذلك الحبيب عمر فقال لبعض من يجالسه: ذلك الرجل مبرد بين الصفر والذهب. ومنها ما أخبر به عمر بن أبي بكر بازرعة عن والده وكان من خواص سيدنا الحبيب عمر البار نفع الله به، قال: استشرت سيدي العارف محمد بن أحمد بامشموس في سفر إلى بعض الجهات، فقال لي: إن سافرت تموت، وكان ذلك في بداية الحبيب عمر، قال: فجئت إليه فسألني عن السفر، فقلت له: احترت، فقال لي: ما السبب؟ فأخبرته بكلام الشيخ محمد، فأطرق ساعة فقال لي: سفر وظفر، فسافرت إلى اليمن فحصل لي بعض الليالي عند وصولي إليها، أن وقعت في مزبلة وفيها نار من تحت مقهوي، وكان من وقع فيها قلَّ أن يسلم، فتخبيت منها وأخذت تلك الليلة وأنا مغمى عليَّ، ثم بعد ذلك أفقت وعوفيت وربحت في تجارتي، ورجعت إلى بلدي سالماً معافاً ببركته رضي الله عنه ونفعنا به. وهذه الحكاية تشابه ما حكي أن بعضهم استشار بعض الصَّالحين في سفر فقال له: إن سافرت تنهب وتقتل، فأتى إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني وأخبره بما قال له ذلك الشيخ، فقال له الشيخ عبد القادر. سافر ولا بأس عليك، فسافر ورأى ما قال له به ذلك الشيخ في النوم. ومنها ما أخبرني به سيدي الأخ عيدروس بن عبدالرحمٰن عن بعض الثقات أنه أعطاه رجل من المهرة عشرة قروش، وقال له: خمسة منها لسيدي الحبيب عمر البار وخمسة منها للشيخ سعيد بن عيسى العمودي، قال: فلما وصلت إلى دوعن أعطيت الحبيب عمر الخمسة الذي له، فلم يقبلها

وقال: ردها لصاحبها، الهوش[1] ما يصلح لنا، فلما سافرت ولقيت الرجل أخبرته بما قال سيدي الحبيب عمر، فقال: نعم، ذلك نذر للحبيب عمر وللشيخ سعيد من هوش مركب. انتهىٰ المقصود مما وجدته بخط سيدنا وشيخنا ـ قدس الله روحه ـ مع تقديم وتأخير، ولم أحذف منه إلا القليل.

ومما اشتهر عن السيدين الجليلين العارفين الحبيب عبد الرحمٰن بن شيخ البيتي والحبيب أبي بكر عبد الله البيتي، أنهما قصداه في بعض الأيام للزيارة، فقال الحبيب أبو بكر: إن كان السيد عبد الرحمٰن أفضل مني جعله الحبيب عمر عن يمينه وأنا عن يساره، وإن كنت أفضل منه جعلني عن يمينه، فلما وصلا إليه جعل السيد عبد الرحمٰن عن يمينه وجعلني عن يساره، ثم التفت إليَّ وقال: يا سيد أبا بكر ليس المحب كالمحبوب، أو المريد كالمراد، وحكاياته في ذلك كثيرة، وعند أهل واديه مشهورة، لا سيما في قضاء الأغراض والحاجات والإخبار بالمغيبات. كما حكي أنه رجع في بعض الأيام من صلاة الجمعة إلى بيته بالخريبة، وعنده جماعة من أولاده وأصحابه، فقال لهم: اليوم أو الآن توفي السيد عمر أبو خشب من أولاد الشيخ عبد الله بن علي صاحب الوهط بأبين لحج اليمن. وكذا لمَّا مات السيد شيخ بن عبد الله باهارون ببلد الخريبة وكان بالقرين، أحسوا بشيء سقط في المكان فقال لهم: هذه روح السيد شيخ بن عبد الله جاءت تسلم علينا. وقد سبق كثير من كراماته في معرض ما يحكى عنه من الكلام في تحقيق حال أو مقام، رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

فصل في نقل شيء من كلامه الفائق من وصاياه ومكاتباته وما يسمع منه وينقل عنه. قال رضي الله عنه: بسم الله الرحمٰن الرحيم تيامناً واستحساناً، والحمد لله رب العالمين أزالاً وآباداً وأحياناً، ولا إلٰه إلا الله علماً وعقداً وعملاً وإيماناً، وذلك لأصحاب اليمين ربعاً وميداناً، وهي للسابقين محقاً وسحقاً وتحققاً وإيقاناً، وللصديقين منهم ذوقاً وكشفاً وعياناً، وللشاكين فيه تعالىٰ عن أن يحاط به علماً وبرهاناً، وسبحان الله تقديساً وتنزيهاً وتعظيماً، عما يقوله ويعتقده الجاحدون والملحدون كفراً وطغياناً وظلماً وعدواناً، والجاهلون والغافلون قصوراً وتقصيراً

(١) أي المال الذي يَأْخذه قطاع الطريق.

وفسوقاً وعصياناً، وصلى الله بجوامع كلماته وسوابغ رحماته، على سيدنا ومولانا محمد المصطفى مأمنًا ومنجانا، وعياذنا وملاذنا في مماتنا ومحيانا، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم عدلاً وإحساناً ومحبة وتبيانا، الذين هداهم الله تعالىٰ وزادهم فضلا وامتنانا، وذكر نعمته عليهم بتأليف قلوبهم به وله تكرماً وإحساناً، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال رضي الله عنه هبت رياح الهداية من مطلع العناية، فأثارت سحائب الأعمال الخالصة والنيات الممحصة، فأمطرت في بيداء القلب المشرق، فأنبتت أشجار التوحيد المطلق للإلٰه الحق، والفقر المحقق لما شمله اسم الخلق، فنادى لسان الحال والجنان: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾. . وقال رضي الله عنه: تطهر العبد الموفق من أبحر التوبة، واتزر بإزار الذل والمسكنة، وارتدى برداء الخشوع والخضوع لله الملك الحق، وانتصب في محراب التضرع والابتهال لله الكبير المتعال، في أن يجمع قلبه عليه ويرد كليته إليه، فأسعده بالقبول والسعادة وآتاه ما طلب وزيادة، فأعرض بقلبه المصون عن الخلق وعن ما هم به لاهون، وقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، فلم يبقَ له ولا لهم خبر ولا حس ولا أثر، فألهم وأبر وقال: الله أكبر. وقال قدس الله سره: لما كان الإنسان في هذا العالم غريب الروح، وعن الأهل والألاف والأوطان منزوح، رغب في صحبة الأجناس للتسلي والمعاونة والاستئناس، فركن إلى من أظهر الود ولم يتوقف على الاختبار بوفاء العهد، فإذا أَلَمَّ به علم أو نزل به مهم، سعى إليهم في دفع المضار وجلب المسار، جهلاً منه بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورا، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وقد جاء في الحديث، العظيم: «المؤمن غر كريم»، فلما حنكته أيادي التجربة ونقته نيران التغاير الملتهبة، ألجأه توفيق الله سبحانه وتعالىٰ إلى الالتجاء إلى الله تعالى والاعتماد على الله، واشهد فاعلم أنه لا إلٰه إلا الله واستقبل أم الحضرات، وصلِّ على من دون الله أربع تكبيرات. وقال قدس الله روحه: سبب الوحشة في الخلوة هو خلو الذات عن الفضائل العلميَّة والحكمية وعن المعارف الذوقية. وفي كلام سيدي عبد الرحمٰن ابن علي رضي الله عنه ونفع به:

يـا ابـن الفقيـه احـذر تخـالـط النـاس   الأنـس بـالنـاس مـن دليـل الإفـلاس

فهذا هو السبب على الجملة، وأما العلاج لهذه العلة ـ وكلنا بها عليل ـ، فإمعان النظر في فوائد العزلة وآفات الخلطة. وقد أشبع الكلام سيدنا وملاذنا الإمام الغزالي، وأفرد ذلك بكتاب من جملة الإحياء، فذكر قدراً كافياً من منهاجه، فعليكم بإمعان النظر فيهما، ولو لم يكن في العزلة إلا السلامة من آفات اللسان الذي يكب الناس على وجوههم، ولا يخفى ما ورد في فضل الصمت، ولا يتم كما ينبغي إلا بالعزلة، وما أحسن من أشغل نفسه بتلاوة كتاب الله وكثرة الذكر لله تعالىٰ، وقراءة أحاديث رسول الله ﷺ وحكمة أوليائه، يسلم أولاً ويغنم ثانياً، حتى يصير كله لله، وبالله، ولا يأنس إلا بذكر الله، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، يا لها من جنة طيبة الثمار جارية الأنهار، مشرقة الأنوار واسعة الأقطار، يسرح فيها الأبرار في هذه الدار قبل دار القرار، غير أنها حرام على كل محجوب بالآثار، بل لا يحوم حومها من لا يسمع الآن من الجبار: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾. وقال قدس الله روحه: لا سعادة في الدارين إلا بمحبة الله، ولا محبة إلا بعد معرفة، ولا وسيلة إليها إلا بدوام الذكر والفكر، ولا يتجرد للذكر والفكر إلا من اشتغل بنفسه عن جنسه، ثم بربه عن نفسه، وأول الطريق صبر وآخره شكر، وأوله عناء وآخره هناء، كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة.

وقال رضي الله عنه: السَّابق السَّابق، والسَّباق السَّباق قبل حين الفراق، وكرب السياق وبلوغ الروح التراق، والموفق من ركب من الهمة براقها، وغنم من الساعة فواقها، وأقبل بهمته على خلاَّقها، فصادف من المولى رضا، وعفواً عما مضى، فيا له من نائل أمنيته ولو بمنيته، وفائز بغايات المطالب وقصارى الأماني والمآرب، وكيف لا والمولى متوليه ومهيمنه، ومتيمنه ومغيبه عنه بأنوار تجليه. وقال نفع الله به: عليك بفعل الخير ومحبة أهله وموالاتهم، وبترك الشر وبغض أهله ومجانبتهم، وإذا بليت بهم في مجلس فعليك بالتغافل عنهم، وبمداراتهم لا مداهنتهم، وفرق بين ذلك. وقال نفع الله به: المعرفة عند أهلها هي من أخص

علوم المكاشفة، وهي المقصود الأعظم، وأوائلها عندهم معروف وفي مؤلفاتهم موصوف، وأما أواخرها فلا، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، وقد قالوا: لا يعرف الله إلا الله، يعنون لا في الدنيا ولا في الآخرة. وقال نفع الله به: قال سيدنا الحبيب عبدالله رضي الله عنه:

يــا الله بــذرة مــن محبــة الله ... أفنى بها عن كل ما سوى الله

ولا أرى مـن بعـدهـا سـوى الله ... الـواحـد المعبـود رب الأربـاب

فهذا مطلب يرجع إلى حقيقة خالصة ومعرفة خالصة، ثم لما كان غاية مطلبه غاية الكمال الجائز لغير النبي ﷺ، وهو أن لا يطفي نور معرفته نور ورعه، وهو أيضاً أن لا ينقص عليه ظاهر باطناً، ولا باطن ظاهراً، كما ذكر ذلك عن بعضهم، وهو أيضاً أن لا يشغله الخلق عن الحق ولا الحق عن الخلق، فطلب ذلك ـ رضي الله عنه ـ في البيت الثاني وهو قوله رضي الله عنه:

علــى بســاط العلــم والعبــادة ... والغيـب عنـدي صـار كـالشَّهـادة

هــذا لعمــري منتهــى السعــادة ... سبحان ربي من رجاه ما خاب

وقال رضي الله عنه: الناس اليوم أقبلوا على محبة الدنيا، وإيثارها على الحق بكل وجه وبكل معنى، واتبعوا هواهم وأعرضوا عن مولاهم، ولا عاد فيهم من الدين إلا رسمه، ولا من الصدق إلا اسمه، وإذا أمعنت النظر في العلم ذهب الرسم والاسم والروح والجسم، ولا يغرنك القال والقيل ولا تغرنك اللحا والصور، تسعة أعشار من ترى بقر، وإذا علمت هذا فلا تطلب إلا السلامة منهم، والمخالفة لهم عند الابتلاء بهم، والتغافل عن جميع ما هم فيه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. ومن كلامه ـ قدس الله روحه ـ ما وجدته بخط من قال إنه قال نقله من خط ولده سيدنا العارف حسن ـ نفع الله بهما ـ وقد رأيت بعضه في بعض رسائله، قال: كل امرىء بلا تقوى ماله بقوى[1]، وكلما زاد التقوى زاد البقوى. وقال: كل امرٍ يحدث عليك والدنيا تصلحه وتبخل بها في إصلاحه، فأنت قليل عقل. وقال: من زاد حرصه زاد تمحيضه، ومن أراد أن يعيش في

---

(١) أي دعاء عليه بالهلاك.

صفاء فليدار الناس، أحد بصدق وآخر بنفاق، أي بغير صدق. وقال: ما ملكناهم إلا يوم تركناهم، ولا سايرناهم إلا يوم سترناهم. وقال: من ترك هواه بلغ ما يهواه، وقال: آخر زمان دمان الزمان.

وقال رضي الله عنه: كان الزمان من سابق مثل الرجل به الصنان، إذا عرق ظهر صنانه، والغالب قل ظهوره. وأما اليوم فهو مثل الجمل السمين المتهري كثير الخمة أي النتن.

وقال قدس الله سره: السَّعادة خافية والشقاوة خافية، وإنما الدليل على ذلك العمل، فمن رأيته يعمل بعمل أهل الخير فهو منهم، ومن رأيته يعمل بعمل أهل الشر فهو منهم. وقال: الشريف بجده لا بزنده. وقال رضي الله عنه: الصَّبْرُ مُرٌّ كالصَّبِرِ لكنه حلو الثمر، وقال: من صبر اختبر، ومن صبر تجمل وتكمل، وقال: ما تزيد الرجال على الرجال إلا بالصبر والاحتمال، وقال: من عرفناه ما تركناه، وقال: التأني غير التواني، وقال: الفرق بينهما أن التأني الأخذ في العمل مع الإحسان، وهو محمود شرعاً وعقلاً، والتواني هو المجانبة للعمل، وهو قولك سوف أعمل سوف أفعل، وهذا مذموم شرعاً وعقلاً، وقال بيت مفرد.

الحمد لله حمداً ليس نحصيه　　على الجميل الذي يبدي ويوليه

انتهى. ولنختم كلامه ـ نفع الله به ـ بدعاء جامع كتبه لسيدنا العارف بالله تعالىٰ الحبيب جعفر بن أحمد الحبشي بعد طلبه منه لشيء من الأدعية. وهو: اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، اللهم أكفني ما أهمني وما لم أهتم به وما أنت أعلم به مني. اللهم اكفني ما أهمني من أمر آخرتي ودنياي. اللهم أنت المستعان على جميع الأمور ولا بلاغ إلا بك، اللهم إني أنزل بك جميع حالاتي وأنت خير منزول به. اللهم فرجك القريب ومعروفك القديم وعادتك الحسنة. اللهم رحمتك أرجو، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك، وأصلح لي شأني إنك مصلح الصالحين، لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ثلاثاً، يا أرحم الراحمين ثلاثاً، يا ذا الجلال والإكرام ثلاثاً. انتهىٰ والحمد لله رب العالمين.

خاتمة

في ذكر وفاته وانتقاله من هذه الدار إلى دار القرار، والتحاقه بالرفيق الأعلى من المقربين والأبرار. وقد كاشف بذلك قبل وقوعه، كما ذكر ذلك سيدي الحبيب محمد ابن سميط في آخر ترجمته في كتابه المتقدم ذكره، أنه كتب له في كتاب قبل وفاته بأيام قلائل: وسلموا منا كثيراً على سيدي الحبيب الأخ زين بن علوي الحبشي، والله يأتي بها زينه للجميع. قال: وكان تاريخ كتابه ثاني عشر صفر سنة سبع وخمسين ومائة وألف، وعاش إلى آخر يوم في ربيع أول وأول يوم في ربيع ثاني، وتوفي السيد الولي زين بن علوي الحبشي المذكور في المكاتبة بعده بنحو أربعة عشر يوماً، وكان في قوله: (والله يأتي بها زينة للجميع) إشارة إلى تقارب أجلهما نفع الله بهما، وسائر عباد الله الصالحين. انتهى، وأيضاً لما أخبر بعلامة تظهر في بعض الأوقات، في ضريح الشيخ الكبير يوسف بن أحمد بحر النور، وتكون كالمقدمة والإخبار بوقوع بعض الحوادث، فلما أخبر بذلك سيدنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ قال: عدوا لصاحبها أربعين يوماً، فتوفي على تمام الأربعين، إلى غير ذلك من الإشارات.

ولما توفي كان يوم وفاته يوماً هائلاً، لعظم مصيبته على أهل واديه، واستقامة أحوالهم الدينية والدنيويَّة بوجوده، فكانوا لذلك كلهم أهل حزن وثكل، وما منهم أحد إلا انتحب وأعول، وغسل في داره ببلده بالخريبة، ولم تسقط قطرة من ماء غسله إلا وتبركوا به في وجوههم وأبدانهم، ونقل إلى بلد مولده بالقرين بوصية منه، ودفن إلى جنب والده السيد الإمام الحبيب عبد الرحمٰن، والشيخ العارف بالله محمد بن أحمد بامشموس، وفي التحفة لشيخ الإسلام ابن حجر وقلائد الشيخ الإمام عبد الله باقشير، ما يصرح بصحة النقل المذكور، بل مطلوبية ندبه على الوجه المأثور. وقد رثاه كثيرون من الأئمة العارفين، فمنهم السيد العارف بالله تعالىٰ الجهبذ النحرير عبد الله بن جعفر مدهر باعلوي قدس الله روحه، لما بلغته وفاته رَقَمَ رسالة تشتمل على كثير من عظيم أخلاقه وكريم أحواله، وذكر اجتماعه به وما حصل له معه من الانتفاع بمذاكرته ومجالسته نظماً ونثراً، وضمنها تواريخ جملة نظماً، ومرثاة بليغة تتضمن كذلك أنواعاً من الثناء عليه، والمبالغة في بيان ما كان متصفاً به من الأحوال والمقامات، والدعوة إلى الله تعالىٰ وإرشاد عباد الله، ومنها قوله نفع الله به:

سامي العلا في العالمين مقامه علـم لـه نجـم السعـادة طـالـع
هــو شيــخ قطــر حلــه ببشــارة من شيخه الحداد وهو الجامع
حـامـي الحقيقـة بـالشـريعـة آمـر بـالعـرف داعٍ بـالهـدايـة صـادع
فخر المكارم مرشد شيخ الهدى يهـدي بنصـحٍ مـن إليـه يسـارع
يهـدي بتـدريـج وحسـن عبـارة ومـواعـظ حسنـى لهـن مـواقـع
وبحكمـة يهـدي فكـان حكيمهـا طــب لأدواء الجهــالــة قــامــع
بــدر منيــر بــل منيــف مشــرق بمكـــارم الأخـــلاق بـــر بـــارع
لله صـــوفـــي صفـــي ســـاجـــد بقيـامـه جنـح الـديـاجـي راكـع
عمر الفتى نجل الوجيه المرتضى البـار تحقيقـاً كمـا هـو شـائـع
البـــار ابـــن البـــار واعلــم أنــه لهــو الأبــر بكــل معنــىً واقــع
صنوي عزيزي بل فخاري سؤددي حتــى لــه ودي بقلبــي طــابــع
رعيــاً لأوقــات سلفــن بــأنســه قــد حفهــا للسعــد ثمــة طــالــع

إلى آخر القصيدة، وممن رثاه أيضاً الشيخ المعلم سليمان بن عبد الله باحرمي التريمي، وقد تقدم تاريخ وفاته نفع الله به وسائر عباد الله الصالحين آمين.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

كـذا عـن العـارف عمـه الصفـي والحبشـي الإمـام جعفـر الـوفـي

كذا في معنى العطف ما في البيت الذي قبله، وهو أن سيدنا الحبيب الحسن ابن الحبيب عمر البار أخذ عن والده ، وكذا عن عمه السيد العارف بالله أحمد بن عبد الرحمٰن البار، وعن السيد العارف بالله تعالىٰ الحبيب جعفر بن أحمد بن زين الحبشي، الإمامين العلويين وتاجي المعارف العليين.

فأما الإمام الأول فهو السيد الجليل العارف بالله تعالىٰ الفائق أقرانه زهداً ومعرفة واستقامة، الحبيب أحمد بن عبد الرحمٰن البار قدس الله روحه، ببلد القرين فاتحة جماد الأول سنة ست بعد المائة والألف، ونشأ في طاعة الله تعالىٰ من صغره، فوجد لها أعظم حلاوة في كبره، وتربى في حجر أبيه، ولما توفي أبوه كان خلفه عليه أخوه الحبيب عمر، ولما زار معه سيدنا الشيخ عبد الله الحداد ـ قدس

الله روحه ـ حثه على ملازمته والأخذ عنه والاستمداد منه، وقال له: الذي لك ولفلان عندنا يكون من طريق السيد عمر، فقبل الإشارة وفهم العبارة، واقتدى بأخيه واتبع آثاره، وأقبل عليه غاطساً في نوره ملازماً له في آصاله وبكوره معيناً له في جميع أموره، كما ذكر ذلك سيدنا الحبيب ـ عمر نفع الله به ـ لأخيه في الله العارف بالله تعالىٰ الشيخ أحمد بن عبد الكريم الشجار الحساوي في بعض مكاتباته، قال قدس الله روحه: والصنو أحمد الغالب عليه الروحنة، والتحقق عن أعباء التفاسير الممحنة، وكل أموره أو جلها مستحسنة، وهو لنا عضد وعتد في الأوقات المرتهنة، من قراءة الكتب وأجوبة الأوراق، والاجتماع على الأنس والتأنيس، وحسن المعاشرة والمعاونة بما يقدر ويليق في أمر الدنيا والآخرة، فجزاه الله خيراً. انتهىٰ كلامه. وفيه مع اختصاره إشارات إلى أمور جليلة، وخصال حميدة جميلة، ولكمال عقله لم يشر في الثناء المطلق، الذي في مقام هذا السيد العارف محقق، لإدلائه له بالأخوة والبنوة، ومدح من هذا حاله لا يستحسن، لا سيما إطلاق الثناء إلا لأغراض يعرفها أهل الفضل والعقل لا ترجع إلى الإعجاب، وإنما هي مما يقرب إلى الله تعالىٰ وإلى دار الثواب، وقد ترجم كثيرون من أهل العلم والرسوخ فيه لآبائهم، وأثنوا على تلاميذهم وفقرائهم، ووجه ذلك من الكتاب العزيز والسنة المحمدية واضح جلي، ومما ورد عنه ﷺ من الثناء على كثير من الصحابة العشرة وغيرهم إجمالاً وتفصيلاً.

وبالجملة فقد كان هذا السيد العارف جامعاً لكثير من صفات عباد الله الصالحين والفقراء الزاهدين، أنواره مشرقة وولايته محققة، انتفع به كثيرون، وقد كان رحمة لعباد الله، يحب الفقراء والمساكين ويجالسهم، ويواسيهم بما فتح عليه، كما وصفه سيدنا الحبيب عمر في قصيدته التي مطلعها: (الحمد لله عدة ما كتبه القلم)، حيث قال في أثنائها: (يا معتني بالرسالة صل شقيقي قثم)، قال أهل اللغة: (القثم)، الكثير العطاء الجموع للخير.

وله كرامات منها أنه رئي مع صحو الشمس وليس لشخصه ظل، وهذه وراثة نبويَّة. وقد رأى السيد العارف بالله أبو بكر بلفقيه باعلوي، وكانا متوجهين هو

والحبيب أحمد بن عبد الرحمٰن لزيارة النبي ﷺ في آخر مرحلة إلى المدينة، أن النبي ﷺ أعطى الحبيب أحمد المذكور حفنة من الذهب. وكان ـ رضي الله عنه ـ على غاية من الاستقامة والاقتصاد، ونشر العلم والعمل به، اللذين هما هجير العبَّاد والزهاد، حتى نقله الله إليه في أثناء شهر ربيع الأول سنة . .[1]، ونقل من الخريبة إلى القرين بوصية منه أيضاً، ودفن بجنب والده والشيخ محمد بامشموس إلى شرق، نفع الله بالجميع وأعاد علينا من بركاتهم وأسرارهم في الدنيا والآخرة.

وأما الإمام الثاني فهو السيد العارف بالله تعالىٰ الجامع للمعارف والعلوم، الوارث لآبائه وأجداده في الحقائق والرسوم، شمس الدرر، وقمر التجليات الذي لا يتغير، الأسد الذي لم يزل في أجم العلو على أعداء الدين يصول ويزأر، سيدنا الحبيب جعفر بن الشيخ الإمام العارف بالله خاتمة الأعلام الحبيب أحمد بن زين الحبشي نفع الله بهم، كان هذا السيد الكريم مظهراً من مظاهر سر الحقيقة المحمدية، كان إماماً متبوعاً داعياً إلى الله تعالىٰ بلسان حاله ومقاله، وكان له تطورات وتنقلات من حيث تجلي الحق على قلبه، أقر له بالولاية عارفو عصره وعلماؤه، واستمدوا منه وأخذوا عنه. وله كرامات كثيرة مشهورة عند أهل ناحيته، وقد صنف في مناقبه السيد العلامة العارف بالله تعالى سقاف بن محمد الجفري باعلوي، وترجمت له بأبسط مما هنا في (لوامع الأنوار) في مناقب شيخه عمر البار، وذكرت هناك ما نقله الشيخ أحمد الحساوي في كتاب (تثبيت الفؤاد) عن الشيخ عبد الله الحداد، وما ترجم له به سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار صاحب المنظومة نفع الله بهم وكان له في شيخه الحبيب عمر البار المشهد العظيم والمشرب الصافي الذي لا يشاركه فيه غيره، كما قدمناه في ترجمة سيدنا الحبيب عمر، وقد حثه والده القطب الشهير الحبيب أحمد بن زين على الأخذ عنه والاتصال به، ثم لما اتصل به وشاهد أخلاقه وراقب أحواله، وترقى بها إلى أمور وحقائق لا يعرفها ويذوقها إلا من سلك تلك المسالك ونهج تلك الطرائق، بالآداب التي راعوها وتأدبوا بها مع شيوخهم، كما قال الشيخ العارف بالله علي بن عبد الله باراس في شرح رائية الشيخ شعيب نفع الله بهما على قوله:

---

(١) كذا بياض بالأصل.

وراقب الشيخ في أحواله فعسى　　　يرى عليك من استحسانه أثرا

وإذا حسنت مراقبة المريد للشيخ ظهرت بواسطته ما تكل عنه العبارات وتقصر عنه الإشارات، فإن الشيخ روح طريق السالكين، وبرضاه ينال رضى رب العالمين، وتدر مواهب الله على عبده، ويعذب مشرب قربه، والمراقبة هي الملاحظة لتلك الأحوال السنية والشيم المرضية، وبالملاحظة برؤية الكمال في سائر الأحوال، لا محالة تكسب المريد نهاية المزيد، لذلك يقال: إذا أراد الله أن يوصل إليه المريد بواسطة الشيخ، طوى عن المريد سر البشرية وأبطنه منه، ونشر له الاختصاص وأظهره له. انتهىٰ كلامه، وكان الحبيب جعفر ـ نفع الله به ـ كذلك مع شيخه الحبيب عمر، وله وفي السماع مشرب عظيم، وقد قرره عليه شيخه المذكور وعلى أشياء أخر، وسلم له فيها علماء عصره ورأوها من الحق، وله كلام عزيز عجيب نظماً ونثراً نقلناه منه في اللوامع بعض مقالات، وأحوال هذا الإمام مشهورة، وسواطع أنواره مذكورة، توفي نفع الله به . .[1] ودفن بقبة أبيه بجانبه الغربي، نفعنا الله بأسراره وعلومه وأنواره آمين.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه ونور ضريحه:

وسيدي الشيخ جمال الدين　　　باقيس ذي التقرير والتبيين

هذا الرابع من المشايخ الذين أخذ عنهم سيدنا العارف بالله الحبيب حسن بن عمر البار، وهو الشيخ الإمام أحد الصدور الأعلام، الظاهرين بالتسليك الداعين إلى سبيل مرضات مولاهم المليك، العالم الحجة العامل المحجة، الشيخ العارف بالله بقية العباد المجتهدين الصلحاء الزهاد المتقين، جمال المقربين النفيس، محمد بن يّس باقيس رضي الله عنه. قال سيدنا وشيخنا الناظم ـ نفع الله به ـ وقد عده من أجل مشايخه الذين أثبتهم: محمد بن يّس باقيس، شيخ المعارف والعلوم، والتقريرات التي لا توجد عند غيره من أرباب الفهوم، ألحق الأحفاد بالأجداد، وامتد باعه في طريق الإرشاد، قرأت عليه كتباً من المختصرات، في الفقه والزبد والآجرومية، وفي منهاج الطالبين من أوله إلى باب الوكالة، ورسالة المعاونة، وقرأت

---

(١) كذا بياض بالأصل.

عليه ورد الحبيب عبد الله الحداد الكبير (مفتاح السعادة والفلاح)، وأشار علي في ذلك الوقت أن لا أتحفظه فلم يتيسر لي حفظه، ثم بعد موته رأى ولده الشيخ عبدالقادر كأنه يقول لي: أشرنا عليك أن لا تحفظ الورد الكبير، احفظه الآن فتسهل لي حفظه بلا مشقة، وأجازني يوماً من الأيام في ورد الفاتحة المشهور عن الغزالي، فرأى مني استثقالا فأنشد قول الفقيه عمر بامخرمة رضي الله عنه:

يا معلم بكى با بكي وساوله مثله   قال ما أبكاك قال استوعرت كل خصلة

من طرقنا وفي سلاكها اليوم قله

وكان كثيراً ما ينشد:

واعلـم بـأن طـريـق القـوم دراسـة   وحال من يدعيها اليوم كيف يرى

ودخلت عليه يوماً وأنا في حالة قبض فأنشدني:

عـــادك فـــي الـــرحمـــة قسيـــم   وعـــاد لـــك رجـــوى عظيـــم

مـا خـاب مـن يـرجـو الكـريـم   هـــذا محقـــق لا تجـــادل

هـــو الـــذي يعطـــي الجـــزيـــل

ولازمته نحو خمس سنين وكتب كتاباً أيام كنت في نصاب، وحثني على الأخذ عن كل من لقيته من العلماء والصالحين، نفع الله به. انتهى ما وجدته بخط سيدنا وشيخنا نفع الله به.

وكان أخذ الشيخ محمد ـ نفع الله به ـ في بدايته عن السيد الإمام العارف بالله تعالىٰ الحبيب عبد الرحمٰن البار، قرأ عليه كثيراً من المختصرات، وتخرج أيضاً بالشيخ العارف بالله تعالىٰ محمد بن أحمد بامشموس، ولازمهما إلى أن توفيا، وسيأتي لهما مزيد ذكر في أثناء هذا الشرح، ورحل في حياتهما إلى كعبة القصاد الشيخ عبد الله الحداد، ولم يزل يتردد عليه ويأخذ عنه قراءة وسماعاً لبساً وتلقيناً، إلى أن توفي سيدنا الحبيب عبد الله، ثم انتصب لنفع العباد والدعاء إلى الله وإلى سبيل الرشاد، وكان له صبر على تدريس العلوم ونفع الخصوص والعموم.

ومن أجل المنتفعين به شيخنا العابد لله، العارف بالله تعالىٰ عبد الله بن أحمد بافارس باقيس، لازمه ملازمة أكيدة إلى أن توفي. وكان الشيخ عبد الله المذكور من المجتهدين في عبادة الله تعالىٰ والمستغرقين بذكر الله، يقوم آخر عمره بعشرة أجزاء من القرآن، وكان لم يحفظه إلا لما عمي آخر عمره، ثم بعد وروده من الصلاة يرجع إلى الأذكار حتى يطلع الفجر، وقد تعلقت بالشيخ عبد الله المذكور من الصغر، قرأت عليه نحو ثلثي القرآن، ثم في كثير من المختصرات والمطولات الفقهية والحديثية، وأمهات كتب القوم كالإحياء والرسالة والعوارف وغيرها، وكان سيدنا وشيخنا الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار، صاحب المنظومة يقرأ عليه ويزوره في بيته ببلد الخريبة، ويقول إنه باب فتح للطالبين، ولم أزل ملازمه إلى أن توفي ببلد الخريبة يوم الجمعة لثمان وعشرين خلون من شهر رمضان سنة، . .[1] ونقل إلى بلد حلبون بوصية منه، وقد انتفع بالشيخ محمد خلق كثير من أهل دوعن والشحر واليمن، وقرأ عليه الوالد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ رياض الصَّالحين وغيره، وكان معتنياً به لما بينه وبين الجد عبد الله بن محمد باسودان من الاتحاد التام بواسطة شيخهما الشيخ محمد بن أحمد باشموس، وسمعت من الوالد أنهما عقدا الأخوة عند ضريح الشيخ الكبير أحمد بن عبدالقادر باعشن نفع الله بهم، وسمعت الشيخ عبد الله المذكور يقول: نسمع عن الشيخ القطب شيخ باعبود يقول: إن جن الحرة أخذوا الطريقة الحداديَّة عن الشيخ محمد بن يس باقيس، في سنة حج وزار النبي ﷺ والحرة الحجارة السود، وهي قرب المدينة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام، ولما زار الشيخ محمد المذكور المدينة المشرفة ـ على مشرفها أفضل الصلاة والسلام ـ واجتمع به السيد المذكور، قال فيه في ضمن رسالة عنى بها الشيخ محمد، أكثر فيها من ذكر أسرار الزيارة وفيض أسرار تلك الحضرة، في أولها: ورد وارد صدر في وقت السحر، بعد أن لاحت مخائل القبول لزائر الرسول، وهو روحي وروحي الشيخ الجليل القدر، محمد بن يّس الشهير بباقيس، فعندما صحت البشارة ولاحت الإشارة، أحببت التصريح بهذه العبارة. . ثم تكلم

(١) كذا بياض بالأصل.

بكلام في أسرار الحضرة المحمدية، ثم قال في آخر الرسالة: تحلى بملابس خلع القبول، وتجلى له الوجه الجميل عند الوصول، وكالمدمنة إليه بحصول القرب الأسنى والسول، وهبت عليه نسمات الارتقاء وشمال الشمول، من حضرة المصطفى الرسول، في الله الشيخ الجليل العلم المثيل، العارف العالم محمد بن يّس الشهير بباقيس، قلت عنه بلسان قاله عن شرح حاله:

فاز باقيس بالمقام العالي   وحظي بالقبول والإقبال
ورقى رتبة من الجمع لما   زار طه بصحبه والآل
وصفا بالقدوم منه عليه   خاشعاً خاضعاً من الإذلال
حاضراً ناظراً جمالاً تبدى   ظاهراً حسنه بلا إجمال
فانتهى راجعاً بمنحة قرب   وشهود حبي به في الحال

انتهى، والشيخ باعبود المذكور كان من أهل الأحوال العظيمة، وكانوا يطلقون القول فيه بأنه قطب ذلك الزمان، أعني السيد شيخ المذكور. وقد أخذ عنه شيخنا الشيخ عبد الله بافارس باقيس، وله معه وقائع كثيرة، منها أنه قال: أخذت عن بعض مشايخ مصر طريق المصافحة المتصل به ﷺ، وحدثني الحديث المسلسل بالأولية: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» وذلك ببندر جدة، قال: فلما خرجت من عنده وكنت أمشي في بعض أزقة جدة، فإذا سيدي الحبيب شيخ يناديني فأقبلت عليه وصافحته، فأول ما قال لي: أتيت من عند الشيخ فلان وصافحك بسنده المتصل به ﷺ، وكان ذلك على سبيل الكشف، فقلت له: كان ذلك، فقال: وهذه اليد لنا بالمصافحة من النبي ﷺ، لست في شوال من هذا العام بلا واسطة، وقد صافحني سيدي الشيخ عبد الله بهذه المصافحة، وَعُمِّرَ الشيخ محمد صاحب الترجمة عمراً طويلاً، حتى ألحق الأحفاد بالأجداد، كما ذكر ذلك سيدنا وشيخنا الحبيب عمر في كلامه السَّابق، سمعت سيدنا وشيخنا الحبيب جعفر بن محمد العطاس، يقول: وكان قد ذكر سيدي الشيخ محمد وأثنى عليه، قال فيه: إنه آخر المسلكين، وأجمع أهل عصره على أن من جاء إليه وحضر مجلسه أنه ينسى الدنيا، لأنها لا تذكر عنده، ولا يرى ولا

يسمع جليسه إلا ما يذكر بالله وبالدار الآخرة، وقد قيل إنه هو المشار إليه في قصيدة الشيخ الفقيه عمر بامخرمة، كما قد أخبر بكثير من المغيبات في قصائده وغيرها بوقوعه فوقع، والقصيدة المذكورة هي قوله رضي الله عنه:

يا ابن عيسى بلى بالي من إبعاد خلي ... قد مضى يا عمر والبين عادته يبلي
بالله إن كنت تشكو لوعة البين مثلي ... قم بنا من هنا قد حب إلينا نولي
للوطن يا ابن سالم ذي عرفناه لاصلي ... علَّ رده بها يرتد عقلك وعقلي
علَّ يطفى بماء دوعن لظى كل غل ... عند فارس وحرف الميم إذ جا مثلي

إلى آخرها، وله ـ نفع الله به ـ لسان في المذاكرة، تشنف بالعلوم أسماع أولي المحاضرة، وله كلام فائق ونظم رائق، ونبذٌ ورسائل، ترجم لشيخه الكبير محمد ابن أحمد بامشموس في رسالة لطيفة، بطلبٍ له من الحبيب العارف بالله علي بن حسن العطاس، وللشيخ العارف بالله تعالىٰ عمر بن عبد القادر العمودي في رسالة أيضاً لطيفة بطلبٍ من ابنه الشيخ العارف عبد الرحمٰن، على قدر الزمان وإلا فما يحفظه فيهما مما ينقل عنه أن يفرد كل واحد في مجلد، وقد سمعت بعض الإخوان ممن جالسه وأخذ عنه أن قراءة المدرس تتعطل إذا ذكرنا بأحوال ثلاثة من الأكابر، سيدنا الشيخ عبد الله الحداد، وسيدنا الشيخ محمد بامشموس، وسيدنا الشيخ عمر بن عبد القادر. وسمعت سيدي الحبيب عبد الله بن حسين الحداد يقول: عند الشيخ محمد بن يّس باقيس وفي حفظه، عمَّا يذاكر به من أحوال سيدنا الحبيب عبد الله ومناقبه وكلامه، ما لم يذكره الحبيب محمد بن سميط فيما جمعه من مناقب الحبيب عبد الله، بل ما يحفظه يزيد على ما ذكره، حتى قيل له يوماً: هذا الذي ذكرتوه لم يذكره الحبيب محمد بن سميط، فقال: وكم وكم، يعني أن كل واحد من أصحاب الحبيب عبد الله عنده شيء لم يكن عند الآخر، نفعنا الله بهم. ومن كلام سيدنا الشيخ محمد قدس الله روحه: ينبغي لطالب العلم أن يكون قاصداً بطلبه وجه الله تعالى، دون التصنع لمخلوق أو عرض من أعراض الدنيا البتة، وأن يحرص على العمل بعلمه، والعمل لا ينفع إلا مع الإخلاص، والإخلاص لا ينفع إلا مع الخوف والخشية، التي هي صفة علماء الدين الناصحين للمسلمين،

كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال رضي الله عنه: ليجتنب طالب العلم الشريف الأخلاق والصفات الذميمة، فإن الشريف لا يتم مع الوضيع.

وقال قدس الله روحه: انصح نفسك بنفسك، وجد في طاعة ربك، وأحي أوقاتك بالعبادة. وقال نفع الله به: ينبغي لطالب العلم أن يكون متخلقاً بالأخلاق الحميدة، من الصبر والحلم والإغضاء وسعة الصدر، وعدم الالتفات إلى قيل وقال، والدخول في المراء والجدال، وأن يكون مستغرقاً أوقاته بطاعة الله، موزعاً ساعاته في مراضي الله، مكباً على كسب العلوم النافعة من الفقهيات والصّوفيات، وأن يكون له اعتناء بتهذيب نفسه ورياضتها، وتصفيتها من الأخلاق الذميمة التي تفسد ثمر العلم كما يفسد الخل العسل، وأن يكون طالب العلم شعاره الوقار والسكينة، والهدوء والتوءدة والتأني، وحسن السمت وصلاح السيرة، وأن يكون دثاره الخشوع والخضوع والتلطف، وحسن السريرة ومجانبة الهوى، ويستوي باطنه مع ظاهره، ويصير إماماً به يقتدى، وَعَلَماً به يهتدى. وله كلام كثير من هذا القبيل، مما هو متعلق بالنصح لعباد الله، وقد قال في بعض وصاياه لبعض أصحابه، بعد تعريفه له أموراً يلزم المريد مراعاتها ـ فإنا نحب لكم ما نحبه لأنفسنا، وهذا طبعنا إن شاء الله ـ لجميع إخواننا المسلمين. توفي ـ نفع الله به ـ ظهر يوم السبت منتصف شهر شوال سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف، ودفن بجنب الشيخ فارس بن أحمد باقيس، وعمر نحو تسعين سنة، رحمه الله ونفعنا به.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ بعد ذكر شيخه الأول ومشايخه، ثناءً بذكر الثاني فقال:

ومنهم الفاروق شيخ الجفري رب الإشارات علي القدر

المذكور بهذا البيت صاحب المقامات الرفيعة والأحوال المنيعة، والإشارات الصادقة والكرامات الخارقة، والذوق الفائق والشوق إلى التطلع إلى الحقائق، الرامي زينة الدنيا عن قوس واحدة، والمتلثم عند المرور على جيفة حقيقتها بنفس زاهدة، فصدح طائر سعده بأن تأتيه راغمة، وتكون له مذللة خادمة، فلما أقبلت عليه وتمثلت بين يديه، قال لها: لا تدخلي ديري، وغري غيري، فقد بتتك ثلاثاً

لا رجعة فيها، ووراثة لجده القائل: «لو كشف الغطا ما ازددت يقيناً»، باب مدينة العلوم وممليها، ومبديها لسيدي ومولاي وفخري، المتوجه إلى وجهة الحق بالسير السري والجهري، الحبيب الشيخ الإمام العارف بالله تعالىٰ والدال عليه، شيخ بن السيد الولي محمد بن شيخ بن حسن الجفري باعلوي، أمد الله الوجود ببقائه، وأمده بدوام ارتقائه، ليقطع عوالم الصور والأرواح، ويقف في مقام سدرة المنتهى، ويتحقق بمعنى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ من أم الألواح، ولد بتريم بالحاوي المشهور، وغذي بين أبويه بلبان المعرفة والنور، وحفظ القرآن العظيم، وجدَّ في تزكية نفسه حتى حلاَّها بكل خلق كريم، وسافر منها قبل أوان الإدراك، بعد أن نادته العناية الأزلية: أمامك القصد فلا تلتفت إلى وراك، ولم يزل يتردد في النواحي والأقطار، حتى أوصلته لطائف الأقدار، إلى بندر كاليكوت من مليبار، فألقى بها عصا التسيار، واتخذها داراً للاستقرار، مع التحقق بمقام ترك التدبير والاختيار، وكان يتردد منها إلى الحرمين الشريفين وغيرهما من الجهات، يتعرض بذلك للنفحات، ويتصفح وجوه معاني الجذبات. وأجل من أخذ عنه وانتسب إليه في تلك الديار، السيد الجليل الإمام الولي محمد بن حامد بن الشيخ عبد الله بن علي ـ المعروف بصاحب الوهط ـ بن حسن بن الشيخ علي، وفي بعض تنقلاته وميمون عزماته، سافر إلى الحرمين من مليبار فحج وزار، ثم قصد وطنه الأصلي ومنبع فخره العلي، فخرج إلى الجهة الدوعنيَّة، وفي صحبته السيد العارف بالله، حبيبنا في الله الحبيب عبد الله بن محمد الجفري، ثم إلى حضرموت فأخذ بها عن سيدنا الإمام الوارث الشيخ الحبيب الحسن، بن القطب الشهير القطب عبد الله الحداد نفع الله بهم، واجتمع عليه بكليته وألبسه ولقنه، وكتب له إجازة ذكر له فيها خصوص طريق سادتنا العلويين وتمييزها على غيرها من الطرائق، ونقل في ذلك من الثناء البليغ عن والده سيدنا الحبيب عبد الله ـ نفع الله به ـ ما قدمناه قبيل ترجمة سيدنا وشيخنا الناظم، ولما وصل إلى مدينة تريم، رحبت به ألسن معهده القديم، وابتهجت بوصوله الأجساد والأرواح، ولم يبقَ أحد من ساداتها إلا وجاء إليه وراح، ثم لما قضى بها غرضه على الكمال والتمام، وحصل له من ذلك النادي غاية القصد والمرام، رجع إلى تلك الديار، وفي مرة أخرى زار المسجد الأقصى

بالقدس، وحصل له ما في النفس، وقد صنف في هاتين الطريقتين، اللتين أحدهما عن هذين الإمامين للفريقين، مصنفين فائقين، شرح بهما منظومته فيهما، سمى الشرح الأول الذي فيه بيان أخذه عن سيدنا الحبيب محمد بن حامد بن عبدالله بن علي شيخه: (قضايا مسلك جوهر الجواهرية، وبرهان سلطان مشايخ العيدروسيَّة القادرية)، والثاني: (كتاب كنز البراهين الكسبيَّة، والأسرار الوهبيّة الغيبيّة، لسادات مشايخ الطريقة العلويَّة الحسينية والشعيبية)، وكان أخذ سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ عن سيدنا الحبيب شيخ في جهة الحرمين وغيرهما، كما ذكر ذلك في أثناء ما ترجم له، قال نفع الله به وبكلامه وبما قاله في إمامه: شيخ بن محمد الجفري، السيد الشريف العارف الذائق والمجد السابق، ذي الذهن الصافي والكرم الضافي، والكرامات الخارقة والفراسة الصادقة، شيخ الطريقة والحقيقة، الباذل جهده في نفع الخليقة، اجتمعت به في سنة خمس وثمانين بعد المائة والألف ببندر مسكت، وأنشد عند اجتماعي به بيتين:

لقد أتيت وما أحسبكم خلفا وقد رجعت وظني فيكم خلفا
فإن رضيتم فذاك الظن حسبكم وإن أبيتم فما كلفتم كلفا

وأنشد أيضا:

عنيت والبار في ذا من عنيت به فكن مديماً كذا في خدمة الباري
إن الذي في فنون العاشقين غدا ما قط جار ولكن دمعه جاري

وترددت عليه في مدة جلوسه في البندر وألبسني قميصاً، ثم في سنة ست وثمانين ومائة وألف جاء إلى اليمن ثم إلى الحرمين، فرأيت قبل وصوله إلى بندر اللحية كأني في تريم، وكأني مع سيدي الحبيب عبد الله بن علوي الحداد في مكان لسيدي علي بن عبد الله العيدروس، فقال سيدي الحبيب عبد الله الحداد للخدام: قل لحبيبك يجيء إلى مكان جالس فيه الحبيب، فلما جاء وجلس قال لي: سلم على حبيبك، فسلمت عليه فأخرج من فيه ملأ كفي، فنظرت إلى الحبيب عبد الله فقال لي: اشربه فشربته، فبعد يوم وصل سيدي الوالد شيخ إلى مرسى اللحية، وكتب كتاباً يخبرني بوصوله، فحصلت لي أبيات أرسلتها إليه، فمما حفظته منها:

لك الحمد مولانا على هذه النعمة وصول الشريف الحبر الرجل الأمة
ربيب المكارم والمعارف والحجا ورب الفصاحة والبلاغة والحكمة
شريف رقا سامي العلا فتسارعت إليـه فتـوحـات معظمـة جمـة
فما حاتم إن قيس يوماً بجوده وما أحنف إن قيس يوماً به حلمه

وهي من نحو ثمانية عشر بيتا، وقد أجاب عنها بقصيدة مجيدة ثم لم تزل تصل لي منه الصلات، وفي سنة خمس وسبعين وصل للحج، ولما وصل إلى الحديدة ـ وكنت إذ ذاك ببيت الفقيه ـ أرسل لي هديَّة، وقال لبعض المحبين: قل للسيد عمر الكيف عند العطار، ثم سافرت إلى الحرمين، واجتمعت به في جدة، وسرت معه إلى مكة وإلى الطائف، وجلس نحواً من ستة أشهر في مكان واحد، وقرأت عليه في (المشرع الروي) إلى ترجمة الشيخ عبد الرحمن بن علي بن أبي بكر، وفي كتاب (منازل السائرين) للهروي، وشرح حكم الشيخ شعيب أبي مدين للشيخ أحمد بن إبراهيم علان، ولبست منه وأخذت عنه الذكر لا إله إلا الله على كيفيَّة الطريقة العيدروسيَّة، وسافر تلك السنة إلى القدس، ورجع إلى محل إقامته جهة مليبار في عامه، وأرسل إليَّ منها كتابه (كنز البراهين)، و (مضاعف الرزانة) والديوان في سنين متعددة وخرقاً كثيرة، أرجو بركة ذلك وبلوغ المأمول مما هنالك، وكان ذا كشف جلي وكرم مفرط وفيّ. ومن كراماته المتواترة بركة الطعام في صحنه المعروف إذا قدم بحضرته، لا يؤكل فيه جميع ما فيه ولو اجتمع من اجتمع عليه. انتهىٰ ما ذكره سيدنا وشيخنا، نقلته من خطه فيما ترجم به لشيخه بقية الأفراد وحجة الله على العباد شيخ الجفري المذكور، وقد قدمنا في ترجمته أن هذه الرؤيا التي ذكرها هنا تحتوي على أسرار خفيَّة وإشارات إجمالية، منها وصول سيدنا الحبيب شيخ بعد الرؤيا، فيه إشارة إلى أخذ سيدنا الحبيب عمر عنه الطريقة العيدروسية المتصلة بالحبيب علي بن عبد الله، ومنها ما سبق من التفصيل في سبب طلبه لتخميس ذكر العهد والربا والمنازل، وما ذكره له سيدنا الحبيب شيخ هناك فلينظر من ترجمته، وقد أثنى على سيدنا الحبيب شيخ جم غفير وخلق كثير، بل أجمع عليه علماء عصره وأئمة دهره، أنه أحد الأولياء العارفين والأبرار المقربين، أخبرني سيدي سلالة الأخيار الحبيب عمر بن علي البار، قال: لما دخل سيدي

الحبيب شيخ الجفري مدينة زبيد، لزيارتها والاجتماع بعلمائها وفضلائها، اتفق على . .[1] مروره على بلدة المشايخ العارفين بني المشرع بغير قصد، ودخل إلى مبرز الشيخ عبد الرحمٰن المشرع، وهو الذي قدمنا ترجمته عن سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار صاحب المنظومة وأنه من مشايخه، قال: فكان وصولنا إليه وقت القيلولة، ومن المعلوم عند الخاص والعام من أهل الناحية، أن الشيخ عبدالرحمٰن المذكور لا يخرج في ذلك الوقت، ولو جاءه من جاء من الأعلام حتى الإمام، قال: فما دخلنا وجلسنا إلا وخرج إلينا الشيخ، وأقبل على الحبيب شيخ بالإعظام والاحترام، كما ينبغي من أولي الفضل التام، وجلسا يتذاكران إلى وقت صلاة الظهر، وصلينا الظهر في المسجد، فرأى الشيخ عبد الرحمن المذكور معي قصيدة الحبيب شيخ مطلعها:

رباعية الاسم ثلاثية المعنى لقد أعربت قلبي بنحو له مبنى

فسألني عنها فأخبرته أنها من نظم هذا السيد، فتعجب من ذلك وزاد امتلاؤه به واستمداده منه، وطلب منه أن يقيم عنده تلك الليلة فلم يوافقه على ذلك، وصلوا العصر وقدم لهم طعاماً،وخرج الحبيب شيخ متوجهاً إلى زبيد، وخرج الشيخ يشيعه ويماشيه، ويستفيد منه ويذاكره ما شاء من علوم الأسرار، حتى عزم عليه الحبيب شيخ بالرجوع إلى بلده، ولما وصل إلى زبيد، اجتمع بعلمائها، وسأل عن الشيخ عبد الخالق المزجاجي شارح قصيدة الناشري التي امتدح بها السيد محمد باري، المتقدم ذكرها في ترجمة سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار نفع الله به، وَحَرِصَ على الاجتماع به، فأخبر أنه خرج إلى محل له يسمى (المجيلس) تصغير مجلس، وكان سيدنا الحبيب شيخ قاصداً زيارة الشيخ الكبير أحمد بن علوان، فعرج على ذلك المكان، فقيل له: إن الشيخ عبد الخالق لم يخرج من زبيد، وإنما الذي خرج أخوه أمر الله، وكان أيضاً من عباد الله الصالحين والصوفية العارفين، فقال لهم: ما نحن إلا تحت أمر الله، نزور أمر الله، فزاره واغتبط الشيخ بوصوله، قال الحبيب عمر المذكور: فلما رجع من زيارة بن علوان وسافر إلى

---

(١) كذا بياض بالأصل.

مليبار، دخلت زبيد واجتمعت بالشيخ عبد الخالق المذكور، فذكرت له سيدي الحبيب شيخ وعرضت عليه القصيدة المذكورة، فلما وقف عليها وقرأها قال: هذا السيد من الأفراد، وممن يعرج به أو بروحه إلى السماء أو العرش. أو كما قال، قال: واستبعد بعض علماء عمان أن يكون ما وصف في هذه القصيدة لأحد من عاد في الزمان. قال: وكان قد اجتمع به سيدي الحبيب شيخ، وقد سئل عن مسألة وهو حاضر عنده فأحجم عن جوابها، فأجاب عنها سيدي شيخ، ولما أخبرته بقوله في القصيدة، وأنه قال: إن ما فيها إنما هو مقام رجل كالعيدروس، قال لي: جوابه مذكور فيها، أراد بذلك بقوله في أثنائها:

ومن قال بالتكذيب فيما نظمته   جوابي له المفتري قد كسب لعنا
ومن كُذِّبُوا قبلي فلي أسوة بهم   فإما قبول منه أو يعتزل عنا
فمجتهدٌ فاز بأجرٍ وإن خطا   فغيرنا آخر يصاب بما صبنا
وما شيخ إلا جعفري وقد سما   بجفر فدع عنك البغاضة والشحنا
فكن لازماً درب الشريعة دائما   وَكِل أمرنا لله وأحسن بنا ظنا
فمن حبَّ طه المصطفىٰ ثم آلٰه   وأصحابه حاز المسرة واليمنا
وسلم لتسلم في كلامي ولا تعب   رباعية الاسم ثلاثية المعنى

فقول الشيخ المزجاجي أنه من الأفراد، فهو قول خبير عارف عند أولي الحق من النقاد الصيارف، الذين بنور بصائرهم يميزون الرائج من الزائف.

وقد علمت مما قدمناه في هذا الشرح في مواضع، ما نقلوه عن الشيخ محيي الدين ابن عربي، وما ذكره الشيخ الكبير أحمد بن عبد القادر باعشن، القائل فيه الشيخ القطب الحبيب عبد الله الحداد: إنه ابن عربي دوعن، أنهما قائلين بأن الأفراد خارجون عن دائرة القطب، وأن مقامهم فوق مقام القطب. قال الشيخ أحمد بن عبد القادر المذكور في بعض مؤلفاته ما معناه: لأن الأفراد تعلقهم بالعالم العلوي، والقطب تعلقه بالعالم السفلي. وذكر في مؤلف آخر ما يؤيد ذلك، تركنا نقله لإشكال فيه لا تبلغ عقولنا القاصرة كنه معانيه، وأما قوله: (وممن يعرج بجسمه أو بروحه إلى السماء) فذلك مما لا خفاء فيه عند أهله القائلين بفضله، بل إلى العرش والكرسي.

قال الشيخ أحمد بن عبد القادر المذكور ـ نفع الله به ـ في شرح كلمات مشكلات في بعض كتب الشيخ محيي الدين محمد بن علي بن عربي قدس الله روحهما: وكل من وصلت روحه من الأولياء إلى صفة وصفيَّة أو صفة ذاتية، ولم يتحقق أن مدده منها على يد الروح الأحمديَّة، لم يبلغ مقصوده منها وإن أحضر فيها.. إلى أن قال: فهو البرزخ الجامع للنازل والطالع، فاعرف قدره وفخم أمره، تنل بواسطته كل مقام جليل، وتعطَ على يديه كل حال نبيل، وربما طال بإزاء روحه بعصفور روحك إلى حضرته، فتتلا شى روحانيتك في عظيم روحانيته، فتكون هويتك عين هويته، فيكون هو الظاهر بأبنيتك والباطن بحقيقتك، فتكون وارثاً لخلافته، في جميع حضرته، الذاتية والصفاتيَّة والأفعاليَّة الأسمائية، فتكون ساريا بحقيقتك في صور جميع الكائنات، والمتحكم فيها فيما مضى وفيما هو آت، على ما اشتملت عليه السبع الأرضين والسماوات. انتهىٰ، ثم ذكر مقام الأفراد أنهم يبلغون مقاماً فوق ذلك، ولذا قلت آنفا: بل وإلى العرش والكرسي، أخذاً من كلام الشيخ في الأفراد، الذي أرشد المزجاجي المذكور إليه، بما حكى عنه هذا السيد البار المبرور أن سيدنا الحبيب شيخ منهم، ويعرف هذا أيضاً من تحقق أحواله ورأى أفعاله وسمع أقواله، وكذلك ما حكي عن السيد العارف بالله تعالى علي بن أحمد بحر نفع الله به، السابقة ترجمته عن سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار نفع الله به، مما يؤيد هذا الكلام ويشير إلى تحقق سيدنا الشيخ بهذا المقام، وذلك أن السيد علي المذكور مر على بعض الدهاليز ببيت الفقيه بن عجيل وسيدي شيخ جالس فيه، فلم يمكنه المرور حتى دخل عليه مع عدم سبق معرفة له على قبل ذلك، كما هو عادته مع كثير لا سيما مع أهل التأثر والتأثير، فلما دخل عليه سأل سيدنا شيخ عن توجهه إلى أيِّ الجهات، فأخبره أنه متوجه إلى زيارة الشيخ أحمد بن علوان، فقال السيد علي: وتجد الباب مفتوحاً، وكان السيد علي مشهوراً بالجذب والحال، فقال له سيدي الحبيب شيخ: إن وجدناه مفتوحاً وإلا فتحناه، فقال السيد علي: كن عن همومك معرضاً، فقال سيدي شيخ: هذه الأبيات قد خمسناها، فقال: اكتبوا لي تخميسها، فكتبوه وقرأه، فقال لسيدي شيخ لما رآه: يصلح لك أن تفتح الباب، نفع الله بهم. وكنت سنة حججت ولقيته في البلد الأمين الحرام، كنت أتردد إليه

تلك الأيام في مكة والمدينة على مشرفهما أفضل الصلاة والسلام، وقد سافرت إلى المدينة في الركب الذي سافر فيه لأحوز بركة نظره وفضيلة النظر إليه، فيبلغنا أنه في بعض الليالي يتعب تعباً كثيراً، ويظن الحاضرون عنده أن ذلك مرض يعاوده وليس كذلك. وأخبرني سيدي الحبيب المنير عمر بن عبد الله الجفري، أنه في العام الذي ورد عليه في سنة تسع عشرة ومائتين وألف، زاد عليه هذا الحال حتى صار يغلبه في أكثر الأحوال، فيصير مصطلماً فلا يتمكن في بعض الحالات حتى من الصلوات المفروضات، ولا شك أن هذه حالة الجمع التي تقضي بصاحبها إلى التلاشي والاضمحلال كما وقع لكثير من الرجال، كما بينا ذلك ونقلنا كثيرا من حكاياتهم ومقالاتهم فيه عند قول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

ونظمت أسما أرباب الوصول ورزق التـالـي مـن الله القبـول

ونقلنا هناك أيضا أن الشيخ عبد الله الحداد يقول: إن العارفين يشتاقون إلى دوام الجمع، والحق ينقلهم عنه لطفاً بهم وليقوموا بالتكاليف، ولئلا تضمحل أجسامهم وتتلاشى عظامهم، لأن الواردات الإلٰهية إذا قويت واستولت لم تثبت لها القوى البشرية.. إلى آخر ما قاله نفع الله به، فما يحصل لهذا العارف الواصل الجليل إنما هو من هذا القبيل، فاعلم ذلك وافهم وسلم تسلم وتغنم، ورأيت تلك السنة أيضاً مع قصوري من حيث ما يتعلق بأمر الظاهر، فضلاً عن الباطن والسرائر، أن الكون منطوٍ فيه، وذلك أن طوائف أهل الطريق يردون عليه، وكذلك علماء الظاهر والباطن من أهل الحرمين وغيرهما، قصدوه للزيارة والنظر إليه والاجتماع به، والأخذ عنه الذي يحصل عند أهل الطرائق حتى بالأكل، ولما كانت وراثته محمديَّة وطريقته حدادية، قلَّ أن يفارقه أحد زاره واجتمع به في وقت من الأوقات إلا عن ذواق، أما الوراثة المحمدية في الذواق، فمعروفة من الحديث الذي صح برواية الثقات السباق، وأما الإشارة بالطريقة الحدادية، فلأن سيدنا الشيخ عبد الله الحداد يقول ما معناه: إن العقول قصرت عن إدراك الغايات، والهمم صغرت عن التطلع إلى النهايات، والقوابل غير مستعدة لما يلقى إليها من أنوار المعارف والتجليات واللطائف، بواسطة المشايخ من كل ذي قدم راسخ، فلذلك يودع لهم السر الذي

أمرنا بإيصاله إليهم في الطعام، ولما كان هذا السيد العارف غاطساً في بحر هذه الطريقة، شارباً من خمر هذه الحقيقة، وصفه الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن عبداللطيف بهذه الأحوال والمقامات، التي من أجلها حالة الجمع والفرق المتغايرات في الحالات المختلفات، فقال رضي الله عنه البيت الأول:

خذ الكأس من خمر الحقيقة بالسر عليك بحان القرب تظفر بالسر

ثم حث على السعي في أسباب شربها، وحذر عن خمرة الكَرْم وقربها، ثم مدح الأولى ووصفها، وبين نعوتها وعرَّفَها وذكر شوقه إليها، لما لاح له من بارقها، ولمع له من طوالع مشارقها، ثم قال:

فكم جد في تحصيلها وطلابها أناس فباؤا بالعناء وبالخسر
وكم أعملوا نص العتاق لنيلها فآبوا بأيد من مداركها صفر

إلى أن قال:

نعم نال فتح الباب منها أئمة بأرواحهم جادوا وبالنفس والعمر

ثم وصف ما حصل لهم بشربها وقال بعده:

تجلى لهم حقا جمال حبيبهم فقالوا لمحزونات أعينهم قري
ونور أبصار البصائر منهم جمال التجلي للحبيب على الإثر
أولئك أقوام إليها تسابقوا يسوقهم التوفيق بالحث والزجر
ويحدو بهم حادي العناية للهدى على صهوات الذكر من ضمر الفكر
يؤمهم المولى الحبيب الذي سرت سرائره في عالم السر والجهر
إمام الهدى شيخ ابن أكمل عارف وأكبر ذي سر محمد الجفري
به افتخرت حقا مليبار واعتلت بسكناه كاليكوت منها مدى العمر
تفرع من أهل الحقائق سادتي بني علوي مفخر العصر والدهر

ثم قال بلسانه الفصيح في نعته المليح، بعده نحو اثني عشر بيتاً من المديح:

له منح الرحمٰن حسن خلائق وحسن صفات لم تكن قط في خبر

تعود حسن الخلق طفلا ويافعاً وكهلا فلا تلقاه منحرج الصدر
يعاشر أبناء الزمان بجسمه وما قلبه إلا مع الواحد الوتر

إلى آخر القصيدة، وهي على بلاغتها وصعوبة صناعتها نحو مائة بيت، أولها كما قدمنا في التغزل في خمر الحقيقة، ثم التخلص في وصف الذين سكروا بها، وحصل لهم من الغرام والهيام والفناء والاصطلام بسببها، ثم في مدح شيخ وقتها الموصوف، ثم سلفه وآبائه ومشايخه العلويين ذوي الفضل المعروف، ثم بالتوسل إلى الله بجاههم وسرهم وبحرمتهم وقدرهم، رضي الله عنه وجزاه خيراً، وقد أثبتها في مسودة هذا الشرح برمتها، وقدمت قبلها أبياتاً لا أراها إلا تغير في وجه بلاغتها، لكنها لما تحلت بمدحه وأناخت ركاب ألفاظها على باب فتحه، أوردها هنا غاضاً عين الالتفات إلى الاعتراض وتأنيب ذوي الأمراض، وهي:

أيا وارث الأسرار يا أيها الجفري ويا مهبط الأنوار يا خطة السر
ويا عين هذا الوقت يا شيخ أهله ويا من به حازت مليبار للفخر
أغيثوا عبيداً صارخاً لجنابكم لهيفاً أعيذوه من البؤس والضر
فليس له إلا الوثوق بجاهكم وحبكم ذخري أشد به أزري
فمنكم وفيكم وبكم وعليكم إليكم لديكم لكم ينتهي أمري
فمنكم غذاء الروح في حضرة الفنا به يغتني عن رفق زيد وعن عمرو
وفيكم ذهاب النفس في حضرة البقا بساحات عين الحق من غير ما نكر
وثم بكم يسطو على جملة العدا ومن يبتغي الاعنات بالزور والمكر
وحط عليكم حمل كل ثقيلة على ظهره من مزريات به تزري
وسار إليكم زاده ذات عجزه فصار غنيا بالإضافة للفقر
ولما أناخ ركبه رغبة لما لديكم من المعروف والخير والبر
وكان لكم في كل حال مراعياً بدا فضلكم قلتم له فزت بالبشر
فما هو إلا أن رأى من قبولكم له خرَّ إذعاناً لمولاه بالشكر
فمنه تعالىٰ كل فضل ونعمة وأنتم لها واسطة بالنبي الطهر
عليه صلاة الله ثم سلامه صلاة وتسليما تدوم مدا الدهر
وآل وصحب كلما قال صادق أيا وارث الأسرار يا أيها الجفري

وقد سبق في هذا الشرح في ذكر أهل البيت عند ذكر سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله سره:

قصدت نظم سندي إلى النبي　　كما به صح اتصال نسبي

ذكر تعجيزي وتصديري لأبيات من نظم مصطفى الخلي، كما سمعت ذلك عن سيدنا الإمام البدل عبد الرحمٰن بن سليمان مقبول الأهدل، وكان قد ألقاها سيدي العارف الحبيب عمر بن طٰه بن الشيخ وارث الأسرار الحبيب عمر البار، إلى سيدي شيخ حاكياً ما عنده من الحب الغالب، وطلباً لنيل أسنى المطالب، إذ براعة استهلالها ووجه مطلع هلالها قوله فيها:

ماضي غرامي بدا نصباً على الحال　　يا سادتي فاعطفوا جوداً على حالي

فمبتدأ خبري أني أحبكم　　والحب في مذهبي من حسن أعمالي

وتعجيزي وتصديري هذين البيتين هو قولي:

ماضي غرامي بدا نصباً على الحال　　فصار مستقبلاً تمييز إشكالي

وعن سواكم ضمير القلب منفصلاً　　يا سادتي فاعطفوا جوداً على حالي

فمبتدا خبري أني أحبكم　　فأسندوني برفع ثابت عالي

من جملة النصب من حال الوداد لكم　　فالحب في مذهبي من حسن أعمالي

على هذا النمط إلى آخر التعجيز والتصدير، وتخلصت بتذييل في مدح جنابه الجليل، فلما رأى ذلك زاد فيه أبياتا أربعة، ولما وصل إلى مليبار جعل عليها جواباً عرَّض فيه بذكر سيدي عمر بن طٰه البار، وكانت الأبيات الأربعة معروفة له فيهما، الأول في صدرها وهو قوله:

أقول من بعد حمدي حال في بالي　　تعجيز تصدير من قال وليس لي

والثاني قوله بعد أبيات التعجيز والتصدير:

ثم وذيلت ما كنت قصدت له　　بنور من نوره حالاً تجلى لي

والثالث عند التصريح بذكره قال رضي الله عنه:

والجفر علم لأهل البيت قيل بدا　　لعلي أدركه بالعجز مروي لي

والبيت الرابع آخر القصيدة، وما بعد هذا البيت قوله (والجفر علم لأهل البيت..) إلى آخره، هو قولي في التذييل:

بسند من لدى شيخ الوجود الذي ... بـه مليـار أضحـى سعـره عـالـي
واحـده الفـرد منصـوب بـه علـم ... للفتـح بـاب وضـم البـائـس البالـي
والكسـر يجبـره بـالـرفـع فـي مـلأ ... همـومهـم علقـت بـالمـلا العـالـي
هـذا فتـى ألفـه مـألـوف عـادتـه ... بغيـر تغييـر أوصـاف وابـذالـي
أحـوالـه معـربـات فـي عـواملـه ... حسب القوابل من وقف وإيصالي
فتـارة رافعـاً أمـر التجـرد فـي ... حـالاتـه بيـن أضـداد وأشكـال
وتـارة نـاصبـاً شـأن التكسـب مـن ... أعمـالـه فـي غـدايـاه وآصـالـي
وتـارة جـازمـاً فعـل السكـون لمـا ... يلقـي إليـه بحسـب الـوارد الحـالـي
وتـارة خـافضـاً بـالكسـر منتسبـاً ... للفخـر مكتسبـاً للـوزر حمـال
هـذا فـأكـرم بـه مـن سيـد سنـد ... عـم الـوجـود بـإمـداد وإفضـال
وكـم لـه مـن مـزايـا لا تعـد ولا ... تحصـى ادكـاراً بتفصيـل وإجمـال
أرجـو بـه نجـح مطلـوبي وعـائـدتـي ... فتـح وفـوز وتبليـغ لآمـالـي
فقـد وقفـت علـى أعتـاب حضـرتـه ... أرضـى إيـاه علـى الخيـر مـولـى لـي
ثم الصلاة على المختار من مضر ... مـا دار زيـد مـع عمـرو بتمثـال
ومـا تغنـى بـأسجـاع الكـلام فتـى ... والصحـب طـراً مـع الأتبـاع والآل
وقد حلا لي ختامي بابتدائي كما ... ماضي غرامي بدا نصباً على الحال

والحاصل أن أخبار هذا الإمام، وفضائله التي ذاعت وشاعت في جميع أقطار الإسلام، ومناقبه التي لا ترتقى لغيره ولا ترام، من المعرفة الكاملة، والمحبة الخاصة الخالصة الشاملة، والزهد العيسوي الإبراهيمي، والجود النبوي الحاتمي، والحلم الأحنفي، والعلم اللدني الخضري الوفي، والإخلاص المحمدي والصدق الأحمدي، واليقين الحيدري والتوحيد البكري، والعلوم النافعة والدعوة الجامعة،

والوراثة النبوية والإمامة العلوية والطريقة الشعيبية، والسير بحقيقة ما حرره الغزالي، والطيران بالسر والروح في العالم العلوي العالي، كل ذلك لا ينتهي بالإجمال والتفصيل، ولا يستطاع ضبطه بأنواع الحصر الكثير ولا القليل، فهو طلسم الأرواح وكعبة الأجساد والأشباح، وحقيق بأن يكون النائب المحكم من بني الإمام الأعظم الفقيه المقدم، فله من الكلام ما يدل على أنه صاحب هذا المقام، ومنه قوله في بعض ما قيده بالانظام:

أنا الجفري على رغم الأعادي	فدع يا عاذلي عنك اللجاجة
بلغت ما أردت بحول ربي	وفزت بالمنى وقضيت حاجة
أنا بالبر بحر لا يكدر	مليح لا تخالطني سماجه
وبر وسط بحر لست أخشى	من الريح متى زاد هياجه
أنا آكل بالليل نهاراً	وعندي أسهل الأشياء علاجه
وأيضاً قد أكلت الليل جهراً	نهاراً والجبان طفى سراجه
وأنت كالحبارى وقت خوف	وفي الأمن شبيه بالدجاجة

فقوله رضي الله عنه (بلغت ما أردت بحول ربي. .) إلى آخر البيت، يؤيد ما قلناه ويؤكد ما أعلناه، لأن أقصى مطالب العارفين ومنتهى غايات المحبين، هو معرفة الله تعالىٰ في مقام الصديقية الكبرى، وهلم جرا، لأن معرفته تعالى لا تنتهي إلى حد محدود ولا تقيد بأجل معدود، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما قدمنا ذلك في مواضع من هذا الشرح، ثم قوله (أنا بالبر بحر لا يكدر. .) إلى آخر البيت، المراد بالبر دائرة الشريعة والطريقة، والمراد بقوله (بحر لا يكدر) أي لا تعترضه القوادح والشوائب فيهما، التي تعترض أصحاب القصور، الذين لم يكمل لهم النور، ولا تكدره أيضا الأحوال، التي تعتور من لم يصل إلى ذروة الكمال، كالخوف والرجاء والقبض والبسط والحزن والفرح، فهذه أحوال تعتور من لم يكمل من الرجال، وأما من بلغ مقام الأنس واطمئنان النفس، فقد ملك الحق قلبه وصار ابن وقته، مشاهدة الجمال الحق على الدوام، ولم يبقَ له التفات إلى

المستقبل، فلم يكن له خوف ولا رجاء، بل صارت له حالة أعلى من الخوف والرجاء، وهو هذا المقام أي مقام الأنس، وهو المشار إليه بقول سيدنا الحبيب شيخ في هذا البيت (أنا بالبر بحر لا يكدر) على ما قدمنا من التأويل لهذا المعنى الجليل، وأما ما يعرف من حاله في بعض الأوقات، فيحتمل أنه يعرض له من التحملات، لأن كثيراً منهم لا تزايل بدنه الحمى، كسيدنا الشيخ عبد الله الحداد مكث نحو أربعين سنة أو أكثر والحمى في جسده، ويحتمل أنه من بوادي حالة الجمع التي ذكرناها آنفاً ومقدماتها، فإذا تمكنت فهي هي، فحينئذ يغيب عن البعيد والقريب، ويغني بتلك المشاهدة لجمال الله حتى عن الصلاة، وهو بذلك معذور، لتولهه بالنور الذي صعق به موسى عن الطور، وليس ذلك في شيء أو من شيء أو على شيء محدود ومحضور، تعالىٰ الله عما يقول كل كفور. وأما ما تراه من أقواله وأشعاره في ديوانه، من اختلاف الحالات وحسب الواردات، مما يدل على الخوف والرجاء والقبض والبسط، والمبالغة في الثناء على من أحسن إليه، والرد على المعترضين في بعض الأحوال والأقوال عليه، فكل ذلك من شأن الوارث الذي عبر من مقام الفناء إلى مقام البقاء، وهو إعطاء الشريعة والطريقة حقهما والقيام بمستحقهما، وقد رأيت سنة من السنين مرثية له في ولده الشريف الجمال اليحيف محمد رحمه الله تعالىٰ، وفيهما ما يستعمله المرثيين من التأسف والتلهف، على من يستاهل ذلك من أرباب المعرفة والتعرف، فذكرت ذلك لسيدنا وشيخنا الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار، فقال نفع الله به: هذا ليس هذا مقامه. أو كما قال، وكفى بقول هذا العارف شاهداً، ولما ذكرنا مؤيداً، وأما قوله (وبحر وبسط بر لست أخشى. .) إلى آخره، فمعناه أنه بحر الحقيقة، ولكنه وسط بر الشريعة، لا يخشى من هيجان عواصف رياح الزلق الموجبة للغرق، بما آمنه الله به من لطائف إحسانه وسوابغ امتنانه، وتثبيته تعالىٰ حبّاً له وكرامة له بالقيام التام على قدر الاستقامة، فلا تغيره الطوالع واللوامع، إذ هو الواصل إلى مقام: ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، وقول إمام العارفين ابن الفارض رحمه الله تعالى:

قال لي حسن كل شيء تجلى … بي تملى فقلت قصدي وراكا

وأبياته هذه منتزعة معنى وذوقاً وعلماً وتحققاً من قول سيدنا القطب الحبيب عبد الله الحداد ، مغردا طائر رجاه في وثوقه بمولاه أن يديم له ما أعطاه:

يا عاذلي دع عنك زخرفة أتعبت فيها بالك البالي
هل أنت مني حين أكرمني ربي قريب أيها الخالي
وهل رأت عيناك سراً به قد خصني من بين أشكالي
أو ما رأت روحي وما سمعت من عينه بالمنظر العالي
مت إن تشأ غيظاً فليس إلى قطعي سبيل قد تجلى لي
وقد حمى أطراف مملكتي بالقهر جل القاهر الوالي
لي منه عين منك تحفظني بالغيب نعم الحافظ الكالي
لا آمن المكر ولكنني أريد أن أخزيك يا غالي

وباب التأويل وسيع كل على قدره يطول، ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ الآية، وقد بينَّا أول هذا الشرح حكم التأويل والاستنباط، أنه سائغ شرعاً وعقلاً إذا لم يحصره المؤول على كلامه، ونقلنا هناك دلائل ذلك، ومنها ما ذكره سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار في النبذة التي شرح بها على أبيات صاحب الترجمة، قال في أثناء خطبته: وإن لم يكن ـ أي كلامه عليها ـ على قدر كلام الناظم، لكنها إن شاء الله ما تخرج من بعض محتملاته. انتهىٰ، ونقلنا هناك أيضا من الإحياء، والعهود الشعراوية والعوارف السهروردية، والهدية السنية للشيخ حسين عبد الشكور وغيرها، مما فيه مقنع، وللواقف عليه في سلوك مهيع الاستنباط والتأويل متسع، وله ـ نفع الله به ـ قصائد أخر من هذا القبيل، ظاهرها التبجج والتحدث بالنعم التي أولاها له مولاه، وخصه بها وأسناه، وكلامه ـ نفع الله به ـ كما قاله سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار لا يفهم على البديهة، بل لا بد من التأمل التام، كيف وقد قال الإمام الكبير ابن عطاء الله الشهير: كل كلام برز وعليه كسوة القلب الذي برز منه. فمن قلبه في حضرة الحق كيف لا يلتبس كلامه على من لم يذق شيئا من مشاربهم، ولم يتحقق وهو يبرز وعليه كسوة ذلك القلب الساطع،

بالحقائق الربانية ذات الأشعة اللوامع، أدام الله بقاه في تلك الحضرة، وأمطر عليه من شآبيب تجلياتها ما يغطي ظاهره وسره، ونفعنا به في الدارين آمين.

ثم قال سيدنا وشيخنا قدس الله روحه ونور ضريحه:

عـن الإمـام فـي علـوم الـديـن الحســـن الحـــداد ذي اليقيـــن

هذا أحد الشيخين اللذين أشرنا إليهما من مشايخ سيدنا الشيخ الإمام شيخ ابن محمد الجفري، الذي أسس عليهما إسناد طريقته وأصلهما في اعتماد حقيقته، وهو الشيخ الإمام أسد الله الضرغام، أحد دعائم الإسلام، القائمة به قواعد شرعه في الحلال والحرام، وشعائر طريق القوم ورسومهما، والتحقق فيها بكل مقام وحال، البالغ من أسرار الحقيقة غاية القصد والمرام، سيدنا الشيخ العارف بالله تعالى، الوارث لجده وأبيه مقاماً وحالا، الناشىء في طاعة الله علماً وعملا، الراقي من مقامات الدين فنناً وقللا، الحسن بن القطب الإمام، وارث علوم سيد الأنام، الشيخ الكبير الغوث الشهير، عبد الله بن علوي بن محمد الحداد باعلوي، ولد بتريم وحفظ القرآن العظيم، ونشأ في حجر والده في أهنأ عيش وأطيب نعيم، وتربى به وأخذ عنه علوم الشريعة والطريقة والحقيقة وآلاتها وحقق فيها، وسار بسيرة سلفه الكبرى، والتحق بمقام العباد والزهاد والصبر من الفقراء، ولما كان مراداً بالترقي إلى أسنى المقامات، والارتفاع إلى أعلى الدرجات، كان في حياة أبيه متغمراً في نوره، مستتراً بشمس ظهوره، ثم لما انتقل استمر على ذلك الحال، من محو الرسم والاسم مع تأهله للخلافة، إذ قد آتاه الله بسطة في العلم والجسم، ولعلمه أن ما هو عليه من الحال لا تثبت عليه إلا أقدام الرجال، وكان أخوه الإمام علوي هو القائم في مقام أبيه، والخليفة بعده من بنيه، فبقي سيدنا الحبيب حسن مدة حياته ماحياً لرسومه، طاوياً نشر آثار أسرار علومه، فلما توفي سيدنا علوي المذكور، أشرق نور صاحب الترجمة، وغرد طائر سعده بما له في هذا العالم من الظهور، فكان قطب دائرة ذلك المقام، وقام بإحياء رسومه أتم قيام، من تدريس العلوم النافعة، والمبالغة في الدعوة إلى الله تعالىٰ والمسارعة، وقصده الخاص والعام للأخذ عنه والتلقي منه، حرصاً على الاتصال بطريقة أبيه لعلو إسناده إليه، وأخذ بالحظ الأوفر من الدخول في الدائرة الحدادية، التي لا يتم الفطام بدون

التعلق بسبب من أسبابها العلية، كما قدمنا في ترجمة سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ في جواب شيخه سيدنا الحبيب شيخ الجفري على قصيدته التي ذكر بعضها في ترجمته، التصريح بهذا المعنى وهو قوله في أثنائها:

أيـا عمـر البـار الـذي جـاء بـره لـه شـاهـد زكـاه مـع ذا ذكـاء فهمـهْ

عليـك بحـداد القلـوب عقيـدة فمن دون حداد فلا يحصل الفطمهْ

وقد ترجم سيدنا الحبيب شيخ بن محمد الجفري المذكور، لسيدنا الحبيب حسن صاحب الترجمة بلا تطويل، واعتذر بأن ذلك الاختصار لا يليق بمقامه الجليل، لكن لما كان عنه بعيد الدار، إذ هو بحضرموت والحبيب شيخ بمليبار، لذلك لم يبلغه الكثير من نشر أخباره وذكر معارفه وأسراره. قال ـ رضي الله عنه ـ في أثنائها: يقتدي به في ذلك النادي الخاص والعام، وسواه مأموم به، إذ هو في وقته الإمام الملازم للتدريس بالمساء والصباح، مدرس كل من أتاه لوجه الله، لا سيِّما الموسومين بالصلاح، مع هيبة وحلم ولطافة ووقار، موقراً مهاباً لدى الكبار والصغار، ينعت بكل نعت من النعوت محمود، من الذين جاء في حقهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾، ينحو إلى نحوه لإغاثة المظلوم، ويتصرف عنه تصريف الله الظلوم[1]، حاوي ما حواه غيره من الخير، زائداً على ذلك الغير بعدم الضير، علم منصوب منذ فتح الله عليه، مرفوع بالفاعلية بما ضم من العلوم لديه، خافض بالكسر لمن ناواه، جازم بالسكون لمن عاداه، شاد ماد في مراضي الله حتى أتاه اليقين منذ كلفه الله، بل هو شاب ماضياً وجواد ماكيا، ولم أقف على ما له من أخبار غير ما ذكرته، لكثرة بعد الدار عن الدار، لأنه بحضرموت وأنا بمليبار، وقلة أشوافي لتطلع أخبار الأخيار، ولادته رضي الله عنه لعلها عام ثمانية وتسعين بعد الألف من الهجرة، حسب ما نسمع عنه في مرضه الذي قد مات به، قال قد زاد سني على سن والدي بستة أشهر، وتوفي ـ نفعنا الله به ـ يوم الخميس لسبع وعشرين في رمضان سنة ثمان وثمانين ومائة وألف، وعمره كما يؤخذ مما تقدم تسعون سنة إلا أشهراً، فحينئذ ضابط عام ولادته بالجمل (لاح نور قد حوى حاوي تريم)، وعمره (طائع)، وتاريخ موته (حاوي تريم نوره لاح جلي)، وأيضاً

(١) هكذا في الأصل ولعله خطأ من الناسخ ولعل الصواب «ويتصرف عنه بتصريف الله للمظلوم».

يجمعه (شيخ كبير ولي)، رحمه الله رحمة الأبرار، وأسكنه جنات تجري من تحتها الأنهار. هذا ما ذكره سيدنا الحبيب شيخ نفع الله به وأجراه بالمعنى، وختم ترجمته بهذا المرثاة، قال ـ نفع الله به ـ مؤرخاً فيها عام الوفاة:

يـالقلـب قـد تـولاه الحـزن ومـلاه وحشـاه بمحـن
مـن همـوم وغمـوم لـم تـزل فيـه تحـرقـه بنـار مـن مهـن
وعيـون بـدمـوع قـد جـرت كعيـون سـابـلات بـالـوجـن
بفـراق السيـد السنـد الـذي نعتـه بـالخيـر سـراً وعلـن
خطبـه عـم الجـوارح كلهـا سيمـا قلبـي بـه الحـزن قطـن
فلـذا قلـت لـه يـا قلـب جـد لـي بضـابـط عـامـه أن تحسبـن
فـأجـاب مسـرعـاً لا ريـب فـي مـا أقـول عنـد أربـاب الفطـن
قـد أتـى التـاريـخ بـادٍ إنـه جنة الفردوس قد حل الحسن
رحمـة الله عليـه دائمـاً مـا بـإذن الله حـرك مـا سكـن
وختـامـي بـابتـدائـي قـائـلاً يـالقلـب قـد تـولاه الحـزن

والثاني من مشايخ سيدنا الحبيب شيخ الجفري من أهل البيت هو المذكور بهذا البيت في قول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وعن ربيب الكشف والمشاهد العـارف الـولـي محمـد حـامـد

هو العالم الرباني العارف بالله الصمداني، الذي برز في حلة الفخر الظاهر، ووقف في حضرة البقاء في أعظم المظاهر، وورث رئاسة شرف العلم أو الذات عن آبائه الأكابر، ووضع قدمه في السير على أقدامهم حذو النعل بالنعل، فوقع الحافر من حقائقهم على الحافر، سلالة الأئمة الرؤوس العظماء في العشرة والرهط، السيد الشريف العارف بالله تعالىٰ، محمد بن حامد بن الشيخ عبد الله بن علي صاحب الوهط، بن حسن بن الشيخ علي بن أبي بكر السكران بن الشيخ عبدالرحمن السقاف باعلوي نفعنا الله بهم، قال سيدنا شيخ في كتابه (النتيجة) المتقدم ذكره: ولد ببندر عدن خامس شهر شوال سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف، وتوفي في شهر رجب ليلة المعراج لسبع وعشرين منه سنة ستين ومائة وألف.. ثم قال: ورثاه جماعة بمراثي بليغة حسنة، لا نطول بذكرها لقصد الاختصار، وقلت

فيه بما لا ينافيه، وإن كان قولي ما به افتخار، حيث هو في أبيات قليلة قصيرة لا طويلة، وهي:

قلـــت للقلـــب المعنـــا ... مـا يـلاقـي نجـل حـامـد
مـــن هـــو لله دأبـــاً ... راكـــع أيضـــاً وســـاجـد
فـــأجـــاب فـــي ســـريـــع ... قـــل بـــرغـــم مـــن يعـــانـد
قـــد أتـــى التـــاريـــخ طـــاب ... قـــد ثـــوى الجنـــة حـــامـد
رحمـــــة الله عليـــــه ... صـــــادر أيضـــــا ووارد
عـــد أنفـــاس الخـــلائـــق ... مسلمـــاً كـــان وجـــاحـد

انتهى من الكتاب المذكور، وقد أشار سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ باتصال سيدنا الحبيب شيخ، وأخذه لهذه الطريقة العيدروسية القادرية عن سيدنا الإمام السيد محمد بن حامد بقوله:

سنـده بـالعيـدروسيـة وصـل ... وكـم طـريـق غيـرهـا عنـه نقـل

أي أنه اتصل بسند سيدنا الحبيب محمد حامد بالطريقة العيدروسية، وهي علوية متصلة بسند معنعن في غاية صحة طرف الإسناد، ونهاية الوحادة بتأييد الآباء والأجداد، وقوله (وكم طريق غيرها عنه نقل) أشار به إلى سيدنا الحبيب شيخ الجفري نفع الله به، نقل عن سيدنا الحبيب محمد حامد في كتابه (النتيجة) الذي هو شرح منظومة سنده المتصل به طرائق أخر، ومنها الطريقة القادرية التي جعلها عمدة هذا الإسناد، وبغية كل طالب ومرتاد، كما هي مشروحة واضحة للواقف على ذلك المؤلف، فاحرص على مطالبهم وارتشف من مشاربهم ولا تتخلف.

ولما شوق سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ بهذا البيت الطالب الراغب، إلى التطلع إلى معرفة تلك الطرائق، ليتحلى ويذوق ما تحلوا به وذاقوه من تلك الحقائق. وأيضاً من تمام الشرح له ذكر ما تضمنه معناه، ولمح إليه مبناه وأفهمه فحواه من تفصيل إجماله، حسن بنا أن نشير إلى شيء مع الاختصار، وحذف التراجم المذكورة في النتيجة، إلا عند ذكر شيخها التي عليه فيها المدار، وهو الشيخ القطب الشهير أستاذ الأكابر الشيخ عبد القادر الجيلاني، فبذكر مشايخ

هذه الطريق المتصل بشيخ المشرق، مع ما عقد له هذا الشرح مع أصله من بيان طريقة شيخ المغرب أبي مدين شعيب بن الحسين التلمساني المغربي، ليكون كتابنا هذا ملتقى الطريقين، ومجمع تجزي الفريقين، لأنا وإن كنا قدمنا ونقلنا آخر ترجمة سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ عن (المشرع الروي) أن المشايخ الذين نسب إليهم الخرقة الشريفة في جميع أقطار الأرض خمسة، وهم الشيخ شعيب والشيخ عبد القادر الجيلاني المذكورين، والشيخ السهروردي والرفاعي والكارزوني رضي الله عنهم.

فأشهرها الشعيبية الذي هذا الكتاب معقود لبيان رجالها، وتحقيق تفصيلها وإجمالها. والثانية القادرية الذي أبان كتاب النتيجة مدارها، وتدبر ربعها ودارها، ويكون ذكرنا هنا لأسامي مجردة عن المناقب والمنازل والمراتب، إلا في حق أستاذ الأكابر الشيخ عبد القادر، فأما من ذكر فيها من العلويين، وهو مذكور بمنظومة سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار ـ نفع الله به ورجال سنده ـ فستأتي ترجمته، وأما من لم يذكر منهم فيها أو كان من المشايخ اليمنيين، فطالب ترجمته محال على كتاب النتيجة، وغالب نقله من المشرع الروي وطبقات الشرجي، وهما كتابان مشهوران معروفان مذكوران، وأيضاً لما كان السادة اليمنيون منتمين غالباً إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، اكتفينا بذكر مناقبه وحملناهم على غاربه، وبعض من فوق الشيخ عبد القادر مذكورون في سند الطريقة العلوية الشعيبيَّة وسيأتي ذكرهم. قال سيدنا الحبيب شيخ في منظومته، إسناد هذه الطريقة بعد الخطبة:

يا سائلي عمن أنا طريقتي ... أخذتها عنه ومن هو عمدتي
واعلم بأن سيدي أستاذي ... المتصل لفضله إسنادي
محمد ابن الحامد الأواه ... السالك طريق أهل الله

ثم ساق مشايخها إلى آخرها، ونقل في شرحها تراجمهم من (شرح العينية) لسيدنا الإمام، الجامع للوراثة الظاهرة والباطنة في كل علم وعمل وحال، ومقام، الحبيب أحمد بن زين الحبشي، و (المشرع الروي) للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر الشلي، وعن كتاب الشيخ أحمد بن محمد القشاشي ـ قدس الله روحه ـ المسمى

بـ (السمط المجيد في سلاسل أهل التوحيد)، فاليد للإلباس والتلقين، والترقي إلى درجات مقامات اليقين ومواجيد السادة العارفين، كان لسيدنا العارف بالله تعالىٰ الحبيب شيخ بن محمد الجفري باعلوي، من شيخه الإمام الزاهد العابد السيد محمد بن حامد المتقدمة ترجمته قريباً، وهو عن السيد الإمام علي بن عبد الله الملقب الصليبية، بن أحمد بن الحسين بن عبد الله بن شيخ، بن الشيخ القطب الرباني عبد الله بن أبي بكر العيدروس، فخر العلوية وكبير الصوفية، ترجم له في شرح العينية، وهو الذي بينه وبين سيدنا الشيخ عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ الأخوة والامتزاج والاختلاط. وهو عن أخيه السيد الإمام أحمد بن عبد الله العيدروس، ترجم له في المشرع، وبالغ في الثناء عليه وأبدع، وهو عن أبيه عبدالله ابن أحمد العيدروس، ترجم له أيضا في المشرع، ووصفه بصفات الفضل أجمع، وهو عن والده أحمد بن الحسين العيدروس، ترجم كذلك في المشرع الروي، ونوه بعظيم جنابه العلي، وهو عن والده الشيخ الإمام الحسين بن الشيخ عبد الله ابن شيخ بن القطب الشيخ عبد الله العيدروس نفع الله بهم، لم يذكره في المشرع، إلا أن سيدنا الحبيب شيخ نفع الله به ذكر في كتاب (النتيجة) أنه بلغه أن صاحب المشرع ترجم له في كتابه (الجواهر والدرر في أخبار أهل القرن الحادي عشر)، أو في كتابه (النور الباهر ذيل النور السافر في أخبار أهل القرن العاشر) للشيخ عبدالقادر بن شيخ العيدروس نفع الله بهم، وهو عن والده الشيخ الإمام شيخ الطريقين واسطة عقد الأئمة الأعلام، عبد الله بن شيخ بن الشيخ عبد الله العيدروس نفع الله به، ترجم له الإمام الشلي في مشرعه الفائق، وقال: إنه أستاذ أئمة الطرائق والحقائق، وستأتي ترجمته أيضا في هذا الكتاب، وهو عن عمه القطب الشهير الرباني الشيخ أبي بكر بن عبد الله العيدروس العدني قدس الله روحه، وستأتي ترجمته أيضا هنا بما فيه غنىٰ، وهو عن الشيخ الإمام محمد بن أحمد بافضل السعدي، قال سيدنا الحبيب شيخ نفع الله به: وجدت له بعض ترجمة في بعض التعاليق، وذكر أن من مؤلفاته النافعة مختصر الأنوار المسمى بـ (نور الأبصار)، وشرح تراجم البخاري المسمى بـ (فتح الوهاب الباري في تراجم البخاري)، ومختصر قواعد الزركشي وشرحه، وشرح (العدة والسلاح لمتولي عقود النكاح)

وهو مشهور منتفع به، قال: توفي يوم السبت خامس شوال سنة اثنتين وتسعمائة، وولده عبد الله وحفيده عبد القادر أفاضل أيضاً، قبرا معه في الدائر المعروف بعدن رحمهم الله، وهو عن الشيخ الإمام العالم الرباني محمد بن مسعود باشكيل رحمه الله، ترجمه الإمام الطيب بن عبدالله بن أحمد بامخرمة بتاريخ ثغر عدن، وابن أخيه الإمام عبد الله بن عمر بامخرمة في ذيل طبقات السبكي، وهو عن الشيخ الإمام محمد بن سعيد بن كَبِّن، بفتح الكاف وكسر الباء الموحدة وتشديدها، ثم نون الطبري القرشي العدني، ترجم له الطيب بامخرمة في (تاريخ ثغر عدن)، وابن أخيه في ذيل طبقات السبكي أيضاً، وهو عن الشيخ الإمام أبي العباس أحمد بن أبي بكر الرداد البكري التيمي القرشي الصوفي، ترجم له الشرجي وأطال في ترجمته، وقال: إنه أخذ عن القطب إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي، ترجم له الشرجي أيضاً، وهو ـ أي الجبرتي ـ عن الشيخ سراج الدين أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن إبراهيم السلامي صاحب سلامة حيس، ترجم له الشرجي وقال: إنه هو الذي نصب الشيخ إسماعيل الجبرتي شيخاً، وهو عن الشيخ عبد الله بن علي الأسدي، وهو عن الشيخ فخر الدين أبي بكر محمد بن علي بن نعيم، وهو عن الشيخ أحمد محمد بن عبد الله بن يوسف، وهو عن أبيه محمد بن عبد الله الأسدي، وهو عن أبيه عبد الله بن يوسف، ومن يد شيخه عبد الله بن قاسم بن زريه، وهما لبسا من يد شيخهما أبي محمد عبد الله بن علي الأسدي، وهو الذي ترجم له الشرجي من بني أسد المذكورين، وضبط الأسد بفتح الهمزة وسكون السين وكسر الدال المهملتين، قال: وأصله من قوم يقال لهم (آل خلاد) يسكنون ناحية جازان، فخرج منهم إلى ناحية زبيد، وصحب الشيخ الصياد والشيخ علي بن الحداد والشيخ علي بن أفلح، كانوا يجتمعون على عبادة الله تعالىٰ، فلما ظهر أمر الشيخ عبد القادر الجيلاني واشتهر ذكره باليمن، ووصل الخبر بأنه حاج في تلك السنة، خرج الشيخ عبد الله حاجاً قاصداً مواجهته فوافاه بعرفات، فأخذ عنه اليد وسمع عليه شيئاً من الحديث النبوي، وكان قد أخذ طريقة الشيخ عبد القادر عن ابن الحداد قبل هذا، وعمر عمراً طويلاً حتى تعدى المائة، بل يقال إنه عمر مائة وثمانين، منها ستون في السياحة ودخل في أثنائها بلاد الروم، وستون كان يحج بالناس من اليمن إلى مكة،

وستون أقام فيها موضعه، وكان ما كان منه من ظهور الكرامات، وموضعه الذي استوطنه يقال له (الحَدِيَّة) بفتح وكسر المهملة وفتح المثناة المشددة، ومات بها سنة عشرين وستمائة، وقبره مشهور يزار، وله ذرية من بنته صالحون قائمون بهذا الموضع، وأما أولاده لصلبه فهم في بلدتهم جازان، ولهم هناك شهرة وزاوية محترمة، وغالبهم من أهل الخير والصلاح: هذا ملخص ما ذكر الشرجي، وهو ـ أي الشيخ عبد الله بن علي الأسدي المذكور ـ لبس ـ كما مر ـ عن قطب الدوائر وأستاذ الأكابر، وإمام أهل الباطن والظاهر، أبي محمد الشيخ الكبير عبد القادر محيي الدين ابن أبي صالح موسى بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجعد بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ الجيلاني الجيلي، قدس الله سره ونفعنا به في الدارين، فهو شريف حسني. وأما الجيلاني فنسبة إلى جيلان، بكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحت، وهي بلاد وراء طبرستان، ويقال لها أيضاً: كيلان وكيل، وقيل نسبة إلى جده جيلان، وأمه أم الخير فاطمة بنت أبي عبد الله الصومعي، كان له حظ من الخير والصلاح، والصومعي من جملة مشايخ جيلان ورؤسائهم وزهادهم، له الأحوال السنية والكرامات الجلية.

وأما صفة الشيخ عبد القادر، فكان نحيف البدن طويل القامة، عريض الصدر عريض اللحية وطويلها، أسمر مقرون الحاجبين، ذا صوت جهوري وسمت بهي، وقدر علي وعلم وفي، ولد ـ رضي الله عنه ـ ببغداد سنة سبعين وأربعمائة ونشأ بها حتى شب، فسلك طريق القوم وجد واجتهد، وكابد الأهوال حتى كان يلف على رأسه خرقة ويلبس جبة، ويمشي حافياً ويتقوت بقمامة البقل، وورق الخس، ويجاهد نفسه بأنواع الشدائد، وأقام في خرائب العراق خمساً وعشرين سنة، لا يعرف الناس ولا يعرفونه، وأتاه الخضر مرة وهو لا يعرفه، فقال له: اقعد هنا حتى آتيك، فأقام في ذلك الموضع ثلاث سنين، ومكث سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، واحتلم في ليلة بدايته في الشتاء أربعين مرة يغتسل لكل مرة، ولم يزل على ذلك الحال، فهام في البراري والجبال، إلى أن اتصف بالكمال، ورزق القبول التام عند الخاص والعام، فكان يأتيه الخليفة ومن دونه، وعلى عدم زيارته

إياهم يعينونه، ويأتي ولا يجيب، ويبالغ بزواجر المواعظ حتى يكثر النحيب، ولم يقم لأحد منهم قط، بل ربما وقف بين يديه فلا يعبأ به ولا يلتفت إليه، وكان على زي العلماء يتطيلس، ويركب بغلة ويحمل الغاشية بين يديه، ويجلس للوعظ على كرسي عالي، وربما مشي في الهواء على رؤوس الأشهاد ثم عاد، وكان مع ذلك يجلس مع الفقراء ويفلي لهم ثيابهم، وله المنزلة العظمى في قلوب الكافة، تخرج به رجال، وورث مقامه ابن شيل، قال ابن عربي نفع الله به: من رجال الله رجل واحد وقد يكون امرأة في كل زمان آية، وهو القاهر فوق عباده، له الاستطالة على كل شيء سوى الله، شهم شجاع مقدام كثير الدعوى، يقول حقاً ويحكم عدلا . . قال: وكان صاحب هذا المقام عبد القادر الجيلاني ببغداد، وكانت له الصولة والاستطالة على الخلق، كبير الشأن مشهور الذكر، لم ألقه وقد درج. انتهىٰ.

ومن كراماته رضي الله عنه: كان رضاعه لا يرضع في رمضان، وكان الناس إذا شكوا في الهلال رجعوا إليه، وكان الذباب لا يصيبه وراثة من جده المصطفى ﷺ، وقعد يتوضأ فذرق عليه عصفور فرفع رأسه إليه فخر ميتاً فتصدق بثوبه، وقال: إن كان علينا إثم فهذا كفارته، وقال لرجل: لفلان عندك طعام وذهب جئني بكذا منه، قال: أتصرف في وديعة، قال: لا بد، فأحسن الظن به وأتاه بما طلب، فبعد مدة جاءه مكتوب من مالك الوديعة وهو بالعراق: أن احمل للشيخ كذا، وعين القدر الذي أخذه الشيخ، وأقام أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء، وروي أنه أحيى ليل خمس عشرة سنة على رجل واحدة بركعتين ويختم القرآن، وكان يفتي على مذهب الشافعي وأحمد معاً، فتعجب علماء زمانه من حسن أجوبته، ورأى مرة نوراً ملأ الأفق، ونودي منه: أنا ربك، وقد أبحت لك المحرمات، فقال: أخسأ يالعين، فانقلب النور دخاناً وظلاما، فقال: نجوت مني بفقهك في أحكام منازلاتك، وقد أضللت بهذا سبعين صديقا، فسئل: بما عرفت أنه الشيطان؟، قال: بقوله: أبحت لك المحرمات. واجتمع له ببغداد مائة من أكابر الفقهاء وأتوه لامتحانه، فأطرق وظهرت منه بارقة مرت على صدورهم، فصاحوا صيحة واحدة ومزقوا ثيابهم وكشفوا رؤوسهم، وأجاب على جميع ما عندهم. وسقط عليه وهو يدرس حية ففر من حضر، فدخلت من ذيله وخرجت من طوقه، والتفت على

عنقه فلم يقطع كلامه ولا تغير، ثم قامت بين يديه تكلمه بكلام لا يفهم وانصرفت، فسئل عنه فقال: قالت: اختبرت عدة أولياء فلم أجد كثباتك، فقلت: ما أنت إلا دويبة يحركك القضاء والقدر. وقال رضي الله عنه: طوبى لمن رآني أو رأى من رآني، قال الشيخ علي بن الهيني رحمه الله: ولقد فتح على سبعين رجلاً لبسوا منه الخرقة في عشية اليوم الذي لبسوا فيه فتحاً عظيماً، وأعطوا عطاءً جزيلاً ببركة وضع يده على رؤوسهم، وهو كما قال نفع الله به:

أنا من رجال لا يخاف جليسهم ريب الزمان ولا يرى ما يرهب

قوم لهم في كل مجد رتبة علوية وبكل جيش موكب

ومن كلامه رضي الله عنه: لا يبرأ الرجل من العجب إلا إن شاهد أموره كلها من الله تعالىٰ وأخرج نفسه من البين، وقال: إذا سألت ربك حاجة فتعالىٰ عن الجهات كلها حال طلبك، ولا تنص على جهة معينة فإن ربك غيور، فلا يفتح لك أبواب فضله وأنت محجوب عنه ناظر إلى جهة أحد من عبيده. وقال: ما دمت تراعي الخلق لا تهتدي لعيب نفسك، وما دمت تراعي نفسك فأنت محجوب عن ربك. وقال: احذروا ولا تأمنوا، وخافوا ولا تأمنوا، وفتشوا ولا تغفلوا، ولا تضيفوا إلى أنفسكم حالاً ولا مقاما، ولا تدعوهما، ولا تخبروا بما يطلعكم الله عليه من الأحوال، فإنه كل يوم هو في شأن. وقال رضي الله عنه: لا تشكو ضراً نزل بك لغير الله، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، واحذر أن تشكو ضيق رزقك وعندك قوت يوم، فإنما عسر عليك أسباب الرزق عقوبة لك علىكفرانك. وقال نفع الله به: لا يصلح لمجالسة الحق إلا المتطهر من دنس الزلات، ولا تفتح أبوابه تعالىٰ إلا لمن خلا عن الرعونات والدعاوي، وقال: دوام البلاء خاص بأهل الولاية الكبرى، ليكونوا عاكفين على مناجاته، وقال رضي الله: عنه إنما كلامي على رجال وراء جبل قاف، أقدامهم في الهوى وقلوبهم في حضرة القدس، تكاد قلانسهم تحترق من شوقهم إلى ربهم، وقال وهو جالس على منبر وعظه قدمي على رقبة كل ولي، فسمعه الرفاعي من بلده أم عبيدة، فطأطأ رأسه وقال: وعلى رقبتي.

مات ـ رضي الله عنه ـ سنة نيف وستين وخمسمائة ببغداد، ولما احتضر قال: ليت أمي لم تلدني، وكان تحت رأسه مخدة فقال: أنزلوا خدي عنها وضعوه على التراب لعل الله يرحمني، ثم قال: هذا هو الحق الذي كنا عنه في حجاب، رضي الله عنه. هذا ما لخصته في ترجمته مما نقله الحبيب شيخ بن محمد الجفري ـ نفع الله به ـ في كتابه (النتيجة) من طبقات المناوي، ومن (خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر). للإمام الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رضي الله عنه، وقد أفردت مناقبه بالتأليف.

وهو أي الشيخ عبد القادر ـ أخذ عن الشيخ الكبير، أبي سعد المبارك بن علي ابن حسين بن نيدار البغدادي الحرمي، وهو من يد شيخ الشيوخ أبي الحسن علي ابن يوسف الهكاري القرشي رضي الله عنه، وهو عن شيخ الشيوخ أبي الفرج محمد بن عبد الله الطرسوسي رضي الله عنه، وهو عن الشيخ الكبير أبي الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي رضي الله عنه، لهؤلاء الثلاثة لم يترجم لهم سيدي الحبيب شيخ ـ نفع الله به ـ في كتابه (النتيجة)، معتذرا بأنه لم يقف لهم على تراجم، وأما من بعدهم فترجم لهم، وأنا في هذا الموضع أسرد أسماءهم تكميلاً لتعريف رجال هذا السند، وسيأتي ذكرهم في سند الطريقة العلوية الشعيبية، ومنظومة سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار قدس الله روحه، مع ذكر بعض مناقبهم ومراتبهم في محله من هذا الشرح، وهو ـ أي الشيخ عبد الواحد التميمي ـ لبس من يد الأستاذ الشيخ دلف بن جحدر أبو بكر الشلي رضي الله عنه، وهو عن شيخ شيوخ الطائفة الجنيد بن محمد، عن شيخه الشيخ سري السقطي، عن شيخه الشيخ معروف الكرخي، عن شيخه الشيخ داود الطائي، عن شيخه الشيخ حبيب العجمي، عن شيخه الشيخ أبي سعيد أبي الحسن البصري، عن باب مدينة العلم أخي رسول الله ﷺ وابن عمه أبي الحسنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عن سيد الأنبياء وتاج الأصفياء ﷺ، وعلى آله الكرام وأصحابه الأعلام، وسيأتي آخر شرح المنظومة أن لسيدنا معروف الكرخي ـ قدس الله روحه ـ سند متصل بأهل البيت الطاهر، عند قول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

ولمعروف الولي بلا خفاء تأدب بآل بيت المصطفىٰ

ولما وصل بنا جواد الغرض، إلى ذكر هذا الكلام المعترض، بل المقصود المقترض، لكون جميعه مما يتعلق بجناب سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله سره ـ في البيت السابق:

سنده بالعيدروسية وصل وكم طريق غيرها عنه نقل

أردت التأسي بسادتي بذكر الانتساب إليهم والتعلق بهم، الذي أرجو به أن يكون سبب سعادتي، فأنشأت أبياتا ركيكة الألفاظ والمعاني، ضعيفة الأوزان والمباني، تتضمن هذه الأسانيد، وأنا مقر بأني لم أتحقق بشيء من تلك المواجيد، فقلت معترفا ولم تترأوا من شؤمه، مقترفاً ملتمساً لي ولهم ممن وقف على قولي الموصوف، شرف الفاتحة من أرباب المعرفة والمعروف:

يقول المبتدي في الارتجال وطالب بالرجا نجح السؤال
ورافع بالدعاء صفري يديه إلى الرحمٰن وهاب النوال
فقير الله باسودان يدعى بعبد الله افتتح الأمالي
ببسم الله ذي العز تعالىٰ علاه عن الكمية والمثال
وعن جنس وتخمين وحدس وعن تشبيه فكر أو خيال
أوحده بذات في صفات وأفعال وفي وحي المقال
وأحمده إلهاً عز قدراً تقدس بالتعاظم والتعالي
وأشكره تعالىٰ إذ هدانا وأولانا بنعماه الجزال
وإيجاد وإمداد توالى وإسناد عن الاخبار عالي
وفيض السر من معنى التجلي بطور النفس من قدس الوصال
بإرشاد الرسول وتابعيه بتأثير عن الأكدار جالي
فهم أقمار شمس الهدي عنه وأفئدة التلقي كالمخالي
عليه الله صلى كل حين كما أنشأه محمود الخصال
أبو الأرواح والأشباح طرا وواسطة التجلي بالجمال
مع التسليم يغشاه دواماً وأصحاب وأزواج وآل

وبعد سائلي فاسمع نظامي ... وع قولاً من السحر الحلال
وإسناد الطريق قد تسامت ... على الإطلاق جامعة عوال
فإني قد تشرفت وأروي ... طريق القوم أرباب الكمال
بإلباس وتلقين وعهدٍ ... وتأسيس المودة والوصال
أخذت اليد عنهم مستمداً ... على قدري وسابقتي وحال
ووضع القدم القاصر عما ... به شرط المحبة والتوال
فقد قالوا له سر عجيب ... وفائدة تعود في المآل
وصح أنَّ حب القوم منهم ... ولا يشقى جليسهم بحال
وصخ سمعاً لما أمليه وافهم ... معانيه بتفريغ لبال
فهذا السند المشهور أروي ... له عنهم على سيق التوالي
فشيخي قدوتي فيها إمامي ... على الإطلاق في علم وحال
هو البار المنير ضياء علاه ... على الآفاق نور كالهلال
عمر بحر العلوم ومجتليها ... مفيد الطالبين بلا ملال
وفتاح الفهوم لهم بديهاً ... بغوص الفكر في بحر اللآلي
وقد أحيى الرسوم لسالكيها ... يرقى للمقامات العوالي
خليفة جده اسماً ورسماً ... وعلماً لم يشبَّه بالجدال
بذوق ثم حال ومقام ... رسا فيه رسوخاً كالجبال
وعن شيخي أخيه عيدروس ... إمام الفضل مصباح الليالي
وعن باقيس عبد الله كنت ... على قدم له في الطرق تالي
وشرفت بأخذ عن ثقات ... كثير من جهابذة رجال
فمنهم شيخنا الحداد سام ... أبو الأشبال وهاب النوال
ومنهم حامد عين تريم ... وقد كان بها شمس الوصال
وعن قطب الوجود ابن سميط ... تبركت بلبس واتصال
ولي من عمر السقاف فتح ... وعنوان اعتناء وابتذال
ونور جعفر العطاس لما ... كساني اللبس عن إذن وحال
ونجل محمد الجفري تسامت ... معارفه فلا تحصى بحال

وبشرني الصَّفي البحر بشرى ... بنيل القصد في كل المحال
ولي من غيرهم أخذ ولبس ... وتحرير إجازات عوالي
وعمدتنا هو البار وعنه ... أسانيد الروابط والحبال
وعمدتنا ومن عنه تلقى ... لأسرار الأوائل والتوالي
سقاه عمه الحسن وصَّفا ... سريرته فنارت بالصقال
وبالجفري ترقى واستبانت ... له طرق الهداية والدلال
فأما عمه فاليد فيه ... لوالده الضيا شيخ الكمال
هو القطب المكين أبو المعالي ... شجاع الدين ركن الاحتمال
كذا عن أحمد الحبر المفدى ... وباقيس ابن يّس المعالي
له من جعفر الحبشي تلقٍ ... كذا عن غيرهم ممن يوالي
وأما اليد للجفري فكانت ... عن ابن الحامد الوهط الجمال
وعن بدر العلا الحداد فاعلم ... لهذا واحكه إلا لقال
وأخذ البار والحداد هذا ... عن أستاذ الملا دان وعال
هو الحداد عبد الله حقاً ... هو المحبي الطرائق بالأمالي
وأخذ الشيخ عبد الله لبساً ... وتلقيناً وتهذيب الفعال
عن القطب الكبير أبي حسين ... هو العطاس رأس الاتصال
وعن سقاف مكة كان منه ... له حسن ترق وارتسال
وأخذهما عن الشيخ حسين ... عن الفخر ابن سالم ذي الدلال
عن الإنسان باشيبان عن ... عبد الرحمٰن الولي بلا جدال
فعن والده الجالي علوماً ... من البرقة ربات الحجال
كذا عن عمه القطب المفدى ... دعي بالعيدروس السر حالي
كذا عن عمه العيدروس أكرم ... بهم في كل قصد أو نوال
وكان الأخذ للشيخين ممن ... دعي المحضار عمهما الجلال
وعن والدهما السكران لما ... ملي حباه علاه بسكر حالي
فعن والدهما السقاف شيخ الـ ... ـعلا حالاً به كل مجال
وسقاف تربى بأبيه ... جمال الدين ذي الدور الدوالي

فعن والده العلي ذي المزايا ... وعبد الله باعلوي المعالي
فعن والدهما الضرغام وال ... أسد النهام في روس الجبال
به أعني الغيور علويّاً ... فعن والده ملقي الرجال
محمد الفقيه القطب في كل ... حال ومقام ومقال
وقد أخذ الفقيه عن أبيه ... علي وعمه عالي المنال
فعن والدهما من كان يعزى ... لمرباط محمد الجمال
وأخذ محمد عمن يسمى ... بخالع قسم زين الخلال
وخالع قسم عن علوي ... عن الشيخ المحمد ذي الكمال
وهو عن علوي عن أبيه ... عبيد الله متسع المجال
عن الشيخ المهاجر عن أبيه ... نقيب القوم عيسى في الفصال
وعيسى عن محمد عن علي ... عن الصادق في كل مقال
عن الباقر للعلم بفهم ... عن الزين علي في الفعال
عن السبطين نوري كل فضل ... فحيدرة الوغا حين القتال
عن المختار ثم جبرائيل ... عن الله تعالى ذي الجلال
وسيدنا الفقيه له تلقٍ ... وتربية وأخذ باحتفال
تلقاه عن الشيخ شعيب ... منير الغرب من ظلم الضلال
بواسطة من الصالح وهو ... من المقعد عند الارتجال
وأهدي لشعيب أبو تعزا ... عن ابن حرزهم مثنى العقال
عن ابن المغربي الفخر عمن ... له فضل على دان وعال
به باهى النبي موسى وعيسى ... محمدٍ الطوسي الغزالي
عن الشيخ الجويني وهو أيضاً ... عن المكي عن الشبلي المحال
عن الشيخ الجنيد فعن سري ... فعن معروف عن داود حالي
لترجمة حبيب وهو يروي ... عن البصري الفتى وافي الدلال
وأخذ أبي سعيد عن علي ... عن المختار دائرة الكمال
فعن جبريل من بالوحي يأتي ... به للرسل عن مولى الموالي

وقــد كــان لمعــروف تلــقٍ وحســن تــأدبٍ عــن خيــر آل
تــأدب بــالــرضــى أعنــي عليّــاً عن الكاظم خوفاً غيظ بالي
عــن الصــادق فــالبــاقــر أيضــاً فـزيـن العـابـديـن على التوالـي
عـن الحسنيـن فـالمـولـى علي عـن الهـادي فجبـريـل الحـلال
عــن الله الــذيــن لهــم تجلــى بــلا شبـه ولا وصـف اتصـال
نــوحـــده ونســـألــه دوامـــاً يقينـا عـن شمـاتـة كـل قـال
ويحفظنـــا ويشملنـــا بلطـــف مــع كــل القــرابــة والعيــال
ويلحقنـــا بـــأهـــل الله طـــرّاً ويصلـح شـأننـا فـي كـل حـال
وفـي الـداريـن يحبـونـا سـروراً نســر بــأنســه صــافــي النــزال
وصلـى ربنـا مـا المـزن سحـت سحــائبــه غــزيــرات السجــال
مـع التسليـم مـن غيـر تقـض علـى المختـار مع صحـب وآل

انتهىٰ الجزء الأول من فيض الأسرار واقتباس الأنوار، يتلوه الجزء الثاني ترجمة سيدنا قطب الدوائر وإمام الأكابر، الشيخ الأستاذ الحبيب الملاذ، عبدالله ابن علوي بن محمد الحداد، نفع الله بهم وأعاد علينا من بركاتهم آمين، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد، وعلىآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً آمين، والحمد لله رب العالمين. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

■ ■ ■

فهرس المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ما ذكر في قوله (بل بإلهام من الوراثة المنيع لسر النبي الشفيع)	١٤٠
«فاعلم أن سر النبي الشفيع ﷺ هو . . .»	١٤١
ما ذكره الإمام المزجاجي في فائدة توجيه المريدين إلى المرشدين الصادقين وذكره لنور القلب . .	١٤١
«قال في (حل الرموز): فاعلم أن الكون نسخة منك لا أنك نسخة من الكون»	١٤٣
ذكر أبيات الشيخ عبد السلام المقدسي الجامعة لحقيقة الإنسان	١٤٣
ثم قال الحبيب أحمد بن زين في مكاتبته (والاتباع له. . .)	١٤٥
ما ذكره الإمام المزجاجي في حقيقة (الحضرة العمرية)	١٤٥
ذكر سبب وصفه للحبيب عمر بالقمر	١٤٦
ما ذكره الإمام عبد الرحمٰن بن عبد الله بلفقيه في وصفه للعارفين مما يؤيد كلام الحبيب أحمد بن زين	١٤٧
ذكر المراد بقوله (وكن لنا من كل شر جاراً منهم)	١٤٧
ما ذكره الشارح في سبب تثنيته ونسبته في قوله: (لوحينا)	١٤٨
ما ذكره الإمام المناوي في إطلاقات (اللوح)	١٤٩
ما ذكره الشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني في الفرق بين الوحي والإلهام	١٤٩
«ثم اعلم أنه لا يوصل إلى معرفة الله إلا بالعجز عن معرفته. . .»	١٥٠
ما أجاب به الصديق الأكبر والإمام علي بن أبي طالب عن معرفة الرب	١٥١
ما ذُكِر في أن قول صاحب الترجمة الحبيب عمر (قل يا رب جيتك بك) جامعة للتوحيد	١٥٢
ما ذُكِر في مقام الإمامين الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار والحبيب أحمد بن زين الحبشي قدس الله روحهما	١٥٣
خاتمة: في ذِكْر من أخذ عنه (قدس الله روحه) من المريدين	١٥٤
«وأما العوام وأهل القلوب القريبة إلى الخير فانتفعوا به انتفاعاً عميماً. . .»	١٥٥
فصل: في ذكر بعض كراماته قدس الله روحه	١٥٦
«ومنها ما أخبر به بشر بادهري قال: جاء رجل إلى دوعن يسمى بايوسف. . .»	١٦٠
فصل في نقل شيء من كلامه الفائق من وصاياه ومكاتباته	١٦١
ذكر دعائه الجامع قدس الله روحه الذي كتبه للحبيب جعفر بن أحمد الحبشي بعد طلبه منه ذلك . . .	١٦٥
خاتمة: في ذكر وفاة صاحب الترجمة الحبيب عمر البار	١٦٥
ذكر مكاشفته رضي الله عنه بموته وذكر كتابه للحبيب زين بن سميط	١٦٥

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

(٣)

جزأين

النصف الأخير في فيض الأسرار
شرح سلسلة الحبيب عمر البار الأخير

تأليف

الإمام الشيخ عبد الله بن أحمد باسودان
نفع الله به آمين

رب يسر يا كريم ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

ثم شجاع الدين والشيخ الحسن أخذهما عن محيي أركان السنن

عبـد الله المشهـور بـالحـداد الغـوث شيـخ الفتـح والإرشـاد

المذكور هنا من الأكابر قطب الدوائر، وحجة الله على الأكابر والأصاغر، وناشر ألوية رسوم طريق الأوائل والأواخر، محيي أركان سنن الدين، الراقي إلى أعلى مقامات اليقين، الذي أجمعت الأئمة من العارفين والعلماء المحققين، على أنه إمام الفريقين وشيخ الطريقين، وعلى تحقيقه في جميع العلوم، وتفرده بمعرفة المنطوق منها والمفهوم، لاسيما علوم القوم ومواجيدهم، وتعريف طرائقهم وتخريج أسانيدهم، وعلى أنه القطب الغوث الفرد، وبذلك شاع صيته في الغور والنجد، إمام الإرشاد وبركة العباد، ويتيمة عقد اللآل من الآباء والأجداد، الشيخ الكبير أبو محمد عبد الله بن علوي بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد الحداد بن علوي بن أحمد بن أبي بكر بن أحمد مسرفة بن محمد بن الفقيه أحمد ابن عبد الرحمٰن بن علوي بن محمد صاحب مرباط باعلوي رضي الله عنهم، صاحب (الدعوة الجامعة والتذكرة النافعة)، و(النصائح الدينية والوصايا الإيمانية)، والمقام الظاهر والسر القاهر، والنور السافر والسناء الباهر، والأحوال الفائقة والكرامات الخارقة، أول من ترجم له في حياته، ووصفه أنه بلغ من مقام الصديقية الكبرى أقصى غاياته، السيد الشريف الإمام الولي محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي في كتابه: (المشرع الروي في مناقب بني علوي) قال فيه: اشتهر كسلفه بالحداد، الفائق على الأمثال والأنداد، الذي شيَّد ربوع الفضل وشاد، وبلغ نهاية السُّول والمراد، ودل كثيراً من العباد، وهداهم إلى سبيل الرشاد، إمام أهل زمانه، الداعي إلى الله تعالى في سره وإعلانه، المناضل عن الدين الحنيفي بقلمه ولسانه، المشار إليه بالبنان في العلوم والعرفان، الغني عن الدليل والتبيان، الجامع بين الشريعة والحقيقة، والواصل إلى مراتب الكمال بأوثق ذريعة، ولد بمدينة

تريم، ولحظته عناية ربه الكريم، وحفظ القرآن العظيم، ثم اشتغل بتحصيل العلوم، وتهذيب النفوس ودواء الكلوم، وصحب أكابر عصره، وأخذ عن علماء دهره، فهبت عليهم من قبلهم رخاء الإقبال، ونشأ بين ظهرانيهم على أحسن الحال ورخاء البال، وكُفَّ بصره وهو صغير، فعوضه الله تعالى بنور بصيرته الذي يفوق بصر البصير، وتفقه على جماعة من فقهاء الزمن، منهم شيخنا القاضي سهل بن أحمد باحسن، فحفظ الإرشاد أو أكثره على يديه، وعرضه مع غيره عليه، ومنحه الله تعالى حفظاً يسحر الألباب، وفهماً يأتي بالعجب العجاب، وفكراً يستفتح ما أغلق من الأبواب، ولازم الجد والاجتهاد في العبادات، وجميع أنواع القربات، وأضاف إلى العلم العمل، وشبَّ في ذلك واكتهل، وواظب على ذلك سراً وجهرا، والأخذ بما هو أولى وأحرى، حتى نال ما نال، مما لم يخطر لأحد ببال، وتلا لسان حاله القويم: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، ثم أظهره الله بدراً مشرقاً استنارت به حنادس الجهل، وشمساً مضيئةً زين بها سماء الفضل، ونصب نفسه لتربية المريدين وإرشاد السالكين، فقصده الناس من أكثر الأمصار، ونفع الله تعالى به في غالب الأقطار، وأخذ عنه الجم الغفير، وصحبه الكبير والصغير، وتخرج به الكثير، وأفاض عليهم من بحر فضله الفوائد والفرائد، وحلى لهم عرائس الخرائد، ثم شرع في التأليف، فأبدع في التصنيف، فطرز حلل العلوم بوشي أرقامه، ورمى أغراض الفنون بسهام أقلامه، وأتى من معجزات فضائله بالخوارق، وفتح ببراعة عبارته صدور المهارق، وكلامه أشفى من رشف الرضاب، وأحلى من رضا الحبائب الغضاب، وله نظم هو السحر إلا أنه الحلال، وأدب هو البحر إلا أنه العذب الزلال، وحسن خلق كغرة الوجه الوسيم، وطبع كأنفاس النسيم: ثم ساق ـ رضي الله عنه ـ من فضائله وأخلاقه وكلامه وكراماته، على هذا النمط وبهذا اللسان، ما يشرح الصدور ويقر الأعين ويشنف الآذان، وسيأتي بعض ذلك في مواضع من هذه الترجمة، وممن ترجم لسيدنا الشيخ عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ تلميذه العارف بالله تعالى عبد العظيم باشراحيل الشبامي وتلميذه السيد الشريف الإمام جمال الإسلام محمد بن زين بن

سميط باعلوي ـ رحمهما الله تعالى ورضي عنهما ـ، فأما الحبيب محمد بن سميط المذكور، فجمع أولاً كتاباً حافلاً جمع فيه فأوعى، واستنصت الآذان لسماعه واسترعى، فنفس بما فيه خواطر نفوس محبيه، سماه: (غاية القصد والمراد)، ثم رأى أنه كبر حجمه على كل محصل ومرتاد، فاستصفى نفائسه في مؤلف مختصر واف بالمراد، سماه: (بهجة الفؤاد وبغية المرتاد، في مناقب شيخ العباد عبد الله بن علوي الحداد)، قال: وذلك بإشارة من سيدنا الحبيب أحمد بن زين الحبشي سابقة، وبشارة من سيدنا الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار لاحقة، والتمس منه الحبيب عمر بن حامد علوي، أن يلحق في هذا المختصر من أصحاب الحبيب عبد الله والمنتمين إليه والآخذين عنه، ولو بالاختصار والاقتصاد على ذكر أسمائهم وتعديدهم فقط، فاغتنم هذه الإشارات، وفهم ما تحتها من البشارات، فكان هذا المصنف من أجود التصانيف في المناقب، وأحسن ما تتوجه إليه من هذا الفن رغبة الراغب، وممن ألف في مناقبه أيضاً الشيخ الإمام العارف بالله أحمد بن عبد الكريم الشجار الحساوي، وجعل ذلك المؤلف لغرض نقل كلامه مما يلقيه في دروسه ومجالسه، ونقل فيه كثيراً من مناقبه وأخلاقه وكراماته وسيرته، سماه: (تثبيت الفؤاد، من كلام غوث العباد والبلاد الشيخ عبد الله بن علوي الحداد)، وقد خدمه سيدنا وشيخنا الإمام خاتمة الأعلام حفيده الحبيب الشيخ أحمد بن حسن الحداد، وحذف منه المكرر، وجمع كل كلام متناسب أو له تعلق بما قبله أو بما بعده في موضع واحد، وهو كتاب جامع، يحلو للناظر والسامع، وممن ترجم له ـ نفع الله به ـ الشيخ الإمام أحمد القباني البصري بضم القاف وتخفيف الباء المفتوحة الموحدة، كذا وجدته بخط سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار الأخير في ديباجة كتابه (منهج الرشاد) شرح قصيدة: (إذا شئت أن تحيا سعيداً مدى العمر)، وكذلك الشيخ العارف بالله تعالى المبرور، حسين بن علي عبد الشكور، ألف نبذة مختصرة وفلذة مبتكرة، سماها: (لمعة النبراس النبوي وشعلة المقياس العلوي)، رتبها في خمس وسائل وخاتمة، قال في فهرستها:

الوسيلة الأولى: في نسبه الشريف، وعلو مجده المنيف.

الوسيلة الثانية: في بدايته في الطريق، وأخذه عن مشايخ التحقيق.

الوسيلة الثالثة: في نصائحه وإرشاده، واعتنائه بالآخذين عنه وقصاده.

الوسيلة الرابعة: في ذكر نبذ من بواهر حكمه، وسرد نزر من جواهر كلمه، وعد ما اشتهر من تآليفه البديعة، ومصنفاته الرفيعة.

الوسيلة الخامسة: في شهادة الكمل له من معاصريه، لما شاهدته من الكمال فيه.

الخاتمة: في ذكر شيء من كراماته، وتاريخ ولادته ووفاته، أمدنا الله من مدده، وجعلنا من صدقته وعلمه وولده. انتهى ما في هذه الفهرسة، وختم كل وسيلة بأبيات شعر، تتضمن معنى ما في تلك الوسيلة، ومن بديع ما نظمه في الوسيلة الثانية قوله رضي الله عنه:

شيخ علا بفرائد وفوائد ... وعوائد وزوائد وموائد
وحقائق ودقائق ورقائق ... ومعارف وعوارف عن ماجد
بفرائد من علمه وفنونه ... ونظامه ونثاره المتوارد
وفوائد من ماله وكماله ... وجماله وجلاله المتزايد
وعوائد فاضت بوكف صلاته ... وهمت لصادر ورده والوارد
وزوائد تدنو لأهل وداده ... من راصد وقاصد أو شارد
وموائد بسطت لكل مكون ... من شاكر أو حامد أو جاحد
وحقائق تبدو لكل محقق ... بالحق من تحقيق حق وارد
ودقائق دقت وفاز بذوقها ... قوم رقوا بمراكع ومساجد
ورقائق رقت وراقت بهجة ... فرقى بها الراقي بغير تقاعد
ومعارف عرفت بفائح عرفها ... فوفت لعارفها بعلم الواحد
وعوارف جليت بدائع حسنها ... بملابس من مجده وقلائد
عمَّت وأمَّت كل صاحب لوعة ... صبٍ كئيبٍ وجده بالواحد
يا رب ألحقنا بهم متفضلاً ... بالمغنم الصافي العذيب البارد
بالسيد الحداد قطب زمانه ... وبكل عبد راكع أو ساجد

انتهت الأبيات. وفيما ذكرناه لمريد الاقتصار على الإجمال، عن تفصيل ما منحه الله تعالى من المقامات والأحوال، غنية وكفاية لأهل الدراية، مما نقلناه عن

المشرع، وحكيناه في من صنّف في مناقبه فأبدع، لكن لمَّا كان مجدد هذه القرون الأخيرة، وطريقته لمريديها نعم العدة والذخيرة، كما قدمنا عن إنسان هذا الزمان سيدنا الحبيب شيخ الجفري، بما أرسل به من المنظوم لسيدنا وشيخنا الحبيب عمر ابن عبد الرحمٰن، وهو قوله نفع الله به:

أيـا عمـر البـار الـذي جـا بـره   له شاهد زكاه مع ذا ذكا فهمه
عليـك بحـداد القلـوب عقيـدة   فمن دون حداد فلا تحصل الفطمة

وجب أن نشبع الفصل، في بسط معنى هذا الفضل، بالنسبة لمقصودنا من الاختصار في هذا الكتاب، والتزام عدم الإطناب والإسهاب، وعمدتنا فيما ننقله غالباً كتاب تثبيت الفؤاد وكتاب بهجة الفؤاد المتقدم ذكرهما.

مقدمة في ولادته، وذكر طرف من أيام بدايته، وحدة إرادته وتنقلاته في أسباب سعادته، من أنواع طاعاته وعبادته، قال في تثبيت الفؤاد: وقال رضي الله عنه: حفظنا تاريخ ولادتنا من الوالدة، قالت رضي الله عنها: ولدت يوم الاثنين خامس صفر سنة أربع وأربعين بعد الألف، وقال: جاءت امرأة من الجيران كانت حاضرة الولادة، وأنها لفتني في بعض ثياب الوالد، قالت: فبقيت تلك الليلة إلى الصبح، ما طعت تستقل من الصياح، فقلت لبعض النساء: شوفوا الولد ما به، ما له لا يسكت، ففتشت الثوب وإذا بعقرب عظيمة ملتفة بالثوب، مما يلي البدن بينه وبين الثوب، والبدن متخبز محمر من لسعها، وقلت لسيدنا عندما تكلم بذلك في هذا إشارة إلى ما تقاسون من محن الدنيا، كالغطات الثلاث، قال: نعم.

قال رضي الله عنه: ووقع في تلك السنة ـ يعني سنة ولادته ـ أشياء كثيرة، فيها خرج السلطان عبد الله ـ أي الكثيري ـ وفعل ما فعل، ومات فيها الشيخ الحسين بن أبي بكر بن سالم، ووفاة السيد يوسف ابن عابد الفاسي تلميذ الشيخ أبي بكر بن سالم، وكان رضي الله عنه إذا ذكر أيام الصبا، يطنب في الكلام ويتعجب من ذلك الحال، فإذا أطال فيه الكلام سكت، ثم يقول: الكلام شجون، وينشد هذا البيت:

وحدثتني يا سعد عنهم فزدتني   شجونا فزدني من حديثك يا سعد

وذكر رضي الله عنه أنه كُفَّ بصره وهو ابن أربع سنين بسبب القطيب[1]، وسألته يوماً نفع الله به أن يملي علي شيئاً من ظاهر أحواله، من صغره إلى الآن لنحفظها عنه، فلم يسعفني بذلك وقال: قد نسينا أكثرها، ولا عاد بقي إلا كتابات لم نثق بها ولا عاد منَّا شيء، وقد قلنا لبعض الناس اشرح بعض القصائد، فقال: لا أشرح إلا بشرط أن أجعل ذلك في مجلدين، أحدهما في ترجمتكم وذكر أحوالكم، والآخر في شرح القصيدة، فما أعجبنا ذلك منه، والناس مدحونا بقصائد كثيرة وذكرونا بها، فأردنا أن ننهاهم عن ذلك لكن خفنا من عدم الإخلاص في نهيهم، فخلينا كلاً يتولى ما تولى، ويتدرك ما تدرك به، ونقتدي بالنبي ﷺ لما قيل فيه النظم مما مدح به، وأنشد بين يديه، ومدحه عمه العباس وغيره، ونحن هذه الأشياء ما تجيء على بالنا، ولا نحبها لنا ولا لمن نحبه. وقال في موضع آخر من الكتاب المذكور: قال رضي الله عنه: بعد أن ختمت القرآن، قال لي والدي: اقرأ في الفقه وعندنا نسخة صحيحة مليحة من الإرشاد تحفَّظ فيها، وكان معي طرف من عبارة ولكنها على قدرها، وكان سني إذ ذاك دون خمس عشرة سنة، وكنت أجالس السيد سهل الكبش، وكان كثيراً ما أسمعه يذم الفقه وأهله، وينكر على أناس من الفقهاء ويذمهم حتى الشيخ ابن حجر، فقلت لوالدي: ما أريد القراءة في الفقه، فإن رجلاً من السادة يذم الفقه وأهله، فقال: الإنسان ما يستغني عن الفقه ولا عذر له منه، فقلت: أريد القراءة في «البداية»، فقال: مليح وعندنا أيضاً منها نسخة مليحة، وعرفت على حفظها فحفَّظني الوالد حينئذ من أولها إلى قوله: (وها أنا مشير عليك)، وكان الفقيه باجبير يقري في النويدرة، يقرأ عليه كثير من السادة وغيرهم، فرحت إلى عنده وحضرت مجلسه، تقدمت للاستئذان في القراءة ومرادي أن أستأذنه في القراءة في مرة أخرى، فأتيته في اليوم الثاني وقلت: أريد أن أتحفظ في «البداية» واقرأ عليك فيها، فقال: إن حفظ البداية عسر، وعندنا ناس يقرأون فيها فاستمع عليهم حين يقرأون، وتحفظ في «الإرشاد» فوافقت إشارته إشارة

(١) اي الجدري.

الوالد، فلقنني تلك الساعة من أول الإرشاد، قوله الحمد لله الذي لا تحصى مواهبه، ولا تنفد عجائبه، ولا تحصر له منن، ولا تختص بزمن دون زمن، فخرجت من عنده وقد حفظت ذلك، فما زلت أستمع على الذين يقرأون في البداية، وأتحفظ عنده في الإرشاد إلى أن وصلت محرمات الإحرام، ثم إن السيد أبا بكر بلفقيه عزم إلى الهند، وزين للفقيه باجبير المسير معه، وأنه قائم له بكل ما يحتاج إليه، فسافر معه وبقي في الهند مدة قريبة، ثم وقع بينهما منافرة ومناكرة، فانتقل الفقيه من عنده إلى دقرور، فوجد فيها السيد عبد الله بن شيخ، وكان السيد ممن كان يقرأ عليه، فبقي عنده مدة، وقام بكفايته وجبره، ثم إن الفقيه رجع إلى حضرموت فقرأ علينا في الإحياء بعد أن رجع، وهذا من عجيب الاتفاق، أن كنا نقرأ في الفقه عليه فرجع يقرأ علينا. وقال رضي الله عنه، حصل لنا من الفقيه باجبير الإسناد في الفقه إلى ابن حجر على اثنين، أبيه وأبي بكر بافقيه، فأخذ عن أبيه عن بافقيه، وهو أخذ الفقه عن ابن حجر، قال: وكان ابن حجر يذكر مسائل من الإحياء، فإذا ذكرها جاء بعبارة الإحياء كما هي حفظاً، وكان يحفظ من الإحياء. وقال رضي الله عنه: ما كان لنا رغبة في التدريس، إلا رجل من آل بافضل قال: أريد أن أتبارك عليكم ما تيسر في رياض الصالحين، فجاء السيد حسن الجفري فقال: أريد أن أقرأ ما تيسر في العوارف، وطلب الفقيه باجبير القراءة في حزب البر، فتراسلت القراءة فلما رأينا الناس متراسلين على القراءة، رتبنا أوقاتها، وقرأ علينا في مكة والمدينة خلق في الإحياء وفي غيره، ولم تتم قراءة كتب الإحياء ـ أي في الحرمين ـ إلا كتاب رياضة النفس، وكان يقول في ابتداء درسه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، نويت التعليم والتعلم، والنفع والانتفاع، والمذاكرة والتذكير، والإفادة والاستفادة، والحث على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، والدعاء إلى الهدى والدلالة على الخير، ابتغاء وجه الله ومرضاته وقربه وثوابه سبحانه وتعالى انتهى.

وقال رضي الله عنه: لما حججنا كان نيتنا بالمسير إلى مكة، بعد نية أداء فريضة الله من الحج وإقامة مناسكه، لطلب بحرين، بحر في العلم الظاهر عالم

بالكتاب والسنة على الإطلاق، وبحر في العلم الباطن متبحر فيه، لأنا في باطننا إذ ذاك سؤالات كثيرة في هذين العلمين، فلم نرَ في الحرمين أحداً منهما، ولم نعلم أهما اختفيا في تلك السنة أم فقدا، لكنا رأينا آثاراً يسيرة كالشيخ أحمد القشاشي، والشيخ عبد الخالق المغربي، وكان يقال: إنه من أهل الخطوة، وقلت له: أنت من رجال السر الذين سألت الله أن يرينيهم، فأراني ثلاثة أنت منهم، قال: أجل، وكان جاء إلى حضرموت ولنا به بسبب ذلك معرفة، وقال: إنه حج بالخطوة وقضى مناسكه وأصبح سائراً إلى المدينة، فلم نتفق به إلا بالمدينة، وكنا ظنناه متجرداً، وإذا به له بيت وحاشية، وطلب منا الإلباس فألبسناه، وكان من أهل البيتوتات، وقال لي: إيش مذهبك، وكنت أعتقد وأرى أن مذهبي الكتاب والسنة، وأردت أن أقول له ذلك فخشيت من الإنكار، فقلت: مذهبي شافعي، فقال: لا إنما مذهبك الكتاب والسنة، فقلت: أسلافنا كلهم على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، فقال لي: ولم تقول أنك مذهبك الشافعي وإنما مذهبك الكتاب والسنة، ولم يكاشفنا أحد إلا هذا أو آخر في الهجرين من أهلها من آل بن نعمان، أضمرت بحضرته: هل لنا عودة إلى الحرمين غير الأولى التي حججنا فيها الفرض؟ فكاشفني وقال: يكون ذلك بعد مدة طويلة، وكثيراً ما يقول سيدنا: نحن موعودون بعودة إلى الحرمين، يشير إلى هذا.

قال: وكاشفه رجل في تعز عام سار إلى الحج، قال: وذلك أنه كان معنا رجل يدعي الشرف وفي نفسي من دعواه الشرف شيء، فاتفق أن كنا عند هذا الرجل، وكان يذكر بالكشف، فقال: ليس الرجل شريف. قال نفع الله به: ولم يكاشفنا أحد إلا هؤلاء الثلاثة. انتهى من مواضع من تثبيت الفؤاد، وقال في (المشرع): وله اعتناء بزيارة القبور، لا سيما من كان بالفضل مشهور، وزار قبر النبي هود عليه السلام، والشيخ عبد الله القديم بقرية شبام، ورحل لوادي دوعن لزيارة من فيه من الأولياء، وليوصل النفع لأهله الفضلاء، وزار الشيخ سعيد عمود الدين، وأخذ عنه جماعة من الصالحين، ورحل إلى الحرمين الشريفين سنة ألف وثمانين، وأدى النسكين، وما دخل بلداً إلا انتفع أهله بمقاله، واقتدوا بأفعاله وأحواله.. إلى آخر ما ذكره في المشرع، وسيأتي في نقل كلامه عن (تثبيت

الفؤاد) شيء مما يتعلق بالحرمين. وقال سيدنا الإمام محمد بن سميط في كتاب (المناقب الصغرى) المسمى بـ (بهجة الفؤاد): سمعت سيدي الملاذ أحمد بن زين الحبشي، قال: سمعت السيد الإمام أحمد بن عمر الهندوان يقول: كنا في ابتداء الأمر وإقبال الشباب، كثيري الاجتهاد نحن وسيدنا الأستاذ عبد الله، وربما اجتمعنا على حضرة الذكر الجهري، فيحصل عليه من الوجد ما يغيبه عن إحساسه، فربما لم يفق من وجده حتى نحمله ونطرحه على قبر سيدنا الفقيه المقدم، قلت: وكان سن سيدي عبد الله وسيدي أحمد الهندوان متقارب، أحدهما أسن من الآخر بأشهر، قال سيدنا عبد الله: كان بيننا وبين السيد الجليل أحمد الهندوان الخلطة والملازمة والمجالسة والمؤانسة الدائمة، وفي الكثير من الأوقات نجتمع بزاوية مسجد الهجيرة المشهور وبغيرها، على المطالعة والمذاكرة وجميل المعاشرة، يعني في حال الابتداء، قال: وكذلك كان للسيد الصوفي أحمد بن هاشم الحبشي اجتماع بنا، واختلاط كلي وصحبة صافية، وكنا إذ ذاك نطالع في الكتب الغزالية وغيرها من الدواوين المنظومة لأهل الذوق والشوق مثل الشيخ السودي، وذلك أوان البداية. انتهى، وسمعت أن السيد أحمد المذكور يقول: نشأنا نحن وسيدي عبد الله معاً ولكنه سبقنا، وحدثني بعض المنورين عن السيد أحمد أنه قال: لما كان أوان اجتماعنا على شيخنا عمر العطاس، رأيت أنه فتح لسيدي عبد الله قبلي ولم يفتح لي، فشكوت على سيدي عمر، فقال: اجتمع شمله بشملها، اتصل حبله بحبلها، انطوت الأحشاء على جنينها، سطع نور المصطفى صلى الله عليه وسلم في جبينها، فعند ذلك فتح الله عليّ والحمد لله. وسمعت عن السيد عبد الله ابن أحمد الفقيه الأسقع باعلوي أنه كان يقول: نشأنا نحن وسيدي عبد الله الحداد معاً ولكنه سبقنا ـ أو معنى ذلك ـ، قال: وكنا نرى أنه فتح له من صغره، كان إذ ذاك إذا قرأ سورة يسٓ يتأثر جداً ويبكي بكاءً شديداً، ولا يكاد يحتمل قراءتها، فيقع لنا أنه فتح له فيها. انتهى من (بهجة الفؤاد).

وقال رضي الله عنه: لا نتحكم لأهل الزمان ولا نتحكم فيهم، فإن تحكمنا فيهم وضعنا على كل قدر استطاعته بالتخفيف. وقال ـ نفع الله به ـ بعدما ألبس أناساً: الخرقة لبسناها من الشيخ عمر العطاس، لكن بالشدة ما طاع يلبسنا إلا

بمعالجة، وأرادنا نحن نلبسه، لأنه كان متواضعاً جداً، والتواضع وإن كان حسناً من كل أحد لكنه من أهل الفضل أفضل وأحسن، فالمنظور بين الناس ليس تواضعه كتواضع واحد من أطراف الناس. أقول: سمعته رضي الله عنه يقول: ما ألبسني كوفيته حتى ألبسته كوفيتي، وكل منا ترك كوفيته للآخر، ولهذا كل منهما يعد الآخر شيخه. وقال ـ قدس الله سره ـ في أثناء كلام: ولما رأينا الزمان يتناقص وأثر النقص ظاهر على أهله، بنينا أمرنا في الابتداء على ثلاثة أشياء: الأول: أن لا نتحكم لأحد حتى نرى فيه أهلية التحكيم، فلهذا صحبنا كثيراً من مشايخنا من غير أن نتحكم لأحد، بل صحبة مفردة كما هي عادة السلف، صحبة بلا تحكيم كعادة الحسن البصري وغيره، كما يقال: صحب فلاناً ولقي فلاناً. . ثم ذكر باقي الأمور الثلاثة بمعنى ما سبق في التحكيم. انتهى من (تثبيت الفؤاد).

فصل في شهادة الكمل له بالكمال المطلق، ومقام الصديقية الكبرى المحقق، فمن الكتاب المذكور قال السّيد الكامل العارف بالله محمد بن عبد الرحمٰن مديحج باعلوي ـ وكان من أكابر العارفين وأهل الحقيقة واليقين ـ: كلام السيد عبد الله الحداد دواء لأهل القلوب المنورة لأنه طري من عند ربه، وقال أيضاً: نحن ما أذن لنا في هذا الزمان والسيد عبد الله أذن له، وقال: لا تغتر بأحد في هذا الزمان ولو رأيته يفعل ما يفعل ـ أي من الطاعات والكرامات ـ، فإن أهل الزمان إن لم ينتموا إلى السيد عبد الله الحداد وإلا ما جاؤوا بشيء، لأن الله وهبه أمراً لا يكيف، لا تجلس إلا عنده فإن الفائدة في مجالسته، وقال أيضاً: إن أهل الزمان لا يتأسفون على السيد عبد الله إلا بعد موته، خصوصاً العلماء فإنه حجة عليهم، وقال السيد العارف بالله الإمام أحمد بن عمر الهندوان باعلوي نفع الله به: ما بقي اليوم شيخ مرشد إلا السيد عبد الله الحداد، قال: وظهر لي أنه مملي الكون، وقال السيد العارف بالله الإمام أبو بكر بن سعيد الجفري باعلوي: ما رأيت للسيد عبد الله الحداد مثيلاً لأنه نفس رحماني، وقال اجتمعت بأزيد من أربعين ولياً ما رأيت أحداً يساميه، وقال أيضاً: مجالسة السيد عبد الله علم من غير تعلم، وفي مجالسته اكتساب الخير كله، وقال السيد العارف بالله علي بن عمر بن حسين بن الشيخ علي: السيد عبد الله ظهر في الكمال لأن أمر التصوف قد خفي، ما ظهر اليوم إلا

ببركته. وقال السيد العارف بالله الإمام علي بن عبد الله العيدروس السيد عبد الله سلطان آل باعلوي، وقال الشيخ عبد العظيم باشراحيل: وممن أثنى عليه يعني سيدنا الحبيب عبد الله نفع الله به وشيخه السيد الإمام العارف بالله تعالى عمر بن عبد الرحمٰن العطاس نفع الله به، فإنه قال لجماعة ذكروه له: السيد عبد الله ثوب طوي نشر في هذا الزمان، لأنه من أهل القرن السابع وإنما أخره الله تعالى سعادة لأهل وقته، قال: فلما سمعت ذلك أخبرت به سيدي عبد الله، فقال لي: يا عبد العظيم أنا بحمد الله تعالى ما أنا من أهل هذا الزمان، وقد جعلني الله بينهم، وأنا وحدي مفرد عنهم بقلبي، كما قال في بعض قصائده:

وإنـي مقيـم فـي مـواطـن غـربـة على كثرة الآلاف في جانب وحدي
قـريـب بعيـد كـائـن غيـر كـائـن وحيد فريد في طريقي وفي قصدي

أقول: وقد رأيت بخط خادمه الشيخ المحب المبارك عمر باحميد يقول: سمعته مرة يقول: ما أنا من أهل هذا الزمان، بل أنا من أهل القرن الثاني، ولولا الأدب مع أهل القرن الأول لقلت: أنا منهم، لأن ما فيهم إلا الصحابة رضي الله عنهم، فانظر في حالي وحال أهل الزمان، إن كنت أشبههم أو يشبهوني. قال الشيخ عبد العظيم: وقد قال لي يوماً: أسس أمري وبني على الأكابر، منهم الشيخ عبد القادر، والفقيه المقدم محمد بن علي علوي، وعبد الرحمٰن بن محمد السقاف، وعبد الله بن أبي بكر العيدروس رضي الله عنهم، فهؤلاء الأربعة هم قوام أمري، فهؤلاء سادة أهل التصوف وأئمتهم. ودخلت عليه يوماً وجلست معه فتحدث في الفضل ثم قال: أما أنا بحمد الله، قد خرجت من نفسي والتجأت إلى ربي، ولا يطرقني خاطر في الرزق، ولولا خوف الشهرة لشليت من تحت هذه القطيفة ما يكفي أهل تريم. انتهى، أقول: وقد رأيت بخط سيدي الشيخ الشريف الجليل الحبيب أحمد بن زين الحبشي ـ رحمه الله ونفع به ـ وعرضته عليه وأقره: قال الفقيه محمد بن أبي بكر باجبير: كنت خارجاً مع سيدنا الحبيب عبد الله الحداد ليلة بعد المغرب من التربة، فقال لي: يا فقيه إن حبيبك ـ يعني نفسه ـ قد له ثلاثة أيام منذ دخل مقام القطبيّة. انتهى، أقول: بين قول سيّدنا هذا وبين وفاته مدة

طويلة أظن أنها تبلغ نحو ستين سنة[١]، وقلَّ أن يبقى في هذا المقام من بلغه إلا القليل، فإن أكثرهم بقاء فيه من يبقى خمس سنين، وإنما أكثرهم ما يبقى فيه إلا أيام قريبة، وقد أشهره الله بها عند أهل الظاهر وأهل الباطن، وعند أهل الخصوص وأهل العموم، وقد طارت نسبتها إليه في الجهات، وانتشر صيتها له في الآفاق، وبلغ خبرها في المشارق والمغارب، وقد قال لي السيد الفاضل المتبحر في العلوم محمد بن أبي القاسم المعروف بأبي الطيب المغربي بمدينة الإحساء، قال: أنا من مولدي المدينة المنورة، وأبواي من أهل المغرب، فلما كبرت وبلغت الحلم سرت إلى المغرب لزيارة أخوال لي ـ أو قال: أعمام لي ـ هناك، فرأيت في المغرب رجلاً مشهوراً بالولاية شهرة عظيمة، وتأتي إليه القوافل من أماكن متعددة وجهات بعيدة للزيارة، ويفد الناس إليه بالهدايا، وله سمت عظيم وصيت شهير، فمضيت لزيارته، فحين وقع بصري عليه ورأيت حاله، اعتقدته كثيراً وخطر بقلبي أن هذا هو القطب اليوم ـ أي في هذا الوقت ـ، فبمجرد خطور ذلك في خاطري التفت إليّ وقال: يا ولدي ما أنا بالقطب اليوم، وإنما القطب اليـوم السيد عبد الله الحداد باليمن، فمن حينئذ اعتقدت في السيد عبد الله كثيراً. انتهى المقصود هنا من تثبيت الفؤاد للشيخ عبد الكريم الحساوي، ومما نقله الشيخ حسين بن عبد الشكور ـ نفع الله به ـ في نبذته المتقدم ذكرها عن (بهجة الفؤاد) مختصر المناقب لسيدنا الإمام الحبيب محمد بن سميط السابق ذكره أيضاً. وقال السيد أحمد بن زين الحبشي نفع الله به: الحال من الشيخ عبد القادر الجيلاني وشيخنا عبد الله بن علوي الحداد واحد، بل الذي نعتقده وندين الله به أن شيخنا الإمام عبد الله الحداد ورث جميع أحوال الأولياء السابقين واللاحقين، وجميع الصديقين وكافة المقربين والأقطاب الكاملين، رأينا ذلك عياناً وكشفاً وبياناً، ورأيت في غيره من الأولياء تصديقاً واعتقاداً، حقق الله لنا ولكم الرجاء فيه في خير وعافية. وقال رضي الله عنه ما كان لنا أن نقدم على كلام شيخنا عبد الله بن علوي الحداد كلام غيره، إلا ما كان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لكون معانيهما قد رسخت في قلبه وامتزجت بسره،

---

(١) قال في الهامش: وسنه إذ ذاك نحو ٣٨ سنة.

وكلامه مستمد منهما، ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال قدس الله سره: إن سيدنا وشيخنا السيد عبد الله الحداد على القدم النبوي المحمدي في جميع عباداته وعاداته، وله الوراثة الكاملة من جده محمد ﷺ بالحظ الوافر والمنصب الأكبر، فبحمد الله ومنته أن هذا السيد العظيم مثل الشمس الشارقة في ضحوة النهار من غير سحاب ولا غبار، ولا يجد المعترض فيه ذرة مما يقتضي الاعتراض، ولا يشم منه في عبادة أو عادة رائحة اعوجاج ولا انخفاض، فهو من النعم العظيمة ومناهجه المستقيمة، وأبواب جنانه النعيمة، وأهل زمانه ليسوا شاكرين ولا سالكين ولا طالبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
وقال نفع الله به: لو قال مائة إمام بقول وقال شيخنا الإمام السيد عبد الله الحداد بخلافه، وجب على الكل الأخذ بقوله، لأنه القطب والغوث، ويلزم اتباع صاحب الوقت فيما قاله. ولما اجتمع بالسيد المكاشف أحمد بن ناصر ببندر الشحر عند طلوعه للحج فظهر له حاله ، قال رضي الله عنه: السيد عبد الله الحداد عطية من الله في هذا الزمان، له همة علوية وحال فائق كأبي يزيد البسطامي فاغنموه، ما جانا في مكاننا إلا هدية من الله تعالى لأجل نزوره هنيئاً لكم يا أهل حضرموت بمجالستكم له وظهوره عندكم، فهو خليفة الله في أرضه، ووددت أن أرسل إلى أهل الجبال بأودية الشحر يأتون ينظرون إليه، فإن النظر إليه مغنم، وهذا المذكور إنما كان في أوائل أمره ومباديء حاله، فكيف بعد ما وصل إلى غايات كماله. انتهى.

فصل

في نقل نزر يسير من كراماته التي لا تكاد تنحصر، بل حصر القليل منها متعذر، قال في (المشرع الروي): وله ـ رضي الله عنه ـ عدة كرامات وخوارق عادات، لكن عند الحاجات، منها أنه كاشف جماعة بما خطر في قلوبهم في حضرته، وخطر لبعضهم لما لقن جماعة الذكر ولم يلقنه، أنه تمنى أن يلقنه ذكراً من الأذكار، فقال له عند ذلك: خطر لك كذا وكذا؟ فقال: نعم، قال: ليس هذا وقته. وأتاه بعضهم حال قدومه لمكة، وعادة السيد أنه يسأل كل من أتاه عن اسمه ونسبه

ويلين له القول، ولم يسأل هذا البعض عن ذلك، فتألم لذلك وقال في نفسه: أما يخاف السّلب هذا السيد!، فقال السيد عند ذلك الخاطر: السلب حق، ولكن الله تعالى حفظنا منه. وحكى جمع أن الشريف بركات بن محمد قبل أن يتولى إمارة الحجاز أتاه وهو في الحجر، وسأله الدعاء بتيسير المطلوب فدعا له بذلك، فلما ذهب سأل عنه السيد، فقيل: رجل من أشراف مكة، فقال: إنه طلب أن يكون ملك مكة، وقد استجاب الله الدعاء في ذلك، ثم في آخر سنة ثنتين وثمانين وألف، جهز السلطان عسكراً ولَّوا السيد بركات إمارة الحجاز. وقال ـ رضي الله عنه ـ عند ذكره زيارة سيدنا الحبيب عبد الله ـ نفع الله به ـ المدينة الشريفة: واتفق أن الشيخ حسين بن محمد بافضل مرض بالمدينة مرضاً أشرف فيه على الموت، وكشف للسيد عبد الله صاحب الترجمة أن مدة حياة الشيخ حسين قد انقضت، فجمع جماعة من أصحابه واستوهب له من كل واحد منهم شيئاً من عمره، وأول من وهبه صاحبنا السيد عمر أمين فقال: وهبته من عمري ثمانية عشر يوماً، فسئل عن ذلك فقال: مدة السفر من طيبة إلى مكة اثنا عشر يوماً وستة أيام للإقامة، ولأنها عدة اسمه تعالى حي، ووهبه الآخرون شيئاً من أعمارهم، وكذلك صاحب الترجمة وهب له من عمره، فجمع ذلك وكتب في رق، وتوجه به إلى قبر النبي ﷺ وسأله الشفاعة في ذلك، وحصل له خشوع عظيم، ثم انصرف وهو منشرح الصدر، قائلاً: قد قضى الله الحاجة واستجاب ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فشفي الشيخ حسين من ذلك المرض، وعاش تلك المدة الموهوبة له، حتى أن السيد أشار وهو بتريم إلى أن الشيخ حسين يموت في هذا العام، فمات كذلك بمكة المشرفة انتهى من المشرع. ومنها ما حكاه الشيخ عبد العظيم شراحيل في مجموعته قال: خطر لي ذات ليلة خاطر، بأن قلت: مر عمري مع هذا السيد بلا حاصل، فوبخت نفسي حتى بكيت خفية من غير أن يطلع علي أحد، فلما انقضى الراتب قمت فأخذت بيده فقبلتها، فتبسم في وجهي وقال لي: أنت ضعيف لا تقدر على الحال، لكن فيك بركة، فاستحييت. ومنها أنه جاء رجل من شبام في حاجة وكان مترسماً بالفقه، فحضر مدرس الحبيب عبد الله يوم

الخميس ويوم الجمعة قصد زيارة السيد محمد بن عقيل مولى مدحج، وكان الغالب عليه الخمول، فسرت معه إليه، فلما خرجنا من عنده أثنى الرجل عليه وتكلم في حق السيد عبد الله، فتخاصمت معه، فلما صلينا الجمعة خرج إلى بلدته شبام من غير أن يعلم السيد، فتبعت سيدي عبد الله إلى الزاوية ومعه خلق كثير فجلست معهم، فسأل سيدي عبد الله عن الرجل وأثر الغضب قد ظهر في وجهه، فأخبر أنه قد خرج من البلد، فقال ـ نفع الله به ـ مخاطباً لبعض السّادة كان عنده: لقد آذونا أهل هذا الزمان، أيجوز لنا أن ندعوا عليهم؟ فقال له السيد: مثلكم ما يدعو إلا بالخير، وأنتم احتملوهم، فقال: مطالبونا بأحوال أويس القرني وإبراهيم ابن أدهم، ويظهرون لنا ورع تاجر من أهل زمن إبراهيم وأويس، وعندي خمسون حالاً من أحوالهم، قال: فعرفت ذلك أنا لأني مطلع على حقيقة الأمر. انتهى من مجموعة الشيخ عبد العظيم السابق ذكرها، ثم ساق بعد ذلك عدة من الكرامات والخوارق، وكذلك الشيخ أحمد بن عبد الكريم الحساوي نقل في كتابه (تثبيت الفؤاد) كثيراً منها، وأما الحبيب محمد بن سميط فعدَّ منها في المناقب الكبرى مئين، وهذا بالنسبة إلى ما دون، وأما من لم يبلغ هؤلاء الأئمة المذكورين، مما يحفظه بقية أصحابه وتلاميذه وفقرائه ومحبيه فمتعذر الحصر، وقد قدمت في ترجمة الشيخ العارف بالله تعالى محمد بن يسّ باقيس ـ نفع الله به ـ لما ذاكر بشيء من أحوال سيدنا الحبيب عبد الله قدس الله روحه، قال له بعض الحاضرين: هذا الذي ذكرتوه لم يذكره أحد ممن ترجم لسيدنا عبد الله أو ما هذا معناه قال: وكم وكم مما لم يذكروه، قال الشيخ الحساوي غير مرة من غير واحد، يقول عن شيخه سيدنا السيد عمر العطاس ـ نفع الله به ـ قال: من جملة من يصل إلى الله على يد سيدنا عبد الله ممن اسمه عمر أربعون، فإذا كان هذا فيمن يوصلهم إلى الله ولم يعرفوا ولا ذكروا جميعهم، فما بالك بتعدد كراماته وأحواله ومقاماته وغير ذلك مما يعطي الله أولياءه وخاصته.

وسيأتي في هذا الفصل الآتي كثير في كلامه مما يتعلق به، وبالفصل الأول وينجر إليه، لأنا لا ننقل فيه إلا ما هو من باب ما حصل له من الفتوحات الربانية،

ومنح به من العلوم اللدنية والمقامات العالية والأحوال السامية، والإقبال الكلي من طاعة العالم العلوي والسفلي، وغير ذلك مما هو من هذا النحو، ومرادنا بذلك تنبيه الغافلين على سلوك طريقه، وتنشيط المريدين على الاجتهاد لتحصيل كشف بعض ما وصل إليه من تحقيقه، وتميز به عن فريقه، وأما كلامه في السلوك وأحكامه ونشر أعلامه، فمن أراده فليطلبه من كتبه، فإنها لأهل هذا الزمان أجمع كتب القوم الصوفية، بإجماع أهل الطباع السليمة منهم والنفوس المستقيمة. قال شيخنا الشيخ العارف عبد الله بن أحمد بافارس باقيس رحمه الله ونفع به: سمعت شيخنا الشيخ محمد بن يسّ باقيس يوماً ببندر الشحر يذكر مقالة سيدنا الشيخ أحمد ابن محمد الحبشي صاحب الشعب وهي قوله: إن أهل هذا الزمان الأخير خصوا بثلاثة أشياء: القهوة البنية، وديوان الفقيه عمر بامخرمة، وشرح الحكم لابن عباد، قال: قلت له: وقد خص أهل هذا الزمان زيادة على ما سبق برابعة، قال: وما هي؟ قلت: كتب سيدنا الشيخ عبد الله الحداد، قال: فقال: وكتب سيدنا الأستاذ وكررها ثلاثاً، ومنها (النصائح الدينية) و(الدعوة التامة)، و(سبيل الادكار)، و(إتحاف السائل)، و(الفصول العلمية)، و(رسالة المعاونة)، و(رسالة المريد)، وكتاب (المجموع) وهو جامع للمكاتبات، والوصايا والقصائد المشتملة على الحكم والفوائد، وآخرها (الديوان)، وكلها مشهورة وفي العالم منشورة، ولدى حملة العلم معروفة ومذكورة، نفعنا الله بها وبجامعها، وأما (المسائل الصوفيّة) فاعتنى بجمعها سيدنا الشيخ الحبيب أحمد بن زين الحبشي نفع الله به، وما جمعه الشيخ الحساوي كذلك ملحق بمؤلفاته ومعدود من متحفاته، لأنه مما يتكلم به لإفادة العباد في جميع المواد، ولما كأن ما فيه كان سامعه يتلقى اللفظ من فيه، كان غالب ما ننقله هنا منه لما قدمناه، وقد جمع سيدنا الحبيب محمد بن سميط ـ قدس الله روحه ـ جملة من كلامه انتخبه من كتبه المذكورات، وأورده في الباب الثامن من المناقب الكبرى، فلما قرىء على سيدنا وشيخنا الشيخ عبد الله بن أحمد بافارس باقيس ـ رحمه الله ونفع به ـ أمر بتجديده ونسخه، فلما رآه سيدنا وشيخنا الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار الأخير صاحب المنظومة ـ نفع الله به ـ كتب

نسخه بخطه، ثم نقلت منه نسخاً كثيرة الباب الثامن برمته، رضي الله عنه ونفعنا به.

فصل: في نقل بعض كلامه الموعود به على ما شرطناه، وعلى النحو الذي قصدناه من كتاب (تثبيت الفؤاد)، لكن تقدم على ذلك مقالتين:

إحداهما من المكاتبات والأخرى من المسائل، لأنهما من الفن المقصود والمعنى المعقود، وقد تقدم لنا في هذا الكتاب نقل كثير من كلامه ـ رضي الله عنه ـ مما كتب به إلى الشيخ حسين بافضل رحمه الله ونفعنا بهما:

بسم الله به بدأنا ... فيما نقوم وما نروم
سبحان ربي تقدس الله ... عن أن تحيط به العلوم
والحمد لله حمد عبد ... فانٍ تجلى له القديم
ولا إله لنا سوى الله ... توحيد ذوق به نهيم
والله أكبر ولا كبير ... سواه كلا ولا عظيم
يا حاضر القلب أنت تدري ... بكل ما تدرك الفهوم
وتعرف السر وهو كتم ... في صدر حر به عليم
هيا بنا نقطع الفيافي ... حتى نوافي ولا نقيم
في عالم الزور والتلاشي ... فإنه كله رسوم
والحق من خلقه وفيه ... لكنه باطن كتيم
يراه من قلبه مضيء ... وذلك العارف الحكيم
صلى الإله بلا تناه ... على الذي شأنه فخيم
محمد النور خير من قام ... بالحق للحق أو يقوم

من عبد الله بن علوي الحداد علوي، إلى الشيخ الصوفي العارف اللطيف، الولي الحبيب في الله النقيب النجيب، الحسين بن محمد فضل، جعله الله تعالى من الناظرين إلى الفضل، المنظورين بعين الفضل، المعاملين بالفضل عبودية، في الحضرات الحقية والخلقية، والمظاهر الدنياوية والأخروية آمين.

أما بعد: فالسلام ورحمة الله وبركاته، من قلب منطوٍ لكم على صحيح الموالاة وخالص المصافاة في الله تعالى، والذي انشرح لكم، شرح الله مناومنكم الصدور والقلوب بمعرفته وحبه وأنسه وقربه، بأنا والحمد لله في خير وعلى خير إن شاء الله تعالى، داعون لكم وطالبون منكم صالح الدعاء، في الأماكن الشريفة والمواقف المنيفة، الله الله في ذلك، وأكثروا والحوا فإن الله تعالى يحب الملحين في الدعاء كما ورد، وادعوا لنا بالمعاودة إلى تلك الأماكن المشرقة عليها أنوار التجلي الخاص، فإنا إلى ذلك مشتاقون ومتعطشون، لم يزدنا ذلك الورود إلا تعطشاً ونزوعاً، وقد أظهرت المشاهدة من القلب أمراً كان مستكناً فيه، ثم لم يزل ظاهراً لم يعد إلى ما كان عليه من قبل، والروح والراحة الكائنان حال اللقاء عادا بأنفسهما شوقاً وتوقاً يحركان القلب ويزعجانه، وتحت هذه الكلمات سر معنى ظهور الحق في الشجرة، وإشراق النور على الطور المندك، وأنت تفهم الإشارة إلى ما تقصر عنه العبارة. انتهى المقصود من المكاتبة، المقالة الثانية من النفائس العلويّة في المسائل الصوفيّة من آخر جواب على سؤال ورد عليه من الخطيب بارجاء عن القطب أهو الغوث أم غيره؟ قال ـ رضي الله عنه ـ بعد أن نقل التحقيق في ذلك وأشبع الفصل: وبسط الكلام على شرح هذه المسألة يستدعي ذكر مواجيد أهل دائرة الولاية، وذكر علاماتهم الدالة عليهم، وتفاوت أهل كل رتبة في رتبتهم، إلى غير ذلك، وهذا أمر لا يستقل بتحقيقه إلا القطب الغوث لإحاطته بجميع مراتبهم، واندراج مقاماتهم في مقامه وأحوالهم في حاله، وأما غيره من الأولياء فلا يحيط إلا بمن هو في رتبته أو دونه، وله إشراف على من هو أعلى منه من غير إحاطة، وعلى الجملة فهذه المسألة من الأمور التي لا يقنع فيها بدون الكشف والعيان، فمن أراد ذلك فعليه بتهذيب أخلاق نفسه، وتلطيف كثافتها فيها بالرياضة البالغة، الماحقة للرعونات النفسانية الظاهرة للحظوظ الشهوانية، المزينة بالحضور الدائم مع الله تعالى بوصف حسن الأدب، على بساط الذل والانكسار والاضطرار والافتقار، تحقيقاً للعبودية ووفاءً بحق الربوبيّة، فإذا أحكم العبد هذين الأصلين اللذين أحدهما حسن الرياضة والآخر كمال الحضور، انتهك حجب قلبه وأبصر غيب ربه، فبعد ذلك شاهد الأولياء على مراتبهم ومناصبهم القدسيّة أرواحاً

مجردة، فحينئذ يستغني عن الوصف، ويرفع من حضيض التقليد إلى أرواح الكشف، وأما نحن معاشر المحجوبين فليس لنا من هذا الأمر وما يجري مجراه إلا مجرد الوصف، وليس بقليل إذا لم يقع الجمود عليه، لأنه ينتج المحبة وعنها يكون الشوق وعنه يكون الطلب، ومن طلب وجد، ولكل نبأ مستقر، ولكل أجل كتاب، ولنا في هذا المعنى شعراً:

بصرت بركب الحي للحي سائراً ... فقلت لهم ما شأن[1] ذات الغدائر
محجبته الحسن البديع الذي غدا ... به كل صب واله القلب حائر
ألا فاشرحوا لي حسنها وجمالها ... فأوصافها تحلو لسامعي وخاطري
فقالوا ترى في ذكرها بعض سلوة ... لعاشقها دون الشهود بناظري
هلم نجد السير نحو خبائها ... لنحظى بها ما بين تلك المسامر
فقلت لهم في ذكر أوصاف حسنها ... تيقظ محجوب وتنشيط سائر
رعى الله أياماً تقضى نعيمها ... وتذكارها ما زال نصب سرائري
خليلي هل من عودة لليالي ... تولت فإني بعدها غير صابر

وهذا النقل من كلامه ـ نفع الله به ـ من (تثبيت الفؤاد) من مواضع منه، قال رضي الله عنه في بعض مكاتباته: إنا نسمح عند المذاكرة والمشافهة بالشيء من هذا العلم، وإن كان دقيقاً ويحتاج إلى طول كلام، ولا نسمح بمثله في الكتب والمكاتبات، لأن المذاكرة إنما يعقلها ويعيها من هو من أهلها، ومن ليس منهم فعارض يعرض له وشيء يمر به، لا يبقى في يده منه شيء، وهذا من التأييد الذي أيد الله به هذه الطائفة، ولا هكذا ما يرسم في الدفاتر، فإنه عرضة للبر والفاجر، فافقه. وقد أخبرني الأخ الأكرم عوض بن صباح، وكان له في خدمة سيدنا نحو سبعين سنة، قال: زرنا في قديم الزمن مع الحبيب التربة، فلما فرغنا من الزيارة، وبعد زيارة أهله جلس على الدكة تحت قبة الشيخ عبد الله العيدروس ـ رضي الله عنهما ـ التي عند بابها النجدي، فتكلم علينا ـ رضي الله عنه ـ بكلام جزل، ثم قال أتظنون أنا مع أهل الزمان في مكان واحد يسمعون كلامنا هيهات، بل بيننا وبينهم

(١) ما شأن: في الديوان ما حال.

بحر عميق واسع الطرفين، نحن في طرفه هذا وهم في الطرف الآخر، ومثلنا معهم كمثل رجل جاء من بلد بعيدة لا تعرف وفيها من كل شيء من الأشياء النفيسة الغالية القيمة، فجاء معه منها شيء كثير، وأراد أهل الزمان أن يشتروا منه شيئاً يسيراً جداً، فأخرج من دني القماش فلم يوصلوا فيه قيمة، فالله المستعان. انتهى، ولما عزم رضي الله عنه على إتمام (الفصول العلميّة)، وذلك من فصل (الاستقامة) وتمامه يوم ثامن عشر صفر سنة ثلاث بعد المائة والألف، قال: أين نسختك من كتاب (الفصول العلميّة) نشوفها؟ قلت: البارحة استعاره السيد فلان وسميته له، فقال: ما يعرفه، خذه منه بلا جفاء ولا تخبره أنا نريد نتمه، وقل له: لا تطالع فيه، واجعل مطالعتك في الديوان فإنهم أودعوا فيه أسراراً وفوائد لا تكون في غيره، ونحن هذه الأشياء قامت علينا بتعب واجتهاد كثير، وهؤلاء بغوها ألا بلا شيء من غير اجتهاد ولا تعب، ما يريدونها حتى بطريق العدل والإنصاف، ولو طالعوا كتاباً واحداً من كتبنا وأمعنوا فيه النظر لكفاهم، وقال قدس الله سره: الناس إذا سمعوا بأحوال الصالحين يظنون أنهم يطلعون على الغيب، فمتى أرادوا كاشفوا الناس بخواطرهم، ويقال: الأنبياء يعلمون الغيب من أكثر الوجوه، والأولياء يعلمونه من بعض، ولا يعلم الغيب كله إلا الله ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. وقال رضي الله عنه: علوم الغيب تتفرع إلى أمور كثيرة، وعلم الغيب المطلق هو لله خاصة، وقد تقدم أنه قال نفع الله به: عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي، ومرة قال: أخذنا من الكتاب والسنة ما لا يحمله إلا المهدي، وهكذا كل من بلغ رتبة الكمال، ومرة قال: عندنا من الشيخ عبد الله بن أبي بكر العيدروس، أمانة لا يحملها إلا المهدي، صدر منه هذا الكلام في مجالس متعددة، وذكر ـ رضي الله عنه ـ في سند سلسلة إلباسه الذي طلبه السيد عبد الله بروم من أهل الشحر: ولنا بحمد الله منه ـ أي العيدروس ـ يد باطنة في واقعة عظيمة بل وقائع متعددة، ولعل الواقعة هذه هي التي تروى عن السيد العارف علي بن عبد الله العيدروس، أن سيدنا الحبيب ـ نفع الله به ـ زار التربة مرة واحدة، فلما جاء إلى ضريح سيدنا عبد الله ابن أبي بكر العيدروس ـ رضي الله عنه ـ رآه جالساً خارج القبر وداخل

التابوت، وأنه صافحه وأعطاه وديعة، وأفهم هذا أنه محمول عنه لا عن غيره للمهدي، يتفرق عنه في المذكورين حتى تجتمع كلها للمهدي، ولعلها مقام القطبيّة والدعوة إلى الله وتجديد الدين. والله أعلم، وتكلم ـ رضي الله عنه ـ يوماً على الناس كثيراً، ثم قال في آخر كلامه ذلك: إذا تكلمنا في مجلس فلا يظن أحد أنا قصدناه بالكلام خصوصاً، بل هو عام لكل من يسمعه، ثم تمثل بهذا البيت:

وإذا فتى طرح الكلام بمجلس　　　في مجمع أخذ الكلام الذي عنا

ثم قال: وإذا تكلمنا في مجلس فإن عرفه الحاضرون وأخذوا به كان حجة لهم، وإلا فله من يسمعه غيرهم لا يرونهم، وكلامنا بأمر إلهي، وقد أخبرني السيد محمد بن شيخ الجفري أنه رأى يوماً حية في جنب سيدنا في مدرس العصر، فأراد بعض الحاضرين أن يأتي بعصاً يضربها، فصاح سيدنا بالرجل: لا تقتل الحية واتركها، فبقت إلى أن فرغوا من الدرس وقرأ سيدنا الفاتحة ودعا، فلما ختم الدعاء تسببت وذهبت. وقال رضي الله عنه: يقال إن السيد محمد بن علوي لما جاء طالباً إلى السيد عبد الله بن علي صاحب الوهط، قال له السيد عبد الله: متى ولدت؟ قال سنة اثنتين وألف، قال: لو عادك أدركت من القرن العاشر لحظة لحصل لك مطلوبك وأنت قائم في لحظة، لكنه تركه عنده مدة طويلة يُرَوّح عليه إذا نام ويملأ الحوض وفي ثياب خلقة، حتى حصلت له الرياضة، ثم بعد ذلك كان من أمره ما كان. قال الشيخ الحساوي: والثلاث المسائل الباطنة التي سبق ذكرها وأنه سال عنها كثيراً من أهل الباطن، وكانوا كثيرين متوافرين في قرى حضرموت فلم يشفوا له غليلاً، حتى رأى الحسن باشعيب فسأله عنها، فأجابه عن اثنتين جوابا شافياً، وقال له: أما الثالثة فلا يجيبك عنها إلا السَّقاف، فخطر بباله إذ ذاك أن المراد من أهل تسليك المريدين في هذا الوقت من آل السّقاف، فسأل عمن هو كذلك اليوم من آل السّقاف، فذكر له السيد محمد بن علوي، فكتب إليه يسأله عن المسألة ويطلب منه الإلباس، فكتب إلى سيدنا يعتذر ويقول: لا يمكنني ذلك حتى يأمرني النبي ﷺ، ثم بعدما أرسل الاعتذار بأيام حصلت له الهمة على الزيارة فسار إلى المدينة، فلما وقف في المواجهة تلقاه النبي ﷺ حصل عليه حال عظيم

وغيبة، وجعل العرق يصب من جسده ورمى ثيابه كلها، وما بقي عليه إلا سراويل حتى رأسه مكشوفاً، ثم سري عنه فلبس ثيابه، ثم قال للسيد أحمد بن هاشم الحبشي وكان حاضراً ذلك: هات دواةً وقرطاساً نكتب للسيد عبد الله كتاباً غير ذاك. فذكر في هذا الكتاب أنك كتبت تطلب إلباس الخرقة، وإنا اعتذرنا عن ذلك إلى أن يأذن لنا النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ قد أمرنا بذلك، وها هي واصلة إليك، وأرسلها، وأظن قال معها جواب المسألة، فاتفق وصولها إليه يوم وفاة السيد محمد المذكور، وفيه إشارة إلى أنه خليفته، كما قال سيدنا في مرثاته للسيد محمد المذكور نفع الله بهما:

بقيــة قــوم قــد مضــوا وخلفتهــم   وهم خلفوني في الحما بعد ما ساروا

ولم يجتمع سيدنا بالسيد محمد فإنه توفي قبل مسير سيدنا إلى مكة بنحو ثمان سنين، لأنه توفي رابع عشر ربيع ثاني سنة إحدى وسبعين وألف، وسيدنا حج سنة تسع وسبعين وألف. وقال رضي الله عنه: ولما طلب منا المجاورة يعني أهل الحرمين قلنا: إن مكة لا تصلح إلا لأحد رجلين، إما خامل لا يعرف أبداً كالتراب فلو دحق لا يبالي، أو سائح في الجبال كابن الفارض، أو بحر لا يتكدر، ولا يضيق من كثرة الناس وإقبالهم، ولا يشغلونه عن الله مع تبحره في الكتاب والسنة وتحققه في العمل، فيجاور في الحرمين يأخذ ما فيهما من الخيرات ويسلم مما فيهما من العوائد، وأما المتوسط فيتعبونه بسبب أمور الدنيا وأحوالها. وقال رضي الله عنه: ولما وصلنا من مكة وتوصلنا إلى شبام، ما انمرت لنا الطرق من كثرة الناس، وقد قلنا: إن كان أذن لنا في التنقل في الأرض ما أخذنا معنا إلا واحداً كما فعل الشيخ عمر العطاس، ولكن من بعد تلك الحركة ـ أي سفر الحج ـ ما وقعت لنا حركة إلا إلى هود، ومرادنا نتوقى الشهرة ويفعل الله ما يشاء، وما دخلنا بلداً إلا وفيها أناس من الصلاح مرموقين إلا في هذا الزمان، ما نلقى حتى من يواظب على الصلاة، وكان في بلدان حضرموت ناس مكاشفون، ويقال: إن في الهجرين من آل عفيف كلهم إذ ذاك يكاشفون حتى أخدامهم، وما كاشفنا إلا ثلاثة ـ يعني من المتقدم ذكرهم ـ، وقوله هذا كان في سنة ثلاثين ومائة وألف، ومرة قال: ما عاد

يمكننا ذلك ـ يعني العود إلى الحرمين ـ إلا إن كان خرج المهدي في حياتنا وطلب منّا المجيء إليه، لا بد ما نخرج لمبايعته، قال: وأقبل علينا الناس كثيراً، ومرادنا السّلامة منهم على طريقة سلفنا، لأن الظهور فتنة، وأرسل إلينا السيد محمد شليه قال: قل له: يسلم عليك ويشير عليكم بعدم المجاورة، فقال له الرسول: إنه ماله نية في ذلك، فقال: ولو. عادك قل له زيادة، ونحن كنا عازمين على أن لا نجاور، وكنا نخفف أنفسنا خوفاً من أن تحصل إشارة في المجاورة، أي لما تقدم، وقال رضي الله عنه: وأخذنا في الحرمين عن جماعة من آل الوفاء وأخذوا عنا، والحاصل أخذنا قواعد الإسلام الأربعة عن أربعة، وقال نفع الله به: جمعنا من الكتاب والسنة ما لا يستطيع حمله إلا المهدي، فإن أدركناه أديناه إليه وسلمنا من تلك الأمانة. وقال: ما بقي شيء من الأمور التي يحتاج إليها السالكون إلا وضعناه في كتبنا، فمن أراد شيئاً من ذلك وجده فيها، ومقصودنا أن نجعل لهم فيها بعضاً من التوحيد. وقال: لو نعمل بكل ما نعلم لملينا كل شيء حتى الثياب الذي فوق أبداننا. وقال: قد نعزم على الأمر نفعله فلم يتفق، ولكن يجعله الله على يد أحد من الأولاد أو الأصحاب.

وقال رضي الله عنه: السّماع يدل على ما في ضمير صاحبه من خوف ورجاء، أو شوق أو محبة، وإذا خرج عنه يزيده من حاله ذلك، ويحصل له بذلك تخفيف وتروح، كما نقل عن سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه لما كثرت عليه العلوم ولم يجد من ينقلها عنه، وقف على فم بئر وتنفس فيها ففاض الماء على جوانبها فنبت منه اليرع. وقال نفع الله به: نود أن نحضر السماع في بعض الأحيان، ولكن نخاف أن الروح تخرج عنه. أو كلمة قريبة من ذلك، وقال مرة: إن حضرناه ربما يغير علينا، ويحصل لنا بذلك تنسم ولكن ربما نغير على الحاضرين بتغيرنا، وإن تماسكنا ما نخلوا في الباطن من شاغل أو تعب، فبقي إذن تلاوة كتاب الله وذكر الله أفضل. وقرىء عليه ـ رضي الله عنه ـ شيء من نظم السّودي مما فيه غزل وذكر العود والطار، فأعجبه ذلك النظم كثيراً، فقال نفع الله به: أدركنا ناساً على هذا وكنا نفعله، ولا تركناه لأجل الناس، إنما هو لأنا ما رأينا

من يحسنه، وقد أردنا أن نرى عليه أحداً يتعلمه كما ينبغي، لكن ما أحد قبل التعليم، وكان رجل من آل العمودي من بضة يُسَمِّع للشيخ محمد بن علوي، وكان غالب وقته في السماع، وأمره بالجلوس عنده حال مرضه الذي مات فيه فهو جالس عنده، وأتى أهله إليه يشوفونه فأراد أن يقوم فأومىء إليه أن اجلس، وكلما رأوه عنده ما أمكنهم المجيء، وكلما همَّ بالقيام أمره بالجلوس، حتى مات وهو عنده، فذكر أن آخر ما تكلم به أن قال: يا سيدي يا رسول الله، ومكث عند قبره سنة ما يميل عنه إلا للصلاة أو لحاجة، ولما حججنا قرأ علينا ثم أصبح وحلقه مشحم، فقال: أخاف أن السيد محمد ما أراد أن أقرأ عليكم، قلنا: لا نحن والسيد محمد شيء واحد، وكنت عزمت أن لا ألبس الشاية لأنها من لباس المترفهين، فيوماً كنت في المواجهة في زيارة الرسول ﷺ، فجاءني[1] بشاية فوضعها على ظهري، وألبسنيها من غير ما أدري، فلما كان ذلك في المواجهة اتخذت ذلك رخصة، ثم لبستها بعد ذلك، وسمّع لنا فأعجبنا تسميعه، وأرسل لنا السيد علي بن عمر يقول: إن معي لكم وصية من غيري ما هي مني، إنما أنا رسول، إن فلاناً يقول: ما يحسن منكم التسميع لكون الناس يقتدون بكم، فقلنا له: قل له: هذا الأمر لا بد فيه من الحجب.

وقال قدس الله روحه: أول كتاب كتبه إلينا الشيخ أحمد القشاشي براعة استهلاله: بسم الله مجراها ومرساها، من الله مبتداها وإلى الله منتهاها. قال: وأجازنا في أشياء مخصوصة، ونجيز فيها أناساً مخصوصين، وسمعته يقول مما أخذنا عنه من الأوراد: استغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، سبعاً وعشرين مرة بعد كل صلاة من الخمس، قال: وأما الشيخ محمد بن علوي فهو في كل كتاب يكتبه إلينا يقول في أوله يقول: من الداعي بطول البقاء وعلوّ الارتقاء، محمد بن علوي إلى السيد الفاضل فلان، قال: وأجازنا إجازة عامّة في خرقة وغيرها ونجيز فيها، وأرسل إلينا يأمرنا بالخمول وعدم الشهرة، وذكر أنه حصل عليه من ذلك تعب كثير. وقال رضي الله عنه: أنا لا نأذن لمن وصفنا، ولا نحب أن نذكر بأكثر من أنا من أهل البيت ومتمسكين بالعلم ولنا إلمام بأهل التصوف، ونحن لا نريد الظهور.

---

(١) اي أتى بها أحد.

وقال نفع الله به لبعض القرّاء: تأنّ مرات متعددة، وقال له في بعض المرات: تكرير الكلام لا يحتاج إليه، فإنه إذا تكرر سقط وقعه على النفوس، ولهذا ترى عيال العالم أكثر تساهلاً في كلامه من غيرهم لتكرر كلامه معهم، ونحن ما عاد نعاقبهم كما كان الأولون يعاقبون، لأنا مدبرين ـ أي عن الدنيا ـ وهم مقبلين، وهم من طبقات ونحن من طبقة، وإنما نريد منهم أن يأخذوا ما تيسر مع الإصغاء والاستماع، وفي الحديث: «في آخر الزمان خير العيال البنات»، لأن الولد إذا كبر ما يريد معه وجود لا في مال ولا أمر، فإن كثروا كان أكثر لذلك، والبنت تكون في ميزانك بسبب اهتمامك بها وبمعاشها، والولد تكون في ميزانه، أي إذا برّك ولم يعقك كتب له ثواب بره. وقال رضي الله عنه: عجبت كل العجب من رجلين، أحدهما من يستعير الكتب فإذا غفل عنها صاحبها أخذها، والآخر من يزني ويغتسل من الجنابة، أقدم على هذه الكبيرة ولم يراقب الله فيها ثم يغتسل من جنابة، وقال لما ذكر العلماء: سبحان الله قد يجيء العالم يريد أن ينكت على أحد من العلماء ويستدرك ويعترض فلا تحس به إلا وقد وقع في أمر، كل ذلك طلباً للكمال ولا كمال للإنسان، لأن الله تعالى منعه الكمال، وخوفاً من الكبر والإعجاب، وخصوصاً بالعلم لأنه أشرف الأشياء، فإذا كان يتكبر ويعجب بالذهب والفضة وهما مثل الحجارة، فكيف بالعلم الذي هو أعز الأشياء. وقال رضي الله عنه: لو أدركنا ناساً يرغبون في العلم لجعلنا واحد يقرأ فقط، ونتكلم معه ونملي عليه والبقية يستمعون، ولكن هؤلاء ما بغوا إلا كثرة قراءة، ولا بالوا فهموا شيئاً أم لا، وأنا يعسر عليّ إخراج الكلام ولا أسخى به، وقد كانوا ـ أي السّلف ـ إذا حضر أحدهم مجلس علم يتفقد نفسه، ويقول ماذا حصلت من علم أو من زهد في الدنيا، وأمر القراءة والكلام إنما هو إلى العالم والبقية يحفظون ويكتبون، على أن بعضهم كان يغضب من الكتابة ويقول: لا بل احفظوا كما حفظنا. . أو كما قال، وذكر ـ قدس الله روحه ـ علم الحديث وأكثر فيه، ثم قال: ما جمعنا كتب الحديث إلا لأجل المهدي، فإنه إذا خرج لا يأخذ بفتاوى الفقهاء، بل إنما يأخذ بالكتاب والسّنة ويدع ما سواهما، وقال: لا ينبغي للطالب أن يبتدي

بمطالعة كتب الشاذليّة، حتى يطالع أولاً غيرها قبلها ويحكمها ككتب الإمام الغزالي، ثم يطالع بعد ذلك كتب الشاذلية ليستفيد، فإن ابتدأ بها أولاً رجع يحتج بالأقدار وبقي كلحم على وضم[١].

وقال رضي الله عنه: والناس غافلون، وإلا ففي نفوسنا أشياء غامضة، لو رأينا أحداً يفهمها لأظهرناها وبيناها لهم، لكن لما رأيناهم ورأينا أحوالهم، قلنا: لمن؟، وهذا ميراث لنا من سيدنا علي فإنه قد شكا ذلك، إلا أن الميراث كلما طال الزمن ضعف. وقال نفع الله به: ينبغي في هذا الزمان أن المطلوب هو الذي يدور للطالب ولو هو خلاف ما عليه السّلف، وليحصل له التذكر، لأنه لولا المذاكرة نسي، ولأجل الثواب. وقال قدس الله روحه: يقال: من أحسن نعم الله على الإنسان في الدنيا ثلاث: أن يرى ولد ولده، وأن يأكل من غرس يده، وأن ينشد بين يديه شعره، وقد حصلت لنا كلها بحمد الله تعالى.

وقال رضي الله عنه: ما يصح لأحد عندنا قدم في زهد أو عبادة أو فقر أو غير ذلك أصلاً، حتى يرمي بالدنيا خلف ظهره بالكليّة صادقاً في ذلك، وأهل هذا الزمان لا يلازم أحدهم أحداً من أهل الصدق والدين إلا لطلب أن تحصل له الدنيا، التي قد حذف بها ـ أي الصالح ـ وألقاها خلفه، وقلَّ أن يصدق أحد منهم في ذلك. وقال: ما يكون شيخ الإنسان إلا من اجتمع قلبه عليه، حتى لا يرى أن أحداً أفضل منه، فذاك هو الذي ينتفع به، ومن كان منتفعاً في العلم الظاهر والعمل، إذا أذن الله له في الفتوح ما يكون إلا على يد رجل كامل، كما في قصة يوسف الفاسي، وكان كاملاً في العلم الظاهر والعمل، فجاء إلى الشيخ أبي بكر بن سالم فأخذ عنه وفتح له على يديه، ولم يجتمع به في هذه المدة إلا نحو مرتين.
وقال رضي الله عنه: أهل الزمان لا يصلحون للاستعانة على فعل خير ولا على ترك شر، هذا إجمال الأمور، وتفصيلها يعرفه الإنسان من نفسه بالتجربة. وقال نفع الله به: راحت أعمار الناس بلا شيء وسيبوا كل شيء، وادعوا كل شيء

(١) وضم: قال في مختار الصحاح الوضم كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو باريه يوقى به من الأرض.

وفاتهم كل شيء. وقال: هذا الزمان أهله كثيري العجائب قليلي الرغائب، كثيري المثالب قليلي المناقب. وقال: اعمل في هذا الزمان من الخير ما لا يشق عليك ويمكنك المداومة عليه، فقليل دائم خير من كثير منقطع، واشكر على القليل يعطك الله الكثير، ولا تنظر مثل أحوال بشر والفضيل وأمثالهما، فإن هؤلاء حتى الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يعملوا بمثل عملهم، لكن معهم نور النبوة، وقد سئل بعضهم عن ذلك فقال: كان الصحابة أكثر إيماناً وكان التابعون أكثر أعمالاً، وأين زمانك اليوم من زمانهم، فإنك في القرن الثاني عشر، ولو بعث اليوم من هؤلاء واحد لتعجب. وكلامه ـ رضي الله عنه ـ في السّلوك وغيره مما هو من باب الدعوة إلى الله وسلوك سبيله، والرغبة فيما عنده وابتغاء الزلفى لديه، كثير شائع مشهور، منتفع به القريب والشاسع، ولنختم هذا الفصل وما فيه من الفوائد المتعلقة بذلك المقام والفضل، بفائدة من (النفائس العلويّة) في ذكر طرائقه ومشايخه، وقد سأله عن ذلك الشيخ العارف بالله تعالى عبد الله بن سعيد العمودي نفع الله بهما، قال: وإذا كان قصدك أنا نذكر بعض من أخذنا عنه، وبعض الأسانيد التي لنا في الخرقة ونحوها، فاعلم أنا قد لقينا وأخذنا عن خلق كثير وجماعة يطول عددهم من السّادة آل أبي علوي وغيرهم، ممن أدركناه بتريم وجهة حضرموت ونواحيها، وممن لقيناه في حال سفرنا إلى الحج بالحرمين الشريفين وباليمن، والظاهر أنا لو عددناهم ربما يزيد عددهم على المائة من بين عالم وعارف وأخ، وقد سُئلنا مرات في أن نعدهم ونذكر شيئاً من مناقبهم، فمنعتنا عن ذلك عوارض الزمان، وقلة رغبة أهله في هذا الشأن، وموانع أخر، وما كل عذر يتهيأ ذكره كما قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله، ولكنا نذكر لك من ذلك شيئاً يسيراً على سبيل الإجمال، فاعلم أنا أخذنا العلم الظاهر عن جماعة من أهله، واشتغلنا عليهم اشتغالاً معتبراً في أوقات صالحة لذلك، ثم أخذنا علوم الطريقة عن جماعة من أهلها من ظاهر وخامل، وكانوا من البقايا في ذلك الزمان، وقد صاروا إلى الله تعالى والدار الآخرة، فمن أجلهم ـ أعني أهل الطريق ـ السيد الصّوفي الملامتي عقيل بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عقيل السّقاف باعلوي، ترددنا عليه وأخذنا عنه ولبسنا منه الخرقة، وذكر لي عند الإلباس أنه لم يلبس أحداً غيري، ولقينا السيد القدوة العالم الجامع أبا بكر بن السيد القدوة عبد الرحمٰن بن شهاب، والسيد الصوفي

عبدالرحمٰن بن شيخ مولى عيديد باعلوي، وولده السيد المجذوب العارف شيخ بن عبد الرحمٰن، والسيد المجذوب العارف عمر بن أحمد الهادي ابن شهاب باعلوي، والسيد المجذوب الملامتي سهل بن أحمد باحسن الحديلي باعلوي، والسيد الفاضل العارف المحقق الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن العطاس صاحب حريضة، اجتمعنا به مراراً وأخذنا عنه أخذاً تاماً طريقة الذكر والمصافحة وإلباس الخرقة، وأخذنا عن السيد المشهور العارف المذكور الشيخ محمد بن علوي نزيل مكة المشرفة، وذلك بالمكاتبة والمراسلة ولم نجتمع به ظاهراً، وقد لبسنا منه بالمكاتبة أيضاً، رحم الله الجميع ونفعنا بهم، وأعاد علينا من بركاتهم وأسرارهم وعلى كافة المسلمين. . ثم ساق إسنادهم على التفصيل الآتي في منظومة سيدنا وشيخنا، فإنه ـ رضي الله عنه ـ حكاه فيها بجميع رواياته وطرقه، وهو مذكور في (المسائل الصوفية) المذكور.

خاتمة في ذكر وفاته: ذكر الشيخ أحمد الحساوي ـ نفع الله به ـ في (تثبيت الفؤاد) ابتداء مرضه ـ رضي الله عنه ـ وما وقع له فيه، ومن قصده وما قاله وما حصل واتفق تفصيلاً وإجمالاً، فجزاه الله خيراً، وأما سيدنا الحبيب محمد بن سميط ـ نفع الله به ـ فقال في (بهجة الفؤاد) في أثناء خاتمة الباب الأول منه: ووقعت في ذلك المرض وقائع لا نطيل بذكرها، وتكلم بكلمات مؤذنة باطلاعه على انقضاء مدته وانتقاله إلى الدار الآخرة، وأخبرني ابنه الأجل السيد الحسن وهو الذي تولى تمريضه وخص بذلك، قال: كان في مرضه كثير الذكر واللهج بهذه الكلمات النبويّة: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»، قال: وكان يكرر في مرضه هذا والذي قبله هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ولما خرجت روحه الزكيّة رأيت كالبارقة من النور، وانست إذ ذاك بهبوب بارد جداً، وكان ذلك الوقت ثلث الليل الأول ليلة الثلاثاء لسبع مضت من شهر القعدة المحرم سنة ثلاث ومائة وألف، رحمه الله ورحم به، وارتجت الأرض لموته، وارتاعت الخلائق لهول مصرعه، وتسارع الناس لحضور جنازته من جميع البلدان، وحضره جماعة من الأعيان، وكان الذي

تولى غسله ابنه الحسن المذكور، والسيد العارف بالله عمر بن الحامد المنفر باعلوي أحد خواصّه، وكفن في ثوب أهداه له السيد العارف علي بن عبد الله العيدروس باعلوي صاحبه وأخوه في الله، حسبت أنه بوصية منه وأنه ادخره لذلك والله أعلم، وما ترك الناس شيئاً من ماء غسله يسقط على الأرض تبركاً، وصلى بالناس عليه ابنه السيد الجليل علوي، وحضر الصّلاة عليه خلائق لا تحصى من أهل حضرموت تريم وغيرها، وحمل من مكانه بعد صلاة العصر، وما وضع في اللحد إلا وقت غروب الشمس لكثرة ازدحام الناس، ودفن في تربة آل باعلوي بتريم، وكان قبره الترياق المجرب، تقضى عنده الحوائج وتنجح به المآرب، وتنال لديه المطالب، ورثاه بعد موته جماعات كثيرة بقصائد عديدة، رأيت منها عند بعض محبيه نحو خمسين قصيدة، بين مديحة ومرثية لا نطيل بذكرها. انتهى من (بهجة الفؤاد)، نفعنا الله به وبمؤلفه وبمن صنف له، وبكل أولئك الأسياد، من الآباء والأبناء والأجداد والأحفاد.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وأخذه عن قطب أرباب الكمال نزيل مكة واحد العصر الجمال

وأخذه أي سيدنا الشيخ عبد الله الحداد، عن واحد العصر من الأفراد، الجامع من علوم المعارف للطوارف[1] والتّلاد[2]، جمال المقربين الواصلين الأوتاد، محمد بن علوي بن محمد بن أبي بكر بن علوي بن أحمد بن أبي بكر بن الشيخ عبد الرحمٰن السقاف باعلوي رضي الله عنهم، قال في (المشرع الروي): نزيل الحرمين الشريفين، وإمام المشرقين والمغربين، المتفرع من دوحة السيادة، المترعرع في روضة السّعادة، المترقي بهمته إلى أشرف مقام، علم العلماء الأعلام، عين الأعيان ونادرة الزمان، المشار إليه بالبنان، درة العقد الفريد، وغرة أطلعها الشرف في وجهه كما يريد، سطع نور فضله فأشرق، وأغص الحسّاد بزلاله

(١) قال في مختار الصحاح: (الطارف) و(الطريف) من المال المستحدث وهو ضد (التَّالد).

(٢) قال في مختار الصحاح: (التَّالد) و(التِّلاد) و(الإتلاد) و(التَّلاد) المال القديم الأصلي، الذي ولد عندك وهي ضد (الطارف).

وأشرق، ولد ببندر الشحر المحروس، ونشأ بسوحه المأنوس، وكان مولده سنة اثنتين وألف، وحفظ القرآن ولازمه ولازم قراءته في أكثر الأزمان، وصحب العلماء الأعيان، فأول من صحبه الإمام العارف بالله تعالى أحمد بن ناصر بن أحمد بن الشيخ أبي بكر بن سالم، وتربى في حجره ولاحظه في جميع أمره، وأخذ التصوف والفقه على الفقيه السيد عمر باعمر، ثم رحل إلى مدينة الأشراف، تريم المحفوفة بالألطاف، وأخذ عن شمس الشموس زين العابدين علي بن عبد الله العيدروس، وعن السيد الجليل عبد الرحمٰن بن عقيل، وعن السيد الكبير أحمد ابن حسين العيدروس، والعارف بالله تعالى زين بن حسين بافضل، وغيرهم، وأمره شيخه السيد عبد الرحمٰن بن عقيل بالخلوة في زاوية مسجد الشيخ علي أربعين ففعل، فحصل له الفتح الأنفس والشرف الأقعس، وظهرت له أمور كالصبح إذا تنفس، ثم رحل إلى قرية السّادات المشهورة بعينات، فأخذ عن إمامها المقدم على أقرانه وقدوة أهل زمانه، الشيخ الحسين بن أبي بكر بن سالم، وعن إخوانه الحامد والحسن وغيرهم من السّادة الكبار، وأخذ عن الشيخ العارف بالله الأديب حسن بن أحمد باشعيب الأنصاري، ورحل إلى الهند، وأخذ عن السيدين الجليلين الشيخ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله والشيخ محمد بن عبد الله العيدروس، وأمره الشيخ عبد القادر بالرحلة إلى الشيخ الولي السيد عبد الله بن علي، فرحل إليه وهو بالقرية الشهيرة بالوهط، ولازم صحبته وألبسه الخرقة الشريفة وحكمه وأمره بالحج، فحج سنة تسع عشرة وألف حجة الإسلام، وزار جده عليه الصلاة والسلام، ثم عاد إلى شيخه وقد أحرز من الفضل النصيب الأوفر، وتمسك بما أخجل نشره المسك الأذفر، فأقبل عليه بوجهه الكريم، واختبره بامتحان عظيم، وعركه عرك الأديم، حتى تحلى بأدب تثني عليه الخناصر، وفضل تثني عليه العناصر، وكمال ظاهر باهر، وزوجه ببنته وأسكنه في باطن مهجته، ثم انتقل شيخه سنة تسع وثلاثين وألف، فحج عن شيخه حجة الإسلام، وزار طيبة على ساكنها أفضل الصّلاة والسّلام، فورد من منهله القدر المعين، وفتح عليه من المدد النبوي الفتح المبين، ثم رجع إلى وهط اليمن،

وأراد أن يجعلها محلاً للوطن، فلم تطب له الإقامة بها لتغيير أمورها، وظلم أميرها على مأمورها، وأنشد حال معمورها:

أمـا الخيـام فـإنهـا كخيـامهـم   وأرى نسـاء الحـي غيـر نسـائهـا

فانثنى إلى وطنه ببندر الشحر المعمور، وكان إذ ذاك بالفضل مغمور، وكان ـ رحمة الله عليه ـ في غاية الخمول المبين، ويخفي حاله حتى لا يكاد يبين، فما مضى عليه زمن قريب، إلا حصل له ظهور عجيب، ظهرت منه خوارق البرهان، واشتهر في جميع تلك البلدان، وقصده الناس من كل مكان، ثم قصد قطر الحجاز ونصب فيه خيامه، وعزم فيه على التوطن والإقامة، واعتقده أهله فوضعوه في المفارق تاجاً، وأطلعوه في أفقهم سراجاً وهّاجاً، وانعقد على ولايته الإجماع، وتفرد بالكمال فبهر البواطن والأسماع، قال: وهو أحد مشايخي في علم الشريعة والطريقة، ومن أجل مشايخي في علم الحقيقة، وأخذ عنه أئمة كثيرون لا يحصرهم عد ولا يضبطهم حد، ولم يزل يتنقل من حرم إلى حرم، وقد حل في رأس الكمال الذي لا يداس بقدم، إلى أن دعي فأجاب، وكأنه الغمام أمرع[(١)] البلاد فانجاب، فتوفي بمكة المشرفة بعد صلاة الجمعة لأربع عشرة خلت من ربيع الثاني سنة إحدى وسبعين وألف، وحضر جنازته سلطان مكة ومن دونه، ودفن بمقبرة المعلا، وعمل على قبره تابوت عظيم، وهو بقرب أم المؤمنين خديجة الكبرى، رضي الله عنهما ونور ضريحهما. انتهى مع حذف يسير، وقد مرَّ كثير من أخباره في ترجمة سيدنا الحبيب الشيخ عبد الله الحداد، وقد وقفت على مدائح بليغة في الثناء على جنابه العظيم، للشيخ العارف بالله تعالى الإمام أحمد بن محمد القشاشي المدني، حذفناه للاختصار.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

كذا عن العطاس رأس الطائفهْ   وغيـره ممـن رزق عـواطفـه

كذا أي كما أن سيدنا الشيخ عبد الله الحداد أخذ عن الشيخ محمد بن علوي، كذا أخذ عن رأس طايفة العصر، وإمام ذلك الوقت والدهر، أستاذ الأستاذين،

---

(١) قال في مختار الصحاح: (المريع) الخصيب و(أمرع) اي أكلأ و(أمرعه) أي: أصابه مريعاً وفي المثل: أمْرَعْتَ فانْزِل.

وصدر الشيوخ العارفين، القطب الرباني عزيز الأنفاس، وواسطة عقد المقربين الأكيـاس، الشيخ عمـر بن عبد الرحمٰن العطاس بن عقيل بن سالم بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن الشيخ الكبير القطب الشهير عبد الرحمٰن السّقاف باعلوي رضي الله عنهم، وقول سيدنا وشيخنا الناظم (رأس الطائفة) فيه اقتباس من قول سيدنا الشيخ عبد الله الحداد ـ نفع الله بهما ـ في العينيّة:

وأبي حسين عمر العطاس من قد كان[1] من أهل اليقين بموضع

وفي ذلك من المناسبة بين قوليهما، أن المذكور لما أعطي رأس المقامات العليّة وهو اليقين، كان من أجلة رأس الطائفة الصّوفيّة، وقوله نفع الله به: (وغيره ممن رزق عواطفه) أي وأخذ عن غيره، كأنه أشار به إلى ما سبق عن سيدنا الحبيب عبد الله الحداد عن (النفائس العلويّة) في ذكر مشايخه نفع الله بهم.

مقدمة في ذكر ولادته ووفاته وابتداء إرادته، حتى بلغ من اليقين أعلى غاياته، ولد على جهة التقريب أول القرن الحادي عشر، قريب من ميلاد الشيخ محمد بن علوي السّقاف المذكور قبله، وسئل عن عمره فقال: هو ثمانون سنة وقدها هي، أي أنه لا يعيش زيادة عليها، وتوفي ـ رضي الله عنه ـ أول سنة ثنتين وسبعين وألف، ليلة الخميس لثلاث وعشرين خلون من شهر ربيع الآخر، وحكي عن السيد الإمام العارف بالله عيسى بن محمد الحبشي ـ نفع الله به ـ وكان من أجل أصحابه، أنه قصده للزيارة وهو وبعض محبيه قرب وفاته، فجاء إلى بلده حريضة، فقيل له: إنه بلحروم، فجاء إليها فلم يجده، فقيل: إنه بعندل، فجاء إليها فقيل: إنه ببلد حوره، وبحوره قيل له: إنه بسدبه، فوجده بها فقصده إلى بعض البيوت، فاستأذن عليه فقال له صاحب البيت: يقول لكم الحبيب: انتظروا حتى يأتيكم النبأ، فبينما هو كذلك منتظر إذ جاء الحبيب أحمد بن هاشم الحبشي من أسفل، فأخبره الحبيب عيسى باستئذانه وطلب منه أن يستأذن لنفسه، فاستأذن بعد تحاشٍ واحترام، فقيل له: اجلس مع الجماعة والإذن يأتيكم، فبينما هم كذلك إذ جاء الحبيب عبد الله الحداد من عَلْوي ومعه جماعة من التلامذة، فاستؤذن له كذلك

---

(١) في الديوان: قد صار.

فقيل: يجلس عندكم حتى يأتيكم النبأ، فلم نلبث إلا قليلاً حتى خرج الحبيب عمر، فجلس وتحدث مع الجماعة بغير قهوة ولا فراش، ثم قال: الفاتحة وهذا آخر اتفاق بيننا وبينكم في الدنيا، وميعادكم ـ إن شاء الله ـ مستقر رحمة الله، أنت يا عبد الله الحداد سر ولا تمسي إلا هينن، وأعطاه شيئاً من اللباس، وأنت يا أحمد ابن هاشم سر ولا تمسي إلا الهجرين، وأعطاه شيئاً من اللباس، وأنت يا عيسى نعزم نحن وأنت الليلة إلى حريضة الآن، فعزم سيدنا عبد الله الحداد والحبيب أحمد بن هاشم إلى حيث أمرهما، وقربت له دابته فركبها وركب الحبيب عيسى دابته، قال: وسرنا ولم يكلمنا بكلمة واحدة حتى وصلنا إلى بلد عندل، فتلقاه بعض أعيانها وأكرمه، وفعل تلك الليلة مولداً للنبي ﷺ، وأذن لنا في السير منها صبح تلك الليلة وأعطانا قباء، ثم عزم على المسير إلى بلد عمد، فوقفنا فانتظرناه وأصعدنا جميعاً، فلما وصلنا إلى بلدنا خنفر قال: اطلعوا بلدكم والميعاد يوم الفلاني انتظرونا في محل كذا، قال: فانتظرناه في ذلك اليوم وذلك المحل، فأقبل راكباً متأثراً واثنان يمسكانه بشقيه، فصافحناه وسرنا معه ما شاء الله، فالتفت إلينا وقال: يا عيسى ارجع إلى بلدك، وأتِ ليلة الخميس إلى نفحون، قال: فجئت تلك الليلة فوجدت أولاده وأصحابه والمنتسبين إليه قد اجتمعوا لديه من كل مكان، وكان يسأل عن بعض محبيه: هل قد جاء من حريضة؟ وكأن قد أوصى أنه يغسله، فوصل نصف الليل ففرح به، ولم يلبث بعد وصوله إلا قليلاً حتى خرجت روحه الزكية، وكان مرضه نحو سبعة أيام بنفحون، ونقل إلى حريضة، وشيعه خلق كثير وتبعه جم غفير، ودفن عشية الخميس، وقرىء عند قبره ثمانية أيام، وكثرت الختوم عليه لكثرة الوفود من الأنام، وبدت عند ذلك كرامات عظيمة، وحصلت فتوحات جسيمة، وأتى الشيخ علي بن عبد الله باراس آتٍ وهو على سريره في داره ببلد الخريبة وأخذ سبحته من يده، فخرج لوقته ولقي الخبر في أثناء الطريق قريب من حريضة، وكان سيدنا الشيخ عمر العطاس عالماً عاملاً فاضلاً جليلاً كاملاً، كف بصره وهو صغير فجاءت أمه إلى بعض الصّالحين وأظهرت الاهتمام بأمره، فقال لها: لا تخافي عليه، فإنه سيكون له شأن عظيم ومظهر كبير، وسوف تكثر ذريته ويركبون الخيل مثل آل فلان، وكان يأتي بلد تريم في صغره من

بلد اللسك وهي بلدة قرب عينات ليلاً فيصلي في كل مسجد ركعتين، وربما نزع الماء من بعض الآبار إلى جوابي المسجد، وأخذ سيدنا الحبيب عمر العطاس المصافحة عن السيد الشريف العارف محمد بن عبد الرحمٰن الهادي بسنده إلى النبي ﷺ، وتلقين الذكر عن السيد الشريف قطب زمانه الوارث المحمدي عمر بن عيسى باركوة السمرقندي المقبور ببلد الغرفة، قال الشيخ أحمد بن عبد القادر باعشن قدس الله سره: وذكر لنا الشيخ عمر باركوة أن شعبته متصلة بالشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني نفع الله به، والشيخ عبد القادر أخذ تلقين الذكر عن أربعمائة شيخ، وسنده وسند مشايخه ـ أي الشيخ عبد القادر ـ متصلاً بسيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ولبس الحبيب عمر الخرقة الشريفة، وانتفع الانتفاع التام في الطريقة المنيفة، من شيخه الإمام الحسين بن الشيخ الكبير أبي بكر بن سالم الشهير، كما يأتي ذلك، وكان يختلف أيضاً على سيدنا الحامد بن الشيخ أبي بكر بن سالم، وهو أحد مشايخه، وميلاده ـ رضي الله عنه ـ كان باللسك إلى أن بلغ، ثم رحل إلى حريضة وتديرها، وانتقل إليه والده بإشارة من سيدنا الحسين بن أبي بكر بعد امتناعه، وانتقل معه أولاده أخوان سيدنا الحبيب عمر، وتوفي والده بها بعد وصوله إليها بثمانية أيام، وكان والده من عباد الله الصالحين، كان إذا زار قبره يكلمه ويحادثه منه، وكان سيدنا الحبيب عمر كثير التردد في نواحي الكسر ووادي عمد يدعوهم إلى الله تعالى، حتى قال سيدنا الحبيب عبد الله الحداد: إن وادي عمد لم يفتحه إلا السيد عمر العطاس، وكان يحث على الطاعة وعلى أعمال الخير، كثير التواضع والبشر، كثير الإنفاق على الفقراء والمساكين، له المقام العالي في الورع والزهد واجتناب الشهوات، والارتقاء إلى أعلى ذروة جميع الأحوال والمقامات.

فصل: في ذكر ثناء الأكابر عليه، وبعض من انتسب في الطريق إليه، وتمثل بين يديه. أجمع أهل عصره أنه قطب زمانه، وفرد دهره وأوانه، قال الفقيه الشيخ عبد الله بن عمر باعباد ـ بضم العين المهملة وتخفيف الباء الموحدة وآخره دال مهملة ـ الدوعني: كنت أتردد إلى سيدي الشيخ الحبيب عمر العطاس مع سيدي الشيخ علي بن عبد الله باراس، فأول ما شاهدته ورأيت طلعته المباركة غبت عن

إحساسي، ورأيته كالدرة البيضاء ووجهه يتلألأ نوراً، وله ـ رضي الله عنه ـ في جنبه الأيسر شيء مثل فص الخاتم، قال: وآليت على نفسي أن لا أفارقه أبداً ما دمت حياً، قال: وأخذنا أياماً مقيمين عنده، ثم إنه أذن لنا في السفر إلى الوطن، وقال لي: يا ولدي المكان والمشرب والطريق واحد، من فرق بيني وبين الشيخ علي لا يفلح، وسألني: فيما تقرأ من الكتب؟ فقلت له: في كتاب (الإرشاد) للشيخ إسماعيل المقري، فقال للشيخ علي: يا علي، اقره في كتاب (المنهاج) للإمام النووي، وأقرِ جميع أصحابك فيه فإنه مبارك، والفتح ـ إن شاء الله ـ حاصل في قراءته، لأنه قمين بذلك، وكيف لا ومصنفه قطب وقد دعا لقارئه، فمن تلك الساعة اقرأني الشيخ علي فيه، وحصل لي الفتح ببركة إشارته، وقد أثنى على سيدنا الحبيب عمر جميع مشايخ عصره وأئمة دهره، فمن أكابرهم سيدنا الشيخ محمد بن علوي السقاف نزيل مكة المشرفة، وذلك أنه أرسل إليه السلام، فلما بلغه الرسول قال له: الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن العطاس يسلم عليكم، فقال له: عمر من؟، يستفهمه ثلاثاً، ثم قال بعد الثالثة: حق لكل رأس أن يوطي رأسه لعمر بن عبد الرحمٰن العطاس. وممن كان يثني عليه ويجله ويبجله شيخه الشيخ الحسين بن أبي بكر بن سالم، حتى أنه أتى إليه في بعض الأوقات للزيارة مع جماعة من السّادة، وكان أخملهم ذكراً وأرثهم زياً مع ما هو عليه من عدم النظر الظاهر في العينين، فتقدموا عليه وسلموا على سيدنا الحسين نفع الله به، ودخل سيدنا الحبيب عمر آخرهم، فلما رآه سيدنا الحسين آخرهم تغير وجهه، ثم قال: أنتم إنما تنظرون الصور الظاهرة ولا تعطون أهل الفضل حقوقهم، ولو ترون ما انطوى عليه هذا السيد لتنكست له راياتكم وخضعت له رقابكم، وحنت إليه أرواحكم وأجسامكم، ثم أخذ يثني عليه ويذكر فضائله، وكان عند سيدنا الحسين حينئذ ذو شأن، لما رأى غضبه خجل وفزع حتى بال ونجس ثيابه في المجلس من هيبته، ثم قال: يا سيدنا المعذرة إليك، نحن لا ننظر إلا الصّور، وأنتم ترون القلوب والأسرار، فاعذرنا واعذر من حضر فيما جرى من تقصير في حق هذا السيد، فعند ذلك سكن غضبه. وكان سيدنا عمر يعظم شيخه الشيخ الحسين حتى

أنه إذا ذكره يتغير لونه إعظاماً له، ويفهم من كلامه غير ما يفهمه الحاضرون، وقد أشار على الشيخ علي بن عبد الله باراس أن يشرح بعض ما يتكلم به من كلامه مع الحاضرين والخدام في مجالس العادة، فشرح من ذلك قدراً صالحاً مما منح من العلم الوارد اللدني، وسيأتي بعض ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ في ترجمة الشيخ الحسين بن أبي بكر، ولما مات الشيخ الحسين وكان بين بلديهما حريضة وعينات نحو ثلاث مراحل، قال سيدنا الشيخ عمر للحاضرين: هذه الساعة خرجت روح سيدنا الحسين، ثم تهيأ للسفر، ولما بلغه كتاب أولاده إعلاماً بوفاته قال: والله لقد خرجت روحه وأنا بين ثوبه وبدنه، وكان ـ رضي الله عنه ـ كثيراً ما يقول: قدمي هذا على قدم الشيخ عبد القادر الجيلاني، فعن بعض أحفاده قال: كنت أسمع أن بعض أولاد الشيخ المعلم أحمد بن عبد اللطيف باجابر يقرأ عليه في مناقب الشيخ عبد القادر، فهاله ما فيها وبهر عقله، فقال: يا سيدي هل أحد اليوم يمكن أن يكون في مقام هذا الإمام؟، فقال: أنا مثله ومثله، وكرر هذه الكلمة نحو عشرين مرة، وكان ذلك مع ورود حال عليه وإلا فهو ـ رضي الله عنه ـ لا يكاد يظهر شيئاً من أحواله، ثم قال الراوي لهذه الحكاية وهو الحبيب أحمد بن الحسين بن سيدنا عمر المذكور: فاتفق أن سرت إلى دوعن واجتمعت بالشيخ العارف بالله تعالى علي بن عبد الله باراس ـ نفع الله به ـ وذكرت له ذلك، فقال: يا أحمد هذا وقع من سيدنا عمر مع ورود حال عليه، اسمع كلاماً وقع منه في حال صحو، وذلك أني أتيت في بعض الأوقات من وادي عمد ومعي بعض المتعلقين به والمحبين له، وكان وصولنا قبل صلاة المغرب، فلم نبلغ طرف البلد إلا وهو قائم على سطح داره منتظر لنا، ثم نادى: بادروا للصلاة، فأسرعنا إليه وصلينا معه المغرب والعشاء، ثم جلسنا معه فأتى بشيء من القشر والسكر، وقال للرجل الذي جاء معي: اطبخ هذا، كلما فرغت من قهوة اطبخ أخرى، وقايس كل قهوة نحو عثه وانضج الطبخ، ثم شرع يذاكر في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني نفع الله بهما، حتى مضى معظم الليل وكاد يطلع الفجر، وأنا أكبس بدنه حتى انتهيت إلى قدمه الشريفة، فقال: يا علي ما بقي اليوم على هذاك القدم إلا هذا القدم الذي بيدك،

يعني نفسه رضي الله عنه، ولهذا أشار الشيخ العارف عبد الله بن أحمد العمودي صاحب كنينة في أثناء قصيدة إلى ما ذكر، فقال:

والثاني إمام الكل عارف وصديق الوارث مقام القادري حق تحقيق

رحمة للأنام، وبه يغاثون في الضيق يا نعم الولي له حال ما حد يضاهيه

الشيخ الكبير عمر ولد عبد الرحمٰن القطب الشهير غياث للإنس والجان

الكنز الخطير صاحبه ما قط يهتان حصني معقلي عوني على كل ما أبغيه

وممن أخذ عنه وتردد إليه وأثنى عليه أحد الأئمة الأعلام أركان الإسلام، الشيخ القطب عبد الله بن علوي الحداد باعلوي ـ قدس الله روحهما ـ كما سبق في ترجمته، فمما قاله فيه: هذا السيد حجة في الاستقامة وتصحيح مقام العبودية، وغاية في كتمان الأسرار وطرح النفس، وغاية في التواضع وإيثار الخمول والإعراض عن الخلق، لكنه لا يعرفه كل أحد، لأن أكثر كمالاته كان باطناً لا يُهتدى إليه إلا بالفهم ونور البصيرة، وإن كان كله كمال. وقال مرة فيه: إنه يشبه السّقاف، وقال أيضاً نفع الله به: أما السيد الأكبر عمر بن عبد الرحمٰن العطاس فهو قلب وحق لا نفس وهوى، يكاد يندرج ليل بشريته في نهار خصوصيته، وصبره على العامة في مخالطته لهم مع السلامة منهم، وعدم شهود النفس والفناء عن رؤيتها وعن رؤية ما لها دون ما عليها، أدل دليل على الكمال، ومما اتفق له معه في بعض الأحيان مما يتعلق بهذا الشأن أنه قصده للزيارة، وكان قد قال له وللسيد العارف بالله أحمد بن هاشم الحبشي: إنكما تجتمعان في البداية وتفترقان في النهاية، فكان في ابتداء أمرهما كذلك كما سبق في ترجمته، فحصل مع الحبيب أحمد بن هاشم قبض في آخر عمره منعه عن ذلك، فاتفق أن الحبيب عبد الله أتى إليه من تريم إلى بلد بور، والتمس منه الموافقة في المسير إلى حريضة لزيارة سيدنا الشيخ عمر العطاس، فأراد أن يعتذر عليه ويتخلف عنه فلم يمكنه إلا موافقته، فسارا إلى حريضة، فكان وصولهما إليها ليلاً، فقصدا بيت سيدنا الحبيب عمر فوجداه غائباً بوادي عمد، فطلبهما ومن معهما للغداء الشيخ علي باخولان السّعدي أحد أصحاب سيدنا الشيخ عمر، فلما جلسوا للغداء عنده وأحضره

لديهم، قيل لهم: هذا الحبيب عمر قد أقبل، فقال لهم الحبيب عبد الله: قوموا واتركوا الغداء، وخذوا في التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، والتوبة، والاستغفار والأدب والانكسار، فإنكم تواجهون صاحب الوقت، فقاموا جميعاً وخرجوا يتلقونه، فأما سيدنا الحبيب عبد الله فإنه عانق سيدنا الحبيب عمر، وأما الحبيب أحمد بن هاشم فأكبَّ على قدمه يقبلها، فلما اجتمعا به وحصّلا المطلوب بزيارته، استودع منه الحبيب عبد الله ومن معه، وتخلف الحبيب أحمد بن هاشم، وقال للحبيب عمر: يا سيدي إنه يحصل معي قبض في الظاهر وتوقف عن موافقة سيدي السيد عبد الله الحداد، وعسى أن تكون للمفارقة سبب منه، فقال سيدنا الحبيب عمر: يكون ذلك هذا اليوم، وذلك أنكم ستمرون بمكان فيه علب من صفته كذا وكذا، وعنده طريقان والعلب بينهما، قال الحبيب أحمد: فسرنا من عنده جميعاً وكنت أتوقع العبور على المكان الذي وصفه سيدي عمر، حتى أتينا إليه فكان كما وصف، وكان سيدي عبد الله الحداد راكباً متقدماً وأنا خلفه، فأمسك مركوبه والتفت إلى السائرين معه، وقال: ما تقولون في السيد أحمد بن علوي باجحدب والسيد عمر بن عبد الرحمٰن العطاس، أيهما حاله أكبر؟ فسكت الحاضرون فلم يجبه أحد منهم، فأعاد عليهم السؤال ثانياً وثالثاً فلم يجبه أحد كذلك، فقلت له: حال السيد عمر بن عبد الرحمٰن أكبر، فقال السيد عبد الله: صدقت، ثم قال: لا يصلح سيفان في جفير، خذ أي طريق شئت، قال: فأخذت الطريق الضعيفة وتركت له الطريق القوية، والشيخ أحمد بن علوي باجحدب هذا عظيم الحال عليَّ القدر من مشايخ الشيخ الكبير أبي بكر بن سالم الشهير، ترجم له في (المشرع الروي) وفي (شرح العينيّة) نفع الله بهم. وممن أخذ عن سيدنا الشيخ الحبيب عمر العطاس، السيد الشريف العارف بالله تعالى عيسى بن محمد الحبشي صاحب بلد خنفر من وادي عمد، فقد انتفع به انتفاعاً كلياً ومازجه ممازجة شديدة وصحبه صحبة أكيدة، وأثنى عليه وترجم له ترجمة وافية بالمراد، ومؤلفه من جملة ما اعتمد عليه في النقل في كتاب (القرطاس). وممن أخذ عنه الشيخ الإمام العالم الرباني العارف بالله تعالى علي بن عبد الله باراس صاحب بلد الخريبة، تأدب وتحكم له وسلكه حتى تخرج به، وكان من أساطين الدعاة إلى طريقه ونشر

أحواله، ترجم له السيد الحبيب عيسى بن محمد المذكور آنفاً، وقال: إنه أجمع أهل جهته على جلالته وتحقيق مشيخته، وصحبه جماعة وتخرجوا به، وترجم له أيضاً تلميذه الفقيه عبد الله باعباد، ومدحه كثيرون وأثنى عليه جلة عارفون من سادتنا العلويين، وغيرهم من الأئمة المصنفين، قال سيدنا الحبيب عيسى: صحب الشيخ علي سيدنا وشيخنا عمر بن عبد الرحمن العطاس من أول بدايته، وتربى في حجره تربية العناية الأزلية، وكان سيدنا الحبيب عمر اتخذه يرعى غنماً له، فقيل: إنه في حال الرعاية حصلت له رعاية، وإنه لقي رجلاً في نواحي بلدة حريضة في ظل شجرة، يقال إنه الخضر عليه السلام، وإنه أعطاه شيئاً أكله ففتح الله عليه ونور بصيرته، ثم إنه قرأ القرآن بنظر شيخه المذكور، ثم اتخذه سيدنا الحبيب عمر بعد ما ختمه رفيقاً في أسفاره، وصار منقطعاً إليه يخدمه وترك أهله، وجعل سيدنا الحبيب عمر يروضه بالرياضات ويمتحنه بالأعمال الشاقة، حتى تخرج به وصار ذهباً خالصاً، وفتح الله عليه الفتوحات الجزيلة، ومنحه المنوحات الجميلة، ولم يلتفت إلى الدنيا ولم يعرج عليها، بل قيل: إنه نذر بما يملكه لشيخه المذكور وخرج له عن جميعه، ثم بعد ذلك جعله سيدنا الحبيب عمر يعلم القرآن في وادي عمد بقرن المآل، وبغيرها من القرى والبلدان، حتى أرسله إلى بلد علط يقيم في مسجدها ويعلم الصغار بها، فامتثل أمره، ثم جاء إليه زائراً فقال له: كيف حال أهل بلد علط؟ فقال له الشيخ علي: بعثتني إلى بلد ما بينهم وبين الشيطان إلا ضربة عصا، وأشار عليه سيدنا الحبيب عمر أن يرحل في تلك المدة إلى بلد عمد، ليقرأ العلم فيها على الفقيه العارف بالله تعالى العالم الرباني أحمد بن علي بابحير، فأقام عنده مدة حتى تفقه وبرع في العلم، وله ـ رضي الله عنه ـ أذكار وخلوات وأربعينيات، لا يفتر عن الذكر، سافر لحج بيت الله الحرام وزيارة نبيه ـ عليه السلام ـ بإشارة شيخه وذلك بعد أن استشاره في ذلك ومنعه، وحصلت له في ذلك السفر محن ومنح لا تحصر، ولما وصل من الحج إلى بلدة حريضة وحضرة شيخه، أمره بالرحلة إلى دوعن وسكنى بلد الخريبة، فشق عليه فراقه واستعفاه عن ذلك، فقال له سيدنا الحبيب عمر: إن أردت دوعن وإلا سيِّرتك إلى دهر وعرما، فامتثل أمره، فأذن له في نشر الدعوة إلى الله، فأقبل عليه عالم لا يحصى، وانتفع

به جم كثير من العامة والأَخِصَّاء، وكان سيدنا الحبيب عمر إذا جاءه طالب مريد راغب في السعي الحميد، يحيله في أخذ الطريق على الشيخ علي باراس، ويقول: أنا صندوق قفله الشيخ علي باراس، وذكر عند الشيخ علي جماعة من السادة والمشايخ فقال: كلهم شي لله، وأما أنا فأنا في الصّف الثخين، يعني سيدنا عمر، وكان سيدنا الحبيب حسين بن عمر العطاس يوماً يحلق رأسه ويحدث نفسه بما صار إليه من الحال العظيم، فقال له كشفاً: هذا كله من بركتكم ـ أو ببركتكم ـ.
ومن كراماته ما أخبر به في تلميذه الشيخ عبد الله بن أحمد باهرمز قال: كنت اقرأ عليه في العلم الشريف ببلد الخريبة، فبينما نحن في بعض الليالي في حضرته وهو يقرأ مولداً للنبي ﷺ، وكانت له اليد الطولى في قراءته، ثم إنا رقصنا لما حصل المقام، واهتز الجميع لما وجدوا من نغماته الحسان، فأصابتني صكة من بعض الحاضرين على أسناني، فسقط منها ثنتان فأخذتهما بيدي، وكان الشيخ يتواجد فأخذهما مني ووضعهما في راحته وأدخلهما في فمي، وهو يقول برفع صوت: يا عمر يا عمر، يكرر ذلك حتى استقرتا في مكانهما كأن لم يكن بينهما شيء، فرجعا كهيئتهما غير أنهما طفتاه قليلاً. وكان الشيخ علي إذا أنشد كلام الشيخ عمر ابن الفارض، يتواجد ويقول: هاتوا لنا من اللحم السّمين، ونسخ من ديوانه نسخة بخطه، وكان يحضر الجموعات الخيرية كزيارة الشيخ الكبير سعيد بن عيسى العمودي ونبي الله هادون، وله زيارات إلى حضرموت وحريضة، في حياة شيخه وبعد وفاته، وكان إذا قرأ القرآن قلَّ أن يسمعه أحد إلا ويخشع لقراءته، وكان جهوري الصوت يجهر بالقراءة والذكر، يسمع من الرشيد وهو بمسجد الشيخ سليمان المبارك المشهور بالخريبة، وكان الفقيه محمد بن سليمان باحويرث يبجله ويرغب في محبته، ويجري تصانيفه على الوجه الحسن، وكان سيدنا الحبيب الشيخ عمر العطاس يسمي هذا الفقيه المذكور ناصر الدين، ولما انقضى أجله المعلوم، وكان في بلد الخريبة ليلة الإثنين في داره آخر الليل في قراءة ورده، فخرج إليه أهله فوجدوه غائب الإحساس، واستمر في الغيبة هينةً فلما أفاق قال لهم: إن النبي ﷺ وسيدي عمر بن عبد الرحمٰن العطاس ـ نفع الله به ـ دخلا عليَّ البيت، وقالا لي: هيا ما عاد لك وقوف، فقلت لهما: أمهلاني يوماً عند أهلي

وأولادي لا يتفجعون علي، قال: فأمهلاني، وقالا: بعد هذا اليوم ما بقي لك وقوف، ثم بعد ذلك جلس يوم الثلوث يخبر بذلك ويتحدث ويذاكر على عادته، ويذكر ما قاله النبي ﷺ وسيدنا الحبيب عمر، ثم توفي يوم الأربعاء وهو بين الجماعة في شهر ربيع الأول سنة أربع وتسعين وألف، وعمره سبعاً وستين سنة تقريباً، وقيل خمساً وسبعين سنة. وممن أخذ عن سيدنا ومولانا الشيخ عمر العطاس الشيخ العارف بالله تعالى الكبريت الأحمر ومسك الختام الأذفر، شمس الشموس محمد بن أحمد بامشموس الدوعني القريني ـ رضي الله عنه ـ، وكان من الآخذين عن الشيخ علي بن عبد الله باراس أيضاً، وسيأتي نشر شيء من محاسنه وفضائله عند قول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

والوالد المخصوص بالمكانة وأهل حضرته أولي الأمانة

والحاصل أن الآخذين عن سيدنا الشيخ الحبيب عمر العطاس صاحب الترجمة خلق كثير وجم غفير، قال سيدنا الشيخ الحبيب علي بن حسن العطاس: قال لي سيدي الشيخ الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار: يا علي أهل هذه الجهة الجميع متصلون بجدك الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن العطاس ـ نفع الله به ـ، بعضهم من وجه وبعضهم من وجهين وبعضهم من ثلاثة وجوه. قال: فلما أخبرت الشيخ العارف بالله تعالى محمد بن يسّ باقيس بذلك قال: وبعضهم من أربعة وبعضهم من خمسة، وقد ترجم سيدنا الحبيب علي المذكور في قرطاسه لجماعة من أصحاب سيدنا الحبيب عمر، والمتشرفين بالأخذ عنه وبتلقينه ولباسه.

وقد اتصلت ـ بحمد الله ـ بسيدنا الحبيب عمر بطريقة عطاسية سندها سني ومشربها هني، عين معناها باهر وطالبها في عالم طوالع الأسرار بروحه طائر، وألف فتاها بفتوى أحكام أحكامها ماهر، وسين سنا نورها في جميع الأكوان مشهور ظاهر، وهو أنه ألبسني سيدي وشيخي السيد العارف بالله تعالى الجامع للأحوال والمقامات والأخلاق والأنفاس، الحبيب جعفر بن محمد بن علي بن الشيخ الحسين بن الشيخ عمر العطاس، ألبسني كوفية وقال عند ذلك: إن هذا الإلباس كان بإذن، فلما أخبرت سيدي وشيخي الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن البار

ـ نفع الله به ـ بذلك، فقال لو سألت الحبيب جعفر عن صورة الإذن، فقلت له: لم أجسر على ذلك، فقال لا بأس، وقرأت على سيدي الحبيب جعفر كثيراً في مجالس متعددة، إذ كان يتردد إلى الجهة الدوعنية لزيارة الصالحين والاجتماع بأولي الفضل والدين، ويقصدهم إلى أماكنهم، ويدعو إلى الله وإلى ذكر الله وطاعة الله الخواص والعوام من المؤمنين، وقد اجتمع بسيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار مراراً كثيرة، وكان كل واحد منهما يعرف للآخر حقه ويقوم له بما يستحقه، ويستغرقان في المذاكرات في علوم الطريق وأسرار التحقيق، وقد أخذ الطريق سيدنا وشيخنا الحبيب جعفر ولبس وتلقن وتأدب، وتربى وتخرج وتسلك وتهذب، عن شيخه الإمام المسلك الداعي إلى الله الشيخ الحبيب علي بن حسن ابن عبد الله بن الحسين بن الشيخ عمر العطاس، الذي ألف القرطاس فروح به الحواس، وأملى بذكر من فيه الأطراس، ورجح بوزنه فضل الأكياس، وطاش برجحانه وزن الخناس، وأخذ سيدنا الحبيب علي عن شيخه الشيخ الحسين، وهو عن والده الشيخ الحبيب عمر العطاس صاحب الترجمة، ومن كرامات سيدي الحبيب جعفر ـ نفع الله به ـ أنه كان مع جماعة من إخوانه ومحبيه يذكرون الله بالجهر، في وقت صفاء وإخوان وفاء، فسمع ذكر قلبه كشفاً يقيناً عياناً، وبقي متولهاً متدلهاً ثلاثة أيام، يسمع كلام الناس كنهيق الحمير، لشروق ذلك النور في قلبه، واستيلائه على ظاهره وباطنه، توفي ـ نفع الله به ـ ثامن عشر شعبان سنة ثمان ومائتين وألف، وميلاده في حدود سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف، ودفن نجدي بلد صبيخ وبنيت عليه قبة عظيمة، وقبره يزار ويتبرك به هناك، وصبيخ المذكورة بلد مشهورة بالوادي الأيسر، كان يقيم بها إقامات طويلة لكونه متزوجاً بها، ولما اجتمع به سيدنا وشيخنا الشيخ الحبيب عمر بن سقاف علوي بها، وحصل لكلٍ منهما بصاحبه الأنس والسرور ما سرى إلى جميع أهل البلد، حتى أشرق ذلك النور وغشي أعالي الدور، وحينئذ أنشد سيدنا الحبيب عمر بن سقاف مستشهداً لتلك الحال، بأبيات سيدنا الفقيه عمر بامخرمة من أثناء قصيدة له هذين البيتين:

فاعترفت أنه الليلة علي أشرف الرب ... في صبيخ الذي من جوها النور مصطب

وكان الحبيب عمر قد كتب إليه قبل ذلك:

والشـــوق شـــوق للتـــلاق لعلـــه يقضـــي فنفشـــي سـرنـــا المتكتمـــا

وكان بينهما مكاتبات ومراسلات نظماً ونثراً، ومن أثناء منظومة للحبيب عمر ضمنها وصية للحبيب جعفر بطلب والتماس منه لها، فقال نفع الله به:

وإذ ألــزمــت وصيتــي ونصيحتــي فلقـد وصلـت إلـى الحمـى والمـربـع
وكـرعـت مـن عيـن الحيـاة مهنـأً ثمـلاً وكنـت مـن العلـوم بمـوضـع
هـــذا وأقســم بــالإلـــه وحقـــه إنـــي لأحقـــر أن أكـــون بمسمـــع
أو أن أكـــون مـــوصيـــاً ومعلمـــاً وأنـا الـذي بـالـذنـب طـال تمتعـي
لـولا أمـرت أخـاك نجـل محمـد مـا كـان يـأمـر وهـو شـر مضيـع

ومطلعها:

سـافـر هـديـت إلـى الجنـاب الأرفـع وارحـل أخـي إلـى الحمـى الأمنـع

ولسيدي الحبيب جعفر ـ نفع الله به ـ أحوال ومقامات وخوارق عادات، ومناقب في الزهد والمعرفة والإخلاص، والصِّدق واليقين والصبر والرضى، والأنس والشوق والمحبة، عنه مذكورات، رضي الله عن الجميع، وأدخلنا في دائرة حبهم، وسقانا من صافي شربهم، وجميع ما ذكرناه مما يتعلق بما في هذا الفصل، ولا يخرج عن حده عند ذوي الفضل.

فصل: في ذكر شيء من كرامات سيدنا الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن العطاس، صاحب الترجمة رضي الله عنه. وهي خارجة عن الحصر، وقد ذكر في القرطاس جملة مستكثرة، منها: أنه خرج يوماً ومعه الشيخ علي بن عبد الله باراس، فلما بلغا حرث بلد حريضة ثم إلى مكان يسمى الجنان، وإذا بصبي صغير من أهل حريضة يحول بالرحمة، فوقعت له الرحمة في قلب سيدنا الحبيب عمر ووقع لكلامه موقعاً منه، فلم يزل يردد كلامه حتى بلغ إلى حورة، ثم قال للشيخ علي: ارجع يا علي إلى البلد فإنها الليلة ستكون الرحمة، إن الله تعالى قد قبل تحويل ذلك الصبي ورحم الخلق وفتح لهم الباب، وأنت يا علي سر إلى حريضة وهنوا المساقي،

فرجع الشيخ علي مستعجلاً فلم يبلغ بعض الطريق إلا والسحب من كل مكان، ولا وصل البلد إلا بالغيث، وحصلت تلك الليلة رحمة سابغة. ومنها: ما حكاه الشيخ علي بن عبد الله باراس أيضاً قال: كان سيدي الحبيب عمر إذا اجتمع إليه الناس للسمر جلس لهم، وربما تناعس في آخر المجلس حتى يخرجوا، فإذا خرجوا قال: يا علي هل بقي أحد هنا؟ فأقول: لا، فيقول: هات الكتاب الفلاني تقرأ فيه، فبينما أنا أقرأ عليه ذات ليلة في بعض الكتب، إذ بلغت إلى قول الشيخ الكبير القطب الشهير أبي الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ حيث يقول: لو احتجب عني رسول الله ﷺ لحظة عين ما عددت نفسي من المؤمنين، فقال سيدنا عمر: وأنا لو احتجب عني رسول الله ﷺ لحظة ما عددت نفسي من المسلمين كيف يغيب عنا ﷺ وهو عين وجودنا. وعن الشيخ علي المذكور أنه قال لسيدنا الحبيب عمر: إنك تكثر المختلف في جميع البلدان وادي عمد وغيره، ولم ينتفع أحد منهم بك كما ينبغي، لأني أعتقد أنه لو شاهدك الكافر أسلم، فقال يا علي لو قابلني أحد بمثل ما كنت عليه لأوصلته إلى الله تعالى في أقرب وقت، ولكن ما أنا عندهم إلا صعد الشريف فاض الشريف. ومن مناقبه العظيمة أن هذا الشيخ علي المذكور كان جالساً عنده، فقال له: ما معك من الكتب، فقال له: بداية الهداية، فقال له: اقرأ فيها، حتى قرأ خطبتها فقال له الشيخ الحبيب عمر: قف، أجزتك شريعة وطريقة وحقيقة، هذه بذرة وافقت ساعة قبول. ومنها ما حكي عن الشيخ علي أيضاً أنه سنة حج أتى إلى قصاب في مكة المشرفة بدراهم يريد بها لحماً منه، فقام بعض من عنده بعصا وطرده، فانكسر خاطره ولم يشترِ شيئاً من ذلك اللحم، فلما رجع وصل إلى حريضة، ذكر له هذه الواقعة سيدنا الحبيب وقال له: أنا الرجل الذي قام لك بالعصا وطردك لأن ذلك اللحم كان مغصوباً حراماً. وكراماته خارجة عن الحصر عد منها المئات في القرطاس.

فصل في نقل شيء من كلامه العزيز عند ذوي التمييز، منقولاً من كتاب (القرطاس)، قال: وعن بعض الفضلاء ممن يسمع كلامه: إني أجد برد كلامه في عظامي إلى الآن من نحو سبعين سنة. انتهى، وقد قدمنا في شرح المقدمة عن شرح الحكم لسيدنا الشيخ علي بن عبد الله باراس نفع الله به، ما يناسب هذه

المقالة، فراجعه من هناك، قال رضي الله عنه: انظر الحالة التي تحب أن يأتيك الموت وأنت عليها فالزمها، والحالة التي تكره أن يأتيك الموت وأنت عليها فاجتنبها. وقال من رأيت فيه خصلة فظن به الدين كله، وقال قدس الله سره: من دعا لظالم سلم من شره، وقال: إنها لم تقل المناهل على أهل تالي زمان، ولكنهم جاءوا بأوعية مخرقة، ومن الناس من يأتي بوعاء حافظ فيأخذ فيه ما يكفيه شهراً، وآخر ثمانية أيام، وآخر يوماً واحداً، وآخر يأخذ ما يكفيه لعمره كله. وقال ـ رضي الله عنه ـ عند ذكر حديث: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة. .» إلى آخره، قال: إن الذي يعمل بعمل أهل الجنة الغالب عليه دخول الجنة، لأن الظاهر عنوان الباطن، وإن دخل النار فإنما هو على الندور، وذلك مثل من سقط من مكان قريب فإن الغالب سلامته، وإن الذي يعمل بعمل أهل النار الغالب عليه دخول النار، وإن دخل الجنة فإنما هو على الندور، وذلك مثل من يتردى من رأس جبل الغالب هلاكه. ولما قيل له: كثرت المصنفات في هذا الزمان، فقال: وهل يضر الصايح ورا الصايح. وقال رضي الله عنه: ما من صاحب طاعة إلا وعليه نظر من ولي لله إما من الأحياء أومن الأموات. وقال رضي الله عنه: إبدال الوالي بوالي آخر سهل وإنما يعسر حفظه، ومن كلامه قدس الله سره: الخمول الخمول، الدفن الدفن، ما عاد شيء خالص لله. وقال نفع الله به: التربية عزت منذ زمان، وإنما هي اليوم بالباطن، ومهما رأيت منه ـ يعني المريد ـ في حالة من الحالات نقصاً فهو بشر، فعامله في هذه النقيصة بالأخوة، وقال: أهل القرن العاشر نفض جراب السكر، فلما سمعها بعض العارفين ـ وقيل إنه سيدنا الحبيب عبد الله الحداد نفع الله بهما ـ قال: لو لم يكن بعدهم إلا هو لكفى. وهذا آخر ما أردنا نقله في ترجمة هذا الإمام نفعنا الله به في الدارين آمين.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وأخــذ الطــريقــة الشيخـــان   عـن الحسيـن العـارف السلطـان

يعني قد أخذ الطريقة هذان الشيخان الإمام القطب محمد بن علوي والإمام القطب عمر بن عبد الرحمٰن، عن عين الأعيان والراقي أعلى ذرى مقامات اليقين

والعرفان، الشيخ القطب الإمام الجامع الحسين بن الشيخ الكبير القطب الشهير أبي بكر بن سالم بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن الشيخ عبد الرحمن السقاف باعلوي، صاحب الحال العظيم والإمامة الكبرى والوراثة العظمى.

قال الشيخ محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي في كتابه (المشرع الروي): هو الشيخ الكبير العارف بالله الشهير، الذي لا يكاد الزمان يسمح له بنظير، سلطان الوجود، المشهور بالكرم والجود، عين الزمان، وشمس الأمان، وقمر العرفان، الغيث المغدق، والبحر المغرق، والنور المشرق، إمام عصره على الإطلاق، ومصلي ميدان السباق، وأحد فحول الرجال، الفائقين الأبطال، ولد بمدينة عينات، المشهورة بتلك الجهات، وقرأ القرآن العظيم، وصحب أباه السيد الكريم، وكانت الولاية لائحة عليه من صغره، وظهر برهانها عليه في كبره، واشتغل بالعلوم الشرعية، واعتنى بعلوم الصوفيّة لا سيما الكتب الغزالية، وسار على الطريقة المحمدية، وصحب أعيان عصره، وأخذ عن علماء دهره، وجد في الطاعات، واجتهد في أعمال القربات، وطبعه الله على كرم السجايا، وحبب إليه الرأفة بالبرايا، وفاق أهل وقته وزمانه، وارتفعت منزلته على أهل عصره وأوانه، ولازم والده في جميع أمره، ولم يفارقه في حضره ولا سفره، حتى انتقل والده إلى دار السلام، فاتفق على تقديمه بعده الخاص والعام، فقام بالمنصب أتم قيام، وسلك مسلك آبائه في النظام، واتباع سنة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، واقتفى آثار سلفه الكرام، من إطعام الطعام وصلة الأرحام، وإكرام الفقراء والمساكين والغرباء والأيتام، ونصب نفسه لنفع العباد، وأذعن بفضله وتقدمه الأئمة الأمجاد، وطار صيته في جميع البلاد وفي كل ناد، فرحل إليه الطالبون الفضلاء، وقصده أكابر العلماء النبلاء، وعملت إليه المطي، وأقبس من نوره العلي، وانتفع به خلق كثير، ولم يكن له في وقته نظير، في كثرة الهدايا والأنذار، والمريدين والأتباع والقاصدين والزوار، وسعة الجاه، وإنفاق الأموال في سبيل الله، وقصده الغرباء من كل مكان، ولسان حالهم ينشد في ذلك الإنسان:

وما سافرت في الآفاق إلا ومن جدواك راحلتي وزادي

وكان محباً للعلم والعلماء، ويكره للفقراء التفعل في طلب المقامات، ويأمرهم بإخلاص الأعمال والنيات، ويقول: لا تتخذوا الأعمال وسائل لمقاصد النفوس تخسروا مع الخاسرين، وكان رافضاً للدنيا مهيناً لأهلها، مجانباً من يخوض في أمرها، يكره الجبابرة ولا ينظر إليهم إلا شذرا، وكان كثير الاحترام لشعائر الإسلام، شديد الازراء لأهل البدعة اللئام، ولما كتب إمام الزيدية لأهل الديار الحضرميّة يدعوهم إلى الانقياد له والدخول في طاعته، فرد له جواب كل من وصله منه كتاب، إلا صاحب الترجمة فلم يرد له جواب، وقال: إنه لا يدعو إلى ثواب حتى الجواب، وكان شديد الإنكار على من شرب التنباك، واعتنى بإزالته من تلك الجهات، فتم له ذلك، ونودي بمنعه في الأسواق والمسالك، وصنف له شيخنا محمد بن علي علان في حرمته مؤلفين، وتبعه بعض الحنفيّة في حرمته، والذي أفتى به شيخنا عبد العزيز الزمزمي وشيخنا الشيخ عبد الله بن سعيد باقشير، عدم الحرمة إلا لمن حصل به ضرر.. ثم قال: وله كرامات كثيرة وأحوال منيرة، ولم أقف إلا على ما ذكرت واليه أشرت. انتهى من (المشرع) مع تلخيص وتصرف في بعض العبارات، وكانت وفاته ـ نفع الله به ـ سنة أربع وأربعين وألف، وقبره في مقبرة عينات بالقرب من والده، وبنيت عليه قبة عظيمة، وشهد جنازته خلائق لا يحصون، وقول صاحب المشرع: «وكان رافضاً للدنيا..» إلى آخره، لا يناقض ما كان عليه ـ نفع الله به ـ من سعة الجاه وكثرة المال، لأن وجود المال باليد وخلوه عنها لا يتعلق به حكم، وإنما الحكم في ذلك للقلب، وسيدنا الشيخ الحسين رافض الدنيا زاهد فيها بقلبه، قال سيدنا وشيخنا العارف بالله الحبيب حامد ابن عمر حامد علوي نفع الله به: كان الشيخ الإمام الحسين بن أبي بكر من الذين ظهرت أحوالهم وكبرت دوائرهم واشتهرت أحوالهم، كانت تجبى إليه الأموال من كل مكان، وكان يوماً جالساً في جماعة، فخطر لواحد منهم لما رأى كثرة الأموال وكبر الدائرة خاطر، وهو أن قال في نفسه: كيف يكون لمن له الجاه في الدنيا والدائرة العظيمة والأموال الجسيمة حال مع الله تعالى؟ فما تمَّ الخاطر حتى التفت إليه السيد المذكور، فقال: لو هلك ما تراه ينسب إلي من الدنيا في لحظة واحدة ما تحركت مني شعرة. انتهى، ومما يتعلق بترجمته ـ قدس الله روحه ـ ما ذكره

سيدي العارف بالله تعالى الإمام الحبيب علي بن حسن العطاس، نقلاً عمَّا ذكره الشيخ الإمام علي بن عبد الله باراس في كتابه (فتح الوهاب في شرح كلام السّادة الأحباب)، وهو: قال سيدنا الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن العطاس رضي الله عنه: أتيت ذات يومٍ إلى حضرة سيدنا شيخ شيوخ العصر وقدوة أهل البر والبحر الحسين ابن أبي بكر بن سالم نفع الله بهم، فأردت منه مذاكرة في طريق القوم وكان إذ ذاك بمحضره خلق كثير، فقال: يا عمر من لم تنفعه الإشارة ما نفعته العبارة، ومن لم يفهم التلويح ما فهم التصريح، لأن التصريح بعلومهم ما يزيدها إلا غموضاً، قال سيدي عمر: فألقي في روعي أن الكلام الصادر بعد هذه الكلمة مذاكرة لي لعلمي بأنه لم يخرج من مجلس المحاضرة وبساط المسامرة، فقال رضي الله عنه: يا فلان ـ لبعض الخدام ـ، فشاهدت عياناً أن المنادى أنا بلسان الحال لا المنادى بلسان المقال، لأن لسان الحال أفصح من لسان المقال، فقال سره لسري وتوريته للخادم: وضِّعوا النخل صغاره وكباره، ثم قال مخاطباً لسيدنا عمر: معنا نخل فقا لسنة، ثم قال: املحوا دمان الصيد، وقال رضي الله عنه: امنعوا قوت الخيل من أطفال الحمر وجحوش البقر، وقال رضي الله عنه: كلما يبست الحمضة وأبطت على الجمال، هي أقوى لهنّ، وقال أيضاً: قربوا الطهور ثم شدوا الفرس نريد نطلع الحضرة، ثم قال: الفاتحة. انتهى كلام الشيخ الحسين بن أبي بكر، وأشار سيدنا الشيخ عمر العطاس على الشيخ علي باراس ـ نفع الله بهم ـ أن يشرح هذه الكلمات فشرحها على لسان أهل الإشارة، قال فيه: أما قول سيدنا الحسين (وضعوا النخل صغاره وكباره) أشار أن الإنسان كالنخلة وهو كذلك، كما أشار إليه حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ حين مثل ﷺ المؤمن بالنخلة، ومعناه: وضعوا صغاره أي نفوس المريدين المبتدئين أي ردوها كارهة عن تعدي حدود الله إلى الإتيان بما أمر الله، ووضعوها على عيدان التوكل على الله، لأنكم خلفاء الله في هذا الشأن، فهذا توضيع الصغار، وأما الكبار فعن التيه والشطح عند غلبات الأحوال، وأما قوله (معنا سبي فقا لسنة) فهو إشارة إلى أن طريقتهم طريقة أهل المواهب، مسلوك بهم مسلك أهل الجذب والوهب، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾، وذلك لأن بعض الأراضي طينها طيب حسن، وماؤها قريب عذب، فلا

تسقى فيها النخلة إلا سقية أو سقيتين، ثم لا يحتاج بعدها إلى شيء، وهم أهل البيت النبوي نفعنا الله بهم آمين. وأما قوله (أملحوا دمان الصيد) فإشارة منه إلى قلة المريدين والطالبين، وأن سيدنا عمر هو الذي يقنصها ويصيدها، وليس كل شيخ قانص، ولا كل قانص يصيد، وملح الدمان هو كثرة الرياضات. وأما قوله (امنعوا قوت الخيل عن أطفال الحمر وجحوش البقر)، فالمتبادر إلى الذهن من ذكر الخيل أنها هي النفوس المطمئنات والهمم العليات، المرابطات لجيوش الهوى والشيطان، وأما أطفال الحمر وجحوش البقر فهم من كانت فيه صفة الحمر والبقر، من الحماقة والشهوة والبلادة وقلة العفة، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾، سيِّما صغارهن وهن اللواتي لم يألفن الحمل والعمل. وأما قوله رضي الله عنه: (كلما يبست الحمضة، وأبطت على الجمال هي أقوى لهن)، فالمراد بالجمال المريدين الصادقين الذين سلك بهم طريق التكليف، والحمضة شجرة في أرض حضرموت ما تطلع إلا بتكليف، فكلما تعبت الجمال في سقيها ازدادت إذا أكلتها في قوتها، وأكلها يابسة أحسن، قال: وهذا إشارة إلى الأوراد لأن الذين ظهرت لهم في الحال أكلوها خضراء طرية، ولم يعلموا ما في تأخيرها عنهم من صلاح النيّة ومن منافع كثيرة، من نفي عجب ورياء ورياسة وحب جاه ومحمدة، وغير ذلك من الآفات الداخلة على من ظهرت عليه.

وأما قوله رضي الله عنه: (قربوا الطهور)، قال الشيخ علي المذكور: لما فرغ سيدنا الحسين من تبيين الكلام في السلوك، وأبلغ في ذلك وأجاد فيما هنالك، لوحت له الإشارة وأفصحت له العبارة برفع الستور، وأعطي من الحبيب منشور يؤذن بتقريب الزائر من المزور، فلاحت بوارق النور، أنه لا يصح لأحد دخول هذه الحضرة إلا بعد إكمال الظهور، فجدَّ في أسبابه فقال: قربوا الطهور، وهو المشهور بظهور صاحب الطور، الذي برأه الله من كل عيب ظاهر أو مستور. وأما قوله رضي الله عنه: (شدوا الفرس نريد نطلع الحضرة) أشار بالطلوع إلى الترقي، وإلا فما هناك طلوع ولا نزول إلا الترقي حالاً بعد حال وشأن بعد شأناً، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، فهذا أوان السير إلى الله بالله، فليس لهم في ذلك منتهى في عمر الآخرة فضلاً عن عمر الدنيا القصير، فهناك التغابن في الجمع، فتجري مسامرات ومخاطبات ومنازلات ومحاضرات، وغير ذلك مما لا

تجوز إذاعته، يعني تدوينه وكتابته، ثم قال الشيخ علي ـ نفع الله به ـ بعد إيراده هذا الكلام: آه ثم آه عليها من موارد لم نألف بها كدراً، وأما قوله (الفاتحة) عند انتهاء الكلام، فقال الشيخ علي: لما أخذ في قراءة السبع المثاني، أول ما تجلى له: ما سواه ثاني وليس معه ثاني، فالسبع المثاني بحر ينتهي بالداخل فيه إلى البحر الذي تاهت فيه السفن، وغرق فيه من غرق، وحرق فيه من حرق، قال الفقيه عمر بامخرمة نفع الله به:

ختم غيري كما من يوم أنا فيه بادي   والمعلم ذي أهجاني رجع في السّوادي

ثم قال في آخر كلامه على هذه الكلمات في مؤلفه المذكور: ونحن نستغفر الله من خوضنا فيما لا علم لنا به، إذ لا يعرف كلام العارفين إلا عارف، من بحرهم غارف وعلى مقاماتهم شارف، ولكن محب العارفين عارف، قال ﷺ: «المرء مع من أحب». انتهى الملتقط من كلام سيدنا الشيخ علي المذكور، على كلام سيدنا الشيخ الحسين المشهور، بإشارة سيدنا الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن العطاس نفع الله بهم آمين.

خاتمة

لهذه الترجمة تشتمل على فائدة سنية، لمن وقف عليها بصفاء طويّة، وهي ذم التنباك، ومدح القهوة البنية شراب النسّاك، ووجه ذكرها هنا أن سيدنا الشيخ الحسين بن أبي بكر يبالغ في ذم التنباك، حتى نقل عنه أنه من لم يتركه قبل موته بأربعين يوماً خيف عليه سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى، وقد سبق فيما نقلناه عن (المشرع) أن الإمام ابن علان صنف له رسالتين في ذمه والقول بتحريمه، وذكر صاحب المشرع بعض من وافق ابن علان ومن خالفه، وسيأتي لذلك مزيد بيان، وأما القهوة البنية فلأن الشيخ الحسين ممن بالغ في مدحها والثناء عليها، وستأتي عنه خارقة عظيمة، تدل على ما انطوت عليه من الأسرار المستورة عن الأغيار، وقيل: إن ظهور القهوة في الجهة الدوعنية كان بواسطة سيدنا الشيخ الحسين. وقالوا: إن من مات وفي بطنه شيء منها لم تمسه النار، ضد ما ذكر في التنباك، فهذا وجه المناسبة في جمعهما في هذه الخاتمة، وختم ترجمة سيدنا الشيخ بذكرهما تكثيراً للفائدة وتحصيلاً لنيل العائدة.

فأما الشراب الأول وهو التنباك دسيسة الخبيث الأفاك، وهو عند ذوي العقول والأذهان، من أعظم دواعي الشيطان، إلى فساد الأموال والأحوال والأديان، وكل ذلك ظاهر لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، وقد اختلف العلماء في حله وتحريمه، ومن ذاهب منهم إلى تخصيص القول بالحل وبالحرمة وذاهب إلى تعميمه.

وقد مر في هذه الترجمة أن الإمام ابن علان من الشافعية قائل بحرمته، والشيخ عبد الله بن سعيد باقشير قائل بحله، وكذلك الإمام الشيخ عبد العزيز الزمزمي تلميذ ابن حجر، وقد وقفت على جواب له في ذلك، بناه على القواعد الشرعية والأصول المرعية، وكلهم ـ رضي الله عنهم ـ مصيبون في الاجتهاد، ساعون في إرشاد العباد، ولذلك قالوا: إن الدين مبني على جلب المصالح ودرء المفاسد، فمن أطلق الحرمة راعى جانب الزجر والتنفير، بما هو سبب غالباً أو نادراً في الوقوع في الحرمة، لأدائه إلى الضرر في تغيير البدن أو تخدير العقل، أو إتلاف المال فيه بلا فائدة عند ذوي الفضل، ومن أطلق الحل فنظر إلى أن الأعيان لا تحرم إلا بنص شرعي، وقد خلقها الله لنفع العباد، إذ لم يخلق شيئاً عبثاً، وعام كلا الحكمين مخصص بعموم الضرر وعدمه، هذا من حيث الحل والحرمة. وأما من حيث شؤمه على المسلمين، وتثبيطهم عن التبتل في القيام بسنن سيد المرسلين، فأمر لا يحتاج إلى دليل، وذلك لأن المبتلين به حرموا مجالس الخير بأسرها، من مدارس العلم وحلق القرآن والذكر، والاعتكاف في المساجد والوقوف في المشاهد والمعابد، وإن حضر منهم أحد مجلساً من المجالس المذكورة، إما بقصد حسن أو لغرض من الأغراض، فهو مع الاستثقال والكراهة، لا تطيب نفسه إلا بإدمانه، والجلوس مع أخلائه وأخدانه، فهو المعروف المشاهد من أحوالهم إلا الفذ النادر من أولي السرائر، ممن لم يجعل الله للشيطان عليهم سبيلاً، وهم القليل، فمثل هؤلاء ممن تحقق صلاحه وولايته، فيسلم له الحال، ولا يعترض عليه بحال، وليس لجاهل أن يجعله في ذلك قدوة، ولا يتخذه في شرب التنباك خاصّة أسوة. ولننقل هنا بعض ما ذكره الأئمة في شرب التنباك وحكمه وما ورد عنهم في ذمه، قال الشيخ العارف بالله تعالى أحمد بن عبد الكريم الحساوي في مجموعه (تثبيت الفؤاد من كلام الشيخ القطب عبد الله بن علوي

الحداد علوي) رضي الله عنه: وذكر ـ نفع الله به ـ شرب التنباك يوماً فقال: إن عفو الله تعالى عن العبد إلى حد محدود، فإذا بلغه يقول له: رح ما عاد أغفر لك ولا أعفو عنك، فيقطعه الله تعالى من عفوه ورحمته، لأن من الذنوب ما لا يغفره الله.. ثم قال: إنه إذا تعوده الإنسان صارت طبيعته عليه فيتغير طبعه وعقله، والأصح أنه يحرم لأنه يزيل العقل.. وذكر شيئاً من حكايات من خف عقله بسببه، ثم قال: ومن لم يحرمه يقول: إنه لم يرد فيه نص بالتحريم فإنه حادث، ومثله الأفيون، فمن تسبب في إتلاف عقله مختاراً، فإنه تجري عليه أحكام التكليف ويخاطب بها ولا يعذر فيها، سواء أزاله بخمر أو غيره، ومن ادعى ممن يستعمل التنباك أنه لا يزيل عقله وطلب الجواز لذلك، فنقول: إنه من شأنه أنه يزيله، وما ثبت مع تناوله له إلا بعد أن أزاله مراراً فلا يعذر فيه.. أو كما قال، وسمعته ـ نفع الله به ـ يقول: إن تاريخ ظهوره (بغي) يعني سنة اثنتي عشرة وألف، أقول: وممن أفتى بحرمته أيضاً سيدنا الحبيب أحمد بن عمر الهندوان علوي، وكان يشنع على شاربه، ويكفي فيه هذان الإمامان، مع ما رأيته منقولاً، قال ناقله من تفسير (المقنع الكبير): قال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة، يأتي أقوام في آخر الزمان يداومون هذا الدخان، وهم يقولون: نحن من أمة محمد ﷺ، وليسوا من أمتي ولا أقول لهم: أمة، لكنهم من الشؤم»، قال أبو هريرة: وسألت رسول الله ﷺ: كيف نبت يا رسول الله؟، قال ﷺ: إن الله خلق آدم عليه السّلام، وأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ [صۤ: ٧٥-٧٨]، فعند ذلك خاف إبليس فبال من الخوف، فنبت هذا الدخان من بول إبليس، فهل يستوي الإيمان في قلب من شرب من بول الشيطان، ولعن من غرسها وبقلها وباعها. قال عليه الصلاة والسلام: «يدخلهم الله النار، وإنها شجرة خبيثة». انتهى ملخصاً، ورأيت ما صورته: سؤال في التتن، سئل عنه الشهاب القليوبي:

ماذا يقول الإمام العالم العلم ... في شرب قوم دخانا هل همو أثموا
به وهل هو حرام أم يباح لهم ... ما الحكم فيه أفيدونا فترتحموا

الجواب:

بالحمد أبدأ وبالتسليم أستلم ... أرضى لطالبه الإفضال والنعم
اسمع جوابك يا من جاء يسألنا ... عن شرب نار غدا في النار يقتحم
فيحرم الشرب للدخان أجمعه ... أيضاً وفيه خصال كلها نقم
فيشغل القلب عن تسبيح خالقنا ... يسود الدمع والأموال تنصرم
يا ويح شاربه يوم الحساب إذا ... جاءت صحائفه مسودة عدم
ما قال هذا حلال عالم أبداً ... قط من الإنس لا عرب ولا عجم
من قال هذا حلال جاهل أبداً ... أو قال هذا حلال لم يصب حكم
من رد قولي هذا ضل عن طرق ... أيضاً عن الحق في آذانه صمم
فنسأل الله رب العرش موجدنا ... بالخير يبدى وبالإيمان يختتم

تم ذلك. وإنما أطلنا الكلام لكونه انتشر بين الخلق، لعل إنساناً إذا سمع قول سيدنا وما في ذلك النقل، وما أفتى به الحبر الشهاب القليوبي، أن يرعوي قلبه عنه ويتركه. انتهى ما ذكره الشيخ الحساوي في (تثبيت الفؤاد)، وقال الشيخ الإمام عبدالله بن داود الأحسائي في كتابه (الصّواعق والرعود في الرد على ابن سعود): تنبيه: فإن قلت متى حدوث التتن أي التنباك؟ فهو في حدود الألف، وكان خروجه أولاً في أرض اليهود والنصارى والمجوس، وأتى به رجل يهودي يزعم أنه حكيم إلى أرض المغرب، ودعا الناس إليه، فلما انتشر حرّمه بعض، وكرهه بعض، وأباحه بعض، وكل أهل مذهب من الأربعة فيهم من حرمه وفيهم من كرهه وفيهم من أباحه، ولكن غالب الشافعية والحنفية قالوا: إنه مباح أو مكروه، والبعض منهم حرمه، وغالب المالكية حرمه، والبعض منهم كرهه، وكذا أصحابنا سيِّما النجديون، إلا أني لم أرَ من الأصحاب من صرح في تأليفه بالحرمة، وظاهر كلام مرعي في غايته وفي رسالة ألفها فيه الإباحة، وظاهر كلام منصور في آداب النساء الكراهة، ومن المعلوم أن الاعتماد عند المتأخرين عليهما وعلى كلامهما، ومن العلماء من فصّل بين من يسكره وبين من لا يسكره. انتهى المقصود من كلام الشيخ ابن داود.

والحاصل أنا لو تتبعنا فيه كلام العلماء لطال، وخرج إلى حد الملال، والقصد التنبيه بما يتفطن له الموفق النبيه، من الاحتراز عن شربه ومجانبة حزبه، ومن أراد الزيادة على ذلك فليتتبع ما قالوه في مظانه، فممن شنَّ الغارة وشد النكير من أهل الجهة الحضرميّة في مصنفاتهم، السيد الإمام الحبيب علي بن حسن العطاس في كتابه (القرطاس)، والفقيه العلامة عبد الله بن أحمد بازرعة في مختصر فتاوى ابن حجر. وبالإجمال فإنه مذموم على كل حال شرعاً وعقلاً، سلمنا الله من فتنته ومن جميع الفتن، ووفقنا لاتباع المصطفى ﷺ في جميع السنن آمين.

وأما شراب الصّالحين، وهو القهوة البنية، فقد أطرى في الثناء عليها الأكابر، وأدمنوا شربها في الأصائل والبواكر، وصنفوا في فضلها واعتنوا بشرب علّها ونهلها، وممن جمع في ذلك من المتأخرين طرفاً صالحاً، سيدنا وشيخنا الإمام العارف بالله تعالى خاتمة الأعلام الحبيب عمر بن سقاف علوي ـ نفع الله به ـ في كتابه (تفريح القلوب وتفريج الكروب) في خاتمة القسم الثاني منه، قال قدس الله سره: الحمد لله على ما صفا من السرائر وغمر من النعم، وأباح وأتاح ما يدفع كل هم وغم، وبه ترتفع الحجب وتكشف السواتر، وذلك بالشراب الطاهر الذي شربه العارفون الأكابر، ورأوه عوناً على صفاء البواطن والظواهر، المسماة بالقهوة التي هي للقلوب سلوة، وفيها على الخير عون وقوة، وصلى الله على سيدنا محمد الذي هو للمقتدي خير قدوة، وعلى آله وصحبه الذين بهم الأسوة. ثم اعلم أيها القلب المكروب، أن هذه القهوة قد جعلها أهل الصّفا مجلبة للأنوار والأسرار مذهبة للأكدار، وقد اختلف في حلها أولا، وحاصل ما رجحه الشيخ ابن حجر في (شرح العباب) أن للوسائل حكم المقاصد، فمهما طبخت وسيلة للخير كانت منه وبالعكس فافهم الأصل، وممن أفتى بحل القهوة شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، والشيخ عبد الرحمٰن بن زياد الزبيدي، والشيخ زروق المالكي المغربي، ومصنف القلائد عبد الله بن سهل باقشير، والعلامة محمد بن عبد القادر الحباني وألف فيها، والشيخ عبد الملك بن دعسين، وممن أثنى عليها الأستاذ أبو بكر العيدروس، والأستاذ عبد الرحمٰن بن علي، والسيد شيخ بن إسماعيل، والإمام أحمد بن علوي باجحدب، والشيخ أبو بكر بن سالم، والشيخ عبد الله بن أحمد العيدروس،

والشيخ عبد الرحمٰن بن محمد العيدروس، والشيخ عبد الله الحداد، والسيد حاتم الأهدل، والشيخ أبو الحسن البكري، وابنه محمد بن أبي الحسن، والشيخ عبدالهادي السودي، والفقيه عمر بن عبد الله بامخرمة، وولده عبد الله، والشيخ عبدالرحمٰن بن عمر العمودي رضي الله عنهم أجمعين.

وأما أقوال أهل الذوق والصوفية أهل الشوق والتوق وتغزلاتهم فيها، فأكثر من أن تحصى، ويطول الكلام فيها، ونتبرك بما يسره الله لكونه من مقصود الكتاب، إذ فيها شرح الصّدور، وبطبخها بالنيّة الصالحة تتيسر الأمور، ولنقدم أولاً كلام الشيخ عمر بامخرمة، فله فيها القصائد العجيبة والأبيات الغريبة، وأجلُّها القصيدة الجامعة لشروطها وآدابها وهي هذه:

لقهوة البن يا ندمانها ابتكرا ... وكن بها يا فتى صبّا بغير مرا
وحين يدعيك داعيها فقم عجلا ... ملبّياً تابعاً في ذلك الأثرا
وخذ شروطاً وآداباً لها وأصخِ ... سمعاً إلى قول منطيق بها اختبرا
فأول الأمر بسمل ثم صل على ... محمد خير سادات الورى الكبرا
وبعد ذاك خذ القشر العزيز وكل ... منه الذي شئته للطبخ واعتبرا
ونقه الآن وألقطه بلا مهل ... فربما حوله الفار اللعين خَرَا
وقدر الماء وجزِّ الكل تجزيةً ... ولا تدعهم يقولون زاد أو قصرا
فالقشر سدس وماء خمسه وإذا ... شئت الزيادة زد سهماً وكن حذرا
وشب نارك وأوقدها بلا لهب ... لينقص الماء وأنت الآن مقتدرا
وحين يرسب ذاك الماء وانتشرت ... من بنة البن رياً عرفها العطرا
فصفها واحذر التسكين فهو لها ... مفتر وقليل النفع ما فترا
حتى إذا بقيت في الدن صافية ... فعند ذا ينبغي إمعانك النظرا
في طبع شاربها فاليابس ألقِ له ... فيها من القند كيما يضعف البصرا
وضده الرطب فاستعمل له عسلاً ... وقل لذي الطب هذا يرفع الضّررا
وجود السحق حينئذ لفلفلها ... وضعه فيها وقلل منه واحتذرا
من حرقة البول إن كثرته وإذا ... لم تلقه نفخت من ذاقت قذرا

فعنـد ذا صلحـت للشـرب فـادع لهـا ... خفيـــف دم لبيبـــاً إن أشــــرت درا
ورح بها واغد في الصيني على فرش ... نظيـف جسـم وثـوب تبلـغ الـوطـرا
فـي مـوضـع ليس فيـه مـن يكـدره ... فـإنمـا جعلـوهـا تـذهـب الكـدرا
وقـرب الطيـب واشمـم منـه مبتـدئـاً ... ولا تـــدعـــه وراهـــا قـــل أو كَثُـــرا
ولا تكـن غـافـلاً عـن منشـد طـرب ... فهـــذه ســاعـــة الأشعـــار والشعـــرا
وإن تكن من رجال الدين زدت على ... هـذا شـروطـاً فخـذ عنـي بهـا خبـرا
طهـارة مثـل تطهيـر الصّـلاة وكـن ... مستقبـــلاً قبلـــة الإســـلام مستتـــرا
نقـــي ســـر بـــذكـــر الله مشتغـــلاً ... في السِّر والجهر عما قد ذرا وبرا
كذا على شربها قل يا قوي على ... إعـدادهـا وبهـذا وصِّ مـن حضـرا
تقـول ذلـك عشـراً بعـدهـا مـائـةً ... وستـة فـالتـزمهـا تصحـب الظفـرا
وتشهـد السـر فيهـا قلـت منبسطـاً ... فيهـا وتلمـح ذاك السـر حيـن سـرى
فمـن هنـا خبطـوا فيهـا ومـا علمـوا ... بما جرى من قديم الأمر يوم جرى
فهـذه نبـذة جـاءت علـى عجـل ... جمعـت فيهـا لـك الآداب مختصـرا
وفـت ثـلاثـون بيتـاً قلـت آخـرهـا ... الحمـــد لله مغنـــي فـــاقـــة الفقـــرا

وقد خمس هذه القصيدة الشيخ الأديب عبد الصّمد باكثير تخميساً عجيباً رائقاً فائقاً، وزاد فيه آداباً وشروطاً وفوائد جليلة، وقد شرح الأصل والتخميس الشيخ الإمام الفقيه عبد الله بن محمد سراج جمال الغرقي، شرحاً جمع فيه فوائد نفيسة لم يجتمع في غيره، وقد قلت نسخ هذا الشرح جداً بل عدمت، حتى أني أكثرت البحث عنه ولم نعثر عليه إلا أوراقاً قليلة، ننقل منها ما تيسر إن شاء الله تعالى، قال في الشرح المذكور: صح عن أئمة عارفين: أين نجدك يا شاذلي؟، قال: في خانقائي، قيل: وما هي؟، قال أماكن طبخ القهوة، اطلبوني عندها. . ثم ذكر سيدنا الحبيب عمر حكاية الشيخ شراحيل مع الشيخ معروف التي قدمناها في ترجمة سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار الأخير صاحب المنظومة نفع الله به.

وذكر ـ رضي الله عنه ـ فائدة في أن القهوة لما شربت له، نقل فيها حكايات، منها قال الإمام محمد بن عبد الرحمٰن بن سراج في مناقب شيخه أبي بكر بن

سالم، ذيل مناقب شيخهما القطب معروف باجمال، قال: قدم السيد عبد الرحيم البصري المكي على الشيخ أبي بكر زائراً متشفعاً بسرِّه، في التأليف بينه وبين زوجة له مكية، نافرت منه هي وأهلها لفقره، ولازموه في الطلاق، فلما رآه الشيخ أبو بكر قال: تحب المكية يا عبد الرحيم، قال: نعم ومتيم بها، وقصدي نظركم ودعوة بإصلاح أمري معها، عال صبري، والشيخ بيده فنجان قهوة كبير أخضر وعنده روشن مفتوح، فقال: حيا بالقهوة، وأخرج يده ورجعت خليه بمحضر الجم الغفير، فقال: أصلحنا شأنك يا عبد الرحيم، بالشفاء، هي لما نويت له، فزوده الشيخ ورجع إلى مكة، فلما علم أصهاره بمجيئه مع القافلة خرجوا وتلقوه بغاية الفرح، وقصدوا به دارهم وأدخلوا عليه زوجته، فوجدها بأعظم ما عنده من الحب والمودّة، وقالت: عجب، مع غيبتك وقت كذا بيوم كذا لم أدرِ إلا برجل صفته كذا، ناولني هذا الفنجان ملان قهوة وغاب علي، لم أدرِ من أين مدخله ومخرجه، فبهت وشربته، فاملأ الله قلبي وأهلي من ذلك الوقت حبك، فإذا الفنجان ذلك بنفسه، ووصف الشيخ والوقت بكمال وصفه، وفي بعض نسخ المناقب زيادة: وبشره منها بولد عالم عارف واسمه عمر يعم الجميع نفعه، فكان كذلك حملت من حينه به، فكان السيد عمر بن عبد الرحيم البصري، واحد زمانه علماً ومعرفةً، يحب الحضارمة لأجل الشيخ، ويفتخر بنسبته إلى الشيخ مع جلالته، ويكرم الواردين من جهاته. ثم قال قدس الله روحه: وعن بعض الصّالحين أنهم لما سمعوا أن أفوار القهوة تهليل أحبوا أن يسمعوه، فطبخوها بقصده مع جمع بمسجد الشيخ سعد تاج العارفين، فسمعوا الجميع أصوات: لا إله إلا الله محمد رسول الله، بحروف فصيحة ظاهرة مستمرة مع فورانها، فلما سكنت بقي الصوت والحروف مهموسة، فلهذا اتفقوا على أنها لا تسكن في ظروف طبخها بداراً بصبها قبل فتورها عما هي عليه من الذكر، وقليل النفع ما فترا، ولا بأس بسكونها بظروف الشرب بل هو مطلوب، لأن غثرها له غيرة على استرداد ما خرج منه بعصارة الطبخ إليه ما دامت مرتبطة به، فإذا خرجت عنه سلبته، فلهذا قالوا كما مر: (فصفها) أي عنه فلا يخرج معها شيء منه، إلا ما شق الاحتراز عنه فلا يضر، وجاء عن ناس صالحين، أنه لو شمها عاصٍ كفور ومرة يهودي عادوا صالحين،

وكنت أعجب منه، حتى أن جماعة يهود كانوا يترددون إلى المقاهي، وأصحابهم ينهونهم عنها ويقعون فيهم، فما لبث مدة إلا والمترددون داخلون على والدي وهو قاضٍ بالشحر، وأسلموا وصاروا من الصّالحين، وقال في شرح قول المخمس: (فإنما اتخذوها الصّالحين) أي هي غذاء لمن غلبت روحه شبحه، كما شوهد سنين من لا غذاء له سواها مع قوته مشياً ونكاحاً زيادة على المتغذين براً ولحماً وشباباً أيضاً، وذاك مع كبر سنه، منهم القطب معروف باجمال، والسيد العارف بالله شيخ والدنا، وتلميذ مولانا القطب أبي بكر بن سالم: أحمد بن حسين الحبشي، وفيها هاضمة وقوة باءة عظيمة. وفي (الصفوة) عن الغوصوني، أنها تخرج عن موضوعها الأصلي بوضع سكر أو عسل إلى نوع الأدوية، فلا ينبغي، ولعل مراده إذا كثر طرح أحد ذينك فيها بحيث سلب اسمها إليه، ومثله غيرهما، وأما الاقتصاد في التعديل في جميع ذلك فهو من آدابها إجماعاً، ومن مفهوم ما ذكر الشيخ الفقيه عمر في القصيدة ونقله سيدنا الحبيب عمر عن شرحها، أن الطيب ينبغي شمه قبلها وبعدها، ويوضع فيها منه قليلاً. قال: وكان الشيخ عبد الرحمٰن بن علي يأمر بحمل القهوة إذا سافر، فكانت تحمل معه في القرب، قلت: أي مع زيارة النبي هود عليه السلام قبل تعيين قبره، وكان الشيخ الولي عبد الهادي السودي مولعاً بشربها ليلاً ونهاراً، ولا يزال قدرها بين يديه، وقد يوقد عليها برجليه مكان الحطب، وقال السيد العارف حاتم الأهدل: إذا فقد الصّائم التمر ـ أي والماء ـ أفطر بالقهوة.

وقال بعض الأكابر ما أحب البقاء في الدنيا إلا لثلاث: قيام الليل ومطالعة الكتب وشرب القهوة، وفي (شرح العينية) أن الشيخ أحمد بن محمد الحبشي صاحب الشعب كان يحب القهوة ويأمر بشربها، ويقول: ثلاث نعم اختص بها المتأخرون: شرح الحكم لابن عباد، وقصيد الفقيه عمر بامخرمة، والقهوة البنية. وفي تاريخ ابن الطيب في ترجمة الشيخ أبي الحسن البكري قال: وهو الذي أفتى بحل القهوة، حتى قال في ذلك:

يا قهوةً تذهب هم الفتى   أنت لحاوي العلم نعم المراد
شراب أهل الله فيه الشفاء   لطالب الحكمة بين العباد

نطبخهـــا قشـــراً فتـــأتـــي لنـــا في نكهـة المسـك ولـون الـزبـاد
مـا عـرف الله سـوى عـاقـل يشـرب فـي وسـط الـزبـادي زبـاد
حـرمهـا الله علـى جـاهـل يقـول فـي تحـريمهـا بـالعنـاد
فيهـا لنـا بـر وفنجـانهـا صحبـة أبنـاء الكـرام الجيـاد
كـاللبـن الخـالـص فـي حلـه مـا خـرجـت عنـه بغيـر السـواد

وقال أيضاً:

يقـولـون قـوم قهـوة البـن حـرمـت مقـالـة معلـول المقـال فقيـه
لعمـرك لـو نيطـت بـأدنـى كـراهـة لمـا شـربـت فـي مجلـس أنـا فيـه

وقال أيضاً:

أقول لمن قد ضاق بالهم صدره وأصبح من كثر التشاغل في فكر
عليـك بشـرب الصّـالحيـن فـإنـه شـراب طهـور سـامـي الـذكـر والقـدر
فمطبـوخ قشـر البـن قـد شـاع ذكـره عليك به تنجو من الهم في الصّدر
وخـل ابـن عبـد الحـق يفتـي بـرأيـه وخذها بفتوى من أبي الحسن البكري

انتهى من تاريخ ابن الطيب، وذكر السيد الجليل عبد الله بن جعفر مدهر باعلوي نزيل مكة المشرفة ـ رضي الله عنه ـ في شرحه على قصائد حضرة الشيخ الكبير شيخ بن إسماعيل بن إبراهيم بن الشيخ عبد الرحمٰن السقاف، واسم الشرح المذكور: (التحلي الجميل في نفس سيدي شيخ بن إسماعيل)، عند قوله: (ذه قهوة ما مثلها قهوة. .) إلى آخره، أي هذه القهوة المسماة بالسّواد من السواد الأعظم، والسمراء من السمرة اللون الأفخم، راح الأرواح والمريحة من الأتراح، المنتشة بجمال الوجد وكمال الأفراح، وفيوضات الأنس وفتوحات القدس، (ما مثلها قهوة) أي نفيسة عظيمة تحظى بها القلوب السليمة، وتستشفي ببركتها النفوس السقيمة، ولهذا قال شيخها وغيره، كما جربه الكملة أنها كماء زمزم لما شربت له، وأنها تجذب شاربها إلى الخير، وتعجل الفتح للسالك. وقال الشيخ أحمد بن علوي باجحدب: «من مات وفي بطنه شيء من القهوة لم يدخل النار»، وقال

السيد العلامة عبد الرحمٰن بن محمد العيدروس في رسالته (إيناس الصفوة بأنفاس القهوة) ما ملخصه: اعلم أن مما عجله الله تعالى لهذه الأمة المحمدية من ملذوذات الجنة ومشتهياتها، القهوة المتخذة من بذر البن أو قشره، ولم تعرف في العُصُر الخالية بل خص الله بها متأخري هذه الأمة، إعانة لهم على الطاعات لقصورهم عن السِّابقين، فأحدث الله تعالى لهم ما يلحقهم بهم، وأول حدوثه أواخر القرن الثامن باليمن المبارك، ومنشئه الإمام أبو الحسن علي الشهير بالشاذلي بن عمر.. ثم ساق نسبة سيدنا الحبيب عمر نقلاً من (إيناس الصفوة) إلى عبد مناف بن قصي، قال: وفيه يجتمع نسبه مع رسول الله ﷺ، صاحب المخا، الغوث الرباني والفرد الصّمداني، المتوفي سنة ثمانٍ وعشرين وثمانمائة. انتهى من الإيناس، فعلم أن الشيخ المذكور ليس شاذلي النسب كما يتوهم، إنما هو شاذلي الطريقة المنسوبة إلى القطب الشريف الحسني أبي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي، وفي كتاب (السلسلة العيدروسية) أن الشيخ علي بن عمر المذكور، لما أراد مفارقة شيخه ناصر بن بنت الميلق الشاذلي من مصر أوصاه، فقال له: ضع نفسك تحت القدرة، فإنه سبحانه إن رفعك رفعك لحكمة، وإن خفضك خفضك لحكمة، ولا تكره حكمة الله تعالى في شيء، وحيث وجدت قلبك فخيم، ونظم ذلك الشريف عمر بن عبد الرحمٰن علوي صاحب الحمراء المقبور بتعز تلميذ العيدروس نفع الله بهما، فقال:

ضع النفس في موح الهوى غير كاره ... لحكمتــــه سبحــــانــــه واختيــــاره
فمــا رفعــه والخفـض إلا لحكمــة ... وحيـث وجـدت القلـب خيّـم بـداره

وفي (إيناس الصّفوة): وكره بعضهم تسميتها بالقهوة، قال: لأنه من أسماء الخمر، ولا وجه له، إذ لا يلزم من موافقة الاسم اتحاد المعنى، بل إطباق العلماء والصالحين على ذلك يدفعه، كيف وقد استنبطوا من هذا الاسم أسراراً لطيفة ومعاني طريفة، قال الشيخ علي بن عمر الشاذلي قدس الله روحه:

قهـــوة البـــن يـــا أهـــل الغـــرام ... ســـاعـــدتنـــي علـــى طـــرد المنـــام
وأعـــانتنـــي بعـــون الله علـــى ... طـــاعـــة الله والعـــالـــم نيـــام

قافها القوة والهاء الهدى   واوها الود والهاء الهيام
لا تلوموني على شرب الهدى   إنها شرب سادات كرام

وقال الأستاذ أبو بكر بن عبد الله العيدروس:

يا قهوة البن قاف القدس أَوَّلُكِ   هاء الهدى ثانياً والواو ثالثك
والهاء رابعك من بعده ألف   لألفة لامها لطف من الملك
والباء بسط ونون النور يتبعها   يا قهوة قد سرت كالبدر في الحلك

انتهى المقصود من جملة ما ذكره سيدنا وشيخنا الحبيب عمر بن سقاف ـ قدس الله روحه ـ في كتابه المذكور، مدح القهوة والثناء عليها وخصوصيتها، ومنافعها وبركتها ونورها وسرها، وجميع ما يتعلق بها، وذلك ملتقط من مواضع منه، ومن أراد الزيادة فعليه بهذه الخاتمة، وكذا غيرها من المؤلفات فيها، وذكر سيدنا وشيخنا الإمام الشيخ الحبيب أحمد بن الحسن الحداد علوي في كتاب (سفينة الأرباح) الجامع لعدة من الفنون: أن من جملة خوارق الشيخ علي بن عمر الشاذلي رضي الله عنه، ما نقل عن كثير من فضلاء المخا واليمن، أنه وقع فساد من الجن بالمخا بأخذهم كثيراً من صبيانها، فلما كبروا ردوهم فسألوا عن بيوتهم وأهلهم فلم يعرفهم، فنشأ بسبب ذلك نزاع شديد ومخاصمات، فألجأهم الشأن إلى الاستغاثة بالشيخ علي نفع الله به، فاختلى ـ رضي الله عنه ـ لهذا المهم، فلما كملت أربعينيته رأى النبي ﷺ، فعرض عليه الواقعة، فقال له: مر الناس أن ينبتوا شجر البن في بيوتهم يدفع الله عنهم الفساد والخصام، فقال له الشيخ علي: من أين تعرف ذلك الشجر يا رسول الله؟، فقال: هي بأرض الحبشة، ومد يده الكريمة وأخذ قصباً مورقة مثمرة وناولها الشيخ، فاستيقظ وهي في يده، فحمد الله تعالى وبرز من خلوته، وأخبر الناس بأمر رسول الله ﷺ وقسم بينهم تلك القصب، فتسارعوا إليه واعتقدوه، وأنبته الشيخ بجانب عزلته فأثمر، فلما نضجت ثمرته أخذه وطبخه وشربه، فوجد فيه روحنة ونشاطاً، فأمر به لذلك فقراه ومريديه حتى ظهر وانتشر ودام واستمر. انتهى من كتاب السفينة المذكورة منقولاً من شرح الحبيب عبد الله بن جعفر مدهر علوي السابق ذكره.

خاتمة الخاتمة: نثبت فيها قصيدة جامعة بليغة في مدح القهوة وذم التنباك، للشيخ البليغ الذائق عبد الصمد باكثير رحمه الله ونفع به آمين، وهي هذه:

ألا يا طالب الراحات هذا ... أوان البسط فاغنم ما يسرك
إذ الإخوان قد جلسوا وطابوا ... فجل بمجالهم يزداد برك
وقهوتهم تدار ونشرها قد ... علا بالنور أعلا الله قدرك
إذا شئت المسرة والعوافي ... ويشرح بالرضا والأنس صدرك
عليك بقهوة البن التزمها ... فما أشفى وما أهنى وأَبْرَكَ
إذا حمسته ونشقت ريّا ... شذا تحميسه فابشر بخيرك
فقهوته إذا دارت رأينا ... لأفواج السرور هناك معرك
فما عبرت بذي عقل ولب ... وشم لريحها إلا تحرك
نفوس الأولياء طابت عليها ... فما عن شربهم زيغ ومترك
إليها الشاذلي بالسر أومى ... فسر في أثره لله درك
ولا تجنح إلى التنباك إني ... نصحتك إن فيه أشيا تضرك
هو العار الذي يدني ويردى ... هو الداء الدفين فلا يغرك
دخان منتن داء عضال ... فلا تتبع إليه فتىً يجرك
شراب مهلك لا تشتريه ... وضم إليك نقدك في مصرك
وإن ناداك للتنباك داعٍ ... فقل عني إليك كفيت شرك
فعار أن يمر دخان هذا ... بلحية عاقل فعليك حذرك
وقد أخطى الذي يسعى إليه ... يمص لسانه في كل مبرك
أيتبع بدعة صارت إلينا ... دسيسة كافر بالله أشرك
شراب من حميم ليس فيه ... سوى مرض القلوب فلا يغرك
فأوله سعال واصفرار ... إلى سل يعود فهات عذرك
لأية علة وصفوه حتى ... شددت إليه يا مغرور ظهرك
تظل عليه منحنياً مكباً ... أضعت سبهللاً ظُهْرَكَ وَعَصْرك

لئن قالوا: وجدنا فيه نفعاً لقد قالوا محالاً ليس يدرك
إذا قعدوا على التنباك فانهض لقهوتك الكميت يزول عسرك
ولا تبرح ملازمها دواماً على طول المدا شهرك ودهرك
ورتب (يا قوي) تنال عزاً وقل: يا رب يسر لي بيسرك
على إعدادها مائةً وستا وعشراً هكذا سرك وجهرك
بمخلص النية واعقد عليها عقيدة حازم خمسك وعشرك
وقل: يا رب سلمنا جميعاً وألهمنا مدى الأيام ذكرك
ومن تنباكهم يا رب جرنا فإن الخلق طُرّاً تحت قهرك
وصلِّ على النبي محمد ما نسيم هب أو غصن تحرك
وألزمنا مواظبةً عليها ويا قلب اعتمدها طول عمرك
صلاة لا تدعها كل حين تفوز بها غداً في يوم حشرك
فهي والله ممحقة الخطايا فاجعلها ليوم الخوف ذكرك
لتحشر آمناً من كل روع وتنزل جنة فيها مقرك
رضى الرحمٰن في الصلوات دأباً عليه فصلِّ بها يزداد يسرك

والحمد لله رب العالمين:

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله سره ونفعنا به في الدارين:

وأخذه عن شيخه ووالده الفخر غوث الملتجي وراشده

المذكور بهذا البيت فخر الآفاق، وشيخ الشيوخ العارفين على الإطلاق، بحر العلوم، ومحيي من طريق القوم ما عفا من الحقائق والرسوم، ذو الجاه الواسع والصيت الشاسع، والحال العظيم والمقام الجسيم، والكرامات الكثيرة والواردات الغزيرة، الشيخ الكبير والقطب الشهير، أبي بكر بن سالم بن عبد الله بن عبدالرحمٰن بن عبد الله بن الشيخ عبد الرحمن السّقاف باعلوي رضي الله عنهم، القائل فيه الخبير النقاد، سيدنا الأستاذ الشيخ عبد الله بن علوي الحداد، في القصيدة العينيّة:

والشيخ أبي بكر سلالة سالم ذي الفخر والجاه الفسيح الأوسع

قال شارحها الشيخ الحبيب أحمد بن زين الحبشي ـ نفع الله بهم ـ في الكلام على هذا البيت: ولد سيدنا الشيخ أبو بكر ـ رحمه الله ونفع به ـ بتريم، يوم السبت ثالث عشر جمادى الأخيرة سنة تسع عشرة وتسعمائة، ونشأ بها على طريقة الخير والصلاح، واشتغل بطلب العلم على مشايخ أكابر عصره، وتفنن في سائر العلوم وحقق فيها، وصحب المشايخ الأكابر ولبس منهم خرقة الصّوفية. فمِّمن أخذ عنه من الأكابر السيد الإمام الجليل عمر بن محمد بن أحمد بن أبي بكر باشيبان صاحب الترياق، ومن مشايخ الشيخ أبي بكر المذكور أيضاً السيد الإمام أحمد بن علوي باجحدب، والشيخ الفقيه المحقق عبد الله بن محمد بن سهل باقشير، والشيخ الفقيه الصوفي الذائق عمر بن عبد الله بامخرمة، قرأ عليه رسالة القشيري، وكان الفقيه عمر بامخرمة لا يقري إلا من تفرس فيه النجاح والاستعداد، ومن مشايخه الشيخ الكبير أبو محمد معروف بن عبد الله باجمال الشبامي ثم الدوعني، ولزم صاحب الترجمة العزلة والخلوة، وسلك طرق المجاهدة والرياضة والعبادة، والتهجد والصيام والصدق والتواضع، حتى فتح الله عليه طرق الهدى، وظهرت له الحقائق، وَصُرِّف في الأكوان، ونال ما لم ينله غيره، وانتفع به الخلائق خصوصاً وعموماً، وقصد لذلك من أقاصي البلدان، وأخذ عنه جماعات لا يحصون، منهم أولاده الكرام، والسيد الإمام أحمد بن محمد بن علوي بن أبي بكر الحبشي صاحب الشعب، والسيد الإمام عبد الرحمٰن الجفري صاحب تريس، والسيد محمد بن علوي صاحب المقيروبات، والسيد الإمام عبد الرحمٰن البيض صاحب الشحر، والسيد الإمام يوسف الفاسي المغربي صاحب مريمة، والفقيه العلامة محمد بن سراج الدين باجمال صاحب الغرفة، وصنف ـ نفع الله به كتباً في الطريقة والحقيقة، منها كتاب (معراج الأرواح إلى المنهج الوضاح)، وكتاب (فتح باب المواهب وبغية مطلب المطالب) وهو مجلد كبير، وكتاب (معارج التوحيد) وكتاب (مفتاح السّرائر وكنز الذخائر)، وله كلام عالٍ حسن في التصوف والحكم، وله شعر فائق في الحكم والحقائق وغيرها، وله تائية عظيمة. وقال رضي الله عنه:

طلبت الله تعالى أن يريني حال السّقاف، فتجلى لي نوراً ملأ الدنيا والسّقاف مبرقع فيه، وكانت أمواله ـ نفع الله به ـ مبذولة للضعفاء والمحتاجين والضيفان، وكان عظيم الحلم حسن الخلق، كامل التواضع محباً للخمول، وكان يجتمع بالخضر وإلياس عليهما السلام، وكان يكاشف بالمغيبات والخواطر وتظهر منه الخوارق، وله في ذلك وقائع حذفناها اختصاراً، وكان يقول: الدنيا كقصعة بين يدي، وترجمه جماعة من العلماء، وأثنى عليه أكابر من الفضلاء نثراً ونظماً، منهم الشيخ عبدالقادر بن أحمد الفاكهي، والعلامة علي بن جار الله بن ظهيره الحنفي، والسيد الجليل عبد الرحمن البيض باعلوي، ومدحه بعض فضلاء المغرب بقصيدة مطلعها:

من جنة الخلد أم من سفح عينات ... لاحــت لعينــي أنــوار العنــايــات
لله مــن نفحــات لــم تــزل أبــداً ... يجلو صداها الشذا من وجه مرآتي

ومن مدحه الفاضل عمر بن إبراهيم الحباني، ومحمد بن علي بن جعفر الكثيري، وانتقل ـ رحمه الله عز وجل ـ إلى رحمة الله تعالى ليلة الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة، وقبر بنخر عينات، وبني عليه قبة عالية، وعينات على نصف مرحلة من تريم أسفلها، أول من اختطها آل كثير سنة تسع وعشرين وستمائة. وكان السيد الولي المكاشف العارف بالله تعالى صاحب الكرامات الخارقة أحمد بن علوي المجذوب ساكن مريمة، يأتي حافة عينات التي عمرها الشيخ أبو بكر قبل عمارتها، ويقول: يولد لنا مولود كبير القدر يسكنها، ويعين مساجدها الذي بناهن الشيخ أبو بكر ومحل صلاته، وقد أشار إليه السيد الشريف الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمٰن، حين شكا إليه والد الشيخ أبي بكر قل مواظبته على تعلم القرآن، بأنه سيكون له شأن عظيم، وقال بعض الصالحين: جئت إلى السيد الإمام شهاب الدين التمس منه إثبات الصّحبة والإرادة، فقال: عليك بالسيد أبي بكر فإنه من أكابر الرجال، ولا في آل باعلوي مثله، وهو باللسك يؤثر الخمول، فكاشفه بذلك الشيخ أبو بكر وحكمه، ولما بلغ سيدنا الإمام الموهوب المحبوب عبد الله بن محمد بن الفقيه باعلوي صاحب الشبيكة موت الشيخ معروف باجمال نفع الله بهما، قال: والله ما غابت شمس الشيخ معروف إلا وطلعت شمس الشيخ أبي بكر.

وكان شيخه الشيخ معروف المذكور يثني عليه جداً ويفضله على سائر المشايخ، ويشير إلى أنه القائم بولاية القطبيّة ويصرح بذلك، ويقول: هو قطب الوجود صاحب الدائرة، يظهر الله على يديه هذه الدعوة من أمده الله في الحياة رأى لهذا العبد شأناً عظيماً، وعاد صاحب الوقت والخليفة، وكان عمدة مشايخه ـ أي الشيخ معروف ـ وعليه جل انتفاعه، وكان هو ـ أي الشيخ أبو بكر ـ كثير الذكر للشيخ معروف، وقد يقول: والله إنه هذه الساعة جالس عندي ومعي، ولا غاب عني لحظة، وتوفي الشيخ معروف المذكور يوم السبت خامس عشر صفر الخير سنة تسع وستين وتسعمائة من الهجرة النبوية بدوعن، وكانت مجاهدته كثيرة، لم ينم خمس عشرة سنة ولم يأكل ولم يشرب مثلها، وقد تحصل له بعض الليالي أنه يذكر الله أربعين ألف مرة، ما بين تسبيح وتهليل وصلاة على النبي ﷺ، وكانت ولادته بشبام ليلة الجمعة حادي عشر رمضان سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة، وكان كبير الشأن، من مشايخه الشيخ إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن محمد هرمز، وإبراهيم المذكور تلميذ الشيخ عبد الرحمن بن عمر هرمز، وهو عمه وهو الأخضر، وقد أخذ عنه معروف أيضاً، وأخذ الأخضر عن عمه الإمام الجليل إبراهيم بن محمد هرمز. انتهى، وقال في (المشرع الروي) بعد ذكره البيتين السّابقين لبعض فضلاء المغرب: وله قصيدة أخرى قال فيها:

شجتني سحيراً صادحات الحمائم ... وقد لعبت في الروض أيدي النسائم

وهي طويلة أيضاً، وقال الفقيه الفاضل عمر بن إبراهيم الماي في أثناء رسالة أرسلها إليه:

يـرنحنـي بـالشـوق ذكـر المعـالـم ... ويبـديـن وجـدي مـابـه مـن كـرائـم

وهي طويلة أيضاً منها قوله:

فقلت لهم حسبي اعتياضي عنكم ... أبا بكــــر المشهور أعني ابن سالــم

ولما بلغ شيخه الإمام العارف بالله تعالى السيد أحمد بن علوي باجحدب هذا الظهور التام، قال: ما أعطي إلا بسم الله في الكلام ومثل حبة في الطعام، ولما بلغ ذلك صاحب الترجمة سجد لله شكراً، وقال: تكفيني هذه الشهادة فخراً

وقدراً، ثم ارتحل من عينات إلى تريم، لزيارة شيخه السيد المذكور العظيم، فلما اجتمع بشيخه المذكور، قال له ما سبب هذا الظهور؟، فقال: جاني فلان وفلان وعدد جماعة من السادة بني علوي، ومعهم الشيخ عبد القادر الجيلاني، وأمروني بذلك، فإن رأيتم أن تمنعوا هذا عني فإنما هو بالكره مني، فسكت الشيخ أحمد ساعة طويلة، ثم كلمه بكلام غريب لم يفهمه الحاضرون، ووعظه بكلمات ووصاه بوصيات، وأمره بالرجوع إلى عينات.. ثم قال في آخر ترجمته بعد أن ذكر شيئاً من كراماته: وكراماته كثيرة، ومناقبه شهيرة، وقد أفردها بالتأليف الشيخ محمد بن سراج الدين، سماه (بلوغ الظفر والمغانم في مناقب أبي بكر بن سالم)، وذكرت ترجمته بأطول مما هنا في (الضياء الباهر). انتهى من مواضع من المشرع، و(الضياء الباهر) لصاحب المشرع هو ذيل (النور السافر في أخبار أهل القرن العاشر) للشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس.

والشيخ أحمد بن علوي باجحدب هذا شيخ الشيخ أبي بكر من أكابر الشيوخ العارفين، ترجم له في المشرع وفي شرح العينية وغيرهما، قال فيه ـ أي في شرح العينة ـ: إن ممن أخذ عنه وأثنى عليه السيد العارف بالله تعالى الشيخ الإمام أحمد ابن الحسين بن الشيخ عبد الله العيدروس، ومن كلامه فيه: أتوسل إلى الله بالسيد الحشيم، ذي الخلق العظيم والحال الجسيم، شهاب الدين أحمد بن علوي، المخصوص بكل مقام علوي، منبع المصطفى، القائم بحقوق الوفاء، في الطريق والتحقيق، والورع والزهد الدقيق، من أكمل العُقَلا، طالب الدرجات العلا، نفعنا الله به آمين، وأفاض علينا من مواهبه، قليل في وقتنا أمثاله، ولم يرزق أحد حاله.. إلى آخر ما أطال به وهو أهله، وسمعت شيخنا الإمام العارف بالله تعالى عبد الله بن علوي الحداد يقول: ممن نال الصديقيّة الكبرى من سادتنا آل باعلوي السيد أحمد باجحدب، ونقل عن الشيخ الولي عبد الرحمٰن بن عمر العمودي أنه قال في السيد أحمد بن علوي المذكور: هو ممِّن يعد في حكم رجال الرسالة، لشدة ورعه وتقشفه واستقامة طريقته.. ذكر ذلك في (النور السّافر)، وكان انتقاله إلى رحمة الله تعالى يوم الثلاثاء لعشر خلت من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة بتريم، ودفن بمقبرة بشار.. إلى آخر ما ذكره في (شرح العينية)، قال في آخره: وبالجملة فيتعسر ويتعذر تدوين أحواله ومناقبه وكراماته رضي الله عنه.

وأيضاً الشيخ الكبير الفقيه عمر بن عبد الله بامخرمة من أكابر الشيوخ العارفين، ومن مشايخ سيدنا الشيخ أبي بكر بن سالم صاحب الترجمة، ترجم له في (السناء الباهر) وغيره فمما ذكره سيدنا وشيخنا العارف بالله تعالى عمر بن سقاف علوي، في كتابه (تفريح القلوب) في القسم الثالث منه عند ذكر ديوانه.

قال نفع الله به: هو الشيخ الإمام العالم الرباني الفقيه الصوفي، عمر بن عبدالله بن أحمد بن إبراهيم بامخرمة الحميري الشيباني الهجراني، قال شليه في (السنا): شيخ التصوف وحامل لوائه، والبدر المشرق في سمائه، ناظم ما ينثر من المآثر، فذلكة كمال الأوائل والأواخر، اشتغل بالعلوم الشرعيّة والفنون الأدبية، وأخذ ذلك عن والده والشيخ محمد بن علوي باجرفيل، ومحيي النفوس أبي بكر العيدروس، وصحب في الطريق شيوخاً، إلى أن رسخ فيها قدمه رسوخاً، وحج بيت الله الحرام، وزار محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام، وأخذ بالحرمين عن جماعة كثيرين، وأنشأ وهو بالمدينة قصيدة مدح بها النبي ﷺ مطلعها:

قف بالمطي ضحىً على الأطلال وأنـخ بظـل نخيلهـا والظـال

ورأى النبي ﷺ بطيبة في بعض الليالي فأصبح وجهه بالنور متلألي، ورائحة ثوبه وبدنه تفوق رائحة المسك الغالي، وأخذ عن جماعة باليمن، بمدينة زبيد وببندر عدن، وكان كثير المطالعة للرسالة القشيرية، ثم اشتغل عنها بديوان سيدي عمر ابن الفارض، فرأى الإمام عبد الكريم القشيري صاحب الرسالة بين النوم واليقظة يعاتبه، ويقول له: السر في هذا الكتاب، وسر هذا الكتاب في هذا السّطر، وإذا فيه: وسئل بنان عن أجل أحوال الصوفيّة فقال: أربعة الثقة بالمضمون والقيام بالأوامر، ومراعاة السّر والتخلي عن الكونين، قال: فنهضت فإذا الكتاب بيدي والرجل عندي، وكانت تلك النسخة في خلوة في المسجد مقفلة، وأنا أروي هذا الكتاب بأسانيد عزيزة عن مشايخنا وأرويه عن مؤلفـه، ولما بلغه أن الشيخ عبدالرحمٰن باهرمز عند ورود الحال عليه يجتمع بالنساء فيغنين له، فقصده للإنكار عليه، ووقع له ما مر في ترجمة الشيخ عبد الرحمٰن، قال الفقيه عمر: وقفت بين يدي سيدي وشيخي عبد الرحمٰن باهرمز عشية الإثنين سنة ثلاث عشرة وتسعمائة،

وتحكمت له وألبسني وسمح على رأسي وصدري، وقال لي: حكمتك وأنا شيخك، فعليك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وأنا شيخك فيهما، وفي علوم لم يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل، فأنت نائب عني بل أنت أنا، فقلت: لقني شيئاً من الأذكار، فقال قل في كل صباح ومساء: سبحان الله وبحمده مائة، وفي كل مساء يا لطيف مائة مرة، يا حفيظ مائة مرة، ثم: يا كريم تكرم علينا بكرمك ثلاث مرات، ثم: يا لطيف لاطفنا بلطفك ثلاث مرات، يا حفيظ احفظنا بحفظك ثلاثاً. قلت: إني كثير التخليط، فقال: والله لو تلبس المعتب إن غيّر عليك عندنا، قلت: إن لي ورداً من آية الكرسي ثلاثمائة وثلاث عشرة، فقال: هذا كثير، قلت: هو سهل علي، قال: ابقَ عليه، وقرأ عليّ الآية الكريمة وعرفني كيفية قراءتها، ثم قال: اجعل على نفسك ورداً من قراءة القرآن العظيم غيباً أو نظراً، قلت: إن لي ورداً من الله لا إله إلا هو الحي القيوم ألف مرة كل يوم، فقال: ابقِ عليه، وإن زدت عليه هو خير لك. انتهى ما نقله سيدي عمر عن السنا، ونقل عن تاريخ ابن الطيب بافقيه فقال: قال في ترجمة الفقيه عمر المذكور ما ملخصه: مولده يوم الثلاثاء سنة أربع وثمانين وثمانمائة، ووفاته يوم السبت عشرين ذي القعدة سنة ثنتين وخمسين وتسعمائة بسيئون، وقبره مشهور يزار، ويقصد من سائر الأقطار.. إلى آخر ما ذكره عن (تاريخ ابن الطيب)، وذكر أيضاً عن كتاب (فتح الرؤوف في مناقب الشيخ معروف) في ذكر من زاره وأثنى عليه، قال: وكان الشيخ معروف يثني عليه ويقول: إن حاله أكبر من حال الشيخ عمر ابن الفارض. انتهى، رضي الله عن الجميع.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وأخــذ الفخــر عــن الشيبــانــي عمــر عظيــم المعــرفــة والشّــان

المراد بالفخر سيدنا الشيخ أبو بكر، والشيباني هو شيخه الإمام العارف الرباني العالم الصمداني، الشيخ الكبير ذي القدر الخطير، السيد الشجاع المنير، عمر بن محمد بن أحمد بن أبي بكر باشيبان بن محمد أسد الله بن حسن بن علي ابن الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي رضي الله عنهم، ذكره

وترجم له غير واحد ممن حقق في التواريخ، وبرع منهم الإمام محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي صاحب المشرع، فقال مرتجلاً في ترجمته حين شرع السيد العظيم الألمعي الكريم: ولد بمدينة قسم سنة إحدى وثمانين وثمانمائة، ثم رحل إلى مدينة تريم، وأخذ بها عن ذوي الفضل العظيم، فأخذ عن الإمام العلامة محمد بن عبدالرحمٰن بافقيه العلوم الشرعية، وجملة من الفنون الأدبية وعلوم العربية، وعن العلامة الفقيه عبد الله بن عبد الرحمٰن بلحاج، وحفظ عليه الإرشاد والوردية في النحو، وعرضهما عليه، ورحل إلى الشيخ العارف بالله معروف بن عبد الله باجمال، فأخذ عنه وألبسه خرقة التصوف، وأخذ التصوف والحقائق عن الشيخ عبد الرحمٰن بن علي، وحكمه وألبسه الخرقة الشريفة، وأجازه غير واحد في التدريس، والإقراء في كل علم نفيس، وانتفع به كثيرون، وله نثر كثير ونظم قليل، ومن تصانيفه كتاب (ترياق القلوب الواف، بذكر حكايات السادة الأشراف)، وحكي أن الشيخ العلامة علي بن علي بايزيد الدوعني المقبور بالشحر صاحب النكت على الإرشاد والفتاوى، رحل إلى حضرموت لزيارة من فيها من السادة ليأخذ عنهم الطريق، ولما اجتمع بصاحب الترجمة عرف له قدره، وأثنى كل واحد منهما على صاحبه، ثم عزم الفقيه علي بايزيد على زيارة قبر النبي هود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فلما وادع السيد عمر باشيبان قال له: إنك ستجد عند القبر رجلاً من أهل الكشف يقال له: محمد بن سليمان باشيبان، يتكلم بكلام يزعم أن له منامات وهو من طريق الكشف، فالزمه والتمس بركته، وعنده ولدان من أولاد الأشراف، أحدهما عقيل بن عبد الله والثاني عبد الودود، وإنك ستصل إلى بلدك بالسلامة، ولا بد من العود إلى هنا. قال الفقيه علي: فوجدت الأمر كما ذكر، ورجعت إلى بلدي، ثم عدت إلى حضرموت بعد ثلاثين سنة، توفي السيد عمر المذكور سنة أربع وأربعين وتسعمائة بمدينة قسم ودفن بها، رحمه الله تعالى ونفع به. انتهى ملخصاً من المشرع.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وكـان أخـذه عـن وجيـه الـديـن ذي الكشـف والتحقيـق والتبييـن

المذكور هنا ممن أخذ عنه الشيخ عمر باشيبان، هـو الشيخ الإمام عين الأعيان وجيه الدين، أحد العلماء العاملين الراسخين والأئمة الهادين المهتدين، مفيد الطالبين ومرشد السالكين، عبد الرحمٰن بن الشيخ علي بن أبي بكر السكران بن الشيخ عبد الرحمن السّقاف رضي الله عنهم، ترجمه كثيرون، وذكره المؤرخون، منهم صاحب (المشرع الروي)، قال فيه: ولد بمدينة تريم سنة خمسة وثمانمائة، وحفظ القرآن العظيم على شيخه المعلم السيد محمد بن علي بن عبد الرحمن، وحفظ الكثير من الحاوي الصغير في الفقه والوردية في النحو، وأكثر ديوان الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي وغيرها، وعرض محفوظاته على مشايخه، وأكثر من طلب العلم، وأخذ عن والده الشيخ علي، وعمه الشيخ عبد الله العيدروس، وعمه الشيخ أحمد، والإمام الشيخ سعد بن علي بامدحج، والشيخ الشهير الفقيه عبد الله ابن عبد الرحمٰن بلحاج بافضل، ثم رحل إلى اليمن، وقصد بندر عدن، وأخذ عن الإمامين المشهورين العلامة عبد الله بن أحمد بامخرمة، والعلامة محمد بن أحمد بافضل، وقرأ عليهما عدة علوم، وسمع منهما الكثير حتى كاد أن يستوعب جميع مسموعهما، وأجازه كل منهما إجازة عامة بجميع مروياته ومؤلفاته، وأقام بعدن أربع سنين، ورحل إلى مدينة زبيد، إلى الإمامين الجليلين، الحافظ يحيى العامري صاحب (بهجة المحافل)، وصفي الدين أحمد بن عمر المزجد،وأخذ عنهما عدة فنون، وأجازه كل منهما، وأخذ عن الشيخ المحدث فضل الدوسري وغيرهم، وكان معه ابن عمه الشيخ أبو بكر بن عبد الله العيدروس، والتمسا من الحافظ يحيى العامري أن يريهما موضع أصابع النبي ﷺ، فكشف لهما عنه ورأيا نوراً يتلألأ، ثم توجه صاحب الترجمة لحج بيت الله الحرام، فحج حجة الإسلام، وذلك سنة ثمانين وثمانمائة، وأخذ بمكة عن الحافظ السخاوي، وأجازه بجميع مروياته، ومؤلفاته، ولم تتيسر له زيارة جده ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمانع من جهة ابن عمه الشيخ أبي بكر بن عبد الله العيدروس، إذ كان مريضاً فطلب منه أن يسافر معه إلى حضرموت، فامتنع صاحب الترجمة وقال: أريد أن اغتنم الفرصة، فقال الشيخ أبوبكر: ما أصدك عن الزيارة، ثم طلب الجَمَّالة وقال: من سار بابن عمي لا بد أن يصاب، فامتنعوا من السّفر معه، فتشوش صاحب الترجمة من ذلك

جداً، ثم دخل للطواف فرأى رجلاً على صورة والده ـ وكان والده إذ ذاك بتريم ـ فقال له: وهو متفكر في حالته: اعتراضك على القدرة أعظم من تركك الزيارة، فسكن ما عنده، ثم رأى النبي ﷺ في المنام وهو راكب في السفينة، وقد أمسك ﷺ برأسه وبشَّ في وجهه، وقال له تعبت من عدم زيارتنا، ستزورنا على أحسن حال، ونحن عنك راضون وقد قبلناك، مع كلام لطيف وتحنن شريف، وفرح فرحاً شديداً، ولما عاد إلى تريم لازم والده الشيخ علي ملازمة شديدة حتى قرأ عليه جميع مؤلفاته، وقرأ عليه الإحياء، وعدة قراءته الإحياء على والده أولاً وآخراً أربعون مرة، وأجازه هو وغيره في الإفتاء والتدريس والتحكيم والإلباس، وبرع في العلوم الشرعيّة والفنون الأدبية وعلوم الصوفية، وشارك في علوم العربية، ثم سافر ثانياً لحج بيت الله الحرام وزيارة جده ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ سنة ست وثمانين وثمانمائة،ودخل بندر عدن ومدينة زبيد، وكلما دخل بلداً حصل له من أهلها غاية الإكرام والإقبال والاحترام، ولما قضى مناسك الحج قصد زيارة جده عليه الصلاة والسلام، وأعطى الأولاد الذين يبشرون الواصلين إلى المدينة على العادة جميع ما معه، وكان عشرين درهماً، وحصل له بزيارة الرسول ما يبهر العقول، وأخذ بطيبة عن العلامة المحقق علي بن محمد السمهودي، ثم عاد إلى بلدة تريم، وقابله أهلها بالتبجيل والتعظيم، ثم نصب نفسه إماماً لنفع المسلمين وتدريس العلوم النافعة، حكي أن الإحياء قرىء عليه أربعون مرة، كما قرأه هو على والده الشيخ علي كذلك، وكان كثير المجاهدات، يخرج هو وابن عمه أبو بكر بن عبد الله إلى شعب النعير بعد مضي نصف الليل الأول، فينفرد كل واحد في جانب يقرأ ثلث القرآن في الصلاة، ثم يرجعان إلى البلد قبل الفجر، وكانا فرسي رهان ورضيعي لبان، وكان بينهما محبة شديدة ومودة أكيدة، من زمن الصغر إلى زمن الكبر، ولم يفترقا في حضر ولا سفر مدة ثمانية وثلاثين سنة، ثم افترقا بالأبدان، وبينهما مراسلات ومكاتبات، ولكل واحد منهما في صاحبه عدة قصائد مذكورات في ديوانهما، وأخذ كل واحد منهما عن الآخر وأخذ، عن صاحب الترجمة خلق كثير من العارفين، منهم ولده أحمد شهاب الدين، ومحمد بن علي خرد صاحب الغرر، والسيد القطب الشيخ عمر باشيبان، والشيخ الإمام صاحب

المقامات والأحوال معروف باجمال، والشيخ الفقيه عبد الله بن محمد باقشير مصنف القلائد، والفقيه فضل بن عبد الله، وأحمد بن عبد الله آل بافضل، وله اليد الطولى في الحقائق، مراعياً لخلاف العلماء في أعماله، كان يغتسل لكل فرض، كثير الصلاة والصيام والقيام، يحب الفقراء والمساكين، معتقداً للصالحين، جواداً ورعاً، كثير الصمت والجوع والسهر، يحب العزلة ويؤثر الخمول، وكان لصاحب الترجمة كرامات، منها ما قاله السيد محمد بن علي صاحب الغرر: رأيت في المنام رب العزة جل وعلا، وهو يصف شيخنا عبد الرحمٰن ابن الشيخ علي بأوصاف، فلما أصبحت غدوت إليه وقلت في نفسي إن كان من أهل الكشف أخبرني بما رأيت قبل أن أخبره، فلما وصلت داره فإذا هو خارج الباب يتلقاني، وأخبرني بما رأيت قبل أن أخبره، ومنها أنه كان يقول: إذا غلطت عند قبر الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم في آية من القرآن أو ذهلت عنها، أسمعه يردني إلى الصواب، وكذلك اسمع والدي يقول لي من قبره: قم من الشمس، ومنها أنه أراد أن يلقن بعض أصحابه بعد دفنه، وجلس عند رأس القبر، وقام ولم يلقنه، فسُئل عن ذلك فقال: رأيت عمي عبد الله العيدروس عنده، وقال لي: ما يحتاج إلى تلقين، انتقل إلى رحمة الله عز وجل في محرم الحرام سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، ودفن بجنان بشار، ورثاه جماعة من تلاميذه، رضي الله عنه. . هذا بعض ما في المشرع، ومجاهداته كثيرة، وأحواله ومقاماته مشهورة.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

بحـق أخـذه عـن الشيـخ علـي العالم النحرير ذي القدر العلي

المذكور بهذا البيت صاحب الأحوال العظيمة والهيئات الجليلة الجسيمة، القطب الجامع والغيث الهامع والضياء اللامع، ذو القدر العلي والنور السني والسر الجلي، سيدنا الشيخ علي بن أبي بكر بن الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف نفع الله بهم، ولما رفع سيدنا الناظم هذا السند إلى سيدنا الشيخ علي بن أبي بكر المذكور بهذا البيت، انعطف وانثنى إلى الاستظهار برواية إسناد آخر علوي عن سيدنا الشيخ محمد بن علوي السّقاف العلوي شيخ سيدنا الأستاذ الشيخ عبد الله

الحداد، كما حققه ـ نفع الله به ـ في (مسائل الصوفيّة)، وهو أن سيدنا محمد بن علوي أخذ عن الشيخ عبد الله بن علي صاحب الوهط، والشيخ عبد الله بن علي له روايتان في هذا الإسناد، وهو أنه أخذ عن الشيخين الجليلين المحققين العارفين: السيد شيخ بن عبد الله العيدروس صاحب (العقد النبوي)، والسيد عمر بن عبد الله العيدروس المدفون بعدن، فأما السيد شيخ فلبس من والده السيد الشيخ عبد الله ابن شيخ، وأخذ السيد عبد الله عن عمه الشيخ القطب الشهير أبي بكر بن الشيخ الأستاذ عبد الله بن أبي بكر العيدروس، وأما السيد عمر فأخذ عن والده السيد عبدالله، وأخذ السيد عبد الله عن والده السيد علوي بن الشيخ عبد الله العيدروس، وأخذ السيد علوي عن أخيه السيد الشيخ القطب أبي بكر بن عبد الله العيدروس صاحب عدن، فاجتمع إسناد السيد شيخ والسيد عمر المذكورين إلى الشيخ أبي بكر العيدروس العدني، والشيخ أبو بكر أخذ عن والده الشيخ القطب الشهير عبدالله بن أبي بكر العيدروس، ومن عمه الشيخ القطب علي بن أبي بكر المذكور بهذا البيت السابق، وسيأتي ذلك في آخر هذه الرواية في قول سيدنا وشيخنا الناظم نفع الله به.

عـن الإمـام العيـدروس القـدوة وصنـــوه علـــى ذي الفتـــوة

ولنؤخر ترجمة الشيخ علي عند ذكره في هذا البيت مع أخيه الشيخ عبدالله العيدروس نفع الله بهما:

وهذا الإسناد المشار إليه برواية المذكور، في قول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله سره:

ح لجمال الدين شيخ الرهط أخذ عن العفيف مولى الوهط

أما قوله نفع الله به: (ح) فهو حرف من حروف الهجاء، اصطلح أئمة الحديث على رسمها في رسمها خطاً عند تحويل الإسناد هكذا، واختلفوا في معناها وفي النطق بها، قال الإمام المحدث الجامع الشيخ حسين بن عبد الله الطيبي في حاشيته على مشكاة الحديث في شرح المقدمة ما نصه: وإذا كان للحديث إسنادان أو أكثر، كتبوا عند الانتقال من إسناد إلى إسناد مسمى حاء مفردة مهملة،

قال ابن الصّلاح: لم يسمع ممن يعتمد عليه بيان أمرها، ووجدت بخط جماعة من الحفاظ بدلاً عنها (صح) صريحة، فيكون ح رمزاً من صح، لئلا يتوهم أن حديث هذا الإسناد سقط، ولئلا يركب الإسناد الثاني على الإسناد الأول فيجعلا إسناداً واحداً، وعن بعض الأصفهانيين: أنها من التحول من إسناد إلى إسناد، وقيل: من (حائل) أي يحول بين الإسنادين، ليست من الحديث، فلا يلفظ بشيء عند الانتهاء إليها في القراءة للحديث، وقال بعض البغداديين: من العلماء من يقول إذا انتهى إليه في القراءة (حا مقصورة) ويمر، هذا هو المختار الأحوط الأعدل. انتهى. ولذا مشى عليه سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله سره، لأنه لا يستقيم البيت إلا بالنطق بها هكذا مفردة مقصورة، وأما قوله نفع الله به: (لجمال الدين شيخ الرهط) المراد به الشيخ محمد بن علوي السقاف باعلوي نزيل مكة، كما سبق بيانه قريباً، وقد تقدمت ترجمته، والرهط العشيرة نسباً، والمراد به هنا ما هو أعم من ذلك، وأما قوله: (أخذ عن العفيف مولى الوهط) فهو السيد الإمام غوث الأنام، وارث علوم سيد الأنام، القطب الشهير، معدن الحقائق ولسان ترجمان الطرائق، الشيخ عبد الله بن علي صاحب الوهط بن حسن بن الشيخ علي بن أبي بكر بن الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف رضي الله تعالى عنهم، ترجم له في (المشرع الروي)، وأبان عن معنى شرفه العلي، وذكره غيره، وترجم له سيدنا الإمام الحبيب أحمد بن زين الحبشي في (شرح العينية) عند قول الناظم سيدنا الشيخ عبد الله نفع الله بهما: وكصاحب الوهط الملاذ المفزع قال قدس الله سره: ولد ـ رضي الله عنه ـ بتريم، وحفظ القرآن العظيم، وأخذ العلم والطريقة، عن مشايخ أجلّة، منهم السيد الإمام شهاب الدين، والسيد الجليل عبد الله بن سالم خيله، والشيخ الكبير زين الدين بن حسين بافضل، ثم رحل إلى بندر الشحر، وتفقه بها على الفقيه المحقق العلامة علي بن علي بايزيد، ودخل إقليم السواحل واجتمع بعلمائه وأخذ عنهم، ورحل إلى الديار الهندية، وقصد الشيخ الإمام شيخ بن عبد الله العيدروس صاحب أباد، فأخذ عنه ولازمه جداً وقرأ عليه بعض مؤلفاته، وألبسه الخرقة الصوفية، ثم أمره بالرحلة إلى السيد الإمام الكبير عمر بن عبد الله بن علوي بن الشيخ عبد الله العيدروس صاحب عدن، وكان كبير الشأن، لا تحصى مقروآته ومشايخه وفضائله،

ترجمه العلامة المحقق سالم باصهي الشبامي، وأفرده بمصنف جليل، فأخذ عنه صاحب الترجمة ولازمه، وأخذ عنه عدة فنون، وألبسه الخرقة الصوفيّة، وحكمه التحكيم الشريف، توطن قرية الوهط اليمنيَّة، وانتفع به الخاص والعام، وانتهت إليه تربية المريدين، وتخرج به جماعة من الأولياء والصّالحين، منهم السيد الجليل إمام الحرمين محمد بن علوي السّقاف، شيخ سيدنا الإمام الفرد الجامع عبد الله بن علوي الحداد، وغيره من أهل اليمن والشام وحضرموت، وكان له ديوان شعر، أعجزت فصاحته البلغاء، وكانت له كرامات خارقة، ومن كلامه: صاح شاووش الأولياء بأخذ العهد عليهم أن يستروا ما عندهم بعد الأربعين والألف، عليكم بالاستقامة فإنها أعظم كرامة، وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وألف، وقبره ببلدة الوهط مشهور مقصود بالزيارات، معروف بقضاء الحاجات ونيل الطلبات، وعليه قبة عظيمة عملها محمد باشا. انتهى من (شرح العينيّة) مع حذف يسير.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عن نجل عبد الله شيخ أحمد أباد   مؤلف العقد إمام أهل الرشاد

وقد أخذ الشيخ عبد الله بن علي صاحب الوهط عن المذكور في هذا البيت، إمام الإرشاد وسيد السادات الأمجاد، وأحد الأولياء الأفراد والعارفين الأوتاد، صاحب أحمد أباد السيد شيخ بن عبد الله بن شيخ بن الشيخ بن الشيخ الكبير عبد الله العيدروس باعلوي نفع الله بهم، ترجم له وذكره كثير من العلماء والمؤرخين، منهم صاحب المشرع، وشارح العينيّة سيدنا الحبيب احمد بن زين، وترجم لنفسه في آخر كتابه (العقد النبوي في مناقب أهل البيت المصطفوي)، ولد ـ رضي الله عنه ـ بمدينة تريم وحفظ القرآن العظيم، واشتغل بتحصيل العلوم على والده فأخذ عنه علوماً كثيرة، وألبسه الخرقة الشريفة، وكان مولده سنة تسع عشرة وتسعمائة، وأخذ عن الإمام شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمٰن بن الشيخ علي، والشيخ عبدالله بن محمد باقشير صاحب القلائد، ثم رحل إلى اليمن، ودخل بندر عدن، وأخذ بها عن الشيخ محمد بن عمر باقضام وغيره، ثم رحل إلى الحجاز وحج حجة الإسلام، وكانت حجة الجمعة سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة، وكان مع والده،

واجتمع بشيخ الإسلام أبي الحسن البكري، وكان معه ولده تاج العارفين، وطلب كل منهما من صاحبه الدعاء لولده، وأخذ ولد كل منهما عن أب الآخر، ثم رحل مع والده الإمام لزيارة جده عليه الصّلاة والسلام، فلما دخلا الحجرة الشريفة حصل على صاحب الترجمة حال عظيم، غيبه عن إحساسه وخر مغشياً عليه، فاستغاث والده بصاحب الحضرة الشريفة فأفاق من تلك الحال، وحصل له مالا يخطر على بال، ثم عاد إلى وطنهما تريم، ثم حج ثانياً وحده في حياة والده سنة إحدى وأربعين، وكانت حجة الجمعة أيضاً، وجاور بمكة ثلاث سنين مجداً في طلب العلم ملازماً العبادة. وأخذ عن شيخ الإسلام أحمد بن حجر الهيتمي، والعلامة عبد الله بن أحمد الفاكهي، وأخيه عبد القادر الفاكهي، والعلامة عبدالرؤوف بن يحيى، والعلامة محمد الخطاب المالكي، لازم هؤلاء المذكورين حتى برع في الأصلين والتفسير والحديث والفقه، والعربية والتصريف والفرائض والحساب، وكان كثير المجاهدة، وحكي من مجاهداته أنه كان يعتمر في رمضان أربع عمر بالليل وأربع عمر بالنهار غالباً. قال العلامة بن عبد الله السندي: وتيسير ذلك من الكرامات الخارقة، إذ لم ينقل مثله عن أحد، وكان في مدة إقامته بمكة يزور النبي ﷺ، وطلب منه شيخه ابن حجر أن يبلغ سلامه النبي ﷺ، وأن يدعو له عند القبر الشريف بدعوات منها أن يعافيه الله من البواسير والقبول في كتبه، فاستجاب الله دعاه، ثم رحل صاحب الترجمة إلى زبيد فأخذ بها عن العلامة الحافظ عبد الرحمٰن الديبع، وأخذ بالشحر عن الشيخ الكبير أحمد بن عبد الله بافضل الشهيد، وأجازه أكثر مشايخه المذكورين إجازة تامة في جميع كتبهم ومروياتهم، ولبس الخرقة الشريفة من كثيرين، وأذن له جماعة في التحكيم والإلباس، وأقام بمدينة تريم نحو ثلاث عشرة سنة، ثم رحل إلى الديار الهنديّة سنة ثمان وخمسين وتسعمائة، وحظي عند الوزير الأعظم عماد الملك بأحمد أباد، وانقادت له الأمور على المراد، وعكف عليه الحاضر والباد، وقصدته الناس من كل ناد، ورحلت إليه الطلبة من كل بلاد، ونصب نفسه للنفع والتدريس، فدرس في كل علم نفيس، وأخذ عنه خلائق لا يحصون، وتخرج به جمع كثيرون، منهم ولده الإمام العارف بالله تعالى عبد الله، والشيخ الجليل ولده عبد القادر بن شيخ،

وحفيده الإمام شيخ، والإمام محمد بن عبد الله، والسيد الجليل الولي عبد الله بن علي صاحب الوهط، والشيخ أحمد بن علي البكري، والأديب عبد الله بن أحمد بن فلاح، والشيخ أبو السعادات محمد بن أحمد الفاكهي، والشيخ حميد بن عبد الله السندي، وصنف كتباً مفيدة، ومؤلفات عديدة، منها كتاب (العقد النبوي والسر المصطفوي)، شرح قصيدته التي نظم فيها نسبه إلى النبي ﷺ مطلعها:

توسلي بمحمد خاتم الرسل وفاطمة وأمير المؤمنين علي

وله كتاب (الفوز والبشرى)، وشرح منظومته التي في العقائد المسماة: (تحفة المريد) شرحها شرحين، الكبير سماه: (حقائق التوحيد)، والصغير سماه: (سراج التوحيد)، وله مولدان مختصر ومطول، ومعراج عظيم، ورسالة في العدل، وورد سماه: (الحزب النفيس)، و(نفحات الحكم على لامية العجم) وهو على لسان التصوف، ولم يكمل، وله غير هذه المذكورة، وله ديوان شعر عظيم القدر، وأثنى عليه كثيرون من مشايخ عصره، منهم الشيخ شمس الشموس أبو بكر بن عبد الله العيدروس قبل وجوده، فإنه قال لوالده عبد الله: سيأتيك من الأولاد فلان وفلان، وذكرهم بأسمائهم، وعد من جملتهم صاحب الترجمة، وقال: إنه ولدي وصاحب سري، وقال الشيخ العارف بالله تعالى أبو بكر بن سالم، ما أعطي أحد مثله من آل باعلوي، وبالجملة فمناقبه كثيرة ومحاسنه شهيرة، وقد أفرد ترجمته غير واحد من العلماء بالتأليف، وذكره جماعة في الطبقات والتصانيف، فمِّمن أفرده بالتأليف: الأديب حميد بن عبد الله السندي، والشيخ الشهاب أحمد بن علي البكري، ألف فيه رسالة سماها (نزهة الإخوان والنفوس في مناقب شيخ بن عبد الله بن شيخ العيدروس)، وذكر ابنه عبد القادر كثيراً، منها في مقدمات كتاب (الفتوحات القدوسيّة في الخرقة العيدروسيّة) وغيرها، انتقل صاحب الترجمة إلى رحمة الله عزوجل ليلة السبت لخمس بقين من رمضان سنة تسعين وتسعمائة بأحمد أباد، ودفن في صحن داره، وعمل عليه فيه قبة عظيمة، وكان له من العمر إحدى وسبعون سنة، ومدة إقامته بالهند اثنتان وثلاثون سنة. هذا ملخص ما ذكره في المشرع الروي وفي العقد النبوي.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عن العفيف والده شمس الشموس عن الإمام الفخر محيي النفوس

فأما الفخر الشيخ القطب أبو بكر بن القطب عبد الله العيدروس، فستأتي ترجمته عند انتهاء هـذا السّند إليه، وأما الأول المذكور هنا فهو ابن أخيه، وحائز سره وسر أبيه، فهو إمام أهل زمانه، الفائق على نظرائه وأقرانه، المخلص لله تعالى في سره وإعلانه، الشيخ الكبير عديم النظير، عبد الله بن شيخ بن الشيخ القطب عبد الله بن أبي بكر العيدروس العلوي، ترجم له في المشرع الروي وفي غيره من الطبقات والتواريخ، ومنهم ولده شيخ بن عبد الله في كتابه (العقد النبوي)، قال رضي الله عنه: ولد بمدينة تريم سنة سبع وثمانين وثمانمائة، بالنخل المسمى (نعيمة الله) تصغير نعمة بوادي دمون، ولما بشر به عمه الشيخ أبو بكر بن عبد الله العيدروس أعطى الذي بشره ثوباً، وخرج من تريم، وحنكه بتمر بيده المباركة، وستره بثوب من صوف، وعمل ذلك اليوم بالمحل المذكور سماعاً، حضر فيه جملة من المشايخ المشهورين، ونشأ صاحب الترجمة في حجر والده، وكان كثير التردد إلى عند عمه الشيخ أبي بكر، ولما بلغ في السن نحو أربع عشرة سنة أرسل الشيخ أبو بكر بن عبد الله العيدروس كتاباً إلى أخيه السيد شيخ يلتمس منه إرسال ولده عبد الله إلى عدن، وكان قد سافر إلى الحرمين الشريفين سنة ولد صاحب الترجمة وأقام بعدن، ومن جملة ما ذكره الشيخ أبو بكر لأخيه شيخ في أثناء الرسالة: أريد أن يكون نظري عليه، فامتثل أمره وأرسله إليه، فلما وصل إلى حضرته بثغر عدن فرح بوصوله، وأمر الولي الصّالح النجيب عبد الرزاق الخطيب، أن يعلمه القرآن في المدرسة المعروفة بـ (الجمعية) التي في جوار بيت سيدي الشيخ أبي بكر العيدروس، فقرأ القرآن على الخطيب المذكور، وكان يعرض على عمه الشيخ أبي بكر قراءته كل يوم في المصحف إلى أن ختم، وجلس عند عمه نحو سنتين، ثم طلبه والده من عمه وحث عليه في إرساله، فأرسله إلى تريم، وأقام عند والده نحو خمس سنين، ثم توجه إلى عمه وشيخه الشيخ أبي بكر إلى عدن، وأقام في خدمته نحو أربع سنين يربيه تربية المريدين، وكان وظيفته القيام بين يديه، ويروح عليه، وكان يلقنه علم الحقائق، ويعرفه سر الدقائق وعلم الطرائق، ومن جملة ما أوصاه به أن قال له: لا تلتفت إلى تلك الترهات، ولا تغبط أهل الوجاهات والرئاسات، والزم طريقة أهل اليقين، وقل: يا مالك يوم الدين، إياك

نعبد وإياك نستعين، والبسه الخرقة الشريفة مراراً، وأذن له في إلباسها لمن أراد، وأجازه إجازة مطلقة. هذا ملخص ما ذكره في العقد النبوي، قال: وكانت وفاته قبيل فجر يوم الأربعاء أربع عشر من شعبان سنة أربع وأربعين وتسعمائة، ودفن بتربة تريم ذات الأنوار، زنبل وبشار، بجنب قبر جده الشيخ أبي بكر السكران بن عبد الرحمٰن السّقاف، رضي الله عنهم ونفع بهم آمين.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ رافعاً للإسناد الثاني مما سبق تفصيله:

ح وأيضاً أخذ العفيف ذو الوهط من يرقى به الضعيف

يعني أن الشيخ عبد الله بن علي صاحب الوهط له إسناد وطريق آخر، يتصل بالفخر الشيخ القطب أبي بكر العدني بواسطة الشيخ عمر بن عبد الله العيدروس صاحب عدن، المعني بقول سيدنا الناظم نفع الله به:

عن الشجاع العيدروس من سكن بعَدن عن العفيف المؤتمن

اشتمل هذا البيت بذكر إمامين عمر بن عبد الله العيدروس المذكور آنفاً، ووالده الشيخ عبد الله بن علوي بن الشيخ القطب عبد الله العيدروس نفع الله به.

فأما الإمام الأول منهما فترجم له في (المشرع الروي)، ووصفه بأوصاف تنتشي عند سردها الأشراف، وتهتز لسماعها الأعطاف، وقال: إنه ولد ببندر عدن المشهور، ونشأ بها مشتغلاً بطلب العلوم الشرعيّة والفنون الأدبيّة، ومشايخه كثيرون، وإنه لبس الخرقة من كثيرين، وَحَكَّمَه جماعة من العارفين، وأذنوا له في التحكيم والإلباس على العموم، فأعرض عن جميع الرسوم، وكان السيد الجليل المعروف بـ (صائم الدهر) القديمي الحسيني القائل: «من رآني دخل الجنة»، يعظم صاحب الترجمة، ويشير إلى أنه بركة ذلك القطر، وأثنى عليه جماعة من الأخيار من علماء الأمصار، وقد أشار إليه الشيخ أبو بكر بن عبد الله العيدروس بقوله: (بدر السّعادة قد بدا طلوعه)، ونقل عن بعض العارفين أنه قال: إذا شاب شعر ذراعيه بلغ رتبة القطبيّة، وله كرامات عديدة وأحوال سديدة وأوصاف حميدة: هذا بعض ما ذكره من أحواله في المشرع، وقال: إن انتقاله إلى دار السّلام سنة

ألف من هجرته عليه أفضل الصّلاة والسلام، ودفن في قبة جده الشيخ أبي بكر بعدن ملاصقاً لقبره من الجانب الشرقي، رحمه الله ونفع به.

وأما الإمام الثاني فهو والد صاحب الترجمة المذكور قبله، المنقول إليه فضله، بالوراثة الخاصة والعامة، والتبعيّة المستلحقة اللازمة، وهو السيد العارف بالله تعالى الشيخ عبد الله بن علوي بن القطب الشيخ عبد الله العيدروس، وهو الذي زوجه عمه القطب أبو بكر العيدروس بنته مزنة، وكان عقبه القائمون بمشهده بعدن منها أولاد السيد عبد الله المذكور، لأن عقبه من جهة البنين انقطع بموت ولده الإمام أحمد، وكان أول القائمين بذلك من أولاد صاحب الترجمة السيد الشيخ محمد، ثم السيد القطب عمر بن عبد الله السابق ذكره، توفي السيد عبد الله بن علوي المذكور بتريم سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة، ودفن في قبر والده الشيخ علوي في عكف قبة جده الشيخ عبد الله العيدروس، نفع الله بهم.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عن علوي أبيه عن أخيه القطب أبي بكر بلا تمويه

يعني أن السيد الإمام الشيخ عبد الله بن علوي أخذ عن أبيه الإمام علوي بن القطب الشيخ عبد الله العيدروس نفع الله بهم، كما أشار إلى ذلك سيدنا وشيخنا الناظم بقوله: (عن علوي أبيه)، ذكر في (العقد النبوي) أن سيدنا القطب عبد الله العيدروس ـ نفع الله به ـ له أربعة أولاد: علوي هذا، وحسين وشيخ والشيخ القطب أبو بكر العدني، وترجم لهم كلهم إلا علوي المذكور، وذكره أيضاً في (السلسلة العيدروسيّة)، وقال: إن أمه من آل باحجر من غيل ابن يمين، وتوفي سنة خمس وأربعين وثمانمائة متردياً من جبل، ولم يكن له من الولد إلا ابنه السيد الجليل عبد الله بن علوي، زوج الولية الشريفة مزنة بنت الشيخ أبي بكر العيدروس كما مر.

وأما قول سيدنا الناظم نفع الله به (عن أخيه القطب. .) البيت إلى آخره، فهو الإمام الكبير القطب الشهير، الذي طبق صيته الآفاق، واشتهر في ملا السّبع الطباق، وانتهت إليه رئاسة علوم الحقائق والطرائق، وكشف عن خفايا معانيها

بنور بصيرته الفائق، القائل لما بلغ إلى عالم اللاهوت، وغاب عن عالم الملكوت والجبروت شعراً:

شـربـت كـأسـاً مـن المعـانـي عـاينـت منهـا بـلا عيـانـي
فهمـت منهـا العلـوم شتـى وهمـت فـي حـب مـن سقـانـي
ومـت فيهـا وعـدت حيـاً وكـل حـي سـواه فـانـي

إلى آخره، وسيأتي بعض إشارة إلى ما أومى إليه فيها من المعاني والحقائق والأسرار والدقائق، فهو قطب المقامات والأحوال، والإنسان الذي وقفت بأعيانه الأوتاد والأفراد والنقباء والأبدال، شمس الشموس، فخر الدين أبو بكر بن عبد الله العيدروس، بن أبي بكر السكران بن الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف باعلوي نفع الله بهم آمين، ذكره المؤرخون وترجمه أهل الطبقات، وأفردت مناقبه وأحواله في مصنفات، فممَّن أفرده بالتأليف الإمام البحر الحبر الذي راق ورق، الشيخ الكبير جمال الإسلام الشهير محمد بن عمر بحرق الحضرمي ـ نفع الله به ـ وغيره، وأما من ذكره من أهل الطبقات والتواريخ، فصاحب المشرع والغرر والنور السافر، والسلسلة العيدروسيّة والعقد النبوي والعينيّة وغيرها، قالوا نفع الله بهم: ولد ـ قدس الله روحه ـ في سنة إحدى وخمسين وثمانمائة، ومات والده وعمره أربع عشرة سنة، وكان ذو النور المتأجج، الشيخ سعد بن علي بامدحج المعروف بالسويني، يثني عليه ويبالغ في تعظيمه ويشهره في صغره، وكذلك والده الشيخ عبد الله وعمه الشيخ علي وغيرهم. من سادتنا، يثنون عليه في حال صغره، ويشيرون إلى ما بلغ إليه من الكمال حال كبره، ومن أجلهم بعد أولئك الثلاثة، الفقيه الإمام محمد بن أحمد بافضل، والسيد الولي العارف بالله تعالى حسين الأهدل، والشيخ الولي عبد الرحمن بن عمر باهرمز، وتلميذه الفقيه الصوفي عمر بامخرمة، والشيخ أبو بكر باصهي، والشيخ عبد الصمد بن عبد الحق الجرداني وغيرهم، أمه الشريفة الولية عائشة بنت القطب الشيخ عمر المحضار، وتعلم القرآن على السيد الشريف الشيخ محمد بن علي بن عبد الرحمٰن بن علوي باجحدب باعلوي، وعلى العبد الصالح سالم بالنميري، وختمه على الشريف

المذكور، ونشأ في حجر أبيه وعمه الشيخ علي وتاج العارفين سعد بامدحج، وقرأ على الشيخ الإمام الولي عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفقيه أبي بكر بلحاج بافضل أكثر (التنبيه) و (المنهاج)، وكتاب (الطراز) مراراً، وعلى الفقيه الإمام الشيخ محمد بن أحمد بافضل كتباً كثيرة، وأجازه بإجازات متعددة، ذكرها في كتابه: (الجزء اللطيف في التحكيم الشريف)، وأخذ أيضاً عن الإمام يحيى بن أبي بكر العامري صاحب البهجة، ولبس منه الخرقة، وكتب له إجازة، وطلب منه أن يريه موضع الأصابع النبويّة من ظهره، فكشف له فرآه، لأنه رأى النبي ﷺ مسح على ظهره واستيقظ وأثر الأصابع ظاهرة في ظهره، وبقي كذلك مدة حياته، واشتهر ذلك في جهة اليمن، وكان سنه سن الفقيه عبد الله بن عبد الرحمٰن بافضل، وذكر السيد خرد في الغرر، عن ولد الفقيه عبد الله بلحاج المذكور، أن أباه قرأ على الشيخ أبي بكر صاحب الترجمة في ربع العبادات من (التنبيه) وغيره تبركاً، وقرأ الشيخ أبو بكر أيضاً على عمه الشيخ علي بن أبي بكر كتاب (الإحياء) و(العوارف) و(رسالة القشيري) وغيرها، وقرأ على والده الشيخ عبد الله (بداية الهداية)، وكان يحب بداية الهداية ومنهاج العابدين ومنهاج الطالبين، والخلاصة وعمدة ابن النقيب، ويأمر الطلبة بقراءة هذه الكتب والاعتناء بها، وكان مشغوفاً بكتاب الإحياء قراءة وسماعاً ومطالعة وتحصيلاً، والتزم بطريق النذر مطالعة شيء منه كل يوم، وحصّل منه عدة نسخ، وأراد أن يشتغل بكتب محيي الدين ابن العربي، فرأى والده ومعه جزءاً من (الفتوحات) بيده فزجره والده، فهجرها من يومئذ. وكان أبوه الشيخ عبد الله يحترمه حتى حال تعلمه، ويأمر باحترامه، وأدخله الخلوة ثم أمر بإخراجه بعد سبعة أيام، وقال: إنه لا يحتاج إلى رياضة بحمد الله، وقال فيه بعدما كبر الله ثلاثاً: بشرت بولد من أهل الولاية والعناية والمكارم. وأخبر الفقيه الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمٰن بافضل أخو الفقيه عبد الله بلحاج، أنه سمع الشيخ عبد الله العيدروس يقول: إن الله بشرني بولد اسمه أبو بكر يحوز جميع ما في هذا المرطبان، وضرب بيده على بطنه، ويحوز سر جده عمر وأبي بكر وجده عبدالرحمٰن ـ يعني المحضار والسكران والسقاف ـ وجميع الأولياء، فولد له بعد ذلك الشيخ أبو بكر المذكور، وقبل موت أبيه الشيخ عبد الله العيدروس بنحو أشهر أجلسه مجلس

المشيخة مكانه، وألبسه الخرقة الشريفة وحكمه، وأجازه في الإلباس والتحكيم والإقراء والتدريس، وذلك في شهر رجب سنة خمس وستين وثمانمائة،وكان يقول: أتوني بها مسرجة ملجمة، وكانت له الرياضات العظيمة، لم ينم عشرين سنة، وكان في صغره يخرج هو وابن عمه الشيخ عبد الرحمٰن بن علي إلى شعب النعير في تريم يتعبدان فيه، ينفرد كل منهما بقراءة عشرة أجزاء من القرآن في الصلاة ويرجعان قبل الفجر، وكان يحب العلم ويكرم أهله، وكان له الزهد الحقيقي والجود الطبيعي والعبادة القوية، وكان في الجود والكرم عين الأعيان وأعجوبة الزمان، كان يذبح لسماطه في رمضان كل يوم ثلاثين كبشاً، وكرمه يبهر العقول، وكان في غاية من التواضع، كان يقول: تقبيل يدي كلطم وجهي، وتقبيل رجلي كقلع عيني، بغضاً لعز الدنيا، وإلى ذلك أشار بقوله:

ليتنا ما عرفنا حد ولا حد عرفنا   ليتنا لم نكن أو ليتنا ما ولدنا

وكان كثير الخشية لله غزير الدمعة، وذكر الإمام العلامة محمد بن عمر بحرق في كتابه (مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس) عن شيخه العارف بالله تعالى محمد بن أحمد باجرفيل الدوعني، أنه قال: أشهد أن الشيخ أبا بكر أمير المؤمنين، المالك للحل والعزل والتولية والعقد، وأنه اليوم خير أهل الأرض ظاهراً وباطناً، وذكر الشيخ بحرق أيضاً في كتابه المذكور عن شيخه السيد الإمام الحسين ابن الصديق الأهدل اليمني المحدث، أنه قال: في الشيخ أبي بكر: لو أشرقت شمسه لأحرقت الوجود كله، وكان يشير إليه بالقطبيّة، ونقل الإمام بحرق المذكور عن الشيخ الإمام علي بن أبي بكر أنه قال: أشهد أنك القطب وابن القطب، وأنك سوف تسكن عدن وتموت بها، وذلك قبل أن يسكن عدن، وكان له الكرامات الخارقة، من إحياء الموتى والاطلاع على الخواطر، وإظهار المعدوم وإنقاذ الغرقى، وبالجملة فيعسر تدوين أحواله ومناقبه، قال: وقد استشكلت أشياء تصدر من سيدي ـ قدس الله روحه ـ تقصر عنها عقولنا القاصرة، وكنت أعرض ذلك على أرباب البصائر فما منهم أحد إلا ويأمرني بالتسليم، منها أني أعرضت ذلك على سيدي الفقيه العامل العالم محمد بن أحمد باجرفيل الدوعني تصرفات

مالية، يباشر سيدي قبضها ويصرفها في ظاهر الأمر في غير مصارفها، قال: فأجابني بما تقدم من قوله: أشهد أن الشيخ أبا بكر أمير المؤمنين.. إلى آخره، وأنه أفضل أهل الأرض ظاهراً وباطناً، قال: فقلت له: أما الباطن فبصائرنا عنه قاصرة، وأما الظاهر فما وجهه؟، قال: فوجهه أن أهل البيت أفضل من سائر الناس، وآل باعلوي اليوم أفضل من سائر أهل البيت لاتباعهم السّنة، وبما اشتهر لهم من العبادة والزهادة وحسن الخلق، والشريف أبو بكر أفضل آل باعلوي باتفاق أهل زمانه.. ثم ساق الإمام محمد بحرق في كتابه المذكور مقالات وتأويلات لأحواله وأفعاله، قال: ومنها ما رواه شيخنا الفقيه الإمام الولي عبد الله بن الفقيه الولي الشهير محمد باقشير، قال: أخبرني الفقيه محمد بن الفقيه الولي الإمام عبدالله بن أحمد بن أبي كثير الحضرمي المكي عن والده الساكن بمكة رحمهم الله تعالى، قال: لما ورد الشيخ القطب أبو بكر بن عبد الله العيدروس للحج من البر من جهة اليمن، فجاء الخبر إلى مكة، وأنه قادم مساء ذلك اليوم أو صبيحة غده، فخرج القاضي الأجل إبراهيم بن ظهيره إلى المسجد الحرام للقائه حين يقدم، ومعه الفقيه عبد الله بن أحمد بن أبي كثير، فأطالا الانتظار حتى أيسا من قدومه حينئذ فرجعا، ثم جاء وقت آخر فلم يظهر فيه، وجاء خبر أنه ضرب بكثيب قريب من مكة يسمى (قون المكاس)، وقال: لا أدخل مكة حتى يخرج الشريف محمد ابن بركات ـ يعني أمير مكة وواليها حينئذ ـ يتلقاني ويعمل لي عرضه ـ يعني لإظهار إكرامه ـ، قال الفقيه أبو كثير: قال لي القاضي إبراهيم حين سمع ذلك: يا فقيه لعلك تخرج إلى الشريف تواجهه، وتقول له: هذا لا يليق بك، والشريف محمد ابن بركات ليس في البلد، نعم ولو أمكن إحضاره فنخشى من أناس من صوفية اليمن يتشبهون به، فقلت له: أنا أخرج إليه، فخرجت إلى الموضع المذكور، فوجدته وعنده جلست سماع، فدخلت عليه في خيمته وسلمت عليه، ثم قلت: يا شيخ، أنت قلت ما أدخل مكة إلا إن تلقاني الشريف محمد بن بركات ويعمل لي عرضة، وهذا لا يليق بك، فقال: نعم أهو مانّ علي بذلك، بصوت رفيع، قال الفقيه: فسكت حتى قطع السّماع، فقال لأهل السماع: اخرجوا، فلما خلونا بكى إليّ وقال: إني ما قلت ذا القول إلا تورية، وإنما منعت من دخول البلد منعني

صاحبها، وهو المضطجع تحت الجدار في المحناطة، قال الفقيه: وذلك الشخص في صورة المساكين الضعفاء الذين لا يؤبه لهم من الناس، ممن لا يدري أهو رجل أم امرأة، ثم قال لي الشيخ: إن أمكنك أن تذهب إليه ليأذن لي، وإن أردت أن تطلع على الأمر واحداً أو اثنين من وجوه مكة تثقل بذلك عليه فافعل، قال الفقيه: فلما دخلت مكة قصدت الشيخ يّس باحميد، فأطلعته على ذلك الأمر وذهب معي، قال: فلما فتنا من الشارع الذي يلوي عنده إلى جهته وأقبلنا عليه، نهض قائماً وقال مشيراً إلينا: من يقول يا جدي ما الذي نقول له!، نحن نخرج ونخلي البلد له، وولى هارباً عنا مسرعاً. قال الفقيه: فرجعنا قاصدين الشيخ فوجدناه مقبلاً بطرف مكة، فلما رآنا قال: شرد ولد المنضفة، وكان آخر العهد به. وكان حجه سنة ثمانين وثمانمائة، وأخذ عن الحافظ محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي، وأجازه أكثر مشايخه في جميع مروياتهم ومؤلفاتهم، وفي الإفتاء والتدريس، وكان من صفاء الذهن وذكاء الفطنة، وجودة القريحة وإصابة القريحة وصدق الفراسة، ما تعجب من ذلك مشايخه وغيرهم، وشهدت به قرائن أحواله، ومحاسن آرائه وأقواله وأفعاله مع حداثة سنه. ولما رجع من الحج إلى تريم جلس للتدريس والانتفاع، فكان الناس يردون عليه من كل مكان، وأخذ عنه جماعة كثيرون، منهم أخوه الشيخ الجليل حسين، وابن أخيه الشيخ عبد الله بن شيخ، والعلامة عبد الله ابن محمد باقشير صاحب القلائد، وغيرهم من آل بافضل وآل باحرمي، والخطبا وآل باعباد، وممن أخذ عنه بعدن الفقيه المحدث الحسين بن الصديق الأهدل، والشيخ الجليل محمد بن أحمد باجرفيل، وقد سبق ذكر بعض من أخذ عنه أيضاً، ونقلوا عن بعض الثقات أنه قال: خدمته أكثر من ثلاثين سنة ما رأيته استغرق في نومه ثلاث ساعات، وهذا من أقوى الأدلة على تيسير الله له ما عسر على كثير من السائرين، وإعانته على السهر الذي هو من أعظم الوصول إلى الله تعالى والتلذذ بمناجاته، مع ما كان متمكناً منه من الفرش الوطيئة والأزواج الناعمة، وذلك من أعظم الكرامات، فإنه كان ضخم الصورة مواظباً على المطاعم الرطبة، كثير الشرب بحيث يستدعي بالماء وهو في مجلس الطعام مرتين، وأكثر الحكماء يقول: من شرب كثيراً نام كثيراً، كما هو مشاهد بالتجربة، وكان يتعهد السفر إلى

الشحر كعادة والده، ويزور قبر هود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، ويزور مشاهد الأولياء كالشيخ سعيد بن عيسى العمودي، والشيخ عبد الله بن محمد باعباد، والشيخ عبد الله باقشير، والشيخ محمد بن علي باشعيب وغيرهم، ولما رجع من الحرمين دخل زيلع، وكان الحاكم بها يومئذ محمد بن عتيق، واتفق أن أم ولد له ماتت، وكان مشغوفاً بها، فدخل عليه الشيخ ليعزيه ويصبره، فلم يفد فيه شيء، ورآه في غاية التعب، وأكب على قدم الشيخ يقبلها ويبكي، فكشف الشيخ عن وجهها وناداها باسمها، فأجابته ورد الله عليه روحها، وأكلت الهريسة بحضرة الشيخ، ثم سافر إلى عدن ليركب منها إلى الشحر، فوافق دخوله موت السيد عمر بن عبد الرحمٰن صاحب الحمراء بمدينة تعز سنة تسع وثمانين وثمانمائة، فقصده الناس للتعزية به، ولازمه الفضلاء والأعيان في الإقامة لينتفعوا به، مع ما سبق في علم الله أنها داره وبها قراره، وتشرق بها أنواره، وتبقى بها إلى يوم القيامة آثاره، وكان بعض أهل الكشف من آل باعلوي يقول له وهو صبي: أنت العديني، وقد سبق عن عمه الشيخ علي أنه كان يكاشفه بأنه يسكن عدن ويموت بها. انتهى ملخصاً من (المشرع الروي) و(العقد النبوي).

وقال سيدي الإمام العارف بالله تعالى السيد عبد الرحمٰن بن مصطفى العيدروس ـ نفع الله به ـ في كتابه (الفتح المبين شرح قصيدة العيدروس فخر الدين) هات يا حادي فقد آن السلو، لما ذكر من ترجم لسيدنا الشيخ أبي بكر صاحب الترجمة: ومع ذلك فقد فاتهم الشيء الكثير، ولا ينبئك مثل خبير، كما صرح بذلك في (النور السّافر) سيدي القطب الشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس قدس الله سره. قال: ومما تفرد به الحلبي ـ أي رواته ـ أن سيدي أبا بكر العيدروس قرأ في اللوح المحفوظ في بطن أمه، وأنه في بعض الأوقات كان عنده ولده القطب الشهير السيد أحمد وثلاثة من تلاميذه، وهم العارف بالله سيدي نعمان المهري، والعارف بالله سيدي أحمد الحلبي، والعارف سيدي محمد الصهاوي المكي، وأن سيدي أمرهم بقراءة أربع فواتح، وقال: تدرون لما أمرتكم بذلك؟، فقالوا: لا يا سيدي، فقال لهم: إنه مات في هذه الساعة أربعة أقطاب، كل منهم قطب الإقليم الذي هو فيه، وإن الله تعالى قد منَّ بجميع أحوالهم، هل منكم من

يريد شيئاً من ذلك؟، فسكتوا كلهم، ثم إن الشيخ نعمان قال له: يا سيدي أنتم كفونا عن كل شيء، ثم إنه أنشأ قصيدة مطلعها: (ذهبت فيه بكل مذهب. .) إلى آخرها، وهي مثبوتة في ديوانه، ثم أمر أهل السّماع بإنشادها، فشرعوا في السّماع وأنشدوها، وكان سيدي جالساً على سرير خشب مرتفع جداً عن الأرض كعادة أهل اليمن المعروفة في تلك البلاد، فلم يلبثوا إذ انقض السرير من عظم ما ترادف عليه من الأحوال، ووقع قدس الله سره، فلما أرادوا حمله ليرفعوه إلى الفراش لم يقدروا على ذلك، ولا حمل يده فقط، فقال الشيخ نعمان المذكور: قد أسأنا الأدب حيث لم نستأذنه، ثم راقبه الشيخ نعمان هنيهة، وقال: الآن حصل لي الإذن، فعندها حملوه بأسهل ما يكون ووضعوه على الفرش. فلما كان قرب الفجر ذهب إلى بركة عظيمة هناك في عدن وغطس فيها، فلما خرج منها صار الماء يفور فيها فوران القدر حتى لم يستطع أحد أن يقاربه، ومكث كذلك نحو شهر، ثم إنه ـ قدس الله روحه ـ أمر بعض تلاميذه أن يغطس فيها ويفك الماء عنها، ففعل ذلك واستطاع ببركة شيخه قدس الله سره. وقال رضي الله عنه: ومما وقع لسيدي القطب أبي بكر العيدروس نفع الله به، أنه ورد يوماً على السلطان عامر بن عبد الوهاب، فلما رآه مقبلاً في حشمه وخدمه وعبيده وهم في أفخر الثياب مسورين بأساور الذهب، وقع في نفسه من ذلك، وخطر بباله أن مثل هذا لا يصلح إلا لأرباب السلطنة، ثم بادر لاستقباله وتنحى عن مكانه وأجلسه فيه، وبالغ في إكرامه والتعظيم له كعادته، فلما استقر به المجلس أكب السلطان المذكور على رجليه، قال: فأغمي علي فإذا أنا في فلاة من الأرض واسعة الأكناف وليس بها شجر، فسرت قليلاً فلاح لي شيء في منتهى بصري، فأتيته فإذا هو مسجد، فلما دخلته وجدت به رجلاً يخيط، فسلمت عليه فرد علي السلام وآنسني، فسألته عن عدن فقال: إني لم أسمع بعدن إلا منك، فقلت له: أين أنا؟، فقال: وراء جبل قاف، قال: فقلت له: وكيف الوصول إليها؟، فقال: لا يردك من حيث أتيت إلا الذي جاء بك، قال: فبينما أنا كذلك إذا برجال قد أتوا في الهواء واحد بعد واحد، وكل منهم لا يتعدى موضعه الذي يقع فيه، حتى امتلأ المسجد، ثم جاء سيدي أبو بكر العيدروس من باب المسجد بهيئته يمشي وقصد القبلة، فقام حينئذ الخياط فأذن وأقام، وصلى بهم

سيدي الشيخ أبو بكر، فلما انصرفوا من الصلاة رجع كل منهم من حيث أتى، ولم يبقَ أحد في المسجد إلا سيدي أبو بكر المذكور، فأومأ إلي صاحبي الخياط: أن قم إليه يردك، فقمت إليه وأكببت على رجليه مستغفراً، فضرب بيده على ظهري وقال: مالك!، فرفعت رأسي وأنا بمنزلي وسيدي أبو بكر المذكور وأنا منكب على رجليه، وقد أفقت من تلك الغيبة، فاستغفرت الله تعالى وعلمت أنه ـ رضي الله عنه ـ قد اطلع على ما خطر ببالي، فأراني ذلك لأعرف أن الملك على الحقيقة ليس إلا لهم، كما قيل في ذلك:

ملوك على التحقيق ليس لغيرهم ... من الملك إلا اسمه وعقابه

وقال الشيخ عبد الباقي الحلبي ـ رحمه الله ـ في كتابه (تاج الرؤوس في مناقب ابن العيدروس): في عدن سطح له غرفة إلى جانب[1] تريم، فسماها سيدي أبو بكر بتريم، وكان يقول في بعض الأحيان: افتحوا هذه الغرفة لأشاهد أهل تريم وأوصافهم، فبينما هو ذات يوم مشرف منها، فقال: مسكين عمر بالرقيبة معه درهم ذَهَبَ به إلى السوق، يريد أن يشتري لأهله سمكاً فسقط من يده ذلك الدرهم، وجلس يفتش له ولم يجده، لأنه سقط في مكان وهو يفتش في مكان آخر، ومدَّ سيدي أبوبكر يده وناوله إياه، فتعجب عمر من ذلك، فقال من كان حاضراً عنده: إن هذه كرامة من سيدي أبي بكر، ما ناولك إياه إلا من عدن. وقال الحلبي أيضاً: إن العارف بالله تعالى سيدي عمر بن عبد الله بامخرمة قدس الله سره، دخل مرة عدن فزار سيدي العيدروس أبا بكر قدس الله سره، واستودع منه مستعجلاً إلى حضرموت، فقال له سيدي أبو بكر: إن رمضان قريب، لا أودعك إلا بعد رمضان، فامتثل أمره، فكان عنده إلى انقضاء رمضان، ورأى في المنام ليلة العيد كأنه جالس في بيته وكأن أم زوجته تمشط رأس بنتها، فلما أصبح زاد شوقه إلى بيته، وحضر مجلس سيدي أبي بكر ـ قدس الله سره ـ وقلبه متعلق بالذهاب إلى أهله، فلما ختم المجلس أمر سيدي أبو بكر بفتح تلك الغرفة، وجلس فيها مع سيدي عمر المذكور، وقال: انظر إلى بيتك فإذا هو في بيته وأهله كما رأى في المنام، فقال له مكاشفاً: أهكذا رأيت في المنام، فقال له: نعم يا سيدي، فقال

---

(١) اراد جهة تريم.

له: سيدي أبو بكر اذهب إلى أهلك في يوم العيد، فقال: يا سيدي لا يمكن وصولي إليهم إلا في عيد الأضحى، فقال له سيدي أبو بكر: بل اليوم تصل إليهم إن شاء الله تعالى، ودفعه من الغرفة فإذا هو في فناء بيته، فتعجب هو وأهله لما سألوه عن كيفية وصوله، فأخبرهم بما جرى. وفي (تاج الرؤوس) أيضاً أن الشيخ أبا بكر صاحب الترجمة قرأ في يوم واحد سبعين ألف ختمة. انتهى من مواضع من (الفتح المبين)، وكراماته كثيرة مشهورة، ذكر كثيراً منها في هذا الكتاب، وفي مناقبه مواهب القدوس، والمشرع الروي والعقد النبوي، وغيرها مما قدمنا ذكره.

ومن كلامه نفع الله به ما خسر صاحب حسن الظن وإن أخطأ فإنه غير ملوم، حسن الظن الكنز الأكبر والاسم الأعظم، احذروا سوء الظن فإنه دليل على الشقاوة، ويخشى على صاحبه سوء الخاتمة، وعليكم بزيارة الأولياء والتعرف بهم، فهم الوسائط إلى الله تعالى، ولا تستقلوا الطاعة وإن كانت يسيرة فإن فيها رضى الله تعالى، ولا تستقلوا المعصية وإن صغرت فإن فيها غضبه، وما عَيَّر أحد أخاه ببليّة إلا ابتلاه الله بها أو بأعظم منها، قال علي كرم الله وجهه: لو عيرت امرأة بالحبل لخشيت أن أحبل. وأحواله ومناقبه ـ نفع الله به ـ لا تحصى، توفي ـ نفع الله به ـ ليلة الثلاثاء لأربع عشرة خلت من شوال سنة أربع عشرة بعد تسعمائة، وخلفه ولده الشيخ القطب أحمد بن أبي بكر وكان شيخاً فاضلاً سخياً، أعتق ثمانين عبداً ذكراً سوى الإناث، وخلف من الإناث ثلاثاً،وله ولد اسمه محمد انقطع نسله به، نفع الله بهم آمين.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه ونفع به:

عـن الإمـام العيـدروس القـدوة   وصنـــوه علـــي ذي الفتـــوّة

ذكر في هذا البيت ممن أخذ عنهم سيدنا الشيخ أبو بكر إمامين كاملين وقطبين فائقين، وهما والده الشيخ القطب عبد الله العيدروس، وعمه الشيخ القطب علي ابن أبي بكر قدس الله سرهما.

فأما الإمام الأول فهو قطب الوجود وعين الشهود، وكعبة الوفود والبحر العذب المورود، شمس المعارف الربانيّة، ومعدن العلوم اللدنيّة، وصفوة السّلالة

العلويّة، جيلاني وقته في إشراق نوره وانتشار صيته، وعلوِّ ظهوره وعظيم مقامه، وإذعان الأولياء له وتعلقهم بأذياله وتقبيلهم لأقدامه، واعترافهم بما يصدر عنه من التبجح في إشاراته وكلامه، الإمام المتمكن في جميع المقامات في أوان البداية، فضلاً عن بلوغه إلى مراتب النهاية، الشيخ القطب الغوث الفرد الجامع، شمس الشموس، عبد الله الملقب بالعيدروس، بن الشيخ أبي بكر السكران بن الشيخ عبدالرحمن السّقاف باعلوي رضي الله عنهم، ونفعنا بهم، يكنى أبو محمد ويلقب بالعيدروس، وهو مقدم الأولياء أو كبير الصوفية، ذكره الأئمة المؤرخون، وترجم له أهل الطبقات المشهورون، وأجمع على فضله وتقدمه وسيادته وولايته، وعلو مرتبته وعظم شأنه ورفيع مقامه، وغزارة علمه وعقله وباهر حاله، العلماء الراسخون والأولياء العارفون والحكماء المحققون، من أهل زمانه ومن بعدهم، ولد ـ رضي الله عنه ـ في ذي الحجة سنة إحدى عشرة وثمانمائة بمدينة تريم، فطلع بها طالع سعده العظيم، فأشرق به ليلها البهيم، ونشأ في أهنأ عيش وأتم نعيم، من التلذذ بواردات الأنس التي ما ورد منها اليسير على قلب شخص إلا كاد يهيم، فحفظ القرآن وجوده على النهج القويم، وأقبل على العلوم بالطلب الحثيث والفكر الصّافي، فاستخرج منها كل معنى خافي، وفاز من حقائقها بالنصيب الوافي، تفقه على الفقيه سعد بن عبد الله بن أبي عبيد، والفقيه عبد الله باهراوة، والفقيه عبد الله باغشير، والفقيه علي بن محمد أبي عمار، وغيرهم من العلماء الأخيار، وقرأ التنبيه والمنهاج والخلاصة قراءة محققة، وغيرها من الكتب الفقهيّة، والفنون الآلية والأدبية، وأما كتب الصوفيّة وعلومهم النافعة المرضيّة، فجل اشتغاله بقراءتها ومطالعتها والدعوة إليها، ولا سيما كتاب (الإحياء) لحجة الإسلام الغزالي ـ نفع الله به ـ وغيره من كتبه، فإنه أطلق فيها عنان رغبته، ووجه إليها جواد همته، وكان يطنب في الثناء عليها قراءة ومطالعة وتحصيلاً، وقد صنف في ذلك تصنيفاً جليلاً، كما أشار إلى ذلك سيدنا الشيخ عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ في القصيدة التي أولها:

بإحيا علوم الدين تحيا قلوبنا ... ويكشف عنا همنا وكروبنا

وقد أطنب الشيخ الإمام بوصفه بقوله: (أبو المكرمات العيدروس حبيبنا، وكانت له ـ نفع الله به ـ مجاهدات عظيمة، قال عمه الشيخ المحضار: دخل ابن أخي في المجاهدة وهو ابن ست سنين، وقال هو رضي الله عنه: مكنت وأنا صبي صغير في المكتب زماناً، قل ما أقتات إلا من ثمر العشرق، ومكثت كذا وكذا شهراً أستقي لأمي الماء، ولا أرضى أن آتي به لها إلا من ماء المطر، وكنت أذهب إلى الجبال البعيدة، ومكثت سنتين أفطر كل ليلة على سبع تمرات. وكان ـ رضي الله عنه ـ كثير السهر، قال سنة ست وأربعين وثمانمائة: قد لي منذ ثلاث عشرة سنة ما التذذت بنوم، وقد يمكث شهراً لا ينام فيه ليلاً ولا نهاراً، وكان يحب أهل الشرع ويوقرهم، ويخدم أهل السنة وينصرهم، مات جده الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف وهو في نيف وثمان سنين، وكفله أبوه الشيخ أبو بكر بن عبد الرحمٰن، وتوفي والده وهو في نحو عشرين سنة، فكفله مع إخوانه عمه الشيخ عمر المحضار، وتربى به حتى فتح عليه، وتوفي عمه الشيخ عمر وهو في نحو ثلاث وعشرين سنة، وذلك بعد أن زوجه بنته عائشة وبنى بها، قال نفع الله به: ما زوجته بنتي عائشة إلا لأني رأيته استأرث أحوال آل باعلوي كلهم، وكان هذا الشيخ الأكبر عمه عمر شيخاً على آل باعلوي، فلما انتقل إلى رحمة الله تعالى وصاحب الترجمة ابن خمس وعشرين سنة، أجمع رأي الأشراف على أن يذهبوا إلى الإمام القطب محمد بن حسن جمل الليل وكان مقيماً بروغه، فاعتذر عن نفسه، فقالوا له: قدم علينا من ترضاه لذلك، فصلى صلاة الاستخارة، وطلب من الله أن يوفقه لما يختاره، فشرح الله صدره بتقديم الشيخ عبد الله العيدروس، فقام إليه وأمسك بيده وقال له: أنت المقدم على الجميع، فاعتذر بصغر سنه وضعف قيامه، لا سيِّما مع وجود أعمامه، فقاموا كلهم إليه، وألحوا في ذلك عليه، فحينئذ وقع على تقديمه الإتفاق، وانتشر صيته في الآفاق، ثم جلس للإقراء والتدريس، ونشر كل علم نفيس، وكانت بدايته في علوم الحقائق مثل نهاية غيره، وله وصايا ورسائل رائقة وتصانيف فائقة، منها كتاب (الكبريت الأحمر)، وشرح أبيات عمه الشيخ عمر، ولما رأى الإمام الزعفراني بعض تصانيفه قال: ما هذا إلا آية من آيات الله تعالى، وقال نفع الله به: لو أردت أن أصنف على حرف الألف مائة مجلد لفعلت،

وصدقه الزعفراني بذلك، وغيره ممن له اطلاع وكشف على علوم الأسرار، وما تطالعه من الغيوب القلوب الصافية والأفكار، وكان يتأسف على عدم لحوق من سلف من المشايخ المتقدمين، ويشير أنه لو لحقهم لبث عليهم من العلوم اللدنيّة العظيمة، ليحفظوها عنه وينتفع بها أهلها، ويقول: إنما أنا في زماني وحدي، وقال نفع الله به ورضي عنه: سوى عندي المدح والذم، والجوع والشبع، واللباس الرفيع والشملة، وأفضل بباطني من يسبني على من يحبني، ولكني أعبس وجهي على الأول في الظاهر لينقهر هو وغيره. وقال رضي الله عنه: صرف خمسمائة دينار ودرهمين عندي سواء، وقال ـ قدس الله روحه ـ يوماً وهو راكب على بغلته: ما أرى كل حافر ترفعه البغلة إلا نعشاً، ويحصل علي عند حصول الأعراس والولائم ومباشرة اللذات، مشاهدة عذاب القبر وحياته وعقاربه وأمور الآخرة، ضرورة من غير اختيار مني. وقال ـ رضي الله عنه ـ يوماً وهو مضطجع على وسادة يتقلب: أتظنون أن معي راحة، إني إذا انقلبت على جنبي الأيمن رأيت الجنة، وإذا انقلبت على جنبي الشمال رأيت النار، فمن كان هكذا فهل معه راحة!، وكان ملازماً له هذا الخوف من حال صغره، وأما كرمه ـ رضي الله عنه ـ فبحر لا ساحل له، تحير فيه العقول ولا تحصره النقول، وكان يحب أن تظهر آثار نعم الله تعالى عليه، وترى شعائر ذلك لديه، وكان كثير التواضع، كان يستنكر كثرة الزوار الذين يأتونه، ويقول: لو علمت أن أحداً يقصدنا لفعلت كذا وكذا، فقيل له: فما هؤلاء الخلق الذين يزورونك، فقال: تأتي بهم القدرة، وإلا فما أحد يقصدنا، وذلك لاحتقاره لنفسه. وقال نفع الله به: والله ما أفضل نفسي على الكلب فضلاً عن غيره، وكان يقول: إنما أنا رحمة للخلق خاصهم وعامهم وقاصيهم ودانيهم، وكان يقول: لو يعلم الناس ما هاهنا لأفنوا أرواحهم، وقال: ما أريد حياتي إلا منفعة للخلق، وكان الناس يشاهدونه في الأماكن البعيدة عياناً عندما يستغيثون به عند الشدائد، وقال الشيخ الجليل السيد القطب محمد بن حسن جمل الليل باعلوي: نال الشيخ الجليل السيد القطب عبد الله العيدروس شيئاً ما ناله أحد من أَوَّلِي آل باعلوي ولا آخريهم، وقد أثنى عليه غيرهم من أكابر الأولياء ومشايخ الأصفياء، منهم قطب الأقطاب من الأشراف جده الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف، وأبوه الفخر

الشيخ أبو بكر، وإمام المقربين الأبرار عمه الشيخ عمر المحضار، وأعمامه المشايخ الكبار أحمد وشيخ وحسن، وغيرهم من أهل المجد الفاخر، كالشيخ الفقيه الإمام ذي الباع المديد محمد بن علي مولى عيديد، والشيخ الإمام علي القدر أخوه علي بن أبي بكر، وذو النور المتأجج الشيخ سعد بن علي بامدحج، والشيخ الذي بحب مولاه قد فني عبد الله بن طاهر الدوعني، والوارثة للعدويّة العارفة سلطانة زبيدية، والإمام الأفخر عبد الرحمٰن الخطيب مصنف الجوهر، فإنه أطلق فيه لسان الثّناء ولم يذكر غيره من الأحياء، وأفرده بتصنيف عظيم، رصّعه وطرفه ونمقه سماه: (عقد البراهين المشرقة)، حاكي به كتاب المائتين، وناظر بمن صنف فيه بالشيخ محيي الدين، وألف أيضاً في مناقبه بما هو أجدر به وأحرى، السيد الإمام الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن باعلوي صاحب الحمرا، والشيخ الكبير عبد الله بن عبد الرحمٰن باوزير صنف فيه كتاباً سماه (التحفة)، وغير هؤلاء من أولي الفضل والمعرفة. ومن كلامه نفع الله به: اعصر جسمك بالمجاهدة حتى تستخرج منه دهن الصّفاء، ولا يقع العبد عبداً حتى لا يخرج كلمة إلا بإذن ربّه، ولا يقع العبد عبداً حتى يصفو باطنه على الخلق، وقال رضي الله عنه: من أراد الصّفاء فعليه بالإنكسار في جوف الليل، وآخر الليل كبريت أحمر غريب لطيف دقيق لا يكاد يوجد، ومن شمر عن ساق الجد واجتهد، فلا بد أن يعثر على شيء من هذا السر، والكنوز كل الكنوز في عزائم الاجتهاد، وتوزيع الأوقات هو اللباب بل هو المخ بل هو الجوهر الأبدي والكبريت الأحمر، الذي لا يدرك في خزائن الدنيا والآخرة إلا لمن وفقه الله تعالى، ومعظم أوقات الكنوز بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء، ونصف الليل الآخر وبعد الصبح، والخير كل الخير وأصل كل مقام وبركته في ذكر القبور والموت والموتى، وموضع رضى الله تعالى ورضى رسوله ﷺ مطالعة الإحياء، وترك الغيبة مملكة، وترك النميمة سلطنة، وحسن الظن ولاية، ومجالسة من ذكر الله مكاشفة، والخير كله في الصّمت، واستعمل الفكر ففيه السر، ولا تخلي الصدقة كل ليلة ولو مثقال ذرة، واحرص على تلاوة القرآن في الليل والنهار، وعلامة السّعادة والتوفيق والعلم والعمل

حسن الخلق والأدب، لأنه حياة القلب، وعلامة العقل . .[1] وعلامة الخوف الحزن، وعلامة الرجاء كثرة العبادة، وعلامة الزهد القناعة، وعلامة الكرم بذل الجد في الخير وفي رضى الله تعالى، وعلامة التوبة كثرة الندم، واترك السماع فلا فائدة فيه للمريدين خصوصاً في هذا الزمان. وقال رضي الله عنه: إياك وحضور السماع إلا بحضور شيخ عارف وإلا كان ضره أكثر من نفعه، ولا تحسب الدين بالدعاوي، بل بخوف الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والنية والصدق والتوبة، وليس الدين باللسان، بل الدين بالعلم والعمل، والعقل، والقلب والصفات الحميدة، والصالح من خاف ربه وصان لسانه عن المسلمين، وصفّى قلبه بذكر ربه، وأخرج حسده وغله، واعترف بذنبه، وتوكل على فضل خالقه وسيده، وعلم أن كل حادث في العالم حدث بيد القدرة. وقال رضي الله عنه ونفع به: اشهدوا عليَّ أنه من دخل السماع أنه في خطر، ولا يجوز للعارف أن يدور في السّماع إلا وقد دارت جميع الكائنات في لمعة من لمعات قلبه. وقال قدس الله سره: والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمٰن الرحيم، ما كلفنيها أحد من المخلوقين، أنه من لم يعرف قدرنا يوشك أن يحاربه ربه حرقاً فيه وفي عقبه. وقال رضي الله عنه: لو أردت أن أنظر إلى مشارق الأرض ومغاربها من حلقة خاتمي هذا أو أدخل في وسط كل حضرة لفعلت، وما يخفى عليَّ باطن أحد من الخلق وديارهم، وما يجتمع اثنان إلا وأنا ثالثهم، ومن اعتقد جسمانيتي أو روحانيتي واستغاث بها في شدة، إن لم أحضر عنده وإلا عليّ اللوم.

ومن كراماته رضي الله عنه: أن رجلاً أتى زائراً له من بلد بعيد، وقال له: يا سيدي إني كتبت شيئاً من كراماتكم وأريد أسمعها منكم، فقال له: وما كتبت، فذكر له إحياء البغلة فسكت العيدروس، فأعاد عليه ثانياً فقال: أو تريد ذلك فقال: نعم، فقال: هذا قليل مما يتفضل الله به على أوليائه، ثم قال: اعلم أنه كانت لنا بغلة فماتت، فلما أخبرت بموتها ذهبت إليها ومعي بعض أصحابنا، ومستحب عندهم أن الشيخ يظهر للمريد الصّادق شيئاً من الكرامات ليقوى يقينه، فقلت له:

(١) كذا بياض بالأصل.

أتريد أن أشير إليها فتحيا، فقال: أنت أخبر، فأشرت إليها فقامت حيّة بإذن الله تعالى وسارت شوطين، ثم أشرت إليها بإذن الله تعالى فعادت كما كانت، ومما وقع له ـ رضي الله عنه ـ من إحياء الموتى أيضاً، أن زوجته الولية العظيمة عائشة بنت الشيخ عمر المحضار ـ قدس الله أرواحهم ـ توفت، فدخل عليها العيدروس وهي ميتة مسجّاة، فناداها فأجابته بالتلبية في الصوت الثالث، وعاشت بعد ذلك مدة طويلة، ولم تمت إلا بعد انتقاله، واتفق أن أدركتها الوفاة مرة أخرى، وكان ـ نفع الله به ـ غائباً في بلد الشحر، فدخل عليها صاحبه الشيخ سعد بن علي بامدحج الشهير بالسويني، وكان بينه وبينها رحامة، فقال لها: قومي يا بنت القطب وزوجة القطب وأم القطب، كيف تموتين وما جاء القطب!، يعني سيدنا أبا بكر العدني، وكان ذلك قبل ولادته فحملت به بعد ذلك. ذكر ذلك سيدي الإمام العارف بالله تعالى عبد الرحمٰن بن مصطفى العيدروس في (الفتح المبين)، وهذا نزر يسير من مناقبه وأحواله وكلامه، ملخص من العقد النبوي والمشرع الروي وشرح العينيّة وغيرها، وقد قدمنا أنها أفردت مناقب الشيخ عبد الله العيدروس في مجلدات، ومما يدل على أنه ما جاء أحد بعده في مثل مقامه وعلى منواله من بعد الشيخ عبدالقادر الجيلاني، ما نقلناه في ترجمة سيدنا الشيخ عبد الله الحداد باعلوي نفعنا الله بهم، أنه قال: بسط للشيخ عبد القادر الجيلاني بساط وطوي، ثم بسط للشيخ عبد الله العيدروس وطوي، ثم بسط لنا ويطوى، ولا يبسط إلا للمهدي أو من يستحيى منه، توفي صاحب الترجمة ـ نفع الله به ـ وله من العمر أربع وخمسون سنة، قبل زوال يوم الأحد ثاني عشر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة، بطريق الشحر بمحل يقال له: (عبول)، وحمل على جمل إلى تريم، وقد كاشف بأنه يحمل عليه ويموت بهذا المحل، وارتاعت الخلائق لموته، وأظلمت الدنيا لمغيب شمس صورته، ودفن في تربة آل باعلوي، وبنيت عليه قبة عظيمة، أنوارها مشرقة، وبحار أسرار مشرفها في جوانبها متدفقة، ورثاه كثير من العلماء والأدباء، وامتدحه في حياته جم غفير ممن يعرف مقامه حالاً وشرفاً وحسباً، ذكرهم في (فتح الرحيم الرحمٰن)، ومن جملة من امتدحه الشيخ الإمام محمد بن أحمد

باغشير ـ بغين وشين معجمتين مصغراً ـ بقصيدة لامية بليغة نحو مائتي بيت تقريباً، أوردها جميعها في (المشرع الروي)، ويقال: إن هذه الأبيات منها مجربة لإجابة الدعاء بالفرج لمن دعا بها، وهي قوله منها:

ألا يـا رسـول الله غـارة منجـد   فأنت اعتمادي ثم جاهك معقلي
ويــا آل طــه غــارة علــويــة   بها تنقضي الأوطار والهم ينجلي
ويا جمع أهل الله يا بهجة الدنا   ويا من بهم عند الإله توسلي
سريعاً سريعاً هيا هيا بكم فما   على غيركم عند الخطوب معولي

نفع الله بهم. وأما الإمام الثاني فهو الشيخ الأستاذ الولي، صاحب المقام العلي والسر الجلي، القطب الرباني والعارف الصّمداني، سيدنا وملاذنا علي بن الشيخ أبي بكر السكران ابن الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف باعلوي نفع الله بهم، قال سيدنا الإمام مجلي الرين، الشيخ الحبيب أحمد بن زين في (شرح العينيّة): هو ـ يعني الشيخ علي بن أبي بكر المذكور ـ شيخ الشريعة، وإمام الطريقة، وبحر علوم الحقيقة، المتفق على جلالته وإمامته، وكمال معرفته واتباعه لسنة جده محمد ﷺ، مولده سنة ثمان عشرة وثمانمائة، قرأ العلم الظاهر على الفقيه أحمد بن محمد بافضل، ومكث أربع سنين بالشحر وبغيل باوزير يقرأ على الفقهاء آل باهراوة، والفقيه محمد بن علي باعديلة، والفقيه بعلم، والفقيه أبي عمار، ونقل في الفقه كتاب (الحاوي) للقزويني، وفي النحو (الحاوي) أيضاً، وقرأ (الإحياء) على السيد الإمام محمد بن حسن المعلم، وعلى أخيه الشيخ عبد الله العيدروس، وعلى الشيخ سعد بن علي بامدحج، ولبس من عمه الشيخ عمر المحضار في حال صغره وسن تمييزه، وأدخله أخوه الشيخ عبد الله الخلوة سبعة أيام، وأمره بقراءة أسماء الله الحسنى بغير صيام، فما مضت تلك الأيام إلا وقد برز له كل حرف من حروفها جسماً روحانياً، وذكر لباسه من أخيه في كتابه (البرقة)، وقال: لنا صفة في لباسها من جميع جهاته وسلاسل سنده، بالأُذُن المطلقة، والتفويض في أمر التحكيم، واحكام إلباس الخرقة، ولا أعلم أحداً له ما لي في لباسها، وذكر في كتابه (البرقة) المذكور جملة من مشايخه، وكيفية أخذه عنهم وصحبته لهم وأسراره معهم، وأطال

بمالا مزيد عليه، وذكر أنه قرأ على الشيخ القدوة الولي سعد بن علي مدحج (الإحياء) مرتين و(رياض الصّالحين) للنووي مرتين، و(منهاج العابدين) و(الأربعين الأصل) و(رسالة القشيري) و(عوارف المعارف)، وكتاب (أعلام الهدى) للسهروردي، و(بداية الهداية) و(المقصد الأسنى) للغزالي، وكتاب (المعرفة) للمحاسبي، و(روض الرياحين) و(المائين) و(شرح أسماء الله الحسنى) و(الإرشاد) كلها لليافعي، وكتاب (تحفة المتعبد)، وخلعه منهاج العابدين. ومن زهده أنه لم تذكر الدنيا في مجلسه، ومن مناقبه أنه لم يسهُ في صلاته، وما يرى إلا وهو تالٍ لكتاب الله تعالى، أو ذاكر أو راكع أو ساجد، وقال فيه أبوه الشيخ أبو بكر بن عبد الرحمٰن ليلة حمل أمه عند ورود حال عظيم عليه: حملت مريم بنت أحمد بارشيد بولد صالح كبير جامع بين العلمين لكنه مستور، وعلامة ذلك أن الشيب يظهر فيه قبل أوانه، ولما ولد قال جده الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف: جاء الليلة لابني أبو بكر ولد صوفي، وذلك قبل أن يعلم أحد من الناس بولادته، فظهرت عليه جميع الأمارات، وقال عمه الشيخ عمر لما رأى امرأة الشيخ علي وهي بنته فاطمة: هذه امرأة القطب، وذلك قبل أن يتزوجها الشيخ علي المذكور، وأشار الشيخ سعد عند موته بأنه هو الوارث لحاله، وقال الشيخ الورع الزاهد إبراهيم بن محمد باهرمز الشبامي: إن لم يكن الشيخ علي بن أبي بكر قطب زمانه فليس لله قطب، ثم ذكر سيدي الحبيب أحمد كثيراً من الأكابر ممن شهد لصاحب الترجمة بالقطبية وبالمقام الرفيع والدرجة العلية.

وذكر عن بعضهم أنه قال: سر سيدنا الفقيه المقدم صار فيه، وتوفي ـ رحمه الله ورضي عنه ونفع به ـ يوم الأحد الثاني عشر من شهر عاشوراء سنة خمس وتسعين وثمانمائة، وعمره سبع وسبعون سنة، وله تصانيف جليلة حفيلة. ومن كلامه قدس الله روحه: وافق الكل واجعل النية مع الله تعالى، وقال رضي الله عنه: عود نفسك التغافل، فإن مدار مصالح أهل الزمان عليه، وقال رضي الله عنه: لا تحقرن من أفعال الطاعة شيئاً، والحضور في حلق الذكر وعقود الأنكحة وغيرها، ولو كان أهل الذكر فيهم نقص، وهم من العوام ممن يستحقر، فينبغي الحضور معهم. وقال نفع الله به: تعليم الصبي على يد غير أبيه أولى، وقال لابن أخيه أبي بكر العدني: يا بني حرك بعابعك وأذب جعاجعك، واعرف مبادئك

ومراجعك، بحفظ حضرات جمعك ومجامعك. وتربى به ـ قدس الله سره ـ وتخرج عليه جماعة، منهم أولاده وهم سبعة، منهم عبد الرحمٰن بن علي، وابن أخيه الشيخ أبو بكر العدني، والفقيه الولي محمد بن سهل باقشير، والفقيه محمد بن عبد الرحمٰن باصهي، وباجرفيل الدوعني. انتهى من شرح العينيّة مع حذف يسير.

خاتمة

تشتمل على ذكر فائدة عظيمة العائدة، يرجع ذكرها لما ذكره سيدنا الحبيب أحمد بن زين في ترجمة سيدنا الشيخ علي بن أبي بكر، من أخذ الشيخ الصوفي جمال الإسلام محمد بن أحمد باجرفيل الدوعني عليه، وهي أنه خص هذا الشيخ محمد، وحظي بالإلتحاق والدخول في أهل البيت الطاهر، النابض سره الغامر، من حقيقة ما جاء عن سيد الأوائل والأواخر ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»، فقد ذكر الإمام العلامة الشيخ محمد بن عمر بحرق في كتابه (مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس) ما معناه: إن الفقيه محمد المذكور لما أتى إلى مدينة تريم، واجتمع بسيدنا الشيخ علي بن أبي بكر صاحب (البرقة)، التمس الشيخ علي من الفقيه أن يقري ولده الشيخ عبد الرحمٰن بن علي في الفقه، فقال: لا أقريه حتى تقول: محمد باجرفيل منا أهل البيت، كما قال جدك عليه الصلاة والسلام ذلك لسلمان الفارسي رضي الله عنه، فقال له الشيخ علي: لا يقول هذه الكلمة إلا صاحب القطبيّة الكبرى، وهذا المقام اليوم لابن أخي أبي بكر بن عبد الله، رح إليه والتمس منه ذلك، قال: وكان بين الشيخ علي والشيخ أبي بكر ابن أخيه في ذلك الوقت وقفة، فراح إليه الفقيه محمد وحكى له القصة، فقال له حينئذ: محمد باجرفيل منا أهل البيت، ففرح واغتبط كثيراً، ورجع إلى الشيخ علي وأخبره بما قال له ابن أخيه، واقرأ ولده الشيخ عبد الرحمٰن بن علي كما شرط عليه، ترجم للفقيه محمد المذكور الإمام الفقيه عبد الله بن عمر بامخرمة في تاريخه، وهو تاريخ عديم النظير إلا أنه عزيز الوجود، رأيت منه تراجم ملتقطة بخط الفقيه الشيخ الإمام أحمد بن عبد الرحمٰن العمودي رحمه الله، قال: إنه وجدها كذلك بخط السيد الإمام الشيخ أحمد بن عمر بن عبد الله العيدروس، قال فيها: محمد بن أحمد باجرفيل مولده في حدود العشرين بعد الثمانمائة، وأخذ عن الفقيه الصالح

أبي بصيل، ودرس وأفتى مدة، ثم غلب عليه التصوف، فخاض غماره وحقق أسراره، وصار من كبار مشايخ الطريقة وأعلام رجال الحقيقة، يقتدى بآثاره ويهتدى بأنواره، واشتهر بالولاية بين الحاضر والبادي، وكان الأولياء في زمانه يعظمونه ويبالغون في الثناء عليه، ولم يزل معظماً محترماً إلى أن توفي في شهر صفر سنة اثنتين وتسعمائة بتقديم التاء على السين بغيل أبي وزير، ودفن بها رحمه الله تعالى ونفع به، وهذا الذي ذكرته في مولده رأيته بخط بعض أصحابه، ثم رأيت له ـ أعني صاحب الترجمة رحمه الله تعالى ـ مكاتبة إلى بعض أصحابه، نقلت من خطه يقول فيها: مولدي سنة العشرين ـ يعني للثمانمائة ـ يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول. انتهى ما وجدته من ذلك. وممن اشتهر أخذه عن الشيخ محمد المذكور الشيخ الكبير فارس بن أحمد باقيس صاحب حلبون، يقال: إنه لما وصل الشيخ فارس المذكور من الحج، قال له الشيخ محمد: ما الذي أطرفتنا به من سفرك يا فارس، فقال له: جيت لكم بكتاب (روض الرياحين) لليافعي، فقال: لو شئت لألفت كذا كذا روضاً في حكايات مشايخ دوعن وكراماتهم، من مكان كذا ـ محل تحت بيت حلبون، في أسفلها إلى رباط باعشن، وكان هذا الشيخ محمد كثير التنفل، له مسجد بغيل البويدرة بقيدون، زاد فيه مثله الشيخ الإمام العارف بالله عمر بن عبد القادر العمودي نفع الله بهما، وكان يتعبد فيه، وسوَّس بقعة يريد بناها مسجداً كذلك تحت تربة الشيخ عبد الله بن عمر العمودي في عرضه المشهور، ولم يذكر الفقيه عبد الله بن عمر بامخرمة أخذه عن الشيخ عبد الله بن عمر العموي، والمشهور أنه أخذ عنه الفقه والطريقة العموديّة، والشيخ محمد المذكور هو القائل فيه أحد أصحابه الشيخ الإمام العارف بالله تعالى الفقيه عمر بن عبد الله بامخرمة قدس الله روحهما:

والثــــالــــث معــــي ... لــه فــي الغيــل قبــر يشهــد
فيمـــا يــــدعـــي ... مـــا بيـــن قبـــريـــن بعَّـــد
قـــم يـــا لـــوذعـــي ... غيـــروا علـــي يـــا محمـــد
يـــا الحبـــر النبيـــه ... إنـــي بكـــم قلـــت إنـــي

وقوله: (فيما يدعي ما بين قبرين بعد)، يشير إلى ما ذكر وصح أنه لما مات الشيخ محمد بغيل باوزير تباعد له ما بين قبري الشيخ الإمام. . .[(١)] .

وتوسع له فدفن بينهما، ويحكى أنه لما دفن بين ذينك الشيخين الكبيرين، على هذه الصورة المتضمنة للكرامة الكبيرة والمنقبة الشهيرة، قال بعض أهل الغيل ممن لا يعرف قدر الشيخ محمد وحاله، لأنه كان في صورة الفقير الدرويش لتستره وحبه للخمول: قد سعد باجرفيل أن صار له هذا الأمر الجليل، فلما كان الليل رآه يتهدده ويوبخه، ويقول له: إنما سعد هذان الشيخان بي ولم أسعد بهما، وله أحوال جليلة ومناقب كثيرة، وهذا الذي ذكرناه تلقيناه عن مشايخنا وهم عن مشايخهم، من آخرهم سيدي الشيخ الإمام محمد بن يّس باقيس السابقة ترجمته، رضي الله عنهم ونفعنا بهم أجمعين.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وأخــذ الطــريقــة الشيخـــان   عـن عمـر المحضـار والسكـران

يعني أخذ الطريقة الشيخان، الشيخ عبد الله بن أبي بكر وأخوه الشيخ علي بن أبي بكر، عن عمهما القطب الشيخ عمر المحضار، وعن والدهما الشيخ القطب أبي بكر السكران، وهما الإمامان المنطلقان في حضرات القرب كفرسي رهان، الثابتة قطبيتهما لدى أهل العرفان والإيقان، السائرة بفضائلهما الركبان، المنتشر صيتهما في جميع البلدان على توالي الأزمان. فأما الإمام الأوّل، فهو الشيخ الهمام أسد الله الضرغام، الذي تقصر عن سرعة قطع حاله وهمته، مواضي السيوف عند مبارزة الشجاع وصولته، كيف وذلك لا يكون إلا عن إذن إلهي وتوجه القدرة، كما يشير إليه قوله تعالى في الحديث القدسي: «وبي يبطش» وكفى بذلك نصرة، القطب الغوث للعباد، فرد الأفراد، حجة الله على الحاضر والباد، من الزهاد والعبّاد، عمر بن الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف باعلوي رضي الله عنهما. قال الذي صنف فأبدع في كتابه (المشرع): هو الإمام الشهير بالمحضار، الذي لا يشق له غبار، ولا يجري معه سواه في مضمار، ودانت له جميع المشايخ الكبار في جميع

(١) كذا بياض بالأصل بقدر سطرين ونصف.

الأقطار. . ثم أطال صاحب المشرع ينعت على هذا المنوال من ديمه الغزار، وقال بعد ذلك الوصف العظيم: ولد بمدينة تريم، ونشأ في عبادة الله، وفي التحصيل من صباه، وتربى تحت حجر أبيه الشيخ عبد الرحمٰن، فحفظ أولاً القرآن ومنهاج الطالبين، وعرضه على والده وغيره من العلماء العاملين، وكان حسن الحفظ سريعه، فربما يمر على الكتاب فيحفظه جميعه، واعتنى به والده فَحَمَّلَه ما لا يقدر أحد عليه، إلى أن وصل إلى ما لا تطمح الآمال إليه، وتفقه على الفقيه أبي بكر بن محمد بلحاج، وصحب جماعة من أكابر العارفين، ثم رحل إلى الشحر واليمن والحرمين، وصحب بها جماعة كثيرين، وكان كثير الاعتناء بالمنهاج والتنبيه والإحياء، وتفسير السّلمي يكاد أن يحفظه عن ظهر قلب، وكان كثير العبادات والرياضات في الأعمال الصالحات، وترك الحظوظ والشهوات، وكان يصبر عن الطعام الليالي والأيام، ومكث أكثر من ثلاثين سنة لا يأكل الرطب، وربما أخذ الرطبة أو التمرة ويقلبها بأصابعه ثم يعطيها لمن حضر، فسئل عن ذلك فقال: لأن التمر أحب شهوات نفسي إليها، وقد تركته لله تعالى، ومكث خمس سنين لا يأكل مما يعتاده الآدميون، ومكث في ريدة المشقاص شهراً لا يذوق شيئاً إلا الماء، ولم تنقص قوته ولم يضعف عن المشي، ومكث في مسيره إلى الحج أربعين يوماً ما ذاق فيها طعاماً ولا شراباً، وحكي أنه استأجر بقرة بمكة المشرفة وكانوا يأتون له بلبنها، فشابوه يوماً فماتت البقرة من يومها، ولم يزل على تلك المجاهدات، إلى أن أتته المواهب اللدنيّة والأسرار الغيبيّة، وانفجرت من قلبه ينابيع الحكم الربّانية، وتجلى له قدس اللاهوت وعالم الملكوت وأنوار الجبروت، وأول ما ظهرت عليه الأحوال في سنة ثمان وثمانمائة، وذلك في حياة والده، فكان يلقي دروساً بالألفاظ الفائقة، والعبارات اللطيفة الرائقة، والمسائل الدقيقة في علوم الشريعة والحقيقة، وكان يقول: لو شئت أن أملي من تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] ما يوقر ألف بعير لفعلت، وكان يقول والده: وجدنا مع عمر شيئاً ما كنا نظن أنه معه. فلما سمع الشيخ عمر ذلك قال: وهل أحاط بجميع ما حبانا الله تعالى به، وكان يقول: أعطيت ثلاث أيادي: يداً من النبي ﷺ ويداً من والدي عبد الرحمٰن ويداً من رجل آخر. . ثم ساق من أحواله وكراماته

ـ نفع الله به ـ كثيراً، حتى قال: ولم يزل ـ نفع الله به ـ في رقي وازدياد، وإرشاد وإمداد، إلى أن انتقل إلى رحمة رب العباد، وكان انتقاله يوم الاثنين ثاني ذي القعدة الحرام سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وهو ساجد في صلاة الظهر، وذلك أنه لما سمع المؤذن لصلاة الظهر أجابه، ثم توضأ وأذن وأقام لنفسه وأحرم بالفرض، فلما سجد خرجت روحه الشريفة وهو ساجد، فلما طال سجوده حركوه فإذا هو قد قبض، وبقي على هيئة السجود لم يتغير حتى رفعوه للغسل. انتهى ملخصاً من (المشرع الروي). وفي (شرح العينية) للشيخ الإمام أحمد بن زين الحبشي ـ نفع الله به ـ قال: وأخذ عنه جماعة أكابر، مثل الإمام القطب عبد الله بن أبي بكر العيدروس، وأخيه الشيخ علي بن أبي بكر، وأخيه الشيخ أحمد بن أبي بكر، والفقيه محمد بن علي بازغيفان، وله كرامات خارقة مشهورة مأثورة يعرفها الخاص والعام، وكان حتفاً على من قلّ الأدب، وترياقاً ونفعاً لمن تأدّب.

قال السيد الجليل العلامة محمد بن علي بن علوي خرد صاحب كتاب (الغرر) فيها: سمعت من الفقيه العلامة الورع الزاهد عبد الله بن عبد الرحمٰن بلحاج بافضل، قال: سمعت والدي يقول: أحفظ للشيخ عمر ثمانين كرامة، وكان الشيخ عمر يتلو اسم الله (اللطيف) ألف مرة في نفس واحد، وكان خادمه جريدان يتلوه سبعمائة مرة في نفس واحد. وكان سريع الغوث لمن استغاث به مجرّباً، وكان يظهر الرطب والمناصف في غير أوانه، وتمتثل الجمادات والحيوانات لأمره وتنتهي لنهيه، وأقيم مقام الشيخ عبد القادر الجيلاني نفع الله بهما وبجميع الأولياء والصالحين، وكان يقول: وددت أني أكون حيواناً يذبح ويؤكل، أو حماراً يموت ويصير تراباً، ذلك من شدة خوفه، وكثيراً ما يقول: لو علمت أن لي عند الله تعالى تسبيحة مقبولة أو حسنة، لضيفت أهل تريم على البر واللحم حتى دوابهم، وكثيراً ما يقول: قد أضع يدي على حلقي ظناً أن نفسي قد قبض، ولا آكل لقمة وأظن أني أسيغها. انتهى من مواضع من (شرح العينيّة). وقال في (العقد النبوي): روي عن بعض الثقات أن الشيخ عمر بن عبد الرحمٰن ـ رضي الله عنهما ـ كان عند قبر النبي هود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، فاجتمع هناك ببعض السّياحين المجتهدين، وكان ذلك السيّاح عالماً بكثير من العلوم في الطريقة والحقيقة والطب

وغير ذلك، فجعل الشيخ عمر يسأله عن مسائل كثيرة، وكلما سأله عن مسألة أجابه عنها، ثم إن الشيخ عمر ـ رضي الله عنه ـ أورد عليه مسائل حيرته وأدهشته، ومن جملة ما قال له: أتدري لم سمي الفؤاد فؤاداً؟ لأن فيه ألف واد في كل واد منها ألف واد، وأراد أن يشرح له شيئاً مما ذكر في شيء من العلوم منها، فانزعج ذلك السيّاح واندهش، وارتعش واحمرَّ لونه وارتعد، وبهت وقام وقال: سيدي استغفر الله، فقال له الشيخ عمر: كأنك تَخَمَّجَ[1] بحرك، وأما نحن فما قد خرج من بحرنا قطره، وأراده يثبت لمقاومته، فقال: يا سيدي أنا أستغفر الله تعالى، فقال الشيخ عمر: إنما جئت مقاوماً فاثبت، فقال: يا سيدي أنا ضيفكم وأنا على فراشكم، فقال له الشيخ عمر: مرحباً بك، وسكت عن مخاطبته. انتهى.

فائدة: ذكر الشيخ أحمد بن عبد الكريم الحساوي ـ رحمه الله ـ في كتابه (تثبيت الفؤاد)، قال: كان سيدنا الشيخ عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ يقول: كان في زمن سيدنا الشيخ عمر المحضار أربعون من سادتنا آل باعلوي في مقام الشيخ عمر المحضار، عشرون قدامه وعشرون خلفه، وكان الشيخ عمر المذكور لا يدعو على أحد، بل إذا تغير على أحد تطلع حرارة في باطنه حتى يهلك ذلك الشخص. انتهى، وذكر جماعة من العارفين ثلاثة من سادتنا آل باعلوي لا تزال خيلهم مسرجة ملجمة: سيدنا علوي بن الفقيه المقدم، وولده الشيخ علي بن علوي، وسيدنا الشيخ عمر المحضار صاحب الترجمة، وفي ذلك قال بعضهم:

إذا خفت أمراً أو توقعت شدة   فنوه بعلوي الفتى وابنه علي
كذا عمر المحضار تحظَ بغارة   بها تنج من كل الشدائد يا ولي

ومناقبه وأحواله كثيرة مشهورة، مستمرة في سائر الأزمان، وجميع الأقطار والبلدان، نفعنا الله به آمين.

وأما الإمام الثاني فأخو سيدنا الشيخ المحضار، أحد المشايخ الكبار المشهورين في الأقطار، أبو الأشبال الأسد الزار إمام الافتخار، الفائق على الأقران والنظار، السيد القطب الفخر الغوث الشيخ أبو بكر الملقب بالسكران بن الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف باعلوي نفع الله بهما، ولد رضي الله عنه بمدينة تريم، وحفظ

---

(١) أي تكدر.

القرآن العظيم، وصحب أباه إمام التقديم، وتأدب به بسلوك نهجه القويم، وكان يحبه ويثني عليه، ويشير باستكمال صفات الكمال إليه، وكان يظهر الغبطة والسرور به، والتبجح بأن صار من صدفته وولده، ويسر برؤيته، ألبسه الخرقة الشريفة وحكمه، وأذن له في الإلباس، فكان يلبس ويحكم في حياة والده، وكان يقول: جزى الله أبا بكر خيراً، نفعنا في كبرنا وفي تأديب أولادنا، وكان إخوانه يعظمونه ويحتشمونه، قال أخوه أحمد بن السقاف: رأيت تاج المشيخة على أخي أبي بكر، وكان أخوه الشيخ عمر المحضار يقول: لو كنا آل عبد الرحمٰن في كفة وأبو بكر في كفة لرجح بنا، وكانت العارفة بالله تعالى سلطانة بنت علي الزبيدي تقول: إني أسمع النوبة تضرب بالسماء بالمشيخة للشيخ أبي بكر بن عبد الرحمٰن السقاف، وكانت تقول: أعرف منتهى الأولياء إلا الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف وولده أبا بكر. انتهى ملخصاً من (المشرع الروي)، وله كرامات خارقة وأحوال فائقة، ذكر بعضها وأطال في (العقد النبوي) وغيره، انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، ودفن بمقبرة زنبل، نفعنا الله به وبسلفه.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وأخذ المحضار والسكران عن　　والدهما شيخ المكان والزمن

وجيه دين الله سقاف العلا　　عن والده سلطان أرباب الولا

المذكور هنا المقدم الثاني، الجامع لأسرار المعالي والمعاني، صفوة آل عبد مناف وقطب الأشراف، الطالع بدر سعادته في نواحي الأحقاف، حتى أشرق على جميع الأخلاف، وبلغ إلى جبل قاف، الشيخ الكبير عبد الرحمٰن السّقاف بن الشيخ عمر مولى الدويلة بن الشيخ علي بن الشيخ علوي بن الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم، رضي الله عنهم ونفع بهم. قال الشيخ الإمام السيد الولي محمد بن أبي بكر الشلي الشريف باعلوي في (مشرعه الروي) بعد أن بالغ في الإطناب، ومع ذلك فهو واقف بساحل ذلك البحر الزاخر العباب: ولد ـ رضي الله عنه ـ سنة تسع وثلاثين وسبعمائة بمدينة تريم، وحفظ القرآن العظيم على الشيخ المعلم أحمد بن الخطيب، وأتقن علم التجويد والقراءات، ثم اشتغل بتحصيل العلوم، وتفقه على

كثيرين، واعتنى بكتب الأولين، لا سيما الإمامين العظيمين محمد الغزالي وأبي إسحق الشيرازي، وأكثر من قراءة الوجيز والمهذب حتى كاد أن يحفظهما عن ظهر قلب، فقرأ هذه الكتب في تريم على السيد العلامة محمد بن علوي بن أحمد بن الأستاذ الأعظم، ثم رحل إلى الغيل فقرأ على الإمام الفقيه محمد بن سعد باشكيل الإحياء والرسالة والعوارف وغيرها، وإلى الإمام شيخ الإسلام محمد بن أبي بكر باعباد ولازمه حتى تخرج به، ومعظم انتفاعه . .[(١)].

ثم رحل إلى عدن فأخذ بها عن القاضي محمد بن سعيد كبن النحو والصرف، وغيرها من فنون العربيّة، وبرع في الأصول، وأتقن علم المعقول، وكذا علم المعاني والبيان، وفي التفسير ثابت الأركان، وفي الحديث غير مجهول المكان، وصحبه في الطريق جماعة، منهم الشيخ علي بن سلم، والإمام علي بن سعيد باصليب الملقب بالرخيلة، والإمام أبو بكر بن عيسى بايزيد الساكن بوادي عمد، والشيخ الإمام عمر بن سعيد باجبير، والعارف بالله تعالى مزاحم بن أحمد باجابر صاحب بروم، والإمام الولي عبد الله بن طاهر الدوعني. انتهى ملخصاً من المشرع.
وقال في شرح العينيّة: وله ـ نفع الله به ـ في التسليك والتربية والتحكيم اليد الطولى والرتبة العليا، ولم يحكم أحداً إلا بعد أن أتاه جميع الأنبياء ومن لا يحصى من الملائكة الكرام، والصحابة والأولياء الأحياء والأموات، مرات في وقائع معروفة، وأمروه بذلك. قال السيد الجليل محمد بن أبي بكر بن أحمد باعلوي: لمَّا حكمني الشيخ عبد الرحمٰن ذهبت عني محبة الدنيا في الحال، وزالت عني في ذلك الوقت صفات مذمومة وبدلت صفات محمودات. وكان ـ رضي الله عنه ونفعنا به ـ يقرأ في كل يوم وليلة ثمان ختمات أربع بالليل وأربع بالنهار، ختمتان من بعد الصبح إلى الظهر، وختمة فيما بين الظهر والعصر يقرأها في ركعتين، وختمة بعد العصر، ولنقف من أحواله ومقاماته ومجاهداته وكراماته على هذه الخارقة العظيمة، والآية الجسيمة، التي تأهلت لسرها والقيام بها هذه النفس الكريمة، وكفى بها منقبة، لأنه غاية ما يبلغه أهل المجاهدات وكثير من أرباب العنايات هذا

---

(١) كذا بياض بالأصل.

القدر من قراءة القرآن كما ذكر ذلك الشيخ الإمام النووي في التبيان. وليعلم أن ذلك ليس من باب الطي المعروف عندهم الذي هو خارقة أخرى، بل هو من طريق العادة الممتزجة بالكرامة، وما هو من باب الطي إنما هو ما ذكرناه في ترجمة الشيخ أبي بكر العيدروس العدني أنه قرأ سبعين ألف ختمة في يوم واحد، وما نقل عن بعض العارفين ـ نفع الله بهم ـ أنه قال: جمع لي القرآن كله ككلمة واحدة فنطقت به بلفظة واحدة، وإلى هذا المقام يشير قول الشيخ الكبير عمر ابن الفارض في تائيته نفع الله به:

وفي ساعة أو دون ذلك من تلا لمجموعه جمعي تلا ألف ختمة

وهذه الصفة كانت لهم أثر من آثار صفة كلام الحق القديم سبحانه وتعالى. قال الشيخ سعيد بن عبد الرحمٰن با بقي في شرحه على قصيدة الشيخ أبي بكر العيدروس العدني نفع الله بهما:

شربت كأساً من المعاني عاينت منها بلا عياني

قال على هذا البيت: أي شرب بأيدي سر صورته (كأساً) أي إيصال المعاني إلى فهمه، وهي معاني الحكمة المخبوة في تلك الصفات والأسماء والأفعال، (عاينت منها بلا عياني) أي من علوم المعاني بلا عياني، لأن حقائق العلوم وأسرارها الغيبيّة لا تنكشف إلا بتنوير القلوب، وهي علوم ذوقية لا يسعها التأويل فمن تأدب باسم الله تعالى الرحماني وتخلق منها بالمعاني، واطلع على أسرارها فهم معانيها، فكل اسم من أسمائه تعالى ينبني عن صفة من صفاته، وله بكل صفة من صفاته أثر من آثار ربوبيته في خلقه. انتهى، فافهم المعنى من آخر العبارة، وأحوال هذا القطب ومناقبه لا تحصى ولا تتناهى ولننقل يسيراً من كلامه، لأن كلامهم شفاء النفوس وقوت الأرواح، كان رضي الله عنه يقول: اجتهدنا فلم يفتح علينا بالفتح العظيم إلا بعد ما رجعنا إلى معرفة النفس. ومن كلامه نفع الله به: دواء القلب قطع العلائق، وقال: من لا له ورد فهو قرد، ومن لا يطالع في كتاب الإحياء ما فيه حياء، وقال رضي الله عنه: الناس كلهم فقراء إلى العلم، والعلم فقير إلى العمل، والعمل محتاج إلى العقل، والعقل فقير إلى التوفيق. وقال نفعنا

الله به في الدارين: كل علم بلا عمل باطل، وكل علم وعمل بلا نية هباء، وكل علم وعمل ونية بلا سنة مردود، وكل علم وعمل ونية وسنة بلا ورع خسران، يخاف على صاحبه عند الموازنة والقصاص ذهابه. ولما حضرته الوفاة أراد حاضروه صرف وجهه إلى القبلة فانصرف بنفسه إليها، ورفعت روحه الشريفة، ووقعت زحمة بعد موته، فكادت رجل بعض الحاضرين تقع على رجل الشيخ فقبض الشيخ رجله، فلما وضعها مد الشيخ رجله، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ يوم الخميس وثلاث وعشرين خلت من شعبان سنة تسع عشرة وثمانمائة، ودفن ضحىيوم الجمعة. قال ولده الشيخ حسن الورع: قال والدي السقاف يوماً: قد لي في القطبيّة شي وعشرين سنة، ورآه أخوه عبد الله وجميع جسده نور عظيم، وجميع أعضائه مكتوب عليها بنور يزيد على نور جسده، سطر: لا إله إلا الله محمد رسول الله وسطر: سورة الإخلاص، على جميع جسده وأعضائه، في واقعة عظيمة وحكاية عجيبة، ذكرها الخطيب في كتاب (الجوهر). انتهى من مواضع من (شرح العينيّة) نفع الله بهم آمين.

وأخذ الطريقة سيدنا الشيخ عبد الرحمٰن السقاف ـ نفع الله به ـ عن والده، المعني في البيت الثاني من قول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه: (عن والده سلطان أرباب الولا) أي الولاية، وذلك من باب الاكتفاء، وهو الشيخ الكبير الإمام الشهير، القطب الفائق والمفرد السابق، الواصل إلى الحقائق، محمد الملقب بمولى الدويلة ابن الشيخ علي بن القطب الشيخ علوي ابن الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم قدس الله أرواحهم ونفعنا بهم، ولد ـ نفع الله به ـ بتريم، وحفظ نصف القرآن العظيم، وكان إذا غلط القاري في النصف الآخر رده إلى الصواب، مات أبوه وهو صغير فكفله عمه الشيخ عبد الله باعلوي، وتربى به ونشأ في حجره، وارتحل إلى الحرمين فأدى النسكين، وزار جده سيد الكونين عليه الصلاة والسلام، وأخذ بهما عن جماعة، واجتمع في رجوعه بالشيخ العارف بالله تعالى علي بن عبد الله الطواشي، واعترف كل منهما لصاحبه بمقامه، ولم ينقل أنه اشتغل بشيء من العلوم، ولكن إذا علم شيئاً عمل به، وكان يخفي أعماله ومجاهداته، وأكثرها قلبيات، وكان الغالب عليه الإقامة بالبادية، وترد عليه أحوال عظيمة، وكان إذا

طرقه الحال يضطرب جسده ويلين، حتى أن بعضهم وضع أصبعه في جسده فانخسف محل اصبعه، وورد عليه الحال مرة ومكث به سبعة أيام حتى تقيأ دماً أسود، قال ولده القطب الشيخ عبد الرحمٰن السقاف نفع الله بهما لو لم يتقيأ لقتله ذلك الحال، وله أحوال عظيمة وكرامات خارقة، وقد حكي أنه مكث نحو عشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء، وأنه صام أربعين يوماً متتابعة في أيام الصيف، مات ـ رضي الله عنه ـ يوم الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة خمس وستين وسبعمائة، ودفن بمقبرة زنبل رحمه الله عز وجل. ومن كراماته نفع الله به: أنه تواجد يوماً بحضرة عمه الشيخ عبد الله باعلوي حتى غشي عليه، ثم أقيمت الصلاة فصلى معهم، فلما فرغوا قال العارف بالله تعالى علي بن سلم لعمه عبد الله: صلى ابن أخيك بلا وضوء لأنه زال عقله، فأخبره عمه بقول الفقيه علي بن سلم فقال: وعزة الحق إني توضأت وشربت من الكوثر، ونفض لحيته فتقاطر منها الماء، ثم قال: يا فقيه نزل علينا شيء لو نزل على الجبال لدكت، ثم أنشأ يقول:

الحب حبي والحبيب حبيبي ... والسبق سبقي قبل كل مجيب
نوديت فأجبت المنادي مسرعاً ... وغطست في بحر الهوى وغدي بي
لي سبعة وثلاثة مع تسعة ... والعقد لي وحدي وعاد نصيبي
ما تعلمون أني المقدم في الملا ... ليلة سري باليثربي سرى بي

هذا حاصل ما ذكره في المشرع:

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه ونفع به:

عن الفقيه عمه ووالده ... علي ذي الأنوار غوث ناشده

ذكر في هذا البيت إمامين كبيرين أخذ عنهما الشيخ محمد مولى الدويلة، وهما عمه الشيخ عبد الله باعلوي ووالده الشيخ علي، فأما الإمام الأول فهو الشيخ الذي سارت الركبان بفضله، وأعملت المطي إلى طلب علمه وبذله، ذو الأحوال العجيبة والأخلاق الرحيبة، والكرم الفائض والقيام بآداب النوافل والفرائض، القطب الشهير عبد الله بن الشيخ علوي بن الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم رضي الله

عنهم، ولد ـ رضي الله عنه ـ بمدينة تريم سنة ثمان وثلاثين وستمائة وقيل سنة أربعين، وأخذ عن جده الأستاذ الأعظم وهو صغير، وتربى في حجر أبيه، وتفقه على الإمام السيد الشهير الفقيه أحمد بن عبد الرحمٰن بن علوي بن محمد صاحب مرباط، والشيخ الكبير عبد الله بن إبراهيم باقشير، ذكر ذلك في المشرع. وقال في شرح العينيّة: عبد الله باعلوي ممن جمع الله له بين علمي الشريعة والحقيقة وسلوك الطريقة، جاور بمكة ثمان سنين، ونفع الله به أهلها، وصحبه طوائف الأكابر من العلماء والمشايخ الفضلاء، قال السيد الشيخ عبد الرحمٰن السقاف: اتفق أهل زماننا على أن الشيخ عبد الله باعلوي بقية المجتهدين، وقال الشيخ البدل علي بن سلم: كنت أنا والشيخ عبد الله باعلوي بمكة في شهر رمضان، إذا فرغنا من صلاة التراويح أحرم كل واحد منا بركعتين نقرأ فيهما القرآن كله، ولا نتعشى إلا بعد فراغنا منها بعد حل الصيام بجرعة ماء أو تمرة، قال: وكنت أدرس معه القرآن فما يذهب كل منا حتى نقرأ نصف القرآن. انتهى، وكان نفع الله به ينفق على جميع آل باعلوي في زمانه وأخدامهم، وتصدق بأمواله كلها إلا القليل على مسجد آل باعلوي، بما قيمته تسعون ألف دينار على عمارته وضيفانه الواردين، وتصدق بقبان[1] البلد على حفار المقابر بتريم، وتصدق مرة في مجلسه بخمسمائة دينار، وأنفق في حجته تلك عشرين ألف دينار، وكان مع سفره إلى الحرمين، اجتمع بالشيخ الكبير الإمام الشهير عمر بن ميمون صاحب أحور وأخذ عنه مع ما ذكر عنه أنه عظمه واحترمه، وقبّل قدمه بين أصحابه وحشمه، ولما رجع الشيخ عبد الله من الحرمين، قصد مدينة أحور لزيارة شيخه الشيخ عمر، فوجده قد مات، وقد غسلوه وكفنوه. وكان الشيخ عمر لما احتضر طلب أصحابه منه أن يقدم عليهم واحداً منهم يكون خليفته عليهم من بعده، فقال لهم: إذا مت فغسلوني وكفنوني، وسيقدم عليكم عند ذلك شيخ صفته كذا وكذا فهو الشيخ بعدي، فقدموه في الصلاة عليّ. فلما قدم عليهم الشيخ عبد الله صاحب الترجمة بالصفة المذكورة، أخبروه بوصية الشيخ عمر، فتقدم وصلى بهم عليه، ولازموه في الإقامة عندهم ليكون شيخاً عليهم فاعتذر عن ذلك، ثم رأى ولد الشيخ عمر أهلاً للمشيخة فحكمّه

(١) هكذا في الأصل والقبان الذي يوزن به كما في لسان العرب.

وألبسه الخرقة الشريفة وأقامه شيخاً، وقال له: اشدد خواصرك فإني أمرت بتقديمك. ثم ارتحل عنهم إلى بلدة تريم، فرحبت به بقاعها وأنس به أهلها الأنس العظيم، فأقام به كهفاً للمساكين ومرشداً للطالبين ومسلكاً للمريدين، ومجيباً لرسوم الدين وطريقة سلفه المهتدين، وناصحاً للمسلمين، حتى أتاه اليقين، فانتقل إلى رحمة رب العالمين يوم الربوع للنصف من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة من الهجرة، ودفن بمقبرة زنبل وبشار، بعد أن تخرج به من العارفين الكبار خلائق لا يحصون، قال بعض أكابر العارفين. إن أكثر ما يفتح على آل عبد الله باعلوي بتلاوة القرآن، وأكثر ما يفتح على آل أخيه علي بن علوي بالذكر نفع الله بهم ورضي عنهم.

وأما الإمام الثاني فهو الشيخ الكبير قطب المقامات والأحوال، وسيد السادات الأبطال في المجاهدات والأعمال، سيدنا علي بن علوي بن سيدنا الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي رضي الله عنهم، ولد رضي الله عنه بمدينة تريم، وحفظ القرآن العظيم، وصحب الشيخ علوي أباه، ولحق جده الأستاذ الأعظم في حال صباه، فشملته بركاتهما، وفاضت عليه نفحاتهما، وكان الشيخ علي المذكور من أفراد الخواص العارفين، والأئمة المجتهدين المتمكنين، وأعيان السّادة الأقطاب المسلكين، وكان مجاب الدعوة كما تقدم في ترجمة الشيخ عمر المحضار أنه أحد الثلاثة الذين لم تزل خيلهم مسرجة ملجمة، منهم صاحب الترجمة، وله ـ نفع الله به ـ كرامات وخوارق عادات، وألبس من أكابر الصّالحين المتأهلين جماعات، وكان كثير الخلوة، كان يجاور عند قبر النبي هود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام رجب وشعبان ورمضان، وكان زاهداً في الدنيا. قال الشيخ محمد بن أبي السعود رحمه الله: جاءه ـ أي الشيخ علي ـ بشيء من الدنيا، فسمعته يقول: علي ابن علوي ودنيا، اللهم انقلني منها وانقلها عني، فمات بعد ذلك بشهرين أو ثلاثة، وكانت وفاته يوم الأربعاء سابع عشر رجب سنة تسع وسبعمائة، ولم يخلف من الذكور إلا الشيخ محمد مولى الدويلة والد السّقاف رضي الله عنهما.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

كـلاهمـا عـن عـالـي المقـام ... علـوي الغيـور الأسـد الضـرغـام

كلاهما أي الشيخ عبد الله باعلوي والشيخ علي بن علوي، أخذا عن والدهما الإمام الشيخ الهمام، عالي المقام أسد الله الليث الضرغام، ذي الشرف الظاهر والحسب الفاخر، والنور السافر والحال الباهر، والمقام العظيم والعلم الواسع الجسيم، والكرامات الخارقة والأنوار المشرقة الفائقة، والمعارف الربانيّة والأسرار الغيبيّة، القطب الواصل والإنسان الكامل، سيدنا علوي بن الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي قدس الله أرواحهم ونفعنا بهم، ترجم له الأئمة في طبقاتهم، وذكره المؤرخون في مؤلفاتهم. قال الشيخ محمد بن أبي بكر الشلي في مشرعه ما حاصله من منتزعه: ولد ـ رضي الله عنه ـ بمدينة تريم، وحفظ القرآن العظيم، وصحب والده وتربى في حجره، وتلقى عنه سره بأسره، وألبسه الخرقة الشريفة بيديه، وكان يحبه ويثني عليه، ويشير أن الولاية ستصير إليه، حكي أن والده أمره حال سلوكه أن يقطف من الزرع للغنم، فرجع إليه ولم يقطف منه شيئاً، وقال: وجدته كله يسبح الله تعالى فاستحييت أن أقطع شيئاً يذكر الله عز وجل، فدعا له بخير. وكان والده نفع الله به يقول: ولدي علوي يعرف الشقي من السعيد، وقال له يوماً: هل أنا من السعداء؟ قال: نعم، مكتوب على جبهتك سعيد، ومر يوماً بصبيان يلعبون فقال: اثنان سعيدان واثنان شقيان، فصار اللذان قال أنهما سعيدان فقيهين في الدين صالحين، وهما إبراهيم بن أبي صليب ـ بضم الصّاد المهملة مصغراً ـ والفقيه الشهير باعمرو، وأما الآخران فصارا يجمعان المال من غير حل ومتلبسان بمظالم العباد، وأخذ الشيخ علوي صاحب الترجمة عن الشيخ عبد الله باعباد وعن أخيه محمد، والشيخ الكبير عبد الله بن إبراهيم باقشير، والشيخ سعيد بن عمر بالحاف، وهؤلاء كلهم من تلامذة أبيه سيدنا الفقيه، وكل منهم أشار بأن سر والده قد انتقل إليه، وحكي أن الشيخ عبد الله باعباد سأل الشيخ علوي ـ قدس الله أرواحهم ـ عما ظهر له من المكاشفات بعد موت والده، فقال: ظهرت لي ثلاث: أحيي وأميت بإذن الله تعالى، وأقول للشيء: (كن) فيكون بإذن الله تعالى، وأعرف ما سيكون، فقال الشيخ عبد الله: نرجو فيك أكثر من هذا. وكان يقول: أنا بمنزلة الجنيد، ولما عزم على الرحيل إلى الحرمين الشريفين لأداء النسكين، وزيارة جده سيد الكونين عليه الصلاة والسلام، خرج من تريم وقصد

الشيخ العارف بالله تعالى عبد الله بن محمد باعباد، فشق ذلك على والدته زينب أم الفقراء لكونه هو القائم بعيالهم ومصالح إخوته ومؤنهم، وطلبت من الشيخ عبد الله أن يكلمه في العود إليهم، فكلمه فلم يرضَ، فأرسل إليها أنه لم يطاوعه على الرجوع إليهم، فأرسلت إليه أن يرده بجاه أو حال، وكتبت بذلك إليه وأكدت فيه عليه، فطلب الشيخ عبد الله منه الرجوع إلى تريم، فامتنع وقال: إنا إذا نوينا شيئاً لله لا نرجع فيه، فلما خرج احتال الشيخ عبد الله عليه في التعويق وسد عليه الطريق، وصار ما بين يديه كالجبال، فأشار إليها حتى صارت كالرمال، ومضى في قصده، فاعترف الشيخ عبد الله بالعجز عن رده، وكتب لوالدته بواقع الحال، وأنه لم يقدر عليه بجاه ولا حال، ثم قصد صاحب الترجمة الشيخ العارف بالله تعالى أحمد بن أبي الجعد لزيارته، فلما اجتمعا نزَّل كل واحد منهما الآخر منزلته، فقال الشيخ أحمد: أنت علوي الذي يقولون، فقال: أنا علوي وأعوذ بالله مما يقولون، فقال: أترى منزلة والدك؟ فقال: أراها وما أحطت بها، وقرأ بعض الكتب عليه، وأجازه ببقية الروايات التي لديه، ثم قصد بيت الله الحرام، وحج حجة الإسلام، وحصلت له بها كرامات وخوارق عادات، مذكورة في تلك التواريخ المطولات، وأخذ بمكة عن جماعة من العارفين والعلماء الراسخين، ثم قصد زيارة جده عليه الصلاة والسلام، فزاره مع صاحبيه وسائر من اشتملت عليه تلك الحضرة من الصحب والآل الكرام، ولما وقف في الحضرة وقف مستغرق الحواس، غائباً عن جميع الأجناس، فلما رجع إلى عادته وعاد من غيبته إلى شهادته، أخبر أنه أشهد جده عليه الصلاة والسلام ومعه الشيخان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنه قال له: أين منزلتنا عندك يا جد؟، فقال ﷺ: في العينين، قال: وأين منزلتي عندكم يا شيخ علوي؟، فقال: على الرأس، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أنصفت رسول الله ﷺ حيث يجعل منزلتكم في العينين، وليس يعدل العينين شيء، عليك شكرانية للفقراء مائة دينار تنفقها عليهم، فلما رجع الشيخ إلى نفسه وحضر من غيبته، قام فإذا شخص أعطاه مائة دينار، فأنفقها من وقته على المجاورين، ولما أبطأ الشيخ علوي ـ نفع الله به ـ عن التزويج، نطق ذريته من ظهره: نحن في ظهرك تزوج وإلا خرجنا من ظهرك، وكان لا تحمل له امـرأة إلا نطق حملها: أنا ابن صالح، أو عبد صالح، وكان غيوراً على اسمه، ما سمي أحد من آل باعلوي علوياً

أصلاً مدة حياته، وإن نوى به احتبس المنوي له التسمية باسمه حتى ينوي خلاف ذلك. ومن كراماته أيضاً أنه أتي بولد ابن ثلاثة أشهر مدنف ليقرأ عليه، فقال: من عمره مائة سنة ما يموت ابن ثلاثة أشهر، فكان كما قال عاش ذلك الولد مائة سنة. وكان ـ قدس الله سره ـ يسمع تسبيح الجمادات، وأتى مرة لزيارة النبي هود عليه الصلاة والسلام، فخطر في باله أن هوداً ليس في ذلك المكان، فغاص فيه ثم عاد وأخبر أنه وجده فيه وأنه تحدث معه، وشرط عليه أنه إذا صلى على نبيه محمد ﷺ أن يصلي عليه معه فأجابه إلى ذلك، ومرة كان يكرر عند قبره قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود: ٥٣]، فسمعه أجاب عليه بقوله: بلى يا علوي جئتهم بالبينة ولكن كذبوا. وأحواله كبيرة ومناقبه كثيرة، وكراماته مشهورة، وكانت وفاته ـ رضي الله عنه ـ إلى رحمة الله تعالى يوم الجمعة ثاني القعدة الحرام سنة تسع وستين وستمائة، ودفن بمقبرة السّادة آل باعلوي شرقي قبر والده سيدنا الفقيه، وحوله قبر الشيخ علوي عم أبيه، والشيخ علي أب الفقيه وعبد الله باعلوي وأخيه علي، ومن جهتهم إلى بحر سالم بصري وحوله عبد الله ابن الفقيه المقدم. هذا حاصل ما ذكره في المشرع وشرح العينية والسلسلة العيدروسيّة. وذكروا أنه تخرج به جماعات من الأئمة القادات، منهم إخوانه الأربعة المشايخ الكبار، أولي المعارف والأسرار، عبد الله وعبد الرحمٰن وأحمد وعلي، وسلكوا طريقته وطاروا بأجنحة شوقهم وهمتهم إلى ذلك المقام العلي. أمه وأمهم الشيخة العارفة بالله تعالى أم الفقراء زينب بنت السيد الفقيه الشيخ أحمد بن محمد صاحب مرباط، وتخرج به وأخذ عنه أيضاً ولداه الشيخان الكبيران عبد الله باعلوي وعلي بن علوي، ولم يعش من أولاده غيرهما رضي الله عنهم.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه ونفع به:

عن الإمام غوث أهل الدائرة ... حاوي العلوم الباطنة والظاهرة

مقدم القوم محمد بن علي ... شيخ المشايخ الولي ابن الولي

المذكور بهذين البيتين، والمعني بما فيهما من الوصفين، وهما التصريح بالإحاطة بالعلمين، والتحقق بمشيخة الطريقين، وإمامة الفريقين، هو الشيخ الإمام

وارث علوم سيد الأنام، الذي ليس للصوفية العارفين والأئمة المهتدين، و العلماء الراسخين والأبرار المقربين، حال ولا مقام إلا ومشى عليه بعلمه وحاله، وأطلق فيه عنان مجاله، حتى رقى إلى منتهاه، ووصل إلى أعلاه، فهو من فرسان ميادين تلك المقامات، ومن شجعان تلك الأحوال السابحة في معرك تلك المجاهدات، حتى تجلت له أوصال محبوبة في عالم الأسماء والصفات، ففني هذا الشخص الكريم عن نفسه وبقي بربه، وسكن بحبه وأنس بقربه، وشرب من سلافة خمر الحقيقة فهام بمدامها، وسمع لذيذ نغمات التوحيد من كلامها بعشقه، وطار بشوقه وحن بصدقه، حتى انخرقت له الحجب والأستار، وترقى إلى لطائف الأسرار، إلى أن بلغ مقاماً تقصر عن دركه البصائر والأبصار، وتحير فيه العقول والأفكار، وتعجز عن بلوغه المشايخ الكبار، كما سيأتي تحقيق ذلك فيما يذكر من مناقبه، ويوصف من عظيم ذلك المقام وعجائبه، فهو القطب المعظم والشيخ المحكم، والأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي بن محمد صاحب مرباط ابن علي خالع قسم بن علوي بن محمد بن علوي بن عبد الله بن أحمد المهاجر إلى الله ابن عيسى بن محمد بن علي العريضي ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين السبط ابن الإمام علي بن أبي طالب وابن البتول فاطمة بنت الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، ورضي عنهم ونفعنا بهم في الدارين.

ذكر هذا الإمام الأستاذ الأعظم أهل الطبقات، وأفردوه بمؤلفات في مناقبه وطريقه وتفرده وتحقيقه، ومقاماته وأحواله ومجاهداته وأعماله، وشهد له أكابر العارفين، بأن بدايته مثل نهاية غيره من المتمكنين المقربين، كما صرح بذلك سيدنا الشيخ عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ في أثناء قصيدة فريدة يمدحه بها إذ قال نفع الله به:

كانت بدايته مثل النهاية من أقـرانـه فـاعتبـر هـذا بتبيـان

واستشهد في المشرع لمقامه بهذا البيت، قال: وحق لمحبيه أن ينشدوا فيه: (والمقفي ما بعده من ولي) فهو لا شك خاتم الأولياء، قال: وخاتم الأولياء في

اصطلاحهم من بلغ مقام الولاية المحمديّة، وهو مقام القطبيّة الكبرى، كما يقال لمن ملك الروم: قيصر، والفرس: كسرى. انتهى، ومعناه أنه خاتم أولياء وقته، أو أنه خص من الولاية بمقام لا يخلفه فيه غيره، وإلا فمقام الولاية المحمديّة لا يخلو كل وقت من قائم به، ولذا قيد صاحب المشرع بقوله: وحق لمحبيه أن ينشدوا فيه، كما قيّد سيدنا العارف بالله تعالى شيخ بن محمد الجفري ـ نفع الله به ـ لما عجز وصدّر القصيدة المذكورة لسيدنا الشيخ عبد الله الحداد، حيث قال: (يا ظبي عيديد ما في الحسن لك ثاني) عندي، قيد ذلك بقوله: (عندي) أي وعند أهل دائرته وطريقته. وكذلك لما سئل سيدنا الشيخ عبد الله نفع الله به، عن سيدنا الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم وعن سيدنا القطب الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني، أيهما أفضل؟، أجاب بما معناه بأن هذين شيخان عظيمان كبيران، وانتفاعنا ومددنا واتصالنا بسيدنا الفقيه المقدم أكثر وأعظم، وأطلق العبارة في الجواب فلينظر من المسائل الصوفيّة له، وحاصل ما في ترجمة الأستاذ الأعظم من المشرع، وغيره ممن ترجم له فأبدع، كشرح العينيّة والفتوحات القدوسيّة في الخرقة العيدروسية، أنه ولد ـ رضي الله عنه وقدس روحه ـ بمدينة تريم، فسادت به على كل قطر وإقليم، وحفظ القرآن العظيم، وكان يبدي في حال التعليم من معانيه المعنى الجسيم، ثم اشتغل بتحصيل العلوم، وتفنن في أنواعها حتى استولى على معرفة المنطوق منها والمفهوم، وتفقه على شافعي زمانه وعلاّمة أوانه، عبد الله بن عبدالرحمٰن باعبيد مصنف الإكمال، وكان لا يبتدي الدرس حتى يحضر صاحب الترجمة، فأبطأ عليه ذات يوم ثم أتى إليه فسأله عن ذلك، فقال: ما آتي إلا بإذن من قبل الحق تعالى، وتفقه أيضاً على القاضي أحمد بن محمد باعيسى، وأخذ الأصول والعلوم العقلية عن الإمام علي بن أحمد بامروان، والإمام محمد بن أحمد بن أبي الحب، وأخذ علم التفسير والحديث عن الحافظ المجتهد السيد الإمام علي بن محمد باجديد، وأخذ التصوف والحقائق عن الإمام سالم بن بصري، ومحمد بن علي الخطيب، وعمه الشيخ علوي بن محمد صاحب مرباط، والشيخ الكبير سفيان اليمني، وكل منهم مدحه وأثنى عليه وأشار بأنه بلغ المقام الذي تصغر رتب الأكابر عنده ولديه، قال شيخه الإمام علي بامروان: اجتمعت فيك

شروط الإمامة العظمى. وقال الشيخ عبد الرحمٰن السقاف: مكث الفقيه المقدم في القطبيّة مدة مديدة، وله ـ نفع الله به ـ المجاهدات العظيمة، كان مكثراً من الصلاة والصيام، وكان يتعبد في شعب النعير الليالي والأيام، واتفق أن ولده الشيخ أحمد تبعه في بعض الليالي، فلما وصل إلى ذلك الوادي ذكر الله تعالى بلسانه وجهر، فذكر الله تعالى جميع ما في الوادي من شجر وحجر، فخر ولده أحمد مغشياً عليه، ولم يفق حتى رجع أبوه إليه، و من تواضعه أنه لم يصنف كتاباً مبسوطاً، وإنما ألف رسائل مختصرة تحتوي على علوم مبتكرة، منها رسالتان ذكر فيهما بدائع من علوم المكاشفات، وغرائب المشاهدات والتجليات، مشتملتين على معان دقيقة وعبارات رشيقة، أرسلهما إلى الشيخ سعد الدين بن علي الظفاري المتوفي ببندر الشحر سنة سبع وستمائة، فلما رآها وشاهد منها ما شاهد قلبه، حار فكره ولبه، وتعجب من فصاحة كلامه، واعترف له بعلو الرتبة، وكتب له في جوابهما رسالتين يقول فيهما: احذر من السكون والميل إلى تلك المكاشفات، والركون إلى هاتيك البراهين والآيات.. وذكر كلمات يخشى على المبتدي الاغترار بها والميل إليها، وذكر في آخر تلك الرسالتين: وأنت يا إمام أهدى من أن تهدى، واعرف بالظاهر والباطن منا، وكتب إليه:

إذا ما اكتفينا بالرسائل بيننا فلا أنا معشوق ولا أنت عاشق

وألف ـ نفع الله به ـ أيضاً رسالة ضمنها مسائل دقيقة وأسرار عميقة، في غوامض علم الطريقة والحقيقة، وأرسلها إلى الشيخ الكبير سفيان اليمني، فلما رآها علم أن منشئها ألقيت له مفاتيح الكنز ووصل لكيمياء السعادة، فاهتدى لتلك الشذور والرموز، ثم أطرق ملياً وكتب حيياً: هذا شي لا تصل إليه أفهامنا ولم تبلغه أحوالنا، وسئل ـ رضي الله عنه ـ عن ثلاثمائة مسألة في أنواع من العلوم، فأجاب عنها بأحسن جواب مرسوم. وجاء إليه رجل من أهل الشام وقال: ما جئت إلا لأجلك، ولكني وجدت عبد الرحمٰن المقعد جاثما على قلبك، فلو اجتمع أهل المشرق والمغرب أن يفكوه من قلبك ما قدروا، فإذا جاك فتحكم له فهو رجل مكتسب وأنت رجل ذو نسبة، فقال له الأستاذ: ما هذه النسبة؟، فقال:

سدرة المنتهى، ثم إن الشيخ الكبير القطب الشهير، أبا مدين شعيب بن أبي الحسن التلمساني، أرسل الشيخ الجليل ذا المقام الحفيل، عبد الرحمٰن بن محمد الحضرمي ثم المغربي الشهير بالمقعد، وكان من تلامذة الشيخ أبي مدين شعيب، فقال له: إن لنا بحضرموت أصحاباً اذهب إليهم، وخذ عهد التحكيم عليهم، وألبسهم هذه الخرقة، وأعطاه الخرقة وأمره أن يعطيها الأستاذ الأعظم، وقال له: أرى أنك تموت في أثناء الطريق، فإذا عرفت ذلك أرسل إليهم من تراه أهلاً لذلك، فسافر من تلمسان، فلما وصل مكة المشرفة حضرته الوفاة، فأوصى أجل تلامذته الشيخ الكبير عبد الله الصالح المغربي، وأعطاه تلك الخرقة الشريفة، وقال: ستدخل مدينة تريم، وتجد الشريف محمد بن علي يقرأ على الفقيه علي بن أحمد بامروان، فاغمزه وحكمه وألبسه هذه الخرقة وأعطاه إياها، ثم اذهب إلى مدينة قيدون إلى الشيخ سعيد بن عيسى العمودي فحكمه كذلك، ولما علم الأستاذ بخروج عبدالرحمٰن المقعد من تلمسان خرج للقائه، ثم علم بموته فرجع، فقدم الشيخ عبد الله الصالح مدينة تريم، ووجد الأستاذ الأعظم كما قال له شيخه، فجلس عنده وقال له: أيّ جوهرة أنت لو ثقبت، قال: وما الثقب؟، قال: التحكيم، وأخبره بما أتى لأجله، وأعلمه بأمره كله، فرغب سيدنا في طريق السّادة الصوفية وزي الفقراء، وترك الرياسات واطرحها جملة واحدة، قال الشيخ عبد الله الصّالح: فحكمته، وما شاور شيخه أبا مروان. فلما رجع وفي رأسه الخرقة اغتاظ عليه، وقال له: رجوتك إماماً مثل ابن فورك، فتركت صحبتنا ورجعت إلى زي الصوفية، أو كما قال، فقال له سيدنا الفقيه: الفقر خير، فهجره أبو مروان إلى أن توفي وسيدنا الفقيه غائب بالعجز، قرية بأسفل حضرموت على نحو نصف مرحلة من تريم، فلما بلغته وفاته سار إلى تريم ليحضر الصلاة عليه فوجده قد دفن، فدخل مسجد الجامع وطلع منارته، وآلى على نفسه أن لا يخرج منها حتى يأتيه الشيخ الإمام علي بامروان من قبره، ويجتمع به ويزيل ما في خاطره، فأتاه الفقيه علي وقت السحر، واستمر عنده إلى أن جاء حميد المؤذن ليؤذن الفجر، وطلب منهما الدعاء فدعيا له بخير. قال حميد المؤذن: سمعت الفقيه محمد بن علي قال للإمام أبي مروان: إيش أنا عندكم؟ فقال يترجاك أهل البرزخ كما يترجى أهل حضرموت

الخريف. قال الشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس قدس الله سره: قلت: وذلك أكمل ما يكون فيه الترجي والانتظار، إذ النفوس بطبعها تشتاق إلى زمن الخريف، لما فيه من التفكه والتوسعة على القوي والضعيف، ولا سيَّما أهل حضرموت لضيق معايشهم وقلة ذات أيديهم، فلا يأتي وقته غالباً إلا وقد اشتد إليه احتياجهم، لأن كثيراً منهم ليس له حرفة ولا كسب، وإنما تكون معيشته مما يجتمع له من التمر في أوانه، فيبيع بعضه ويترك بعضه للأكل. انتهى، وروي أن سيدنا الأستاذ الأعظم لما انخلع عن زي الفقهاء إلى طريقة الفقراء، دعا لذريته حينئذ بثلاث دعوات: الأولى: بذل النفوس ولا يرجعون إلى العموميّة أي لا يزالون على زي الفقراء، الثانية: أن لا يسلط عليهم ظالماً يؤذيهم، الثالثة: أن لا يموت أحدهم إلا وهو مستور في دنياه أي لا يكون به حاجة تضر بدينه، فقبلهنَّ الله تعالى. ثم سار الشيخ عبد الله الصّالح المغربي إلى الشيخ سعيد بن عيسى العمودي وحكمه، وحكم لنفسه الشيخ باعمرو صاحب عورة، والشيخ باحمران صاحب ميفعه، ولما مرض الشيخ عبد الله الصالح عاده سيدنا الفقيه المقدم وحضر عنده تلامذته المذكورون، فسألوه أن يستخلف عليهم شيخاً بعده، فسكت طويلاً ثم قال شيخكم بعدي صاحب السبحة، وقد جعلت ميراثي بينكم أرباعاً، وبناتي على يديك يا شيخ سعيد، وكان قد خلف سبحةً وعكازاً، وقدراً ومشعلاً، وبسطة ودلقاً، فخرج العكاز والسبحة للأستاذ الأعظم، والقدر والمشعل للشيخ سعيد، والحبوة والبسطة للشيخ باحمران، والدلق للشيخ باعمرو. قلت: ويؤخذ من ذلك أنه حصل لكل منهم من الحال والمقام من حيث الأمر الظاهر على قدر ميراثهم، فكان الأستاذ الأعظم مظهر الطريقة لأنه أول من أظهر اسم شيوخ طائفة الصوفية بحضرموت، فمنه بدت أعلامها وعلومها، وانتشرت عنه آدابها ورسومها، وعلى يديه جرت في نفوس المريدين أنهارها، وبسقت في قلوبهم أغصانها وأينعت ثمارها، وكان للشيخ سعيد مظهر الجاه وانتشار الصيت، والشيخان الأخيران كان مأخذ ميراثهما الخمول، فكان حالهما حيين وميتين كذلك، ودفن الشيخ عبد الله الصالح بأصبعون[1]، وقد

(١) قال في الهامش: محل قُرِيْب الساحل بميفعة.

كان من أولاد ملوك الغرب، فآثر سلوك الطريقة الصوفية، وهو أكبر تلاميذ الشيخ عبد الرحمٰن المقعد، وكانت لهما الكرامات الخارقة، والإشارات المفيدة الفائقة.

ثم إن سيدنا الأستاذ الأعظم لما أشرقت شموس معارفه، وبسقت أغصان عوارفه، واشتهر بتسليك الطريقة، وتحقيق معاني الحقيقة، قصده المريدون من الآفاق، وتحكم له الأكابر من العارفين السباق، وأكثر من صحبه ونال منه المواهب العظام والنفع الجزيل العام، الشيخان الكبيران العارفان بالله تعالى الشيخ عبد الله بن محمد باعباد، والشيخ سعيد بن عمر بالحاف. وممن تربى عليه وتخرج به الشيخ الكبير عبد الله بن إبراهيم باقشير، والشيخ عبد الرحمٰن باعباد، وخلائق من أهل بلده من فقرائه وخواصه، كالخطباء وآل بافضل وآل باحرمي وغيرهم، ومن أجلهم الشيخ إبراهيم بن يحيى بافضل صاحب الرباط، والشيخ علي بن محمد الخطيب، وأخوه الشيخ أحمد، والشيخ سعيد بن عبد الله أكدر، وأولاده المشايخ الأكابر علوي وعبد الله وعلي وأحمد، وأحفاده الأجلاء عبد الله باعلوي وأخوه علي، وأبو بكر بن أحمد، رضي الله عنهم. وكان الشيخ عبد الله باعباد لا تحتشمه زينب أم الفقراء زوجة الأستاذ الأعظم، لكمال اختصاصه به وشدة محبته له، ومن ثم كان يقول: لو كان الشيخ عبد الله قذاه في عيني لما أحجرتني، وقد كان الشيخ عبد الله من أكبر مشايخ حضرموت قدراً، وله كلام حسن في التصوف، وصحب الشيخ محمد بن علي في بدايته، واستفاد منه واقتبس من علومه، ثم رحل إلى الشيخ الكبير أحمد بن الجعد اليمني وأخذ عنه اليد، فخرقة آل باعباد في بدو الأمر عن الشيخ الأستاذ الأعظم، وخرقتهم في الظاهر لابن الجعد، وممن ترجم للشيخ عبدالله وأطال في مناقبه ومقاماته الإمام الشرجي في طبقاته، توفي الشيخ عبد الله المذكور سنة سبع وثمانين وستمائة، ودفن بمقبرة شبام بجرب هيصم، وهو بها المقدم، وله ذرية أخيار صالحون، أئمة أبرار عارفون، وأما الشيخ الكبير سعيد بن عمر بالحاف فكان ملازماً لسيدنا الأستاذ الأعظم، سائراً على آثار ذلك القدم المكرم، حكي أنه رآه مرة نازلاً من السماء ومعه شيء في ثيابه يشبه البيض والنور والشيخ سعيد يأخذه منه، فقال سيدنا الفقيه: يالحيف نحن نأتي به من فوق، وأنت تأخذه من هنا بلا تعب. وقد كان رضي الله عنه ـ أعني سيدنا الفقيه يسمع الهواتف

من جانب الحق جل وعلا تناديه، فكان مما نودي به: يافقيه اترك ما أنت عليه من الظواهر، وأقبل علينا نواصلك ونواليك، فإن لنا فيك مراداً، ولك منا ازدياداً، الزم تفريد التوحيد وتجريد التفريد، سنريك من آياتنا عجباً، ونمنحك من فضلنا الطلبا، فلا تشب مرادنا بمرادك، وارجع إلينا في مبداك ومعادك، ولا ترى تصريفاً لغيرنا فإن لنا خاصة من عبادنا سنوصلهم على يديك إلينا، وكان له ـ قدس الله روحه ـ حضرات محضورة ومشاهد مشهورة، ومجالس مشهودة ومحاضر معقودة، يحضرها الملائكة والأنبياء ورجال الغيب، والخضر والأولياء والصالحون الأصفياء، الأحياء بأجسامهم والأموات بأرواحهم، وفي ذلك قضايا يطول ذكرها، وحكايات يتعذر حصرها، وكان من خصوصيات هذا القطب المشهور محمد بن علي المذكور، أنه شهد له جماعة من العارفين الكبار أهل المعارف والأسرار، أنهم بعد موته ما صلوا على جنازة ميت إلا وهو يصلي عليه معهم، فلا يشك أنه ممن يصلي على نفسه بنفسه، وحكي أنه ذكر عنده المشايخ الأربعة المتصرفون بعد وفاتهم كتصرفهم في حياتهم، وهم الشيخ عقيل المنيحي، والشيخ معروف الكرخي، والشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ حياة بن قيس الحراني، رضي الله عنهم، فقال: ما أحد يتصرف عليّ من هؤلاء. وكان قد اشتهر في حضرموت في ذلك الوقت ثلاثة: سيدنا الفقيه المقدم والشيخ عبد الله بن إبراهيم باقشير ورجل غريب، فسافر الشيخ الكبير والولي الشهير، العالم الرباني المربي إبراهيم بن يحيى بافضل، وكان إذ ذاك في بداية أمره، ليسأل الشيخ أبا الغيث بن جميل عن أحوالهم، فلما دخل على الشيخ أبي الغيث ابتدأه على وجه الفراسة والمكاشفة قبل أن يسأله، فقال له: أما الفقيه محمد بن علي باعلوي فما وصلنا إلى درجته حتى نصفها لك، وأما الشيخ باقشير فرجل صالح، وأما الرجل الغريب فعلى صفة غير محمودة، وتوفي الشيخ أبو الغيث بن جميل قبل الأستاذ الأعظم بمدة طويلة، ومن المعلوم أنه بعد ذلك لم يزل يترقى إلى أحوال ومقامات عظيمة جليلة. وأما الرجل الغريب المشار إليه في الحكاية، فهو الذي افتضح وانكشف حاله على يدي سيدنا الشيخ علوي بن الفقيه، وذلك ما ذكروه في ترجمته في حكاية طويلة، أنه تعرض لعرض سيدنا الشيخ علوي، إذ لم يصل إليه زائراً بحضور بعض المتعلقين به، فلم

يتمالك ذلك الرجل أن لطمه، فخوفه الحاضرون ومن علم بفعله فيه، فأتى إلى الشيخ علوي وأخبره بما وقع ولاذ به، فقال له: لا تخف، وأمره بالمضي إلى داره فلم يقدر وبقي ملازماً له، وكان إذ ذاك في مسجد بني علوي، فحينئذ ذهب سيدنا علوي ـ نفع الله به ـ إلى الباب فحركه فسمع صوتاً مثل صوت الطائر، ثم ذهب إلى الباب الثاني فسمع مثل ذلك وسمع صوتاً كالأول. ثم قال: هذا الرجل معه جنيّان يؤذي بهما الناس فقتلناهما، فطابت نفس الرجل، وكان اسمه عيسى بن عمر، فخرج وأخبر جماعة بذلك، فلما عرف الرجل الغريب أن الجنيين قد قتلا هرب من البلد. . هذا معنى الحكاية، وكان الشيخ عبد الرحمٰن السّقاف رضي الله عنه يقول: ما نفضل على الشيخ الفقيه محمد بن علي أحداً غير الصحابة، أو من ورد في فضله نص نبوي كأويس القرني، وحكي أن الشيخ عبدالله باعباد أتى إلى تريم بعد وفاة الأستاذ الأعظم، واجتمع بزوجته أم الفقراء فقال لها: كيف حالكم بعد الشيخ محمد بن علي؟، فقالت: ويش حالنا بعده، فقال لها: في ولده الشيخ علوي خلف وعوض، فقالت: وما حال علوي مع أبيه، كان في حياة أبيه علم السماء عندنا كعلم الأرض يأتينا بكرة وعشية، وأما علوي فما يأتينا إلا يوماً بعد يوم أو يومين بعد يومين. وعن الشيخ الكبير العارف بالله فضل بن عبد الله بافضل ـ نفع الله به ـ أنه كان يقول: دابة الفقيه محمد بن علي تعرف طرق السّماء كما تعرف طرق الأرض، وكان الفقيه محمد بن علي ـ قدس الله سره ـ يقول: أنا لأهل بلدي كالغيث. وقال رضي الله عنه: علي من القارة إلى قبر هود، يعني في الشفاعة، وعن السيد الشريف الولي محمد بن علي بن عمر باعلوي أنه قال: لم يمت أحد من آل باعلوي إلا وقد أصلح له جده الشيخ الفقيه محمد بن علي منزله في الجنة.

ومن كراماته رضي الله عنه: أنه كان له فقير يقال له أبو خريصة، فسافر سفراً بعيداً وأبطأ فيه حتى انقطع خبره، ثم جاء شخص إلى الأستاذ الأعظم وقال له: إن أبا خريصة قد مات، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: إن أبا خريصة ما مات، فقيل له في ذلك، فقال: دخلت إلى الجنة قصراً قصراً فلم أجده فيها، ولا يدخل النار فقيري، فقدم أبو خريصة من سفره بعد مدة. وروي أنه كان يوماً جالساً مع أصحابه، إذ دخل عليهم بدوي وعلى رأسه زبد، فقام إليه سيدنا الفقيه وتقدمه،

وأخذ الزبد من رأسه وأكله، فتعجبوا منه حيث قام لبدوي وأكل الزبد من رأسه، فلما رجع إليهم سألوه عن فعله معه، وعن البدوي من هو؟، فقال: هو أبو العباس الخضر. وروي عنه أنه قال قدس الله روحه: تخلفت سنة من السنين عن زيارة قبر النبي هود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، فبينما أنا جالس في مكان سقفه متعالٍ، إذ دخل عليَّ النبي هود ـ عليه السلام ـ وهو يطأطي رأسه كيلا يصيبه السّقف، فلما وصل إليّ قال لي: يا شيخ إذا لم تزر زرناك، فقلت له: من أين أتيت الساعة، فقال: من عند ابني هادون، وأحوال هذا الإمام لا تحصى، وكراماته لا تعد ولا تستقصى. ذكر الشيخ الكبير إبراهيم باهرمز الشبامي أنه قال: من جملة كتبنا بشبام كتاباً مجلداً فيه مائتا كرامة للشيخ الفقيه محمد بن علي،وعن الشيخ شمس الدين بن عبد الله بن عمر باعباد أنه قال: رأيت مع الشيخ الولي عبد الرحمٰن بن محمد باهرمز ـ نفع الله به ـ أربعة كراريس في القطع الكامل، متضمنة لجملة حكايات ومناقب وكرامات للأستاذ الأعظم. وممن ألف في مناقبه العليّة وأحواله السّنية، الفقيه الإمام العلامة عبد الرحمٰن بن حسّان، وذكر أيضاً في تاريخه، وعدد أيضاً في المشرع الروي جماعة من أهل التواريخ والطبقات ممن ترجم لهذا الإمام قطب الأحوال والمقامات، ثم قال الشيخ عبد القادر بن شيخ ما حاصله: وقد شهدت له أرباب المكاشفة والنور، بأنه لا يخلو في عمره من سكرات شراب المحبة الخاصة الذي المخمور منها مأجور، وأما في آخر عمره وقرب انقضاء أجله، فوردت عليه واردات عظيمة ومشاهدات جزيلة، وأمور هائلة ملكوتية وأسرار غيبية، فأخذته عن نفسه وبقي مصطلماً مائة ليلة لا يأكل ولا يشرب مأخوذاً عن نفسه، وكان يقال له في تلك الغيبة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ فيقول: ليس لي نفس، ويقال له: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فيقول: ما أنا عليها، ويقال له: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ فيقول: أنا من نور وجهه، وكان يخبر في هذه الغيبة بأشياء كثيرة، وأمور غيبيّة وعلوم سريّة، ومغيبات تقع في بلدان بعيدة، فممّا أخبر به أنه يقع حريق ببغداد وأن الخليفة يقتل، فكان كما قال، وكذلك أخبر عن سيل عظيم يكون فكان أيضاً. وروي أنه ـ نفع الله به ـ أشار على أولاده ـ قدست أرواحهم ـ أنكم إن تركتموني من الأكل عمرت لكم زماناً طويلاً وأحقاباً كثيرة، أو كما قال،

فكان بعد ذلك كلما لازموه على أكل شيء امتنع، فلما بلغ الكتاب أجله، وقضى من الدنيا وطره وأمله، حرصوا على إيصال شيء من الطعام إلى جوفه، فلما ولج إليه سمعوا هاتفاً يقول: إن ضجرتم منه نحن نقبله، لو تركتموه من الطعام لبقي، وفي رواية: لمّا أحس بالطعام في بطنه فتح عينيه، وقال: ضجرتم مني، وتوفي ـ قدس الله روحه ـ آخر ليلة من ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وستمائة ودفن بجنان بشار، وعلى قبره من الجلالة وسواطع الأنوار، ما لا يعبر عنه إلا أولو المعارف والأسرار، وهو مشهور باستجابة الدعاء وفيض البركات وتنزل الرحمات، نفعنا الله به في الدارين.

خاتمة

لما كان الحديث شجون، ولمعاني الأخبار صور متشكلة بجوارح وآذان وعيون، وذلك أنا أوعدنا في ديباجة هذا الكتاب بذكر شيء يسير ونزر حقير، من مناقب الشيخ الكبير القطب الشهير سعيد ابن عيسى العمودي قدس الله روحه ونفع به، وذلك لمناسبات كثيرة ذكرناها في المسودة بعبارة بسيطة ممتدة، ثم حذفناها اختصاراً وخلفناها اختياراً، ومع النظر بالنسبة إلى من وقف على ذلك المحذوف، واعتبر ما كان عليه هذان الإمامان وذريتهما من الحال المعروف، عرف وجه النسبة وعذر سر المحبة، وستظهر أيضاً بما قاله الفقيه علي باعكابة في مؤلف له مختصر، في مناقب الشيخ سعيد المذكور، فإنه قال في خطبته: ولكل قوم مشرب، ولكل جيش مطلب، وللناس فيما يعشقون مدخل ومذهب. انتهى كلامه، ولله در ذي الرمة حيث يقول في هذا المعنى:

إذا هبت الأرواح من نحو جانب ... به أهل ميّا هاج قلبي هبوبها
هوىً تذرف العينان منه وإنما ... هوى كل نفس حيث حل حبيبها

وحق أن نذكر هذا الإمام، بذكر ذلك الإمام في هذا المقام، فنقول هو: الشيخ الكبير عديم النظير، قطب الأقطاب وصفوة الأولياء الأحباب، عظيم القدر، عريض الجاه طويل الباع في كل فخر، الراقي إلى مقامات الصديقية، المكاشف بالأسرار الغيبيّة، والمتصف بالأحوال العليّة، بحر المعارف الذي لا ساحل له يطاف، وبر السلامة الذي من وصل إلى حرمه أمن من الأخواف، مربي المريدين ومرشد السّالكين، وعين أعيان العارفين وأستاذ الأكابر المقربين، البالغ غايات كل كمال

غيبي وشهودي، الشيخ سعيد بن عيسى العمودي البكري الصديقي، كما أوضح هذا النسب العلي، السيد الشريف الولي الشيخ عبد الرحمٰن بن الشيخ علي، وأما لقبه بالعمودي فالظاهر أنه لما كان مكثراً للصلاة، التي هي أفضل قرب العبد في حضرة المناجاة وهي عماد الدين، سمي عمود الدين، من حيث اصطلاح أهل جهته بنقل العماد إلى العمود، بل ورد في الحديث بهذا اللفظ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة»، كان هذا الشيخ سعيد من أهل النفحات وأرباب الجذبات، وهبه الله تعالى حالاً عظيماً وأعطاه مقاماً جسيماً، وقد كان قبل ذلك أمياً لا يقرأ القرآن ولا يعرف العلم، فعلمه الله ما لم يعلم، فكان يرد على العلماء في المسائل الغامضة، وإذا استمع إلى القاري أرشده إلى الصّواب من اللحن والغلط، وإذا أتى إليه من اقترف ذنباً ألزمه التوبة مما فرّط. وكان ـ رضي الله عنه ـ كريماً جواداً سخياً، يفرق الأموال الكثيرة على المستحقين، ويطعم الفقراء والمساكين، ويكرم الأضياف والقاصدين، وأبناء السبيل المجتازين، وينفق على مريديه وفقرائه، مما أفاء الله عليه من خزائن غيبه وجزيل عطائه، وكان ـ رضي الله عنه ـ رجلاً جسيماً كبيراً، أسمر اللون كث اللحية، لا متكبراً ولا متجبراً، شعاره التواضع والانكسار، ملازماً للعبودية والافتقار، يركب الدابة على الإكاف بغير بساط مع عدم استنكاف، ويلبس ما وجد من الثياب ولو كان من إهاب، وكان ـ قدس الله سره ـ كثير المجاهدات، متنقلاً في أنواع المعاملات، مسافراً بصدق النيات، راقياً معارج الحسنات، ومصاعد الأعمال الصالحات، بمراقي الأخلاق المحمديات، روي أنه حج سنةً من السنين، فبينما هو يطوف ذات يوم بالكعبة، إذ سقط من الجوع والضعف، فرأى بعض الصّالحين الكعبة تطوف به، فنادى: عليكم بالأغبر عليكم بالأغبر، وقول هذا العارف لما رأى من حال الشيخ سعيد: (عليكم بالأغبر) مقتبس من قوله ﷺ «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه»، لأنه ـ نفع الله به ـ كان في صورة درويش، فحثهم على اغتنامه والتبرك بآثار تراب أقدامه.

وكان رضي الله عنه من أرباب الهمم العالية والعزائم السّامية، لما سمع في مناقب الشيخ أبي يزيد البسطامي، أنه حكى عن الحق ـ أي بطريق الإلهام ـ أنه تعالى يقول: كل الناس يطلبون مني غير أبي يزيد فإنه يطلبني، آلى على نفسه لا

يأكل طعاماً ولا يشرب شراباً حتى يرى منزلته عند الله، وامتنع عن ذلك أياماً، فلما كان ذات يوم سمع هاتفاً يهتف به من السماء: هلا ترضى أن تكون الساقي وأبو زيد المسقي، فقال الشيخ سعيد: رضيت رضيت، فأكل وشرب بعد ذلك. وقال نفع الله به: نلت من الله تعالى جميع الدرجات، وارتقيت إلى كل المقامات إلا درجة النبوة، فإني تواضعت واستحييت أن أطلبها، وقد قيل إنه ـ رضي الله عنه ـ قطب، ومكث في القطبية ثمانية عشر يوماً، ومكث فيها أبو مدين نصف يوم، والإمام الغزالي ثلاثة أيام، وقد أثنى على سيدنا الشيخ سعيد أكابر العارفين، وقصده بالزيارة من الجهات والأقطار أفاضل الصِّالحين من سادتنا العلويين، وغيرهم من الأئمة المهتدين، فقد رأيت تاريخاً لبعض زيارات سيدنا الشيخ عبد الله الحداد علوي نفع الله به، مما أثبته السيد العارف بالله تعالى عمر بن عبد الرحمٰن البار باعلوي، ما صورته:

ومما تفضل الله به علينا وقدره في سنة إحدى وسبعين وألف، أن أنهض الهمة وأطلق الأقدام بالسعي في جماعة من الأصحاب، إلى زيارة سيدنا وشيخنا السيد العارف بالله تعالى عمر بن عبد الرحمٰن العطاس، وكان الاجتماع به في داره بحريضة، وحصلت لنا فوائد ومنافع وإمدادات ظاهرة وباطنة، وذلك من فضل الله، ثم إنا سرنا من حضرته قاصدين زيارة الشيخ سعيد بن عيسى العمودي نفع الله به، وكان في أصل الهمة زيارة الشيخ عمر من الأحياء والشيخ سعيد من الموتى، وما اندرج في ضمن ذلك من عباد الله الصِّالحين الأحياء والأموات، فهو لاحق به وتابع له. انتهى كلام سيدنا الحبيب عبد الله، ولا يخفى ما فيه من التنويه بشأن هذين الشيخين، واندراج من في جهة الشيخ سعيد وناديه السعيد في ضمنه، وقد سبق في ترجمة الشيخ أبي بكر العدني ما نقلناه عن أهل الطبقات أنه كان يتردد إلى مشاهد الأولياء كالشيخ سعيد العمودي، وله ـ نفع الله به ـ مع سفره من تريم إلى الحرمين وعدن حكاية متداولة، تركناها لشهرتها إذا صحت، ويقال إن الشيخ سعيد خزانة آل باعلوي وهو حري بذلك، وحقيق بسر ما هنالك، لا سيما مع ما كان بينه وبين الأستاذ الأعظم من الاتحاد، السّاري فيهما في الذرية والأولاد، فكان أكابر السّادة العلويين، يقصدون مشهده في كل حين، وإلى هذا المعنى أشار

بل صرح به سيدنا العارف بالله تعالى الإمام الحبيب جعفر بن أحمد بن زين الحبشي، في قصيدة أنشأها في بعض زياراته للشيخ سعيد المذكور، ومن بدوعن المشهور من الأولياء الأبرار كشيخه الحبيب عمر البار قال فيها:

حادي العيس خلها وسراها ... لا تلمها على الذي قد عراها
ما تراها إذ لاحت أعلام نجد ... تترامى بنا كذا ما تراها
خلها تطوي السّباسب حتى ... تبلغ القصد من ربى ميَّاها
فإذا ما بدت لك أعلام وادٍ ... يدعى قيدون فانخ بفناها
زر لعالي العلا سعيد بن عيسى ... فهناك القلوب تعطى مناها
فهو باب مجرب للأماني ... وملاذ الأنام مما عراها
الإمام الهمام من قد تسامى ... في ذرى المجد وارتقى علياها
فيه مخزون سرنا آل علوي ... أخبرتنا بذا الثقات شفاها
يا ابن عيسى إني أتيتك ضيفاً ... وقراي منك القبول وجاها
فتشفع في كل أمر إلى من ... لك قد خص بالعناية جاها
إن لي حاجة إليك وأرجو ... بك أن تنقضي بغير مداها
والشجاع المنير زره وسل من ... فيض إمداده فلا تنساها
عمر الخير والمكارم والجود ... فلم يألُ جهده في وراها

أراد بالشجاع المنير: الشيخ الكبير عمر بن عبد القادر العمودي، خصه من بين ذرية الشيخ سعيد في أبيات النشيد، إذ هو من أكابر دائرة الحضرة الحداديّة، والمسلك في ذلك الوقت على الطريقة العموديّة، وإن كان تسليك المتأخرين وانتسابهم غالباً لطريقة العلويّة، لا سيما خاتم متأخريهم الأمجاد القطب الحداد، لكن كلها ترجع طريقة واحدة، وإن تفرقت شعبها المتباعدة، لاتصالها بالشيخ شعيب، واتخاذها هناك بلا ريب، وقد علمت بما سبق في ترجمة سيدنا الفقيه في حكاية وصول الشيخ عبد الله الصالح إليه، ثم بعد تحكيمه وأخذ اليد عليه للشيخ شعيب أبي مدين سافر إلى دوعن، مبلغاً لما استودع من الأمانة، مما استرعاه به

الشيخ عبد الرحمٰن المقعد وانتدبه إليه واستعانه، فجاء إلى قيدون فوجد الشيخ سعيد يرعى غنماً بواديها الميمون، فسلم عليه وحياه، فرد عليه وصافحه وآواه، ووجد عنده شيخاً يقطع لغنمه من الشجرة، فقال له الشيخ عبد الله المغربي: هل تعرف هذا الذي يقطع لغنمك، أهو من البررة أو الفجرة، فقال له الشيخ سعيد: هذا هو اللعين البعيد، فدعه يشقى فقد أشقاه الله، فلما سمع إبليس كلامه وعلم معرفته إياه، ولى فاراً وتطاير شرراً.

وقد تقدم في ترجمة سيدنا الفقيه أن ميراث سيدنا الشيخ سعيد من الشيخ عبدالله الصّالح القدر والمشعل، وأن في ذلك إشارة إلى مقام فخيم ومعنى أجل، وهو كثرة الجاه الواسع، وانتشار الصيت لدى القريب والشاسع، وفي وصيته ببناته على يديه مزية أخرى وقضية كبرى، تلوح بما صار من شعيب لموسى، وميراثه له بما أدّاه إلى أن رأى قبساً، وقد سبق فيما نقلناه في مقدمة هذا الكتاب، أن الطريقة العموديّة أحد الطرائق المشهورة المرضيّة، المعدودة من نحو ثلاث وعشرين طريقة، ذكرها سيدنا الإمام الوجيه الحبيب عبد الرحمٰن بلفقيه في كتابه (رفع الأستار)، ولكن لما كان هذا الشيخ الكبير أحواله كلها وهبيّة وعلومه لدنيّة، لم يدون منها إلا القليل، ولم يحفظ منها إلا اليسير، ومعظمها محجبٌ بأستار الغيرة، مجلبب بحجب أنواره الشهيرة، فترى الخلائق يلهجون بذكره، ولم يظهر لهم شيء من حقيقة سره، ولذلك من ذكره أو ترجم له من أهل العلوم والأعمال، لم يذكره إلا بالإجمال، لاحتياج التفصيل إلى الطول الممل أو التقصير المخل، أو لعذر آخر من الأعذار، كبعد الدار عن الدار، مثل الإمام الحافظ زين الدين أبو العباس أحمد الشرجي، فإنه ترجمه في طبقاته ترجمة لطيفة، وهي مع صغرها تشتمل على إشارات جليلة تحيفة، قال رحمه الله ونفع به: أبو عيسى سعيد بن عيسى العمودي، أحد كبار مشايخ حضرموت كان مشهوراً بالولاية الكاملة والكرامات المتعددة، يده في التصوف للشيخ أبي مدين المغربي بينه وبينه رجلان، كان نفع الله به شيخاً كبيراً كاملاً مربياً، تخرج به جماعة من كبار الصّالحين كالشيخ أبي معبد وغيره، وله في تلك الناحية ذرية مباركون وأتباع كثيرون، يعرفون بآل باعيسى على عرف أهل حضرموت في إلزام الكنية الألف بكل حال على لغة القصر، ولهم زوايا مشهورة،

وسيأتي ذكر من تحقق حاله منهم إن شاء الله تعالى والشيخ سعيد المذكور هو صاحب القصة التي تقدم ذكرها في ترجمة الشيخ أحمد بن الجعد، وهي مما تدل على كرامته وتصرفه، وكمال معرفته وولايته، وكانت وفاته ما بين الستين والسبعين وسبعمائة، وتربته هنالك من الترب المشهورة المقصودة للزيارة والتبرك نفع الله به.

هذا ما ذكره الشيخ الشرجي في ترجمة سيدنا الشيخ سعيد، وما ذكره في وفاته على وجه التقريب، حققه الفقيه العلامة عبد الله بن أحمد بازرعة الدوعني في نبذة له مختصرة، أرخ فيها وفاة جماعة من الأكابر من أهل جهته وغيرهم، وقال في تاريخ وفاة الشيخ سعيد: توفي سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، وعلى ما مر في وفاة سيدنا الشيخ الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم والشيخ عبد الله باعباد، أن الشيخ سعيد عاش بعدهما سنين كبيرة، وفيه بعد لا سيِّما وفاة الشيخ باعباد والشيخ سعيد، وقوله (وهو صاحب القصة. .) إلى آخره، هو ما ذكره القطب اليافعي في روضه، والشرجي في ترجمة الشيخ أبي الجعد، والفقيه علي باعكابه في مؤلفته السّابق ذكرها، ومعناها أن الشيخ أبي الجعد قدم على الشيخ سعيد قاصداً زيارة نبي الله هود ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ بحضرموت، إذ كانا يترددان لزيارته، وتحصل لهما النفحات والإمدادات بحضرته، كما قال السيد الولي الشيخ عبد الرحمٰن بن علي، في بعض قصائده:

والشيــخ سعيــد قــد أسقــي عند النبي هود وسمي العمود

فطلب الشيخ أحمد من الشيخ سعيد الموافقة في الزيارة، فاعتذر عليه بأنه لم تحضره النية في ذلك الوقت، فمضى الشيخ أحمد وأصحابه وتخلف الشيخ سعيد، ثم بعد ذلك بدا للشيخ سعيد أن يزور، فعزم هو وأصحابه وسار بهم، ولقي الشيخ أحمد راجعاً بمكان يسمى (كحلان) قريب تريم، فقال الشيخ أحمد للشيخ سعيد: قف وأنصف من نفسك، فقال الشيخ سعيد: من أقامنا أقعدناه، فقال الشيخ أحمد ومن أقعدنا ابتليناه، قال اليافعي: فابتلي الشيخ سعيد بالجذام مدة الحياة، وأقعد الشيخ أحمد إلى أن توفاه الله، قال: وهذه أحوال تقصر عن قطعها السّيوف الرهيفة، وتعجز عن سبقها الجياد الكرارة الخفيفة، وأنشدوا:

ويا لك من سيفين قدماً تضاربا بلا قود يجري ولا عقل أو جماد

هذا معنى الحكاية إذ لم يحضرني عند إثباتها شيء من هذه الكتب المذكورة، وفي مؤلفة باعكابة زيادات مفيدة، وذكر أن الشيخ أحمد سأل الشيخ سعيد عن أسئلة في السّلوك وعلوم القوم فأجابه بجوابات عجيبة سيأتي بعضها، وكذلك زيادات غير ذلك، وكان الشيخ سعيد إذا تواجد كثيراً ما ينشد أبيات رابعة العدوية:

يا قريباً من الفؤاد ... يا بعيداً عن النظر
أنت عذبت مهجتي ... أنت كلفتني السّهر
هكذا يا معذبي ... من بلي في الهوى صبر
ليس من يكتم الهوى ... مثل من باح واشتهر

ولما ذكر الفقيه عبد الله بازرعة ذلك في نبذته السّابق ذكرها، ذيّل هذه الأبيات، وبدا لي عند تعليق هذه الترجمة تذييلها أيضاً فقلت:

فالتهتك في الهوى ... عند ميّه معتبر
والغرام ولوعة ... والتروع إلى الوطر
للمحبة شاهد ... ليس يبقي ولا يذر
من زفير وعبرة ... ودموع كما المطر
فهنيئاً لشارب ... خمرة الحب في زمر
عاكفين على الولاء ... بالعشية والبكر
كالعمودي الذي غدا ... سعده في الملا بدر
لاحظته عناية الله ... في حالة الصغر
وترقى إلى العلا ... لمقام به افتخر
عاين الملكوت إذ ... غاب عن عالم الصّور
فعلا شأنه على ... ساكني البدو والحضر
وغدا كعبة به ... في الملا طافت الزمر
وينال بجاهه ... كل أمر له خطر
وله حضرة بها ... نوره ضاء كالقمر
وعليه جلالة ... تلبس الحال من حضر

يـــا إلهـــي بجـــاهـــه وبســـــر لـــــه انتشـــــر
كـن لـه حـافظـاً مـن الشـر والبـــــؤس والضّـــــرر
وبـــــلاء ومحنـــــة ومـــــن الفقـــــر والبطـــــر
وخصـــــال قبيحـــــة عـــاقــت القلــب بـــالكــدر
وأصلـــح الشـــأن كلـــه يَـــالْـــذِي جـــوده غمـــر
ثـــم صـــلِّ علـــى النبـــي أحمـــد صفـــوة البشـــر
ثـــم آلـــه وصحبـــه عـــدّ مـــا سبّـــح الشجـــر

وله ـ نفع الله به ـ كرامات وخوارق عادات، في حياته وبعد وفاته، إذ هو من المشايخ المتصرفين في العالم بإذن الله تعالى في حياتهم وبعد وفاتهم، لا نطيل بذكر شيء منها، إذ مستند ظهور الكرامة إنما هو تقوية المريد وتثبيته في طريق الاستقامة، والشيخ سعيد ـ قدس الله روحه ـ معتقدوه من أهل البادية والحضر، عقيدتهم ثابتة المستقر، غير أنها تختلف من حيث اختلاف علمهم بشروط ذلك، واختلاف أغراضهم في سلوك تلك المسالك، لمعتقدي غيره من الصلحاء والأولياء والسّادة الأصفياء نفع الله بهم.

وله رضي الله عنه كلام فائق في طريق القوم، وفي الحقائق الذي يحسن من أمثاله في لجها العوم، فمن كلامه قدس الله سره: طريق الصوفيّة طريق محققين وطريق مجتهدين، فأما طريق المحققين فهجر الخلائق وقطع العلائق والاجتهاد في خدمة الملك الخالق، وأما طريق المقتصدين فالقيام والصيام وترك الآثام. قلت: قد شرح هذه المقالة الجامعة الفقيه الإمام عبد الله بازرعة في رسالته التي سبق ذكرها، وبين شيئاً من معناها من حيث بسط العبارة، وتفصيل الإجمال في هذه الإشارة. ومن كلامه رضي الله عنه ـ أعني سيدنا الشيخ سعيد ـ في صفة الفقير الصابر قال: أن يلبس مدرعة من البلاء، وَدَلَقاً من العزلة، ورداء من الخشوع، وسراويل من العفاف، ولحافاً من الحياء، وجبةً من المراقبة، وعكازاً من التوكل، ومشعلاً من الإيثار، ونعلاً من الصبر، وسواكاً من القناعة، ويتخذ راوية من العلم، وشراباً من المعرفة، فإذا وقف بباب المعرفة وقف بباب الملك القدوس. انتهى،

وإذا انتهى أعطي صفات غريبة يعرف بها، فإذا عرف بها كان أرق من الماء وأعلى من السّماء، فيكون جانبه أخصب من الصيف، وهمته أقطع من السّيف، وكلامه مجانب للحيف، مثله مثل البحر يغسل فيه الغاسل ويأكل من سمكه الأكل، الداخل فيه مستريح من تعب المسافة، وينجيه من المخافة، إن قال صدق، وإن قيل له صَدَّق، ينصف من نفسه ولا ينتصف لها، أي شيء رزقه الله رضي به واكتفى، ولا يظلم أحداً من خلق الله تعالى، وإن ظُلِمَ عفى، أولئك الذين هدى الله. ثم قال: يا إخوان من جد وجد، ومن جاهد شاهد، ومن اتقى ارتقى، ومن زرع حصد، والله قريب مجيب. قلت: هذه المقالة في صفة الفقير الصِّابر، جامعة لخصاله الحميدة ومعاني كماله المفيدة. وقد مر في مقدمة هذا الكتاب، أن الفقير الصابر أعلى وأفضل من الزاهد ومن الغني الشاكر، على ما سلف من الخلاف، مما لا يحتاج إلى استئناف، وأما وجه المناسبات في هذه الاستعارات فنشير إلى معانيها بالإيماء، وإن كان التجري على نفثات هذا العارف لا يحسن ممن له أست في الماء وأنف في السماء، لكن لا حرج ـ إن شاء الله ـ في ذلك من حيث المفهوم مما يتعلق باللفظ المرسوم. فأقول: اعلم أن الفقير الصّابر هو جليس الله وأنيس حضرة المناجاة، لاتصافه بالعلم وتلبسه بالتوبة وتطهره عن الغفلة، فإذا كان كذلك فحق له أن يلبس مدرعة من البلاء، لتقيه من العوارض الأربعة الشاغلة له عن الدخول إلى جنة الراحة والدعة، وهي الوقوف مع النفس في فلاة التفكر في طلب الرزق وهمّه، وتوقع الأخطار المتوهمة مما يستقبله، وقد غاب جميعها عن علمه، ووقوع الشدائد والمصائب عليه، وتوجه أنواع القضاء والقدر إليه، فإذا لبس تلك المدرعة أمن في سلوكه لتلك المشرعة، وأما دلق العزلة فهو الواقي من برد الذلة ومطر كل عيلة وعلة، لرضى لابسه بربه صاحباً وتركه للناس جانباً. قال بعضهم: مررت بجماعة يترامون، وواحد جالس بعيد منهم، فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله أشهى إليّ، فقلت: أنت وحدك، فقال: معي ربي وملكاي، فقلت: من سبق من هؤلاء، فقال: من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار بيده إلى السّماء، وقام وتركني. وقال حاتم الأصم قدس الله سره: طلبت من هذا الخلق خمسة أشياء فلم أجدها، طلبت منهم الطاعة والزهادة فلم يفعلوا، فقلت: ارضوا عني إن فعلت فلم يفعلوا، فقلت: لا تمنعوني

عنها إذاً فمنعوني، فقلت: لا تدعوني إلى ما لا يرضي الله فدعوني، فقلت: لا تعادوني عليها إن لم أتابعكم ففعلوا، فتركتهم واشتغلت بخاصة نفسي. انتهى، فمن اشتغل بنفسه فقد ادرع بدلق العزلة، وأمن إغواء الشيطان ولبسه، وأما رداء الخشوع، السّاري شعاره إلى نفوس أولئك الجموع، فهو صفة في القلب معناها الحضور مع الله، والفناية عمن سواه، فالمتحقق بمقامه وحاله، في جميع خصاله، يدل على الله مقاله، وينعش المريدين حاله، وأما لبس سراويل العفاف فهو الساتر عورته الحسية والمعنويّة باقتفاء الآثار المحمديّة، ثم بعد هذا الساتر المعبر به عن الاتباع الكامل، الذي حصل له به الترقي إلى معرفة حقيقة الدنيا وجميع الأشياء، التي منها نفسه الغويّة عن السبيل السوية، فلما عرفها مع ما هو من جنسها أمن من مكرها ونحسها، فحينئذ عرف ربّه وجلاله وعظمته وكبرياه، وبهت في حضرة الربوبيّة فتحقق بالعبودية، والتحف بلحاف الحياء، وعرف نفسه بالتقصير والقصور، والعجز الذاتي والفقر الجبلي، ثم لما علم طريق هذه المسالك بعد أن نجاه الله من تلك المهالك، نهض فلبس جبّة المراقبة لتكون له شعار مذكر في حضرة الملك، لئلا يغفل بلحظة ناظر أو فلتة خاطر، فيعرض عنه والعياذ بالله، ولحفظ أدبه في هذه الحضرة أمور أخر أيضاً، ومنها أن يتخذ عكازاً من التوكل على الله يتوكأ به من هم الرزق وخوف الخلق، الذين منهم النفس والشيطان والهوى، وغيرها من العلل والأدواء والأسوى، ويهش بها ورق كمال التوحيد والتفويض والرجوع إلى الله في جميع الأحوال، والإنابة إليه والطلب منه والاستعانة به، فحينئذ يحصل الرغد والخصب لغنم الأوطار، وينزلها بمولاها في جميع الأطوار، فيتخذ مشعل الإيثار، فيكون بين الملا كالشمس في رابعة النهار، فيقصده المريدون، ويحج كعبة تسليكه السالكون الناسكون، وقد رجع من حالة الفنا إلى البقاء، وخرج من حضرة خلوته التي تم له بها الارتقاء، فيحتاج في سفره هذا الثاني، إلى أسباب أخر ومعاني، فيتخذ أولاً نعلاً من الصّبر، وهو الذي استعان به الأنبياء وورثتهم على هذا الأمر، ويتخذ سواكاً من القناعة، يتطهر به من ذل أطماع مخالطة الجماعة، وزاوية تمسك ما أحيا به وما أسلفناه، مما منحه الله من خصال أصفيائه، ويتخذ أيضاً شراباً من المعرفة يأمن به العوائق المتلفة والعوارض الموقفة، فيكون حاله حينئذ كما قال العارف الذائق الشيخ عمر ابن الفارض نفع الله به:

قال لي حسن كل شيء تجلّى بي تملى فقلت قصدي وراكا

فإذا وقف بباب هذه المعرفة، فقد وقف بباب الملك القدوس، وانتهى إلى سدرة منتهى المحبة والمعارف، الصّافية من شؤم النفوس وتثبيط طوالع النحوس، وطلع نجم سعده بغروب بعده، فإذا انتهى إلى هذه الحضرة العجيبة الرحيبة، أعطي صفات غريبة، يعرف بها بين أقرانه وأمثاله وأخدانه، وهي الخمس والعشرون الخصلة الآتية في كلامه في شروط الشيخ وما في معناها، مما يتخلق به من الرحمة بالخلق والشفقة عليهم، والاحتمال لهم والسعي في مصالحهم، والقيام بحوائجهم وإرشاد ضالهم وإعانة طائعهم، والإحسان إلى ضعفائهم والرفق بهم، وغير ذلك مما يتعلق بالمرشد والمسلك المتأهل، مما هو مبسوط في كتبهم ومنقول عنهم. قال نفع الله به: فإذا عرف بها أي تخلق بها وعرفه غيره بها كان أرق من الماء لطفاً وعطفاً وحناناً وتواضعاً، وأعلى من السّماء أي همة وفتوة وعفافاً وإيثاراً، فيكون جانبه أخصب من الصيف، أي جوداً وكرماً وبذلاً للمعروف، وإرشاداً للخلق ودعوة وتقريباً لهم إلى الله تعالى، وهمته أقطع من السّيف، أي إذا توجه إلى أمر بحاله كان كذلك، فلو توجه إلى جبل لدكّه، كما وقع له في الحكاية المتقدمة مع الشيخ أحمد بن الجعد نفع الله بهما، هذا من حيث التأثير بهمة الحال وتوجهه بها إلى أمر من الأمور، وأما همة الكسب والإقبال بها فيكون كذلك، كما وقع للذي جاء إلى البحر يطلب الجواهر، والكلام في هذا المقال متسع المجال، بل وفي غيره من هذه المقالات الجامعة والإشارات المفيدة النافعة، ولكن القصد هنا الرمز بالإشارة إلى بعض معاني هذه العبارة. ثم قال نفع الله به: وكلامه مجانب للحيف، وذلك لصدق لهجته، وأريحية مهجته، لا يتكلم إلا بالحق، ولا ينطق إلا عن حق. ثم قال قدس الله روحه: مثله مثل البحر يغسل فيه الغاسل، ويأكل من سمكه الآكل، هذه صفة العارف، إذ هو لا يكدره شيء، ولا يلحق جواد جوده الكلال ولا لسان مقاله العي، وقد قالوا: كن مع العارف كيف شئت، ولذا قال الشيخ: الداخل فيه مستريح من تعب المسافة، أي أن هذا العارف إذا حصلت لمن رآه لمحة من إكسير نظرة، استراح من عناء سفره، ودعي بالمجذوب المجتبى المحبوب، لأنه بوصوله إلى حضرة المعرفة، التي هي طريق المحبة، لا يتعب في

السّير، ولا يستعين بالغير. قال قدس الله روحه: وتنجيه من المخافة، أي لما كان سبب في جذبته، ووصله إلى معرفته، كان أيضاً منجياً له وحافظاً له من مخافة القواطع والمهالك، التي يخاف منها السّالك، وهذا مقام الشيخ ـ نفع الله به ـ الذي رد به على الشيخ أحمد بن الجعد، لما قال له: متى يكون الشيخ شيخاً؟، قال الشيخ أحمد لا يكون الشيخ شيخاً حتى يمحو سيئات مريده من اللوح المحفوظ، فقال الشيخ سعيد: وكيف غفل حتى كتبت، وحكاية فقيره الذي أرسله يأتي له بالغنم من البادية، تشهد له بتحقيق هذا المقام، والتبجح بهذا الكلام. ثم قال رضي الله عنه إن قال صدق بتخفيف الدال المهملة، أي لاتصافه بمقام الصديقية، وقد سئل سيد الطائفة الجنيد بن محمد نفع الله به: هل يكذب العارف؟ قال: لا، واستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فقيل له: أيزني العارف؟، فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

ثم قال: وإن قيل له صدّق، أي صدق من أخبره بخير، وذلك لحسن ظنه الكامل، وجمعيته لخصال الفضائل والفواضل، وحسن أفعاله في معاملاته مع الخلق والخالق، وإنما يسوء ظن من ساءت أفعاله كما قيل:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه   وصدق ما يعتاده من توهم

قال نفع الله به: ينصف من نصفه ولا ينتصف لها، أي لشهوده تصريف معبوده، ومراقبته له في قيامه وقعوده، فهو متأدب معه في كل قضية، ملازم حد العبودية، كما قيل:

أعطِ المعية حقها   والزم له حسن الأدب
واعلم بأنك عبده   في كل حال وهو رب

قال قدس الله سره: أي شيء رزقه الله رضي به واكتفى، وذلك لأن العارف الواصل لكمال وراثته له ﷺ لا يقف على معلوم، كما ورد أنه ﷺ يدور على بيوت أزواجه فيقول: هل من غداء؟ فإذا لم يجد شيئاً قال إذاً أصوم، قال قدس الله روحه: ولا يظلم أحداً من خلق الله، وإن ظُلِمَ صبر وعفى، الظلم أنواع، وفي إطلاقاته مجالات واتساع، وكذلك كل ما ذكرناه هنا من هذه الكلمات في سلوك

الطريق له مجاز وحقيقة، وحقيقة الإيمان ودرجة الإحسان أن يصبر ويعفو عمَّن ظلمه، لأن ذلك من صفة أولي العزائم، كما قال تعالى ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وعدم التشفي أيضاً من أخلاق عباد الله، كما سبق في المقالة الأولى، وقد أرشد إلى هذا المعنى الأستاذ القطب الحداد، حيث يقول في الإنشاد:

وأنصف ولا تنتصف منهم وناصحهم وقــم عليهــم بحــق الله وانتــدب

وأجل من تخلق بهذا الخلق من المشهورين والأكابر العارفين الشيخ أحمد الرفاعي، كما هو مذكور في ترجمته، وكل منهم له حصة من هذا الخلق العظيم، ثم قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ . . الآية، أرشد السّالك ـ نفع الله به ـ بعد ذكر من هذه أخلاقه وأفعاله ومقاماته وأحواله، أن يقتدي به في هذه الصِّفات، ويستضيء بأنواره في الأعمال الصّالحات، كما أمر الله نبيه ﷺ لما قص عليه من أخلاق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. ثم قال الشيخ سعيد نفع الله به ـ بلسان الدعوة الخاصة والعامة: يا إخوان من جد وجد، ومن جاهد شاهد، ومن اتقى ارتقى، ومن زرع حصد، هذه الكلمات فيها تخصيص للخصوص وتعميم للعموم، والمعنى أنه لما ذكر أخلاق العارفين والمشايخ الواصلين والفقراء الصّابرين، نبّه بهذه الكلمات الأخيرة قلوب الغافلين ونفوس الجهال المعرضين، أن هذه المواريث العظيمة والأوصاف الكريمة، إنما هي بعد توفيق الله تعالى ثمرات، ونتائج معاملات سِرِّيات ومقاصد قلبيات وهمم علويات، فإن من جدَّ أي صدق الله في قصده وجد حلاوة مصافاته لعبده، ومن جاهد نفسه وزكاها شاهد الغيوب عيناً ووصل إلى منتهاها، ومن اتقى المحرمات والشبهات والشهوات ارتقى إلى العوالم الملكوتيات، وجاور مولاه غداً في أعلى الجنات، ومن زرع بذراً حصد مثله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، يشهد لهذه المعاني قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠] ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

يَـرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡـمَلۡ مِثۡقَـالَ ذَرَّةٖ شَـرّٗا يَـرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] إلى غير ذلك من الآيات والأخبار، وفي مقدمة هذا الكتاب، من هذا المعنى العجب العجاب، وقولنا في مقالات الشيخ نفع الله به: إنه قالها مخاطباً بلسان الدعوة الخاصة والعامة بتصديرها بقوله: (يا إخوان)، فهي من حيث الخصوص مراده بالإخوان الذين يفهمون عنه رموزه وإشاراته من أمثاله ونظرائـه وأقرانـه، أو إخوان طريقته من خواصه وفقرائه ومحبيه وأعوانه، أو جميع سالكي الطريق، أو معاشر المسلمين من كل فريق، أو إخوان أمة الدعوة من البشر، لأن كل وارث يدعو أمة نبيه بما كان عليه ذلك النبي من الأثر، وقد قال ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، وفي إتيان الشيخ بهن أخرى، فيه إشارة إلـى مدح مقام البقاء المعروف، ودوام الارتقاء بذلك السير الموصوف، لأن الواصل إلى الله هو العارف بحق القيام لمولاه، وقد أطلنا النقل في هذا المبحث عند قول سيدنا وشيخنا الناظم نفع الله به:

ونظمت أسماء أرباب الوصول ورزق التـالـي مـن الله القبـول

ثم ختم سيدنا الشيخ بذكر اسمين من أسمائه تعالى الحسنى، أتى بهما لمعنى، فقال: والله قريب مجيب، المراد بقربه تعالى قربه بالرحمة والفضل والإحسان، لأن ذلك مناسب بعد ذكر المجاهدة، مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي بالمجاهدة الفائقة والمعاملة الصادقة، الموصوفة قبل ذلك بالاتصاف بما هنالك، مجيب أي مجيب لندائهم، إذا دعوه مغيث لهم إذا استغاثوه، إذ هم أهل الله ومحبوه، لقوله تعالى: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»، والله أعلم بحقائق مراد هذا العارف من الأسرار، وهذا ما جرى به القلم بلا تكلف، وما أدَّاه الخاطر الفاتر أثبته في الحال بلا تأمل ولا تخلف، والقصد التبرك بخدمة استخراج بعض معاني هذه الكلمات، ليعلم الواقف عليه أن لو تكلم عليها متأهل كيف يفتض عرائسها المبتكرات، والله غفور رحيم.

ومن كلام سيدنا الشيخ سعيد نفع الله به، وهو ما أشرنا إليه عند قوله في أثناء المقالة الأولى المشروحة في وصف الواصل، والإنسان الكامل: فإذا انتهى أعطي صفات غريبة، قال قدس الله روحه: تحرم المشيخة على الشيخ مهما رضي أن يقال له: يا شيخ، فهو نصيبه من الآخرة، ويحق للشيخ أن يكون فيه خمس وعشرون خصلة من شروط السنة المذكورة: أن يكون جوال الفكر جوهري الذكر، قليل المنازعة كريم المراجعة، عظيماً حلمه كثيراً علمه، أوسع الناس صدراً وأذلهم نفساً، ضحكه تبسماً واستفهامه تعلماً، مذكراً للغافل معلماً للجاهل، لا يشمت بمصيبة ولا يذكر أحداً بغيبة، أمين على الأمانات بعيد عن الجنايات، لا يجهل على من جهل عليه مسرور بمن أتى إليه، أنس للغريب عون للمسلمين في كل أمر مبهم تعيب، أبٌ لليتيم ومعين للضعفاء والمساكين، حزنه في قلبه مسرور بربه، مستوحش من أهل الدنيا، لا يبخل ولا يعجل، ولا يضحك ولا ينتصر، ولا يغتاظ على من يؤذيه بل يحلم ويصفح، لا يخوض فيما لا يعنيه، إن شتم لم يشتم، وإن سئل لم يمنع، وإن منع لم يغضب، ألين من الزبد وأحلى من الشهد، قريب من الخير وأهله، بعيد من الشر وأهله، غضبه بحكم عدله، ولا يكون الشيخ شيخاً حتى يكون عالماً بأصول الدين وفروعه، فالأصول سبعة والفروع سبعون. قلت: وقد سئل سيدنا الشيخ عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ عن قول سيدنا الشيخ سعيد: (ولا يكون الشيخ شيخاً حتى يعلم بأصول الدين وفروعه) إلى آخره، فأجاب بقوله: اعلم أن قول الشيخ هذا قول صحيح محقق، فإن قوله رضي الله عنه: (حتى يعلم أصول الدين وفروعه) على الإجمال أو على التفصيل، من طريق الكسب والتعلم، أو من طريق الوهب والإلهام، كما وقع مثل ذلك لهذا الشيخ ـ أعني الشيخ سعيداً ـ فإنه كان أمياً، وكذلك جماعة من الأشياخ مثل الشيخ أحمد الصيّاد والشيخ علي الأهدل والشيخ أبي الغيث وغيرهم، رحمهم الله تعالى. وأما قول الشيخ رحمه الله: الأصول سبعة والفروع سبعون، فلا يمكن التنصيص على ذلك بالتعيين، لأنه ربما يكون الشيخ أراد بقوله هذا شيئاً من معاني الدين الباطنة تتأصل وتتفرع على ما ذكره، كما قال بعضهم: لا بد للشيخ من إقامة الفريضة والسنة، ثم قال: الفريضة محبة المولى والسنة الزهد في الدنيا، أو كما قال، فحاصل كلام الشيخ أنه لا بد للشيخ من علم بأمر

الدين على الوجه الأكمل في الباطن والظاهر، وقد ورد: ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلمه. انتهى جواب سيدنا الشيخ عبد الله نفع الله به.

ومن كلام الشيخ سعيد نفع الله به: لا يكون الشيخ شيخاً حتى يسلم عليه الحجر والشجر، تقول: السلام عليك يا شيخ. وقال رضي الله عنه: عند الميزان يتبين الراجح من المرجوح، وعادها تبين في يوم غد، اشهد على ما أقول أني وأصحابي يوم القيامة في ظل عرش الله، وإني أعرف فقرائي يوم القيامة، وكان يقول: الثمر كثير والحصاد قليل. وقال قدس الله سره: لا يصحبن أحدكم المشوم وإن أركبه. وقال قدس الله روحه: من زارني بعد موتي ثلاث مرات من غير حاجة له ولا مقصد إلا زيارتي ابتغاء وجه الله تعالى فأنا ضمينه على الله بالجنة، وقال: زيارتي بعد موتي أفضل من زيارتي في حياتي.

وقال قدس الله روحه: ليس لأحد من المشايخ فضل إذا أحب أن يحمد بما يفعله من المعروف إلى فقرائه، لأن فقراءه كأولاده، فليس أحد يحمد في ولده، وإنما يحمد من فعله في الأباعد من الناس، فَوَعِزَّةُ ربي وجلاله إنها علي من الكادي إلى قبر هود، والكادي بأعلى وادي دوعن وقبر هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأسفل حضرموت.

وقال رضي الله عنه: من قال: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة، ورضي بي شيخه كنت له شيخاً. وقال رضي الله عنه: كل من رضي بي شيخه ولم يمد يده إلى غيري، فقد وعدني الله له بالمغفرة، وأشهد الله على نفسه بما وعدني، والله على كل شيء شهيد، وتخرج بالشيخ سعيد خلائق لا يحصون وانتفع به كثيرون، فممَّن أخذ عنه وتخرج به حتى فاق الأقران والأشكال، وترقى على فنن المقامات والأحوال: الشيخ الكبير محمد بامعبد، والشيخ الكبير محمد بن سالم بازير[١]، والشيخ باعشن، والشيخ بايزيد، والشيخ باحاج صاحب ريمة، وكل هؤلاء لهم كرامات وأحوال عظيمات، وذرية مباركون معتقدون محترمون، ورباطات مشرقة بالأنوار مشتملة على أسرار، ومن أكابر أصحاب

(١) هكذا في الأصل ولعله باوزير.

سيدنا الشيخ ناجه بن أمتع صاحب رحاب، والشيخ سليمان بن عبد الله بامنيع صاحب الخريبة، وآل أفلح علي وأفلح، والشيخ حسن بالخير، وعبد أسود بحجر، نفع الله بهم، وأما أولاده الكرام الأئمة الأعلام، خلفاؤه على أسراره، وورثة بركاته وأنواره، فجلوا عن أن يحصيهم الحصر أو يحدهم، فقد طبقوا هذا القطر كثرة وعلماً وصلاحاً، واشتهروا بالتحقيق والاجتهاد في العلوم الشرعيّة والعمل بها. فمنهم أولاده المشايخ الكبار، من أجلهم حالاً ومقاماً وقدراً، جمال المقربين الأوحد الشيخ محمد، والشيخ الولي علي، ومنهم حفيده القطب الغيور الشيخ عمر بن محمد، المقبور بشعب خضم من الوادي الأيسر المشهور، وأولاده منهم العارف الأمي عثمان بن عمر، ثم ولده عظيم الشأن محمد بن عثمان عامر مسجد بضة، وقبره بقيدون يزار ويتبرك به. وولده الشيخ إمام الطريقين وشيخ الفريقين عبد الله بن محمد صاحب ذمار، ذكره الشيخ علي بن أبي بكر في البرقة ناقلاً عنه تاريخ وفاة الشيخ سعد الظفاري الشحري شيخ الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم، وذكره الفقيه عبد الله بازرعة في مؤلفته السّابق ذكرها، وذكر عنه أنه لما سمع قول البخاري: ما تصاغرت نفسي إلا عند علي بن المديني، قال أما أنا فما تصاغرت نفسي إلا عنه، قال: وتوفي في شهر صفر سنة أربعين وثمانمائة. انتهى ما ذكره بازرعة. وله مساجد بجهة دوعن معمورة وبالخير مأثورة، وأصحاب أجلاء منهم الشيخ الولي ذو النور الجلي، الفقيه أحمد بن أبي بكر بابقي، المقبور بتربة الخريبة العليا، ومنهم الشيخ العارف بالله تعالى الملقب بالنشوان المقبور بقرية شرق، وغلب لقبه على اسمه كالشيخ مولى الدلق، وغيره من الأكابر، ومنهم الشيخ الكبير أخوه أحمد بن محمد الملقب: القديم، عامر مسجد قيدون القديم من المحراب الذي في أثناه إلى شرق، ومنهم الشيخ أحمد بن محمد الملقب: الأخير، ذكره بازرعة وأثنى عليه ثناءً عظيماً، وقال: بلغنا أن النبي ﷺ دخل عليه في بعض خلواته يقظة، وتوفي سنة أربع وعشرين وتسعمائة، والشيخ عثمان بن أحمد القديم، والشيخ عثمان الأخير، وعمر بن أحمد الطيار، وولده الإمام عبد الله بن عمر صاحب العرض، والشيخ الكبير عمر بن أحمد الأخير، وولده الإمام عبد الرحمٰن، ترجم له في (النور السّافر)، وأخوه عثمان بن أحمد الذي نقل الزاوية إلى بضة، والشيخ

عثمان بن محمد، ذكره الإمام عبد الله بن عمر بامخرمة في تاريخه، في جملة الآخذين عن جده عبد الله بن أحمد بامخرمة، ووصفه بأنه عمدة دوعن وحضرموت، ولعله هو عثمان الأخير. ومن متأخريهم الشيخ أحمد بن عبد الرحمٰن، وقفت على ثبت بخطه أنه أخذ علي الإمام أحمد بن حجر الهيتمي صاحب (التحفة) والجمال الرملي صاحب (النهاية)، ومن تلاميذه الفقيه بازرعة المذكور آنفاً، ومنهم الشيخ العارف بالله ذو الحال الباهر الشيخ عمر بن عبد القادر، والإمام عبد الله بن عثمان المقبور بالدوفة، والإمام عبد الله بن سعيد المقبور برباط باعشن، والإمام عثمان باعبد القادر المقبور بوادي شغث، والإمام محمد بن عبد الله المقبور بقيدون، هؤلاء الخمسة أخذوا عن سيدنا الأستاذ الشيخ عبد الله الحداد، وترجم لهم سيدنا الشيخ محمد بن سميط في (بهجة الفؤاد)، وكم غير هؤلاء ممن ذكره أهل الطبقات وممن لم يذكره أحد، ممن لو صنف في مناقبهم وفضائلهم وعلومهم وأعمالهم ومجاهداتهم لبلغ مجلدات، والقصد الإشارة إلى ما أسلفناه، أن عدهم متعسر الإحصاء، فضلاً عن نشر ما تخلقوا به وما منحهم الله وأعطاهم من الأحوال العظيمة والمناقب الجسيمة، والعلوم الواسعة والمعارف والأسرار الجامعة، وفيهم وفي أمثالهم يصدق قول القائل:

من تلقَ منهم تقل لاقيت سيدهم   مثل النجوم التي يهدى بها السّاري

رضي الله عنهم ونفع بهم.

ثم ذكر سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ من أخذ عنه سيدنا الأستاذ الأعظم من آبائه ونجوم اهتدائه فقال:

عـن والـده علـي وعمـه علـوي   أهل الملاحقات والسير السوي

يعني أنه تأدب وأخذ هذا الإسناد المخصوص بالآباء والأجداد، عن والده السيد الشيخ علي وعمه الشيخ علوي، إمامي الأحقاف المنحصر فيهما نسب بني علوي الأشراف. فأما الإمام الأول، فهو الإمام المتمكن الجليل، السيد الشريف النبيل، الجامع لأوصاف التفخيم والتبجيل، الشيخ الولي علي بن الشيخ محمد صاحب مرباط ابن علي خالع قسم ابن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله،

ابن أحمد بن عيسى المهاجر إلى الله رضي الله عنهم. كان ـ نفع الله به ـ إماماً فاضلاً عالماً عاملاً، جواداً مفضالاً، له مجاهدات غريبة وأحوال عجيبة، تربى بأبيه الشيخ محمد وتخرج به، قال في (المشرع): وكفاه شرفاً أن جعل الله الأستاذ الأعظم من كسبه، وأخرجه من صلبه، ولم يكن له ولد سواه، وحسبه ذلك منقبة وكفاه، ولم تطل في الدنيا مدة إقامته، انتقل إلى رحمة الله تعالى ومغفرته سنة نيف وتسعين وخمسمائة.

وأما الإمام الثاني فهو الشيخ الإمام، أحد شيوخ علماء الإسلام، أوحد الأئمة الأعلام، البالغ مرتبة التخريج والإستنباط، علوي بن الشيخ محمد صاحب مرباط، باعلوي عم سيدنا الأستاذ الأعظم، والمفيض عليه من باهر نوره الأتم وسره الأعم، ولد ـ نفع الله به ـ بمدينة تريم، ونشأ بمغناها الوسيم، وحفظ القرآن العظيم، وأداه بالتجويد والتقويم، وصحب أباه في صغره، وحل عليه جميل نظره، وألبسه خرقة التصوف الشريفة، فسرت إليه أوصافه وأخلاقه المنيفة، وأخذ عن الشيخ الإمام سالم بافضل، والسيد الإمام الجليل سالم بن بصري، والشيخ علي بن إبراهيم الخطيب وغيرهم، وصحبه وتخرج به أئمة كثيرون، ومشايخ فضلاء عارفون، منهم أولاده أحمد وعبد الله وعبد الرحمٰن وعبد الملك،وابن أخيه الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم، وأثنى عليه الأكابر بأنه جامع لصفات الكمال حاوٍ لأشرف الخصال، التي يضيق الوقت عن إحصائها، والطروس عن إملائها، توفي يوم الإثنين لأربع خلون من ذي القعدة سنة ثلاثة عشر وستمائة، ودفن بمقبرة زنبل رحمه الله عز وجل، وقولنا (المنحصر فيهما عقب بني علوي) أعني الشيخ علي والشيخ علوي، تنبيهاً على أن عقب علوي بن عبيد الله منحصر في أبيهما الشيخ محمد صاحب مرباط، كما قال سيدنا الشيخ عبد الله الحداد ـ نفع الله به ـ في العينيّة:

ونـزيـل مـربـاطٍ أمـام جـامـع   أصـل لأشيـاخ الطـريـق مفـرع

وهو منحصر في ولديه المذكورين علي وعلوي، قال السيد الإمام علي زين العابدين ابن عبد الله بن شيخ العيدروس باعلوي نفع الله به، في رسالة مختصرة

ألفها في تعريف أصول بني علوي رضي الله عنهم: فالعقب من الشيخ محمد صاحب مرباط في اثنين: في علوي عم سيدنا الفقيه وفي ولده علي، فأما علوي فله العقب من اثنين، من عبد الملك له عقب منتشر بالهند، سمعت مولانا الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول إنهم يعرفون هناك بآل عظمة خان عسكر معروفون، وأما الثاني من ولديه فهو الفقيه عبد الرحمٰن فأعقب آل عوهج، ومنهم حسين القارة، وآل علي البيتي ببيت مسلمة وبتريم، ومنهم صاحب حوطة عبيد، ومن ذريته صاحب عيديد، وذريته آل بافقيه وآل الطيب، ومنهم حسين الطويل، ومن ذريته آل باحسن الحديلي، وآل باصرة، ومنهم أحمد مسرفة، ومن ذريته آل بافرج وآل باماكوتة وآل الحداد، ومنهم آل باسعد وآل باهاشم وآل عيسى بابطينة، ومنهم آل بامغفون، وآل المعلم باعبود من آل بامغفون، ومنهم آل السنهجية، ومن ذريتهم آل النظير وآل المحنحن، وآل بن سميط وآل الحقين، فهؤلاء ذرية سيدنا علوي بن محمد صاحب مرباط، وأما أخوه علي فعقبة محصورون في ولده الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم، وعقبة محصورون في ثلاثة من أولاده: علوي وأحمد وعلي، وهم عقب منتشرون، عددهم يطول، ويحتاج إلى طول في النقول، وبمعرفة أولاد سيدنا الشيخ علوي وعقبه وبطونهم، يعرف عقب سيدنا علي المنحصرون في عقب ولده الأستاذ الأعظم، لأنه إذا أشكل على مريد معرفة أحد العقبين، فلينظر إلى عقب سيدنا علوي عم الفقيه ، فإن وجده فيهم وإلا فهو من أولاد سيدنا الفقيه نفع الله بهم، وقول سيدنا زين العابدين: آل علي البيتي ببيت مسلمة وبتريم، احترز به من آل البيتي عقب سيدنا إبراهيم بن الشيخ عبد الرحمٰن السقاف فهم من ذرية سيدنا الفقيه كما هو معلوم، والله أعلم.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عن صاحب مرباط ذي المكارم   جمال دين الله عون العالم

هو الشيخ القطب الجامع الإمام القدوة، صدر المحققين وشمس التوحيد واليقين، جمال الإسلام والدين محمد صاحب مرباط بن علي خالع قسم ابن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى رضي الله عنهم، اشتهر

بصاحب مرباط ظفار القديمة التي على ساحل البحر قبل وجود ظفار الجديدة، التي أحدثها أحمد بن محمد الحبوظي المضافة إليه، وهي ـ أي مرباط ـ بساحل الهند كما في القاموس، انتقل إليها الشيخ محمد بن علي من حضرموت واشتهر فيها شهرة عظيمة، وبها توفي سنة ست وخمسين وخمسمائة، وقبره بها مشهور بإفاضة البركات واستجابة الدعوات، قال سيدنا الشيخ أحمد بن زين في شرح العينية ما ملخصه: كان الشيخ محمد بن علي متفنناً في جميع أصناف العلوم، وحيد عصره علماً وعملاً وحالاً، وفريد دهره زهداً وورعاً وعبادةً وصلاحاً، من رآه أو شاهده أدهش عقله جمال محاسنه، وكانت الملوك تهابه، وكان له جاه عظيم وقبول عند الخاص والعام، وانتشرت علومه بجهات اليمن وحضرموت وظفار انتشاراً عظيماً، وهو من كبار مشايخ الشيخ سعد بن علي المقبور بالشحر، والشيخ علي بن عبيد الظفاريين، وممن تخرج به أيضاً أولاده الأئمة الأربعة: علوي والحافظ عبد الله وأحمد وعلي والد سيدنا الفقيه، والشيخ سالم بن فضل، والشيخ علي بن أحمد بامروان، والقاضي أحمد بن محمد باعيسى، والشيخ علي بن محمد الخطيب صاحب الوعل، وله كرامات كثيرة، ومناقب شهيرة، وكان في الجود والكرم بحراً زاخراً، كان ينفق على أهل مائة بيت من الجن فضلاً عن الإنس، وفي رواية: مائة وعشرين بيتاً، وكان إذا وقع أوان الخريف يسير بأهله إلى بيت جبير، ويترك في بيته امرأة فتكشح منه الطعام المنبوذ، فيجتمع لها كل سنة منه إما أربعون قهاولاً وإما ثمانون، وذلك من إهمال الشيخ محمد بن علي ـ نفع الله به ـ الدنيا وزهده فيها، وفضائله ومناقبه كثيرة، ولناقليها غير محصورة.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عن شيخه عالي العلا خالع قسم　　علي ذي الأسرار والفضل الأتم

المذكور هنا الشيخ الكبير السيد الإمام، قدوة الأنام صفوة الآل الكرام، علي المعروف بخالع قسم ابن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله رضي الله عنه، ولد بمدينة بيت جبير ونشأ بها، وحفظ القرآن العظيم بالتجويد، وأخذ عن والده وصحبه وتربى به، حتى تصفى ذهباً خالصاً من ترابه، وفاق على أقرانه وأترابه،

وصحب أيضاً جماعات كثيرين من الحفاظ والمحدثين، وكان عالماً عاملاً فاضلاً، كاملاً عابداً جواداً، وكان يتردد إلى مدينة تريم، ثم سكنها هو وإخوانه وبنو أعمامه سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، واشترى أرضاً بعشرين ألف دينار، وسماها (قسم) باسم أرض بالبصرة كانت لأهله وغرسها نخلاً، وبنى داراً فيها ينزلها أيام الرطب، ثم بنى جماعة بيوتاً عنده، حتى صارت قرية وهي قرية قسم المشهورة، ولهذا سمي: (خالع قسم)، ولم تزل محترمة ليس للملوك فيها تصرف، ومن عمل فيها شيئاً من المخالفات أو أساء أو أظلم عوجل بالعقوبة، ولما استوطن مدينة تريم، قصده الناس من كل فج وإقليم، يستضيئون بسناه العظيم، فهو فريد الدهر ونادرة العصر، ذكره الأئمة في طبقاتهم، وعلماء التواريخ في مؤلفاتهم، كالجندي والشرجي وابن حسان، وغيرهم كالخطيب في جوهره، والسيد خرد في غرره، وذكروا له المنقبة العظيمة والكرامة الفخيمة، وذلك أنه ـ رضي الله عنه ـ كان إذا قال في الصلاة أو غيرها: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، يكررها حتى يسمع النبي ﷺ يقول له: وعليك السلام يا شيخ. قال السيد الإمام الحبيب أحمد بن زين الحبشي في (شرح العينيّة) لما ذكر هذه الخصوصيّة: وهذا مقام عالٍ لا يختص به إلا أفراد الأولياء وأكابر الأصفياء، ولا يحظى به ويناله إلا من ترقى في أعلى مراقي القرب ومن تحقق به فقد جمعت له فضائل الشرف وأعلى معالي المجد، فقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراوي أنه لا يصل إلى مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ وسماع صوته برد السلام عليه، إلا من قطع مائتي ألف مقام وسبعة وأربعين ألف مقام وتسعمائة وتسعة وتسعين مقاماً من مقامات الأولياء. وقال الشيخ أبو العباس المرسي لأصحابه: أفيكم من إذا سلم على رسول الله ﷺ في صلاته سمع رد السلام عليه بأذنه، فيقولون: لا، فيقول: ابكوا على قلوب محجوبة عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ. أما السيد علي بن علوي المذكور، فقد سمع خطاب النبي ﷺ ورد السلام عليه في الصلاة وغيرها، يقول له: وعليك السلام يا شيخ، فالنداء من معدن الوحي والنبوة بالشيخوخة منقبة، والسماع في غير الصلاة منقبة أخرى، توفي ـ قدس الله روحه ـ بتريم سنة سبع وعشرين وخمسمائة، ودفن في مقبرة زنبل رحمه الله عز وجل.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عـن علـوي أبيـه ذي الأحـوال عـن الجمـال عـالـي المنـال

المذكور في هذا البيت الشيخ علوي، وأبوه الوارث عنه المجد الذي يمتطيه ويعلوه. فأما الإمام الأول فهو الشيخ الإمام، كهف الضعفاء والأرامل والأيتام، واسطة عقد السادة الأشراف الأعلام، علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله رضي الله عنهم، فهو الإمام الجامع الجواد الهمام البارع، ولد بمدينة بيت جبير، ونشأ بها رافلاً في أذيال البر والخير، متبتلاً في طاعة الله من حين صباه، وأخذ عن جماعة من الفضلاء حتى تخرج بهم وامتلأ، ولا سيِّما والده الشيخ محمد بن علوي، وقد مدحه وأثنى عليه أكابر العارفين والأئمة المحققين، منهم تلميذه الفقيه يحيى بن عبد العظيم الحاتمي التريمي بقصيدة طويلة منها قوله:

شيخ تمكن في علا جرثومة نبـويـة علـويـة بعلـوم
يـزهـو بـه إقليمنـا جـذلاً بـه يعلـو سـروراً مفـرطـاً بحليـم
هذا قريع العصر وابن قريعه ولبـاب نجـب الفخـر والتعظيـم

توفي ـ نفع الله به ـ ببيت جبير سنة اثنتي عشرة وخمسمائة وقبر بها، وقبره مقصود يزار من جميع النواحي والأقطار، تنجح عنده الحوائج والمطالب، وتدرك لديه جميع المآرب.

وأما الإمام الثاني فهو الشيخ الكبير، جمال الدين ومحيي سنة سيد المرسلين، وإمام العارفين وأستاذ العلماء العاملين، فريد العصر علماً وعملاً وفضلاً ونبلاً، محمد بن علوي بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى المهاجر إلى الله رضي الله عنهم، ولد نفع الله به بمدينة بيت جبير ونشأ بها، وحفظ القرآن وغيره من الكتب، وصحب أباه وغيره من المشايخ الكبار والجهابذة النظار، وتفقه على الإمام الحافظ ابن عمه بصري وغيره من بني بصري وجديد، وسمع من كثيرين. وكان ـ رضي الله عنه ـ عالماً عاملاً تقياً ورعاً زاهداً، جواداً سخياً متخلقاً بالأخلاق الكريمة، متصلاً بالشمائل المرضية، وأنواع المبرات الجسمية، قال صاحب المشرع: ولم أقف على تاريخ مولده ولا وفاته، ومات وله من العمر خمسون سنة، ولا يعرف قبره نفع الله به.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عـــن علـــوي بـــن عبيـــد الله　　　عـــن العفيـــف القـــانـــت الأوّاه

ذكر ـ نفع الله به ـ في هذا البيت من شموس الطريقة العلوية والسلسلة النبويّة، إمامين كاملين وسيدين فاضلين. فأما الإمام الأول فهو منبع الشرف العلي ومعدن السؤدد الكلي، السيد السامي والبحر الطامي، أصل الفضائل وفخر الأواخر والأوائل، الشيخ علوي بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى، رضي الله عنهم، كان ـ نفع الله به ـ غاية في الاشتغال بطلب العلوم، وكثرة المجاهدات والرياضات، كثير الصيام والقيام، والزهد والورع التام، واحد العصر وفريد الدهر علماً وعملاً وتحققاً، ولد بحضرموت، وحفظ القرآن العظيم، وتربى في حجر والده الكريم ابن الكريم، ونشأ في طاعة الله وكسب الفضائل حتى وهبه الله علوماً ومعارف لا يدركها نائل، وهو أول من سمي علوي، وإليه ينسب كل موجود اليوم على وجه الأرض من بني علوي، إذ انحصر عقب الإمام المهاجر أحمد بن عيسى فيه وفي عقبه، لانقراض بني عمهم بصري وجديد كما مر في أول هذا الشرح عند قول سيدنا الشيخ الناظم.

قصدت نظم سيدي إلى النبي　　　كمـــا بـــه صـــح اتصـــال نسبـــي

تخرج الإمام علوي بوالده الشيخ عبد الله وسلك طريقته ونهج مسلكه، وأخذ عن غيره من علماء حضرموت واليمن والحرمين الشريفين، وسمع عنهم وانتفع بهم، وأخذ عنه وانتفع به كثيرون من العلماء، وذكره أهل التواريخ والطبقات، وأثنوا عليه ثناءً عظيماً وبالغوا في ذلك، ونشروا من مناقبه أموراً كثيرة، ولم يكن له من الولد إلا محمد بن علوي المتقدم ذكره، وقبر ـ نفع الله به ـ بسُمَل بضم السين المهملة وفتح الميم، وهي على نحو ستة أميال من تريم، سميت باسم الذي اختطها. قال في المشرع: ولم أقف على وفاته، وتقدم في المقدمة ذكره وذكر إخوانه بصري وجديد.

وأما الإمام الثاني فهو الشيخ الكبير عديم النظير، السيد المفضال الجامع لخصال الكمال، إمام العارفين ورأس المقربين وصفوة العبّاد الصالحين، عبد الله بن الشيخ المهاجر إلى الله أحمد بن عيسى رضي الله عنهم، ولد ـ رضي الله عنه ـ بالبصرة،

وطلب العلوم بها، ونشأ في سوحها، أخذ عن والده وتأدب به، وسمع الحديث من كثيرين، وتردد إلى علماء الأدب المحققين، وصحب كثيراً من أكابر الصوفيّة العارفين، حج بيت الله الحرام سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وفي ذلك العام حج الإمام الشيخ أبو طالب المكي، فاجتمع به وأخذ عنه مؤلفاته، وسمع عنه مروياته، وعرف أبو طالب المكي له كمال فضله، وشهد بوفور عقله وغزارة علمه وجودة فهمه، وسمع عن كثير من حفاظ اليمن والعراق، وكان معدوداً من الحفاظ، ذكره جماعات من أهل التواريخ، ومدحوه وأثنوا عليه، وأطالوا في ذكر مناقبه وكثرة من روى عنه وتخرج به، وكان كثير التواضع والخشوع، فكان من مبالغته في التواضع أنه يستحسن تصغير اسمه فسمى نفسه: عبيد الله، وأمر أصحابه أن ينادوه بذلك، وكان مجاب الدعوة اشتهر بذلك وقصد لأجله، لا سيِّما أهل الأمراض والعلل، وله في ذلك حكايات كثيرة، وكان ذا مال واسع، وكان أحب أمواله إليه النخل، وإذا أدرك ثمر عام تصدق بجميع ما بقي معه من ثمر العام الذي قبله من تمر وحب، ويقول: هذا شكر نعمة ودفع نقمة، وكان ينفق على كثيرين من ذوي الحاجات والمساكين، توفي إلى رحمة الله تعالى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، ودفن بقرية سمل رحمه الله عز وجل، بعد أن وهب أرض صوح لمولاه مخدم، وتزوج ابنة سمل وأولدها ابنه جديداً نفع الله به. .

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عـن المهـاجـر صفـي الـديـن   أحمد صحيح الكشف والتخمين

أراد بقوله: (المهاجر) المهاجر إلى الله تعالى من أوطانه، ابتغاء وجه الله تعالى ورضوانه، المجمع على جلالته وشرفه وإمامته، وكمال فضله وعلمه وعقله، ومعرفته وزهده وعقيدته وأدبه وفصاحته، السيد الكبير الجليل، عديم النظير والمثيل، أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي ابن جعفر الصادق رضي الله عنهم، كان هذا الإمام إماماً جامعاً للعلوم والأعمال والفضائل والأحوال والجاه والمال، أصله من العراق مدينة البصرة، نشأ بها على سيرة حميدة ومجاهدة شديدة، فلما كمل في الطاعة والعبادة، وتنورت بصيرته متفرداً بلطائف السيادة، وأشرق عليه

نور الولاية، وظهر فيه سر الخصوصية، مع كبر غريزة عقله وطيب أصله، فظهر له بنور الولاية الربانية والمشاهدة العرفانية، ما سيحدث في العراق من الفتن العظيمة والبدع الذميمة، والمحن الصائلة والأمور الهائلة، ومن أسباب هجرته المقتضية لنقلته، حصول أمور فظيعة وعقوبات شنيعة، نزلت بتلك الناحية من الصواعق والزلازل، وقتل المسلمين واستباحة حرائمهم وأموالهم في قضية بهبول والقرمطي، وما حصل في تلك الأيام من الأهوال العظام، مما هو مذكور في التواريخ والطبقات، فهاجر إلى الله تعالى فاراً إلى الله تعالى بدينه سنة سبع عشرة وثلاثمائة من الهجرة النبوية على مشرفها أفضل الصلاة والتسليم، وذلك بعد ما جمع أهله وقرابته، وزهدهم في الدنيا ورغبهم في الآخرة، وشاورهم في النقلة وأشار عليهم بالرحلة، وقال لهم: وجبت الهجرة من هذه الديار، لما حدث فيها من البدع والأشرار، فقبل منه الإشارة من وفق للخير ولم يلتفت إلى الغير، وتبعه من بني عمه اثنان، أحدهما: جد السّادة بني الأهدل، والثاني: السيد الجليل الشهير بالقديمي، وتبعه من أولاده عبد الله، وتخلف عنه ولده محمد بالعراق على أموالهم هناك، واستمر بالبصرة إلى أن توفي بها. قال في المشرع: ذكر ذلك السيد ابن عنبة في كتابه الشهير، قال: ومن عقبه أبو محمد الحسن بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن عيسى، المعروف بالنفاط لكونه يتجر بالنفط، له بقية أولاد ببغداد. انتهى، وقال في شرح العينية: ولم يزل يتنقل في قرى اليمن من بلد إلى بلد، إلى أن وصل إلى حضرموت ودخل بلد الهجرين وأقام بها، واشترى فيها بألف وخمسمائة دينار نخيلاً وعقاراً، ثم وهبها عتيقه شوية وسار منها، فسكن قارة بني حشيت فلم تطب له، فرحل عنها إلى الحسيسة ـ بضم الحاء المهملة وفتح السين المكررة المهملتين بينهما تحتية مكسورة قرية على نحو نصف مرحلة من تريم، فاستوطنها واشترى أكثر أرض صوح ـ بفتح المهملة وإسكان الواو وآخره حاء مهملة ـ وهي من القلعة المعروفة فيها إلى أعلى مدينة بور، ولما استقر هناك قصده السادات الأخيار، وأعملت إليه المطي من كل الأقطار، وتاب على يديه خلق لا يحصون، وقام بنصرة السنة فرجع إليها جم غفير، بل درس اسم البدعة وذكرها بحضرموت

ببركته، ثم انتقل إلى شعب الحسيسة الشرقي المعروف بشعب مخدم، ومات بالشعب المذكور سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ودفن به، وقبره هناك مقصود معظم مشهور، وبالزيارات وتلاوة القرآن معمور وقد أطال في (المشرع الروي) في ذكر سبب انتقاله من البصرة، هو ومن معه من بني عمه وأخدامه ومواليه، وتنقله وما يتعلق بذلك، فلينظره من أراده من مقدمته.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عـــن الإمـــام قـــدوة الأنـــام عيســى النقيــب نخبــة الأعــلام

المذكور بهذا البيت أبو المهاجر إلى الله تعالى الإمام عيسى بن محمد بن علي العريضي رضي الله عنهم، قال في (المشرع): صحب والده محمداً وتأدب به، وسمع وحدث وتفقه في الدين، وكان فصيحاً بليغاً مقبولاً عند الخاص والعام، وله عند الملوك فمن دونهم القبول التام، وكانت سيرته سنية، وعقيدته سنية، وكان يدعى بالأزرق لزرقة كانت بعينيه، وكان أبيض اللون وبياضه يميل إلى الحمرة، وهو أفضل الألوان لأن لون النبي ﷺ كما قال علي كرم الله وجهه: إن لون النبي ﷺ أبيض مشرب، وفي رواية: مشرب بحمرة، ولهذا كان يلقب السيد عيسى بالرومي،وكان يسمى (النقيب) لأنه كان نقيباً على الأشراف، والنقيب هو شاهد القوم وناظرهم وضمينهم، ومن أسماء النبي ﷺ النقيب، لأنه لما مات نقيب بني النجار أبو أمامة سعد ابن زرارة، وجد عليه ﷺ ولم يجعل عليهم نقيباً بعده وقال: أنا نقيبكم، فكانت من مفاخرهم، وكان ـ أي السيد عيسى ـ كثير الزواج، ولهذا كثر أولاده، فكان له ثلاثون ابناً وخمس بنات، وتوفي بالبصرة ولم أقف على تاريخ وفاته ولا وفاة والده محمد. انتهى ما ذكره في المشرع.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عـــن الإمـــام سيـــدي محمـــد العارف المشهور بالكف الندي

هو الإمام الكبير أبو عبد الله محمد بن علي العريضي رضي الله عنهما، ولد بالمدينة الشريفة ونشأ بها، وصحب أباه وتأدب، ولم يزل تحت كنفه إلى أن توفي والده، فلم تطب له الإقامة بالمدينة فسكن بالبصرة، وكان الغالب عليه الخمول

وعدم الشهرة، ذكره كثير من أهل التواريخ، وله أولاد أعقب منهم خمسة الحسن والحسين وجعفر ويحيى وعيسى رضي الله عنهم، وقد مر في ترجمة ولده عن صاحب الشرع أنه لم يقف على تاريخ وفاته.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عـن العـريضـي قـدوة الأخيـار   علــي إمــام الصفــوة الأطهــار

هذا هو الإمام الفائق على الزهاد والعباد، الملحق الأحفاد بالأجداد، علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الإمام السبط الحسين رضي الله عنهم، كان إماماً جواداً سخياً، عالماً عابداً تقياً، أصغر أولاد أبيه سناً وأطولهم عمراً وأجلهم فضلاً، أخذ عن أبيه وصحبه، ومات وهو طفل، وأخذ عن أخيه موسى الكاظم بن جعفر، وعن الحسن بن زين، وروى عنه ابناه محمد وأحمد، وحفيده عبد الله بن محمد الحسن بن علي، وابن أخيه إسماعيل ابن محمد بن إسحق بن جعفر الصِّادق، والإمام البزي صاحب القراءة، وطال عمره حتى ألحق الأحفاد بالأجداد، وسمع الناس منه طبقة بعد طبقة، وكانت ولادته بالمدينة المشرفة ونشأ بها، ثم سكن العريض ـ تصغير عرض ـ وهي قرية على أربعة أميال من المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، واستمر متوطناً بها إلى أن انتقل بها، وكان قبره قد اندرس فأظهره السيد الجليل زين بن عبد الله باحسن، وهو الآن مقصود للزيارة والتبرك واستنزال الرحمات، ذكره جملة من أهل التواريخ، وأثنوا عليه وبجلوه، وأسند له الحافظ الترمذي رضي الله عنه، توفي سنة عشرة ومائتين، رحمه الله ونفع به.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عن جعفر الصّادق شمس الآل   والكاظم المعروف عالي الحال

ذكر في هذا البيت ممن أخذ عنه العريضي والده الإمام جعفر الصادق، وأخاه موسى الكاظم بن جعفر الصّادق رضي الله عنهما. فأما الإمام الأول فهو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، أشهر ألقابه: الصادق، ويكنى أبا عبد الله، وقيل أبا إسماعيل،

أمه فروة بنت القاسم، وأم أم فروة أسماء بنت عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصّديق رضي الله عنهم، ولذا كان يقول: ولدني أبو بكر مرتين، ولد الصادق ـ رضي الله عنه ـ بالمدينة سنة ثمانين من الهجرة ـ وقيل: سنة ثلاث وثمانين ـ يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول، وتوفي بالمدينة يوم الاثنين للنصف من رجب سنة ثمان وأربعين ومائة، وقبره بالبقيع في قبة العباس عند قبر أبيه وجده وعمه الحسن بن علي، وله خمسة أولاد: محمد وإسماعيل وعبد الله وموسى، وعلي العريضي جد آل باعلوي، صحب الصّادق أباه وتأدب به، وروى عن عمه زيد بن علي وجده الإمام القاسم بن محمد، ولم يروِ عن جده زين العابدين، وقد أدركه وهو مراهق، وروى عن عقبة ابن الزبير وعطاء ونافع، والزهري وابن المنكدر وعبيد الله بن أبي رافع، ونقل عن الذهبي أنه قال: والظاهر أنه رأى سهل ابن سعد وغيره من الصحابة رضي الله عنهم، وروى عنه ولداه موسى الكاظم وعلي العريضي، والأئمة مالك وأبو حنيفة، والسفيانان الثوري وابن عينية، وابن جريج وشعبة وسليمان ابن بلال، والدراوردي وابن أبي حاتم وابن اسحاق، وحاتم بن إسماعيل ويحيى القطان، وخلق كثير. وعن أبي حنيفة قال: ما رأيت أفقه من جعفر، لما أقدمه المنصور الحيرة بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيأ لنا من مسائلك الصعاب، فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ المنصور فأتيته وجعفر جالس عن يمينه، فلما أبصرتهما داخلني من الهيبة لجعفر ما لم يداخلني للمنصور، ثم قال: يا أبا عبد الله أتعرف هذا؟، قال: نعم هذا أبو حنيفة قد أتانا، ثم قال: يا أبا حنيفة تسأل أبا عبد الله، فابتدأت أسأله، فكان يقول في المسألة: أنتم تقولون فيها كذا وكذا، وأهل المدينة يقولون كذا وكذا، ونحن نقول كذا وكذا. وله ـ رضي الله عنه ـ كلام نفيس في علم التوحيد والحقائق والمعارف وغيرها، وقد ألف تلميذه جابر بن حبان كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائله، وهي خمسمائة رسالة، وقال عمرو ابن المقدام. كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين.

ومن كلامه رضي الله عنه: لا زاد أفضل من التقى، ولا شيء أحسن من الصمت، ولا عدو أضر من الجهل، ولاداء أدوأ من الكذب.

وقال رضي الله عنه: إذا سمعتم من مسلم كلمة فاحملوها على أحسن ما تجدون، حتى لا تجدوا لها محملاً فلوموا أنفسكم، وقال: إذا بلغك من أخيك ما تكره فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين عذراً، فإن لم تجد فقل: لعل له عذراً لا أعرفه. ومن كلامه رضي الله عنه: من استبطأ الرزق فليكثر من الاستغفار، ومن أعجب بشيء من أحواله وأراد بقاءه فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وإذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره فقل: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها فأكثر من الحمد والشكر عليها لله عز وجل. وقال: أوحى الله إلى الدنيا: أن أخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك، وقال: الفقهاء أمناء الرسل ما لم يأتوا أبواب السلاطين، وقال رضي الله عنه: أربع لا ينبغي لشريف أن يأنف منها: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه، وقيامه على دابته، وخدمته لمن يتعلم منه، وقال نفع الله به: لا يتم المعروف إلا بثلاث: تصغيره وستره وتعجيله، وذلك أنك إذا صغرته عظم، وإذا سترته أتممته، وإذا عجلته هنيته، ومن وصاياه لابنه موسى الكاظم: يا بني من قنع بما قسم الله له استغنى، ومن مدّ عينيه إلى ما في يد غيره مات فقيراً، ومن لم يرضَ بما قسم الله اتهم الله في قضائه، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره ومن استصغر زلة غيره، استعظم زلة نفسه، يا بني من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سلَّ سيف البغي قتل به، ومن احتفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن داخل السفهاء حُقِّر، ومن خالط العلماء وُقِّر.

وقال في (مجمع الأحباب): وعن يوسف المدايني قال: سمعت سفيان الثوري يقول: دخلت على أبي عبد الله جعفر بن محمد رضي الله عنهما، فقلت: يا ابن رسول الله أوصني، فقال: يا سفيان لا مرؤة لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا خلة لبخيل، ولا أخاً لمملوك، ولا سؤدد لسيء الخلق، قلت: يا ابن رسول الله زدني، فقال: يا سفيان كف عن محارم الله عز وجل وامتثل أوامره تكن عابداً، وارضَ بما قسم الله عز وجل تكن مسلماً، واصحب الناس بما تحب أن يصحبوك تكن مؤمناً، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره، وشاور في أمرك الذين

يخشون الله عز وجل. قلت: يا ابن رسول الله زدني، فقال: من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل المعصية إلى طاعة الله عز وجل، قلت: يا ابن رسول الله زدني، فقال: يا سفيان أدبني أبي بثلاث وأتبعني بثلاث، قلت: يا ابن رسول الله ما الذي أدبك بهن أبوك رضي الله عنه؟، فقال: قال لي أبي: من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم، ومن لا يملك لسانه يندم، ثم أنشده:

عود لسانك فعل الخير تحظَ به ... إن اللسان لما عودت معتاد

موكل يتقاضى ما نسيت له ... في الخير والشر فانظر كيف ترتاد

قال سفيان: ثم قلت: وما الثلاث الأخر؟، فقال: قال أبي: إنما يتقى حاسد نعمة أو شامت بمعصية أو حامل نميمة، وسئل: ما الحكمة في تحريم الربا؟ فقال: لئلا يتمانع الناس المعروف والفضل. وقال: يطبع المرء على كل شيء ليس الخيانة والكذب، أو كما قال، وقال رضي الله عنه: روي عن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: يا رب اسألك أن لا يذكرني أحد إلا بخير، وكان يطعم المساكين حتى لا يبقي لعياله شيء، وكان رجل يؤم جعفر فغاب عنه، فسأل عنه فقال له رجل: إنه نبطي، يريد أن يضع منه عنده، فقال جعفر: أصل الرجل عقله وحسبه دينه، وكرمه تقواه، والناس في آدم مستورون. انتهى، وله كرامات كثيرة وأحوال وكشوفات مشهورة، وكان يتولى حب الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنه وعنهما، حكي أنه قال في مرض موته: اللهم إني أحب أبا بكر وعمر وأتولاهما، اللهم إن كان في نفسي غير هذا فلا تنالني شفاعة محمد ﷺ، وهو أحد الأئمة الإثنا عشر الذين يعتقد الرافضة عصمتهم، وما نسبوه إليه كالجفر، وأحاديث رووها عنه وعن آبائه، وهو بريء عن عهدتها، ذكر ذلك أهل التواريخ المعتمدة، ومن دعائه: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك، اللهم ارزقني مواساة من قترت عليه رزقك بما وسعت علي من فضلك.

وأما الإمام الثاني فهو موسى الكاظم بن جعفر الصادق رضي الله عنهما، كان يكنى بالعبد الصالح، لكثرة عبادته لله تعالى واجتهاده وقيامه الليل، وكان إذا بلغه

عن أحد أنه يؤذيه يبعث إليه بمال، ولد سنة ثمان وعشرين ومائة بالأبواء، وهو الإمام بعد أبيه باستخلافه له، وأشهر ألقابه الكاظم، ثم الصابر والصالح والأمين، نقش خاتمه: الملك لله وحده، معاصره موسى الهادي وهارون الرشيد، قال الإمام ابن الصباغ في كتابه: (الفصول المهمة): ومناقبه وكراماته الظاهرة، وفضائله وصفاته الباهرة، تشهد له بأنه اقترع قمة الشرف وأعلاها،وسما إلى أوج المزايا فبلغ أعلاها. . ثم ذكر من أحواله وخوارق عاداته وكراماته ما يبهر العقول، فمنها ما ذكره بقوله: قال حسام ابن حاتم الأصم: قال شقيق البلخي: خرجت حاجاً في سنة ست وأربعين ومائة فنزلت بالقادسية، فبينما أنا أنظر الناس في مخرجهم إلى الحج ورأيتهم وكثرتهم، ونظرت إلى شاب حسن الوجه شديد السمت نحيف، فوق ثيابه ثوب صوف مشتمل بشملة في رجليه نعلان، وقد جلس منفرداً فقلت في نفسي: هذا الفتى من الصوفيّة، ويريد أن يخرج مع الناس ويكون كلاً عليهم في طريقهم، والله لأمضين إليه ولأوبخنه، فدنوت منه، فلما رآني مقبلاً نحوه قال: يا شقيق اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم، ثم تركني وولَّى، فقلت في نفسي: إن هذا الأمر عظيم، تكلم على ما في خاطري ونطق باسمي، هذا عبد صالح، لألحقنه وأسأله الدعاء، وأتحلله مما ظننته به، فغاب عني ولم أره، فلما نزلنا واقصة فإذا هو واقف يصلي، فقلت: هذا صاحبي أمضي إليه واستحله، فصبرت حتى فرغ من صلاته، فالتفت إليّ وقال: يا شقيق اتلُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾، ثم قام ومضى وتركني، فقلت: هذا الفتى من الأبدال قد تكلم على سري مرتين، فلما نزلنا بالأبواء إذا أنا بالفتى قائم على البئر وأنا أنظر إليه، وبيده ركوة يريد فيها ماءً فسقطت من يده في البئر، فرمق السماء بطرفه وسمعته يقول:

أنت شربي إذا ظميت إلى الماء   وقــوتــي إذا أردت طعــامــي

ثم قال: اللهم إلهي وسيدي، مالي سواك فلا تعدمنيها، فوالله لقد رأيت الماء ارتفع إلى رأس البئر، والركوة طافية عليه، فمد يده فأخذها فتوضأ منها، وصلى أربع ركعات، ثم مال إلى كثيب رمل، فجعل يقبض بيده ويجعل في الركوة ويحركها ويشرب، فأقبلت وسلمت عليه فردَّ علي السلام، فقلت: أطعمني من فضل ما

أنعم الله عليك، فقال: يا شقيق لم تزل نعم الله علي ظاهرة وباطنة، فأحسن ظنك بربك، ثم ناولني الركوة فشربت منها، فإذا فيها سويق بسكر، فوالله ما شربت قط ألذ منه ولا أطيب، فشبعت ورويت، وأقمت أياماً لا أشتهي طعاماً ولا شراباً، ثم لم أرَه حتى حططنا بمكة، فرأيته ليلة إلى جانب قبة الشراب نصف الليل، وهو قائم يصلي بخشوع وأنين وبكاء، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، ثم قام إلى حاشية المطاف فركع الفجر(١) هناك، ثم صلى فيه الصبح مع الناس، ثم دخل المطاف فطاف إلى شروق الشمس، ثم صلى خلف المقام، ثم خرج يريد الذهاب فخرجت خلفه أريد السلام عليه، وإذا بجماعة قد أطافوا به يميناً وشمالاً ومن خلفه وقدامه، وإذا له حاشية وخدم وحشم وأتباع قد خرجوا معه، فقلت لأحدهم: من هذا الفتى يا سيدي؟، فقال: هذا موسى بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فقلت: لا يكون هذا إلا لمثل هذا، وانصرفت. قال: وذكر الحكاية جماعة في مؤلفاتهم، وكان ـ رضي الله عنه ـ يتفقد فقراء المدينة فيحمل إليهم الدراهم والدنانير إلى بيوتهم ليلاً والنفقات، ولا يدرون من أي جهة وصلهم إلا بعد موته، وكان كثيراً ما يدعو: اللهم إني أسألك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب، يحكى أن الرشيد سأله يوماً فقال له: كيف قلتم نحن ذرية رسول الله ﷺ وأنتم بنو علي، وإنما ينسب الرجل إلى جده لأبيه دون جده لأمه، فقال الكاظم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ﴾ [الأنعام: ٨٥]، وليس لعيسى أب، وإنما ألحق بذرية الأنبياء من قبل أمه، وكذلك ألحقنا بذرية نبينا ﷺ من قبل أمنا فاطمة رضي الله عنها، وزيادة أخرى يا أمير المؤمنين نزول آية المباهلة، ولم يدعُ النبي ﷺ غير علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم. قلت وقد مر أن من خصوصياته ﷺ انتساب أولاد بناته إليه، وقد نقل في (الفصول المهمة) طرفاً صالحاً من مناقبه وأحواله وعلومه، وكشوفاته وأعماله، وهو أحد

---

(١) لعله سنة الفجر.

الأئمة الإثنا عشر الذين تقول الخوارج[١] بعصمتهم، ويذكرونهم بأشياء لا تجوز، غلواً منهم في محبتهم، وهم الإمام الخليفة علي بن أبي طالب، وولديه الحسن والحسين، وولده علي زين العابدين، ومحمد الباقر الآتي ذكرهم، وجعفر الصّادق السّابقة ترجمته، وولده محمد الجواد، وولده أبو الحسن علي الهادي، وولده الحسن العسكري، وثاني عشرهم الإمام المهدي المنتظر رضي الله عنهم. قال ابن الصبّاغ: وأقدمه المهدي إلى العراق ثم رده إلى المدينة، فأقام بها إلى أيام الرشيد، فلما قدم الرشيد المدينة حمله معه، وحبسه ببغداد إلى أن توفي بها مسموماً ـ في قصة ذكرها في الأصل المنقول منه ـ سنة ثلاث وثمانين ومائة، وقبره بها مشهور، نفع الله به.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وأخـذ الصّـادق علـم الظـاهـر والبـاطـن عـن الإمـام البـاقـر

يعني أخذ الإمام جعفر الصادق عن الإمام والده محمد الباقر بن علي زين العابدين بن السبط الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، سمي باقـراً لأنه بقر العلم، وأظهر من مخبئاته وحكمه وسرائره ما لا يخفى إلا على مطموس البصيرة أو فاقد السريرة، روى الإمام الجليل ابن المديني عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال للإمام محمد المذكور، وهو صغيـر: رسول الله ﷺ يسلم عليك، فقيل له: كيف ذلك؟ قال: كنت جالساً عنده ـ عليه الصلاة والسلام ـ والحسين في حجره يداعبه، فقال ﷺ: يا جابر يولد له مولود اسمه علي، إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ليقم سيد العابدين فيقـوم ولده، ثم يولد له مولود اسمه محمد فإذا أدركته يا جابر فأقرِه مني السلام، ولد محمد الباقر ـ رضي الله عنه ـ بالمدينة يوم الجمعة ثاني صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة قبل قتل جده الحسين رضي الله عنهما بثلاث سنين، وتوفي بها سنة سبع عشرة ومائة ـ أو ثمان عشرة أو أربع عشرة ـ وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وقبره بالبقيع عند قبر أبيه في قبة العباس رضي الله عنهم، وأوصى أن يكفن في قميصه الذي كان يصلي فيه، أمه فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فهو علوي من جهة أبيه وأمه.

---

(١) الروافض ولعله كلمة الخوارج مسبقة كلم من الناسخ.

ومن كلامه رضي الله عنه: ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخل من الكبر أو أكثر، وقال رضي الله عنه: ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج، وقال رضي الله عنه لابنه: يا بني إياك والكسل والضجر، فإنهما مفتاح كل شر، فإنك إذا كسلت لم تؤدِ حقاً: وإذا ضجرت لم تصبر على حق، وقال: إذا أحببت بقاء النعم فلتكثر الحمد والشكر عليها، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، وإذا أحزنك أمر فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإذا أعجبك أمر فقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وإذا خفت قوماً فقل: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وإذا مكر بك فقل: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، وإذا أصابك غم فقل: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقال رضي الله عنه: كان لي صاحب وكان عظيماً في عيني، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه. انتهى من (شرح العينيّة) باختصار، ونقل في (مجمع الأحباب) عن الإمام محيي الدين النووي أنه قال: هو تابعي جليل إمام بارع، مجمع على جلالته وإمامته، معدود في فقهاء المدينة وأئمتهم، سمع جابراً وأنساً، وسمع جماعات من كبار التابعين كابن المسيب وابن الحنفية وغيرهما، وروى عنه أبو إسحق السبيعي وعطاء ابن أبي رباح، وعمرو ابن دينار والزهري وربيعة، وخلائق آخرون من التابعين وكبار الأئمة، وروى له البخاري ومسلم. انتهى، وقال أبو الفرج رحمه الله تعالى: ومن كلامه رضي الله عنه: إنّ الصّواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن، ولا تصيب الذاكر لله تعالى، وقال: إن الغنى والعز يجولان في قلب المؤمن، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل جعلاه وطناً، وقال جابر الجعفي رحمه الله تعالى: قال لي محمد بن علي رضي الله عنهما: إني لمحزون وإني لمشتغل القلب، فقلت: وما حزنك وما يشغل قلبك يا ابن بنت رسول الله ﷺ؟، قال لي: يا جابر إنه من دخل قلبه من صافي خالص دين الله سبحانه وتعالى شغله عما سواه، يا جابر: ما الدنيا وما عسى أن تكون!، هل هو إلا مركبٌ ركبته أو ثوب لبسته أو امرأة أصبتها، يا جابر: إن المؤمنين الذين هم أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة وأكثرهم معونة، إن نسيت ذكروك وإن ذكرت أعانوك، قوّالين بحق الله عز وجل، قوّامين بأمر الله سبحانه وتعالى، فأنزل

الدنيا بمنزل تنزل فيه وارتحلت عنه، أو كمالٍ أصبته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء، فاحفظ الله تعالى فيما استرعاك من دينه وحكمته، وسأله رجل عن تحلية السيوف فقال: لا بأس بها، قد حلّى أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيفه، فقيل له: أتقول الصديق؟، فغضب ووثب وثبةً، واستقبل القبلة ثم قال: نعم الصديق، من لم يقل له الصديق فلا صدّق الله له قولاً في الدنيا ولا في الآخرة، وعن جابر قال: قال لي محمد بن علي: يا جابر، بلغني أن أقواماً بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا وينالون من أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ويزعمون أني أمرتهم بذلك، فأبلغهم أني إلى الله تعالى بريء منهم، والذي نفس محمد ﷺ بيده، لو وليت لتقربت إلى الله تعالى بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما، إلا أن أعداء الله تعالى لغافلين عن أقدارهما عند الله تعالى، أو كما قال، وعن أفلح مولى محمد بن علي قال: خرجت مع محمد بن علي حاجاً، فلما دخل المسجد الحرام نظر إلى البيت، فبكى حتى علا صوته، فقلت: بأبي أنت وأمي، إن الناس ينظرون إليك فلو رققت صوتك قليلاً، فقال: ويحك يا أفلح، ولم لا أبكي، لعل الله عز وجل أن ينظر إليّ برحمته فأفوز بها عنده غداً، قال: ثم طاف بالبيت ، ثم جاء حتى ركع عند المقام، فرفع رأسه من سجوده، فإذا موضع سجوده يسيل من دموع عينيه، وعن خالد ابن دينار قال: كان محمد ـ يعني الباقر ـ إذا ضحك قال اللهم لا تمقتني، وعن عبد الله ابن الوليد قال: قال لنا أبو جعفر محمد أيدخل أحدكم يده كم صاحبه فيأخذ منه ما يريد، قلنا: لا، قال فلستم إخواناً كما تزعمون، وعن سلمى مولاة أبي جعفر قالت: كان يدخل عليه إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب، ويكسوهم الثياب الحسنة ويهب لهم الدراهم، فأقول له ببعض ما يصنع، فيقول: يا سلمى ما يؤمل في الدنيا بعد المعارف والإخوان، وكان يعطي الستمائة والخمسمائة إلى الألف، وكان لا يمل من مجالسة إخوانه، وشكا إليه جفاء الإخوان، فقال: بئس الأخ أخ يرعاك غنياً ويقطعك فقيراً، ثم أمر غلامه فأخرج كيساً فيه سبعمائة درهم، وقال للشاكي: استنفق هذه فإذا نفذت فأعلمني، وقال نفع الله به: اعرف المودة في قلب أخيك بما له في قلبك، رضي الله عنه.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وهو عن القدوة علي بن الحسين إمام أهل المعرفة من غير مين

المذكور بهذا البيت الإمام الأعظم، وصدر العارفين المقدم، علي زين العابدين بن الإمام السبط الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ولد سنة ثلاث ـ أو ثمان ـ وثلاثين من الهجرة بالمدينة، وتوفي بها ثامن عشر المحرم سنة أربع وتسعين، ودفن بالبقيع بقبة العباس عند عمه الحسن بن علي رضي الله عنهم، وهو ابن ثمان ـ أو سبع ـ وخمسين، وهو تابعي جليل، أسند عن أبيه الحسين وعمه الحسن، وجابر بن عبد الله وابن عباس، والمسور ابن مخرمة وأبي هريرة، وصفية وعائشة وأم سلمة أمهات المؤمنين، رضي الله عنهم، وهو الذي خلف أباه علماً وزهداً وعبادة، أجمعوا عليه وعلى جلالته في كل شيء.

قال يحيى الأنصاري: هو أفضل هاشمي رأيته، وقال الزهري: لم أدرك بالمدينة أفضل منه، وقال حماد بن زيد: كان أفضل هاشمي تركته بالمدينة، ذكره النبي ﷺ قبل وجوده كما مر في ترجمة ولده محمد الباقر، قال في (مجمع الأحباب) للشريف محمد بن الحسن رحمه الله: قال أبو الفرج رحمه الله: علي بن الحسين ـ رحمه الله ـ، هو زين العابدين، أمه أم ولد اسمها غزالة، وهو علي الأصغر، وأما الأكبر فقتل مع الحسين، وكان علي هذا مع أبيه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، إلا أنه كان مريضاً نائماً على فراش فلم يقتل، وكان يكنى: أبا الحسن وقيل: أبا محمد، وقال عبد الرحمٰن ابن حفص: كان علي بن الحسين إذا توضأ اصفرّ وجهه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم، وقال عبد الله بن أبي سليمان: كان علي بن الحسين إذا مشى لا تجاوز يده فخذه، ولا يخطر بيده، وكان إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له مالك؟، فقال: أتدرون بين يدي من أقوم ومن أناجي، وكان ورده من الصلاة في اليوم والليلة ألف ركعة، وقال أبو نوح: وقع حريق في بيت فيه علي بن الحسين وهو ساجد، فجعلوا يقولون له: النار يا ابن رسول الله، النار يا ابن رسول الله النار، فما رفع رأسه حتى أطفيت، فقيل له في ذلك، فقال: لم أشعر بها،

فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟، قال: ألهاني عنها النار الكبرى، وقال سفيان: جاء رجل إلى علي ابن الحسين فقال: إن فلاناً قد آذاك ووقع فيك، قال: فانطلق بنا إليه، فانطلق معه وهو يرى أنه يستنصر لنفسه، فلما أتاه قال: يا هذا إن كان ما قلته فيّ حقاً فغفر الله لي، وإن كان ما قلت فيّ باطلا فغفر الله لك، وقال أبو يعقوب المدني: كان بين الحسين ابن الحسن وبين علي بن الحسين بعض الأمر، فجاء حسين بن الحسن إلى علي بن الحسين وهو مع أصحابه في المسجد، فما ترك شيئاً إلا قاله وعلي ساكت، فانصرف حسين، فلما كان الليل أتاه في منزله فقرع بابه، فخرج إليه فقال له علي: يا أخي إن كنت صادقاً فيما قلت فغفر الله لي وإن كنت كاذباً فغفر الله لك، والسلام عليك، وولّى، قال: فاتبعه حسن والتزمه من خلفه، وبكى حتى رثى له، ثم قال: لا جرم لا عدت في أمر تكرهه، فقال علي: وأنت في حل مما قلت لي، وكان يقول: إن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وقوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار. انتهى، وقال الحافظ: قال الزهري: شهدت علي بن الحسين يوم حمله عبد الملك بن مروان من المدينة إلى الشام، فأثقله حديداً ووكل به حفاظاً في عدة وجمع، فاستأذنتهم في التسليم عليه والتوديع له، فأذنوا لي فدخلت عليه وهو في قبة، والأقياد في رجليه ويديه، فبكيت وقلت: وددت أني مكانك وأنت سالم، فقال: يا زهري أوتظن أن هذا عليّ. . .[1] أو يكربني، فإني لو شئت لما كان هذا، ثم أخرج يديه ورجليه من الأقياد، ثم قال: يا زهري لا أجوز معهم على ذا سوى منزلتين من المدينة، فما لبث إلا أربع ليالي حتى قدم الموكلون به يطلبونه بالمدينة فما وجدوه، فكنت فيمن سألهم عنه، فقال لي بعضهم: بينما نحن معه ونحن نراصده ليلاً، فلما أصبحنا لم نرَ إلا حديدة بين محمليه، قال الزهري: فقدمت بعد ذلك على عبد الملك بن مروان، فسألني عن علي ابن الحسين فأخبرته، فقال لي: إنه جاءني في يوم فقده الأعوان فدخل علي، فقال: ما أنا وأنت؟، فقلت: أقم عندي، فقال: لا أحب، ثم خرج، فوالله لقد امتلأ جوفي منه

---

(١) كذا بياض بالأصل لعله ثقيل.

خيفة، قال الزهري: قلت يا أمير المؤمنين، ليس علي بن الحسين حيث تظن من جهة الخلافة، إنه مشغول بنفسه وعبادة ربه عز وجل، فقال: حبَّذا شغل مثله، فنعم ما شغل به. وقال الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ عن أبي حمزة قال: أتيت باب علي بن الحسين فكرهت أن أصوت، فقعدت حتى خرج، فسلمت عليه ودعوت له، فأخذني معه إلى حائط له، فقال: إني كنت يوماً على هذا الحائط وأنا حزين، وإذا برجل حسن الوجه والثياب ينظر في وجهي. ثم قال: يا علي بن الحسين مالي أراك كئيباً حزيناً، أعلى الدنيا فهو رزق حاضر يأكل منه البر والفاجر، فقلت ما عليها أحزن، هو كما تقول، فقال أعلى الآخرة فهو وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر، قلت: ما على هذا أحزن، هو كما تقول، فقال: وما حزنك، فقلت: الخوف من فتنة ابن الزبير، فقال: يا علي ابن الحسين هل رأيت أحداً سأل الله تعالى فلم يعطِه، قلت: لا، قال: فخافه فلم يكفه، قلت: لا، ثم غاب عني فقيل لي: يا علي بن الحسين هذا الخضر ناجاك، وعن يحيى ابن سعيد قال: سمعت علي بن الحسين وقد اجتمع عليه ناس، وهو يقول لهم: أحبونا حب الإسلام لله عز وجل، فإنه ما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً، وفي رواية أخرى: أحبونا حب الإسلام لله عز وجل، ولا ترفعونا فوق قدرنا ـ أو قال: حقنا ـ، وسئل عن كثرة بكائه فقال: لا تلوموني، فإن يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد سبطاً من ولده بكى حتى ابيضت عيناه ولم يعلم أنه مات، وقد نظرت إلى أربعة عشر رجلاً قتلوا من أهلي في غداة واحدة، فترون حزنهم يذهب من قلبي. انتهى، وقال أبو الفرج رحمه الله: وكان يحب أن لا يعينه على طُهوره أحد، كان يستقي الماء لطهوره، ويخمره قبل أن ينام، فإذا قام من الليل بدأ بالسّواك، ثم يتوضأ ثم يأخذ في صلاته، وكان يقضي ما فاته من صلاته بالنهار بالليل، ثم يقول: يا بني ليس هذا عليكم بواجب، ولكن أحب لمن عود نفسه شيئاً من الخير أن يداوم عليه، وكان لا يترك صلاة الليل سفراً ولا حضراً، وكان يقول: عجبت للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة مذرة ثم يكون غداً جيفة قذرة، وعجبت كل العجب فيمن شك في الله عز وجل وهو يرى خلقه وآياته، وعجبت كل العجب لمن أنكر النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى، وعجبت كل العجب لمن عمل

لدار الفناء وترك دار البقاء وكان علي بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ ظاهره البخل، فلما مات وجدوه يقوت أهل مائة بيت بالمدينة، وقال محمد بن إسحاق: كان ناس من أهل المدينة يعيشون ولا يدرون من أين معاشهم، فلما مات علي ابن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ فقدوا ما كانوا يؤتون به بالليل، وكان يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به، ويقول: إن صدقة السر تطفىء غضب الرب عز وجل، ولما مات وغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سواد في ظهره، فقالوا: ما هذا؟، فقيل: كان يحمل جراب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة، وكان أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر إلا بعد موت علي ابن الحسين رضي الله عنهما، وأتاه نفر من العراق فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقال لهم علي: ألا تخبروني، أنتم من المهاجرين الأولين ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ [الحشر: ٨] قالوا: لا، قال: أفأنتم من ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الآية [الحشر: ٩] قالوا: لا، قال: أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين، ثم قال: أشهدكم أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ الآية [الحشر: ١٠] اخرجوا عني، فعل الله بكم وفعل، أو كما قال، وقال نافع ابن جبير لعلي ابن الحسين: أنت سيد الناس وأفضلهم، تذهب إلى هذا العبد فتجلس معه ـ يعني زيد بن أسلم ـ، فقال: إنه ينبغي للعالم أن يتبع حيث ما كان، وحج هشام بن عبد الملك قبل أن يلي الخلافة، فاجتهد أن يستلم الحجر فلم يمكنه، وجاء علي بن الحسين فوقف له الناس وتنحوا حتى استلم، فقال الناس لهشام: من هذا؟، فقال: لا أعرفه، فقال له الفرزدق: لكني أعرفه، هذا علي ابن الحسين، وأنشد:

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
إذا رأته قريش قال قائلها: ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

هـذا ابـن فـاطمـة إن كنـت جـاهلـه ... بجـــده أنبيـــاء الله قـــد ختمـــوا
وليـس قـولـك: مـن هـذا بضـائـره ... العـرب تعـرف مـن أنكـرت والعجـم
يغضـي حيـاءً ويغضـى مـن مهـابتـه ... فـــلا يكلـــم إلا حيـــن يبتســـم
سهـــل الخليقـــة لا يخشـــى بـــوادره ... يـزينـه اثنـان: حسـن الخلـق والكـرم
مـــن جـــده دان فضـــل الأنبيـــاء لـــه ... وفضـــل أمتـــه دانـــت لـــه الأمـــم
ينشـق نـور الهـدى عـن نـور غـرتـه ... كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم
مشتقـــة عـــن رســـول الله نبعتـــه ... طـابـت عنـاصـره والخيـم والشيـم
الله شـــرفـــه قـــدمـــاً وفضلـــه ... جـرى بـذاك لـه فـي لـوحـه القلـم
مـن معشـر حبهـم ديـن وبغضهـم ... كفـر وقـربهـم منجـى ومعتصـم
إن عـد أهـل التقـى كـانـوا أئمتهـم ... أو قيل: من خير أهل الأرض؟ قيل: هم
مقـــدم بعـــد ذكـــر الله ذكـــرهـــم ... فـي كـل بـدء ومختـوم بـه الكلـم
أي الخـلائـق ليسـت فـي رقـابهـم ... لأوليـــة هـــذا أولـــه نعـــم
مـــن يعـــرف الله يعـــرف أوليـــة ذا ... والـديـن مـن بيـت هـذا نـالـه الأمـم

قلت: وفي (حياة الحيوان) و(المشرع الروي) زيادات على ما هنا، وذكر في المشرع أنه لما سمع هشام القصيدة غضب وحبس الفرزدق بعسفان، ولما بلغ زين العابدين امتداحه أرسل إليه باثنى عشر ألف درهم، وقال: اعذر أبا فارس، لو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك، فردها وقال: يا ابن بنت رسول الله ما قلت إلا غضباً لله عز وجل ولرسوله ﷺ، وما كنت لأزرا عليه شيئاً، فقال: شكر الله لك ذلك، غير أنَّا أهل بيت إذا أنفذنا أمراً لم نعد فيه، فقبلها وجعل يهجو هشاماً. . ثم قال: وكان فصيحاً بليغاً، له من المنظوم والمنثور ما يقصر عند أكابر البلغاء، وتعجز عنه ألسن الفصحاء، ومن شعره رضي الله عنه:

أنـــي لأكتـــم مـــن علمـــي جـــواهـــره ... كيـلا يـرى الحـق ذو جهـل فيفتتنـا
وقـــد تقـــدم فـــي هـــذا أبـــو حســـن ... إلـى الحسيـن وأوصـى بعـده الحسنـا
يـــا رب جـــوهـــر علـــم لـــو أبـــوح بـــه ... لقيـل لـي: أنـت ممـن يعبـد الـوثنـا
ولاستحـــلَّ رجـــال مسلمـــون دمـــي ... يـرون أقبـح مـا يـأتـونـه حسنـا

وقارف الزهري ذنباً استوحش منه وهام على وجهه، فقال له زين العابدين: يا زهري قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم عليك من ذنبك، فقال الزهري: الله أعلم حيث يجعل رسالاته، فرجع إلى أهله وماله.

ومن كلامه رضي الله عنه: ما ضل من له حكيم يرشده، وذل من له سفيه يعضده، ومنه: أربع ذلهن ذل: البنت ولو مريم، والدين ولو درهم، والغربة ولو ليلة، والسؤال ولو كيف الطريق، فقد الأحبة غربة، عجبت لمن يحتمي من الطعام لمضرته، كيف لا يحتمي من الذنب لمعرته، إياك والابتهاج بالذنب، فإن الابتهاج به أعظم من ركوبه، من ضحك مج من عقله مجة علم، وقال رضي الله عنه: لا تصحبن خمسة ولا توافقهم في طريق، لا تصحبن فاسقاً فإنه يبيعك بأكلة فما دونها، فقيل: وما دونها؟ فقال: يطمع فيها ولا ينالها، ولا بخيلاً فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، ولا كذاباً فإنه بمنزلة السراب يبعد منك القريب ويقرب منك البعيد، ولا أحمق فإنك تريده أن ينفعك فيضرك، ولا قاطع رحم فإني وجدته معلوناً في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع وخلف زين العابدين من الولد إحدى عشر ابناً وسبع بنات، ولم يبقَ على وجه الأرض حسيني إلا من نسله، إذ قتل مع الحسين ـ رضي الله عنه ـ عامة أهل بيته، ولم ينجُ إلا ابنه علي زين العابدين، فأخرج الله من نسله الكثير الطيب، ولكن لم يعقب من أولاد زين العابدين إلا ستة، منهم الإمام محمد الباقر السابقة ترجمته، والإمام زيد بن علي الذي ينسب إليه الزيدية، كان إماماً جليلاً من الطبقة الثالثة من التابعين، وكان يدخل على هشام ابن عبد الملك فيقع بينه وبين جلسائه المحاورة، فيفحمهم الإمام زيد حتى يخجل هشام بين جنده وعز مملكته. وقال له: أنت زيد المؤمل للخلافة وأنت ابن أمة، فقال له زيد: إن الأمة لو قصرت بولدها عن بلوغ الغاية، لما بعث الله تعالى نبياً هو ابن أمة وجعله أبا العرب وأبا خير الأنبياء، وهو إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فكانت أمه مع أم اسحاق كأمي مع أمك، وما تقصيرك برجل أبوه رسول الله ﷺ وجده علي بن أبي طالب، فلما خرج زيد قال هشام: زعمتم أن أهل هذا البيت قد انقرضوا، لعمري والله ما انقرض قوم هذا خلفهم. انتهى ملخصاً من (المشرع الروي). وذكر ابن الصّلاح وغيره أنه بريء مما ينسب إليه مما ذهب إليه

متعصبو الزيدية، لا سيِّما مما يتعلق بأصول الدين، وقد بايعه الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ عند خروجه على هشام بن عبد الملك، وخرج معه من الفقهاء والقرّاء خمسة آلاف، ثم خذله الذين بايعوه، لأنه لما أمرهم بالخروج أبوا وطلبوا منه أن يتبرأ من الشيخين لينصروه، فقال: بل أتولاهما، فقالوا: إذاً نرفضك، فقال: اذهبوا أنتم الرافضة، فسموا بذلك من حينئذ، والقصة مشهورة، وقتل في تلك الواقعة، ودفن في قناة، وأجري عليها الماء لئلا يعرف قبره، ثم دلَّ يوسف ابن عمر على قبره فنبشه وتعبث برأسه، وصلب جثته على جذع نخلة عرياناً، فنسجت العنكبوت على عورته لوقته فلم يَراها أحد، فكان ذلك من باهر كراماته، واستمر مصلوباً خمس سنين، حتى ظهر ولده يحيى بن زيد بخراسان، وواقعته مشهورة، وانتقم السّفاح من هشام بنبشه وتحريقه إلى غير ذلك من الأحوال التي إهمالها والجهل بها أولى من معرفتها، لولا أن في بعضها تحقيق الكمال لأهله. انتهى. وقال في (مجمع الأحباب): قال طاؤوس: رأيت علي بن الحسين ساجداً بالحجر، فقلت: رجل صالح من أهل البيت الطيب لأسمعن ما يقول، فأصغيت إليه فسمعته يقول: عبيدك يارب نزل بفنائك، فقيرك يا رب نزل بفنائك، مسكينك يا رب نزل بفنائك، سائلك يا رب نزل بفنائك، فوالله ما دعوت بهن في كرب إلا كشف عني. انتهى، ومناقبه كثيرة مشهورة، نفع الله به.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله سره:

وأخــذه عــن الحسيــن والحســن   منْ ذكرهم يجلو عن القلب الحزن

بيّن ـ نفع الله به ـ في هذا البيت بقوله: (وأخذه. .) إلى آخره، أن الإمام زين العابدين أخذ عن والده الحسين وعمه الحسن السبطين لسيد المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهما وذرياته الطاهرين.

فأما الإمام الأول فهو الإمام السبط الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، يكنى أبا عبد الله، ولد بالمدينة يوم الثلاثاء الرابع ـ أو الخامس ـ من شعبان سنة أربع من الهجرة، وعق عنه ﷺ يوم سابعه بكبشين أملحين، وأعطى الفخذ القابلة، وحلق رأسه وتصدق بزنة الشعر فضة، ثم

طلى رأسه بيده الشريفة بالخلوق، أدرك ـ رضي الله عنه ـ من حياة جده ﷺ سبع سنين وحفظ عنه وروى عنه ﷺ وعن أبويه وخاله هند بن أبي هالة، وروى عنه أخوه الحسن وابنه علي، وحفيده محمد الباقر، وبنته فاطمة بنت الحسين، وعكرمة والشعبي والفرزدق، وهمام وطلحة بن عبيد الله العقيلي. هذا ملخص مما في (المشرع الروي). وقال في (مجمع الأحباب): وقال أبو الفرج رحمه الله تعالى: وكان له من الولد علي الأكبر وعلي الأصغر، وله العقب وجعفر وفاطمة وسكينة. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا» يعني الحسن والحسين رضي الله عنهما، وعن علي رضي الله عنه قال: كان الحسن أشبه برسول الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه بالنبي ﷺ ما كان أسفل من ذلك. وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: حج الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ ونجايبه تقاد معه خمساً وعشرين حجة ماشياً، وقتل ـ رضي الله عنه ـ شهيداً يوم الجمعة يوم عاشوراء في المحرم سنة إحدى وستين وهو ابن ست وخمسين سنة وخمسة أشهر وقيل ابن ثمان وخمسين رضي الله عنه وأرضاه. وقال مؤلفه محمد بن الحسن عفا الله عنهما: قالوا: إن عمرو ابن العاص ـ رضي الله عنه ـ كان يوماً عند معاوية ـ رضي الله عنه ـ وثم جماعة من الأشراف، فقال معاوية: من أكرم الناس أباً وأماً وجداً وجدةً وعماً وعمةً وخالاً وخالةً؟ فقال النعمان ابن عجلان: الحسن والحسين، أبوهما علي بن أبي طالب، وأمهما فاطمة، وجدهما رسول الله ﷺ، وجدتهما خديجة، وعمهما جعفر، وعمتهما أم هاني ابنة أبي طالب، وخالهما القاسم، وخالتهما زينب رضي الله عنهم أجمعين. وقال أهل السِّير: إن الله عز وجل قتل بسبب يحيى ابن زكريا خمسة وتسعين ألفاً، قال بعض العلماء: إن ذلك دية كل نبي، ويقال: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى النبي ﷺ أني قتلت بيحيى ابن زكريا تسعين ألفاً، ولأقتلن بالحسين ابن بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً. وروى الحافظ البيهقي ـ رضي الله عنه ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين:

أعيذكما بكلمات الله تعالى التامة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامة. . ثم يقول: كان أبوكم إبراهيم يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ومن كلام أبي عبد الله الحسين رضي الله عنهما: اعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عز وجل عليكم، فلا تملوا النعم فتعود نقماً، واعلموا أن المعروف يكسب حمداً ويعقب أجراً، فلو رأيتم المعروف رجلاً لرأيتموه رجلاً حسناً جميلاً يسر الناظرين ويفوق العالمين، ولو رأيتم اللوم رجلاً لرأيتموه رجلاً مستمجاً مشوهاً تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار، ومن جاد ساد، ومن بخل رذل، ومن تعجل لأخيه خيراً وجده إذا قدم عليه غداً. انتهى من مجمع الأحباب. فانظر إلى تشييده وحثه ـ رضي الله عنه ـ في اصطناع المعروف، وبذل الجود ومكارم الأخلاق، ومن مكارم أخلاقهم أن لا يتكلموا في مقام إلا ويكونون أشد الناس وأكثرهم عملاً به، فمن ذلك ما ذكره الإمام الغزالي ـ نفع الله به ـ في كتاب ذم البخل من الإحياء، قال: ورفع رجل إلى الحسين بن علي رقعة فقال: حاجتك نقضيها، فقيل له: يا ابن رسول الله لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك، فقال: يسألني الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعته. ومن ذلك ما حكاه في الكتاب المذكور قال: قال أبو الحسن المدايني: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجاً، ففاتتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا، فمروا بعجوز في خباءٍ لها، فقالوا لها: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة في كسر الخيمة، فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها، ففعلوا ذلك، ثم قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا إلا هذه الشاة، فليذبحها أحدكم حتى أهيء لكم ما تأكلون، فقام إليها أحدهم فذبحها وكشطها، ثم هيّأت طعاماً فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا، فلما ارتحلوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا، فإنا صانعون إليك خيراً، ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة، فغضب الرجل وقال: ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم، ثم تقولين: نفر من قريش، قال: ثم بعد مدة الجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويتعشيان بثمنه، فمرت العجوز في بعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ جالساً على باب

داره، فعرف العجوز وهي له منكرة، فبعث إليها غلامه فدعا بها، فقال لها: يا أمة الله أتعرفينني؟، قالت: لا، قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا، قالت العجوز: بأبي وأمي أنت هو؟ قال: نعم، ثم أمر الحسن واشترى لها من شاءِ الصدقة ألف شاة وأمر لها معها ألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين، فقال لها الحسين: بكم وصلك أخي؟، فقالت: بألف شاة وألف دينار، فأمر لها الحسين ـ رضي الله عنه ـ بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، فقال: بكم وصلك الحسن والحسين؟، فقالت: بألفي شاة وألفي دينار، فأمر لها عبد الله بن جعفر بألفي شاة وألفي دينار، ثم قال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف دينار وأربعة آلاف شاة. انتهى، وقال في (المشرع الروي) في ترجمة الحسين نفع الله به ورضي الله عنه: وقد خص النبي ﷺ ما حصل للحسين من القتل والإخبار عنه، فقال ﷺ: «لقد دخل علي البيت ملك لم يدخل علي قبلها، فقال لي: إن ابنك حسيناً هذا مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء»، وقال ﷺ: «إن ملك القطر استأذن ربه أن يأتي النبي ﷺ فأذن له، فقال لأم سلمة: أملكي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، قالت: وجاء الحسين ـ رضي الله عنه ـ ليدخل فمنعته فوثب فدخل، فجعل يقعد على ظهر النبي ﷺ وعلى منكبه وعاتقه، فقال الملك للنبي ﷺ: أتحبه؟ قال: نعم، قال: إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك طينة المكان الذي يقتل به، فضرب بيده فجاء بطينة حمراء، فأخذتها أم سلمة فصرتها في خمار»، وقال ثابت: بلغنا أنها كربلاء وفي رواية: «فجعل النبي ﷺ يلثمه ويقبله، فقال له الملك: أتحبه؟ قال: نعم، قال: إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل به، فجاء بسهله أو تراب أحمر، فأخذته أم سلمة في ثوبها»، وفي رواية نحو هذا إلا أن فيها أن الملك جبريل، وزاد في آخره: «فشمها رسول الله ﷺ وقال: ويح كرب وبلاء، وقال: يا أم سلمة، إذا تحولت هذه التربة دماً فاعلمي أن ابني قد قتل، فجعلتها أم سلمة في قارورة، ثم جعلت تنظر إليها وتقول: إن يوماً تحولين دماً ليوم عظيم»، ثم ذكر باقي ما يتعلق بالأخبار بقتله منه ﷺ، وعدم مبايعته ليزيد بن معاوية معتذراً، بأنه إذا بايع كان ممن استحل بسببه

الحرم وكان شريكاً في ذلك، وممن أشار عليه بعدم الخروج على يزيد والسفر إلى الكوفة، وناصحه في ذلك طاقته وجهده، ابن عباس وابن عمر وعبد الله ابن الزبير رضي الله عنهم، ونعوه إلى نفسه فلم يرجع ولم ينتهِ، لما قد قدره الله وقضاه في سابق علمه، ومن جملة ما أوصى به الحسن بن علي أخاه الحسين ـ رضي الله عنهم ـ لما احتضر، وقال له: أبى الله أن يجعل فينا أهل البيت النبوة والدنيا والخلافة والملك، فإياك وسفهاء أهل الكوفة أن يستخفوك فيخرجوك ويسلموك، فتندم ولات حين مناص، يا أخي إن أباك حين قبض رسول الله ﷺ استشرف لهذا الأمر ورجا أن يكون صاحبه، فصرفه الله عنه ووليه أبو بكر رضي الله عنه، فلما حضرت الوفاة أبا بكر تشوف لها أيضاً فصرفت عنه إلى عمر، فلما قبض عمر جعلها شورى بين ستة هو أحدهم فلم يشك أنها لا تعدوه، فصرفت عنه إلى عثمان، فلما هلك عثمان بويع له، ثم نوزع حتى جرد السيف، وطلبها فما صفا له شيء منها، وإني والله ما أرى أن يجمع الله فينا أهل البيت النبوة والخلافة، فلا أعرفن ما استخفك سفهاء الكوفة، وقد تذكر ذلك الحسين ليلة قتله، فكان يترحم على أخيه الحسن، ولما بلغ أخاه محمد بن الحنفية مسيره، وكان يتوضأ وبين يديه طست، فبكى حتى ملأه من دموعه، ولم يبقَ بمكة إلا من حزن لسيره.. ثم ساق القصة في المشرع إلى آخرها، وهي قصة كثيرة الأهوال والأنكاد، تكاد تنشق بسماعها القلوب وتنقطع الأكباد، لا سيِّما من الأحبة وذوي القرابة والأولاد، ولذا لما سمع السيد الإمام علي بن حسن العطاس علوي ـ نفع الله به ـ أبيات الرياشي عارضها بأبيات تناقضها من بعض وجوهها، من حيث عظم المصيبة العامة في أهل الإسلام،وما يتعلق بالغضب لله بانتهاك محارمه وحنانة الأرحام، والأبيات المذكورة للرياشي أنشدها أبو الفضل القاضي عياض، وقد جرى بحضرته ذكر حديث بني أمية وهو ساكت، فأنشد:

لعمرك إن في ذنبي لشغلاً ... لنفسي عن ذنوب بني أميه
ذنوبي كلها أخشى رداها ... ولا أخشى ذنوبهم عليه
فليس بضائري ما قد أتوه ... إذا ما الله أصلح ما لديه
على ربي حسابهم لديه ... تناهي علم ذلك لا إليه

وأما أبيات سيدنا الحبيب علي ـ قدس الله روحه ـ فهي قوله:

ألا قل للرياشي قد بدا ما … لديك الآن فاسمع ما لديه
تقول: بني أمية كنت فيهم … على الحالين في حكم السويه
ولك شغل بنفسك عن جفاهم … على الأشراف من حرم وسيه
فذاك الجهد منك وكل ظرف … بما هو فيه ينضح من جنيه
فلم يعنوك ذلك الفعل منهم … ولم تصلى بهاتيك البليه
ولو قتلوا أباك لكنت قاضٍ … بأخذ الثأر في تلك القضيه
ولكن الألى قتلوا سواكم … بني الزهرا بدور الهاشميه
فلم يحرق حشاك الكي منهم … لأنك لم ترَ ما كان كيه
ولم تنكر من المذكور ذكراً … بيدك واللسان ولا الطويه
ولم تبغضهم في الله حقاً … كما بغض النبي لشر فيه
وقد مات النبي على قلاهم … هم وثقيف ثم الحنفية
وقد بغضوا علياً خير حبر … وقد ظلموه ظلم الجاهلية
وآيات النفاق تلوح فيهم … ببغض المرتضى خير البرية
فمالك لا تبوح ببغض قوم … رضوا بالعار في حب الدنية
وشقوا بالإمام ونازعوه … وليسوا للمقام بآهلية
أليس الحب والبغضاء جميعاً … لوجه الله من أهل التقية
فلو كنا حضوراً حين ضلوا … ضربنا رؤوسهم بالمشرفية
مع الجيش الذي فتح الصياصي … وزلزل بالحصون الخيبرية

وكـان بـه الإمـام مـع بنيـه		حسـن وحسيـن وابـن الحنفيـة
وعبـد الله ابـن عبـاس فيـه		خـزانـة علـم الأسـرار الخفيـة
وعمـار ابـن يـاسـر وأهـل بـدر		وقـد قـامـوا مـع الهـادي نبيـه
ويكفينـا علـي ذو المعـالـي		هو الهادي على حكم السوية
ولـي الله والإسـلام يـولـي		زكـاتـه فـي الصـلاة مـع نبيـه
وقـال الله فـي نـص المقـاري		لهـذا القـول آيـات جليـة
وقال محمد: من كنت مولى		لـه فعلـي بـلا شـك وليـه
هـو البـدر المنيـر بغيـر لبس		أجل حق هو الشمس الضحية
وهـل يمتـار فيـه وينتقصـه		ويبغضـه سـوى القـوم الغـويـة
سـألـت الله يـرزقنـي ولاه		مـع الحـب المكيـن مـع المعية
كمـا قـال ابـن عبـاس بهـذا		وحسبـي بـالـولـي ذي الألمعيـة
ووالـيـت الإلـه ونـاصـريـه		وعـاديـت المعـادي بـالعـديـة
وقلـت: الله حسبـي ثـم حسبـي		محمـد والـولـي حيـدر وليـه

انتهت الأبيات، وقال في (مجمع الأحباب): وروي أنه لما قتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ احتزوا رأسه وقعدوا في أول مرحلة يشربون، فخرج عليهم من حائط قلم حديد فكتب عليه سطراً بدم، وهو:

أتـرجـو أمـة قتلـت حسينـاً		شفـاعـة جـده يـوم الحسـاب

وذكر أبو بكر ابن الأنباري أن زينب بنت علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ لما قتل أخوها الحسين أخرجت رأسها من الخباء، وأنشدت رافعة صوتها:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم:		مـاذا فعلتـم وأنتـم آخـر الأمـم
بعتـرتـي وبـأهلـي بعـد مفتقـدي		منهم أسارى ومنهم خرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم		أن تخلفوني بسوء في ذوي رحم

وقد رثاه الناس فأكثروا، فمن ذلك قول بعضهم شعراً:

ألم ترَ أن الأرض أضحت مريضة		لفقـد حسيـن والبـلاد اقشعـرت

وكتب عبد الملك إلى الحجاج: إياكم ودماء آل أبي طالب، فإني رأيت بني حرب لما قتلوا حسيناً نزع الملك منهم. هذا ما أردنا إيراده من ترجمته رضي الله عنه.

وأما الإمام الثاني فهو أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، يلقب بالتقي والسيد، وولد منتصف رمضان لثلاث من الهجرة، وقيل لأربع وستة أشهر، وبين مولده وحمل أخيه الحسين خمسون ليلة، ولم يكن بين ولادته وحمل الحسين إلا طهر واحد، وفعل به ﷺ عند ولادته ويوم تسميته كما فعل بأخيه الحسين كما مر، وذكر ذلك في (المشرع الروي)، وذكر فيه كثيراً من الأحاديث الواردة في فضائله وفضائل أخيه الحسين رضي الله عنهما. وقال في (مجمع الأحباب): وكان له من الولد خمسة عشر ذكراً وثمان بنات، وقال النووي قدس الله روحه ونور ضريحه: روى الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، وروت عنه عائشة، وروى عنه جماعات من التابعين، منهم ابنه الحسن بن الحسن، وغيره في آخرين رضي الله عنهم أجمعين قال: وأرضعته أم الفضل امرأة العباس مع ابنها قثم بن العباس، وكان ـ رضي الله عنه ـ حليماً كريماً ورعاً، دعاه ورعه وحلمه إلى أن ترك الدنيا والخلافة لله عز وجل، وكان من المبادرين إلى نصرة عثمان رضي الله عنه، وولي الخلافة بعد قتل أبيه لثلاث عشر بقين من رمضان، وبايعه أكثر من أربعين ألفاً كانوا بايعوا أباه، وبقي نحو سبعة أشهر خليفة بالحجاز واليمن والعراق وخراسان وغير ذلك، ثم سار إليه معاوية من الشام، وسار هو إلى معاوية، فلما تقاربا علم أنه لن تغلب إحدى الطائفتين حتى تقتل أكثر الأخرى، فأرسل إلى معاوية يبذل له تسليم الأمر على أن تكون الخلافة له بعده، وعلى أن لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه، وغير ذلك من القواعد، فأجابه معاوية إلى ما طلب، فاصطلحا على ذلك، وظهرت المعجزة النبوية في قوله ﷺ: «إن ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، قيل: كان صلحهما لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين. روينا في (صحيح مسلم) عن البراء قال: «رأيت النبي ﷺ والحسن على عاتقه، وهو يقول: اللهم إني أحبه فأحبه»، وفي (البخاري) عن

أسامة قال: «كان النبي ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمها، ثم يقول: اللهم إني أرحمهما فارحمهما»، وفي البخاري عن أبي بكرة قال: «سمعت النبي ﷺ وهو على المنبر والحسن إلى جنبه، وهو ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة، ويقول: إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»، وفيه أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال: «لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي»، وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا» يعني الحسن والحسين، وفيه عن ابن عمر قال: قال أبوبكر: ارقبوا محمداً في أهل بيته. وفي مسلم عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به.. فحث على كتاب الله ورغب، ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله تعالى في أهل بيتي»، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: جئت إلى النبي ﷺ ذات ليلة، فخرج وهو مشتمل على شيء، قلت: ما هذا؟ فكشفه فإذا هو حسن وحسين على وركيه، فقال: «هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما» رواه الترمذي وقال: حديث حسن، ومناقبه كثيرة مشهورة. انتهى ما أردنا نقله من المجمع. وقال في (المشرع الروي): وهو آخر الخلفاء الراشدين بنص قول جده ﷺ: «الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة، ثم يكون بعد ذلك ملكاً عضوضاً»، والصحيح في مدة ولاية الخلفاء الأربعة أنها تسع وعشرون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام، فخلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام، وخلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عشر سنين وستة أشهر وخمسة أيام، وخلافة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ اثنتي عشر سنة إلا اثني عشر يوماً، وخلافة علي ـ كرم الله وجهه ـ أربع سنين وثمانية أشهر، وتكون مدة خلافة الحسن منها وهي سبعة أشهر، فتمت بها ثلاثون سنة وثلاثة أيام، فكانت خلافته منصوصاً عليها، وبايعه أكثر من أربعين ألفاً، كلهم قد بايع أباه على القتل، وكانوا أطوع للحسن وأحب فيه منهم في أبيه، فبقي نحو سبعة أشهر

خليفة بالعراق، وما وراها من خراسان والحجاز واليمن وغير ذلك، وبويع له بالخلافة يوم موت والده، ثم سار إلى المدائن واستقر بها، ثم أشاروا عليه بالمسير ليأخذ الشام من معاوية، وسار معاوية بجيش الشام يقصده، وجعل الحسن قيس ابن سعد بن عبادة على مقدمة الجيش، ثم نادى منادٍ: إن قيساً قد قتل فانفروا، فلما خرج الحسن عدا عليه الجراح بن الأسد يسير معه، فوجاه بالخنجر في فخذه ليقتله، فقال الحسن: قتلتم أبي بالأمس ووثبتم علي اليوم تريدون قتلي، زهداً في العادلين ورغبة في القاسطين، والله لتعلمن نبأه بعد حين، فلما تقارب الجيشان وترآى الجمعان، بموضع يقال له: (سكن) بناحية الأنبار من أرض السواد، ورأى الحسن ـ رضي الله عنه ـ كثرة الجيوش وكثرة جيشه، وعلم أنه لن تغلب إحدى الطائفتين حتى يذهب أكثر الأخرى، أخذته رأفة على المسلمين، ورضي بالنزول لمعاوية ـ رضي الله عنهما ـ عن الخلافة عن الأمة، وقال عمرو بن العاص لمعاوية رضي الله عنهما: إني لأرى كتايب لاتولي حتى تقتل أقرانها، فقال له معاوية وكان خير الرجلين: أي عمرو إن قتل هولاء هولاء وهولاء هولاء، من لي بدماء المسلمين، من لي بضيفهم، من لي بذراريهم، فبعث إلي الحسن رجلين من قريش من بني عبد شمس، عبد الرحمٰن بن سمرة وعبد الرحمٰن بن عامر، فقال: اذهبا إلى هذا الرجل وقولا له، واطلباه وأعرضا عليه، فدخلا عليه وقالا له ما قال معاوية، فقال الحسن: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها، قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا ويسألك كذا، فقال: من لي بهذا؟ قالا: نحن لك به، فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به، فمما طلبه الحسن أن يكون وليَّ العهد من بعده، وأن لا يطلب أحداً من أهل الحجاز والعراق بشيء مما كان في أيام أبيه، وأن يمكنه من بيت المال ليأخذ منه حاجته، ففرح بذلك معاوية وأجاب إليه، إلا أنه قال: إلا عشرة أنفس لا أؤمنهم، فراجعه الحسن فيهم فكتب إليه معاوية: أني قد آليت أنني متى ظفرت بقيس بن سعد بن عبادة، أن أقطع لسانه ويده، فراجعه الحسن وكتب إليه: إني لا أبايعك أبداً، وإن تطلب قيسا أو غيره بتبعة قلت أو كثرت، فبعث إليه حينئذ معاوية برق أبيض وقال: اكتب ما شئت فيه فالتزمه، فكتب الحسن رضي الله عنه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما

صالح عليه الحسن بن علي معاوية ابن أبي سفيان، صالحه على أن يسلم عليه ولاية المسلمين، على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين، وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا، وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله تعالى وميثاقه، وأن لا يبتغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من بيت رسول الله ﷺ غائلة سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أفقٍ من الأفق، شهد عليه فلان وفلان، وكفى بالله شهيداً. ويقال: إنه بايعه على أن يدفع إليه كل سنة خمسة آلاف درهم. ولما دخل الحسن على معاوية قال: لأجيزنك بجائزة لم أجز بها أحداً قبلك ولا أجيز بها أحداً بعدك، فأجازه بأربعمائة ألف درهم فقبلها، وذلك في اليوم السابع عشر من ربيع ثاني سنة إحدى وأربعين، وبايع الحسن معاوية وبايعه الناس واجتمعوا عليه، وسمي ذلك العام: عام الجماعة، وقيل: سنة اثنتين وأربعين وقيل سنة أربعين بغير أن يأمره أحد، وكان بالطائف، ودخل معاوية الكوفة ثم قال له عمرو بن العاص وابن الأعور السلمي: لو أمرت الحسن أن يخطب الناس، فكره معاوية ذلك وقال: لا حاجة لنا في ذلك، فقالا: نحن نريد ذلك ليبدوعيه، فإنه لا يدري هذه الأمور ما هي، فقال معاوية: والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يمص لسانه، ولن يعي لسان مصه رسول الله ﷺ، فأبوا ولم يزالوا به حتى أمر الحسن أن يخطب، وقال: قم يا حسن وكلم الناس فيما جرى بيننا، فقام الحسن وصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإن هذا الأمر مدد والدنيا دول، وأن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور.. إلى أن قال: وقد علمتم أن الله تعالى هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، هداكم بجدي ﷺ، وأنقذكم من الضلالة، وخلصكم من الجهالة، وأعزكم به بعد الذلة، وكثركم بعد القلة، وإن معاوية ينازعني حقاً هو لي دونه، وإن هذا الأمر الذي اختلفت أنا ومعاوية فيه، إما أن يكون كان أحق له مني، أو يكون حقي تركته لله

تعالى ولصلاح أمة محمد ﷺ وحقن دمائهم وقطع الفتنة، وقد كنتم بايعتموني على أن تسالموا من سالمني وتحاربوا من حاربني، فرأيت أن أسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه، وقد بايعته ورأيت أن حقن الدماء خير من سفكها، ولم أرد بذلك إلا صلاحكم وبقاكم، وإني قد أخذت لكم على معاوية أن يعدل فيكم، وأن يوفر غنائمكم، وأن يقسم فيكم، ثم أقبل على معاوية فقال: أكذلك؟ قال: نعم، ثم نزل وهو يقول: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، فاشتد ذلك عليهم وقالوا لمعاوية: لو دعوته فاستنطقته ما عنى بالآية، فقال: مهلاً، فأبوا عليه، فدعوه فأجابهم، فأقبل عليه فقال له الحسن: أما أنت فقد اختلف فيك رجلان، رجل من قريش وخراز أهل المدينة، فادَّعياك فلا أدري أيهما أبوك، وأقبل عليه ابن الأعور السلمي فقال له الحسن: ألم يلعن رسول الله ﷺ رعلا وذكوان وعمرو بن سفيان، وهو اسم بن الأعور، ثم اقبل على معاوية يعيبهما، فقال له الحسن: أما علمت أن رسول الله ﷺ لعن الأحزاب وسائقيهم، وكان أحدهما أبا سفيان والآخر أبا الأعور السلمي زهير بن معاوية، وكان الحسن يقول: ما أحببت منذ علمت ما ينفعني وما يضرني أن ألي أمر أمة محمد ﷺ، أن يهراق في ذلك محجمة دم، ثم ذكر رجوعه إلى المدينة، وعتب عليه كثير نزوله لمعاوية عن الخلافة، واعتذاره إليهم بما راعاه من مصالح العامة وحقن دماء المسلمين، شفقة على الأمة المحمدية، وذكر بعده أن معاوية خليفة حق وإمام صدق، على القواعد الشرعية والشروط المرعية، وقد أخبر بخلافته وأشار إليها رسول الله ﷺ: «يا معاوية إذا ملكت فأحسن»، وقال ﷺ: «اللهم اجعله هادياً مهدياً»، وقال ﷺ: «اللهم علم معاوية الكتاب والسنة وقِه العذاب». قال: وحكي أن معاوية حبس عطاء الحسن في بعض السنين وكان مائة ألف، فحصل له إضاقة شديدة، قال: فدعوت بدواة لأكتب إلى معاوية، ثم أمسكت نفسي فرأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقال: كيف أنت يا حسن؟، قلت: بخير يا أبت، فقال: أدعوت بدواة لتكتب إلى مخلوق مثلك، قلت: نعم يا رسول الله فكيف أصنع؟ فقال: قل: اللهم اقذف في قلبي رجاك، واقطع رجائي عمَّن سواك حتى لا أرجو

أحداً غيرك، اللهم وما ضعفت عنه قوتي، وقصر عنه عملي، ولم تنتهِ إليه رغبتي، ولم تبلغه مسألتي، ولم يجرِ على لساني، مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين، فخصني به يا أرحم الراحمين، قال: فوالله ما ألححت به أسبوعاً حتى بعث إلي معاوية بمائة ألف وخمسمائة ألف، فقلت: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، ولا يخيب من دعاه، فرأيت النبي ﷺ في المنام، فقال: يا حسن كيف أنت؟، فقلت: بخير يا رسول الله، وحدثته بحديثي فقال: يا بني هكذا من رجا الخالق ولم يرجُ المخلوق. ولما حج معاوية بالناس سنة خمسين خرج إليه الحسن وشكا إليه ديناً فأعطاه ثمانين ألف دينار، وكان الحسن كثير الحج كثير الإنفاق. انتهى من المشرع.

وقال في (مجمع الأحباب): وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان الحسن بن علي رضي الله عنهما أشبههم رجاً برسول الله ﷺ»، وسمع الحسن رجلاً يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف فانصرف الحسن وأرسل بها إليه، وقال الحسن: إني لأستحيي من ربي عز وجل أن ألقاه ولم أمشِ إلى بيته، فمشى عشرين مرة من المدينة على رجليه، وفي رواية: خمس عشرة حجة ماشياً، وإن النجائب لتقاد معه، وخرج من ماله لله تعالى مرتين، وقاسم الله تعالى ثلاث مرات، حتى إن كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً، ودخل عليه رجل يعوده فقال له: سلني، قال: لا والله لا نسألك حتى يعافيك الله تعالى، فقال له: سلني قبل أن لا تسألني، قد ألقيت طائفة من كبدي، وإني قد سقيت السم مراراً فلم أُسقَ مثل هذه المرة، ثم دخل عليه في الغد فوجده يجود بنفسه والحسين عند رأسه، فقال: يا أخي من تتهم؟، قال لِمَ؟ قال: لنقتله، قال: إن يكن الذي أظن فالله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، وإن لا يكون فما أحب أن يقتل بي بريء، ثم قبض رحمه الله تعالى ولما نزل به الموت قال: أخرجوا فراشي إلى صحن الدار، فأخرج فقال: اللهم إني احتسبت نفسي عندك فإني لم أصب بمثلها، توفي لخمس ليالي بقين من ربيع الأول سنة خمسين، ودفن بالبقيع رضوان الله عليه. ومن كلام الحسن: كن في الدنيا ببدنك وفي الآخرة بقلبك، وكان يقول لبنيه وبني أخيه: يا بني وبني أخي تعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يحفظه ـ أو قال: يرويه ـ فليكتبه وليضعه في بيته، والله أعلم.

انتهى، وذكر في (المشرع) سبب سمه أنه من زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس، أرسل إليها يزيد بن معاوية أنها تسمه ويتزوجها بعده، وبذل لها مائة ألف درهم، فمرض أربعين يوماً فلما مات بعثت إلى يزيد تسأله الوفاء بما وعدها، فقال لها: أنا لم أرضاك للحسن أفنرضاك لأنفسنا. توفي ـ رضي الله عنه ـ وهو ابن ست ـ أو سبع ـ وأربعين سنة، منها سبع سنين مع النبي ﷺ وثلاثون سنة مع أبيه وعشر بعده، ودفن بالبقيع في قبة أهل البيت رضي الله عنهم.

انتهى النصف الأول من الجزء الثاني من كتاب فيض الأسرار، ويليه النصف الأخير، أوله: ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عن ابن أبي طالب علي المرتضى   إمام أهل الصدق رأس أهل الرضى

فهرس المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

(٤)

المجلد الرابع

من كتاب فيض الأسرار واقتباس
الأنوار من معاني منظومة
سيدنا الشيخ عمر البار الأخير

تأليــف

العلامة الشيخ عبد الله بن أحمد باسودان

نفع الله به آمين

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عـن أبـي طـالـب علـي المـرتضـى   إمام أهل الصدق رأس أهل الرضا

هو الإمام أمير المؤمنين أبو السبطين، علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي المكي المدني الكوفي، رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه، واسم أبي طالب عبد مناف على المشهور، ولد علي ـ كرم الله وجهه ـ يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من رجب سنة ثنتين من عام الفيل بمكة المشرفة في جوف الكعبة، على قول صححه صاحب (الفصول المهمة) وغيره، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً، وهي من السابقات إلى الإيمان المهاجرات، وكانت بمنزلة الأم من النبي ﷺ لأنها ربته، ولما ماتت كفنها النبي ﷺ بقميصه، واضطجع في قبرها وألحدها بيده الشريفة، فلما سوَّى عليها التراب سئل عن ذلك، فقال ألبستها لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت في قبرها لأخفف عنها ضغطة القبر، لأنها كانت أحسن خلق الله صنعاً إليَّ بعد أبي طالب، وبكى النبي ﷺ وقال: جزاك الله من أم خيراً ولقد كنت خير أم، وولدت لأبي طالب عقيلاً وجعفر وعلياً وأم هاني، وكان علي رضي الله عنه أصغر ولد أبي طالب، وسماه النبي ﷺ صديقاً، فقال: «الصديقون ثلاثة: حبيب ابن مري النجار مؤمن آل يٓس الذي قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وعلي بن أبي طالب الثالث وهو أفضلهم» أسلم ـ رضي الله عنه ـ وهو ابن سبع سنين وقيل غير ذلك، وهاجر إلى المدينة، واستخلفه النبي ﷺ حين هاجر من مكة إلى المدينة أن يقيم بعده بمكة أياماً، حتى يؤدي عنه أمانته والودائع والوصايا التي كانت عند النبي ﷺ ثم يلحقه بأهله، ففعل ذلك. ونقل عن جمع أنه أول من أسلم بل نقل الحاكم عليه الإجماع، وضرب ﷺ على منكبيه وقال: يا علي أنت أول المؤمنين إيماناً وأول المسلمين إسلاماً، وقال له: أنت أول من آمن بي وصدق، وقال ﷺ: أول هذه الأمة ورودا عليّ الحوض أولها إسلاماً علي بن أبي طالب، وقال علي كرم الله وجهه: بعث رسول الله ﷺ يوم الاثنين وأسلمت يوم الثلاثاء. وقال رضي الله عنه

آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر، واختلف العلماء في أول من أسلم على أقوال، والأورع الذي جمع به بعضهم بين الأقوال، أن يقال: أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، ومن الصبيان علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد، ومن العبيد بلال، وحُكى هذا الجمع عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وهو كرم الله وجهه أول من صلى، قال رضي الله عنه صليت قبل أن يصلي الناس بسبع سنين، وفي رواية: صليت مع رسول الله ﷺ ثلاث سنين قبل أن يصلي معه أحد من الناس، وقال رضي الله عنه: عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين، وأجمعوا على أنه شهد بدراً والمشاهد كلها إلا تبوك، فإن النبي ﷺ استخلفه على المدينة، فلما سار النبي ﷺ تبعه وقال: أتخلفني في النساء والصبيان يا رسول الله؟، فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، وفي رواية: أما ترضى أن يكون لك من الأجر والغنم مثل ما لي، وفي آخر حديث طويل قال: يا رسول الله ما خلفتني عنك في غزاة قط قبل هذه، قد زعم المنافقون إنما خلفتني استثقالاً، فقال: كذبوا ولكن خلفتك لما ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون، إلا أنه لا نبي بعدي، وقال ﷺ: «إني أقول كما قال أخي موسى: اللهم اجعل لي وزيرا من أهلي، أخي علياً اشدد به ازري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيرا، ونذكرك كثيرا، إنك كنت بنا بصيرا» وفي الصحيحين عن سهل ابن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلا رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي ابن أبي طالب؟، فقيل: يا رسول الله هو يشكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبريء حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال له علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: انفذ على رسلك حتى تنفذ بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»، قوله (يدوكون) أي يخوضون ويتحدثون، وقال ﷺ: «كنت أنا وعلي نوراً بين يدي

الله تعالى قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم قسم ذلك النور جزئين، فجزء أنا وجزء علي»، وقال ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» وكان لواء النبي ﷺ معه في أكثر حروبه، وإذا لم يغزُ بنفسه أعطاه سلاحه، وقال ﷺ: «أنا مدينة العلم، وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب»، وقال: إنه أقضى الأمة.

وقال ﷺ بعد أن جمع الصحابة يوم غدير خم: «ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟، قالوا: بلى، فأخذ بيد علي فقال: اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وأدر معه الحق حيث دار»، وله طرق كثيرة، ورووه عن النبي ﷺ ثلاثون صحابياً، والأحاديث في فضله كثيرة مشهورة، وأكثر هذه الأحاديث التي نقلناها هنا من ترجمته من (المشرع الروي)، وقال في (مجمع الأحباب) روي له عن رسول الله ﷺ خمسمائة حديث وستة وثمانون حديثا، اتفق البخاري ومسلم منها على عشرين، وانفرد البخاري بتسعة ومسلم بخمسة عشر، وروى عنه بنوه الثلاثة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، وابن مسعود وابن عمر وابن عباس، وأبو موسى وعبد الله بن جعفر وعبد الله ابن الزبير، وأبو سعيد وزيد بن أرقم وجابر ابن عبد الله، وأبو أمامة وصهيب وأبو رافع وأبو هريرة، وخلائق من الصحابة رضوان الله عليهم، إلا ابن الحنفية فإنه تابعي، وروى عنه من التابعين خلائق مشهورون، ونقلوا عن ابن مسعود: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي، وقال ابن المسيب ما كان أحد يقول سلوني غير علي، وقال ابن عباس: أعطي علي تسعة أعشار العلم، ووالله لقد شاركهم في العشر الباقي، قال: وإذا ثبت لنا الشيء عن علي لم نعدل إلى غيره، إلى غير ذلك مما نقلوه في فضائله، وسؤال كبار الصحابة ورجوعهم إلى فتاويه، وأقواله في المواطن الكثيرة والمسائل المعضلات مشهورة، فقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه لا أبقاني لمعضلة بعدك، وقال رضي الله عنه: لولا علي لهلك عمر، رضوان الله عليهم أجمعين. وأما زهده ـ رضي الله عنه ـ فهو من الأمور المشهورة، التي اشترك في معرفتها الخاص والعام، ومن كلماته في الزهد: الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئاً

فليصبر على مخالطة الكلاب. وقال أبو عبيدة في كتابه (الأمثال): ارتجل الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ تسع كلمات، قطع الأطماع عن اللحاق بواحدة منهن، ثلاث في المناجاة، وثلاث في العلم، وثلاث في الأدب، فأما التي في المناجاة، فقوله: كفاني عزاً أن يكون لي ربا، كفاني فخراً أن أكون له عبدا، أنت لي كما أحب فوفقني كما تحب، وأما التي في العلم، فقوله: المرء مخبوء تحت لسانه، تكلموا تعرفوا، ما ضاع امرىء عرف قدره، وأما التي في الأدب، فقوله: أنعم على من شئت تكن أميره، واستغنِ عمن شئت تكن نظيره، واجنح إلى من شئت تكن أسيره. وعن الإمام النووي رحمه الله تعالى: إن الوقوف التي تصدق بها علي ـ رضي الله عنه ـ بلغت غلتها أربعة آلاف دينار، وفي رواية: أربعين ألفاً، ومع ذلك كان يربط الحجر على بطنه من الجوع، وروينا عن سفيان ابن عيينة رحمه الله قال ما بنى علي ـ رضي الله عنه ـ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، وأما شجاعته ـ رضي الله عنه ـ فأحواله فيها معروفة، وآثاره في الحروب مشهورة، فقد بلغت التواتر، وقصته في الخندق مع عمرو بن عبد ود، وكان من مشاهير الأبطال وشجعان العرب، وكانوا يعدونه بألف رجل، فقتله علي رضي الله عنه، وهي مذكورة في (المشرع) وغيره، وكذلك في يوم خيبر لما قتل مرحب، وقلع باب خيبر وجعله ترساً، فلما انقضى الحرب رمى به، فجرب بعد ذلك فلم يحمله إلا أربعون، وفي رواية: سبعون، وفي (شرح المواقف): قال علي رضي الله عنه: ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية ولكن بقوة إلاهية، وروى الحافظ أبو نعيم ـ رحمه الله ـ عن أبي صالح قال دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية رضي الله عنه، فقال: صف لي علياً، قال: أو تعفيني؟، فقال: لا أعفيك، قال: أما إذا لا بد فإنه كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وينطق الحكم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة طويل الفكرة، يقلب كفه ويحاسب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن: كان والله كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقربه منا وقربه إلينا لا نكلمه هيبة له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في

باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله، لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، يتمثل في محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا، يتضرع إليه، ثم يقول للدنيا: أبي تعززت!، أم إلي تشوفت، هيهات هيهات ، غرِّي غيري، قد بتتّك ثلاثاً، فعمرك قصير ومجلسك حقير وخطرك كثير، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق، فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها، وجعل ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء، فقال: هكذا كان أبو الحسن رحمه الله تعالى، كيف وجدك عليه يا ضرار؟، قال: وجد من ذبح واحدها في حجرها، لا يرقى دمعها ولا يسكن حزنها، ثم قام فخرج. وافتقد علي ـ كرم الله وجهه ـ درعاً وهو بصفين فوجدها عند يهودي، فتحاكما فيه إلى قاضيه شريح وجلس بجنبه، وقال: لولا أن خصمي يهودي لاستويت معه في المجلس، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تسووا بينهم في المجالس»، وفي رواية: «أصغروهم من حيث أصغرهم الله»، ثم ادعى بها فأنكر اليهودي، فطلب شريح بينة من علي فأتى بالحسن وقنبر، فقال له شريح: شهادة الابن لا تجوز للأب، فقال اليهودي: أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه وقاضيه حكم عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وأن الدرع درعك. واعلم أنه ـ رضي الله عنه ـ هو الحقيق بالخلافة بعد الأئمة الثلاثة باتفاق أهل الحل والعقد عليه، بل قال بعضهم انعقد عليه الإجماع، ووجه انعقاده في زمن الشورى على أنها له أو لعثمان، وهذا إجماع على أنه لولا عثمان لكانت لعلي، فحين خرج عثمان بقتله من البين بقيت لعلي إجماعاً، ومن ثم قال إمام الحرمين: ولا اكتراث بقول من قال: لا إجماع على إمامة علي رضي الله عنه، واجتمع المهاجرون والأنصار على بيعة علي ـ رضي الله عنهم ـ في قصة طويلة، وتخلف نفر فلم يكرههم، وسئل عنهم فقال: أولئك قعدوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل، وتخلف عن بيعته معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام، وكانوا ستين ألفاً، ويقال: إن طلحة والزبير بايعا كارهين، ثم خرجا إلى مكة وعائشة بها فأخذاها وخرجوا إلى البصرة يطلبون بدم عثمان من غير أمر علي، والتفت قتلة عثمان على علي، وصاروا من رؤوس الملأ، فخاف علي من

أن ينتقض الناس، فسار بعسكر المدينة وبرؤوس قتلة عثمان إلى العراق، فالتقى بطلحة والزبير وهو يوم الجمل سنة ست وثلاثين، والتحم القتال من الغوغاء، وخرج الأمر عن علي وعن طلحة والزبير، وَقُتِل طلحة، وانهزم الزبير لما ذكره علي بقول النبي ﷺ: «ستقاتله وأنت ظالم له»، فلحقه عمرو بن جرموز بوادي السباع فطعنه غيلة فقتله، وكان سن كل واحد من طلحة والزبير أربعاً وستين سنة، وبلغت عدة القتلى عشرين ألفاً وثمانية آلاف، وقيل: سبعة عشر ألفاً، وقيل: ثلاثة عشر ألفاً، وذكر أنه قطع على خطام الجمل سبعون يداً كلهم من بني ضبة، كلما قطعت يد رجل تقدم آخر، وأقام علي بالبصرة خمس عشرة ليلة، ثم انصرف إلى الكوفة، ثم بلغه خروج معاوية وأهل الشام إليه في ستين ألفاً، فسار نحوهم في نحو سبعين أو تسعين ألفاً، فالتقى الجمعان على صفين بناحية الفرات، وتخلف عنها جماعة من سادات الصحابة، منهم سعد بن أبي وقاص الذي افتتح العراق، وسعيد بن زيد أحد العشرة، وزيد بن ثابت، وأبو اليسر السلمي، ومحمد بن سلمة، وأبو موسى الأشعري، وابن عمر، وصهيب الرومي، وجماعة رضي الله عنهم، رأوا السلامة في العزلة، وقالوا: إذا كانوا غزوا الكفار قاتلنا، فأما قتال أهل الفتنة والبغي فلا نقاتل أهل القبلة، ودام القتال بينهم مائة يوم وعشرة أيام، وكان بينهم تسعون وقعة، وقتل من جند علي عمار بن ياسر، ولما قتل أمسك عمرو[1] ابن العاص عن القتال وكان وزير معاوية، وتبعه جماعة كثيرون، فقال له معاوية: لم لا تقاتل؟، قال: قتلنا هذا الرجل، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية»، فدل على أن نحن بغاة، وقتل مع علي ـ رضي الله عنه ـ خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين، وأفضل التابعين على الأصح أويس القرني، وخمسة وعشرون بدرياً، وجملة من قتل من أصحاب علي ـ رضي الله عنه ـ خمسة وعشرون ألفاً، ومن أصحاب معاوية ـ رضي الله عنه ـ خمسة وأربعون ألفا، ولما وصل إلى البصرة قام إليه عبد الله بن الكوا وقيس بن عبادة، فقالا: ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه، أعهد من رسول الله ﷺ عهده إليك فحدثنا به، فأنت الموثوق والمأمون على ما سمعت، فقال: فأما أن يكون عندي عهد من النبي ﷺ، فلا والله لئن كنت أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه، ولو كان عندي

(١) المشهور أن الذي أمسك عن القتال عبد الله بن عمرو بن العاص لا عمرو.

عهد من النبي ﷺ في ذلك ما تركت أخا تيم بن مرة وعمر بن الخطاب يقومان على منبره، ولقاتلتهما بيدي ولو لم أجد إلا بردتي هذه، ولكن رسول الله ﷺ لم يقتل قتلاً ولم يمت فجأة، مكث في مرضه أياما وليالي يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني ثم ذكر استحقاق الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما للخلافة، وتقدمهما عليه بحق وطاعته لهما، وقبول ما أمراه به وأخذ ما أعطياه إياه، وغزوه معهما في جنودهما، ويغزو إذا أغزياه ممتثلاً لأمرهما، وضربه بيِّنِ الحدود بسوطه، ثم قال: فلما قبض عمر ـ رضي الله عنه ـ ذكرت في نفسي سابقتي وقرابتي وفضلي، وأنا أظن أنه لا يعدل بي، ولكن خشي عمر أن لا يعمل الخليفة بعده ذنباً إلا لحقه في قبره، فأخرج منها نفسه وولده، ولو كانت محاباة منه لآثر ولده، وبرىء منها إلى رهط من قريش ستة أنا أحدهم، فلما اجتمع الرهط تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي، وأنا أظن أن لا يعدلوا بي، فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا أن نسمع ونطيع أمر من ولاه الله عز وجل، ثم ضرب بيده على يد عثمان ـ رضي الله عنه ـ فبايعه، فنظرت في أمري فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي، وإذا ميثاقي قد أخذ لغيري، فبايعنا عثمان، فأديت إلى عثمان حقه وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذاً إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب الحدود بسوطي، فلما أصيب عثمان نظرت في أمري، فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعهد من رسول الله ﷺ إليهما في الصلاة قد مضيا، وهذا الذي أخذ له ميثاقي قد أصيب، فبايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين ـ يعني البصرة والكوفة ـ. انتهى كلامه رضي الله عنه، واعلم أيها الواقف أن ما نقلناه هنا مما وقع في خلافة الإمام علي إنما هو على سبيل الإشارة والرمز، وفي التواريخ المبسوطة أمور شنيعة ينبغي كتمها لا سيما عن القاصرين من العوام، وقد أجمع أهل السنة أنه يجب الإمساك عما شجر بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من الاختلاف والاضطراب، وما ينقل عن جهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعة القادحين فيهم، لا يلتفت إلى أقاويلهم ولا يصغى إلى أباطيلهم، لقوله ﷺ: «إذا ذكر القدر فامسكوا»، وإذا ذكر أصحابي فامسكوا وذلك لما تقرر أنهم عدول، وأنهم حاملو لواء الشريعة، وعنهم أخذت أحكامها ونشرت أعلامها، وكل ما ورد مما يقدح في

منصبهم العظيم وجنابهم الكريم، مردود على قائله موقوف قبوله على وثاقة راويه وناقله، فإذا صح التمس له أحسن التأويلات، واصوب المخارج، لقوله ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة، وهم مجتهدون جميعهم، فمصيب منهم له أجران، ومخطى فله أجر، وقد أطال في (المشرع الروي) فيما صح نقله، مما قد يشكل من تخلف علي عن مبايعة أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ ثم مبايعته بعد ذلك، وتوقفه عن نصرة عثمان ودفع البغاة عنهم بعد عرضه ذلك عليه وبذل مجهوده، وتوقفه في قبول البيعة بعد قتل عثمان إعظاماً لقتل عثمان وإنكاراً، إلى غير ذلك مما أتى له بمحامل صحيحة ووجوه صريحة، وأن طلحة والزبير وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ لهم تأويل في خروجهم عليه، وأنهم ندموا على ذلك، ثم قال في آخر ذلك: ولم يكن خروج عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلا لقصد الإصلاح وتسكين الفتنة، فوقعت في الحرب، والذي اتفق عليه أهل الحق أن المصيب في جميع ذلك علي رضي الله عنه، لما ثبت من إمامته ببيعة أهل الحل والعقد، وأن المخالفين بغاة بخروجهم على الإمام بشبهة، وأن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم، وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف وأن مخالفه باغ فوجب عليهم نصرته، وقسم عكس هؤلاء ظهر لهم الاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر فوجب عليهم مساعدته، وقسم ثالث أشبهت عليهم القضية فتحيروا فيها فاعتزلوا الفريقين، وكلهم معذورون مأجورون رضي الله عنهم، وسئل بعضهم عن أمر علي وعثمان فأجاب بقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [البقرة: ١٤١]، وسئل ميمون بن مهران عن أهل صفين فقال: تلك دماء طهر الله يدي منها فلا أريد أخضب بها لساني، وسئل بعضهم عن بعض ما مر، فقال: أصحاب رسول الله ﷺ كلهم عيون والعين لا تمس، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه انتهى، وقال الغزالي وغيره: ويحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكاياته، وما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم، فإنه يهيج على بعض الصحابة الطعن فيهم، وهم أعلام الدين، تلقى الأئمة الدين عنهم رواية، ونحن تلقيناه من الأئمة دراية، فالطاعن فيهم طاعن في نفسه ودينه، قال ابن الصلاح

والنووي: والصحابة كلهم عدول، وكان للنبي ﷺ مائة ألف وأربعة وعشرون ألف صحابي عند موته ﷺ، والقرآن والأخبار مصرحان بعدالتهم وجلالتهم، ولما جرى بينهم محامل لا يحتمل ذكرها هذا الكتاب، قال: ولا يشكل على ذلك ما يذكره العلماء من ذلك لبيان ما قد يخفى على الأذهان، مما ظاهره الخروج عن القواعد الشرعية والأحكام الفقهية، فيحكونه لإيضاح حكمه. انتهى بمعناه، وقال في (مجمع الأحباب) في ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما طعن أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ دعا أصحاب الشورى، فلم يكلم أحداً منهم غير علي وعثمان، فقال: يا علي لعل هؤلاء القوم أن يعرفوا لك قرابتك من النبي ﷺ وما آتاك الله من الفقه والعلم، فإن وليت هذا الأمر فاتقِ الله فيه. ثم دعا عثمان، فقال: يا عثمان لعل هؤلاء القوم أن يعرفوا لك صهرك من النبي ﷺ وسنك وشرفك، فإن وليت هذا الأمر فاتقِ الله فيه، ولا تحملن بني معيط على رقاب الناس، ثم قال: ادعوا لي صهيباً، فدعي فقال: صلِّ بالناس ثلاثاً، وليخل هؤلاء القوم في بيت، فإذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا رأسه، فلما خرجوا من عنده قال: إن ولوها علياً سلك بهم الطريق، فقال له ابنه عبد الله فما يمنعك يا أمير المؤمنين، قال: أكره أن أتحملها حياً وميتاً، وذكر في ترجمة عثمان ـ رضي الله عنه ـ في سياق بيعته أموراً مما ينوه بعظم شأنهم، وكمال معرفتهم بالله وشفقتهم على المسلمين، وفيه ما يدل أيضاً على انقيادهم للحق بما أهلهم الله به، بعد معرفته من العلم والحكم والعقل، وهو مما يحسن إيراده في ترجمة علي ـ رضي الله عنه ـ وإن كان فيه طول، لكن فيه فوائد مما ذكرناه، وردٌ لما ينقله الروافض مما لا أصل له، قال قدس الله روحه: وأما خلافة عثمان رضي الله عنه، فقد تقدم أنه لما توفي أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ وصلى عليه صهيب، ونزل في قبره مع ابنه عبد الله أهل الشورى جميعهم إلا طلحة فإنه كان غائباً، فلما فرغوا من شأن أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ جمعهم المقداد بن الأسود في بيت المسور ابن مخرمة وقيل في غيره، فجلسوا في البيت وقام أبو طلحة يحجبهم، فجاء عمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا من وراء الباب، فحصبهما سعد بن أبي وقاص

وطردهما، وقال لهما: جئتما لتقولا حضرنا أمر الشورى. رواه المدايني عن شيوخه والله أعلم بصحته، والحاصل: أن القوم خلصوا من الناس في بيت يشاورون في أمرهم، فكثر القوم وعلت الأصوات، فقال أبو طلحة: إني كنت أظن أن تدافعوها ولم أكن أظن أن تنافسوها، ثم صار الأمر بعد أن حضر طلحة إلى أن يفوض إلى ثلاثة منهم مالهم في ذلك إلى ثلاثة، ففوض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلى علي، وفوض سعد ماله في ذلك إلى عبد الرحمن ابن عوف، وفوض طلحة حقه إلى عثمان. فقال عبد الرحمن بن عوف لعلي وعثمان: أيكما يبرأ من هذا الأمر فيفوض الأمر إليه في التولية، والله عليه والإسلام فيولين أفضل الرجلين الباقيين، فسكت الشيخان علي وعثمان، فقال عبد الرحمن: إني أترك حقي من ذلك، والله عليَّ والإسلام أن اجتهد فأولي أولاكما بالحق، فقالا: نعم، ثم خاطب كل واحد منهما بما فيه من الفضل، وأخذ عليه العهد والميثاق لئن ولاه ليعدلن، ولئن ولي عليه ليسمعن وليطيعن، فقال كل واحد منهما: فتفرقوا، ويروى أن أهل الشورى جعلوا الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف، ليجتهد للمسلمين في أفضلهم ليوليه، فذكروا أنه سأل كل من بمكة من أهل الشورى وغيرهم، فما منهم أحد بالمدينة إلا ويشير بعثمان ابن عفان، حتى إنه قال لعلي: أرأيت إن لم أولك فمن تشير عليَّ به؟

قال: عثمان، وقال لعثمان: أرأيت إن لم أولك فمن تشير علي به؟، قال: بعلي ابن أبي طالب، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذا كان قبل أن ينحصر الأمر في ثلاثة، وينخلع عبد الرحمن منها لينظر الأفضل، والله عليه والإسلام ليجتهدن رأيه للمسلمين في أفضل الرجلين فيوليه، ثم نهض عبد الرحمن بن عوف يستشير الناس فيهما، ويجتمع برؤوس الناس وغيرهم جمعاً وأشتاتاً مثنى وفرادى، ومجتمعين سراً وجهراً، حتى أنه جلس للنساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب الواردين إلى المدينة، في مدة ثلاثة أيام بلياليهن، فلم يجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان على علي، إلا ما ينقل عن عمار والمقداد فإنهما أشارا بعلي بن أبي طالب، ثم بايعا مع

الناس على ما سيأتي، فاجتهد عبد الرحمن ابن عوف في ذلك ثلاثة أيام بلياليهن كل الاجتهاد، بحيث إنه لا يغتمض بكثير نوم، وهو ما بين صلاة ودعاء واجتهاد واستخارة، وسؤال من ذوي الرأي وغيرهم، حتى حاول ربات الحجال في خدورهن فلم يجدا أحداً يعدل بعثمان، زاد في رواية: أنه قال للمسور بن مخرمة: ادعُ لي الزبير وسعد بن أبي وقاص، فدخلا عليه فشاورهما ثم انصرفا، ثم قال: ادعُ لي علياً قال: فدعوته، فناجاه إلى ثلث الليل، ثم قام من عنده وهو على طمع، وكان فيما قال له: إنك تقول إنك أحق بهذا الأمر لقرابتك من رسول الله ﷺ وسياستك وحسن أمرك، ولم تتعدَ من ذلك، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك من كنت ترى أحق به؟ قال: عثمان، فلما خرج من عنده قال ادعُ لي عثمان قال: فدعوته، فناجاه طويلاً حتى فرق بينهما مؤذن الصبح، وقال له مثل ما قال لعلي أرأيت لو صرف عنك هذا الأمر من كنت ترى أحق به؟، قال: علي، وقال للزبير كذلك فأشار بعثمان، وقال لسعد كذلك فأشار بعثمان، وكذلك شاور المهاجرين والأنصار وكلهم أشاروا بعثمان، فلما كانت الليلة التي يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، جاء عبد الرحمن بن عوف إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة، فقال: أنائم يا مسور، والله لم أغتمض بكثير نوم منذ ثلاث، اذهب فادعُ لي علياً وعثمان، قال المسور: فقلت: يا خالي بأيهما أبدأ؟، فقال: بأيهما شئت، قال: فذهبت إلى علي فقلت: أجب خالي، فقال: أمرك أن تدعو معي أحداً، قلت: نعم، قال: من؟ قلت: عثمان بن عفان، فقال: بأيِّنا بدأ، فقلت: لم يأمرني بذلك، بل قال: ادعُ أيهما شئت أولاً فجئت إليك، قال: فخرج معي، فلما مررنا بدار عثمان جلس علي حتى دخلت إليه، فوجد يوتر مع الفجر فدعوته، فقال لي مثل ما قال علي سواء ثم خرج، فدخلت بهما على خالي وهو قائم يصلي، فلما انصرف أقبل على علي وعثمان، فقال: إني قد سألت الناس عنكما فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً، ثم أخذ العهد على كل واحد منهما أيضاً لئن ولاه ليعدلن ولئن ولي عليه ليسمعن وليطيعن، فقالا: نعم، ثم خرج بهما إلى المسجد، وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عممه بها رسول الله ﷺ وتقلد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ليحضروا المسجد، ونودي في الناس عامة: الصلاة جامعة، فامتلأ المسجد حتى

غص بالناس، وازدحم الناس وتراصوا حتى أنه لم يحصل لعثمان بن عفان موضع يجلس فيه إلا في أخريات المسجد، وكان رجلاً حيياً، ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ، فقام على الدرجة التي كان يجلس عليها رسول الله ﷺ، فوقف وقوفاً طويلاً ودعا دعاءً طويلاً، لم يسمعه الناس، ثم تكلم فقال: أيها الناس، إني قد سألتكم سراً وجهراً مثنى وفرادى جمعاً وأشتاتاً، فلم أجد أحدكم يعدل بأحد هذين الرجلين إما علي وإما عثمان، فقم إلي يا علي، فقام إليه فوقف تحت المنبر، وأخذ عبد الرحمن بيده فقال له: هل أنت مبايعي على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؟، فقال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، قال: فأرسل يده، وقال: قم يا عثمان، فأخذ بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؟، فقال: اللهم نعم، قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان، فقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان. قال وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر، قال: وقعد عبد الرحمٰن مقعد النبي ﷺ وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية، وجاء الناس يبايعونه، وبايعه علي ابن أبي طالب أولاً وقيل آخراً، هذا هو الثابت في ولاية عثمان، ولا تغتر بما سوى هذا مما ينقله الروافض فإنه لا أصل له، والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى من ترجمة عثمان رضي الله عنه، وهو نقل جامع صريح بعدالة الصحابة ـ رضي الله عنهما ـ وغاية كمالهم، وتأمل ما في كمال صاحب الترجمة علي ـ رضي الله عنه وكرم وجهه ـ في قوله: اللهم لا، ولكن أبايعك على جهدي وطاقتي، ففيه ما يرشد إلى كمالاته في الدين، وثباته في درجات اليقين. وفي ترجمته من كتاب (مجمع الأحباب) المذكور: قال سعيد ابن المسيب: لما قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ جاءت الصحابة وغيرهم إلى دار علي رضي الله عنهم، فقالوا: نبايعك فأنت أحق بها، فقال: إنما ذلك لأهل بدر فمن رضوا به فهو الخليفة، فلم يبقَ أحد إلا أتى علياً فلما رأى ذلك خرج إلى المسجد فصعد المنبر، وكان أول من صعد إليه وبايعه طلحة ثم بايعه الباقون، ولما دخل الكوفة قال له بعض حكماء العرب: لقد زينت الخلافة وما زانتك، ولهي كانت أحوج إليك منك إليها، وله في قتال

الخوارج عجائب ثابتة في الصحيح مشهودة، وأخبره النبي ﷺ بأنه سيقتل، ونقلوا عنه آثاراً كثيرة تدل على أنه ـ رضي الله عنه ـ علم السنة والشهر والليلة التي قتل فيها، وأنه لما خرج لصلاة الصبح صاحت الأوز في وجهه فطردن عنه، فقال: دعوهن، فإنهن نوائح، وقال محمد ابن سعد: قال أهل السير: انتدب ثلاثة من الخوارج: عبد الله بن ملجم المرادي وهو من أهل حمير وعداده في بني مراد، وهو حليف بني حيلة بن كندة، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمر بن بكر التميمي، فاجتمعوا بمكة وتعاقدوا ليقتلن علي بن أبي طالب ومعاوية وعمرو بن العاص، فقال ابن ملجم: أنا لعلي، وقال البرك: أنا لمعاوية، وقال الآخر: أنا لعمرو، فتعاهدوا أن لا يرجع أحد عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه، وتواعدوا سابع عشر من رمضان، فتوجه كل واحد إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يريد قتله، فضرب ابن ملجم علياً بسيف مسموم في جبهته، فأودعه دماغه في الليلة المذكورة ليلة الجمعة، ثم توفي علي ـ رضي الله عنه ـ في الكوفة في ليلة الأحد التاسع عشر من رمضان سنة أربعين، وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة، وروينا أنه لما ضربه ابن ملجم قال: فزت ورب الكعبة، قالوا: ولما فرغ علي من وصيته قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم لم يتكلم إلا كلمة الشهادة لا إله إلا الله حتى توفي، ودفن في السحر، وصلى عليه ابنه، وقيل: كان عنده فضل من حنوط رسول الله ﷺ أوصى أن يحنط به، توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الأصح وقول الأكثرين، ورثاه الناس فأكثروا فيه المراثي، ودفن بالكوفة، قال ابن قتيبة: ولعلي ـ رضي الله عنه ـ من الأولاد الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم وزينب الكبرى من فاطمة، وله أولاد من غيرها كثيرون. . ثم أورد في فضله وخصوصيته أحاديث كثيرة، قال وفي آخرها: وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي إن الله تعالى قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها، هي زينة الأبرار عند الله تعالى الزهد في الدنيا، فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً». ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ من الكتاب المذكور قال: وعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما سرني لو مت طفلاً وأدخلت

الجنة ولم أكبر فأعرف ربي، وقال: أنصح الناس وأعلمهم بالله أشد الناس حبا وتعظيما لحرمة أهل لا إله إلا الله، وقيل لعلي رضي الله عنه: ألا نحرسك؟، فقال حارس كل امرىء أجله، وقال: كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل، فإنه لن يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل يتقبل، وعن علي رضي الله عنه قال: إذا كان يوم القيامة أتت الدنيا بأحسن زينتها، ثم قالت: يا رب هبني لبعض أوليائك، فيقول الله عز وجل: اذهبي يا لا شيء، فلأنت أهون من أن أهبك لبعض أوليائي فتطوى كما يطوى الثوب الخلق، فتلقى في النار. وقال علي رضي الله عنه: لا يرجو العبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي جاهل أن يسأل عما لا يعلم، ولا يستحيي عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له. وقال رضي الله عنه: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيضل عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، ألا وأن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل. وقال رضي الله عنه: ألا إن الفقيه كل الفقيه من لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، ولا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فهم فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها. وقال: كونوا ينابيع العلم مصابيح الليل، خلقان الثياب جدد القلوب، تعرفون في ملكوت السماء وتذكرون به في الأرض، وقال كرم الله وجهه: أيها الناس إنكم لو حننتم حنين الواله الثكلان وجاورتم جوار مبتلى الرهبان، ثم خرجتم من أموالكم وأولادكم في التماس القرب إلى الله تعالى وابتغاء رضوانه، وارتفاع درجة عنده أو غفران سيئة، كان ذلك قليلا فيما تطلبون، ووالله لو سالت عيونكم رغبة ورهبة إليه سبحانه وتعالى، ثم عمرتم عمر الدنيا مجدين في الأعمال الصالحة ولم تبقوا شيئا من جهدكم، لما دخلتم الجنة بأعمالكم، ولكن برحمة الله سبحانه وتعالى، جعلنا الله وإياكم من التائبين العابدين، أو كما قال، وعن كميل ابن زياد قال: أخذ علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بيدي فأخرجني إلى ناحية الجبانة، فلما أصحرنا جلس ثم تنفس، ثم قال: يا كميل بن

زياد، القلوب أوعية فخيرها أوعاها، احفظ ما أقول لك، الناس ثلاثة، فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، العلم خير لك من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة، ومحبة العالم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد مماته، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خزان الأموال وهم أحياء، العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة، هاه هاه إن هاهنا ـ وأشار بيده إلى صدره ـ علماً لو أصبت له حملة، بلى أصبتُ لَقِناً[١] غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر بحجج الله تعالى على أوليائه، وبنعمه على عباده، أو منقاد لأهل الحق لا بصيرة له في إحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة ألا لاذا ولا ذاك[٢]، أو منهوماً باللذات، أو مغرماً بجمع المال والإدخار، وليسا من رعاة الدين، أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت هذا العلم بموت حامليه، اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله تعالى بحجة الله، لكي لا تبطل حجج الله تعالى وبيناته، أولئك هم الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أَرْوَاحُها بالمنظر الأعلى، أولئك خلفاء الله تعالى في بلاده ودعاته إلى دينه، آهـ آهـ شوقاً إلى رؤيتهم، واستغفر الله لي ولك، إذا شئت فقم. وقال علي رضي الله عنه: أشد الأعمال ثلاثة: إعطاء الحق من نفسك، وذكر الله تعالى على كل حال، ومواساة الأخ في المال، وله ـ رضي الله عنه ـ كلام كثير مشهور في العلم والحكمة، والزهد والوعظ وغير ذلك، ومن شعره رضي الله عنه:

---

(١) اللقن ـ بفتح فكسر ـ: من يفهم بسرعة، إلا أن العلم لا يطبع أخلاقه على الفضائل، فهو يستعمل وسائل الدين لجلب الدنيا، ويستعين بنعم الله على إيذاء عباده. اهـ شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده.

(٢) أي لا يصلح لحمل العلم واحد منهم.

محمد النبي أخي وصهري | وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي | يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسي | منوط حبها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها | فأيكم له قسم كقسمي
سبقتكم إلى الإسلام طرا | صغيراً ما بلغت أوان حلمي

وزاد بعضهم:

وأوجب لي الولاء معاً عليكم | رسول الله يوم غدير خم

ومن أحاديثه رضي الله عنه قال: علمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كرب، أن أقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين. وهذا آخر ما أردنا إيراده في ترجمته، ونجعلها خاتمة الطريقة العلوية.

وأما قول سيدنا الناظم قدس الله روحه:

عن النبي رسول رب العالمين | صلَّى عليه ربنا في كل حين

فنؤخر ما يتعلق بشرحه ونورد من فتحه آخر الطريقة الأخيرة، ليكون ختم الطريقة العلوية بترجمة باب مدينة علمها والموشي لرقمها، والمتلقي عنه أركان معناها ورسمها، ونختم الطريقة الشعيبية بترجمة الملك الجليل، أمين الوحي جبريل، إشارة إلى أن من سلك هذه الطرائق وملك، التحق برتبة الملك، ثم في خاتمة هذه الطرائق بذكر يسير من سيرة حقيقة الحقائق، صلوات الله وسلامه عليه ما ذر شارق ووقب غاسق، ثم خاتمة الخاتمة بذكر طرف من توحيد الإله الذي أحدث هذا العالم، وبرأه وابتدعه وأنشأه ودبره بهذا التدبير، ويسر كلاً لما خلق له على هذا التقدير، لأن معنى الطريقة يرجع إلى معنى سر الحقيقة، ولهذا قال سيدنا الإمام عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه باعلوي ـ نفع الله به ـ أول قصيدته السابق ذكرها التي نظمها في الإسناد، المسماة (مفتاح الأسرار في تنزل الأنوار وإجازة الأبرار)، فتأمل ما في الاسم من قوله (في تنزل الأنوار) تفهم ما في المسمى، وهو قوله قدس الله سره:

سبحـان رب العـزة المتعـالـي　　عن كل ما يصفون من أقوال
جل العظيم عن الحروف ووضعها　　وعن الحدود وعن قبول البال
فلقـد تعـالـى فـي سمـاء سمـوه　　عـن وسمـه بسمـات رسـم بـال
سبحان من سبحات وجه جلاله　　أعمـت عيـون قـوابـل الإقبـال
ولقــد تنــزل جــوده بــوجــوده　　في الكائنات بكل معنى عال

إلى آخر ما ذكرناه منها عند قول سيدنا الناظم:

ثـم الصـلاة والسـلام الأبـدي　　علـى النبـي الممـد أهـل المـدد

فلسيدنا الفقيه المقدم محمد بن علي ـ نفع الله به ـ في الأخذ ولبس الخرقة طريقان كما تقدم، الأولى وهي الأحب طريقة الأخذ عن الآباء والجدود، وهي هذه المتقدمة الفائقة المعظمة، والثانية وهي الأشهر طريقة الشيخ شعيب، وهي المعنية بقول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

ح للفقيـه شيـخ أربـاب الطـريـق　　إمام أهل الله ذي المجد العريق
أخذ على الشيخ شعيب المغربي　　من بالمقامات العلية قد حُبِي
بـواسطـة مـن جـاء إليـه بـالسنـد　　عبد الله الصالح ذي الرأي الأشد
وشيخــــه وجيـــــه ديـــــن الله　　الحضـــــرمـــــي المقعـــد الأواه

اعلم أنه قد مر في ترجمة سيدنا القطب المعظم الفقيه المقدم، كيفية أخذه عن الإمام الشيخ الكبير أبي مدين، قال في (السلسلة العيدروسية) للإمام شيخ بن عبد الله العيدروس نفع الله به، بعد أن ذكر كيفية هذا الأخذ والإرسال، وطريق رابطة الاتصال: واعلم بأن شيخ سيدي الشيخ الفقيه كما نقله السادة الشيخ أبو مدين، وليس لعبد الرحمن المقعد وتلميذه عبد الله الصالح مشيخة عليه، وقد غلط من ظن ذلك، وإنما عبد الرحمن، كالرسول من الشيخ أبي مدين، وعبد الله الصالح رسول ونائب لعبد الرحمن المذكور، ولله در سيدي الشيخ علي بن أبي بكر صاحب (البرقة) حيث قال:

محمـــد الفقيـــه وحيـــد عصـــره　　بأبي علوي ذي الوهب الجزيل
فخـرقتـه لهـا كـم مـن طـريـق　　ســلاسلهــا بتمكيـــن أصيـــل

إلى أن قال:

لـه أسـرار جلـت عـن شـريـك　　مـن الأشيـاخ كـم قطـب مثيـل
وكم شعب تشعب من شعيب　　وكـم مـن مقعـد هـامي الهطيـل

أشار بما في هذا البيت إلى ما هو المقصود هنا، من أخذ سيدنا الشيخ الفقيه المقدم عن الشيخ الكبير القطب الشهير أبي مدين شعيب ابن أبي الحسين التلمساني المغربي قدس الله روحه ونفع به، قال في السلسلة المذكورة: كان أحد أركان هذا الشأن، وأجل الأكابر الأعيان، أظهر الله على يديه عجائب الآيات، وكشف له أسرار المغيبات، وانتشر ذكره في الآفاق، وانعقد الإجماع على فضله بالإتفاق، وتخرج به جماعة من أكابر المشايخ، وتتلمذ له خلق كثير من أهل الطريقة، وانتمى إليه عالم عظيم من الصلحاء، وتأدب بين يديه المشايخ والعلماء، قال الشيخ محيي الدين ابن عربي في (الفتوحات): كان شيخنا أبو مدين بالمغرب مثل الشيخ عبد القادر بالمشرق، يعني في إرشاد المريدين، ودعاء الخلق إلى الله تعالى، حتى قيل: خرج على يد الشيخ أبي مدين من الأولياء ألف تلميذ. وقال الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رضي الله عنه: بعض شيوخ اليمن ينسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، ومنهم من ينسب إلى الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبي مدين شعيب المغربي، هذا شيخ المغرب والأول شيخ المشرق. انتهى، وروي عن الشيخ الجليل عبد الرزاق أنه قال لقيت أبا العباس الخضر ـ عليه السلام ـ وسألته عن شيخنا أبي مدين رضي الله عنه، فقال: هو إمام الصديقين في هذا الوقت، أتاه الله مفتاحاً من السر المصون بحجاب القدس، ما في هذا الوقت أجمع لأسرار المرسلين منه، وقال محيي الدين ابن عربي: سأل بعض الأولياء إبليس فقال له: كيف حالك مع الشيخ أبي مدين فقال له إبليس: ما شهدت نفسي معه إلا كشخص وقف على شاطىء البحر المحيط فبال فيه، فقال: لِمَ تبول فيه؟، قال: حتى أنجسه فلا تقع به الطهارة، فهل رأيتم أسخف من هذا الشخص، كذلك أنا وقلب أبي مدين، كلما ألقيت إليه أمراً قلب عينه. وللشيخ أبي مدين ـ رضي الله عنه ـ كلام نفيس على لسان أهل الحقائق، وكرامات باهرات خوارق،

فمن كلامه: لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد، ومنه: انكسار العاصي خير من صولة المطيع، وقال رضي الله عنه: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء، وما وصل إلى صريح الحرية من عليه من نفسه بقية. وقال رضي الله عنه: إذا ظهر الحق لم يبقَ معه غيره، وليس للقلب سوى وجهة واحدة، فإلى أي وجهة توجه حجب عن غيرها، وقال قدس الله سره: إن النقطة التي تحت الباء إشارة إلى المقام الرابع، المعبر عنه بفناء الفناء وجمع الجمع، وكان كثيرا ما يقول: من علامات صدق المريد فراره عن الخلق ووجوده للحق، ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق، وروي عنه أنه قال: أوقفني ربي عز وجل بين يديه، وقال لي: يا شعيب ماذا عن يمينك؟ قلت: يا رب عطاؤك، قال: وماذا عن شمالك؟ قلت: يا رب قضاؤك قال يا شعيب قد ضاعفت لك هذا وغفرت هذا، فطوبى لمن رآك، ورأى من رآك. وقال رضي الله عنه: من قطع موصولاً بربه ومن شغل مشغولاً بقربه، أدركه المقت في الحال، وقال من لم يكن بالأحد لم يكن بأحد، ومن عرف أحد لم يعرف الأحد. وذكر سيدي محيي الدين ابن عربي ـ رضي الله عنه ـ أن الشيخ أبا مدين آخر ما بقي من عمره ترك جميع أسباب الدنيا، وجلس مع الله على ما يفتح الله له، فقيل له: يا أبا مدين لم تركت الأسباب؟ أولمَ لا تقول بها؟، فقال رحمه الله: أقول بها، ولكن إذا نزل الضيف بقوم وعزم على الإقامة عندهم، فكم توفية زمان وجوب إطعامه عليهم، فقيل: ثلاثة أيام، قال: وبعد الثلاثة الأيام، قالوا: يحترف، قال الشيخ: الله أكبر أنصفونا، نحن أضياف ربنا تبارك وتعالى، نزلنا عليه في حضرته على وجه الإقامة عنده إلى الأبد، فتعينت الضيافة، فإنه تعالى ما دل على كريم خلق لعبد إلا كان هو أولى بالاتصاف به، وأيام ربنا كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وضيافته بحسب أيامه، فإذا أقمنا عنده ثلاثة آلاف سنة ولم نحترف يتوجه اعتراضكم علينا، ونحن نموت وتنقضي الدنيا وتبقى لنا فضلة عنده تعالى من ضيافتنا، فاستحسن ذلك منه. وأما كراماته ـ رضي الله عنه ـ فكثيرة مشهورة، فمنها ما حكاه عبد الله بن أسعد اليافعي إلى الدكالي، قال: قامت الحرب بالمغرب بين المسلمين والإفرنج في حياة الشيخ

أبي مدين رضي الله عنه، فأخذ الشيخ سيفه وخرج إلى الصحراء في نفر من أصحابه وأنا معهم، وجلس على كثيب من رمل، فإذا بين يديه خنازير قد ملأت البرية، فوثب الشيخ حتى صار بينهم وسل سيفه وعلا به رؤوس الخنازير، حتى صرع منهم كثير وولوا هاربين، فسألناه عن ذلك فقال: هؤلاء الإفرنج وقد خذلهم الله تعالى، فأرخنا الوقت فجاء الخبر بكسرة الإفرنج في ذلك الوقت وروي أن سلطان المغرب أمر بإشخاصه إليه ليتبرك به، فلما وصل إلى تلمسان قال: مالنا وللسلطان، الليلة نزور الإخوان، واستقبل القبلة وتشهد، وقال: ها قد جيت ها قد جيت، وعجلت إليك رب لترضى، ومات ودفن في جبانة العباد وقد ناهز الثمانين، وقبره هناك يزار ويقصد من جميع الأقطار، وكانت وفاته سنة تسعين وخمسمائة. انتهى ملخصاً من الكتاب المذكور، وقال الإمام عبد الوهاب الشعراوي ـ رضي الله عنه ـ في (طبقات الأولياء): وذكر الشيخ محيي الدين رضي الله عنه في كتابه (الفتوحات) قال: ذهبت أنا وبعض الأبدال إلى جبل قاف، فمررنا على الحية المحدقة به، فقال لي البدل: سلم عليها فإنها سترد عليك، فسلمنا عليها فردت، ثم قالت: من أي البلاد؟، فقلنا: من بجاية، فقالت: ما حال أبي مدين مع أهلها؟، فقلنا لها: يرمونه بالزندقة، فقالت: يا عجباً والله لبني آدم، والله ما كنت أظن أن الله عز وجل يوالي عبدا من عبيده فيكرهه أحد فيه مثقال ذرة من الخير، فقلنا لها: ومن أعلمك به؟، فقالت: يا سبحان الله، وهل على الأرض دابة تجهله، إنه والله ممن اتخذه الله تعالى ولياً وأنزل محبته في قلوب العباد، فلا يكرهه إلا كافر أو منافق. انتهى، قلت: وأجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله، وتأدبوا بين يديه، وكان جميلاً ظريفاً متواضعاً، زاهداً ورعاً محققاً، مشتملاً على كرم الأخلاق، رضي الله عنه. انتهى.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

أخذ شعيب عن أبي يعزى   من نال مجداً شامخاً وعزا

ذكر ـ نفع الله به ـ في هذا البيت أحد كبار مشايخ الشيخ أبي مدين، وهو الشيخ الكبير أبو يعزا قال في السلسلة العيدروسية: وسيدي الشيخ أبو مدين ـ

رضي الله عنه ـ أخذ الخرقة عن جمع كثير من أهل الطريقة، منهم الشيخ الإمام أبوبكر الطرشوشي عن الشيخ أبي بكر الشاشي عن الشبلي، وأخذها أيضاً عن شيخه الشيخ العارف بالله الشهير شيخ الشيوخ أبي يعزا ـ بفتح الياء المثناة من تحت والعين المهملة والزاي المشددة ـ، كان ـ رضي الله عنه ـ أحد أوتاد المغرب وأعيانها، تخرج بصحبته جماعة من المشايخ، وقال بإرادته خلق كثير، وله كلام عالٍ في المعارف، ومنه قوله: الأحوال مالكة لأهل البدايات فهي تصرفهم، ومملوكة لأهل النهايات فهم يصرفونها، وقال رضي الله عنه: لا يكون الولي ولياً حتى يكون له قدم ومقام وحال ومنازلة وسر، فالقدم ما سلكته في طريقك إلى الحق سبحانه وتعالى، والمقام ما أقرتك عليه سابقتك في العلم الأزلي، والحال ما بغتك من فوائد الوصول لا من نتائج السلوك، والمنازلة ما خصصت به من الحضور بنعت المشاهدة لا بوصف الإستتار، والسر ما أورد عنه من لطائف الأزل عند هجوم الجمع ومحو السوى وتلاشي ذاتك. ومناقبه ـ رضي الله عنه ـ كثيرة وكراماته شهيرة، منها: ما روي أن المحتطبين أتوا إليه يشكون كثرة الأسود في غابة يقطعون منها الحطب، فقال لخادمه: اغدُ إلى طريق الغابة ونادِ بأعلى صوتك: معاشر الأُسْد، يأمركم أبو يعزا أن ترحلوا من الغابة، ففعل ذلك، فخرجت في الحال حاملة ابناءها حتى لم يبق فيها شيء، ومنها: ما حكي عن الشيخ صالح الدكالي قال: سمعت شيخنا أبا مدين يقول: جاء بعض أصحابنا إلى شيخنا أبي يعزا، وقال له: إن لي أرضاً أقتات أنا وعيالي من زرعها وقد أجدبت، فقام الشيخ وأتى الأرض ومشى فيها، وجعل يسأل عن حدها حتى انتهى إلى آخرها، فأمطرت بعد ذلك ولم يتعداها المطر. انتهى من مواضع من الكتاب المذكور، وقال الإمام الشيخ الكبير عبد الوهاب الشعراوي في طبقاته (لوامع الأنوار) أبو يعزى المغربي رضي الله عنه، وكان انتهت إليه تربية الصادقين بالمغرب، وتخرج بصحبته جماعة من أكابر مشايخها وأعلام زهادها. قال الشيخ أبو محمد الإفريقي رحمه الله تعالى: وأقام الشيخ أبو يعزا في بدايته خمس عشرة سنة في البر لا يأكل إلا حب شجر البادية، وكانت الأسد تأوي إليه والطير تعكف عليه، وإذا قال للأسد: لا تسكني هنا، تأخذ أشبالها وتخرج بأجمعها. قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه:

وزرته مرة في الصحراء وحوله الأسد والوحوش والطير فتشاوره في أحوالها، وكان الوقت وقت غلاء، وكان يقول لذلك الوحش: اذهب إلى مكان كذا فهناك قوتك، ويقول للطير مثل ذلك، فتنقاد لأمره، ثم قال: يا شعيب إن هذه الوحوش والطيور أحبت جواري، فتحملت ألم الجوع لأجلي، رضي الله عنه.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم:

عن ابن حرزهم عن ابن العربي حجة الإسلام ذي القلب الأبي

ذكر في هذا البيت ثلاثة أعلام، وهم: الإمام ابن حرزهم والإمام ابن العربي وحجة الإسلام، فأما الإمام الأول فهو قرين الفضل الذي لا يتحول، الشيخ الكبير ابن حرزهم المغربي، نفع الله به. قال في (السلسلة العيدروسيّة): وسيدي الشيخ أبو يعزى أخذ الخرقة عن جمع كثيرين من أهل الطريقة، منهم الشيخ أبو يعقوب السارية، عن عبد الجليل عن أبي الفضل الجوهري عن والده عبد الله، عن أبي الحسين النوري عن السري، ومنهم الشيخ أبو البركات عن أبي الفضل البغدادي عن أحمد الغزالي بسنده، وأخذها عن الشيخ الإمام نور الدين علي بن حرازم، ويقال فيه: علي بن حرزهم ـ بكسر الحاء المهملة وإسكان الراء ـ الفقيه المشهور المغربي. كان ـ رضي الله عنه ـ من أكابر المشايخ العارفين، وجهابذة العلماء العاملين، وكان في ابتدائه جامد الطبع لا يقول بالطائفة الصوفية، حتى أنه أمر بإحراق كتاب الإحياء للغزالي، فرأى الرؤيا المشهورة، فانكف عن ذلك وترك ما عزم عليه، وحسن ظنه بهم، وفتح الله عليه في طريقهم، ونال من المعرفة بالله تعالى والحظ العظيم ما نال، بفضل الله الكريم المتعال، وصحبه الشيخ أبو مدين وتربى به، وقال له قد فتحت لك ستة أقفال، وبقي السابع يفتحه لك الشيخ أبو يعزى فاذهب إليه، فذهب إليه فلما رآه أبو يعزى قال له: قال لك أبو الحسن: إني أفتح لك القفل السابع فهو أنا، أفتحه لك بأدبه، ففتحه ففتح عليه، وكان من أمر الشيخ أبي مدين وعظم شأنه ما كان رضي الله تعالى عنهم.

وأما الإمام الثاني فهو الشيخ الكبير أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري نفع الله به، قال في السلسلة المذكورة: وسيدي الشيخ علي بن حرازم

أخذ الخرقة على الإمام القاضي أبي بكر بن محمد المعافري، ـ بفتح الميم والعين المهملة وكسر الفاء ثم راء بعدها ياء ـ نسبة إلى المعافرين، قيل: الأندلسي، كان ـ رضي الله عنه ـ من أهل التفنن في العلوم والإستبحار فيها، مع حسن المعاشرة ولين الجانب وكثرة الإحتمال، وكان مولده ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة، وتوفي في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ودفن بمدينة فاس، ووجد له عدة من التصانيف، وقيل: إن ولادته كانت سنة تسع وستين، ووفاته في جمادى الأولى رضي الله عنه:

وأما الإمام الثالث فهو المعني بزيادة البيان، لما حوى من العلوم والعرفان، بقول سيدنا الناظم رضي الله عنه ونفع به:

غــزالــي العلــوم والمعــارف   من نال قدراً فوق وصف الواصف

فهو إمام الأئمة حبر الأمة، حجة الإسلام ووارث علوم سيد الأنام، والمجدد للأمة أمر دينها في تلك الأيام، الشيخ الكبير أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي قدس الله روحه. قال الإمام الأسنوي ـ رحمه الله في بعض مؤلفاته: ولد الحجة الغزالي بطوس سنة خمس وأربعمائة، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في حانوته، فلما احتضر وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له صوفي صالح، فعلمهما الخط والأدب، ثم نفذ ما خلفه أبوهما وتعذر عليهما القوت، فقال: أرى لكما أن تلجآ إلى المدرسة، قال الغزالي: فصرنا إلى المدرسة نطلب الفقه لتحصيل القوت، فاشتغل بها مدة ثم ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي بجرجان، ثم إلى إمام الحرمين بنيسابور، فاشتغل عليه حتى صار أنظر أهل زمانه، وجلس للإقراء في حياة إمامه وصنف، وكان الإمام في الظاهر يظهر التبجح به، وفي الباطن عنده منه شيء لما يصدر منه في سرعة العبارة وقوة الطبع، وينسب إليه تصنيفان ليسا له بل وضعا عليه، وهما (السر المكتوم) و (المظنون به على غير أهله)، فلما مات إمامه خرج إلى المعسكر وحضر مجلس نظام الملك، وكان مجلسه محط رجال العلماء، ومقصد الأئمة والفصحاء، فوقع للغزالي أمور تقتضي علو شأنه من ملاقاة الأئمة ومحاورة الخصوم اللد، ومناظرة الفحول ومناطحة

الكبار، فأقبل عليه نظام الملك وحلَّ منه محلاً عظيماً، فعظمت منزلته وطار اسمه في الآفاق، وندب للتدريس بنظامية بغداد سنة أربع وثمانين، فقدمها في محمل كبير وتلقاه الناس، ونفذت كلمته وعظمت حشمته، حتى غلبت على حشمة الوزارء والأمراء، وضربت به الأمثال وشدت إليه الرحال، إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفضها وأخرجها، وأقبل على العبادة والسياحة، فخرج إلى الحجاز سنة ثمان وثمانين، فحج ورجع إلى دمشق واستوطنها عشر سنين بمنارة الجامع، وصنف فيها كتباً يقال: إن الإحياء منها، ثم سار إلى القدس والإسكندرية، ثم عاد إلى وطنه طوس مقبلاً على التصنيف والعبادة، وملازمة التلامذة ونشر العلم وعدم مخالطة الناس، ثم إن الوزير فخر الملك نظام الملك حضر إليه وخطبه إلى نظامية نيسابور، ولح عليه كل الإلحاح، فأجاب إلى ذلك وأقام عليه مدة ثم تركه وعاد إلى وطنه على ما كان عليه، وابتنى في جواره خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين، ولزم الإنقطاع، ووظف أوقاته على وظائف الخير، بحيث لا تمضي لحظة منها إلا في طاعة من التلاوة والتدريس والنظر في الأحاديث خصوصا البخاري وإدامة الصيام والتهجد ومجالسة أهل القلوب، إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى وهو قطب الوجود، والبركة الشاملة لكل موجود، وروح خلاصة أهل الإيمان، والطريق الموصلة إلى رضى الرحمن، يتقرب به إلى الله تعالى كل صديق، ولا يبغضه إلا كل ملحد أو زنديق، وكانت وفاته بطوس صبيحة الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة وعمره خمس وخمسون سنة، ذكره ابن الصلاح في طبقاته ناقلاً له ولأكثر ما سبق عن رفيقه عبد الغافر الفارسي في الذيل.
وكان أخوه عالماً واعظاً غلب عليه علم التصوف والخلوة، توفي بقزوين في حدود سنة عشرين وخمسمائة، وكان لهما عم من كبار الأئمة، أشار إليه الشيخ أبو إسحاق في الطبقات. انتهى ما نقلناه عن الأسنوي مع حذف يسير، قال في (الطراز المعلم والسر الملهم): نقل عن أخيه أحمد الغزالي ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: لما كان يوم الاثنين ـ أي يوم وفاته ـ وقت الصبح، توضأ أخي أبو حامد وصلى وقال: علي بالكفن، وأخذه وقبله ووضعه على جبينه، وقال: سمعاً وطاعةً للدخول على الملك، ثم مد رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار قدس الله روحه، ووجدت تحت رأسه طرس مكتوب فيه قصيدة نحو ثلاثين بيتا:

قـل لإخـوانـي رأونـي ميتـاً   فبكـونـي إن رأونـي حـزنـا
أتظنـــون بـــأنـــي ميتكـــم   ليـــس ذاك الميـــت والله أنـــا
أنـا فـي الصـور وهـذا جسـدي   كـان ثـوبـي وقميصـي زمنـا
أنــا كنــز وحجــابـي طلســم   مـن تـراب قـد تسجى للفنـا
أنــا در قــد حــوانـي صـدف   كـان سجني فـألفـت السجنـا
أنــا عصفــور وهــذا قفصـي   طــرت فيــه فتخلــى رهنــا
أشكــر الله الــذي خلصنــي   وبنى لـي فـي المعـالـي وطنـا
كنـت قبـل اليـوم ميتـاً عنكـم   فحييـــت وخلعـــت الكفنـــا

. . إلى إن قال:

قـد تـرحلـت وقـد خلفتكـم   لست أرضى داركـم لـي وطنا
لا تظنـوا المـوت مـوتـاً إنـه   لحيـاة وهـو غـايـات المنـا
لا تـرعكـم هجمـة المـوت فما   هـي إلا انتقـال مـن هنـا

إلى أن قال في آخرها:

أســأل الله لنفســي رحمــة   رحــم الله صــديقــاً أمَّنــا
وعليكـم مـن سـلامـي طيـب   وســلام الله بــدءاً وثنــا

وقال فيه أيضاً: حكي أنه لما وقف الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن حرزهم المغربي على (الإحياء) وتأمله قال: هذا بدعة مخالفة للسنة، وكان شيخاً مطاعاً في المغرب، فأمر بإحضار كل ما فيها من نسخ الإحياء، وطلب من السلطان أن يلزم الناس ذلك، فأجابه وكتب إلى النواحي وشدد في ذلك، وتوعد من أخفى شيئاً منه، فأحضروا ما عندهم، واجتمع الفقهاء ونظروا فيه، ثم أجمعوا على إحراقه يوم الجمعة، فلما كانت ليلة الجمعة رأى أبو الحسن المذكور في المنام، كأنه دخل من باب الجامع الذي عادته يدخل منه، فرأى في ركن المسجد نوراً فالتفت، وإذا بالنبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والإمام أبو حامد

الغزالي قائم وبيده الإحياء، فقال: يا رسول الله هذا خصمي، ثم جثا على ركبتيه وزحف عليهما إلى أن ناول كتاب (الإحياء) رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله انظر فيه فإن كان بدعة مخالفة لسنتك كما زعم تبت إلى الله، وإن كان شيئاً تستحسنه حصل من بركتك فأنصفني من خصمي، فنظر فيه ﷺ ورقة ورقة إلى آخره، ثم قال: والله إن هذا شيء حسن، ثم ناوله أبا بكر وعمر وكل منهما يقول بعد نظره كذلك والذي بعثك بالحق يا رسول الله إنه لحسن فأمر النبي ﷺ بتجريد أبي الحسن من ثيابه وضربه حد المفتري، فجرد وضرب، ثم تشفع فيه أبو بكر رضي الله عنه بعد خمسة أسواط، وقال: يا رسول الله إنما فعل هذا اجتهاد في سنتك، فغفر له أبو حامد عند ذلك، فلما استيقظ من منامه وأصبح، أعلم أصحابه بما جرى ورجع عما نوى، ومكث قريباً من شهر متألماً من الضرب، ثم منَّ الله تعالى عليه بالعافية، ومكث إلى أن مات وأثر السياط على ظهره، وصار ينظر في كتاب الإحياء ويعظمه، وفي هذه الرؤية كما هو واضح تنبيه على جلالة الإحياء والشهادة بحسنه، بالنص القاطع لأعناق الطاعنين وإن جلوا وقد انتفع به كثير من سالكي طريق الآخرة ولازمه أرباب القلوب كسادتنا بني علوي وغيرهم، وممّن أثنى عليه الشيخ عبدالرحمن السقاف نفع الله به، وقال في أثناء كلامه: من لم يطالع الإحياء ما فيه حياء، وقال الكازروني: لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء، وكذا سيدنا الشيخ أبو بكر العدني رضي الله عنه، كان مشغوفاً بمطالعة الإحياء وتحصيله حتى حصل منه نسخاً عديدة، وقال: كاد الإحياء أن يكون قرآناً، وكذلك والده الشيخ عبد الله العيدروس ـ رضي الله عنه ـ كان مشغوفاً بمطالعة كتب الغزالي خصوصاً الإحياء، وكان كثير الثناء عليه، ويدعو الناس إليه بقوله وفعله، ويحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه، حتى حصلت بسببه في زمانه من الإحياء نسخ عديدة. انتهى من (الطراز المعلم) مما نقله عنه سيدي الإمام شيخ ابن محمد الجفري نفع الله به، وقال سيدنا الشيخ أحمد بن زين الحبشي ـ قدس الله روحه ـ في (شرح العينية): وقال بعضهم: وزعت تصانيف الإمام الغزالي على أيام عمره فبلغ كل يوم كراس، وعن الإمام النووي عن بعض شيوخه المعتمدين قال: وزعت تصانيف الإمام الغزالي على أيام عمره فخص كل يوم منها خمس

كراريس. انتهى، وقد أطنب الشيخ عبد الله بن أبي بكر العيدروس في الثناء على الإمام الغزالي وعلى كتبه، حتى بلغ ذلك كراريس، ومن كلامه: لا شيء أنفع ولا أرفع ولا أقرب إلى رضا الله تعالى من متابعة كتب الغزالي وقال رضي الله عنه: اشهدوا عليَّ أن من طالع كتب الغزالي فقد وقع على عين الحقيقة والطريقة والشريعة، ومن أراد أن ينظر إلى لوائح طوالع لوامع المعارف وطريقة القوم فعليه بكتب الغزالي، وموضع رضا الله تعالى ورسوله ﷺ مطالعة الإحياء، إلى غير ذلك من الإطراء والمبالغة في الثناء، ولذا قال سيدنا عبد الله الحداد نفع الله به في قصيدته التي أولها:

بإحياء علوم الدين تحيى قلوبنا ... ويكشف عنا غمنا وكروبنا

كتاب حوى علم الكتاب وسنة ... وما قاله أوَّاهُنا ومنيبنا

وقد أطنب الشيخ الإمام بوصفه ... أبو المكرمات العيدروس حبيبنا

وقال في القصيدة الأخرى:

والحجة الحبر الذي باهى به ... أهل النبوة خير كل مشفع

وبوضعه الإحياء فاق فيا له ... من فائق وكمثله لم يوضع

وقال قدس الله روحه: الغزالي نعمة من الله على هذه الأمة، دقق العلوم وغزلها، وكل عالم ينقص عن مرتبته، وقال: إنما تشفي الغليل كتب الغزالي لأنها دواء من أمراض القلوب، ومن أراد أن يصح قلبه فليداوم على قراءتها، وقال نفع الله به: محبة الإمام الغزالي موهبة لا تكيف، وسوف ترى ذلك في الدار الآخرة، ولا يحب كتب الغزالي إلا مؤمن نيّر القلب منصف من نفسه، لأنها حق صرف وليس فيها تلبيس، جزى الله الإمام الغزالي خيراً، لقد أرشدنا بكتبه وبركات سره، وقال رضي الله عنه: ما اجتمع أهل الحق على كمال أحد كاجتماعهم على الإمام الغزالي، ولا يتم لسالك سلوكه حتى يقرأ كتب الغزالي، فإنها تعينه على السلوك وتخرجه من شر نفسه، وقال ـ نفع الله به ـ في أثناء كلام يثني على الإمام الغزالي وكتبه: ومن اشتغل بالإحياء قراءة ومطالعة فقد تحقق بالعلم، لأن قراءته تكفي عن المعلم والشيخ، ولا أنفع لأهل هذا الزمان من قراءة الإحياء، فهو حياة وسعادة

في الآخرة، وقال: الإحياء معجزة، إلى غير ذلك من الثناء العظيم، وقال الشيخ أسعد اليمني: لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله، وروي عن القطب الشريف أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، أنه رأى النبي ﷺ وهو يباهي موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ بالغزالي، ويقول: أفي أمتكما حبر كهذا؟ قالا: لا. ذكر ذلك في (شرح العينية):

به المصطفى باهى لعيسى ابن مريم	به قال صدقاً خالياً عن تقول
أحبر كهذا في حواريك؟ قال: لا	وناهيك من هذا الفخار المؤثل
له في منامي قلت: إنك حجة	لإسلامنا لي قال: ما شئت لي قال

وأنشد الإمام اليافعي في روضه لما روى هذه الحكاية بسنده المتصل عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، فقال قدس الله روحه:

أبو حامد غزال غزل مدقق	من العلم لم يغزل لذاك بمغزل
فهناك أفنى عن جميع عوالمي	وأعود باقٍ بالعطا المتوالي
ويصح لي شرب المحبة والهنا	من حضرات القرب إذ تجلى لي
فإذا حصلت على المراد وكان لي	هذا الوداد ومنتهى آمالي
رفع الحجاب وفي الشهود مواقفي	فانٍ عن الأقوال والأفعال
فبذاك راحاتي وروحي وبه	أنسي وإيحاش العدو القالي
وسميك المأمول فيه قرة ال	عينين لا تنساه يا غزالي
وذويه والأولاد والأخوان والـ	أعمام والأصهار والأخوال
فبحقه مولاي حقق لي الرَّجا	فيك وحسن الظن في الإفضال
وتولنا بعناية ورعاية	تمتد في الأبكار والآصال
وعليه من هذا الفقير تحية	في غاية التعظيم والإجلال
وعلى النبي صلاة ربي دائماً	وسلامه والصحب هم والآل

وقد قيل فيه: إنه الشافعي الثاني، وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول لأصحابه: من كانت له إلى الله حاجة فيلتوسل إليه بالغزالي، ولما صح عن هذا القطب الشاذلي نجح المطلوب بالاستغاثة بالإمام الغزالي وهو بذلك حري، قلت معرضا بمطالب أرجو الله بجاهه يمن علي بحصولها، متعرضاً لنفحات الله في نيل قبولها:

إلهي بجاه الحجة الغزالي ... وبما لديك له من الإدلال
وبسره الساري بكل سريرة ... وبصيرة برقائق الإيصال
وبنوره الجالي قلوب أولي الهدى ... والعلم والرغبات والإقبال
وبعلمه هذا الذي قد طبق الـ ... آفاق نشوراً على العمال
وبكل سابقة له وفضيلة ... نقلت على التفصيل والإجمال
أدعوك يا مولاي منك مؤملاً ... في جاهه إنجاح ما في بالي
من موجبات الأمن والبشرى وما ... يرضيك يا ذا الطول والإفضال
وسعادة الدارين في أسبابها ... أسعى على التجريد باستعجال
أدنو إلى ذاك الجناب بتوبة ... تحكي لما في اللوح من تمثال
فأفوز بالتمكين في التلوين كي ... أحظى بإكمال مقام وصالي

ومن كلامه رضي الله عنه: غذاء القلب العلم والحكمة وبها حياته، كما أن غذاء الجسم الطعام، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم وليس يشعر، لأنَّ شواغل الدنيا أبطلت إحساسه، فإذا كشف الموت عنه تلك الشواغل أحس بألم عظيم، وتحسر تحسراً لا آخر له، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»، وقال رضي الله عنه: اعلم أن الصبي في أول نشوئه مستعد لقبول الحق.

من غير برهان بفطرة الله تعالى، فيلقي إليه العقيدة حتى يحفظ، ولا يزال بعد ذلك يفهم شيئاً فشيئاً ويترسخ في باطنه، ولا يحتاج أن يثبت ذلك بالبراهين، ثم لا يخوض العاقل في طلب البراهين إلا بقدر الحاجة، والحاجة فيه أن يعرض له إشكال فيتصدى لما يزيله، وأما الخوض في علم الكلام على سبيل الابتداء، فمثله كإلقاء الرجل نفسه في البحر يسبح، فإنه ربما لا يسلم اعتقاده عند الإصغاء إلى

الشبه، نعم ينبغي أن يكون في الناس من يقوم به إذا مست الحاجة إليه في دفع مبتدع أو إزالة شبهة. وقال قدس الله روحه: للطهارة أربع مراتب: الأولى: تطهير الظاهر من الأحداث، والثانية: تطهير الجوارح عن الحرام والآثام، والثالثة: تطهير القلب من الأخلاق المذمومة، والرابعة: تطهير السر عمَّا سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء والصديقين. وقال رضي الله عنه: اعلم أن الصلاة إنما هي ذكر وقراءة ومناجاة ومحاورة، وذلك لا يكون إلا بحضور القلب، وتمامه يحصل بالتفهم والتعظيم، والهيبة والرجاء والحياء، وعلى الجملة كلما زاد العلم بالله تعالى زادت الخشية وحصل الحضور. وقال رضي الله عنه: اعلم أن أعلى الدرجات أن تزهد فيما سوى الله تعالى طلباً لوجه الله تعالى، وذلك لمعرفته بذاته وعلوَّ مرتبته، فلا تأخذ من المطعم والملبس، والمنكح والمسكن وكل ما هو محتاج إليه إلا قدر الضرورة والذي به قوام بدنه، وما قدر على المدافعة فعلى ذلك هو الزهد الحقيقي. وكلامه دواء القلوب كما سبق عن أولئك الأئمة، ويقال: إن الفقهاء والصوفية عالة في العلم على الإمام الغزالي، رضى الله عنه، وهو ظاهر جلي.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عن واحد العصر إمام الحرمين　　عن شيخه أبي محمد الجوين

المذكوران في هذا إماما الظاهر والباطن وشيخا الطريقة، وهما إمام الحرمين ووالده أبو محمد الجويني، فأما الإمام الأول فهو الشيخ الكبير ضياء الدين أبو المعالي عبد الملك بن الشيخ أبي محمد الجويني، الملقب بإمام الحرمين، قال الإمام الأسنوي هو إمام الأئمة في زمانه وأعجوبة دهره، ولد في عشر محرم سنة تسعة عشر وأربعمائة، وقرأ الفقه على والده والأصول على أبي القاسم الإسكاف تلميذ الإسفرائيني، وتوفي والده وله نحو عشرين سنة، فأقعده الأئمة في مكانه للتدريس كما سيأتي في ترجمة الفوراني، وخرج من نيسابور لما ظهرت الفتن بين المعتزلة والأشاعرة وظهرت المعتزلة، فأقام ببغداد تارة وبأصبهان تارة إلى غيرهما من الأماكن، ثم خرج إلى الحجاز فجاور بمكة أربع سنين يدرس ويفتي، وجمع النهاية هناك، ثم عاد إلى نيسابور عند استقامة الأمور، فبنيت له نظاميتها، وفوض

إليه التدريس بها والخطابة بالجامع المعروف بالمنيعي، ومجلس الوعظ وأمور الأوقاف، وعظم شأنه عند الملوك، واجتمعت المستفيدون عليه، وحرر النهاية ورتبها وأملاها، وعقد مجلساً عند فراغها حضرها الأئمة والكبار، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ متواضعاً جداً بحيث يتخيل جليسه أنه يستهزىء به، رقيق القلب بحيث أنه يبكي إذا سمع بيتاً أو تفكر في نفسه ساعة، أو خاض في علوم الصوفية وأرباب الأحوال، ولم يستصغر أحداً حتى يسمع كلامه، فإن أصاب استفاد منه وعزى الفائدة إليه وإن كان صغير السن، وبقي على ما ذكرناه قريباً من ثلاثين سنة إلى أن مرض باليرقان، وبقي به أياماً وبرىء منه، وعاد إلى التدريس والمجلس، وحصل السرور للخواص والعوام، فلم يكن إلا يسيراً حتى عاوده المرض وغلبت عليه الحرارة، فحمل في محفة إلى قرية من قرى نيسابور لاعتدال هوائها وخفة مائها، فتوفي بها ليلة الأربعاء صلاة العشاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الاخر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، عن تسع وخمسين سنة بتاء ثم سين ـ قاله ابن خلكان في تاريخه، وصلى عليه ابنه الإمام أبو القاسم بعد جهد جهيد ودفن بداره ثم نقل بعد سنين ودفن إلى جنب والده، وكان له من نحو أربعمائة تلميذ، فكسروا محابرهم وأقلامهم، فأقاموا كذلك حولاً، وكسر أيضاً منبره. انتهى ما ذكره الأسنوي في ترجمته. وقال في ترجمة الفوراني: أبو محمد بن عبد الرحمن بن فوران المروزي، تفقه على القفال وبرع حتى صار شيخ الشافعية بمرو، وصنف (الإبانة) وهو معروف كثير الوجود، و (العمدة) وهو غريب عزيز الوجود، أخذ عنه جماعة منهم المتولي، وقد أثنى عليه في أول التتمة ومدحه وأطنب، قال: وأما الإمام ـ يعني إمام الحرمين ـ فكان يقصد القدوم نيسابور حين بلغه موت الشيخ أبي محمد، لأجل الجلوس مكانه للتدريس والإفتاء، لأنها في جمع العلماء أعظم من مرو، فاجتمع إلى الإمام أصحاب والده فأجلسوه في موضعه وكان إذ ذاك شاباً، فأظهر الفوراني أنه جاء لقصد التعزية، وجلس للأخذ عنه أياماً يسيرة، وحضر عنده الإمام فلم ينصفه، ثم انصرف إلى مرو وتوفي بها. انتهى من ترجمة الفوراني.

وأما الإمام الثاني: فهو والد إمام الحرمين جسماً وروحاً، ورضيع لبانه تربية وفتوحاً، إمام الأئمة على الإطلاق، وحبر الأمة بالاتفاق، الشيخ أبو محمد بن يوسف بن عبد الله الجويني، قال الأسنوي في ترجمته: قرأ الأدب الجويني بناحية

جوين على والده، والفقه علي يعقوب الأبيوردي، ثم خرج إلى نيسابور فلازم أبا الطيب الصعلوكي، ثم رحل إلى مرو لقصد القفال، فلازمه حتى برع عليه مذهباً وخلافاً، وعاد إلى نيسابور سنة سبع وأربعمائة وقعد للتدريس والفتوى، وكان إماماً في التفسير والفقه والأدب، مجتهداً في العبادة ورعاً مهيباً، صاحب جد ووقار. قال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني رحمه الله: لو كان الشيخ أبو محمد في بني إسرائيل، لنقلت لنا أوصافه وافتخروا به، ونقل النووي في الطبقات عن الشيخ أبي سعيد عبد الواحد بن القشيري صاحب الرسالة، أن المحققين من أصحابنا يعتقدون فيه الكمال، وأنه لو جاز أن يبعث الله نبياً في عصره لما كان إلا هو، صنف ـ رحمه الله تعالى ـ تفسيراً كبيراً اشتمل على عشرة أنواع من العلوم في كل آية، وتعليقاً في الفقه متوسطاً، وله تصانيف عديدة، توفي بنيسابور في ذي القعدة سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، وقيل سنة أربع وثلاثين، ومدة مرضه سبعة عشر يوماً، نوجوين ناحية كبيرة من نواحي نيسابور تشتمل على قرى كثيرة. انتهى.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه: , ,

عن صاحب القوت إمام القوم وهو عن الشبلي صحيح العوم

ذكر في هذا البيت إمامين كبيرين عارفين شهيرين، الشيخ أبو طالب المكي والشيخ أبو بكر الشبلي رضي الله عنهما، أما الإمام الأول فهو بحر المعارف والعلوم، شيخ مشايخ الإسلام، قدوة الأولياء الكرام والعلماء الأعلام، أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي الواعظ المكي، المعني بقول سيدنا القطب الشيخ عبد الله الحداد في عينته:

ومؤلف القوت الذي انتفع النهى بكتابه أحسن به من لوذعي

أشار بقوله: (الذي انتفع النهى بكتابه) إلى الإمام الغزالي[1]، قال شارحها الشيخ الإمام الحبيب أحمد بن زين الحبشي نفع الله بهما: كان الشيخ أبو طالب صالحاً مجتهداً في العبادة، وله مصنفات في التوحيد، وكان يستعمل الرياضة كثيراً، قيل: إنه هجر الطعام زماناً، واقتصر على أكل الحشائش والبقول المباحة حتى اخضر

(١) حيث انتفع بكتاب القوت.

جلده من كثرة تناولها، ولقي جماعة من المشايخ في الحديث وعلم الطريقة وأخذ عنهم، ولم يكن من أهل مكة وإنما كان من أهل الجبل وسكن مكة، ودخل البصرة بعد وفاة ابن سالم البصري، وقدم بغداد فوعظ الناس، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ودفن قريباً من جامع الرصافة شرقي بغداد، وقول سيدنا الناظم قدس الله روحه ونفع به: (عن صاحب القوت) وقول سيدنا الحبيب عبد الله: (ومؤلف القوت): أل فيه للعهد الذهني، والمراد به الكتاب الجليل: (قوت القلوب) المشهور، قال سيدي الحبيب أحمد: وهو كتاب عظيم جليل غاية في فنه، كان الإمام شهاب الدين السهروردي صاحب (العوارف) يسميه: ديوان الإسلام، وكان الإمام أبو الحسن الشاذلي يقول: قوت القلوب فيه النور والإحياء فيه العلم، وقد انتفع به الإمام الغزالي انتفاعاً كثيراً، ونقل منه في الإحياء في مواضع كثيرة بعزوٍ وبدونه، ومما يذكر في ترجمة السيد الجليل الشيخ عبد الله ابن أحمد بن عيسى أنه قرأ على الشيخ أبي طالب المكي كتاب (قوت القلوب) انتهى ملخصاً من (شرح العينية).

وأما الإمام الثاني فهو شيخ الشيوخ، وأستاذ الأكابر أرباب البصائر، فخر الدين أبو بكر دلف بن جحدره الشبلي رضي الله عنه، قال الشيخ عبد الوهاب الشعراوي ـ نفع الله به ـ في طبقاته: خراساني الأصل بغدادي المولد والمنشأ، صحب أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من المشايخ، وصار أوحد أهل الوقت علماً وحالاً وظرفا، تفقه على مذهب الإمام مالك وكتب الحديث الكثير، عاش سبعاً وثمانين سنة، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ودفن ببغداد في مقبرة الخيزران، وقبره فيها ظاهر يزار رحمه الله تعالى. وقال الشريف محمد بن الحسن في كتابه (مجمع الأحباب): أصله من خراسان، وكان حاجب الموفق، وكان أبوه حاجب الحجاب، فحضر الشبلي مجلس خير النساج فتاب فيه، وكان أبوه قد خلف ستين ألف دينار سوى الضياع، فتصدق الشبلي بالجميع وآثر الفقر، وسمع الحديث الكثير على جماعة، وشغلته الرعاية عن الرواية، ومما رواه عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال لبلال: «إلقَ الله تعالى فقيراً ولا تلقه غنياً»، قال: يا رسول الله كيف لي بذلك؟، قال: «ما سئلت فلا تمنع وما رزقت فلا تخبأ»، قال: يا

رسول الله كيف لي بذلك؟، فقال: «هو ذاك أو النار»، وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري وكان خادم الشبلي: ما الذي رأيت منه عند وفاته؟، فقال: قال لي: علي درهم مظلمة قد تصدقت عنه بألوف، وما عليَّ شغل أعظم منه، وقال بكران: مرض الشبلي أياماً، ثم إنه وجد خفة في يوم الجمعة فقال: نروح إلى الجامع، فاتكأ على يدي حتى انتهينا إلى باب الوراقين من الجانب الشرقي، قال: فرأينا رجلاً من الرصافة فقال لي: يا بكران يكون لي غداً مع هذا الشيخ شأن، ثم مضينا فلما قضينا الصلاة ولم يتناول شيئا من الغداء، فلما كان آخر الليل توفي إلى رحمة الله تعالى، فطلبت من يغسله فقيل: في درب السقايين من يغسل الموتى، فدلوني عليه فجئت إليه مفلساً، فدققت الباب دقاً خفيفاً، وقلت: سلام عليكم، فخرج إليَّ وقال: وعليكم السلام مات الشبلي رحمه الله، قلت: نعم، وإذا هو الشيخ الذي ذكره الشبلي بالأمس، فقلت: لا إله إلا الله تعجباً مما وقع، فقال: لا إلٰه إلا الله تعجباً ممَّا، فقلت له: بالله من أين لك أن الشبلي مات؟، فقال: أما قال لك بالأمس: إنه يكون له غداً معي شأن، هو ذاك. قال الحافظ أبو نعيم رحمه الله: أدخل الشبلي دار المرضى ليعالج، فدخل عليه علي بن عيسى الوزير عائداً، ثم قال لبعض الحاضرين: ناظره، فقال له رجل: سمعتك تقول في حال صحتك: كل صدِّيق لا تكون له كرامة فهو كذاب، فما كرامتك؟ فقال: كرامتي أن يعرض خاطري في حال سكري فلا يخرجان عن موافقة الحق جل جلاله، وقال خير النساج: كنَّا في المسجد فجاءنا الشبلي وهو سكران[1] فنظر إلينا ولم يكلمنا، ثم هجم على الجنيد في بيته وهو جالس مع امرأته مكشوفة الرأس، فهمت أن تغطي رأسها فقال لها الجنيد: لا عليك ليس هو هناك، قال: ثم جعل يصفق على رأس الجنيد وأنشأ يقول:

عودوني الوصال والوصل ... ورموني بالصد والصد صعب
زعموا حين اعتبوا أن جرمي ... فرط حبي لهم وما ذاك عتب
لا وحق الخضوع عند التلاقي ... ما جزاء من يُحِّب ألا يُحَّب

ثم ولى فبكى الجنيد وغلبه التواجد وقال: هو ذاك، وخرَّ مغشيا عليه، زاد في رواية أخرى: أن الشبلي مازال يتكلم والجنيد باكياً والشبلي في سكره وغيبته حتى

---

(١) سكر محبه لا سكر خمرٍ ونشوة.

بكى، فلما بكى قال الجنيد لامرأته: غطي رأسك فإنه الآن قد رجع إلى نفسه، وكان الشبلي كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

والهجر لو سكن الجنان تحولت　　نعم الجنان على العبيد جحيما

والوصل لو سكن الجحيم تحولت　　نار السعير على العباد نعيما

وكان يقول: ليس للمريد فترة ولا للعارف علاقة، ولا للمحب شكوى ولا للصادق دعوى، ولا للخائف قرار، ولا للخلق من الله عز وجل فرار، وسئل عن الزهد، فقال: هو تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء، ومرة قال: نسيان الزهد، وقال محمد بن إبراهيم رحمه الله: حضرت وفاة الشبلي فلما أمسك لسانه وعرق جبينه أشار بأن أوضئه، فوضأته ونسيت تخليل لحيته، فقبض على يدي وأدخل أصابعه في لحيتي يخللها، فبكيت وقلت: أي شيء يتهيأ أن يقال لرجل لم يذهب عليه تخليل لحيته في وضوءه عند نزع روحه وإمساك لسانه وعرق جبينه!، ومع ذلك فلم يترك أدباً من آداب الشريعة، وكان يقول: إن أردت أن تنظر إلى الدنيا وما فيها بحذافيرها، فانظر إلى مزبلة فهي الدنيا، وإن أردت أن تنظر إلى نفسك فخذ كفاً من تراب، فإنك منه خلقت وفيه تعود ومنه تخرج، ومتى أردت أن تنظر إلى قدرك فانظر ماذا يخرج منك في الخلاء، فمن كان هذا حاله كيف يجوز له أن يتطاول أو يتكبر، وقال: ليس للأعمى من رؤية الجوهرة إلا لمسها، وليس للجاهل من الله عز وجل إلا ذكره باللسان، وقال الشبلي رضي الله عنه: كنت أسير بالبادية فرأيت رجلاً جالساً في الهواء، فقلت: بالذي أعطاك ما رأى بم وصلت إلى هذا؟، فقال: إنك حلفتني بالله تعالى، إني رجل انتهيت عن الهوى، فأجلسني كما ترى، وقال أبو الفرج رحمه الله: يروى أن الشبلي رضي الله عنه قال: لو كان لي في القيامة أمر مطاع لسألت الله عز وجل أن يملأ جهنم مني وحدي، لئلا يبقى فيها متسع لغيري، وما ذاك إلا لأفدي بعض أمة محمد ﷺ وأتحمل عنهم العذاب، ثم أنشد:

يشكي المحبون الصبابة ليتني　　تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها　　فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ويقال: إنه لما انبسط بهذه الكلمة رأى في منامه الحق جل جلاله وهو يقول: يا أبا بكر أما استحييت مني أن تقول ما قلت، إن كنت تتكرم على خلقي وعبادي بما يضرك، فأنا خالق الحياء والكرم، وأولى أن أتكرم على عبادي بما لا يضرني، قال: فقام وقال: وعزتك لقد بهت فلم أدرِ ما أقول، وأنت أعلم، ويروى أن الجنيد ـ رضي الله عنه ـ قال مرة لأبي بكر الشبلي رضي الله عنه: لا تقل مثل هذه المقالة لأن الشخص قد يقول ذلك ولا يدري كيف حاله عند الامتحان. وقال في (لوامع أنوار القلوب): إن الشبلي ـ رضي الله عنه ـ كان يختم القرآن في كل يوم مرة، فإذا جنه الليل قام على قدميه وختم ختمة أخرى وهو قائم، فعذلوه في ذلك، فقال: يا عذالي، إني إنما أطلب تقريبها من محبوبها سبحانه وتعالى على بساط الإنس والقدس، وأنتم تطلبون بعدها إلى بساط الوحشة والغفلة، فهيهات هيهات، ومناقبه نفع الله به كثيرة مشهورة.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وهو عن الجنيد شيخ الطائفهْ عن السري ذي الصدق والمكاشفهْ

ذكر نفع الله به بهذا البيت الإمام الجنيد وشيخه السري السقطي، فأما الإمام الأول فهو سيد الطائفة الصوفية، وحامل لواء علومهم ومعارفهم العليَّة، أبو القاسم الجنيد محمد نفع الله به، قال في (مجمع الأحباب): قال الحافظ أبو نعيم رضي الله عنه: حدثنا علي بن هارون، ومحمد بن أحمد بن يعقوب، قالا: سمعنا أبا القاسم الجنيد ـ رضي الله عنه ـ غير مرة يقول: علمنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه يقتدى به، وقال أحمد بن جعفر وغيره: هو الإمام العلم المفرد في طريقه، وإليه يرجع أصحاب علم السلوك في زمانه وبعده، ورزق من الذكاء وصواب الجواب في فنون العلم، ما لم يرَ في زمانه مثله عند أحد من أقرانه ولا ممن أرفع سناً منه، سمع الحديث من الحسن ابن عرفة وغيره، وروى عن خلائق من الأئمة منهم الإمام أبو بكر الشبلي والإمام أبو محمد الجريري وجعفر الخلدي وغيرهم رضي الله عنهم، وكان في أول أمره يتفقه على مذهب أصحاب الحديث مثل أبي عبيدة وأبي ثور، رضي الله عنهما،

وكان يفتي بحلقة أبي ثور وله من العمر عشرون سنة، وترقى في العلم والعمل وجمع بينهما، فلما أحكم الأصول الحارث ابن أسد المحاسبي وخاله السري السقطي رضي الله عنهم، فسلك مسلكهما في التحقيق للعلم واستعماله له، وقال جعفر بن محمد رحمه الله: رأيت الجنيد في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟، فقال: طاحت تلك الإشارات وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم ونفذت الرسوم، وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسحار، وكان يقول: لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي لفني، ولكنه من حق بدا وإلى حق يعود، وقد أراد بعض العلماء أن يعرف رتبة الجنيد في العلم، فسأله عن الدليل على وحدانية الباري سبحانه وتعالى، فأخذ الجنيد في الاستدلال بدليل تحير ذلك العالم من حسنه ودلالته على أقصى وجوه الإمكان، فقال للجنيد: أعده علي لأحفظه، فأعاد الجنيد الدليل بعبارة أخرى أحسن وأعجب من العبارة الأولى، فازداد ذلك العالم تحيراً وتعجباً، فقال له: يا سيدي بالله أعده علي، فأعاده بعبارة ثالثة أحسن من العبارتين الأولتين، فقال السائل: أمله علي حتى أكتبه، فقال الجنيد رضي الله عنه إن كنت أجريه فأنا أمليه، فترامى ذلك السائل على يديه ورجليه، واعترف بوفور فضله وسعة علمه، وكان الجنيد ـ رضي الله عنه ـ إذا مر في طرق بغداد قام الناس صفين له، كل ذلك لوفور عظمته في صدورهم. وقال الجنيد: صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة كل طبقة ثلاثون رجلاً، الحارث المحاسبي وطبقته، والسري السقطي وطبقته، وحسن المسوحي وطبقته، وابن الكريثي وطبقته، فما تواخا اثنان في الله عز وجل واحتشم أحدهما من صاحبه واستوحش إلا لعلة في أحدهما، وقال الجنيد رضي الله عنه: من فتح على نفسه باب نية حسنة فتح الله عليه سبعين باباً من التوفيق، ومن فتح على نفسه باب نية سيئة فتح الله عليه سبعين باباً من الخذلان. وقال: من عرف الله تعالى أطاعه، ومن عرف نفسه ساء بها ظنه، وخاف على حسناته أن لا تقبل منه، وقال رضي الله عنه: كل مريد لا يعود نفسه صيام النهار، وقيام الليل وخدمة الإخوان فكأنه تمنى ما لا يصح له، وقال الجريري رضي الله عنه: دخلت على الجنيد وهو مهتم، فقلت له: مالك؟، فقال: فاتني شيء من أورادي، فقلت له: أعده، فقال: وكيف وهي أوقات معدودة،

وقال رضي الله عنه: إن للعلم ثمناً فلا تعطوه حتى تأخذوا ثمنه، وقيل: وما ثمنه؟، قال: تضعوه عند من يحسن حمله، ولا تضعوه عند من لا يحسن حمله، وقال: إن الله عز وجل كشف لعباده معايبهم في ذكر الطين لهم، وعرفهم مقاديرهم في ذكر النطفة، وأشهدهم عجزهم في تقلبهم، ليعرفوا فاقتهم إليه في جميع الأحوال، وسئل الجنيد ـ رضي الله عنه ـ عن الخشوع فقال: تذلل القلوب لعلام الغيوب، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال أبو علي الدقاق رضي الله عنه: معناه متواضعين متخاشعين، واتفقوا على أن الخشوع محله القلب، وسئل عن التواضع فقال: خفض الجناح ولين الجانب، وسئل عن الزهد فقال: خلو الأيدي من الأملاك، وخلو القلب مما خلت منه الأيدي، وحكي أن أبا بكر الكتاني رحمه الله قال: جرت مسألة المحبة في الموسم بمكة فتكلم فيها المشايخ، وكان الجنيد أصغرهم سناً فتكلموا، ثم قالوا: هت ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه متصل بربه عز وجل، قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه، قد أحرق قلبه أنوار الإلٰهية وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الحق من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله تعالى، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ومن الله، وبأمر الله ومع الله تعالى، فبكى المشايخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين. وقال أبو الفرج وغيره كان والد الجنيد يبيع الزجاج، وكان الجنيد خرازاً، وأصله من نهاوند، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد، وقال جعفر الخلدي رحمه الله: قال الجنيد يوماً: ما أخرج الله عز وجل إلى الأرض علماً وجعل للخلق إليه سبيلاً إلا وقد جعل لي فيه حظاً ونصيباً، وبلغني عنه أنه كان في سوقه وكان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة، وقال: ما نمت في فراش منذ أربعين سنة، وقال جعفر الخلدي: أقام الجنيد عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ويصلي كل يوم أربعمائة ركعة، قال: ولم يُرَ في شيوخنا من جمع له علم وحال غير أبي القاسم الجنيد، وإلا أكثرهم كان يكون له علم كثير، ولا يكون له حال، وآخر يكون له حال كثير وعلم يسير، والجنيد كان له حال خطير وعلم غزير، فإذا رأيت حاله رجحته على علمه، وإذا رأيت علمه رجحته

على حاله، وقال أبو محمد المرتعش رحمه الله: قال الجنيد: كنت بين يدي السري ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جمع من المشايخ يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟، فقلت: أن لا يعصى الله تعالى بنعمته، فقال لي: ما أحسن ما قلت، أخشى أن يكون حظك من الله عز وجل لسانك، قال الجنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها لي السري، ثم قال: وهذا فرض الشكر، وقال أبو الحسين: قلت للجنيد: ممن استفدت هذا العلم؟، فقال: استفدته من جلوسي بين يدي الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأومأ إلى درجة في داره، وقال الجنيد رضي الله عنه: الطريق مسدود على جميع الخلق إلا على المقتفين لآثار رسول الله ﷺ والتابعين لسنته، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال خير النساج: كنت جالساً في بيتي فخطر لي خاطر أن أبا القاسم بالباب فأخرج إليه، فنفيت ذلك عن قلبي وقلت: وسوسة، فوقع خاطر ثانٍ يقتضي الخروج إليه وأن الجنيد على الباب أخرج إليه، فنفيت ذلك عن سري، فوقع خاطر ثالث فقلت: إنه حق وليس بوسوسة، ففتحت الباب فإذا الجنيد، فسلم علي وقال لي: يا خير لم لا خرجت مع الخاطر الأول، وقال الجنيد: كان السري يقول لي: تكلم على الناس، لأني كنت أتهم نفسي في استخفافي لذلك، فرأيت ليلة جمعة في منامي النبي ﷺ فقال لي: تكلم على الناس، فانتبهت فأتيت السري قبل أن أصبح، فدققت عليه الباب فقال لي: أنت لم تصدق حتى رأيت النبي ﷺ وأمرك بالكلام، فلما كان النهار قعدت في الجامع، وانتشر في الناس أن الجنيد جلس يتكلم، فكان أول مجلس أن وقف عليَّ غلام نصراني متنكراً، وقال: أيها الشيخ ما معنى قول رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» قال: فأطرقت رأسي، ثم رفعته إليه وقلت: معناه أنك تسلم فقد حان إسلامك فأسلم الغلام، وقال الجريري: قدمت من مكة فبدأت بالجنيد لئلا يتعنى، فقال: يا أبا محمد ذاك فضلك وهذا حظك، وقال الجنيد: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن أخذناه عن ترك الدنيا وقطع المألوفات، لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله عز وجل، وأصله العزوف عن الدنيا كما قال حارثة رضي الله عنه:

«عزفت عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري. .» الحديث، توفي الجنيد يوم السبت سنة ثمان وتسعين ومائتين، وصلى عليه ولده، وحزروا الذي صلوا عليه فكانوا قريباً من ستين ألفاً، قال الجريري: كان في جوار الجنيد ـ رضي الله عنه ـ رجل مصاب في خربة، فلما مات الجنيد دفناه ورجعنا من جنازته، تقدم ذلك المصاب وصعد موضعاً عالياً وقال: يا أبا محمد تراني أرجع إلى تلك الخربة، وقد فقدت ذلك السيد العارف ثم أنشأ يقول:

وا أسفـي مـن فـراق قـوم هـم المصـابيـح والحصـون
والمـدن والمـزن والـرواسـي والخيـر والأمـن والسكـون
لـم تتغيـر لنـا الليـالـي حتـى تـوفتهـم المنـون
فكـل جمـر لنـا قلـوب وكـل مـاء لنـا عيـون

ثم غاب عنا فكان آخر العهد به، وقال: حضرت عنده قبل وفاته بساعتين فلم يزل تالياً وراكعاً وساجداً حتى فارق الدنيا، قلت: وقد مر في شرح مقدمة هذا الكتاب روايات في شدة اجتهاده حتى في حال وفاته، وقد حكوا أنه دخل عليه ابن عطاء وهو في النزع فسلم عليه فلم يرد عليه، ثم بعد ساعة رد عليه وقال له: اعذرني فإني كنت في وردي السابع، ثم حول وجهه إلى القبلة وكبر ومات رضي الله عنه ونفعنا به.

وأما الإمام الثاني فهو الشيخ الإمام شيخ مشايخ الإسلام أبو الحسن السري المغلس السقطي رضي الله عنه، قال الإمام عبد الوهاب الشعراوي ـ رضي الله عنه ـ في طبقاته: هو خال الجنيد وأستاذه، صحب معروف الكرخي، وكان أوحد زمانه في الورع والأحوال السنية وعلم التوحيد، وهو أول من تكلم فيه ببغداد، وإليه ينتمي أكثر المشايخ ببغداد، مات بها سنة إحدى وخمسين ومائتين، وقبره بالشونيزية ظاهر يزار، ومن كلامه رضي الله عنه: من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه، ويقل غمه من سماع الكلام الذي يغمه، فليعتزل عن الناس لأن هذا زمان عزلة ووحدة، وكان رضي الله عنه يقول: أقوى القوة أن تغلب نفسك، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز، وكان رضي الله عنه يقول: من علامة

الاستدراج للعبد عماه عن عيبه واطلاعه على عيوب الناس، وكان رضي الله عنه يقول: من سكن إلى قول الناس فيه أنه ولي الله فهو في يد نفسه أسير، وقال: لو علمت أن جلوسي في بيتي أفضل من خروجي إلى المسجد ما خرجت، ولو علمت أن انفرادي عن الناس أفضل ما جالستهم، وقال رضي الله عنه: ثلاثة من علامة سخط الله تعالى على العبد: كثرة اللعب والاستهزاء والغيبة، وكان رضي الله عنه يقول: إياكم ومجاورة الأغنياء وقراء الأسواق والأمراء فإنهم يفسدون كل من جالسهم. انتهى، ومن كتاب (شرح العينية) قال: قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعاً إلا في علة الموت، وكان يقول: الدنيا أفاعي قلوب العلماء وسحارة قلوب العباد والقراء، تلعب بهم كما يلعب الصبيان بالكرة، وقال السري رضي الله عنه: التصوف اسم لثلاث معان، وهو الذي لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله تعالى وكان يبكي ويقول: قد توعرت طريق الصالحين وقلّ فيها السَّالكون، وهجرت الأعمال وقل فيها الراغبون، ورفض الحق ودرس هذا الأمر، فلا أراه إلا في لسان كل بطال، ينطق بالحكمة ويفارق الأعمال، قد افترش الرخص وتمهد التأويلات، واعتل بذلك العاصون.. ثم يقول: واغماه من فتنة العلماء واكرباه من حيرة الأدلاء. انتهى، وفي (مجمع الأحباب) في ترجمة الجنيد: قال الجنيد رضي الله عنه: كنت يوماً عند السري، فنظرت إلى جسده كأنه جسد سقيم دنف مضني، فقال: انظر إلى جسدي هذا لو شئت أن أقول إن ما بي من هذا الضنا هو من المحبة كان كما أقول، وكان وجهه يصفر ثم اشرب حمرة حتى تورد حتى اعتل، فدخلت عليه أعوده فقلت له كيف تجدك؟ فقال:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي قد أصابني من طبيبي

قال: فأخذت المروحة أروحه، فقال: كيف يجد روح المروحة من قلبه وجوفه يحترق من داخل!، ثم أنشأ يقول:

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له   مما جناه الهوى والشوق والقلق
يا رب إن كان شيء فيه لي فرج   فامنن علي به ما دام بي رمق

انتهى، وأحواله وعلومه مشهورة، رضي الله عنه.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عـــن شيخــــه معــــروف   عــن داود الطــائــي الــوفــي

المذكوران بهذا البيت الشيخان الكبيران معروف وداود الطائي، فأما الإمام الأول فهو الزاهد المشهور المعروف العابد الموصوف الشيخ أبو محفوظ معروف ابن فيروز الكرخي رضي الله عنه، قال الإمام الشيخ عبد الوهاب الشعراوي ـ رضي الله عنه ـ في طبقاته: هو من جملة المشايخ المشهورين بالزهد والورع والفتوة، ومجاب الدعوة يستسقى بقبره، وهو من موالي علي بن موسى الرضى رضي الله عنه، صحب داود الطائي رضي الله عنه، ومات ببغداد ودفن بها سنة مائتين، وقبره ظاهر يزار ليلاً ونهاراً، ومن كلامه رضي الله عنه: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل وأغلق عليه باب الجدل، وكان رضي الله عنه يقول: ما أكثر الصالحين وما أقل الصادقين فيهم، وقال قدس الله روحه: لولا أخرج حب الدنيا من قلوب العارفين ما قدروا على الطاعات، ولو كان من حب الدنيا ذرة في قلوبهم لما صحت لهم سجدة واحدة. انتهى، وقال في (شرح العينية): قال معروف الكرخي رضي الله عنه: الدنيا أربعة أشياء: المال والكلام والمنام والطعام، فالمال يطغي والكلام يلهي، والمنام ينسي والطعام يقسي، وقال السري: سمعت معروفاً يقول: من كابر الله صرعه، ومن نازعه قمعه، ومن ماكره خدعه، ومن توكل عليه حفظه ومنعه، ومن تواضع له رفعه. وله أحوال فائقة وحالات صادقة، وكرامات خوارق وتجليات شوارق، رضي الله عنه.

وأما الإمام الثاني فهو الشيخ أبو سليمان داود بن نضير الطائي رضي الله عنه، قال في كتاب (مجمع الأحباب): قال أبو الفرج رحمه الله تعالى: صام داود أربعين سنة لا يعلم به أهله، وكان خرازاً، وكان يحمل غداه معه ويتصدق به في الطريق، ويرجع إلى أهله فيفطر عندهم عشاء، كان أهله لا يعلمون أنه صائم. انتهى،

ورأيت في مناقب أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ ومناقب أصحابه أن امرأة جاءت إلى أبي حنيفة رضي الله عنه، فسألته عن مسألة فأجابها فاستحسنت ذلك الجواب، ثم قالت: هذا العلم فأين العمل؟، وكان داود حاضراً فوقع كلامها في قلبه وأثر فيه، فاعتزل الناس وتعبد، وكان ذلك أول عزوفه عن الدنيا وانقطاعه عن الناس، وقيل: سبب تعبد داود الطائي أنه كان يجالس أبا حنيفة، فقال أبو حنيفة: يا أبا سليمان أما الأداة فقد أحكمناها، قال داود: فأي شيء بقي؟، قال: العمل بما علمناه لله عز وجل، قال داود: فنازعتني نفسي إلى العزلة، فقلت: حتى نجلس معهم سنة ولا نجيب في شيء، فكنت أجالسهم وتجيء المسألة فأجد شهوة الجواب فيها أكثر من العطشان إلى الماء فلا أجيب، فلما مضت سنة اعتزلتهم، وكان إذا خرج مشى في طرق خالية بعيدة، فيقال له: الطريق من ها هنا أقرب، فيقول: فر من الناس فرارك من الأسد، إنه ما خالط الناس أحد إلا نسي العهد، وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ إذا ذكر داود الطائي قال: أبصر الطائي أمره، وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي، ومن كلام ابن السماك في زهد الطائي بعد موته وقيل إنه وهو يدفن عند قبره: يا داود ما أعجب شأنك، فإنك كنت قد ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل، وأهنتها وإنما تريد تشريفها، وأتعبتها وإنما تريد راحتها، وأجعتها وإنما تريد تشبعها، واظمأتها وإنما تريد ريها، وخشنت الملبس وإنما تريد لينه، وأمت نفسك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تقبر، وعذبتها قبل أن تعذب، وغيبتها عن الناس لكيلا تذكر، ورغبت بنفسك عن الدنيا فلم تر لها قدراً ولا خطراً، فقهت في دينك فتركت الناس، آنس ما يكون إذا كنت بالله خالياً، وأوحش ما يكون إذا كنت للناس جالساً، ما أحسبك إلا قد أتعبت العابدين، فما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت، في جنب ما أملت وطلبت، أما أنت فقد ظفرت بروح العاجل، وسعدت بعبادة الله عز وجل في الآجل، فلما مت شهرك ربك وألبسك رداء عملك، لأنك لم تنشر ما عملت في سيرك، فأظهر الله عز وجل اليوم ذلك، فلو رأيت اليوم كثرة من تبعك عرفت أن ربك سبحانه وتعالى قد أكرمك وشرفك، فقل لعشيرتك اليوم تتكلم بألسنتها فقد أظهر الله عز وجل اليوم فضلها، إن ربك سبحانه وتعالى لا يضيع مطيعها ولا ينسى

صنيعها، شكره لخلقه ما صنع هو بهم فيما أنعم عليهم أكثر من شكرهم إياه، فسبحانه وتعالى شاكراً ومجازياً ومثنياً، ولما فرغ ابن السماك قام أبو بكر النهشلي، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا رب إن الناس قد قالوا مبلغ ما عندهم مما علموا، اللهم فاغفر له برحمتك ولا تكله إلى عمله، وقال حفص بن عمر: اشتكى داود الطائي أياماً، وكان سبب علته أنه مر بآية فيها ذكر النار، فكررها مراراً في ليلته فأصبح مريضاً، فلما مات وجدوا رأسه على لبنة وهو على التراب، قال ابن السماك: فبكيت لما رأيت من حاله، ثم ذكرت ما أعد الله سبحانه وتعالى لأوليائه، فقلت: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليوم ترى ثواب ما كنت تعمل. وقال محمد بن عيسى النوابشي: رأيت الناس ها هنا باتوا ثلاث ليال مخافة أن تفوتهم جنازة داود، ورأيت الناس كلهم يبكون عليه، ما شَبَّهْتُه إلا يوم الخروج، وقال أبو داود الطيالسي رحمه الله: شهدت جنازة داود وحضرته عند الموت، فما رأيت أشد نزعا منه، أتينا من العشي ونحن نسمع نزعه قبل أن ندخل، ثم غدونا عليه وهو في النزع فلم نبرح حتى مات، قال حسن بن بشر حضرت جنازة داود فحمل على سريرين أو ثلاثة تكسرت من زحام الناس عليه فتغير السرير، وصلي عليه كذا وكذا مرة، ولقد رأيته يوضع على القبر فيجيء قوم فيحملونه فيذهبون به ثم يعيدونه إلى قبره، وكانت وفاته سنة ست ـ وقيل: خمس ـ وستين ومائة، أسند داود عن جماعة من التابعين، ومن أحاديثه عن الأعمش: «عن يحيى ابن وثاب» عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»، وقال له رجل: أوصني، فقال: صم عن الدنيا وأفطر على الموت، حتى إذا كان عند المعاينة أتاك رضوان خازن الجنان بشربة من ماء الجنة تشربها على فراشك، فتخرج من الدنيا وأنت ريان، وينفخ إسرافيل في الصور فتخرج من القبر وأنت ريان، فيمكث الناس يترددون في ظلمة القبر جياعاً عطاشاً ما شاء الله تعالى وأنت ريان، حتى تدخل الجنة وأنت ريان، وقيل لداود: ما تشتهي الخبز؟ فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية. هذا بعض ما ذكره في (مجمع الاحباب)، وقال أبو

قاسم القشيري قدس الله روحه: قال أبو علي الدقاق رضي الله عنه: كان سبب زهد داود الطائي أنه كان يوماً ماراً ببغداد، فنحاه المطرقون بين يدي حميد الطوسي، فقال داود: أف لدنيا سبقك إليها حميد، ثم اعتزل واشتغل بعبادة الله تعالى، قلت: فأرسل هذه الكلمة مثلا، وكثيراً ما يستعمل الإمام الغزالي وغيره في مؤلفاتهم، فيقول في معرض ذم الدنيا: أف لدنيا سبقك إليها حميد، والأصل قول داود هذا، ومناقبه كثيرة مشهورة.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عن الحبيب العجمي عن الحسن البصري المشهور محيي السنن

ذكر في هذا البيت شيخي الطريق وإمامي المعرفة والتحقيق، حبيب بن عيسى العجمي والحسن بن سعيد البصري رضي الله عنهما فأما الإمام الأول فهو شيخ الشيوخ حبيب بن عيسى العجمي الخرساني رضي الله عنه، صحب إمام التابعين الحسن البصري وغيره، وكان رضي الله عنه من الأبدال، أثنى عليه جمع من المشايخ روى المعتمر بن سليمان عن أبيه أنه قال ما رأيت أحداً قط أصدق من حبيب العجمي، وعن عبد الواحد بن زيد قال: كان في حبيب خصلتان من خصال الأنبياء: النصيحة والرحمة، وكان أهل زمانه ومن بعدهم يقولون: إنه مجاب الدعوة، ويروى أنه كان يراه الناس يوم التروية بالبصرة ويوم عرفة بعرفة، وكراماته كثيرة ومناقبه شهيرة، روي أنه كان جالساً عند مالك بن دينار، فجاء إلى مالك رجل وأغلظ عليه في قسمة قسمها، وقال: وضعتها في غير حقها لتميل به وجوه الناس إليك، وأكثر عليه، فبكى مالك وقال: والله ما أردت هذا، فقال: بلى لقد أردته، فجعل يبكي والرجل يغلظ له، فلما أكثر من ذلك رفع حبيب يديه إلى السماء وقال: اللهم إنَّ هذا قد شغلنا عن ذكرك فأرحنا منه كيف شئت، فسقط الرجل على وجهه ميتاً فحمل إلى أهله، فنعوذ بالله مما يسخط أولياؤه وقيل: دخل الحسن البصري مسجداً ليصلي المغرب، فوجد إمامهم حبيباً فلم يصلِّ خلفه، لأنه خاف أن يلحن لعجمته، فرأى تلك الليلة قائلاً يقول له: لِمَ لم تصلِّ خلفه، لو صليت خلفه لغفر لك. وقيل: أصابت الناس مجاعة بالبصرة، فاشترى حبيب العجمي طعاماً

وفرقه على المساكين، وخاط كيساً وجعله تحت رأسه، فلما جاءوا يتقاضونه أخذه فإذا هو مملوء دراهم فقضى منها دينه، ورؤي بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك أيها العجمي؟، فقال: هيهات ذهبت العجمة وبقيت النعمة. هذا ما نقله سيدنا العارف بالله تعالى شيخ الجفري ـ نفع الله به ـ عن (الطراز المعلم والسر الملهم).

وأما الإمام الثاني فهو الشيخ المجتهد حبر الأمة المجدد، أبو سعيد الحسن ابن أبي الحسن عربدل بن سربدل بن أربدل بن مرعبل بن معربل بن مسربل بن مسرهد بن مسدد البصري، هكذا نقله سيدي شيخ الجفري ـ نفع الله به ـ عن (الطراز المعلم)، وقال فيه: روي عن أبي نعيم أنه كان يقول: إن نسبة الحسن هذه رقية للعقرب، وإنما الأعمال بالنيات، وقال في موضع آخر في ذكر سماعه عن علي رضي الله عنه: قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: الحسن بن أبي الحسين البصري، واسم أبيه يسار بالتحتانية والمهملة ـ مولاهم ثقة، فقيه فاضل مشهور. انتهى، ففيه وفيما مر تناقض في اسم أبيه وبينه وبين ما في القاموس خلاف أيضاً، فإنه قال هنا: الحسن بن أبي الحسن عربدل.. إلى آخره، وقال في القاموس: مسدد كمعظم بن مسرهد بن مجرهد بن مسربل بن مغربل بن مرعبل بن مطربل بن ارندل ابن سرندل بن عرندل بن ماسك بن المستورد الأسدي محدث. انتهى من باب الدال، وقال في باب الراء مع الياء: ويسار أبو الحسن البصري. انتهى، وقد استشكل سيدنا وشيخنا الناظم الحبيب عمر البار ـ نفع الله به ـ ذلك في كتاب سيدنا الحبيب شيخ الجفري (كنز البراهين)، وكأنه كتب له به، فعرض له به وبغيره في أثناء القصيدة التي سبق ذكرها عند شرح قول سيدنا الناظم قدس الله روحه: (ما سار سالك على الطريق..) الخ، وهو قوله فيها:

ويسار مشهور فما فيه خفا   بالكنز مذكور فلا إضمار
ومسدد في نفسه لغيره   مسه داء ضماره إظهار
لا عجب إن غلط نقل في   نسبة من في نقله إنكار
لا سيما باللبس والتلقين قد   شاع به لا سرّ بل إجهار
والاختلاف لا يزال جارياً   على المدا وما به إنكار

فالآخرون لمن تقدمهم غدوا	متبعيـــن وكلهـــم أخيـــار
كم أثبتوا فيما رووا وكم نفوا	وكـــرروا فـــي ذلـــك تكـــرار
منمقيـــن بفهمهـــم لمـــا بـــدا	وبسطـــوا لمـــا جـــرى أعـــذار
وإن بـدا سند بـه قـد أوثقـوا	فصححـــوه بـــزبـــرهـــم أزبـــار
إن التتبـع شـأن أربـاب الأدب	لا يتـــركـــوه بـــه ملـــوا أسفـــار
فلذا ذكرت ما له غيري ذكر	فيمـــا روى كمـــا روى أخبـــار
لو ما ذكر فالكنز اسم يسارنا	لكـــان بـــالنقـــل بـــدا إنكـــار
ذا وارد من فتح ربي قد ورد	وصـــدر إليـــك انظـــر بـــه يـــا بـــار
ولا جـواب تظنـه منـي لـك	لأننـــي مـــا قـــط لـــي منقـــار
عـارٍ عـن العلـم مـع آلاتـه	ولســـت ممـــن شعـــوره إشعـــار
يشعـر بـه لا سيمـا فـي قـولـه	مـــا الـــوقـــر والتـــوقيـــر والإيقـــار

هذا آخر الأبيات، والذي يجمع هذا التناقض ويستقيم به هذا الغلط أن يقال: يحتمل أن بعضهم نسبه إلى مولاه مسدد بن مسرهد وبعضهم إلى والده يسار، ويدل لذلك ما ذكره الإمام الشعراوي ـ قدس الله روحه ـ في ترجمة الحسن قال: كان والده من أهل نيسان فسبي، وهو مولى للأنصار، وكان قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده. انتهى، وبه يعلم صحة هذا الجمع، ثم قال في (الطراز المعلم): كان الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ من سادات التابعين وكبرائهم، متفنناً في العلم والزهد والورع والعبادة، أثنى عليه بعض أهل الطبقات بأنه كان جامعاً عالماً فقيهاً ناسكاً، فصيحاً جميلاً وسيماً، وكان ـ رضي الله عنه ـ لجلالة قدره كل طائفة تزعم أنه إمامها، وكان لا يراه أحد إلا ظن أنه قريب عهد بمصيبة، لما كان يعتريه من الخوف والحزن، وكان العوام بن حوشب يقول: ما أشبه الحسن إلا بنبي أقام في قومه ستين عاما يدعوهم إلى الله تعالى، وكان إذا ذكر عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين يقول: ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء، وقال عمر ابن العلا: ما رأيت أفصح من الحسن البصري، روي أن تلك الحكمة والفصاحة والقبول التام من بركة جرها بسبب أمه، لأن أباه مولاه زيد بن

ثابت الأنصاري، وأمه مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ وربما غابت أمه في حاجة فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه فتدر عليه، وكانت ـ رضي الله عنها ـ تخرج به إلى أصحاب النبي ﷺ ليباركوا عليه، فكانوا يدعون له، فأخرجته يوماً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدعا له وقال: اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس، ومن كلامه رضي الله عنه: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه شك لا يقين فيه إلا الموت، وقال رضي الله عنه: الزهد في الدنيا هو أن تبغض الدنيا وأهلها وما فيها، وقيل له رضي الله عنه: إن فلاناً اغتابك، فأهدى إليه طبقاً من رطب، فأتاه الرجل فقال: اغتبتك فأهديت إلي!، فقال له أهديت إليَّ حسناتك فأردت أن أكافئك، ومما نقله في (شرح العينية) قال: ومن كلامه: أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة، فالأصول الحسد والحرص وحب الدنيا، والفروع حب الرئاسة وحب الفخر وحب الثناء، وحب الشبع وحب الراحة، وقال: من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه، ولا يفتح عبد على نفسه باباً من الدنيا إلا سدَّ عليه عشرة أبواب من عمل الآخرة، والعامل على غير علم كالسائر على غير طريق، وما يفسده أكثر مما يصلحه، ولا تزال كريما على إخوانك حتى تحتاج إلى ما في أيديهم، مسكين ابن آدم، رضي بدار حلالها حساب وحرامها عذاب، يستقل ماله ولا يستقل عمله، ومناقب هذا الإمام غير محصورة، وعند علماء الأثر مشهورة.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عـن الإمـام الحبـر ذي الفتـوة　　　مـن هـو لأربـاب السلـوك قـدوة

بين ـ نفع الله به ـ في هذا البيت ما هو الثابت الصحيح من اجتماع الحسن البصري ـ قدس الله روحه ـ بسيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقد صرح الأئمة بذلك في كتبهم وتواريخهم ومسانيدهم، في لبس الخرقة والتلقين ورواية الحديث، ومنهم الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، والمزني في (التهذيب)، والحافظ أبو طاهر السلفي، والذهبي في (تهذيب النفوس)، والحجة الغزالي في الإحياء، والجلال السيوطي، والحافظ ضياء الدين المقدسي في (المختارة)، وغير هؤلاء، ونقل سيدي شيخ الجفري في كنزه عن (السلسلة

العيدروسية) وكتاب (السمط المجيد في شأن البيعة والذكر وتلقينه وسلاسل أهل التوحيد) للقطب الشيخ أحمد بن محمد القشاشي نفع الله به، بحثاً طويلاً جداً في تأييد الدليل في إثبات هذا الإتصال، والرد على من خدش في هذا المقال، وهو في نحو كراس ونصف في قطع النصف، يستدل في كل ذلك عليه، ويبين حجج القائلين به والمنتمين إليه، ومن أراد الوقوف على تلك النقول فعليه بالرجوع إلى تلك الكتب وإلى كنز البراهين، ففيها ما يزيح الشك ويفيد اليقين، وقد ذكرنا يسيراً من ذلك النقل آخر ترجمة سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار صاحب هذه المنظومة نقلا عن شرح الأذكار للإمام ابن علان رضي الله عنه، وكفى بإجماع الصوفية العارفين في ذلك حجة وأي حجة، كيف وهم الأمناء على الأسرار والآثار، فلا يطلب الدليل بعد إجماعهم إلا أحد رجلين: إما شاك في أحوالهم العظيمة، أو معتضد بالدليل ليقوي ما عنده لهم من المعرفة والمحبة بما أولاهم الله به من الأمور الجليلة الجسيمة.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله سره:

عن النبي عن إله العالمين بواسطة شاوش حضرته الأمين

ذكر في هذا البيت ـ نفع الله به ـ انتهاء السند الثاني، سند الطريقة الشعيبية المتصلة بمشايخ الطريق إلى الإمام الحسن البصري عن سيدنا أمير المؤمنين علي، وقد سبقت ترجمته آخر سند أهل البيت، وهنا نذكر قدراً يسيراً مما يتعلق بالملك جبريل وتعريف الملائكة عليهم السلام، وما يتعلق بهم مما لا يجوز عليهم وما يجب لهم، كما أوعدنا بذلك آخر هذا الإسناد. فقول سيدنا الناظم قدس الله روحه (بواسطة شاوش حضرته الأمين) المراد به جبريل عليه السلام، وهو أحد الملائكة الكرام الأشراف العظام، وقد قالوا: إنه أفضل الملائكة، وفضل عليه بعض العلماء ميكائيل وإسرافيل، قال في تفسير الإمام الخازن: قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح. انتهى، ومعنى جبريل: عبد الله، إذ معنى جبر: عبد وإيل: الله، وهو رسول الرسل الذي قالت اليهود: إنه عدونا، لما قيل لهم: إنه الذي

يأتي بالوحي إلى النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] الآية، فهو ـ عليه السلام ـ صاحب الوحي والعلم والرسالة، ومطاع في السماوات كما قال تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، وميكائيل ـ عليه السلام ـ صاحب الأرزاق والأغذية، قال الإمام الفخر: والعلم الذي هو الغذاء الروحاني أشرف من الغذاء الجسماني، فوجب أن يكون جبريل أشرف من ميكائيل، قال الشيخ صالح النماري رحمه الله تعالى: الملائكة أرواح مبرأة عن الرذائل والآفات النظرية والعملية، مطهرة عن الشهوة والغضب اللذين هما منشأ الأخلاق الذميمة، مطلعة على أسرار الغيبة، قوية على الأفعال العجيبة، من تصريف السحاب والزلازل القوية، سابقة إلى الخيرات مواظبة على محاسن الأعمال، لقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال ابن مطير في شرح منظومته في التوحيد فالإيمان بأن لله ملائكة واجب، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١]، وفي الصحيح: «أن تؤمن بالله وملائكته..» الحديث، وهم على القول المجمل ثلاثة أصناف: صنف إليهم تدبير الأجرام السماوية، وهم المقربون منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وقيل: هم سبعة: هؤلاء الأربعة ورضوان ومالك وروح القدس، وصنف إليهم تدبير الأركان الهوائية كالملك الذي يصرف الرعد ويزجي السحاب، وصنف إليهم تدبير الأمور الأرضية. انتهى، وفي بعض التعاليق: اختلف العلماء في حقيقة الملك بعد اتفاقهم على أنها ذوات مجردة موجودة قائمة بأنفسها، فقال أكثر المتكلمين: هي أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك، وذهب الحكماء إلى أنها جواهر مخالفة للنقوش الناطقة وأكثر منها قوة وعلماً، تجري منها مجرى الشمس، ونقل من (آكام المرجان في أحكام الجان) قال: الخلق أربعة: فخلق في الجنة كلهم، وخلق في النار كلهم، وخلق في الجنة والنار، فأما الذين في الجنة كلهم فالملائكة، وأما الذين في النار كلهم فالشياطين، وأما الذين في الجنة والنار فالإنس والجن، لهم الثواب وعليهم العقاب، وأفضل الملائكة بعد الأربعة: الكروبيون، وهم أشرف الملائكة منهم حملة العرش الثمانية

بل هم من أفضلهم، قال في (تفسير الخازن): وذلك لقربهم من الله عز وجل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام، ويروى: إن أقدامهم في تخوم الأرضين، والأرضون والسماوات إلى حجزهم،وهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وقيل: أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، أشد خوفاً من أهل السماء السابعة، وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من التي تليها، والتي تليها أشد خوفاً من التي تليها، وروى جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام» أخرجه الترمذي، وقال في التفسير المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر: ٧]، قال: يعني الطائفين به، وهم الكروبيون وهم سادات الملائكة، صف خلف صف يطوفون بالعرش، ويقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء، فإذا استقبل بعضهم بعضاً هلل هؤلاء وكبر هؤلاء، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام، أيديهم إلى أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم، فإذا سمعوا تكبير أولئك وتهليلهم رفعوا أصواتهم، فقالوا: سبحانك وبحمدك ما أعظم شأنك وأجلك، أنت الله لا إله غيرك، أنت الأكبر والخلق كلهم إليك راجعون، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى، ليس منهم أحد إلا يسبح بتحميد لا يسبحه الآخر ما بين جناحي أحدهم مسيرة خمسمائة عام، وما بين شحمتي أذن أحدهم إلى عاتقه أربعمائة عام، واحتجب الله تعالى من الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاباً من نار، وسبعين حجاباً من ظلمة، وسبعين حجاباً من در أبيض، وسبعين حجاباً من ياقوت أحمر، وسبعين حجاباً من زبرجد أخضر، وسبعين حجاباً من ثلج، وسبعين حجاباً من ماء، وسبعين حجاباً من برد، ومالا يعلمه إلا الله تعالى انتهى من (تفسير الخازن)، ونقل الإمام عبد الله الصنهاجي ـ رحمه الله ـ في كتابه (كنز الأسرار) عن الإمام الزمخشري، أنه ذكر في تفسير سورة المؤمن عنه ﷺ أنه قال: لا تتفكروا في عظمة ربكم، ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة، فإن خلقاً من الملائكة

يقال له: إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى وقد خرق رأسه من سبع سماوات، وإنه ليتضاءل من عظمة الله تعالى حتى يصير كالوضع» ذكر ذلك سيدي الحبيب شيخ الجفري في (كنز البراهين)، وذكر فيه أن الملائكة أربعة عشر نوعاً، ثم نقل تعريف كل نوع ووظيفته ودلائله من الكتاب والسنة، وقال في آخره في ذكر النوع الرابع عشر: قال الإمام فخر الدين: ليس بعد كلام الله تعالى ولا بعد كلام رسوله ﷺ في وصف الملائكة أعلى وأجل من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقد روي أنه قال في بعض خطبه: فتق ما بين السماء العلا فملأهن أطواراً من الملائكة، منهم سجود لا يركعون، وركوع لا يسجدون ولا ينصبون، وصافون لا يتزايلون ويسبحون، ولا يغشاهم نور العيون ولا سآمة العقول، ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان، ومنهم أمناء على وحي الله وألسنة إلى رسله، ومنهم مختلفون لقضاء الله تعالى ولأمره، ومنهم الحفظة لعباده، ومنهم السدنة لأبواب جنانه، ففيهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والبارقة من السماء العلى أكتافهم ناكصة دون أبصارهم، يتلقفون بجثة أجنحتهم، ومن دونهم حجب العـزة وأستار القدرة، لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجوزون عليه صفات المصنوعين، لا يحدونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر، فعليهم السلام انتهى، وقد أجاد أمير المؤمنين ـ كرم الله وجهه ـ بهذا البيان، ولا سيِّما ما ذكره في آخره مما ينفي توهم الواقف على ما مر في هذا السياق، مما قد يؤخذ منه إثبات الجهة له تعالى، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ ذاكرا للطريقة الثالثة المعروفة عن معروف الكرخي المتصلة بأهل البيت خاصة، وهو أنه أخذ معروف الكرخي، عن علي الرضا بن موسى الكاظم، وعن والده جعفر الصادق، وهو عن والده محمد الباقر، وهو عن والده علي زين العابدين، وهو عن والده الحسين السبط، وهو عن والده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنهم أجمعين، وهو عن النبي ﷺ، وهو عن الله تعالى فقال:

ح ولمعروف الولي بلا خفا　　تأدب بآل بيت المصطفى
أخذ عن الرضا ابن موسى الكاظم　　عنه عن الصادق ذي المعالم
عن الإمام باقر العلوم　　عن الإمام الزين ذي الفهوم
عن الحسين السبط ذي السعادهْ　　من خصَّه مولاه بالشهادهْ
وعمه الحسن وفي العهد　　عن الإمام المرتضى ذي الرشد

قال في (المشرع الروي): وهذه الطرق الثلاث أشهر طرق المشايخ، ولجماعة كثيرين منهم طرق أخرى لا حاجة إلى التطويل بذكرها، وقول سيدنا الناظم قدس الله روحه: (تأدب بآل بيت المصطفى) فيه بيان وإشارة إلى ما ذكره في خاتمة المشرع أيضاً، وهو أنه قال: واللبس والتحكيم المتعارف إنما كان عن الجنيد ومن بعده وأما منه إلى النبي ﷺ إنما كانت يد صحبة وأخذ وتأدب، ومن ثم لم يذكروا ذلك في عباراتهم فيمن فوق الجنيد، بل يقولون: والجنيد صحب السري، أو: تأدب به، أو: أخذ العلم عنه، أو نحو ذلك. انتهى من (المشرع الروي)، وقد أشبعنا الفصل في ذلك آخر ترجمة سيدنا الناظم قدس الله روحه، وقد قدمنا تراجم المذكورين في هذه الأبيات ما خلا الإمام علي الرضا، فإنه لم يسبق له ذكر في الطريقتين الأولتين، فلنورد هنا ما تيسر من ترجمته من كتاب (الفصول المهمة في معرفة الأئمة) للشيخ الإمام علي بن محمد الشهير بالصباغ رحمة الله عليه، قال: هو الإمام الثامن من الأئمة الإثنا عشر، قال الشيخ كمال الدين ابن طلحة: تقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وزين العابدين علي بن الحسين، وجاء علي الرضا هذا ثالثهما، ومن أمعن نظره وجده في الحقيقة وارثهما، نما إيمانه وعلا شأنه، وارتفع مكانه وظهر برهانه، حتى أحله الخليفة المأمون محل حجته، وأشركه في مملكته، وعقد له ببنته، قال صاحب الإرشاد: وكان الإمام القائم بعد موسى الكاظم ولده علي بن موسى الرضا، يفضله على جماعة أهل بيته بنيه وأخوته لوفور علمه وغزير حلمه، والنص بالإمامة له من أبيه، وممن روى ذلك من أهل العلم والدين داود بن كثير، قال: قلت لموسى الكاظم: جعلت فداك إني كبرت سني فخذ بيدي وأنقذني، من صاحبنا بعدك، قال: فأشار

إلى ابنه أبي الحسن علي الرضا فقال: هذا صاحبكم بعدي، وفي رواية زياد ابن مروان العبدي: يا زياد هذا ابني، كتابه كتابي ورسوله رسولي، وفي رواية المخزومي: هو وصبي، والقائم بعدي بأمري. . إلى آخر ما قاله فيه، ولد رضي الله عنه بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة من الهجرة، وقيل سنة ثلاث وخمسين ومائة، وأمه أم ولد وكنيته أبو الحسن، ولقبه المشهور الرضا، وصفته معتدل، شاعره دعبل الخزامي، وبوابه محمد بن الفرات، نقش خاتمه: حسبي الله، وله مناقب كثيرة وكرامات شهيرة، فمن كراماته أنه مر به يحيى بن خالد البرمكي بمنى وهو مغطي على وجهه بمنديل من الغبار، فقال الرضا: مساكين هؤلاء لا يدرون ما يحدث بهم هذه السنة، فكان من أمرهم ما كان، وأخبر أنه سيدفن هو وهارون الرشيد في بيت واحد فكان كما كان، وعن بكر بن صالح قال: أتيت الرضا فقلت: امرأتي أخت محمد بن سنان، وكان من خواص شيعتهم، وبها حمل، فادعُ الله أن يجعله ذكراً، فقال: هما اثنان، فوليت فقلت: أسمي واحداً علياً والآخر محمداً، فدعاني وأتيته، فقال: سم واحداً علياً والاخر أم عمرو، فقدمت الكوفة فولدت غلاما وجارية، فسميت الذكر علياً والأنثى أم عمرو كما أمرني، فقلت لأمي: ما معنى أم عمرو؟، فقالت: جدتك كانت تسمى أم عمرو، وأخبر بقتل المأمون ابن هارون الرشيد لأخيه الأمين قبل وقوعه فكان كما أخبر، وعن محمد بن يحيى الفارسي قال نظر أبو نواس إلى علي الرضا ذات يوم، وقد خرج من عند المأمون على بغلة فارهة، فقال: يا ابن رسول الله، قد قلت فيك أبياتاً أحب أن تسمعها مني، فقال: قل، فأنشأ يقول:

مطهــرون نقيــات ثيــابهــم　　تجري الصلاة عليهم كلَّما ذكروا
من لم يكن علوياً حين تنسبه　　فما له من قديم الدهر مفتخر
أولئك القوم أهل البيت عندهم　　علم الكتاب وما جاءت به السُّور

قال: قد جئتنا بأبيات ما سبقك إليها أحد، ما معك يا غلام من فاضل نفقاتنا، فقال: ثلاثمائة دينار، قال ادفعها إليه، ثم بعد أن ذهب إلى بيته قال: لعله يستقلها، سق يا غلام إليه البغلة. ثم أطال في ترجمته جداً، وقال: إنه توفي بطوس من خراسان في آخر صفر من سنة ثلاثين ومائتين، وله من العمر خمس وخمسون سنة، رضي الله عنه.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

عن النبي رسول رب العالمين   عـن الإلٰـه الملـك الحـق المبيـن

أنهى ـ نفع الله به ـ هذه الطرائق إلى حضرة منتهى الأسانيد البشرية صاحب الحقيقة المحمدية، ثم إلى حضرة الربوبية التي هي الذات المقدسة، من صفات سمات العوالم العلوية والسفلية والملكية والملكوتية، واستحضر هنا ما سبق من النقل لأبيات سيدي الإمام الحبيب عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه في منظومته ، (سبحان رب العزة المتعالي)، مما يليق بكلا الحضرتين حضرة العبودية وحضرة الربوبية، فأما الحضرة الأولى وهي حضرة النبوة والرسالة التي هي منبع الفضائل وعلوم الأواخر والأوائل، القائمة بالذات الكريمة المتصفة بالأخلاق العظيمة، ذات نبينا وشفيعنا وحبيبنا ووسيلتنا إلى ربنا تعالى، عبد الله ورسوله وحبيبه وخليله، الإنسان الكامل والروح الأعظـم محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ابن أدد بن عقوم بن ناخور بن ينوخ بن يعرب بن يسحب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن بن تارخ وهو آزر[1] بن أرز، بن ناجوز بن راعو ابن فالخ بن عنبر بن سالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس بن برد بن مهليل بن فينن بن يانس بن شيث بن آدم عليه السلام، والنسب إلى عدنان متفق على صحته وما بعده مختلف فيه، إلا أنهم اتفقوا على نسبته إلى إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل عليه وعليهما أفضل الصلاة والتسليم، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، واحيى الله له أبويه فأسلما إكراماً ومعجزةً له ﷺ، وقيل بإسلام جميع أصوله أخذاً من قوله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن حجر في شرح الهمزية عند قول الناظم:

وبـدا للـوجـود منـك كـريـم   مــن كــريــم آبــاؤه كــرمــاء

(١) آزر إنما هو عم إبراهيم فهو غير تاريخ.

وصنف الإمام السيوطي في صحة القول الأول عدة رسائل، منها رسالة سماها (التعظيم والمنة في أن والدي المصطفى في الجنة)، وله ﷺ مظاهر وتطورات قبل خلق الأرض والسماوات بل وجميع الموجودات، وفي حديث جابر الطويل قال ﷺ: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر»، وقال ﷺ: «كنت نبياً وآدم منجدل في طينته»، قال الشيخ حسين بن عبد الشكور: وسأل ﷺ سيدنا جبريل ـ عليه السلام ـ عمَّا عمَّر من السنين، فقال: لا أدري إلا أن كوكباً في الحجاب الرابع يطلع بعد سبعين ألف سنة فرأيته اثنين وسبعين ألف مرة، فقال ﷺ: وعزة ربي أنا ذلك الكوكب، فعلم من ذلك بدء أبوته وتقدم نبوته، فهذه أوليته في الأرواح، وأما بروزه في عالم الأشباح، فكانت ولادته ﷺ على أصح الأقوال عام الفيل بمكة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة من ربيع الأول، وحملت به أمه أيام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى، وليلة ميلاده ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرافة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاصت بحيرة ساوة وأفزع ذلك كسرى، ولما ولدت آمنة رسول الله ﷺ وقع على الأرض معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء، وأول مرضعة له ثويبة عتيقة أبي لهب، أعتقها حين بشرته بولادته ﷺ، قال في (المشرع الروي): ولا زال الناس يحتفلون بشهر مولده عليه الصلاة والسلام ويعملون الولائم، ويظهرون السرور، ويقرأون مولده الكريم، ومما جرب من خواصه أنه أمان في ذلك العام، وكتب الله في سابق حكمته القديمة أن نبيه الكريم يكون رضيعاً لحليمة، فأخذته وخرجت به إلى منازل بني سعد، ولم تزل تتعرف الخير والسعادة وتفوز بالحسنى وزيادة، وشق صدره الشريف عندها، وعند مجيء جبريل له بالوحي وعند الإسراء، ولما بلغ ﷺ ست سنين ـ على أحد الأقوال ـ وشهراً وعشرة أيام، خرجت به إلى أخواله بني النجار بالمدينة وأقامت عندهم شهراً، وكان نزولهم في دار النابغة. انتهى من (المشرع الروي)، ومات أبوه عبد الله بيثرب، والنبي ﷺ ابن ثمانية وعشرين شهراً، وقيل سبعة أشهر وقيل شهران، وربي يتيماً في حجر جده عبد المطلب، فلما بلغ ثمان سنين وشهرين وعشرة أيام خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام، فلما بلغ بصرى رآه بحيرى الراهب فعرفه بصفته، فجاء وأخذ بيده وقال: هذا رسول الله

رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقيل له: وما علمك بذلك؟، قال إنكم حين أقبلتم من العقبة لم يبقَ شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإنا نجده في كتبنا وسأل أبا طالب عنه فقال: هو ابن أخي، قال: أشفيق عليه أنت؟ قال: نعم، قال: فوالله لئن قدمت به إلى الشام لتقتلنه اليهود، فرده خوفاً عليه منهم، ثم خرج ﷺ مرة ثانية الشام مع ميسرة غلام خديجة في تجارة لها قبل أن يتزوجها، فلما قدم الشام نزل في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال: من هذا الرجل؟، فقال له ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم باع رسول الله ﷺ سلعته واشترى ما أراد أن يشتريه، ثم أقبل قافلاً إلى مكة فقيل: إن ميسرة قال: إذا كانت الهاجرة واشتد الحر نزل ملكان يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة باعت خديجة ما جاء به فأضعف أو قريباً منه، وأخبرها ميسرة بقول الراهب وبإظلال الملكين له، فبعثت إليه فقالت له فيما يزعمون: يا ابن العم إني قد رغبت فيك لقرابتك مني، وشرفك في قومك وبسطتك فيهم، وأمانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم أعرضت نفسها عليه، وكانت ـ رضي الله عنها ـ حازمة لبيبة شريفة، وهي يومئذ من أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكل من قومها قد كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه، فلما قالت لرسول الله ﷺ ذلك ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه منهم حمزة بن عبدالمطلب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فقبل، فحضر أبو طالب ورؤساء قريش فخطب أبو طالب فقال الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمداً ابن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، فتزوجها وقد بلغ ﷺ خمساً وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام، وهي يومئذ ابنة ثمان وعشرين سنة، وروي أنه أصدقها اثنتي عشر أوقية

ذهب، فبقيت عنده قبل الوحي خمس عشرة سنة، وبعده إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنين، فماتت ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر، وكانت له وزير صدق، وروى أنَّ آدم عليه السلام قال: أنا سيد يوم القيامة إلا رجل من ذريتي فضل علي باثنتين: كانت زوجته عوناً له وكان زوجتي عوناً علي، وأعانه الله على شيطانه فأسلم ولم يسلم شيطاني»، وهي أفضل نسائه، وفضائلها مشهورة، فلما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة شهد بنيان الكعبة وتراضت قريش بحكمه فيها، فلما بلغ ﷺ أربعين سنة ويوماً بعثه الله بشيراً ونذيراً، وأتاه جبريل بغار حراء بمكة، [و] كان يتعبد فيه الليالي ذات العدد، وحديث ابتداء الوحي مشهور في أول صحيح البخاري وفي غيره من كتب الحديث، فرجع رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال: أي خديجة وأخبرها الخبر، وقال: لقد خشيت على نفسي، قالت له خديجة: أبشر فوالله لا يحزنك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة ـ رضي الله عنها ـ حتى أتت به ورقة بن نوفل وهو ابن عمها، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، قال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟، فأخبره ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم»، قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني قومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ، فغدا من أهله مرارا لكي يتردى من رؤوس شواهق جبال الحرم، فكلما وافى ذروة جبل لكي يلقي نفسه تبدَّى له جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد إنك لرسول الله حقا، فيسكن عند ذلك جأشه وتقر نفسه، فإذا طال عليه فترة الوحي، غدا لمثل ذلك فيتبدَّى له جبريل عليه السلام فيقول له: مثل ذلك، فلما أتم الله أمر نبوته انصرف ﷺ لا يأتي على حجر ولا شجر إلا سلم عليه: سلام عليك يا رسول الله، وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بمكة الآن لحجر كان يسلم علي ليالي بعثت إني

لأعرفه الآن»، وكانت نبوته يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول . . فصدع بأمر الله تعالى، وبلغ الرسالة ونصح الأمة، فشتن القوم له حتى حاصروه وأهل بيته بالشعب، وخرج من الحصار وله ﷺ تسع وأربعون سنة، وبعد ذلك بثمانية أشهر وإحدى وعشرين يوماً مات عمه أبو طالب، وكان موت خديجة ـ رضي الله عنها ـ بعده بثلاثة أيام، فلما بلغ خمسين سنة وثلاثة أشهر قدم عليه جن نصيبين فأسلموا، فلما أتت عليه إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر أسري به إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات السبع ثم إلى ما شاء الله، ورأى ربه وكلمه رؤية وكلاماً يليق بجلاله تعالى، وفرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج، ولم يصلِّ صبح تلك الليلة لعدم العلم بكيفيتها، وقصة المعراج واجتماعه ﷺ بجمع من الأنبياء في السماوات، وعرض الجنة والنار عليه وغيرهما من عالم الملكوت مشهورة، ولما بلغ ثلاثاً وخمسين سنة هاجر من مكة إلى المدينة، وكانت هجرته يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول، ودخوله المدينة يوم الاثنين، وكانت إقامته بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة، وكان يتبع الناس في منازلهم وفي المواسم يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي؟، حتى بعث الله له الأنصار فآمنوا به، وكان الرجل يسلم منهم ثم ينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، وكان يصلي إلى بيت المقدس تلك المدة ولا يستدبر الكعبة بل يجعلها بين يديه، وصلى بعد قدومه المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا أو ستة عشر شهراً، ولما هاجر ﷺ كان معه أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ومولى له يقال له عامر بن فهيرة، [و] دليلهم عبد الله بن الأريقط الليثي، وهو كافر ولم يعرف له إسلام، واستخفى هو وأبو بكر بغار في جبل من جبالها يقال له: ثور، قال أبو بكر: فنظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة تنازعوا أيهما ينزل عليه، فقال: أنزل على بني النجار أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك، فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان

والخدم في الطريق ينادون: جاء محمد رسول الله ﷺ، وغزا ﷺ غزوات كثيرة، والمشهور منها اثنتان وعشرون غزوة، وحج ثلاث حجات واعتمر ثلاث عمر، وتفصيل ذلك وكيفيات خروجه إليها، وما يقع وما يتفق ويحصل له ﷺ مذكور في كتب السير، وأما أسماؤه ﷺ فبلغها بعضهم إلى مائتين إلا واحداً، ومن أشهرها محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب والمقفي، ونبي التوبة والرحمة والملحمة، والبشير والنذير والمزمل والمدثر والرؤوف والرحيم، وأما صفة خلقه الكريم وجماله الوسيم فقد استقصى الحافظ الترمذي ذلك في مؤلف عظيم مشهور، وعليه شروح مبسوطة، ومختصرة وهي مذكورة أيضاً في غيره من الكتب، ومما ذكروه ووصفوه به أنه ﷺ كان أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً، كان ربع القامة ليس بالبائن الطويل ولا بالمتردد القصير، أبيض اللون مشرباً بحمرة، وقيل أزهر اللون ليس بالأبيض الأمهق ولا بالأدم، له شعر رَجِلٌ يبلغ شحمة أذنيه إذا طال وإذا قصر إلى أنصافها، لم يبلغ شيبه في رأسه، ولحيته عشرين شعرة.

قال في (الإحياء): والأزهر هو الأبيض الناصع الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان، والمشرب بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة، والأزهر الصافي عن الحمرة ما تحت الثياب منه، وكان عرقه في وجهه كاللؤلؤ أطيب من المسك الأذفر، وكان ﷺ رجل الشعر حسنه، ليس بالسبط ولا الجعد القطط، كان إذا مشطه كأنه حب الرمل، وكان إلى شحمة أذنيه، وقيل كان يضرب منكبيه، وربما جعله غديراً ربعاً يجعل كل أذن بين غديرتين، وكان ﷺ واسع الجبهة أزج الحاجبين، وكان أدعج العينين، وكانتا نجلاوين في عينيه تموج من حمرة، وكان أهدب الأشفار حتى كاد يلتبس من كثرتهما، وكان إذا افتر ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق إذا تلألأ، وكان من أحسن عباد الله تعالى شفة وألطفهم ختم فم، وكان سهل الخدين صلبهما، ليس بالطويل الوجه ولا المكلثم، كث اللحية، وكان يعفي لحيته ويأخذ شاربه، وكان من أحسن الناس عنقاً لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر، ما ظهر للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة، مشرب ذهبا يتلألأ في بياض الفضة وفي حمرة الذهب، وكانت له عكن ثلاث يغطي الإزار، واحدة منها

وتظهر اثنتان، وكان ﷺ عظيم المنكبين أشعرهما، ضخم الكراديس أي رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين، وكان واسع الظهر ما بين كتفيه خاتم النبوة وهو مما يلي منكبه الأيمن، فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة، حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس، وكان ﷺ سائل الأطراف، كأن أصابعه قضبان الفضة، كفُّه ألين من الخز، طيب مسُّها وإن لم يمس طيباً، يصافحه الرجل فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبيِّ فيعرف من بين الصبيان على رأسه، وكان معتدل الخلق في السمن، وكان إذا مشى كأنما يتقطع من صخرة وينحدر من صبب، يخطو تكفئاً ويمشي الهوينا يعني يقارب في خطوه، إلى غير ذلك من أوصافه التامة الكاملة، ومحاسن أخلاقه الفاضلة، صلوات الله وسلامه عليه. انتهى من (الإحياء)، وبعضه بالمعنى من كتاب (أخلاق النبوة)، وأما أوصاف معانيه وأخلاقه العظيمة، وشمائله ونعوته الكريمة، فهي من كلمات الله التي تنفد البحار لو كانت مدادها دون نفادها ، وما بعد وصف كلام الله كلام ولا بعد بيانه بيان، حيث أثنى عليه بقوله عز من قائل حكيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة. وقال الإمام الدميري رحمه الله: قال علي رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عن سنته، قال: المعرفة رأس مالي، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنسي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق سفينتي، والطاعة حبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني في الصلاة. انتهى، ولما سئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلقه ﷺ، قالت: كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه، لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إلا إن انتهكت حرمات الله تعالى فيكون ينتقم لله تعالى، وإذا غضب لم يقم أحد لغضبه، وكان أشجع الناس وأجرأهم صدراً، قال علي رضي الله عنه: كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ، وكان أسخى الناس وأجودهم، ما سئل شيئاً قط فقال: لا، وأجود ما كان

في شهر رمضان، وكان لا يبيت في بيته دينار ولا درهم، فإن فضل ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأوِ إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه، ولا يأخذ مما أتاه الله إلا قوت عام فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله، ولا يدخر لنفسه شيئا، ثم يؤثر من قوت أهله حتى ربما يحتاج قبل انقضاء العام، وكان ﷺ أصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة، محفود[١] محشود لا غاش ولا مفند، فخماً مفخماً، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحلم الناس وأشدهم حياء، كان أشد حياء من العذراء في خدرها لا يثبت بصره في وجه أحد، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، وكان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أكثر الناس تواضعاً، يجيب من دعاه من غني وفقير وشريف ودني وحر وعبد، ولما جاء أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يوم فتح مكة بأبيه ليسلم، قال له ﷺ: لم عنيت الشيخ يا أبا بكر، ألا تركته حتى أكون أنا آتيه في منزله، فقال له: بأبي أنت وأمي هو أولى أن يأتي إلى رسول الله ﷺ، وكان أرحم الناس، يصغي الإناء للهرة فما يرفعه حتى تروى رحمة لها، ويسمع بكاء الصغير مع أمه وهو في الصلاة فيخفف رحمة له، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعفَّ الناس، لم تمس يده يد امرأة قط لا يملك رقها أو نكاحها، أو تكون ذا رحم محرم، وكان أشد كرامة لأصحابه، ما رؤي قط ماداً رجله بينهم، ويوسع لهم إذا ضاق المكان، ولم تكن ركبتاه يتقدمان ركبة جليسه، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه، له رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، يسوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام، وكان ﷺ يتفقد أصحابه ويسأل عنهم، فمن كان مريضاً عاده، ومن كان غائباً دعا له، ومن مات استرجع فيه وأتبعه بالدعاء، ومن كان يتخوف أن يكون وجد في نفسه شيئاً قال: لعل فلاناً وجد علينا في شيء أو رأى منا تقصيراً، انطلقوا بنا إليه، فينطلق حتى يأتيه في منزله، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخرج إلى بساتين أصحابه، ويأكل ضيافة من أضافه فيها، وكان ﷺ يتألف أهل الشرف ويكرم أهل الفضل، ولا يطوي بشره من أحد ولا يجفو عليه، ولا يقبل الثناء إلا مكافي، ويقبل معذرة المعتذر إليه، وكان عنده القوي والضعيف والقريب والبعيد في الحق واحد، وكان

(١) الحفد: السرعة أي مسرعاً في عمل الخير.

لا يدع أحداً يمشي معه وهو راكب حتى يحمله، فإن أبى قال: تقدم إلى المكان الذي يريد. وركب ﷺ حماراً عرياً إلى قباء وأبو هريرة معه، فقال: يا أبا هريرة أحملك؟، فقال: ماشئت يا رسول الله، فقال: اركب، وكان في أبي هريرة ثقل، فوثب ليركب فلم يقدر، فاستمسك برسول الله ﷺ فوقعا جميعاً، ثم ركب ﷺ فقال: يا أبا هريرة أحملك؟، فقال ما شئت يا رسول الله ، فقال: اركب، فلم يقدر على ذلك، فتعلق برسول الله ﷺ فوقعا جميعاً، ثم قال: يا أبا هريرة أحملك، فقال: لا. والذي بعثك بالحق لأصرعنك ثالثاً. وكان ﷺ له عبيد وإماء، لا يترفع عليهم في مأكل ولا ملبس، ويخدم من خدمه، قال أنس رضي الله عنه خدمت رسول الله ﷺ نحواً من عشرين سنة، فوالله ما صحبته في سفر ولا حضر لأخدمه إلا وكانت خدمته لي أكثر من خدمتي له، وما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته لم فعلت كذا، ولا لشيء لم أفعله ألا فعلت كذا، وكان ﷺ في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله علي ذبحها، وقال آخر: علي سلخها، وقال آخر: علي طبخها، فقال رسول الله ﷺ: وعلي جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك، فقال: قد علمت أنكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه، وقام ﷺ وجمع الحطب، وكان ﷺ في سفر فنزل للصلاة، فتقدم إلى مصلاه ثم كر راجعاً، فقيل: يا رسول الله أين تريد؟، فقال: أعقل ناقتي، قالوا: نحن نكفيك ونحن نعقلها، قال: لا يستعين أحدكم من الناس ولو في قصمة من سواك، وكان ﷺ إذا دخل منزله جزّء دخوله ثلاثة أجزاء، جزءاً لله وجزءاً لنفسه وجزءاً لأهله، ثم جزّء جزءه بينه وبين الناس، فيرد ذلك بالخاصة على العامة، وكان من سيرته في جزاء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه، وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج، فيشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم إبلاغها، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك ، ولا يقبل من أحد غيره، ويدخلون وارداً ولا يفترقون إلا عن ذواق، وكان ﷺ يؤلف أصحابه ولا ينفرهم، ويكرم كل كريم ويوليه عليهم، وكان ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، وإذا انتهى إلى قوم، جلس إلى حيث ينتهي

به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ممن جالسه، وإذا جلس أحد إليه لم يقم حتى يقوم الذي جلس إليه، إلا أن يستعجله أمر فيستأذنه، ولا يقابل أحداً بما يكره، ولا ضرب خادماً قط ولا امرأة ولا أحداً إلا في جهاد، ويصل ذا رحمه من غير أن يؤثره على من هو أفضل منه، ولا يجزي السيئة بمثلها بل يعفو ويصفح، وكان يعود المرضى، ويحب المساكين ويجالسهم، ويشهد جنائزهم، ولا يحقر فقيراً لفقره، ولا يهاب ملكاً لملكه، ويعظم النعمة وإن دقت، ولا يذم منها شيئاً، يحفظ جاره، ويكرم ضيفه، ويبسط رداءه له كرامة، أكرم الناس تبسماً، وأحسنهم بشراً، مع أنه متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ولا يمضي عليه وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه أو لأهله منه، وما خيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس عنه، وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن، ويركب الفرس والبغل والحمار، ويردف خلفه عبده أو غيره، ويمسح وجه فرسه بطرف كمه أو طرف ردائه، وكان يتوكأ على العصا ويقول: إنه من أخلاق الأنبياء، ويرعى الغنم وقال: «ما من نبي إلا وقد رعاها»، وكان يحب الفأل ويكره الطيرة، ويقول: «ما منا أحد إلا ويجد في نفسه، ولكن الله يذهبه بالتوكل»، وكان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أكثر جلوسه مستقبل القبلة، وإذا جلس في المجلس احتبى، وكان يكثر الذكر ويقل اللغو، ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة، ويستغفر في المجلس الواحد مائة مرة، وكان يسمع لجوفه أزير كأزير المرجل من البكاء وهو في الصلاة، تنام عيناه ولا ينام قلبه، وإذا نام نفخ ولا يغط غطيطاً، وإذا أخذ مضجعه وضع كفه اليمنى تحت خده، وإذا تكلم بيَّن كلامه حتى يحفظه من جلس إليه، ويعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل، ويتكلم بجوامع الكلم، ويخزن لسانه ولا يتكلم في غير حاجة، جلُّ ضحكه التبسم، وربما ضحك من شيء معجب حتى تبدو نواجذه من غير قهقهة، وما عاب ﷺ طعاماً قط، إذا اشتهاه أكله وإن لم يشتهِ تركه، وكان لا يأكل متكئاً ولا على خوان، ولا يمتنع من مباح، ويأكل الهدية ويكافىء عليها، ولا يأكل الصدقة، ولا يتأنق في مأكل، يأكل ما وجد، ولا يأكل خبزاً مرققاً حتى مات. قال أبو هريرة رضي الله

عنه: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير، وكان يأتي على آل محمد الشهر والشهران لا توقد في بيت من بيوته نار، وكان قوتهم التمر والماء، وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع، وقد آتاه الله مفاتيح خزائن الأرض فأبى أن يقبلها واختار الآخرة عليها، وكان ﷺ يلبس الصوف، وينتعل المخصوف، ولا يتأنق في ملبس، يلبس ما وجد، وكان يحب التيمن في ترجله وتنعله وطهوره وفي شأنه كله، وكان ينظر في المرآة وربما نظر في الماء، وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً، وله في ذلك أخبار رويت عنه، فمنها أنه ﷺ جاء إلى السوق من وراء ظهر رجل اسمه: زاهد، وكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يحبه، فوضع يديه الكريمتين على عينيه، وما كان يعرف أنه رسول الله ﷺ حتى قال من يشتري هذا العبد؟، فجعل يمسح ظهره برسول الله ﷺ ويقول: إذاً تجدني كاسداً يا رسول الله، فقال ﷺ: لكنك عند ربك لست بكاسد، وكان ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه، ويضرب الكدية بالمعول، وكان ينقل معهم اللبن في بنيان المسجد، وأهدى في حجة الوداع مائة من الإبل، نحر بيده الشريفة ثلاثاً وستين بدنة والبقية نحرها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وتفصيل ما كان عليه من مكارم الأخلاق الذي بعث لتتميمها، يضيق نطاق كل زمن عن إجماله فضلاً عن تفصيله، كما قال الشيخ إمام العارفين عمر بن الفارض ـ نفع الله به ـ في بعض قصائده:

وعلى تفنن واصفيه بوصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وقد عقد لذلك الأئمة الأخيار مؤلفات ما بين صغار وكبار، في ذكر أخلاقه وسيرته وسنته وهديه، وسمته وأذكاره وإقاماته وأسفاره، وجهاده وغزواته ومواقفه في الحروب وشجاعته، وحلمه وعفوه، وسماحته، وجوده وزهده، وإرهاصاته قبل النبوة ومعجزاته بعدها، وإخباره بالمغيبات الواقعة في زمنه وبعده، وفي ذكر أصحابه وسيرهم وإعظامهم له، وأزواجه وأولاده وأعمامه وعماته، ومرضعاته ومواليه ورسله وخدامه، وكتابه ورفقائه وحجابه، ونعمه وسلاحه ومراكيبه وأثوابه وآياته، وما يتعلق بذلك إجمالاً وتفصيلاً، ومن أجمع لذلك من المؤلفات كتاب (الشفاء في حقوق المصطفى) للقاضي عياض، فقد قيل: إنه لم

يصنف في الإسلام مثله في فنه، ومن أصح كتب السير كتاب (البهجة) للعامري، والحاصل أن يقال فيه: إن الكون إشارة وهو المقصود ﷺ، وتوفي عليه الصلاة والسلام وقد بلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة على أصح الأقوال، في يوم الاثنين حين اشتد الضحى لثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، ودفن ليلة الأربعاء، وكان مدة مرضه اثني عشر يوماً، وقيل: أربعة عشر يوماً، وكان مرضه بالصداع، وقيل إن مرضه نزول: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ أنها كانت كالنعي له، فخرج ﷺ يوم الخميس وقد شد رأسه بعصابة دسما، وكان قد لبس عمامة دسما، فرقي المنبر فجلس عليه مصفر الوجه، ثم دعا بلالاً فأمره أن ينادي في الناس: أن اجتمعوا لوصية رسول الله ﷺ فإنها آخر وصية لكم، فنادى بلال ـ رضي الله عنه ـ فاجتمعوا صغيرهم وكبيرهم، وتركوا أبواب بيوتهم مفتحة وأسواقهم على حالها، حتى خرجن العذارى من البيوت، ليسمعوا وصية رسول الله ﷺ حتى غصَّ بهم المسجد، والنبي ﷺ يقول: وسعوا لمن وراءكم، ثم قام فخطبهم خطبة بليغة طويلة، ثم دخل منزله فاشتد به المرض، ولم يخرج لخطبة بعدها، ولما حضره الموت، كان عنده قدح فيه ماء، يدخل يده فيه ويمسح وجهه، ثم يقول: اللهم أعني على سكرات الموت، ولما مات ﷺ اقتحم الناس حين سمعوا الرنة، وسجي ببرد حبره، وقيل: إن الملائكة سجته، فكذب بعض أصحابه بموته دهشة منهم عمر، وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد الغد منهم عثمان، وأقعد آخرون منهم علي، ولم يثبت فيهم إلا العباس وأبو بكر رضي الله عنهم أجمعين، ثم إن الناس سمعوا من باب الحجرة حين ذكروا غسله: لا تغسلوه فإنه طاهر مطهر، ثم سمعوا صوتا بعده: غسلوه فإن ذلك إبليس وأنا الخضر، وسمعوا تعزية الخضر لهم، فقال عليه السلام: إن في الله ـ عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب، واختلفوا في غسله وقالوا: لا ندري نجرده عن ثيابه كما نغسل موتانا أم نغسله في ثيابه، فأرسل الله تعالى عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل إلا وضع لحيته على صدره، ثم قال قائل لا يدرى من هو: غسلوه في ثيابه، فانتبهوا وغسلوه في قميصه، وكانوا لا يريدون أن ينقلب له عضو إلا انقلب بنفسه، وإن معهم لخفيفاً

كالريح يصوت بهم: ارفقوا برسول الله ﷺ فإنكم ستكفون، وكان الذي تولى غسله علي بن أبي طالب وعمه العباس والفضل وقثم ابنا العباس، وأسامة بن زيد وشقران مولياه رضي الله عنهم، وحضره أوس بن خولي الأنصاري، ونفضه علي ـ رضي الله عنه ـ ولم يخرج منه شيء، فقال: لقد طبت حياً وميتاً، وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة، بل لفائف من غير خياطة، وكان في حنوطه المسك أبقى منه علي شيئاً لحنوطه إذا مات، وصلى عليه المسلمون أفراداً لم يؤمهم أحد، فقيل: فعل ذلك ليكون كل واحد منهم في الصلاة عليه أصلاً لا تابعاً لأحد، وقيل ليطول وقت الصلاة عليه فيلحق من يأتي من حول المدينة، وفرش تحته في قبره قطيفة حمراء كان يتغطى بها نزل بها شقران، ودخل في قبره العباس والفضل وعلي وقثم وشقران، وقيل: أدخلوا معهم عبد الرحمن بن عوف، وحكي أنهم اختلفوا في مكان الدفن فقيل: في مصلاه وقيل: بالبقيع، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما دفن نبي قط إلا في المكان الذي توفي فيه»، فدفن في الموضع الذي توفي فيه حول فراشه في بيت عائشة رضي الله عنها، ولحد وأطبق عليه تسع لبنات، ثم دفن معه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وعن سائر صحابته أجمعين وآله والتابعين، وجعلنا ممن آمن به واتبع النور الذي أنزل معه وثبت على ذلك، حتى يتوفانا مسلمين ويحشرنا في زمرة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وأما الحضرة الثانية التي هي حضرة التجليات، الظاهرة بكمال ذاتها في جميع الموجودات، الباطنة بسريان سرها في جميع العلويات والسفليات، المعنية بقول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله تعالى روحه: (عن الإله الملك الحق المبين)، أتى ـ نفع الله به ـ بهذه الأسماء الأربعة وخصها بالذكر من بين الأسماء الحسنى، لدلالتها على مظهر الذات العلية وصفات الربوبية، لأن الإله هو المعبود بحق في الوجود، والملك المتصرف في سلطانه بحق في جميع موجوداته، والحق ثابت وغيره باطل لا ثبات له إلا به، كما قال القائل:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

والمبين يعني الظاهر أمره، ولما كانت هذه الأسماء كذلك كان أهل الطريق رتبوا لها وردا يخصها كل يوم بعد صلاة الظهر. مائة مرة بصيغة: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، ليتحقق بتكريرها ويتيقن بتقريرها أنه الإله المعبود الملك المالك لجميع الوجود، الحق المقصود المبين المشهود، وحتى لا يعبد إلا إياه، ولا يشهد شيئا سواه، كما قال قطب الإرشاد الشيخ عبد الله الحداد في الإنشاد:

دعِ الناس يا قلبي يقولون ما بدا   لهم واتثق بالله رب الخلائق
ولا ترتجي في النفع والضر غيره   تبارك من رب قدير وخالق
فليس لمخلوق من الأمر ها هنا   ولا ثم شيء فاعتمد قول صادق
هو الرب لا رب سواه وكلهم   عبيد وتحت الحكم من غير فارق

ولنورد على هذه الأسماء ما تيسر نقله من شرح الإمام الطيبي على شرح المشكاة، وهو أيضا ناقلاً لذلك أو غالبه من شرح أسماء الله الحسنى للإمام أبي القاسم القشيري قدس الله روحهما، قال رضي الله عنه: (الإلٰه) فعال بمعنى مفعول كالكتاب بمعنى مكتوب، من أله آلهة عبد عبادة، أو أله إلهاً إذا تحير، لأن الفطن يدهش في معرفة المعبود والعقول تتحير في كبريائه، و(الملك) ذو الملك، وهو إذا كان عبارة عن القدرة على التصرف كان من صفات الذات كالقادر، وإذا كان عبارة عن التصرف في الأشياء بالحق والإبداع والإماتة والإحياء كان من أسماء الأفعال كالخالق، وعن بعض المحققين: الملك الحق هو الغني مطلقاً في ذاته وفي صفاته عن كل ما سواه، ويحتاج إليه كل ما سواه إما بواسطة أو بغير واسطة، فهو بتقديره منفرد وبتدبيره متوحد، ليس لأمره مرد ولا لحكمه رد، أما العبد فإنه محتاج في الوجود إلى الغير، والاحتياج مما ينافي الملك فلا يمكن أن يكون له ملك مطلق، والملك مختص عرفاً بمن يسوس ذوي العقول ويدبر أمورهم، فلذلك يقال له: ملك الناس، ولا يقال له: ملك الأشياء، وهو أبلغ من المالك باعتبار الزنة، لأن فعل في النعوت موضوع للثبات بخلاف الفاعل، ولذلك أطلق الملك على الله وحده، ولم يطلق المالك إلا مضافاً إلى ما يفيد بإضافة معنى الملك وباعتبار المعنى، لأن كل ملك مالك ولا ينعكس، ووظيفة العارف من هذا

الاسم أن يعلم أنه هو المستغني على الإطلاق عن كل شيء، وما عداه مفتقر إليه في وجوده وبقائه، مسخر لحكمه وقضائه، فيستغني عن الناس رأساً، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه، ويتخلق به عن الاستغناء عن الغير، والاستيلاء بالتصرف في مملكته الخاصة التي هي قلبه وقالبه، والتسلط على جنوده ورعاياه من القوى والجوارح، واستعمالها فيما فيه خير الدارين وصلاح المنزلين، قال الشيخ أبو القاسم: الملك عند أهل التحقيق هو القدرة على الإبداع، والعبد إذا وصف بالملك فلفظة الملك في حقه مجاز، وإن كان أحكام الملك في مسائل الشرع في حقه حقيقة، فإن لفظة الاستنجاء في الاستطابة توسع، ثم لا يمنع أن يكون أحكام الاستنجاء في الشريعة على الحقيقة، قيل: الملك عبارة عن جواز التصرف في الأعيان إن لم يكن مانعاً، هذا في حق الخلق متفاوت ولكن بالنسبة إلى الحق واحد، لأن القدرة الحقيقية بالتصرف في الأعيان بالإيجاد عن العدم وبالإعدام عن الوجود بلا مانع لله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾، ذكر بلام التمليك وقدم الجار والمجرور، فنفي الملك في الدارين إلا له، وقال تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ فالملك مملوك المالك، فإذاً لا ملك ولا مالك إلا هو، فكل ملك في الدنيا ملكه، عارية من الله تعالى، وكل مستعار مردود، وإليه الإشارة بقوله تعالى في المحشر: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، ومن ثم سمى نفسه: ملك يوم الدين، لأن العارية من الملك والمالك عادت وردت إلى مالكها، ولما كان ملك الملوك في الحقيقة هو الله وحده، كان أبغض التسمية وأقبحها عنده أن يسمي الرجل نفسه ملك الأملاك، قال: وإذا تحقق العبد أن الملك لله، وتنكب عن وصف الدعوى، وتبرأ من الحول والقوى، سلم الأمر لمالكه، فلا يقول: لي ولا لهذا، قال بعض المشايخ: التوحيد إسقاط الياءات، يريد الإضافة إلى النفس، وقيل لبعضهم: إنك رب، فقال: أنا عبد، وليس لي نملة فمن أنا حتى أقول: لي، وإذا ثبت أنه مالك الملك على الإطلاق، يملك من عباده، ومن سبقت له عنايته وحقت له في عموم الأحوال رعايته، فيملكه هواه ويعتقه عن أسر نفسه ومناه، ويحرره عن رق البشرية ويخلصه من دموية الإنسانية، وفي معناه قيل: من ملك نفسه فهو حر، والعبد من يملكه

هواه، وحكي أن بعض الأمراء قال لبعض الصالحين: سلني حاجتك، قال: أولي تقول! ولي عبدان هما سيداك، قال: ومن هما؟، قال: الشهوة والغضب، غلبتهما وغلباك وملكتهما وملكاك، وإذا ثبت أن لا ملك ولا مالك إلا هو، فلا يعتمد إلا عليه ولا يثق إلا به، وأن يكون بما في حكم الله تعالى أوثق منه بما في يده، و لا يهتم ولا يحزن على المفقود، ولا يفرح بالموجود، حكي عن شقيق البلخي أنه قال: كان ابتداء توبتي أني رأيت غلاماً في سنة قحط يمر في زهو، والناس تعلوهم الكآبة من مقاسات الجدوبة، فقلت له: ما هذا المرح!، أما ترى ما فيه الناس من المحن، فقال: ومالي والحزن؛ ولسيدي قرية مملوكة يدخل منها ما أحتاج إليه، فقلت في نفسي: إن كان هذا العبد لمخلوق لا يستوحش من السنة والقحط لأن لسيده قرية مملوكة له، فكيف يصح لي أن استوحش وسيدي مالك الملوك، فانتبهت وتبت: قلت: وهنا فائدة تتعلق بهذا البحث، قال سيدنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ في بعض مذاكراته ما معناه، وقد ذاكر في الذكر الوارد «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»: هذا ذكر جليل عظيم جامع لأنواع التوحيد لله تعالى، فإنه ابتدأ الجملة بنفس الجنس لجميع الآلهة المعبودة بغير حق فقال: (لا إلٰه)، ثم استثنى المعبود بحق فقال: (إلا الله)، ثم أكد الاستثناء بوحدانية ألوهية الذات المقدسة، فقال: (وحده) أي في ذاته، ثم زاد ذلك تأكيداً أعم فقال: (لا شريك له) أي في أفعاله وصفاته، ثم لما كان واحد الذات، عديم النظير في الأفعال والصفات، قال: (له الملك) أي أن الملك الحقيقي المطلق لا يستحقه إلا من هذا وصفه، ثم إن إطلاق الملك مع عدم ملاحظة ما مر أو مع إرادة التأكيد، لما كان يطلق على غير الله تعالى مع لزوم النقص قال: (وله الحمد) أي الكمال بأنه لا يتغير ملكه، ولا يقدر أحد يحدث فيه إلا ما أراده، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه، ثم أتى بأعظم مظاهر قدرة هذا الملك بعد خلق المخلوقات وتكوين الكائنات، وإبداع الأرض والسماوات، ما هو آية مستمرة على تعاقب الأزمان والأوقات، فقال: (يحيى) أي يوجد من العدم، (ويميت) أي يعدم الوجود، ثم لما كان من باهر قدرته وعظيم ألوهيته، كان متصفاً بالإيجاد والإعدام والإماتة والإحياء، وهما صفتان لم يكن في طاقة الملوك الذين ادعوا

الربوبية الاتصاف بهما والقدرة عليهما، أعقب ذلك بقوله: (وهو على كل شيء قدير) عموم بعد خصوص، لئلا يتوهم متوهم أنه إذا اقتصر على هذين الوصفين، أن قدرته منحصرة على التصرف بهما فقط، فأتى بوصف عام يدل على تمام قدرته النافذة المتصرفة في جميع الموجودات، إيجاداً وإعداماً وإماتةً وإحياءً، وضراً ونفعاً وإعطاءً ومنعاً، فقال: وهو على كل شيء قدير. انتهى، وأما اسمه الحق تعالى، فقال: (الحق) الثابت وبإزالة الباطل الذي هو المعدوم، والثابت مطلقا هو الله سبحانه، وسائر الموجودات من حيث إنها ممكنة لا وجود لها في حد ذاتها، ولا ثبوت لها من قبل أنفسها، وإياه عنى الشاعر بقوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وهو بهذا المعنى من صفات الذات، وقيل معناه: المحق أي المظهر للحق، أو الموجد للشيء حسبما تقتضيه الحكمة، فيكون من صفات الأفعال، وحظ العبد منه أن يرى الله تعالى حقاً وما سواه باطلاً في ذاته حقاً بإيجاده واختراعه، وأن له حكمةً ولطفاً في كل ما يوجده وإن خفي علينا كنهه، قال أبو القاسم: الحق والحقيقة من صفات الخلق في اصطلاح هذه الطائفة، يعنون بالحق ما يعود إلى العقائد وأوصاف القلوب في المعارف، وبالحقيقة في المعاملات والمنازلات، ومأخذ هذا الاصطلاح خبر حارثة حين قال له النبي ﷺ: «لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: أسهرت ليلي وأظمأت نهاري»، فأشار بالحقيقة إلى الحقيقة من سهر الليل وظمأ النهار. انتهى، وأما اسمه (المبين) بالباء الموحدة، قال الإمام ابن علان في (شرح الأذكار) قال في السلاح: قال الخطابي: روي المبين بالموحدة أي المبين أمره. انتهى، واعلم أن هذه الأسماء من جملة تسعة وتسعين اسماً لله تعالى وكلها توقيفية، والتوقيفي ما ورد به الكتاب والسنة، وأسماؤه تعالى تنقسم إلى ثلاثة أقسام: أسماء ذات كالله وهو عين المسمى، وأسماء أفعال وهي غير المسمى كالخالق، ولا عين المسمى ولا غيره كالعالم، قال ابن علان: ومنها صفات هي طريق المعرفة به، وهي تسعة: القديم الأول قبل كل شيء، والباقي بعد فناء كل شيء، والقادر الذي لا يعجزه شيء، والعالم الذي لا يخفى عليه شيء، والغني الذي لا

يفتقر لشيء ولا يستغني عنه شيء. انتهى، ومحل ذلك والبحث عنه وما يجب للحق سبحانه وتعالى ويستحيل عليه، كتب التفسير والحديث والأصول، واعلم أن أفضل العلوم وأشرفها هو علم المعرفة بالله تعالى، لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وعلم التوحيد قنطرة الناجين من العبيد، وقد اشتمل هذا الشرح على كثير من علوم الصوفية ومعارفهم وفضائلهم، وعلم التوحيد أساس وأصل لجميع ذلك، فلننقل شيئا من عباراتهم فيه، إذ هم أهل الكشف والعيان في التحقيق والبرهان والشهود والعرفان، ولهم الإنباء عن الوجدان والإيقان، لتحققهم بإحكام أحكام الإسلام والإيمان والإحسان، وما كان كذلك فالنفوس إليه أميل، وفيه أرغب وعليه أحرص، وظهور الحق لا يحتاج إلى برهان ودليل، كما قال القائل:

عجبت لمن يبغي عليك شهادة وأنت الذي أشهدته كل شاهد

ولا بأس بالتقليد الجازم للدلائل القطعية القرآنية والحديثية، وإنما المذموم التوغل في علم الكلام، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: فر من الكلام فرارك من الأسد، وقال الإمام ابن دقيق العيد المالكي رحمه الله تعالى:

تجاوزت حدّ الأكثرين إلى العلا وسافرت واستفتيتهم في المراكز
وخضت بحاراً ليس يدرك قعرها وألقيت نفسي في فسيح المجاوز
ولججت في الأفكار حتى تراجع اختياري إلى استحسان دين العجائز

وقد نقل الإمام عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى، والإمام عبد الكريم ابن هوازن القشيري والإمام عمر السهروردي رضي الله عنهم، كثيراً من أقوالهم الجامعة ونفثاتهم الصادقة النافعة في علم التوحيد، فمنها قول سيد الطائفة أبي القاسم الجنيد بن محمد نفع الله به: أول ما يحتاج إليه من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه، والمحدث كيف كان إحداثه، فيعرف صفة الخالق من المخلوق، وصفة القديم من المحدث، فيذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته، فإن لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه، وسئل الشيخ أبو محمد سهل بن عبد الله التستري ـ رحمه الله ـ عن ذات الله تعالى، فقال: ذات الله موصوفة بالعلم، غير

مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول، وتراه العيون في العقبى، ظاهر في ملكه وقدرته، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية، وسئل ذو النون المصري ـ رحمه الله ـ عن التوحيد، فقال: أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه تعالى، وليس في السماوات العلى ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله تعالى، وكل ما تصور في وهمك فالله بخلاف ذلك، وعن الشيخ أبي الحسين النوري ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لما وصف القرب من الله تعالى: أما القرب بالذات فتعالى الملك عنه، وإنه مقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار، ما اتصل به مخلوق، ولا انفصل عنه حادث مسبوق، تجلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل، فقرب هو في نعته محال وهو تداني الذوات، وقرب هو في نعته واجب وهو قرب بالعلم والرؤية، وقرب هو جائز في وصفه يخص به من يشاء من عباده وهو قرب الفعل باللطف، وعن الأستاذ أبي القاسم الجنيد ـ رحمه الله ـ أنه سأله ابن شاهين عن معنى (مع)، فقال: على معنيين، مع الأنبياء بالنصرة والكلاية قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، ومع العامة بالعلم والإحاطة قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾، فقال ابن شاهين: مثلك يصلح أن يكـون دالاً لأمة هي لله عز وجل، وقال أيضاً: تفرد الحق بعلم ما كان وما يكون وما لا يكون: إن لو كان كيف يكون، وسئل الجنيد ـ رحمه الله ـ عن التوحيد، فقال: إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته، انه الواحد الذي لم يلد ولم يولد، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه، بلا تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، وعن الإمام جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: من زعم أن الله تعالى في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، إذ لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً. انتهى، وهذه عقيدة مختصرة لسيدنا الإمام حجة الله على الأنام الشيخ القطب عبد الله الحداد نفع الله

به: وبعد فإنا قد رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلةً وبالمؤمنين إخواناً، وتبرأنا من كل دين يخالف دين الإسلام، وآمنّا بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، وبملائكة الله، وبالقدر خيره وشره، وباليوم الآخر، وبكل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ عن الله تعالى، على ذلك نحيا وعليه نموت، وعليه نبعث إن شاء الله من الآمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بفضلك اللهم يا رب العالمين.

خاتمة: قال ابن عطاء الله الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ في (الحكم): شتان بين من يستدل به ويستدل عليه المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه. انتهى، بيَّن ـ نفع الله به ـ في هذه الحكمة أن بعض الناس يستدل بالمكون على الأكوان وهم العارفون بالله، وآخرون يستدلون بالأكوان على مكونها وهم العوام من الناس، وذلك بالنظر في المكونات وفي خلق الأرض والسماوات، فإذا كان كذلك فلنورد قدراً يسيراً وجملة مختصرة في عظيم صنع الله سبحانه وتعالى، استجلاباً لأنفسنا القاصرة، المحصورة في ظلمة ليل الهيكل الجسماني، النازلة في حضيض الشهوة، وأما من نوّر الله بصيرته شهد الغيب عيناً فلم يحتج إلى الوصف، لأن روحه مطلق في فضاء عالم الغيب والملكوت الذي هو عالمه الأصلي العلوي، الذي شوّقه إليه إمام الإرشاد القطب الحداد ـ رضي الله عنه ـ في قوله نفع الله به:

لله بارقة للقلب قد لمعت ... من عالم الأمر لا من عالم الصور
أنستك إياك والأكوان أجمعها ... وأوقفتك على المطلوب والوطر
ياأيهاالجوهرالمحصورفي صدف ... مخلولق عرض التغيير والكدر
مثبط في حضيض الحظ همته ... في لذة البطن والمنكوح والنظر
تقوده شهوات فيه جامحة ... حتى تزج به في لجة الضرر
يا أيها الروح هل ترضى مجاورة ... على الدوام لهذا المظلم الكدر

فأين كنت ولا جسم تساكنه ألست في حضرات القدس فادّكر
تأوي مع الملأ الأعلى وتكرع من حياض أنس كما تجني من الثمر
تأتي إليك نسيم القرب مهدية عرف الجمال كعرف المندل العطر
حتى جعلت بأمر الله في قفص ليبتليك فكن من خير مختبر
فحين أبصرت هذا الجسم قد برزت به العجائب من بادٍ ومستتر
أنستك بهجة ما كنت تشهده من قدس ربك فاعرف ضيعة العمر
رضيت بالفكر عن كشف وأينك من جلية الحق إن أخلدت في الفكر

وقد مر لنا في أول هذا الشرح الاستشهاد بآخرها من قوله بعد هذا البيت: (لا تقنعن بدون العين منزلة..) إلى آخره، فقوله: (رضيت بالفكر عن كشف..) البيت إلى آخره، معناه أن الفكر بعيد جداً عمَّن وصل إلى مرتبة العيان والشهود الذي هو جلية الحق، هذا لعظم ذلك المقام، وإلا فالفكر في ذلك طريق موصل إليه، لأنه من الأمور الباعثة على التحقق بمقام العبودية، وإذا تحقق العبد بذلك وصل إلى معرفة الربوبية، ولذا حث الله على ذلك في غير ما آية من كتابه العزيز، وهو أنواع، وقد ذكرنا بعضها في أول هذا الشرح، والتفكر في مصنوعات الله تعالى وفيما ورد فيها، ممّا يبعث أمثالنا على القيام بحق الربوبية، والاعتراف برق العبودية له تعالى، كما ذكرنا ذلك آنفاً، لأن من يستدل بالأثر على المؤثر قاصر عن مقام من يستدل بالمؤثر على الأثر، كما مر عن ابن عطاء، واعلم أن في كل مصنوع لله تعالى ما يدل على وحدانية مبدعه وخالقه جل وعلا، كما قال القائل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقد قدمنا أيضاً أن التفكر في ذات الله لا يجوز، وإنما المطلوب المرغب فيه هو التفكر في آلاء الله تعالى ومصنوعاته، قال حجة الإسلام في كتاب التفكر من (الاحياء): قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قوما تفكروا في الله تعالى فقال النبي ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره»، وعن النبي ﷺ أنه خرج على قوم وهم يتفكرون، فقال: «مالكم لا تتكلمون»،

فقالوا: نتفكر في خلق الله عز وجل، فقال ﷺ: «وكذلك فافعلوا، وتفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه، فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء، نورها بياضها أو بياضها نورها، مسيرة الشمس أربعين يوماً، بها خلق من خلق الله تعالى لم يعصوا الله عزوجل طرفة عين»، فقالوا: يا رسول الله أين الشيطان؟، فقال: «ما يدرون أخلق الشيطان أم لا»، وعن عطاء قال: انطلقت أنا وعبيد ابن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا، قال: قول رسول الله ﷺ: «زر غباً تزدد حباً»، قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ، قال: فبكت ثم قالت: أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي، ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عز وجل»، فقام إلى القربة فتوضأ منها، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه الأيمن حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر!، فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»، وقيل للأوزاعي رحمه الله: ما غاية التفكر فيهن؟، قال: يقرأهن ويعقلهن. انتهى، ثم ذكر ـ رضي الله عنه ـ مجاري الفكر في جميع المخلوقات، ومن آكد ذلك أن يتفكر الإنسان في أعمال نفسه، وما يطلب منه التفكر فيه من المعاصي والأخلاق الذميمة، لينزجر عن ذلك ويحترز منه، ومن الطاعات وأنواع القربات وما يترتب على فعلها والعمل بها من الجزاء الجزيل، ليرغب فيها ويستكثر منها، ويحمل له من ذلك جريدتين ـ كما ذكر ذلك نفع الله به في كتاب (منهاج العابدين) ـ جريدة الأخلاق الكريمة وثمراتها، وجريدة الأخلاق المذمومة ونتائجها، ثم يسبح ويعوم فيما أراد من باحة بحر الأفكار، ويجعل ذلك ديدنه في آناء الليل والنهار، وقد ذكر ـ نفع الله به ـ في (بداية الهداية)، لما قسم وظائف ما بعد صلاة الصبح إلى نحو أربع وظائف فقال: «ووظيفة في التفكر»، ولما ذكر في كتاب التفكر

المذكور أنواع التفكر في أصناف المخلوقات وعجائب الأرض والسماوات، قال: فأول ما يبدأ الإنسان بالتفكر بنفسه لقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾، ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾.. ثم ذكر النطفة والتراب والطين التي خلق منها الإنسان وجعلها منشأ إيجاده، فقال رضي الله عنه: فتجديد ذكر النطفة في الكتاب العزيز، ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه، فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة يضربها الهواء لفسدت وتفتتت، كيف أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألف والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة والاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم، ثم كيف خلق المولود من النطفة فسقاه بماء الحيض، فغذاه حتى رباه ونما وكبر، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق في الأعضاء الظاهرة، فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مد اليد والرجل وقسّم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال، والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة ولو فقدت طبقة أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار، فلو ذهبنا نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضت فيه الأعمار.. ثم ذكر ـ رضي الله عنه ـ كيفية خلق العظام من كبير وصغير ثم صفاتها وعددها، وصفات تركيب الإنسان من قرنه إلى قدمه، وأطال في ذلك إلى أن قال: فكل ذلك بصنع الله في قطرة ماء قذرة، فترى من هذا صنعته في قطرة ماء، فما صنعه في ملكوت السماوات وكواكبها، وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها، واجتماع بعضها وتفرق بعضها، واختلاف

صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا تظنَّن أن ذرة من ملكوت السماوات تنفك عن حكمة وحكم، بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوات، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ فارجع الآن في النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً، وتأمل لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً، أو يخلقوا فيه عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً، هل يقدرون على ذلك، بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقه بعد أن خلق الله ذلك لعجزوا عنه. . ثم ذكر ـ رضي الله عنه ـ تفصيل خلق الأعضاء وعجائب صنع الله فيها، إلى آخر ما أطال به في هذا الكتاب في ذكر عجائب المخلوقات، وبسط فيه بسطاً عجيباً، وذكره أيضا بأبسط منه وأوسع وأعجب بسطاً في كتاب الصبر والشكر من ربع المنجيات من (الإحياء)، فرضي الله عنه من إمام تجلت له الحقيقة تجلي شمس الظهيرة، وانكشفت له عوالم الملكوت فنظرها بعين البصيرة، مع وراثة محمدية في إرشاد الأمة الأحمدية، عما يزلزل عقائدهم ويشتبه عليهم من أمور الحقائق، حتى أنه إذا وردت عليه الواردات الإلهية في علوم الحقيقة وغاص في معانيها وأشرف على لجة بحارها، فتارة يقول: ولنقبضن عنان القلم لئلا نقع في كذا وكذا، وتارة يقول في بعض أبحاث المعاملة وما رواه من علم المكاشفة أو من سر القدر الذي لا تجوز إذاعته، فسبحان من تفضل عليه وعلى أمثاله بهذا الفضل العظيم، وقد أشار في كتاب التفكر في مواضع منه إلى تعريف من اصطفاهم الحق لمعرفته، وفتح أعين بصائرهم لمشاهدة تصاريف قدرته، ومن هو بعكسهم، فقال نفع الله به: فإن كنت لا تعجب من هذا فاعجب من عدم تعجبك، فإنه أعجب من كل عجب، فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح، ومنعك من التبيين مع هذا البيان، جدير بأن يتعجب منه، فسبحان من أهدى وأضل، وأغوى وأرشد، وأشقى وأسعد، وفتح بصائر أحبائه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه، فلله الخلق والأمر، والامتنان والفضل، واللطف والقهر، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه. ومما لخصته من الكتاب المسمى (نسخة الوجود عن حال الموجود)

للشيخ الإمام محمد بن أحمد بن سعيد بن مسعود الملقب بابن عقيلة المكي قدس الله روحه، قال: أول موجود العقل الأول من غير موجب عليه، بل بفيض فضله ومحض منه، وله أن لا يوجد شيئا من المبدعات، وله أن يوجدها جميعاً في دفعة في آن من الآنات.. ثم ذكر ما بعد العقل الأول من الموجودات على ترتيب إبداعها وتركيب اصطناعها، ثم قال في آخر ذلك: المرتبة السادسة، وهي مرتبة الإيجاد والإظهار والإبداع، وهذه المرتبة هي أول مبدأ للعوالم، وقد كان من ترتيب العلم الإلهي المقدس عن النقص الموصوف بالكمال، أن يكون أول موجود هو العقل الكلي، وهو من نور الذات المقدسة، فهو الموجود الأول، فإنه لما أحب أن يعرف أوجد من نوره مجلى عظيماً واسعاً كاملاً قدَّر فيه سائر الموجودات، وهذا المجلى هو المسمى بالعقل الكلي والروح الكلي والحقيقة المحمدية، وهو أيضاً العرش الأكبر لأن العرش المستوي عليه منه، فهو أول موجود ظهر عن المبدع شأنه، واعلم أيها الأخ علمك الله ما لم تكن تعلم، أن هذا الروح الكلي أعظم الموجودات وأوسعها، وسائر ما خلق الله وما هو خالق في بطن هذا الروح الكلي، وهو محيط به، فالعرش في وسط هذا الروح الكلي كحلقة في فلاة، وسائر الأرواح الجزئية موجودة في هذا الروح بالفعل، وسائر الأجسام موجودة فيه بالقوة، ولما أوجد الله تعالى وقدر فيه ما هو خالق، أقام ذلك الروح الكلي يمجد الله تعالى ويعظمه، وهو مستغرق في بحر قدرة الله تعالى وعظمته وكبريائه، وهو في بحر العظمة والقدرة كحلقة في فلاة، فأقام على ذلك مدة عظيمة مقدرة تلك المدة بألوف من الأعوام، لأنه لم يكن في ذلك الوقت زمن ولا مكان، إنما حدث الزمان والمكان من استدارة الأفلاك، ثم أوجد الله تعالى من هذا الروح الكلي القلم وهو الموجود الثاني، وهو في وسط الروح الكلي كحلقة في فلاة، وهذا القلم في غاية الكبر والعظمة، ثم أوجد الله تعالى من الروح الكلي اللوح وهو الموجود الثالث، وأمر القلم أن يكتب فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وهذا اللوح في غاية العظم والكبر، وهو أصغر من القلم بأضعاف مضاعفة، واعلم أن ما صورة وجدت وهي موجودة إلا ولها مثال في هذه العوالم الثلاث،وهي عالم اللوح وعالم القلم وعالم الروح الكلي، ويشاركهم في هذا

المعنى ما بعدهم من المرتبتين، التي هي مرتبة العرش ومرتبة الكرسي، فإن فيهما أيضاً صورة الموجودات جميعاً، واعلم أيضا أن هذه الخمسة العوالم المذكورة محيطة كل واحدة منها بالعوالم الموجودة مثبتة فيها، لا يخلو جزئي ولا كلي منها، ثم أوجد الله تعالى من ذلك الروح الكلي العرش وهو الموجود الرابع، وهو عالم عظيم استوى الحق ـ سبحانه وتعالى وتنزه ـ عليه، وتوجه لإيجاد المخلوقات، وهو أول موجود ظهر فيه الاستحالة عن المادة الأولى، وهو عالم كبير واسع جليل لا يكيف وسعه، ولنذكر في ذلك حديثاً ورد عن النبي ﷺ في عظمة العرش وكبره، أخرج أبو الشيخ عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «العرش من ياقوتة حمراء، وإن ملكا من الملائكة نظر إليه وإلى عظمته، فأوحى الله تعالى إليه إني جعلت فيك قوة سبعين ألف ملك لكل ملك سبعون ألف جناح فطر، فطار الملك بما فيه من القوة والأجنحة ما شاء الله أن يطير، فوقف فنظر مكانه لم يرِم ـ أي لم يبرح ولم يبعد ـ عن المكان الذي طار منه»، فانظر أيدك الله إلى عظم هذا المخلوق، وإنما هو بالنسبة إلى اللوح جزء من سبعين جزءاً، وهذا العرش له أربع قوائم يحمله أربعة من الملائكة العظام، لا يقدر عظمهم وكبرهم إلا الله سبحانه وتعالى، وألقى عليه سبعين ألف حجاب من النور والظلمة، وبث في أطرافه وأكنافه من الأرواح المهيمة ما لا يحد ولا يوصف، وهذه المرتبة فيها من الأملاك المعروفة المشهورة إسرافيل عليه السلام، وباقي الملائكة مرتبتهم ما تحت الكرسي إلى ما هو تحت ذلك من العوالم، وليس لمن له المرتبة السفلى الصعود، فلو تقدم عن مرتبته قدماً احترق، ثم أوجد الله تعالى من الروح الكلي الكرسي وهو الموجود الخامس، وهو بالنسبة إلى العرش كحلقة في فلاة كما تقدم، واعلم يا وليِّ ـ أيدنا الله وإياك ـ أن هذا الكرسي عالم عظيم وملك جليل، وهو عبارة عن السرير الصغير الذي يوضع تحت العرش لتدلي أقدام الجالس على العرش عليه، فإن العرش عبارة عن السرير العظيم والكرسي سرير دونه يوضع تحت العرش لتمد الملوك أرجلها عليه، واعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل العرش ولا الكرسي لحاجة الجلوس عليه والاستقرار فيه، بل أوجدهما سبحانه وتعالى لتعريف عظمته وجلاله وكبريائه، فإنه جلَّ ثناؤه لو استوى على العرش والكرسي استواء استقرار

وجلوس للزم من ذلك التحديد والجهة وهو متعالي عن ذلك، فإنه لا تحده الجهات ولا تحصره الأماكن والذوات، بل هو محيط بسائر الجزئيات والكليات، لا يوصف بالعلو ولا السفل، بل له استغراق سائر الأماكن والأزمان، وإنما له تجلٍ عظيم في العرش والكرسي، والتجلي غير الذات والاستقرار، فإياك والغلط، وأما ما ورد من الاستواء والصعود والنزول فالمقصود به التجليات، ولهذا الكرسي العظيم قائمتان، فإنه قد سبق أن للعرش أربع قوائم يحمل كل قائمة من قوائم الكرسي ملك عظيم جليل، وقد وكل الله بحفظ العرش والكرسي من الأملاك والأرواح الكروبية والمهيمية ما لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، فما من موضع من فراغ العرش والكرسي إلا وهو مملوء بهؤلاء العوالم، وفي هذين الموضعين طائفة من الأملاك يسمون: (العالين) مستغرقين في جمال تجلي الصانع جل ثناؤه، لا يشعرون بشيء منذ خلقهم الله تعالى إلى أن يفنيهم، هائمين طائفين حول العرش والكرسي، لا يستقرون منذ وجدوا إلى أن ينفوا، واعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن هذه الخمسة العوالم المذكورة ـ التي آخرها ذكراً وخلقاً الكرسي ـ وما تحويه من الأملاك والأرواح يسمى عالم الأمر، وهو عندهم عبارة عن العالم الذي لا تتغير فيه المادة الأصلية الموجودة من جمال الصانع جل ثناؤه، وما بعد هذه الخمسة العوالم يسمى عالم الخلق، هو وجميع ما يحتوي عليه، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ثم أوجد الله سبحانه وتعالى في وسط هذا الكرسي عالماً عظيماً يسمى الهباء وهو الموجود السادس، وهو مادة أجسام كل الموجودات، كما أن الروح الكلي مادة الأرواح جميعاً، فهذا الهباء مادة الأجسام جميعاً، وهو منبث في وسط عالم الكرسي جميعاً، ثم كيف الله تعالى هذا الهباء بكيفيات لما يريده من تمام انتظام الموجودات، وجعل منه عالماً في وسطه اسمه عالم الطبيعة، وهذا العالم محتوٍ على أربع كيفيات وهي: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، وهذا العالم هو الموجود السابع، وهذه السبعة العوالم محيط بعضها ببعض سارية في سائر العوالم الموجودة في وسطها، فإن سائر الأفلاك والموجودات الآتي ذكرها موضوع كل واحد منها في وسط الآخر، وهذه محيطة داخلة فيها، ثم أوجد الله تعالى فلكاً عظيماً جليلاً نورانياً شفافاً وهو

الموجود الثامن، وهذا الفلك المسمى بالفلك الأطلسي، لأنه خال من الأنجم والكواكب السيارة، وهذا الفلك هو المسمى بفلك البروج، وهو منقسم اثنا عشر قسماً. . ثم ذكر ترتيب الأفلاك، وما يناسب كل برج من الاثني عشر من الطبائع، ثم فصَّل ذلك تفصيلاً عجيباً، إلى أن قال: وهذا الفلك العظيم منذ خلقه الله تعالى يدور دورانه في كل أربع وعشرين ساعة مرة، ومن دوران الفلك حدث الأيام والشهور، والسنين والأزمان والدهور. . ثم ذكر بعد ذلك فلك الماء فالهواء ثم التراب من زبد الماء وهي الأرض، ومثلها بأنها كالبيضة بعضها ظاهر وبعضها غامر في الماء، وأنه تعالى خلق الأرض في يوم الأحد والإثنين، والجبال وتقدير ما يحتاج إليه سكان الأرض في يوم الثلاثاء والأربعاء، والسماوات في يوم الخميس والجمعة، ثم فصَّل في هذا المؤلف ما يتعلق بالسماوات والأرض وما فيها من الأملاك والأفلاك، والسكان والعمار والنواحي والأقطار، وأن هذه العوالم محيط بعضها ببعض، وذكر لكل ذلك مثالات تقرب للواقف عليها كيفية كل عالم وصفته، وقال في آخر ذلك: واعلم أن اقتران الكواكب عبارة عن اجتماعها في مكان واحد فإن ذلك لا يمكن، إنما هو عبارة عن تقابلها واتصال أشعة بعضها ببعض، وكل واحد منهم في فلكه ومحله، وأما نسبة هذه الأنجم من حيث مقدارها إلى كرة الأرض، فذلك مما يزيد في إيمان المؤمن بعظيم قدرة الله تعالى، فأما القمر فهو في السماء الدنيا وهو قدر الأرض مائة وعشرين مرة، وعطارد في السماء الثانية قدر الأرض اثنين وعشرين مرة، والزهرة في السماء الثالثة قدر الأرض ثلاثين مرة، والشمس في السماء الرابعة وهي قدر الأرض ثلاثمائة وستين مرة، والمريخ في السماء الخامسة قدر الأرض أقل من مرتين، وزحل في السماء السابعة قدر الدنيا خمس وتسعين مرة، وبقية الكواكب مختلفة في الكبر والصغر، فبعضها قدر الأرض مائة وعشرين مرة،وبعضها خمسين مرة وعشرين مرة وثمانية عشر. انتهى من الكتاب المذكور، فانظر إلى هذه القدرة التي أوجدت هذه العوالم الذي بلغ إليها علم المخلوقين، وهذا الذي وصل إلى علمهم لو أراد أحدهم أن يحيط

علمه بتفصيل زاوية من زوايا عالم من هذه العوالم [لم يستطع] لا بالفعل ولا بالقوة، فقد مرَّ أن ملكاً من الملائكة نظر إلى عظمة العـرش، فأوحى الله إليه أني قد جعلت فيك قوة سبعين ألف ملك لكل ملك سبعون ألف جناح، فطار ما شاء الله فإذا هو لم يبرح ولم يبعد عن المكان الذي طار منه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد أنهى سيدنا وشيخنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ هذه الأسانيد بطرقها المقررة وشروطها المعتبرة، إلى هذه الحضرة التي منها مادة الأرواح والأجسام، والجواهر والأعراض والأجرام، بغير مثال سابق ولا منوال لاحق، بل بكلمة كن بغير نطق أو تحريك شفة أو سماع صوت، تعالى الله أن يشبه المخلوقين، بل إذا سبق في علمه تعالى إيجاد موجود أراد إيجاده توجهت إليه الإرادة وخصصته، وأبرزته القدرة وأبدعته، فهو على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، لا إله إلا هو إليه المصير، ثم إنه ـ نفع الله به ـ ألحق بعد ذلك ذكر مشايخه الذين أخذ عنهم هذه الطريق، وهم السيد الإمام أحمد بن الحسن الحداد، والسيد الإمام الشيخ عمر بن زين بن سميط، والسيد الإمام الشيخ حامد بن عمر حامد العلويون، والسيد الإمام الشيخ أحمد بن علي بحر اليمني، فأما الثلاثة الأولون فبين وجه الاعتذار في تأخير ذكرهم عن أول الإسناد بقوله فيما سيأتي:

أخذت عنهم بعد من ذكره سبق وقالوا: التقديم أمر مستحق

وأما السيد أحمد بحر فكان ممن طويت له المسالك، وجذب إلى الحضرة التي من وصل إليها أمن من المهالك، وإلى ذلك الإشارة بقول سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

ومنهم عن الرسول قد أخذ بغير واسطة وللسوى نبذ
وذلك البحر الصفي ابن علي من هو بأسرار الولاية ممتلي

فهو السيد الشريف الذي أشرقت على قلبه أنوار المعارف الربانية، واستغرقت له أشعة أسرار التجليات القربية، وأوصلته يد العناية إلى مواقف لحاظ الرعاية،

العارف بالله تعالى أحمد بن علي بن أحمد بن أبي الغيث بن محمد بن أحمد بن أبي الغيث البحر سردد القديمي، المتصل نسبه الصحيح بمولانا علي الرضا بن موسى الكاظم أخو علي العريضي، وقد مر في ترجمة سيدنا أحمد بن عيسى أنه هاجر معه من أولاد عمه جد السادة المهادلة وجد السادة آل القديمي، وسردد ـ كقنفذ وجندب وجعفر ـ وادٍ بتهامة اليمن، ولم أقف على تاريخ ولادته وحال بدايته، ولكن سمعت عن الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ أنه كان في عنفوان الشباب مقيماً في مدينة زبيد لطلب العلم الشريف، وكانت بينه وبين الوالد صحبة في تلك الأيام ومحبة أكيدة، ولما ظهر شأنه بمدينة بيت الفقيه وانتشر صيته، وتحققت ولايته للخاص والعام، كتب له الوالد ـ رحمه الله ـ كتاباً وطلب منه أن يرسل له لباساً، فأرسل له كوفيتين واحدة له وواحدة لي، بالتماس الوالد ذلك أيضاً لي، وذكر له أيضاً في آخر كتابه: وما زلتم على البال، وكيف ننساكم وقد قيل: ثلاث صحب لا تنسى: صحبة المدرسة وصحبة الحج وصحبة المكتب، ولم تزل المكاتبة والمراسلة بينهما إلى أن توفي الوالد رحمه الله تعالى، وقد اتصل به كهذا الاتصال الوالد الجمال محمد بن محمد بن أبي بكر باسودان، وانتفع بمجالسته واستفاد منه كثيراً، واعتنى به وخصه من بين المترددين إليه والواردين عليه، بذكره في أبيات جعلها إلى سيدنا وشيخنا الشيخ عمر البار صاحب المنظومة قدس الله روحه، فقال في أثنائها:

قد انطوى فيك يا ملحوظ لا برحت ... عنايـة الله تلحـظ قلبـك النظـرا
كذا ابن عمك والصافي القريب هما ... مـن عترة أنـت منهـا فـاقتصص أثـرا
فكـن شكـوراً لمـا أوتيـت مـن نعـم ... هــذا زمــانـك فلتحسـن بنـا نظـرا

ثم عرض بالوالد محمد المذكور فقال نفع الله به:

واشكر أخاً للفتى الكندي وصحبته ... نعـم الخليـل الـذي خـاللـت معتبـرا
مـن عـرب كنـدة كـالمقـداد همتـه ... تناطح الشمس يوم الزحف والقمرا
قوم شداد على الكفار قد صحبوا ... هـادي البـرايـا لـديـن الله فـاشتهـرا
لـم تنصـرف كنـدة الغـرا فتيتهـم ... ولـم يـولـوا العدا يـوم الـوغـا الـدبـرا

ولما سمع سيدنا الحبيب عمر منه هذه الأبيات، سأل عمَّن عناه بقوله: (واشكر أخاً للفتى الكندي) الأبيات إلى آخرها، فقال له: ذاك محمد باسودان، ولما أخبرني سيدي الحبيب عمر بذلك ذاكرته بما سمعته عن الوالد، وهو سمعه عن والده العارف بالله الجد عبد الله، قال: إنه لقي بعض فضلاء آل باكرمان، فقال له: نسب آل باكرمان وآل باسودان متصل بالمقداد بن الأسود الكندي الزهري الصحابي البدري، فتعجب سيدي الحبيب عمر من كشف سيدي الحبيب أحمد قدس الله روحهما، وقد حققت ذلك بذكر دلائله في (حقائق الأرواح والأذهان) وترجمت فيها للمقداد المذكور، ومن سلك الطريق من آل باسودان المعروفين بنسبه المشهور، وأما سيدنا وشيخنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ فكان اجتماعه بسيدنا السيد أحمد بمدينة بيت الفقيه، قال فيما وجدته بخطه: أحمد بن علي البحر السيد الشريف الحسيني، الفائق في الزهد والمعرفة، الشاكر الذاكر المخصوص بأنواع الملاطفة والمكاشفة، أخذت عنه وقرأت عليه ولبست منه، ولقنني الطريقة التي أخذ أصلها عن النبي ﷺ، وهي لفظة الجلالة بياء النداء، وقرأت عليه في (الإحياء) إلى كتاب أسرار الطهارة، و (صادحة الأزل) وشرحها للساوي، وشرح قصيدة ابن بنت الميلق الشاذلي للشيخ عبد الملك بن دعسين، وكانت معرفتي به ببيت الفقيه سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف، ولم تزل المكاتبة تصل منه إليَّ نفعني الله به، وله كرامات واطلاعات على الغيب شهيرة. انتهى ما وجدته بخط سيدي الحبيب عمر قدس الله سره، وقوله: (لقنني الطريقة التي أخذ أصلها عن النبي ﷺ) هي المشار إليها في البيتين، وقد قدمنا في ترجمته أنه لما نظم القصيدة كتب لسيدنا الحبيب أحمد صاحب الترجمة، في ذكره الأخذ عنه بهذا الوجه المذكور في هذين البيتين المذكورين، فكتب له جواباً يقول له فيه: (والبيتان أظهروهما وما عبد الله إلا جهرا) مع ما نقلناه هناك مما يتعلق به معه، وهذه الطريقة ـ أعني طريقة الأخذ عن رسول الله ﷺ ـ لا يبلغها إلا أكابر الأفراد، كما قدمنا في ترجمة الشيخ علي بن علوي خالع قسم عن (شرح العينية) عن الشيخ عبد الوهاب الشعراوي، أنه قال: مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ وسماع صوته بالرد ـ عليه السلام ـ لا يصل إليه إلا من قطع ألفي مقام وسبعة وأربعين ألف مقام وتسعمائة وتسعة وتسعين مقاماً من

مقامات الأولياء. انتهى، وقد أطال النقل الشيخ عبدالوهاب الشعراوي ـ نفع الله به ـ في (العهود المحمدية) في تحقيق هذا المقام، وذكر جماعة ممّن وصل إليه وتحقق به، منهم الشيخ أبو مدين شعيب والشيخ أبو العباس المرسي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي، والشيخ علي المتبولي، والقناوي وأبو العشائر والسيوطي، وغير هؤلاء من أكابر مصر واليمن وسائر الأقطار، وقال ما حاصله: إن مجالسة الله تعالى ومجالسة رسوله ﷺ ورتبة الاجتماع به ومشاهدته يقظةً وعياناً لا تحصل إلا بكمال اتباعه وكثرة الصلاة عليه، حتى ذكر أن من بلغ هذا المقام يحصل له الاجتماع بالنبي ﷺ في أيِّ وقت شاء، ولا يبلغه إلا من تطهر من كل الذنوب بكثرة الصلاة على النبي ﷺ، وأخبر الشيخ أحمد الزواوي أنه لم يحصل له الاجتماع بالنبي ﷺ يقظة حتى واظب على الصلاة عليه سنة كاملة، يصلي كل يوم وليلة خمسين ألف مرة، وكذلك الشيخ نور الدين الشوني يصلي كل يوم ثلاثين ألف صلاة قال: وسمعنا سيدي علياً الخواص رضي الله عنه يقول: لا يكمل العبد في مقام العرفان حتى يصير يجتمع برسول الله ﷺ أي وقت شاء.. إلى آخر ما أطال به والله أعلم.
قلت: وقد اجتمعت بهذا السيد الجليل بعد رجوعي من حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سنة إحدى عشر ومائتين وألف، وأجازني إجازة عامة مطلقة، ومما حفظته منها من لفظه: عبد الله بن أحمد مجاز في جميع مقروءات الوالد عمر بن عبد الرحمن البار من (الإحياء) وغيره، وما قرأه علينا من الكتب والأذكار والأدعية، وفي جميع المؤلفات، ويدرس فيها، واشهدوا عليَّ بذلك.
ولم أزل أكاتبه حتى توفي سنة سبع عشرة ومائتين وألف ليلة الثلوث ثالث عشر الحجة الحرام، كما كتب لي بذلك ولده الأنور السيد عبد القادر بن أحمد نفع الله بهما، وأحوال هذا السيد ومناقبه كثيرة، وكشوفاته لا تنحصر، فمنها ما حكاه سيدي الحبيب عمر ـ قدس الله روحه ـ قال: زرت الشيخ أحمد بن حسن الموقري في جماعة، وكان نازلاً في بعض جوانب بيت الفقيه، فأثنى على السادة بني علوي كثيراً، فلما خرجنا من عنده قلت لمن معي: هيا بنا إلى السيد أحمد بحر فلما أتينا إليه، قال: جئتم من عند الشيخ أحمد الموقري وأثنى على السادة بني علوي، فقلنا: نعم، فقال: آل باعلوي سلاطين ونحن مساكين، ومنها ما أخبرني بعض الفضلاء

المتعلقين بسيدي الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ قال: كنت أقرأ في مسجد العجل ببيت الفقيه ففقدته في بعض الأيام، فجئت إليه ليلاً وسألته عن تخلفه عن الخروج إلى المسجد المذكور، فقال: رحت إلى السيد أحمد بحر ولي من أولياء الله تعالى، ومدحه وأثنى عليه، فقلت: يا سيدي وهل هنا ولي؟ ـ يعني ببيت الفقيه ـ، قال: فغضب وقال: من أين لك معرفة الأولياء وأنت جالس في السوق، فلما كان في الغد خرجت معه إلى السيد أحمد المذكور،وكنت لقصور نظري أظنه مقارباً لسيدي الحبيب عمر في الشكل والصورة، فلما دخلت عليه رأيته صغير الجثة، فكأنه صغر في نظري لذلك، فالتفت إليَّ وقال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، وكثيراً ما يكاشف على الخواطر مما يطول نقله، وكان زاهداً في الدنيا وفي جاهها ومالها، قال سيدي الحبيب عمر نفع الله به: خرجنا إليه في بعض الأعياد، فرأيناه يتغدى فَطِيرُ ذُرَةٍ وإدامُهُ زَيْتٌ، وأما الطيب فكان يستغرق فيه كل عام أموالاً كثيرة، وله اليد الطولى في علوم الأسرار، والاطلاع على غوامض علوم المعارف، رضي الله عنه ونفع به.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

ومن مشايخي الدعاة الكاملين　　العـالميـن العـارفيـن الـواصليـن

شيخي إمام أهل المعارف والفطن　　حدادنا المشهور أحمد بن حسن

هذا المذكور الإمام الجهبذ المشهور، الذي كان نسيجاً وحده، وخليفة أبيه وجده، الشيخ المبرز في جميع العلوم، الحبيب العارف بالله تعالى أحمد بن الشيخ الحسن بن الفرد الجامع القطب الشيخ عبد الله بن علوي الحداد باعلوي نفع الله به، قال فيه سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه: أحمد بن الشيخ الحسن الحداد، الإمام الهمام الذي فاق أهل عصره ذكاءً وعلماً، ونال من منح مولاه مقاماً اسمى، تبحر في العلوم الشرعية والمقامات العرفانية، وأشير إليه بالبنان في كل تبيان، تفقه وتصوف على والده الشيخ الحسن، واستودعه ما عنده مما ظهر وبطن، زرته مراراً أولها سنة ست وتسعين في صحبة سيدي الوالد صادق بن الحبيب عمر البار والأخ عيدروس بن عبد الرحمن ولبست منه معهما، وآخر زيارة في سنة ثلاث بعد

المائتين والألف، وتوفي سلخ رجب سنة أربع ومائتين وألف، وقرأت عليه في كتب متعددة منها الديوان لجده نفع الله بهما، وفصل الأوراد من المناقب الكبرى، وأجازني وألبسني، ولقنني في زياراتي له جميعها. انتهى ما وجدته بخطه نفع الله بهما. وكتب لي ولده العارف بالله تعالى عمر بن أحمد ما صورته وملخصه: اعلم أن سيدنا الإمام الخليفة الصدق، الشيخ الصفوة العارف القدوة، جامع الكمالات الوالد المنتقى قطب رحى الدين الغوث الأعظم الشيخ عبد الله بن علوي بن محمد الحداد باعلوي نفع الله بهم، ولد ليلة السبت حادي عشرين شهر شوال سنة سبع وعشرين ومائة وألف، وحنكه جده الحبيب عبد الله الحداد بريقه الترياق وتمر عملاً بالسنة، فسرى سر ذلك فيه، ونشأ متأدباً بما لا أحد من أقرانه يضاهيه، حتى رقى من المراتب أعلاها وحل من أوج المعالي ذراها، قرأ القرآن العظيم وقومه أحسن تقويم، وحفظه حفظاً أكيداً وكان من علومه باعاً مديداً، وذلك بعد أن استفتح على جده الشيخ عبدالله فاتحة الكتاب، فامتلأ من علومها بما يبهر الألباب، وَصَارَعَيْنَ وقته علماً وعملاً، وتسليكاً وإفادةً وإرشاداً، ودرَّس في حياة والده بإذنه، وصنّف في علوم شتى، وحج حجة الإسلام وزار جده عليه الصلاة والسلام سنة سبع وخمسين ومائة وألف، واجتمع بعلماء الحرمين الشريفين وانتفع بهم، مع ما رأوه من الفضل في العلم والذكاء والتفنن في جميع الفضائل، وأجل من أدركه من أكابرهم السيد الإمام عبد الله بن جعفر مدهر، وقرأ عليه في تحفة الشيخ ابن حجر في الحرم الشريف، قلت: وكان في صحبته بمكة سيدي الوالد رحمه الله تعالى، وكتب له الحبيب عبد الله مدهر إجازة كتبها له في نسخة من (دلائل الخيرات) بخطه، بعد أن قرأ عليه ما تيسر فيها بالتماس سيدي الحبيب أحمد له ذلك، ومع وصول سيدنا الحبيب أحمد في البحر قريب القنفذة، حصلت له الواقعة العظيمة من تغير المركب وهلاك من فيه وما فيه إلا من بقي معه سلم، بعد أن مكثوا خمسة أيام بلياليها بلا أكل ولا شرب ولا نوم ولا استراحة، وكان الحبيب أحمد لما عرف أن جميع ما معه سيغرق من كتب وغيرها، أخرج من جميع ذلك شالاً من كساء

جده الشيخ عبد الله الحداد وتعمم به، فتراءى لأهل البر في هذا المحل من البحر كالقبة العظيمة فقصدوها، فلما قربوا منهم رأوه ومن معه فأخرجوهم إلى البر، وحفظهم الله تعالى ببركته، وله كرامات وأحوال صادقات، ومقامات علية ومناقب جلية، اعترف له بالكمال أئمة عصره، وأثنى عليه عارفو وقته ومشايخ دهره، كالحبيب جعفر بن أحمد بن زين الحبشي، والحبيب عمر بن زين بن سميط، والحبيب حامد بن عمر حامد، والحبيب سقاف بن محمد السقاف، وولده الحبيب عمر بن سقاف نفع الله بهم، وكان جده الشيخ عبد الله يدعوه في صغره بالسلطان وقال فيه: إنه عالم تريم، ومن نظم سيدي الحبيب عمر بن سقاف نفع الله به، يمدحه ويثني عليه ويعرض بالتهنئة له بقدوم بعض أولاده إليه، قال في أثناء ذلك:

حبيبي شهاب الدين لا زلت راقياً ... مقامات عرفان ودمت لنا ذخرا
وهنيت بالعلياء في كل رتبة ... تشيد لها في كل مرتبة قصرا
نشأت على كسب العلوم ودرسها ... وأوتيت تحقيقاً فأنت بها أحرى
سفينتك التوفيق في كل وجهة ... فكان لها في سيرها أحسن المجرى
وغذيت بالتحقيق في حالة الصبا ... فكل ذوي التدقيق تحتكم أسرى
وسرت بأثواب الجلال مجملاً ... وقمت بحمد الله تعبده شكرا
أقمت شعار العلم في مهبط الرضا ... حوى بكم الحاوي على ما به فخرا
وكملت الأسرار إرثاً إليكم ... فقمت بها سراً وتاهت بكم جهرا
فعن جدك المشهور شرقاً ومغرباً ... ووالدك السامي خلافته الكبرى
فيا شيخ عبد الله يا حسن الرضا ... طريقكم أضحت بنجلكم زهرا
عليك شهاب الدين مني تحية ... هدية ذي عجز ويطلبكم عذرا
فلا زلت في أمن ولا زلت في هنا ... ولا زلت في خير ولا ذقتم ضرا
مقيما على شكر الإله بهمة ... تقاصر عنها كل ذي همّة صغرى

وقد قفوت أثر سيدنا وشيخنا الحبيب عمر في هذه الأبيات، مادحاً سيدي الحبيب عمر بن أحمد وارث أبيه وجده، والواقف على آثاره وَجَدِّه، وذلك لما

رأيت فيه من الكمال في الوراثة لهؤلاء الثلاثة، وعرضت بِذِكْرِ الجميع مع قصر الباع عن ذلك اليفاع، فقلت:

سلام على الحاوي وساحته الغرّا ... وعماره بالدين لله ما أحرى
وفيه عظيم الشأن قطب رحائهم ... ونقطة باء تلك المعارف والإقرا
عمر عين ذاك القطر إنسان وقته ... ربيب الحجا والحلم والعلم والذكرا
إمام سخي أريحي مهذب ... رضيع لبان الصالحات ولا فخرا
وخلق حباه الله جلَّ سجية ... وإرثاً عن المختار والسبط والزهرا
وعن سادة جلوا عن الحصر عدهم ... خليفتهم حاوي المعارف والسرا
مجدد دين الله محيي دروسه ... ومعلي مبانيه مشيدها جهرا
له وضعت كل الأكابر طاعة ... رقابهم من تحت أقدامه صغرا
هو الشيخ حداد القلوب ومعدن الشـ ... ـريعة وضاح لطرقهم نشرا
له اليد في تأسيس أركانها وفي ... معاني كتاب الله والسنة الغرّا
إشاراته تجلو لران قلوبهم ... وتودعها من سره مرة أخرى
وقد جاء عبد الله بالحسن الذي ... محاسنه جلّت عن المدح والإطرا
وجاء حسن بالشيخ أحمد سائر ... على سيرهم في فنهم ياله بحرا
وها نحن من هذا خليفة عصرنا ... به نستمد الخير والفضل والبرّا
فهيّا شجاع الدين قوموا بغارة ... لمضنى عديم الصبر في الحال مضطرا
يرجِّي بكم أن تنقضي كل حاجة ... له في مدى وقت الحياة وفي الأخرى
وقل: أنت منا مثل ما قال جدّكم ... لسلمان فامتاز بها في الملا قدرا
فعندكم ما يبتغيه وعادة ال ... كرام نجاح القصد جوداً لذي الإقرا
وكم لكم يا سيدي من فضائل ... وفي محكم التنزيل طول المدى نقرا
وأزكى صلاة الله ثم سلامه ... على خير خلق الله كلِّهم طرّا
وآل وصحب كلما قال شيّق ... سلام على الحاوي وساحته الغرا

وكانت وفاته ـ رضي الله عنه ـ سلخ رجب سنة.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وشيخنـــــا إمـــــام أهـــــل الله نجـــــل سميـــــط عمـــــر الأوّاه

وشيخنا هو الإمام الفائق أهل زمانه ومشايخ عصره علماً وعملاً وتقوى، وورعاً وزهداً وتجريداً، مكث نحو العشرين السنة لم يضع جنبه على الأرض، ولمَّا بلغ ذلك الحبيب حامد بن عمر حامد قال: هذه عزمة صوفية، وشهد له أكابر عصره أنه القطب، وإلى ذلك أشار الحبيب حسن البار ـ نفع الله به ـ في قصيدة له قيل: إنها آخر نظم له، بقوله رضي الله عنه ونفع به:

لذ بحامد وباحمد بن حسن مرهم الطب أو عمر بن سميط اللّي في الوقت قطّب

وقال في أخرى:

والحبيـــب النسيـــب ابـــن سميـــط يـــا لـــه مـــن بقيـــة وخبيـــة

وقال والده الحبيب الشيخ عمر البار ـ نفع الله به ـ في صاحب الترجمة: إنه مملوء نوراً من قرنه إلى قدمه، وكان ذلك في ابتداء إرادته، ومما كتب به إليه سيدنا الحبيب حامد بن عمر حامد نفع الله به: إلى الحضرة المحفوفة الجامعة للأسرار المعمورة بالأنوار، سيدنا ومولانا وحبيبنا الشيخ الإمام شجاع الدين عمر ابن زين بن سميط، سلمه الله وأمتع به آمين، وقد وصل مشرفكم الكريم، وحصل به السرور والتأييد في عمارة المجالس وزيارة المشاهد والمساجد، ووافق مع وصول السيد الجليل عمر بن سقاف وسررنا بوصوله وأخباره، وحصلت همة لزيارة الفقيه والسلف الصالح نحن وهم، أول زيارة بعد الأثر وانقطاعه، والبركة إشارتكم، والحمد لله، والمطلوب منكم الدعاء لنا وللأولاد والخاصة الجميع.
ومما امتدحه به سيدنا الإمام الحبيب عمر بن سقاف قدس الله روحه قوله:

يـا عـذولـي فـي رغبتـي والتصـابـي إن قلبـــي إلـــى الأحبـــة صـــابـــي
قـربهـم سلـوتـي وروحـي وراحـي وصـــلاحـــي والبعـــد عنهـــم خـــرابـــي

إلى أن قال:

يـــا خليلـــي لازم ودع مـــن تـــولـــى فـــاتـــه الحـــظ واغتنـــى بـــالســـراب

والتزم حضرة بها السعد وافى		والأماني لسائر الطلاب
حضرة قد زهت فخاراً فتاهت		بإمام الأجلة الأحباب
سيد عارف كريم مكين		خير داعٍ إلى سبيل الصواب
مستعين بالله في كل حال		ومنيبٍ إلى رفيع الجناب
هو شخص تجمع الفضل فيه		وهو غوث إن شئت فصل الخطاب
قد نشأ في العلوم طفلاً وشيخاً		وارتقى في كهولة وشباب
ما السعادات والعبادات إلا		في فناه بالعلم والآداب
يا ابن زين يا وارث السر إني		طالب نفحة تزيل اكترابي

ثم فصَّل من مطالبه ومآربه، وشرح حاله مع أهل زمانه، إلى أن قال:

سيدي لا برحت فينا مقيماً		ناعم البال هادياً للصواب
تتلو أخبار من مضى بسلام		وعلوم تهدي ودرس الكتاب

إلى آخر ما قاله، وله مديحة أخرى فيه لما زاره بعد وفاته، تشتمل على الاستغاثة به، وذكر الاشتياق والتعطش لأوقاته وساعاته، وإلى إفاداته ومذاكراته، وما يحصل من كمال السرور وتمام الأنس بذلك له ولغيره، وكان سيدنا وشيخنا الناظم الحبيب عمر البار ـ قدس الله روحه ـ يقول: ما بقي الحبيب عمر بن سميط في هذا الزمان إلا روحاً ونوراً، وكان عند اجتماعه به في أوقات زياراته لحضرموت يتضآل بحضرته ويتأدب معه غاية التأدب، كما هو عادته مع غيره من الأكابر، لا سيِّما مشايخه، ومن حين جلوسه معه لا ترقى دمعته، وذلك لما يكشف له من الأنوار والتجليات بحضرته، وقد زرته معه مرتين وألبسني معه، وكان يختلي به في بعض الأوقات، ويخصه بزيادة من الإقبال عليه والقيام بحقه، لما يرى فيه من كمال التأهل، ولما كان عنده وعند أخيه الحبيب محمد لجده الحبيب عمر البار من كمال شهود الخصوصية، ومعرفتهما بعظم حاله، وما بينهم من المحبة الأكيدة والمعرفة الوافرة، زيادة على ما كان عليه أصحاب سيدنا الشيخ عبد الله الحداد، وألبس صاحب الترجمة سيدنا الحبيب عمر البار الأخير صاحب المنظومة مراراً ولقنه الذكر، واعتنى به كثيراً وكاشفه بأشياء فكانت كما قال، وأما سادتنا أهل تريم

وغيرها من أهل الجهة الحضرمية، فكانوا يترددون إليه ويقصدونه من الأماكن البعيدة لزيارته والتبرك به والأخذ عنه، ويعظمونه ويشيرون إليه بأنه صاحب النوبة والخلافة، وكان موزعاً أوقاته بأنواع العبادات ليلاً ونهاراً، لا يفتر عن ذلك ولا يمل، ما بين صلاة وتلاوة قرآن وأذكار وأدعية ودرس العلم النافع، والغالب في كتب التفسير والحديث والرقائق، وله كلام في الطريق والسلوك وعبارات جامعة أثبتها بعض أصحابه، وكان لا يجالسه إلا صعاليك الفقراء الصابرين الصادقين فيؤنسهم ويرتاح بمجالستهم، وأما أرباب الأنفس من أهل الدنيا وغيرهم فإنه قلَّ أن يجالسهم ويحتفل بهم، وإذا حضر معه أحد منهم لا يخوض فيما يخوضون فيه، إذ كانت الدنيا لا تذكر عنده، وعلى مثل هذا الحال وهذه السيرة خلفه ولده صفوة الزمان العارف بالله تعالى أحمد، زاده الله نوراً ورقياً ونفعنا بهما في الدارين، وأحوال سيدي الحبيب عمر مشهورة، إلا على غير أهلها فمستورة، وله كرامات وأخبار بالمغيبات، بعضها صريح وبعضها يجعله في معرض التلويح، يحفظها أصحابه وأهل بلده وغيرهم، وكانت وفاته ليلة السبت وأربع وعشرين ربيع ثاني سنة سبع ومائتين وألف، ودفن بمقبرة شبام، وقبره مشهور يزار، فتنجح عنده الأوطار.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وشيخنا الإمام حامد بن عمر مـن للمقـامـات العليـة قـد عمـر

المذكور بهذا البيت الإمام الجامع القانت الخاشع، شيخ الشيوخ الثابت قدمه في التمكين والرسوخ، المتبحر في علوم الشريعة والطريقة، الخائض بحر الحقيقة، الشيخ الوارث للأحوال والمقامات، والبالغ في تحقيق الاستقامة أقصى الغايات، الذي كان يشبه الأنبياء في خلقه وسمته، الحبيب حامد بن الشيخ الإمام عمر بن حامد بن علوي ابن الشيخ الكبير عمر بن أحمد المنفر باعلوي قدس الله روحه، شيخ الفريقين وإمام الطريقين، ولد بتريم وحفظ القرآن العظيم، ونشأ في حجر أبيه وتأدب به، وأدرك من زمن سيدنا الشيخ الحبيب عبد الله الحداد أعواماً، وحقق في العلوم العقلية والنقلية وتبحر فيها، لا سيِّما الفقه والتصوف، وقرأ وانتفع بخاله السيد الإمام عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه، وبغيره من علماء تريم وغيرها،

وكان ذا فطنة وذكاء في حل المشكلات وتفكيك المعضلات، كما وصفه بذلك وشهد له به أئمة عصره، ومنهم سيدنا الحبيب محمد بن سميط لما ترجم لوالده الشيخ عمر حامد في (بهجة الفؤاد)، قال: وكان ـ يعني الحبيب عمر ـ ذا فهم وذكاء، كابنه السيد العلامة السالك الناسك حامد، وكان قد خلفه مع أخويه الأكرمين علوي والحسين، وخلفه مكانه في تدريس العلوم ونفع المسلمين، وإقامة الصلاة في مسجد القوم آل باعلوي، والجد والاجتهاد في العلوم والأعمال وسلوك الطريقة. وهذا كلام الحبيب محمد فيه وهو في أوان بدايته، ولا شك أن ما قاله الحبيب محمد المذكور عن الحبيب أحمد بن زين في أبيه كان فيه، وهو أنه قال: السيد عمر حامد إمام آل باعلوي بتريم، وأنه امتاز بالمشيخة عليهم، وسيدنا الحبيب حامد ـ نفع الله به ـ في وقته كان كذلك إمام آل باعلوي وشيخهم، كما شبهه بذلك أكابرهم بالفعل والقول، فإنهم لا يقدمون عليه أحداً في هذا المقام، أعني مقام الإمامة والمشيخة، لأنه كان ـ رضي الله عنه ـ راسخ القدم في جميع المقامات، ولذا قال سيدنا الناظم قدس الله روحه: (من للمقامات العلية قد عمر)، وجل انتفاعهم به، وأما خواصهم فمن عرف له حقه فأقبلوا عليه إقبالاً كلياً، كسيدنا الإمام عمر بن سقاف، فإنه بعد جده الشيخ علي بن عبد الله السقاف ووالده الإمام الحبيب سقاف ابن محمد، . .[١] وكذلك السيد العارف بالله تعالى محمد ابن سالم الجفري، وغيرهما ممن يعز حصرهم، . .[٢] وقد قدمنا في ترجمة سيدنا الحبيب عمر البار الأول أخذ الحبيب حامد عنه، ومكثه عنده بدوعن نحو الأربعين يوماً بإشارة والده الحبيب عمر، وما حصل له في ذلك، وله اليد الطولى في الاستقامة وحفظ الجنان والأركان عن غير ما خلقت لأجله، وكمال الاحتراز في المنطق والقلم، وحسن الأخلاق العظيمة التي لا يضاهيه فيها أحد من أقرانه، ولمَّا حج بيت الله الحرام وزار قبر جده ـ عليه الصلاة والسلام ـ حصلت له فتوحات، وأقبل عليه علماء الحرمين، وهو الذي قرر قراءة راتب سيدنا الشيخ عبدالله الحداد في الحرم الشريف المدني، ودخل مدينة زبيد ووافق ختم (الإحياء)

---

(١) كذا بياض بالأصل.

(٢) كذا بياض بالأصل.

بمدرس السيد سليمان بن يحيى الأهدل مع اجتماع العلماء، فاغتبط بوصوله هو والحاضرون، والتمس منه السيد سليمان الإجازة والإلباس، فأجازه وألبسه، وله كلام في السلوك فائق غريب لا يسمح زمانه بمثله، يدل على تحقيقه وتبحره في طريق القوم بل وفي جميع العلوم، فمن كلامه قدس الله روحه: من حفظ الأدب مع نفسه حفظ الأدب مع الناس، ومن زهد في الدنيا سلم من كيد أهلها، ومن هان عليه أهل الله تَبّاً لَهُ ومن اعتزل عن الناس سلم من أذاهم، ومن صبر على أذاهم عاد عليه خيرهم، ومن لم يطمع فيهم عز عليهم، ومن لم يفرح بمدحهم لم يحزن لذمهم، ومن أحب مدحهم لزمه خوفهم، ومن ناصحهم كرهوه، ومن داهنهم أحبوه، ومن راقبهم اشتغل، ومن جافاهم اختذل، ومن رفق بهم ظفر بهم، ومن عنفهم حرمهم، ومن كثرت ملاحاته طالت حسراته، ومن حفظ خطراته حفظت حركاته، ومن تأنى لم يندم، ومن عجل لم يسلم، ومن ترك المألوف والعادة اتصف بالزهادة، ومن اتصف بالزهادة تذللت جوارحه للعبادة، وحقت له السعادة، ومن اشتغل بالله تعالى اشتغل به الناس، ومن اشتغل بهم أعرضوا عنه، ومن ترك المعاصي لم يعصِ عليه عاصي، ومن حفظ الجوارح أمن من الجوائح، ومن لم يتدبر العواقب وقع في المعاطب، ومن قعدت به نيته لم تبلغ به همته، ومن صحبه التواني لم يبلغ الأماني، ومن طلب فوق قدره لئيم، ومن رضي بدون حقه فهو حكيم، ومن وقف مع حقه فهو سليم، والأول يدفع والثاني يرفع والثالث ينازع، ليس التكبر الترفع عن الأنذال والتعزز على من عز بالجاه والمال، ولكن الكبر رؤية النفس بعين الجلال والناس بعين الإذلال، وليس التواضع خشوع الجوارح ولين الجوانح. ومن أثناء كلام له طويل قال قدس الله روحه: الزاهد مالك والراغب مملوك، والتارك والآخذ مأخوذ، وإن الراغب في الدنيا فقير إليها، والراغب عنها فقيرة إليه، ولا تتحقق العبادة إلا بالاستقامة، ولا تحصل الاستقامة إلا باتباع السنة، ولا يحصل اتباع السنة إلا باتباع الرسول، ولا يحصل اتباع الرسول إلا بترك المناهي، ولا يحصل ترك المناهي إلا بفعل الأوامر، ولا يتم ترك المناهي واتباع الأوامر إلا بالإسلام، والإسلام أول السعادة، والسعادة والشقاوة بحكم الله ومشيئته، ويوم القيامة تتبين الأمور، ويحصل ما في الصدور، ﴿وُجُوهٌ

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، والله أعلم.

وقال رضي الله عنه: أصل كل ضرر ورأس كل شر وسبب كل محنة وبلاء، داخلاً وخارجاً عاماً وخاصاً ديناً ودنيا، الركون إلى الناس ومخالطتهم في هذا الزمان المبارك، لعموم الجهل والغفلة وعدم الوفاء، وقلة النصيحة وتتبع الفضيحة، وارتفاع التمييز وعدم التفريق بين العالم والجاهل والصالح والطالح، حتى إن الإنسان قد يدخل في بعض عوارض أهل الزمان بالنية الصالحة والقصد الحسن فلا يخطر لهم حسن نيته ببال، ويقطعون أن ليس قصده إلا الفساد والضلال، وإن ظهرت لهم القرائن بضد ماظنوه لم يبالوا، وإن كان ذلك الرجل عالماً عاملاً أو عابداً فاضلاً، بل تراهم مع ظنهم الفاسد يسعون خلفه بالفساد بالفعل والقول، وذلك لأن كل وعاء ينضح بما فيه، وكل مالك شيء ينفق منه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، ومن نظر وتفكر وقت مجالسته للناس ومشاهدته لهم، يشاهد بوناً عظيماً وتفاوتاً كثيراً في تيسير الطاعات وتعسيرها وقلة المعاصي وكثرتها، وهذا لأن المجالس لا تخلو من غيبة أو نميمة أو مداهنة، أو رياء أو كذب أو كلام قبيح، أو سكوت عن منكر أو أمر بمعروف أو خوض فيما لا يعني، ومن رأى كلام السلف على زمنهم بالفساد، وتحذيرهم من المخالطة وكثرة المجاورة للناس، قنع من زمانه وحذره من سائر أصحابه وإخوانه وجيرانه وأعوانه، وإذا كانت المخالطة لا تأتي في الغالب إلا بالشر والضرر، فلا ينبغي للمحافظ على سلامة دينه أن يجتمع بالناس في هذه الأعصار إلا في صلاة جمعة أو جماعة، مع الأدب وقلة النظر إليهم والكلام معهم، فإن حقيقة الاجتماع هذا إنما هو لله ومع الله، ونفعه أكثر من ضرره مطلقاً، وكذلك إذا كان الاجتماع للنفع والانتفاع كتدريس العلم، فإنه إذا صحت النية فيه وظهرت الفائدة منه لحق بالاجتماع للصلوات الخمس، والله أعلم وله كلام كثير جليل من هذا القبيل، أثبته عنه فقيره الشيخ عبد الرحمن السليماني رحمه الله، وله وصايا جامعة مبسوطة ومختصرة، ومن أجمعها وصية بسط فيها التمسها منه الشيخ الإمام أحمد بن عبد القادر الحفظي الحجازي، وأخرى للسيد العارف محمد بن سالم الجفري، وأخرى للشيخ محمد

ابن أبي بكر بانافع، وهو من أجل الآخذين عنه وعن سيدنا الحبيب حسن بن الشيخ عبد الله الحداد، وله إليه مكاتبات كثيرة وإلى غيره أثبتها أصحابه، وله ورد جامع نفيس يقارب حجم (مفتاح السعادة والفلاح) لسيدنا الحبيب عبد الله الحداد، وشرح المشكل من راتبه المشهور، وكل كلامه وإشاراته ـ رضي الله عنه ـ نافعة لعلل القلوب وأمراضها، ومن كراماته ما ذكره الشيخ السليماني ـ رحمه الله ـ قال: وزار مرة تربة تريم وأناس آخرون، فلما وقف عند قبر سيدنا عمر المحضار قرأ ما شاء الله، واستمر يدعو فوقع في خاطري أني متوسل به إلى الله في قبول الزيارة وحصول المطلوب، فلما تم الدعاء وختمه جاوز ذلك القبر الشريف قليلاً قاصداً بمن معه قبة الشيخ عبد الله بن أبي بكر العيدروس، التفت إليَّ وقال: توسل إليه بحضرة الربوبية وبالإيمان، وتبسم، ومنها ما سبق في ترجمة سيدنا وشيخنا الناظم أنه لما مرض سيدي الحبيب الإمام عمر بن سقاف وشفي وأتى إلى تريم، قال له: توسلنا إلى الله في أن يمدك من عمر البرزخ، ومنها ما أخبر به الحبيب العلامة محمد بن جعفر العطاس، أنه لما وصل إليه في بعض زياراته وصافحه، قال له: نكص جعفر ـ يعني تخلف عن الزيارة ـ وكان الحبيب جعفر قد عزم على ذلك، فلما كان يوم الخروج تأخر وفسح لولديه محمد وعلي في النفوذ للزيارة، وله كرامات كثيرة بين أصحابه مشهورة، ولما دنا وقت انتقاله إلى الدار الاخرة كاشف به، وتوفي ليلة رجوعه من زيارة نبي الله هود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ليلة الخميس خامس عشر شهر شعبان سنة تسع بعد المائتين والألف، نظم ذلك سيدنا الإمام الحبيب سقاف بن محمد الجفري باعلوي في مرثية له فيه بقوله:

وقل: توفي في شعبان حامدنا ... وزده هـوداً يكـن تـاريخـه فـرز

ومطلعها: (يا قلب سلّم لماضي الحكم والقدر) إلى أن قال وكان له المشهد العظيم، والمشرب الصافي في زيارة الأولياء، لا سيِّما زيارة تربة تريم، فإنه إذا خرج إليها وقت الإشراق لا يرجع إلا نحو ربع النهار، وله في ترتيبها رسالة مختصرة، بين فيها ما يفعله وينويه من حين خروجه إلى رجوعه، التمس ذلك منه سيدنا الحبيب عمر بن سقاف نفع الله بهما، وأثبتها برمتها في كتابه (تفريح القلوب

وتفريج الكروب)، وقد خلفه على منواله من لم يسمح الزمان بمثاله، ولده الإمام المتبحر العارف بالله الجامع للكمالات وجيه الدين عبد الرحمن بن حامد، زاده الله رقياً إلى أعلى المقامات، وقد اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه، وأجازني وألبسني كوالده نفع الله به.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه ونفعنا به:

يا ربنا بأسمائك العظام ... وبالنبي وآله الكرام

لا سيما إمامنا الحدّاد ... قطب رحى الإرشاد والإمداد

وسيدي الغوث الإمام الفرد ... عمر غياثي عمدة أهل الرشد

لما انتهى النظام وتم الكلام، فيما اختاره ـ نفع الله به ـ من الأسانيد المشهورة على تلك الكيفية المذكورة، وذكر مشايخه وطرقهم في أخذهم عن مشايخهم، وذكر شيئاً من مناقبهم ومواجيدهم حسب ما ساعده النظم عليه، محَّضَ العبودية وختم منظومته بالاستغاثة والتوسل إلى الله بأسمائه العظام، إشارة إلى أنه المتجلي بها على جميع الأنام، فكل اسم منها له خواص، وله في أجزاء العالم اختصاص، وأن كل من له من الأولياء مقام أو حال، فبسريان سر اسم فيه من أسماء الجلال والجمال، والكلام في تعريف معانيها يطول، وقد شرحها الشيخ الكبير أبو القاسم القشيري صاحب (الرسالة)، وغيره من الأكابر كالشيخ العارف بالله تعالى عمر بن عبد الله بامخرمة والحجة الغزالي وغيرهم نفع الله بهم، وكذلك الشيخ حسين بن عبدالشكور أثناء كتابه (الهدية السنية)، ثم استغاث ـ نفع الله به ـ بالواسطة العظمى والوسيلة الكبرى جده المصطفى، وبآله أهل الوفاء، ثم بالشيخ القطب الحداد، ومن بعده من أرباب المدد والإمداد، تخصيص بعد عموم، إذ هم من الآل الكرام والذرية الأعلام، لكن لوفور شفقة الأب الأدنى جسماً وروحاً، وزيادة مدد همته منوحاً وفتوحاً، خصَّص من ذكر في الاستغاثة والتوسل بهم إلى مولاهم، ولأن الشيخ الحداد له مزيد عناية في هذا الزمن الأخير، لا سيِّما لمن ينسب إليه بشعور أو بغير شعور، في عالم البطون أو الظهور، قال بعض أولاد سيدنا الحبيب عمر البار نفع الله به: كنت عند الشيخ العارف بالله أحمد بن حسن الموقري الزبيدي،

وكان ممن يطري في الثناء على السادة العلويين، وكانت طريقته حدادية كما مر في ترجمته، فقال: إذا لَمَّتْ بك مَلَمَّة أو وقعت في شدة فاستغث بالشيخ عبد الله الحداد فإنه يغيثك، لأنه من المتصرفين في الكون حياً وميتاً، قال: فقلت له إنا نكتب اسمه حتى في أمتعتنا تبركاً باسمه وتيمناً بسره، فقال: لا بأس بذلك، لكن الاستغاثة به لها موقع في حصول الغرض من تفريج كرب وتحصيل أمر من الأمور ولا شك أن كلام الشيخ أحمد ـ نفع الله به ـ كلام عن كشف وتحقيق، لأن سيدنا الشيخ عبد الله ـ نفع الله به ـ قد أجمع أهل عصره من العارفين على تمام تصرفه وعظم حاله، وقد أعطاه الله تمكيناً وتصرفاً حياً وميتاً، وقد مر في ترجمته وفي مبحث كرامات الأولياء ما يدل على ذلك من أقواله وأقوال غيره من الأكابر، وفي ديوانه إشارات إليه كقوله رضي الله عنه:

يا عاذلي دع عنك زخرفة ... اتبعت فيها بالك البالي
هل أنت مني حين أكرمني ... ربي قريب أيها الخالي
وهل رأت عيناك سراً به ... قد خصني من بين أشكالي
أو ما رأت روحي وما سمعت ... من غيبه في المنظر العالي
مت إن تشأ غيظاً فليس إلى ... قطعي سبيل قد تجلى لي
وقد حمى أطراف مملكتي ... بالقهر جل القاهر الوالي

إلى آخر الأبيات، واعلم أنه ليس في أبيات سيدنا الحبيب عمر ـ نفع الله به ـ طريق للمعترض بمذهب المتظاهرين القائلين بعدم جواز الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، لأنه ـ نفع الله به ـ إنما توسل بهم إلى الله تعالى ولم يستغث بهم احترازاً منه عن الاعتراض، وإن كان مقرراً جواز الاستغاثة التي هي جائزة عند جميع أهل السنة ومن وافقهم من أهل البدعة، ولم يشذ ممن يعتد به ويؤخذ بقوله إلا ابن القيم وابن تيمية، وقد قيل بكفرهما لنشرهما هذه المسألة، ولم يتقدمهما إلى ذلك أحد من العلماء من لدن الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى عصرهما، وقد رد عليهما وعلى من وافقهما كثيرون من العلماء الراسخين، وقد ذكرنا بعض ما يتعلق بذلك في آخر شرح المقدمة، قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس

الله روحه: كنت كثيراً ما أستشكل صحة الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، وأراها لا تصح بغير الله تعالى، فلما اجتمعت بالشيخ عبد الرحمن المشرِّع اليمني، قال لي على سبيل الكشف إنك إذا قلت: يا شيخ فلان، مثل أن تقول: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين[١]، قال: فزال عني ما كنت أجده، وفي بعض مكاتبات السيد الإمام الحبيب علي بن حسن العطاس لبعض المتعلقين به: وإذا وقعت في شدة فقل: يا عمر، فإنك إذا قلت: يا عمر مثل أن تقول: يا الله[٢]، ودليل ذلك من السنة كثير، وأما الوقائع الفعلية خارجة عن الحصر، إذا تقرر ذلك فاعلم أن الاستغاثة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبالأولياء نفع الله بهم غير قادحة في التوحيد ولا مناقضة له، لأن الاستغاثة بهم إنما هي لاستمجادهم في الاعانة في أمر من الأمور، وقد أعطاهم الله تصرفاً وجعل لهم تأييداً منه، كما يرشد إليه الحديث القدسي السابق مع شيء من شرحه، وأي فرق بين كريم الطبع والجبلة إذا استمجدته واستعنته في أمر، فأغاثك فيه وأعانك عليه بماله أو جاهه أو قوته، الحاصل له جميع ذلك من الله تعالى، والإذن له فيه بقدرته، والباعث له عليه بعلمه وإرادته، وبين ولي من أولياء الله أغاثك بحاله أو نصرك بهمته أو أيدك بكرامته بإذن ربه، وأهل السنة والجماعة معتقدون ذلك وقائلون به، والإطلاقات التي يتوسعون بها ولا يقيدونها شائعة شرعاً وعرفاً ولغةً واصطلاحاً، وإلا لاحتاج كل قول وكل فعل مطلق إلى قيد يبين حقيقته، كأن يقول المخبر بشيء من فعل أو قول: خرجت إلى المسجد مثلاً بإذن الله وقدرته، وقرأت القرآن مثلاً بإذن الله تعالى وقدرته وهكذا، وهذا في الأمر الماضي لأنه قد وقع بإذن الله تعالى ومضى

---

(١) أراد من ذلك الكلام أن المستغيث اظهر العجز كما أن الذاكر بهذا الذكر اظهر عجزه ورد هذا وهذا الأمر إلى الله تعالى ببيان الافتقار بل الأول افتقر إلى مولاه باظهار العجز مع كونه معترفا أنه لا يستحق من مولاه ما يطلبه فتوسل إليه بمن يحبه وكأنه قال إن لم أكن أهلالله باظهار عجزي وتحقيق بغيتي بعد ذلك من أجل من تحبه أكرمني.

(٢) لأن المستغاث به اعطاه الله تصريفا فان أنت طلبت منه شيئا فإنما طلبته من الله الذي اعطاه فالطلب في الحقيقة من الله فالأول يطلب مجازا ممن استغاث به وحقيقة هو من الله والثاني وهو منَ يطلب من الله فإنه يطلب مباشرة.

بمشيئته، فتوسعوا في عدم تعليقه وتقييده ونسبته إلى المشيئة والقدرة، مع اعتقادهم لذلك لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، ولقوله ﷺ: «كل شيء بقضاء وقدر، حتى العجز والكسل»، وأما المستقبل فقد أرشد الله تعالى فيه إلى ندب التعليق بالمشيئة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، ولكمال وراثة سيدنا الحبيب عبد الله الحداد واستقامته، سلك مسلك الاحتراز في غالب أقواله بالاستغاثة بالنبي ﷺ أو بولي من الأولياء، كقوله نفع الله به:

يا رسول الله يا أهل الوفا   أنت بعد الله نعم المرتجى

وقوله في الأخرى:

يا رسول الله يا أملي   ويا غياثي ويا كهفي ومدخري
عليك بعد إله العرش معتمدي   في كل خطب ومرهوب من الضرر

وفي الأخرى بعد كثير استغاثة به ﷺ وتكريرها بياء النداء، كقوله رضي الله عنه:

قم يا رسول الله بي وتولني   واشفع إلى الرحمن في أوزاري

وفي أخرى لما استغاث بكثير من سلفه بالتعيين والتعميم، قال بعد ذلك:

يا آل علوي أدركوا من قبل فرقة وتبديد   فإن فيكم مفاتيح الهدى والمقاليد
فضل من ربكم والأمر لله توحيد

إلى غير ذلك من أقاويله الجامعة التي تحتاج إلى قيد أو شرط، وأما إطلاقاته في فضاء التوحيد فغير منحصرة، بل لا تخلو قصيدة من ديوانه إلا وفيها ذكر التوحيد، والرجوع إلى بيان صفات التمجيد والتحميد، وقد تكون كلها محتوية على ذلك كالتي أولها:

ما في الوجود ولا في الكون من أحد   إلا فقير لفضل الواحد الأحد
معولون على إحسانه فقرا   لفيض إفضاله يا نعم من صمد

إلى آخرها، فخاب وخسر المعترض عليهم، وهم هداة الأمة، والعمدة في هدايتهم وإرشادهم ودعوتهم إلى الله تعالى، لا سيِّما بعد ما عرف من أحوالهم ومقاماتهم ما عرف، نفع الله بهم.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وبـالـوجيـه الحبـر عـالـي الـرتبـهْ وابنـه صفـي الـديـن شيـخ العصبـهْ

ذكر في هذا البيت إمامين توسل بهما في نجح إربه وقضاء غرضه، وهما جد والده وعم والده، فأما الإمام الأول فهو الشيخ الإمام العارف بالله تعالى الحبر المحقق في علوم الإيمان والإحسان، الحبيب عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن حسين البار باعلوي نفع الله به، كان ـ نفع الله به ـ إماماً عالماً عاملاً زاهداً خاملاً، محققاً لا سيما في فن الفقه، نشأ في بندر الشحر، وكان له الرتبة والمنزلة عند أهلها، فلما خاف الشهرة بها وانتشار الصيت، رحل منها إلى جهة دوعن وتوطن بلد القرين، وكان معاصراً فيها للشيخ العارف بالله تعالى محمد بن أحمد بامشموس، فكانا روحان في جسد، ومن شدة مبالغة الحبيب عبد الرحمن في طلب التستر والخمول، إذا كان يوم الاجتماع للذكر عند الشيخ محمد المذكور يبادر إلى بيته لئلا يقصده أحد، ولسر هذا التمازج بين المذكورين دفنا في محل واحد حتى جعل عليهما تابوتاً واحداً، وممن انتفع بالحبيب عبد الرحمن المذكور الشيخ الإمام محمد بن يّس باقيس، فإنه أخذ عنه فن الفقه وحقق فيه، وأخذ عنه ولداه سيدنا الحبيب عمر وسيدنا الحبيب أحمد نفع الله بهم، وله كرامات وأحوال جليلة، ولم أقف على تاريخ ولادته ولا وفاته. وأما الإمام الثاني فهو السيد الإمام العارف بالله تعالى الصفوة الحبيب أحمد بن الحبيب عبد الرحمن المذكور، كان من الأئمة العارفين وعباد الله الصالحين والأبرار المقربين، وكان صوفياً كاملاً زاهداً ورعاً تقياً جامعاً لكثير من أحوال القوم ومقاماتهم، تربى بأبيه في صغره وبأخيه سيدنا الحبيب عمر، واجتمع معه على الحبيب عبد الله بن علوي الحداد نفع الله به، فأشار عليه بملازمة أخيه عمر وأن فتوحه على يديه، فانطوى فيه وألقى نفسه إليه ولازمه ليلا ونهارا، وقد سبقت الإشارة إلى بعض ما كان عليه معه في ترجمة أخيه سيدنا

الحبيب عمر، وقد خلفه بعده في مقامه من الدعوة إلى الله تعالى ونشر العلم الشريف، لا سيما علوم الدين والرقائق والدعوة إلى الله تعالى، حتى توفاه الله تعالى.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

والوالد المخصوص بالمكانهْ ... وأهـل حضـرتهـم أولـي الأمـانـهْ

المذكور بهذا البيت والد سيدنا الناظم قدس الله روحهما، السيد الولي ذي السر الخفي والمقام العلي، عبد الرحمن بن الحبيب عمر البار، كان جليلاً فاضلاً، سالكاً ناسكاً ساعياً في مراضي مولاه، قائماً بمؤن والده ومتحملاً أعباءه، ولد ببلد القرين سنة ثنتين وعشرين ومائة وألف، وتربى في حجر أبيه وأخذ عنه الطريق، وسلك مسالك أرباب التحقيق، حتى قال فيه والده نفع الله به: إنه عديم المثيل ووجيه الزمان، وقال إليه مشيراً في القصيدة التي أولها:

(وجيه هبت ضحى الاثنين ريح الشمال) في آخر الجملة الدعائية:

وجمـل أحـوالنـا وإخـواننـا والعيـال ... وخص دحمان واجمعنا على سر حال

ولذا قال سيدنا الناظم: (والوالد المخصوص بالمكانه)، وقد اجتمع في صغره بسيدنا الشيخ عبد الله الحداد مع والده، ولم يزل على حالة مرضية وسيرة سنية، حتى توفي سنة أربع وستين ومائة وألف، وأما قوله قدس الله روحه: (وأهل حضرتهم أولي الأمانة)، فمراده المجتمعة أرواحهم الطاهرة ..[1] وفيه عموم بعد خصوص، ومن أجلهم بعد المذكورين من أولاد سيدنا الحبيب عمر نفع الله بهم شيخ، وقد سبق ذكره في مشايخ سيدنا الناظم الحبيب عمر نفع الله به، وعلوي وهم من أجلهم سخاءً وجوداً، وأعلاهم همة ومجداً وتواضعاً وخشوعاً ورقة قلب، وصفات فاضلة لا توجد في غيره من أبناء زمانه وأقرانه، وأعلاها الزهد في الدنيا وصغرها في عينه، فإنه حين مات وهو لا يملك منها شيئاً، لأنه كلما تاجر فيها ..[2]، وكفى بهذه الحصيلة العلية شرفاً ..[3]، وتوفي في بلد الخريبة في

---

(١) كذا بياض بالأصل قرابة سطرين.

(٢) كذا بياض بالأصل.

(٣) كذا بياض بالأصل.

شهر شوال سنة خمس بعد المائتين والألف، ونقل إلى بلد القرين ودفن في هذه المقبره المشار إليها، ومنهم الحبيب هاشم شقيق الحبيب شيخ وإخوانه توفي صغيراً، ومنهم الشيخ العارف بالله تعالى الكبريت الأحمر.. الشيخ محمد بن أحمد بامشموس ـ نفع الله به ..[1] في ترجمة سيدنا الشيخ محمد المذكور شيئاً مما ذكره الشيخ الإمام محمد بن يّس باقيس، في رسالة لطيفة ألفها في مناقبه وما تيسر من معارفه ومراتبه، قال قدس الله روحه: نشأ في طاعة الله تعالى من صغره، ولم تعرف له صبوة، ولا حفظت له كبوة، ماتت أمه وهو صغير، وتربى في حجر والده أحمد وكان من الصالحين فحل نظره عليه، وقرأ القرآن على المعلم عبد الله بامقابل من أهل بلدة القرين، الذي قال فيه الحبيب عمر العطاس: ليت من له نظرة في المعلم بامقابل، فاتفق أنه قصد زيارة الشيخ سعيد ومن بدوعن من الأموات، ومن الأحياء الشيخ أحمد بن عبد القادر باعشن نفع الله بالجميع، فلما وصل الحبيب عمر إلى بلد القرين وافق المعلم المذكور مات فصلى على جنازته، كما أخبر بذلك الشيخ محمد المذكور، واجتمع بالشيخ أحمد بن عبد القادر باعشن في بيته في الرباط، وحصل لكل منهما بالآخر أنس تام وانتفاع خاص وعام، وأثنى كل منهما على صاحبه بالفضل وما هو له أهل، وقرأ الشيخ محمد المذكور من العلم قدراً صالحاً على الفقيه العلامة عبد الوهاب بازياد صاحب القرين، وهو عالم محقق متفنن، قرأ عليه مختصر الفقيه عبد الله بلحاج بافضل وشرحه لشيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي، وأكثر من مجالسة الفقيه المذكور ومذاكرته، وله ـ نفع الله به ـ مطالعة في كتب المذهب ومذاكرة مع حملتها، ويعرف جملاً من مسائلها، وقد أشرنا أنه أخذ التصوف وتسلك على الشيخ العارف بالله تعالى الإمام علي بن عبدالله باراس، وتخرج به ولقنه وصافحه وألبسه الخرقة الشريفة، وذلك في أول اجتماعه به في بيته ببلد الخريبة، وكذلك كان له الأخذ لتلقين الذكر وما بعده عن سيدنا الشيخ القطب عمر بن عبد الرحمن العطاس نفع الله به، وتحكم له وأذن له في الإلباس والمصافحة، قال الشيخ محمد: وأما تلقين الذكر فإنه لم يأذن لنا الحبيب عمر فيه، ولكن الله أعطانا النظر فنظرنا كافٍ لمن نظرنا إليه، وكان كثير

---

(١) كذا بياض بالأصل قرابة أربعة سطور ونصف.

التعظيم لشيخه الحبيب عمر العطاس نفع الله به، وزاره زيارات متعددة مع شيخه الشيخ علي باراس، وأخذ التوحيد المعروف المشهور بعد الصلوات المنسوب طريقة للسيد عمر باركوة عن الشيخ علي المذكور، وكان يرتبه بعد كل صلاة إلا المغرب، وقد لازم شيخه الشيخ علي ملازمةً تامةً مع أدب وافر، ولم يقرأ عليه إلا بداية الهداية، وكان يأتي إليه يوم الخميس إلى الخريبة ويصلي معه الظهر والعصر، ويحضر درسه ذلك اليوم، ويسمع مذاكرته في علوم الحقائق والطرائق والفقه وغير ذلك، وكان عادته معه أنه لا يسأل ولا يتكلم ولا ينظر إلى أحد، وإذا كان حاضراً استمع إلى ما يقول، وإذا قام اشتغل بذكر السر، وكان ذلك ديدنه، وكان ـ قدس الله روحه ـ عالماً عاملاً صوفياً صفياً كاملاً، عارفاً تقياً فاضلاً، وله عناية تامة بمطالعة كتب القوم لا سيِّما أمهاتها مثل الإحياء والرسالة والعوارف، وله فيها معرفة تامة، وله بها خبرة وافية، وكان فنه في أول وقته بل وآخره كتب الحقائق لابن عربي والكيلاني وديوان ابن الفارض، وله فيها فهم وذوق ودراية وتحقيق، هذا ما لخصناه من رسالة الشيخ محمد المذكور، وفيها زيادة ذكر شيء من أفعاله وترتيب أوراده وصلواته، والإشارة إلى بعض أحواله ومقاماته، وقد بلغنا عمَّن نقل عن الجد عبد الله بن محمد باسودان رحمه الله تعالى، أنه سمع سيدنا الحبيب عبدالله الحداد ـ نفع الله به ـ أنه قال فيه مرة: إنه الكبريت الأحمر، ومرة قال: إنه قال: فاق الزهاد، لأنه ـ قدس الله روحه ـ تفرد بخصلتين عظيمتين لم يشاركه فيهما أحد من أهل زمانه: الورع الحاجز والزهد الكامل، وسمعت سيدنا وشيخنا الحبيب عمر البار الأخير قدس الله روحه يقول: إن الشيخ محمد المذكور تزوج ولكن لم تقوَ بشريته على مباشرة الزوجة للطافة روحه، وإنما تزوج عملاً بالسنة، ولذا لما حضر عند بعض الأكابر أمر بالسماع، فقام الشيخ محمد وقال: أخشى إذا حضرت السماع أن أطير أو أفر، وبلغنا أنه كان يقرأ بعض المريدين على سيدي الشيخ محمد بن يّس باقيس ـ نفع الله به ـ (في رسالة المذاكرة والمعاونة)، فلما بلغ فيها إلى قوله . .[1] حتى يصير ملكا روحانياً، قال الشيخ محمد بن يّس: وذلك كسيدنا الشيخ محمد بامشموس، وسمعت سيدي العارف بالله تعالى جعفر ابن محمد العطاس يحكي عن الشيخ محمد بن يّس المذكور ـ نفع الله بهما ـ ما حاصله: إن السيد الإمام العارف بالله الشهير زين

---

(١) كذا بياض بالأصل.

العابدين العيدروس ـ قدس الله روحه ـ كان ببعض جهات الهند، فلما كان بعض[1] ورد عليه قبض غلب عليه حتى خرج إلى البرية، فجاء إلى مفازة فوجد فيها بعض العارفين، فزال عنه ما كان يجده وآنس به وذاكره، فلما استودع منه قال له: إذا خرجت إلى بلادك فسلم على الشيخ محمد بامشموس أو زره وسلم عليه، فلما خرج إلى حضرموت قصد دوعن لزيارة الشيخ سعيد والشيخ محمد المذكور والاجتماع به، فلما وصل إلى بلد بضة أمر الشيخ محمد سيدنا الحبيب عمر البار الأول والشيخ محمد بن يّس يتلقيانه، وأعطاهما شيئا من البن قهوة على عادة الجهة، فلما وصلا إليه سر بهما، ولم يزل يسألهما عن الشيخ وحاله، وقبض البن الذي منه وجعله في ثوبه، ولما وصل الحبيب علي زين العابدين إلى بلد حلبون، تقدم الشيخ محمد بن يّس إلى الشيخ محمد بامشموس يخبره بوصوله، فلما وصل إلى تحت بلده القرين استشرف الشيخ محمد بن يّس إلى خروجه للقاء الحبيب زين العابدين، وكان في جمع عظيم من أصحابه وَتَبَعِه، ومن بلدان الجهة الدوعنية، فلم يخرج الشيخ محمد بامشموس للقائه ولم يأمر الشيخ محمد بالخروج، بل لما وصل الحبيب طرف البلد قال صاحب الترجمة: إني أحس معي كالنعاس فدعني أنام على رجلك قليلاً، فامتثل له، قال: وكان معي من الحياء من الحبيب ما لا مزيد عليه، حيث لم يأمر الشيخ بالخروج إلى لقائه وتشييعه، لا سيِّما مع ما سبق من المعرفة له والخبرة بمقامه، قال: فلما دخل الحبيب الدار قام الشيخ محمد وقال: يدخل الحبيب المجلس، وخرج إلى محل آخر يتوضأ فيه، فتوضأ ودخل على الحبيب، فقام إليه وتصافحا وتعانقا وتلازما، ورجع الحبيب إلى مجلسه والشيخ محمد إلى مجلس عادته، وبقيا ساكتين هما والحاضرون، والمجلس مغتص بأهله، فأمر الحبيب أحد الحاضرين أن ينشد فأنشد قصيدة البرعي رحمه الله:

إذا عاهدوا فليس لهم وفاء   وإن وعدوا فموعدهم هباء

فغضب الحبيب وسكتَّه، وأمر غير ذلك المنشد، فأنشد الشيخ عمر بازاهر بما يلائم الحال والمجلس، وهو الذي ربي يتيماً فكفله الشيخ محمد نفع الله به، ثم

---

(١) كلمة مصححه ولكن تصحيحها غير موجود بالأصل.

استأذن الحبيب زين العابدين في الخروج ورتب الفاتحة ودعا وخرج، ولم يسمع منه أنه حكى للشيخ ما وقع له في جهة الهند إلا أن يكون مع تلازمهما فذلك ممكن، كما مر في ترجمة سيدنا الشيخ عبد الله الحداد أنه التمس من الشيخ علي ابن عبد الله باراس أن يأمر الشيخ محمد بامشموس أن يخرج إليه إلى الرحبة مسيل الماء ليجتمع به فيها، . .[1] وساره وناجاه في لحظة يسيرة، فأخبر الشيخ بأنه في تلك اللحظة قرأ في أذنه سورة يٓس، فلما بلغ الحبيب عبد الله عنه ذلك، قال: الشيخ محمد أوعى لذلك وأعرف به لأنه المتلقي له، وأحوال الشيخ محمد المذكور كثيرة، وقد انتفع به الجم الغفير من أهل جهته، وأقبلوا عليه وأخذوا عنه، وكان داعياً لهم إلى الله تعالى زاهداً فيما في أيديهم، ومن أجل من انتفع به واشتهر أخذه عنه سيدنا الحبيب عمر البار الأول والشيخ محمد بن يٓس باقيس، كما ذكرنا ذلك في ترجمتيهما، ومنهم الشيخ العارف بالله تعالى الصوفي الصفوة الأمي سعيد بن عبد الله باعشن، القائل فيه الحبيب علي بن حسن العطاس:

وذاك العشيني قد سعدنا بسعده   سعيد ابن عبد الله مجلي الجلالة

ومن الآخذين عنه والمنتمين إليه، والمتسلكين على يديه، الجد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن باسودان رحمه الله ونفع به، كان من العارفين والرجال المستورين، ترجمت له ترجمة لطيفة، وذكرت تاريخ وفاته في الرسالة التي سبق ذكرها في ترجمة السيد أحمد بن علي بحر الشريف الحسني نفع الله بالجميع، وأما كرامات الشيخ محمد بامشموس المذكور فخارجة عن الحصر، سمعت الوالد يروي عن والده ـ رحمهما الله تعالى ـ أن بعض المنتسبين إليه جمع كل ما بلغه أو رآه أو سمعه من كرامات الشيخ محمد وكشوفاته، فقال له الشيخ على سبيل الكشف: يا فلان قطع[2] كل ما جمعته من تلك الحكايا، وقد قدمنا في مبحث كرامات الأولياء أنه خرج من قبره للجد عبد الله بن محمد المذكور آنفاً على هيئته حياً، ونذكر هنا من جملة كراماته وكشوفاته ثلاث حكايات من مرويات الوالد عن

(١) كذا بياض بالأصل.

(٢) بمعنى إقطع.

الجد رحمهما الله تعالى، **الأولى**: قال: كان بعض آل باحسين الفقراء المعروفين بقرية القويرة من المترددين إلى الشيخ محمد، وكانوا أخواله، فلما كان يوماً في بعض الأيام قصده لزيارته وحضور درسه، فلما كان في أثناء الطريق لقي بعض العسكر من أهل بلده من آل بامرعي، فسأله عن مسيره إلى أين، فقال له: أحضر مجلس الشيخ محمد بامشموس وأزوره، فقال الرجل: ما شيخ إلا الشيخ سعيد ـ يعني الشيخ سعيد بن عيسى العمودي نفع الله به ـ، وإنما أوافقك على المسير إلى هذا الشيخ محمد، فلما وصلا إليه وجلسا معه وكان يتكلم مع الناس، فالتفت إلى الرجل وقال له: كل وقت وله شيخ سعيد، فعلم أنه المقصود بذلك، وأن الشيخ من أهل الكشف الجلي، قال: واتفق بعد ذلك الوقت أنه سافر إلى الشحر، فلما كان يوماً من الأيام والشيخ باحسين المذكور جالساً مع الشيخ محمد، فقال له: يا فلان ما حال العسكري الذي جاء معك ذلك اليوم، فقال: هو مسافر بالشحر، فقال الشيخ: رحمه الله البارحة مات، ومررت به وهو في حفرة من النار فقبض على قميصي، فقال: زرتك مرة وجئت عندك ونظرت إليك فاشفع لي، فشفعت له، ثم بعد ما أخبر بذلك الشيخ رجع إلى نفسه يلومها ويقول: مالي وللاعتراض بين الله وبين خلقه، من أنا ومن أكون، قال الراوي: فورخوا تلك الليلة فجاء الخبر بعد ذلك بأن الرجل مات فيها.

الثانية مما يحكيه الوالد عن والده ـ رحمهما الله تعالى ـ قال: كنت في محل من محلات ريدة الدين يسمى الميراد، فقال له أهل ذلك المحل: مرادنا نجعل لشيخك الشيخ محمد بامشموس شيئاً من النذر إذا حصلت لنا الرحمة وسقينا في هذه الليالي، قال: وكان الوالد يعرف من حال الشيخ أنه لا يميل إلى شيء من أمور الدنيا من مالها وجاهها، فامتنع من ذلك واعتذر إليهم بما يعرفه من حال الشيخ، قال: فكأن أحداً ضربه بعصا في طول ظهره، وسقط ما على رأسه من عمامة أو كوفية أو خودة، فعرف إذن الشيخ له في ذلك، فقبل منهم ما عرضوه عليه وقويت عنده الإشارة، وتحقق له أن ذلك مقدمة الكرامة، فطلب منهم تعيين النذر، وكان عندهم في المجلس أهل محلين آخرين، فعين أهل كل مكان قدراً من الطعام، فقال لهم: افعلوا قهوة، وعسى نتوضأ إن شاء الله من السيل، وكان في وقت الظهر والسماء مصحية، والوقت من حيث العادة لا القدرة عزيز القطر،

فشربوا تلك القهوة والسماء مصحية كذلك، فقال لهم: الوقت متسع، افعلوا قهوة أخرى، فبينما هم جلوس لانتظارها، إذا بسحابة أتت من وراء المجلس الذي هم فيه بحيث لا يرون ابتداء نشوها، فلم يشعروا إلا بالمطر عليهم، واتسعت تلك السحابة وأخذت ساعة لطيفة وأقلعت، فخرجوا يتوضئون من السيل، وبارك الله فسقى أرضهم، ولم يحصل في تلك الليلة سقي إلا في هذه المحلات الثلاث.

الثالثة: حكى الوالد عن والده ـ رحمهما الله ـ قال: سرق بعض أهل بلدة القرين حلي امرأته، وشيع في الناس أنه سرق حلي امرأته، وجعل يأتي إلى الشيخ يسأله أن يعمل له تحروسة أو يعينه بكرامة، وجعل يصيح ويستغيث هتافاً وتلبيساً، والشيخ يعرض عنه ويعذله بإظهار تفجعه، فلما كثر عليه قال لمن عنده: إنه لم يسرق الحلي وإنما هو أخذه ودفنه في المحل الفلاني، فراحوا إلى المكان الذي أخبرهم به الشيخ فوجدوه فيه وردوه للمرأة، وعلم الوالي العادل الشيخ حسن بن مطهر العمودي بهذه القضية بجراءة الرجل وفعله هذا مع زوجته، فشنع عليه الأمر حسماً لمادة هذا الفعل القبيح، فكتب الرجل للشيخ حسن كتاباً على لسان الشيخ محمد المذكور يشتمل على الشفاعة له، فلما وصل الكتاب إليه تعجب منه واستغرب الأمر، إذ كان من عادة الشيخ لا يكتب للشيخ حسن المذكور ولا يراسله، ولكنه يثني عليه ويقبل منه ما يرسله له، وقال فيه: إنه شاب من شباب الجنة، فأرسل الشيخ حسن للشيخ محمد بعض خواصه يسأله عن الكتاب هو الذي أرسله أم لا، فلما جاء الرسول إليه وسأله عن ذلك، قال له: الكتاب ليس مني وإنما أنت لا تخبر الشيخ حسن بذلك، فقال: يا سيدي كيف لا أخبره وهو أرسلني عنوة وهو مجتهد في البحث عن ذلك، فقال له: ارجع إلى بيتك ولا تأتيه إلا على عادتك، قال: فامتثل الرجل ورجع إلى بيته ولم يأتِ الشيخ حسن إلا على عادته فلم يسأله عن ذلك، وكأنه لم يرسله لشيء قط. وكراماته وكشوفاته وأخبار أحواله ونشر دعوته، وتفصيل ما كان عليه من كمال الاستقامة يحتاج إلى مؤلف كبير، ولم يزل على هذا الحال إلى أن انتقل إلى رحمة ذي الجلال، . .[1] ودفن إلى جنب سيدنا الحبيب عبد الرحمن البار كما قدمنا في ترجمته.

---

(١) كذا بياض بالأصل.

خاتمة

في شيء من معاني الأمانة لتعرف ما وصف به سيدنا وشيخنا الناظم ـ نفع الله به ـ أهل هذه الحضرة، وما تميزوا به على أهل الفطرة من القيام بالأمانة، بما شرعه الله ودانه، قال في (تفسير البغوي) على قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾.. الآية: قال أبو العالية: الأمانة هو ما أمروا به ونهوا عنه، وقال مجاهد: الأمانة الفرائض وحدود الدين: انتهى، وقال الشيخ الذوالي الزبيدي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (حديقة الأذهان شرح أحاديث الأخلاق الحسان): وأما الأمانة فهي معلقة بالإيمان، ومأخوذة من معنى الأمان، كما قال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»، وهي تحت العرش على ما روي في حديث عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث تحت العرش: القرآن له ظهر وبطن يحاج العباد، والرحم تقول: اللهم إني بك فلا أقطع، والأمانة تقول: اللهم إني بك فلا أخان، والنعمة تقول: اللهم إني بك فلا أكفر»، والأمانة مختصة بالإنسان، وحفظها أمر عظيم الشأن، إذ كانت قطب الأديان، وبتركها يظلم الإنسان ويجهل سائر الأركان، وهي الانقياد لأحكام الشريعة على اختلاف مقتضى الطبيعة، وإلا فقد قالتا: أتينا طائعين بالجبلة، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم على الجملة، ومصدقة قول الحسن رحمه الله: عرضت الأمانة على أهل السماوات والأرض من الملائكة بشرط ابتداء الحال بدواعي الشهوة وعلائق الإنسان، مقابلاً بجزاء المال من الملك الكبير ورفع الحجاب، فأبين باستكانة واستعطاف لا استهانة واستنكاف، وحملها آدم حرصا على العبودية تقدماً على البرية بعلو الهمة. وعن الجنيد رحمه الله تعالى: شغلته لذة خطاب العارض عن مشقة أبواب العروض، وعن بندار بن الحسين: كان لغيره زيادة قوة في المباني، وله زيادة قوة في المعاني، فعلم أن حمل أمانة الحبيب بالقلب الجري لا بالجسم القوي، والقلب يحمل ما لا يحمل البدن، قال الشاعر:

حملت جبالاً في الفؤاد وإنني ... لأعجز عن حمل القميص وأضعف

وفي التفسير: الأمانة كمال العقل بلوازمه من العهدة، وقيل: ودائع منافع الحواس، وحقيقتها: اتباع التدبير والتسليم لما جرت به المقادير، ومعناه: استعمال

الجوارح فيما خلقت له، وحفظها عن خلاف مقتضاها، وهي على الجملة ما لا يحل استعماله، ويحمد بالتسليم إلى المودع ماله، وفي الأمانة لأهل الإشارة معانٍ تدق عنها العبارة، نسأل الله الإعانة على حمل الأمانة، وان حافظها محفوظ بعون الله ولطفه، وله معقبات من بين يديه ومن خلفه، عاقبته محمودة، وأفعاله إلى الصلاح مردودة، وخيانتها تبار، ومغبتها بتات وخسار. انتهى من شرح الحديث السابع عشر، وقال أيضاً في شرح الحديث الثامن عشر: وأما حفظ الأمانة فمن الوفاء وأعمال الصفاء، إذ كانت من حلية الأشراف، وحفظها من أجل الأوصاف، فإنها للإيمان كالعمدة وبمنزلة القلب من الجسد، وهي له كالصحة وبنفيها تنتفي عنه الصحة، فذو الخيانة يسقم إيمانه، ولهذا سأل سلمان صحة في إيمان، إذ كان لا يطلب الصحة كالسقيم، والسقم في الباطن أمر عظيم، ولما عرضت الأمانة على السماوات والأرض فهبنها وأشفقن من ذلك العرض، لما كشف لهن من المشقة، وسترت عن آدم وكان هو المقصود بالعرض تلويحاً، ولو قصد بذلك نصاً ثم زاغ لكان كفراً صريحاً، لطفاً منه تعالى به، وتمييزاً لأعدائه من أحبابه، ليظفر أولئك بثوابه والآخرين بعقابه، فقبلها الإنسان مع قبول الإيمان، لما هاج في قلبه من محبة ربه وغيرة على حبه، فأسرع لذلك قبولاً حتى سمي ظلوماً جهولاً، وأحب الله إظهارها وهي مستورة في جوف درة منيرة حتى يقبلها الإنسان، وباشر قبولها باليد واللسان فكان القبول بالجنان، ثم جرى إلى سائر الأركان، فكل منها أمانة يعامل بالحفظ والصيانة، وأمانة الفرج من بينها مستورة، ولهذا كان كشفها بغير حق فاحشة منكورة، واستعمالها بغير وجه وبال، وأدب مرتكبها القتل والنكال، ومتعمد النظر إليها ملعون، وكاشفها عبثاً منزوع الحياء مفتون، وليس هذا النكال في غيره من الكبائر بحال، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان البطن والفرج، عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أول ما خلق الله من الإنسان فرجه، قال: هذه أمانة خبأتها عندك، فلا تسبل منها شيئاً إلا بحقها» أي لا تهمل، فالسمع والبصر أمانة، والفرج أمانة، والبطن أمانة، واللسان أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، وعلى الجملة فالمؤمن أمين الله على معرفته، حيث وضعها في قلبه ووكله بحراسته، فمتى قام بواجب حكمته وذب

الأعداء عن خزانته، صار أمينه على رعيته وعلى نفسه ودنياه وجميع خليقته، فحينئذ يتكفل الله برعايته، ويخصه باسم الإيمان وحقيقته، وبشرف هذا الوصف وعزته، قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه: وددت أني شعرة في صدر مؤمن، فثبت أن حفظ الجوارح أمانة، وبقدر ما يزيغ من الحفظ تكون الخيانة، فينقص في الدنيا ضوء الإيمان، وفي الآخرة تلحقه خفة الميزان، وبتمامها يلقى الأمان يوم العرض على الملك الديان، وفي كل موطن يلقى الله تعالى بقلب موقن، عند معالجة سكرات الموت وعند فتاني القبر، ويوم المنشر وفي ساعات المحشر، وفي الموقف وعند الصراط، وعند الوزن وعند قراءة الصحيفة، وعند العرض الأكبر، حتى يوافي دار الأمان، ويتخلص من تلك الأهوال والهوان، ولعظم أمرها وفخامة قدرها كانت أول ما يرفع من الناس، عن خارجة ابن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقى من دينهم الصلاة، ورب مصلٍّ لا خلاق له عند الله»، وعن الشعبي رحمه الله: أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾. انتهى من الكتاب المذكور مع حذف يسير وقد قلت هذه الأبيات متوسلاً إلى الله بأرباب الأمانات، سائلاً من فضله نيل السعادات:

إذا ضقت ذرعا فاستعن بالإنابة ... وعوِّل على مولاك في كل حاجة
وسر نحو باب الجود مفتقراً له ... مع الذل والإخبات وصف العبودة
وقم داعياً باكٍ خشوعاً منادياً ... لخالقك الرحمن جنح الدُّجنَّة
فإنا ندبنا للدعاء وقد أتى ... بأن الدعاء لا شك مخ العبادة
فكن مستغيثاً نائلاً فيض فضله ... إليه به والحضرة الأحمديّة
فإني به أرجوه في كل مطلب ... وبالشافع المقبول عين العناية
وبالصحب والآل الكرام ومن لهم ... يوالي لذات الله أهل الولاية
أخص لسكان الغوير ومن لهم ... بقلبي ود ساكن في السريرة
أولئك أقوام زهوا وتجاوروا ... بجنات رضوان بشعب غوالة

وقد كان منهم شيخنا وإمامنا وفيهم رقى أعلى مقام النيابة
فلله من حبر منيب وعارف يجلّي محياه قتام الضلالة
عمر من به أرض الحجاز تشرفت وبان بها من سره رُبَّ آية
هو البار يا ذا البر غثني بجاهه وبرّ لأقسامي به واعلُ همتي
بوالده ذاك المنيب لربه فيا عبد الرحمن الولي قم بغارة
وبالشيخ عين القطر قطب رحائه بل الفرد في الأكوان رأس العصابة
وما قاله الحداد فيه تحققت فراسته أكرم بها من إشارة
فصار حبيباً للإله وخلقه يناصحهم لله في كل لحظة
به وبوالده المنير الذي غدا له من مقام الوصل أمكن رتبة
وبالسيد الصوفي الصفي العارف الولي
جميل المحيا أحيي قلبي وثبِّت
وبالشيخ بامشموس إنسان وقته محمد المشهور بين البرية
وشيخ وعلوي وطه وهاشم فلله ذاك الربع ربع الأحبة
عليهم سلام الله من حضرة الرضا وحياهم الرحمن أزكى تحيَّة
ووالاهم بالأنس في مقعد الهنا بجنة فردوس الرياض العلية
وألحقنا من فضله منَّة بهم وكل أخ في الله صافي السريرة
وأولادنا والوالدين جميعهم وسائر أهل الدين من خير أمة
وأزكى صلاة الله ثم سلامه على الشافع المقبول يوم القيامة
وآل وصحب ما استنار الضّياء وما تلألأ نور عاكف بغوالة

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وكل أهل القرب والولاية أهل المجاهدات والعناية

أتى في هذا البيت بتوسل عام، يجمع لجميع خواص الأنام، من إنس وجن وملك، ممن سلك فملك أو ملك فسلك، وأهل القرب البالغون النهاية من كل

الأحوال والمقامات، والباذلون أنفسهم للاستنان بجميع القربات، قال الشريف الجرجاني رحمه الله: القرب القيام بالطاعة، والقرب المصطلح هو قرب العبد من الله تعالى، فكل ما تعطيه السعادة فإنه من حيث دلالة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ قرب عام، سواء كان العبد سعيداً أو شقياً. انتهى كلامه، ومراده بهذا القرب العام قرب العلم، يعني أنه سبحانه وتعالى قريب من كل أحد بالعلم والإحاطة، والقرب الخاص هو مقام الإحسان المفسّر بقوله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، والمفسر جزاؤه بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١]، ولما كان هذا القرب يراد به ما مر من نحو قرب العبد من ربه بكثرة الطاعات وترك ما للنفس من شهوات، لاقرب المسافة، قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، ونزل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١]، قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» إشارة وبيان إلى أنه تعالى متعالي، منزه مقدس عن قرب الأجسام، الذي قد يشكل على القاصرين معنى القرب في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩]، وفي قوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، فالقرب هذا قرب معاني وأذواق لا يفهم معناه، ولا يشرب شرابه إلا العارفون المتصفون بمقام القرب ذوقاً وتعلقاً وتحققاً، قال في العوارف: فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب، لأنه يسجد ويطوي بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون، ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب، قال بعضهم: إني لأجد الحضور فأقول: يا الله أو يا رب، فأجد ذلك أثقل علي من الجبال، قيل: ولم؟، قال: لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليساً ينادي جليسه، وإنما هي إشارات وملاحظات ومنافاة وملاطفات، وهذا الذي وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب، ولكنه مشعر بمحو ومؤذن بسكر، يكون ذلك لمن غابت نفسه في نور روحه، لغلبة سكره وقلة محوه، فإذا صحا وأفاق يتخلص الروح من النفس والنفس من الروح، ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه فيقول: يا الله ويا رب، بلسان النفس المطمئنة العائدة إلى مقام حاجاتها ومحل عبوديتها، والروح يستقل بفتوحه بكمال الحال عن الأقوال، وهذا أتم وأقرب من الأول، لأنه في حق القرب باستقلال الروح بالفتوح،

وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى حكم الافتقار، وحظ القرب لا يزال يتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس، وقال الجنيد قدس الله روحه: إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب عباده منه، فانظر ماذا يقرب من قلبك، وقال ذو النون: ما ازداد أحد من الله قرباً إلا ازداد هيبة.

أقوالهم في صلاة أهل القرب، قال في بابها من العوارف: قال أبو نصر السراج: سمعت ابن سالم يقول: النية بالله لله ومن الله، والآفات التي تدخل في صلاة العبد بعد النية من العدو، ونصيب العدو وإن كثر لا يوازن بالنية، التي هي لله وبالله وإن قل، وسئل أبو سعيد الخراز رحمه الله: كيف الدخول في الصلاة؟ فقال: هو أن تقبل على الله كإقبالك عليه يوم القيامة، ووقوفك بين يدي الله ليس بينك وبينه ترجمان، وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدي من أنت واقف، فإنه الملك العظيم، وقيل لبعض العارفين: كيف تكبر التكبيرة الأولى؟ فقال: ينبغي إذا قلت: الله أكبر، يكون مصحوبك في الله التعظيم مع الألف، والهيبة مع اللام، والمراقبة والفرق مع الهاء، واعلم أن من الناس من إذا قال: الله أكبر، غاب في مطالعة العظمة والكبرياء وامتلأ باطنه نوراً، وصار الكون بأسره في فضاء شرح صدره كخردلة بأرض فلاة، ثم يلقي الخردلة فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس، وما يتخايل في الباطن هو من الكون الذي صار بمثابة الخردلة وألقيت، فكيف تزاحم الوسوسة مثل هذا العبد!، قال بعضهم: ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها غير ما أقول، وقيل لعامر ابن عبد الله: هل تجد في الصلاة شيئاً من أمور الدنيا فقال: لئن تختلف عليَّ الأَسِنَة أحب إليَّ من أن أجد في الصلاة ما تجدون، وقيل لبعضهم: هل تحدث نفسك في الصلاة شيئاً من أمور الدنيا؟، فقال: لا، لا في الصلاة ولا في غيرها، ومن الناس من إذا أقبل على الله تعالى في صلاته يتحقق بمعنى الإنابة، لأن الله تعالى قدم الإنابة فقال تعالى: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فينيب إلى الله، ويتقي الله بالتبري عما سواه، ويقيم الصلاة بصدر منشرح بالإسلام منفسح بنور الإنعام، فيخرج الكلمة من القرآن من لسانه ويسمعها بقلبه، فتقع الكلمة في فضاء قلب ليس فيه غيرها، فيتملكها القلب بحسن الفهم ولذاذة الإصغاء، وينشرها بحلاوة الاستماع وكمال

الوعي،ويدرك من لطيف معناها وشريف فحواها معانٍ تلطف عن تفصيل الفكر وتتشكل بخفي الذكر، ويصير الظاهر من معاني القرآن قوت النفس، والنفس المطمئنة متعوضة بمعاني القرآن عن حديثها، لكونها معاني ظاهرة متوجهة إلى عالم الحكمة والشهادة، تقرب مناسبتها من النفس المكونة لإقامة رسم الحكمة، ومعاني القرآن الباطنة التي يكاشف بها من الملكوت قوت القلوب، ويتخلص الروح المقدس إلى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم، وبمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق في لجج الأشواق، كما نقل عن مسلم بن يسار ـ رضي الله عنه ـ أنه صلى ذات يوم في مسجد البصرة، فوقعت اسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق وهو واقف في الصلاة ولم يعلم بذلك، وقيل: كان بعضهم لا يتهيأ له حفظ العدد من كمال استغراقه، وكان يجلس واحداً من أصحابه يعدُّ عليه كم ركعة صلى، وقيل: للصلاة أربع شعب: حضور القالب في المحراب، وشهود العقل عند الملك الوهاب، وخشوع القلب بلا ارتياب، وخضوع الأركان بلا ارتقاب، لأن عند حضور القلب رفع الحجاب، وعند شهود العقل رفع القباب، وعند خضوع النفس فتح الأبواب، وعند حضور الأركان وجود الثواب، فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصلٍ لاهي، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصلٍ ساهي، ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصلٍ خاطي، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فو مصلٍ جافي، ومن أتاها كما وصف فهو مصلٍ وافي، وروي عن أبي عمرو ابن العلا، أنه قدم للإمامة فقال: لا أصلح، فلما ألحوا عليه كبر فغشي عليه، فقدموا إماماً آخر، فلما أفاق سئل فقال: لما قلت: استووا هتف بي هاتف: هل استويت أنت مع الله قط!، وقال أبو بكر الوراق رضي الله عنه: ربما أصلي ركعتين فانصرف منهما، وأنا أستحيي من الله حياء رجل انصرف من الزنا، قوله لعظيم الأدب عنده، ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب، وقيل لموسى بن جعفر: إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بمرورهم بين يديك، قال: إن الذي أصلي له أقرب إليَّ من الذي يمشي بين يدي، وقيل: إن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل ، وروت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل، حتى

كان يسمع في بعض سكك المدينة، وسئل الجنيد ما فريضة الصلاة؟ قال: قطع العلائق وجمع الهم والحضور بين يدي الله تعالى، وقال الحسن: ماذا يعز عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك!، وقيل: أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام، وقال: إذا دخلت الصلاة فهب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدموع، فإني قريب، وقيل: إن محمد بن يوسف الفرغاني رأى حاتم الأصم يعظ الناس، فقال: يا حاتم أراك تعظ الناس فتحسن أن تصلي؟، قال: نعم، قال: كيف تصلي؟ قال: أقوم بالأمر وأمشي بالخشية، وأدخل بالهيبة وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالتنزيل وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع وأجلس للتشهد بالتمام، وأسلم على السنة، وأسلمها إلى ربي، وأحفظها أيام حياتي، وأرجع باللوم على نفسي، وأخاف أن لا تقبل مني وأرجو أن تقبل مني، وأنا بين الخوف والرجاء، وأشكر من علمني، وأعلمها من سألها مني، وأحمد ربي إذ هداني، فقال محمد بن يوسف: مثلك يصلح أن يكون واعظاً، قلت: وقد شرح هذه المقالة الشريف الإمام محمد بن الحسن في كتابه مجمع الأحباب شرحاً عجيباً، وتكلم عليها كلاماً غريباً، جعله في كراريس من ترجمة حاتم الأصم المذكور، ثم قال في (العوارف): فالقلوب الصافية التي كمل أدبها لكمال أدب قوالبها تصير سماوية، تدخل في التكبير في السماء كما تدخل في السماء، والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين، فالقلب السماوي لا سبيل للشيطان إليه، فتبقى هواجس نفسانية عند ذلك لا تنقطع بالتحصن كانقطاع تصرف الشياطين، والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب وتعرج في طبقات السماوات، وفي كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شيء من ظلمة النفس، وبقدر ذلك يقل الهاجس إلى أن يتجاوز السماوات، وتقف النفس أمام العرش، فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش، وتندرج ظلمات النفس في نور القلب اندراج الليل في النهار، وتتأدى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب، فهذه أقوال في صلاة أهل القرب من العوارف، وفيها زيادة من حيث الوصف والتشويق، وأما الوصول إلى مرتبة الذوق، فما يبلغها إلا من طوى حجب الشيطان والهوى، كما ذكر الشيخ نفع الله به، ولذا قال الإمام الشعراوي ـ نفع الله به ـ في الشيخ ياقوت العرشي: إنه

سمي بذلك لكون قلبه . .[١] بالعرش، وقد بلغنا عن سيدنا الشيخ عبد الله الحداد والشيخ علي باراس قدس الله روحهما، أنهما تذاكرا في صلاة أهل القرب وكان الشيخ الحسين بن عمر العطاس حاضراً عندهما، قال: فأجمع رأيهما على أن من صلّى صلاة أهل القرب المذكورة في العوارف كفته الأبد، يعني أن صاحبها يكون دائم الحضور مع الله تعالى، لا أنها تسقط عنه إذ لا قائل به، كما بينا ذلك عند قول سيدنا الناظم قدس الله روحه: (ونظمت أسماء أرباب الوصول)، واعلم أن مقام القرب لا يحصل إلا بكمال الاتباع له ﷺ، المأمور بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾ [العلق: ١٩]، وقد جعلت قرة عينه في الصلاة، فمن أكثر منها مع مراعاة هذه الآداب أثمرت له مقام الاقتراب، روي عن أبي الخير الأقطع ـ رحمه الله ـ أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله أوصني، قال: «يا أبا الخير عليك بالصلاة، فإني استوصيت ربي فأوصاني بالصلاة، وقال لي: أقرب ما أكون منك وأنت تصلي لي»، وروى مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي خادم رسول الله ﷺ قال: «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال: سلني فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك، قال: هو ذاك، قال: فأعني على ذلك بكثرة السجود»، قال الإمام الطيبي ـ رحمه الله ـ في شرح المشكاة في الكلام على هذا الحديث: قال له: (أو غير ذلك) أي سل أهون من ذلك، فقال: (هو ذاك)، علم ﷺ أنه مصمم على عزمه غير مستبعد ذلك، أجاب ﷺ بقوله: (أعني. .) إلى آخره، وفيه أن مرافقة النبي ﷺ في الجنة من الدرجات العالية، التي لا مطمع في الوصول إليها إلا بحصول الزلفى عند الله تعالى في الدنيا بكثرة السجود، المؤمأ إليه بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾، فإن كل سجدة يسجدها العبد رفع درجة كما سيرد في الحديث الآتي، فلا يزال العبد يترقى بالمداومة على السجود درجة فدرجة حتى يفوز بالقدح من القرب إلى الله تعالى، فينال به مرافقة حبيبه ـ صلوات الله عليه ـ في تلك الدرجات، انظر أيها المتأمل في هذه الشريطة وارتباط القربتين، لتقف على سر دقيق، فإن من أراد مرافقة الرسول ﷺ لا يناله إلا بالقرب من الله تعالى، ومن رام

---

(١) كذا بياض بالأصل.

قرب الله تعالى لم ينله إلا بقرب حبيب الله. انتهى، وبه يتضح ما أشرنا إليه، وسيأتي مزيد بيان في حكم المتابعة له ﷺ عند قول سيدنا الناظم رضي الله عنه:

يا رب وارزقني صلاح النية والاقتداء بأكمل البرية

ووصفه ـ قدس الله روحه ـ في هذا البيت أهل القرب والولاية بأنهم أهل المجاهدات والعناية، أي أن العناية ملازمة لهم في مجاهداتهم، كما قال القائل:

إذا كان عون الله للمرء لم يكن عسيراً من الآمال إلا ميَّسرا

وقال آخر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

والمجاهدة هي أصل الطريق، قال الشيخ الحبيب عبد الله الحداد نفع الله به: طرق التصوف وإن تعددت فهي طريقة واحدة، وهي مجاهدة النفس والخروج مماً تدعو إليه، وهذا أمر عسر، أي أنه عسر إلا على من لوحظ بعين العناية وأعين بالتوفيق، ولما كان زماننا هذا سماؤه مصحرة عن سحب العناية، قلت فيه طريق المجاهدة، كما قال قدس الله روحه: إنا لم نحمل الناس على طريقة المقربين، ولم نكلف أن نحملهم عليها، كثيراً إن حملناهم على طريقة أصحاب اليمين، لأن الناس كلما بعدوا عن زمان النبوة ينكصون قليلاً قليلاً، ينكصون أولاً عن مقام الإحسان ثم عن مقام الإيمان، ثم هم في هذا الزمان أكثرهم يخرج عن دائرة الإسلام والعياذ بالله، حتى قال بعض الشطاحين ـ لما قيل له: ادع للمسلمين ـ أخاف إن ما عاد أحد من المسلمين، وهذا كلام في غاية الخطر، لأن أثر الإسلام ظاهر عليهم، وقد قال الإمام أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه: إدخال ألف كافر في الإسلام بشبهة إسلام واحدة، أسلم من تكفير مسلم واحد بألف شبهة كفر. انتهى.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وغيرهم من علماء الأمة أهل الديانات وعظم الهمة

لما توسل إلى الله تعالى في البيت الذي قبله بأهل القرب والولاية وهم علماء الباطن، عقبه بالتوسل بعلماء الظاهر الذين أوضحوا الدين ونصحوا للمسلمين، ليجمع في توسله بين الفريقين، ويشير إلى عظم مقام كلا أهل الطريقين، وهم

ورثة الأنبياء فيما يتعلق بالباطن والظاهر، وفي تقديمه للفريق الأول في النظم إيماء إلى ما اعتمده أكثر الصوفية، وقرره ونقله القطب عبد الله بن أسعد اليافعي ـ رضي الله عنه ـ في روضه: أن علماء الباطن أفضل من علماء الظاهر، وقد صنف الشيخ محمد الغمري ـ نفع الله به ـ رسالة في القول بتفضيل علماء الباطن على علماء الظاهر سماها: (صراط العدل المبين في فضيلة العلماء العارفين على الفقهاء والأصوليين)، وممن عدَّ من علماء الظاهر: الأئمة الأربعة والحجة الغزالي والقطب النووي والإمام أبي إسحاق الشيرازي والإسفراييني وإمام الحرمين وأبوه الإمام الجويني وغير هؤلاء ممن يعسر عدهم، وكانوا أئمة الظاهر والباطن، وبعضهم بلغ مقام الصديقية الكبرى، ولله در الإمام اليافعي ـ نفع الله به ـ حيث يقول في مدحهم هذه القصيدة المسماة (عقد الدر الأسني على جيد الحسنى، في مدح العلماء العاملين السُنِّيَّة أهل المناقب العالية السَنِية) رضي الله تعالى عنهم، قال قدس الله روحه:

بدور الهدى وُرَّاث علم نبوة ... أناروا دجى الظلما بنور المعالم
فكم فتقوا رتقاً بغامض مشكل ... وكم رتقوا فتكاً بطعن مخاصم
عن السنة الغرّا يذبون بالقنا ... وبيض من العلم الشريف صوارم
وقد حملوا أعلام علم وألبسوا ... لباس التقى حبل الرضا في الملاحم
فولَّى عداهم من أَسِنَّةِ سُنَّةٍ ... بجيش هدى جيش الضلالات هازم
كمثل الإمام الشافعي ومالك ... وأحمد والنعمان أهل المكارم
أئمة علم يجتلون بمجده ... بيض العلا الغيد الملاح النواعم
وأصحابهم غرٌ نجاب لها اجتلوا ... وقد ضحكت منها ملاح المباسم
وغنت بغزالي العلا وتغزلت ... به حجة الإسلام نور العوالم
ونعم أبو إسحاق شيخاً مبجلاً ... إماماً جلا التنبيه نفع الملازم
وذو المجد محيي سنة ذو إفادة ... أجاد النواوي الحبر أكرم بعالم
ثلاثتهم أصحاب زهد وعفة ... لهم سيرة حسناء يا أم سالم
فغني بهم جهراً ونوحي بحبّهم ... ولا تسمعي عذلاً ولا لوم لائم

فمن ذا الذي في الخلق يسلم عرضه　　من الخلق والرحمن ليس بسالم
تصانيفهم حسنا عليها سعادة　　بها النفع في ذا العصر والمتقادم
مباركة والكل منهم مبارك　　إمام نجيب عابد غير سائم
لهم ورع يحكى عظيم وحلية　　تحلوا بها يحلو بها نظم ناظم
كعقد من الدر المنظم قدرها　　على جيد حسنا قد سبت رب هائم
لذكر الأحبّا في فؤادي حلاوة　　محبتهم شيبت بلحمي مع دمي
كشيخي الفقيه العالم الصالح الرّضا　　محمد البصال أكرم بخاتم

وقال القطب الأستاذ الشيخ عبد الله الحداد ـ قدس الله روحه ـ بعد أن ذكر كثيراً من الفريقين، كزين العابدين والباقر والصادق، والحسن البصري والثوري والبناني، وغيرهم من الأئمة الأربعة:

تلك الأئمة والدعاة إلى الهدى　　والحق من أهل المقام الرابع

قال شارحها الإمام أحمد بن زين الحبشي ـ قدس الله روحه ـ في أثناء شرح هذا البيت: فهم الهداة الهادين المهتدين السالكين طريق الهدى والحق، الداعين إلى ذلك بأعمالهم وأقوالهم وسائر أحوالهم، المتصفين بما يدعون إليه من الهدى والحق، بل هم بأعلى مقامات الدين ومنازل اليقين، وإليه أشار الناظم بقوله: (من أهل المقام الرابع)، أي الدرجة العالية من العلم بالله والمعرفة به، والعبادة له والخوف منه، والإخلاص والصدق في عبوديته وتوحيده، بهم يحفظ الله حجته، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك أولياء الله من خلقه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه، بهذا وصفهم وأمثالهم أمير المؤمنين وإمام المتقين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ثم قال: واشوقاه إلى رؤيتهم، والمقام الرابع في التوحيد مقام وراء لباب التوحيد، ولباب التوحيد أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط، وأن تعبده عبادة تفرده بها، فمن اتبع هواه أو سخط عن الخلق خرج عنه، وهو من مقامات الصديقين،والمقام الرابع درجة فوق هذا، وهذان المقامان

من مقامات صفوة الله من عباده، وموضع نظره معادن أنواره وخزائن أسراره، قال شيخنا الناظم ـ نفع الله به ـ في كتاب (الدعوة): ومنهم وعنهم تؤخذ أسرار الدين وحقائقه، من الإخلاص والصدق والتوكل وأشباهها من مقامات الدين ودرجات اليقين، فمنهم من جمع الله له بين الباطن والظاهر، ونفع به الخاص والعام، والجمع بين الشريعة والحقيقة والطريقة، مثل الإمام زين العابدين وولده الباقر وولده الصادق، والخليفة العادل عمر بن عبد العزيز والحسن البصري، ومثل الحارث المحاسبي والجنيد، ومثل صاحب (الرسالة) القشيري وحجة الإسلام الغزالي، والشيخ السيد محيي الدين عبد القادر الجيلاني وصاحب (العوارف)، ومثل سيدنا شيخ الشيوخ السيد الفقيه محمد بن علي التريمي، والشيخ المعظم السقاف وولده القدوة المحضار، والقطب عبد الله بن أبي بكر العيدروس وأخيه الجامع علي بن أبي بكر، وغيرهم من السادة الأشراف الحسينيين آل أبي علوي كثير يطول عددهم. انتهى من كتاب الدعوة، قال في (شرح العينية): وكشيخنا ومولانا شيخ الإسلام عبد الله بن علوي الحداد صاحب النظم، نفع الله ببركاتهم وأمدنا بإمدادهم وغمرنا بأسرارهم، وأدخلنا في شفاعتهم ونفاعتهم دنيا وأخرى، واللائذين بنا في خير وعافية. انتهى من (شرح العينية)، واعلم أن هؤلاء المذكورين هم المتحققون بعلوم الظاهر والباطن، وإنما لقيامهم بالخلافة الظاهرة وإرشادهم للأمة، ودعاهم إلى الله تعالى الخاص والعام، وبيان أحكام الإسلام، كانت صولة العلم الظاهر وظهور شعاره أغلب عليهم، ولهم من علم الباطن النصيب الوافي، غير أنه مستتر بحجاب لطيف من سر علم الظاهر، الذي وضع لإقامة الحقوق والحدود والرسوم التي يترتب عليها مظاهر شعائر الدين، ويقع بها الموقع الذي يتحقق به المعنى الذي في صيغة الجمع في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ونفعهم أعم، وترتب الثواب الذي عليه أعظم، كما في قصة أويس القرني ـ قدس الله سره ـ مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهما، حيث قالا له: جزاك الله خيراً عن نفسك، قال لهما: وأنتما جزاكما الله خيراً عن المسلمين، وما ورد في أنه يشفع في مثل ربيعة ومضر فيه تنبيه، لئلا يتوهم أنه مع وقوفه عند خاصة نفسه، وسعيه في تخليصها في هذه الدار، وعدم

الشهرة والجاه عند أهلها واحتقارهم له، أنه يكون كذلك في الآخرة، فنبه ﷺ أن له في الدار الآخرة المنزلة عند الله تعالى والجاه العظيم والشفاعة في مثل ربيعة ومضر، ولأولئك القائمين بأمر الظاهر شفاعات عظيمة ونفاعات جسيمة، وثواب جزيل يترتب على حسب توارث صدقة علمهم الجارية، وتسلسله في الآخذين عنهم إلى يوم الدين، وإنما كان علم أهل الباطن أفضل وطريقهم أشرف، لتعلق علمهم بواردات الحق بغير نظر إلى التوسع في علوم الظاهر، بل علمهم هو مأخوذ من حقيقة: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، ولما كان الحق متولي هدايتهم ورعايتهم، كانت طريقتهم أخص وعلمهم أصفى وشرابهم أهنى، ونور بصيرتهم وسريان كشفهم أنفذ في حقائق علوم المعارف، وذلك لتوجههم إلى وجهة واحدة وهي وجه الحق جل وعلا، غير ملتفتين إلى أهل ولا مال ولا دار ولا سكن ولا دنيا، بل ولا آخرة، فدوام شهودهم مع معبودهم، فكان علمهم لا يحجبهم عن دوام الشهود، ولا يصدهم عن اتصال المحاضرة للمعبود، وبرهان ذلك يشهد له ما يذكر من الخلاف بين العلماء في أفضلية كل نبي على رسالته، فيقاس ما هنا عليه، ويترجح لنا هنا ما اعتمده الفقهاء من أن الرسالة أفضل لأنها تتعلق بالحق والخلق، وقول القائلين بأفضلية النبوة لتعلقها بالحق فقط دليل للقائلين بأفضلية علماء الباطن، والمرجع في ذلك إلى نص الشارع إن وجد وإلا فإلى نص القواعد الشرعية،ولا مدخل للعقل في هذا المبحث إلا من جانب طور العلم، وفي كل من الفريقين خاصية، وكل يرى ما هو فيه هو الأعلى الأفضل من حيث شهود منة الحق وفرحه بعطائه، والحق أن كل علم يمنع عن شهود الحق فهو حجاب يجب محوه عن القلب، كما قال العارف السودي مشيراً إلى هذا المعنى:

وامحُ العلوم وما قد كنت تكتبه   فمحوه واجب من كل مكتتب

ومما يشهد هنا لتفضيل علماء الباطن لتلقيهم عن الحق، ما ذكره الإمام اليافعي رحمه الله في روضه من المقالات والحكايات الصحيحة المقبولة، قال قدس الله روحه: حكي عن الإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ أنه كان عند الإمام الشافعي رحمه الله، فجاء شيبان الراعي رضي الله عنه، فقال أحمد للشافعي ـ

يا أبا عبد الله أريد أن أنبهه على نقصان علمه ليشتغل بتحصيل بعض العلوم، فقال له الشافعي: لا تفعل، فلم يقنع، فقال لشيبان: ما تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة ولا يدري أي صلاة نسيها، ما الواجب عليه يا شيبان؟ فقال: يا أحمد هذا قلب غفل عن الله، فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعده، فغشي على أحمد، وفي رواية أخرى: فالواجب أن يؤدب بإعادة الخمس، فلما أفاق الإمام أحمد قال له الإمام الشافعي: ألم أقل لك لا تحرك هذا، وفي رواية أخرى أنه سأله عن الزكاة أيضاً في كم تجب، قال شيبان: أما على مذهبكم تجب في الإبل في كذا وكذا، وفي البقر في كذا وكذا، وفي الغنم في كذا وكذا، وفي الفضة والذهب في كذا وكذا، وفي الزروع والثمار في كذا وكذا، وأما على مذهبي فالكل له، وروي أن فقيهاً من أكابر الفقهاء وكانت حلقته بجنب حلقة الشيخ الكبير العارف بالله تعالى أبي بكر الشبلي في جامع المنصور، وكان يقال لذلك الفقيه أبو عمران، وكان تتعطل عليه وعلى أصحابه حلقتهم بكلام الشبلي، فسأل أصحاب أبي عمران الشبلي يوماً عن مسألة في الحيض وقصدوا إخجاله، فذكر مقالات الناس في تلك المسألة والخلاف فيها، فقام أبو عمران فقبل رأس الشبلي، وقال: يا أبا بكر استفدت في هذه المسألة عشر مقالات لم أسمعها، وكان عندي من جملة ما قلته ثلاثة أقاويل، وقيل لعبد الله بن سعيد ابن كلاب: أنت تتكلم على كلام كل أحد، وها هنا رجل يقال له: الجنيد، فانظر هل يعترض عليه، فحضر حلقته فسأل الجنيد عن التوحيد، فأجابه فتحير عبد الله، وقال: أعد علي ما قلت، فأعاده ولكن لا بتلك العبارة، فقال عبد الله: هذا شيء لم أحفظه فأعده علي مرة أخرى، فأعاده بعبارة أخرى، فقال عبد الله: ليس يمكنني حفظ ما تقول فأمله علينا، فقال: إن كنت أجريه فأنا أمليه، فقام عبد الله وقال بفضله واعترف بعلو شأنه، وأنشد بعضهم:

أنعي إليك قلوباً طالما هطلت سحائب الوحي فيها أبحر الحكم

وقيل لأبي القاسم الجنيد رحمه الله: ممن استفدت هذه العلوم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأشار إلى درجة في داره،

وقال رضي الله عنه: لو علمت أن لله علما تحت أديم الأرض أشرف من هذا العلم الذي نتكلم به مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه ولقصدته، وقال أيضاً: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات، ولما سعي بالصوفية إلى بعض الخلفاء أمر بضرب رقابهم، فأما الجنيد فتستر بالفقه فكان يفتي على مذهب أبي ثور، وأما السحام والرقام والنوري فبقض عليهم وبسط النطع لضرب رقابهم، فتقدم الشيخ العارف بالله أبو الحسين النوري، فقال السياف: أتدري إلى ما تبادر؟ فقال: نعم، فقال: وما يعجلك؟، فقال: أوثر أصحابي بحياة ساعة، فتحير السياف وأنهى الأمر إلى الخليفة فعجب الخليفة ومن عنده من ذلك، وكان القاضي عنده فاستأذن الخليفة أن يذهب إليهم ليبحث معهم ويختبر حالهم، فأذن له الخليفة في ذلك، فأتاهم فقال: يخرج إلي أحد منكم حتى أبحث معه، فخرج إليه أبو الحسين النوري، فألقى عليه القاضي مسائل فقهية، فالتفت عن يمينه ثم التفت عن يساره، ثم أطرق ساعة، ثم أجابه على الكل، ثم أخذ يقول: وبعد فإن لله تعالى عباداً إذا قاموا قاموا بالله وإذا نطقوا نطقوا لله، وسرد كلاماً أبكى القاضي، ثم سأله القاضي عن التفاته، فقال: سألتني عن المسائل ولا أعلم لها جواباً، فسألت عنها صاحب اليمين، فقال: لا علم لي، ثم سألت صاحب الشمال فقال: لا علم لي، فسألت قلبي فأخبرني قلبي عن ربي فأجبتك بذلك، فأرسل القاضي إلى الخليفة: ان كان هؤلاء زنادقة فليس على وجه الأرض مسلم، قال وهذه القصيدة راح الإسكار، في اجتلاء عرائس الأنوار، من بيض المعارف الأبكار، الفاتنات للنظار من خلف الأستار، الكاشفات الخمار للأولياء الأخيار، رضي الله تعالى عنهم:

ملوك البرايا ليس يشقى جليسهم ... لهم بيض رايات العلا في المواقف
حبوا وَحُضُوا خصوا اصطفوا ثم قربوا ... وولوا وأعلوا فوق كل الطوائف
كما جاهدوا للنفس في معرك الهوى ... وجادوا بها مهراً لبيض المعارف
أنيلوا المنى صافي الهنا عندما اجتلى ... بسمر القنا بيض العلا كل عارف
عرائس أنوار بدا من بهائها ... لمن يجتليها كالبروق الخواطف

شموس بدت من مشرق الحسن والبها بنـــور جمـــال للمحبيـــن شـــاغــف
محـاسنهـا خلـف الستـور فـواتـن فكيـف بهـا عنـد اجتـلاء لكـاشـف
شموس الهدى في حضرة القدس تجتلى شمـوس البهـا أشـراف أكفـا شـرائـف
سكـارى ولـم يسقـوا مـداماً وإنمـا سقوا حب حسن جل عن وصف واصف
تراهم غداً بالحب سكرى وغيرهم سكـارى بـأهـوال عظـام المخـاوف
فسكر عقارى الهول يرحل بعدما يشيـب بـه الـولـدان مـن كـل شـارف
جمـال محيـا حبـه مـن يشمهـا تميـل بـه قبـل ارتشـاف المعـارف
فهـم بيـن مشتـاق وبـاك وضـاحـكٍ ســروراً وصــراخ وراجٍ وخـــائـف
لذكر اللقا والهجر والوصل والجفا وقـرب وبعـد نـاشـراً جمـع لاقـف
وحلـت بـوادي طـور قلـب مقـدس خيـام نـديـم بـالمعـانـي اللطـائـف
معـارف تهـدي فـي بهـاهـا بسـادة هــداة إليهـا بـالسلـوك عـوارف
بنـور الهـدى بحـر المعـارف والنـدا جلا الصدا شيخي الطواشي المكاشف

ولما قدم سيدنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ التوطئة بالتوسل بالنبي ﷺ وآله وأصحابه والتابعين لهم عموماً وخصوصاً، إذ هم الوسائط بين الله وبين عباده، ارتفع إلى مخاطبة حضرة الربوبية بعد الدخول إليها بواسطة أهل الخصوصية، فقال رضي الله تعالى عنه وقدس روحه:

يسّـــر لنـــا أمـــورنـــا جميعـــا وهـــب لنـــا فتحـــاً سَنِـــيْ ســـريعـــا

أي سهل لنا أمورنا جميعها الدينية والدنيوية والأخروية بالإعانة والتوفيق، إذ أنت الميسّر لكل عسير، وهب لنا فتحاً يوضح ما استغلق من مبهمات العلوم والمعارف والرقائق واللطائف، قال الشيخ عبد اللطيف المناوي في كتابه: التوقيف في معنى الفتح المبين: هو ما يفتح على العبد في مقام الولاية وتجليات الأسماء الإلهية، الفتح المطلق هو أعلى الفتوحات وأكملها، وهو ما يفتح عليه من تجلي الذات الأحدية، والاستغراق في عين الجمع بفناء الرسوم الخلقية. انتهى، وقال الإمام الجرجاني رحمه الله: الفتوح عبارة عن حصول شيء مما لم يتوقع ذلك

منه. انتهى، وبهذا المعنى جاء القرآن قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فمفاتيح غيبه ظاهرة ومستورة، وهي غير مخصوصة ولا محصورة، وهي آثار اسمه الفتاح، وقد قيل فيه: إنه الذي يفتح خزائن الرحمة على أصناف البرية، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾، وهذا فتح عام، والفتح الخاص هو ما قاله بعضهم: الفتاح الذي يفتح على النفوس باب توفيقه، وعلى الأسرار باب تحقيقه، قال الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله: واعلم أنه يفتح للنفوس بركات التوفيق، وللقلوب زوائد التحقيق، فبتوفيقه تتزين النفوس بالمجاهدات، وبتحقيقه تتزين القلوب بالمشاهدات، ومن آداب من علم أنه الفتاح، أن يكون حسن الانتظار لنيل كرمه بوجود لطفه سبحانه، دائم الترقب لحصول فضله، يستديم التطلع لنيل كرمه، تاركاً للاستعجال عليه، ساكناً تحت جريان الحكم، عالما بأنه لا يقدم ما حكم بتأخيره، ولا يؤخر ما حكم بتقديمه. انتهى، وأبواب الفتح كثيرة، وليس هي علة شيء كما مر، وكما قال ابن عطاء الله الشاذلي رضي الله عنه: إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبالِ معها إن قل علمك، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك، وقال رضي الله عنه: متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس. انتهى، فلوامع الأنوار وواردات الأسرار، وبوارق الأحوال الشاهدة بصدق الأعمال، كلها فتح ومدد في جميع المُدَد[1]، وأسبابها الجارية مع التحقيق هي من فتوح خلق التوفيق. ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

يـا رب وارزقنـي صـلاح النيـة والاقتــداء بــأكمــل البــريــة

طلب ـ نفع الله به ـ في هذا البيت بعد ما سبق في البيت الذي قبله من الأمر العام، حصول خصلتين جامعتين وخلتين مهمتين، يعظم موقعهما في الدين، وتكثر خيرات من وفق لهما من الأئمة المهتدين، وهما: النية والاتباع والاقتداء لأشرف البرية صلوات الله وسلامه عليه، فأما النية فهي أساس الأعمال، وبها تزكو جميع الأفعال، ولها سراية فيها وانفعال بواسطتها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر،

---

(١) أي الأوقات.

ولا يرفع عمل إلى الله تعالى إلا بنية، قال الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولكن تناله النيات، وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، وعن عائشة رضي الله عنه قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم، يبعثون على نياتهم»، وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» ومعناه: لا هجرة من مكة لأنها صارت دار الإسلام، وعن جابر بن عبد الله الأنصاري ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فقال: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض»، وفي رواية: «إن أقواماً خلفنا بالمدينة، ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر» والأحاديث في ذلك كثيرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما يحفظ الرجل على قدر نيته، وقال غيره: إنما يعطى الناس على قدر نياتهم، وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله، وكتب سالم ابن عبد الله إلى عمر بن عبدالعزيز: اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله تعالى له، وإن نقصت نقص بقدره، وقال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية، وقال داؤد الطائي رحمه الله: من كان أكثر همته التقوى، فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة، وكذلك الجاهل بعكس ذلك، وقال الثوري رحمة الله عليه: كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل، والآثار في ذلك كثيرة أيضاً، وقال الشيخ حسين الطيبي رحمه الله: فائدة على لسان أهل الإشارة: قال بعضهم: العمل سعي الأركان إلى الله، والنية سعي القلوب إلى الله، والقلب ملك والأركان جنوده، ولا يحارب الملك إلا بالجنود ولا الجنود إلا بالملك، وقال بعضهم: النية جمع الهم في تنفيذ العمل للمعمول له، وأن لا يسنح في السر ذكر غيره، وقال بعضهم: نية

العوام في ذكر الأغراض مع نسيان الفضل، ونية الجهال التحصن عن سوء القضاء ونزول البلاء، ونية أهل النفاق التزين عند الله وعند الناس، ونية العلماء إقامة الطاعة لحرمة ناصبها لا لحرمتها، ونية أهل التصوف ترك الاعتماد على ما يظهر منهم من الطاعات، ونية أهل الحقيقة ربوبية تولدت عبودية. انتهى من شرح مشكاة الحديث. وقال الشيخ عبد الله الحداد قدس الله روحه في نصائحه: فعليك ـ رحمك الله ـ بحسن النية وإخلاصها لله تعالى، ولا تعمل شيئاً من الطاعات إلا وتكون ناوياً به التقرب إلى الله تعالى وابتغاء وجهه وطلب رضاه، وإرادة الثواب الأخروي الذي وعد به سبحانه على تلك الطاعة من باب الفضل والمنة، ولا تدخل في شيء من المباحات حتى الأكل والشرب والنوم إلا وتقصد بذلك الاستعانة على طاعة الله تعالى وحصول التقوي به على عبادته تعالى، فبذلك تلحق المباحات بالطاعات، وللوسائل أحكام المقاصد، والمغبون من غبن في حسن النية، واجعل لك في طاعاتك ومباحاتك نيات كثيرة صالحة، يحصل لك بكل واحدة منها ثواب تام من فضل الله تعالى. انتهى. وقال الشيخ الحبيب أحمد بن زين الحبشي رضي الله عنه في (شرح العينية): وأما كثير النيات فذلك على قدر جد العبد في طلب الخير وسعة علمه واستحضاره للنيات الصالحة، وبذلك تزكو الأعمال ويتضاعف فضلها، والمعصية لا تنقلب بالنية عن كونها معصية، كمن نوى مراعاة قلب إنسان بغيبة إنسان آخر، فهو معصية ولا تنفعه هذه النية، وأما المباحات فتصير بالنية الصادقة من أهل الصدق من محاسن القربات، فقد ورد: من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من ريح المسك، مثل ذلك أن ينوي بالطيب اتباع سنة رسول الله ﷺ في يوم الجمعة وتعظيم سكان المسجد، وترويح من جلس عنده أو مر به برائحته، ودفع الروائح الكريهة المؤذية لغيره، وحسم باب غيبة الغير له بذكر ريحه الكريهة، ومن نيات الطيب قصد تقوية الدماغ به ليزداد بقوته فطنته في الدين وقوة فكره، لأن قوة الفكر في وسط الدماغ وهو مظهر القلب، وقبلها قوة الخيال والحفظ، وبعدها قوة الوهم والذكر، وقال الشافعي رضي الله عنه: من طاب ريحه زاد عقله، فهذه النيات تحصل من الطيب، لكن لمن غلب على قلبه تجارة الآخرة أكثر من نعيم الدنيا، وصارت الآخرة أغلب

همه، فمن غلب على قلبه أمر العاجلة لم تتصور منه هذه النيات الصالحة، فإن ادعى شيئا منها فهو حديث نفس لا نية محمودة شرعاً، لأن النية تجرد باعث الدين فقط، فليتفقد المسكين سائر أعماله وقصوده وليراقب قلبه. انتهى من الشرح المذكور. ومراقبة القلب لا تحصل إلا بمراقبة الرب، ومراقبة الرب تورث الخضوع والخشوع له تعالى، كما جمع ذلك سيدنا الحبيب عبد الله الحداد نفع الله به ـ في بيت العينية الذي سبق النقل من شرحه، وهو قوله رضي الله عنه ونفع به:

ولصالح النيات كن متحرياً   مستكثراً منها وراقب واخشع

وأما الخصلة الثانية وهي الاقتداء بأشرف البرية ﷺ، أي في أعماله وأقواله وسيرته وهديه وأمره ونهيه، فهو الأمر الذي ينبني عليه أركان الإسلام، وبه تنال المقامات والأحوال العظام، وهو دليل محبة الله تعالى للعباد الذين طلب منهم تحقيق محبته وإقامتهم الدليل والبرهان عليها باتباعه ﷺ، فقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل اتباعه سبباً لمحبته، قال الطيبي ـ رحمه الله ـ في شرح المشكاة: أوقع متابعة الرسول ﷺ بين المحبتين وذلك لأن محبة العبد منوطة بمتابعته ومحبة الله العبد متوقفة على متابعته ﷺ. انتهى. ومن العبارات الجامعة لوصف التابع الوارث المقتفي لآثار نبيه ﷺ، المشيرة إلى نعت المؤمن الكامل، المعني بقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، الملوحة بل المصرحة إلى شرح مقام الاتباع، قول سيدنا وشيخنا السيد الإمام حامد بن عمر حامد باعلوي قدس الله روحه: ليس العالم الرباني من تعلم عدة من المسائل من علوم المقاصد والوسائل، حتى أمسى يخاصم بها ويجادل أهل الفضائل والفواضل، ويدعي أنه عند الله يناضل وفيه يباهل، بل العالم الرباني من تربى وتأدب تحت شيخ كامل عالم عامل، حتى تهذبت نفسه وتطهرت عن رذائل الأخلاق كالكبر والعجب والرياء والحسد، وتحلت بمحاسن الأخلاق كالزهد والصدق والإخلاص والتواضع، وتحققت لباب معنى: لا إلٰه إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، حتى ارتقى من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، ومن يفاع البهائم إلى أوج الملائكة، وخرج من ظلمات الجهل إلى نور العلم،

وصارت مشكاة صدره تتقد من نور قلبه، وقلبه يضيء من نور ربه، فهو سراج منير يهتدي به أهل الطريق في السير إلى ربهم، مقتبس من نور سراج الكونين وسيد الثقلين محمد ﷺ، وذلك لأنه ﷺ هو الأصل في الأكوان والتكوين، وهو أبُ الأرواح كما ورد، فلا طريق في الوصول إلى الله تعالى إلا به ومنه، فهو باب الله ورحمته ونعمته، كما قال الجنيد: الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ، فمن اتبع أفعاله وتخلق بأخلاقه وتملى بمحبته صار كجزء منه، فحينئذ يكون له نصيب من كل مقام وحال وفضل وقع للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ و ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٣-٥]، فمن كان كذلك وتأهل لما هنالك، فهو العالم الرباني الرفيع بعلمه، الوارث الخاشع الخائف المتقي، اطمأنت نفسه وانقادت وفاءت إلى أمر الله بالسياسة والرياضة، فتأهل لسياسة المريدين والطالبين، خليفة رسول الله ﷺ، هذا هو العالم حقاً وصدقاً في الآخرة والأولى، قيل للحسن البصري: هكذا قال الفقهاء، قال: وهل رأيت فقيهاً قط!، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا. انتهى كلام سيدنا الحامد، وقد سبق في مقدمة الكتاب نقل كثير من عباراتهم في وصف الاقتداء والحث عليه والترغيب فيه، وحقيقة الاتباع هو الاعتصام بالكتاب والسنة والاستمساك بهما، قال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ»، والاقتداء والاتباع يكون على قدر الإيمان واليقين في الرجل المسلم، فمن كمل إيمانه ويقينه كمل اتباعه لنبيه ﷺ، وإذا كمل اتباعه اجتباه الله واصطفاه، كما قال الشيخ العيدروس قدس الله روحه:

فالاقتدا ثم الاجتبا والاصطفا حال فوق حال

قال الإمام السهروردي ـ قدس الله روحه ـ في العوارف: أعد الله تعالى لقبول ما جاء به رسول الله ﷺ أزكى القلوب وأزكى النفوس، فظهر تفاوت الصفاء والتزكية في تفاوت الفائدة والنفع، ثم فرَّع على ذلك كلاماً يطول نقله، وكذا ما جاء عن غيره من النقول في هذا المعنى كثير مما لا يمكن استقصاؤه.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

والسير بالجد على منوال أسلافنا أكابر الرجال

في هذا البيت تخصيص لما في البيت الأول من العموم والإجمال، فإنه سأل من مولاه الذي لا يخيب من أمله ورجاه، الاقتداء بأكمل البرية ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مطلقاً، بأي حال وعلى أي وجه وبأي طريق، ثم رأى أن طلب الأكمل أعلى وأجل، وهو لمن رفع همته ووجه عزمته إلى من بيده ملكوت السماوات والأرض وعنده مفاتيح الغيب، أعظم أمر وأجله، إذ رفع الهمة من صفات الرجال ذوي العقول الراجحة والفطر المستقيمة والجبلات والطباع السليمة، ولما كان كذلك طلب سيدنا ـ قدس الله سره ـ أن يكون اقتداؤه به ﷺ على وجه كامل خاص صعب المنال إلا على من وفق له من جهابذة الرجال، وهو السير الحثيث بأنواع التحثيث على وفق ما جاء به الكتاب والسنة، مع التتبع والاستقراء واستشعار خوف الفتنة، وهو طريق سلفه العارفين الأئمة المجتهدين، بني علوي بن عبيد الله بن أحمد المهاجر إلى الله بن عيسى، القاطنون بالجهة الحضرميَّة ونواحيها، ومن تعلق بطريقهم وجعل في دائرتهم، من حيث انتمائه إليهم أو انتمائهم إليه، فإنهم ـ نفع الله بهم ـ تفردوا بطريقة مثلى جامعة للتحقق بالمقام الكامل له ﷺ، ولكمل ورثته من غيرهم كالخلفاء الراشدين وأكابر الصحابة والتابعين مثل زين العابدين والباقر والصادق والعريضي وغيرهم من أهل البيت الطاهر، وكالحسن البصري والجنيد بن محمد سيد الطائفة والحجة الغزالي وإمام المذهب يحيى النووي وأبي إسحاق الشيرازي وغيرهم ممن قاربهم، وقد مرَّ نقل كثير مما يتعلق بشرحها والترغيب في الدخول في دائرة أهلها، وذكر ما تفردت واختصت به من تحكيم ميزان الشرع وتوفية مكيال الهدي النبوي، وعدم اختراع ما يخرج عن ذلك من حيث الاستحسان في وضع الرسوم التي قد ينتجها بعض الصوفية، وفيما نقلناه مما سبق في تعريفها كفاية، فلينظر من هناك ممن نقلناه عن سيدنا الشيخ عبد الله الحداد وعن سيدنا الشيخ عبد الرحمن بلفقيه نفع الله بهما، وعن غيرهما من أئمة هذا الشأن نفع الله بهم.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

وسلــم القلــب مــن الأخطــال   وحلّنــي بــالصــدق فــي الإقبــال

في هذا البيت طلب أمراً مهماً وهو سلامة القلب من الفساد، لأن من معاني الخطل الذي جمعه أخطال الفساد، وفي صلاح القلب وسلامته صلاح جميع الأعضاء وسلامتها، قال ﷺ: «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، ولهذا قال سيدنا الشيخ عبد الله الحداد في بعض قصائده يناجيه ﷺ ويستغيث به:

وإن صلاح الدين والقلب سيدي   هو الغرض الأقصى فيا سيدي قم بي

وقال الإمام الحجة الغزالي قدس الله روحه: وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه عرف ربه، وهو الذي إذا جهله الإنسان جهل ربه، ومن جهل ربه فهو لغيره أجهل، وأكثر الخلق جاهلون لقلوبهم ونفوسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، إن الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أن يمنعه عن مراقبته ومشاهدته، ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن، وأنه كيف يهوي مرة إلى أسفل سافلين وينخفض إلى أفق الشياطين، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين، ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه، ويترصد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله فيهم: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين، فانظر إلى ما أشار إليه هذا الإمام مما يفهم عنه عظم شأن القلب، ومما ركب الله فيه من السر الذي جعله موضع نظره، لقوله ﷺ «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، وقد بين ـ رضي الله عنه ـ في هذا الكتاب ـ أعني كتاب عجائب القلب من الإحياء ـ من أسرار القلب ومعانيه وأساميه وحقائقه وأوصافه، وما يتعلق به من الصفات المهلكات والمنجيات، ما يبهر اللبيب الحاذق، والحاصل أنه ركب كتاب الإحياء على شطرين، الشطر الأول: العبادات والعادات وهي ما يتعلق ويجري على الجوارح، والشطر الثاني: المهلكات والمنجيات وهي ما يجري على القلب

من تلك الصفات، وقد قدمنا في الفرع الثالث من المعنى الخامس بحثاً مختصراً جداً في معنى العقل والروح والقلب والنفس، وقد قال الإمام الغزالي قدس الله سره: يقل في فحول العلماء من يحيط بمعرفة هذه الأسامي واختلاف معانيها وحدود مسمياتها، فإذا كان ذلك في فحول العلماء قليل فما بالك بالقاصرين منهم، وورد: «أبغض القلوب إلى الله تعالى القلب القاسي»، وقال ﷺ: «قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر، وقلب الكافر أسود منكوس»، وقال ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر، وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد، فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها»، وفي رواية: ذهبت به، وقال ميمون بن مهران رحمه الله: إذا أذنب العبد ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع وتاب صقل، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الرين، وقال الغزالي رحمه الله: وطاعة الله بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب، ومعاصيه مسودات له، فمن أقبل على المعاصي اسود قلبهن، ومن أتبع السيئة الحسنة ومحى أثرها لم يظلم قلبه، ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم يمسح ويتنفس فيها ثم تمسح، فإنها لا تخلو عن كدورة. انتهى، ومن علامات القلب القاسي من أصل الخلقة، فهو الذي لا يلين ولا يخشع ولا يألف ولا يرحم، فصاحب هذا القلب يكون ردىء الفطرة، ليس استئناس بباطنه، فتراه يكره الوحدة ويميل إلى الجموع، ويحب الهذر والقيل والقال والدخول في الفضول، فصاحب هذا القلب يكون بعيداً من الله تعالى، سيء الفطنة في أمور الدين، لا يكاد ينتفع بموعظة ولا إرشاد، وذكر ذلك الشيخ محمد بن عبد الله العيدروس ـ قدس الله روحه ـ قال: والقلب الذي يطرأ عليه الموت هو الذي يكثر صاحبه المعاصي ويقل عمل الخيرات، ومن علامات القلب الحي هو ما بينه بقوله: فهو الرحيم الهين اللين، السهل القريب الآلف المألوف، الذي يغلب عليه طلاقة الوجه وكثرة الابتسام، ويظهر عليه الألف للإخوان والحنين إلى الأوطان، والأسف على ما مضى من الزمان، فترى صاحب هذا القلب مستأنساً بباطنه محباً للوحدة، كارهاً

للقيل والقال مجانباً للشرور والخصومات، فليبشر صاحب هذا القلب، فإن قلبه موضع نظر الرب وخزانة حكمه وأسراره، روي أن الرب تعالى قال في بعض الكتب السالفة: إن السماوات والأرض لم تطق أن يحملنني وضقن أن يسعنني، ووسعني قلب عبدي المؤمن الوادع، فهذا القلب هو سر العالم وينبوع العجائب، وموضع الأسرار الإلهية، وللقلوب الذي هذا شأنها أحوال غريبة، وللنفوس في مقابلتها أيضاً أفعال عجيبة، إلا أن بين القلوب والنفوس بوناً ومضادةً، من إصلاح أحوال القلوب، وسوء ما يصدر عن النفوس بأصحاب أحوال القلوب. ثم بيّن ـ نفع الله به ـ ذلك بياناً شافياً في كتابه (إيضاح أسرار علوم المقربين)، ومن كلام سيدنا وشيخنا الإمام حامد بن الشيخ عمر حامد علوي قدس الله روحه: بركة القلب حفظه عن الخواطر الرديئة والظنون الفاسدة والعقائد الكاذبة، وتطهيره عن الأخلاق الخبيثة كالكبر والعجب، وتحليته بالأخلاق الحميدة كالتواضع والأدب والصدق وحسن الظن. انتهى. فالقسم الأول المتأكد بل الواجب علينا حفظ القلب عنه، هو الذي طلب سيدنا الناظم السلامة منه لأنه من الخطر، وهو الداء المفسد للقلب، ومن اللازم أنه إذا حفظ عن ذلك بالعناية الربانية والرعاية الرحموتية تحلى بضدها، وهي الصفات الإيمانية والمقامات العرفانية الإحسانية التي أعلاها الصدق، فلذا قال في الشطر الثاني من البيت: (وحلني بالصدق في الإقبال) طلب ـ نفع الله به ـ مقام الصدق لاندراج جميع المقامات فيه، وهو مقام الإحسان الكامل، قال سيدنا الحامد المذكور: الصدق الإتيان بالطاعات على غايات الكمال وهو مقام الإحسان، والأدب ترجع حقيقته إلى ذلك، قال سيدي الوالد عمر رحمه الله: التواضع درجة من درجات الأدب، والأدب يرجع إلى مقام الإحسان. انتهى، ولأجل أن الصدق الإتيان بالطاعات على غايات الكمال، قيّد سيدنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ الصدق بقوله: (في الإقبال) لأن الإقبال إذا خلي عن الصدق كان صورة بلا روح، وربما كان وبالاً على صاحبه لخلوه عن مراعاة الشروط في الإقبال، الواردة على العقائد والأعمال والأحوال، قال الإمام القشيري رحمه الله: أن لا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب. انتهى، ولهذا قالوا في نعت الصديق: إنه من لم يكذب قط، أومن

كثر منه الصدق، أو من صدق قوله اعتقاده وحقق صدقه بفعله، أو الذي لم يدع شيئا مما يظهره باللسان إلا حققه بقلبه وعمله، قال الإمام الغزالي رحمه الله: لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق، لأنه مبالغة من الصدق، ثم هم أيضاً على درجات، ومن كان له حظ من الصدق في شيء من الجملة فهو صادق، ثم بين ـ قدس الله روحه ـ حقائق هذه المعاني الستة ومراتبها ودرجاتها، وقال الشيخ عبدالله الحداد رضي الله عنه: وأول الصدق مجانبة الكذب في جميع الأقوال، ثم إن للصدق مدخلاً في جميع الأعمال والنيات والأحوال والمقامات، ومعنى الصدق فيها الثبات عليها والإتيان بها على الوجه الأكمل الأحوط، مع بذل الاستطاعة ونهاية الجد والتشمير لله تعالى في الظاهر والباطن. انتهى، وقد جاء في الثناء على الصدق ومحله من الدين آيات وأخبار وآثار كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»، قال الغزالي قدس الله روحه: ويكفي في فضيلة الصدق أن الصدِّيق مشتق منه، والله تعالى وصف الأنبياء في معرض المدح والثناء، فقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]. انتهى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أربع من كن فيه ربح: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر، وقال أبو بكر الوراق رحمه الله: الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة، فصدق التوحيد لعامة المؤمنين، وصدق الطاعة لأهل الورع والصدق، وصدق المعرفة لأهل الولاية، أوتاد . .[١] وقيل لسهل بن عبد الله رضي الله عنه ما أصل هذا الأمر الذي نحن فيه؟ فقال: الصدق والسخاء والشجاعة وعن ابن

(١) كذا بياض بالأصل.

عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سئل عن الكمال فقال: قول الحق والعمل بالصدق، ومن أفضل الصدق وأولاه بالمراعاة في تحقيقه أن لا يتلفظ بكلام إلا وهو صادق، ولا سِّيما ما يتعلق بحضرة الربوبية، فلا يقول مثلاً: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية [الأنعام: ٧٩] إلا وهو متوجه إلى ربه غير معرض عنه ولا غافل، فإن الإعراض عن الله تعالى والغفلة سبب المقت، ولا سيما مع استواء اللسان والجنان، أي استواؤهما في الإساءة والتقصير، الجنان لغفلته وإعراضه، واللسان لكذبه حيث لم يطابق قوله ما في ضميره في ذلك، فإن الصدق لا يتحقق إلا مع استواء السر والعلانية، ومن دعائه ﷺ: اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة. قال السيد الإمام أحمد بن زين الحبشي قدس الله روحه: فمن خالفت سريرته علانيته بقصد منه فهو مراءي، وإن كان بغير قصد فهو كاذب.

وإذا فهمت معنى الصدق من جميع ذلك، ولا سيما ما نقلناه عن سيدنا الشيخ عبد الله الحداد قدس الله روحه، فكأن سيدنا الناظم ـ نفع الله به ضمن معنى ذلك الشطر الثاني من البيت السابق والشطر الأول من هذا البيت، وهو قوله قدس الله سره:

ورؤيـة التقصيـر فـي التشميـر والبـركـة فـي الـوقـت والحضـور

جمع في هذا البيت من الصفات المحمودة ذات الموقع عند العارفين في طريق السالكين وسبيل السائرين، فإن السالك المريد إذا رأى التقصير في التشمير ازداد طلباً لأنواع الخير، واستدام في سلوكه إلى مولاه السير، ولم يقف مع الغير، وإذا حصلت له بركة الوقت كان له القليل كثيراً والصغير كبيراً، وإذا حصل له الحضور مع الله تعالى على الدوام فهو وارث النبي عليه الصلاة والسلام، فحينئذ لا يشغله الخلق عن الحق ولا الحق عن الخلق، وقد آن أن يسلم له شيطانه، كما أسلفنا ذلك في تعريف الواصل فافهم، ثم نزيد هذه المعاني إيضاحاً وبياناً فنقول: أما رؤية التقصير في التشمير، فإذاً لا يزال السالك في ازدياد ورقي ما دام يشهد من نفسه التقصير والقصور، ويتهمها مع تقلباتها في عالم البطون والظهور، ويفر عن العجب المحبط والغرور المثبط، فإنهما آفتان عظيمتان، قال سيدنا الشيخ حامد

ابن عمر حامد علوي قدس الله روحه: لا حجاب عن الله تعالى أكثف من حجاب رؤية النفس بعين الرضا، وذلك لأن من رضي عن نفسه استحسن قبائحها، وهو أصل العمى الذي قال الله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]، واتبع مرادها وهو حقيقة الهوى الذي قال الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣]، وأيضا فإن من ظن صلاح نفسه لم يصلح فسادها، ومن اعتقد ارتفاع رتبته لم يسعَ في ارتفاعها، كالسقيم الذي لم يعلم بدائه لم يجتهد في طريق دوائه، والكناس الذي لم يشهد خسة كناسته بقي في الأقذار على حالته، ومن جالس النساء طرد عن الرجال، ومن لاعب الصبيان حجب من السلطان، وبالجملة فمن أعجب بحاله فاتته المقامات العلية وفارق أهلها، ولازمته الأمور الدنية كلها، وذلك عين الحجاب وحقيقته، ولهذا جعل رسول الله ﷺ المدح بمنزلة قطع العنق، حيث هو يورث العجب، ولا معنى هنا لقطع العنق إلا الانقطاع عن كل خير والاتصال بكل شر، فتدبر، والله أعلم. انتهى، فعلم به أن سر رؤية التقصير في التشمير هو في اتهام النفس وعدم الرضا عنها ومعرفة دسائسها، وضده وهو رؤية التشمير في التقصير نشأ عن رؤية النفس والرضا واستحسان ما يصدر عنها، وهو علامة الشؤم واللؤم، وصاحبه هالك لاعتقاده الكمال في نفسه، وذلك هو الخسران المبين، وهو سبب الانتكاس على أم الرأس، وقد استعاذ ﷺ من الحور بعد الكور، هذا حال من يشهد التشمير في التقصير، الداخل في غمرة الذين قال الله فيهم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، وأما من يشهد التقصير في التشمير فهو منصف، وبخساسة حاله معترف، فإذا دام له هذا الشهود رجي له الصعود، وقد يكون ذلك بسبب انتقاله وارتفاع حاله، قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه: يمنع الله تعالى العبد اختياراً لينظر حاله عند الفقد لذلك في تضرعه وافتقاره أو غفلته واستغنائه، وإن جمع حاله ذلك الأدب بلغ الأرب، كما قال القرشي رضي الله عنه أيضاً: الزم الأدب وحدَّك من العبودية فإن أرادك لشيء أوصلك إليه. انتهى، وفوق مقام شهود التقصير في التشمير مقام أعلى منه، وهو ما ذكره القرشي أيضاً بقوله: رؤية الفضل

والمنة في العمل أتم في حق واجب الربوبية من رؤية التقصير عن القيام بحق العبودية، أوقفهم ما هنالك على غاية العجز، وأما البركة في الوقت التي طلبها سيدنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ فهي من إسناد العطايا للعباد، وإكسير أعمال السادة الأسياد، وكيمياء ليالي وأيام المجذوب المراد، قال الشيخ ابن عطاء الله قدس الله روحه: من بورك له في عمره أدرك في يسير الزمان من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة، قال ابن عباد ـ رضي الله عنه ـ في شرح هذه الحكمة: البركة في العمر أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته، وانتهاز فرصة إمكانه خشية فواته، فيبادر إلى الأعمال القلبية والبدنية، ويستفرغ من ذلك مجهوده بالكلية، وفي أثناء ذلك يصل إليه من المنح الإلهية، ويشرق عليه من الأنوار الربانية، ما تعجز العبارة عنه، ولا تنتهي الإشارة إليه، وكل ذلك في زمن يسير وعمر قصير، فيرتفع له في شهر مثلاً ما يرتفع لغيره في ألف شهر، بمنزلة ليلة القدر العمل فيها لمن صادفها خير من العمل في ألف شهر، وقال الشيخ علي بن عبد الله باراس ـ نفع الله به ـ في شرحها أيضا: فالعمر إذا خلا عن الإمداد الإلهية كان حكمه حكم العدم إذا سلم من اقتران الكبائر واللمم، وإذا صحبه من الله الإمداد صار من أنفس الذخائر للمعاد، وقد ورد: «خيركم من طال عمره في طاعة الله»، ولا طاعة تزن عنده مثقال ذرة من الإيمان فضلاً عن شهود حضرة الإحسان، والطاعة يكون كمالها ونقصانها بحسب ما عند الإنسان من مزيد الإيمان، فقد ورد أن الرجلين يستويان في العمر، وأن عمل أحدهما إلى جنب الآخر كالذرة إلى جنب أُحُد[1]، وما ذاك إلا بحسب ما عندهما من الإيمان، والإيمان مودع في الفطر والقوابل. وكان ﷺ فَضُلَ سائر الأنبياء وأمته فضلت سائر الأمم، على قصر مدة عمره وأعمارهم بالنسبة إلى أعمار من قبلهم من الأمم، فذاك بالبركة في الأعمار القصيرة تصير أعمارهم كثيرة وعلومهم غزيرة وشوارق أنوارهم منيرة. انتهى المقصود مما ذكره، وقال سيدي الحامد بن عمر حامد باعلوي نفع الله به: بركة العمر حفظه عن صرفه إلى البطالة وما لا يعني، وصرفه إلى ما يعني ويتحتم ويلزم وينفع في الآخرة وعند الموت، ومحقه بتضييعه إلى السعي في الدنيا بالحرص والطمع والجمع والمنع، وما يضره في الآخرة وعند

---

(١) الجبل المعروف بالمدينة المنورة.

الموت. انتهى، ففي هذه العبارة إشارات إلى تفاوت البركات في العلوم والأعمال والمقامات والأحوال، فبعضها بحفظ الأوقات وإنفاقها في نفائس الطاعات وأنواع القربات، وذلك للمريدين السالكين، وبعضها بزيادة الإيمان وما يصدر عن صاحبه من مزيد الإحسان، وذلك للأولياء الصادقين والعلماء الراسخين، وبعضها بالتجليات الربانية والمواصلات العرفانية والواردات الإلهية، وذلك للمرادين الواصلين، وكلها فتوحات غيبية ومنوحات وهبية، وأما ما خلا عن البركات من تلك الأرزاق، فهو بعيد عن الإرفاق حقيق بالإملاق، وخلوها عن البركات أن يخلو العلم عن الخشية والعمل عن الإخلاص، والذكر عن الحضور والحضور عن الأدب، والأدب عن شهود المنة والفضل لله تعالى في ذلك وفي غيره، وأما الحضور الذي طلبه سيدنا وشيخنا قدس الله سره، إن قيل: إنه من حضر قلبه في كذا إذا تفطن له وتيقظ لما فيه، من سلامة العافية والربح الذي يترتب عليه من الصدقات الذاتية، ويكون ذلك كما قال الشيخ علي بن عبد الله باراس نفع الله بهما: من بورك له من الله أيقظ قلبه، وبصَّره بحقائق الأشياء فرأى حقائق السعادة تنادي من قريب، وذخائر الغيب وتقول: هل من منيب؟، ودواعي الحقيقة تقول: هل من مصاف أديب؟، فنهض إليها مسرعاً وعزم بهمة مزمعاً، فأوفى الحقوق وأقلع عن الآثام والعقوق. انتهى، فعلى هذا يكون الحضور بمعنى البركة، وأما إذا تغاير المعنيان وتباين المطلبان، فيكون معنى الحضور هنا هو مراقبة الله تعالى على الدوام، ومعاملته بالتعظيم والاحترام، وهو الذي يساعده من بعد عوارفهم، كسيدنا الناظم نفع الله به. وما يعرف من حاله من التحقيق في مسائل الطريق والحقائق، فيكون مراده بالبركة هو اليقظة وإشغال الوقت بالطاعة، وحصول الإمداد في تلك المواد، وصدور ذلك عن قلب طافح بأنوار الإيمان، ومنه يجري مدد الأركان ويسري من ذلك النشاط، ومخالطة تلك البشاشة القلب حتى إلى الأكوان والأعوان، وبالحضور هو الحضور مع الله تعالى في ذلك كله، وفي كل طرفة عين وتنفس نفس، وأعلى الحضور هو الوقوف بين يديه بكمال الأدب، وغاية التعظيم والإجلال بحيث يصير القلب مستغرقاً بملاحظة جلال الله تعالى، منكسراً تحت هيبته، لا يبقى فيه متسع لغيره أصلاً، كما روي أنه قيل لعبد الواحد بن زيد رحمه الله: هل تعرف في زمانك

هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرفه إلا رجل سيدخل عليكم الساعة، فما كان إلا سريعاً حتى دخل عليهم عتبة الغلام، فقال له عبد الواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة؟، قال: من موضع كذا، وكان طريقه على السوق، قال: من لقيت في الطريق؟، قال ما لقيت أحداً، ويحكى عن بعض المشايخ أنه كان له تلميذ يقدمه على أصحابه فعوتب في ذلك، فلما كان في بعض الأيام جمع أصحابه وأعطى كل واحد منهم طائراً وأمره أن يذبحه في مكان لا يراه أحد، فتخلى كل واحد في مكان لا يراه أحد وذبح طائره وأتى به إلى الشيخ، إلا هذا التلميذ فإنه رجع بطائره حياً، فقال له الشيخ [لماذا لم تذبح طائرك؟]: فقال له: إنك أمرتني بذبحه في محل لا يراني فيه أحد، وإني ما خلوت في مكان إلا والله تعالى ناظر إلي وحاضر معي، فقال الشيخ لأصحابه: بهذا كنت أقدمه عليكم، وقال الجنيد قدس الله روحه. المشاهدة وجود الحق مع فقدانك، ويحكى أن الشيخ أبا عثمان المغربي ـ رضي الله عنه ـ أقام بمكة أربع سنين غارقاً في بحار المعرفة إلى أن مات، وكان يسلم عليه خواص أصحابه، فلا يعرفه حتى يعرفه بنفسه، فيعرفه بعد جهد لحظة ثم يغيب عنه الشيخ، حتى لو عاوده الفتى بالكلام لم يعرفه، وكان مع ذلك يعود إلى الصحو حال أداء الفرائض فقط، لأنهم محفوظون بالله تعالى، وهكذا عند تلاوة القرآن والاشتغال بالأوراد حفظاً من الله تعالى، وقد سبق عند قول سيدنا الناظم نفع الله به: (ونظمت أسماء أرباب الوصول. .) إلى آخره نقل كثير من نوع هذه المواجيد والحكايات.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

يـا ربنـا يـا مـالـك النـواصـي   يـا ربنـا احفظنـا مـن المعـاصـي

ابتدأ ـ قدس الله روحه ـ جملة مستأنفة تشتمل على نوع آخر من الدعاء في هذا البيت وما بعده، إذ الجملة التي قبلها تشتمل على دعوات جامعة وتوسلات نافعة مختصة بنوع من أنواع الكمال، لرفع همته وعلو مكانته، وكمال رسوخه وثباته في الدين، وارتقائه في أعلى مراقي اليقين، وعلمه بأن الله سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء، وأن خلق الذرة والفيل بالنسبة إلى

قدرته سواء، وأنه لا يتعاظمه أمر، فنظم تلك المسائل وجعلها على نمط واحد، من حيث طلب الكمال في المقاصد والأقوال والأفعال، ثم طرقه ما يطرق علماء الخشية وأرباب المعرفة من الخوف من الله تعالى، فاستأنف هذه الجملة فخصّها بسؤال الحفظ والرعاية منه تعالى، بأن يقيه من موجبات النقص بعد الكمال، من كل ما يتعلق بالمقامات والأحوال في الحال والمآل، وبدأ في الجملتين بـ (يا ربنا) تأسياً بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبالأولياء رضوان الله عليهم، لذكرهم له في أول دعواتهم القرآنية، إشارة إلى أنه إذا كان من معانيه أنه خالق الخلائق ومالكها، ومدبر أمورها ومصلح أحوالها، فمن تمام فضله بعد نعمة الإيجاد والإمداد المشار إليهما، أن يحلي عبده بصفات الكمال، ويحفظه عن موجبات النقص وأسباب الزوال، ولأنه من المستحب تقديم النداء والثناء على سؤال الحاجات إذا أراد الدعاء، وذكر من خصوصيات هذا الاسم الكريم أنه لا يتغير معناه عند قلبه، إذ مقلوب رب: بر وهو من أسمائه تعالى، وهما اسمان جماليان، الأول من التربية الجامعة لجميع أنواع الإحسان والإفضال، والثاني من البر فهو إيصال البر الجاري على هذا المنـوال، ثم أكد ما في هذه الجملة الندائيـة لحضرة الربوبيـة بقوله: (يا مالك النواصي)، أي مالكها ملكاً حقيقياً لا يشاركه فيه أحد لعدم احتياجه إلى معين ومدبر، بل له سبحانه الخلق والأمر، والتدبير والتقدير في الأرزاق والأعمار والآجال، وكل ما يحدث من الأفعال وجميع الأحوال، وله الإحاطة بالمعلومات ما كان وما يكون، من الحركات والسكون، وغير ذلك من أوصافه العلا وأسمائه الحسنى، فنواصي الخلق بيده يحكم فيها بما أراده، ويصرفها لما شاء من أعمال الإشقاء والإسعاد، فلذا قال سيدنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ بعد هذا النداء الأول المؤكد بالثاني مع استحضار ما فيهما من المعاني، ومن المناسبة لسؤاله الأول والثاني، لعلمه أن كل مقدر لا يصدر إلا عن حكم إلهي، قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ (يا ربنا احفظنا من المعاصي) هذا نداء ثالث مؤكد لما قبله، وأعاد الاسم الكريم المضاف إلى ضمير الجمع كالأول تأكيداً، وقصداً لشمول الأهل والأولاد والأصحاب والأحباب، ولما كانت العصمة من الذنوب تختص بالأنبياء والحفظ بالأولياء، استعمل لفظ الحفظ، ثم سؤاله ـ رضي الله عنه ـ

الحفظ من المعاصي والذنوب، إما أن يكون بطريق الحفظ والعصمة، بأن تكون له ملكة على الامتناع منها واستيلاء على نفسه، بأن لا تلتفت إلى مقارفتها ولا تهمَّ بفعلها، وتكون مشتغلة بالاستقامة، متمسكة بالكتاب والسنة وسلوك طريقهما، وإما أن يكون بطريق الامتناع منها، بأن تستر عليه حتى لا يعرف طريقها ولا تخطر بباله، ومن لطف الله به بهذا الحفظ، لم يجعل له داعٍ إلى ترك الطاعة وإلى ارتكاب المعصية مع القدرة عليهما، فيقوى على تحري الخير وتجنب الشر، وهذا هو السعادة القعساء والنعمة الحقيقية، وهو معنى اللطف والتوفيق، ويكون ذلك سالماً عن موجبات الانتقام كالرياء والعجب، فإنهما محبطان للأعمال، والعجب أعظم حجاب بين العبد وبين مولاه، وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لولا أن الذنب خير للمؤمن من العجب، ما خلا الله بين مؤمن وبين ذنب أبداً»، وقال ﷺ: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون ويغفر لهم»، وورد «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، وحكي أنه جاء رجل إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا سيدي كان البارحة بجوارنا من المنكرات كيت وكيت، وظهر من ذلك استغراب أن يكون هذا، فقال: يا هذا، كأنك تريد أن لا يعصى الله في مملكته، من أحب أن لا يعصى الله في مملكته فقد أحب أن لا تظهر مغفرته وأن لا تكون شفاعة محمد ﷺ، وكم من مذنب كَسْرُه إساءته وَذُلُّه مخالفته، أوجبت له الرحمة من ربه، فكن له راحماً، وبقدر إيمانه وإن عصى عالماً. انتهى، واعلم أن هذه الأحاديث وما بعدها لم ترد لتسلية المريدين، وزيادة تجريهم على المعاصي، وإنما هي لبيان الترغيب في التوبة وسعة رحمة الله تعالى، قال الشيخ الحسين الطيبي ـ رحمه الله ـ في شرح المشكاة في الكلام على معنى الحديث الثاني: لم يرد هذا الحديث مورد تسلية المنهمكين في الذنوب، وقلة الاحتفال منهم بمواقعة الذنوب، على ما يتوهم أهل الغرة، فإن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ إنما بعثوا ليردعوا الناس عن غشيان الذنوب، بل ورد مورد البيان لعفو الله تعالى عن المذنبين، وحسن التجاوز عنهم ليعظموا الرغبة في التوبة والاستغفار، والمعنى المراد من الحديث: هو أن الله تعالى كما أحب أن يحسن إلى المحسن، أحب أن يتجاوز عن المسيء، وقد دل على ذلك غير واحد

من أسمائه: الغفار الحليم التواب العفو، لم يكن ليجعل العباد واحداً كالملائكة مجبولين على التنزه من الذنوب، بل يخلق فيهم من يكون بطبعه ميالاً إلى الهوى متصفاً بما يقتضيه، ثم يكلفه التوقي عنه، ويحذره عن مواتاته، ويعرفه التوبة بعد الابتلاء، فإن وفى فأجره على الله، وإن أخطأ الطريق فالتوبة بين يديه، فأراد النبي ﷺ: لو كنتم مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة لجاء بقوم يتأتى منهم الذنب فيتجلى عنهم بتلك الصفات على مقتضى الحكمة، فإن الغفّار يستدعي مغفوراً، كما أن الرزّاق يستدعي مرزوقاً. أقول: تصدير الحديث بالقسم رد لمن ينكر صدور الذنب عن العباد ويعده نقصا فيهم مطلقاً، وأن الله تعالى لم يرد من العباد صدوره كالمعتزلة ومن سلك مسلكهم، فنظروا إلى ظاهره وأنه مفسده، ولم يقفوا على سره أنه مستجلب للتوبة والاستغفار الذي هو موضع محبة الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، «وأن الله يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار والله أشد فرحاً بتوبة عبده» الحديث، ولعل السر في هذا إظهار صفة الكرم والحلم والغفران، ولو لم يوجد لا نثلم طرف من صفات الألوهية، والإنسان إنما هو خليفة الله في أرضه، يتجلى لهم بصفات الجلال والإكرام والقهر واللطف، والملائكة لما نظروا إلى الجلال والقهر قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، والله تعالى حين ظهر إلى صفة الإكرام واللطف قال: إني أعلم ما لا تعلمون، وإلى هذا المعنى يلمح قوله ﷺ لذهب الله بكم»، ولم يكتفِ بقوله: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون» والله اعلم. انتهى كلامه. ومعنى العجب هو الاعتماد على العمل واعتقاد الكمال فيه والفرح به، مع نسيان نعمة الله عليه وعدم الخوف من زواله، والسلامة من هذه الآفة أن يغيب عن شهود العمل بالكلية أو يستحقر وجوده، أو أن لا يلتفت إليه ولا يعده شيئاً إلا إن تفضل الله عليه بقبوله وسامح عمَّا فيه من التقصير، وعفا عن عامله عن تقديمه إلى جناب مولاه مع قصوره عن القيام بما يرضاه وبما يستحقه من وجوب شكره، ويستحضر عند ذلك ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، وقد سئل بعض العارفين: ما علامة قبول العمل؟، قال: نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ قال: فعلامة رفع الحق تعالى ذلك العمل أنه

لا يبقى عندك منه شيء، فإنه إذا بقي في نظرك منه شيء لم يرتفع إليه لبينونته بين عنديتك وعنديته، وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما استحسنت من نفسي عملاً فاستحسنته، وقد مرَّ أول الكتاب ذكر معاصي القلب ومعاصي الجوارح، ومراد سيدنا الناظم للحفظ من جميعها، فتكون أل في قوله من المعاصي للاستغراق، أو للجنس الشامل لكبائرها وصغائرها، وقد مرَّ ما أشرنا إليه من تكراره ياء النداء للاسم الكريم، وهو الرب في هذه المسألة المهمة، وهي طلب الحفظ من المعاصي اهتماماً بشأن هذا الأمر، لأن كثرة الطاعات مع مسامحة النفس بشيء من اتباع الشهوات قليلة الجدوى، فضلاً عن مسامحتها بشيء من المعاصي والسيئات، من ترك الواجبات أو ارتكاب المحرمات والمحظورات، قال الشيخ محمد بن عبدالله العيدروس علوي ـ نفع الله به ـ في أثناء فصل في إيضاحه: التقرب إلى الله تعالى يكون بفعل الطاعات واجتناب المعاصي، أهم عند العارفين من الإكثار من الطاعات مع التسامح في ارتكاب شيء من المآثم، قال الله تعالى: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ قال بعض العارفين: ليس من عمل بطاعة الله صار قريباً من الله تعالى، لكن من اجتنب ما نهى الله عنه صار قريباً من الله، لأن الأعمال من البر وفعل الخير يعملها البر والفاجر، ولا يجتنب الآثام إلا صديق مجرب، فقد يستكثر الإنسان من أعمال البر ونفسه غير زاكية، لأنه قد يكون أهمل تأسيس أعماله على التقوى، وتساهل في ارتكاب شيء من المحرمات، فيفسد عليه قلبه من حيث لا يشعر، قال كعب الأحبار رضي الله عنه: تجد الرجل يستكثر من أعمال البر ولعله لا يساوي جيفة حمار، لقلة علمه وعمى بصيرته، وتجد الرجل ينام الليل ويفطر النهار ولعله عند الله من المقربين، لما قسم له من العقل.. إلى آخر ما طال به في ذلك مما لا يسمح بحذف حرف لولا خشية الإطالة.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

يا ربنا احمنا من أنواع الفتن   وعافنا فيما ظهر وما بطن

يسأل ـ نفع الله به ـ من ربه تعالى الحمية مما يخاف من أهل الوفاق والخلاف من جميع أهل الأطراف، ومن أنواع الفتن التي هي موارد المحن، وجعلها أنواعاً

لأنها كذلك، فمنها ما يتعلق بالدين والدنيا، ومنها ما يتعلق بالموت وما بعده من البرزخ والميزان والصراط والحساب وغير ذلك، قال الإمام ابن علان ـ رحمه الله ـ في شرح الأذكار على استعاذته ﷺ من فتنة المحيا والممات: أي الحياة والموت، ويحتمل أنه زمن ذلك لأن معتل العين منه يأتي منه الثلاثي المصدر والزمان والمكان بلفظ واحد، والمراد الاستعاذة من جميع فتن الدارين في الحياة من كل ما يضر ببدن أو دين أو دنيا للداعي ولمن له به تعلق مع عدم الصَّبر، وفي الموت قبيله عند الاحتضار من تسويل الشيطان بالكفر حينئذ بطرائق جاءت في الأخبار، ومن شدائد سكراته، وأضيفت إلى الممات لقربها منه وبعده من سؤال الملكين مع الخوف والانزعاج وأهوال القبر وشدائده، وقد صح في حديث أسماء إنكم تفتنن في قبوركم مثل أو قريباً من فتنة الدجال»، وحينئذ فلا يكون مكرراً مع عذاب القبر، لأن عذاب القبر مرتب على فتنة الممات ومتسبب عنها، والسبب غير المسبب، ولكون عذاب جهنم وعذاب القبر أعظم فتن الممات، وفتنة الدجال أعظم فتن الدنيا، خصت بالذكر، وعطف على الأولين من عطف العام على الخاص، وعكسه في قوله: «وفتنة المسيح. .» إلى آخره، والعطف بنوعيه شائع سائغ، وحكمة تقديم عذاب القبر على فتنة الدجال وغيرها أن عذابه أطول زمناً منه وأبلغ مكانةً، وأفظع موقعاً وأخوف هلاكاً لخطره، وتأخير فتنة الدجال أنه إنما يقع آخر الزمان قرب قيام الساعة.

فائدة: قال القاضي رحمه الله: الفتنة عرفاً اختيار كشف ما يكره، يقال: فتنت الذهب إذا أدخلته في النار لتختبره وتنظر جودته، ويسمى الصائغ: الفتان، وماضيه فتن، ويمكن أن يكنى عن الكفر في الحياة والممات، لأنها نتيجة فتنته وزبدة تلبسه. انتهى. وقال الإمام الطيبي رحمه الله تعالى الفتنة صرف الناس عن الدين وحملهم على الضلال قال الله تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ﴾ أي بمضلين. انتهى، ومن أنواع الفتن فتنة حب المال وفتنة النساء، أخرجه الترمذي وصححه عن كعب بن عياض رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال»، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الله

والنساء، فإن أول فتنة في بني إسرائيل النساء» أخرجه مسلم والنسائي، ومن أنواع الفتن العظيمة: عالم متهتك وجاهل متنسك، وقال ﷺ: «أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال، قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: علماء السوء»، وقال الشاعر:

فساد كبير عالم متهتك ... وأكبر منه جاهل متنسك

هما فتنة للعالمين كبيرة ... لمن بهما في دينه يتمسك

والفتن لا تنحصر في نوع ولا تقدر بضابط، أعاذنا الله من جميعها في الدين والدنيا والآخرة، وهنا منزع صوفي فيه تنبيه للسائرين من المريدين السالكين. قال الشيخ ابن عطاء الله ـ نفع الله به ـ في حكمه: ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلبه أمامك، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادتك حقائقها: إنما نحن فتنة فلا تكفر، قال الشيخ ابن عباد في شرحه عليها: السائر إلى الله تعالى تتجلى له في أثناء سلوكه أنوار وتبدو له أسرار، فإن أرادت همته أن تقف عند ما كشف له من ذلك لاعتقاد أنه وصل إلى الغاية القصوى والنهاية من المعرفة، نادته هواتف الحقيقة: الذي تطلبه أمامك فجد في السير ولا تقف، وإن تبرج له ظواهر المكنونات بزينتها فمال إلى حسنها وجمالها نادته حقائقها الباطنة: إنما نحن فتنة فلا تكفر وغض عينيك عن ذلك ولا تلتفت إليه، ودم على سلوكك وسيرك. انتهى.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه: (وعافنا فيما ظهر وما بطن)، فيه التوسل إلى مولاه أن يرزقه هو ومن والاه الخصلة الجامعة والخلة النافعة، وهي العافية في الظاهر والباطن. قال في القاموس: العافية دفاع الله عن العبد، عافاه الله من المكروه معافاة وعافية، وهب له العافية من العلل والبلا كأعفاه، والمعافاة أن يعافيك الله من الناس ويعافيهم منك. انتهى، وقال ابن علان في شرح الأذكار: والعافية من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في الدين والدنيا والاخرة، وفي موضع آخر قال: هي السلامة من الآفات الدينية، والنقائص الحسية والمعنوية، والحادثات الدنيوية، وعدم الابتلاء بها والصبر عليها، والرضا بقضائها، ولجمع العافية لذلك كان الدعاء بها أجمع الأدعية، وكان السبب في قوله ﷺ للعباس لما سأله أن يعلمه دعاء: سل الله العافية في الدين والدنيا والآخرة

وفي بهجة المجالسة عن عائشة رضي الله عنها قلت: يا رسول الله ما العافية؟ قال: العافية في الدّنيا القوة وصحة الجسم وستر العورة والتوفيق للطاعة، وأما في الآخرة فالمغفرة والنجاة من النار والفوز بالجنة. انتهى.

قال: والعافية في الدين دوام الترقي في كمالاته، والسلامة من نقص يهوي بالعبد إلى دركاته، وفي الدنيا سلامته من النكبات المذكورة والمعيشة المنغصة، وفي الأهل والمال أن لا يرى فيهما ما يسيء. انتهى من الكتاب المذكور.

وقال بعض العلماء العارفين: قيل: هي ـ أي العافية ـ لغة: هو رفع العفا، وهو الهلاك، والمراد بها أن يكون للرجل كفاف من القوت، والقوة للبدن على العبادة بحيث لا يمنعه عن الاشتغال بأمر الدين علما وعملا، ويترك ما لا ضرورة فيه، ولا خير في وجوده، ولذا كان الشبلي رحمه الله إذا رأى أحداً من أرباب الدنيا الفانية، قال: اللهم إني أسألك العافية وقيل العافية لا يكلك إلى غيره، وقيل هي نفس بلا بلا وصاحب بلا جفا، ورزق بلا عنا، وتجمل بلا ريا، وتجارة بلا ربا، وسئل الحكيم ما العافية عندكم، قال: دين قويم، وقلب سليم، وبدن سقيم، والتوكل على الكريم، وقيل: هي قرار القلب مع الله تعالى لحظة، وقال الشبلي: هي سلامة الدين من البدعة، والعمل من الآفة، والنفس من الشهوة، والقلب من الأمنية وقيل: هي حقيقة لقاء العبد مع الله تعالى، وهي على ثلاثة أقسام: عافية العام: أن يكون لسانه رطباً بذكر الله، فلا يشتغل بذكر غير الله مع الله، وعافية الخاص: أن يكون أركانه مشغولاً بخدمة الله عن خدمة غير الله، وعافية أخص الخواص: أن لا تكون همته إلى غير الله، وقيل: هي الاستقامة في الدين، ومصاحبة الصالحين، وزيادة الطاعات، على ممر الساعات، والوصول إلى أعلى الدرجات، وقال ذو النون المصري رحمه الله: العافية في قميص العبودية إلى أبد الآبدين، وسئل أبو بكر الوراق رحمه الله ما العافية؟ قال: أن يختم للعبد بالشهادة ثم يبعث في زمرة الولاية، يمر جسر جهنم بالسلامة ثم يدخل الجنة، فذلك العافية، وقال بعض العارفين: هي عشر خصال خمس في الدنيا وهي: العلم والعمل والإخلاص والشكر والرضا بالقضاء، وخمس في الآخرة، وهي: بياض الوجه ورجحان الميزان

بالحسنات والجواز على الصراط والنجاة من النيران والدخول في الجنان مع رؤية الجمال والرضا للرحمن، وقد ورد: «ما دعوة يدعو بها العبد أفضل من: اللهم إني أسألك العفو والعافية»، ونقل عن السيوطي ـ رحمه الله ـ أنه قال في شرحه على مسلم: إنها من الألفاظ العامة المتداولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن في الدين والدنيا والآخرة. انتهى.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

يا ربنا اكفنا من الأعداء ومن جميع الهم والأسواء

أتى في هذا البيت بتخصيص بعد تعميم، زيادة في طلب كفاية هذا المهم العظيم، إذ بكفاية الأعداء الظالمين تكثر البراهين، وتنزاح الشبه عن حقائق اليقين، وتثبت أقدام السالكين، وأعدى الأعداء نفسك التي بين جنبيك فإذا كفيت همها، وكانت مطيعة لك مطمئنة في حربها وسلمها، بلغت بساط الأنس، منزهاً في حضرة القدس، يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وبساط الأنس كما قال ابن عطاء الله: محل المفاتحة والمواجهة، والمجالسة والمحادثة، والمشاهدة والمطالبة، فهي معشعش قلبه، يأوي إليها وفيها يسكن. قال الشارح: وحضرة القدس وبساط الأنس هما موضع محط الرحال وبلوغ الأوطار والآمال، من قِبَلِ أن السالك تمحى عنه رسوم بشريته وتبطل أحكام نيته، وينكشف له إذ ذاك أوصاف معرفته كرأي العين، ويكون سره مع الله تعالى بلا أين، فلما وصل إلى هذه الحضرة العلية ونال هذه المنقبة السنية، قوبل بأنواع من المكرمات والألطاف، من تحف السادات الأشراف. انتهى، فإذا كان الواصل في هذه الحضرة متنعماً بفواكه هذه المعاني، كفي أيضاً من العدو الثاني، وهو إبليس اللعين وجنوده من الجن والإنس، فلا سبيل لهم عليه، ولا وصول لهم إليه، وكفي أيضاً من ورود الهم وأسبابه، لاضمحلال نيران الهوى وأحزابه، وكل ما يصلى به من الأسواء والدعوى، مما سببه وجود الحجاب والنوى، وعلامة زوال الهوى، وهذه الأوصاف الدال نفيها على الميل على محبة السوى وهجر المولى، هو ما قال بعضهم: حقيقة زوال الهوى عن القلب حب لقاء المولى في كل نفس من غير اختيار، حالة يكون المرء عليها،

فإذا وجد المريد هذه العلامات في نفسه، فقد خرج من عالم جنسه، ووصل إلى حضرة قدسه. انتهى، وأما من لم يبلغ إلى هذه المنازلات التي لا تعرف إلا بالذوق الحاصل لأهل الكشف والنور، ولم يصل إلى تلك الحضرة المحفوفة بالأنس والنور، فهو ذائب بمرض همه، مكبل في ظلمات حزنه وغمه، تتجاذبه الأعداء وتكدره الأهواء وتميل به الأسواء، فحينئذ لا يفيده إلا التسليم، والرضا بتقدير العزيز العليم، وانتظار ما عنده تعالى مما قسم له في سابق الأمر القديم. قال الخطابي: لا ينبغي للمؤمن أن يهتم بشيء من أمور الدنيا، فإن الله تعالى قدر الأمور وأحكمها، وقسّم الأرزاق وقسمها، فلا يجلب الهم للعبد خيراً في دنياه، ولا يأتيه ما لم يقدر له، وكان عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ يقول: اللهم رضِّني بالقضاء وحبب إليّ القدر، فلا ينبغي له أن يهتم على شيء فاته من الدنيا، ولا يتهم ربه فيما قضى له من الخير، وإنما ينبغي للعبد الاهتمام بالآخرة وعرضه على ربه، وكيف ينجو من سؤاله، ففي ذلك يحسن الهم والبكاء. انتهى. وأيضاً فعلى من هذا حاله التطلع والتولع والاشتياق إلى بلوغ مقامات أولئك الرفاق، وليسر بسيرهم ويشرب بكأس ديرهم، ويحصل رزقه إليه ويهديه إلى السبيل والمقامات، فكلٌ ميسر لما خلق له من التجليات، فالقسمة أزليّة، والأسباب مرتبة على تلك الأوليّة، كما ورد به الكتاب العزيز: نحن قسمنا نحن قدرنا، رزقنا الله مما قسمه لأوليائه حظاً وافراً من الصفا والوفا، وبلوغ المنا والهنا، آمين.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

يا ربّ سلمنا من المصائب   وجد لنا بأرفع المراتب

ضمّن في هذا البيت طلب السلامة من المصائب، وهي جمع مصيبة، فالمصيبة تعم ما يصيب الإنسان من مكروه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة»، فإذا حصلت السلامة من المصائب، فسلامة الأبدان من العيوب والذنوب، وسلامة القلوب من الشك والشرك والنفاق وسيء الأخلاق، وعدم الابتلاء بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وغير ذلك مما يطول عده مما هو في مقابل النعم الظاهرة والباطنة، الذي أسبغها البر الجواد على جميع العباد،

فمن خوله الله شيئاً وأبقاه عليه، فقد امتن بالعافية السابق معناها آنفاً عليه، وبالسلامة من المصائب الموعود بها في هذا البيت، وقد ألبس درع اللطف ودخل حصن الأمان، فإن وفق للشكر الذي تضمنه معنى العافية، فاز بالحسنيين وحاز سعادة الدارين، ومن سلب شيئاً من النعم ـ والعياذ بالله ـ مما خوَّله الله فهو مصيبة في حقه، فعليه بالاسترجاع والطمأنينة، والتمسك بالمسكنة والسكينة، والرجوع إلى من بيده الخلق والأمر، والحول والقوة والقهر، فإن كانت المصيبة مما يتعلق بالدنيا فليرجُ فضل الله وحسن الخلق، والأكمل أن يجعله تعالى خلفاً عن كل سلف، كما قيل:

لكـل شـيء إذا فـوتـه عـوض وليـس لله إن فـوت مـن عـوض

وإن كان مما يتعلق بالدين، فليرجع إلى التوبة ويعترف أن ذلك أتاه من سوء أدب مع الله، أو حظ نفس لغير ما يرضاه، ويلجأ إليه تعالى في أن يقبله ويبدل خطيئته حسنة، ويرجو أن يكون ذلك من قبيل قول القائل، وهو ابن عطاء الشاذلي رضي الله عنه: إن وقع لك ذنب فلا يكن سبب بؤسك من قبيل الاستقامة مع ربك، فقد يكون ذلك آخر ذنب قدّر هنا، ويستحضر هنا قوله أيضاً: ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه وتعالى هو المبتلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار، وقوله: لا تستغرب ورود الأكدار ما دمت في هذه الدار، ثم يتعزى بآيات الصبر وأخباره، وما ورد من آثاره، فإن ذلك مما يعين على زوال ألم المصيبة أو تخفيفه، وقول سيدنا الناظم قدس الله روحه: (وجد لنا بأرفع المراتب) فيه إشارة إلى طلب مقام الصديقية الكبرى، لأن ما بعده رتبة إلا رتبة مقام النبوة، وما دون هذا المقام داخل فيه ومندرج تحته، سواء حصل هذا المقام بتدريج السلوك في الترقي إليه، أو بالجذب الحاصل لديه.

ولعل مراده بأعلى المراتب رتبة الإنسان الكامل، هي جميع المراتب الإلهية والكونية من العقول والنفوس الكلية والجزئية، ومراتب الطبيعة إلى آخر تنزلات الوجود، وتسمى بالمراتب العمانية أيضاً. انتهى، والظاهر أن هذا وصف القطب، لأنه قال فيه أيضاً: القطب، وقد يسمى غوثاً باعتبار التجاء الملهوف إليه، عبارة

عن الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى، في زمان أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، بيده قسطاس الفيض الأعم، وزنه يتبع علمه، وعلم يتبع علم الحق، يتبع الماهيات الغير مجعولة، فهو يفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وهو قلب إسرافيل من حيث حصة الملكية الكاملة مادة الحياة والإحساس، لا من حيث إنسانيته، وحكم جبريل فيه كحكم النفس الناطقة في النشأة الإنسانية، وحكم ميكائيل كحكم القوة الجاذبة فيها، وحكم عزرائيل فيه كحكم القوة الدافعة فيها. انتهى، فيا لها من مرتبة جامعة، وإليه يشير قول سيدنا الشيخ عبد الله الحداد:

إن شئت تعرفه وتعرف وصفه ... بطريقة الإجمال فاسمع سائلي
هـو سيـد متـواضـع متخشـع ... ورع تقـي زاهـد فـي العـاجـل
الشـرع سيـرتـه الحقيقـة حـالـه ... ومـن العبـودة بـالمقـام الحـافـل
بـرٌّ رحيـم بـالخـلائـق كلهـم ... يرعى الوجود بعين لطف شامل
يمتد من بحر البحور محيطها ... غـوث الأنـام بعـاجـل وبـآجـل
صلى عليه الله ما هبَّ الصَّبَا ... أو سـار حـاد قصـده بـرواحـل

وقد مر في أول هذا الشرح الإشارة إلى ذكر مقام القطب من الأولياء نفع الله بهم.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

يا ربِّ خصِّصنا بكل ما نحب ... وأولادنـا وإخـواننـا ومـن صحـب

لمَّا تحرى ـ نفع الله به ـ في هذه الأبيات، من المسائل والدعوات الجوامع الكوامل لجميع الخيرات، العاجلة والآجلة، الدينية والدنياوية والأخروية، الحسية والمعنوية، مما مر تفصيله مع شرحه، رجع في هذا البيت الإبراهيمي، وهو مقام التفويض والرضا بما أحبه الله واختاره لعبده، من كل مقام وحال وعلم وعمل وغير ذلك، في كل حالاته وسائر تطوراته، ومن دعاء الشيخ القطب الشهير شعيب أبي مدين رضي الله عنه: اللهم إن العلم عندك وهو محجوب عني، ولا أعلم أمراً اختاره لنفسي، وقد فوضت إليك أمري، ورجوتك لفاقتي وفقري،

فأرشدني اللهم إلى أحب الأمور إليك وأرضاها عندك، وأحمدها عاقبةً لديك، في خير وعافية، إنك تفعل ما تشاء، وأنت على كل شيء قدير، ولله در القائل:

وأترك ما أهوى لما قد هويته وأرضى بما تهوى وإن سخطت نفسي

قال في الإحياء: قال بعضهم: أحببت كل شيء يحبه الله، حتى لو أحب النار لأحببت دخولها، وقال بشر بن الحارث رحمه الله: قصدت عبادان في بدايتي، فإذا أنا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع، والنمل تأكل لحمه، فرفعت رأسه فوضعته في حجري، وأنا أردد الكلام، فلما أفاق قال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي، لو قطعتني إرباً إرباً ما ازددت لك إلا حبا، قال بشر: فما رأيت بعد ذلك نعمة بين عبد وربه فأنكرتها، ومن معانيه الصحيحة أنه ـ قدس الله روحه ـ طلب أن يخصصه بكل ما يحبه من أفعال الخير وأنواع البر، وأشرف المقامات وأصفى الأحوال وأسنى مراتب الرجال، التي تقتضي الرفعة عند الله تعالى والقرب منه والمحبة له، ويدل لهذا المعنى قوله ﷺ: «إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب» وهذا الحديث يزول به الإشكال في قول سيدنا الناظم قدس الله سره ونفع به: (يا رب خصّصنا بكل ما تحب)، إن مراده تقييد إطلاق ذلك بما يحبه الله من الخير والعمل الصالح، والتوفيق لطاعته وموافقة أمره لا غير، لأن ما قدره وقضاه على العبد من غير ذلك لا يطلق عليه أنه يريده ولا يحبه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وفي آيات أخر ما يدل له أيضاً كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، و﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات، فالإرادة غير المحبة كما هو مذكور في كتب الأصول، وقد حقق هذه المسألة أتم تحقيق الإمام الغزالي قدس الله روحه، ومن هنا ينبغي لقارىء المسبعات، إذا قال: اللهم افعل بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل، أن يقيد إطلاق ذلك بنحو: ما أنت له أهل من الجود والكرم والإحسان، والإفضال والإنعام، واللطف والتوفيق، ودوام الإيمان

والعصمة من موجبات السخط والنقص، وغير ذلك، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل مما نستحقه من العقوبة لتقصيرنا وإساءتنا وجرمنا، ونحو ذلك، فإنه إذا أطلق القارىء فربما يوافق ساعة إجابة والحق متجلي فيها بالقهر والانتقام، فتتوجه إليه القدرة بوجه من أوجه السطوة والعياذ بالله، وإنما الحق سبحانه وتعالى عالم بحقائق الأمور وموضوعات الأشياء من أصلها من كل قول وعمل لما وضع له، فليعامل الداعي والمتوجه إليه بأصل ذلك الموضع، لأنه تعالى لا يماكر ولا يخادع إلا من ما كره أو خادعه، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة: ٩]، وأما من وفق لعمل البر مخلصاً فيه له تعالى فقد وعده بتوفية أجره، قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠]، ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ [إبراهيم: ٥١]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]، إلى غير ذلك من الآيات البينات، والذي يليق بالعبد القاصر أنه إذا قام بما استطاع مما أوجبه الله عليه وندبه إليه، أن يبقى متحلياً بمقام الخوف والرجاء السابق شرحهما، ثم قول سيدنا وشيخنا الناظم نفع الله به: (وأولادنا وإخواننا ومن صحب) صريح فيما قدمناه، من أنه أتى بصيغة الجمع في جميع هذه الدعوات ليدخل المذكورون، وهم الأولاد نسباً وروحاً والإخوان والأصحاب كذلك، مراعاةً لحقوقهم وقياماً بها، لأن ذلك من شأن أهل الكمال.

ثم عقب ذلك بقوله رضي الله عنه:

وارض إلٰهي عن مشايخنا الجميع   وهب لنا من فضلك الجم الوسيع

خصص المشايخ بالترضي عنهم، تنويهاً بشأنهم ومعرفةً بشريف مكانهم، لأنه لا أنفع ولا أرفع للعبد من رضا الله تعالى في دار كرامته ومستقر رحمته، قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التوبة: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ

ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، فالقيام بحق المشايخ وطلب رضاهم ورضا الله عنهم، شأن الموفقين من عباد الله الصالحين، والأولياء العارفين، لأنهم هم الوسائط بين الله وبين العباد، وقد ورد «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»، ومن القيام بحقهم الدعاء لهم، والترضي عنهم في حياتهم وبعد مماتهم، لقوله ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له»، ولا مكافأة أعظم من الدعاء لا سيّما في حق المشايخ، لأنهم لكمال اتباعه له ﷺ، ولإخوانه وآبائه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، لا يبتغون أجراً في مقابل إرشادهم الخلق إلى الله تعالى، قال الله تعالى آمراً لأفضل الخلق عنده وأعزهم عليه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣]، فهم يطلبون بذلك رضا الله تعالى وابتغاء الزلفى لديه يوم القيامة ومجاورته في الجنان، ولأن بذل الدنيا وإن عظم لا يفي بأدنى خصلة من خصال الدين والخير، فما يبقى إلا مكافئتهم بالدعاء، كان الإمام أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما صليت صلاة قط إلا ودعوت لشيخي حمّاد، ولكل من تعلمت منه علماً أو علمته، وقد سمعت سيدنا الناظم ـ رضي الله عنه ـ عند وفاة سيدنا حامد بن عمر قدس الله روحه، لما مات وهو بتريم بعد ما رجع من زيارة نبي الله هود ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: عساه مات وهو راضٍ عنَّا، قال ذلك على وجه الخوف من أنه ربما ما يتأدب معه كما ينبغي، وما حمله على ذلك إلا كمال معرفته بحق المشايخ وشدة اتهامه لنفسه، وإلا فحاله معروف عند من له أدنى مخالطة له، فإنه ـ رضي الله عنه ـ كان وافر المعرفة كامل المعرفة، لا يغفل عن أدب من آداب الشريعة والطريقة، والقيام بحق حملة العلم فضلاً عن حقوق المشايخ، وكان ـ نفع الله به ـ دأبه المثول بين يديهم مع الخشوع والتواضع، وحفظ الخواطر والخوارج عن كل مناقض ومناف لما يستحقونه، إذ كان ـ رضي الله عنه ـ متبحراً في علوم الطرائق عارفاً بآدابها، عاملاً بها في كل حالاته، وقد أطال أهلها نقل ما يتعلق بهذا الأدب، ومنه ما قاله الشيخ الإمام عبد الخالق المزجاجي في شرح قصيدة الإمام الناشري في مدح السيد محمد باري نفع الله بهم: ومن أراد نظر المشايخ إليه وملاحظتهم إياه، فليلزم الأدب معهم، ولا

يكتم عنهم شيئا سألوه عنه حتى يقتبس من أنوارهم وأنفاسهم، فإن سوء الأدب مانع من الوصول إلى حضرة الله تعالى، لأنهم واسطة الحق فيما بينهم وبين الله تعالى، لمعرفتهم بالطريق الموصل ومقاطعها ومهالكها المعوقة للمريد والقاطعة له، فهم أدلاء الطريق إلى الله تعالى وهداتها، ومن كان كذلك فالأدب لازم له، ومن قال لشيخه في شيء أمره به: لِمَ؟ لا يفلح أبداً، لأن في ذلك تهمة، وللمشايخ مكر خفي إلهي، فليحذر المسلم كل الحذر من المسامحة معهم والتقصير في الأدب، وان انبسطوا معه غاية الانبساط، ولله غيرة عليهم لا تخفى على من نور الله بصيرته. انتهى، والكلام في هذا المقام يطول، رزقنا الله رضا المشايخ، وجعلنا في مقام الأدب معهم، من أهل القدم الراسخ، وختم سيدنا الناظم ـ نفع الله به ـ دعواته بقوله: (وهب لنا من فضلك الجم الوسيع)، أتى بهذا الإجمال بعدما فصله من السؤال، إيماءً إلى أن توالي نعم الله تعالى وفائض أفضاله، وجاري إحسانه، وسابغ آلائه، لا يحد بحد، بل هو الممتنع عن الإحصاء والعد، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾، وبعضه لا يخطر في بال ولا يطرق سمعاً ولا يكون مرئياً بعين، ويكون ما يعرف من الآلاء والنعم ويعهد من حيث علمها ومعرفتها، بالنسبة إلى قاصر النظر كنظرة الذرة إلى ما حواليها، وما نظره فوق نظرها من الحيوانات يتسع نظره عليها بالنسبة إلى نظر البصر، ثم يكون نظر البصيرة بالنسبة إلى أهلها كذلك، كل على قدر استعداده وصفاء قلبه وإشراق نوره وتمام كشفه، بالنسبة أيضاً إلى معرفة النعم وقدرها فضلاً عن معرفة المنعم بها، وإلى هذا المعنى يشير ما جاء في بعض أحاديث الفضائل: من فعل كذا أعطاه الله تعالى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومنه قوله ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»، وقول الشيخ عبد الرحمن الأخضر باهرمز للشيخ الفقيه عمر بامخرمة نفع الله بهما: أجزتك فيما لم يطلع عليه نبي مرسل ولا ملك مقرب، كل ذلك دليل على سعة الفضل العظيم، عاملنا الله في الدارين بفضله وجعلنا من أهله.

ثم قال سيدنا وشيخنا الناظم قدس الله روحه:

دعـاك ذا العبـد بـأربـاب الهنـا مـؤرخـاً بـالفيـض زد يـا ربنـا

أي دعاك عبدك الفقير، المحتاج إلى فضلك وإحسانك وجودك وكرمك وامتنانك، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، ورغبة فيما عندك لقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾، ورجاء لما في التعريض من اقتران الإجابة في الدعاء، في قولك: «أجيب دعوة الداعي إذا دعان»، ولغير ذلك مما ورد فيه أنه مخ العبادة، وأنه لا يرد القضاء إلا الدعاء، وأنه غير مناقض للرِّضا، وقوله نفع الله به (دعاك ذا العبد) فيه معنى تجريد شخص من نفسه، وهو أبلغ في الاستكانة والإشارة إلى نهاية العجز والضعف، ولا سيِّما مع اقتران النية بالعبودية، ولذا قال الفقهاء والمفسرون: لم يذكر النبي ﷺ، في أشرف المقامات وأعلى الأحوال إلا بالعبودية، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقوله نفع الله به: (بأرباب الهنا) أي متوسلاً إليه بهم في أن يتقبل منه دعواته، ويقضي بجاههم عليه حاجاته، لأنهم أعظم الشفعاء إليه، لانتمائهم إلى جنابه ووقوفهم بين يديه، بعد فناء حظوظهم واضمحلال شهواتهم، وتقديمهم لمراده على مرادهم، فحقيق أن يشفعهم لمن توجه به إليهم في نيل المطلوب، ويحكمهم فيما يليق بأحوالهم من التصرف في خزائن الغيوب، لتقر أعينهم بما يرون من إكرامه لهم، ويستدلون به على رضائه عليهم، وقد مر أول شرح أبيات الدعاء برهان جواز ذلك وصحته عقلاً ونقلاً، وكذلك في شرح المقدمة فلينظر من هناك، وقوله: (مؤرخاً) حال يحتمل أن يكون من دعاك ذا العبد، أي دعاك بهذه الدعوات المنتظمة في هذه الأبيات حال كونه مؤرخاً لها ولما قبلها من أبيات القصيدة، أو حال من فاعل محذوف تقديره: نظمت مؤرخاً، وقوله: (بالفيض) متعلق بالحال المذكور، أي مؤرخاً بحروف كلمة الفيض وما بعدها، سائلا قبول الإجابة لما في معناها من الزيادة من الفيض الأقدس الإلهي، والفيض المقدس الذي هو غير متناهي، وقد سبق معناهما في أول شرح قول سيدنا الناظم:

ثــم الصــلاة والســلام الأبــدي   علــى النبــي الممــد أهــل المــدد

ثم قال نفع الله به:

تمـت وصلـى الله كـل حيـن   علـى النبـي المصطفـى الأميـن

ختم هذه المنظومة العظيمة بالصلاة على النبي ﷺ تبركاً وتيمناً بالصلاة عليه في أول المنظومة وآخرها، امتثالاً لما أمر الله تعالى به أصحابه خصوصاً وجميع المؤمنين عموماً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ولندب الإتيان بها في أول كل دعاء وآخره ليستجاب كما ورد، ولأن المصلي عليه بأي صيغة كانت مؤدٍ لحقه العظيم، الذي أوجبه الله تعالى على عباده المعلوم من هذه الآية ومن غيرها، وقائم له بالحرمة التي يستحقها من تعظيمه والاشتغال بأداء حقه عن مقاصد نفسه، وإيثاره بالدعاء له على نفسه، وقد وافق المصلي عليه لموافقة الحق، ودخل في زمرة الملائكة المقربين بل جميع العالم العلوي والسفلي، كما يقتضيه لفظ الآية وسياقها، قال ابن علان رحمه الله: ومعنى اللهم صل على محمد: عظمه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شرعه، وفي الآخرة تشفيعه في أمته وإجزال أجره ومثوبته، وإبداء فضله للأولين والآخرين بالمقام المحمود، وتقديمه على كافة المقربين الشهود.. إلى آخر ما أطال به في هذا المعنى، ولمَّا قال الصحابي للنبي ﷺ كم أجعل لك من دعائي[1] يا رسول الله؟ فلم يزل يذكر الزيادة وهو ﷺ يرغبه فيها ويحثه عليها، حتى قال له: إذاً أجعل لك صلاتي كلها، فقال له: إذاً تكفى همك، وذلك لأن الصلاة مشتملة على ذكر الله تعالى، وقد حكى ﷺ عن الله تعالى أنه قال: «من شغله ذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»، وورد عنه ﷺ: «أن من صلى عليه مرة صلى الله بها عشراً»، وفضائل الصلاة عليه ﷺ والاشتغال بها أمر مقرر معلوم موقعه من الدين، لأنه الواسطة العظمى بين الله تعالى وبين عباده، وجميع الكائنات مستمدة من نوره، مشرقة من عالم ظهوره، وقد مرّ تحقيق هذا المبحث في شرح مقدمة هذه المنظومة، ولأكابر العارفين في وظيفة الصلاة وترتيب أورادها اعتناء تام، ولهم به احتفال واهتمام، فمنهم من

---

(١) قال في هامش الكتاب: لعلها صلاتي.

يكون ورده منها مائة ألف صلاة، ومنهم سبعون ألفاً، وذلك على قدر مشاهدتهم واستغراقهم في حبه، ومعرفتهم بمقام قاب قوسين ومقام أو أدنى، وقد ذكروا أن الصلاة عليه في آخر الزمان تنوب عن المشايخ المسلكين، وذلك لأمور ذكروها فيما يتعلق بسر الصلاة، وسر الله إلى الأسرار، وإسراعها في تصقيل القلوب وتصفية السر وتنوير البصيرة، وذلك لأن المتأهلين للتسليك المعهود في أول . .[1] بشروطه المعروفة وأحكامه المقررة، مستورون خاملون لطفاً من الله تعالى بهم وبأهل زمانهم، لئلا ينكروا عليهم فيحل بهم المقت، والعياذ بالله، والمقصود من تسليك المشايخ إنما هو التأدب بآدابهم والإستضاءة بأنوارهم، والسير إلى الله تعالى على طرائقهم وآثارهم، لترتيب الله سبحانه وتعالى الأسباب على المسببات، وإلا فما المقصود إلا حصول النور الذي يشرح الصدور، ويحصل بواسطته التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والسرور، والاستعداد للموت قبل نزوله المقدر المسطور، ومعرفة الله تعالى وأخذ العلم عنه. قال الإمام الشعراوي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (لواقح الأنوار): وقد رأيت مراسلة أرسلها الشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه إلى الشيخ فخر الدين الرازي صاحب التفسير، يبين له فيها بعض درجته في العلم، هذا والشيخ فخر الدين مذكور في العلماء، الذين انتهت إليهم الرئاسة في الاطلاع على العلوم، من جملتها: اعلم يا أخي ـ وفقنا الله وإياك ـ أن الرجل لا يكمل في مقام حتى يكون علمه عن الله تعالى بلا واسطة عن نقل أو شيخ، فإن من كان علمه مستفاداً عن نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ من المحدثات، وذلك معلول عند أهل الله عز وجل، ومن قطع عمره في معرفة المحدثات وتفاصيلها فإنه حظه من ربه، فإن العلوم المتعلقة بالمحدثات يفني الرجل عمره فيها ولا يبلغ إلى حقيقتها، ولو أنك يا أخي سلكت على يد شيخ من أهل الله عز وجل لأوصلك إلى حضرة شهود الحق تعالى، فتأخذ منه العلم بالأمور من طريق الإلهام الصحيح من غير تعب ولا نصب ولا سهر، كما أخذه الخضر عليه السلام، فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود، لا عن نظر وفكر وظن وتخمين، وكان الشيخ الكامل أبو

---

(١) كذا بياض بالأصل.

يزيد البسطامي ـ رضي الله عنه ـ يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتاً عن ميت، ونحن أخذنا علمنا عن الحي القيوم الذي لا يموت. انتهى كلامه.

ثم قال قدس الله روحه:

وآلـه أهـل العنـايـات الملـوك وصحبـه الأخيـار أربـاب السلـوك

أما آله الكرام فقد مر تعريف ما لهم من الشرف والاحترام والفضائل الفخام، وما أولاهم الله به من الاصطفاء، حيث جعلهم من عنصر هذا المصطفى، ولذا وصفهم سيدنا الناظم ـ قدس الله روحه ـ بأنهم أهل العنايات، أي الذين سبقت لهم عناية الحق الأزلية، وتجلى لهم بالخصوصيات العلية، الدال عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ويحتمل أن يكون معنى أهل العنايات أنهم لفتوتهم وشرف جبلاتهم وكرم طباعهم، يعتنون بمن ينسب إليهم بخدمة أو محبة أو طريقة، وقوله نفع الله به: الملوك أراد به الملك الحقيقي الذي كل فخر دونه، وهو ما جمع لهم من شرف الذات وشرف الصفات، الذي تذعن له الملوك وتمدّ رقابها له خاضعة متواضعة، كما قال الإمام اليافعي رضي الله عنه:

ملوك على التحقيق ليس لغيرهم من الملـك إلا اسمـه وعقـابـه

وقد مرت الحكاية الشاهدة بذلك، لما أراد هشام بن عبد الملك الأموي خليفة الدنيا أن يقبل الحجر، وأجهد نفسه في ذلك فلم يقدر، ثم نصب له منبر لينظر إلى الناس ومعه أهل الشام، فأقبل زين العابدين، فلما بلغ إلى الحجر تنحى له الناس حتى قبله، فقال بعض أهل الشام: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟، فقال هشام: لا أعرفه، فقال الفرزدق: لكني أنا أعرفه، وأنشأ قصيدته المشهورة، وقد أثبتناها في ترجمته، وما حكاه اليافعي في روضه عن ولد الخليفة هارون الرشيد الذي تجرد للعبادة واتصف بالفقر والزهادة، فمر به والده في موكبه فقال بعض جنده: هذا الولد قد فضح أمير المؤمنين، فوقف والده. فقال (أي الولد) لطائر كان هناك: بحق من خلقك إلا ما سقطت على أمير المؤمنين، فلم يفعل، فقال له:

بحق من خلقك إلا ما سقطت علي، فجاء إليه وسقط عليه، فقال ولد هارون: من هذا الذي فضحك أنا أم أنت فضحتني، فاعترف هارون والملأ الحاضرون بالملك الحقيقي لمثله، والحكايات في ذلك وشواهدها وبراهينها متواترة من المعقول والمنقول، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأما الصحب الأعلام أرباب السلوك التام، الذين قام الدين بنصرتهم علماً وعملاً وجهاداً، ومعرفةً وذوقاً وتحققاً ووعياً لأحكام الله، وتأديةً لها إلى عباد الله، المنزل في وصفهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ الآية [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية [الأحزاب: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات البينات عموماً وخصوصاً، وأما الأحاديث الواردة في فضلهم من حيث العموم أيضا فمنها قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»، وقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه» رواه مسلم، وقال ﷺ: «إن الله تعالى اختارني واختار لي أصحاباً، فجعل لي منهم وزراء وأصهاراً وأنصاراً، فمن سبّهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»، وفي رواية: «فمن حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة، ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله عنه، ومن تخلى الله عنه يوشك أن يأخذه»، وقال ﷺ: «إذا أراد الله برجل من أمتي خيراً ألقى حب أصحابي في قلبه»، وقال ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»، وقال ﷺ: «ما شأنكم وشأن أصحابي، ذروا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مثل عملهم يوماً واحداً»، وقال صلوات الله وسلامه عليه: «من لم يحفظني في أصحابي لم يرد عليَّ الحوض ولم يرني»، وقال ﷺ: «خير الناس قرني الذي أنا فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، والباقي أراذل» أي غالبهم، وفي رواية متفق عليها: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. . »

الحديث، قال شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي ـ رحمه الله ـ في شرح الهمزية بعد إيراده هذه الأحاديث: وهم أول داخل في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ولا مقام أعظم من مقام قوم ارتضاهم الله عز وجل لصحبته ﷺ، وأجمعوا على أن أفضل الناس بعد الأنبياء أبو بكر ثم عمر ثم علي، والأصح عثمان ثم علي، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة ثم أهل بدر، ثم أهل بيعة الرضوان، وقيل: أهل أحد، ذكر ذلك عند قول الناظم رضي الله عنه:

وبأصحابك الذين هم بعد ... ك فينا الهداة والأوصياء

أحسنوا بعدك الخلافة في ... الدين وكل لما تولى إزاء

أي بكسر الهمزة وفتح الزاي ككتاب، أي قيم بما تولاه، أهل له في أي بقعة أو زمن كان كيف وهم جميعهم عدول، كذا في الشرح ثم قال:

أغنياء نزاهة فقراء ... علماء أئمة أمراء

زهدوا في الدنا فما عرف ... الميل إليها منهم ولا الرغباء

ارخصوا في الوغى نفوس ملوك ... حاربوها أسلابها أغلاء

كلهم في أحكامهم ذو اجتهادٍ ... وصوابٍ وكلهم أكفاء

رضي الله عنهم ورضوا عنه ... فأنى يخطو إليهم خطاء

قال الشيخ في قوله (أكفاء): أي متكافئون في أصل الصحبة والفضيلة والعلم والاجتهاد وإبراز الأحكام لله، لا لحظ ولا لهوى، وإنما يتفاوتون في الزيادة، وقال في قوله (أسلابها أغلاء): بفتح الهمزة وكسرها، إما جمع غال أو مصدر، وفضائلهم رضي الله عنهم متعذرة الحصر.

ثم قال قدس الله روحه:

ما حيعل الداعي بالصلاة ... وأكرم المجيب بالصِّلات

أي ما قال الداعي أي المؤذن: حيّ على الصلاة حي على الفلاح، ومعناه: هلم إلى الصلاة، وأكرم مجيب المؤذن وهو القائل مثل قوله بالصّلات، جمع صلة وهي العطية، والمراد بها الثواب المترتب على الإجابة، فمن ذلك ما ورد في قوله

ﷺ: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنه منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» رواه مسلم، وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن» متفق عليه، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: أشهد أن لا إله لا الله، ثم قال: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال: حي على الصلاة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حي على الفلاح، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: الله أكبر الله أكبر، قال: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، دخل الجنة» رواه مسلم، وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع الأذان: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة» رواه البخاري، فهذه الصلات الذي يكرم بها المجيب لداعي الصلاة أي المؤذن. ويحتمل أن المراد بالمجيب هو المجيب بالإتيان إلى موضع الجماعة إذا سمع النداء، فقد ورد في ذلك أيضاً من الترغيب فيه أحاديث صحيحة، منها حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال: يا رسول الله ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته، فلما ولى دعاه، قال له: هل تسمع النداء بالصلاة؟، قال: نعم، قال: فأجب»، وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء» والأحاديث في ذلك كثيرة ويحتمل قوله: (وأكرم المجيب بالصلات) معنىً ثالثاً أعم من الأولين، وهو أن يراد به مجيب نداء الحق في يوم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى،

لأن ذاكري ذلك العهد هم أهل الصلاة المكرمين بالموالاة، الفائزين بجزيل الصلات، جعلنا الله منهم.

ثم قال قدس الله روحه ونفع به:

سميتهــا بــالــروضــة الأنيقــة بنظــم أسمــاء أولــي الطــريقــة

تضمن هذا البيت تسمية هذه المنظومة الفريدة، وأخر تسميتها والغالب أن المؤلفين يضعون تسمية الكتب في خطبها، لمعنى ظهر له وقصده، وهو أنه ربما كان أولاً أراد أن لا يضع لها اسماً تواضعاً واحتقاراً لما يصدر منه، ومن جملته هذه المنظومة وهي لا تستحق أن تسمى باسم، ثم بدا له بعد ذلك تسميتها من حيث أنها تضمنت لذكر طريقة أولئك الأكابر، وتفصيل مسانيدها وأسماء رواتها، والإشارة إلى شيء من معارفهم وأحوالهم، فسماها بالروضة وهو المحل من الرمل والعشب، سميت روضة لاستراضة الماء فيها، و (الأنيقة) مؤنث أنيق وهو الشيء المحبوب المعجب به لنضارته وحسن كلائه، شبه ـ رضي الله عنه ـ هذه المنظومة بالروضة الأنيقة التي تروق للناظر وتشرح الخاطر، ويطيب الوقت للمتنزه فيها من أولي الأرواح والسرائر، فسماها بذلك استعارة لما يلتذ به من معانيها وطيب فكاهة بلاغتها، وحسن البيان في فصاحتها، كما يلتذ الناظر المتنزه في الروضة الأنيقة الجاني من ثمراتها وفواكهها، بل هذا أبلغ عند أهله حساً ومعنى، ويحتمل أنه أخر الاسم متوقفاً فيه على تكميلها، أدباً مع مولاه الذي بيده مقادير الأمور، وعلم بداياتها وغاياتها، فخاف أن يضع الاسم على شيء هو في علم الله غير مقضي بتمامه، فتوقف عن التسمية إلى تمام المنظومة، من حيث مراقبته لربه ومحاسبته لنفسه، وأما من حيث صدق التسمية للحاضر ذهناً سواء تقدم الاسم على تأليفه أم تأخر فلا حرج ولا بأس.

ثم قال قدس الله روحه:

عســى بهــم أظفــر بــالأمــانــي ومعهــم أسكــن فــي الجنــان

هذا آخر أبيات القصيدة وما اشتملت عليه من المعاني المقصودة عند من له ذوق، وله معرفة باصطلاحات علماء الأثر، وما ينبني على علم الإسناد من تصحيح

الأحكام، وتحقيق مسائلها بإثبات الدلائل والبراهين الشرعية وحقائقها المرعيّة، التي عليها مدار دين الإسلام، من الصلاة والزكاة والحج والصيام، وغير ذلك من فرائض الإسلام، لأن تعريف الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية، ومادته الكتاب والسنة، فإذا فهمت ذلك فعلم التصوف وأسانيده وطرائقه مأخوذة من عين الشريعة، بل هو زبدة الشريعة، فالأسانيد المحتاج إليها فيه ملحقة بتلك الأسانيد، ولها الأثر العظيم في المشارب والأذواق والمواجيد، ومما يشهد لهذا المبحث ما ذكره الإمام الحجة الشعراوي ـ رحمه الله ـ في طبقاته، قال قدس الله روحه: اعلم يا أخي ـ رحمك الله ـ أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح من قلوب الأولياء حتى استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بها انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها، نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها، والتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلي من عمله الغل وحظوظ النفس، كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو، فمن جعل علم التصوف علماً مستقلاً صدق، ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق، كما أن من جعل علم المعاني والبيان علماً مستقلاً صدق، ومن جعله من جملة علم النحو صدق، لكن لا يشرف(١) على ذوق أن علم التصوف تفرع من علم الشريعة إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ النهاية، ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآداباً، ومحرّمات ومكروهات وخلاف الأولى، نظير ما فعله المجتهدون، وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئاً لم تصرح الشريعة بوجوبه، كما صرح بذلك اليافعي وغيره، وإيضاح ذلك أنهم كلهم عدول في الشرع، اختارهم الله عز وجل لدينه، فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة، وكيف تخرج علومهم عن الشريعة، والشريعة هي أوصلتهم إلى الله تعالى، ولكن أصل استغراب من لا له إلمام بأهل الطريق، أن علم التصوف من عين الشريعة، كونه لم يتبحَّر في علم الشريعة، ولذلك قال الجنيد رحمه الله: علمنا هذا مشيّد

---

(١) أي لا يطلع.

بالكتاب والسنة، رداً على من توهم خروجه عنهما في ذلك الزمان أو غيره، وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله عز وجل إلا من تبحَّر في علم الشريعة، وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها، وناسخها ومنسوخها، وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها، وغير ذلك، فكل صوفي فقيه ولا عكس، وبالجملة فما أنكر أحوال الصوفية إلا من جهل حالهم، وكان القشيري رحمه الله يقول: لم يكن بمصر في مدة الإسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتباركوا به، ولولا مزيته وخصوصيته للقوم لكان الأمر بالعكس. انتهى، وهو كافٍ بالمراد، وقد مرّ عند قول سيدنا الناظم قدس الله روحه:

قصدت نظم سندي إلى النبي ... كما به صح اتصال نسبي

لبساً وتلقينا لقصد الفاتحة ... لسادتي أهل الطريق الواضحة

شرح ما يتعلق بذلك من بناء السادة الصوفية أخذهم في تلقينهم ولبسهم الخرقة الشريفة على أصول صحيحة، مؤسسة مبنية على طرق واضحة من السنة، فلينظر من هناك، وقوله نفع الله به (عسى بهم أظفر بالأماني)، أما عسى فهي كلمة ترجي، وهي من الله تعالى واجبة، وقال في القاموس: عسى فعل مطلقاً أو حرف مطلقاً، للترجي في المحبوب والإشفاق في المكروه، وللشك ولليقين، وقد تشبه بكاد، ومن الله إيجاب، وبمنزلة كان في المثل السائر: عسى الغُوَيْرَا بؤساً. انتهى، وهنا هي للترجي على كل حال، والرجاء والترجي هو الأمر الذي تمهدت أسبابه الداخلة تحت الاختيار، فهو ـ نفع الله به ـ لما استشعر مالهم عند الله من الجاه العظيم والمحبة السابقة، بدليل اصطفائه لهم وجعلهم خواص الخلق وصفوة العالم، توسل بهم إلى الله تعالى في أن ينيله هذا المطلب العالي بجاههم وببركتهم وبحرمتهم، لأنهم أوجه الشفعاء عليه، وهو أكرم من أن يرد المتوجه بهم إليه، ولا سيِّما وهذا السائل بهم هو منهم وأكابر عارفيهم، فدعاؤه قريب الإجابة لكونه من أهل الإنابة، وهم الذين وردت لهم البشرى منه تعالى في قوله عزوجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر: ١٧]، وكذلك

في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: ٦٤]، فبشرى الإجابة والقبول، والمحبة والاصطفاء والعناية والاجتباء، ظاهرة عليهم في هذه الدار في وجوههم وأعمالهم ومقاصدهم، وغير ذلك من أنواع قرباتهم ومعاملاتهم واتصالاتهم بمولاهم، مما يلوح لسرائرهم وينكشف لبصائرهم، من أنوار الحق ولوامعه وبوارقه، فيتأيدون به في سيرهم وسلوكهم حتى يصلوا به إلى الغاية القصوى، من إشراق نور المعرفة واليقين على قلوبهم، وتصير بهم الوراثة من مقام: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، وقوله رضي الله عنه: (عسى بهم أظفر بالأماني) أي أفوز وأحظى بالأماني، وهو إما أن يكون بإثبات الياء جمع أمنية، وهي ما يتمنى من المطالب المقدرة، من منا إذا قدر، وإما أن يكون بلا ياء وهو مفرد الأمان، أي أظفر بالأمان من كل خوف وفزع وهول أمن منه العارفون، كما قال تعالى في شأنهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، والأمان مصدر أمن، وهو طمأنينة النفس وزوال الخوف، ومفهوم السياق أن المقصود الأعظم من طلب الأمان هنا، هو الأمن من دخول دار البعد والحجاب والانتقام والعذاب، وهي النار، يدل عليه مقابله: (ومعهم أسكن في الجنان)، التي أهلها في الغرفات آمنون، ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٦-٥٨]، وذلك لأن النظير يذكر بالنظير، وهاتان الداران هما مأوى المكلفين من الجن والإنس، لقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ والآيات في ذلك كثيرة، ويجب على كل مؤمن أن يعتقد أن الجنة والنار مخلوقتان معدتان، النار لخلود من أشرك بالله وكفر بكتبه ورسله، ولمن عصى الله تعالى من المؤمنين، لكنهم لا يخلدون فيها، بل يتفاوت عذابهم فيها زمناً وقدراً وتغليظاً وتخفيفاً بحسب المعاصي والمخالفات، إلا من عفا عنه مولاه وأرضى خصماءه، وأما الجنة فهي لمن أطاع

الله تعالى وآمن به وبكتبه ورسله وما يجب الإيمان به، ودخولها بفضل الله ورحمته، ودرجاتها تتفاوت بتفاوت الأعمال الصالحة.

ولنذكر هنا طرفاً مما ورد في الترهيب من عذاب النار وتوقي أسبابه، وما ورد في الترغيب في نعيم الجنة والحرص على أسبابه، التي من أعظمها الإتيان بالشِّهادتين وإعتقاد معناها، وما يترتب على ذلك من اعتقاد كمال أو تنزيه عن نقص لله تعالى ولكتبه ورسله ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولأحكام الإسلام، ولنقدم ذكر النار ليكون ذكر الجنة التي هي مأوى المتقين خاتمة هذا الشرح، وتفاؤلاً بما ورد في ورود المؤمنين النار ثم خروجهم منها إلى الجنة، لأن الله تعالى إذا لطف بعبده وتكرم عليه بالموت على الإسلام وعلى شهادة الحق، فهو السعيد وإن طال عذابه، نعوذ بالله من ذلك، ولكن مآله ومأواه الجنة، قال الحسن البصري رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، ويا ليتني ذلك الرجل، وإنما قال ذلك لخوف الخلود بسوء الخاتمة، وهذا الرجل محكوم بخروجه من النار، ولما احتضر سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله عليك بالرجاء، فإن عفو الله أعظم من ذنوبك، قال: أو على ذنوبي أبكي، لو علمت أني أموت على التوحيد، لم أبالِ أن ألقى الله تعالى بأمثال الجبال من الخطايا، وكان سهل بن عبد الله ـ رحمه الله ـ يقول: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر، وذلك لأن العارفين أكثر الناس معرفة بربهم فهم أشد خوفاً له، قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: فمن عرف الله عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكم ما يريد ولا يخاف، قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة، بل صنعته ما ترجم قوله تعالى «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي» ثم ساق في ذلك كلاماً طويلاً في هذا المبحث وبراهين عقلية ونقلية، إلى أن قال: والأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حد المعقولات والمألوفات، فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس وحسبان، فضلاً عن التحقيق والاستيقان، وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين، إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك، إن أهلك فقد أهلك من لا يحصى من أمثالك، ولم يزل يعذبهم بأنواع الآلام

والأمراض، ويمُرِّض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق، ثم يخلد العقاب عليهم آبد الآبّاد، ثم يخبر عنه ويقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، فكيف يخاف ما حُقَّ القول في الأزل ولا مطمع في تداركه، ولو كان الأمر آنفاً لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه، ولكن ليس إلا التسليم واستقر خفي الأسباب السابقة. انتهى المقصود من كلامه، وقد ذكر بعده تحقيق ما أشار به من حيث استقرار الأسباب الدالة على الاستقرار في أحد الدارين، من حيث ظهور الأسباب المتعلقة بعملهما، لقوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، لكنه أيضا قيده بالخاتمة.

ولنرجع إلى ذكر ما أعد الله في الدارين لأهلهما من أصناف العذاب في النار وأنواع النعيم في الجنة، فنقول: أما النار وهي دار العذاب والخزي والنكال والعقاب أعاذنا الله منها، فأما الكتاب العزيز فالآيات الواردة في صفتها وصفة أهلها كثيرة، منها قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: ١١-١٨]، والآيات في وصفها وصفة أهلها كثيرة، وأما الأحاديث فمن الأحاديث الصحيحة التي أوردها في تيسير الأصول عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ناركم التي أوقدتموها من سبعين جزءاً من نار جهنم، قالوا: والله إنها لكافية، قال: فإنها فضلة عليها بتسعة وستين جزءاً كلها من حرها» أخرجه الثلاثة والترمذي، وعنه رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد

عليها ألف سنةحتى اسودت، فهي سوداء مظلمة» أخرجه مالك والترمذي وهذا لفظه، وعن الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لسرادق النار أربع جدر، كثف كل جدار مسيرة أربعين سنة» أخرجه الترمذي، الجدار الحائط، وعن الحسن قال: قال عتبة بن غزوان ـ رضي الله عنه ـ على منبر البصرة: إن النبي ﷺ قال: «إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوي سبعين عاماً تفضي إلى قرارها»، وكان عمر رضي الله عنه يقول: أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد. أخرجه الترمذي، وعن الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معائشهم، فكيف بمن يكون طعامهم وشرابهم» أخرجه الترمذي، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النـار إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فائذن لي بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف، وهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير» أخرجه الشيخان والترمذي، وقال في ذكر أهل النار: عن النعمان عن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أهون النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً أخرجه الشيخان والترمذي، وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته» أخرجه الترمذي، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، فذكروا أنهم يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب، فيدفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنا من وجوههم شوى وجوههم، فإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم، فيقولون: ادعوا خزنة جهنم عساهم يخففون عنا، فيدعونهم فيقولون: ألم تكُ تأتيكم رسلكم بالبينات؟، قالوا: بلى، قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال، فيقولون: ادعوا مالكاً فيقولون: يا مالك: ليقضِ علينا ربك، فيجيبهم: إنكم ماكثون ـ قال الأعمش رحمه الله: بينت أن بين دعائهم مالكاً وإجابته مقدار ألف عام ـ، فيقولون: ادعوا

ربكم فلا تجدون خيراً منه، فيقولون: غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنَّا ظالمون، قال: فيجيبهم: إخسئوا فيها ولا تكلمون، فعند ذلك ييأسون من كل خير، فيأخذون في الزفير والشهيق، ويدعون بالويل والثبور أخرجه الترمذي وقال رزين: فيقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً الضريع نبت بالحجاز له شوك، والحميم الماء المتناهي الحرارة، والزفير إدخال النفس إلى الجوف مع صوت، والثبور الهلاك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث» أخرجه مسلم والترمذي، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكافر ليسحب لسانه في النار الفرسخ والفرسخين يتوطاه الناس» أخرجه الترمذي، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول من يدعى يوم القيامة آدم عليه السلام، فيقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: أخرج من كل مائة تسعة وتسعين، قيل: فما يبقى منا يا رسول الله!، قال: إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود» أخرجه البخاري، وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول: اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزى أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجلك؟، فينظر فإذا هو بذبح متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» أخرجه الترمذي، القترة غبرة معها سواد، والذبح ذكر الضباع، ومن أحاديث الإحياء قال: قال رسول الله ﷺ: «في جهنم ألف وادٍ، في كل وادٍ سبعون ألف شعب، في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب، لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله، ولو أن دلواً من غساق جهنم ألقي في الدنيا لأنتن أهل الأرض، فشرابهم الغساق»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن طعامه ذلك»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، جيء بالموت

حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»، وقال أنس رضي الله عنه: يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار، فيقال: اغمسوه في النار غمسة، ثم يقال له: هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون، ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا، وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، إنها تلفحهم لفحة واحدة، فما أبقت لحماً على عظم إلا ألقته عند أعقابهم، ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه، وهو الغساق، وقال أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارغبوا فيما يرغبكم الله، واحذروا وخافوا مما خوفكم الله به من عذابه ومن عقابه ومن جهنم، فإنه لو كانت قطرة من جهنم معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبثتها عليكم»، وقال ﷺ: «إن في النار لحيات مثل أعناق البخت، يلسعن اللسعة فيجد حمتها أربعين خريفاً، وإن فيها عقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموها أربعين خريفا»، وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فيعودون كما كانوا، وبكاء أهل النار الزفير والشهيق، ودعاؤهم بالويل والثبور، فإن ذلك يسلط عليهم في أول لقائهم النار، وقال ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك»، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يرسل على أهل النار البكاء، فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يُرى في وجوههم كهيئة الأخدود، حتى لو أرسلت فيه السفن لجرت»، وما دام يؤذن لهم في البكاء، والشهيق والزفير، والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح، ولكنهم يمنعون أيضاً من ذلك، وقال ﷺ: «يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها، ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، نودوا: أن أصرفوهم عنها، لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها، فيقولون: يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من جنانك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا، فيقول الله تعالى: ذاك

أردت بكم، كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين، تراءون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابوني، وأجللتم الناس ولم تجلوني، وتركتم للناس ولم تتركوا لي، فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب والنعيم المقيم» والأخبار والآثار في ذلك كثيرة، وهي في محالها مذكورة، أعاذنا الله تعالى منها ووالدينا والمسلمين آمين.

وأما الدار الثانية التي ثمارها دانية وأنهارها جارية، وقصورها متلالئة عالية، وعيشتها راضية وأوصافها غير متناهية، ونعيمها وفواكهها وسرورها وحبورها وغير ذلك مما أعد الله فيها لأهل السوابق الربانية السامية، ممن خصهم بمحبته واصطفاهم لتصديق أهل رسالته، واجتباهم إلى قربه والتمسك بطاعته، وهداهم للإنابة إلى جنابه والوقوف بغرفات حرم أمنه وكعبته، وهي كلمة الشهادة لا إلٰه إلا الله، كما ورد: «من قال لا إله إلا الله صادقاً من قلبه دخل الجنة»، وهي هذه الدار التي سيأتي وصفها، وورد «لا إله إلا الله حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي أي الواقع على أهل الدار التي سبق وصفها وأنواع عذابها، وكلمة الشهادة باب الجنة، أي الإيمان بمعناها مع النطق بها، قال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، وفي حديث أبي ذر المشهور أنه ﷺ قال: «أتاني جبريل عليه السلام، فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنا وإن سرق، قال: وإن زنا وإن سرق.. ثم قال في الرابعة: وإن رغم أنف أبي ذر» أخرجه الشيخان، وعن جابر بن عبد الله الأنصاري ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان موجبتان فقال رجل: يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار، ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» أخرجه مسلم، وعن وهب بن منبه، وقيل له: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟، قال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك. أخرجه البخاري معلقاً، وعن عبد الله بن مسعود الهذلي رضي الله عنه ـ وسأله رجل: ما الصراط المستقيم ـ؟ قال: تركنا محمداً في أدناه وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد، وثم رجال يدعون من مرَّ بهم، فمن في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى

الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الآية: [الأنعام: ١٥٣]. أخرجه رزين، والجواد جمع جادة وهي الطريق، وهذه الأحاديث وأمثالها في أن من قال (لا إله إلا الله) دخل الجنة أو حرم على النار ونحو ذلك، ادعى بعضهم نسخها بأحاديث الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها، وذلك أنه كان في ابتداء الإسلام، فلما فرضت الفرائض وحدّت الحدود نسخت بها، وقالت طائفة من العلماء لا احتياج إلى ادِّعاء النسخ في ذلك، فإن كل ما هو من أركان الدِّين وفرائض الإسلام، فهو من لوازم الإقرار بالشهادتين، فمن امتنع عن شيء من ذلك جحداً أو تهاوناً حكمنا عليه بالكفر وعدم دخول الجنة.

وقالت طائفة أخرى: التلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد سبب يقتضي دخول الجنة والنجاة من النار، بشرط أن يأتي بالفرائض ويجتنب الكبائر، فإن لم يفعل ذلك لم يمنعه التلفظ بكلمة التوحيد من دخول النار، وهذان القولان الأخيران أقرب إلى الصواب من القول بالنسخ. وقد رغب الله سبحانه وتعالى في السعي لها والاجتهاد لنيلها، وذلك بذكر ما أعد فيها من أنواع النعيم الدائم والملك المقيم لساكنيها، والآيات في ذلك كثيرة، قال الإمام الغزالي رحمه الله: ومهما أردت أن تعرف أهل الجنة فاقرأ القرآن، فليس وراء بيان الله تعالى بيان. وأما ما ورد في ذلك من الأخبار والآثار فخارج عن الحصر، وهذه أحاديث منقولة من تيسير الأصول والإحياء وغيرهما: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟، قال: بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» أخرجه البخاري ومسلم، وفي الصحيحين أيضاً عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة سنة، ما يقطعها» وفي رواية الترمذي: «اقرءوا إن شئتم»: (وظل ممدود) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً» أخرجه

البخاري ومسلم، وعن أنس رضي الله عنه قال: «إن في الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً أخرجه مسلم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أخرجه الشيخان والترمذي، وعنه رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله ممَّ خلق الخلق؟، قال: من الماء، قلت: الجنة ما بناؤها؟، قال: لبنة فضة ولبنة ذهب، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم، ثم قال: ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الله تعالى: وعزتي لأنصرك ولو بعد حين» أخرجه الترمذي، وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مائة عام» أخرجه الترمذي، وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب» أخرجه الترمذي، وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقاب قوس في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب» أخرجه الشيخان، وزاد الترمذي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ في أخرى: «ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها، ولملأت ما بينهما رائحة، ولنصيفها ـ يعني الخمار ـ خير من الدنيا وما فيها» قاب القوس وقده قدره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة، يخرج من النار حبواً فيقول الله عزوجل: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه

أنها ملأى فيقول، يا رب، وجدتها ملأى، فيقول عز وجل: اذهب فادخل الجنة، فإن لك فيها مثل الدنيا وعشرة أمثالها، وإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثال الدنيا، فيقول: أوَ تسخر بي، أو تضحك بي، وأنت الملك»، قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقول: «ذلك أدنى أهل الجنة منزلة»، وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال، إذا دخل أهل الجنة الجنة، ينادي منادٍ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تَصِحُّوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأَسُوا أبدا» رواه مسلم، وقال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة، وللجنة ثمانية أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي، فهل يدعى أحد منها كلها؟، قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم»، وعن عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه، أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكراً لا أحفظه، ثم قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما فكأنما أمروا به، فشربوا منها فأذهب ما في بطونهم من أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فطهروا منها، فجرت عليهم نظرة النعيم، فلم تغبر شعورهم بعدها أبدا ولا شعثت رؤوسهم فكأنما دهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، ثم تلقاهم الولدان يطوفون بهم، كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة، يقولون له: أبشر بما أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قال: فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين، فيقول: قد جاء فلان ـ باسمه الذي كان يدعى به في دار

الدنيا ـ، فتقول: أنت رأيته؟ فيقول: أنا رأيته، وهو بإثري، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه، فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأحمر وأصفر من كل لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق، ولولا أن الله تعالى أقدره لألم أن يذهب بصره، ثم يطأطي برأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، ثم اتكئوا فقالوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ثم ينادي منادٍ، تحيون فلا تموتون أبدا، وتقيمون فلا تظعنون أبدا، وتصحون فلا تمرضون أبدا. هذا الحديث رواه الإمام الغزالي في الإحياء، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة، أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء» أخرجه الشيخان والترمذي، الألوة والألنحوخ من أسماء العود الذي يتبخر به، ومن أسمائه الكِبَاء، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون، ولا يتغوطون ولا يمتخطون، قيل: فما بال الطعام؟، قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس» أخرجه مسلم وأبو داود، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير، يدخلون الجنة بني ثلاثين لا يزيدون عليها أبدا، وكذلك أهل النار» أخرجه الترمذي، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة جرد مرد كحل، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم» أخرجه الترمذي، وزاد في رواية: «عليهم التيجان، إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب» الجرد جمع أجرد وهو الذي لا شعر عليه، والكحيل هو الذي ترى أجفانه كأنها مكحولة من غير كحل، وعن أبي رزين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون لأهل الجنة ولد» أخرجه الترمذي، وزاد في رواية عن الخدري: «إن اشتهى الولد كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة»، قال بعضهم: لكن لا

يشتهي، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع، قيل: يا رسول الله أو يطيق ذلك!، قال يعطى قوة مائة» أخرجه الترمذي، وعن الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم واثنان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء» أخرجه الترمذي، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه ونعمه وسروره مسيرة ألف عام، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ ﷺ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أخرجه الترمذي. قال الإمام اليافعي ـ رحمه الله ـ، في خاتمة روضه: فمن غلب محبة الله في الدنيا لم يشتق إلا إلى لقائه والنظر إلى وجهه الكريم، ومن غلب عليه حب الحظوظ من المطعم والمشرب والمنكح والملبس والمسكن كأمثالنا اشتاق إلى الجنة ونعيمها الذي هو محبوبه، فلمثل هذا يقال له: تفكر يا أخي في أهلها، كيف يسقون من رحيق مختوم، جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام اللؤلؤ الرطب الأبيض، فيها بسط من العبقري الأخضر، متكئين على أرائك منصوبة على أنهار تجري بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بحور عين خيرات حسان كأنهن الياقوت والمرجان، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة من حلل الجنان، وينظر الزوج وجهه في صدرها أصفى من المرآة، لبهاء نورها لمعان، ويطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون، يأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً، في أنهار أرضها فضة وحصباؤها مرجان، وترابها مسك أذفر ونباتها زعفران وكثبانها كافور، وأكوابها من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان، فيها من الرحيق المختوم ممزوج بالسلسبيل العذب، تشرق الألوان نوراً من ضياء جوهرها، يبدو الشراب من ورائها لرقته وحمرته وصفائه وبهجته، في كف خادم. يحكي وجهه ضياء الشمس، لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، في جنات ونهر في مقعد صدق

عند مليك مقتدر، ينظرون إلى وجهه الكريم، وقد أشرقت في وجوههم نظرة النعيم، ينسون بلذة النظر جميع لذات الجنان، يتنعمون على الدوام، لا يزالون بين أصناف النعيم يتلذذون، وهم من زوال النعيم آمنون، وقد روي في تفسير قوله تعالى، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾، أنه قصر من لؤلؤة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء، في كل بيت سرير يا له من سرير، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراشٍ زوجة من الحور العين وفي كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لونا من الطعام، وفي كل بيت سبعون وصيفة، ويعطى المؤمن من القوة ما يأتي على ذلك كله»، وروي أن الرجل من أهل الجنة ليزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب، يعانق كل واحدة منهن مدة عمره في الدنيا، وإن في الجنة حوراء يقال لها: العيناء، إذا مشت مشى عن يمينها وعن شمالها سبعون ألف وصيفة، وهي تقول: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وإن في الجنة طيراً أمثال البخاتي، وإن المؤمن ينظر إلى الطير في الجنة فيشتهيه فيخر بين يديه مشوياً، وروي في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾، أنه يطاف بسبعين صحفة من ذهب، كل صحفة فيها لون ليس هو في الأخرى، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ﴾، أنه شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبقَ ذو روح إلا وجد ريح طيبها، وفي قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أن ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض، ولو أن امرأة من نساء الجنة اطلعت على الأرض اطلاعة ملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها ـ يعني خمارها ـ، على كل واحدة من أهل الجنة سبعون حلة، تتلون كل حلة منها في ساعة سبعون لوناً، يرى الرجل وجهه في وجه زوجته وفي صدرها وفي ساقها، وترى أيضاً وجهها في وجهه وفي صدره وفي ساقه، قلت: وألوان الحلل المذكورة ترى جميعها، لا تستر كلّ حلة ما تحتها من الحلل، والطير إذا أكل منه وجد طعم أحد جانبيه مطبوخاً والآخر مشوياً فيأكل ما شاء، ثم يعود طيراً كما كان ويصفق بجناحيه، ويطير إلى رأس الأغصان من أشجار الجنان، ليأكل من طيبات الثمار ويشرب من طيبات الأنهار،

ويجدون في كل لقمة من طعامهم لذة غير ما يجدون في الأخرى، وفي كل شربة من شرابهم لذة لا يجدون في الشربة الأخرى. انتهى من الكتاب المذكور.

وفي (حديقة الأذهان في الأخلاق الحسان) للإمام الذوالي ـ رحمه الله ـ في شرح الحديث الرابع عشر: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها»، قال: وذكر ﷺ تفاوت المنازل لتفاوت عمل العامل، وذلك أن الله تعالى جعل عمل الجنة مائة درجة، لكل درجة أهلاً جعلهم بها قانعين، وإلى سواها غير نازعين، ولأهل كل درجة ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وإن علموا مجملاً أن ثم أولياء ورسلاً أعلى منهم مقاما ومنزلاً، وفي كلها مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نعم وصف الله منهم ثلاث درجات، وعرفها لنا بما هو عندنا من أعلى الصفات، ولم نعرفه إلا بمجرد الاسم واللقب، وهي اللؤلؤ والفضة والذهب، وما عداها فخارج عن الأوهام لا تدركه الأفهام، ولا يخطر على قلب أحد من الأنام، ثم جنس الجنان ثلاثة أجناس: جنة عدن والفردوس وجنة المأوى، وكل جنة ثلاث منازل، أعلاها للسابقين المقربين، وأوسطها للمقتصدين، وأدانيها للمخلطين وما فيها دني، وعدن مقصورة الرحمن خلقها بيده وزيّنها، وهي معدن النعيم، وعدن محل الرسل، وجنات عدن محل الأنبياء، والفردوس محل الصديقين والأولياء، وهي الغرف، وهي سرة الجنة بحيال باب العرش، يتراءاهم من دونهم من الجنان من البعد، كما يتراءى أهل الأرض الكوكب، وهي منازل الأولياء والأنبياء فوقهم، والأنبياء والأولياء لا يجتمعون في درجة واحدة، لأن درجة النبوة فوق درجة الولاية، والأنبياء فوق الغرف في جنات عدن، وعدن كالمدينة، وجنات عدن كالقرى حولها، والفردوس حول جنات عدن كعوالي القرى، والفردوس مضموم إلى جنات عدن منسوب إليها، وما دونها من الجنات كالخيام، والجنات حول عوالي القرى، وكذلك نجد المساكن في الدنيا هي مدينة ثم قرى ثم عوالي القرى ثم محلات وخيام ومراعي وبراري، ولكل من أهل الجنة في درجته ما تشتهيه نفسه، وما خطر له واشتهاه من كل شيء وجد للفور، لأن الأشياء المشتهاة مجموعة في

واحد منها، فجميع الشهوات موجودة في كل واحد، فإذا اشتهى ولي الله من العين النضاجة طعاماً أو شراباً أو دواباً مسرجة ملجمة نضجت، وإن الجرة لتنطق، وإن القدح ليطير فيغترف بقدر شهوة الشارب لا زيادة ولا نقصان، وهو قوله تعالى ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ فقد ألهمت الأقداح ذلك، وإن الرجل ليمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره وبيده قضيب يشير به إلى الماء، فتجري معه حيث ما أراد في منازله على مستوى الأرض، في غير أخدود ولا سعة حيث صعد فيعدل معه الماء حيث ما عدل، فهو التفجير الذي ذكره الله تعالى، ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾، ولأهل الجنة عرائس وولائم، وضيافات العرائس الدعوة، وذلك أن رب العزة سبحانه وتعالى دعاهم إلى دار السلام ليجدد لهم أبداناً طرية وأعماراً أبدية فأجابوه، والولائم للأزواج، والضيافات للزيادة، ولأهل الجنة تلاقٍ وزيارات فيما بينهم، ومتحدث في مواطن الألفة، ومجتمع في ظل طوبى، يلقون الرسل هناك ويزورونهم، ومجالس الملائكة فيما بينهم، وأسواق يأتونها يتخيرون الصور، وهدايا من الرحمن في أوقات الصلوات، ويغدي ويراح عليهم من أنواع الأطعمة والأشربة والفواكه بكرة وعشيا، أرزاقهم دارة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ومزيد من الله تعالى بيوم، فإذا أتاهم المزيد نسوا ما قبله، ثم لهم متنزهات يخرجون في رياض على شاطىء نهر الكوثر، عليه خيام الدر مضروبة، الخيمة ستون ميلاً في عرض مثله، من لؤلؤة واحدة ليس لها باب، فيها جواري عبقات لم ينظر إليهن ملك ولا أحد من أهل الجنة من الخدم والحور، وهو قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾، فإذا قال الله تعالى لهن (حسان) فمن يقدر أن يصف حسنهن، ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ فتلك خيرة الرحمن، اختار صورهن الحسان من الصور، أُبدعن من سحائب الرحمة، فأمطرت جواري حساناً على مشيئة الكريم، فنور وجوههن من نور العرش، فضربت عليهن خيام الدر، فلم يرهن أحد منذ خلقن، فهن مقصورات في الخيام، قد قصرن ـ أي حبسن ـ على أزواجهن من جميع الخلق، فأهل الجنة يتنعمون في القصور ومع الأزواج، ويلبثون في النعمة ما شاء الله، حتى إذا كان اليوم الذي يريد الله أن يجدد له نعمة ونزهة، نودي في درجات الجنان: يا أهل الجنان هذا يوم نزهة وسرور وتفسح وحبور فاخرجوا إلى متنزهكم، فيخرجون على خيول الدر والياقوت من أبواب

مدائنهم إلى تلك الميادين، ثم يسيرون إلى تلك الميادين إلى تلك الرياض على شاطىء نهر الكوثر، فيهديهم الله لمنازلهم، فينزل كل رجل منهم عند خيمته ولا باب لها، فتنصدع الخيمة عن باب، وذلك بعين ولي الله، ليعلم أن التي فيها لم يطلع عليها أحد، وفاء لما قدم الله تعالى من الوعد في دار الدنيا، حيث قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾، ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ ثم قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ فيستوي معها على سرير النزهة في تلك الحجال، فيمال عليهم من وليمتها، فإذا طعموا الولائم سقاهم الله شراباً طهوراً، وتفكهوا بطرف الفواكه التي عدّد الله لهم من تلك الهدايا في ذلك اليوم والحلى والحلل، يخلع عليهم كسوة الرحمن، فاشتغلوا بالخيرات الحسان، يقضون فيهن الأوطار والنهمات، ثم يتحولون إلى مجالس العبقريات الموشيات بألوان النقوش، على شاطىء الأنهار في تلك الرياض، يركبون الرفارف الخضر ويتكئون عليها، وهو قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ وإذا قال الله تعالى لشيء (حسان) فما بقي، فالرفرف هو شيء إذا استوى عليه رفرف به وأهوى به، ليرتاح به يميناً وشمالاً ورفعاً وخفضاً، يتلذذ مع أنيسته، فإذا ركبوا الرفارف أخذ إسرافيل في السماع، قطع على أهل سبع سماوات صلاتهم وتسبيحهم، فإذا ركبوا الرفارف وأخذ إسرافيل في السماع بألوان الأغاني تسبيحاً وتقديساً للملك القدوس، لم يبقَ في الجنة شجرة إلا وروت، ولم يبقَ ستر ولا باب إلا ارتج وانفتح، ولم تبق حلقة على باب إلا طنت بألوان طنينها، ولم تبق أجمة من آجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت في مقاصفها، فرفرف تلك المقاصد بفنون الزمر، ولم تبقَ جارية من الحور إلا غنت بأغانيها والطير بألحانها، ويوحي الله تعالى إلى الملائكة: أن جاوبوهم واسمعوا عبادي الذين نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان، فيجاوبون بألحان وأصوات روحانيين، فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة، ثم يقول الله تبارك وتعالى: يا داود قم عند ساق عرشي فمجدني، فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات ويجليها، وتتضاعف اللذة، وأهل الخيام على تلك الرفارف تهوي بهم، قد حفت بهم أفانين اللذات والأغاني، فذلك قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ وسئل يحيى ابن كثير عن قوله تعالى: ﴿فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾،

قال: الروضة اللذة والسماع، فبينما هم في لذاتهم وسرورهم، إذ انفتح لهم باب الملك القدوس من جنات عدن، فارتجت أصوات صنوف الروحانيين من باب جنات عدن بتماجيد الماجد الكريم إلى درجات الجنان، وثارت ريح عدنية بألوان الطيب والروح والنسيم نسيم القرب، وسطع على أثر ذلك نور فأشرقت منه رياضهم وحياضهم وشواطىء أنهارهم، وامتلأ كل شيء منه نوراً، ثم ناداهم الجليل من فوق رؤوسهم: السلام عليكم أحبائي وأوليائي وأصفيائي، يا أهل الجنة كيف وجدتم متنزهكم؟ هذا يومكم بدل نيروز أعدائي، طلبوا يوماً من الدنيا ليجددوا على أنفسهم النعمة التي قد كدروها على أنفسهم لحينهم وشقائهم، فلم يبالوا ما طلبوا من اللذة ليجددوا على أنفسهم النعمة التي قد آثروا من اللذة، وخسروا في طلب ما طلبوا من العاجل، ولم يصبروا حتى ينالوا هذا الذي أعددت في الآجل لأهل طاعتي، فأعرضتم عما إليه أقبلوا، وامتنعتم مما فيه تنافس ملوك أهل الدنيا، فاليوم يذوقون وبال ما تنافسوا فيه، وشيكاً ما انقطع ما طلبوا من اللذة والنهمة في دار الفناء وصاروا إلى الذل والهوان، وجزيتم بما صبرتم جنة وحريراً ومتنزهاً وسلاماً، فهذا يوم سروركم ومتنزهكم، وغداً يوم زيارتكم في داري في جنة عدن، فطالما رأيتكم في أيام الدنيا في مثل ذلك اليوم مشتغلين بطاعتي، والمترفين في لهوهم ولعبهم سكارى حيارى عصاة متمردين، يتنعمون بحطام الدنيا ويفرحون بتداولها بينهم، وأنتم تراقبون جلالي وتحفظون حدودي، وترعون عهدي وتشفقون أداء حقوقي، ويفتح لهم باب من أبواب النيران ـ نعوذ بالله من ذلك ـ فيفور لهبها ودخانها وصراخ أهلها وعويلهم، لينظروا أهل الجنان من هذه المجالس إلى ما منَّ الله عليهم، فيزدادون غبطة وسروراً، وينظر أهل النار من تلك السجون والمحابس وتلك الأغلال والقيود، ويتحسرون على ما فاتهم، فيستغيثون بوجوه أهل الجنان إلى الله تعالى، وينادونهم بأسمائهم، فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ إلى قوله: ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، فتجيش بهم النار، فيفرق جمعهم، وينقطع نداؤهم، ويرمى بهم إلى خزائن في النار، فإذا خرجوا إليها دبت إليهم عقارب، لها أذناب كأمثال النخل، ثم يقبل عليهم سيل من نار من تحت العرش، حشوها غضب الله

ـ نعوذ بالله من ذلك ـ، يحملهم فيغرقهم في بحار النيران، وينادي منادي: هذا يومكم الذي كنتم تبادرون بالعظائم فيه، وتتمردون علي بنعمتي، وتفرحون في دار الأحزان والعبور، مما تضاهون به ما أعددت لأهل طاعتي، فقد انقطعت عنكم تلك اللذات، فذوقوا وبال ما آثرتموه، فإن أهل الجنة قد شغلوا عنكم بالتنعَّم بالولائم وألوان الفواكه وطرف الهدايا، وافتضاض العذارى وركوب الرفارف، والتلذذ بالأغاني وألوان السماع، وسلامي عليهم، وإقبالي بالبر واللطف والمزيد ما يستفرغ نعيمهم، ليتهنوا بنعيمهم، ويزدادوا لذةً على لذةٍ، فيا أهل الجنة هذا لكم بيوم أعدائي، الذين تباشروا وأَهدَوا إلى ملوكهم وقبلوا هداياهم، وأنتم الفائزون، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، إني رجل حبب إليَّ الصوت الحسن، فهل في الجنة صوت حسن؟، قال: إي والذي نفسي بيده، إن الله عز وجل ليوحي إلى شجرة في الجنة: أن اسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكري عن عزف البرابط والمزامير، فترفع بصوت لم يسمع الخلائق بمثله من تسبيح الرب وتقديسه»، وعن الحسن وأبي قلابة قالا: قال رجل: يا رسول الله هل في الجنة من ليل؟ قال: وما هيَّجك على هذا؟، قال: سمعت الله تعالى يذكر في الكتاب ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، فقلت: الليل بين البكرة والعشي، فقال رسول الله ﷺ: ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونور، يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو، وتأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة»، عن أبي مسعود الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يصوم يوماً من رمضان إلا زوج زوجة من الحور العين في خيمة من درة مجوفة مما نعت الله تعالى، حور مقصورات في الخيام، على كل امرأة منهن سبعون حلة، ليس منها حلة على لون الأخرى، ويعطى سبعون لوناً من الطيب، ليس منها ريح على لون الأخرى، لكل امرأةٍ منهن سبعون سريراً من يا قوتة حمراء موشحة بالدر، على كل سرير سبعون فراشاً، على كل فراش أريكة، لكل امرأة منهن سبعون ألف وصيفة لحاجتها وسبعون ألف وصيف، مع كل وصيف صحفة من ذهب، فيها لون من طعام يجد لآخر لقمة منها لذة لم يجد لأوله، ويعطى زوجها مثل ذلك، على سرير من ياقوت أحمر، عليه سواران من

ذهب موشح بياقوت أحمر، هذا لكل يوم صامه من رمضان، سوى ما عمل من الحسنات». انتهى من الكتاب المذكور، نقلنا كل ذلك تأسياً بما ورد في الكتاب العزيز والسنة الطاهرة، من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، في شأن أهل هاتين الدارين، ليرغب الراغبون في طلب رضا الله تعالى ورؤيته ومجاورته في دار كرامته الذي هو أعظم من كل لذة، وكذا ما أعد لهم من هذا النعيم الباقي الأبدي، جعلنا الله بفضله ورحمته من أهله، ووالدينا وأولادنا ومشايخنا وإخواننا في الله وجميع المسلمين. آمين.

وقد آن لنا أن نختم هذا الشرح بما ابتدينا به من مزج الكلام بالكلام، ونستعمل ذلك النمط في المبدأ والختام، لتشمل بركات الناظم ـ قدس الله روحه ـ جميع كلامي، ولأصلي خلفه وهو إمامي، (والحمد لله) ختم الكتاب بآخر دعوى أهل الجنة في دار الثواب، إشارة إلى عظم ما أنعم الله به عليه وعلى أمثاله، مما ذكره في أول الخطبة من نعمة الإيجاد والإمداد، الذي من أعظم مواده نعمة الإسلام، والاتصال بهذا الإسناد، الذي فيوضاته فائضة على ممر الآباد، إذ هو من نور الإيمان الذي بقدره يرجح الميزان، ويكون المرور على الصراط والارتقاء في درجات الجنان، (أتم الحمد) أي أكمله، في مقابل ما أسداه وتفضل به وأولاه، من الكمال الحاصل بهدايته للإيمان، وما ترتب عليه من سوابغ النعم والإحسان، وكل ذلك بمحض الفضل والكرم، فله الحمد على كل مدد، جارٍ في جميع المُدَد، على نعم تترى وتتوالى في الدنيا والأخرى بغير عد، ولا زال لطفه الخفي وجوده الوفي، وعنايته التي لم تزل تجتبي وتصطفي، بنا كثيراً ولنا ظهيراً، ولا زال يزيدنا في كل خير خيراً، ويجعل لنا من لدنه ولياً، ويجعل لنا من لدنه نصيراً، ويهب لنا في الفردوس ملكاً كبيراً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله ورحمته تتضاعف الخيرات والمبرات، وبعنايته ومحبته يبدل السيئات بالحسنات، والحمد لله حمداً كثيراً جزيلاً جميلاً، على ما أولانا به ووفقنا له من إكمال هذا الشرح، والأخذ بعنان قلم تسويده إلى مقاربة الصواب في النقل، وإن لم أكن لما تعرضت له من هذا المقام بأهل، وإنما حملني على ذلك ما ذكرته في أول الخطبة من الأعذار المقبولة عند الأخيار، ونسأله تعالى كما منّ علينا بذلك أن يمنَّ علينا

بقبول ما هنالك، وأن يثبتنا على اعمال السعي في جمعه، وأن يقر عيني بشمول نفعه، ولا يؤاخذنا بما داخله من القصد المعلول والعمل المدخول، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، ومقربا إلى رضاه وجواره في دار النعيم، وأن ينيلنا في الدارين خيره الواسع العميم، إنه جواد كريم رؤوف رحيم، والحمد لله أولاً وآخراً باطناً وظاهراً، وصلى الله على سيدنا ومولانا وحبيبنا وشفيعنا ووسيلتنا إلى ربنا محمد الأمين، وآله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلينا معهم وفيهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

قال جامعه المعترف بالقصور عن بلوغ رتبة الجمع والتأليف، الواثق بكرم مولاه اللطيف، العبد الضعيف، المعتصم بعروته الوثقى، التي من اعتصم بها نجا من عذاب لظى، التي لا يصلاها إلا الأشقى، وسيجنبها الأتقى، الذي لا يُعدُّ له حصناً، ولا يحسب له حرماً وأمناً، غير لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، الفقير إلى الله تعالى، عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن باسودان، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه، وإخوانه ومحبيه وجميع المسلمين: فرغت من جمع هذا الشرح، وما تفضل الله به من العثور على هذا الوضع بوارد الإلهام والفتح، وتمام تحريره وتبييضه، يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر جماد آخر سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف من هجرته ﷺ، وعلى آله وأصحابه وتابعيه وتابعيهم إلى يوم الدين، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وسلام على المرسلين، والحمد ربّ العالمين وكان الفراغ من نساخة هذا المجلد يوم السبت السادس في شهر الحجة الحرام سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة وألف بتريم.

■ ■ ■

فهرس المجلد الرابع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة